

الفرقان والقرآن

قراءة إسلامية معاصرة

ضمن الثوابت العلمية والضوابط المنهجية
وهي مقدمات للتفسير العلمي للقرآن الكريم

تأليف

الشيخ خالد عبد الرحمن العك





جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤١٦ - ١٩٩٦



لِلطَّبَاعَةِ وَالنَّشْرِ

دمشق - سورية - بناء سادكوب - الحلبوني

سجل تجاري ٢٤٩٦٨

هاتف ٢١٢٩٦٧ - ٢٣٠٧٣٨

ص.ب ٧٨٧ - دمشق

ص.ب ٥٧٢٠ / ١١٣ بيروت

الفرقان والقرآن

بسم الله الرحمن الرحيم وبه أستعين

المقدمة :

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ، نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنَسْتَغْفِرُهُ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ أَنْفُسِنَا، وَمِنْ سَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يَضِلَّ فَلَا هَادِيَ لَهُ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ ﷺ.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ، وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران/ ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا، وَبَعَثَ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً، وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ، إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [سورة النساء/ ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ، وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [سورة الأحزاب/ ٧٠-٧١].

أما بعد: «فَإِنَّ أَصْدَقَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرُ الْهَدْيِ هَدْيُ مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُخَدَّنَاتُهَا، وَكُلُّ مُخَدَّنَةٍ بَذْعَةٌ، وَكُلُّ بَذْعَةٍ ضَلَالَةٌ، وَكُلُّ ضَلَالَةٍ فِي النَّارِ». [سنن الترمذي ج ٢/ ١٧ بإسناد صحيح].

هذه أبحاث من هدي الفرقان والقرآن لتمييز الحق عن الباطل، والهدى عن الضلال، في «القراءة المعاصرة» التي اتخذت اتجاهًا جديدًا في فهم القرآن الكريم، وتوجيه معانيه، وتأويل آياته، على أساس جدلي فلسفي، وفي المقابل لهذا الاتجاه هناك «قراءة معاصرة لآيات القرآن العظيم»، ضمن الثوابت العلمية والضوابط المنهجية، قامت لإظهار مافي القرآن العظيم من الحقائق الكونية - إلى جانب الحقائق الدينية فيه؛ من عقيدة وشريعة - كان لابد من بيان الأصالة التي اتسمت بها، والقواعد التي التزمت بها، والأصول التي تمسكت بها، والثوابت التي دارت حولها؛ حتى أتت بأصح النتائج العلمية الرصينة السليمة، وقدمت للأمة أبلغ ما توصل إليه العلم الحديث في الكشف عن الإشارات القرآنية إلى نظام الكون وقوانينه، مما يزيد في إيمان المؤمنين يقيناً على يقينهم، وتصديقاً على تصديقهم، وثباتاً على ثباتهم، وإجلالاً واحتراماً لعلماء هذه

الأمة الذين قدّموا للإسلام كلّ غالٍ ورخيصٍ في سبيلِ خدمتهِ ورعايتهِ، ونشرِ هدايتهِ! .
وعلى التّقيّض من هذا الموقف الأصيل الكريم، كان هناك موقف المعاند المكابر الجاحد، لما في القرآن العظيم من الحقائق العلمية والثّوابت اليقينية، حيث قدّم في «الكتاب والقرآن القراءة المعاصرة» التي أقامها على أسلوب جدلي فلسفي عقيم، غير من خلالها جميع الثّوابت الإسلامية، وحرّف كلّ المعاني القرآنية، وأبطل عامّة المصطلحات الشرعية، حيث جرّد كلّ ذلك عن أصالته، وأعطاه تسميات مبتدعة، ومعانٍ مخترعة؛ فحرّف وزيف، وبدّل وغير، كلّ هذا تحت دعوى المعاصرة، فكانت أبحاثه عامل شكوك واضطراب واختلال وجدل، تُثار حول الآيات القرآنية، والقضايا الإسلامية، والأحكام الشرعية، مع الانتقاص والتّكرار لجميع علماء الأمة الإسلامية قديماً وحديثاً، والظعن فيهم ..

ولو أُتيح لأصحاب «الجدل الفلسفي» عن طريق «القراءة المعاصرة» تغيير الثّوابت في القرآن والإسلام؛ لأمكن تغيير الحقائق حسب الآراء والاتجاهات في كلّ عصر .. وهذا يعني: أن لبقاء الحقائق، وبالتالي لبقاء الوجود .. فلا وجودٌ بلا حقائق!!؟ ..
ولو أُتيح «للمعاصرة» التّكرّر للأصالة؛ فلن يبقى للحياة ضابط ولا رابط .. ولن تستقيم الحياة بدوّن الضوابط والروابط!!؟ ..

فلا بدّ للمتغيّرات من ثوابت تضبطها وتُحكّم سيرها .. كما لا بدّ للمُعاصرة من أصالة تستند إليها لتسيدها وإصلاح شأنها ..

ولو أبطل المسلمون ذلك في علومهم ومعارفهم وثقافتهم؛ لأصبحوا شيئاً آخر .. غير الإسلام!!؟ ..

ولعظيم شأن القرآن الكريم، ولجليل مقام الإسلام الرفيع، يتوجّب علينا نحن المسلمين القيامُ بخدمة ورعاية وصون وحفظ ما في القرآن والإسلام من الحقائق الثّوابت، وذلك على الصّعيدتين: صعيد الإثبات .. وصعيد النّفي ..

فثبت للقرآن والإسلام جميع ثوابتهما التي أجمع على ثبوتها جميع الأمة الإسلامية عبر تاريخها، من غير تحريف ولا تزيف ولا تبديل ولا تعطيل!! ..

وننفي عن القرآن والإسلام جميع ما ألصق بهما من معانٍ زائفة، وتأويلاتٍ محرّفة، واصطلاحاتٍ مبتدعة، وتسمياتٍ مستحدثة، وأن نزهة عن عبث العائشين، وأن نصوّنه عن جدل المُجادلين، لما ثبت عن رسول الله ﷺ أنه قال: «الجدال في القرآن كفر» [صحيح الجامع الصغير].

قَالَ اللهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾
[سورة الفرقان/ ١]، فَسَمَّى الْقُرْآنَ «فُرْقَانًا» لِمَا فِيهِ مِنْ فَارِقٍ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَالْهُدَى
وَالضَّلَالِ!!!..

وَكَمَا حَرَّمَ رَسُولُ اللهِ ﷺ الْجِدَالَ فِي الْقُرْآنِ، كَذَلِكَ حَرَّمَ اللهُ تَعَالَى الْإِصْغَاءَ إِلَى
الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي آيَاتِ اللهِ تَعَالَى أَوْ يَكْفُرُونَ بِهَا أَوْ يَسْتَهْزِئُونَ، فِي سِوَةِ النِّسَاءِ آيَةِ
١٤٠/ يَقُولُ اللهُ تَعَالَى: ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللهِ يُكْفَرُ بِهَا
وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ، إِنَّكُمْ إِذَا مِثْلُهُمْ، إِنََّّ اللهُ
جَامِعُ الْمُتَافِقِينَ وَالْكَافِرِينَ فِي جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾، وَقَالَ سُبْحَانَهُ فِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ
آيَةِ ١٨٠: ﴿... وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

فَلِلْقُرْآنِ جَلَالَتُهُ وَقُدْسِيَّتُهُ، فَيَجِبُ عَلَى جَمِيعِ الْمُسْلِمِينَ عَدَمُ الْإِصْغَاءِ لِأَهْلِ الْجِدَالِ،
فِي الْقُرْآنِ، كَمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ عَدَمُ قِرَاءَةِ كُتُبِهِمْ، أَوْ النَّظَرُ فِي شُبُهَاتِهِمْ الَّتِي يُبَيِّرُونَهَا حَوْلَ
حَقَائِقِ الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، وَمَا يَذْكُرُونَهُ مِنْ نَظَرِيَّاتٍ أُسْطُورِيَّةٍ خَرَافِيَّةٍ، كَالَّتِي زَعَمُوهَا «أَنَّ
البشر كان من المملكة الحيوانية، ثم تطوّر إلى رتبة الإنسان»؟!..

قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: فِيمَا رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي كِتَابِ الْإِعْتَصَامِ، وَمُسْلِمٌ فِي كِتَابِ
الْإِيمَانِ: «مَنْ نَبِيٍّ إِلَّا أُوتِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا عَلَى مِثْلِهِ آمَنَ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْهُ
وَحْيًا أَوْحَاهُ اللهُ إِلَيْهِ، فَارْجُوا أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»!!!.. فَهَذَا الْوَحْيُ هُوَ
الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ
حَمِيدٍ!!!..

نَعَمْ! هَذَا هُوَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ أَخِي الْمُسْلِمَ - بَيْنَ يَدَيْكَ - فَاسْتَمْسِكْ بِهِ، وَآمِنْ بِمَا
فِيهِ، وَاعْمَلْ بِأَوْامِرِهِ، وَاجْتَنِبْ نَوَاهِيهِ، وَتَخَلَّقْ بِأَخْلَاقِهِ، وَصَدِّقْ بِحَقَائِقِهِ، وَسَلِّمْ لَكَ فِيهِ
مَا لَا عِلْمَ لَكَ، وَاتَّبِعْ نُورَهُ، وَسِرْ عَلَى هِدَايَتِهِ، تَكُنْ مِنَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْهِمْ مِنَ
التَّيِّبِينَ، وَالصَّادِقِينَ، وَالشَّاهِدَاءِ وَالصَّالِحِينَ!!!..

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

وقد آتت الأبحاث في «الفرقان والقرآن» في هذا الكتاب ضمن خطة منهجية أخصها فيما يلي:

التمهيد: ويشتمل على الأمور التالية:

- ١ - القراءة في القرآن والفرقان ..
- ٢ - القرآن العظيم: ذلك الكتاب لاريب فيه ..
- ٣ - الإسلام خاتم الأديان، الباقي على الدوام ..
- ٤ - العلم في الإسلام ..
- ٥ - الإسلام ودعوى التطور ..
- ٦ - الأصالة والمعاصرة.
- ٧ - التراث الإسلامي فكرٌ حيٌّ.
- ٨ - الثواب والمتغيرات في دائرة العلوم الإسلامية.
- ٩ - التحذير من خطورة القراءة المعاصرة على منهج الصراع الجدلي الفلسفي.
- ١٠ - قراءة أصولية للمنهج الجدلي الفلسفي.
- ١١ - المنهج العلمي في تفسير آيات الكون والحياة.

المدخل العام إلى خصائص القرآن العظيم

وهو يشتمل على الخصائص الفريدة التالية:

- ١ - إعجاز القرآن العظيم!
- ٢ - وقوع التحدي بالقرآن العظيم!
- ٣ - لغة القرآن البليغة!
- ٤ - نظم القرآن المحكم وأسلوبه العذب!
- ٥ - تأثير القرآن العظيم في نفوس المؤمنين!
- ٦ - معارف القرآن العظيم الشاملة!
- ٧ - وفاء القرآن العظيم بحاجات البشر!
- ٨ - تأييد القرآن العظيم للحقائق العلمية!
- ٩ - سهولة فهم القرآن العظيم مع علو مطالبه!

الفصل الأول

مكانة القرآن العظيم في فصاحته وبلاغته وإعجازه وعظمته

ويشتمل هذا الفصل على الأبحاث التالية :

التمهيد : وجوب إدراك وجوه إعجاز القرآن العظيم .

البحث الأول : فصاحة القرآن العظيم وبلاغته .

البحث الثاني : وجوه إعجاز القرآن العظيم .

البحث الثالث : إعجاز النظم القرآني : جزالته ، وتناسقه .

البحث الرابع : إعجاز الأسلوب القرآني الفريد .

البحث الخامس : عظمة القرآن ووحدته الموضوعية .

البحث السادس : إعجاز القرآن في إيقاظ العقل البشري وتحريره من الضلال .

البحث السابع : أسلوب التحدي في القرآن لإثبات الوحدانية وصدق النبوة .

البحث الثامن : الإعجاز التشريعي للقرآن العظيم .

البحث التاسع : الإعجاز النبي في القرآن العظيم .

الفصل الثاني

المنهج القرآني الفريد في عرض العقيدة وإثبات التوحيد

ويشمل هذا الفصل على الأبحاث التالية:

البحث الأول: منهج القرآن في عرض العقيدة «منهج للفكر ودعوة للتدبر».

البحث الثاني: أهمية عقيدة التوحيد في الدين والحياة.

البحث الثالث: أثر عقيدة التوحيد في حياة الإنسان.

البحث الرابع: الأسلوب الميسر في عرض العقيدة الإسلامية.

البحث الخامس: فهم الإسلام عقيدةً وشريعةً.

البحث السادس: أمثال القرآن الكريم.

البحث السابع: أقسام القرآن الكريم.

البحث الثامن: جدل القرآن الكريم.

البحث التاسع: قصص القرآن الكريم.

الفصل الثالث

تاريخ تفسير القرآن العظيم في مراحله الأولى ومنهج الصحابة فيه

- ويشتمل هذا الفصل على الأبحاث التالية :
- المدخل إلى أبحاث هذا الفصل : بيان القرآن الكريم في صدر الإسلام .
- التمهيد : أهمية التفسير وحاجة المسلمين إليه .
- البحث الأول : تاريخ مراحل تفسير السلف .
- البحث الثاني : القرآن الكريم وتهيب الصحابة في تفسيره .
- البحث الثالث : مصادر تفسير الصحابة للقرآن الكريم .
- البحث الرابع : التفسير والصحابة المفسرون .
- البحث الخامس : منهج ابن عباس في التفسير أنموذج في منهج السلف في التفسير .

الفصل الرابع

مراحل التفسير العلمي والموضوعي القرآن العظيم

وهو يشتمل على الأبحاث التالية:

- البحث الأول: أثر القرآن العظيم في العلوم الكونية.
- البحث الثاني: دعوة القرآن العظيم إلى التّفكّر في الأنفس والآفاق.
- البحث الثالث: التفسير العلمي بين المنهج القديم والمنهج الجديد.
- البحث الرابع: التفسير العلمي في رحاب إعجاز القرآن العلمي.
- البحث الخامس: الآيات الكونية في القرآن العظيم.
- البحث السادس: التعريف بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم.
- البحث السابع: نشأة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.
- البحث الثامن: التفسير الموضوعي بين الماضي والحاضر.
- البحث التاسع: ألوان التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

الفصل الخامس

تاريخ تفسير القرآن العظيم بعد نشوء العلوم المستحدثة والمنقولة إلى كتب التفسير

وهو يشتمل على الأبحاث التالية:

- التمهيد: نبذة تاريخية عن نشوء علم التفسير وتطوره.
- البحث الأول: أثر نشأة الفرق على مسيرة التفسير.
- البحث الثاني: أثر العلوم الفلسفية على مسيرة التفسير.
- البحث الثالث: أثر الفلسفة الصوفية على مسيرة التفسير.
- البحث الرابع: أثر العلوم العقلية على مسيرة التفسير.
- البحث الخامس: أثر منهج الإمام الرّازي في التفسير.
- البحث السادس: أثر منهج الإمام الألوسي في التفسير.
- البحث السابع: تفسير المنار وبيان منهجه وما يؤخذ عليه.
- البحث الثامن: تفسير المراغي وبيان منهجه مع مناقشة بعض تفسيراته.
- البحث التاسع: مناقشة علمية لتفسير الشيخ محمد عبده لسورة «الفيل».
- البحث العاشر: الإعجاز العلمي ودلالته في تفسير القرآن الكريم.
- البحث الحادي عشر: الآيات الكونية في القرآن وسلطان العقل.

الفصل السادس

أثر شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية في علم التفسير وأصوله، وفي الكشف عن تأثير الفلسفة وعلم الكلام على بعض علماء المسلمين

ويشتمل هذا الفصل على الأبحاث التالية:

البحث الأول: قواعد التفسير وأصوله.

البحث الثاني: التأويل والتفسير.

البحث الثالث: حكم تفسير القرآن بالرأي.

البحث الرابع: حكم ترجمة معاني القرآن لغير العرب.

البحث الخامس: أثر علم الكلام على بعض علماء الإسلام.

البحث السادس: لمحات من تاريخ نقض مذاهب الفلاسفة والمتكلمين.

الفصل السابع

أخطار المناهج المنحرفة في تفسير القرآن الكريم

ويشتمل هذا الفصل على الأبحاث التالية:

التمهيد: رعاية الله تعالى لكتابه ولسنة رسوله ﷺ.

البحث الأول: الكشف عن الاتجاهات المنحرفة في التفسير.

البحث الثاني: تطرف المنهج الفلسفي في تفسير الآيات المتشابهات.

البحث الثالث: انحراف المنهج الفلسفي الصوفي في التفسير.

البحث الرابع: انحراف أصحاب المدرسة العقلية الحديثة في تفسير القرآن الكريم:

البحث الخامس: انحراف المتطرفين في التفسير العلمي للقرآن الكريم.

البحث السادس: انحراف مدّعي التجديد في تفسير القرآن الكريم.

البحث السابع: انحراف أصحاب القراءة المعاصرة للقرآن الكريم.

البحث الثامن: معالم الانحراف في فهم القرآن والإسلام.

البحث التاسع: ماذا يعني التجديد في الإسلام.

البحث العاشر: التجديد في الإسلام ضمن الثوابت العلمية والضوابط المنهجية.

البحث الحادي عشر: ثوابت العقيدة الإسلامية عصمة من كلّ ضلال.

فهذه الأبحاث التي بلغت فوق الثمانين! قد جاءت بحمد الله تعالى ضمن دراسة منهجية، وقراءة إسلامية معاصرة، لجميع أنواع التفسير والتأويل، وبيان أقسام الإعجاز القرآني، وغير ذلك مما هو داخل في علوم القرآن الكريم؛ لتكون الميزان والمقياس لجميع الدراسات والأبحاث عن أي وجه من أوجه التفسير والتأويل؛ لبيان وجوه الخطر في «القراءة المعاصرة للكتاب والقرآن» التي خرجت عن جميع الثوابت العلمية والضوابط المنهجية في الإسلام. نسأل الله تعالى الحفاظ والسلامة من كل انحراف عن منهج الحق والصراط المستقيم، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

الشيخ خالد عبد الرحمن العك
غفر الله تعالى له ولوالديه ولجميع المسلمين

دمشق في ١٥ شعبان/١٤١٣هـ.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الْقِرَاءَةُ فِي الْقُرْآنِ وَالْفُرْقَانِ:

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قُرَأَتْهُ فَأَتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ [القيامة/١٧-١٩].

﴿وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ بِالْحَقِّ نَزْلًا وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا مُبَشِّرًا وَنَذِيرًا. وَقُرْآنًا قُرْآنًا لِّتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا﴾ [الإسراء/١٠٥-١٠٦].

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل/٩٨].

﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [الأعراف/٢٠٤].

قَالَ فِي لِسَانِ الْعَرَبِ [ج/١٢٨-١٢٩]:

«الْقُرْآنُ: التَّنْزِيلُ، قَرَأَهُ يَقْرُؤُهُ، قَرَأَ وَقِرَاءَةً وَقُرْآنًا، فَهُوَ مَقْرُوءٌ. وَيُسَمَّى كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي أَنْزَلَهُ عَلَى نَبِيِّهِ ﷺ: كِتَابًا وَقُرْآنًا وَقُرْآنًا. وَمَعْنَى الْقُرْآنِ مَعْنَى الْجَمْعِ، وَسَمِّيَ قُرْآنًا لِأَنَّهُ يَجْمَعُ الشُّوَرَ فَيُضَمُّهَا. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ أَيِ جَمْعَهُ وَقِرَاءَتَهُ ﴿فَإِذَا قُرَأَتْهُ فَأَتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ أَيِ قِرَاءَتِهِ. قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ: فَإِذَا بَيَّنَّا لَكَ بِالْقِرَاءَةِ، فَأَعْمَلْ بِمَا بَيَّنَّا لَكَ.

قَالَ ابْنُ الْأَثِيرِ: تَكَرَّرَ فِي الْحَدِيثِ ذِكْرُ الْقِرَاءَةِ وَالْاِقْرَاءِ وَالْقَارِئِ وَالْقُرْآنِ. وَالْأَصْلُ فِي هَذِهِ اللَّفْظَةِ الْجَمْعُ، وَكُلُّ شَيْءٍ جَمَعْتَهُ فَقَدْ قُرَأْتُهُ. وَسَمِيَ الْقُرْآنُ [قُرْآنًا] لِأَنَّهُ جَمَعَ الْقِصَصَ وَالْأَمْرَ وَالنَّهْيَ وَالْوَعْدَ وَالْوَعِيدَ، وَالْآيَاتِ وَالشُّوَرِ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ. وَقَدْ خُصَّ لَفْظُ «الْقُرْآنِ» بِالْكِتَابِ الْمُنَزَّلِ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَصَارَ كَالْعِلْمِ، كَمَا أَنَّ التَّوْرَةَ لِمَا أَنْزَلَ عَلَى مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَالْإِنْجِيلَ عَلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ. وَتَسْمِيَةُ «الْكِتَابِ» قُرْآنًا مِنْ بَيْنِ كُتُبِ اللَّهِ لِكَوْنِهِ جَامِعًا لِمَعْرَةِ كُتُبِهِ؛ بَلْ لَجَمْعِهِ ثَمَرَةً جَمِيعِ الْعُلُومِ، كَمَا فِي قَوْلِ اللَّهِ تَعَالَى: ﴿... وَتَقْصِصْ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [يوسف/١١١]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿... نَبِّئَانَا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل/٨٩].

وَالْقِرَاءَةُ: ضَمُّ الْحُرُوفِ وَالْكَلِمَاتِ بَعْضُهَا إِلَى بَعْضٍ فِي التَّنْزِيلِ. وَالْقِرَاءَةُ: الْبَحْثُ

والدِّرَاسَةُ، ومنه: تَقْرَأُهُ تفهمته. وَقَارَأْتُهُ: دَارَسْتُهُ.

وقال في لِسَانِ الْعَرَبِ [ج ١٠/ ٣٠٢-٣٠٣]:

«الْفُرْقَانُ: الْقُرْآنُ. وَكُلُّ مَا فَرَّقَ بِهِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ؛ فَهُوَ فُرْقَانٌ، وَلِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ﴾.. وَالْفُرْقَانُ: مِنْ أَسْمَاءِ الْقُرْآنِ: أَيْ أَنَّهُ فَارَقَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ وَالْحَلَالِ وَالْحَرَامِ. وَالْفُرْقَانُ: الْحُجَّةُ. وَالْفُرْقَانُ: النَّصْرُ، وَفِي التَّنْزِيلِ: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ﴾ وَهُوَ يَوْمُ بَدْرٍ؛ لِأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَظْهَرَ مِنْ نَصْرِهِ مَا كَانَ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ. وَالْفُرْقَانُ: التَّوْرَةُ؛ عَنَى بِهِ أَنَّهُ يُفَرِّقُ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ. [وَجَمِيعُ كُتُبِ اللَّهِ تَعَالَى فُرْقَانٌ] لِأَنَّهُ تَعَالَى فَرَّقَ بِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهَا بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ».

وَالْفُرْقَانُ: اسْمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ [رَقْمُهَا ٢٥٥]، تَمَيَّزَتْ بِمِيزَاتٍ عَظِيمَةٍ مِنْهَا: تَوْضِيحُ الْفَارِقِ بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَبَيْنَ الْخَيْرِ وَالشَّرِّ، وَبَيْنَ مَا هُوَ إِسْلَامٌ لِلَّهِ تَعَالَى وَخُضُوعٌ لِأَمْرِهِ وَنَهْيِهِ، وَبَيْنَ مَا هُوَ عِنَاةٌ وَتَكَبُّرٌ عَنْ اتِّبَاعِ سَبِيلِ اللَّهِ الْقَوِيمِ فِي أُمُورِ هَذِهِ الدُّنْيَا.

فَوَرُودُهَا فِي قَضَايَا الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ إِبْرَازٌ لِلْحَدِّ الْحَاسِمِ بَيْنَ كُلِّ مَا هُوَ حَقٌّ، وَكُلِّ مَا هُوَ بَاطِلٌ!! وَلَهَا دَلَالَةٌ أَكْبَرُ مِنْ ذَلِكَ، فَهِيَ تَعْنِي قُوَّةَ هَذَا التَّفْرِيقِ، وَشِدَّةَ هَذَا الْفَضْلِ: بَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، فَيُظْهِرُ الْحَقُّ بَقْوَتَهُ وَسُلْطَانَهُ وَحُجَّتَهُ وَبُرْهَانَهُ!! وَيُظْهِرُ الْبَاطِلُ بَزْيِفَهُ وَتَزْوِيرَهُ وَبُهْتَانَهُ!! هَذَا هُوَ الْمَفْهُومُ مِنْ كَلِمَةِ «الْفُرْقَانِ» فِي «الْقُرْآنِ»!!!.

ولِهَذَا قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي أَوَّلِ سُورَةِ «الْفُرْقَانِ»: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾!!!.

وَعَلَى هَذَا تَقُومُ الدِّرَاسَاتُ الْقُرْآنِيَّةُ وَاسْتِقْرَاءُهَا الْيَكِينِيَّةُ فِي الْبَحْثِ وَالتَّفْصِيلِ فِي جَمِيعِ قَضَايَاهَا الْكُلِّيَّةِ وَالْجُزْئِيَّةِ، وَالْعَامَّةِ وَالْخَاصَّةِ، وَالْأَصْلِيَّةِ وَالْفُرْعَانِيَّةِ. وَهَذَا الْفُرْقَانُ: هُوَ جَمِيعُ الثَّوَابِتِ وَكَافَّةُ الصُّوَابِ الَّتِي يَقُومُ عَلَيْهَا الْإِسْلَامُ؛ فَهُوَ الْقَائِدُ فِيهَا، وَالْمُوجِّهُ لَهَا! وَهُوَ الْمِيزَانُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي تُوزَنُ فِيهِ كُلُّ الْقَضَايَا وَالْإِعْتِبَارَاتِ، وَالْأَفْكَارِ وَالنَّظَرِيَّاتِ، وَالْآرَاءِ وَالْاجْتِهَادَاتِ!!!.

وَهُنَا تَأْتِي مَعَنَا الْقَرَأَاتُ الْهَادِفَةُ حَوْلَ أَهَمِّ قَضَايَا الْعَصْرِ فِي: الْقُرْآنِ، وَالْإِسْلَامِ، وَالْأَصَالَةِ، وَالثَّوَابِتِ، وَالْمُتَغَيِّرَاتِ، وَالْمِنْهَجِ الْعِلْمِيِّ فِي تَفْسِيرِ آيَاتِ الْكُونِ وَالْحَيَاةِ، ثُمَّ النَّظَرِ فِي جَدَلِ أَهْلِ الْبَاطِلِ فِي آيَاتِ الْقُرْآنِ.

وهذا تمهيدٌ لفصولِ هذا الكتابِ وأبحاثِهِ...

القرآن العظيم: ذلك الكتاب لا ريب فيه!!

١ - القرآن العظيم: خَاتَمُ الْكُتُبِ السَّمَاوِيَّةِ الْمُنَزَّلَةِ بِالرُّوحِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَلَى الْأَنْبِيَاءِ وَالْمُرْسَلِينَ، أَنْزَلَهُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى عَلَى عَبْدِهِ وَرَسُولِهِ «مُحَمَّدِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ» مَنَجَّمًا عَلَى ثَلَاثٍ وَعِشْرِينَ سَنَةً، ابْتِدَاءً بِآيَةِ «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ» وَانْتِهَاءً بِآيَةِ «الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ» . وهو المعجزة الباقية الدائمة على مدى الدهور، فقد تحدّى الله تبارك وتعالى الْعَرَبَ وَالْعَالَمِينَ جَمِيعًا بِأَن يَأْتُوا بِمِثْلِهِ فَعَجَزُوا، ثُمَّ تَحَدَاهُمْ بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ، فَعَجَزُوا، ثُمَّ تَحَدَاهُمْ بِسُورَةٍ وَاحِدَةٍ مِثْلِهِ، فَعَجَزُوا عَنْ ذَلِكَ كُلِّ الْعَجْزِ!! وَمَا زَالَ التَّحَدِّيُّ بِهِ قَائِمًا!! وَسَيُظَلُّ دَائِمًا أَبَدَ الدَّهْرِ!!..

وهذا القرآنُ مُنَزَّلٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ بِلَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ، وَلَيْسَ مِنْ كَلَامِ النَّبِيِّ ﷺ فِي شَيْءٍ، وَبِرَهَانِ ذَلِكَ قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى: «وَإِنَّهُ لَنَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ. نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ، بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ» [الشعراء/١٩٥].

وَيَتَمَيَّزُ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ بِذَاتِيَّةٍ خَاصَّةٍ فِي نَظْمِهِ وَمَنْهَجِهِ وَذَلَالَاتِهِ وَمَعَانِيهِ!! فَلَا شَيْءَ فِي كُتُبِ أَهْلِ الْأَرْضِ تُمَازِلُهُ أَوْ تُضَاهِيهِ فِي أَيِّ شَيْءٍ فِي خِصَائِصِهِ أَوْ إِعْجَازِهِ!!..

ولقد تكفّلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى بِبَيَانِهِ وَحِفْظِهِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: «ثُمَّ إِنْ عَلَيْنَا بَيَانَهُ» [القيامة/١٩]، وَقَالَ سُبْحَانَهُ: «إِنَّا نَحْنُ نَزَّلُ الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ» [الحجر/٩]، وَهُوَ خَاتَمُ الْكُتُبِ الْإِلَهِيَّةِ، وَالْمَهْمُومِ عَلَيْهَا، يَشْهَدُ لَهَا بِالصَّحَّةِ وَالثَّبَاتِ فِيمَا كَانَتْ عَلَيْهِ فِي عُهْدِهَا الْأَوَّلِيِّ، وَيُقِيمُ الْحُجَّةَ فِي إِنْكَارِ مَا تَحَرَّفَ مِنْهَا أَوْ تَبَدَّلَ، فَلَا تَغْيِبُ عَنْهُ أَصُولُهَا وَلَا فُرُوعُهَا!!..

٢ - لقد جَدَّدَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ دَعْوَةَ الرِّسَالَاتِ وَالنُّبُوءَاتِ فِي أَصُولِهَا، بِاعْتِبَارِهَا جَمِيعًا مِنْ مَشْكَاتٍ وَاحِدَةٍ، تَدْعُو إِلَى تَوْحِيدِ اللَّهِ تَعَالَى فِي الْوُحَيْيَةِ: أَنْ لَا مَعْبُودَ بَحَقٍّ إِلَّا اللَّهُ تَعَالَى وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ!!..

فَكَانَ هَذَا التَّجْدِيدُ مُسْتَرَفًا لِلأُمَّةِ الَّتِي حَمَلَتْ رِسَالَتَهُ، وَرَافِعًا لِشَأْنِهَا، وَحَافِظًا لِكِرَامَتِهَا، وَمُبَيِّنًا لِدَعَائِمِهَا، وَسَبِّدًا لِمَسِيرَتِهَا، وَمُوجِّهًا لِانْطِلَاقَتِهَا!!..

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِيمَا رَوَاهُ الشَّيْخَانُ فِي صَحِيحَيْهِمَا [البخاري/٤٩٨١/ ومسلم/٢٣٩] مِنْ رِوَايَةِ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ - «يَأْمِنُ الْأَنْبِيَاءُ مِنْ نَبِيِّ إِلَّا قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الْآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَخِيَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيَّ، فَارْجُوا أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ»!!..

فهذا الوحي الذي أوتيهِ رسولُ الله ﷺ: هو كتابُ الله تبارَكَ وتعالى فيه نَبَأُ مَنْ قَبْلَكُمْ، وخَيْرٌ مَنْ بَعْدَكُمْ، وَحَكْمٌ مَابَيْنَكُمْ، هُوَ الْفَضْلُ لَيْسَ بِالْهَزْلِ، مَنْ تَرَكَهُ مِنْ جَبَّارٍ قَصَمَهُ اللهُ، وَمَنْ ابْتَغَى الْهُدَى فِي غَيْرِهِ أَضَلَّهُ اللهُ، فهو حَبْلُ اللهِ الْمَتِينِ، وَنُورُهُ الْمُبِينُ، وَالذِّكْرُ الْحَكِيمُ، وهو الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ، وهو الذي لَا تَزِيغُ بِهِ الْأَهْوَاءُ، وَلَا تَلْتَبِسُ بِهِ الْأَلْسَنَةُ، وَلَا تَشْعَبُ مَعَهُ الْأَرَاءُ، وَلَا يَشِيعُ مِنْهُ الْعِلْمَاءُ، وَلَا يَخْلُقُ مِنْ كَثَرَةِ الرَّذِّ، وَلَا تَنْقُضِي عَجَائِظُهُ، وهو الَّذِي لَمْ تَنْتَهِ الْجَنُّ أَنْ سَمِعَتْهُ أَنْ قَالُوا: ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾ [سورة الجن/ ١-٢]، مَنْ عَلِمَ بِهِ سَبَقَ، وَمَنْ قَالَ بِهِ صَدَقَ، وَمَنْ حَكَمَ بِهِ عَدَلَ، وَمَنْ عَمِلَ بِهِ أَجَرَ، وَمَنْ دَعَا إِلَيْهِ هَدَى إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ!!

فالقرآن العظيم بهذا المفهوم العميق، والدلالات الواضحة، كَانَ وَلَازَالٌ وَسِيْقَى المعجزة الخالدة الدائمة في اللَّفْظِ وَالْمَضْمُونِ، فقد كانت معجزات الأنبياء السابقين متفوقة عالية على تحديات عصورهم وأممهم... أمّا القرآن فهو معجزة خاتَمَ الأنبياء والمرسلين المتفوقة العالية الشامية الخالدة الباقية القائمة على البشرية وعلى العالمين!! على مَرِّ الْعُصُورِ وَكَرَّرِ الدُّهُورِ!!

٣ - وإعجازُ القرآن العظيم: يَكَانِي وَعِلْمِي، ولقد تَوَالَى ذلك على تَوَالِي الْأَجْيَالِ، حيث كَانَ الشُّغْلُ الشَّاعِلُ لِعُقُولِ الْعُلَمَاءِ وَالْمُفَكِّرِينَ وَالبَّاحِثِينَ، فِي جَمِيعِ الدَّلَالَاتِ الْعِلْمِيَّةِ، وَالْمُسْتَجِدَّاتِ الْعَصْرِيَّةِ، فَكَانَ وَلَازَالٌ السَّابِقَ الْمُتَقَدِّمَ أَمَامَ جَمِيعِ الْحَقَائِقِ الْكُونِيَّةِ، وَلِهَذَا فِيهَا الرِّيَادَةُ وَالْقِيَادَةُ، حيث يَضَعُ «العلم» فِي مُقَدِّمَةِ أُمُورِ الْحَيَاةِ، فَلَبِغْتَ آيَاتُهُ فِي «مَادَّةِ الْعِلْمِ وَمُسْتَقَاتِهِ» فِي ثَمَانِمِائَةٍ وَسَبْعِينَ/ ٨٧٠ آيَةً!!

والعلمُ الَّذِي يُرْسَخُ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ دَعَائِمُهُ: هُوَ الْعِلْمُ بِمَفْهُومِهِ الشَّامِلِ التَّامِّ الْكَامِلِ الَّذِي يَنْتَظِمُ تَحْتَهُ كُلُّ مَا يَتَّصِلُ بِالْحَيَاةِ... فَقَدْ دَعَا إِلَى النَّظَرِ فِي الْكُونِ لِاسْتِكْشَافِ كَائِنَاتِهِ، وَلِلتَّعَرُّفِ عَلَى أَنْظُمَتِهِ وَقَوَائِمِهِ... فهو بهذا يَمْلِكُ الرِّيَادَةَ وَالْقِيَادَةَ فِي الْكُونِ وَالْحَيَاةِ!!

ولهذا نَجَدُ الْقُرْآنَ الْعَظِيمَ يَفْتَحُ آفَاقَ الْبَحْثِ وَالِاسْتِكْشَافِ أَمَامَ أَصْحَابِ الْمُؤَهَّلَاتِ الْعِلْمِيَّةِ، ضَمَنَ الْكَوَائِبِ وَالضُّوَابِطِ الَّتِي دَلَّ عَلَيْهَا، كَمَا نَجَدُهُ يُغْلِقُ الْمَنَافِدَ أَمَامَ أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ مِنَ الْعَابِثِينَ وَالْمَارِقِينَ... ولهذا حَذَّرَهُمْ أَشَدَّ التَّحْذِيرِ فِي تَمَادِيهِمْ فِي تَأْوِيلِ آيَاتِهِ تَأْوِيلًا لَا يَحْتَمِلُهُ نَظْمُهُ وَلَا تَشِيرُ إِلَيْهِ دَلَالَاتُهُ وَلَا يَتَّقَى مَعَ هِدَايَتِهِ، وَجَعَلَهُ مِنْ «تَحْرِيفِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ»، وَلَقَدْ جَعَلَ اللهُ سُبْحَانَهُ شَتَّةَ رَسُولِهِ ﷺ الضَّابِطَ لِبَيَانِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، فَكُلُّ نَهْجٍ يُخَالِفُ شَتَّةَ رَسُولِهِ ﷺ فهو بَاطِلٌ مَرْدُودٌ وَمَرْفُوضٌ...

٤ - للقرآن العظيم أسلوبه الخاص ونهجه المتميز في الدعوة والإقناع، فله في مخاطبة الفطرة طريقة مُحَكِّمَةٌ فائقة التأثير، فإذا وَجَّهَ خطابهُ للعقل قَدِمَ إليه الدليل والبرهان فيما يدعوه إليه، وإذا وَجَّهَ خطابهُ للقلب قَدِمَ إليه اليقين والسكينة والطمأنينة، وهو في جميع ذلك بعيدٌ كلَّ البُعدِ عن التعقيد، فأسلوبه سهلٌ ممتنعٌ، وبراهينه مألوفةٌ للعقول، وحججه قريبةٌ للنفوس، وآياته محييةٌ للقلوب!!..

كما له أسلوبه الفريد في الترغيب والترهيب، فرغَّبَ الطَّائِعِينَ فيما أعدَّه الله تعالى لهم في دار النعيم، كما رَهَّبَ الفاسقين والظالمين والكافرين بما أعدَّه الله تعالى لهم في دار الجحيم.

٥ - كما كان للقرآن العظيم في أولِ عهدهِ النزولِ منجماً، ممَّا ترك في نفوسِ سلفِ هذه الأمة من آثارِ اليقين والثقة والثبات، ممَّا جعل قُرْنَهُمْ خيرَ القُرُونِ!!..

ولارِيبَ أنَّ أسلوبَ الاقناع أقوى وأرسخُ في حالاتِ المناسباتِ ومستجداتِ الأحداثِ، ممَّا لولم يكن نزولُ القرآن الكريم مفرقاً في مناسباتها، فإنَّ التعليمَ والتوجيهَ والإرشادَ على مراحلٍ أوقع في النفوس وأيسرُ عليها، من أن يكون جملةً واحدةً.

وهذا ماغَدَّت عليه الدعوة الإسلامية في مراحلها في تأصيل الإسلام في شعوب الأرض وأممها، وهذه طريقةٌ مباركةٌ نافعةٌ مؤثرة في كلِّ زمانٍ ومكانٍ!!..

٦ - إنَّ عظمةَ القرآن العظيم تتجلَّى في جميع حقائقه، فكلَّمَا توسَّعت معارفنا بها ازدَدْنَا يقيناً ورسوخاً فيها، ولهذا كان الواجبُ على جميع المسلمين دائماً وأبداً التزوّد منها، فهي الأصلُ لجميع حقائق الحياة وما فيها!!..

ولقد كان أصلُ القواعد التي أمسكت العالم الإسلامي من أن ينهار أمام زلازل الفتن وأهوال الانقسامات وفظائع التجزئات التي مُني بها - وعلى الأخص ماحدث بعد القضاء على الخلافة العثمانية - بقاء حقائق القرآن العظيم والسنة المطهرة، حيث كان بقاء الإسلام ببقائها، ورسوخه برسوخها، وديمومته بأبديتها، حتَّى يرث الله الأرض وما عليها!!..

٧ - ولقد واجه القرآن العظيم - في الآونة الأخيرة - حملةً مسعورةً، يحمل لواءها المستشرقون، والمبشرون، والمتخرِّجون على أيديهم، من أصحاب الفلسفات المعاصرة، والحركات المشبوهة، والدعوات المغرضة، التي تسترُّ بستار التدين والتعبد والترهد، وعلى الأخص أصحاب القراءة المعاصرة، الذين يُثيرون الشبهات ويغرسون الشكوك في دراساتهم عن القرآن والإسلام، حيث شَحَنُوها بآلاف الأغاليط المنطقية السفسطائية،

بغية تغيير المعالم الإسلامية، وتطوير المفاهيم القرآنية، وتحديث المصطلحات الشرعية، فكانت جميعها تبوء بالفشل وخيبة الأمل!!..

ويبقى القرآن العظيم قائماً بالتحدي في ثبات نصّه وسلامة آياته وصحة معانيه، مهما حاول أهل الشبهات من الكيد والدس والتأويل الباطل..

الإسلام خاتم الأديان الباقى على الدوام

١ - الإسلام: هو دين رب العالمين، أوحى به من عنده إلى عبده ورسوله ﷺ، وجعل شعاره التوحيد الخالص، فيقوم الإسلام على توحيد الله تعالى في ربوبيته وألوهيته وفي أسمائه وصفاته.

٢ - والتوحيد هو: الإيمان بأن الله تعالى رب كل شيء ومليكه، وأنه الخالق وحده، والمدبر له وحده، فلا شريك له فيه ولا معين. وأنه تبارك وتعالى هو الإله المعبود، وهو المستحق للعبادة والتأليه وحده لا شريك له، وأنه سبحانه المتصف بصفات الكمال ونعوت الجلال، وله الأسماء الحُسنى.

٣ - ولقد أتى بيان هذا التوحيد في منهج الكتاب العزيز والسنة النبوية المطهرة؛ ففي إثبات توحيد الربوبية أقام سبحانه الحجة في إثبات توحيد ألوهيته، فمن كان خالقاً كان وحده المستحق للالهية والعبادة، ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَاوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ؟ سَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾ [المؤمنون/٨٦]، ﴿وَلَيْتَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ؟ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [الزخرف/٨٧]، ﴿وَلَيْتَن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ؟ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ﴾ [الزخرف/٩]، فإذا كانت جميع الفطر تُقرُّ بوحداية ربوبيته؛ بأن لا خالق لهم وللكون والحياة إلا الله، كان لازم ذلك الإقرار بوحداية ألوهيته، فلا يعبدون إلا الله ولا يطيعون إلا الله ولا يخشون إلا الله. فتوحيد الربوبية لازم توحيد الألوهية، وتوحيد الألوهية متضمن لتوحيد الربوبية؛ بمعنى أن من كان مستحقاً للعبادة والتأليه كان هو الرب الخالق سبحانه وتعالى.

٤ - وتوحيد الألوهية: إفراؤ الله تعالى وخدة بالعبادة والطاعة، وهذا ماجاء به

رُسِّلَ اللهُ تعالى جميعاً، قال الله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ﴾ [الأنبياء/ ٢٥]، ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل/ ٣٦]، وهذا مادعاً إليه رسولُ الله ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ﴾ [البقرة/ ٢١].

٥ - وهذا ماتوجهت إليه دعوته ﷺ إلى توحيد الله تعالى في العبادة والطاعة، والمحبة والرجاء والخوف منه سبحانه وتعالى، وهذا أكملُّ صورِ توحيدِ الله تعالى، فلا أحدٌ يستحقُّ العبادة بحقٍّ إلا الله تعالى، وكذا لا أحدٌ يستحقُّ الطاعة بحقٍّ إلا الله تعالى، ولا أحدٌ يستحقُّ المحبة بحقٍّ إلا الله تعالى، وكذا لا أحدٌ يستحقُّ أن يُرتجى وأن يُخاف منه بحقٍّ إلا الله تعالى. فهذا هو التوحيد التامُّ الكامل ١١.

٦ - وهذا التوحيد هو توحيد جميع الأنبياء والمرسلين، قال الله تعالى فيهم: ﴿يَذْعُرُونَ زَعْجًا وَرَهَبًا وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء/ ٩٠]، وهم القدوة الصالحة والأسوة الحسنة في ذلك، قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾ [الأنبياء/ ٧٣]، فائتبت الله تعالى لهم العبادة بأنواعها: المحبة، والرجاء، والخوف، وفعل الخيرات، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، والخشية له سبحانه وتعالى.

٧ - والطاعة لا تكون إلا بالانقياد والخضوع لله المعبود سبحانه وتعالى، وذلك يستلزم اتباع الكتاب والسنة، فمن كانت طاعته على غير هديهما كانت وهماً لاحقيقة لها، فالله سبحانه لا يرضيه إلا ما شرعهُ لنا في كتابه الحكيم وفي سنة رسوله الكريم ﷺ.

٨ - وأما توحيد الله تعالى في أسمائه وصفاته: فهو اعتقادُ أن الله وَصَفَ نفسهُ بصفات الكمال، وسمى نفسهُ بأسماء الجلال؛ فثبت له سبحانه من الصفات ما أثبتته لنفسه في كتابه وسنة رسوله، وأن ننزهه عما نفاه سبحانه عن نفسه ونفاه عنه رسوله ﷺ.

٩ - فتوحيد الله تعالى في صفاته وأسمائه: هو إثبات ما ثبت في القرآن والسنة من الأسماء والصفات، من غير تشبيه ولا تمثيل ولا تأويل ولا تعطيل، فمجمل هذا: إثبات للصفات بلا كيف، وتنزيه للذات بلا تعطيل، قال الله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى/ ١١].

١٠ - فالإسلام يقوم على توحيد الله تعالى، والإيمان بجميع الأنبياء والمرسلين،

والكتب المنزلة السابقة، والإيمان بالملائكة، وباليوم الآخر، وماعد الله تعالى فيه لأهل طاعته من النعيم المقيم، وماعدته فيه لأعدائه من العذاب المقيم في الجحيم.

١١- وقد جاء الإسلام ديناً عالمياً للبشر جميعاً، وجعل أساس الرابطة بين الخلق وخالقهم التوحيد الخالص، والاتصال المباشر، فلا شركاء ولا وسطاء ولا دُخلاء. كما جاءت دعوته جامعة بين الدّين والدّنيا، وواصلت بين العقل والقلب، وبين الرّوح والمادّة، مستهدفة إقامة منهج ربّانيّ وأسلوب إنسانيّ!!..

١٢- وقد جمع الإسلام بين العقيدة والعبادة، وبين التوجيه والطاعة، وبين الشريعة والأخلاق، ثم ربط الكلّ بالإيمان بالله تعالى، فجعل الإيمان بضماً وسبعين شعبة، أعلاها قول لا إله إلا الله، وأذناها إمطة الأذى عن الطريق.

ومن أبرز الدلائل على عالمية الإسلام واستحقاقه للبقاء والانتشار:

١ - تطابق جميع الفطر الإنسانية مع هديه وتوجيهه وإرشاده، واستجابتها لأحكامه وشريعته.

٢ - قدرته على قيادة الحياة وتوجيه البشرية نحو السعادة والأمن والاستقرار.

٣ - طابعه الإنساني في الإخاء البشري، فيما بين أفراد الشعوب، عدا تأسيسه لأخوة الإيمان بين جميع المؤمنين عربهم وعجمهم، وأبيضهم وأسودهم، وغنيهم وفقيرهم، وقويهم وضعيفهم.

١٣- ويقوم مفهوم الإسلام أساساً على تحرير الإنسان من جميع القيود الاستعبادية الوثنية منها والطاغوتية، وإطلاقه باتجاه العبودية لخالق الكون والحياة، فهو يُحرّر البشرية من جميع العوائق الضارة بمصالحها ومنافعها. فهو بهذا منهج حياةٍ وتقدّم ورفقٍ مستمرّ.

١٤- وتقوم شريعة الإسلام على أسس تطبيقية مُلزِمة للفرد والمجتمع، فلا إفراط فيه بالفرد من أجل المجتمع، ولا تفريط بالمجتمع من أجل الفرد، فجميع أحكامه متكاملة في نظام متنسق وتوازن جامع!!..

١٥- ولقد أحدث الإسلام رقيّاً عظيماً في إطلاقه للعقل من قيود الأوهام والخرافات، حين زوّدة بعقيدة صحيحة قوية راسخة، وجعله يؤمن عن يقين بحياة وراء هذه الحياة فيها السعادة الكاملة والعدل المطلق والتعيم المقيم والهناء الأبدي بلا انقطاع ولا فناء ولا امتناع ولا انتقاص!!..

١٦- كما فتح الإسلام أبواب المعرفة، وأعلى شأن العلم والعلماء، وجعل العلم

يُزَكُّوْا بِالْإِنْفَاقِ وَيُزْهِدُهُم بِالْعَطَاءِ، وَقَدْ أَخَذَ اللهُ تَعَالَى الْمِيثَاقَ عَلَى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ أَنَّ يُسَبِّحُوهُ
لِلنَّاسِ وَلَا يَكْتُمُوهُ.

١٧- وفي الإسلام يلتقي الدِّينُ والعلم الحديث، حيث جاء منطلقه من دعوة الله تعالى في القرآن العظيم إلى النَّظَرِ في الكون، لاستكشاف كائناته، وللتَّعَرُّفِ على أنظمتها وقوانينها. كما دَعَا الإسلام جميع المسلمين إلى استخدام حواسِّهم الظَّاهِرة والباطنة في التَّأمُّلِ في الكائنات، والتَّنْقِيبِ عن أسرارها حسب القدرة الفكرية، وهذه دعوة إلى إعمال جميع العقول وإطلاقها من قيود التَّقليد والتَّبعية، وبعثها من رقود الجمود والتعطيل.

١٨- وقد دَعَا الإسلامُ إلى منهج جامع بين العقل والوحي [النقل]، وجعلَ النقلَ الصحيح نبراساً للعقل الصريح، كما جعلَ العقلَ أساسَ التكليف، وأقام للبحث قاعدة راسخة؛ هي الدليل والتجربة، وأطلق حُرِّيَّةَ البحث في الكون، وحث على تسخير ما فيه من طاقات.

١٩- كما جعلَ التَّمَسُّكَ بالدِّليل أساسَ الدِّين، وحرَّمَ التقليد الأعمى والتَّبعية العمياء، وجعلَ للمجتهد المصيب أجرين، وللمجتهد المخطئ أجرًا واحدًا على اجتهداده، وطلب منه الرجوعَ عما أخطأ فيه.

٢٠- كما وَفَّقَ الإسلامُ بين سلطة الحاكم وحرية الرعية، وجعلهما متكاملين، وربطهما بضوابطه الثابتة حتى لا يُفْسِدَ أحدهما الآخرَ، ولا يَطغَى هذا على هذا... ولا يُقْصِرُ هذا في حقِّ هذا.

٢١- كما وضع نظاماً اقتصادياً محكماً ومتيناً، وشجَّعَ على تشجيع المال في مجالات التجارة والزراعة والصناعة، ووضع أنواعاً متعدِّدة في مجال الشركة، والمزارعة والمصانة، وضبط عمليات التَّبايع والتَّاجير، وتبادل المنافع، ومنع منعاً محكماً لجميع وسائل الاستغلال الربوي، وغيره من الغش والاحتكار، وأعلنَ حمايَته للملكية الفردية، ودَعَا إلى توجيهها بالتعاون والتَّضامن بين الغني والفقير، بعد فرض نظام الزكاة، وتوزيع الزكاة على مستحقِّيها، وكما رَغِبَ في التَّوسُّع في أداء الصَّدقات، وجعل من الكفارات وسائل للإنفاق والإطعام للفقراء والمساكين، وسنَّ الأضاحي والمناسك في الذبائح للتوسعة عليهم...

٢٢- وحدَّدَ معالمَ علاقة الرجل بالمرأة، وضبط ذلك بأداب الاحتشام والحياء، وجعل الرابطة الزوجية حياةً مباركةً سويةً، وسوى المرأة في المسؤولية والحقوق

والواجبات في موازنة ذلك عند الرجل، وجعل للرجال على النساء درجة. وجعل الجميع أفراد المجتمع، فهو منهم وهم إليه، فالفرد يرعى مصالح المجتمع، والمجتمع يرعى مصالح الفرد بلافرق. وفرض الإسلام على الدولة كفالة العاجزين والضعفاء والمحرومين.

٢٣- وجعل الرقابة على أفراد المجتمع تخضع لأحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وليس لأحد تتبع عورات المسلمين، وأن الرقابة لاتأتي من شخص لشخص، وإنما هي رقابة الإنسان لربه عز وجل.

٢٤- ولقد أقر الإسلام بالزهد وجعل له مفهوماً متميزاً عما عند الفلاسفة والرهبان، فليس الزهد تحريم الطيبات، وترك الدنيا والإعراض عن الزوجات، بل الزهد عن المكروهات والمحرمات. والزهادة السليمة هو أن تزهد عما في أيدي الناس، كما أنه عما يلهيك عن عبادة الله تعالى وطاعته.

٢٥- وجعل الإسلام لكل عمل أمر به أو رغب فيه أجراً، ولكل أجر جزاء، وجعل الجزاء رضوان الله تعالى في دار كرامته في جنة الخلد التي وعد الرحمن عباده بالغيب!! كما قال الله تعالى في سورة المائدة آية ٩: ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ﴾! فلا عداة للدنيا، ولا تكالب عليها، ولا تعطيل لما كرم الله به الإنسان من قوى التفكير والإرادة والعمل، وجعل حفظ الدنيا وتنمية ثرواتها أصلاً من أصول المعاملات الشرعية! وكذلك دعا الإسلام إلى الأخذ بالأسباب الموصلة إلى تحقيق المقاصد الحسنة الشريفة، فإن الله تعالى ربط الأسباب بالمسببات، قال الله تعالى في سورة الكهف آية ٨٤: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الْأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ سَبِيلاً فَاتَّبِعْ سَبِيلَ﴾.

٢٦- ولقد أولى الإسلام الفطرة رعاية فائقة، ودعا إلى نقائها، ونهى عن إفسادها، سواء بالتعاليم الغريبة الضارة، أو بأخلاق الجاهلية المألوفة، ونهى عن التقليد الأعمى للآباء والأمراء والشيوخ، ودعا إلى طلب الدليل من الكتاب والسنة الثابتة عن رسول الله ﷺ، فهما أصل الدين والعقيدة والشرعة والأخلاق والآداب. ورغب في الفقه في الدين ومعرفة الدليل، والمسلم لا يأنف أن يبحث عن الحقيقة، وهو لا يتعصب لرأي أو مذهب إذا رأى الدليل في غيره، فهو يدور مع الدليل حيث دار، ويسير مع الحق حيث ساراً...

٢٧- وجمع الإسلام بين عالم الغيب وعالم الشهادة، وبين السماء والأرض في

نظام الكون، والدنيا والآخرة في نظام الدِّين، والروح والجسد في نظام خلق الإنسان، والعبادة والعمل في نظام الحياة، وسلوكها جميعاً في نظام موحد هو «الطريق إلى الله تعالى»!!..

٢٨- وأعطى الإسلام المرأة حقَّ المساواة وحقَّ التعامل، وللمرأة في الإسلام الخيار في مزاولة الأعمال التي تناسب أنوثتها؛ من تجارة، وصناعة، وزراعة، ورغب لها تعلم الطبابة لمعالجة بنات جنسها، كما رغب لها طلب العلم، والتعليم. وخولها تولِّي إجراء العقود والمعاملات، وأن تملك من كل أنواع المُلْك المباح، واختصَّ المرأة بنصيبٍ من الميراث يتوافق مع حال مسؤوليتها المادية؛ وجعلها مكفولةً للعيش قبل الزواج وبعده، ولا تُشْرَمُ المرأة من ممارسة حقوقها إلا إذا خشي عليها الأذى أو الضرر أو الفتنة.

٢٩- ومنع الإسلام من إكراه المرأة على الزواج ممَّن لا ترغب به، كما منحها حقَّ المهر، وشرط في زواجها الكُفء لها، فمَن كانت صالحةً تقيَّةً، لا يصلح لها الفاسقُ الفاجرُ، وهذا من إكرام الإسلام لها!!..

٣٠- والإسلام يصنِّعُ من المرأة الصَّالحة حصناً للإنسان حين أقرَّ لها حرَّيتها ومسؤوليتها في البيت والزوج والأبناء، وجعلها بذلك من أقوى الحواجز التي تحمي الأسرة من التصدُّع، وحَمَى الإسلام الأمومةَ والأنوثةَ في جميع مراحلها، كما وضعَ الطَّلَاقَ خَلاصاً لها ممَّا لا يُطَاق. وكذلك رعى الإسلام حقوقَ الطفولة قبل الميلاد وبعده، فأوصى باختيار الزوجة الصالحة، وأوجب على الوالدين حُسْنَ رعاية أبنائهما، من اختيار الأسماء الحسنة لهم، وتربيتهم التربية الفاضلة، وتعليمهم ما ينفعهم في دينهم ودنياهم، وتزويجهم إذا بلغوا الحلم. وجعل للوالدين حقَّ الطاعة فيما لامعصية لله فيه. وفرضَ على الأبناء بَرَّ الوالدين وإن كانا أو كان أحدهما على غير الإسلام، أو على غير صلاح ولا تقوى لله تعالى، فمصاحبتُهما في الدنيا بالمعروف فرضٌ من فرائض الله تعالى.

٣١- وأوجب الإسلام حقوقَ الجوار وحقوقَ الخَدَم والأجراء، وامتدَّت الحقوق إلى الحيوان.

٣٢- وكَرَّمَ الله تعالى الإنسان وجعله بالإسلام سيِّداً لا يذلُّ ولا يخضع إلا لخالقه سبحانه. فالمسلمُ بإسلامِهِ يدعُو إلى الله تعالى وينشرُ دعوته في الأرض، ويأخذ بيدَ الشَّاردين والضَّالِّين إلى الهداية والرَّشاد والسَّدَاد.

٣٣- وأقرَّ الإسلامُ الإنسانَ على ميوله وعواطفه، ووضع لها الضوابط، وأمره بالقصد فيها، ونهاه عن الإسراف فيها، وجعل لذلك سُبُلًا مشروعةً في إطار الزواج... وفرَّق الإسلامُ بين حرية السلوك وتنظيم السلوك، وبين أن مقومات الأدب والخلق ليست قيوداً بقدر ماهي وسائلُ حماية، والالتزامُ بالفضائل!..

٣٤- وحَمَى الإسلامُ جميعَ المسلمين من التَّدخُل الأجنبي، وسعى إلى تحرير الشعوب من الاستعباد والظلم والاستبداد؛ ليخرجوهم من عبادة العباد إلى عبادة ربِّ العباد سبحانه، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها.

٣٥- وحَمَى الإسلامُ الثروات من الهدر والتفريط، ووجه أصحاب الأموال إلى تنميتها بالتجارة والصناعة والزراعة، وجعل المالَ وسيلةً لا غاية، وأثبت أن المالَ مَالُ الله تعالى، والإنسان مستخلف فيه للاتِّفَاع به، ولتوجيه شؤون المعيشة، وحثَّ الإسلامُ الأغنياءَ على الصدقات فوق أداء الزكاة، وطالب القادرين على الكسبِ بالإتِّفَاق على الأهل والأقارب الفقراء.

٣٦- ويرمي الإسلامُ إلى تداول المال بين الناس، فحرَّم تداوله بين طائفة الأغنياء فحسب، بل جعله دائراً بين الجميع، وقد قيَّد في تشريعهِ حقَّ التصرف بالإنفاق بمنع الغش والربا والقمار والاحتكار، كما حرَّم كنز الذهب والفضة، وحرَّم أكل أموال الناس بالباطل. وأحلَّ البيع بجميع وجوهه، وحرَّم الربا بجميع وجوهه.

٣٧- وجعل الإسلامُ السُّلْمَ والسَّلامَ من أهمِّ ضرورات الحياة، كما جعل الأمنَ من أهمِّ ضرورات المجتمع، فعاقب المجرمين بأشدَّ العقوبات حرصاً على سلامة الناس في أعراضهم وأموالهم ودمائهم.

٣٨- ووضع الإسلامُ الحربَ في آخرِ الاعتبارِ حالَ الدعوةِ إلى توحيدِ الله تعالى وإلى طاعته سبحانه، فإذا قامتِ الموانعُ البشرية دونَ هذه الغايةِ الكريمة فرضَ القتالَ جهاداً في سبيلِ الله عزَّ وجلَّ، لإعلاء دينه، ولإزالة الكفر. ومنَّ دخلَ في عهدِ الذمة أئمةُ الإسلامِ الجزية، وفرضَ له الحماية والأمنَ على نفسه ودينه وعرضه وماله. وأسقط الجزية عن الأطفال والنساء والشيوخ العاجزين الفقراء، وكذلك الرهبان فلا جزية عليهم.

٣٩- أقام الإسلامُ للبشرية منهجَ حياة متكاملة، ووضع لها نظاماً يرسم كافة علاقات الأفراد مع بعضهم البعض، وعلاقات الأفراد بالأسرة والمجتمع، وامتدَّ منهجُهُ إلى جميع مناحي الحياة: الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدولية، فوضع لها القواعد

المتينة، والضوابط المحكمة، وجعل رأس كل أمر فيها طاعة الله تعالى، وإقامة العدل، وقمع الظلم...!

٤٠- وجعل الإسلام الأخلاق على أساس التقوى، والتقوى تعني اتقاء كل ما حرم الله تعالى، كما تعني كنف الظلم والأذى والإضرار والإفساد، ولقد كانت التقوى ولازالت أساس رفعة المسلمين وسر سعادتهم ومصدر ازدهار حضارتهم، حتى إذا ماضفوا فيها أو تقاعسوا عنها كان ذلك سبب ضعفهم وهزيمتهم وفشلهم وتقهقرهم في الحياة.

٤١- والإسلام يُحمّل المسؤولية في رعاية أحكامه، والتخلّق بأخلاقه، ونشر دعوته، وحماية ثغوره، والزود عن حياضه، لجميع المسلمين، يفرض على كل مسلم من ذلك على قدر طاقته ووسعه وقدرته، ذكراً كان أم أنثى، غنياً أم فقيراً، عالماً أو متعلماً. كما فرض على جميع المسلمين التيقّظ دائماً وأبداً لاحتمالات حصول غزو على بلادهم، أو غزو على أخلاقهم، أو على عقيدتهم، أو على ثقافتهم، فإن الأمة - في هذا الزمان - قد مُنيت بأعداء الداء يكيدون لها ويمكرون بها ويتربصون بها الدوائر. وأخطر ما في هذا الأمر، الأعداء من الداخل، والأخطر منهم جميعاً الذين يُحرّفون القرآن باسم القرآن، ويُقوّضون الإسلام باسم الإسلام، مرّة تحت دعوى البحث الحرّ... وأخرى تحت دعوى القراءة المعاصرة للكتاب والقرآن... المتحلّلة من جميع الثواب الشرعية والضوابط المنهجية...!

فإلى حماية الإسلام يا أهل الإسلام...!!

العلم في الإسلام

كان أول منازل القرآن العظيم أشاد بالعلم فابتدأ بالأمر بـ «اقرأ باسم ربك الذي خلق» فبدأت آيات القرآن بالدعوة إلى القراءة، ثم القسم بالقلم «والقلم وما ينظرون» وجعلت القراءة باسم الله خالصة، ونسبت التعليم إلى الله الذي علّم بالقلم...!

ووردَ لفظ «العلم» ومشتقاته في القرآن في [٨٧٠ آية]، والعلم الذي دعا الإسلام إلى تحصيله هو علم الوحي [الكتاب والسنة] ثم العلم على إطلاقه، وكانت دعوة الإسلام إلى العلم مرتبطة بالنظر إلى آفاق السماء والأرض، والتأمل والتدبّر والتفكير، وإلى النظر في مبادئ الخلق، وفي أحوال الأمم التي اندثرت وماتزال بعض بقاياها..

ونظرة الإسلام إلى العلم نظرة جامعة قد أحاط بها منهج كامل للمعرفة والفهم، وقد دَعَا الإسلام إلى البرهان والحجة والتجربة، وحثَّ على الاجتهاد، وجعل للمجتهد المصيب أجرين، وللمخطئ أجرًا واحدًا، وحرَّم تعطيل العقل في طلب التقليد.

ودَعَا الإسلام إلى السيطرة على الحياة وإلى تملك مواردها ومقدَّراتها، ثم إلى إنمائها وتسخير مواردها وتسليكها. كما دَعَا إلى الاكتشاف والابتكار. وفتح أبواب تعمير الأرض. وأمر المسلمين إلى استعمال حواشهم الظاهرة في النظر والتأمل، كما حرَّضهم على طلب العلم والمعرفة والنظر في الكون والتأمل في الكائنات والتفتُّب عن أسرار الوجود، وحثَّ حثًّا متواصلًا على العناية بتنمية العقل الإنساني، وترقية الشخصية الإنسانية بالضرب في الأرض، والسعي في منابها.

وقد نبغ في الإسلام علماء في الطبِّ، والفلك، والكيمياء، والصيدلة، والملاحة وعلوم البحار، والجغرافيا، والرياضيات، والجبر، والهندسة، والمراسد، وصناعة الورق! ففي الطبِّ عرفوا طبيعة كثير من الأمراض، ووصفوا تشريح الجسم البشري وصفًا دقيقًا، وعرفوا العقاقير، فسجَّل ابن البيطار / ١٤٠٠ عقارٍ لم تعرف اليونان منها غير / ٤٠٠ / والألف اكتشفها المسلمون، وحدَّدوا منافعها ومضارَّها. وألف أبو القاسم الزهراوي كتابه في الطبِّ والجراحة في / عشرين مجلدًا !! وأطباء الإسلام هم أول من فتَّت الحصى في المثانة، وسدَّوا الشرايين النَّازفة، وكتبوا في الجذام والحصبة والجذري وعدوى الطاعون، واستعملوا «البنج» في العمليات الجراحية. والأطباء المسلمون هم أول من كشف عن الدورة الدموية. كما صحَّحوا الكثير من آراء اليونان في الطبِّ والتشريح ووظائف الأعضاء. وقد تُرجم كتاب «القانون في الطبِّ» لابن سينا، في خمس عشرة طبعة إلى اللاتينية والانجليزية والعربية، وقد بحث عن العقاقير والأدوية في سبعمائة وستين نوعًا. قال الدكتور «دينستون»: إنَّه يحتوي على مايزيد على مليون كلمة!! وقد عالَج القرحة الدرقية، والقولنج الكبرى، والكُلوي، والتهاب الرئة، والجنب، والتهاب الدماغ. وبقي هذا المرجع الطبي أساسًا للمباحث الطبية في جامعات فرنسا وإيطاليا ستة قرون!! ولم تعرف جامعة «لوفان» حتى القرن السابع عشر مرجعًا للطبِّ والعقاقير أوفى من كتب الرازي وابن سينا وابن الهيثم!! وعرف الطبِّ الإسلامي التَّطعيم ضدَّ الجدري، واستخدموا عفن البنسلين وعيش الغراب كمراهم. أمَّا طبِّ العيون، وعلم البصريات فهو من صناعة المسلمين، وقد ظلَّت تذكرة طبِّ العيون تستخدم حتى القرن التاسع عشر، بل لقد احتلَّ المسلمون المركز الأول في مجال الطبِّ فترةً تزيد عن خمسمائة عام!!..

كما حقّق المسلمون كسباً متقدّماً في الاكتشافات والمخترعات في جميع المجالات؛ فهم الذين اخترعوا الساعات الدقاقة والزوالية، واكتشفوا قوانين ثقل الأجسام، وعرفوا تركيب النار، واستخرجوا قوّة البارود الدافعة، واستعملوا الآلات القاصفة والقاذفة، وأتقنوا فنّ تسقية الفولاذ، وهم أول من استخدم «البوصلة» في الملاحة، واكتشفوا الإبرة المغناطيسية التي انتقلت إلى أوروبا في القرن الثاني عشر، وكانوا أول من حاول قياس خط نصف النّهار. ووصفوا أصول علم الجبر وحساب المثلثات، وبسّطوا علم الحساب الإغريقي، وكانت علوم المسلمين في الجغرافيا والفلك هي صاحبة الفضل الأكبر في الكشف عن الأمريكيتين، وعلّل المسلمون ملوحة البحر وعدوية الأمطار والأنهار والينابيع، واستحالة الحطب في الاحتراق، واستحالة الزيت في المصباح، وصعود الهواء، وانحدار الماء، لا بالجاذبية والثقل النوعي، بل بانجذاب بعضها إلى بعض، وعرف «موسى بن شاكر» مائة تركيب ميكانيكي، كما علّلوا صعود الماء في العيون والفوارات، واستعملوا «السيفون» وسمّوه «السحارة» وعرفوا كثافة الذهب والرصاص، وبحثوا عن الضوء، وعن الصوت، وعلّلوا حدوث الصّدئ، وكتبوا في الأوتار واهتزازاتها. كما عرفوا خاصّة الجذب في المغناطيس، وخاصّة اتجاهه. واستعملوا الرموز في الرياضيات، فسبقوا الأوروبيين إلى ذلك، ومهدوا للكشف عن «اللوغاريتمات»، وعن التكامل، والتفاضل، وأنشأوا المراصد العديدة، وهم أول من عرف الأصول التي تفضي إلى الرسم على سطح الكرة، وأول من أوجد عملياً طول الدرجة من خط نصف النهار، وقالوا باستدارة الأرض ودورانها حول الشمس وعلى محورها حول نفسها. واخترعوا لذلك الاسطرلاب الدقيقة، وحقّقوا مواقع كثير من النجوم، وحسبوا طول السنة الشمسية، وبحثوا عن كلف الشمس قبل الأوروبيين، ووضعوا جداول دقيقة عن النجوم الثابتة وصوّروها في الخرائط، وصحّحو خطأ «بطليموس» وخطأ الرومان القائلين بتسطح الأرض، ورسوموا خرائط بلادهم، وأكّد أبو الفداء أن الأرض كروية، وأنها في الوسط من الكواكب. وهم أول من وضع أساس الكيمياء، وقد مارسوا أعمال التقطير والترشيح والتصعيد والتبليز «البلورة» والتدويب والألغام والتكليس، وهم الذين استحضروا الكحول والقلّي والبورق والزّرنينخ والبوتاس والأئمد وزيت الزّاج «الحامض الكبريتيك» والزّاج الأخضر، وماء الفضة «الحامض التريك» وحجر جهنّم «نترات الفضة» وملح البارود «نترات البوتاس» والسليمانى والراسب الأحمر «أكسيد الزّئبق» وروح النشادر، وملح الطرطير، وماء الذهب والبارود، والقلويات كلها في الكيمياء معروفة باسمها العربي!! وماء الفضة لم يوصف في كتاب غربي قبل كتاب جابر بن حيان، وأول مصنع للورق بدأ في

سمرقند، ثم في بغداد في زمن الرشيد، ثم في دمشق، ودمياط، ومراكش، وصقلية، وإسبانيا. والمرايا البلور بدأت في «سوريا» ومنها انتقلت إلى البندقية. وقد عرف المسلمون «الصفر» ولم يعرفه الغربيون إلا في القرن الثاني عشر عن طريق المسلمين، وكان استعماله في الحساب على هيئة حلقة صغيرة. ثم شرح الخوارزمي طريقة استعماله في بحث تُرجم إلى الكتب الأوروبية في الربع الأول في القرن الثاني عشر الميلادي.

وقد برَزَ في هذه النهضة العلمية في الإسلام عددٌ كثير من العلماء في مقدمتهم: الرازي، وجابر بن حيان، والخوارزمي، وابن خلدون، وأبو الثناء الأصفهاني، والفرغاني، والقزويني، والزهرائي، وابن يونس، وابن ماجد، وحسني المراكشي، وعمر الخيام، والفارابي، والإدريسي، ومما يُذكر في هذا المجال أن الطبيب ابن النفيس «علي بن حزم القرشي» عارض رأي جالينوس الذي ظلَّ مهمناً على عقول الأطباء أكثر من عشرة قرون، وتقدَّ نظريته، وعارض قوله في الدَّم، وقال: كيف يمكن أن يتقل الدم من البطن الأيمن إلى الأيسر خلال حاجز ليس له منافذ؟ وأخرج للعالم نظرية الدورة الدموية «الصغرى» إذ قال: إنَّ الدَّم لا يمكن أن يتقل من البطن الأيمن إلى البطن الأيسر مباشرةً خلال الحاجز، وإنما يسير من البطن الأيمن إلى الرئة، ومن الرئة إلى البطن الأيسر، وهذه هي «الدورة الدموية الصغرى»!! وقد ظَلَّت آراء ابن النفيس قائمةً حتى ترجمت كُتبه إلى اللاتينية في عصر النهضة، وجاء «سرفيتو» و«كولمبو» فأيدَا ماذهب إليه ابن النفيس، وذلك في القرن السادس عشر، فهو قد سبقهما بأكثر من مائتين وخمسين سنة، أمَّا «وليم هارفي» فقد جاء بعده بأكثر من أربعمئة سنة، وقام بتجاربه في ضوء أبحاث ابن النفيس، ومَن تلاه، وانتهى إلى كشف الدورة الدموية الكبرى!!..

وهكذا قدَّم العلماء المسلمون «أساس» العلم الحديث، ويسرُّوا فتوحات واسعة في مختلف أرجاء العلوم وجوانبها، وقد كان كَشَفُ سُنَنِ الكون ونواميسه على أيديهم أول الأمر، بعد أخذه واستمداده من القرآن العظيم، ثم جاءت عملية الملاحظة والتجريب، وعلى هذا الطريق سارَ العلم الحديث، وقد اعترف الغربيون في صراحة ووضوح بأنهم أخذوا هذه الطريقة من علماء الإسلام!! وكل ما وصل إليه العلم الحديث إنما هو قائم على منهج التجربة والملاحظة والاستقراء الذي قدَّمه المسلمون، ولم يتكرر الغربيون منهجاً آخر، وإنما أحسنوا الأساليب والأدوات، ومعنى هذا أنَّ نتاج العلم الحديث كله جاء عن طريق منهج القرآن غير أنَّ الخلاف هو في أمر واحد، هو أنَّ الغرب الكافر

حجب اسم الخالق العظيم ومقدّر القوانين الكونية (وَنُظِمَهَا الثَّابِتةُ، ونسب هذه القوانين إلى كشف الإنسان وحده، كما أنه اعتبر هذه القوانين والنظم الكونية مستحيلة النقص، وبذلك جهل قدرة الخالق العظيم، وذلك حين رفض الاعتراف والإيمان بعالم الغيب الذي تبيّن من بعد أن له صلة ضخمة بما وصل إليه العلم، وأن هناك جوانب كثيرة لم يستطع العلم أن يصل إليها، ولذلك فإنه حين يقول بحتمية القوانين الطبيعية، إنما يتجاهل هذه الجوانب الغيبية الخافية عليهم، وينسى قدرة الله سبحانه خالق هذه القوانين وأنظمتها، وله وحده القدرة على خرقها!!..

ولقد كرم الإسلام العلم والعلماء، ورفع شأنهم، وأعلى مقامهم! وفتح الأبواب للاستزادة من العلم، ومن هنا كانت انطلاقة المسلمين العلمية إلى التقدّم في مجال الفكر والحضارة، وفي مجال اكتشاف كوامن الكون، فرحل علماء الإسلام إلى أقصى الأرض باحثين عن العلوم متنافسين فيها، وسار قادة المسلمين على سنة نشر العلم وإعزاز أهله والبذل لهم وبناء المدارس وخزائن الكتب، بينما أدخلت أوروبا آنذاك علماءها في زمرة المارقين من الدّين، والخارجين عن الكنيسة، فقتلت من قال بالدورة الأرضية وكرويتها، كما قتلت من قال بالدورة الدموية أيضاً، واعتبرت الكنيسة ذلك مروفاً من الدّين.

ولقد شهد علماء أوريّون بفضل علماء الإسلام، منهم «إتيان دينيه» فيقول: «لقد لبثت أوروبا ثلاثمائة سنة تقتبس من الإسلام اللّغة والعلوم»، ويقول «دراير»: «تأخذنا الدهشة أحياناً عندما ننظر في كتب المسلمين، فنجد آراءً كنّا نعتقد أنها لم تولد إلّا في زماننا كالرأي الجديد في ترقّي الكائنات العضوية وتدرّجها في كمال أنواعها، فإنّ هذا الرأي كان ممّا يعلّمهُ المسلمون في مدارسهم، وكانوا يذهبون إلى أبعد ممّا ذهبنا، فكان عندهم عامّاً يشمل الكائنات العضوية والمعادن، والأصل الذي بُنيت عليه الكيمياء عندهم هو ترقّي المعادن في أشكالها». ويقول «فون كريمو»: «إن العقل الإسلامي يبدو في ذروة نشاطه حين يكون في حقل المعرفة التجريبية، يباشر دراسته في ضوء الملاحظة والاختبار، فالعرب يُبدون نشاطاً يُبْير الدهشة حين يقومون بملاحظة الظواهر وتمحيصها وجمعها وترتيب ما هدّتهم إليه التجربة، ولَمّا كانوا أصحاب ملاحظة دقيقة، وأهل تفكير مبدع أصيل، حقّقوا في مجال الرياضيات والفلك إنجازات رائعة!!» ويقول «سيديو»: «الحركة العلمية عند العرب تميّز بالانتقال من المعلوم إلى المجهول، والتحقيق الدقيق في ظواهر السماء، ورفض كل حقيقة كونية لم تثبت عن طريق الملاحظة الحسيّة، ويؤكد الباحثون في العلم الإسلامي أن علماء المسلمين، فطنوا إلى ثلاثة أمور هامة:

أولاً: فطنوا قبل الأوربيين إلى مصدر الحواس عن إدراك بعض الظواهر لفرط صغرها أو بُعْدِها، فعوضوا قُصُورَ الحواسِّ باختراع أجهزة وآلات تمدّ في قدرتها على الإدراك، وكان ابن الهيثم يستعين في دراسة انتشار الضوء وانعكاساته بآلات يقوم بصنعها، أو يشرف على صنعها، وخلف أبو القاسم الزهراوي مئات الرسوم لآلات تستخدم في الجراحة والتخثير، وترك علماء المسلمين في الفلك مراصد مزودة بعشرات الرسوم والآلات والأجهزة.

ثانياً: لم يفت المسلمون الاهتداء إلى التجربة العلمية، ومعرفة دورها في البحث العلمي، فلم يكتفوا بمراقبة الظاهرة وتسجيل حالها، بل تدخلوا في سيرها ليلاحظوا في ظروف هيئوها بأنفسهم، وأعدّوها بإرادتهم، وسماها جابر «التدريب» وسماها ابن الهيثم «الاعتبار».

ثالثاً: فطنوا فوق ذلك إلى أن الغرض من الدراسة التجريبية، هو وضع القوانين العامة التي تُفسّر الظواهر تفسيراً علمياً.

الإسلام ودعوى التطوّر

نشأت فكرة التطوّر في مجال العلوم البيولوجية أساساً، ولكنّها سرعان ما انتقلت إلى مجال الفلسفة، وأريد بها السيطرة في مجال الفكر والثقافة. واتخذت النظرية هذه لاستخدامها في معارضة الدين والعقيدة - وعلى الأخص الإسلام والقرآن - ومن الحق أن فكرة التطوّر «المادي والمعنوي» لا يمكن أن تسير في غير نطاق واضح وإطار محدود وفلك معلوم، وأنّ هناك استحالة علمية في أن تجري حركة التطوّر عشوائياً في غير نظام أو قانون يحكمها، ومن هنا يبدو الفارق العميق بين حقائق العلم وبين آراء الفلسفة، وينكشف الفارق بين الاتجاه العلمي وبين أهواء القوى التي تتخذ من النظريات العلمية والفلسفية أسلحة لتحقيق أغراض بعيدة المدى. والمفهوم العلمي الصحيح هو أنّ هناك حقائق ثابتة وعناصر تجري عليها شتّى الحركة والتغيّر والتطوّر، وأنّ هناك تناسقاً يجري بين أسس الثبات وعناصر التطوّر، وأنّ هذا التناسق يجري في دائرة الثبات، وهذا المفهوم العلمي نفسه يطابق المفهوم الإسلامي في اعتبار التطوّر ظاهرة من الظواهر الحياتية. فالنظرة الإسلامية تقرّ بثبات الأصول العامة مع تطوّر الجزئيات والتفاصيل والفروع.

وبالرغم من استثناء فلسفة التطور الاجتماعي التي دَعَا إليها «سبنسر» الذي حاول أن يطبّق نظرية «دارون» على الأمور الإنسانية والأخلاق والتاريخ، فإن العلم كانت له وجهة نظر مختلفة تماماً. وقد كشفت الدراسات الأصلية أنّ التطور لا يمكن أن يكون قانوناً أخلاقياً، وليس كل طور أفضل من الطور الذي سبقه، كما يقول «سبنسر» بل إنّ التطور قانون اجتماعي واقعي، ولا يقتضي بتفضيل الطور الأخير على الأطوار السابقة، ذلك أنّ فكرة التطور الاجتماعي أخذت من فكرة التطور الحيوي «البيولوجي» والتطور في الحياة يكون تحسّناً وارتقاءً وقد يكون انقراضاً، كذلك كشفت الأبحاث خطأ الرأي القائل بأنّ التطور والتقدّم هو الاستجابة لزعزعات النفس في السلوك بالحركة في أي اتجاه دون رعاية لاستقامة الحركة، وبدون حاجة إلى إرادة وإيمان، وهذا يؤدّي إلى العودة إلى العصور الأولى بما فيها من تحلّل، كذلك خطأ الرأي القائل بأنّ التقدم هو إهدار الأحكام السابقة، وتقديرات الأشياء التي قرّرها وحكمَ بها الإنسان في عصر مضى. وهذا ماذهب إليه الدكتور المهندس «محمد شحرور» في «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة»^(١) الذي أشاد بهذه الطريقة أيّما إشادة!! وأقام دراسته في تفسير الآيات القرآنية وتأويلها على قاعدة التطور، ولم يكتفِ بالثوابت الشرعية وقواعدها، ولم يلتفت إلى أئمة المسلمين بل طعن بهم، ثم فسّر الأحاديث النبوية الصحيحة بأنها كانت التفاعل الأول لفهم الإسلام، ثم رفض قبولها في هذا العصر، وهذا من أخطر ما يذهب إليه في تطوير الإسلام تطويراً عشوائياً بلا ضابط ولا رابط، فكان بذلك خارجاً عن أصول الإسلام، فإن إجماع الأمة منعقد من القرن الأول للإسلام وحتى هذا القرن أن أصل الإسلام: «القرآن والسنة»، فمن حوّر معاني القرآن بعد تعطيل جميع الأحاديث النبوية لم يبق شيئاً من الإسلام، سوى ألفاظ ومعاني مستحدثة ادّعى صاحبها أنها التطور المعاصر للإسلام!.. ٩١.

وأما التطور والثبات في قانون التوازن الذي يحكم الموجودات جميعاً، لا يعارضه الإسلام، وليس هناك سبيل إلى إلغاء أحدهما، ولا سبيل إلى القول بالتطور المطلق وإنكار قاعدة الثبات، ولا بدّ من الربط بين الثبات والتطور وقيام التوازن بينهما وأنّه من المستحيل عقلاً، ومن المناقضة لقوانين الوجود والحياة أن يتوقّف أحدهما، أو أن يفصل، ولأن يستعلي أحدهما ويسيطر، فالثبات والاستقرار هو البقاء، والتطور المستمر هو الفناء، وهناك ترابط بين البقاء والفناء، وبين الحركة والجمود، وبين

(١) ستأتي الإشارة إلى هذا الكتاب بشكل أوضح فيما بعد

القديم والجديد، وبين الميت والحي، فالحياة ناجمة من موت، والحديث منبثق من قديم، والفكر يتطور، ولكنه يظل ثابتاً الأصول والضوابط والمقومات، وبدون ذلك لا يُعتبر فكراً..

وأما الإسلام فله ثوابت لا تتغير ولا تبدل ولا تتطور، فهي ثوابت باقية: فالعقيدة فيه ثوابت لا تتغير، وأحكام الحلال والحرام كذلك، والعبادات كذلك، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كذلك، وعلى رأس ذلك كله نصوص «القرآن والسنة» فهي ثوابت لا تتغير ولا تبدل ولا تتطور، فلم يكن هذا في الماضي ولن يكون في المستقبل.

وأما الأحكام الشرعية التي تُعتبر معالجات لقضايا طارئة فهي ثابتة الأصل والجوهر، متغيرة الصورة، ففي الفقه الإسلامي يجري التغير بالنسبة للأحكام الفرعية دون الأصول، فالأصول فيه ثابتة ليست خاضعة للتطور، فالصلاة وأركانها وشروطها لا تتطور، والزكاة كذلك والصوم كذلك، والحج كذلك، وكذلك الحدود الشرعية في القتل والسرقة والزنا، وأحكام الرِّبَا ثابتة لا تتغير، فجميع ذلك من القوى الثابتة التي لا تتأثر بالتطور والتغيير، ولا يمكن القضاء عليها، وكذلك في نظام الكون نجد القوى الثابتة، ونجد القوى التي تتحول وتحرك، أما الأصول الثابتة فهي ليست خاضعة للتطور.

هذا هو مفهوم الإسلام!! ومفهوم العلم متطابق معه!!

وأما المفهوم المطروح في أسواق الفكر الغربي والذي وصل صدأه إلى الفكر المستغرب في العالم الإسلامي، فهو مفهوم فلسفي خطير، لم يرق على أساس علمي، وقد أخذ منطقاً من نظرية «دارون» في التطور البيولوجي، ثم نقل إلى ميدان الاجتماع والفكر، ولا شك أنه بهذه النقلة إنما يستهدف غاية خطيرة هي واحدة من أهداف الفلسفة المادية الوثنية التي تحاول أن تسيطر على الفكر البشري كله، وتفرغه من مفاهيم الإيمان والإسلام، وتدفع به بعيداً إلى نهاية خطيرة نجدها واضحة لامية فيها في «بروتوكولات حكماء صهيون»، أو نصوص التلمود» أو متصلاً بالمحاورات التي جرت منذ عصر النهضة في سبيل إخراج الفكر الغربي المسيحي الأصل، من مفاهيمه ودفعه إلى مجال الماديات المغرقة، وتشكل هذه المحاولة فلسفة واضحة متكاملة تهدف إلى تدمير معاني الإيمان والأخلاق، ودفع الإنسانية كلها إلى الدمار بتعطيم شخصيتها الدينية، وزجها في الإباحية المعاصرة..

إن المزعَم التي انطلقت بالنظرية التي تقول بأن الأخلاق تتطور مع العصور، وأن

الإسلام يتطوّر مع البيئات؛ باطلة مخالفة كل المخالفة للحقائق العلمية الصحيحة، وهذا معارض لنواميس الكون والحياة.

ولقد كان الترويج لمذهب التطوّر في الإسلام، على هذا النحو الذي قدمه الدكتور محمد شحرور في كتابه: «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» خروجاً به عن المجال العلمي الصّارم في ضوابطه وثوابته، إلى المجال الفلسفي الذي لا يخضع لأيّ سند علمي أو عقلي، سوى خضوعه لمذهب التطوّر الذي انطلقت منه الدعوات والفلسفات المادّية. وقد اعتبره المتشبهون به قاعدة لعلوم جديدة هي مقارنات الأديان وتفسير التاريخ والنفس والأخلاق والاقتصاد والاجتماع. ومن هنا أخذت هذه الفلسفات تخضع للمناهج التي تخضع لها العلوم المادّية، بينما تناقض هذا مع أبسط قواعد المنطق والعقل، ولقد كان القول بالتطوّر الحتمي سبيلاً إلى نزع القداسة عن الإسلام صاحب الثوابت الشرعية والضوابط الأخلاقية، والدعوة إلى التحلّل والإباحية وإنكار مقومات الدّين والعقيدة، على النحو الذي كشفت عنه نظريات «فرويد ودوركايم» وغيرهما.

ولقد هوجمت نظرية التطوّر المطلق في المحيط الديني والفكري والاجتماعي هجوماً علمياً صارماً، ودُحضت بمنطق عقلي واضح، لكنّ أصوات دعائها المسرفين في استغلالها ظلت أعلى الأصوات لأنها لم تكن منطلقة من منهج صحيح وسليم، وإنّما هي أصوات يرفعها المستأجرون كلّما زِيدَ لهم في المنح والعطاء...

بطلان نظرية التطوّر والارتقاء التي دعا إليها دارون:

انتشرت هذه النظرية في أرجاء العالم وتكاثر عدد الذين انخدعوا بها كحقيقة علمية، حين ظنّوا أنّ النظرية قد اجتازت مرحلة الاختبار، وأنّ كلّ محاولة جديدة لمناقشتها فهي عقيمة، إنّ هؤلاء يسيرون وراء سراب بلا وعي، حين يتراءى لهم أنّ الدّين قد عَفَى عليه الزمن، وأنّه منافٍ للعلم. بيد أنّه على عكس ما يرون، فإنّ القائل بالتطوّر هو الذي يتبنّى موقفاً غير علمي عندما يؤمن بنظرية لا تستند إلى حقائق، وبالتالي فإنّ مهاجمة هذه النظرية الخاوية من الحقائق ليست مهاجمة للعلم في شيء، وإنّما هي لدحض الباطل الذي يريد الظهور بزيّ العلم...

وكثير من العلماء الكونيين أثبتوا أنّ نظرية التطوّر والارتقاء قامت بدون براهين وستظل كذلك. وأمّا حقيقة «الخلق المباشر» من الله تعالى فبين يديها الملايين من البراهين. والذين قالوا بنظرية التطوّر والارتقاء لاكتيحية للملاحظة أو الاختبار أو

الاستدلال، ولكن لأن حقيقة الخلق المباشر بعيدة عن تصورهم فلا يؤمنون بها.
يقول أحد العلماء الجولوجيين «سيرج. وداوسون»: «هذا الاعتقاد [بنظرية التطور والإرتقاء] هو نوع من الإيمان الأعمى الممتزج بالسذاجة والخرافة». **نظرية التطور والإرتقاء نظرية إغريقية:**

إن أصحاب التطور والنشوء الذين يعتبرون أنفسهم أكثر تقدماً من الآخرين، إنما يتهقرون في الواقع بأفكارهم إلى أزمان غابرة بالية، ففي القرن الخامس قبل الميلاد كان هناك من يقول بنظرية التطور والنشوء، فالفيلسوف الإغريقي «اميدوقليس» الذي يُسمّى بأبي نظرية النشوء، اعتقد بالخلق العنوي، وبأن الكائنات تكوّنت خلال سلسلة طويلة من عمليات المحاولة والخطأ وقد ذهب إلى رسم هيكل نظريته «دارون» في بقاء الأقوى. كما أعلن أرسطو [ت ٣٨٤ ق م]: «أن الإنسان هو ذرة عملية إرتقاء طويلة ومستمرة». ولقد قيل: إن الفلاسفة الإغريق إنما استعاروا أفكارهم النشويّة من الهنود الذين ذهبوا في تعاليمهم إلى أن الأرواح تنتقل من حيوان إلى حيوان حتى تصل إلى الكمال في «الزفانا»، كما أن «المايانيين» الذين ترجع حضارتهم إلى القرن السادس قبل الميلاد كانوا يعتقدون أن إله الأمطار قد خلق الإنسان من خلال العمليات الآتية: نهراً، فسمكة، فإنساناً. وكثير من القبائل الوثنية الهندية تعتقد بالنشوء من الأزل، فإن الرسوم التي ترمز إلى أسلافهم تمثل بشكل عام حيواناً أو نباتاً، يعتقدون أنهم قد انحدروا منه.

ونحو هذه النظريات البالية الخرافية نظرية «الدكتور شحرور في القراءة المعاصرة للكتاب والقرآن» ص ٢٨٠: التي يقول فيها: «نمت الحياة وتطوّرت عن طريق البث الذي يحتوي على الطفرات الحياتية التي أدّت إلى ظهور البشر، وقد تميّز البشر في الظهور ككائن حي مستقل في الفترة التي ظهرت فيها الأنعام» ويقول في ص ٢٨١ في خلق الإنسان من تراب: «٠٠ بسبب الفارق الزمني الطويل بين التراب «المواد غير العضوية» وبين البشر هذه المرحلة التي أخذت مئات الملايين من السنين. وقد بين أن الانتشار في الأرض حصل في مرحلة البشر قبل نفخة الروح، وأنّ البشر كان متشراً قبل مرحلة الأنسنة، وأنّ البشر هو الشكل المادي الحيوي الفيزيولوجي الظاهري للإنسان، حيث أنّ الإنسان هو كائن بشري مستأنس غير مستوحش». ويقول في ص ٢٨٦: «عندما بلغ البشر مرحلة متقدمة من التطور العضوي والنضج أصبح مؤهلاً لنفخة الروح، وهذا التأهيل كان في ظاهرتين رئيسيتين هما: ١- انتصاب الإنسان على قدميه، وتحرير اليدين... وهذه الظاهرة في الآراء على القدمين أعطت الإنسان بُعداً إضافياً، وهو تحرير اليدين من أجل ظاهرة العمل الواعي. ٢- نضوج جهاز صوتي

خاصّ به... بواسطة قوانين مادّيّة موضوعية.. وأول هذه القوانين هو الجهاز الصوتي... ثم يقول: «عندما أصبح البشر جهازاً من الناحية الفيزيولوجية لعملية نفخ الروح «الأنسنة» وذلك بانتصابه على قدميه وتحرير اليدين وبوجود جهاز صوتي قادر على إصدار النغمات المختلفة...».

وقال في ص ١٠٨: «... الروح التي حوّلت البشر إلى إنسان؛ أي التي نقلت الإنسان نقلة نوعية من المملكة الحيوانية إلى كائن عاقل واع... إن نفخة الروح هي الحلقة المفقودة عند العلماء الذين بحثوا في نشأة الإنسان. كما نرى أن آدم هو أبو الجنس الإنساني لا الجنس البشري، بمعنى أنه يبدأ التاريخ الإنساني الراعي بادم، أما قبل آدم فكان ثمّة صنفٌ من المملكة الحيوانية يدعى البشر... لقد نفخ الله الروح في البشر فتحول إلى إنسان وتطوّر وتقدم...». ويقول في ص ١٠٦: «... وخيرٌ من أول آيات خلق البشر عندي هو العالم الكبير «تشارلز داروين».. فقد كان داروين يبحث عن الحقيقة في أصل الإنسان...».

فالنظرية التي ذهب إلى تركيبها الدكتور «شحرور» مزيج من الفلسفات الإغريقية والهندية والداروينيّة، والظاهر البين الذي ساقه إلى تركيب نظريته الخيالية عدم إيمانه بالخلق المباشر الذي أثبتّه الله تعالى في القرآن العظيم.

قال الله تعالى في سورة ص آية ٧٦-٧١: ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ. فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ. فَسَجَدَ الْمَلَائِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ. إِلَّا إِبْلِيسَ اسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ. قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِكَ؟ اسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْعَالِينَ. قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ فهذا النصّ القرآني صريحٌ في خلق آدم خلقاً مباشراً، وكل ما هو مخالف لذلك فهو قول باطل. وإن الذين قالوا بالتطوّر والارتقاء في خلق آدم لا برهان لديهم ولا دليل على صحة قولهم، وغاية قولهم هو عدم تصديقهم بالخلق المباشر، فهذا الموقف لأصحاب نظرية التطوّر موقف عنادي لاموقف علمي. وجميع الدلائل العلمية تخالف نظريتهم، بل وتكذبها!!!..

ويبدو أنّهم يهونون القصص الخرافية التي تغلب عليها صفة التحوّلات الجسدية. ولكن بدلاً من التحوّلات الفورية التي تُحدثها عصا الساحر في القصص الخرافية، فإنّ التحوّلات هنا تسير بسرعة القواقع، ففي كتاب «الطائر» يقول ج.و. بيب: «إنّ التغيّرات الإعجازية التي نفترض أنها قاصرة على القصص الخرافية، أمور عادية جدّاً في

نظرية النشوء والارتقاء!! ويقول الدكتور «ماكثير ويلسون» في منشورات أوكسفورد الطبية: إن نظرية النشوء لاتقل عن أي قصة خرافية حافلة بأغرب المخلوقات كالغيلان والقنطريات «كائنات خرافية نصفها رجل ونصفها فرس»، والسيرانات «كائنات خرافية لها رؤوس نسوة وأجساد طيور». لماذا إذن هذا التشبّه بخرافة التطور التي تمتد جذورها إلى الأزمان السحيقة؟ إن الدافع إلى ذلك هو الإغراق في المجهول هروباً من المعلوم المعقول، أو إمعاناً في الكفر والتكذيب لما أثبتته الله تعالى في كتابه الحكيم.

ويستتج أصحاب نظرية التطور من مقارنة الهياكل العظمية والعضلات والأعصاب في كل الأنواع أنها تنتمي جميعاً إلى أصل واحد هو الحيوان الوحيد الخلية، ومن ثم فإن هذه الخلية الواحدة ماهي إلا صورة مصغرة لأي هيكل عظمي أو عضلة أو عصب. ومن ثم أيضاً تلفيقهم لعملية الارتقاء الطويلة من الخلية الواحدة إلى الإنسان. إننا لانستطيع أن ننفي التشابه بين بعض الأشكال والتكوينات، ولكن هذا التشابه فرضة الخالق تبارك وتعالى بما أراده لبعض مخلوقاته من تشابه في طرق المعيشة والغذاء. ولكننا إذا قلنا بنظرية التطور القائلة بانحدار الإنسان من القرد «كما يزعم داروين» فإننا نستطيع أن نضيف أن العصفور قد انحدر من النسر، لأن كليهما مكسو بالريش، وأن الكلب قد انحدر من الحمار لأن لكل منهما أربعة أرجل، وأن البرغوث قد انحدر من الضفدعة، والضفدعة من القنفر؛ لأن ثلاثهم يستطيع القفز!!..

لقد تمادى بعض أصحاب نظرية التطور في الدفاع عن نظريتهم الوهمية إلى درجة اللجوء إلى الغش. فقد استخدم «إيرنست هاكل» رسوماً للتدليل على التماثل بين الجنين البشري والحيوان. ولكنه اعترف فيما بعد بأن «عددًا من رسومي كانت تزويراً محضاً». وإن مئات من علماء الحيوان قد ارتكبوا نفس الخطيئة [مجلة الجماين زيتونج - ميونخ].

كما أعلن العالم البيولوجي «أوستن كلارك» الأستاذ بمعهد سميثونيان أنه «لا توجد علامة واحدة تحمل على الاعتقاد بأن أيًا من المراتب الحيوانية الكبرى ينحدر من غيره».

إن كل مرحلة لها وجودها المتميز الناتج عن عملية خلق خاصة ومتميزة. لقد ظهر الإنسان على الأرض فجأة، وفي نفس الشكل الذي نراه عليه الآن [مجلة لينراري ديجست].

ثم يأتي الدور على النشوي الشهير «الكونت دي نوي» ليعترف بأن كل مجموعة، كل فصيلة تبدو وكأنها جاءت إلى الوجود فجأة. إننا لم نمش على أي شكل انتقالي،

ومن المستحيل أن ننسب أي مجموعة حديثة إلى أخرى أقدم، ثم يُضيف متحسراً: «إنني ألمح كلّ العلامات المثبّطة على حدوث الخلق المطلق» [الإنسان ومصيره] لماذا يصف هذه العلامات بأنها «مثبّطة»؟ لأنّ الخلق الإلهي يعتبر في نظر النشوي خرافة، ولأنّ الاعتقاد بالخالق العظيم سبحانه وتعالى بالنسبة له لعنة تصيب كبريائه! وإنه لأمرٌ مثبّط أن يجد نفسه بعد سنوات طويلة من البحث وجهاً لوجه أمام حقيقة الخلق المباشر!!..

الحلقة المفقودة في نظرية التطور:

يقول «أنتوني ستاندين» في كتابه «العلم بقرة مقدّسة»: «إنّه لأقرب من الحقيقة أن نقول: إنّ جزءاً كبيراً من السلسلة مفقود وليس حلقة واحدة، بل إنّنا لنشك في وجود السلسلة ذاتها. إنّنا في حاجة إلى ملايين الحلقات ليربط بين الإنسان وبين أي نوع من القروء». ومما يبعث على الحيرة أكثر من نقطه بداية الحياة في هذه السلسلة المفقودة!!..

وقد أغربَ الدكتور المهندس «محمد شحرور» في دعواه أنه قد وجد الحلقة المفقودة عند العلماء الذين بحثوا في نشأة الإنسان كما يزعم في كتابه «ص ١٠٨» فماذا يصنع إذا كانت الحلقات المفقودة تبلغ الملايين؟!..

وعندما عجز النشويون «أصحاب نظرية التطور والارتقاء» عن إثبات انحدار الإنسان من القرد الحقيقي فكروا في نسبته إلى نوع آخر من «القرد - الإنسان» أو «الإنسان - القرد» مؤهّمين بوجود صلة عائلية بينهما ولو على طريقة التخيل.. وعندما ثُمن البحث في هذه النظرية فإنك لن تكتشف سوى افتقارها إلى الأدلة، بل الأدهى من ذلك أنك ستكتشف ميلاً أكيداً إلى اختلاق الحقائق اختلاقاً؟!..

إنّ «إنسان جاوة» الذي اكتشفه «دوبوا» سنة ١٨٩١/ ليس سوى قطعة من مجموعة بها بضعة أسنان، ثم قطعة من عظمة فخذ وجدت على بُعد خمسة عشر متراً منها. وفي المؤتمر الدولي الثالث الذي انعقد في «ليد» أثبت البروفيسور فيرشو أنّ عظمة المجموعة قطعة من مجموعة شمبانزي، وأنّ عظمة الفخذ هي لرجل، وأنّ ظروف اكتشاف هذا «الإنسان» نفسها غير مقنعة.

وأما «إنسان بيلتدو» فقد بُني من شظايا مجموعة، وعظمة فكّ وسنّ واحدة، ويؤكد التقرير الذي وضعه البروفيسور هيرديليكا عن هذه الأحجية العظيمة أنّ الشظايا المجموعة هي لإنسان، أمّا عظمة الفكّ فإنّها من بقايا شمبانزي. وأما أرثركيث فقد أكّد

أن ضمَّ هذه الشظايا يفترض أنها لمخلوق يستحيل وجوده، مخلوق لا يستطيع أن يتنفَّس أو يأكل.

وأما فك «إنسان هيدلبرج» الكبير، فإنه مماثل لفك الاسكيمو المعاصرين. ونفس الشيء على «إنسان بكين» الذي تحمل عظام فكّه نفس ملامح مثلتها في أفراد قبائل «الفيدا» الذين يعيشون اليوم في جزيرة سيلان.

إنَّ معظم هذه الاكتشافات هي من الناحية «الانثروبولوجية» تعتبر أحدث من أن تمثِّل أصل الجنس البشري، فاكشافات لعظام جمجمة مماثلة لعظام جمجمة الإنسان المعاصر يرجع عمرها إلى أبعد من الزمن الذي قدَّره أصحاب نظرية التطوُّر أنفسهم للحلقة المفقودة المزعومة، حقيقة تسبَّب لهم حيرةً أكبر!! يقول البروفيسور «كيث»: «إننا لا نستطيع أن ننسب الإنسان إلى أيٍّ من هذه الأنواع!! وأما البروفيسور «و. برانكو» فيقول: «إنَّ علم الإحاثة: الباليونتولوجيا» لا يعرف للإنسان أسلافًا!! كما يذكر «ايريك واسمان» في «البيولوجيا الحديثة ونظرية النشوء»: «إنَّ البقايا المكتشفة في الحفريات لا تُؤيِّد من وجهة نظر علم الوراثة أيُّ نظرية عن أصل الإنسان!! ويؤكد البروفيسور «فيرشو» أنَّ فكرة «القرد - الإنسان هي محض خرافة»!!..

فلا يفرحَنَّ الدكتور «شحرور» بالانتصار الوهمي لأصحاب نظرية النشوء والتطوُّر، فقد ذهبت «نظريته» التي بناها على نظرياتهم أدراج الأوهام والخيالات، وسقطَ زعمُهُ أنَّ الإنسان بشرٌ من المملكة الحيوانية حوَّلته نقلةً نوعيةً إلى إنسان!!.. [كما في كتابه ص ١٠٨].

نظرية التطوُّر والارتقاء تنقضها شهادة الصَّخور:

حاول أصحاب نظرية التطوُّر والارتقاء أن يوجودوا لدى النَّاس انطباعاتاً وهمياً بأن الجيولوجيا تؤيِّد نظريتهم، [التي مؤدَّاها أنَّ الكائنات الحيَّة البسيطة التي عاشت في أزمان ماقبل التاريخ قد تطوَّرت تدريجياً إلى أشكال حيَّة أكثر رقيّاً نراها الآن. وُجدت هذه النظرية من الأشكال الأكثر بساطة من الحفريات في أعماق طبقات الصخور، والأشكال الأكثر رقيّاً وجدت في طبقات الصخور الحديثة التكوين. ومن التماثل في التركيب الجسماني للتدنيات الذي كشفت عنه الدراسات البيولوجية] بيد أنَّ الحقيقة هي على عكس ذلك، فكما يقول «داروين» نفسه: «إنَّ الجيولوجيا لا ترينا دليلاً على عملية التدرُّج» وهذا هو الاعتراض الرئيسي الذي يواجهه كتاب أصل الأنواع: «أنَّ الطبقات الأولى من البقايا، وهي ما يُسمَّى بـ: «الطبقات الكمبرية» ترينا أول ظهور مفاجيء

للحياة تحت أشكالها المختلفة. وليس في هذه الطبقات ما يشير إلى الارتقاء من مادة حية عديمة الشكل. أما طبقات الصخور الأقدم والتي تُسمى «ما قبل الكامبرية» فخالية تماماً من أي بقايا. وبينما طبقات البقايا الأولى تخص أنواعاً لازالت موجودة حتى يومنا هذا، لم يُعثر على أي بقايا تمثل حلقات انتقالية لتثبيت صحة نظرية النشوء والارتقاء فيما يتصل بتغير الأشكال.

إن الحياة طبقاً لما تزعمه هذه النظرية نشأت منذ مليار ونصف مليار سنة، ولكن البقايا المكتشفة لا تغطي أكثر من نصف مليار سنة. أي أن أصحاب نظرية التطور والارتقاء يُغمضون أعينهم عن مليار سنة، ثم يسمّون أنفسهم «علماء»!!

والجيولوجيا أيضاً تؤكد أن أشكال الحياة لا تتخطى الحدود بين الأنواع. ويؤكد علم «الباليونتولوجيا» أن الوطواط الأول كان وطواطاً حقيقياً، وأن الحوت كان حوتاً حقيقياً، وأن أول طائر كان طائراً حقيقياً مكسوّاً تماماً بالريش. وكل هذا يأتي بنا إلى ما بلغ به كل الأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام من أن «الله خلق كل شيء على نوره الذي نراه الآن» وهذا يتعلق بالاعتقاد الجازم الذي قامت عليه البراهين والشواهد والدلائل القاطعة على إثبات «الخلق المباشر»!! وهذا ما أثبتته القرآن العظيم!!..

وأما الزعم القائل بتوارث الصفات المكتسبة الذي تصوّره «لامارك» فإنه يفترض أن المخلوقات تكسب صفاتها بتأثير البيئة التي تعيش فيها، وأن هذه الصفات قد انتقلت عبر الزمن إلى سلالاتها، وأن مرور فترة كافية من الزمن قد أتاح خلق أنواع جديدة.

إن نظرية «لامارك» لا تعدو أن تكون ضرباً من الهرطقة. لأن الصفات المكتسبة لا تورث. وطبقاً لما نشرته «مجلة لايف»: «أنه حتى سنة ١٩٠٠ كان علماء البيولوجيا يعتقدون أن الصفات المكتسبة تورث، حتى أثبت علم الأجنة العكس»، ولقد علّق «داروين» على قول «لامارك» قائلاً: «فلتحفظني السماء من جنون لامارك» ثم اتجه إلى فرضية بقاء الأقوى؛ أي الاختيار الطبيعي.

ماقيمة نظرية الاختيار الطبيعي لداروين؟:

يقول البروفيسور «لوك» من جامعة كمبريدج في هذا الخصوص: «إن الاختيار سواء كان طبيعياً أو اصطناعياً لا يمكن أن يخلق شيئاً جديداً». ويعلن «هوجو ديفرز»: «أن الاختيار الطبيعي يمكن أن يُفسّر بقاء الأقوى، ولكنه لا يستطيع تفسير وجوده أصلاً»!!

وأكثر من هذا، فإن الاختيار الطبيعي حريّ بنذ أي تعديلات عديمة الفائدة إذا

ماأخذنا بمقولة «داروين» من أن: «كلّ التغيّرات العديمة الفائدة يُقضى عليها بلا هوادة». وفي وقتنا الحاضر، فإنّ معظم النشويّين يبنّون نظرية داروين في الاختيار الطبيعي ويأخذون بدلاً منها بنظرية التحوّلات؟!...

ولكن التحوّل يُؤدّي إلى الإنحدار بدلاً من الارتقاء!

وذلك نظراً لضخامة عدد الجينات ومكوّناتها، فإنّ كمية التغيّرات الممكنة في كلّ نوع هائلة، ولكنّ كل هذا لا يخلق جيّنة جديدة، فإنّ الصفات الموجودة فقط هي التي تتطوّر. إنّ قانون «مندل» عن الوراثة يعرض تناسباً في التغيّرات، ولكنّ الكلاب تظل هي الكلاب، والقطط هي القطط، والإنسان هو الإنسان.

وغالباً ما تكون تلك التغيّرات من صنع الإنسان واختياره الاصطناعي. فلو تركت الحيوانات التي استؤنست بواسطة الإنسان لعادت إلى حالتها الطبيعية. إنّ الجينات يمكن أن تعاني بعض التحوّلات أو التغيّرات، ولكن في حالات نادرة جداً. وهذه هي الشبهة الأخيرة التي يتعلّق بها أصحاب نظرية التطوّر والارتقاء.

وحتى هذه الحالة فإنّ التحوّلات ليست وليدة عملية ارتقاء طويلة، وإنما نتاج قفزات مفاجئة، ترخي ستائر النسيان على البقايا والحلقات المفقودة. ولكن بعد تفجير الدّرة أصبح من الممكن دراسة مثل هذه التحوّلات. وكانت النتيجة مخيبة لآمال أصحاب نظرية التطوّر والارتقاء.

فالحقيقة أنّ التحوّلات لا تؤدّي إلى تحسين الأنواع، وإنما هي تحولات ضارة، فنحن نقرأ في مجلة «لايف»: أنّ الإشعاع الذّري هو كابوس عالم الأجنّة المزعج. لماذا إذن نخشى التحوّلات إذا كانت هي العنصر المحرّك في عملية التطوّر، والعون الأساسي على تقدم الإنسان؟!...

من بين كل هذه التّصوّرات الخاطئة تظهر هذه الحقيقة: «إنّه من المستحيل خلق أنواع جديدة من خلال الصفات المكتسبة، أو الاختيار الطبيعي من خلال التحوّلات».

لقد اتفقت أبحاث «موللر» ودراسات «دونالدسون» على أنّ: «التحوّلات الصغيرة تضعف، والتحوّلات الكبيرة تُقتل». وبالرغم من أنّ الجينات قادرة على إنتاج كثير من التّنووعات في مجموعة ما، إلّا أنّ نفس ميكانيكية هذا التّنووع تدمر أيّ تغيّر يخرج عن نطاق الحفاظ على كل نوع بكامل خصائصه كما أرادها له الخالق العظيم تبارك وتعالى!!.

فالواضح الصريح أنّ نظرية التطوّر والارتقاء عاجزة عن التدليل على حدوث أيّ

ارتقاء تقدّمي، وإنّما على العكس من ذلك تؤدي إلى الانحطاط والانقراض في الأشياء على ظهر الأرض؟!.

والكون والحياة ليسا وليدي الصدفة؛ وإنّما خلقهما الله تبارك وتعالى، فهذه هي الحقيقة!! وهذا هو الواقع!! وهذا ما أثبتته العلم!!.

آدم وحواء هما الأبوان للبشر جميعاً!

هذه الحقيقة يرغب أصحاب الميول الالهادي في إنكارها، ولكن بعد أن قام البرهان على خطأ كل من الفرضيتين القائلتين بتطور الإنسان من المادّة الحيّة - من المملكة الحيوانية - أو من القرد المزعوم؛ فلنتطرّف ماذا ورد في مجلّة العلوم المصوّرة "Science Illustrated": «إنّ العلم يؤيّد قصّة آدم وحواء، إلى حدّ ما. إنّنا نعتزّف بحقيقة فكرة الأسرة البشرية ذات الأصل الواحد»، عندما تكاثّر بنو البشر واختلطت الجماعات المنعزلة وتزاوجت، أنتجت خصائص عنصرية مختلفة. وبدلاً من الارتقاء إلى أعلى، تُؤكّد الحقائق أنّ الإنسان يتدهور ذهنياً وجسدياً، وبرغم تقدّم الطب فإنّ الأمراض الجسدية والعقلية تتزايد. ورغم أنّ المتوسط العام لطول العمر يتزايد تبعاً لتناقص الوفيات بين الأطفال، إلّا أنّ مدى عمر الإنسان أقصر من مدى عمر أسلافه. وفي هذا المعنى جاء في المجلّة الطبيّة البريطانيّة في عدد مارس سنة ١٩٤٦: «لقد عثّر الأثريون على بقايا بشرية تعود إلى زمن ما قبل الطوفان. وتدلّ هذه البقايا على طول أعمار غير عادية لأصحابها، وكان من أكثر مألّفات الأنظار هو أنّ أسنانها برت حتى وصلت إلى اللثة من طول استعمالها. وثمّة دلائل قديمة وفيرة تؤكد أنّه قد عاش على ظهر هذه الأرض جنس من نوع أروع في كماله الجسدي وجمال عضلاته، وأكبر في حجم جمجمته من الإنسان المعاصر. وأطول منه عمراً إلى حدّ كبير».

وتزعم نظرية «التطوّر والارتقاء» أنّ اللّغة قد تطوّرت عن الخوار والزئير، ولكنها لا تقدّم دليلاً واحداً يؤيّد به هذا الزعم. وفي مجلّة «العلوم المصوّرة»: «أنّ أقدم أشكال اللّغات الموجودة حالياً كانت أكثر تعقيداً من صيغتها المعاصرة، وغالباً ما نجد أنّ لغات القبائل البدائية والبربرية أصعب تعلّماً من اللاتينية أو الإغريقية أو السنسكريتية. فإن كان هذا هو الأمر، فإنّه من الواضح إذن أنّ الإنسان لم يبدأ بأسلوب اتّصال بسيط، ولكنّه امتلّك من قديم الأزل لساناً ناطقاً ذرياً، أخذ يتّجه تدريجياً إلى ما هو عليه حالياً من بساطة». وحتى وقتنا هذا نجد أنّ اللّغة الإيطاليّة أبسط بكثير من سالفاتها اللاتينية، وأنّ انجليزيّة اليوم هي أبسط بكثير من إنجليزيّة شكسبير.

وهذا ماجاء به القرآن العظيم: أَنَّ الله تعالى عَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا، كما في [سورة البقرة آية ٣١]، وَأَنَّهُ من هذه المفردات التي علمها آدم عليه السلام قد انبثقت جميعُ اللُّغات!! والعَلَمُ أَيَّدَ صحة ماجاءت به الرسل عليهم السلام في هذا الخصوص.

وبهذا يسقطُ زَعْمُ «الدكتور شحرور» في كتابه «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» حيث يقول ص ٢٨٧: «عندما أصبح البشر جاهزاً من الناحية الفيزيولوجية لعملية نفخة الروح «الأنسة» وذلك بانتصابه على قدميه وتحرير اليدين، وبوجود جهاز صوتي قادر على إصدار نغمات».

ومن هرطقته زعمه في قول الله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ ص ٢٨٨: «كان البشرُ مايزال في المملكة الحيوانية قبل الأنسة، ولكِنَّ قائم على رجله، وله جهاز صوتي قادر على التنغيم المختلف، وكان تصرفه كالبهائم...». وزعمه في ص ٢٩٠: «إِنَّ البشر وجد على الأرض نتيجة تطوُّر استمرَّ ملايين السنين...». هكذا يزعم من غير أن يأتي ببرهان علمي يُؤيد زعمه، وهو بهذا مقلِّد لمقالات النشويين من غير بصيرة ولا علم!! وإغراقه في جهالاتهم يقول ص ٢٠٢: «فلذا أردنا أن نبحث عن بداية ظهور البشر نوعاً متميزاً على سَلَمِ التَّطَوُّر والنشوء، فعلينا أن نبحث عن مرحلة ظهور الأنعام على نفس السَلَمِ، حيث كانت غذاءً له حتى وهو في مرحلته الحيوانية!؟».

الإنسان ليس أصله حيواناً:

هذا ما أثبتته العلم، ومن قبله كتاب الله تعالى، قال الله تعالى في سورة الذاريات آية ٥٦: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فكما أن الجن وُجِدَتْ بالخلق المباشر، كذلك الإنسان وُجِدَ بالخلق المباشر، حيث خلق الله تعالى هذين الجنسين لغاية خاصة ألا وهي «للعبادة»، فليس صحيحاً قطعاً أَنَّ الإنسان تطوَّر عن حيوان... بدليل قول الله تعالى في أول سورة النساء آية ١: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ [وهي آدم] وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا [وهي حواء] وَبَيْنَهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً...﴾ فأثبت أصل الخلق من نفس واحدة وهي نفس آدم عليه السلام، وبهذا يظهر كذب القول بأن أصل الإنسان «من المملكة الحيوانية».

وقد أثبت القرآن العظيم أصل خلق الإنسان: أَنَّهُ كان خلقاً مباشراً، كما في سورة الرحمن آية ٤٣: ﴿خَلَقَ الْإِنْسَانَ. عَلَّمَهُ الْيَتَانَ﴾، و«خلق الإنسان من صَلْصَالٍ كالْفَخَّارِ» سورة الرحمن آية ١٤، «وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمِإٍ مَسْنُونٍ»

سورة الحجر آية ٢٦، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ سورة المؤمنون آية ١٢، وفي سورة التين آية ٤: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾، فهذه أدلة قاطعة تثبت خلق الإنسان مما ذكر الله تعالى على أحسن تقويم، فيبطل القول بأن أصل الإنسان حيوان؟!..

إن الإنسان هو المخلوق الوحيد الذي يملك عقلاً متميزاً عن الغريزة. وهو المخلوق الوحيد القادر على التقدم ثقافياً على أساس من المعرفة المكتسبة بالتعليم من الأجيال السابقة، بينما تبقى جميع الحيوانات عند نفس المستوى الذهني الفطري الذي كان عليه أسلافها. وأحياناً يبدو أن حيواناً ما يتصرف بحكمة أكثر مما لدى الإنسان، بيد أن هذه ليست حكمة واعية، فهي محددة جداً، وعاجزة عن التكيف مع الظروف من خلال التفكير المنطقي. والضمير الأخلاقي والأدب الإنساني وقف على الإنسان وحده - رغم أنف أصحاب نظرية التطور - وسواء كان ذلك الخلق أو تلك الآداب موروثاً أو مكتسبة، أو كانت معاييرها محكومة بالزمان والمكان، فإنه حقيقي مثلما أن الرجل الذي لا خلق له ولا أدب، فإنه كان ولا يزال معتبراً دائماً شخصاً ناقصاً منبوذاً في المجتمع، ومن لا ضمير له يمنع من السفاهة والحماسة الرذيلة، فإنه يعتبر دائماً شخصاً مريضاً مؤذياً محترقاً من المجتمع. والإنسان وحده أيضاً هو الذي يعلم أبناءه الأخلاق والدين والأدب والحكمة. أما الحيوانات على كافة أشكالها فلا تعلم صفاتها إلا ما هو غريزي لحفظ بقائها، فلا ترتقي إلى أكثر من ذلك. والإنسان وحده الذي خص بالتكيف في الدين والعقيدة والشرعية، فهو الوحيد بين المخلوقات الأرضية يتوجه بذلك إلى الخالق العظيم بالعبادة والتعظيم، ولم نجد هذا في أي جنس من أجناس الحيوانات؟!.

وهذه الحواس الخمس التي تميز بها الإنسان، والوظائف العصبية التي خص بها من دون سائر المخلوقات، وكذا الشعور والإحساس والحياء والبشر والشُّرور، كل هذا يدلّ دلالة واضحة على أنه مخلوق خلقاً مباشراً كما صوّره الله تعالى!!..

وهذا الدماغ الذي يعمل العقل من خلاله فيما توصّل إليه الإنسان حتى هذا الوقت من مخترعات وتقنيات مدهشة؛ يدلّ بشكل قاطع على أن الإنسان لم يتطور عن حيوان أبداً، وهذه الحقيقة الراسخة دونها الملايين من الأدلة والبراهين في إثبات أصل الإنسان وأنه ليس منحدرًا أو متطورًا عن حيوان، وأما الزعم الذي يزعمه أصحاب نظرية التطور والارتقاء فليس على إثباته دليل علمي، ولكنّ الوهم والمكابرة في عدم التصديق بالخلق المباشر الذي أخبر به الله تبارك وتعالى في كتابه الحكيم، هو الدافع في

الإصرار على ذلك الزعم الكاذب!!؟..

إذا كان عقل الإنسان يقف مذهولاً أمام ضخامة الكون!! كما يقف مندهشاً أمام ضخامة أصغر الكائنات!! فكيف إذن يقف أمام حكمة الخالق العظيم فيما أبدع وكون وخلق؟! إن العلم يكشف فقط أسرار الكون... ولا يقدر على شيء سوى أن يسير وفق قوانينه وأنظمته!!..

إن الكهرباء التي تعتبر أساس التقدّم التقني الحديث موجودة في سمكة «الانقليس» الكهربائية، و فراشة النّار التي تطلق إشارات ضوئية دون استعانة بمحطّة توليد كهرباء!! وبيث العنكبوت، وعش الطير، ونفق القندس، وخلايا النحل المكيّة الهواء، والنسيج الورقي للدبور، والقناطر التي يبنها النمل؛ على أيّ مصدرٍ اعتمدته في ذلك؟ وعن أيّ تطورٍ حصلت عليه؟ وهذه الطيور المهاجرة التي تعبر المحيطات دون الاستعانة ببوصلة، وعثة الليل التي تستخدم الأسلاك، والوطواط الذي يتمتع بتوجيه راداري، هذه وغيرها من المخلوقات... من أيّ مصدر تلقّت ذلك؟ أو عن أيّ نظام أو قانون تطوّرت عنه؟ إن مقولة «التطور والارتقاء» من خرافات الوهم وهرطقة الخيال، التي تدعو إلى ترك ما أنزل الله تعالى في القرآن العظيم من الحقائق العلمية والكونية، لشيء غير ذلك!!؟..

٦ - الأصالة والمعاصرة

يتعرّض المسلم المعاصر لخطرٍ مُواجهَةٍ فقْدانِ الأصالة في الفكر والمنهج، أو التَّنكّر للأصالة بدعوى المعاصرة والتطور، وبالتالي الارتداء على منهج التجديد والحداثّة المستورد من الخارج. هذه الدعوات ذات الأسماء البراقة لا يعجزُ الفكر الإسلامي على مواجهتها على طريقته الخاصّة التي تقوم على أساس عرضها على «أصله» الأصيل وميزانه الصحيح [القرآن والسنة]، ذلك أن هناك أخطاراً تواجه الأصالة دائماً في هذا العصر بالذات، وتخفي وراء أساليب براقة: أبرزها «المعاصرة - التطور - التجديد - الحداثّة»، وهي تحملُ التَّبعية والتَّغريب التي تريد أن لاتركَ معياراً ثابتاً للإسلام، والقرآن، والسنة، والتبوة، والرسالة، والعقيدة، والشرعية وما يتضوي تحتها من أصول العقيدة وفروع الشريعة. وأقرب مثال على المعاصرة المحرّفة المضطربة كتاب الدكتور المهندس «محمد شحرور» فيما أسماه بـ«الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة»^(١). فلم يترك فيه شيئاً من المصطلحات الإسلامية إلّا أخضعه لمتغيّرات

(١) سيأتي «التحذير من خطورة القراءة المعاصرة على منهج الصراع الجدلي الفلسفي».

المعاصرة والتطور، فتناول لفظ «الكتاب» فحرف معناه وبدل اصطلاحه، كما تناول «القرآن» فحرف معناه وبدل في دلالاته، وتعرض «الكلمات الله» فأحدث لها معاني ووضع لها مصطلحاً لم يُعهد من قبل، وبحث في نزول القرآن فابتدع له معاني من صميم الخيال، وبحث في النبوة والرسالة، فقسمها إلى أقسام: قسم هو تطور في المعلومات، وقسم هو تطور في الأحكام؛ فجعل للنبوة معلومات متطورة - وللرسالة أحكاماً متطورة - أما النبوة فلها قرآن لاطاعة فيه، فهو علوم - وأما الرسالة فلها قرآن لاطاعة فيه واجبة ضمن ثبوت النص وتطوير المحتوى - وآيات الأحكام قابلة للتزوير وليس فيها أي إعجاز، وآيات الأحكام ليست من كلام الله، وكلام الله هو الكون.. والقرآن ليس كلام الله، لأنه عربي، فلو كان القرآن العربي كلام الله، لكان الله جنسه عربي؟؟؟..

إلى غير ذلك من التحريف والتزييف في إعجاز القرآن وتأويله، ومحكمه ومتشابهه، وآيات الذكر، وآيات الكتاب، وآيات خلق البشر وتطور الإنسان، وآيات الجنة والنار، وآيات الروح، حيث وضع لها معاني مستحدثة وفق قوانين الجدول، وكذلك الوحي، وعلم الله، وقضاء الله وقدره، والأعمار والأرزاق والأعمال، قد أحدث لها دلالات ومصطلحات، ثم تناول الحدود في التشريع والعبادة، فابتدع وحرف وابتكر وزيف، ثم عرج على الفرقان فجعله الوصايا العشر «الأخلاق»، ثم أتى على المنكر والمعروف، فطور مفهومهما، وجدد في دلالاتهما.

ثم بحث في السنة، فجعلها التفاعل الأول للإسلام في القرن السابع الميلادي، وهذا التفاعل غير صالح لهذا العصر، ثم أحدث سنة للرسالة، وسنة للنبوة، ثم تناول جمع الحديث وتدوينه وفهمه، وجعل كتب الحديث النبوي كالأنجيل التي عند النصارى، ثم تناول أزمة الفقه الإسلامي، فوضع لحلها أحدث النظريات التفاعلية، وضرب على ذلك مثلاً في نموذج للفقه الجديد في دراسة موضوع المرأة، على أحدث طراز غربي متطور في الشكل والمضمون، وكذا الزواج والإرث - وزعم أن آيات الإرث ليست من القرآن - كما طور في مفهوم لباس المرأة وسلوكها الاجتماعي، وعلاقتها بالرجل. ثم عاد فبحث تحت عنوان [الباب الرابع في القرآن: الشهوات الإنسانية - النظام الاقتصادي - المفاهيم الجمالية] على أسس التفسير المادي للحياة.

وهكذا يمضي في أبحاثه على تلك الوتيرة في تغريب الإسلام، وتطوير معالمه، وتحديث مصطلحاته، بما لا يترك فيه قيمة ثابتة أبداً؟؟؟؟..

كل ذلك تحت مظلة هذه التسمية «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» فقضى بالمعاصرة على كل ما هو ثابت في القرآن.. والإسلام..

الأصالة هي المنطلق للمعاصرة:

إن الفكر الإسلامي يلتزم في انطلاقته نحو المعاصرة بالثوابت العلمية، والضوابط المنهجية، التي أسسها الإسلام على أمتن القواعد على مدى تاريخه المشرق المنير، فكانت ثوابته وضوابطه كالمنار المضيء في ظلمات الليل ولا زالت؛ فهي تهدينا إلى الطريق السوي والمنهج المستقيم!!

فالأصالة في الإسلام هي التي تدعونا إلى التزام ذلك بكل حزم وتصميم صيانة لكياننا، وحفاظاً على شخصيتنا، وتحقيقاً لمصالحنا، واستفادة من تجارب الشعوب، دون أن نفقد أصالتنا!! وهذا يعني تكامل حاضرنَا المرتبط بماضينا المتصل بمستقبلنا؛ فليست الدعوة إلى الأصالة تستهدف الجمود ولا تقليد الماضي، وإنما هي الارتباط بالنسب، كارتباط الفرع بالأصل. وذلك حفاظاً على ينبوعه الصافي الذي انطلق منه الفكر الإسلامي نقياً طاهراً لم يختلط بأوشاب الفلسفات القديمة والمعاصرة التي شتاتها الآراء المتناقضة والمفاهيم المتعارضة، وذلك تصديقاً بأنه من ترك الإسلام ضلَّ في الظلام..

إن مفهوم الأصالة في التفكير الإسلامي يختلف عنه في التفكير الغربي، فإن نظرة الغرب للتطور ساقته إلى التغيير الكامل، حيث لم تعُدْ تهمة أي قضية في الأصالة التي يتسبب إليها، فقد فصل الكنيسة عن الدولة.. والدِّين عن الحياة.. فلم يترك له التجدد أي ارتباط بماضيه الذي كان عليه عبئاً ثقيلاً، فهو ينظر إلى ماضيه من المنظار اللاهوتي المتسلط على مقدراته..

ومن هنا كان الإحساس الغربي بالأصالة مشلولاً، لأن تحوله المادي لم يترك له تذوقاً من ماضيه اللاهوتي من سعادة أو هناء..!!

وحينما حاول بعضُ فلاسفة الغرب صياغة أصالةٍ حديثة، ارتدُّوا إلى صياغة الأساطير، فقد اتخذ «فرويد وسارتر وداروين» وغيرهم.. من الأساطير أصولاً لنظريات علم النفس والوجودية، والتطور والارتقاء..!!

أما الأصالة في المفهوم الإسلامي فهي دائماً بمثابة الأساس للبناء!! فالتجدد فيه من قوته الذاتية، جعلها علامة على بقاءه وديمومته، وذلك فيما تمثَّل في أصول «الاجتهاد» وقواعد «الاستنباط» وضوابط «التشريع»، وهذا هو الامتداد المستمر للأصالة الإسلامية!!..

والأصالة الإسلامية هي ذلك التراث النقي والميراث الحي الذي يقوم عليه الاجتهاد، والاستنباط، والتشريع: هو «القران العظيم، والسنة النبوية المطهرة

الصَّحِيحَةُ!! هذان المصدران اللذان يَمَدَّان الفكر الإسلامي بجميع المعطيات في الحضارة والتَّقَدُّم والرَّقِي، وعلى كل صعيد [ولقد تقدم ما يثبت ذلك في الكلام عن: الإسلام خاتم الأديان الباقي على الدوام].

إنَّ الدعوةَ إلى تغليب «المعاصرة» على الأصالة، إلى أن تأتي على الثَّوَابِت فتبدِّلها، وإلى الضَّوَابِط فتبدِّدها؛ دعوةٌ مسمومةٌ، ومحاولةٌ ممكورةٌ، يقصدُ من ورائها القضاء على الإسلام، أو إضعافه بإيجاد أفكار جدلية متضاربة متعارضة متافرة.

والقول بأنَّ الأصالة هي «التاريخ» هو قول زائف باطل، بل الأصالة هي «القرآن العظيم والسَّنة النبوية الصَّحِيحَةُ» على منهج الأئمة المتميِّز بالنصارة والاستنارة!!..

وأما التَّراث الإسلامي: فإنَّه تلك الحصيلَةُ الكبيرةُ الفخمةُ التي تركها لنا الأئمةُ الأعلام، ونَمَّها لنا علماءُنا الأبرار، على مَدَى خمسة عشر قرناً من تاريخ الإسلام؛ من نوايخ الأفكار وقرائح الأفهام ودقائق الأسرار، فهي تمثل التجديد المستمر لحركة التَّقَدُّم والرَّقِي في الفكر الإسلامي!!..

إنَّ الذين يقولون: «إنَّ الفقهاء والعلماء قدَّموا لنا الإسلام تراثاً ميتاً، وكان عيباً على المسلمين» إنَّما يقولونه زوراً وبُهتاناً؛ حقداً على الإسلام ومكراباً للمسلمين؛ لِيَسْلَخُوا عن أصالتِهِمْ، وَلِيَدَوُّوا في ضَهَارَاتِ الأجنبي التي يُوقدها في صدور وعقول عملائه الذين يثَّهم بينهم. إنَّ المعاصرة التي يُعلنها هؤلاء ويدعون إليها فيما قدَّموه للمسلمين تحت ظلِّ هذه التَّسمية: «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» إنَّما يُراد منها الانسلاخ عن أصالة القرآن والإسلام، تقول الكاتبة الأمريكية المسلمة «مريم جميلة»: «إنَّ البلاد الإسلامية قد وقعت فريسة مصطلحات خاطئة، ومنها مصطلح «العصرية» وقد جنَّى هذا المصطلح على الإسلام جنائياً كبيراً» فالعصرية أو «المعاصرة» بالمفهوم غير الإسلامي، تعني عدم الرضا بالإسلام ديناً معقولاً مفهوماً لدى شعوب الدنيا. أو أنها تصوِّر الإسلام بتصوير عربي غريب، بأن يُفسَّر الدِّينُ والعقيدةُ والشرِعةُ تفسيراً جديداً يثبت به أنَّه ليس ثَمَّة تعارض بين الإسلام المعاصر والحضارة الغربية. بمعنى أنَّ يبقى اسمُ الإسلام، ويحوَّز مضمونه؛ هذه هي المعاصرة المحمومة التي تُخَمِّلُ إلى المسلمين تحت اسم «الكتاب والقرآن»!!؟؟..

٧ - التَّراث الإسلامي فكرٌ حيٌّ

لكل أُمَّة تراثٌ هو فكرُها وعقيدَتُها وحصيلَةُ خبرتها..

ولأُمَّة الإسلام تراثُها هو نتاجُ تفكير أئمتِّها، وحصيلَةُ اجتهاد سلفِها، وخلاصةُ أفكار

علمائها، عبر مسيرتهم الطويلة والمستمرة والمتواصلة مع القرآن العظيم والسنة الصحيحة!! فلم يخلُ قرنٌ من القرون الخمسة عشر من تاريخ الإسلام، إلا وكان حافلاً بالعطاء الفكري المتدفق، وهو وإن تخلله فترات ركود، غير أن الله تبارك وتعالى يبعث على رأس كلِّ مائة سنة «مَن يُجدِّد لهذه الأمة أمر دينها»!!! كما هو ثابت في الحديث الصحيح.

ولقد كانت العلوم الإسلامية: من القراءات القرآنية، والزوايات النبوية مستفيضة في أرجاء الأمة، تُحيطها علومُ اللغة بأنواعها، وتصحبها علومُ القرآن والتفسير بأسرها ويرعاها أصولُ الفقه وقواعده بأجمعها، فكانت بذلك ولازالت ذات ضوابط ثابتة، وقواعد محكمة، فما أصابها ما أصاب علومَ أهل الكتابين، من التحريف والتزيف والتبديل والتغيير. فإن حصلَ لدى أحدٍ خطأ في تفكيرٍ أو اجتهد، فإنه سرعان ما يجدُ مَنْ يُصلح هذا الخطأ، ولهذا نجد الفقه الإسلامي مُحاطاً بجوانب منيعة تمنع من تفشي الخطأ في الاجتهاد، أو فسوْ خطأ المجتهدين، فالأقوال الضعيفة لا يُفتى بها، والآراء المرجوحة لا اعتدادَ بها، والاجتهادات المخالفة لنصوص القرآن والسنة محكومٌ بردها، وكذلك الأمرُ والحالُ في التفسير والتأويل، أو فيما سوى ذلك من الثقافة الإسلامية، فإن لها معاييرَ تضبطها، وموازنَ تُقاس بها، لاتخفى على أحدٍ من العلماء والباحثين، ولهذا كان التراث الإسلامي: من التفسير والتأويل والفقه واللغة؛ قلَّ أن تقع عليه العوادي، لكثرة علمائه وفقهائه وحُفاظه ومحدثيه وشيوخه، فلما قلَّ هؤلاء في هذا الزمان، كثرت هجماتُ العداء على حُرُماته، فإننا نرى بينَ الحين والحين مَنْ يخرجُ بتفسيرٍ منحرفٍ، أو بتأويلٍ باطلٍ، أو بقراءةٍ مزيفةٍ، بعضها باسم «رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن» لمحمود غراب، الذي جمع فيه من الأباطيل ما الله يُخزيه به، وبعضها باسم «تأويل جزء عم» جمعه عبد القادر يحيى، ونسبه للمدعو «محمد أمين شيخو» الذي كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب. وقد حشدَ فيه جامعهُ أكثر من ثلاثمائة خطأ في اللغة والتفسير والتأويل والأحكام الشرعية. ومنها باسم «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» للدكتور المهندس محمد شحرور، الذي حشدَ تحت هذه التسمية أكثر من ثلاثة آلاف أغلوطة متعمدة بأسلوبٍ فلسفي جدلي، سفسطائي، ومنهج مادي ماركسي، ومفهوم غربي إلحادي. وخلاصته: «جمعٌ لمزاعم المستشرقين والمبشرين وتأويلات المنحرفين، وتجسيدٌ لأفكار الفلاسفة المعاصرين، أمثال فرويد وداروين وكاُنت وهيجل وديكارت وانجلز، وسواهم من أصحاب الوجودية والإلحاد».

فهذه الكتب، وإن ظهرت بأسماء إسلامية، وتسميات قرآنية، فهي من الكتب

المنحرفة، لاتدخل في حيز التراث الإسلامي، فيما لو بقيت... ونحن نقول هذا حفاظاً على التراث الإسلامي من أن يدخله مالمس منه. وهذه أمانة معلقة في أعناق العلماء المخلصين العاملين والدعاة المصلحين والمثقفين الواعين وطلبة العلم المثابرين، يحملها في كل جيل كابر عن كابر إلى أن يرث الله تعالى الأرض ومن عليها!!..

إن في أعناق الأجيال الحاضرة «أمانة» رعاية التراث الإسلامي، يجب أن يؤدوها إلى الأجيال القادمة، بعد أن يؤدوا دورهم إزاءها، ويقوموا بمسؤوليتهم نحوها، تلك هي أمانة «الموروث الإسلامي»!! لقد قام أسلافنا بحمل هذه الأمانة وأدائها بلا كلل أو ملل أو تباطيء أو كسل، فزادوا عن حياضها ودافعوا عن حُرُماتها، فصدوا عنها كل عدوان، وحفظوها من كل دخيل، ودحضوا كل تزيف، كل بقدر استطاعتهم وفي حدود تحديات عصرهم.

هذه الأمانة اليوم بين أيدينا نحملها لمن بعدنا؛ وهي بين أيدي هذا الجيل الذي يواجه مسؤوليات أشد خطورة وأكثر عمقاً، مع تعدد الحركات الهدامة من «استشراقية، وتبشيرية، وشعوبية، وتلمودية صهيونية ومادية ماركسية، وإباحية غربية» وكلها تعارض الأمانة وتسعى إلى إبطال حملها، وهي تحاول جاهدة أن تجد في صفوف الأمة ثغرة تنفذ منها إلى دينها وعقيدتها وشرعها وأخلاقها، لتقطع الصلة بين المسلمين والإسلام.

ومنذ اختتم الله تبارك وتعالى رسالته وأكمل دينه وأتم نعمته على هذه الأمة كما قال سبحانه: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [سورة المائدة آية ٣]، والأمة تحفظ هذا الدين وتنشر هدايته وتجاهد في سبيله، وتصور أمانته، فكان جميع المسلمين هكذا يدافعون عن الإسلام، وينشرونه في العالمين، ويهدون إليه الأمم، ويكشفون عن عظمته وأسراره وأمجاده ومعطياته في عالم حالك بالظلم والظلمات، فأخرجوهم به من الظلم إلى عدله، ومن الظلمات إلى نوره، ومن الضلال إلى هدايته، ومن الضنك إلى سعادته، ومن الخوف والضياع إلى أمانه وأمانه!!..

هكذا كانت أمانة «الموروث الإسلامي» في أيدي هذه الأمة على مدى تاريخ حياتها!! يقول الإمام الترمذي: «إنا وجلنا دين الله مبنياً على ثلاثة أركان: على الحق والعدل والصدق! فالحق على الجوارح، والعدل على القلوب، والصدق على العقول»!.

فإذا افتقد العدل خلفه الجور، وإذا افتقد الحق خلفه الباطل، وإذا افتقد الصدق خلفه الكذب. فعلى ضوء «منهج الإسلام في ثوابه العلمية، وضوابطه المنهجية»

نستطيع أن نصل إلى أعماق الفهم في الإسلام، ومن هنا نكون قادرين على بيانه للناس؛ فلنقدّم «الإسلام بترائه الأصيل» للعالم: نقدمه صحيحاً سليماً، كما بعث الله به رسوله محمداً ﷺ من غير تحريف ولا تزيف، نُقدّمه على حقيقته من خلال منهجه وعلى طريقته بالضبط والاتقان، وليس كما فعل فيه أصحاب المناهج الضالة، من المشبوهين الموترين المنبذين القادمين من الغرب، أو العاملين لمصالحه، الذين كانوا مصدرَ التبعية والهزيمة والنكسة.

فإلى ميراث الإسلام أيها المسلمون: «كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ»، ففي صحيح أبي داود /٣٠٩٦/ وصحيح ابن ماجه /٢٢٣/ من رواية أبي الدرداء رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيقاً يَبْتَغِي فِيهِ عِلْماً سَهَّلَ اللَّهُ لَهُ طَرِيقاً إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الْمَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنَحَتَهَا لَطَالِبِ الْعِلْمِ رِضاً بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ الْعَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ حَتَّى الْخِيَتَانِ فِي الْمَاءِ، وَفَضَّلَ الْعَالِمَ عَلَى الْعَابِدِ كَفَضَّلَ الْقَمَرَ عَلَى سَائِرِ الْكَوَاكِبِ، وَإِنَّ الْعُلَمَاءَ وَرَثَةُ الْأَنْبِيَاءِ، وَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يُورَثُوا دِينَاراً وَلَا دِرْهَمًا، وَإِنَّمَا وَرَثُوا الْعِلْمَ، فَمَنْ أَخَذَهُ أَخَذَ بِحِطٍّ وَافٍ»!!!..

فميراث النبوة هو ما يثبت به النبي ﷺ «القرآن العظيم والسنة النبوية المطهرة» فهذا هو الإسلام الصحيح ومنهجه الأصيل، بالأسلوب القرآني، والمنهج النبوي!!!..

٨ - الثواب والمتغيرات في دائرة العلوم الإسلامية

إنّ ما تقدّم معنا في «الإسلام ودعوى التطور» يُعتبر تمهيداً لبحث «الثواب والمتغيرات في العلوم الإسلامية».

إنّ الثواب في الإسلام قد جاء في نصوص القرآن العظيم لفظاً ومعنى، وفي نصوص السنة النبوية بالفاظها المتقاربة ومعانيها المتفقة. كما جاء في ما أجمع عليه السلف الصالح، أو فيما اتفق عليه الأئمة، من أصول الفقه وقواعده، وأصول التفسير وقواعده، وأصول اللغة وقواعدها.

والثواب في الإسلام أيضاً: العقيدة الإسلامية، وشعب الإيمان. والعبادات الثابتة بالآيات القرآنية والأحاديث النبوية، من الصلاة وأركانها وشروطها، وسنتها ومستحباتها ومندوباتها. والصيام وأركانه وشروطه، وسنته ومستحباته ومندوباته. والزكاة وأنصابها ومصارفها، وأركانها وشروطها، والصدقات بأنواعها. وكذا الحج بأركانه وشروطه وسنته ومستحباته ومندوباته. كلّ ذلك من الثواب التي لا تتغير أحكامها ولا تبدل، ولا تخضع للمتغيرات، سوى ما يتعلق بالمرضى والضعفاء والعاجزين..

ومن الثواب الإسلامية أحكام الحدود والقصاص في جميع أقسامها كما ذكرها الأئمة الفقهاء. وأمّا أحكام التعزير فلا تخضع للثواب، وإنما أحكامها اجتهادية فيما فيه مصلحة أمن الأمة وأمانها، وكذا أحكام قطاع الطريق ترتقي إلى الأشدّ ردعاً للمجرمين.

ومن الثواب الإسلامية أحكام الإرث، والتفقات، وأحكام الزواج والطلاق، وأحكام الرضاع والحضانة، وحجاب المرأة ولباسها، وضوابط اختلاطها مع الرجال.

ومن الثواب الإسلامية: أحكام البيع والشراء وشروطه وأركانه، وكذا الشركات، والإجارات. ومعاملات الصرف، وأحكام الديون، وأحكام الذبائح والصيد، والتدور والأضاحي، والأعياد.

ومن الثواب الإسلامية المباحات، وجميع ما أحله الله تعالى ورسوله ﷺ في القرآن والسنة. وكذا المكروهات، وجميع المحرمات من الشرك والكفر والإلحاد والفسوق، والظلم والطغيان والإيذاء، والسرقه والغصب والغش وأكل أموال الناس بالباطل، والزنا والميسر والقمار، والغيبة والنميمة، والكذب، والخداع والمكر لغير الحرب، والرشوة، كل ذلك حرام.

ودماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم من المحرمات الثابتة القطعية، فلا يحل دم امرئ مسلم إلا بإحدى ثلاث: الثيب الزاني، والنفس بالنفس، والتارك لدينه المفارق للجماعة. هي من الثواب التي لا تتغير ولا تتطور مهما تعاقبت العصور وتقلبت الدهور.

وجميع المحرمات ثواب لا يلحقها تطور ولا تبديل ولا تعديل.

والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والآداب والأخلاق الفاضلة والحسنة، هي من الثواب التي لا تتطور مع الزمان، وكذا الخير والشر... والأمانة والخيانة... والوفاء والغدر... والعدل والجور... والصلاح والفساد... والحق والباطل... كل ذلك من الثواب التي لا تتطور مع الزمان!.. وكذا أحكام الأمن والأمان... والجزية... والحرب والسلام...

وأمّا المتغيرات من الأحكام الشرعية:

فهي جميع أحكام المضطرين في جميع حالات التحريم والخطر، وذلك ضمن ضوابط ثابتة أيضاً، فهي تدور في حدود خاصة لا تتعداها. وكذا الأمر في دفع الضرر وصدّ الصائل. والقاعدة الشرعية في ذلك: الضرورات تبيح المحظورات.

ومع أحكام الضرورات أحكام المصالح المرسله والاستحسان، فإنها تدخل في إطار المتغيرات والمستجدات، على ما بينته وفصله علماء الأصول. ولاندخل هنا في تفصيلها فإننا نحيل فيها إلى مصادر بحثها من كتب أصول الفقه والتشريع. والمقصود هنا الإشارة إلى ماهو من الثوابت الإسلامية، والمتغيرات الشرعية.

والثبات أساس هام في الإسلام، وقاعدة راسخة في عقيدته وشريعته وأحكامه وتوجيهه وأخلاقه وأدابه، ويتمثل الثبات في «أصدق صورهِ في ثبات النص القرآني والحديث النبوي»!! ...

إن أبرز معالم الفكر الإسلامي المستمد من القرآن الكريم والسنة النبوية تقوم على أساس الثبات والأفق الواسع له، والأبعاد المتعددة المرتبطة بأصوله، وتبلغ قضية الثوابت والمتغيرات غاية الغايات في تكامل النظرة ورعاية الأفق وسلامة القصد. فالثوابت هي العمُد التي تتحرك من حولها أو في داخلها متغيرات الحياة، وأبرز اعتبار لمتغيرات الحياة في الإسلام هي المعالجات الشرعية التي تقوم على رعاية مصالح الفرد والجماعة والمجتمع ضمن ثوابتها وحركة أبعادها لتحقيق تلك المصالح!..

إن ترابط المتغيرات بالثوابت في منهج المعرفة الإسلامية قانون أصيل! شأنه في ذلك شأن قانون التكامل والوسطية والتوازن، وكلها تعني الترابط بين الأجزاء والعناصر والأقسام والأنواع، التي قد تبدو متعارضة بينما هي متكاملة متلاقية، لرعاية حياة الإنسان والمحافظة على مصالحه، وتقييم شؤونه.

وأما المتغيرات في نظر الغرب قبل عصر النهضة، فكانت عديمة الجدوى، لإيمانهم بالثبات المطلق الذي قال به «أرسطو» فكانت مصالح الإنسان في يد الكنيسة والمَلِك... لا تتغير ملامحها ولا تتبدل صورها. ثم جاءت نظرية التطور «البيولوجية» التي دَعَا إليها «داروين» مُنْطَلَقاً للقول بالتطور الاجتماعي الذي دَعَا إليه «هربرت سبنسر» ومدرسته، ثم انتقلت الفلسفة الغربية نقلة خطيرة حين أعلن هيجل نظرية «التغير المطلق» وهي النظرية التي يأخذ بها الفكر الغربي من خلال الفلسفة المادية في العصر الراهن، مضافاً إليها القول بالصراع بين المتناقضات «الصراع الجدلي» في الحياة...

وقد حاول نقل هذه الفلسفة المادية، والصراع الجدلي، إلى المعرفة الإسلامية، العديد ممن تلمذ على الفلسفة الغربية، كان من متأخريهم الدكتور «محمد شحرور» في كتابه المُسمًى بـ«الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» الذي حاول فيه تغيير الثوابت القرآنية والحقائق الإسلامية والمصطلحات الشرعية، على أساس الصراع الجدلي، فكانت

محاولته قائمة على التكلّف والتمحّل وسوء التصرف. ربّ بُسُخ على شاكلته كتاب باسم «القرآن» و«الإسلام» قد صِيغَتْ مَقْدَمَاتُهُ صِيَاغَةً مغلوطَة، واسْتَبَحَتْ نَتَائِجُهُ الباطلة بشكل فلسفي سُفْهَاطِي، ممّا قدّمه أعداء الإسلام في دراساتهم المشبوهة والمغرضة، كما هو واردٌ في كتابه المغلوط حيثُ هدفَ تقويضَ الثوابِ القرآنيّة تحت اسم «القرآن»، وقصدَ تحويرَ المفاهيم الإسلامية وإبطالها، تحت اسم «الحاجة إلى فقه جديد معاصر، والحاجة إلى فهم معاصر للنسنة النبويّة».

فما أوردَ فيه من مسائل العقيدة أو الشريعة إلّا وأدخله دائرة التطوير والتغيير والتبديل، فلم يُبقَ فيه من القرآن إلّا رَسْمُهُ ولا من الإسلام إلّا اسمُهُ!!؟؟..

إنّ المنهج الإسلامي لن تُضَيِّرُهُ هذه الانحرافات الدخيلة مهما تُعدّدت أشكالها وتنوّعت أساليبها!! إنّ معاييرها ثابتة وموازينة دائمة، فيها تنكشف الانحرافات، وبها تُقتضح الشبهات!!.

إنّ معايير الحقّ لن تكونَ باطلاً!! ومعايير الخير لن تكونَ شرّاً!! فلن يُصبحَ الحقُّ باطلاً، ولن يُصبحَ الشرُّ خيراً، وإنّ كثيراً من المنحرفين والزائغين من يؤهم نفسه بالأباطيل أنّها حقائق، ويصوّرها للناس على أنّها حقائق، ولكن سرعان ما تنكشف بواطنها الفاسدة، تظهرُ خفاياها الباطلة!!..

وعلى منهج الجدل بين المتناقضات كان عدم التفرقة بين ما يُسمّى حقّاً أو ما يُسمّى باطلاً.. أو ما يُسمّى حلالاً أو ما يُسمّى حراماً.. أو ما يُسمّى فضيلةً أو ما يُسمّى رذيلةً.. وكان أيضاً لافرق بين علاقة شرعية وغير شرعية.. كما لافرق بين أن تعمل المرأة بعمل شريف أو أن تعمل راقصة.. وعلى هذا المنهج قامت «القراءة المعاصرة في الكتاب والقرآن» للدكتور «شحرور»!!..

إنّ الثواب القرآنيّة وحقائقها هي التي فتّحت العقل البشري إلى اكتناه الآفاق الكونية، وهي التي دعّت الإنسان إلى السيطرة والتحكّم في الحياة، ودفعته إلى الإبداع العلمي والتقني؛ لن تكونَ أبداً عُرْضةً للتغيير، يتصرّف بها أصحاب «جدل المتناقضات» وكذلك الأحكام الشرعية ومعالجتها لقضايا الحياة والإنسان لن تكونَ في أيدي هؤلاء الشاذين المؤثّورين يعبثون بها كيف شاؤوا وكما أرادوا!!..

إنّ الثواب الإسلامية في جميع معاييرها وقياساتها لاتدوب في متغيّرات المعايير الفلسفية الجدلية الغربية، ولا في تطوّراتها المتناقضة المضطربة!! فهي الدائمة على دوام هذا الوجود، وهي الباقية إلى أبد الدهور!! وما محاولات دُعاة التطوّر الجدلي إلّا

حبرٌ على ورقٍ... ولن تتغير حقائق القرآن وثواب الإسلام على صعيد الواقع، فهي محفوظة بحفظ الله تبارك وتعالى، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها!!..

ولا يُوجد في الإسلام صراعٌ بين الدين والعلم:

هذه حقيقة لا يُنكرها إلا جاحدٌ مُعانداً!! فلا يُوجد في الإسلام تلك المشكلة الموجودة عند غير المسلمين - وهي مشكلة تعارض الدين والفلسفة للعلم والعقل - فالإسلام قائم على الحقائق وبراهينها ودلائلها، والعلم والعقل قائمان على ذلك أيضاً فلا تعارض بين صحيح المنقول وصريح المعقول؛ هذه قضية من مسلمات اليقين، وإن جميع معطيات العلم في هذه الحياة كم تعارض نتائج أبحاثها الصحيحة السليمة - رغم احتمالات التوهم - مع حقائق القرآن.. وثواب الإسلام.. فما من شيء أمر به إلا وأيدّه العلم الصحيح والعقل الصريح!! وما من شيء نهى عنه إلا وثبت ضرره العلم الصحيح والعقل الصريح!! وما من شيء أحله إلا وثبت نفعه في العلم الصحيح والعقل الصريح!! وما من شيء حرّمه إلا وثبت ضرره في العلم الصحيح والعقل الصريح!!..

وأما الفلسفة ومنطقها - قديماً أو حديثاً - فقد ثبت تعارضهما مع العلم والعقل، وهما بين أصحابهما في صراعٍ جدلي غير متناه!! فكيف يصحّ زعم من يقول: إن «الفلسفة أم العلوم»؟ وهي لاتقدر على مواكبة العلوم الحديثة، لعقم طروحاتها، ولسقيم قضايها، وهي إن أفلحت في شيء.. فإنما تزيده جدلاً.. وإن زادت في شيء.. فإنما تُرهقه عبثاً!!..

فالإسلام بحقائق «كتابه وسنته» هو صاحب العلم الصحيح والحكمة السليمة!! وأما مايجري في نصوص الكتاب والسنة من اجتهادات، فإنها تجري مجرى الفكر؛ فما كان أقواها حجة فهو المقدم، ومالم يكن كذلك فعليه تحفظات أصحابه!! ولم يندرج تحت ثواب الإسلام ماكان مجالاً اجتهد أو نظير.. وإن كان الاجتهاد خاضعاً لأصول وقواعد هي من أسس الثواب في الإسلام!!..

ولقد وضع المسلمون العلماء تحفظاتهم العديدة حول دعوى «العلم» ممّا يُطلق على الفلسفة والمنطق. فليس كل ماينسب إلى العلم، ينتمي إليه، ولا كل مايتمي إلى العلم، مفروغ من إثباته [عدا علوم الكتاب والسنة] بل كما أن في العلم الحقائق التي لاشك فيها، فإن من العلم ماهو بحاجة إلى براهين الكتاب والسنة؛ وبهذا يقيان المرجع الصحيح دائماً وأبداً!!..

وهناك فرضية باطلة، وهي: أنَّ العلم الحديث مبني على البرهان الحسيّ، فما يُقال باسمه لا بُدَّ أن يكون قد ثبت وقامَ عليه البرهان لدى العلماء، فهم يقبلون كلَّ ما يُنسبُ إلى العلم، لأنهم يُسلّمون بقيام البرهان عليه. ولكن كم من قضايا ونظريات نسبت إلى العلم الحديث، فصّدّقها كثير ممّن سارع إلى قبولها، ثم قام البرهان العلمي على عدم صحتها؟! .. وأصدق شاهد على هذا النوع «أصحاب نظرية التطور والارتقاء، ونظرية الانتخاب، وبقاء الأقوى» وسواها من النظريات التي ثبت بطلانها، والعجيب أننا نرى ممّن يدّعي العلم من حملة «الدكتوراه في الهندسة» من الغارقين في أوهام نظريات بالية خرافية؟! بل نراه ينسج الأساطير مِن وهم خياله، كما هو واقع حاله في نظريته «أنَّ الجنس البشري كان من المملكة الحيوانية، فتطوّر، فانتصب على قدميه، وتحزّرت يده، فكان مؤهلاً لنفخ الروح فيه، فتفخّث فيه الروح، فصار إنساناً، وذلك عبر ملايين السنين»؟! فهذه نظرية أسطورية نسجتْها عقلية مهندس تزيّ الوهم علماً؟! ..

إنَّ نظرية التطوّر نظرية ناقصة، ولكي تكون كاملة لا بُدَّ أن تندرج تحت قانون الثبات الذي هو وعاءٌ لحركة التطوّر مع تحديد الآفاق والأبعاد التي يدور فيها التطوّر ولا يتعدّاها.

ونظرية التطوّر قامت على عدد ضخم من الفروض والتخمينات، ولم تكن في مرتبة القبول لدى المادّيين أنفسهم، بل لدى أصحابها!! فهم أذرى بها، فهي من نسج خيالهم وتخمين ظنّونهم!! ..

إنَّ الأصول الإسلامية الثابتة لا تُربط بمرحلة معيّنة، كما زعم صاحب القراءة المعاصرة في «الكتاب والقرآن» حيث يقول في ص ٣٩: «إنَّ ما فعله النبي ﷺ هو الاحتمالُ الأوّل لتطبيق الإسلام، في القرن السابع، وفي شبه جزيرة العرب... فمن هذا خلصنا إلى مفهوم «معاصر» للسنة النبوية، حيث كان دور النبي ﷺ هو تحويل المطلق إلى نسبي...» وفي ص ٥٣١: «هناك كثير من الأحاديث النبوية إن صحت فهي أحاديث أعراف، لأحاديث حدود، أي هذه الأحاديث غير قابلة أن يُنّاس عليها حتى ولو صحت، لأنّها وليدة بيئة لها معطياتها، وقد تغيّرت هذه البيئة، وتغيّرت معطياتها»، وفي ص ٥٤٩: «... إنَّ الذي فعله النبي ﷺ في القرن السابع [الميلادي] في شبه جزيرة العرب هو الاحتمال الأول لتفاعل الإسلام مع مرحلة تاريخية معيّنة، وليس الوحيد وليس الأخير...»، فأَيُّ جرأة هذه التي بلغ بها هذا المدعي الكذب أن ربط جميع معطيات النبوة فيما هو بيانٌ وتفصيلٌ للقرآن الكريم بمرحلة زمنية ومكانية «في شبه جزيرة العرب، وفي القرن السابع للميلاد»، فإنَّ مثل هذا التوهم لم يجرؤ عليه إلا

جاهلٌ جائزٌ، أو كاذبٌ مكابرٌ، وهذا الزعم الباطل واضح الفساد والضلال، «يريدون أن يطفئوا نورَ الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتمَّ نوره ولو كره الكافرون»!!.. وهذه المقالة الخاطئة الكاذبة لم تصدر إلا من أفواه أعداء الإسلام في الغرب؛ ولم يقل بها أحدٌ من المسلمين، إلا مَنْ هو خارجٌ عنهم تاركٌ لدينهم، متكرِّرٌ لهدي نبيهم ﷺ!!..؟

ولقد ثبتت حجيةُ السنَّة في القرآن العظيم في آيات عديدة منها قول الله تعالى في سورة آل عمران آية/ ٣١: «قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ»، وقوله تعالى في سورة الحشر آية/ ٧: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا»، وقد ورد الأمرُ بطاعة رسول الله ﷺ في ثلاث عشرة آية، مقرونةً بطاعة الله تعالى!! وذلك يدلُّ على طاعته في أمره ونهيه ﷺ، كما ثبت عنه ﷺ أنه قال: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ، أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانٌ عَلَى أَرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنِ، فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَاحْلُوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، وَإِنَّمَا حَرَّمَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَمَا حَرَّمَ اللَّهُ..» الحديث أخرجه أحمد في مسنده ج ٤/ ١٣٠/ وأبو داود برقم ٤٦٠٤/ والترمذي برقم ٢٦٦٤/ وإسناده حسن. وقول رسول الله ﷺ: «أَيَحْسَبُ أَحَدُكُمْ مُتَكَنًّا عَلَى أَرِيكَتِهِ يَظُنُّ أَنَّ اللَّهَ لَمْ يَحَرِّمْ شَيْئًا إِلَّا مَا فِي الْقُرْآنِ، أَلَا دَانِي وَاللَّهِ قَدْ أَمَرْتُ وَوَعِظْتُ وَنَهَيْتُ عَنْ أَشْيَاءَ، إِنَّهَا لَمِثْلُ الْقُرْآنِ أَوْ أَكْثَرُ..» الحديث أخرجه أبو داود برقم ٣٠٥٠/ وذكره البغوي في مصابيح السنَّة برقم ١٢٨/ وحسنه. وقوله ﷺ: «مَنْ أَحْيَا سُنَّةً مِنْ سُنَّتِي قَدْ أُمِيتَتْ بَعْدِي فَإِنَّ لَهُ مِنْ الْأَجْرِ مِثْلَ أُجُورِ مَنْ عَمِلَ بِهَا مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْقُصَ مِنْ أَجُورِهِمْ شَيْئًا..» الحديث أخرجه الترمذي برقم ٢٦٧٧ وقال: هذا حديث حسن. وقال رسول الله ﷺ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يَكُونَ هَوَاهُ تَبَعًا لِمَا جِئْتُ بِهِ»، رواه الإمام النووي في كتاب الحجَّة بإسناد صحيح [كما في الأربعين النووية ٤١]. وهذا يعني بقاء سنة رسول الله ﷺ لجميع أمته أبد الدهر!!..

ومما يدلُّ دلالةً صريحةً على ديمومة السنَّة النبوية قولُ الله تبارك وتعالى في سورة الحشر آية/ ٧: «وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ»، وقولُ الله تبارك وتعالى في سورة النساء آية/ ٦٥: «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا»، وقولُ الله سبحانه وتعالى في سورة الأحزاب آية/ ٢١: «لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا»، وأخرج الترمذي في سننه برقم ٢٦٧٨: عن أنس رضي الله عنه قال: قال لي رسول الله

ﷺ: «يَابُنَيَّ إِنَّ قَدَرْتَ أَنْ تُصْبِحَ وَتُمْسِيَ وَلَيْسَ فِي قَلْبِكَ غِشٌّ لِأَحَدٍ فَأَفْعَلْ!!» ثم قال: يَابُنَيَّ وذلك من سِتِّي، وَمَنْ أَحَبَّ سِتِّي فَقَدْ أَحَبَّنِي، وَمَنْ أَحَبَّنِي كَانَ مَعِي فِي الْجَنَّةِ»، وأخرج الترمذي في سننه برقم ٢٥٢٠ عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَكَلَ طَيِّبًا وَعَمِلَ فِي سُنَّةٍ، وَأَمِنَ النَّاسَ بِوَأَثْقُهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ!!» فقال رجل: يا رسول الله! إن هذا اليوم في الناس لكثير؟ قال: وسيكون في قرون بعدي!! فهذا برهان صحيح صريح في ثبوت ديمومة السُّنَّةِ في هذه الأمة، وأنها باقية ثابتة رغم أنف الجاحدين لها والمنكرين لحجيتها، مِمَّنْ غَمَرَ التَّفَاقُ قُلُوبَهُمْ، وَلَنْ يُضَيِّرَهَا جَحْدُ الجاحدين لها فهي المصدر الثاني في العقيدة والتشريع بعد القرآن الكريم!!..

ولقد أجمع المسلمون قاطبةً على أَنَّ السُّنَّةَ النَّبَوِيَّةَ المصدرُ الثاني في التشريع الإسلامي، فَمَنْ أَنْكَرَ ثُبُوتَ الأحاديث النَّبَوِيَّةَ وحجيتها فقد خرج عن جماعة المسلمين، وخلع رِبْقَةَ الإسلام من عنقه، قال رسول الله ﷺ فيما رواه مسلم في صحيحه برقم ٢٣٦٢ و٢٣٦٣: «أَنْتُمْ أَعْلَمُ بِأَمْرِ دُنْيَاكُمْ، إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ مِنْ أَمْرِ دِينِكُمْ فَخُذُوهُ»، وأخرج البخاري في صحيحه برقم ٧٢٨١ عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «كُلُّ أَمْتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبَى»، قَالُوا: وَمَنْ يَأْبَى؟ قال: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبَى» فَرَأَيْتُمْ سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ عَاصٍ مَتَمَرِّدٌ، ضَالٌّ، وَفِي الصَّحِيحِينَ: البخاري برقم ٢٦٩٧ ومسلم برقم ١٧١٨: عن عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ أَحْدَثَ فِي أَمْرِنَا هَذَا مَا لَيْسَ مِنْهُ فَهُوَ رَكٌّ»، وفي صحيح مسلم برقم ٨٦٧ عن جابر رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «أَمَّا بَعْدُ: فَإِنْ خَيْرَ الْحَدِيثِ كِتَابُ اللَّهِ، وَخَيْرَ الْهَدْيِ هَدْيِي مُحَمَّدٍ ﷺ، وَشَرُّ الْأُمُورِ مُخْدَنَاتُهَا، وَكُلُّ مُخْدَنَةٍ بَدْعٌ، وَكُلُّ بَدْعٍ ضَلَالَةٌ»، وفي سنن الترمذي بإسناد حسن صحيح برقم ٣٢٥٣ عن أبي أمامة الباهلي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَاضِلٌ قَوْمٌ بَعْدَ هَدْيٍ كَانُوا عَلَيْهِ [أَي السُّنَّةِ] إِلَّا أَوْتُوا الْجَدَلَ...»، وفي مسند أحمد ج ١/١٢٦/ وسنن أبي داود برقم ٤٦٠٧/ وسنن الترمذي برقم ٢٦٧٦، وقال: حسن صحيح، عن العزْبَابِ بْنِ سَارِيَةَ قال: وَعَظَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مَوْعِظَةً بَلِيغَةً ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجَلَّتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَأَنَّهَُا مَوْعِظَةٌ مُوَدَّعٌ، فَأَوْصِنَا، فَقَالَ: أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ كَانَ عَبْدًا حَبِشِيًّا، فَإِنَّهُ مِمَّنْ يَعْشُرُ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَبْرِي اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسِتِّي وَسِتِّ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِنَّا كُنَّا وَمُخْدَنَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُخْدَنَةٍ بَدْعٌ، وَكُلُّ بَدْعٍ ضَلَالَةٌ».

والسنة هي :

ما ثبت عن رسول الله ﷺ من قول، أو فعل، أو تقرير، أو سيرة. قال الإمام الشاطبي: في الموافقات في أصول الشريعة ج ٤/٣: «السنة: ما جاء منقولاً عن النبي ﷺ على الخصوص، مما لم ينص عليه في الكتاب، بل إنما نص عليه من جهته عليه الصلاة والسلام، كان بياناً لما في الكتاب...»، وقد بين رسول الله ﷺ ما أجمله الله تعالى في كتابه من العقيدة والعبادات والمعاملات، وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: «خذوا عني مناسككم» كما ثبت أنه قال ﷺ: «صلوا كما رأيتموني أصلي»!!..

فالكتاب والسنة: هما الأصل لشرع الله تعالى الذي لا تنقص فيه ولا عيب، واعتقاد هذا اعتقاداً جازماً من مقتضيات الإيمان بالله تعالى، والتسليم بأن الكتاب والسنة وحي من عند الله تعالى لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ سورة النجم آية ٣/ وهذا يعني ضرورة التسليم للقرآن والسنة، واتخاذهما ميزاناً للأقوال والأفعال والأفكار في كل زمان ومكان، لمعرفة الحق من الباطل، والصحيح من الفاسد، والصواب من الخطأ، وعدم معارضتهما بشيء من الأقوال والمذاهب والآراء والنظريات، بما في ذلك أقوالنا وأفعالنا وأفكارنا، ومهمة المسلم في إسلامه تجاه الكتاب والسنة هي فهمهما فهماً صحيحاً، وتدبرهما تدبراً عميقاً، والعمل بهما والدعوة إليهما!!..

ليس لمسلم أن يخالف الكتاب والسنة :

وبناء على الأدلة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فقد تبين بكل جلاء أنه لا يصح لمسلم - كائناً من كان - أن يخالف الكتاب الحكيم، ولا السنة المطهرة، ولا يسهه ذلك، ومن ذا الذي يريد أن يستدرك على كلام الله تعالى أو على سنة رسوله ﷺ؟ إلا كل ضالٍّ مضلٍّ؟!..

ولقد كان جميع الصحابة والتابعين وتابعيهم حتى وقتنا هذا يجمعون على ضرورة المتابعة للكتاب والسنة، والالتزام بهما في شؤون العقيدة والشريعة، والآداب والأخلاق، وروى البخاري في صحيحه في مواضع متعددة: أن عبدالله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما إذا شئلا عن حكم ما فإنه كثيراً ما يحكي فعل النبي ﷺ ثم يقرأ: «لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر». .

قال الإمام الشافعي: ولا أعلم من الصحابة ولا من التابعين أحداً أخبر عن رسول الله ﷺ إلا قبل خبره، وانتهى إليه، وأثبت ذلك سنة. وقال الإمام الأوزاعي: إذا بلغك

عن رسول الله ﷺ حديث، فإياك أن تقول بغيره، فإن رسول الله ﷺ كان مبلغاً عن الله تعالى!! من مفتاح الجنة في الاحتجاج بالسنة/ ٣٤-٢٠-٢١/ وفيه أيضاً ص ٤١: قال الإمام مالك: لا تُعارضوا السنة، وسلّموا لها. وقال أيضاً: إنما أنا بشرٌ أخطئ وأصيب، فانظروا في رأيي، فكلُّ ما وافق الكتاب والسنة فخذوا به، وما لم يُوافقهما فاتركوه. ومثل هذا ثبت عن الإمام أبي حنيفة، وعن الإمام أحمد بن حنبل، رضي الله تعالى عنهم جميعاً/ انظر رسالة الإمام السبكي «معنى قول الإمام المطلبي: إذا صحَّ الحديث فهو مذهبي» ص ١٠٣-١٠٥/.

ومن هذا كله نخرج بحقيقة واضحة هي أنه ما كان أحدٌ من السلف الصالح يُخالف السنة برأيه، أو ينظر إليها أنها لمرحلة زمنية مضت وانتهت، بل كانوا مجمعين على إجلالها وتعظيمها، والأخذ بها، لاعتبارها المصدر الثاني في الإسلام: في العقيدة والشرعة!!! وعلى هذا مضت الأمة عبر تاريخ الإسلام!!!.

وبعد: إن جميع ما في أيدي الأمم والشعوب قد دخله التحريف والتزييف والتغيير والتبديل، من أهل الكتابين، وسواهم من أصحاب الفلسفات والنظريات؛ فلم تكن مقاييس العلوم عندهم ثابتة، ولا موازيتها صحيحة، فكانت على اضطرابٍ وتعارض، واختلافٍ وتناقض!!..

أما الإسلام!! فهو صاحبُ الحقائق الثابتة، والمقاييس الصحيحة، والأصول السليمة، والقواعد المتينة!! وهو الحق الذي أبقاه الله تبارك وتعالى على هذا الوجود، فجميع الحقائق مستمدة منه، وقائمة عليه!!..

٩ - التحذير من خطورة القراءة المعاصرة على منهج الصراع الجدلي الفلسفي

«لو أُتيحَ للمتغيرات أن تطفئ على الثواب؛ لأمكن تغيير الحقائق واستبدالها حسب الآراء والاتجاهات في كلِّ عصرٍ.. وهذا يعني أن لابقاء الحقائق، وبالتالي لابقاء للوجود.. فلا وجود بلا حقائق..»

ولو أُتيحَ للمعاصرة التَّكْرُّ للأصالة، فلنَّ يبقى للحياة ضابطٌ ولا رابطٌ.. ولنَّ تستقيم الحياة بدون الضوابط والروابط..

فلا بدَّ للمتغيرات من ثوابت تضبطها وتُحكِّم سيرها.. كما لا بدَّ للمعاصرة من أصالة تُسدِّدُها وتصلحُ شأنها..

لو أبطل المسلمون ذلك في علومهم ومعارفهم وثقافتهم؛ لأصبحوا شيئاً آخر.. الإسلام..»

«لقد حوت القراءة المعاصرة في [الكتاب والقرآن]^(١) على أكثر من ثلاثة آلاف أغلوطة، قد صيغت بأسلوب الحكمة المموهة [السفسطائية] التي تقوم على المقدمات المغلوطة، واستخراج النتائج الخاطئة، بطريقة جدلية يُقصد بها إلزام الخصم وإسكاته، كما يُقصد بها مغالطة المعارض بالوهميات لصرفه عن معارضة الآراء المطروحة. والجدل الديني الذي سلكه صاحب القراءة المعاصرة هو أحد أجزاء المنطق. وهو عند أهل المناظرة ليس لإظهار الصواب، بل لإلزام الخصم - وهو حرام في دين الإسلام.

والجدل في الأصل: فنُّ الحوار والمناقشة، قال الله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ والمجادلة هنا لإظهار الحق وإبطال الباطل، وذلك فرض على القادر..

والجدلي: هو الذي يُحسن السؤال والجواب. والغرض منه: الارتقاء من تصوّر إلى تصوّر، ومن قول إلى قول..

والجدل في تصوّر الفلاسفة المتأخرين: هو المراء المتعلق بإظهار المذاهب وتقريرها، والتفنن في إيراد ما لا نفع فيه من البيانات الدقيقة..

وقد أطلق «كانث» لفظ الجدل على المقاييس الوهمية، وجعله من القسم الثاني من المنطق المتعالي في كتاب «نقض العقل المحض».

والجدل عند «هيجل» هو التطور المنطقي الذي يُوجب ائتلاف القضيتين المتناقضتين واجتماعهما في قضية ثالثة. فالتطور الجدلي عنده هو: تطور الفكرة..

(١) ظهر كتاب للدكتور المهندس محمد شحرور باسم الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة سنة ١٩٩٠م بدمشق، وقد أحدث قلقاً عميقاً لدى عامة المثقفين، وخاصة العلماء والباحثين، ولم يظهر له من يؤيده، وظهرت ردودٌ لعدة باحثين منها ما كان مقالات في المجلات الإسلامية، ومنها ما كان أبحاثاً حول بيان خطر ما جاء في هذا الكتاب الذي اتخذ له صاحبه تسمية تُغزّر بالمثقفين للاطلاع عليه، وهي تلك التسمية التي وضعت له: «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة»، وفي العام نفسه جاء ركد في مجلة «نهج الإسلام» التي تصدرها وزارة الأوقاف في «سورية» في العدد (٤٢) ١٤١١هـ - ١٩٩٠م بعنوان «الخلفية اليهودية لشعار قراءة معاصرة» من (ص ١٦-٢١) للدكتور محمد سعيد رمضان البوطي جزاه الله تعالى خيراً، حيث أمارت اللثام عن الوجه المستعار للقراءة المعاصرة للكتاب والقرآن، وما يُراد منها من تحقيق الهدف اليهودي من تطوير معالم الإسلام.

وعلى هذا المنهج الجدلي أتى صاحب القراءة المعاصرة في «الكتاب والقرآن» بتطوير مفهوم العقيدة والدين، وتطوير مفاهيم أحكامهما، وتحرير قضاياهما، تحت مظلة «الفلسفة» التي منحها لقب «أم العلوم» ص ٤٣ ..

- فقسّم القرآن إلى قرأتين: قرآن نبوة - لإلزام فيه - وقرآن رسالة - أحكامه ملزمة ضمن دائرة التطور الحركي لكل أمة في كل زمان ..

- ثم فرّق بين «الكتاب» وبين «القرآن» بعد تجريدهما من مدلولهما الثابت، وإعطاء كل منهما معنىً متطوراً لم يُعرف من قبل ..

- كما فرّق بين «القرآن» وبين «كلام الله تعالى» بدلالات التطور الجدلي، ووضع لكل منهما الدلالات المستنتجة ضمن «ثبوت النص» و«حركية المضمون»؛ فجاء بالفوارق المفارقة لكل الدلالات الثابتة الصحيحة المجمع عليها على مدى تاريخ الإسلام ..

- ثم جاء بدلالات التطور الجدلي ليضع الحدود والتسميات المستحدثة - على الطريقة المنطقية لمفهوم المعاصرة والتجديد - للعبادات والمعاملات، بما لاتعهده لغة العرب ولا الاصطلاحات الفنيّة في العلوم الشرعية ..

- كما تناول صاحب «القراءة المعاصرة» الحديث عن «علم الله تعالى» واكتسابه وتطوره وتجده، ووضع له برمجة خاصة وحديثة جداً؛ وفق أحدث طرق البرمجة «للكمبيوتر» ..

- كما صور معاني «نزل» و«تنزل القرآن» على أحدث وسائل النقل والبث «التلفزيوني» ..

- كما جرّد صاحب القراءة المعاصرة كافة أهل العلم على مدى تاريخ الإسلام عن أهلية فهم الإسلام «كتاباً وقرآناً، ونبوة ورسالة، وفقهاً ودراية» ووصمهم بتعطيل العقل والقضاء على الفكر، إلى أن أوصلوا الإسلام «دين نقل لادين عقل» كان عبئاً ثقيلاً على الأمة ص ٢٠٩ ..

- كما منح «الفلاسفة» الأقدمين، والمعاصرين، وعلى رأسهم «هيجل» و«كانت» و«فرويد» و«داروين» وأمثالهم، لقب «الراسخين في العلم» الذين يخشون الله تعالى، وأنهم هم الذين يعلمون تأويل القرآن، وأن «دارون» هو أفضل من فسّر آيات «خلق آدم» ص ١٩٤-١٩٥ ..

- ثم شبه صاحب القراءة المعاصرة كُتّب الحديث النبوي الشريف «صحيح البخاري، وصحيح مسلم، والسنن الأربعة» بأناجيل النصارى ..

- ثم حكم على احاديث رسول الله ﷺ بأنها «التفاعل الأول» للإسلام في القرن السابع الميلادي، وأنّ هذا التفاعل غير صالح لهذا العصر؛ فعطلّ المصدر الثاني في التشريع الإسلامي المجمع عليه لدى الأمة الإسلامية قاطبةً..

- كما حكم صاحب القراءة المعاصرة على رسول الله ﷺ بأنه لا يعلم تأويل جميع القرآن، إذ لو كان يعلم تأويله كلّ له لكان شريكاً لله.. في حين أثبت معرفة تأويله له «كانت وهيجل ودارون» وأمثالهم..

- كما حكم صاحب القراءة المعاصرة على «كتب التفسير» بأنها مرحلة تاريخية ليست أكثر من تفاسير تاريخية مرحلية للقرآن، لها قيمة تاريخية، لأنها نتاج أشخاص عاشوا منذ قرون» ص ١٩٤..

- كما حكم بالخطأ على القول بـ«تحديّ القرآن للعرب» ص ١٩١..

- كما زعم أنّ القرآن لا يحتوي على مواضيع تشريعية ص ١٩٠..

- وأنّ النبوة فيها قوانين الحق والباطل التي تنطبق على كل إنسان شاء أم أبى، وجاءت بصيغة متشابهة «تغيّر المحتوى، وثبات النص، ونسبية الفهم» ص ١٩١..

هذه أمثلة ممّا ورد في «القراءة المعاصرة في الكتاب والقرآن» للدكتور المهندس «محمد شحرور» وللتنبية إلى خطورة مقالاته التي غالت بها القراء في الاستشهاد عليها بالآيات القرآنية والتأويل المغلوط لمعانيها، والتحوير المتعمّد لدلالاتها، وتحميلها من المعاني المتكلفة مالا تحتمله، إلى غير ذلك ممّا ينقضه المنهج العلمي الصحيح ويُطله؛ نُقدّم هذه الكلمات:

١ - إنّ الحقّ إذا جُحدَ وعُورِضَ بالشبهات أقامَ الله تعالى ما يُحقّق به الحقّ، ويُطل به الباطل من الآيات اليّنات، بما يُظهره من أدلّة الحقّ وبراهينه الواضحة، وفسادِ ما عرضه من الحجج الداحضة!.

٢ - مهما يكن للمبطل قدرةٌ على مقاومة الحقائق بالسفسطة، فإنّ من أساليب البرهان مالا يتفَعّ معه سفسطةٌ ولا يأتي عليه سحرٌ، ولا تدفعهُ حيلةٌ؛ فالحقّ أكبرُ من أن يكافَحَ، ولئن ثبت الباطل أمامه مرّةً، فقلّما يثبتُ أخرى، ومالُهُ إلى الفرارِ على كلّ حال!.

٣ - إنّ هدفَ التّفكيكِ بينَ المفاهيم الإسلامية التي جاء بها القرآن الكريم والسنة النبويّة، وبينَ النظريات الحديثة «الاستشراقية» القائمة على أساس «الجدلية» هدفها «هدمُ الإسلام من الدّاخل».

٤ - إِنَّ تَطْيِيقَ «الْمَنْطِقِ الْجَدَلِيِّ» عَلَى الشَّرِيعَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ يَعْنِي تَجْرِيدَهَا مِنْ جَمِيعِ خَصَائِصِهَا الَّتِي امْتَازَتْ بِهَا عَلَى مَدَى الْقُرُونِ الْخَوَالِي فِي تَارِيخِ الْإِسْلَامِ.

٥ - الْجَدَلُ فَرْعٌ مِنَ الْعُلُومِ الْفَلَسَفِيَّةِ الْيُونَانِيَّةِ، قَائِمٌ عَلَى الْمَنْطِقِ، مَبْنِيٌّ عَلَى السَّفْسَطَةِ، وَهِيَ مَا كَانَتْ مَوَادَّهَا مَمُوهَةً بِشَبِّهِ الْحَقِّ، وَرَوَّاجٌ هَذَا يَكُونُ عِنْدَ مَنْ هُوَ أَعْبَدُ النَّاسِ عَنِ الْعَقْلِ وَالْدِّينِ، كَالْقَرَامِطَةِ الَّذِينَ رَكَّبُوا مَذْهَبَهُمْ مِنْ فِلْسَفَةِ الْيُونَانِ وَدِينِ الْمَجُوسِ.

٦ - مِنَ النَّاسِ مَنْ يَحْسَبُ أَنَّ الرَّدَّ عَلَى الْمُبْطِلِينَ ضَرْبٌ مِنَ الْعَبَثِ، وَإِنَّمَا هُوَ فَضِيحَةٌ لِمَذْهَبِهِمْ، وَتَشْهِيرٌ لِرَأْيِهِمْ، عَلَى غَيْرِ جَدْوَى إِذَا أَصْبَحُوا لَا يَنْفَعُ فِيهِمُ الْقَوْلُ، وَهَذَا رَأْيٌ مَنْ لَا خَبِيرَةَ لَهُ بِالْشَّرْعِ، وَلَا دِرَايَةَ عِنْدَهُ بِتَأْثِيرِ الْقَوْلِ؛ فَأَمَّا الْفَضِيحَةُ فَلَوْ كَانَ فِي اتِّقَانِهَا خَيْرٌ بِإِطْلَاقٍ لَتَعَطَّلَ الْأَمْرُ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَأَيُّ شَرِّ أَمْ أَيُّ عَقْلِ يَأْمُرُ بِاتِّقَانِ الْفَضِيحَةِ فِي دَرَمِ الْمَفَاسِدِ؟ وَمَعَ ذَلِكَ فَأَيُّ عَوْرَةٍ مُسْتَوْرَةٍ مِنْ أَهْلِ الْبَاطِلِ حَتَّى تَقَى الْفَضِيحَةَ مِنْ كَشْفِهَا؟ وَأَمَّا عَدَمُ نَفْعِ الْقَوْلِ مَعَ أَهْلِ الْبَاطِلِ فَمِنْ الْمَكَابِرَةِ فِي الْوَاقِعِ، وَهَلْ كَانَ كَوْنٌ أَوْ فُسَادٌ فِي بَدَاوَةٍ أَوْ حَضَارَةٍ إِلَّا بِفِعْلِ الْعُقُولِ مِنْ تَأْلِيفٍ وَتَنْفِيرٍ وَتَحْذِيرٍ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنْ فَنُونِ اللِّسَانِ وَضُرُوبِ الْبَيَانِ؟ وَهَلْ كُتِبَ اللَّهُ تَعَالَى تَنْزَلَتْ إِلَّا بِالْبَيَانِ؟ وَعَلَى هَذَا فَإِنَّهُ لَيْسَ شَيْءٌ مِنْ عِظَائِمِ الْأُمُورِ إِلَّا وَهُوَ غَرَسَ اللَّفْظَ وَحَصِيدَ التَّلَقُّقِ!! وَرَبُّ رَجُلٍ يَتَكَلَّمُ بِكَلِمَةٍ لَا يُؤْيِيهِ لَهَا فِي جِيلِهِ، فَتُثْمَرُ فِي جِيلٍ آخَرَ، فَادْعَاءُ أَنَّ الْمُبْطِلِينَ لَا يَنْفَعُ فِيهِمُ الْكَلَامُ جِهَالَةٌ وَقَلَّةُ دِرَايَةٍ.

٧ - إِنَّ السَّكُوتَ عَنِ بَدْعِ الْمَفْسُودِينَ وَضَلَالِ الْمُضِلِّينَ وَتَأْوِيلِ الْمُنْحَرِفِينَ ذُلٌّ وَمَهَانَةٌ وَخُضُوعٌ وَاسْتِكَانَةٌ، فَلَا يَكُنْ مَنْ كَشَفَ أَمْرَهُمْ وَإِظْهَرَ حَقَائِقَهُمْ، وَبَيَّنَّ مَقَاصِدَهُمْ؛ فَإِنَّ الْإِسْلَامَ كَانَ وَلَا زَالَ أَبَدَ الدَّهْرِ يَرْفَعُ أَهْلَ الْحَقِّ، وَيَعِزُّهُمْ!! وَيَخْفِضُ أَهْلَ الْبَاطِلِ وَيَذِلُّهُمْ!!..

٨ - الْحَقُّ كَالذَّهَبِ الْخَالِصِ، كُلَّمَا أُجْرِيَ عَلَيْهِ الْامْتِحَانُ أَزْدَادَ جُودَةً، وَالْبَاطِلُ كَالْمَغْشُوشِ الْمَغْشَى إِذَا امْتَحِنَ ظَهَرَ فُسَادُهُ؛ فَالَّذِينَ الْحَقُّ وَالْعِلْمُ الْحَقُّ كُلَّمَا نَظَرُوا فِيهِ النَّظَرَ، وَنَظَرُوا عَنْهُ الْمُنَاطَرُ، ظَهَرَتْ لَهُ الْبَرَاهِينُ، وَقَوِيَ بِهِ الْيَقِينُ، وَازْدَادَ بِهِ إِيْمَانُ الْمُؤْمِنِينَ، وَأَشْرَقَ نُورُهُ فِي صُدُورِ الْعَالَمِينَ!! وَالَّذِينَ الْبَاطِلُ وَالْعِلْمُ الْبَاطِلُ إِذَا جَادَلَ عَنْهُ الْمُجَادِلُ وَرَأَى أَنَّ يُقِيمَ عُودَةَ الْمَائِلِ، أَقَامَ اللَّهُ تَعَالَى مَنْ يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمِغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ!! وَبَيَّنَّ أَنَّ صَاحِبَهُ الْأَحْمَقَ كَاذِبٌ مَائِلٌ، وَظَهَرَ فِيهِ مِنَ الْفُسَادِ وَالتَّنَاقُضِ وَالْإِلْحَادِ، وَالضَّلَالِ وَالْجَهْلِ، مَا لَمْ يَعْرِفْهُ أَكْثَرُ الْعِبَادِ، وَتِلْكَ سُنَّةُ اللَّهِ تَعَالَى فِي هَذَا الْوُجُودِ!!..

٩ - وَمَنْ قَامَتْ عَلَيْهِ حُجَّةٌ بَيِّنَةٌ فِي مَسْأَلَةٍ قَدْ عُلِمَ ضَلَالُهُ فِيهَا؛ لَوْ قَالَ: أَنَا لَا أَقْبَلُ حَتَّى تَقُومَ عَلَيَّ حُجَّةٌ ثَانِيَةٌ وَثَالِثَةٌ، كَانَ مَكَابِرًا ظَالِمًا مَعْتَدِيًا، وَلَمْ يُجِبْ إِلَى طَلْبِهِ، وَلَا يُمْكِنُ لِلْحَاكِمِ إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ بِحَقِّ الْمَدْعَى إِلَّا أَنْ يَحْكُمَ لَهُ بِهَا، فَلَوْ قَالَ الْمَطْلُوبُ: أَرِيدُ بَيِّنَةً ثَانِيَةً وَثَالِثَةً وَرَابِعَةً، لَمْ يُجِبْ إِلَى ذَلِكَ، فَحَقُّ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي أَوْجِبَهُ عَلَى عِبَادِهِ مِنْ اتِّبَاعِ هَدْيِهِ عَلَى مَا بَيَّنَّهُ رَسُولُهُ ﷺ أَوَّلَى إِذَا قَامَتِ الْبَيِّنَةُ عَلَى ثُبُوتِهِ، وَمَنْ لَمْ يُسَلِّمْ بِهِ لَا يُجَابُ إِلَى بَيِّنَةٍ ثَانِيَةٍ وَثَالِثَةٍ؛ فَهُوَ إِمَّا زَنْدِيقٌ مَكَابِرٌ، أَوْ أَحْمَقُ فَاجِرٌ!!..

١٠ - إِنَّ الَّذِي يَحْتَاجُهُ الْبَاحِثُونَ هُوَ «الْعُنُقُ الْفِكْرِي» الَّذِي يُوضِّحُ الْحَقَائِقَ وَيُجَلِّيْهَا، فَإِنَّ السَّطْحِيَّةَ الَّتِي يَتَسَمَّى بِهَا غَالِبُ الْكِتَابِ وَالْمُؤَلِّفِينَ، هِيَ السَّبَبُ فِي الضَّيَاعِ الْفِكْرِيِّ، وَلَا أخطرَ مِنْهُ عَلَى الْعَقْلِ الْبَشَرِيِّ مِنْ أَيِّ سَبَبٍ مِنْ أَسْبَابِ الشَّتَاتِ وَالضَّيَاعِ!!..

١١ - إِنَّ عِلْمَ أَصُولِ الْفَقْهِ فِي الْإِسْلَامِ أَغْنَى الْعَقْلَ الْبَشَرِيَّ بِضَوَابِطِ الْاِسْتِدْلَالِ التَّفْصِيلِيَّةِ، كَمَا أَغْنَاهُ بِالْأَسْوَءِ الثَّابِتَةِ لِلْمَنْهَجِ الْاِسْتِقْرَائِيِّ التَّجْرِييِّ، الَّذِي لَوْلَاهُ لَسَقَطَ الْعِلْمُ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ، وَلَتَأَخَّرَتْ نَهْضَةُ أَوْرُوبَا الْعِلْمِيَّةِ الْجَدِيدَةِ قُرُونًا!! فَمَنْ يَجْهَلُ عِلْمَ أَصُولِ الْفَقْهِ لَا ثِقَّةَ بَعْلُومِهِ، فَهُوَ الْعِلْمُ الْوَحِيدُ الْفَرِيدُ الَّذِي خَصَّ اللَّهُ تَعَالَى أُمَّةَ الْإِسْلَامِ بِهِ مِنْ سَائِرِ أُمَمِ الْأَرْضِ، فَلَمْ يُوجَدْ إِلَّا بَعْدَ نَزُولِ الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَوُرُودِ بَيَانِهِ مِنْ سَنَةِ رَسُولِ اللَّهِ الْكَرِيمِ ﷺ، وَفَهْمِ السَّلَفِ الصَّالِحِ لآيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَلِأَحَادِيثِ رَسُولِهِ ﷺ، وَتَطْبِيقِ أَحْكَامِهِمَا، وَسُلُوكِ مَنْهَجِهِمَا، وَالتَّزَامِ ضَوَابِطَهُمَا، وَلِزُورِ تَوْجِيهِمَا!!..

فَأَصُولُ الْفَقْهِ «أُمُّ الْعُلُومِ الشَّرْعِيَّةِ» وَهُوَ الْأَصْلُ فِيهَا، وَهُوَ الْعَاصِمُ مِنْ كُلِّ انْحِرَافٍ فِي الْفَهْمِ وَالتَّفْكِيرِ، وَهُوَ الضَّابِطُ لِجَمِيعِ الْحَقَائِقِ وَاسْتِدْلالاتِهَا، وَهُوَ الْآلَةُ فِي بَيَانِ الْمَعَانِي وَإِظْهَارِ الْمَقَاصِدِ، وَتَوْضِيحِ الدَّلَالَاتِ، وَكَشْفِ مَبْهَمَاتِهَا؛ فَهُوَ عِلْمٌ فِي قَوَاعِدِ التَّفْسِيرِ وَالِاسْتِنْبَاطِ مِنْ دَلَالَاتِ النَّظْمِ الْقُرْآنِيِّ، فَفِيهِ الْبَحْثُ عَنِ الْأَسَالِبِ الْعَرَبِيَّةِ فِي الْخُطَابَاتِ، مِنْ الْفَصْلِ وَالْوَصْلِ، وَالِإِيجَازِ وَالِإِطْنَابِ وَالْمُتَرَادِفِ، وَالْحَقِيقَةِ وَالْمِجَازِ وَالصَّرِيحِ وَالْكِنَايَةِ وَالتَّعْرِيزِ. وَالْمَحْكَمِ وَالْمُتَشَابِهِ وَالنَّاسِخِ وَالْمَنْسُوخِ، وَالِإِعْجَازِ الْقُرْآنِيِّ، وَوُجُوهِ الْمُخَاطَبَاتِ وَأَنْوَاعِ السُّؤَالَاتِ وَالْجَوَابَاتِ.

وَعِلْمٌ فِي قَوَاعِدِ التَّفْسِيرِ وَالِاسْتِنْبَاطِ فِي وَضُوحِ الْأَلْفَافِ الْقُرْآنِيَّةِ، فَفِي وَاضِحِ الدَّلَالَةِ يَأْتِي الْبَحْثُ فِي الظَّاهِرِ وَالنَّصِّ وَالْمَفْسَّرِ وَالْمَحْكَمِ. وَفِي مَبْهَمِ الدَّلَالَةِ يَأْتِي الْبَحْثُ فِي الْخَفِيِّ وَالْمَشْكَلِ وَالْمَجْمَلِ وَالْمُتَشَابِهِ. وَفِي الْبَحْثِ عَنْ دَلَالَةِ الْأَلْفَافِ عَلَى الْأَحْكَامِ يَأْتِي الْبَحْثُ عَنْ دَلَالَةِ الْعِبَارَةِ وَدَلَالَةِ الْإِشَارَةِ وَدَلَالَةِ النَّصِّ وَدَلَالَةِ الْاِقْتِضَاءِ.

وعلم في قواعد التفسير والاستنباط في حالات شمول الألفاظ القرآنية، فيبحث فيه عن العام والخاص وصيغهما ودلالاتهما، وعن المشترك وأسباب وجوده ودلالته.

كما يختص في البحث عن إزالة أوجه التعارض أو التوفيق فيها، أو الترجيح بينها. فهذا العلم الأصل هو المدخل إلى الدراسات القرآنية خاصة والإسلامية عامة. فمن جهله لا يحق له البحث في القرآن العظيم والسنة المطهرة.

وبالتدقيق والتحقيق تبين بعد دراسة ما سمي به الكتاب والقرآن قراءة معاصرة أن أبحاثه مخالفة كل المخالفة لعلم الأصول وقواعد الاستنباط ومنهج المعرفة في الإسلام؛ مما يعتبر من الضوابط الثابتة التي يستحيل أن يطرأ عليها تبدل أو تغيير أو تحريف أو تزيف، لصلتها الوثيقة المتينة بأصل الإسلام «القرآن والسنة» وإن كل محاولة يقصد بها النيل من هذا العلم الشامخ الراسخ السامي الأصل مآلها الخيبة والفشل الذريع، والعاقبة الوخيمة، والضلال المشين.

وجميع أبحاث كتاب «القراءة المعاصرة» قد صيغت على غير منهج إسلامي، فقد أتت متتابعة وفق أغلوطات منطقية وتوهمات فلسفية وظلمات فرضية، وتأويلات غريبة وعجيبة، ومفاهيم مصطنعة، ودلالات متكلفة، وتصورات خيالية، ومضامين مستوردة غريبة استشراقية.

وإن الأسس التي قامت عليها دراسة أبحاث: «القراءة المعاصرة في الكتاب والقرآن» كمن يريد أن يقيم دراسة عن «الملاح» بعلم «الفلاح»، أو كمن يدرس علم الهندسة بعن الهلوسة، أو كمن يطلب علم الطبابة بالكهانة.

ثم إن حقائق القرآن العظيم لا تترك بأوهام الفلسفة، ولا تستخرج بمقدمات المنطق، ولا تفهم بأساليب الجدال الشفسطائي، بل لها طريقها المتميزة التي سارت عليها أمة الإسلام على مدى خمسة عشر قرناً من الزمان!! في مشرق الأرض ومغربها.. على الرغم من اختلاف الأزمنة وتباين الأمكنة، فلم يسجل التاريخ قيام دراسة على غرار «القراءة المعاصرة» التي ألبست مسوح الإسلام من البريطان!؟..

لهذا يجب على صاحب «القراءة المعاصرة» العودة إلى أصل المنهج الإسلامي الذي سلكه أكابر علماء الأمة وجهابذتها، وأفاضل مفكرها وساداتها، وأن يدع عنه هواجس المستشرقين، ووساوس النظريين، وتخيلات الواهمين.

ملاحظة هامة :

يجبُ التنبيه إلى الحذر من القراءة في كتاب «القراءة المعاصرة» للدكتور محمد شحرور للأخطار الفادحة التي تلحق قارئه، فقلَّ من القراء والمثقفين من يستطيعُ كشفَ الطريقة التي سارَتْ عليها أبحاثه، وهي كما وصفْتُها «تقوم على منهج جدلي فلسفي»، وهي تشكل خطورةً بالغةً على عقيدة المسلم وثقافته ومعرفته، أضفْ إلى تلك الطريقة المخادعة في: «الإحراج في العلم»، فتراه يكثر من الاستشهاد بالآيات القرآنية، ولكن مع تأويلها تأويلاً رمزياً، أو تأويلاً منحرفاً مغلوطاً، مخالفاً لأصول التفسير وقواعد التأويل، ولضمان جانب القارئ من الموازنة مابين ماذكره في «القراءة المعاصرة» وبين كتب التفسير، يطعن بجميع المفسرين، بل بجميع علماء المسلمين قديماً وحديثاً!! ففي ص ١١٥ يقول: «إنَّ التَّيَّةَ الأكبرَ في كتبِ التَّفاسير...».

وبما أنَّ منهجَ الكتاب قائمٌ على الفلسفة فإنَّه يصعبُ على من لا يعرف مَدَاخِلَهَا وَمَخَارِجَهَا، وجبَ توقِّي الوقوع في شراكها، بل قد رأينا شباباً مثقفين قد وقعوا في شرك أغلوطاته، فيجبُ التَّنبُّه لذلك..

وإنَّه ليجعلُ الفلسفةَ رأسَ الأمر في كتابه، ففي ص ١٠٣ يقول: «والقرآن حقيقة موضوعية مطلقة في وجودها خارج الوعي الإنساني، وفهمُ هذه الحقيقة لا يخضع إلا لقواعد البحث العلمي الموضوعي، وعلى رأسها «الفلسفة»؟!..».

وفي ص ٤٢ يدعو إلى فلسفة إسلامية معاصرة، وفي ص ٤٣ يزعم أنَّ الفلسفة «أمُّ العلوم»؟!..

وإنَّ أخطر ما في منطق الفلسفة «قياس الإحراج» وهو كثير الاطراد في كتاب «القراءة المعاصرة». وقياس الإحراج تكون إحدى مقدماته قضية عنادية ذات احتمالين، وتكون الأخرى دالَّة على أنَّ كلَّ احتمال من هذين الاحتمالين يتضمَّن النتيجة نفسها، وهو قياس مزدوج، أو قياس ذو حدَّين، يُخْرِجُ الخصمَ وَيُلْزِمُهُ بقبول النتيجة. وهو يُطْلَقُ على الاستدلال الذي يكون فيه التقابل بين قضيتين متناقضتين، لأنَّ إحداهما إذا كانت صادقة كانت الأخرى كاذبة، والعكس بالعكس.

وأوضح أشكال الإحراج: أن يجعل الخصمُ القضيةَ التبادلية أو العنادية مشتملةً على حدَّين متناقضين، بحيث يؤدي إثباتُ أحدهما إلى إبطال الآخر، مثال ذلك:

قول دعاة التطوُّر: إمَّا أن يكون الدِّين واجباً أو لا يكون واجباً، فإن كان واجباً عليه أن يسمح بالتغيير، فإن لم يسمح فلا قيمة له.

ويظهر هذا في قول المستشرقين ودعاة التطوير والتغيير، وأصحاب المعاصرة: إنَّ

على الإسلام إما أن يعتمد تغييراً جذرياً، أو أن يتخلى عن مساهمة الحياة [انظر كتاب: الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري/ للدكتور محمود حمدي زقزوق/ ط دار المنار- القاهرة].

١٠- قراءة أصولية للمنهج الجدلي الفلسفي

يقوم منهجُ الجدل عند أهل الزيف على معارضة آيات الله تعالى بآرائهم، وتقديم قول الفلاسفة على قول الرسول ﷺ، وهذا مذهب الجهمية قديماً، وأصحاب «التطور والارتقاء» حديثاً. وإنَّ أضلَّ كُلِّ شَرٍّ هو معارضة القرآن بالرأي، وتقديم الهوى على الشرع. وهذا واقع الجدل الفلسفي القائم عليه القراءة المعاصرة للكتاب والقرآن؟! (١)

إنَّ الله تعالى أرسلَ رسولَه مُحَمَّدًا بِالْهُدَى وَدِينَ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ!! فَالْمُتَّبِعُونَ لَهُ وَالْمُقْتَدُونَ بِسِتِّهِ هُمْ أَهْلُ الْهُدَى وَالْفَلَاحِ، وَالْمُغْرَضُونَ عَنْ ذَلِكَ هُمْ أَهْلُ الشَّقَاءِ وَالضَّلَالِ.

كما قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنْتُ بَصِيراً؟! قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنْسَى﴾ [سورة طه آية ١٢٤-١٢٦].

وقد أخبر الله تعالى عن أهل النار أنهم إنما دخلوها لمخالفة آياته وهدى رسوله ﷺ، قال سبحانه: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَراً حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا؟! قَالُوا بَلَىٰ، وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [سورة الزمر آية ٧١].

ومعلوم أنَّ رسولَ الله ﷺ خاتم الرُّسل، جاء مصداقاً لما بعثهم الله به من الهدى والحق. وإنَّ ما جاء به هؤلاء جميعاً يتضمَّن الأمر والنهي، والحلال والحرام، والطاعة والعبادة، والمتبع لذلك من أهل السعادة، والمخالف لذلك أو المعارض له برأيه وهواه، أو بآراء غيره وأهوائهم، هو من أهل الشقاوة.

ولهذا كان ضلال مَنْ ضلَّ من أهل الفلسفة والجدل بما عارضوا به كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ بآرائهم وأهوائهم. والمقصود هنا كما قال الله تعالى: ﴿مَائِجَادِلْ فِي آيَاتِ اللَّهِ إِلَّا الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَا يَغْرُزُكَ تَقَلُّبُهُمْ فِي الْبِلَادِ﴾ [سورة غافر آية ٤] إلى قول الله تعالى: ﴿وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابُ؟!﴾ ولهذا حذَّر رسولُ الله ﷺ أُمَّتَهُ مِنَ الْجِدَالِ فِي الْقُرْآنِ، فقال: «الْجِدَالُ فِي الْقُرْآنِ كُفْرٌ» [صحيح

(١) كما تقدمت الإشارة إليه

الجامع الصغير برقم ٣١٠٦ وفي رواية أخرى: «المِرَاءُ فِي الْقُرْآنِ كَفَرًا» [برقم ٦٦٨٧]. ومن المعلوم أَنَّ كُلَّ مَنْ عَارَضَ الْقُرْآنَ وَجَادَلَ فِي ذَلِكَ بِعَقْلِهِ وَرَأْيِهِ، فَهُوَ دَاخِلٌ فِي ذَلِكَ، وَإِنْ كَانَ يَزْعُمُ أَنَّهُ يُرِيدُ دِرَاسَةَ الْقُرْآنِ، بَلْ إِذَا قَالَ مَا يُوجِبُ الْمِرْيَةَ وَالشَّكَّ فِي كَلَامِ اللَّهِ، فَقَدْ دَخَلَ فِي ذَلِكَ، فَكَيْفَ بَعْنُ يَزْعُمُ أَنَّ مَا يَقُولُهُ بِعَقْلِهِ وَرَأْيِهِ مُقَدَّمٌ عَلَى نَصُوصِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ؟! وَكَيْفَ بَعْنُ يَزْعُمُ أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ كَلَامَ اللَّهِ، وَأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ هُوَ الْكُونُ؟! وَكَيْفَ بَعْنُ يَزْعُمُ أَنَّ آيَاتِ الْأَحْكَامِ: آيَاتِ الصَّلَاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالْإِرْثِ، لَيْسَتْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ؟! كَمَا يَزْعُمُ ذَلِكَ الدُّكْتُورُ «شُحُور»...!

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ إِنْ فِي ضُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَاهُمْ بِيَالَيْهِهِ﴾ [سورة غافر آية ٥٦]، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يُجَادِلُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَانٍ أَتَاهُمْ، كَبُرَ مَقْنًا عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا!! كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٌ﴾ [سورة غافر آية ٣٥].

وَالسُّلْطَانُ: هُوَ الْكِتَابُ الْمَنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ، كَمَا ذَكَرَ ذَلِكَ الطَّبْرِي فِي تَفْسِيرِهِ ج ٩/٣٣٧ / وَذَكَرَ أَنَّهُ الْحُجَّةُ ج ٧/٢٧٩ وَج ٩/٣٣٦] وَفِي تَفْسِيرِ الْقُرْطُبِيِّ ج ٤/٢٣٣: «سُلْطَانًا أَيْ: حُجَّةً وَبَيِّنَاتًا، وَعِذْرًا وَبِرَهَانًا».

وَمِمَّا يُبَيِّنُ أَنَّهُ لَا يَجُوزُ مَعَارَضَةُ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى بِغَيْرِهِ مَهْمَا كَانَ، فَكِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى فَوْقَ كُلِّ كِتَابٍ!!!..

وَكِتَابُ اللَّهِ تَعَالَى: خَبِيرٌ عَمَّا يَحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَعَمَّا لَا يَحِبُّهُ وَلَا يَرْضَاهُ، وَهُوَ أَيْضًا خَبِيرٌ عَنْ صِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ سَبْحَانَهُ، كَمَا أَنَّهُ أَمْرٌ وَنَهْيٌ. أَمَّا الْخَبِيرُ فَلَا يَجُوزُ أَنْ يَتَنَاقَضَ، وَلَكِنْ قَدْ يُقَسَّرُ أَحَدُ الْخَبِيرَيْنِ الْآخَرَ وَيُبَيِّنُ مَعْنَاهُ. وَأَمَّا الْأَمْرُ وَالنَهْيُ فَيَدْخُلُهُمَا النَّسْخُ، وَلَا يَنْسَخُ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَّا بِمَا أَنْزَلَهُ اللَّهُ، فَمَنْ يُرِيدُ أَنْ يَنْسَخَ شَرْعَ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ بِرَأْيِهِ وَهَوَاهُ كَانَ مُلْحَدًا، وَكَذَلِكَ مَنْ دَفَعَ خَبَرَ اللَّهِ بِرَأْيِهِ وَنَظَرِيَّتِهِ كَانَ ضَالًّا، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ، وَمَنْ قَالَ: سَأُنْزِلُ مِثْلَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ﴾ [سورة الأنعام/٩٣]، فَذَكَرَ سَبْحَانَهُ مَنْ يَفْتَرِي الْكَذِبَ عَلَى اللَّهِ؟! وَمَنْ يَزْعُمُ أَنَّ كَلَامَهُ مِثْلَ كَلَامِ اللَّهِ الَّذِي أَنْزَلَهُ.

وَهَذَا الْأَصْلُ هُوَ مِمَّا يُعْلَمُ بِالضَّرُورَةِ مِنْ دِينِ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ؛ يَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِذَا أَرْسَلَ رَسُولًا، فَإِنَّمَا يَقُولُ مَا يَنْقُضُ كَلَامَهُ وَيُعَارِضُهُ مَنْ هُوَ كَافِرٌ، فَكَيْفَ بَعْنُ يُقَدِّمُ كَلَامَهُ عَلَى كَلَامِ رَسُولِهِ ﷺ؟!..

وَأَمَّا الْمُؤْمِنُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يُقَدِّمُونَ أَقْوَالَهُمْ عَلَى قَوْلِهِ، بَلْ قَدْ أَذْبَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِقَوْلِهِ:

﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ [آيات من سورة الحجرات/ ١].

ولكنّ بدع الفلاسفة والجدليين مخالفة لكتاب الله تعالى ولسنة رسوله ﷺ وهي من شعب الضلال، فكيف بمن يزعم أنّ الفلسفة أم العلوم، ويريد أن يُفسّر بها كلام الله تعالى؟! ..

وإذا كان أصل معارضة كلام الله تعالى بقول فيلسوف، أو بكلام جدلي، ضلالاً؛ عَلِمَ أَنَّ مِنْهُمْ كُلَّهُ بَاطِلٌ!! ..

وهذا ممّا ينبغي للمؤمن أن يعلمه ويحذره أشدّ الحذر!

ومعلوم أنّ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْعَقْلَ الصَّرِيحَ الَّذِي يَجِبُ اتِّبَاعُهُ يُنَاقِضُ مَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، فَقَدْ بَغَى سَبِيلَ اللَّهِ عِوَجًا؛ أَيِ طَلَبَ لَهَا الْعِوَجَ، فَإِنَّهُ طَلَبَ أَنْ يُبَيِّنَ اعْوِجَاجَ ذَلِكَ وَمِيلَهُ عَنِ الْحَقِّ، وَأَنَّ تِلْكَ السَّبِيلَ الشَّرْعِيَّةَ السَّمْعِيَّةَ الْمَرْوِيَّةَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ يَرَاهَا لَا تَصْلُحُ لِهَذَا الْعَصْرِ، وَأَنَّ السَّنَةَ النَّبَوِيَّةَ كَانَتْ لِأَهْلِ الْقَرْنِ السَّابِعِ الْمِيلَادِيِّ فِي شِبْهِ جَزِيرَةِ الْعَرَبِ، وَأَنَّ مَا جَاءَ بِهِ مِنْ فِلَسْفَةٍ وَجَدَلٍ هُوَ السَّبِيلُ الْمُسْتَقِيمُ؛ فَإِنَّا نَقُولُ لَهُ: مِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى أَخْبَرَ أَنَّهُ أَرْسَلَ رَسُولَهُ ﷺ بِالْهُدَى وَالْبَيَانِ لِيُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ، فَقَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ﴾ [سورة التوبة آية/ ٣٣] وقوله تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ. صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ [سورة الشورى آية ٥٢-٥٣]، وقوله تعالى: ﴿قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ. يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ [سورة المائدة آية/ ١٥-١٦]، وقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [سورة النمل آية/ ٤٤]، فهل هناك نورٌ غيرُ نورِ الله تخرجهم إليه؟ وهل أنت أهدى من رسول الله حتى تتولّى بيان القرآن بدلاً عنه؟! ومَنْ يزعمُ ذلك فهو مدّعٍ للنُّبُوَّةِ، أو يزعم لنفسه مقامها، وهذا شبيهٌ بدعوى «مسيلمّة الكذاب» ومَنْ على شاكلته من الكذّابين الضّالّين؟! ..

وَمِنْ الْمَعْلُومِ لِعَامَّةِ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ مَدْعَى ذَلِكَ مُضَادٌّ لِلرَّسُولِ ﷺ، وَهَذَا مِنْ أَشَدِّ الْمَخَالَفَةِ لَهُ ﷺ، وَهُوَ مِنْ أَقْبَحِ الْكُفْرِ!! وَمِنْ الْمَعْلُومِ أَنَّ أَقْوَالَ الْفِلَاسِفَةِ الْمُنَاقِضَةِ لِدِينِ الْإِسْلَامِ هِيَ الَّتِي تَغَرَّرَ بِمَعَارِضَةِ الرَّسُولِ ﷺ وَبِمَخَالَفَتِهِ، وَهَذَا هُوَ الْمَعْرُوفُ عَنْهُمْ قَدِيمًا وَحَدِيثًا! .. كَمَا أَنَّ الْمَعْلُومَ عَنِ الْفِلَسْفَةِ أَنَّهَا مُخَالَفَةٌ لِمَا جَاءَ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَالْفِلَاسِفَةُ لَا يَشْهَدُونَ لَهُ بِالنُّبُوَّةِ وَالْوَحْيِ، وَإِنَّمَا يَقُولُ: بَأَنَّ لَهُ قُوَى نَفْسَانِيَّةَ بَلَّغَ بِهَا تِلْكَ

المرتبة، فهم لا يؤمنون بالوحي ولا بجبريل عليه السلام، بل لا يؤمنون بالغيب الذي أخبر الله تعالى عنه في كتابه، فهم عقلانيون، يقولون بالظن والهوى، وهم أجهل الناس بما جاءت به رُسُلُ الله تعالى من الهدى والدين القيم. وأصل الإلحاد والكفر بالله هو معارضة ما جاءت به رُسُلُ الله تعالى بالعقول والآراء والظنون.

وما أشبه الجدلي المغالط في تفسير كلام الله تعالى وتأويله، والمكذب بحديث رسوله بالجدلي من «الجهمية المعطلة للقرآن والسنة»!! فإن مذهبهم واحد وإن اختلفت أشكالهما؛ فقد كان بعض رؤوس «الجهمية» يقول: ليس شيء أنقض لقولنا من القرآن، فأقرؤا به في الظاهر، ثم صرّفوه بالتأويل.. وإذا احتجوا عليكم بالحديث فغالطوهم بالتكذيب، وإذا احتجوا بالآيات فغالطوهم بالتأويل.

ولهذا تجد الواحد من هؤلاء - قديماً أو حديثاً - لا يحبّ تبليغ التّصوُّصِ النبويّ، بل قد يختار كتمان ذلك والنهي عن إشاعته وتبليغه، أو تكذيبه وتشكيك الناس به، خلافاً لما أمر الله تعالى به ورسوله من طاعة الرسول ﷺ والتبليغ عنه؛ كما قال ﷺ: «بلّغوا عني ولو آية» [صحيح الجامع الصغير/ رقم ٢٨٣٧] وقال ﷺ: «ليبلغ الشاهد الغائب» [صحيح البخاري: كتاب العلم/ وصحيح مسلم: كتاب الحج]، وقال ﷺ: «نصر الله امرأً سمع منا حديثاً فبلغه إلى من لم يسمعه، فرب حامل فقه غير فقيه، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه» [مسند أحمد ج ٣/ ٢٢٥] والترمذي: في كتاب العلم/ وهو حديث صحيح].

وقد ذمّ الله تعالى في كتابه الذين يكتُمون ما أنزل الله من البينات والهدى، والذين لا يتبعون رسوله ﷺ، وهؤلاء - قديماً وحديثاً - لا يحبُّون السّنة النبويّة، لأنها معارضة لأهوائهم وآرائهم، وفيهم قال الصحابي الجليل عبدالله بن عمر بن الخطاب: إياكم وأصحاب الرأي، فإنهم أعداء السّنة.. وكذا قال أبوه عمر بن الخطاب: إياكم والرأي، فإن أصحاب الرأي أعداء السّنة.. [وهذه الآثار في غاية الصحة/ انظر الاعتصام للشاطبي ص ١٢٣-١٢٤ - ط المنار].

وليس أحد أعجب برأيه من أصحاب الجدل الفلسفي، الذي يرى رأيه في قمة الحقائق، والواقع أنّ رأيه من خرافات الأساطير!!..

[وسياتي الكشف عن هذه الآراء الجدلية المخالفة للكتاب والسّنة وإجماع الأمة في الفصل السابع/ البحث السابع: انحراف أصحاب القراءة المعاصرة للكتاب والقرآن].

١١- المنهج العلمي في تفسير آيات الكون والحياة

في هذا الاتجاه يضع القرآن الكريم منهج عمل في الكشف عن سنن العالم والحياة، ونواميس الكون، وهو منهج شامل مرن لا يخضع لتقلبات الزمان والمكان لأنه ليس مجرد طريقة أو أداة للبحث والتنقيب، ومن ثم فإنه يعلو على المتغيرات النسبية ويظل ساري المفعول في أي عصر وفي أية بيئة.

لقد دعا القرآن الناس إلى التبصّر بحقيقة وجودهم وارتباطاتهم الكونية عن طريق (النظر الحسّي) إلى ماحولهم، ابتداء من مواضع أقدامهم وانتهاء بأفاق النفس والكون.. وأعطى (للحواس) مسؤوليتها الكبرى عن كل خطوة يخطوها الإنسان المسلم في مجال البحث والنظر والتأمل والمعرفة والتجريب.. قال له: ﴿وَلَاتَقِفْ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾^(١). وناداه أن يمعن النظر إلى حوله.. إلى طعامه ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا. فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا. وَعَبْنَا وَقَضَبًّا. وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا. وَحَدائقَ غُلْبًا. وَفَاكِهَةً وَأَبًّا﴾^(٢).. إلى خلقه ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾^(٣).. إلى الملكوت ﴿أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا إِلَى مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟﴾^(٤).. ﴿انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ؟﴾^(٥).. ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا؟﴾^(٦).. إلى التاريخ ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ؟ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً﴾^(٧).. ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ؟ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾^(٨).. إلى خلاق الله ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ؟﴾^(٩).. إلى آياته

(١) الإسراء: ٣٦.

(٢) عبس: ٢٤-٣١.

(٣) الطارق: ٥.

(٤) الأعراف: ١٨٥.

(٥) يونس: ١٠١.

(٦) ق: ٦.

(٧) الروم: ٩.

(٨) محمد: ١٠.

(٩) الغاشية: ١٧.

المنبئة في كل مكان ﴿انظر كيف نبين لهم الآيات﴾^(١) .. ﴿انظر كيف نُصَرِّفُ الآياتِ
ثم هم يصدِّفون﴾^(٢) ..

وانتقل القرآن خطوة أخرى، وسألهم أن يحركوا بصائرهم، تلك التي تستقبل في كل لحظة مدركات حسية، سمعية وبصرية ولمسية، لاحصر لها. ومن ثم تتحمل البصيرة مسؤوليتها الأساسية في تنسيق هذه المدركات وتمحيصها وموازنتها وفرزها من أجل الوصول إلى الحق الذي تقوم عليه وحدة نوااميس الكون والخلقة:

﴿فمن أبصرَ فلنفسه ومن عمِيَ فعليها﴾^(٣) .

إن العقل والحواس جميعاً مسؤولتان، لاتنفرد إحداها عن الأخريات في تحمل تبعه البحث والتمحيص والاستقراء والاختيار.. والإنسان مبتلى بهذه المسؤولية لأنه من طينة أخرى غير طينة الأنعام ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة امشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾^(٤) .. ومن ثم تتوالى الآيات، تؤكد مرة تلو المرة على أن السمع والبصر والفؤاد جميعاً هي التي تعطي للحياة الإنسانية قيمتها وتفرداها، وإن الإنسان (بتحريكه) هذه القوى والطاقات، بفتحها هذه النوافذ على مصاريعها.. باستغلال قدراتها الفذة العجيبة حتى النهاية، سيصل إلى قمة انتصاره العلمي والديني على السواء، لأن هذه الانتصارات ستبوءه مركزه المسؤول سيداً على العالمين وخليفةً لله في الأرض. وإنه بتجميعه هذه الطاقات، وقفل نوافذها، وسحب الستائر والأغشية عليها، يكون قد اختار بنفسه المنزلّة الدنيا التي ماأرادها له الله يوم منحه السمع والبصر والفؤاد، منزلة البهائم والأنعام ﴿أولئك الذين لعنهم الله فأصمّهم وأعمى أبصارهم﴾^(٥) .

وأكد القرآن على الأسلوب الذي يعتمد (البرهان) و(الحجة) و(الجدال الحسن) للوصول إلى النتائج الصحيحة القائمة على الاستقراء والمقارنة والموازنة والتمحيص استناداً إلى المعطيات الخارجية المتفق عليها، والقدرات العقلية والمنطقية لأولئك الذين

(١) المائدة: ٧٥.

(٢) الأنعام: ٤٦.

(٣) الأنعام: ١٠٤.

(٤) الإنسان: ٢.

(٥) محمد: ٢٣.

بلغوا شأواً بعيداً في هذا المضممار:

- ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بَرَهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(١) .
﴿وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ لَا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ﴾^(٢) .
﴿تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ !! قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٣) .
﴿إِلَهُ مَعَ اللَّهِ؟ قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾^(٤) .

وثمة حقيقة قرآنية على درجة كبيرة من الأهمية، تلك هي أن كلمة (العلم) وردت في القرآن الكريم مراراً كمصطلح على (الَّذِينَ) نفسه الذي عَلَّمَهُ اللهُ أَنْبِيَاءَهُ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ على التواميس التي يسير بها الله ملكوته العظيم.. على الحقائق الكبرى الموجودة عند الله سبحانه في (أم الكتاب).. وكإشارة إلى القيم الدينية التي تنزلت من السماء. ومن ثَمَّ يَغْدُو (العلم) و(الَّذِينَ) سواء في لغة القرآن.. وها هي كلمات الله سبحانه تعلمنا هذه الحقيقة، وتبصرنا بمواقع العلم والذين الفسيحة، الممتدة، المتداخلة، كما أراد لها الله أن تكون، لا كما يُرِيدُ لها أصحاب (الظن) و(الهُوى) من الوضعيين، ولنستمع إلى بعض من كلمات الله:

﴿وَلَنْ تَابِعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنْ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾
[البقرة/ ١٢٠].

﴿وَلَنْ تَابِعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذْنُ لِمَنِ الظَّالِمِينَ﴾
[البقرة/ ١٤٥].

﴿قَالَ: إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾
[البقرة/ ٢٤٧].

﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ [آل عمران/ ٧].

﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ...﴾
[آل عمران/ ١٨]

(١) النساء: ١٧٤.

(٢) المؤمنون: ١١٧.

(٣) النمل: ٦٤.

(٤) القصص: ٧٥.

﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ...﴾ [آل عمران/ ٦١].
﴿هَآأَنْتُمْ هَؤُلَاءِ حَآجَجْتُمْ فِيمَا لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُمْ بِهِ عِلْمٌ؟﴾
[آل عمران/ ٦٦].

﴿مَالَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا أَتْبَآءُ الظَّنِّ...﴾ [النساء/ ١٥٧].
﴿لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ...﴾
[النساء/ ١٦٢].

﴿نَبْشُونِي بِعِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الأنعام/ ١٤٣].
﴿قُلْ هَلْ عِنْدَكُمْ مِنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا؟﴾ [الأنعام/ ١٤٨].
﴿فَلَنَقْصُرَ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ﴾ [الأعراف/ ٧].
﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً...﴾ [الأعراف/ ٥٢].
﴿وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ﴾ [يونس/ ٩٣].
﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ [الحج/ ٣].
﴿وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ﴾ [الحج/ ٥٤].
﴿قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ﴾ [النمل/ ٤٠].
﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل/ ٤٢].
﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت/ ٤٦].
﴿وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ﴾ [سبأ/ ٦].
﴿أَتُوتُنِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ [الأحقاف/ ٤].
﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة/ ١١].
﴿وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ؟﴾ [الأنعام/ ٨٠].
﴿وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ [يوسف/ ٢٢].
﴿آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا عِلْمًا﴾ [الكهف/ ٦٥].
﴿وَقُلْ رَبِّي زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه/ ١١٤].
﴿وَإِنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق/ ١٢].
﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة/ ٢٥٥].

﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾ [يونس/٣٩].

﴿قَالَ: عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ [طه/٥٢].

﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ﴾ [البقرة/٣١].

﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ. عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ [العلق/٥-٤].

﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ﴾ [النساء/١١٣].

﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت/٤٣].

﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر/٢٨].

ولا يسعنا هنا استعراض جُلِّ ماورد من آيات في هذا المجال، ويكفي أن نشير إلى أن كلمة (علم)، بتصرفاتها المختلفة، وردت في عدد من الآيات جاوز السبعمئة والخمسين!!

إن القرآن، من خلال هذه الآيات، وغيرها كثير، يريد أن يضعنا في قلب الطبيعة، على مستوى الكون والعالم.

إن كل آية تتناول مسألة طبيعية أو حيوية أو مادية تنتهي بأفعال التقوى والإيمان، وبال دعوة إلى ربط آية فاعلية الله.. وهذا التأكيد المتكرر له مغزاه الواضح..

وفي مقابل تأكيد القرآن المتزايد على اعتماد (الموقف العلمي) الشامل إزاء الكون والحياة والعالم، يعلن رفضه القاطع لكل مامن شأنه أن يمس هذا الموقف أو يلغيه، أو يصدّه عن العمل: الهوى والظن والسحر والخرافة.. إن هذه الممارسات (اللاعلمية)، إذا صحَّ التعبير، تأتي جميعاً بمثابة (الضلال) عن الطريق القويم الذي جاء الدين لكي يدعو الإنسان للسير فيه إلى أهدافه على خط مستقيم. والخط المستقيم - كما هو معروف - أقرب المسافات بين نقطتين، وأي انحراف عن الطريق سيعيد الشقة ويطيل الجهد ويلتوي بالسائرين..

وقد لا يصل بهم إلى أهدافهم أبداً..

إن القرآن الكريم يعلن مراراً عن هذه المعادلة الواضحة البيّنة: إنه ليس بعد الهدى إلا الباطل والعمى، ولا بعد الحق إلا الضلال الممين..

ومن أجل ألا يقف الإنسان عند حدود الظواهر فقصده عن التوغل إلى الأعماق، وتحجب عنه الرؤية الشاملة وطبائع الأشياء والموجودات، فتجنح به - بالتالي - بعيداً عن المنهج العلمي الموضوعي، الذي لا يكفي بالوقوف على سطح الأشياء.. من أجل

ذلك بين القرآن في أكثر من مجال تواجد الجانب الآخر لصفحة الكون والعالم، وما في كوامنه من أسرار، الذي لا يسعى إلى سبره إلا أولوا العلم الشامل : العلم الشرعي والعلم الكوني..

وفي البعد الثاني يطرح القرآن حشداً من الحقائق والسنن والنواميس في مجالات العلم المختلفة: الفلك والجغرافية والنبات والحيوان والإنسان، في عدد واسع من المقاطع والآيات... وها هنا يلجأ بعض المفكرين أو المفسرين المعاصرين إلى اعتماد أحد الموقفين اللذين سبق وأن أشرنا إليهما: الموقف الأول يتكئ على معطيات العلم الحديث لتفسير آيات القرآن الكريم والوقوع بالتالي في خطأ منهجي يقوم على تحكيم الجزئي بالكلّي والمتغير بالدائم والنسبي بالمطلق. فإذا ما حدث وأن تبدلت الجزئيات والمتغيرات والنسبيات العلمية، وهذا شأنها كما يؤكد العلماء أنفسهم، أدى ذلك إلى إحداث شرح، أو قلق ذهني، إزاء تلك الآيات التي فسّرت وفق مقولات لم يتح لها الدوام.

والموقف الثاني. يرفض كلية الاعتماد على معطيات العلم الحديث تحسباً من مصير كهذا فيقع في مظنة الخطأ هو الآخر.

والمنهج الأقرب إلى الصواب هو أن نتخذ موقفاً (وسطاً) كما علّمنا كتابُ الله نفسه أن نتخذ في كافة مساحات الحياة، فلا هو بالالتصاق الكامل بمعطيات العلم المتغيرة، ولا هو بالرفض الكامل للتفسير بها.

إن المفسّر المعاصر يتوجب عليه أن يُعمل عقله وقدراته في مجال تخصصه إذا توفرت لديه، لإدراك طبيعة العلاقة بين طرفي المعادلة: الآية القرآنية والمقولة العلمية، مستفيداً، من جهة أخرى، من الاتجاهات الحديثة التي نضجت أخيراً في مجال التفسير القرآني، تلك الاتجاهات التي تعتمد مفردات القرآن نفسه ومنحنياته البيانية لفهم مضامينه ومعانيه فيما يعرف بالتفسير البياني للقرآن، والذي من شأنه أن يمنح المفسّر ضمانات موضوعية لنشاطه تحميّه من الإفراط أو التفريط في محاولة الوصول إلى الدلالات المقصودة للكلمات والتراكيب الجمالية في الآيات الكريمة.

ومن خلال هذا التوازن في القدرة العلمية (التخصصية) والقدرة التفسيرية (البيانية) يمكن للمفسّر أن يتحرك للكشف عن الدلالات المقصودة للآيات العلمية في كتاب الله.

هنالك من الحقائق العلمية ما أصبح بمثابة قوانين نهائية، بل بدايات مسلمة بها

لا تقبل نقضاً ولا تغييراً، من مثل الدور الذي تلعبه الرياح في عملية الإمطار، ومن مثل الدور الذي تلعبه الجاذبية في حركة المجموعة الشمسية، ومن مثل المراحل التشريعية التي يمرّ بها الجنين، وتغيّر نسب المكونات الغازية قريباً أو بعداً عن سطح الأرض.. وغير هذه الحقائق أمور كثيرة ماكان العربي يوم نزول القرآن يلمّ بأبعادها (العلمية)، ومن ثم فإن تفسير الآيات القرآنية التي تناولت هذه الحقائق وأكدت عليها، كما أنه سيتكئ على بدايات علمية بالنسبة للقرون الأخيرة على الأقل، فإنه سيكشف - في الوقت نفسه - على جانب من جوانب الإعجاز العديدة التي تضمنها القرآن وأشار إليها..

وهناك من الحقائق العلمية ما يحتمل أكثر من وجه، ولكن هذه الوجوه جميعاً إنما تدور في إطار واسع مرّن. ليس ثمة مانع من أن نحيل عليه آيات قرآنية أخرى لإدراك دلالاتها من مثل تلك الآيات التي تؤكد على (النظام) الذي يمسك بناء السماوات المعجز من أن يتفكك ويتبعثر ويضيع..

أما النظريات التي لاتزال موضع أخذ وردّ والتي لم تبلور بعد كحقائق وقوانين وبدايات مسلّم بها، فإن بمقدور المفسّر أن يكون حذراً إزاءها، وألا يتكئ عليها إلا بمقدار ما يتيح له ذلك تسليط الضوء على جانب من جوانب المضمون الذي تحويه الآية.

ليست سواء.. معطيات العلم التي تتمخض باستمرار، ومن ثم فإن التعامل معها يجب أن يحاذر عن مظنة الارتباط الكامل أو الانفصال الكامل.

إن الارتباط الكامل سيمنع القدرة على الفهم والإدراك من التحرك بشتى الاتجاهات، والانفصال الكامل سيضعف هذه القدرة ويقيم أسلاكاً شائكة بين جانب من معطيات القرآن وبين الإنسان المعاصر.

إن (الحقائق) التي يطرحها القرآن والتي أريد منها أن تكون (شواهد) تقود الإنسان إلى الإيمان بالله الواحد القادر العالم المريد، تتشر وتوزع على مساحة القرآن كله، ويمكن تصنيفها بشكل عام وفق الموضوعات التي اعتمدناها في هذا البحث والتي يجدها القارئ فيما يلي:

ويجب أن نلاحظ أن ليس كل ما طرحه القرآن الكريم في واحد من حقول العلم العديدة أريد به أن يكون (إعجازاً) للأجيال التالية، ولم يكن معروفاً - بالتالي - في عصر النزول. فثمة صنفان من الآيات نطالعهما في أي حقل من الحقول: صنف جاء

على سبيل (الإخبار) ولفت الأنظار إلى خليقة الله وإبداعه في الكون والعالم والنفس، وهو يعرض لحقائق وظواهر وموجودات كانت معروفة في عصرها، كما هي معروفة في كل عصر.. وصنف آخر تضمن إشارات لحقائق وسنن ونواميس (علمية) ماكانت معروفة في عصرها، وتولى العلم - بمرور الزمن - الكشف عنها وهي التي تسمى عادة بالإعجاز العلمي للقرآن.

كما يجب أن نلاحظ أن ماطرحة القرآن لا يمثل كشافاً بكافة الحقائق العلمية، فالقرآن الكريم - كما سبق وأن ذكرنا - ليس كتاباً علمياً، وإنما هو يكفي بالكشف عن بعض الحقائق والإشارة إلى بعضها الآخر، وتبقى حشود أخرى من الحقائق، أكثر بكثير، تركت للإنسان حرية الكشف عنها.

وفي الاتجاه الثالث نطالع في القرآن الكريم دعوة ملحة في أكثر من موضع إلى اعتماد حقائق العلم وكشوفاته لتطوير الحياة وترقية الحضارة البشرية بمزيد من التطبيقات (التقنية) على كافة المستويات.. وهو موقف مرن هو الآخر، يتميز بالشمولية والديمومة، إذ هو دعوة للإفادة من الحقائق العلمية (الراهنه) في مدى كل عصر، لإحداث تطبيقات على مستوى العلاقات (المدنية) لذلك العصر، فإذا ماحدث وأن تغيرت الحقائق العلمية وتبدلت العلاقات المدنية كان بمقدور النداء القرآني أن يمضي لكي يخاطب كل جيل من أجل أن يتحرك لإحداث تطبيقات أخرى على مستوى الحقائق الجديدة ومن خلال العلاقات المتغيرة..

وهكذا.. فحيثما تلفتنا، عبر هذا البعد الثالث من معالجة القرآن للمسألة العلمية، وجدناه يتخذ دعوة دائمة، لاتحدها حدود، ولاتأسرها متغيرات ولانسيات، لدفع الجماعة المؤمنة إلى صياغة مزيد من التطبيقات المبنية على حقائق العلم وكشوفاته ومعادلاته.

إن القرآن يقف بنا دائماً في نقطة التوازن الخلاقة، إنه في هذه الصورة يبدأ بإيصال الإنسان إلى قلب القوى الطبيعية، ويحشرها في خدمته من أجل الإعمار والبناء، فيُسكِّتُ القائلين بالتعارض بين العلم والدين، ولكنه مايلبث في نهاية العرض أن يوقف الإنسان عن حدود (الحكمة) التي يفترضها الإيمان بوجود الله الأقدر والأعلم، والتي تجيء بمثابة (فرامل ضابطة) تنظم سير القوى المسخرة للإنسان، وتمنعه - في الوقت نفسه - من الجنوح باتجاه الجبروت والطغيان واعتماد هذه الطاقات الهائلة للإبادة والدمار، وحصانة تفرده وتقدمه في الأرض.

وهذا لو تحقق، فإنه سيؤول، بطبيعة الحال، إلى وضعية مضادة للتحضر والتطور،

وضعية لاتقل في سليبتها وخطورتها عن تزييف الموقف الديني ودفعه إلى الرفض والفرار بمواجهة الدخول إلى قلب العالم والإسهام في تحضيره وتطويره.

إن (الإيمان) الذي يقوم عليه بنیان الدين، يجيء دائماً بمثابة (معامل حضاري)، يمتدّ أفقياً لكي يصبّ إرادة الجماعة المؤمنة على معطيات الزمن والتراب، ويوجهها في مسالكها الصحيحة، ويجعلها تنسجم في علاقاتها، وارتباطاتها مع حركة الكون والطبيعة ونواميسهما، فيزيدها عطاء وقوة وإيجابية وتناسقاً.. كما يمتد عمودياً في أعماق الإنسان لكي يبعث فيه الإحساس الدائم بالمسؤولية، ويقتطع الضمير، ويدفعه إلى سباق زمني لا مثيل له لاستغلال الفرصة التي أتاحت له كي يفجر طاقاته ويعبّر عن قدراته التي منحها الله إياها، على طريق العقيدة التي يؤمن بها و(الأهداف) التي يسعى لبلوغها، فيما يعتبر جميعاً - في نظر الإسلام - عبادة شاملة يتقرب بها الإنسان إلى الله.

ويتحدث القرآن الكريم عن هذا (السباق) الحضاري عندما يصف المؤمنين بأنهم (يسارعون في الخيرات) وأنهم (لها سابقون)، وفي كلا التعبيرين نلمس بوضوح فكرة (الزمن) ومحاولة اعتماده لتحقيق أكبر قدر ممكن من المعطيات، ماتلبث أن ترتقي - بمقاييس الكم والنوع - بمجرد أن يتجاوز (المسلم) مرحلة الإيمان، إلى المراحل الأعلى التي يحدثنا عنها القرآن في أماكن عديدة: (التقوى) و(الإحسان)!!.

وهكذا تجيء (التجربة الإيمانية) لا لكي تمنح الحضارة، في مرحلة نموها، وحدتها وتفردا وشخصيتها وتماسكها، وتحميها من التبثر والتفكك والانحيار، فحسب، وإنما لكي ترفدها بهذين البُعدين الأساسيين اللذين يؤول أولهما إلى تحقيق انسجامها مع نواميس الكون والطبيعة.

والواقع أن القرآن، وهو يحضّ المؤمنين على التسارع الحضاري عملاً وإنجازاً وإبداعاً مسؤولاً، ويعلم رفضه للكسل والقعود والانتكال، والعبور السالب للعالم دونما إنشاء أو تغيير أو إعمار..

إن تأكيد القرآن الكريم في أكثر من موضع على (تسخير) كتلة الكون القريب والطبيعة والعالم للإنسان، إنما يمثل دعوة ملحة، إلى اعتماد التطبيق العلمي للإفادة من هذا التسخير في أوسع أمده.. فليس غير العلم بقادر على فهم وإدراك السنن والقوانين التي يعمل الكون بموجبها فيما هو مسخر لخدمة الإنسان..

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ [النحل/١٢].

﴿وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا﴾ [النحل/١٤].

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِي الْأَرْضِ؟﴾ [الحج/٦٥].
﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمَاوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ﴾ [لقمان/٢٠] صدق الله
العظيم!!!.

بسم الله الرحمن الرحيم

المدخل العام إلى:

خصائص القرآن العظيم

وهو يشتمل على الخصائص الفريدة التالية:

- ١ - إعجاز القرآن العظيم!.
- ٢ - وقوع التحدي بالقرآن العظيم!.
- ٣ - لغة القرآن البليغة!.
- ٤ - نظم القرآن المحكم وأسلوبه العذب!.
- ٥ - تأثير القرآن العظيم في نفوس المؤمنين!.
- ٦ - معارف القرآن العظيم الشاملة!.
- ٧ - وفاء القرآن العظيم بحاجات البشر!.
- ٨ - تأييد القرآن العظيم للحقائق العلمية!.
- ٩ - سهولة فهم القرآن العظيم مع علو مطالبه!.

خصائص القرآن العظيم^(١)

١ - إعجاز القرآن العظيم:

القرآن هو الحجة التي أظهرها الله سبحانه وتعالى على يد نبيه محمد ﷺ وتحذى الناس أن يأتوا بمثله، وتحذاهم أخرى أن يأتوا بعشر سور مثله، وتحذاهم ثالثة أن يأتوا بسورة مثله، وتحذاهم رابعة أن يأتوا بحديث مثله، وما استطاعوا ولن يستطيعوا.

نزل القرآن على أمة أمية في العقيدة، وأمية في الفكر، وأمية في الصناعة وفي الزراعة، وأمية في العلاقات الاجتماعية والسياسية، وأمية في كل شؤون الحياة، إلا الكلمة وتذوقها، فهم أربابها وأصحابها، يمتطونها ويحكمون صنعتها، يطربون لجميلها، ويمجّون قبيحها، ملكوها بقدر ماملكتهم، يسيرونها وتسيرهم، ترفع فيهم وتضع.

بعث فيهم محمد ﷺ فلم تكن معجزته في شيء لا يتقنونه، أو فن لا يحذقونه، بل تحذاهم فيما يدركون وفيما هم فيه بارزون.

جاءت المعجزة قرآنًا يقرأونه بألسنتهم، ويسمعونه بأذانهم، ويَزنُونه بموازين كلامهم، فإذا به أبلغ من بليغ الكلام، وأفصح من فصيح، لا يرتقي إليه بيان ولا يدركه لسان، فملك البلاغة بألوانها، وحاز الفصاحة بأركانها. وجاءهم بما لا قبل لهم برده، ولا قدره لهم في دفعه، لا يملكون من أنفسهم معه إرادة، وليست لهم معه مشيئة، إلا أن يضع المعاند أصابعه في أذنيه، ويستغشي ثيابه ويلغو فيه: «وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون»^(٢)، أما من لم يفعل فقد حيل بينه وبين خلافه فلا يملك إلا أن يعتقد قلبه عليه، وهو يجهد في نقضه ويستقيم لدعوته، وهو يبالغ في رفضه. فلا مفر منه إلا إليه، فقد أخذ بمجامع القلوب، واستولى على جهات النفوس، فما أعجب شأنه وأعظم أمره.

(١) هذه الأبحاث من كتاب الدكتور فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي - حفظه الله

تعالى - «خصائص القرآن الكريم» مع بعض التصرف بالترتيب/ ط الرياض - ١٤٠٩ هـ.

(٢) سورة فصلت: آية ٢٦/.

ويزيدك عجباً لا ينفد أن هذا الكلام لم يأخذ من اللغة صنعتها، ومن الأسلوب جماله، ومن الفصاحة رونقها، ومن البلاغة سموها فحسب، بل أخذ مع هذا كله من المعاني أسماها، ومن المقاصد أعلاها.

جاء بالدين بأصوله وحججه وبراهينه وشريعته وآدابه وسائر مقومات الأمة على أكمل وجه، وأحسنه، فهو والله إعجاز في إعجاز.

وفوق هذا كله على سموه ورفعته، فإنه قلب الموازين كلها، فظهر أثره فيهم فور تلقيهم له وكأنه يفرس فيهم في لحظات، ما يحتاج اكتسابه إلى سنوات، فانتقادوا لتعاليمه، وكأنها إلفهم وعادتهم، بل كأنهم تربوا عليها ونشأت معهم، فلم يجر على المألوف من التربية، فقد عهدنا التربية تبدأ مع الصغار، وتشق مع الكبار، لكن القرآن أنشأهم على الكبر، وخاطب الكبار، ولو كان موافقاً لأخلاقهم أو مسائراً لها، لسهل الانقياد، لكن القرآن ماعدا أن سفّه أحلامهم، وحطّم أصنامهم، وشنأ معتقداتهم، وأزرى على آبائهم وقرعهم وأنبهم وكلفهم خلاف ماعتادوه، وأمرهم بما لم يألفوه، وهم أهل حمية تأبى الذلّ وعزة تأبى الضيم، ومع هذا الركام الهائل من العوائق انقلبت الأمور رأساً على عقب، فإذا بهم أهل القرآن وأتباعه..

وأعجب من هذا كله أن هذا الجيل، الجيل الأول الذي تربّى على الكبر، كان هو خير القرون وأفضلها، وأكثرها تمسكاً بعد أن كان أكثرها بعداً، فاكتسب من الدين مالا يتهدى إلا في سلالة بعد سلالة من قوم قد دخل آباؤهم فيه فهدّب طباعهم، وسما بشيمهم، وارتقى بأخلاقهم، واستقامت أحفادهم عليه، والتزموا بأحكامه. وأين هذا من قوم كانوا بالأمس يعبدون الأوثان، ويلزمون شانيء الأخلاق ورذيل الطباع، وساقط الآداب^(١).

لكنه القرآن، ظهر أثره فيهم بعد أن أدركوا سره فالتزموه واتخذوه منهجاً فسموا بهم ونالوا به مانالوا.

أما خصومه فقد كان أمر محمد ﷺ، هو شغلهم الشاغل، وهمّهم الناصب، فلم يدعوا سبيلاً للقضاء على دعوته إلا وسلوكه، ولم يتركوا وسيلة لمقاومته باللطف أو

(١) انظر إعجاز القرآن: مصطفى الرافعي ص ١٧٧-١٧٩.

بالعنف إلا وعملوا بها، حاولوا فنتته عمّا أوحى إليه والركون إلى دينهم، وساموه بالمال، وساموه بالملك، وساموه بالجاه فأبى، وتواصوا بمقاطعته وعشيرته وحبس الزاد عنهم، حتى يموتوا جوعاً أو يسلموه إليهم، بذلوا وسعهم لمنع وصول القرآن إلى آذانهم وأذان الآخرين أيضاً، حاربوه بالصاق الشبهات فيه، واتهموا صاحبه بالسحر مرة، والكهانة مرة أخرى، والجنون ثالثة، لينفروا عنه من لا يعرفه، فلا يقترب منه، ولا يستمع لقوله. أمّا هو عليه الصلاة والسلام، فدعاهم إلى التوحيد بالحجة والبيّنة، وأقام ذلك لهم، حتّى قطع العذر وأزال كل شبهة، فلمّا ظهر بيّناً أن المانع لهم من الإيمان هو الهوى والحمية والمكابرة والعصية، حملهم على ذلك بالسيف، فنصبه لهم وناصبوه، وقتل من رؤسائهم وزعمائهم وأعلامهم وأبائهم وأبنائهم، ودلّهم على أن الطريق الوحيد لإسكاته هو الإتيان بمثل هذا القرآن ولو بآيات يسيرة منه.

قل لي بربك.. لو كانوا يستطيعون ذلك، أفلا يكون أقرب إليهم وأبقى عليهم؟! ماالذي دعاهم إلى طرق الأبواب كلها إلا هذا الباب؟! لِمَ آثروا طريق الذل الذي سلكوه يتوددون إليه أن يترك الدعوة ويبذلون له أموالهم والسيادة عليهم فيأبى، يناوئون عشيرته، ويفترون عليه الكذب وهم يعلمون الحق فلا يبالى بهم، يقاتلونه فيقتل منهم أحب الناس إليهم، هل كان هذا كله أسهل عليهم من الإتيان بمثل هذا القرآن لو استطاعوا؟ فبأي شيء يكون الإعجاز إن لم يكن هذا هو الإعجاز بعينه؟!.

بل إعجاز القرآن أكبر من أن يحيط به أهل عصر، وأعظم من أن يستوعبه جيل من الأجيال، فلئن أشرف الجيل الأول على قبس من إعجازه، فإن الأجيال من بعد ماتزال تهل معينه الذي لا ينضب، وماتزال وجوه الإعجاز فيه تتجدد حتى وكأنها لاتنفد.

فكم من كتاب ألف عن إعجاز القرآن، وكم من ندوة أقيمت، وكم من محاضرة أُلقيت، وكم من مؤتمر عُقد لإعجاز القرآن الكريم، ومازال عطاؤه يفيض ويفيض.

٢ - وقوع التحدي بالقرآن العظيم:

﴿قُلْ لئن اجتمعت الإنسُ والجنُّ على أن يأتوا بمثل هذا القرآنِ، لا يأتونَ بمثلِهِ، ولو كان بعضهم لبعضِ ظهيراً﴾^(١).

(١) سورة الإسراء: الآية ٨٨.

تزداد دهشة إذا علمت أن هذا التحدي المركب هو أول ما نزل في التحدي بالقرآن، وكأنه صادر ممن تحدى ألف مرة فأدرك عجزهم فأخبر أنهم لا يأتون بمثله، نتاج سابق تحدّ به، وليس نتاج ثقة بما تحدى به، أما القرآن فتحدى لأول مرة، وأخبر مع تحديه أول مرة بعجزهم عن الإتيان بمثله، وماذا إلا لأنه تنزّل من حكيم حميد.

ولم يقف الأمر عند حد التحدي بالقرآن كله، بل تحداهم بالإتيان بعشر سور مثله، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افترأه قل فاتوا بعشر سور مثله مفتريات، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾^(١).

تنزّل وأي تنزّل، من تحدّ بالقرآن كلّ إلى عشر سور منه، ومع هذا زاد في التّهم تنزّل إلى أقل من ذلك إلى سورة واحدة فقال تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب ممّا نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾^(٢).

وكرّر التحدي مرّة أخرى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افترأه، قل فاتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾^(٣).

وزاد في التحدي، وزاد في التّهم فتحداهم بالإتيان بحديث مثله، فقال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ تقوله بل لا يؤمنون * فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾^(٤).

وتّم نزول القرآن، وانقطع الوحي، والتحدي ما زال قائماً لم ينقطع، ولم ينته أمدّه، فهو لقوته امتد زمناً حتى شمل أباده، وامتد مكاناً حتى انتظم آفاق الأرض.

ذهب القرن الأول وجاء الذي بعده وفي البادية أو أطرافها أعراب لم تختلط أنسابهم، ولم يطل اللحن ألسنتهم، ولم يتغير صفو لغتهم، ولم تأسن سليقتهم، واسألوا الأصمعي عنهم، وفيهم من لو استطاع أن يأتي بمثل آية من القرآن يربّها أقرانه ماترّدد ولا تكلّف، فذلت له أعناقهم كما ذلت له أعناق من قبلهم.

وما زالت عجلة الزمن تدور وتطوي القرون قرناً فقرناً، ومسافة العجز تطول وتتسع

(١) سورة هود: الآية ١٣.

(٢) سورة البقرة: الآية ٢٣.

(٣) سورة يونس: الآية ٣٨.

(٤) سورة الطور: الآيتين ٣٣-٣٤.

وتتشعب، مازادهم عجزاً انحراف الألسنة، وشيوع اللحن، واختلاط الأنساب فحسب، بل زادهم أن وجوه الإعجاز تتجدد وتتولد، فما أن ييزغ وجه من وجوه الإعجاز ويشرق، حتى يظهر نجم إعجاز جديد معلناً أن التحدي في القرآن ليس لمصر دون عصر ولا لأمة دون أمة ولا يزال هذا دأب القرآن في التحدي حتى يرث الله الأرض ومن عليها.

٣ - لغة القرآن البليغة:

ليس من السهل أن نستوعب الحديث عن هذا الجانب الهام، ونحن نتحدث عن خصائص القرآن عامة.

ولكن السؤال الذي أراه يرتسم على الشفاه في هذا الموضوع هو السؤال عن حقيقة لغة القرآن، هل هي اللغة المعهودة عند العرب قبل نزول القرآن أو هي لغة عن لغتهم متميزة؟.

أحسب أن كثيراً من الناس سيادر الجواب من فوره بل هي لغتهم المعهودة! لأن حروف لغة القرآن، هي حروف لغة العرب، ومعاني كلماتها، هي معاني كلمات لغة العرب وقواعد لغة القرآن هي قواعد لغة العرب.

ولست بالذي ينكر هذا القول جملة، لكنني أقول أيضاً إنها متميزة، بل غير المعهود من لغة العرب.

فإذا كانت لغة العرب وسيلة التخاطب بين أبنائها، فإن لغة القرآن الكريم وسيلة التخاطب بين أفراد البشر كلهم، وبين المولى سبحانه وتعالى، ولهذا فإن لغة القرآن تختلف من حيث أسلوبها وطريقة تركيبها.

الأمر الذي من أجله عجز الخلق جميعاً عن الإتيان بمثلها أو بأقصر سورة منها، وإنه لمن الظلم للغة القرآن مادام الأمر كذلك، أن نقول عنها إنها لغة العرب المحدودة الأفق ذات المعاني المحدودة التي يسهل مضاهاتها بين أهلها بعضهم مع بعض.

ومتميزة أيضاً لأن تركيبها - أعني لغة القرآن - جديد لم تعهده لغة العرب قبل ذلك ولم تأت بمثله بعد ذلك.

ومتميزة أيضاً لأن أرباب لغة العرب وفصحاءها حاروا في إدراك حقيقة لغته فهذا الوليد بن المغيرة يخاطب قومه فيقول: يامعشر قريش إنه قد حضر هذا الموسم وإن وفود العرب ستقدم عليكم فيه، وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأياً واحداً، ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضاً، ويرد قولكم بعضه بعضاً، قالوا: فأنت يا أبا

عبد شمس فقل وأقم لنا رأياً نقول به؛ قال: بل أنتم فقولوا أسمع؛ قالوا: نقول كاهن، قال: لا والله ما هو بكاهن، لقد رأينا الكهَّانَ فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجع، قالوا: فنقول: مجنون؛ قال: ما هو بمجنون. لقد رأينا الجنون وعرفناه، فما هو بخنقه، ولا تخالجه ولا وسوسته، قالوا: فنقول: شاعر؛ قال: ما هو بشاعر، لقد عرفنا الشعر كله رجزه وهزجه وقريضه ومقبوضه، ومبسوطه، فما هو بالشعر؛ قالوا: فنقول ساحر؛ قال: ما هو بساحر، لقد رأينا السحَّار وسحَّارهم فما هو بنفثهم، ولا عقدهم، قالوا: فما نقول يا أبا عبد شمس؟ قال: والله إن لقوله لحلاوة وإن أصله لعذق وإن فرعه لجنَّة^(١).

ولو كانت حقيقة لغة القرآن كحقيقة لغة العرب لما حار فيها عَلمٌ من أعلامهم وبلغ من بلغائهم!!

وإنهم لن يدركوها ولن يطالوها ولن ينالوها، أدركوا هذا فلم يحاول أحدهم مجرد محاولة - في مقام أعلى درجات التحدي - أن يأتي بمثل هذا القرآن لأنه يعرف سلفاً أنه لن يستطيع ولو كان الفاصل بين بلاغتهم وبلاغة القرآن فاصلاً وجيزاً لحاول بلغاؤهم وفصحاؤهم ذلك لكنهم يدركون أنَّ الفاصل بعيد وبعيد يدركونه بأبصارهم وأسماعهم ولن تناله أيديهم.

وبهذا نصل إلى أن حقيقة لغة القرآن ليست كحقيقة لغة العرب، إذاً فلغة القرآن خاصة من خصائص القرآن الكريم.

٤ - نظم القرآن المحكم وأسلوبه العذب:

إنَّ أوَّل شيء أحسسته تلك الأذن العربيَّة في نظم القرآن هو ذلك النظام الصوتي البديع الذي قُسمت فيه الحركة والسكون تقسيماً منوعاً يجدد نشاط السامع لسماعه، ووزعت في تضاعيفه حروف المد والغنة توزيعاً بالقسط يساعد على ترجيع الصوت به وتهادي النَّفس فيه آنَّ بعد آن، إلى أن يصل إلى الفاصلة الأخرى، فيجد عندها راحته العظمى، وهذا النحو من التنظيم الصوتي، إن كانت العرب قد عمدت إلى شيء منه في أشعارها فذهبت فيها إلى حدِّ الإسراف في الاستواء، ثم إلى حدِّ الإملال في التكرير. فإنها ماكانت تعهده قط ولا كان يتبعها لها بتلك السهولة في متشور كلامها، سواء منه المرسل والمسجوع؛ بل كان يقع لها في أجود نثرها عيوبٌ تغض من سلاسة تركيبه، ولا يمكن معها إجادة ترتيله إلا بإدخال شيء عليه أو حذف شيء منه.

(١) السيرة النبوية: لابن هشام ج ١/ ٢٨٨-٢٨٩.

لا عجب إذاً أن يكون أدنى الألقاب إلى القرآن في خيال العرب أنه شعر؛ لأنها وجدت في توقيعه هزة لاتجد شيئاً منها إلا في الشعر، ولا عجب أن ترجع إلى أنفسها، فتقول: ماهو بشعر؛ لأنه - كما قال الوليد - ^(١) ليس على أعاريض الشعر، في رجزه ولا في قصيده، ثم لا عجب أن تجعل مرد هذه الحيرة أخيراً إلى أنه ضرب من السحر؛ لأنه جمع بين طرفي الإطلاق والتقييد في حدٍّ وسط: فكان له من الشر جلاله وروعته، ومن الشعر جماله ومتعته.

فإذا ما اقتربت بأذنك قليلاً قليلاً، فَطَرَقَتْ سمعك جواهرٌ حروفه خارجة من مخارجها الصحيحة. فاجأتك منه لذة أخرى في نظم تلك الحروف، ورصفها، وترتيب أوضاعها فيما بينها: هذا ينقر وذاك يصفر، وثالث يهمس، ورابع يجهر، وآخر يتزلق عليه النَّفس، وآخر يحتبس عنده النفس، وهلمَّ جزءاً، فترى المجال اللغوي مائلاً أمامك في مجموعة مختلفة مؤتلفة، لا كركرة ولاثرثرة، ولا رخاوة ولا معازلة، ولا تناكر ولا تنافر، وهكذا ترى كلاماً ليس بالحضري الفاتر، ولا بالبديوي الخشن، بل تراه وقد امتزجت فيه جزالة البادية وفخامتها، برقة الحاضرة وسلاستها، وقدر فيه الأمران تقديراً لا يفي بعضهما على بعض. فإذا مزيجٌ منهما كأنما هو عصارة اللغتين وسلاتهما، أو كأنما هو نقطة الاتصال بين القبائل، عندها تلتقي أذواقهم، وعليها تأتلف قلوبهم.

من هذه الخصوصية والتي قبلها تتألف القشرة السطحية للجمال القرآني، وليس الشأن في هذا الغلاف إلا كشأن الأصداف مما تحويه من اللآلئ النفيسة، فإنه جلَّت قدرته قد أجرى سته في نظام هذا العالم أن يُغَشِّي جلال أسرارهِ بأستار لا تخلو من متعة وجمال، ليكون ذلك من عوامل حفظها وبقائها بتنافس المتنافسين فيها وحرصهم عليها. انظر كيف جعل باعثة الغذاء ورابطة المحبة قواماً لبقاء الإنسان فرداً وجماعة. فكَذلك لما سبقت كلمته أن يصون علينا نفائس العلوم التي أودعها هذا الكتاب الكريم، قضت حكمته أن يختار لها صِواناً يخبئها إلى الناس بعدوبته، ويغريهم عليها بطلاوته، ويكون بمنزلة (الحُداء) يستحث النفوس على السير إليها، ويهون عليها وعناء السفر في طلب كمالها، لا جرم اصطفى لها من هذا اللسان العربي المبين ذلك القالب العذب الجميل، ومن أجل ذلك سيقى صوت القرآن أبداً في أفواه الناس وأذانهم مادامت فيهم حاسةٌ تذوقُ وحاسةٌ تسمعُ، وإن لم يكن لأكثرهم قلوب يفقهون بها حقيقة سرِّه،

(١) تقدمت كلمة الوليد في ص ٩٢.

وينفذون بها إلى بعيد غَوْرَه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (١).

هل عرفت أن نظم القرآن الكريم يجمع إلى الجمال عِزَّةً وُغْرَابَةً؟ وهل عرفت أن هذا الجمال كان قُوَّةً إلهيَّةً حفظ بها القرآن من الفقد والضياع؟.

فاعرف الآن أن هذه الغرابة كانت قوة أخرى قامت بها حجة القرآن في التحدي والإعجاز، واعتصم بها من أيدي المعارضين والمبدلين، وأن ذلك الجمال ماكان ليكفي وحده في كَفِّ أيديهم عنه، بل كان أجدر أن يغريهم به، ذلك أن الناس - كما يقول الباقلاني -: إذا استحسنوا شيئاً أثبوه، وتنافسوا في محاكاته يباعث الجبلة. وكذلك رأينا أصحاب هذه الصناعة يتبع بعضهم بعضاً فيما يستجدونه من الأساليب، وربما أدرك اللاحق فيهم شأو السابق أو أربى عليه، كما صنع ابن العميد بأسلوب الجاحظ، وكما يصنع الكتاب والخطباء اليوم في اقتداء بعضهم ببعض. ومأساليب الناس على اختلاف طرائقها في الثر والشعر إلا مناهل مورودة، ومسالك معبدة، تؤخذ بالتعلم، وتُراضُ الألسنة والأقلام عليها بالمرانة، كسائر الصناعات.

فما الذي منع الناس أن يُخضعوا أسلوب القرآن لألستهم وأفلامهم وهم شرع في استحسان طريقتهم، وأكثرهم الطالبون لإبطال حجته؟.

ماذاك إلا أن فيه مَنَعَةً طَبِيعِيَّةً كَفَّت ولا تزال تكفُّ أيديهم عنه، ولأرب أن أوّل ماتلايك هذه المناعة فيما صوّرناه لك من غريب تأليفه في بنيته، وما اتّخذ في رصف حروفه وكلماته، وجُمَله وآياته، من نظام له سمٌّ وحدة، وطابع خاصٌّ به، خرج فيه عن هيئة كلِّ نَظْمٍ تعاطاه الناس أو يتعاطونه، فلا جرم لم يجدوا له مثلاً يحاذونه به، ولا سبيلاً يسلكونه إلى تذليل منهجه، وآية ذلك أن أحداً لو حاول أن يُدخل عليه شيئاً من كلام الناس، من السابقين منهم أو اللاحقين، من الحكماء أو البلغاء أو النبيّين أو المرسلين، لأفسد بذلك مزاجه في فم كلِّ قارئ، ولجعل نظامه يضطرب في أذن كلِّ سامع، وإذا نادى الداخل على نفسه بأنه واغلّ دخيل، ولنفاه القرآن عن نفسه كما ينفي الكيْرُ خَبَثَ الحديد، ﴿وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ. تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ (٢).

فإذا أنت لم يلهك جمال العطاء عما تحته من الكثر الدفين، ولم تحجبك بهجة

(١) سورة الحجر: الآية: ٩.

(٢) سورة فصلت: ٤١، ٤٢.

الأستار عما وراءها من السر المصنوع، بل فليئت القشرة عن لبها، وكشفت الصّدفة عن درّها، فنفذت من هذا النظام اللفظي إلى ذلك النظام المعنوي، تجلى لك ماهو أبهى وأبهر، ولقيك منه ماهو أروع وأبدع.

لا نريد أن نحدثك ها هنا عن معاني القرآن وما حوته من العلوم الخارجة عن متناول البشر، فإن لهذا الحديث موضعاً يجيء إن شاء الله تعالى في بحث الإعجاز (العلمي) وحديثنا كما ترى لا يزال في شأن الإعجاز (اللغوي) وإنما اللغة ألفاظ.

يبد أن هذه الألفاظ ينظر فيها (تارة) من حيث هي أبنية صوتية مادتها الحروف، وصورتها الحركات والسكنات من غير نظر إلى دلالتها. وهذه الناحية قد مضى لنا القول فيها آنفاً (وتارة) من حيث هي أداة لتصوير المعاني ونقلها من نفس المتكلم إلى نفس المخاطب بها وهذه هي الناحية التي سنعالجها الآن، ولاشك أنها هي أعظم الناحيتين أثراً في الإعجاز اللغوي الذي نحن بصدد، إذ اللغات تتفاضل من حيث هي بيان، أكثر من تفاضلها من حيث هي أجراس وأنغام.

أمّا النظر في المعاني القرآنية من جهة ما فيها من العلوم العجيبة، فتلك خطوة أخرى ونظرة خارجة عن البحث اللغوي جملة، إذ الفضيلة البيانية إنما تعتمد دقة التصوير وإجادة التعبير عن المعنى كما هو، سواء عندها أن يكون ذلك المعنى من جنس ماتتناوله عقول الناس أو لا يكون، بل سواء عندها أن يكون ذلك المعنى حقيقة أو خيالاً؛ وأن يكون هدىً أو ضلالاً^(١)؛ عكس الفضيلة العلمية، فإنها عائدة إلى المعنى في نفسه على أي صورة أخرجته، وبأي لغة عبّرت عنه.

نعم قد تتفاوت اللغات في الوفاء بحق المعنى فيكون التعبير الجيد، ممّا يزيد في قيمته العلمية، لكن النظر هاهنا في قيمة البيان لا في قيمة المبيّن، فلا تعجل علينا بتلك النظرة العلمية حتى نفرغ من هذه النظرة اللغوية^(٢).

وحين قرىء القرآن على العرب رأوا حروفه في كلماته، وكلماته في جُمْلِه وقعاً لغوياً رائعاً كأنه لا تتلاف آياته وسوره قطعة واحدة، أدركوا ذلك وأدركوا أنه لا قدرة لهم على الإتيان بمثله والذين جنحوا لمعارضته منهم كمسيلمة حسبوا أن (وقعه) إنما هو في

(١) ولذلك كانت حكايات القرآن لأقوال المبطلين لا تقتصر في بلاغتها عن سائر كلامه لأنها تصف ما في أنفسهم على أنتم وجه، (درّاز).

(٢) النبأ العظيم، د/ محمد عبدالله درّاز، من ص ١٠١ إلى ص ١٠٧.

وزن كلماته، وجرس حروفه فحسب، وهذا لا يتفق في شيء من كلام العرب، إلا أن يكون وزناً من الشعر أو السجع^(١).

ومن هنا جاء مسيلمة بسجع يضحك الثكلى ويأبى أن يتفوه به من له أدنى درجة من حكمة، وأدرك قومه زيف قوله، ولكن العصبية الجاهلية عندهم، حملتهم على أن يقول أحدهم مخاطباً مسيلمة الكذاب:

(أشهد أنك كاذب وأنا محمدٌ صادق ولكن كذاب ربيعة أحب إلينا من صادق مُضَر)^(٢).

وإدراك وقع القرآن - مجرد إدراك - لا يحتاج إلى كبير ذوق أو إلى إرهاف حس (فقد ينسى أحدهم الآية من القرآن فيقطع إلى الصمت من قراءته، أو تتدخل في لفظه بعض الآيات المتشابهة في السور، أو يسقط بعض اللفظ في تلاوته، فيضل في ذلك ثم لا يسره للذكر، ولا يذكره بالآية المنسية - أكثر ما يتذكر - إلا نسق الحروف في بعض كلماتها ولا يبين له مواقع الكلم المتشابهات إلا نظام كل كلمة من آيتها ولا يهديه إلى مأسقطه من اللفظ غير إحساسه باضطراب النظم وتدخل الكلام^(٣).

٥ - تأثير القرآن العظيم في نفوس المؤمنين :

اخترت هذا العنوان لهذه الخاصية في القرآن لتبادر المعنى منها إلى الذهن، وإن كان ليس هو المعنى الدقيق الذي أريد، إذ أن هذه تحمل معنى واسعاً يشمل التأثير الفوري التلقائي، ويشمل التأثير الناتج عن طول قراءة ومدارسة، وإنما أردت هنا النوع الأول فحسب، سمّه إن شئت: (الانطباع الذاتي)، وأريد به (الانطباع) التأثير الفوري^(٤)، وأريد به (الذاتي) الذي ينطبع في ذات إنسان، وقد لا ينطبع في إنسان آخر غيره، فقد تؤثر آية قرآنية في إنسان ولا تؤثر نفس التأثير في إنسان آخر، بل تؤثر فيه آية أخرى لا تؤثر في الأول مثل أثرها فيه.

وهذا الانطباع لا يختص بالمؤمنين بالقرآن فحسب، بل يحدث حتى في خصوم القرآن ممّا لا يحصل مثله أبداً في غير القرآن الكريم.

(١) انظر: «إعجاز القرآن والبلاغة النبوية» مصطفى صادق الرافعي، ص ٢٤٣.

(٢) قاتل هذه العبارة طلحة النمرى، انظر تاريخ الأمم والملوك: الطبري ج ٣، ص ٢٨٦، والكامل في التاريخ: لابن الأثير، ج ٢، ص ٢٤٥.

(٣) إعجاز القرآن: الرافعي ص ٢٧٦.

(٤) قال في لسان العرب ج ٨، ص ٢٣٢، الطبع ابتداء صنعة الشيء.

يحدث هذا الانطباع والتأثير بمجرد الاستماع للآيات القرآنية قبل أن يبحث في معانيه ويستقصيها، وقد أدرك هذا السر في القرآن سيد قطب - رحمه الله تعالى - فقال: (إن في هذا القرآن سرّاً خاصاً يشعر به كل من يواجه نصوصه ابتداءً، قبل أن يبحث عن مواضع الإعجاز فيه، إنه يشعر بسلطان خاص في عبارات هذا القرآن، يشعر أن هنالك شيئاً ما وراء المعاني التي يدركها العقل من التعبير وأن هنالك عنصراً ما ينسكب في الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن، يدركه بعض الناس واضحاً، ويدركه بعض الناس غامضاً، ولكنه على كل حال موجود، هذا العنصر الذي ينسكب في الحس، يصعب تحديد مصدره، أهو العبارة ذاتها؟ أهو المعنى الكامن فيها؟ أهو الصور والظلال التي تشعها؟ أهو الإيقاع القرآني الخاص المتميز من إيقاع سائر القول المصوغ من اللغة؟ أهو هذه العناصر كلها مجتمعة؟ أم أنها هي وشيء آخر وراءها غير محدود!).

ذلك سر مودّع في كل نص قرآني يشعر به كل من يواجه نصوص هذا القرآن ابتداءً ثم تأتي وراءه الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير في بناء القرآن كله^(١).

ولقد واجه سيد - رحمه الله تعالى - مثل هذه الحالة حين تساءل عن سبب سجود المشركين عند سماعهم لقوله تعالى: ﴿فاسجدوا لله واعبدوا﴾^(٢)، وأجاب عن ذلك فقال: (لقد بقيت فترة أبحت عن السبب الممكن لهذا السجود، ويخطر لي احتمال أنه لم يقع، وإنما هي رواية ذكرت لتعليل عودة المهاجرين من الحبشة بعد نحو شهرين أو ثلاثة وهو أمر يحتاج إلى التعليل).

وبينما أنا كذلك وقعت لي تلك التجربة الشعورية الخاصة التي أشرنا إليها من قبل ..

كنت بين رفقة نسمر حينما طرق أسمعنا صوت قارئ للقرآن من قريب، يتلو سورة النجم، فانقطع بيننا الحديث لنستمع وننصت للقرآن الكريم. وكان صوت القارئ مؤثراً وهو يرتل القرآن ترتيلاً حسناً.

وشيناً فشيناً عشت معه فيما يتلوه، عشت مع محمد ﷺ في رحلته إلى الملا الأعلى، عشت معه وهو يشهد جبريل - عليه السلام - في صورته الملائكية التي خلقه

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ج٦، ص ٣٣٩٩.

(٢) سورة النجم: الآية ٦٢.

الله عليها، ذلك الحادث العجيب المدهش حين يتدبره الإنسان ويحاول تخيله!، وعشت معه وهو في رحلته العلوية الطليقة عند سدرة المنتهى، وجنة المأوى، عشت معه بقدر مايسعفني خيالي، وتحلق بي رؤاي، ويقدر ماتطبق مشاعري وأحاسيسي.. إلى أن قال رحمه الله تعالى.... واستمعت إلى صوت النذير الأخير قبل الكارثة الداهية: (هذا نذير من النذر الأولى... أذنت الأزفة ليس لها من دون الله كاشفة).

ثم جاءت الصيحة الأخيرة... واهتز كياني كله أمام التبكيت الرعيب: (أفمن هذا الحديث تعجبون... وتضحكون ولا تبكون... وأنتم سامدون)؟.

فلما سمعت: (فاسجدوا لله واعبدوا)، كانت الرجفة قد سرت من قلبي حقاً إلى أوصالي، واستحالت رجفة عضلية مادية ذات مظهر مادي لم أملك مقاومته فظل جسمي كله يختلج ولاأتمالك أن أثبته ولا أن أكفك دموعاً هاتئة لأملك احتباسها مع الجهد والمحاولة.

وأدركت في هذه اللحظة أن حادث السجود صحيح، وأن تعليله قريب، إنه كامن في ذلك السلطان العجيب لهذا القرآن، ولهذه الإيقاعات المزلزلة في سياق هذه السورة، ولم تكن هذه أول مرة أقرأ فيها سورة النجم، أو أسمعها ولكنها في هذه المرة كان لها الوقع، وكانت مني هذه الاستجابة وذلك سر القرآن، فهناك لحظات خاصة موعودة غير مرقوبة تمس الآية أو السورة فيها موضع الاستجابة وتقع اللمسة التي تصل القلب بمصدر القوة فيها والتأثير فيكون منها ما يكون^(١).

وتأثير القرآن هذا بلغ مبلغاً خرق به العادة المعهودة من تأثير الكلام في النفوس، واستيلائه على قلوب المخاطبين استيلاءً كالقهر وما هو بالقهر، وفعله في قلوبهم كالسحر وما هو بالسحر، لا يختص ذلك بالأنصار دون الخصوم، ولا بمحالفيه دون مخالفيه، بل يغزو القلب من حيث لا يمكن لصاحبه رد، ويؤثر فيه من حيث لا يمكن له دفع.

أثر في الأعداء كما أثر في الأتباع، نذكر من أمثلة تأثيره في الأعداء:

حادثة إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حين اجتمعت قريش فتشاورت في أمر النبي ﷺ، فقالوا: أي رجل يقتل محمداً؟ فقال عمر ابن الخطاب: أنا لها، فقالوا: أنت لها يا عمر، فخرج في الهاجرة في يوم شديد الحر، متوشحاً سيفه يريد رسول الله ﷺ،

(١) في ظلال القرآن: سيد قطب، ج٦، ص ٣٤٢٠-٣٤٢١.

ورهِطاً من أصحابه فلقية نعيم بن عبدالله فقال: أين تريد يا عمر؟ فأخبره بغرضه، فقال نعيم: لبس الممشى مشيت يا عمر، ولقد والله غرّتك نفسك من نفسك... أترى بني عبد مناف تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ فتحاورا حتى علت أصواتهما، فلما رأى نعيم أنه غير منته قال: فإني أخبرك أن أهلك وأهل خنتك قد أسلموا، فاحتمله الغضب فذهب إليهما فاقتحم الباب ويطش بخته سعيد وشجّ أخته فاطمة.

وأقف هنا لحظة - أيها الأجيال -:

تأملوا معي خروج عمر، من اجتماع قريش غاضباً، ثم زاده الحوار مع نعيم غضباً إلى غضبه، ثم ازداد حين أخبره بإسلام أخته وزوجها. واقتحامه البيت ويطشه بسعيد، وشجّه لأخته مظهر من مظاهر شدة الانفعال، وكأنما رُكبت هذه الطبقات من الغضب في جبار من جبابرة الجاهلية، وليس بمستضعف، ليشهد الناس وليدركوا تأثير القرآن الكريم وهيمته.

في أوج هذه الحال يرفع عمر الصحيفة ويقرأ آيات من سورة طه فلا يملك إلا أن يقول: (ما أحسن هذا الكلام وأكرمه). الله أكبر، انطلقاً غضبه كما يطفىء الماء النار، وإذا بالإسلام يلج من قلبه من حيث يحسب الناس أن لا مولج.

هذه حادثة عمر رضي الله عنه، وما حادثة الوليد بن المغيرة عنا ببعيد، وقولته الشهيرة عن القرآن الكريم، قالها وهو لا يملك من نفسه شيئاً، قالها وهو تحت هيمنة القرآن قال:

(والله إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليحطم ماتحته، وإنه ليعلو وما يعلى).

وهل جاءكم ما حدث لجبير بن مطعم رضي الله عنه حين حدث عن نفسه، أنه سمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور قال: فلما بلغ هذه الآية: ﴿أَمْ خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾^(١)، إلى قوله: (المسيطرون)، كاد قلبي أن يطير^(٢).

واقرأوا إن شئتم قصة مصعب بن عمير وعبدالله بن أم مكتوم رضي الله عنهما حين أرسلهما الرسول ﷺ إلى المدينة يعلمان الناس القرآن فتزلا عند أسعد بن زرارة،

(١) سورة الطور: الآية ٣٥.

(٢) رواه البخاري كتاب التفسير، سورة الطور، ج٦، ص ٤٩-٥٠.

فأغضب هذا سعد بن معاذ - سيّد الأوس - رضي الله عنه قبل إسلامه، حتى قال لابن أخيه أسيد بن حضير ألا تذهب إلى هذين الرجلين اللذين أتيا يسفهان ضعفاءنا فتزجرهما، فلمّا انتهى إليهما أسيد هددهما وقال: اعتزلا إن كانت لكما في أنفسكما حاجة فأجابه مصعب رضي الله عنه: أوتجلس فتسمع فإن رضيت أمراً قبلته، وإن كرهته كففتنا عنك ماتكره، ثم قرأ مصعب القرآن، وأسيد يسمع، فما قام من مجلسه حتّى أسلم، ثم كرّ راجعاً إلى سعد فقال له: والله مارأيت بالرجلين بأساً فغضب سعد وذهب نائراً مهتاجاً فاستقبله مصعب بما استقبل به أسيد فأسلم من فوره^(١).

هذه أمثلة من تأثير القرآن الكريم في نفوس خصومه، ولعل قارئاً يقول: عمدت إلى قصص أفراد وحوادث أحاد واستدللت بها على مثل هذه القضية العامة والهامة!! ألا تجد من عظمة الشواهد ما يناسب عظمة القضية!!

ولهذا ولمن أراد المزيد أقول:

إن الشواهد على تأثير القرآن في الجماعات مرسومة، وللمتأمل معلومة... أذكر بعض مظاهرها:

المظهر الأول:

اسألوا التاريخ، واجعلوا من أنفسكم حكماً على مايقول... اسألوه بأي قوة فتح الرسول ﷺ المدينة؟ كم جيشاً وجه لفتحها؟ أو كم سرية بعثها الرسول ﷺ لها؟ فإنه مجيبكم بملء فيه أنه لم يفتحها بشيء من ذلك بل هي التي فتحت قلبها له ومدت يديها إليه، ولكنها لم تفعل ذلك ابتداءً بل استجابة واستسلاماً لداع أقوى من الجيش، وأسرى من السرية، إنه داعي القرآن الكريم، ولذلك قالوا: (فتحت الأمصار بالسيوف، وفتحت المدينة بالقرآن)، فقد أوفد الرسول ﷺ مصعب بن عمير رضي الله عنه إلى أهل يثرب (المدينة) فمكث فيها يقرأ القرآن على أهلها فآمنوا ودعوا رسول الله ﷺ إلى الهجرة إليهم^(٢).

فإن لم يسلم المعارض بهذا المظهر تسليماً كاملاً لشبهة وردت على خاطره وقال: لِمَ أثر القرآن على أهل المدينة، ولم يكن تأثيره على أهل مكة، كذلك إن كانت القضية قضية تأثير؟

(١) انظر سيرة ابن هشام، ج٢، ص٧٧-٧٩، والكمال في التاريخ: لابن الأثير، ج٢، ص٦٧-٦٨.

(٢) الإقتان: السيوطي: ج٢، ص١٢٣.

ولهذا أقول إن القرآن الكريم أثر في أهل مكة، كتأثيره في أهل يثرب أو أشد، لكن العناد عندهم والمكابرة كانت تقضي على كل ظاهرة للاستجابة، وقد تمالأوا على ذلك فكلما لان قلب أحدهم وضعف أمام هيمنة القرآن بعثوا إليه من ينفخ في نار العناد حتى يستعر في قلبه فيعود إليهم وما حادثة الوليد منا ببعيدة، قال قولته في القرآن فأرسل إليه المشركون أبا جهل فجاءه وقال له: ألم تر إلى قومك قد جمعوا لك الصدقة؟ فقال: ألسنت أكثرهم مالاً وولداً؟! فقال له أبو جهل: يتحدثون أنك إنما تدخل على ابن أبي قحافة (وكان يسمع القرآن من أبي بكر رضي الله عنه) لتصيب من طعامه، فقال الوليد: أقد تحدث به عشيرتي؟! فلا والله لأقرب ابن أبي قحافة ولا عمر ولا ابن أبي كبشة وماقوله إلا سحر يؤثر^(١).

هكذا كان أهل مكة يفعلون مع من يبدو عليه تأثير من القرآن، فأنى لهذا المجتمع مع هذا العناد أن يظهر فيهم أثر القرآن كما يظهر في مجتمع لا عناد فيه، ولا استكبار، بل بحث عن الحق وسفر إليه، والعناد لا تنفع معه الحجة، ولا يقوم عليه البرهان.

المظهر الثاني:

أن زعماء المشركين مع عنادهم كان يسارق بعضهم بعضاً فيخرج في جنح الليل المظلم ما يخرج به إلا استيلاء القرآن على مشاعره فيبحث عمن يتلو القرآن في هداة الليل، وقد أرخى سدوله، وسجا سجاء، وهذا أبو سفيان بن حرب، وأبو جهل بن هشام، والأخنس بن شريق خرجوا ليلة ليستمعوا من رسول الله ﷺ وهو يصلي من الليل في بيته، فأخذ كل رجل منهم مجلساً يستمع فيه، وكل لا يعلم بمكان صاحبه، فباتوا يستمعون له، حتى إذا طلع الفجر تفرقوا فجمعهم الطريق فتلاوموا وقال بعضهم لبعض لا تعودوا فلو رآكم بعض سفهائكم لأوقعتم في نفسه شيئاً ثم انصرفوا.. وحصل في الليلة الثانية ما حصل في الأولى.. وحين التقوا في الليلة الثالثة قال بعضهم لبعض: لا نبرح حتى نتعاهد ألا نعود فتعاهدوا على ذلك ثم تفرقوا^(٢).

هكذا كان تأثير القرآن في الأعداء، يخلع منهم القلوب، فيطير النوم من عيونهم، ويبحثون عن سكن لها حتى إذا ما وجدوه وكادوا أن يستكينوا له أخذتهم العزة بالإثم، فارتدوا على أدبارهم ما يمنهم إلا العناد، ولهذا حين سأل الأخنس أبا جهل عن رأيه

(١) تفسير ابن كثير: ج٤، ص٤٦٩.

(٢) السيرة النبوية: لابن هشام ج١، ص٣٣٧ (باختصار).

فيما سمعه من محمد قال: ماذا سمعت!! تنازعنا نحن وبنو عبد مناف الشرف، أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تجاذبنا على الركب وكنا كفرسي رهان، قالوا: منا نبي يأتيه الوحي من السماء، فمتى ندرك مثل هذه!! والله لانؤمن أبداً ولا نصدق^(١).

وهذا أيضاً شاهد لما ذكرناه في المظهر الأول من أن المانع من تأثير القرآن في مشركي مكة هو العناد.

المظهر الثالث:

ولأن الكفار يدركون تأثير القرآن في نفوس سامعيه فإنهم كانوا يخشون استيلاءه على قلوب الناس عند سماعه فكانوا يستقبلون الوافدين إلى مكة ويحذرونهم من الاستماع إلى محمد ﷺ أو مجالسته كل هذا لما يعرفون من تأثيره.

بل كانوا إذا شرع ﷺ في القراءة يخشون كل الخشية أن يصل إلى أذهانهم فلا يستطيعون رده عن الاستيلاء على قلوبهم فيسعون سعيهم لقطع هذا التيار من النفاذ إلى القلب: «وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون»^(٢).

وحين قال زعماؤهم هذه المقولة فإنهم لم يقولوها وهم في منجى من تأثيره فلولا أنهم أحسوا في أعماقهم روعته وأدركوا في قلوبهم تأثيره ما حذروا قومهم هذا التحذير وما تنادوا هذا النداء وقد كانوا يتأثرون لكنهم كانوا يستكبرون: «وإذا تلى عليه آياتنا ولئى مستكبراً كان لم يسمعهما كان في أذنيه وقراً، فبشره بعباب اليم»^(٣).

المظهر الرابع:

أن الرسول ﷺ لم يكلف: (أن يهدي من أحب) ومن لم يحب أيضاً إلى الإيمان، وإنما كلف بأن يسمع المشركين كلام الله: «وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله، ثم يبلغه مأمنه ذلك بأنهم قوم لا يعلمون»^(٤).

ولولا هذا التأثير القوي لسمع كلام الله لما كان هو الحد الفاصل لنهاية إجارة المشرك

(١) سيرة ابن هشام ٣٣٧/٤-٣٣٨.

(٢) سورة فصلت: الآية ٢٦.

(٣) سورة لقمان: الآية ٧.

(٤) سورة التوبة: الآية ٦.

المظهر الخامس :

تأثيره في طائفة من النصارى وقد حدثنا القرآن عن ذلك فقال: ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ
النَّاسِ عَدَاوَةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ
قَالُوا إِنَّا نَصَارَى ذَلِكَ بَأَنَّ مِنْهُمْ قَسْبِينَ وَرَهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ، وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ
إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ
الشَّاهِدِينَ﴾^(١).

هذه بعض مظاهر تأثير القرآن الكريم في نفوس جماعات - وليس في أفراد - من
الذين لم يؤمنوا فآمن بعضهم، ومنع العناد والاستكبار بعضهم الآخر، وهكذا رأيت
فيما سقناه، أمثلة على تأثيره في نفوس الأفراد وفي نفوس الجماعات من المناوئين له،
وإذا كان هذا بعض أثره في خصومه فكيف سيكون أثره في أتباعه.

إن شئت أن نجمل الحديث قلنا ماقال السيوطي - رحمه الله تعالى - (قد مات
جماعة عند سماع آيات منه أفردوا بالتصنيف)^(٢)، وقال الغزالي - رحمه الله تعالى -
(ولقد كان في الخائفين من بحر مغشياً عليه عند آيات الوعيد، ومنهم من مات في سماع
الآيات)^(٣).

أما إن شئت ذكر بعض صور هذا التأثير فإننا نذكر هنا صوراً خاطفة لتأثيره في
المسلمين، وأولهم رسول الله ﷺ، فقد روى عبدالله بن مسعود رضي الله عنه قال: قال
لي النبي ﷺ: اقرأ عليّ. قلت: يا رسول الله: أقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: نعم،
فقرأت سورة النساء حتى أتيت إلى هذه الآية: ﴿فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد
وجئنا بك على هؤلاء شهيداً﴾^(٤).

قال: حسبك الآن، فالتفت فإذا عيناه تذرفان^(٥).

(١) سورة المائدة: الآية ٨٢-٨٣.

(٢) الإيتقان: السيوطي ج٢، ص ١٢٣.

(٣) إحياء علوم الدين: الغزالي ج١، ص ٢٩٣.

(٤) سورة النساء: الآية ٤١.

(٥) رواه البخاري في صحيحه، كتاب فضائل القرآن، باب ٣٣ ج٦ ص ١١٣.

وهذا أبو بكر رضي الله عنه أفضل الأمة بعد نبيها لما اشتد مرض الرسول ﷺ قال: مروا أبا بكر فليصل بالناس، قالت عائشة رضي الله عنها: قلت: يا رسول الله، إن أبا بكر رجل رقيق إذا قرأ القرآن لا يملك دمه (١).

أما عمر رضي الله عنه، فقد سبق بيان تأثير القرآن في قلبه قبل إسلامه، أما بعد إسلامه، فقد روى ابنه عبدالله قال: صليت وراء عمر فسمعت حنينه (أي أنيه)، من وراء ثلاثة صفوف (٢)، وروى هشام عن الحسن، كان عمر يمر بالآية في ورده فتخنقه العبرة فيكي حتى يسقط، ثم يلزم بيته حتى يعاد، يحسبونه مريضاً (٣)، وقال عبدالله بن شداد: سمعت نشيج عمر وأنا في آخر الصفوف في صلاة الصبح، وهو يقرأ سورة يوسف حتى بلغ: ﴿إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ﴾ (٤) (٥).

كيف لا!!! وقد تحدث الله سبحانه وتعالى عن أثر القرآن في آيات منها: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشِرُ عَنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ، ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُضِلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ (٦).

وقال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ، وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ (٧). وعداً هذا من صفات عباد الرحمن فقال سبحانه: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مَرُّوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا، وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخْرُؤْا عَلَيْهَا ضُمًّا وَعُمْيَانًا﴾ (٨).

بل جعل الخشوع للقرآن من صفات الذين أوتوا العلم واقرأ قوله تعالى:

(١) مسند الإمام أحمد ج٦، ص ٢٢٩، ورواه بالفاظ أخرى البخاري في صحيحه ج٤،

ص ١٢٢، والترمذي في سننه، ج٥، ص ٦١٣، والدارمي ج١، ص ٣٩.

(٢) حلية الأولياء: أبو نعيم الأصفهاني ج١، ص ٥٢، وتاريخ عمر بن الخطاب، ابن الجوزي، ص ١٩٢.

(٣) حلية الأولياء، ج١، ص ٥١، وتاريخ عمر بن الخطاب: ابن الجوزي، ص ١٩٢.

(٤) سورة يوسف: من الآية ٨٦.

(٥) تاريخ عمر بن الخطاب: ابن الجوزي ص ١٩٢.

(٦) سورة الزمر: الآية ٢٣.

(٧) سورة الأنفال: الآية ٢.

(٨) سورة الفرقان: الآيتان ٧٢-٧٣.

﴿وَقَرَأْنَا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَى مُكْثٍ، وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا، قُلْ آمَنُوا بِهِ أَوْ لَا تُؤْمِنُوا
إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَى عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ سُجَّدًا وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا
إِنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا، وَيَخِرُّونَ لِلْأَذْقَانِ يَكُونُ وِزْدُكُمْ خُشوعًا﴾^(١)

هذا هو القرآن - أيها الأحبة - تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم، ويخِرُّون
للأذقان ييكون حين يلامس الوجدان فتوجلُّ منه القلوب، وتهتزُّ الأبدان، وتحرك
المشاعر، وتفيض الدموع، وتحشرج الصدور.

يسمعه المؤمنون فيزدادون إيماناً إلى إيمانهم، ويسارعون إليه خاشعين ولربهم
منيين.

ويسمعه الكفار والمشركون فيملك منهم الأفئدة ويستولي على القلوب فيذعنون.
ويسمعه المعاندون المستكبرون عن الحق فيقولون: إن هو إلا سحرٌ مبين، أو
يقولون: لاتسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون... فيقرون بتأثيره في القلوب
من حيث يشعرون أو لا يشعرون...

٦ - معارف القرآن العظيم الشاملة:

لم يقتصر القرآن الكريم على علم دون علم، وإن كان غرضه الهداية العامة
للناس، فإنه اشتمل على معارف تقوم بها الحجة، ويعم بها النفع، وتشهد بملء فيها
باستحالة إتيان مثل محمد ﷺ بها من عند نفسه، وهو الرجل الأمي، بل باستحالة ذلك
على الخلق كلهم إنسهم وجنهم، مهما أوتوا من علم وأدب، فهو الكتاب الذي حوى
المعارف من أطرافها وأطرها أطراً لهداية الناس.

يسوق الحجة، فإذا أفواه الفلاسفة فاعرة مازجها العجب والدهش لقوة الحجة،
وجزالة اللفظ، ووضوح العبارة، يهدم فكر أهل الأوثان، ويصحح تحريف أهل
الأديان، ويقدم العقيدة الصحيحة نقية طاهرة كاملة شاملة. وإذا العلماء منه يستقون
وعلى منهلهم يردون، وإذا المعارف تتفجر منه ينابيع، وإذا بها ترجع إليه رجوع الفرع
إلى الأصل.

وقد عدَّ السيوطي - رحمه الله تعالى - في كتابه (الإتقان): «النوع الخامس والستون

(١) سورة الإسراء: الآيات ١٠٦-١٠٩.

من علوم القرآن في العلوم المستنبطة من القرآن ثم أورد بعض الأقوال في أن القرآن جمع علوم الأولين والآخرين وقد كان الناس يدركون منه ما يدركون إلى أن قام أهل العلم فنوعوا علومه وقامت كل طائفة بفن من فنونه.

فاعتنى قوم بضبط لغاته، وتحرير كلماته، ومعرفة مخارج حروفه وعددها، وعدد كلماته، وآياته، وسوره، وأحزابه، وأنصافه، وأرباعه، وعدد سجدياته... فسموا القراء!

واعتنى النحاة بالمعرب منه، والمبني من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها، وأوسعوا الكلام في الأسماء وتوابعها وضروب الأفعال واللازم والمتعدي... الخ.

واعتنى المفسرون بالفاظه فوجدوا منه لفظاً يدل على معنى واحد ولفظاً يدل على معنيين، ولفظاً يدل على أكثر، فأجروا الأول على حكمه وأوضحوا معنى الخفي منه، وخاضوا في ترجيح أحد احتمالات ذي المعنيين والمعاني، وأعمل كل منهم فكره، وقال بما اقتضاه نظره.

واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية، والشواهد الأصلية والنظرية، فاستنبطوا منه أدلة على وحدانية الله ووجوده... الخ، وسموا هذا العلم بأصول الدين، وتأملت طائفة منهم معاني خطابه، فرأت منها ما يقتضي العموم، ومنها ما يقتضي الخصوص، إلى غير ذلك فاستنبطوا منه أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز.

وتكلموا في التخصيص، والإخبار، والنص، والظاهر، والمجمل، والمحكم، والمتشابه، والأمر، والنهي، والنسخ، إلى غير ذلك من أنواع الأقيسة واستصحاب الحال والاستقراء وسموا هذا الفن أصول الفقه.

وأحكمت طائفة صحيح النظر وصادق الفكر فيما فيه من الحلال والحرام، وسائر الأحكام، فأسسوا أصوله وفرعوا فروعه، ووسطوا القول في ذلك بسطاً حسناً وسموه بعلم الفروع وبالفقه أيضاً.

وتلمحت طائفة مافية من قصص القرون السابقة والأمم الخالية، ونقلوا أخبارهم، ودوّنوا آثارهم ووقائعهم، حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء، وسموا ذلك بالتاريخ والقصص.

وتنبه آخرون لما فيه من الحكم والأمثال والمواعظ التي تقلقل قلوب الرجال وتكاد تدكدك الجبال، فاستنبطوا مما فيه من الوعد والوعيد، والتحذير والتبشير وذكر الموت

والميعاد، والنشر والحشر، والحساب والعقاب، والجنة والنار، فصولاً من المواعظ، وأصولاً من الزواجر، فسمّوا بذلك الخطباء والوعّاظ.

وأخذ قوم مما في آيات الموارث من ذكر السهام وأربابها، وغير ذلك علم الفرائض واستنبطوا منها من ذكر النصف والثلث والربع والسدس والثمن حساب الفرائض.

ونظر قوم إلى مافيه من الآيات الدالة على الحكم الباهرة في الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم والبروج وغير ذلك فاستخرجوا منه علم المواقيت.

ونظر الكتّاب والشعراء إلى مافيه من جزالة اللفظ، ويليج النظم، وحسن السياق والمبادئ، والمقاطع والمخالص، والتلميح في الخطاب، والإطناب والإيجاز، وغير ذلك، واستنبطوا منه المعاني والبيان والبدیع.

وقد احتوى على علوم أخرى من علوم الأوائل مثل «الطب، والجدل، والهيئة، والهندسة، والجبر، والمقابلة، والنجامة وغير ذلك»^(١).

والمؤلفات التي تعتمد على القرآن الكريم في هذه العلوم كثيرة ليس هذا مجال حصرها، لاندعي أن كل مافيه مستمد من القرآن لكننا نؤكد أنهم يستشهدون ببعض آياته على بعض قضاياها، ومازال العلماء حتى وقتنا هذا يكتبون ويكتبون في علوم شتى، ومعارف متعددة، وهم يوثقون قولهم ويدعمون آراءهم بآيات من القرآن الكريم وما ذاك إلا لأن هذا القرآن حوى من المعارف أصولها أو أشار إلى شيء من بحوثها.

ولذلك لايعرف التاريخ كله كتاباً درسه الدارسون، وألف في علومه المؤلفون، وصنّف فيه المصنّفون، مثل القرآن الكريم، فهذا أمر خاص بالقرآن الكريم لايشترك معه فيه كتاب لا من قبله ولا من بعده.

٧ - وفاء القرآن العظيم بحاجات البشر:

نزل القرآن الكريم في أمة ترسخ تحت أعباء الجاهلية وقد اكتست من الجهل سربالاً بعبائد منحرفة وتشريعات ضالة وأخلاق رذيلة ومجتمع متفكك العرى لا سياسة توحد صفوفهم ولا مصلحة اقتصادية تربط بينهم ديدنهم توارث الأحقاد والعداوات. وشأنهم إشعال الحروب، يهضمون حق المرأة كل الهضم ويسترقون أحرار الرجال بلا حق، ويكبلون العقول، ويقيدون الأفكار.

(١) انظر الإتيقان: السيوطي ج٢، ص١٢٦-١٢٧.

تأمل العناصر السابقة تجدها جماع أسباب هلاك الأمم وضياعها وأنى لأمة تتن تحتها أن تفلح وأنى لأمة تنهج هذا النهج أن تنجح بل إن كل واحد من هذه الأسباب وحده كافٍ لضياع الأمة، فكيف إذا تكالبت عليها الأسباب كلها ولحكمة جمع الله سبحانه الأسباب كلها في أولئك القوم... ليعلم الناس أن القرآن حين يتشمل هذه الأمة مع هذه الأسباب فهو على إنقاذ غيرها - وهم دونها- أقدر فكيف إذا كان رفعها من أدنى درجات الجاهلية إلى درجة الكمال الإسلامية!!

كان القوم في الجاهلية يعبدون الأصنام والأوثان ويسجد أحدهم للثمرة ثم يأكلها، وإذا كان في فلاة اختار أربع حجارة وضع ثلاثاً منها لقدره، وأخذ الرابعة إليها^(١). كان يسلم أموره ومعيشته لهذه الأصنام التي لاتضر ولاتنفع إنها الجاهلية.

كان المجتمع يقوم على العصبية والفوارق الاجتماعية، التمايز والتفاضل بينهم يقوم على الحسب والنسب، يهجو شاعر قبيلة ظلماً وعدواناً فيطأطئ أفراد القبيلة رؤوسهم خجلاً أو يتقمون من الشاعر ومن قبيلته.. إنها الجاهلية.

لم تكن ثم سياسة داخلية بينهم تقوم على العدل والمساواة الحق، وتراعي الفضائل وتجتنب الرذائل ولاسياسة خارجية تربطهم بالدول المجاورة وتحفظ حقوق مواطنيها هناك، بل كان زعماءهم يذهبون إلى الدول المجاورة فيدخلون على ملوكها، كما يدخل عليهم سائر الناس.

لامصلحة اقتصادية تربط بينهم، فقد كانوا يأكلون الربا أضعافاً مضاعفة، القوي يأكل الضعيف، قام اقتصادهم كله على الرحلة في الصيف إلى الشام، وفي الشتاء إلى اليمن، لم يقم اقتصادهم على قدميه، ولم يفكر أحدهم بالزراعة والصناعة، إنها الجاهلية.

المرأة وما أدراك ما المرأة، تُباع وتُشتري وتُوهب، بل وتُورث، كما تُورث بهيمة الأنعام، لا يعرف لها حق ولايحترم لها فكر.. إنها الجاهلية.

الحرب. وتلك قاصمة تشتمل فيما بينهم لتافه الأمور، ولايطفئها إلا مرء العصور والدهور.

نزل القرآن وهم على هذه الجاهلية، وجاء وافيّاً بحاجات هذا المجتمع. أصلح العقيدة بالتوحيد، والتذكير بالمبدأ والمعاد، وأصلح العبادات بإرشادهم إلى

مايزكي النفوس ويظهر القلوب، وأصلح الأخلاق، فبين فضائلها، وأمر بها، وكشف رذائلها، وحذر منها، وأصلح المجتمع بإزالة الفوارق الاجتماعية، وأرشدتهم إلى (لافضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى)^(١)، وأصلح سياسة البلاد في الداخل بالحكومة الإسلامية العادلة، وفي الخارج بإقامة علاقات سياسية تحفظ حقوقهم هناك.

وأصلح المال والاقتصاد فأمر بالزكاة والصدقة، وحرم الربا، وحث على الزراعة والصناعة والحرفة والعمل والإنتاج، وحذر من البطالة.

وأعطى المرأة حقوقها في المال وفي البيع والشراء وفي اختيار الزوج وفي الإرث، وغير ذلك، حتى بوأها منزلة لم تعط مثلها في كل المجتمعات وفي كل الأديان.

ووضع للحرب شروطها، ووضح مبادئها وغاياتها، وأمر بالوفاء بالمعاهدات، وأثر السلم عليها، وشرع الجزية لدرئها، وأمر بجهاد أهل العناد، وأباح أملكهم فيئاً وغنيمة للمسلمين، ودعا لتحرير الرقيق وجعله كفارة للإيمان والظهار والنذر، وحث على عتق الرقاب، وحذر من الجور عليهم والظلم لهم واسترقاق الأحرار بغير حق.

وفوق هذا كله جاء بالحرية.. الحرية الحققة لا كما يفهمها بعض الناس من أنها حرية من ضوابط السلامة وحرية من الوفاء بحقوق الرب، وبحقوق الناس، ومنع الإكراه حتى في الدين وبين أن مهمة الرسول هي التذكير: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنْتَ مُذَكِّرٌ لَسْتَ عَلَيْهِمْ بِمُصَيِّرٍ﴾^(٢).

وحين التزم القوم هذه المبادئ انقلب ثم مجتمعتهم في زمن هو بالنسبة للقرون من بعدهم كالمح البصر إلى خير القرون، وماذا إلا لأن فيه وفاء بحاجات مجتمعتهم.

وما زالت المجتمعات - من قبل ومن بعد - ترسخ تحت أعباء من وجوه الجاهلية تلك، وتعاني من ذلك الداء الويل، فمجتمعات تعاني من انتشار الجريمة، ومجتمعات تعاني من انتشار الخمر والمخدرات، ومجتمعات تعاني من فشو الزنا والتهتك والانحلال الخلقي، ومجتمعات تعاني من العصبية العرقية، ومجتمعات تعاني من العزل السياسي، ومجتمعات تعاني من الربا والمشاكل الاقتصادية، ومجتمعات تهضم المرأة حقها، ومجتمعات انتشر فيها بيع الأطفال والأرقاء، ومجتمعات تعاني من الحروب، ومجتمعات كبّلت مواطنيها بالقيود ورمتهم في السجون لالشيء إلا لإرغامهم على القول بما يقولون.

(١) مسند الإمام أحمد ج ٥ ص ٤١١.

(٢) سورة الفاشية: الآيتين ٢١-٢٢.

وقد حاولت دولٌ عظمى - بميزان القوة المادية - أن تقضي على مشاكلها أو على بعضها، وأنفقت على علاج بعضها الملايين وعجزت .

وفي التشريعات مازالوا يتخبطون، يشرّعون ثم يرجعون، ويطالبون ثم ينكسون، ما ائتمدوا لصواب وما عرفوا الطريق .

وفي الاقتصاد يعاني العالم أجمع، غنيّه وفقيره من مشاكله، لا الغني يستطيع أن يرسم خطته ومدينه مفلس، ولا الفقير بقادر على أن يسدد دينه، وهو لا يستطيع إعياء وجوعاً أن يرفع يده .

كلّ هذا كان علاجه بالقرآن لو كانوا يعلمون . .

عالجها في المجتمع الجاهلي مُجتمعةً متكاملةً فهو على علاجها أحاداً أكثر قدرةً . .
وفي هذا أكبر دليل وأقوى حجة وأنصح برهان على أن في القرآن وفاءً بحاجات البشرية كلّها، لو كانوا يفقهون .

٨ - تأييد القرآن العظيم للحقائق العلمية :

لأريد بهذا أن أخوض في حديث طويل لا ينتهي عن الإعجاز العلمي والتفسير العلمي^(١)، لكنّي أريد النتيجة التي تلتقي عندما كل هذه الأبحاث، والتي انتهى إليها المفكرون والعلماء .

تلكم أن المؤيدين للتفسير العلمي والمعارضين له أيضاً، كلّهم بلا استثناء يقرون ويعترفون أن القرآن الكريم لم ولن يصادم حقيقة علمية، بل هو المؤيد للحقائق العلمية !! .

لم يقولوا هذا عن عاطفة مجردة، ولم يقله أتباع القرآن فحسب، وإنما قاله أولئك، وقاله خصومه أيضاً بعد أن تناولوا آيات عديدة منه، وقلبوها دراسة وتأثلاً وتدبراً، ونظروا فيما بين أيديهم من النظريات والحقائق العلمية، حتى انتهوا إلى ما انتهوا إليه .

وقد يحسب أحد أن السلامة من مصادمة الحقائق العلمية أمر هين فما على المتكلم إلا أن يتجنب الخوض في مجالاتها، ويحذر من الوقوع في مبهمات العلوم، وغوامض المعارف، وأسرار الكون، وخفايا العلم، وبذا يظفر بهذه السمة .

(١) وسيكون لهذا البحث فصوله الخاصة به في أثر القرآن العظيم في العلوم الكونية، فيما سيأتي، إن شاء الله تبارك وتعالى .

والأمر حق لو كان القرآن سلك هذا المسلك لكنه وقد أنزل منذ ما يزيد على أربعة عشر قرناً من الزمن، عرض لكثير من مظاهر هذا الوجود الكونية، كخلق السموات والأرض، وخلق الإنس والجن والملائكة، وسوق السحاب، وتراكمه، ونزول المطر، وجريان الشمس والقمر، وتحدثت عن الكواكب والنجوم والشهب والصعود في السماء، وعن أطوار الجنين وعن النبات والبحار والجبال، وما تحت الأرض، وعرض لمعارف شتى، وعلوم متعددة، ومع هذا كله لم يسقط العلم كلمة من كلماته، ولم يصادم جزئية من جزئياته، ممّا يؤا القرآن مكانة لم يشاركه فيها كتاب من قبله ولا من بعده، فما من كتاب عرض لمثل ما عرض له القرآن الكريم، إلا وكشف الزمن زيفه، وأبطلت الحقائق العلمية الثابتة خطأ نظرياته، حاشا القرآن الكريم، فما زالت آياته عالية لا يطالها شيء من ذلك لالشيء إلا لأنها كلام من وسع كل شيء علماً، وكفى بهذا إثباتاً لخاصة من خصائص القرآن الكريم، لا يشترك معه فيها كتاب، على ما خص بخصائص لم تكن لسواه!!

وبيان ذلك - كما يقول الزرقاني رحمه الله تعالى -: (إن القرآن الكريم تقرأه من أوله إلى آخره فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، أخذ بمعضه برقاب بعض في سورة وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه كأنه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل، كأنه حلقة مفرغة، أو كأنه سنط^(١) وحيد، وعقد فريد، يأخذ بالابصار: نظمت حروفه وكلماته، وتُسقت جملة وآياته، وجاء آخره مساوفاً لأوله، وبدأ أوله موافقاً لآخره)^(٢).

٩ - سهولة فهم القرآن العظيم مع علو مطالبه:

وختام خصائص القرآن العظيم:

أنه لا يعلو عن أفهام العامة ولا يقصر عن مطالب الخاصة:

وهذان مطلبان لا يدركهما الفصحاء والبلغاء من الناس، فلجأوا إلى قاعدة يعتدرون بها فقالوا: (لكل مقام مقال)، أما أن يأتي كلام واحد يخاطب به العلماء والعامة، والملوك والسوقة، والأذكىاء ومن دونهم، والصغير والكبير، والذكر والأنثى، ويرى فيه كل منهم مطلبه ويدرك من معانيه ما يفيقه، فذلك ما لا نجده على أتمه وأكماله إلا في

(١) السَّنَطُ: القلادة.

(٢) متاهل العرفان في علوم القرآن: الزرقاني ٥٣/١.

القرآن الكريم وحده.

يقرأ فيه العامي فيشعر بجلاله ويذوق حلاوته، ولا يلتوي عليه فهمه، فتدركه هيئته، ويستولي عليه بيانه، وتغشاه هدايته، فيخضع قلبه، وتدمع عيناه، فينقاد له ويدعن.

ويقرأ فيه العالم فيدرك فصاحته، وتُهيمن عليه بلاغته، ويملكه بيانه، وتتجلى له علومه ومعارفه، وتشده أخباره وأنباؤه، فيجد فيه زمام فكره، وقياد عقله، ومنهج علمه، ومحار فكره، ورفعة شأنه^(١)، فيدعن ﴿رَبُّنَا وَسِعَتْ كُلُّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا﴾^(٢)، ثم يرفع يديه: ﴿رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾^(٣)، فتدركه الخشية^(٤)، ويدعن لربه ويؤمن بشرعه.

والآيات هي هي هنا وهناك لم تتغير ولم تبدل، ولا تنقص - معاذ الله - أن الآية تحتل وجهين متعارضين وجهاً للعامية ووجهاً للخاصة، بل هو معنى واحد لكنه من العطاء بحيث يدرك منه كل قارئ قدر طاقته ووسع عقله وفكره فلا يحمله مالا يطيقه، ولا يقصر عن حاجته.

وزد على هذا كله أنه لا يخاطب العامة والخاصة في عصر واحد، إذاً لهان الأمر على صعوبته، لكنه يخاطب أولئك في كل عصر إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

يخاطب العلماء وقت نزول القرآن ويخاطبهم الآن في عصرنا هذا ويخاطب علماء القرون الآتية إن كان ثم قرون لم ولن يجد فيه أحد منصف من هؤلاء قصوراً في معانيه، ولا خللاً في تراكيبه، ولا عيباً في أساليبه، وقل مثل هذا في العامة في كل عصر، كل هذا مع تحوّل الأساليب وتغيّر ما من قرن إلى قرن، لا تنبؤ عن أفهامهم لفظاً، ولا يلتوي على ألبابهم معنى، ولا يحتاجون فيه إلى ترجمان أكثر ممّا يحتاجون إلى فهم لغتهم العربية. قسماً بمنزل القرآن أن هذا لا يكون في كلام البشر الذي إن أرضى العامة بمعانيه المكشوفة وحقائقه الظاهرة هبط عن ذوق الخاصّة ومشربهم وعقولهم، وإن أرضى العلماء منهم بدقائقه ورموزه وإشاراته عجزت عقول العامة عن دركه فانصرفت أذهانهم ومجّته أذواقهم.

فهيهات هيهات أن تقوى البشرية كلها والجن أجمع على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ولو اجتمعوا له.

(١) قال تعالى: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾، المجادلة، الآية: ١١.

(٢) سورة غافر: الآية ٧.

(٣) سورة طه: من الآية ١١٤.

(٤) قال تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾. فاطر من الآية ٢٨.

الفصل الأول

مكانة القرآن العظيم

في فصاحته وبلاغته وإعجازه وعظمته

- ويشتمل هذا الفصل على الأبحاث التالية:
- التمهيد: وجوب إدراك وجوه إعجاز القرآن العظيم.
 - البحث الأول: فصاحة القرآن العظيم وبلاغته.
 - البحث الثاني: وجوه إعجاز القرآن العظيم.
 - البحث الثالث: إعجاز النظم القرآني: جزأته وتناسقه.
 - البحث الرابع: إعجاز الأسلوب القرآني الفريد.
 - البحث الخامس: عظمة القرآن ووحدته الموضوعية.
 - البحث السادس: إعجاز القرآن في إيقاظ العقل البشري وتحريره من الضلال.
 - البحث السابع: أسلوب التهدي في القرآن لإثبات الوحدة والصدق النبوة.
 - البحث الثامن: الإعجاز التشريعي للقرآن العظيم.
 - البحث التاسع: الإعجاز الغيبي في القرآن العظيم.

التمهيد: وجوب إدراك وجوه إعجاز القرآن العظيم معنى الإعجاز:

إنَّ المعجزة أمرٌ خارقٌ للعادة مقرونٌ بالتحدي، سالمٌ عن المعارضة، وهي إما حسيّة وإما عقلية، وأكثر معجزات بني إسرائيل حسيّة؛ لبلاذتهم وقلة بصيرتهم، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية؛ لفراط ذكائهم وكمال أفهامهم، ولأنّ هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة، خُصّت بالمعجزة العقلية الباقية، ليراها ذَوو البصائر، كما قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَهُ وَخِيًّا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا» أخرجه البخاري.

ومعناه: أنّ معجزات الأنبياء انقضت بانقراض أعصارهم، فلم يشاهدها إلا مَنْ حضرها، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة^(١)...

إعجاز القرآن الكريم:

القرآن الكريم مُعْجَزٌ في أسلوبه وبلاغته، وأخباره بالمعنيّات؛ فلا يمرّ عصرٌ من الأعصار، إلّا ويظهر فيه شيءٌ ممّا أخبر به أنّه سيكون؛ يدلّ على صحة دعواه....

وإنّ المعجزات الواضحة الماضية، كانت حسيّة تُشاهد بالابصار، كناقّة صالح - خلقها الله تعالى من الصخرة - وعصا موسى. ومعجزات القرآن تُشاهد بالبصيرة، فيكون مَنْ يَتَّبِعُ لأجلها أكثر؛ لأنّ الذي يشاهد بعين الرأس ينقض بانقراض مَشَاهِدِهِ، والذي يشاهد بعين العقل باقٍ يُشاهدُ كُلُّ مَنْ جاء بعد الأول مستمراً^(٢).

قال الحافظ بن حجر في «فتح الباري»:

«إِنَّ كِتَابَ اللَّهِ تَعَالَى مُعْجَزٌ، لَمْ يَقْدِرْ أَحَدٌ عَلَى مُعَارَضَتِهِ بَعْدَ تَحْدِيدِهِمْ بِذَلِكَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة/٦]، فَلَوْلَا أَنَّ سَمَاعَهُ حُجَّةٌ عَلَيْهِ، لَمْ يَقِفْ أَمْرُهُ عَلَى سَمَاعِهِ، وَلَا يَكُونُ حُجَّةً إِلَّا وَهُوَ مُعْجَزَةٌ!! وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ. أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ﴾؟

(١) الإتيان في علوم القرآن ١١٦/٢.

(٢) الإتيان ١١٧/٢.

[العنكبوت/ ٥٠-٥١]، فأخبر أن الكتاب آيات من آياته، كافٍ في الدلالة، قائم مقام معجزات غيره، وآيات من سواه من الأنبياء، ولما جاء به النبي صلى الله عليه وآله وسلم إليهم، وكانوا أفصح الفصحاء ومصاقع الخطباء، وتحذاهم على أن يأتوا بمثله، وأمهلهم طول السنين فلم يقدرُوا، كما قال تعالى: ﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ [الطور/ ٣٤]، ثم تحذاهم بعشر سورٍ منه في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [هود/ ١٣]، ﴿فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ﴾ [هود/ ١٤]، ثم تحذاهم بسورة في قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [يونس/ ٣٨]، ثم كرّر في قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ﴾ الآية [البقرة/ ٢٣]، فلما عجزوا عن معارضته والإتيان بسورة تشبهه، على كثرة الخطباء فيهم والبلغاء، نادى عليهم بإظهار العجز وإعجاز القرآن، فقال الله تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَىٰ أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُوا بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء/ ٨٨]، فهذا وهم الفصحاء اللد؟ وقد كانوا أحرص شيء على إطفاء نوره وإخفاء أمره، فلو كان في مقدرتهم معارضته لعدّلوا إليها قطعاً للحجة، ولم ينقل عن أحدٍ منهم أنه حدّث نفسه بشيء من ذلك ولا رame، بل عدّلوا إلى العناد تارة، وإلى الاستهزاء أخرى، فتارة قالوا سحرٌ، وتارة قالوا: شعرٌ، وتارة قالوا: أساطير الأولين، كلّ ذلك من التحجّر والانقطاع ثم رضوا بتحكيم السيف في أعناقهم، وسبّوا ذراريهم وحرّمهم، واستباحة أموالهم، وقد كانوا آنفَ شيءٍ وأشدّه حميةً، فلو علموا أن الإتيان بمثله في قدرتهم، لبادروا إليه؛ لأنّه كان أهون عليهم. كيف وقد جاء الوليد بن المغيرة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم، فقرأ عليه القرآن، فكانه رَقَّ له، فبلغ ذلك أبا جهل، فأتاه فقال: يا عمّ إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاّ ليعطوكه لئلا تأتي محمداً؛ لتُعرضَ لما قاله - أي: لتدعَ سماع القرآن - قال الوليد: قد علمت قريشُ أنني من أكثرها مالاّ؟ قال أبو جهل: فقلّ قولاً يبلغ قومك أنك كارهٌ له؟ قال: وماذا أقول؟ فوالله ما فيكم رجلٌ أعلم بالشعر مني، ولا برجزه ولا بقصيده، ولا بأشعار الجنّ، والله ما يشبه الذي نقول شيئاً من هذا، والله إن لقوله الذي يقول حلاوة، وإنّ عليه لطلاوة، وإنّه لمثمرٌ أعلاه، مُغدقٌ أسفله، وإنّه ليعلو ولا يُعلَى عليه، وإنّه ليحطّم ماتحته!!! قال: لا يرضى عنك قومك حتى تقول فيه... - أي: غير هذا القول، الذي يبدو عليه الإذعان له - قال: فدعني حتى أفكر، فلما فكر قال: هذا

سِحْرٌ يُؤَثِّرُ... - فارتدَّ عَمَّا قاله من الحق^(١).

وجوب الاهتمام بوجوه الإعجاز:

ولمَّا ثَبَّتْ كَوْنُ الْقُرْآنِ مُعْجَزَةً نَبِيًّا مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، وَجَبَ الاهتمام بمعرفة وجوه الإعجاز.

قال الحافظ السيوطي: «وقد أفرَدَ علماؤنا رضي الله عنهم بتصنيف إعجاز القرآن، وخاصوا في وجوه إعجازه كثيراً، منهم الخطابي، والرَّمَّاني، والزملكاني، والإمام الرازي، وابن سِراقة، والقاضي أبو بكر الباقلاني، وأنهى بعضهم وجوه إعجازه إلى ثمانين. والصواب: أنه لا نهاية لوجوه إعجازه، كما قال السكاكي: اعلم أن إعجاز القرآن يُدرك ولا يمكن وصفه»^(٢).

مَنْ يُدْرِكُ إعجاز القرآن:

قال أبو الحسن الأشعري: «لإنَّ الأعجمي لا يمكنه أن يعلم إعجازه إلاَّ استدلالاً، وكذلك مَنْ ليس ببلغ. فأما البالغ الذي أحاط بمذاهب العرب وغرائب الصنعة، فإنه يعلم من نفسه ضرورة عجزه، وعجز غيره عن الإتيان بمثله»^(٣).

وجوه إعجاز القرآن:

لقد ذكر الحافظ السيوطي من وجوه إعجاز القرآن خمسة وثلاثين وجهاً، في كتابه الكبير «معتك الأقران في إعجاز القرآن» نذكرها لك في هذا التمهيد بإيجاز، وهي:

الوجه الأول: احتواؤه على علوم ومعارف، لم يجمعها كتاب من الكتب، ولا أحاط بعلمها أحد، قال الله تعالى: ﴿مَا فَزَعْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ [الأنعام/٣٨]، وقال الإمام الشافعي: «ليست تنزل بأحد في الدين نازلة إلا وفي كتاب الله الدليل على سبيل الهدى فيها». وقال مرة: «سَلُونِي عَمَّا سِئْتُمْ، أُخْبِرْكُمْ عَنْهُ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ».

الوجه الثاني: كونه محفوظاً عن الزيادة والنقصان، محروساً عن التبديل والتغيير على تطاول الأزمان، بخلاف سائر الكتب. قال الله تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر/٩]، فلم يقدر أحدٌ بحمد الله على التجاسر عليه.

(١) الإتيان ١١٧/٢.

(٢) معتك الأقران في إعجاز القرآن ٤٣/١.

(٣) المصدر السابق ٦/١.

الوجه الثالث: حُسْنُ تَأْلِيفِهِ، وَالتَّامُّ كَلِمِهِ وَفَصَاحَتُهَا، وَوَجْوهُ إِعْجَازِهِ وَبِلَاغَتِهِ الْخَارِقَةِ عَادَةِ الْعَرَبِ، الَّذِينَ هُمْ فِرْسَانُ الْكَلَامِ وَأَرْيَابُ هَذَا الشَّانِ.

الوجه الرابع: مَنَاسِبَةُ آيَاتِهِ وَسُورِهِ. وَعِلْمُ الْمَنَاسِبَةِ عِلْمٌ كَبِيرٌ قَلَّ اعْتِنَاءُ الْمَفْسَرِينَ بِهِ لِدَقَّتِهِ. وَمَنْ أَكْثَرَ مِنْهُ الْإِمَامُ فَخْرُ الدِّينِ الرَّازِي، وَقَالَ فِي تَفْسِيرِهِ: أَكْثَرُ لَطَائِفِ الْقُرْآنِ مُودَعَةٌ فِي التَّرْتِيبَاتِ وَالرُّوَاطِ.

الوجه الخامس: افْتِتَاحُ السُّورِ وَخَوَاتِمُهَا، وَهُوَ مِنْ أَحْسَنِ الْبِلَاغَةِ، وَهُوَ أَنْ يَتَأَنَّقَ فِي أَوَّلِ الْكَلَامِ؛ لِأَنَّهُ أَوَّلُ مَا يَقْرَعُ السَّمْعَ. وَقَدْ أَتَتْ فَوَاتِحُ جَمِيعِ السُّورِ عَلَى أَحْسَنِ الْوَجْوهِ وَأَكْمَلُهَا. وَخَوَاتِمُ السُّورِ مِثْلُ الْفَوَاتِحِ فِي الْحُسْنِ، مَعَ إِذْنِ السَّامِعِ بِانْتِهَاءِ الْكَلَامِ.

[فَاتِحَةُ الْقُرْآنِ وَخَاتِمَتَاهُ]:

وَلَمَّا كَانَ الْقُرْآنُ الْعَظِيمُ مِنْ أَعْظَمِ نِعَمِ اللَّهِ عَلَى عِبَادِهِ؛ افْتَتَحَهُ بِسُورَةِ الْحَمْدِ، وَالتَّعْمَةُ مِثْلَةُ الْحَسَدِ، فَخْتَمَهُ بِسُبْحَانِهِ بِالْمُعَوِّذَتَيْنِ، لِيُطْفِئَ الْحَسَدَ بِالِاسْتِعَاذَةِ بِاللَّهِ تَعَالَى. فَجَمَعَ اللَّهُ تَعَالَى بِذَلِكَ بَيْنَ حُسْنِ الْإِفْتِتَاحِ وَكَمَالِ الْإِخْتِمَامِ.

الوجه السادس: مُشَبِّهَاتُ آيَاتِهِ: وَذَلِكَ أَنَّ الْقِصَّةَ الْوَاحِدَةَ تَرْدُ فِي سُورٍ شَتَّى وَفَوَاصِلَ مُخْتَلِفَةٍ، بَأَن تَأْتِي فِي مَوْضِعٍ وَاحِدٍ مَقْدَمًا وَفِي آخَرٍ مُؤَخَّرًا، وَفِي مَوْضِعٍ مَعْرُفًا وَفِي آخَرٍ مُنْكَرًا، أَوْ مُفْرَدًا وَفِي آخَرٍ جَمْعًا. وَهَذَا النَّوعُ يَتَدَاخَلُ مَعَ نَوْعِ الْمَنَاسِبَاتِ.

الوجه السابع: وَرُودُ آيَاتِهِ عَلَى وَجْهِ التَّعَارُضِ، وَلَا تَعَارُضَ لِأَنَّهُ مَنْزَعٌ عَنِ ذَلِكَ، وَلَكِنَّهُ مِنَ الْإِعْجَازِ فِي الْكَلَامِ لِدَعْوَةِ السَّامِعِ لِلْبَحْثِ فِي وَجْهِ التَّقَابُلِ وَالتَّعَارُضِ. قَالَ الْإِمَامُ الْإِسْفَرَايْنِي: «إِذَا تَعَارَضَ الْآيُ وَتَعَذَّرَ فِيهَا الْجَمْعُ وَالتَّرْتِيبُ طَلَبَ التَّارِيخُ - أَيْ: تَارِيخُ التَّزْوِيلِ - وَتُرِكَ الْمُتَقَدِّمُ بِالْمُتَأَخِّرِ، وَيَكُونُ ذَلِكَ نَسْخًا. وَإِنْ لَمْ يُعْلَمْ وَكَانَ الْإِجْمَاعُ عَلَى الْعَمَلِ بِإِحْدَى الْآيَتَيْنِ، عُلِمَ بِإِجْمَاعِهِمْ أَنَّ النَّاسِخَ مَا أَجْمَعُوا عَلَى الْعَمَلِ بِهَا. وَلَا يُوجَدُ فِي الْقُرْآنِ آيَتَانِ مُتَعَارِضَتَانِ تَخْلُوانِ عَنْ هَذَيْنِ الْوَصْفَيْنِ».

الوجه الثامن: وَقُوعُ نَاسِخِهِ وَمَنْسُوخِهِ، وَهُوَ مِمَّا خُصِّصَتْ بِهِ هَذِهِ الْأُمَّةُ، لِحُكْمِ مِنْهَا: التَّسْيِيرِ وَالتَّخْفِيفِ، وَرَفْعِ الْمَشَقَّةِ، وَالتَّدرُّجِ فِي التَّحْرِيمِ. وَلَا يَقَعُ النَّسْخُ إِلَّا فِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ، فَلَا يَقَعُ النَّسْخُ فِي الْعُقَاثِدِ وَالْوَعْدِ وَالْوَعِيدِ وَالْأَخْبَارِ. وَحِكْمَةُ بَقَاءِ تِلَاوَةِ الْآيَةِ الْمَنْسُوخَةِ فِي الْقُرْآنِ، هُوَ لِلتَّذْكِيرِ بِالرَّحْمَةِ الَّتِي حَصَلَتْ فِي الْآيَةِ النَّاسِخَةِ.

الوجه التاسع: انْقِسَامُهُ إِلَى مُحْكَمٍ وَمُتَشَابِهٍ، وَالْقُرْآنُ مُحْكَمٌ كُلُّهُ - مِنْ حَيْثُ -

لا يتطرق إليه النقص ولا التغير، وهو يُشبه بعضه بعضاً في الحق والصدق.

ثم إنَّ المُحكَّم: ما عُرِف المراد منه، إمَّا بالظهور وإمَّا بالتأويل. والمُتشابه: ما استأثر الله تعالى بعلمه، اختبأراً لإيمانهم وكمال تصديقهم، كما جاء في رواية الحاكم عن ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال: «كان الكتاب الأول ينزل من باب واحد على حرف واحد، ونزل القرآن من سبعة أبواب على سبعة أحرف: زاجر، وأمّر، وحلال، وحرام، ومُحكّم، ومتشابه، وأمثال؛ فأحلُّوا حلاله، وحرَّمُوا حرامه، وافعلوا ما أمَرْتُم به، وانتهوا عما نهَيْتُم عنه، واعتبروا بأمثاله، واعملوا بمُحكَّمه، وآمنوا بمتشابهه، وقولوا: «آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا».

الوجه العاشر: اختلاف ألفاظه في الحروف وكيفيتها. ومنه علم القراءات. ولاختلاف القراءات وتنوعها فوائد، منها: التهوين والتسهيل والتخفيف على قبال الأمة. ومنها إظهار شرفها على سائر الأمم، إذ لم ينزل كتابٌ غيرهم إلا على وجه واحد. ومنها إظهار سرّ الله في كتابه وصيائته له عن التبديل والتحريف، مع كونه على هذه الأوجه الكثيرة. ومنها المبالغة في إعجازه بإعجازه، إذ تنوع القراءات بمنزلة الآيات، ولو جُعِلَتْ دلالة كلِّ لفظة آية على حدة، لم يخفَ ما كان في ذلك من التطويل. ومنها أنَّ بعض القراءات تُبين مالعلة محمّل في القراءة الأخرى.

الوجه الحادي عشر: تقديم بعض ألفاظه وتأخيرها وهو إمَّا لكون السياق في كل موضع يقتضي ما وقع، وإمَّا لقصد البداءة والختم به للاعتناء بشأنه. وإمَّا لقصد التفتن في الفصاحة وإخراج الكلام على عدة أساليب.

وأَسباب التقديم: إمَّا للتبرُّك، أو للتعظيم، أو للتشريف، أو للمناسبة، أو للحثّ والحض على شيء، أو للسبق، أو للسببية، أو للكثرة، أو للترقي، أو للتدلي.

الوجه الثاني عشر: إفادة حصره واختصاصه، وهو تخصيص أمر بآخر بطريق مخصوص.

الوجه الثالث عشر: احتواؤه على جميع لغات العرب وبلغه غيرهم. قال ابن جرير: «ماورد عن ابن عباس وغيره من تفسير ألفاظه من القرآن إنها بالفارسية أو الحبشية أو النبطية، أو نحو ذلك، إنّما اتفق فيها توارد اللغات، فتكلّمت العرب بها والفرس والحبشة بلفظ واحد». وإنّما وُجِدَتْ هذه الألفاظ في لغة العرب؛ لأنها أوسع اللغات وأكثرها ألفاظاً. وأجابوا عن قوله تعالى: «قُرْآنًا عَرَبِيًّا» بأنَّ الكلمات اليسيرة بغير العربية - إن وجدت - لا تخرجه عن كونه عربياً.

الوجه الرابع عشر: عموم بعض آياته وخصوص بعضها، وهو لفظٌ يستغرق الصالح له من غير حصر، وحيثه «كل» مبتدأة تلحوق: «كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا قَان» [الرحمن/٢٦]، وكذا: الذي والتي، وتثنيتهما وجمعهما، وأي، وما، ومن - شرطاً أو استفهاماً، أو موصولاً - وأما المخصوص فامثلته في القرآن كثيرة جداً.

الوجه الخامس عشر: ورود بعض آياته مجملةً وبعضها مبيّنة، وفي ذلك من حُسْنِ البلاغة ما يعجز عنه أولُو الفصاحة. وللإجمال أسباب، هي: الاشتراك، الحذف، اختلاف مرجع الضمير، احتمال العطف والاستئناف، غرابة اللفظ، عدم كثرة الاستعمال، التقديم والتأخير، قلب المنقول، التكرير القاطع لوصول الكلام في الظاهر.

الوجه السادس عشر: منطوقه ومفهومه، والمنطوق: هو مادّل عليه اللفظ في محل النطق. والمفهوم: هو مادّل عليه اللفظ لا في محل النطق، وهو قسمان: مفهوم موافقة، ومفهوم مخالفة.

الوجه السابع عشر: وجوه مخاطباته، وهي على ثلاثين نحواً: خطاب العام المراد به الخصوص، والخطاب الخاص المراد به الخصوص، والخطاب الخاص المراد به العموم، وخطاب الجنس، وخطاب النوع، وخطاب العين، وخطاب المدح، وخطاب الذم، وخطاب الكرامة، وخطاب الإهانة، وخطاب التهكم، وخطاب الجمع بلفظ الواحد، وخطاب الواحد بلفظ الجمع، وخطاب الواحد بلفظ الاثنين، وخطاب العين المراد به غيره، وخطاب التلوين، وخطاب الجمادات، وخطاب التهييج، وخطاب التحنن، وخطاب الاستعطاف، وخطاب التحجب، وخطاب التعجيز، وخطاب التشريف، وخطاب المعدوم.

الوجه الثامن عشر: ما نطوى عليه القرآن من الأخبار المغيبيات، عن الماضي والمستقبل، وهي كثيرة.

الوجه التاسع عشر: القصص القرآني عن الأمم في القرون السالفة، وأحوال القرون البائدة، وعن أنبيائهم ورسولهم.

الوجه العشرون: روعة القرآن وهيئته، وهي التي تلحق سامعيه وقاريه، وهي سرّ خالد من أسرارها الباقية الدائمة.

الوجه الحادي والعشرون: أن سائر ما لا يمتدح، وأن قارنه لا يملأ، فالأسماع تطرب له، والقلوب تشغف به، فلا يخلق على كثرة الترداد ولا يلى.

الوجه الثاني والعشرون: تيسير حفظه، وتقريبه على متحفظين، فهو الكتاب الأوحى من سائر الكتب الذي وعته الصدور وحفظته القلوب، حتى كان من حفاظه الأطفال قبل الرجال!

الوجه الثالث والعشرون: اشتماله على وجوه الحقيقة والمجاز. وقد اتفق البلغاء على أن المجاز أبلغ من الحقيقة.

الوجه الرابع والعشرون: تشبيهه واستعاراته، وهو من أشرف أنواع البلاغة وأعلاها!!!...

الوجه الخامس والعشرون: كناياته وتعريضه، والكناية أبلغ من التصريح.

الوجه السادس والعشرون: إيجازه في آية وإطنابه في أخرى، وهما من أعظم أنواع البلاغة. والإطناب إما بتكثير الجمل، وإما بإدخال حروف التأكيد، وهي: **إنَّ، وأنَّ، ولام الابتداء، والقسم، وآلاً الاستفتاحية، وأما، وها التنييه، وكانَ في تأكيد التشبيه.**

الوجه السابع والعشرون: وقوع البدائع البليغة فيه. وهو علم يُعرف به وجوه تحسين الكلام بعد رعاية المطابقة ووضوح الدلالة.

الوجه الثامن والعشرون: احتواؤه على الخبر والإنشاء، وفيهما ينحصر الكلام. ويُقصد بالخبر إفادة المُخاطب، وهو على أنواع، فقد يأتي بمعنى الأمر، وبمعنى النهي، وبمعنى الدعاء. والإنشاء: يفيد إيجاد الشيء حالاً أو مستقبلاً، ومن أقسامه: الوعد والوعيد، والتوبيخ والتقرير، والتعجب والعتاب، والتذكير والافتخار، والتفخيم، والتهويل والتخويف، والتنبية والتكثير، والترغيب والتمني.

الوجه التاسع والعشرون: إقسامه تعالى لإقامة الحجة وتأكيداها.

الوجه الثلاثون: اشتماله على جميع أنواع البراهين الحسية والأدلة العقلية.

الوجه الحادي والثلاثون: اشتماله على ضروب الأمثال. وعلم الأمثال في القرآن من أعظم العلوم، والناس في غفلة عنه. قال الإمام الشافعي: «مما يجب على المجتهد معرفته من علوم القرآن، معرفة ما ضرب فيه من الأمثال الدَّوَالُّ على طاعته سبحانه، المبيّنة لاجتناب معصيته». وإنَّ مِمَّا يُستفاد من ضرب الأمثال في القرآن: التذكير، والوعظ، والحث على الخير، والزجر عن الشر، والاعتبار والتقرير، وتقريب المراد إلى العقل، وتصويره بصورة المحسوس، فهي أثبت في الأذهان.

الوجه الثاني والثلاثون: ما اشتمل عليه القرآن من الآيات الجامعة للرجاء والعدل والتخويف، فتارة يُرجي العصاة برحمته تعالى وتوبته عليهم إذا هم تابوا وأنابوا وتارة يُخوِّفهم إذا هم أقاموا على مالا يرضاه منهم.

الوجه الثالث والثلاثون: ورود الآيات المبهمة فيه التي تُحير العقول. وكان كثير من السلف من يعتني بهذا النوع، ومرجعه النقل المحض.

الوجه الرابع والثلاثون: احتواؤه على أسماء الأشياء والملائكة والأنبياء والمرسلين، وأسماء بعض القبائل، وبعض الجبال، وبعض الكواكب. وسمى الله في القرآن عشرة أجناس من الحيوان.

الوجه الخامس والثلاثون: اشتماله على الألفاظ المشتركة، وهذا الوجه من أعظم إعجاز القرآن الكريم، حيث كانت الكلمة الواحدة تتصرف إلى عشرين وجهاً، وأكثر وأقل، ولا يُوجد ذلك في كلام البشر!...

هذه هي وجوه الإعجاز التي اشتمل عليها كتاب الحافظ السيوطي «معترك الأقران في إعجاز القرآن». وهو أجمع كتاب في هذا الخصوص.

البحث الأول

فصاحة القرآن العظيم وبلاغته

تعريف الفصاحة والبلاغة :

الفصاحة في اللغة : الظهور والبيان ، ومنها أفصح اللبـن إذا انجلت رغوته ، ويقال أفصح الصبح إذا بدا ضوءه واستبان^(١) ، ولسان فصيح أي طلق .

وفي القرآن الكريم على لسان موسى عليه السلام : «وأخي هارون هو أفصحُ مني لساناً فأرسله معي» القصص/ ٣٤ .

وفصاحة الكلام في الاصطلاح : خلوصه من التعقيد . وفصاحة القرآن : كونه لفظاً عربياً مستعملاً مؤدّي المعنى بوجه لا تعقيد فيه^(٢) .

نجد أن التعاريف كلها تدور حول الإظهار والوضوح مع الخلوّ من التعقيد .

والبلاغة في اللغة : مأخوذة من البلوغ وهو الوصول إلى الشيء والانتهاء إليه . يقال بلغت المكان بلوغاً: وصلت إليه .

وفي الاصطلاح : البلاغة في الكلام : إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ^(٣) . وقيل : أن يبلغ به المتكلم ما يريد من نفس السامع بإصابة موضع الاقتناع من العقل والوجدان من القلب .

وفي لسان العرب : رجل بليغ : حسن الكلام فصيح يبلغ بعبارة لسانه كنه ما في قلبه . . وقال خالد بن صفوان : أبلغ الكلام ما قلّت ألفاظه وكثرت معانيه ، وخير الكلام ماشوقّ أوله إلى سماع آخره^(٤) .

يقول الخفاجي في «سر الفصاحة» : (والفرق بين الفصاحة والبلاغة : أن الفصاحة

(١) «لسان العرب» : ٥٤٥/٢ .

(٢) «الفوائد المشوق» لابن القيم ، ص ٩/ .

(٣) «الفوائد المشوق» لابن القيم ، ص ٩/ .

(٤) لسان العرب ج ٨/ ٤٢٠/ .

مقصورة على وصف الألفاظ، والبلاغة لا تكون إلا وصفاً للألفاظ مع المعاني. لا يقال في كلمة واحدة لاتدل على معنى يفضل عن مثلها بليغة، وإن قيل فيها فصيحة وكل كلام بليغ فصيح، وليس كل فصيح بليغاً^(١).

وإذا استعرضنا آيات القرآن الكريم من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس على تعريف الفصاحة والبلاغة، وشروط الألفاظ الفصيحة والكلام البليغ، لوجدنا كل آية قد تحققت فيها الفصاحة والبلاغة في أبهى صورهما، ولوجدنا أن معاني الكلمات تنساب إلى القلب قبل أن تبهنا الألفاظ بجمالها الساحر، سواء في ذلك السور والآيات التي تلفت أنظارنا إلى الآفاق لنستدل على الخالق من لوحة إبداعه الرائعة أو الآيات المتعلقة بمبدأ البعث والنشور والموقف والحساب أو مايتعلق منها بتنظيم شؤون الحاكم مع رعيته، أو الأسرة وحقوق أفرادها، وغيرها من الأمور التي تولى القرآن الكريم الحديث عنها.

كل تلك الآيات عليها الصبغة الزاهية من البيان الرائع والجمال اللفظي في أبسط أسلوب وأوضحه وأقربه إلى الفهم والقلب.

والمتبج لآيات القرآن الكريم من العارفين بأفانين البلاغة يجد فيه فنونها بأسرها، من إفادة المعاني الكثيرة باللفظ القليل، ومن ضروب التأكيد، وأنواع التشبيه والتمثيل، إلى ضرب الأمثال، وأصناف الاستعارة، وحسن المطالع والمقاطع والفواصل، والتقديم والتأخير، والفصل والوصل، وخلوه عن اللفظ الغث الشاذ الخارج عن القياس، والشارد النافر عن الاستعمال، إلى غير ذلك من أنواع الفنون البلاغية بحيث لا يرى المتصفح للقرآن الكريم وتراكيبه المتمرس في فنون البلاغة نوعاً منها إلا وجده أحسن ما يكون، لا يقدر أحد من البلغاء الواصلين إلى ذروة البلاغة من العرب العرباء وإن استفرغ وسعه أن يحيط بأنواع قليلة منها. ومن كان أعرف بلغة العرب وفنون بلاغتها كان أعرف بمزايا بلاغات القرآن الكريم وإعجازه للثقلين.

ثانياً: أمثلة على بعض الفنون البلاغية:

١ - إيجاز القصر:

أ - قال تعالى في سورة النحل: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ سورة النحل/ ٩٠.

(١) سرّ الفصاحة للخفاجي ص ٤٩-٥٠/ باختصار.

- أمر الله سبحانه وتعالى في أول هذه الآية بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، ونهى في وسطها عن الفحشاء والمنكر والبغى، ووعظ في آخرها وذكر، فجمع في هذه ضرورياً من البيان وأنواعاً من الإحسان. فذكر العدل والإحسان، والفحشاء والمنكر بالآلف واللام التي هي للاستغراق، أي استغراق الجنس المحتوى على جميع أنواعه وضرويه.

- وفي نهايتها الطباق اللفظي والطباق المعنوي، أما اللفظي ففي قوله (ياأمر...) وينهى) وأما المعنوي ففي قوله: العدل والإحسان وإيتاء ذي القربى، وقوله: الفحشاء والمنكر والبغى، فإن الثلاثة الأواخر من القبيح فطابق بين الحسن والقيح مطابقة معنوية.

- ثم بين خصوصية ذوي القربى بإعادة الإيضاء عليهم والإيتاء لهم ومع أن الأمر بالإحسان قد تناولهم.

- وبدأ بالعدل لأنه فرض، وتلاه بالإحسان لأنه مندوب إليه وقد يجب، فاحتوت الآية على حسن النسق، وعطف الجمل بعضها على بعض فقدم العدل وعطف عليه بالإحسان الذي هو جنس عام، وخص منه نوعاً خاصاً وهو إيتاء ذي القربى.

- ثم أتى بالأمر مقدماً، وعطف عليه النهي بالواو، ثم رتب جمل المنهيات كما رتب جمل المأمورات في العطف بحيث لم يتأخر في الكلام ما يجب تقديمه ولم يتقدم عليه ما يجب تأخيره.

- ثم ختم ذلك كله بأمور مستحسنة ودعا إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة فاحتوت الآية على ضروب من المحاسن والقضايا وأشتات من الأوامر والنواهي والمواعظ والوصايا، ما لو بث في أسفار عديدة لما أسفرت عن وجوه معانيها، ولا احتوت على أصولها ومبانيها^(١).

ب - المثال الثاني على الإيجاز بسورة قصيرة من القرآن الكريم وهي سورة الكوثر وأقصر سور القرآن: فعلى الرغم من كلماتها القليلة المحدودة تضمنت من المعاني البديعة والفصاحة والبلاغة الرائعة التي اقتضت بها أن تكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾ البقرة/ ٢٣.

(١) «الفوائد المشوق» لابن القيم، ص ٦٩.

ج - المثال الثالث في المقارنة بين كلام موجز من القرآن الكريم وبين كلام موجز ورد عن العرب:

أما الآية الكريمة فقولہ تعالیٰ: ﴿ولکم فی القصاص حياة﴾ البقرة/١٧٩/ وهو جزء من آية، ومعناها أن الإنسان إذا علم أنه متى قتل قُتل به، كان ذلك داعياً إلى أن لا يُقدم على القتل، فارتفع بالقتل الذي هو القصاص كثير من قتل الناس بعضهم لبعض، وكان ارتفاع القتل حياة لهم.

ورد في هذا المعنى عن العرب قولهم: (القتل أنفى للقتل).

وأبرز العلماء بلاغة العبارة القرآنية على الثانية بعشرين وجهاً أو أكثر هي: (١)

١ - أن ما يناظره من كلامهم هو قوله: ﴿في القصاص حياة﴾ أقل حروفاً، فإن حروفها اثنا عشر حرفاً، وحروف (القتل أنفى للقتل) أربعة عشر.

٢ - أن نفي القتل لا يستلزم الحياة، والآية ناصّة على ثبوتها التي هي الغرض المطلوب منه.

٣ - أن تنكير حياة يُفيد تعظيماً، فتدل على أن في القصاص حياة متطاولة كقوله: ﴿ولتجدنهم أحرص الناس على حياة﴾ البقرة/٩٦. ولا كذلك المثل، فإن اللام فيه للجنس، ولذا فسرّوا الحياة فيها بالبقاء.

٤ - أن الآية مطردة بخلاف المثل، فإنه ليس كل قتل أنفى للقتل، بل قد يكون ادعى له، وهو القتل ظلماً. وإنما ينفيه قتل خاص، وهو القصاص ففيه حياة أبداً.

٥ - أن الآية خالية من تكرار لفظ القتل الواقع في المثل، والخالي من تكرار أفضل من المشتمل وإن لم يكن مخلاً بالفصاحة.

٦ - أن الآية مستغنية عن تقدير محذوف، بخلاف قولهم فإن فيه حذف (من) التي بعد أفعل التفضيل وما بعدها، وحذف (قصاصاً) مع القتل الأول و(ظلماً) مع القتل الثاني، والتقدير القتل قصاصاً أنفى للقتل ظلماً من تركه.

٧ - أن في الآية طباقاً معنوياً، لأن القصاص مشعر بضد الحياة، بخلاف المثل.

٨ - أن الآية اشتملت على فن بديع، وهو جعل أحد الضدين الذي هو الفناء

(١) هذا الموضوع من كتاب «مباحث في إعجاز القرآن» د مصطفى مسلم/ ص ١١١-١٢٤ ط المنارة - جدة.

والموت، محلاً ومكاناً لضده، الذي هو الحياة، واستقرار الحياة في الموت مبالغة عظيمة، وذلك بجعل القصاص كالمنبع للحياة والمصرف لها، وذلك مستفاد من كلمة (في) الداخلة على القصاص.

٩ - أن في المثل توالي أسباب كبيرة خفيفة، وهو السكون بعد الحركة وذلك مستكره فإن اللفظ المنطوق به إذا توالى حركاته تمكن اللسان من النطق به، وظهرت فصاحته، بخلاف ما إذا تعقب كل حركة سكون، فالحركات تنقطع بالسكنات. نظيره إذا تحركت الدابة أدنى حركة فجئت، ثم تحركت فجئت لا يبين انطلاقها ولا تتمكن من حركتها على ماتختاره، فهي كالمقيدة.

١٠- أن المثل كالمتناقض من حيث الظاهر، ولأن الشيء لا ينفي نفسه.

١١- سلامة الآية من تكرار قلقلة القاف الموجب للضغط والشدة وبعدها عن غنة النون.

١٢- اشتغالها على حروف متلائمة لما فيها من الخروج من القاف إلى الصاد، إذ القاف من حروف الاستعلاء، والصاد من حروف الاستعلاء والإطباق. بخلاف الخروج من القاف إلى التاء التي هي حرف منخفض، فهو غير ملائم للقاف، كذا الخروج من الصاد إلى الحاء أحسن من الخروج من اللام إلى الهمزة لبعدها دون طرف اللسان.

١٣- في النطق بالصاد والحاء والقاف حسن الصوت، ولا كذلك تكرار القاف والتاء.

١٤- سلامتها من لفظ القتل المشعر بالوحشة، بخلاف لفظ الحياة فإن الطباع أقبل له من لفظ القتل.

١٥- أن لفظ القصاص مشعر بالمساواة، فهو مبني عن العدل بخلاف مطلق القتل.

١٦- الآية مبنية على الإثبات، والمثل مبني على النفي، والإثبات أشرف لأنه أول والنفي ثان عنه.

١٧- أن المثل لا يكاد يفهم إلا بعد فهم أن القصاص هو الحياة، وقوله ولكم في القصاص حياة، مفهوم من أول وهلة.

١٨- أن في المثل بناء أفعال التفضيل من فعل متعد، والآية سالمة منه.

١٩- أن أفعال في الغالب تقتضي الاشتراك، فيكون ترك القصاص نافياً للقتل، ولكن القصاص أكثر نفيًا، وليس الأمر كذلك، والآية سالمة منه.

٢٠- أن الآية رادعة عن القتل والجرح معاً لشمول القصاص لهما، والحياة أيضاً في قصاص الأعضاء، لأن قطع العضو ينقص مصلحة الحياة، وقد يسري إلى النفس فيزيلها، ولا كذلك المثل.

٢١- في أول الآية (لكم) وفيها لطيفة، وهي بيان العناية بالمؤمنين على الخصوص وأنهم المراد حياتهم لاغيرهم، لتخصيصهم بالمعنى مع وجوده فيمن سواهم^(١).

٢ - ومن الفنون البلاغية: التتميم^(٢).

وهو على ثلاثة أقسام تتميم النقص، وتتميم الاحتياط، وتتميم المبالغة. وقد وردت الأقسام الثلاثة كلها في قوله تعالى: ﴿أَيُّوْذُ أَحَدُكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ، لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضِعْفًا فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ. كَذَلِكَ يَبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ البقرة/٢٦٦.

جاء أول هذه التتميمات في قوله تعالى في تفسير الجنة ﴿مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ فلو قال جنة لكان كافياً، ولكن عندئذ تحتل أن تكون جنة ذات أثل وخمط وشيء من سدر قليل، فإن لفظ الجنة يصدق على كل شجر مجتمع يستر بظل غصونه الأرض كائناً ماكان، ومن الشجر ماله نفع عظيم عميم كالنخيل والأعناب. فإذا كانت الجنة عظيمة الفائدة ثم احترقت كان أسف صاحبها أعظم ومصابه أفدح. ثم علم الله سبحانه وتعالى أن الجنة إن كانت من نخيل وأعنان مالم تجر الأنهار من تحتها لم يثمر شجرها ولم يتفع بسكنها ولم تكن لها حياة البتة، فتمم هذا النقص بقوله تعالى: ﴿تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾. ثم علم الله سبحانه وتعالى أن الجنة لو جمعت إلى النخيل والأعناب كل الثمرات كان وصفها أتم ونفعها أعظم، والأسف على فسادها أشد فقال تعالى: ﴿لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ﴾، متمماً لذلك تتميم مبالغة. ولما فرغ سبحانه وتعالى من أوصاف الجنة أخذ في وصف صاحبها: فوصفه بالكبر، لأنه لو كان شاباً لرجا أن يخلقها بعد إحراقها، لما يجد في نفسه من القوة وما يأمل من طول المدة فقال محتاطاً ﴿وَأَصَابَهُ

(١) انظر هذه المقارنة في «غرائب القرآن» للنيسابوري: ٩٠/٢، و«معتك الأقران» للسيوطي: ٣٠٠/١.

(٢) انظر المثال في كتاب «إعجاز القرآن» ص ١٤٩ وما بعدها نقلاً عن بديع القرآن لابن أبي الأصبح ص ٨.

الكِبَرِ». ثم علّم سبحانه وتعالى أنه إذا كان عقيماً مع الكبر سلّاه عنها قرب المدة وعدم من يهتم بضياعه بعده فلا يشتدّ أسفه عليها، فقال عزّ وجلّ محتاطاً أيضاً: ﴿وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ﴾. ثم علّم أنه إذا لم يصف الذرية بالضعف احتمل الإطلاق أن يكونوا أقوياء، فيترجى إخلافهم لها، فيخفف ذلك من أسفه فقال محتاطاً: (ضعفاء). ثم لما فرغ من وصف الجنة أخذ في وصف الحادث المهلك لها بقوله عزّ وجلّ: ﴿فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ﴾. وعلّم تبارك اسمه أن الإعصار لا يعجل فساد هذه الجنة، ولا يحصل هلاكها به إلا بعد استمراره عليها في مدة طويلة، وهو يريد الإخبار بتعجيل هلاكها فقال: ﴿فِيهِ نَارٌ﴾. ثم اقتصر سبحانه وتعالى من الرياح على الإعصار لكونه عبارة عن تقابل الرياح المثيرة للعجاج الكثيف الذي يعمي دوامه عيون الماء، ويطم الآبار والأنهار، ويحرق بسمومه وورجه الأشجار، وإذا اتفق مع ذلك أن تكون فيه نار أدارها على المكان الذي يكون فيه بحيث لا ينصرف عنه، لأنه لا يقصد وجهة مقابلة فينصرف ما يكون فيه إليها. ثم علّم الله سبحانه وتعالى أن النار يحتمل أن تكون ضعيفة فقطفاً لضعفها عن مقاومة مافي الجنة من الأنهار، ورطوبة الأشجار، فاحتاط لذلك بقوله: ﴿فَاحْتَرَقَتْ﴾ فنفي هذا الاحتمال، وأوجز تسميم المعنى المراد.

وهكذا نجد أن الآية الكريمة قد تضمنت من الدقائق واللطائف ما يبرز الغرض المقصود من سوق المثل وهو إبراز عظيم أسف صاحب الجنة وتحسره على مافاتة منها، في حالة كان بأمس الحاجة إلى نتائجها وخيراتها. وكذلك المراني بصدقه الذي ينفقها رثاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر، فإنه سيفقد هذا الثواب في وقت هو بأمس الحاجة إلى ما يثقل ميزان حسناته.

٣ - من الفنون البلاغية: التشبيه.

قال تعالى ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أُنْزِلَتْهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازِيدَتْ وَطَرَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَنَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَاراً فَجَعَلْنَاهَا حَصِيداً كَأَن لَّمْ تَغْنَّ بِالْأَمْسِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يونس/٢٤. فإن في الآية عشر جمل وقع التركيب من مجموعها بحيث لو سقط منها شيء اختل التشبيه، إذ المقصود تشبيه حال الدنيا في سرعة تقضيها، وانقراض نعيمها، واغترار الناس بها، بحال ماء نزل من السماء، وأنبت أنواع العشب وزين بزخرفها وجه الأرض كالعروس إذا أخذت الثياب الفاخرة، حتى إذا طمع أهلها فيها وظنوا أنها مسلمة من الجوائح أتاها بأسٌ الله فجاء، فكانها

لم تكن بالأمس^(١).

يقول صبحي الصالح تعليقاً على قول السيوطي:

وإنه ليعيننا أن نقف قليلاً عند تشبيه الحياة الدنيا، فلقد أصاب السيوطي في استخلاص وجه الشبه، وتقسيمه هذا التركيب القرآني إلى عشر جمل. أما موضع الجمال الحقيقي في هذا المشهد - مشهد الحياة القصيرة التي يوشك أن تزول - فلم يتبعه السيوطي في تنسيق الجمل العشر، والصور التي تطويعها كل جملة منها في أوقات يتفاوت عرضها الخيالي طولاً وقصرًا، لأن هذا التفاوت في العرض الخيالي تبعاً لمراحل المشهد المصور لم تكن جزءاً من التشبيه المركب، فما على السيوطي إلا أن يذكر المعنى العام للآية وقد وفق فيه وأجاد، وإن علينا نحن أن نشير إلى المراحل التي أبطل فيها التصوير وتمهل، أو التي اندفع فيها وأسرع، حتى تم لهذا المشهد القرآني من الإعجاز بالالفاظ الجامدة ما لا يتم من الإبداع بالريشة والألوان.

لقد استخدمت في هذا المشهد الوسائل المقصورة لعرض مراحل النبات، فالفاء التعقيية تطوي المسائل بسرعة عظيمة، ماكاد الماء ينزل من السماء حتى اختلط به نبات الأرض مباشرة، وأصبح فجأة في متناول الناس يأكلونه والأنعام تتمتع به، «إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام»^(٢). ولكن أهل هذه الأرض المتمتعين بنباتها البهيج يمتد بهم الغرور، ويكجئون في اللهو كأنهم يعيشون أبداً، وكأنهم يقدرّون على إخلاد الأرض وإخلاد أنفسهم فيها، غارقين في متعها متقلبين في نعمائها، مسحورين بزخرفها، فاستخدمت (حتى) الدالة على امتداد الصور امتداداً يعرف أوله ويجهل متناه.

وتتابعت أوصاف الغرور الإنساني تترى، لكل وصف منها تعبير متمهل متبطيء، فأما الأرض فشخصت مرتين، وقامت بحركتين، إذ أخذت بنفسها زخرفها كما تفعل العروس في جلوتها، وتطلبت الزينة تطلباً وسعت إليها سعياً فلم تزين ولكنها ازينت. وأما أهل الأرض فانتفخت أوداجهم زهواً واختيالاً وصغرّوا خدودهم عجباً وكبراً وأيقنوا

(١) «الإتقان» ٧٠/٢، و«مباحث في علوم القرآن» لصبحي الصالح ص ٣٢٢.

(٢) في الاقتران بين الناس والأنعام في الأكل دليل على إقبالهم على هذا الخليط من غير تروٍّ وشعور وإدراك للمواقب، وإنما الدافع لهم هو الشهوة الحيوانية. وهو شأن أهل الدنيا.

- وإن كان يقينهم ظناً وخيالاً - أنهم في الأرض على كل شيء قادرون، ولكن الظن لا يغني من الحق شيئاً. وهذه الآماد الطوال كلها ليست إلا ومضات خيالية تزول. كما تزول الأطياف. ففي لحظة من ليل أو نهار يأتي تلك الأرض أمر الله فيطوي تلك الأخيلة الكواذب في وقت كلمح البصر بل هو أقرب، ﴿إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون﴾ يس/ ٨٢. وانظر ما من زخرف وما من زينة، ثم انظر فالناس المغرورون أعجز من أن يتصوروا ولو بالخيال ربوعهم ومغانيمهم في تلك الأرض التي أصبح نباتها حصيداً هشياً تذروه الرياح ﴿حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلاً أو نهاراً فجعلناها حصيداً كأن لم تغن بالأمس، كذلك نفصل الآيات لقوم يفكرون﴾ (١).

(٢) الإعجاز القرآني العظيم القرآن بيانٌ ومعجزةٌ :

المعجزة : أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدي ، سالم عن المعارضة . . .
فخرق العادة يعني جريانه على غير مألّف الناس . . . والإقتران بالتحدي يقصرها على الرسل المبغنين عن الله ، إذ هو وحده الذي يملك قطع حجة الجاحدين ، والسلامة من المعارضة تعزل الشعوذة التي تبدو في ظاهرها خرقاً للعادة .

وقد اقتضت سنة الله في خلقه أن يؤيد رسله بالآيات التي هي المعجزات بالمعنى الاصطلاحي في مواجهة تحديات الجاحدين الذين ينكرون رسالات الله عناداً واستكباراً ، تحت سلطان الترف وتسفل الإدراك من جهة ، ومن جهة أخرى لإمداد المؤمنين على مدى الزمن بطاقات من قوة اليقين ، ونور البصيرة ، وثبات القلوب في مواجهة التحديات المادية الهائلة التي يهاجم بها المعاندون المؤمنين في ميدان الفكر وفي ميدان الحرب على السواء .

وذلك إذا استقصينا التاريخ الديني كله فما نجد الجاحدين إلا المترفين المستكبرين الذين لصقوا بالتراب ، وأعماهم الهوى عن الخضوع للحجة والبيان . ولا يستبعد أن يكون قد قر في قلوب هؤلاء الجاحدين المعاندين وميض من الاقتناع بصحة ماجاء به الرسل ، ولكنهم في سبيل الشهوات التي أحاطت بهم من كل جهاتهم ، وغلفت كل

(١) «مباحث في علوم القرآن» لصبيحي الصالح، ص ٣٢٤.

(٢) عظمة القرآن : عبد القادر عطا - ط دار الكتب العلمية بيروت / ص ٥١-٦٢ / .

مشاعرهم فأحاطت بإنسانيتهم ، جهروا بالنكران ، واصطنعوا له الحجة الساقطة ، تماماً كما هو حادث الآن في أوساط العلمانية اليهودية التي تهدد العالم بالدمار في سبيل إقامة المادية الإلحادية .

﴿وما أرسلنا في قريةٍ من نذيرٍ إلا قالَ مترفوهاً إِنَّا بما أُرسلتمُ بِهِ كافرون﴾^(١) .

والملا الذين استكبروا والذين أترفوا ، هم أئمة العناد ، ودعاة الجحود والكفر في كل ملة إلهية كما بين ذلك القرآن الكريم .

لم يكن البيان والوضوح في تبليغ الدعوة إذن كافياً لقطع الحجة الكافرة ، وإقناع أنواع المدعويين إلى الشرائع على اختلاف أفهامهم ومداركهم وميولهم وشواكلهم ، بل أن البيان الواضح كاف لإقناع من رق حجاب الشهوة عن قلبه وبصيرته ، واستعلى عقله على هدى نفسه دون سواه من غلاظ القلوب والرقاب .

... أما هؤلاء الغلاظ فلم يستجيبوا للبيان ، ولم يتخاذلوا أمام الوعيد بالهلاك في الدنيا ولا في الآخرة ، ولم تلن قلوبهم أمام دلائل الصدق الواضحة في شخصيات رسل الله ، فراحوا يطالبون رسلهم بآيات ودلائل تدل على أنهم صادقون في البلاغ عن إله غير منظور ولا مدرك بالحواس ، ولن تكون المطالبة بتلك الدلائل إلا نوعاً من التحدي الموجه للرسل أن يثبتوا للكفرة أن هناك شيئاً وراء الحواس ، أو قانوناً علمياً يعمل في الكون غير القوانين التي ألفوها من خلال السبب والنتيجة في عالم المحسوس المادي الذي يمارسونه في حياتهم .

وكانت ناقة صالح ، وعصا موسى وبقية آياته التسع ، وإحياء الموتى على يد عيسى عليهم السلام آيات مؤيدات لبيان اللسان وحجة العقل ، وتحدياً لأهل العناد بأن قوة عظمى تحكم الكون غير قوة المادة ، وبأن قانون السبب والنتيجة ظهور للإنسان في عالمه المادي الذي أمر أن يمارسه على هدى من الإيمان المطلق ، حتى يستقيم العمران ، وتحقق خلافة الإنسان لربه الأعلى .

ولما لم تجد تلك الآيات والدلائل الواضحة على سلطان الله تعالى وملكه المطلق للكون في هداية هؤلاء المعاندين كانت مرحلة أخرى من مراحل الدعوة هي الوعيد بالخراب والدمار وتدمير الحضارة القائمة حينما أضربوا صفحاً عن الوعيد بالهلاك في

(١) بسورة : سبأ / آية ٣٤ .

الآخرة . وقد حدث ذلك بالفعل في تاريخ الديانات ، فكانت وسائل العمران هي بعينها وسائل الدمار والخراب . . فالماء الذي جعله الله سبباً للحياة والنماء كان طوفاناً أغرق قوم نوح ، والرياح اللوائح المنظمة لوسيلة الرخاء من السحاب والمطر كانت عقيماً ، ماتذر من شيء أتت عليه في قوم هود (عاد) إلا جعلته رميماً ، وتركهم ﴿صَرَخَى كَانْتَهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ﴾ . وكان ميزان الجاذبية ، والوزن الحق لانسياب الكهربية اللذان قدرهما الله تقديراً يحفظ على الناس منافعهم ، هما سبب الدمار ممثلاً في الصيحة ، والرجفة ، والخسف إلى غير ذلك مما لا تنكره وقائع التاريخ ، وما هو مسطور في الكتاب المبين .

ولم يسفر ضياء الرسالة المحمدية الخاتمة إلا والتراث الديني مسطور في الكتاب الكريم بأفصح بيان وأوضحه ، بحيث لا يعجز عن إدراكه أقل الناس فهماً ووعياً ، داعياً إلى أن : الكون غيب وشهادة ، الله حاكم على الغيب والشهادة ، قادر على تدمير كل مشهود ومحسوس كما هو قادر على بركته ونمائه وازدهاره إذا كان هناك قبح من النور في قلوب الناس يرقى بهم على هدى التدبر والتأمل إلى الإيمان بكل مغيب عن المدارك من حقائق الوجود ، وبالله حاكماً رحيماً بالمؤمنين ، قاهراً للجاحدين . . . وكانت كلمة قد سبقت من الله تعالى بالألا يكون خسف ولا رجف ولا مسخ ، حتى تتحقق عالمية الرسالة على مدى الزمان على نور هذا البيان القرآني الذي لم يفتر عن لفت الأنظار الى التواريخ السابقة ، وإلى الأمم ذات القوى الهائلة ، وكيف انتهى بها العناد إلى الدمار والهلاك هنا في الدنيا قبل الآخرة .

لا إله إلا الله ، هذه الكلمة هي خلاصة رسالات الله ، محمد وجميع الرسل عباد الله . هذا هو الحجم الأصيل للمبلغين عن الله في كل ملة ، فلا كهنوت ، ولا احتكار للدين باسم الوساطة ، ولا سحر ولا شعوذة في الدين وهي الأصول التي تدور حولها حقائق القرآن ، لتثبتها في القلوب ، ولإمدادها بطاقة من القوة واليقين عن طريق التشريع بالأمر والنهي .

فماذا كان موقف العرب وهم أئمة الفصاحة والبلاغة من هذه الحقائق الواضحة باللسان البليغ المبين؟

كان هذا البيان هدى لمن رَقَّتْ حُجُبُ الغفلة عن قلوبهم فآمنوا ، وكفر الكثيرون وعاندوا ، وهم أرباب القلوب الغليظة المُعْتَمَةِ ، وبدأت سلسلة من التحديات ، وطلبوا آية ربانية ، أي معجزة بالمعنى الاصطلاحي تدل على صدق الرسول في دعواه . . . وأعلن الله تعالى أن آية محمد ﷺ ومعجزته لأهل العناد ماهي إلا الكتاب

المبين حيث يقول : ﴿وقالوا لولا أنزلَ عليه آياتٌ من ربِّه قل إنما الآياتُ عند الله وإنما أنا نذيرٌ مبينٌ . أو لم يكفهمُ أنا أنزلنا عليك الكتابَ يتلى عليهم﴾ ^(١) . أي : أنه قائم مقام المعجزات المادية التي أيد الله بها رسله السابقين . وكان هذا البيان القرآني حينما طلبوا تلك الآيات صراحة كما في هذه الآية وحين قالوا : ﴿فليأتنا بآية كما أرسلَ الأولون﴾ ^(٢) .

القرآن إذن آية الله لرسوله ﷺ بالمعنى اللغوي والاصطلاحي لكلمة (آية) فهو البيان الواضح الجلي يدرکه كل المخاطبين ، وهو في الوقت نفسه معجزة بيانية عظمى يمنح المهتدين مزيداً من النور ، ويتحدى المعاندين أن يعارضوه بمثله ، كما تحدى موسى سحر قومه بعصاه ، وعيسى طب عصره بإحياء الموتى ، وآمن الكثيرون حينما تأملوا وتدبروا وعابثوا المعجزة بالقلوب . . . فالإعجاز على أي حال هو وسيلة إيمان . ووسيلة ضلال ﴿يضل به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضل به إلا الفاسقين﴾ ^(٣) .

من هنا كان وجه من وجوه عظمة القرآن ، هو : أن يجمع بين البيان والإعجاز ، فلا تكون الآية الدالة على صدق الرسول منفصلة عن البيان كما كان ذلك في رسالة موسى وعيسى ، إذ كانت آيات موسى التسع ، وإحياء المسيح للموتى شيئاً منفصلاً تماماً عن صلب التوراة والإنجيل . أما القرآن فلما كان مصداقاً للتوراة والإنجيل ومهيماً عليهما ، وجامعاً لحقائقهما ، فقد اجتمع في صلبه البلاغ المبين ، والإعجاز القائم مدى الدهر ، وماذا لك إلا لأنه كتاب لم ينزل لهداية العرب خاصة ، وإنما نزل لهداية البشرية كلها في عصر الرسول وبعد عصره وإلى أن تقوم الساعة ، فلو انفصلت آية صدق الرسول عن نفس القرآن كما حدث في الرسائل السابقة ، فمن الذي كان يأتي الناس بهذه الآية التي هي المعجزة بمعناها الاصطلاحي الآن؟؟

يعني : أنه إذا ارتاب قوم في صدق النبي ﷺ في عصرنا الحاضر ، فمن أين تأتي بالرسول ليطلبوه بمعجزة مادية تدل على صدقه ؟ ولهذا كان القرآن نفسه بياناً ومعجزة في آن واحد ، ولم تكن مادة إعجازه شيئاً واحداً بحيث لا تلائم إلا عصراً واحداً أو

(١) سورة : العنكبوت / آية ٥٠-٥١ // .

(٢) سورة : الأنبياء / آية ٥ // .

(٣) سورة : البقرة / آية ٢٦ // .

أو مجموعة من الأجيال بعينها ، بل كانت مواد إعجازه كامنة في أطوائه ، وكلما تقدم المنكرون الجاحدون في العلم المادي انكشف من وجوه إعجازه وجه يجمع ضلالات الكفر ، ويهدي إليه الآلاف المؤلفة من كل عصر ، وهو مانشده الآن وقبل الآن ، وماستشهده الأجيال بعد الآن بإذن الله .

وقد أشار الرسول ﷺ إلى هذا المعنى في حديث أخرجه البخاري عنه قال : «ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ماثلُهُ آمنٌ عليه البشرُ ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاهُ اللهُ إليّ ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً» .

قالوا في معناه : إن معجزات الأنبياء انقضت بانقراض أعصارهم ، فلم يشاهدوا إلا من حضرها ، ومعجزة القرآن باقية إلى يوم القيامة ، وخرقه للعادة في أسلوبه وبلاغته وأخباره بالمغيبات ثابت ، فلا يمر عصر من الأعصار إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر أنه سيكون ، ليدل على صحة دعواه ، والمعجزات كانت حسية تشاهد بالابصار ، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة ، فيكون من يتبعه فيها أكثر ، فما يشاهد بعين الرأس ينقض بانقراض مشاهديه ، وما يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمراً .

ومن هنا كان استبطان القرآن للبيان والإعجاز معاً في وقت واحد دليلاً على صدقه وعالمية رسالته ، وذلك لأن الجاحد العريق في الجحود لا يمكن أن يؤمن إلا إذا صدمته خارقة تهدم مذهبه المادي المتأصل في أعماقه ، وتهده في الوقت نفسه بخارقة مثلها تأتي على ما بناه من أمجاد مادية في لمح البصر ، وتلك هي سنة الله الماضية التي سجلها القرآن من تواريخ الرسل ، ولفت إليها أنظار الناس في كل زمان فقال تعالى : ﴿أفلم يسيروا في الأرض فينظروا﴾ ^(١) .

ولقد كان القرآن وما يزال وافياً بحاجات البشر في الإقناع والتحدي كلما فرح جيل بما عنده من العلم ، وما زال العلم يكشف من أسرارهِ كل يوم عن جديد ، يكشف عن أخطاء العلم في أحدث نظرياته ، فإنكار إعجازه - على هذا - يعتبر تأمراً على دعوة الإسلام ، وعملاً لثيماً على إنحسار امتدادها ، وتجريداً له من سلاحه الهادف الذي زوده الله تعالى به لاسيما بعد وفاة الرسول ﷺ ، بل وإنكاراً لما هو واقع ملموس يشهد له العدو والصديق معاً ، بل إن إسلام العلماء في العصر الحديث ما كان إلا على ضوء لون من هذا التحدي في مختلف فروع المعرفة .

(١) سورة : يوسف/ آية ١٠٩ .

هل كان يمكن أن يؤمن العرب دون أن يذعنوا لإعجاز القرآن إلى جانب إذعانهم لموضوع البيان؟

أقول : إن أئمة الكفر أنفسهم شعروا بسلطانه على القلوب - وهو القدر المتاح لهم لإدراك إعجازه البياني - فقالوا لأتباعهم : ﴿لَتَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ﴾^(١) . وذلك خوفاً من سريان الروح التي شعر بها الوليد بن المغيرة حين قال : «إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمثمر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولايعلو عليه ، وأنه ليحطم ماتحته» . وهو نفس الإعجاز الذي أدرك منه عمر بن الخطاب رضي الله عنه وجهاً يناسبه حينما سمع القرآن في بيت أخته فتهاوى صرح الشرك من قلبه ، وشمخ صرح الإيمان في كيانه ، إلى آخر ما هو معلوم لنا في تاريخ دعوة الإسلام .

لقد صحح القرآن كثيراً من النظريات العلمية التي كانت سائدة في عصر التنزيل ، وسجل في مكان تلك النظريات حقائق ثابتة لاتقبل التبديل ولا التغيير ، فكان ذلك إلى جانب استعمال القرآن للحقائق الكونية في الدعوة إلى الخالق الحكيم المبدع تحدياً للعقل البشري بإحقاق الحق مكان الباطل على يد رسول أمي ماكان يتلو كتاباً ولايخطه بيمينه .

وصدق الله تعالى الذي تحدى العالم كله في كل العصور في معرض الدلالة على وحدانيته وتفرده بالسلطان ، وذلك حينما قرر قيام دولة الإسلام على الأرض عجزت كل القوى العالمية عن أن تقضي على مجدها فقال : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾^(٢) . وقال : ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يَنْفَتِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدَّوْا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيَتْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلِبُونَ﴾^(٣) . ومؤامرات العالم على الإسلام وصموده شامخاً أمام المؤامرات ، بل وإتساع سلطانه على القلوب أعظم دليل على اتساع مدى الإعجاز القرآني إلى جانب إقناع البيان ، وتجاوز هذا الإعجاز نطاق البلاغة والفصاحة ، وتصحيح النظريات العلمية ، والتنبؤ بالمستقبل ، إلى نطاق السياسة والاجتماع والعلوم التجريبية كلها .

(١) سورة : فصلت/ آية ٢٦ / .

(٢) سورة : النور / آية ٥٥ / .

(٣) سورة : الأنفال / آية ٣٦ / .

ولو لم يكن القرآن معجزاً لأهل عصره لكان قصاره : أن يكون أسلوباً ممتازاً يلقي فصحاء العرب إلى من جاء به بزمام التفوق والسلطان ، شأنه في ذلك شأن المعلقات السبع وأمثالها ، أما والرسول العظيم يأبى أن تكون الشمس في يمينه والقمر في يساره إلا أن يظهر دين الله ، فالأمر إذن فوق جودة الأسلوب ، وفوق كل الإعتبارات ، ذلك هو : إذعان العرب عاجزين ، أو انقيادهم مختارين إلى تلك العظمة القرآنية التي تفوق مقاييس العظمة الأسلوبية المتعارفة آنذاك .

لقد اشتبه الأمر على العرب ، فلم تكن في الرسائل السابقة معجزات باطنة في الكتب التي أنزلت على الرسل ، أي : لم تكن هناك معجزات من جنس الكلام ، بل كانت معجزات مادية منفصلة تماماً عن الكتب السماوية ، وهذا الواقع هو الذي دفع العرب إلى أن يقولوا : « ماسمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق »^(١) وإلى أن يطلبوا منه أن يجعل لهم الصفا ذهباً ، وإلى أن يقولوا عن القرآن : (هذا إفك قديم) حينما لم يهتدوا بعيداً عن معجزات المادة .

وليس في تحدي الله لعباده إنتقاصاً من هيبة الله تعالى ، بل أن الإنسان الذي أحل نفسه مكان الله في الأرض كان ومايزال بعيداً عن الإذعان إلا على وجه التحدي البياني ، ثم التحدي بالقوارع المدمرة ، على أن آيات القرآن مليئة بتحدي المُخَاطَبِينَ . ألم يقل الله تعالى لليهود : « فتمتوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتموه أبداً »^(٢) ألم يقل لهم : « قل فاتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين »^(٣) . « قل صدق الله »^(٤) ؟ وقال : « هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين »^(٥) . أليس هذا هو التحدي بعينه؟ أليس هذا التحدي إبرازاً لعظمة الله ، وتقريراً لسلطانه وجبروته فوق كل جبروت؟؟ .

بداية القول بعدم الإعجاز :

ولكنها فرية قديمة ، ونحلة متهالكة كانت في الماضي ، وقد بدأت تطل برأسها على أيدي المدبرين على دس الإلحاد في ثنايا الإيمان في الحاضر من المستشرقين

(١) سورة : ص / آية ٧ .

(٢) سورة : البقرة ، آية ٩٤-٩٥ .

(٣) سورة : آل عمران / آية : ٩٣ .

(٤) سورة : آل عمران / آية : ٩٥ .

(٥) سورة : النمل ، آية / ٦٤ .

وأذنبهم أدعياء الإسلام .

تلك الفرية هي القول بعدم إعجاز القرآن ، أو بأن مقاصده لاتشمل التحدي . وأول من قال بعدم إعجاز القرآن (إبراهيم بن إسحاق النظام) المعتزلي الذي هلك في القرن الثالث الهجري ، قال عنه أبو المنصور البغدادي في كتابه (الفرق بين الفرق ص ٧٩ ، ٨٠) : «عاشر في شبابه قوماً من الثنوية والسمنية ، وخالط بعد كبره قوماً من ملحدة الفلاسفة ، ثم دون مذاهب الثنوية ، وبدع الفلاسفة ، وشبه الملاحدة في دين الإسلام ، وأعجب بقول البراهمة بإبطال النبوات ، ولم يجسر على إظهار هذا القول خوفاً من السيف ، فأنكر إعجاز القرآن في نظمه ، وأنكر معجزات نبينا ﷺ ، ليتوصل إنكار معجزات نبينا إلى إنكار نبوته» .

أرأيت يا أخي إلى أين يسير بنا القائلون بعدم إعجاز القرآن في عصرنا الحاضر؟

أرأيت من هم شيوخهم في هذه النحلة الكافرة الخبيثة؟

أرأيت كيف يكون غش المحدثين باسم الفكر العصري وهم يرددون نحلاً بال عليها الزمان؟ .

ولم يكف إبراهيم النظام القائل بعدم إعجاز القرآن توصلاً إلى إبطال نبوة الرسول ﷺ بما نقله إلينا من ضلالات الثنوية والبراهمة وغيرهم ، بل إنه احتاط لأمره احتياطاً شيطانياً ، وذلك أنه كما يقول البغدادي : «استقل أحكاماً ، ولم يجسر على إظهار رفضها ، فأنكر حجة الإجماع - وحجة القياس في الفروع الشرعية ، ولما علم إجماع الصحابة على الاجتهاد في الفروع الشرعية ذكرهم بما يقرؤه غدا في صحيفة مخازيه ، وطمن في فتاوى أعلام الصحابة ، وجميع فرق الأمة» . ثم ساق البغدادي من فضائحه وكفرياتة الشنيعة إحدى وعشرين فضيحة من أرادها فلينظرها في (الفرق بين الفرق ص ٨٠-٩١) .

ومن العجيب أننا نجد امتداداً لتلك النحلة في عصرنا الحديث : دعوات هزيلة إلى إعادة النظر في اجتهادات السابقين من الأعلام ، ودعوة إلى إحلال الرأي مكانها بينما القاعدة تقول : لايجوز خرق الإجماع إلا بإجماع مثله . إن صحت هذه القاعدة ، فأين أهل الإجماع في عصرنا حتى يخرقوا بإجماعهم إجماع الصحابة والتابعين؟! .

ويكفي أن يعلم القارئ : أن إبراهيم النظام هذا وهو معتزلي المذهب قضى المعتزلة بكفره ، ومنهم خاله أبو الهذيل العلاف ، والجبائي ، والإسكافي ، وكثير

غيرهم . وكفره أهل السنة وألفوا في تكفيره كتباً ومنهم . الأشعري والقلانسي ،
والباقلائي وغيرهم كثيرون .

ولقد عاد هذا الخيث (النظام) فصادم إجماع المسلمين على إعجاز القرآن
بقوله : إن هذا الإعجاز كان بالصرقة ، أي أن الله صرف العرب عن معارضته ، وسلب
عقولهم وقدراتهم على ذلك ، وكانت معارضة القرآن مقدورة لهم ، لكن عاقهم عنها
أمر خارجي ، فصار القرآن معجزة لذلك .

وأقول : إن هذا القول معناه : الإرتداد إلى الفكر اليهودي السائد في سفر
التكوين ، والذي يصف الله - سبحانه - بالتردد والغيب من عبيده ، إذ أنه كما يتصورون
قد ندم على خلق آدم لما وجد أنه سوف يسبب له المتاعب ، واغتاط حينما سادت
الأخوة الإنسانية ، فلبّل ألسنة الناس ليحل العداء محل الحب بسبب عدم فهم بعضهم
لغة البعض . ويتصل قول النظام هذا بالفكر اليهودي في صورة أوضح حينما نقارنه بما
جاء في سفر التكوين من أن صراعاً مريراً كان يدور بين الله وخلقه ، حتى لقد تغلب
يعقوب عليه السلام عليه فخلع حق فخذه .

وخلاصة الفكر اليهودي : أن الله كما تصوره : قابل للهزيمة ، بارع في التآمر
ضد عباده ، متردد في أفكاره ، يقرر الشيء ثم يرجع عنه ، ويعالج هذا التردد بالكيد
لعباده ، وهو نفس القول الذي رده المختار الثقفي باسم (نظرية البداء) إذ كان الله
يعده بالنصر ، ثم يبدو له أن يغير موقفه فيصيبه بالهزيمة .

أليس القول بأن العرب كان في مقدورهم معارضة القرآن ولكن الله صرفهم عن
ذلك ، وثيق النسب بهذا الفكر اليهودي المشبوه؟؟ وأليس التحدي ثم الصرف على
هذه الصورة التي رسمها إبراهيم النظام عبارة عن ضرب من ضروب الخداع والهروب
من الحقيقة جل الله تعالى عن مثله؟؟ أليس هذا القول يساوي نسبة خطأ التقدير إلى
الله ، ثم التخلص من هذا الخطأ بلعبة تشبه ألعاب السياسة المعاصرة؟؟ وإلا فكيف
يتحدى الله العرب صراحة أن يأتوا بمثل القرآن ، أو بآية واحدة من مثله ، وهم
مصرفون بطيعتهم ، أو يصرفهم سبحانه - عن الاستجابة للتحدي بوسيلة مامن وسائل
الصرف؟ وهل يكون هذا العمل إلا عبثاً تجل عنه حكمة التدبر الماثلة أمام العالم ،
والمعجزة له ، والهادية إلى مزيد من الإيمان في الوقت نفسه؟؟ .

يقول الإمام السيوطي رداً على هذا القول الذي قال به النظام ومن جرى
مجراه : «إن هذا القول فاسد بدليل قوله تعالى : ﴿قُلْ لئن اجتمعت الإنسُ

والجن»^(١) الآية . فإنه يدل على عجزهم مع بقاء قدرتهم ، ولو سلبوا القدرة لم يبق لهم فائدة لإجتمعهم ، لمنزلته منزلة إجتماع الموتى ، وليس عجز الموتى مما يحتفل له . هذا مع أن الإجماع قد انعقد على إضافة الإعجاز إلى القرآن . ويلزم من القول بالصرقة زوال الإعجاز بزوال زمان التحدي ، وخلو القرآن من الإعجاز ، وفي ذلك خرق لإجماع الأمة على إستمرار معجزة القرآن للرسول بعد عصره .

وقال القاضي أبو بكر الباقلاني : «ومما يبطل القول بالصرقة : أنه لو كانت المعارضة ممكنة ، وإنما منع منها الصرقة ، لم يكن الكلام معجزاً ، وإنما يكون بالمنع معجزاً ، فلا يتضمن الكلام فضيلة على غيره في نفسه ، وليس هذا بأعجب من قول بعضهم : أن الكل قادرون على الإتيان بمثله ، وإنما تأخروا عنه لعدم العلم بوجود ترتيب لو تعلموه لوصلوا إليه به ، ولأبأعجب من قول آخرين : أن العجز وقع منهم ، وأما من بعدهم ففي قدرته الإتيان بمثله» .

أما الجاحظ فقد فضح أستاذه إبراهيم النظام فقال : «بعث الله محمداً ﷺ أكثر ماكانت العرب شاعراً وخطيباً ، وأحكم ماكانت لغةً ، وأشد ماكانت عذّةً . . . وهو في ذلك يحتج عليهم بالقرآن ، ويدعوهم صباحاً ومساءً إلى أن يعارضوه إن كان كاذباً بسورة واحدة ، أو بآيات يسيرة ، فكلما إزداد تحدياً لهم بها ، وتقريعاً لعجزهم عنها ، تكشف من نقصهم ماكان مستوراً ، وظهر منه ماكان خفياً ، فحين لم يجدوا حيلة ولا حجة قالوا : أنت تعرف من أخبار الأمم مالا نعرف . قال : فهاتوها مفتريات . فلم يرم ذلك خطيب ، ولا طمع فيه شاعر . . .

فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم ، وكثرة شعرائهم ، وكثرة هجاء منهم ، وعارض شعراء أصحابه ، وخطباء أمته ، لأن سورة واحدة ، أو آيات يسيرة ، كانت أنقض لقوله ، وأفسد لأمره ، وأبلغ في تكذيبه ، وأسرع في تفريق أتباعه من بذل النفوس ، والخروج من الأوطان ، وإنفاق الأموال ، وهذا من جليل التدبر الذي لا يخفى على من هو دون قريش والعرب في الرأي والعقل بطبقات . . .

ومع احتفاظنا بأن القرآن كلام الله غير مخلوق نقول : إن كان صرف الله عباده عن معارضته أمراً مقررأ في الإسلام ، فلماذا لم يصرف الله العلماء عن معارضة خلقه في العصر الحاضر؟ ألا ترى أن العلماء في معاملهم راحوا يتحدثون عن الإنسان الآلي ،

وعن بناء الأجنة في غير أرحام الأمهات ، وعن الأمطار الصناعية ، ولم يصب الله تعالى عالماً من هؤلاء بالجنون ، ولا بالمغص الكلوي كلما توجه إلى معمله ليصنع خلقاً كخلق الله ، بل كانت لهم حرية العمل ، وحرية الاعتراف بالعجز ، وكان من هذا العجز هدى للكثيرين من العلماء في تلك الدول ، إما إلى الإسلام مباشرة ، أو إلى الإقرار بوجود الله المبدع الذي يعجز العالم كله أمام حكمته وإبداعه .

فمحاولة التشكيك في إعجاز القرآن بحجة القول بالصرقة ، أو بحجة أنه آية للبيان وليست للإعجاز ، تخط دعا إليه الحقد على الإسلام وعلى القرآن ، أو التعصب العنصري للجنس العربي تعصباً مصادماً لعالمية القرآن وعدم اختصاصه بجنس دون جنس . . . ولقد فند الإمام المحقق الشيخ محمد زاهد الكوثري رحمه الله هذا الزعم في كتابه (العقيدة النظامية) ، ولكن ضلالات المستشرقين ، من أمثال جولدزهر ، ورودل ، ومرجليوث ، وجب ، وضلالات أذنانهم وعلى رأسهم طه حسين في كتابه عن (الشعر الجاهلي) من أنصار المذهب الديكارتى مازالت تحتاج إلى جهود مضادة تنير قلوب الشباب المسلم بالحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه .

وجاء في مؤخرة هؤلاء من أنصاف الملاحدة من يُحيي شبهات المستشرقين وقذائع المبشرين حول القرآن العظيم وإعجازه تحت اسم «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» للمدعو [الدكتور المهندس: محمد شحرور] فيزعم فيه ص ١١٩ في تسائله: «هل يمكن أن يُجعل القرآن أعجماً؟ الجواب: نعم...» ثم يُبرهن على إجابته من مبررات الجهل والضلالة على إثبات دعواه الخبيثة . ويتمادى في إلحاده فيزعم في ص ١٨٨ - ١٩٠ أن بالإمكان أن يأتي بأقل من عشر سور مفتريات ، ويضع لذلك شروطاً فإن تحققت تأتى قرآناً مفترى ، ثم يقول ص ١٩٠: «... لذا فإن مقومات الآية القرآنية المراد تقليدها هي: ١ - إثبات الصيغة اللغوية. ٢ - أن يكون الموضوع حركة المحتوى بشكل يتناسب مع مقولات القارئ العالم... ٣ - أن يكون الموضوع غير تشريعي. حيث أن القرآن لا يحتوي على مواضع تشريعية. هذا فيما يتعلق بالسور العشر المفتريات» هكذا يزعم ويدعي لإزالة القدسية عن القرآن العظيم. ثم يزعم في ص ١٩١ فيقول: «أنه من الخطأ القول، كما قال بعضهم: إنه تحدى العرب بالقرآن، فعندما عجزوا تحداهم بعشر سور، وعندما عجزوا تحداهم بسورة...» إلى غير ذلك من أضاليل وأباطيله..

البحث الثاني :

وجوه إعجاز القرآن العظيم (١)

إن حكمة الله تعالى اقتضت أن تكون معجزة الرسالة الخاتمة ، أو الآية الدالة على صدق الرسول في التبليغ عن ربه هي القرآن الذي جمع بين البيان الواضح ، والإعجاز القاطع لحجة العناد والجحود ، وذلك لتهيأ استمرار التبليغ بعد الرسول ﷺ ، واستمرار وسائل الإقناع على مر الزمن .

وهكذا لم يكن دليل إعجاز القرآن قاصراً على الإعجاز البياني كما كان في عصر النزول ، بل كان جامعاً لعدد هائل من دلائل الإعجاز بحيث يواجه كل العصور ، وجميع نواحي النشاط الإنساني في تفوق معجز ، يجذب إلى دعوته المزيد من الأجيال .

جهود العلماء الأقدمين :

بذل الأقدمون جهوداً مشكورة في محاولة الكشف عن وجوه إعجاز القرآن ، وألفوا في ذلك كتباً ، ومنهم : أبو سليمان الخطابي ، وعلي بن عيسى الرمانى ، وفخر الدين الرازي ، وابن سراقه ، وأبو بكر الباقلاني ، والكمال بن الهمام ، وابن الزملاكاني ، والسيوطي ، وعبد القادر الجرجاني ، وغيرهم . . . وقد تكلم الكثيرون عن هذا الموضوع في التفاسير والكتب ذات الموضوعات الأخرى ، ومنهم : ابن عطية ، والمراكشي ، والأصبهاني ، والسكاكي ، والسهيلي ، والقاضي عياض ، والزركشي وغيرهم .

أما في العصر الحديث فقد كتب الاستاذ مصطفى صادق الرافعي كتاباً في إعجاز القرآن ، وتحدث كثيرون عن الإعجاز في كتب ليست في موضوعه ، منهم الشيخ الكوثري ، والاستاذ العقاد ، والاستاذ الغمراوي ، رحمهم الله تعالى جميعاً .

والذي يسترعي الانتباه أن العلماء على ما لهم من الاقتدار وسعة المعرفة وقفوا هم الآخرون مبهورين أمام إعجاز القرآن ، فراحوا يرددون وجوهاً عامة وغير محدودة أحياناً ، كقولهم : إن الإعجاز في جودة الرصف ، وحسن النظم ، ومما أشبه ذلك من

(١) عظمة القرآن : عبد القادر عطا - ط دار الكتب العلمية - بيروت / ص ٨٣-١٠١ / .

الصفات التي لا تكشف عن وجه الإعجاز في جودة الرصف ، ولا حسن النظم . وأحياناً أخرى ذكروا وجوهاً قالوا : أنه لا يمكن وصفها ، كما قال السكاكي في (مفتاح العلوم) : «إعجاز القرآن يدرك ولا يمكن وصفه ، كاستقامة الوزن تدرك ولا يمكن وصفها ، وكالملاحة ، وكما يدرك طيب النغم العارض لهذا الصوت ، ولا يدرك تحصيله لغير ذوي الفطرة السليمة إلا بإتقان علمي المعاني والبيان والتمرين فيهما» .

فإذا كانت تلك المحاولات تنطق بالعجز عن إدراك وجوه الإعجاز ، فقد صرح بعض العلماء بهذا العجز . قال أبو حيان التوحيدي في (المقاييسات) : «سئل بندار الفارس عن موضع الإعجاز في القرآن فقال : هذه مسألة فيها حيف على المعنى ، وذلك أنه شبيه بقولك : ماموضع الإنسان من الإنسان . . . فالقرآن لشرفه لا يشار إلى شيء فيه إلا وكان المعنى آية في نفسه ، ومعجزة لمحاوله ، وهدى لقائله وليس في طاقة البشر الإحاطة بأغراض الله في كلامه ، وأسراره في كتابه ، فلذلك حارت العقول وتاهت البصائر» .

وقد قرر أبو سليمان الخطابي عجز جمهور العلماء عن إبراز تفاصيل وجوه الإعجاز فقال في كتابه (بيان إعجاز القرآن) : «ذهب الأكثرون من علماء النظر إلى أن وجه الإعجاز من جهة البلاغة ، لكن صعب عليهم تفصيلها ، وصغوا فيه إلى حكم الذوق» .

ومع ذلك فقد كان الإعجاز البلاغي للقرآن سبباً في زلل الرأي عند المفسر الكبير ابن عطية شيخ القرطبي إذ قال بعد كلام طويل في مقدمة تفسيره : «ونحن تبيين لنا البراعة في أكثره ، ويخفى علينا وجهها في مواضع ، لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق ، وجودة القريحة ، وقامت الحجة على العالم بالعرب ، إذ كانوا أرباب الفصاحة ، وفطنة المعارضة» . فقلوه : أن الحجة قامت على العالم بالعرب لا يمكن تسليمه على الإطلاق هكذا . إذ لا يمكن أن تكون البلاغة القرآنية الخارقة لبلاغة العرب هي سبب هداية الترك والفرس قديماً ، والأوروبيين حديثاً ، بل يمكن أن يكون عجز العرب عن المعارضة عاملاً مساعداً ، وعنصراً واحداً من عناصر الدعوة عن طريق التفوق القرآني في جميع الميادين .

وهناك محاولات تفصيلية بعيدة عن العموميات تدور حول النظر التحليلي في أسلوب القرآن للتعرف على وجوه إعجازه من وجهة النظر العربية يمكن الإشارة إليها على سبيل المثال لا الحصر .

أولاً : الموازنة الدقيقة بين اللفظ والمعنى :

في هذا يقول ابن عطية : «إذ ترتيب اللفظة من القرآن علم الله بإحاطته أي لفظة تصلح أن تلي الأولى ، وتبين المعنى بعد المعنى ، ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره والبشر يعمهم الجهل والنسيان والذهول . . . وكتاب الله تعالى لو نزلت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم يوجد» .

وقد أكمل ابن سراقه هذا المعنى فقال : «إن من اقتصر على معانيه وغير حروفه أذهب رونقه ، ومن اقتصر على حروفه وغير معانيه أبطل فائدته ، فكان ذلك أبلغ في الدلالة على إعجازه» .

ولقد أدخل الفخر الرازي في هذا الباب علم مناسبات الآيات والسور ، وارتباط بعضها ببعض حتى تصير شيئاً واحداً ، وبناء متيناً لاخلل بين أجزائه ، حتى لقد قال : «إن الإعجاز يكاد ينحصر في هذا المعنى الذي لا يوجد أبداً في كلام البشر» .

ثانياً : تفرد القرآن بطريقة بيانية غير طرق العرب :

وفي هذا المعنى يقول الأصهباني في تفسيره : «بيان كون النظم معجزاً يتوقف على بيان نظم الكلام ، ثم بيان أن هذا النظم مخالف لنظم ماعده ، فمراتب تأليف الكلام خمس : الأولى : ضم الحروف المبسوطة بعضها إلى بعض لتحصل على الكلمات الثلاث : الاسم ، والفعل ، والحرف . والثانية : تأليف هذه الكلمات بعضها إلى بعض لتحصل على الجمل المفيدة ، ويقال له : متشور الكلام . والثالثة : ضم بعض ذلك إلى بعض ضمّاً له مباد ومقاطع ، ومداخل ومخارج ، ويقال له ، المنظوم . والرابعة : أن يعتبر في أواخر الكلام مع ذلك تسجيح ، ويقال له : المسجع . والخامسة : أن تجعل له مع ذلك وزن ، ويقال له : الشعر . والمنظوم أما محاوره ، ويقال له : الخطابة ، وأما مكاتبه ، ويقال له الرسالة .

فأنواع الكلام لاتخرج عن هذه الأقسام ، ولكل من ذلك نظم مخصوص ، والقرآن جامع لمحاسن الجميع على نظم غير نظم شيء منها . فلايصح أن يقال للقرآن : رسالة أو خطابة ، أو شعر ، أو سجع كما لايصح أن يقال : هو كلام . والبلغ إذا قرع سمعه فصل بينه وبين ماعده من الكلام» .

وقال الرماني بعد أن ساق أنواع الكلام : «فأتى القرآن بطريقة مفردة ، خارجة عن العادة ، لها منزلة في الحسن تفوق كل طريقة ، وتفوق الموزون الذي هو أحسن الكلام» .

ثالثاً : جمع القرآن لمراتب البيان في أسلوب واحد :

قال أبو سليمان الخطابي : «إن أجناس الكلام مختلفة ، ومراتبها في درجات البيان متفاوتة ، فمنها الجائز المطلق المرسل ، فحازت بلاغات القرآن عن كل قسم من هذه الأقسام حصّة ، وأخذت من كل نوع شعبة ، فانتظم لها بانتظام هذه الأوصاف نمط من الكلام يجمع بين صفتي الفخامة ، والمذوبة ، وهما على الانفراد في نعتيهما كالمضادين ، لأن المذوبة نتاج السهولة ، والجزالة والمثانة يعالجان نوعاً من الزعورة ، فكان اجتماع النوعين في نظم مع نبو كل واحد منهما عن الآخر فضيلة خص بها القرآن ، ليكون آية بينة لنبه ﷺ» .

رابعاً : روعته في القلوب :

وقد فطن إلى هذا الوجه بعض المؤمنين بل وكثير من الجاحدين المنكرين أيضاً . فيقول الخطابي : «وقد قلت في إعجاز القرآن وجهاً ذهب عنه الناس ، وهو صنيعة في القلوب وتأثيره في النفوس ، فإنك لاتسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا مثوراً إذا قرع السمع خلص له القلب من اللذة والحلاوة في حال .

ومن الروعة والمهابة في حال آخر ما يخلص منه إليه ، قال تعالى : ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُّتَصَدِّعاً مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ﴾ (١) . وقال : ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَاباً مُّتَشَابِهاً مّتَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ (٢) .

ويقول الزركشي : «فمنها الروعة التي في قلوب السامعين وأسماعهم ، سواء منهم المقر والجاحد ومنها أنه لم يزل غضباً طرياً في أسماع السامعين ، وعلى السنة القارئين» . ويكشف القاضي عياض أن هذه الروعة وتلك الهيبة ، كانت سبباً في إسلام بعض الكفار من العرب فيقول : «ومنها الروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعهم ، والهيبة التي تعتريهم عند تلاوته ، وقد أسلم جماعة عند سماع آياته فمنهم جبير بن مطعم ، فإنه سمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور . قال : فلما بلغ قوله تعالى : ﴿إِنَّمَا خَلَقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ﴾ (٣) إلى قوله : «المسيطرون» كاد قلبي أن يطير ، وذلك أول ما قرع الإسلام في قلبي» .

(١) سورة : الحشر/ آية : ٢١ / .

(٢) سورة : الزمر/ آية : ٢٣ / .

(٣) الطور آية / ٣٥ /

خامساً : ما وراء التكرار في القرآن :

وهذا الوجه يمكن أن نسميه تجاوزاً (بالتركيب الكيميائي للقرآن) . وذلك أن أسلوب القرآن من هذه الوجهة مركب تركيباً دقيقاً ، بحيث تقرب منه التركيبات المعملية التي توزن على مقادير بالغة الدقة ، ولاتؤتي النتيجة المأمولة منها إذا اختلت هذه التراكيب في جزء من مائة منها .

هذا توجيه من توجيهات المكررات القرآنية يمكن أن نتبينه واضحاً من قوله تعالى في سورة البقرة : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (١) . وقوله في سورة المائدة : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى رَسُولِهِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ (٢) . فقوله تعالى على لسان الكفار : (بل نتبع ما ألفينا عليه آبائنا) لا يمنع أن يرجعوا عن اتباع آبائهم ، فهم لم يبلغوا النهاية في دعوى إيمانهم بالأوثان ، ولهذا استعمل الله تعالى في نفي هدايتهم لفظاً لا يبلغ النهاية في اليقين وهو قوله تعالى : ﴿أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً﴾ . فإن فوق العقل في اليقين (العلم) . أما في المائدة فقد بلغ الكفار النهاية في الاعتداد بالأوثان ، وقطعوا على أنفسهم طريق العودة عنها بقولهم : ﴿حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ . ولهذا استعمل الله في نفي هدايتهم نفي العلم الذي هو أبلغ درجات اليقين فقال : ﴿أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾ . والدليل على أن العلم أرفع من العقل أن الله لا يوصف بالعقل ، وإنما يوصف بالعلم . فهل ترى أدق وزناً لمعاني الألفاظ ، ومراعاة تناسبها في هذا الوزن الحق الذي نزل به القرآن؟؟ .

ومن أمثلة هذه الدقة الرائعة التي لاتبلغها دقة العالم في معمله ما جاء في قوله تعالى : ﴿فَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا﴾ (٣) فاستعمل الفاء في عطف النظر على السير ، وهي للتعقيب بلا تراخ بينهما . وقد تكرر هذا الاستعمال في سورة النحل (٣٦) والنمل (٦٩) والروم (٤٢) وهكذا في القرآن كله ماعدا سورة الأنعام فقد قال تعالى فيها ﴿ قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا﴾ . فاستعمل في عطف النظر على السير

(١) سورة البقرة، آية: ١٧٠ .

(٢) سورة المائدة: آية ١٠٤ .

(٣) سورة النحل: الآية/٣٦ .

(ثم) التي هي للتراخي ، فلم كان ذلك ، وماذا وراء هذا التكرار مع اختلاف العطف بين التعقيب والتراخي؟ .

أقول : إن الآيات كلها تجمع على حث المؤمنين على النظر في عواقب المكذبين ، وهذا نهج عام يشترك فيه العلماء وغير العلماء من المسلمين على طريق الدعوة إلى الله ، يهتدي به الجاحدون إلى الحق ، ويزداد به الذين آمنوا إيماناً و يقيناً ، وهو أن يتعظوا بمجرد رؤية آثار الكفار السابقين ، وكيف دمرت حضارتهم وبادت حتى صارت أثراً بعد عين ، إذ يكفي : أن يُلقِيَ الإنسان نظرة عابرة على آثار الفراعنة في مصر ، أو على مدائن صالح في السعودية ، ليدرك من خلال عظمة الحضارة وسطوة الخراب عظمة الله وسلطانه على الكون ، وتكفي زيارة واحدة يقوم بها الإنسان للحصول على هذه النتيجة العاجلة .

أما آية سورة الأنعام فهي تطالب بمنهج آخر فيه تراث ودراسة علمية متأنية يخرج منها الباحثون بمزيد من التفاصيل ، ومزيد من النتائج والدلالات على وجود الله وعظمته . ولهذا كانت الملابس التي تحيط بآية الأنعام تشير إلى المطالبة بهذه الدراسة المتأنية المتراخية التي تحتاج بطبيعتها إلى وقت طويل . ففي الآية (٦) أشار الله تعالى إلى القرون الماضية ، وإلى القرون التي أنشأها من بعدهم في قوله : ﴿الْمُ يَرَوْا كُمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْنٍ مَكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ مَا لَمْ نَمُكِّنْ لَكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِمْ مِطْرَارًا وَجَعَلْنَا الْأَنْهَارَ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ . فمادام موضوع السير هو البحث في القرون الماضية والمتابعة ، والتي أصبحت موضوع دراسة وبحث عن أسباب تحول الري إلى جفاف ، والخصب إلى قفر ، والعمران إلى خراب كما أشارت إليه الآية التاسعة من سورة الأنعام ، مادام الأمر هكذا فإن الأمر يحتاج إلى دراسة وبحث يقوم على العلم والتحليل ، وتسجيل الأسباب والنتائج ، ومخاطبة العالم كله بهذه الدراسات الهادفة . وكما قال الكرمانى في كتاب «البرهان» : «أمروا باستقراء الديار» وتأمل الآثار ، وفيها كثرة ، فيقع ذلك سيراً بعد سير وزماناً بعد زمان ، ليعلم أن السير مأمور به على حدة ، والنظر مأمور به على حدة ، ولم يتقدم في سائر السور مثله .

والعجب العجيب من أمر تكرار القرآن وما يترأى خلاله من إعجاز آيتان ، إحداهما في سورة الأنعام : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ مَنْ يَضِلُّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ . وقوله في سورة القلم : ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ فأكثر ما يستعمل وزن (أفعل) في لغة

العرب مع الفعل الماضي ، كقولهم : أعلم من دب ودرج ، وأحسن من قام وقعد ، وأفضل من حج واعتمر . فلماذا استعمل مع الفعل المضارع في سورة الأنعام ، ولم يستعمله في الماضي كما في سورة القلم ، وكما هو الغالب في لغة العرب ؟ ولماذا زيدت الباء في آية (القلم) ، وحذفت في آية الأنعام ؟

أما استعمال (أفعل) مع المضارع في الأنعام فلأن سياق الكلام دائر حول المستقبل لبيان أصل عام ، وماض إلى الأبد ، في شأن الرأي العام ، أو (الجماهير) فيما يتصل بالعقيدة وشؤون الدين بوجه خاص ، فالآية السابقة على آية الأنعام هي قوله تعالى : ﴿وَأَنْ تَطْعَ أَكْثَرُ مَنْ فِي الْأَرْضِ يَضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ﴾ . بخلاف ما في سورة القلم ، فإن الكلام فيها عن قوم ضلوا بالفعل ، هم الكافرون من قريش ، ﴿فَسَتَبْصِرُ وَيَصْبُرُونَ . بَأْيُكُمْ الْمَقْتُونَ . إِنْ رَيْكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ . يعني : ضل فقال عن الرسول : إنه مجنون ، وعن القرآن : أنه سحر مبين . . . فلما جاء (أفعل) مع المضارع في الأنعام انقطعت مظنة الضلال إلى الله تعالى : كما هو جائر في المعنى إذا استعمل مع الماضي ، فصار معنى الآية في الأنعام : أن الله أعلم بمن يضلون عن طريقه في المستقبل ، فصار ورود أفعل مع المضارع إتباعاً للسياق ، وقطعاً لمعنى الإضافة المؤكد في استعمالها مع الماضي كما هو الغالب في لغة العرب ، فلما استعمله مع الماضي في سورة القلم استعمله مع الباء ، إذ لو لم تذكر الباء لصار المعنى أنه تعالى أعلم الضالين عن سبيله ، وتعالى الله علواً كبيراً .

فانظر كيف خالف الغالب في لغة العرب في الأنعام ، ولم يزد حرفاً لامعنى لزيادته مع فعل المستقبل حفظاً للقرآن من الحشو ، وكيف كان الاحتياط للمعنى في سورة القلم حينما تعارض المعنى مع الاستعمال اللغوي الشائع في لغة العرب ، فلم تكن الباء زائدة في سورة القلم . ولهذا عقب الكرمانى على كلامه هنا بقوله : «فتنبه فإنه من أسرار القرآن» .

ثم انظر كيف يستعمل الكتاب والباحثون كلمتي (يتفع ويضر) مقترنتين بتقديم أيهما شاءوا ، وليس في ذلك خلل في معانيهم على أي حال ، ولكن كتاباً لا يقدم التفع على الضر ، أو الضر على التفع إلا لأن السياق و (هندسة النظم) و (التركيب الكيميائي) و (الإبداع الجمالي) يدعو إلى ذلك ، بحيث لا تجد نشازاً في التركيب لالفاظاً ولا معنى . هذا الكتاب لم نعر عليه إلى الآن إلا فيما بين دفتي كتاب الله العزيز الحكيم الذي لا يأتية الباطل أبداً .

جاء في سورة الأعراف : ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسٍ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ وعلى هذا الترتيب جاءت آيات في سورة : الرعد ، وسبا ، والأنعام ، ويونس ، والأنبياء ، والفرقان ، والشعراء . وجاء تقديم الضرر على النفع في سورة يونس ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسٍ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ . وعلى هذا الترتيب الأخير سارت معظم آيات القرآن إلا في المواضع الثمانية التي ذكرناها ، وإنما تقدم الضرر على النفع لأنه أصل الفطرة التي نزل بها القرآن ، لأن العابدين يعبدون الله خوفاً من عقابه أولاً ، وطمعاً في ثوابه ثانياً ، وعلى هذا دللت الدلائل في فطرة البدائيين وفي وجدان الموحدين ، وقد سجل الله تعالى هذه الفطرة البشرية في قوله تعالى : ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ . أما قوله تعالى : ﴿يَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا﴾ فقد جاء معبراً عن نوع راق ومتطور من الفطرة ألف العبادة حتى تحولت إلى معرفة وحُب لله ورسوله .

فلماذا اختلفت هذه المواضع الثمانية من القرآن مع الأصل ، فقدم فيها النفع على الضرر إذن ؟ .

اختلفت هذه المواضع الثمانية فتقدم النفع على الضرر ، لأن السوابق من الآيات تدعو إلى هذا التركيب ، حرصاً على النظام القرآني البديع المعجز من حيث لا يمكن بأي حال أن يستمر الناس في كتاباتهم على مراعاة هذا النظام ، بل تعمهم الغفلة غالباً . ففي سورة الأنعام جاءت الآية بعد قوله تعالى : ﴿لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ وَإِنْ تَعِدِلْ كُلَّ الْعَدْلِ لَا يُؤْخَذُ مِنْهَا﴾ .

فالولاية والشفاعة تناسب النفع ، وعدم أخذ العدل يناسب الضرر ، فجاءت الآية على هذا النسق : ﴿قُلْ أَدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُنَا وَلَا يَضُرُّنَا﴾ . وفي يونس تقدمه : ﴿ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا﴾ فناسب تقديم النفع رعاية للنجاة وهي نفع . وفي الأنبياء جادل الكفار إبراهيم في أصنامهم فقالوا : ﴿لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ . حرصاً على بقائهم لمنفعتهم في زعمهم . فقال تعالى : ﴿اتَّبِعُونِ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ وَلَا يَضُرُّكُمْ﴾ . وقال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ﴾ واستمرت الآيات في سياق يعدد نعم الله الجليلة في عشر آيات ثم قال : ﴿يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ﴾ .

وفي سورة (المؤمنين) قال تعالى : ﴿لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهَ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ .

وفي الزخرف (فاكهة) على التوحيد ، و(منها تأكلون) بدون واو .

والسبب أن القرآن لما راعى لفظ الجنة ، ولما كان الحديث في (المؤمنون) عن الجنات بالجمع كانت الفواكه جمعاً ، ولما كان الحديث في الزخرف عن الجنة مفردة كانت الفاكهة مفردة ، ثم يعود البحث إلى كشف جديد عن وجه بديع من وجوه الخلاف في حذف الواو عن آية الزخرف ، وإثباتها في آية (المؤمنون) ، لأنها تتحدث عن جنات الأرض في الدنيا ، وكان حق الكلام أن يقال : منها تبيعون ، ومنها تدخرون ، ومنها تأكلون ، فاقضى الإيجاز المعجز أن يبقى ما به أساس الحياة مسبقاً بواو وتدل على بقية المنافع المقصودة من حداق الأرض دون إخلال بالمعنى . أما في الزخرف فالحديث عن جنة الخلد ، وليست للأكل فحسب ، فحذف الواو للدلالة على ذلك .

سادساً : القرآن وتيرة واحدة :

يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾. (١) وقال حجة الإسلام أبو حامد الغزالي مشيراً إلى إعجاز القرآن من هذه الوجهة : «المراد : نفي الاختلاف عن ذات القرآن . . . يقال : هذا كلام مختلف ، أي لا يشبه أوله آخره في الفصاحة ، أو هو مختلف الدعوى ، أي بعضه يدعو إلى الدين وبعضه يدعو إلى الدنيا ، أو هو مختلف النظم ، فبعضه على وزن الشعر ، وبعضه متزحف ، وبعضه على أسلوب مخصوص في الجزالة ، وبعضه على أسلوب يخالفه ، وكلام الله منزّه عن هذه الاختلافات فإنه على منهاج واحد في النظم مناسب أوله آخره وعلى درجة واحدة في الفصاحة ، فليس يشتمل على الغث والسمين ، ومسوق لمعنى واحد ، وهو دعوة الخلق إلى الله ، وصرفهم عن الدنيا إلى الدين .

وكلام الناس تنطرق إليه هذه الاختلافات ، إذ كلام المترسلين والشعراء إذا قيس عليه وُجد فيه اختلاف في منهاج النظم ، ثم اختلاف في درجات الفصاحة ، بل في أصل الفصاحة ، فلا تتساوى رسالتان ولا قصيدتان ، بل تشتمل قصيدة على أبيات فصيحة ، وأبيات سخيفة وكذلك تشتمل القصائد والأشعار على أغراض مختلفة ، لأن الشعراء والفصحاء في كل واحد يهيمنون ، فتارة يمدحون الدنيا ، وتارة يذمونها ، وتارة يمدحون الجبن ، وتارة يسمونه حزماً ، وتارة يذمونهم ، ويسمونه تهوراً ، ولا ينفك كلام آدمي عن هذه الاختلافات ، لأن منشأها اختلاف الأغراض ، والأحوال ، والإنسان .

(١) سورة : النساء/آية : ٨٢ .

وكذلك تختلف أغراضه ، فيميل إلى الشيء تارة ، ويميل عنه أخرى ، فيوجب ذلك اختلافاً في كلامه بالضرورة ، فلا يصادف إنسان يتكلم في ثلاث وعشرين سنة وهي مدة نزول القرآن ، فيتكلم على غرض واحد ، ومنهاج واحد ، ولقد كان النبي ﷺ بشراً تختلف أحواله ، فلو كان هذا كلامه ، أو كلام غيره من البشر ، لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً .

وهذا المعنى فطن إليه صاحب «منهاج البلغاء» حين قال : «وجه الإعجاز : استمرار الفصاحة والبلاغة فيه من جميع أنحائها في جميعه ، استمراراً لا توجد له فترة ، ولا يقدر عليه أحد من البشر ، وكلام العرب ومن تكلم بلغتهم لا تستمر الفصاحة والبلاغة من جميع أنحائها في العالي منه إلا في الشيء اليسير المعدود ، ثم تعرض الفترات الإنسانية ، فينقطع طيب الكلام ورونقه ، فلا تستمر الفصاحة في جميعه ، بل توجد في تفاريق وأجزاء منه .

وهذا الوجه الذي فطن إليه القدامى لا يحتاج إلى دليل على صحته ، فهذا القرآن بين أيدي الناس في كل مكان على مدى أربعة عشر قرناً ، وهذه كتب الأدباء ودواوين الشعراء هي الأخرى في كل مكان ، وهذا علم النقد الأدبي مكتمل المنهج لدى جميع النقاد ، وما وجدنا النقاد إلا ويتناولون الإنتاج الإنساني بالتشريح وكشف مافيه من ظواهر المد والجزر في درجة الفصاحة والبلاغة وكشف مايتداخله لأمعنى له سوى المحافظة على جرس الكلام أو مداراة مااعترى الفكر من فتور بتكرار الجمل على وجه الترادف والتكرار الخطابي الذي لا يبدى ولا يبعد .

أما القرآن فلم يستطع النقاد أن يصلوا فيه إلى ثغرة ، أو إلى وجه من وجوه النقص الكثيرة في كلام البشر . كل ماقلوه : إن فيه تكراراً ، وقد ردّ عليهم الكرمانى في كتاب البرهان أبلغ رد وأفحمة لمكابر حقوق . وقالوا : إن القرآن موضوعات لارابط بينهما . وسوف نرد على هؤلاء في باب منفصل .

العنصر العالمي في إعجاز القرآن :

أشرنا إلى خطأ الإمام ابن عطية في تعميمه القول بأن الحجة قامت على العالم بالعرب في مسألة الإعجاز القراني .

ونزيد هنا : أن هذا القول قد يكون له بعض الوجاهة إذا فسرناه على أن عجز العرب المطبق عن معارضة القرآن بمثله ، وهم في الذروة العليا من البلاغة والتحكم في زمام القول ، وجودة القريحة ، وصفاء السليقة ، هذا العجز من هؤلاء القوم الذي أنزل القرآن بلغتهم يشكل عنصراً واحداً من حجة القرآن على العالم ، وهذا العنصر يضع

القرآن موضع الاعتبار أمام غير العرب من الناطقين بلغات أخرى ، والذين لا يجيدون إلتذوق المعنى في القرآن ، وهم عن تذوق الأساليب العربية بمعزل .

وذلك لأن العرب لو نجحوا في معارضة القرآن لأسقطوا على الفور حجة الرسول ﷺ على أنه رسول يبلغ عن ربه دعوة الإسلام الخاتمة ، ولو سقطت هذه الحجة القائمة للرسول لاندثرت الدعوة ، وأصبحت في عداد التحل الكاذبة التي ذخرت بها المراجع الإسلامية .

أما وقد عجز العرب تماماً عم معارضة القرآن ، فقد قامت حجة الرسول على العرب ، وكان قيام هذه الحجة عاملاً رئيسياً في إبراز حجة أخرى تشير بوضوح إلى روح القرآن وأثره العجيب في بناء القوة من الضعف ، والتماسك من التمزق ، وسمو الهدف من ماديته وأرضيته ، والعالمية من النعرة العصبية ، والنبل والإيثار من السعار المالي الرهيب ، وتواضع الرؤوس من تعاليها ، إلى غير ذلك من معجزات التاريخ التي دبّت في الوسط العربي في قوة وسرعة وعزم فسمت بهم من وهدة التحلل ، وفرقة التجمع حول شيوخ القبائل المختلفي النزعات والأغراض ، وهلهلة العقيدة في الأحجار والكهانة إلى الوحدة حول رسول الله ﷺ على أساس متين من عقيدة الوجدانية التي رفضت كل الشوائب ، وأحالت القاتم الذي كان يسود الجزيرة العربية إلى صفاء ونقاء .

ودالت دولة الشرك تماماً في الجزيرة ، وكان جيش تبوك وبعث أسامة بن زيد ، الذي توفي الرسول ﷺ قبل نفاذه ، كان هذان العملان العسكريان بمثابة الإشارة النبوية إلى ساعة الصفر التي يتحول فيها جهاد الإسلام إلى الواقع العالمي ، بعد أن أقام حجته الناصعة بالقرآن العربي على العرب الناطقين بالعربية ، وأفصح من نطق بها .

من هنا يصلح العرب أن يكونوا حجة على العالم ، بعدما قامت حجة القرآن عليهم بأنه صالح لبناء أمة لها خصائص الأمم الراقية إذا قيس الرقي بموازين العلم والعقل ، لابعمقائيس الشطط والهوى . وكانت صورة الإنسان المسلم الذي بناه الرسول بالقرآن حجة على صلاحية القرآن للدعوة العالمية .

لم يكن الأسلوب العربي إذن مهما بلغ من الإعجاز حجة على الروم والفرس والقط ، لأن هؤلاء لا يدركون من ذوق العربية لاقليلاً ولا كثيراً ، وإنما كانت فاعلية القرآن ، وأعاجيب الفدائية التي كانت ماثلة أمام تلك الشعوب من جهة ، وتسامي السلوك ، وارتفاع الإنسانية إلى مستواها الحق الذي تهفو إليه الدنيا كلها هي الحجة الماثلة أمام الشعوب غير العربية ، مما جعلها بعد أن اطمأنت إلى العدل الذي حملة

العرب إلى غيرهم تتحرق شوقاً إلى بحث هذا الكتاب الذي هدى العرب ، وبنى منهم تلك الأعجوبة الماثلة أمامهم .

ومن هنا أيضاً كان غزو اللغة العربية للغات الأخرى ، لأن هذا التطلع الملح الذي يتحرك في أعماق غير العرب إلى استكشاف أسرار القرآن ومفاهيمه دفعهم إلى تعلم العربية ، وكان ذلك بالفعل ، حتى كان الغزو اللغوي العربي في صف واحد مع الغزو العسكري في سبيل تأصيل العقيدة الخاتمة .

وكان أن تحول الجهم الغفير من تلك الشعوب غير العربية إلى علماء في العربية ، وإلى أصوليين ومفسرين ومحدثين ودعاة لا يقلون شأنًا عن الدعاة العرب في نطاق دعوة الإسلام ، ومازالت الآلاف من تلك الأسماء غير العربية تدوي في أفاق الأرض شاهدة على إعجاز القرآن من نواح غير النواحي الأسلوبية والبلاغية .

ويكفي لإدراك معجزة القرآن العملية بعد الأسلوبية أن تعلم أن الأزهر أنشئ في مصر للقضاء على شريعة القرآن على أيدي الأدعياء الذين سمو أنفسهم بالفاطميين ، وجاؤوا أن يحلوا محل شريعة القرآن مجموعة من المذاهب والنحل الفلسفية سجلها المقرئ في خطه ، وكان مع الفاطميين الذهب ، وكان سب الشيخين يسطر على جدران جامع عمرو بن العاص ، وكان الإرهاب بالرووس المحمولة على الرماح في شوارع القاهرة . كان كل ذلك ، ولكن الناس لم يفتروا عن المظاهرات المعادية لتلك النحلة الغريبة وهم يرفعون شعاراً يسمو على كل اعتبار ، إذ كانوا يهتفون في مظاهراتهم قائلين : « معاوية خال علي وخال المؤمنين » . . .

وتحول الأزهر الشيعي إلى الأزهر السني بشيوخه من أهل السنة والجماعة إلى اليوم .

أليس ذلك إعجازاً في روح القرآن ومعناه؟

وإذا لم يكن إعجازاً فبم تسمي هذا النصر الساحق العجيب؟

أليست تلك الواحدة أعجوبة التاريخ؟

أليست كافية في شد أنظار العالم كله إلى القرآن؟

وهو ماحدث بالفعل . وهذه واحدة من إعجازات القرآن الروحية والمعنوية والسلوكية تضاف مثيلاتها إليها في العصر الحديث .

بقيت واحدة أخرى يمكن أن تكون منطلقاً إلى غيرها .

ذلك : أنه لا يوجد في التاريخ كله كتاب سماوي ولا كتاب وضعه بشر ، يمكن أن

يكون مصدراً لحقائق العلم والمعرفة كلها دون أن يشذ منها شيء إلا القرآن .

كتاب ذو موضوع واحد ، تدور حقائقه كلها حول ذلك الموضوع لإثباته ، وفي تطوافه بين الحقائق لإثبات حقيقته العظمى يستبطن كل العلوم والمعارف ماكان منها موجوداً من قبل تدوينه ، وماكان في عصر تدوينه ، وماجد بعد عصر تدوينه إلى أن تقوم الساعة . كتاب مثل هذا الكتاب لم ولن يوجد إلا في كتاب الله المبين ، القرآن الحكيم العزيز المجيد الكريم . . . هكذا سماه الله بأسمائه للدلالة الواضحة على أنه فوق متناول أي بشر أو ملك في الكون .

موضوع واحد هو : إثبات وحدانية الله ، ونفي ماعداه من الأوثان وأوهام العقائد الملحدة .

وفي سبيل إثبات الوحدانية الإلهية استخدم القرآن كل المعارف والعلوم ، وشرع الشريعة الحارسة على هذا الاعتقاد الصحيح ، ووضع الضوابط لعلم الاجتماع الإنساني ، وكيف لا تتضارب المصالح ، ولا تتصارع الأمم ، وأشار إلى مواطن النماء المالي في الأرض وفي البحر ، ورسم الخط الواضح للسياسة المالية في جميع العصور ، ومن منهجه التربوي كان منهج التعليم الأمثل الذي يجب أن يسير عليه الناس إذا طلبوا العافية والسلامة في دنياهم وأخراهم ، ورفع همم المؤمنين عن الماديات إلى المعارف الروحية فيما وراء المادة .

وقد نقل الإمام السيوطي في الإتقان عن أبي الفضل المرسي في تفسيره أنه قال :
« جمع القرآن علوم الأولين والآخرين ، بحيث لم يحظ بها علما حقيقة إلا المتكلم بها ، ثم رسول الله ﷺ خلا ما استأثر الله بعلمه ، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم ، مثل الخلفاء الأربعة ، وابن مسعود ، وابن عباس ، حتى قال : لو ضاع لي عقل بعير لوجدته في كتاب الله . ثم ورث عنهم التابعون بإحسان ، ثم تقاصرت الهمم ، وفترت العزائم ، وتضاءل أهل العلم ، وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه ، فترعوا علومه ، وقامت كل طائفة بفن من فنونه ، فاعتنى قوم بضبط لغاته . . . واعتنى النحاة بالمعرب والمبني منه من الأسماء والأفعال والحروف العاملة وغيرها . . . حتى أن بعضهم أعرب مشكله ، وبعضهم أعربه كلمة كلمة . . . »

واعتنى المفسرون بالفاظه ، فوجدوا لفظاً يدل على معنى واحد ، ولفظاً يدل على معنيين ، ولفظاً يدل على أكثر ، فأجروا الأول على حكمه ، وأوضحوا معنى الخفي ،

وخاضوا في ترجيح أحد احتمالات ذي المعنيين والمعاني ، وأعمل كل منهم فكره .
واعتنى الأصوليون بما فيه من الأدلة العقلية والشواهد الأصلية والنظرية فاستنبطوا
منه أدلة على وحدانية الله ووجوده ، وسموا هذا العلم : أصول الدين . وتأملت طائفة
معاني خطابه ، فرأت منها ما يقتضي العموم ، ومنها ما يقتضي الخصوص ، إلى غير
ذلك ، فاستنبطوا أحكام اللغة من الحقيقة والمجاز ، وتكلموا في التخصيص
والأخبار ، والنص والاجتهاد ، والظاهر ، والمجمل والمحكم ، والمتشابه ، والأمر
والنهي . . . وسموا هذا الفن : «أصول الفقه» .

ثم عدد ابن أبي الفضل علوم الدين والأدب والأمثال والحكم والوعظ والمعاد ،
وأصول تعبير الرؤيا ، والظواهر الكونية ، وعلوم الحقائق ، والطب ، والجدل ، والهيئة ،
والهندسة ، والجبر ، والمقابلة ، وأصول الصناعات ، ونبه إلى مكانها من القرآن .

بل إن السيوطي نقل : أن سكوت القرآن عن حقيقة من الحقائق يمكن استنباط
الحقيقة منه . ومثل له باستدلال جماعة على أن القرآن غير مخلوق بأن الله تعالى ذكر
الإنسان في القرآن في ثمانية عشر موضعاً وقال : إنه مخلوق . وذكر القرآن في أربعة
وخمسين موضعاً ، ولم يقل : أنه مخلوق . فلما جمع بينهما غاير فقال : ﴿الرحمن
علم القرآن﴾ . خلق الإنسان^(١) .

ونقول : أن في قوله تعالى ﴿علم القرآن﴾ دليلاً على أنه غير مخلوق لأنه أرجعه إلى
ذاته يعلم به عباده ، لا إلى خلقه الذي وضعه بين عباده يتصرفون فيه حيث
شاءوا .

ولقد جمع الإمام الحارث بن أسد المحاسبي من هدى القرآن ما يمكن أن يسمى
«علم النفس القرآني» . وذلك في كتابه «الرعاية لحقوق الله» و «أدب النفوس» وفي
كتاب ثالث يعتبر امتداداً للكتابين السابقين هو «أعمال القلوب والجوارح» .

ولقد بذل المحدثون جهداً في هذا السبيل نرى أنه يتطلب الزيادة والعمق في
كتاباتهم نحو نظم الحكم ، ونظام المال ، وغير ذلك من مواضيع الثقافة الجديدة ،
ويبحث أصولها في القرآن .

كما تكلم المرحوم الدكتور محمد أحمد الغمراوي في كتابه «الإسلام في عصر
العلم» بما يثبت الوصاية الشرعية على العلم الحديث وإعجازه للعقل البشري .

(١) سورة: الرحمن/ آية : ١-٢/ .

وهكذا يمتد نور القرآن ، فيداخل العقول في كل مكان على ظهر الأرض يكاد يشبه فيها فعل الصدمات الكهربائية في أدمغة المرضى العقليين ، إذ يفيقون بعدها وقد تفتحت عيونهم على الكون برؤية جديدة ، وإدراك رشيد ، ولم تكن تلك الموجات التي تروي الفكر في أرجاء الأرض هي موجات اللغة والأسلوب . كل ما في الأمر أن روح هذا القرآن صنعت المعجزة بين قوم عجزوا عن معارضته فأسلموا له القيادة ، وبدأت بعد ذلك مسيرة القرآن في العالم الناطق بمختلف الألسنة واللغات ، واكتشف هؤلاء الأعاجم من أسرار القرآن ودلائل إعجازه وعظمته وتفوقه على كل الدساتير والمناهج العلمية في العالم كل مالم يمارسه الناطقون بالعربية في عصرنا الحاضر .

ألم يأن للمؤمنين أن يفتحوا أعينهم بعد؟

ألم يأن لهم أن يجانبوا السفسطة وحب الظهور على حساب غمز القرآن؟^(١)

ألم يأن لهم أن يتفرغوا للقرآن بدلاً من تفرغهم لأوهام ذوي المآرب العالمية؟^(٢)

ألم يأن لهم أن يرتفعوا عن ضيق الأفق والعنصرية التي تهدد الزحف القرآني نحو العالم؟

بل : ألم يأن لنا أن ننشئ أكاديمية للدراسات القرآنية؟

إن في هذا فتحاً جديداً للعرب والمسلمين إن فعلوا ، والله نسأل لنا ولهم التوفيق .

(٢١) وذلك كما فعله الدكتور محمد شحرور في كتابه المزعوم به الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» الذي اقترف فيه أكبر جريمة في حق قدسية القرآن العظيم حيث أقام دراسة له على أساس الفلسفة العقيمة والمنطق السقيم مع المغالطات السفسطائية والتأويلات الإلحادية، بالإضافة إلى تجريد دراسته للقرآن من كل الضوابط الشرعية واللغوية، والمصطلحات العلمية التي اتفق عليها علماء الإسلام على مدى تاريخ علوم القرآن، فلم يكثر بمنهج علماء الأمة قاطبة، مع إشادته بعلماء الغرب النصراني، كما في ص ١٩٣ - ١٩٤ و ص ١٨١ .

البحث الثالث

إعجاز النظم القرآني

جزالته وتناسقه^(١)

ويُقصد بنظم القرآن طريقة تأليف حروفه، وكلماته، وجمله، وسبكها مع أخواتها في قالب محكم، ثم طريقة استعمال هذه التراكيب في الأغراض التي يتكلم عنها، للدلالة على المعاني بأوضح عبارة في أعذب سياق وأجمل نظم.

والفرق بين الأسلوب والنظم: أن دائرة الأسلوب أوسع وأشمل ولا يدرك الأسلوب بالجملة الواحدة^(٢)، بينما النظم يمكن إدراكه في الجملة الواحدة بل وحتى في الكلمة الواحدة.

إن المتأمل في حروف القرآن الكريم وكلماته لا يجد فيها شيئاً خارجاً عن المألوف المتداول في لغة العرب قديماً وحديثاً، ولكن عندما نتلو آيات الله نشعر أن للعبارة القرآنية كيانه خاصاً بنى عليه تراكيبه ورسم معالم صورة نظمه الفريد على هذا الكيان الفريد.

فالكلام كما عهدته العرب شعر ونثر وما هو بين الشعر والنثر وهو السجع، ولو كان لإنسان عربي أن يتكلم أو يكتب أو يعلم أو يشرع أو يلفظ لما خرج في نظم كلامه أو تأليفه عن أخذ هذه الأنواع المعهودة عند العرب.

ولكن القرآن جاء في ثوب غير تلك الأثواب وفي صورة غير تلك الصور، جاء نسيج وحده، وصورة ذاته، فلاهو شعر ولاهو نثر ولاهو سجع، وإنما هو قرآن، فالآية في النظم القرآني وهي ليست بيت شعر وجملة نثر ومقطع سجع، بل هي قطعة من القرآن لها بداية ونهاية متضمنة في سورة، ولكل آية مقطع تنتهي به هو الفاصلة، وليست هذه الفاصلة قافية شعر ولا حرف سجع وإنما هي شاهد قرآني لا يوجد فيه، ولا يعتدل في كلام غيره.

(١) مباحث في إعجاز القرآن / د. مصطفى مسلم / ص ١٢٥-١٣٣ / ط المنارة - جدة.

(٢) الأسلوب القرآني سيأتي بحثه بعد هذا البحث.

إن النظم القرآني البديع بهر العرب بحسن مبادئ الآي والمقاطع وتماسك الكلمات واتساقها في التراكيب، وقد تأملوه آية آية وعشراً عشراً وسورة سورة فلم يجدوا في الجميع كلمة ينبو بها مكانها ولفظة ينكر شأنها أو يرى غيرها أصلح هناك أو أشبه أو أخرى، بل وجدوا اتساقاً بهر العقول وأعجز أهل الحكم والبلاغات، ونظاماً والتشاماً وإتقاناً وإحكاماً لم يدع في نفس واحد منهم موضع طمع حتى خرسست الألسن أن تدعي وتتقوّل.

وأقروا في قرارة أنفسهم أن هذا ليس من قول البشر وإن أنكروا ذلك بالسّتهم. ومجيء النظم القرآني على هذا الشكل من الإتقان والإحكام إنما يعود - كما يقول ابن عطية - إلى أن الله تعالى قد أحاط بكل شيء علماً وأحاط بالكلام كله علماً فإذا ترتبت اللفظة من القرآن علم بإحاطة أي لفظة تصلح أن تبين المعنى بعد المعنى ثم كذلك من أول القرآن إلى آخره، والبشر معهم الجهل والنسيان والذهول ومعلوم ضرورة أن بشراً لم يكن قط محيطاً، فلهذا جاء نظم القرآن في الغاية القصوى من الفصاحة.

ويظهر لك قصور البشر في أن الفصيح منهم يضع خطبة أو قصيدة يستفرغ فيها جهده ثم لا يزال يتقحها حولاً كاملاً ثم تُعطى لأحد نظيره فيأخذها بقريحة خاصة فيبدّل فيها وينقح ثم لا تزال كذلك فيها مواضع للنظر والبدل. وكتاب الله لو نزعته منه لفظة ثم أدير لسان العرب في أن يوجد أحسن منها لم يوجد، ونحن تبيين لنا البراعة في أكثره ويخفى علينا وجهها في مواضع لقصورنا عن مرتبة العرب يومئذ في سلامة الذوق وجودة القريحة وميّر الكلام.

وفيما يلي بعض مزايا النظم القرآني وأمثلة عليها:

- التناسق بين العبارة والموضوع الذي يُراد تقريره:

إن الذي يتمعن النظر في النظم القرآني يلاحظ التناسق الكامل والتآلف التام بين العبارة القرآنية والمعنى الذي يُراد بيانه وتوضيحه؛ فالألفاظ في النظم يلائم بعضها بعضاً وهي كلها متوجهة إلى الغرض المنشود بحيث إذا كان المعنى غريباً كانت ألفاظه غريبة وإذا كان المعنى معروفاً مستحدثاً كانت الألفاظ تناسبها.

يقول بديع الزمان: فالكلام إذا حذا حذو الواقع وطابق نظمه نظامه حاز الجزالة بحذافيرها. ويكون ذا قوة وقدرة إذا كان أجزاؤه مصداقاً لما قيل:

عباراتنا شتى وحسنك واحد وكل إلى ذاك الجمال يشير

بأن تتجاوب قيودات الكلام ونظمه وهيئته ويمدّ كل بقدره الغرض الكلي مع

وفي الأمثلة التالية نلقي أضواء على هذا الجانب:

- لما أراد الله سبحانه وتعالى أن يصف حالة يعقوب عليه السلام وهو يتأسف على يوسف عليه السلام، وكانت هذه الحالة غريبة في نظر أبنائه لأنهم لم يسدوا مكان يوسف، عبر عن هذه الحالة بكلمات غريبة كلها، فقال سبحانه وتعالى على لسانهم: ﴿قَالُوا تَاللّٰهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يَوْسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا﴾ يوسف/ ٨٥، حيث أتى بأغرب ألفاظ القسم بالنسبة إلى أخواتها؛ فإن التاء أقل استعمالاً وأبعد عن أفهام العامة، والباء والواو أعرف عند الكافة وهي أكثر دوراناً على الألسنة وأكثر استعمالاً في الكلام. ثم أتى الله سبحانه وتعالى بأغرب صيغ الأفعال التي ترفع الأسماء وتنصب الأخبار بالنسبة إلى أخواتها فإن (كان) وما قاربها أعرف عند الكافة من تفتأ. وهم لـ (كان) وما قاربها أكثر استعمالاً منها وكذلك لفظ (حرضاً) أغرب من جميع أخواتها من ألفاظ الهلاك (٢). فاقضى حسن الوضع في النظم أن تجاور كل لفظة بلفظة من جنسها في الغرابة أو الاستعمال توخياً لحسن الجوار ورغبة في ائتلاف المعاني بالألفاظ ولتتعاذل الألفاظ في الوضع وتتناسب في النظم.

ب - وفي هذا الباب قوله تعالى: ﴿وَلَن مَّسْتَهُمْ نَفْحَةً مِّنْ عَذَابِ رَبِّكَ...﴾ الأنبياء/ ٤٦، في سياق بيان الضعف البشري أمام جبروت الخالق تبارك وتعالى فأراد بيان ضعفهم أمام العذاب الخفيف القليل فأتى بكلمات كلها تتجه إلى إظهار الغرض وهو وصف العذاب بالقلّة.

فأتى بـ (إن) التي تفيد التشكيك في وقوعه، وأتى بكلمة (المسّ) بدل الإصابة أو الحرق فهو دونها في المرتبة ودون الدخول، وكذلك كلمة (نفحة) مع تنويناها المشعر بضعف العذاب وحقارته و(من) المفيدة للبعضية فلم يأتهم كل العذاب وإنما هي نفحة عابرة يسيرة من جزء صغير من العذاب، ثم العذاب لم يُضف إلى اسم دال على القهر والجبروت بل أضيف إلى أرق اسم دال على الشفقة وهو (رب)، ثم أضيف الرب إلى مقرب محبوب وهو ضمير خطاب رسول الله ﷺ.

إن الكلمات كلها مسوقة إلى هدف واحد وهو وصف هذا العذاب بالقلّة والفضالة

(١) إشارات الإعجاز في مظان الإعجاز/ سعيد النورسي/ ص ٨٥ / ط النور/ .
(٢) «في مفردات الراغب» ص ١٦٣ : الحرض: ما لا يُعْتَد به ولاخير فيه، لذلك يقال لما أشرف على الهلاك (حرض).

والحقارة ليبيّن بالتالي أن المذنبين يندمون ويتأسفون على ما عملوا عند تعرضهم لنفحة بسيطة من عذاب الله ﴿ولئن مسّتهم نفحة من عذاب ربك ليقولنّ ياويلنا إنّنا كنا ظالمين﴾.

وهكذا لو ذهبنا نستعرض الآيات القرآنية في موضوع من الموضوعات المذكورة فيه نجد هذا التناسق وهذا الانسجام بين المعاني والألفاظ المختارة لأدائها فلا تعقيد يعثر الفكر في طلب المراد، بل الألفاظ تسابق معانيها ومعانيها تسابق ألفاظها، كما أن الألفاظ عربية مستعملة جارية على قوانين اللغة سليمة عن التناثر بعيدة عن البشاعة عذبة سلسلة كالماء في السلاسة والعسل في الحلاوة وكالنسيم في الرقة.

٢- ومن مزايا النظم القرآني اهتمامه بالجملة القرآنية واختيار المكان المناسب فيها للكلمة المعبرة:

بالإضافة إلى ما ذكرنا سابقاً عن التناسق بين العبارة والمعنى الذي يراد توضيحه فإن هنالك نوعاً من التناسق الرائع بين الكلمات في الجملة الواحدة وبين الحروف في الكلمة الواحدة.

فنظرة إلى تلك الحروف تبرز تناسبها لبعضها تناسباً طبيعياً في الهمس والجهر والشدة واللين والتفخيم والترقيق مما يشكل أنغماً متناسقة متناسبة. وهذه الخاصية تعود بلا شك إلى طريقة اختيارها وسيكها وتناسب مخارجها. كما أن وضع الكلمة في الآية واختيار موقعها والتنامي مع جاراتها له الأثر الكبير في إعطاء هذا الجرس الخاص والإيقاع المؤثر في نفس السامع.

ولا يقتصر وضع الكلمة في الآية على تأثيره في اللحن والنغم وإنما لهذا الموقع والوضع المناسب تأثير على المعنى وإبرازه، لذا نجد أن كثيراً من الباحثين اقتصروا على إبراز هذه الناحية دون الإشارة إلى ناحية اللحن والإيقاع.

والحقيقة أن الكلمات القرآنية لها دور وضرورة في السياق للدلالة على المعنى، كما أن لها دوراً في تناسب الإيقاع دون أن يطغى هذا على ذاك أو يخضع النظم لأحد الأمرين.

وفي الأمثلة التالية نرى اهتمام النظم القرآني في اختيار الكلمة المناسبة ذات الجرس المعين لأداء وظيفتها في الإيقاع كما أنها تؤدي في نفس الوقت دورها في تصوير المعنى وتشخيصه وإيضاحه على أتم صورة.

أ- اختيار كلمة (حرث) لتشبيه النساء به دون الأرض أو الحقل أو الزرع وغيرها من

المترادفات وذلك في قوله تعالى: ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنَّى شِئْتُمْ﴾ البقرة/ ٢٢٣. ولعل اختيار هذه اللفظة دون سواها لما فيها من لطف الكناية في ذلك التشابه بين صلة الزارع بحرثه وصلة الزوج بزوجه في هذا المجال الخاص، وبين ذلك النبت الذي يخرج الحَرْث وذلك النبت الذي تخرجه الزوج ومافي كليهما من تكثير وعمران وفلاح. بينما هذه اللطائف لأُستفاد من كلمة (الأرض) إذ قد تكون جذباء لاتصلح لحراثة الزرع وكذلك الحقل فإنه لايدل على عمل المالك فيه بل تدل الكلمة على شيء جاهز لادخل فيه لبذر الحارث.

بذلك نلاحظ أن القرآن الكريم يتناول من الكلمات المترادفة أدقها دلالة على المعنى وأتمها تصويراً وتشخيصاً للصورة وأجملها وأحلاها إيقاعاً ووزناً بالنسبة إلى نظائرها.

ب - ومن هذا القبيل كلمة (أغطش) في قوله تعالى: ﴿أَغْطِشْ لِيَّهَا وَآخِرَ ضُحَاهَا﴾ النازعات/ ٢٩.

فهي مساوية من حيث الدلالة اللغوية لأظلم، ولكن (أغطش) تمتاز بدلالة أخرى من وراء حدود اللغة فالكلمة تعبر عن ظلام انتشر فيه الصمت وعم الركود وبدت في أنحائه مظاهر الوحشة. ولايفيد هذا المعنى كلمة (أظلم) إذ هي تعبر عن السواد الحالك ليس غير.

ج - وحينما يصف القرآن الكريم دعوة امرأة العزيز للنسوة - اللاتي تحدثن متقدمات عن مراودتها يوسف عن نفسه - إلى جلسة لطيفة في بيتها لتطمعن فيها على يوسف وجماله فيعذرونها فيما أقدمت عليه، لقد قدمت لهن في ذلك المجلس طعاماً ولاشك. ولقد أوضح القرآن هذا، ولكنه لم يعبر عن ذلك بالطعام فهذه الكلمة إنما تصور شهوة الجوع وتنتقل بالفكر إلى المطبخ بكل مافي من ألوان الطعام وروائح وأسبابه، ولكن بماذا يعبر إذن؟ وأين في اللغة الكلمة التي تؤدي معنى الطعام ولاتمس الصورة بأي تكبير أو تشويه؟ لقد أبدع القرآن لذلك تعبيراً عجيباً رائعاً حيث قال: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مَكًّا...﴾ يوسف/ ٣١. (مكاً) كلمة تصور من الطعام ذلك النوع الذي إنما يُقدَّم تفكهاً وتبسطاً وتجميلاً للمجلس وتوفيراً لأسباب المتعة فيه، حتى إن الشأن فيه أن يكون الإقبال عليه في حالة من الراحة والاتكاء. ولعلها أدركت بغريزتها النسائية ماسيؤول إليه أمرهن فاختارت هذا المتكاً ممايحتاج فيه إلى سكين ﴿وَأَتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سَكِينًا﴾.

د - وأحياناً يكون الاختيار للكلمة في مكان دون أماكن ويُستبدل بها غيرها لسرّ لطيف بالرغم من كون الموضوع واحداً، لكن الكلمة المختارة تُعطي مدلولاً خاصاً لا يُؤفّق حقه إلا استعمال الكلمة القرآنية المختارة.

فمثلاً: جاءت الملائكة بالبشرى لزكريا عليه السلام بيبى، وأيضاً جاءت بالبشرى للسيدة مريم العذراء بالمسيح عليه السلام. لكن وضع المبيّرين مختلف، وتلقّي الخبر منهما يكون له رد فعل يغيّر مافي نفس الآخر، واستغراب كل منهما يكون لجانب أشد التصاقاً بحاله ووضعه. قال زكريا عليه السلام عندما جاءته البشرى: ﴿قال ربّ أنى يكون له غلام وقد بَلَغَنِي الكِبَرُ وامرأتي عاقراً﴾ آل عمران/ ٤٠.

وقالت مريم عليها السلام عندما جاءتها البشرى: ﴿قالت ربّ أنى يكون لي ولد ولم يمسنني بشر﴾ آل عمران/ ٤٧.

ورد في كلام زكريا عليه السلام لفظ الغلام وهو الموافق والمطابق لحاله لأنه رجل متزوج ومن شأن المتزوجين كما هي العادة أن يولد لهم، ولكن الغريب في الأمر والمعجزة أن يولد له في هذه السن المتأخرة من حياته وامراته عاقرة فكانت الكلمة التي تؤدي الغرض ووجه الاستغراب هي كلمة (غلام).

أما مريم عليها السلام فالتعجب في جانب آخر إذ أنها عذراء ولم يمسسها بشر ولم تك بغياً، فالغربة والمعجزة أن تلد وهي عذراء فكانت الكلمة المعبرة التي تؤدي المعنى بدقة وتوضح وجه الاستغراب لها هي كلمة (ولد). فسبحان الذي أحاط علمه بسر اللغة ومكنوناتها ﴿الاعلم من خلّق وهو اللطيف الخبير﴾.

هـ - ومن هذا القليل استعمال كلمة (قرية) تارة واستعمال كلمة (المدينة) في موضع آخر في سورة الكهف.

فعندما كان الحديث عن بخل ولؤم السكان جاء التعبير بكلمة (أهل قرية) لأن مادة (قرى) تدل على الجمع ومن مستلزماته الإمساك والبخل، بينما عندما جاء الحديث عن الغلامين والخوف من ضياع كترهما جاء التعبير بـ (المدينة) لأن زحمة المدينة وكثرة الوجوه الغريبة فيها ألقت بإضاعة المساكين والضعفاء، كما أن التحايل والغبن يكثر في المدن أكثر منها في القرى. وكل ذلك تجده في قوله تعالى: ﴿فانطلقا حتى إذا أتيا أهل قرية استطعما أهلها فأبوا أن يضيّفوهما... وأما الجدار فكان لفلاّمين يمينين في المدينة...﴾ الكهف/ ٧٧، ٨٢.

و- في قصة يوسف عليه السلام استعمل التعبير القرآني كلمة ﴿فأكله الذئب﴾ ولم يستعمل افترسه الذئب، علماً أن الشائع في الاستعمال إطلاق كلمة الافتراس على مثل هذا النوع، وذلك للطيفة دقيقة وهي أن الافتراس من فعل السبع معناه القتل فحسب، وأصل الفرس: دق العتق، والقوم إنما ادَّعَوْا على الذئب أنه أكله أكلاً، وأتى على جميع أجزائه وأعضائه فلم يترك مفصلاً ولا عظماً. وذلك أنهم خافوا مطالبة أيهم إياهم بأثر باق منه يشهد بصحة ماذكروه فادَّعَوْا فيه الأكل ليزيلوا عن أنفسهم المطالبة، والفرس لايعطي تمام هذا المعنى فلم يصلح على هذا أن يعبر عنه إلا بأكل.

- وبالإضافة إلى اختيار الكلمة المناسبة لأداء المعنى المعين فإن النظم القرآني يهتم بالإيقاع والانسجام في اللفظ والنغم:

فيؤتى بالكلمة وتوضع في مكان معين من العبارة بحيث لو تغير وضعها تقدماً أو تأخيراً أو حذفاً لاختل ذاك التناسق اللفظي وذاك الوزن الخاص.

ففي قوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتُمُ اللَّاتَ وَالْمَرْيَ وَمَنَاةَ الثَّالِثَةَ الْأُخْرَى﴾ سورة النجم/ ١٩. فلو حُذفت كلمة (الأخرى) لاختلَّت الفاصلة ولتأثر الإيقاع، ولو قيل أفرأيتم اللات والعزى ومناة الأخرى بحذف كلمة (الثالثة) لاختل الوزن أيضاً.

وكذلك قوله تعالى: ﴿الْكُمُ الذَّكْرُ وَلَهُ الْأُنْثَى﴾، تلك إذن قسمة ضيزى، فلو قيل الكم الذكر وله الأنثى تلك قسمة ضيزى، بحذف كلمة (إذن) لاختل الإيقاع المستقيم بكلمة (إذن). فكان هذه الكلمات والحروف موزونة بميزان شديد الحساسية تعمله أخف الحركات والاهتزازات.

ومن هنا يبدو لنا بجلاء سبب إطلاق العرب الأوائل في بداية نزول الوحي اسم الشعر على القرآن الكريم، لأنهم لم يعهدوا هذه الحساسية وهذا الوزن وهذا النغم إلا في الشعر. ولكنهم عندما قاسوه على أوزان الشعر المعهودة لديهم، وجدوا القرآن الكريم - بالرغم من اشتماله على روعة الشعر وإيقاعه وحساسيته وتآلف كلماته واستخدامه التصوير البارع في التعبير، والمنطق الساحر في الإقناع - لم يتقيد بقيود الشعر الكثيرة من قافية موحدة وتفعيلة تامة. لذا وجدوا أن القرآن الكريم ملك حرية التعبير الكاملة عن جميع أغراضه العامة كما أنه بفواصله الخاصة به قد أوجد الإيقاع الخاص به فلم يملك قائلهم إلا أن يقول: إن له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أسفلهُ لمُعدق. وإن أعلاه لمُثير، وإنه ليعلو ولا يُعلى عليه، وإنه ليحطم ماتحته!!.

إعجاز الأسلوب القرآني الفريد^(١)

ويطلق الأسلوب في اللغة على الطريق الممتد ، ويقال للسطر من التخييل أسلوب . والأسلوب الطريق والوجه والمذهب ، والأسلوب الفن ، يقال : أخذ فلان في أساليب من القول ، أي أفانين منه .

وفي اصطلاح البلاغيين : هو طريقة اختيار الألفاظ وتأليفها للتعبير بها عن المعاني قصد الإيضاح والتأثير ، أو هو العبارات اللفظية المنسقة لأداء المعاني . فالأسلوب القرآني : هو طريقته التي انفرد بها في تأليف كلامه واختيار ألفاظه^(٢) ، ولقد تواضع العلماء قديماً وحديثاً على أن للقرآن أسلوباً خاصاً به مغايراً لأساليب العرب في الكتابة والخطابة والتأليف .

وكان العرب الفصحاء يدركون هذا التمايز في الأسلوب القرآني عن غيره من الأساليب . روى مسلم في صحيحه^(٣) (أن أنيساً أخا أبي ذر قال لأبي ذر : لقيت رجلاً بمكة على دينك ، يزعم أن الله أرسله ، قلت : فما يقول الناس ، قال : يقولون شاعر ، كاهن ، ساحر - وكان أنيس أحد الشعراء - قال أنيس : لقد سمعت قول الكهنة فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر فلم يلتئم على لسان أحد بعدي أنه شعر ، والله إنه لصادق وإنهم لكاذبون) .

ولقد أبرز العلماء ميزات للأسلوب القرآني اختص بها ومن بين سائر الكلام ، فمن هذه الميزات :

أولاً : المرونة والمطاوعة في التأويل :

نجد في الأسلوب القرآني مرونة في التأويل ومطاوعة على التقلب بحيث لا يدانيه

(١) مباحث في إعجاز القرآن : د . مصطفى مسلم / ص ١٣٥ - ١٤٥ ط دار المنارة - جدة .

(٢) «مناهل العرفان» للزرقاني ١٩٩/٢ .

(٣) صحيح مسلم ، كتاب فضائل الصحابة ج ٧ ص ١٥٣ .

أسلوب من الأساليب . وهذه المرونة في التأويل لا تحتمل الآراء المتصادمة أو المتناقضة وإنما مرونة تجعله واسع الدلالة سعة المورد الذي تزدهم عليه الوفود ثم تصدر عنه وهي ريانة راضية .

فالأسلوب القرآني يشفي قلوب العامة ويكفي الخاصة . فظاهره القريب يهدي الجماهير وسواد الناس ويملاً فراغ نفوسهم بالترغيب والترهيب والجمال الأخاذ في تعابيره ومشاهده . وباطنه العميق يشبع نهم الفلاسفة إلى مزيد من الحكمة والفكر ، يحل العقد الكبرى عندهم من مبدأ الكون ومتناه ونظامه ودقة صنعه وإبداعه .

وهذه المرونة من أسباب خلود القرآن فإن الأساليب العربية طوال أربعة عشر قرناً قد عراها كثير من التغيير والتولين اللفظي والذهني ، ومع ذلك فإن القرآن بقي خالداً بأسلوبه المتميز وبخصائصه الفريدة يتجدد مع العصور وظل رائع الأثر على تلامي الأجيال إلى هذه الأيام وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

إن الأسلوب القرآني لم يستغلق فهمه على العرب الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم ولم يكن لهم إلا الفطرة السليمة الذواقة للجمال . وفهمه وتفاعل معه من جاء بعد ذلك من أهل العلوم والأفكار ، وفهمه زعماء الفرق المختلفة على ضروب من التأويل . وقد أثبتت العلوم الحديثة المتطورة كثيراً من حقائقه التي كانت مخفية عن السابقين ، وفي علم الله ما يكون من بعد .

والمعهود من كلام الناس لا يحتمل كل ذلك ولا بعضه بل كلما كان نصاً في معناه كان أدنى إلى البلاغة . وكيفما قلبته رأيته وجهاً واحداً وصفة واحدة لأن الفصاحة لا تكون في الكلام إلا إبانة ، وهذه لا تفصح إلا بالمعنى المتعين ، وهذا المعنى محصور في غرضه الباعث عليه .

لقد فهم علماء السلف رضوان الله عليهم الآيات الكريمة : ﴿ اِيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ . بلى قادرين على أَنْ نُسَوِّيَ بِنَانِهِ ﴾ القيامة / ٣ ، ٤ ، ﴿ وَالْأَرْضُ بَعْدُ ذَلِكَ ذَكَاةً ﴾ النازعات / ٣٠ ، غير مافهم العلماء المتأخرون بعد تطور العلوم الطبية والفلكية ولم يبعد عن الصواب من قال : (الزمن خير مفسر للقرآن) . وماذا إلا لأن القرآن كتاب الإنسانية الخالد الذي لا يستطيع جيل من الأجيال استفراغ مافيه من كنوز العلوم والحكم والحقائق .

ثانياً : اعتماد الأسلوب القرآني الطريقة التصويرية في التعبير :

من السمات البارزة للأسلوب القرآني هو اعتماده الطريقة التصويرية للتعبير عن

المعاني والأفكار التي يريد إيضاحها ، سواء كانت معاني ذهنية مجردة ، أو قصصاً غابرة ، أو مشاهد ليوم القيامة وغيرها من المجالات .

إن الأسلوب القرآني يحمل تاليةً إلى أجواء الصورة وكأنه ينظر في تفصيلات الصورة المجسّمة أمامه ، وكأن المشهد يجري أمامه حياً متحركاً ، ولا شك أن الفكرة أو المعنى الذي يُراد إيضاحه يكون أقرب إلى الفهم وأوضح في الذهن فيما لو نقل المعنى مجرداً من تلك الصور الحية . ويكفي لبيان هذه الميزة أن نتصور هذه المعاني كلها في صورها التجريدية ثم نقارنها بالصورة التي وضعها فيها القرآن الكريم ، فمثلاً :

أ- معني النفور الشديد من دعوة الإيمان : إذا أردنا أن نتصور هذا المعنى مجرداً في الذهن يمكن أن نقول : إنهم ينفرون أشد نفرة من دعوة الإيمان فيتملّى الذهن وحده معنى النفور في برود وسكون .

ولنمعن النظر في الأسلوب القرآني وهو يُصوّر لنا هذا المعنى في هذا الصورة الغريبة : ﴿فَمَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُثْرَضِينَ كَأَنَّهُمْ حُمْرٌ مُّسْتَنْفِرَةٌ فَرَّتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ﴾ المدثر/ ٤٩-٥١ . فتشترك مع الذهن حاسة النظر وملكة الخيال وانفعال السخرية وشعور الجمال : السخرية من هؤلاء الذين ينفرون كما تفر حمر الوحش من الأسد لالشيء إلا لأنهم يُدْعَوْنَ إلى الإيمان ، والجمال الذي يرسم في حركة الصورة حينما يتملّأها الخيال في إطار من الطبيعة تشرّد فيه الحمر يتبعها قسورة ، فالتعبير هنا يحرك مشاعر القارئ وتنفعل نفسه مع الصورة التي نقلت إليه وفي ثناياها الاستهزاء بالمعرضين .

ب - ومعنى عجز الآلهة المزعومة التي يعبدها المشركون من دون الله : يمكن أن يُؤدّى في عدة تعبيرات ذهنية مجردة ، كأن يقول : إن ماتعبدون من دون الله لأعجز عن خلقٍ أحقر الأشياء فيصل المعنى إلى الذهن مجرداً باهتاً .

ولكن التعبير التصويري يؤديه في هذه الصور ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَاباً وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذَّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ الحج/ ٧٣ . فيشخص هذا المعنى ويزر في تلك الصور المتحركة المتعاقبة :

﴿لَنْ يَخْلُقُوا ذَبَاباً﴾ درجة ، ﴿ولو اجتمعوا له﴾ وهذه أخرى ، ﴿إِنْ يَسْلُبْهُمُ الذَّبَابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ﴾ وهذه ثالثة ، والاقتران بين الطالب والمطلوب ﴿ضعف الطالب والمطلوب﴾ وهي الرابعة .

إنه الضعف المُزري الذي يُثير في النفس السخرية اللاذعة والاحتقار المهين ، ولكن أهذه مبالغة؟ وهل البلاغة فيها هي الغلو؟ .

كلا فهذه حقيقة واقعة بسيطة . إن هؤلاء الآلهة ﴿لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له﴾ . والذباب صغير حقير ولكن الإعجاز في خلقه هو الإعجاز في خلق الجمل والفيل؛ إنها معجزة الحياة يستوي فيها الجسيم والهزيل . فليست المعجزة هي خلق الهائل من الأحياء إنما هي خلق الخلية الحية كالهباء . والصورة الفنية هنا هي الربط بين قدسية الآلهة المزعومة حيث وُضعت في أذهان معتققيها في أقدم صورة والربط بينها وبين مخلوق صغير حقير . ولم يكف بهذا الربط بل حشد لهذا المخلوق جموعاً ضخمة فعجزوا عن خلقه ، ثم في الصورة التي تنطبع في الذهن من طيرانهم خلف الذباب لاستنقاذ مايسلبه ، وفشلهم مع اتباعهم عن هذا الاستنقاذ .

جـ - ومعنى انتهاء الكون ثم محاسبة الناس على أعمالهم ودخول المحسنين الجنة والمسيئين النار ، ولذة أهل النعيم والترحيب بهم وشقاء أهل العذاب وتبكيتهم : كل ذلك يمكن أن يفهمها الإنسان مجردة وهي حقائق لم تقع بعد . فالتعبير عنها بكلمات مجردة تنقل الفكرة إلى الذهن باهتة .

ولكن التعبير القرآني وضع لنا هذه الحقائق في إطار زاوٍ حافل بالحركة ، وكان المرء - حين يقرأها - يعيش أجواءها ، وتنقبض النفس لمشاهدة الأحوال وتخضع لقوة الجبار وتتشوق لمرافقة السعداء .

فهذا مشهد يوم القيامة قال تعالى : ﴿وما قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، وَالسَّمَاوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ ، سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ . وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصُيِّرَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ . وَأُشْرِقَتِ الْأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشَّهَادَةِ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ . وَوُتِّبَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَاعْمَلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ . وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رَسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُم وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا؟ قَالُوا : بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ . قِيلَ : ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ . وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰ إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبَّكُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ . وَقَالُوا : الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي صَدَقَنَا وَعْدَهُ وَأَوْرَثَنَا الْأَرْضَ نَتَّبِعُ مِنْ الْجَنَّةِ حَيْثُ نَشَاءُ فَنِعْمَ أَجْرُ الْعَامِلِينَ . وَتَرَىٰ

الملائكة حائِفينَ من حولِ العرشِ يسبِّحونَ بحمْدِ ربِّهمْ وقُضِيَ بينهم بالحقِّ وقيلَ الحمدُ
للهِ ربِّ العالمينَ ﴿ الزمر ٦٦-٧٥ .

إنه مشهد رائع حافل ، يبدأ متحركاً ثم يسير ويبدأ حتى تهدأ كل حركة ويسكن كل شيء ويخيم على الساحة جلال الصمت و رهبة الخشوع . ويبدأ المشهد بالأرض جميعاً في قبضة ذي الجلال ، وهامي السماوات جميعاً مطويات يمينه . إنها صورة يرتجف لها الحسن ويعجز عن تصويرها الخيال ، ثم هاهي ذي الصيحة الأولى تنبعث ، فيصعق من يكون باقياً على ظهرها من الأحياء . ولانعلم كم مضى من الوقت حتى انبعثت الصيحة الثانية ﴿فإذا هم قيامٌ ينظرون﴾ . وفي غير ضجيج وعجيج ، تجتمع الخلائق . وذلك أن كل شيء في هذا المشهد يتم في هدوء ويتحرك في سكون . فعرش ربك هنا تحفّ به الملائكة فما يليق الصخب في مثل هذا المقام . ﴿وأشرقت الأرض بنور ربها﴾ أرض الساحة التي يتم فيها الاستعراض ، أشرقت بالنور الهادئ ﴿نور ربها﴾ فإذا هي تكاد تشق من الإشراق ، ﴿وجيء بالنبیین والشهداء﴾ ، وطوبى كل خصام وجدال في هذا المشهد خاصة ﴿وقُضِيَ بينهم بالحق وهم لا يظلمون ، ووُئيت كل نفس ماعملت وهو أعلم بما يفعلون﴾ . فلا حاجة إلى كلمة واحدة تقال ولا إلى صوت واحد يرتفع . وهكذا تجمل هنا عملية الحساب والجزاء ، لأن المقام مقام روعة وجلال .

وإذا تم الحساب وعرف المصير وُجّه كل فريق إلى مأواه ﴿وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً﴾ حتى إذا وصلوا إليها بعيداً هناك استقبلهم خزنتها بتسجيل استحقاقهم لها وتذكيرهم بما جاء بهم إليها ﴿قال لهم خزنتها ألم يأتكم رسلٌ منكم يتلونَ عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاءَ يومكمُ هذا ، قالوا : بلى ولكن حَقَّتْ كلمةُ العذاب على الكافرين﴾ فالموقف موقف إذعان واعتراف وتسليم ﴿قيل ادخلوا أبواب جهنم خالدين فيها ، فبش مشى المتكبرين﴾ . وكذلك وُجّه الذين اتقوا ربهم إلى الجنة حتى إذا وصلوا هناك استقبلهم خزنتها بالسلام والثناء ﴿سلامٌ عليكم طِبْثم فادخلوها خالدين﴾ وارتفعت أصوات أهل الجنة بالحمد : والدعاء ﴿الحمد لله الذي صدّقنا وعده وأورثنا الأرضَ ننبؤاً من الجنة حيث نشاء﴾ .

ثم يُختم الشريط المصوّر بما يُلقِي في النفس روعة ورهبة وجلالاً تتسق مع المشهد كله وتختمه خير ختام ﴿وترى الملائكة حائِفينَ من حولِ العرشِ يسبِّحونَ بحمْدِ

رَبِّهِمْ وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَقِيلَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ»^(١) .

ثالثاً : طريقة الأسلوب القرآني المتميزة في المُحَاجَّة والاستدلال :

لقد أورد القرآن الكريم من أفانين القول في سياق مُحَاجَّة الكفار وتصحيح زيف المحرّفين والوعد لأوليائه والوعيد لأعدائه ما يخرج عن طوق البشر الإحاطة بمثل هذه الأساليب في أوقات متقاربة أو متباعدة؛ فالنفس الإنسانية لا تستطيع التحول في لحظات عابرة في جميع الاتجاهات بل تتأثر بحالة معينة ولا تستطيع التحول عنها إلى اتجاه معاكس إلا ضمن بيئة ملائمة . أما الأسلوب القرآني فيلاحظ فيه الانتقال في شتى الاتجاهات في لحظات متقاربة متتالية ، وأحياناً تكون مترادفة . فمن مشرّع حكيم يقر الدساتير والأنظمة في تودة وأناة وروية ، إلى وعيد وتهديد لمن يرغب عن التشريعات ويريه سوء المصير ، إلى غافر يقبل توبة العبد إذا تاب وأناب ، إلى معلم يعلم كيفية الالتجاء إلى الخالق سبحانه وتعالى بأدعية لا تخطر على البال ، إلى مقر لحقائق الكون الكبرى ، ومن مربيّات الناس ومألفاتهم والتدرج بهم إلى أسرار سنن الله في الكون .

لتأمل قوله تعالى : ﴿مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَصَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ . لَوْ لَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ . فَكُلُوا مِمَّا خَنَسْتُمْ حِلَالاً طَيِّباً وَأَقْبُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ الأنفال / ٦٧-٦٩ .

هاتان الآيتان نزلتا بعد إطلاق أسرى بدر وقبول الفداء منهم . وقد بدأنا بالتخطئة والاستنكار لهذه الفعلة ، ثم لم تلبث أن ختمتا بإقرارها وتطيب النفوس بها بل صارت هذه السابقة التي وقع التائب عليها هي القاعدة لما جاء بعدها .

فهل الحال النفسية التي يصدر عنها أول هذا الكلام - لو كان عن النفس مصدره - يمكن أن يصدر عنها آخره ولما تمض بينهما فترة تفصل بين زمجرة الغضب وبين ابتسامة الرضى والاستحسان؟ إن هذين الخاطرين لو فرض صدورهما عن النفس متعاقبين لكان الثاني منهما إضراباً عن الأول ماحياً ولرجع آخر الفكر لما جرى به العمل . فأي داع دعا إلى تصوير ذلك الخاطر المحمود وتسجيله على مافيه من تقييع علني وتنغيص لهذه الطعمة التي يراد جعلها حلالاً طيبة؟

(١) انظر أمثلة هذه الميزة في «مشاهد القيامة» و «التصوير الفني في القرآن» لسيد قطب .

إن الذي يفهمه علماء النفس من قراءة هذا النص أن هاهنا شخصيتين منفصلتين وأن هذا صوت سيد يقول لعبده : لقد أخطأت ولكن عفوت عنك وأذنت لك^(١) .

ومن الأمور المميّزة للأسلوب القرآني طريقة استدلاله بأشياء وأحداث مثيرة صغيرة في ظاهرها وهي ذات حقيقة ضخمة تتناسب والموضوع الضخم الذي يستدل بها عليه . تأمل في قوله تعالى : ﴿ نحن خلقناكم فلولا تصدّقون ، أفأنتم ماثمّنون أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ، نحن قدّرنا بينكم الموت ومانحن بمسبوقين على أن نبذل أمثالكم وننشئكم فيما لا تعلمون . ولقد علمتم النشأة الأولى فلولا تذكّرون . أفأنتم ماثحرون . أنتم تزرعون أم نحن الزارعون . لو نشاء لجعلناه خيطاً فظنّتم تفكهون . إنّنا لمُغرمون بل نحن محرومون . أفأنتم الماء الذي تشربون . أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المّنزلون ، لو نشاء لجعلناه أجاجاً فلولا تشكرون . أفأنتم النار التي تورون ، أنتم أنشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعاً للمّقوين . فسيح باسم ربّك العظيم ﴾ الواقعة/ ٥٧-٧٤ .

ومثل هذه الإشارات ترد كثيراً في القرآن الكريم لتجعل من مآلوفات البشر وحوادثهم المكرورة قضايا كونية كبرى يكشف فيها عن النواميس الإلهية في الوجود . يقرر بها عقيدة ضخمة شاملة وتصوراً كاملاً لهذا الوجود كما يجعل منها منهجاً للنظر والتفكير وحياة للأرواح والقلوب ويقتطع في المشاعر والحواس .

إن هذه الظواهر هي حقائق ضخمة ولكن الإلف والإعادة بلدت حواس الناس فلا تشعر بدلالاتها .

إن الأنفس من صنع الله ، وماحول الناس من ظواهر الكون من إبداع قدرته ، والمعجزة كامنة في كل ماتبذعه يده ، وهذا القرآن قرآنه . ومن ثم يأخذهم إلى هذه المعجزات الكامنة فيهم والمبثوة في الكون من حولهم ، يأخذهم إلى هذه الخوارق المألوفة لديهم التي يرونها ولايحسّون حقيقة الإعجاز فيها لأنهم غافلون عن مواضع الإعجاز فيها .

يمسهم الأسلوب القرآني بهذه اللفات الاستفهامية المتتالية ليفتح عيونهم على السر الهائل المكنون ، سرّ القدرة العظيمة وسرّ الوحدة المفردة ليثير في فطرتهم الإقرار

(١) انظر هذا وغيره من الأمثلة في كتاب «النبا العظيم» للدكتور محمد عبد الله دراز ، ص ١٩ .

الأول في عالم الذر . . . «ألسْتُ بربكم»؟ الأعراف/ ١٧٢ .

إن طريقة القرآن الكريم في مخاطبة الفطرة البشرية تدل بذاتها على مصدره إنه المصدر الذي صدر منه الكون؛ فطريقة بنائه هي طريقة بناء الكون من أبسط المواد الكونية تنشأ أعقد الأشكال وأضخم الخلقات .

والقرآن يتخذ من أبسط المشاهدات المألوفة للبشر مادة لبناء أضخم عقيدة دينية وأوسع تصور كوني؛ المشاهدات التي تدخل في تجارب كل إنسان : النسل ، الزرع ، الماء ، النار ، الموت .

وأي إنسان على ظهر هذه الأرض لم تدخل هذه المشاهدات في تجاربه؟ أي إنسان مهما كان بدائياً لم يشهد نشأة جنينية ونشأة حياة نباتية ومسقط ماء وموقد نار ولحظة وفاة؟

إن انفراد الأسلوب القرآني بهذه الميزات لهو دليل مصدره الإلهي فما الأسلوب إلا صورة فكرية عن صاحبه .

فالحذاق من الكتاب عندما يقرأون قطعة نثرية أو قصيدة شعرية لكاتب ما يدركون بملكتهم الأدبية وحسهم المرهف الحالة النفسية التي كان عليها الكاتب عند الكتابة بل يذهبون إلى أكثر من هذا ، إلى ما وراء السطور فيستنبطون كثيراً من أوصافه النفسية والخلقية فيحكمون عليه أنه عاطفي المزاج أو قوي النفس أو صاحب عقل ودراية أو حقود أو منافق أو غير ذلك من الأمور الخاصة .

ولاشك أن هذا إدراك أعظم وأرقى من العلوم الظاهرة والتي تقف بأصحابها عند جودة الأسلوب ومتانتها وقوة السبك ورسائته ، فإذا كان الأدباء وأهل البلاغة يدركون هذه الحقائق بعد العلوم الاكتسابية التي تعلموها ومارسوها فإن العربي الذواق لأساليب الكلام ، وكان عمدة شغله وصناعته وأحد دعائم حياته فنون القول وتدقيق مواطن الجمال في الكلام ، لاشك أنه كان من أعرف الناس بما وراء الألفاظ والكلمات وكان يدرك بنظرة السليمة وسليقته الصافية حقيقة الذات التي وراء الأسلوب .

إن العربي الذواق لجمال القول أدرك أسلوب القرآن المتميز وعرف أن سبب هذا التميز هو أن القرآن من مصدر غير مصادر كلام البشر ومن ذات غير مخلوقة لذا تميز الأسلوب عن أساليب المخلوق ، فمادامت قوة الخلق والإبداع من العدم ليس في مقدور البشر بل وكل المخلوقات فلن يستطيع أحد منهم إيجاد أسلوب يشبه أو يقارب الأسلوب القرآني .

ولعل هذا الإدراك هو الذي منع العقلاء وأهل الفصاحة واللسن من سائر العرب من محاكاة القرآن . ومن تعرّض لمحاكاته صار أضحوكة بين الناس لأنه حاول أن يخرج عن طبيعته وذاته ونفسيته إلى محاكاة الذات الإلهية .

أورد الإمام ابن كثير في تفسيره قال : (. . .) سأل الصديق بعض أصحاب مسيئة الكذاب بعد أن رجعوا إلى دين الله أن يقرأوا عليه شيئاً من قرآن مسيئة . فسألوه أن يعفيهم من ذلك فأبى عليهم إلا أن يقرأوا عليه شيئاً منه ليسمعه من لم يسمعه من الناس فيعرفوا فضل ما هم عليه من الهدى والعلم ، فقرأوا عليه قوله (والطاحنات طحناً والعاجنات عجنأً والخابزات خبزاً واللاقمات لقماً إهالة وسمناً ، إن قريشاً قوم يعتدون) ، وقوله (ياضفدع بنت ضفدعين ، نقى ماتنقين ، نصفك في الماء ونصفك في الطين ، لا الماء تكدرين ولا الشارب تمنعين) إلى غير ذلك من هذياناته ، فقال أبو بكر رضي الله عنه : وَيَحْكُمُ أَيْنَ كَانَ يَذْهَبُ بِعَقُولِكُمْ؟! والله إن هذا لم يخرج من إل - أي (إله) ^(١) .

لقد أدرك الصديق رضي الله عنه بحسه المرهف وذوقه السليم النفسية التي خرجت منها العبارات والتراكيب وطريقة صياغتها والصبغة الخاصة بنفسية قائلها؛ إنها طبيعة بشرية وليست صادرة عن الخالق سبحانه وتعالى .

فإن الفرق بين القرآن العظيم وكلام البشر كالفرق بين الخالق سبحانه وتعالى وبين المخلوق .

وجه دلالة الإعجاز البياني على مصدر القرآن

من خلال استعراضنا لجوانب من بيان القرآن الكريم مما يتعلق بفصاحته وبلاغته ونظمه وأسلوبه ، وذكر الأمثلة على ذلك من الآيات الكريمة ، يتضح لكل منصف أن أفانين القول التي وردت في القرآن الكريم من فاتحته إلى خاتمته لا تخلو أية من آياته عن نكتة لطيفة أو حكمة طريفة أو بيان مفحم أو عبارة تأخذ بالألباب وتحير العقول بجمالها وبلاغتها .

ولهذا كان بيانه كالسحر الحلال يستولي على عقل السامع ويسلبه إرادته ويسخره لأغراضه ، ولهذا كان القرآن معجزاً ، أعجز الثقلين أن يأتوا بمثل أقصر سورة منه فكان المعجزة الخالدة المستمرة إلى يوم القيامة والحجة القاهرة لمن كان له قلب أو القى

(١) انظر تفسير ابن كثير ٤١١/٢ .

السمع وهو شهيد .

إن الأسلوب المتميز من بين الأساليب الذي اختص به القرآن الكريم ، والنظم المحكم الدقيق الذي لاتكاد العقول تدرك بعض خصائصه إلا وبهرها الجمال وتسيطر عليها الدهشة ، مع استمرار الفصاحة والبلاغة من أول آياته إلى آخرها لدليل واضح على أن هذا الكتاب الكريم ليس من صنع البشر وإنما هو تنزيل من خالق القوى والقدر ﴿وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ، قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ الفرقان/ ٥-٦ ، ﴿وما كان هذا القرآن أن يُفترى من دون الله ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من ربِّ العالمين﴾ يونس/ ٣٧ .

وعلى هذه العظمة من السمو والرفقة للأسلوب القرآني الحكيم، كان يتلمس علماؤنا أسرارَهُ ودقائقَهُ في مؤلفاتهم ومصنّفاتهم، ما بين متوسّع ومقتَصِب، ضمن الثوابت الشرعية والضوابط العلمية، ثم نبث نابتة السوء باسم المعاصرة والتطوّر، أخذت تتناول على قدسيّة القرآن العظيم تحت اسم «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» محاولة صرف الباحثين إلى دراسة الأسلوب القرآني ونظمه المحكم على منهج جدلي فلسفي يُضفي عليه طابع التطوّر والمعاصرة ضمن مفاهيم غربية مادية مشوبة بنظريات الإلحاد والتحلل من الثوابت الشرعية والضوابط العلمية التي نهج عليها علماؤنا كابرًا عن كابر .

ولهذا كان الواجب على علماء الأمة ضرب هذا المنهج الباطل وتحذير الأمة من خطورة خسوفه بينها أو تسرب بعض طروحاته إلى أسماعها لئلا تتلوّث أفكارها من سمومه وضلالاته .

عظمة القرآن ووحدته الموضوعية^(١)

قال الجن حينما سمعوا القرآن من النبي ﷺ : «إنا سمعنا قرآنًا عجبا . يهدي إلى الرشd فأما به ولن نشرك بربنا أحدا»^(٢) . واهتزت عقيدة الشرك في قلب رجل من صناديد الفكر هو الوليد بن المغيرة حينما سمع بعض آياته من الرسول فقال : «ما هو بقول بشر» . وفزع أئمة الكفر من قريش حينما شهدوا تأثير القرآن على القلوب فقالوا لزعمائهم «لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون»^(٣) . سعى أهل النباهة من فتيان العرب من أمثال عبد الله بن مسعود إلى رسول الله ﷺ فقال : «يا رسول الله ، علمني من هذا القرآن» . حينما استأثر قلبه لسلطانه ، واستشرف على عتبات الإسلام .

تلك دلالة لاشك فيها من دلائل عظمة القرآن بالنسبة للمؤمنين ، يقابلها على نفس الطريق عنف المقاومة لهذا السلطان من جانب الكفار ، وجبروت التعذيب الذي تسلطوا به على المؤمنين في مطلع الدعوة ، فما لبثوا أن فجروا جديداً من يتابع الإيمان بما ابتكروا من وسائل التعذيب ، ووجدوا شتات الدعاة الأوائل تحت راية الرسول بما نفثوا من سموم الحقد والعداء ، فكان القرآن هو محور هذا الصراع الرهيب العجيب الذي دارت رحاه على رمال جزيرة العرب ، والذي طاشت في نهايته أحلام المعارضين على وفرة المال والرجال والسلاح حينما ذلت رقابهم أمام قلة من الرجال ، وقلة من المال ، وإعواز في السلاح ، يحدوها طوفان غامر من اليقين ، وإيمان راسخ بالقرآن ، وانطباع كامل بأخلاقه ، فتحطمت إلى الأبد شوكة الكفر، وشمخ إلى الأبد صرح القرآن .

وثانية الدلائل على عظمة القرآن : صموده أمام دعوات الهدم على مدى التاريخ الطويل ، وتصديه لهجمات الإلحاد الضارية في ميدان الحرب وفي ميدان الفكر ، فلم

(١) عظمة القرآن : عبد القادر عطا/ ١٠٢-١١٠/ بتصرف يسير .

(٢) سورة : الجن/ آية ١ .

(٣) سورة : فصلت/ آية ٢٦ .

تزده تلك الهجمات إلا انطلاقاً إلى آفاق جديدة من الأرض وانبلاجاً لنوره على صدر الزمان ، وأعماقاً بعيدة لجذوره في القلوب . ولئن ذبلت في بعض أحقاب التاريخ همم أهل الحضارة القرآنية تحت تأثير الصدمات المتوالية ، واستجابة المؤمنين إلى أهواء النفوس ، فما كان هذا الذبول إلا غفوة أعقبها استجماع للقوة ، ورؤية مضيئة لحركة التاريخ كما حددها القرآن ، فعاد الذبول نضارة ، وكان من الضعف قوة ، ومن آمال أهل الإلحاد تمزق وخيبة وأغلال ، وكان من هذا التمزق دفع لمجتمع المؤمنين إلى ذروة التاريخ .

لقد عانت حضارة القرآن من تسلط قريش ، ومن جبروت الروم ، ومن جدل الفرس ، ومن سلاح الصليبية ، من لؤم اليهودية العالمية ، وأخيراً من بريق المذاهب السياسية والاقتصادية وأخصها الشيوعية اليهودية ، وكان من أبناء الاسلام أعوان لهؤلاء المتآمرين حاولوا قهر الاعزة على أوهام الشيوعية ، فأعزوا في سبيل ذلك أهل الأهواء ، ولكن أولئك جميعاً ذلوا أمام صلابة الحق في القرآن ، وذهلوا حينما عجز المال والسلاح والتكتل الدولي عن النيل من إيمان أهل القرآن .

وثالثة الدلائل على عظمة القرآن بعد الصمود الذي لا يستطيعه إلا الكتاب الحكيم : أنه كتاب حضارة تدرج تحت لوائه الأمم والشعوب ، وتستسلم حضاراتها لحضارته ، فماتلبت أن يحتويها الإطار الشامل للإسلام الرحيب ، وتتخذ نفس الصفة الشرعية لخير أمة أخرجت للناس ، تأمر بالمعروف ، وتنهى عن المنكر داخل النفس وخارجها ، وداخل الأمة وبين الأمم الأخرى ، وتؤمن بالحق والعدل عن الله فيصلاً وحكماً بين الجميع ، فلاعنصرية ولاعصبية ، ولااستمساك بالذات ، بل هو إنكار لها ، وعمل للمجموع مع الاحتفاظ بكرامة الفرد وكيانه بعيداً عن أي لون من ألوان الامتهان .

فعظمة القرآن نابعة من أنه لا يستجدي الشعوب أن يتبعوه ، ولا الحضارات أن تذوب في حضارته ، بل يعرض أمام العالم وجهه السمع الكريم ، ويكشف عن رحابته النادرة بين دساتير الحضارة ، ويعلن حربه الضارية على الظلم وامتهان الإنسان للإنسان ، وامتهان الإنسان لنفسه وعقله ، ويكشف الستر البراق عن عفن اللؤم البشري ، وعن الحبائل التي ينصبها أعداء العدل ، ومتلصصة الفكر ، أولئك الذين يحاربون الله ورسوله لا شيء إلا لأن الإيمان بهما يقف سداً منيعاً أمام أطماعهم وشهواتهم التي لاتدع قوتاً .

حطمتها ، ولا مثلاً أعلا لإشوهته وأذلت أهله ، والداعين إليه .

وعلى مر القرون مازال كبار المفكرين في العالم كله يشيدون بتلك السمة التي استعصى عليهم الجهر بها هذا الردح الطويل من الزمان .

ورابعة الدلائل على عظمة القرآن : سرعته المذهلة في بناء الحضارات إذا أتيح له من ينفذ تعاليمه من القادة على نفسه وأهله قبل أن ينفذها بين جمهور المؤمنين .

وهو الأمر الذي أهاب الله تعالى بالمؤمنين أن يحرصوا عليه ، وضمن لهم في سبيل ذلك تمكيناً سريعاً ، وزحفاً منصوراً ، وعوناً من جند الله يفوق كل قوة ، وكل جبروت ، وكل سلاح ، وصادف هذا النصح الإلهي من القلوب حباً لا يقاوم للقرآن .

وتدعيماً لذلك فقد كان القرآن دستوراً حضارياً للعمل على مستوى الأمة كلها ، عن طريق الحفظ والدرس والتلاوة الواعية والتدبر والاقتناع والتذكر والتطبيق السلوكي الدقيق . والدليل على أن تحويل القرآن إلى سلوك لم يفرض على المؤمنين بعضا السلطان ، وإنما جاء عن طريق الدرس والتدبر والاقتناع بعظمة القرآن مارواه أبو عبد الرحمن السلمي قال : حدثنا الذين كانوا يقرأون القرآن كعثمان وعبد الله بن مسعود وغيرهما : أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشر آيات لم يتجاوزوها حتى يعلموا مافيها من العلم والعمل . قالوا : فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً . ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة .

وقال أنس بن مالك : «كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جد في أعيننا» . وأقام عبد الله بن عمر على حفظ البقرة ثماني سنين .

ويضيق بنا المقام إذا استقصينا أقوال الصحابة في هذا الصدد ، ولكن الذي نريد أن نوضحه هنا هو أن سرعة الحضارة القرآنية في الانتشار والتأصل نابعة من هذا ينبوع العريق في الأصالة ، فلا تتعثر الحضارات إلا من جهل الشعوب بالدساتير وأهدافها ، أو من قصور تلك الدساتير في ذاتها ، أو في إقناع الشعوب بجدواها ، وفي كلا الحالين تختلف الشعوب مع السلطات ، وتتمرد على القانون ، ومن هنا لاتسرع الحضارة في سيرها نحو غايتها على فرض صلاحيتها ، فضلاً عن النفقات الهائلة التي يتطلبها إيقاف التيار المتمرد على السلطة ، وتعويق السلطة لذلك عن المضي إلى غايتها .

أما حضارة القرآن فتختلف عن جميع الحضارات من هذه الوجهة ، فالقرآن هو الفطرة البشرية التي لا تختلف فيها أمة ولا جنس ، فهو مقنع لجميع الناس بجدواه وعظيم عائده ، ودافع لهم بما يحتويه من وجوه الحكمة الملائمة لجميع الأجناس إلى الدرس والتدبر الذي لا يزيد الناس إلا إيماناً وإمعاناً في استكشاف الحكم التي لا تنتهي ، ولا تضعف في قوتها على كثرتها الكاثرة ، ومن هنا كان العلم بدستور الحضارة الإسلامية إلى جانب الإقتناع به عاملاً رئيسياً من عوامل السرعة في البناء ، والقوة في الأسس التي تقوم عليها الحضارة ، وتوفير جهود السلطات الحاكمة حيث تفرغ لارتياح آفاق جديدة لإقامة صرح الإسلام على أرضها .

ولقد أمر رب القرآن بتدبر القرآن فقال تعالى : ﴿ كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ ﴾^(١) . ونعى على من لا يتدبرونه فقال : ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ ﴾^(٢) ؟ ولا يمكن أن يكون التدبر إلا مقروناً بفقه المعاني والأهداف والحكمة . ولهذا لم يؤثر خلاف بين الصحابة على معاني القرآن إلا نادراً ، ولم يتهرب المخالفون للشرعية من الحدود المشروعة لأمثالهم ، بل تقدموا إلى رسول الله ﷺ طالين إقامة الحد عليهم ، رغم محاولات ردهم عن الاعتراف المشروعة للثبوت من أهلية طالب الحد ، وجديته في طلب التطهير من الذنب ، حيث وصل هذا التطهير إلى الموت رجماً بالحجارة ، وما كان ذلك إلا لأن هؤلاء قد وصلوا إلى درجة من الوعي القرآني والإسلامي لم يصل إليها واضعو الدساتير الأرضية فضلاً عن الشعوب المحكومة بها .

تلك عظمة لاتساق إليها الشعوب بالعصا ، وإنما تقوم على رعايتها الشعوب بمحض الإيمان والغيرة والعلم والتطلع إلى مزيد من النجاح ، الأمر الذي استطاع به الرسول ﷺ وخلفاؤه من بناء أعظم حضارة عرفها التاريخ في ربع قرن من الزمان ، لا يكفي لإصلاح مدينة واحدة تحت لواء دستور أرضي في أي دولة من دول العالم ، وفي جميع أحقاب التاريخ .

ولعل هذا المعنى العظيم هو الذي يفسر لنا الحوافز التي شرعها الله تعالى لحفاظ القرآن ، والتأليل له في مختلف الأوقات لاسيما قرآن الفجر المشهود ، حيث يصل الإنسان في هذا الوقت إلى درجة عليا من الصفاء الذي يهيء لمن يصاحب القرآن فيه

(١) سورة : ص ، آية : ٢٩ .

(٢) سورة : النساء ، آية : ٨٢ .

فهما لا يمكن أن يتيسر في وقت آخر . . . حتى لقد شجع النبي ﷺ من يقرأ القرآن بلانهم تذرعاً إلى دفعه إلى درجة من الفهم فيما بعد ، وكذلك من تشق عليهم القراءة تدريباً لهم على أن يألوا القرآن فتسهل عليهم قراءته ، ثم فهمه وتدبره . وكان القرآن شرطاً لصحة الصلاة ، وأفضل ما يتقرب به العبد إلى ربه ، إلى آخر ما هو مسطور في السنة النبوية المشرفة . . .

وخامسة الدلائل على عظمة القرآن : أن إجماع أهله حجة على الناس جميعاً في مختلف العصور ، ولم يمنح الله تلك الصفة على المستوى العالمي لأمة غير أمة القرآن ، وما كانت عظمة تلك الأمة على هذه الصورة العجيبة إلا من عظمة دستورها : كتاب الله الحكيم .

والذي يتصل بالقرآن من دلائل حجة الإجماع على العالم قول الله تعالى : ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ﴾^(١) . ولا خروج إلى النور إلا بالقرآن ، فإذا أجمعوا على باطل كانت نتيجة إجماعهم إما بقاء الناس في الظلمات ، وإما إعادة الناس من النور إلى الظلمات ، وهو ما يشهد التاريخ بخلافه ، إذ أن أمة القرآن بقيادة رسولهم ﷺ ومن بعده الأئمة جاهدوا الناس لإنقاذهم من شؤم الظلام إلى وضوح النور ، وما زال إجماعهم هكذا في مجال الرأي والفكر والاستنباط .

وحينما أعطى الله تعالى أمة القرآن سلطان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر كان ذلك سلطاناً من الله تعالى لهم أن يصيوا الحق فيما كان معروفاً أو منكراً عند الله حينما يجمعون على أحدهما أو عليهما معاً أو يختلفون فلا يعدوهم الحق .

وكذلك يقول الله تعالى عن أمة القرآن : ﴿وكذلك جعلناكم أمةً وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً﴾^(٢) . فالوسط : من يرتضى قوله . والشاهد : من يكون قوله حجة في مجلس القضاء للفصل في الخصومات ، وهو إيدان بأن الحق لا يعدوهم مجتمعين أو مختلفين .

وهذه الصفة وإن كانت لأمة القرآن فإنما اكتسبوها من القرآن ، فلولا أن القرآن مهيمن على جميع الكتب ورسوله شاهد على شهداء الأمم كلها ، وفصل بين الحق الذي هو من عند الله وبين باطل تلك الأمم ، لما كان لأهله تلك الصفة ، ولاتلك

(١) سورة : البقرة ، آية : ٢٥٧ .

(٢) سورة : البقرة ، آية : ١٤٣ .

العظمة المستمدة من القرآن على مستوى العالم كله في الدنيا ، والتي تتعدى الدنيا إلى مجلس القضاء في الآخرة حيث يشهد رسول القرآن على شهداء الأمم جميعاً .

وأخيراً فإن إعجاز القرآن هو العظمة الذاتية التي حار العلماء والمفكرون في الكشف عنها ، ومازالوا يكتشفون منها كل يوم جديداً ، ولايزالون كذلك مادام القرآن متلوّاً أو محفوظاً في الصدور .

وليس القول بالإعجاز في القرآن موجهاً نحو العجز عن فهمه بالقدر الذي تقوم به الشريعة كما يحلو لبعض هواة الجدل حول الدين أن يتلمسوا معنى بعيداً عن نطاق الفكر الإسلامي كهذا المعنى الذي لم يقل به أحد فيقيموا حوله سوقاً لثيماً من الجدل ، ويطلقوا القول بعدم إعجازه من هذه الوجهة التي لم تخطر على بال مسلم من العامة فضلاً عن الخاصة ، فيظن بعض البسطاء في نهاية تلك السوق نفي الإعجاز عن القرآن بالكلية ، نتيجة لذلك اللؤم في الفكر ، أو لهذه الهواية البهلوانية مما يشبه ألعاب (السيرك) من الكلام يقتل به صاحبه نفسه ، ويقتل غيره ، وحسبه أن تلوك الألسنة اسمه على أي صفة وأي صورة من الصور والصفات حتى ولو كانت باللعنات المترادفات .

عظمة القرآن في أنه آية من آيات الله واضحة المعنى والهدف بالقدر الذي يحتمله البشر ، ويفهم منه القانون الإلهي ، سهل الأسلوب ، حتى ليخيل لمن مارس طريقته أنه يستطيع مثله ، فإذا حاول عجز عجزاً كاملاً ، واعتراه النقص والتخبط مهما اجهد عقله ونفسه ، وراضها على تلك الحكمة الأسلوبية الناصعة الواضحة في القرآن .

ولهذا كان وصف الوليد بن المغيرة للقرآن واضحاً في أن نسق القرآن مغاير تماماً لنسق الكلام البشري ، فماهو إلا ضرب من القول فوق قدرات البشر سماه : سحراً يُؤثر .

قال الوليد لأبي جهل : والله ما فيكم رجل أعلم بالشعر مني ، ولا برجزه ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن . والله ما يشبه الذي يقول شيئاً من هذا ، والله لقوله الذي يقوله لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإنه لمشر أعلاه ، مغدق أسفله ، وإنه ليعلو ولا يعلى عليه ، وإنه ليحطم ماتحته .

فلما قال له أبو جهل : إن هذا القول لا يرضى به قومه ، فكر طويلاً فلم يجد إلا أن ينسبه إلى قوة من القوى غير المنظورة ، وغير المقدورة ، فقال : (سحر يُؤثر) .

وبطلان نسبة القرآن إلى السحر معلوم ، ولكن نسبة الوليد إياه إلى تلك القوة غير المنظورة يطن العجز عن معارضته ، وشلل القدرة العربية - على الأقل في ذلك العصر وفي وسط الكفار الذين يتلمسون وجهاً للمعارضة - عن الاتيان بمثله . فهو وإن لم يعزل القرآن عن القدرة البشرية عزلاً كاملاً ، بل أبقى من يستطيع السحر قادراً على مثله ، فقد زلزل بهذا الرأي عموم القدرة الإنسانية على مثله ، وشهادة العدو بذلك شهادة بالإعجاز إذا راعينا جانب الفكر واللدن في الخصومة في وزن هذا القول بميزان علمي دقيق .

لقد كان العرب أشد الناس أنفة ، وأكثرهم مفاخرة ، والكلام سيد عملهم ، فكان من المحال أن يطبقوا ثلاثاً وعشرين سنة من التحدي ولا يعارضوه لو استطاعوا إلى ذلك السيل !! .

وأي عظمة تعدل عظمة العجز عن معارضة نظم القرآن وأسلوبه على مدى أربعة عشر قرناً من الزمان وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، حتى أصبح الكلام في هذا الموضوع في عصرنا ضرباً من صرف الناس عن عظمة التشريعات القرآنية ، ولعبة لثيمة يمارسها الأعداء من جبايرة اللؤم والخداع .

وحسب القرآن من العظمة أنه المعجزة الباقية على مدى الدهر ، حيث اندثرت معجزات الرسل السابقين جميعاً بعد أداء وظيفتها في إقامة الدليل على صدق أولئك الرسل . وحسبه كذلك من العظمة أنه يتصل بالحياة مابقيت الحياة ، فبه حياة القلوب بالإيمان ، وبه حياة الإيمان بالجهاد ، وبه قيام الجهاد بمنهجه الأمثل في تربية إنسان الحضارة الأمثل ، وبهذا الإنسان الموصول بالقرآن تنبض الحياة بالعدل ، وبه يدبر الظلم والإلحاد ، وماكانت معجزات الرسل السابقين كذلك ، فقد كانت كلها إما متصلة بحياة جسد ، أو متحدية وهم السحر ، أو حجة على قوم بعينهم حردوا على الكفر فهلكوا بعدها بوسيلة تدمير غيبية ، وماكذلك معجزة القرآن التي بقيت لتحقيق مزيداً من الاتساع في قاعدة الإيمان على مدى الزمان .

إعجاز القرآن العظيم

في إيقاظ العقل البشري وتحريره من الضلال^(١)

القرآن الحكيم يقص على العقل الإنساني مواقفه في تلك الرسالة الحنيفية تذكيراً له بأصل فطرته المشرقة التي أصدأها مرور الزمن بفتراته الطويلة في ظل سيطرة الغرائز المادية بسلطانها الحيواني على أوضاع الحياة ، ليعود العقل إلى مكانه من قيادة الحياة في صورة تتسق في قدراتها وقوتها مع عناصر العمق والشمول في الرسالة المحمدية خاتمة رسالات السماء ، وتنسجم مع بلوغ الإنسانية مرحلة الرشد والكمال التحرري في إدراك الحقائق الكونية والإفادة منها ، في دائرة وحدة العقيدة في كافة الرسالات الإلهية ، وفي دائرة النظم التشريعية الشاملة التي جاءت بها رسالة الإسلام .

هذا النوع من الهداية القرآنية هو ملتقى روافد الإعجاز الفكري في أصول الهداية العامة التي غني بها القرآن العظيم عناية خاصة لعوامل طارئة أثرت على وجود العقل ، وقيدته بأغلالها ، فكان لابد من معالجتها ، وإصلاحها ، وإطلاق العقل من ربقتها ، ووضع أصول ثابتة لفهم الحقائق الكونية والحكم عليها ، ترد إلى العقل الإنساني اعتباره ، وتولييه تقديره ووزنه بقيمته الإنسانية الحقيقية التي جعلت من الإنسان كائناً مسيطراً على الحياة ، وموجّهاً لها ، ورقياً على نظمها وأوضاعها .

فمن العوامل ما يمتثل في توارد القرون التي سبقت نزول القرآن برسالة الإسلام بأجيالها منذ وقف سير الملة الحنيفية في رسالة إبراهيم الخليل أبي الأنبياء والمرسلين عليه وعليهم الصلاة والسلام ، فتلك الرسالة الحنيفية كانت رسالة تعتمد على نظر العقل في أصول العقائد الإلهية ، وكان فيها التقدير الأول لقيمة العقل في إدراك الحقائق الغيبية .

(١) القرآن العظيم : هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين : لمحمد الصادق عرجون / ص ٤٧-٨٥ / بتصرف يسير / ط دار القلم دمشق - الدار الشامية - بيروت .

النموذج الأول في حوار العقل :

ونحن نقرأ أول حوار يصادف الناظر في القرآن العظيم ، بين رسول الله إبراهيم عليه السلام ، وبين جبار عصره ، وطاغية زمنه ، الذي يمثل عنجهية الجاهالة المشركة والضلالة الجاهلة فنجد المجال العقلي في هذا الحوار هو الذي يحكم دائرته ، ونجده يفسح ويتنوع ، ونجد العقل النير الملهم ، عقل إبراهيم رسول الله وخليله ، يجول ويعلو ، وسيطر ويحكم ، ونجد إلى جانبه العقل المظلم المغلل بأغلال الجمود والبلادة الحسية ، عقل الذي كفر ، حيس الغرائز ، وأسير الحواس ، يفاجأ بالحجة المشرقة الدامغة فيتوارى منكوساً مدحوراً ، ويهت مشدوهاً متحيراً ، ويغلب على أمره في حوارهِ فلا يجد إلا قوة البطش الطاغوي يرد بها على نبي الله إبراهيم عليه السلام ، ويلقيه في النار التي كانت عليه بإذن ربه برداً وسلاماً .

نص النموذج الأول :

يقول ربنا تبارك وتعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ سورة البقرة : الآية (٢٥٨) .

احتج إبراهيم عليه السلام على باهر قدرة الله تعالى ومظهر وجوده بأن شأن الرب الإله هو الذي يبدع ما لا يقدر أحد على إبداع مثله ، ورب إبراهيم ، الذي هو رب كل شيء ، هو الذي يبدع الحياة إبداعاً بقدرته ومشيته ، فيجعل غير الحي ممالاروح فيه حياً ذا حياة وروح ، وهو الذي يسلب الحياة عن كل كائن خلقها فيه ، فيميتُه بإعدام الحياة منه ، وهذا حظ العقل النير في فهم الإحياء والإماتة اللتين وصف بهما رسول الله إبراهيم ربه رب العالمين ، ولكن العقل المظلم ، حيس الغرائز ، عقل الذي كفر بالله وآياته ، لم يفهم الإحياء والإماتة كما هما في واقع الأمر على الصورة التي فهمها العقل النير الملهم ، عقل إبراهيم رسول الله وخليله عليه السلام ، بل فهمها فهماً مادياً ، خالياً من الشمول والإبداع اللذين هما خاصة الألوهية الحققة ، فقال في مناظرته رداً على إبراهيم : ﴿أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ﴾ يريد من الإحياء والإماتة هذه المظاهر الجوفاء التي يملكها الجبارون الطغاة في تسلطهم على حياة الناس بسلطان القوة والطغيان .

فلما تبين لإبراهيم عليه السلام بلادة عقل هذا الطاغية الجهول ، وجمود ذهنه ، وأنه ليس لديه صلاحية إدراك المعقولات الخالصة ، لأنه مغلق الشعور القلبي ، مغلف الإدراك الوجداني ، لا يؤمن إلا بما يحسه بمنافذ الحس المادي لعجز تكوينه العقلي عن النفوذ إلى ما وراء الحس المادي ، أو لقيام موانع من المؤثرات المادية التي تحجب العقل عن الفهم والإدراك ، أو كانت لاتحجبه ، ولكنها تحول بينه وبين الاعتراف بمدركاته ، ولما كان واجباً في شرعة العدل الإلهي أن يتنقل به إلى ما يلائمه من أنواع الحجة والبرهان ، عدل به إبراهيم عليه السلام إلى لون آخر من الحجة ليستوفي معه طرائقها قطعاً لعذره .

تلك الحجة التي عدل إليها إبراهيم عليه السلام هي لون من البرهان ، يشترك في إدراكه العقل والحس ، فالعقل يدرك بخصيصته التجريدية المعقول الخالص ، ويدرك المحسوس بخصيصته المتعاونة مع الحس فإدراكه مزدوج شامل ، أما الحس فإنه يدرك بمنافذه من الحواس ما يقع تحت حكم هذه الحواس .

وفي هذا العدول عن الحجة الأولى مع قيامها في صدقها وباهر آيتها تسفيه سلبى لعقل ذلك الكافر المتجبر في الأرض ، وإظهار لعجزه البليد عن التفكير في معنى الإحياء والإماتة اللتين هما صفة الألوهية الحققة ، وتحقق هذا المعنى في نفسه ، ونفس من يولد ثم يموت من قومه كل لحظة ، بل في ولادة كل حي وموته

فالله تعالى يحيي كل حي ، ويميت كل ميت ، وهذا الطاغية الجهول يعلم يقيناً أنه لا يملك هذا العموم الشامل في الإحياء والإماتة ، ولو بمعناها الحركي الذي ظنه إحياء وإماتة .

ولهذا جاءت الحجة الثانية تنزلاً في المحاجة إلى المستوى الذي يناسب الخصم ، وفيها إشارة إلى موطن البرهنة في الحجة الأولى التي لم يفهمها الذي كفر ، لأن الاستدلال على وجود الرب الإله الحق ، وعلى عظيم قدرته إنما يكون بذكر ما هو من خصائصه التي لاتكون لغيره ، وأفعاله التي لايقدر عليها سواه ، فخلق الحياة وإنشاؤها إبداعاً هو الإحياء الذي هو من خصائص الله تعالى ، وخلق الموت بسلب الحياة هو الإماتة التي هي فعل الله الذي لايقدر عليه سواه ، أما إحياء وإماتة بغير خلق وإبداع فليس هما على الحقيقة إحياء وإماتة ، وإنما هما مظهر من مظاهر الحركة والسكون في الحياة التي يقدر على مباشرتها كثير من المخلوقين .

ومن ثم نرى أن الحجة الإلهية إذا لم تُفهم لبعض الناس فلا يرتفع بها الاحتجاج

لصلاحيتها في ذاتها للبرهنة إذا نظر فيها عقل غير محجوب عن إدراك مناطها .

فلاحتجاج بالإحياء والإماتة قائم صادق ، والانتقال عنه إنما كان لأمرين :

الأمر الأول : بيان موطن دلالاته من طريق القياس على فعل لا يشته في حصوله من القادر المختار ، وأن أحداً سواه لا يقدر عليه ، وفي ذلك بيان لخطأ فهم الإحياء والإماتة عند هذا الكافر الجاهل ، في قوله : «أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ» وفيه بيان لمعنى الإحياء والإماتة اللذين هما من خصائص الألوهية الحقّة في مقام الاستدلال على وجود الله وقدرته .

الأمر الثاني : إقامة دليل آخر في صورة ثلاثم مدارك الخصم ، ولا يملك له رداً قال إبراهيم : «فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ» والإتيان بالشمس من المشرق فعل في كائن عظيم يرى ويحس وهو فعل إبداعي ، لا يقدر عليه إلا الرب الإله الحق القادر المختار ، ونظيره معارضه ، وهو الإتيان بالشمس من المغرب ، وهو أيضاً - لو كان - فعل إبداعي لا يقدر عليه إلا الرب الإله الحق القادر المختار .

فلما سمع الذي كفر هذه الحجة التي أبرز فيها الإبداع والإنشاء بمظهر الحركة العظيمة لهذا الكائن العظيم ، وهي حركة محسنة متكررة ، لا يستطيع إنكارها والمكابرة في حصولها ، وطولب - إفحاماً له - بمثلها في معارضتها بحركة مضادة ليقع الإبداع والإنشاء الدال على الألوهية الحقّة ، وكان الخصم عاجزاً أمام نفسه عن هذه المعارضة لم يكن منه إلا أن بهت مشدوهاً متحيراً لا يحير رداً ، ولا يملك جواباً .

النموذج الثاني في حوار العقل :

ونقرأ أيضاً في القرآن الحكيم لوناً من المحاوراة التي تصور المنهج العقلي في إدراك الحقائق الكونية ، وهو في أوج عظمته كدعامة من دعائم الملة الحنيفية ملة إبراهيم عليه السلام :

وهذه المحاوراة كانت - كما يظهر - في مبتدأ الرسالة ، والقرآن الكريم يقصها تبياناً لمواقف العقل المتحرر من أغلال الجمود والتقليد البليد لما عليه الآباء والأسلاف من ضلالات ، تذكيراً لهذا العقل الإنساني بفطرته الأصلية ، وإيقاظاً له من غفوته الطارئة ، لينهض بعبئه في الحياة يقظاً متحرراً في مجال الهداية القرآنية الخاتمة لهدايات السماء في رسالة الإسلام .

نص النموذج الثاني :

قال ربنا عز اسمه : ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ * فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأَحِبُّ الْأَوَّلِينَ . فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ * فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ * إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلدِّينِ فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ * وَحَاجَّةُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونَنِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ * وَكَيفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَأَيُّ الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُولَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ * وَتِلْكَ حُجَّتُنَا آتَيْنَاهَا إِبْرَاهِيمَ عَلَى قَوْمِهِ نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَن نَّشَاءُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ سورة الأنعام : الآيات (٧٥-٨٣) .

هذا لون من الحجاج العقلي يسوقه القرآن الحكيم لبيان هدايته في إيقاظ العقل وتحريره من أغلال الجمود على موروث الأسلاف ، وتقليدهم في الأخذ بباطل عقائدهم والاستمسك بفساد ضلالتهم دون نظر يكشف عن حقيقة ماكان عليه أولئك الأسلاف ، سوى أنهم وجدوهم كذلك يفعلون كما حكى الله عنهم ذلك بقوله تعالى : ﴿وَائِذْ عَلَّمْنَاهُ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ إِذْ قَالَ لَأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ * قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عَافِينَ * قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُم إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنفَعُونَكُم أَوْ يَضُرُّونَ * قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ سورة الشعراء : الآيات (٦٩-٧٤) .

وقد ورث طلائع المدعوين بالهداية القرآنية في الرسالة المحمدية الخاتمة لرسالات السماء هذا الجمود العقلي والتقليد البليد لما كان عليه أسلافهم من ضلال فحكى الله عنهم ما حكاه عن قوم إبراهيم ، وكان له عليه السلام ولقومه ذكر عند العرب ومن خالطهم من اليهود والنصارى فقال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اسْمِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَسْمَعُ مَا نُلْقِيْنَا عَلَيْهِ أَبَاءَنَا﴾ سورة البقرة : الآية (١٦٩) .

ثم رد عليهم بالرد نفسه الذي رد به إبراهيم على قومه في أسلوب مختلف الصورة متفق المعنى والحقيقة : ﴿أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَفْقَهُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾ فإبراهيم أبان ضلال قومه وردهم عليه إذ قالوا في بلاهة بلهاء : ﴿نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَّلُ لَهَا عَافِينَ﴾

فقال لهم : ﴿هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ * أَوْ يَنْفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ﴾ وتأويله : أفلا تعقلون وأنتم تصرحون بهذه الشناعة وتصمون أنفسكم بهذه الوصمة الفاضحة ، أن هذه الأصنام لاتسمع دعاء داعيها ولاتنفع متعبيها ولاتضر أحداً شيئاً من ضرر ، لأنها جمادات منحوتة بأيديكم ، فكيف تكون معبودة ، والمعبود هو الإله الحق الذي يسمع دعاء داعيه ، ويستجيب لمناجيه ، وينفع من يشاء من عباده بإرادته وحكمته ، ويوقع الضرر بمن يشاء من عباده بقدرته ومشئته وهو رب العالمين : ﴿الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ، وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشفِينِ ، وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ﴾ سورة الشعراء : الآيات (٧٨ - ٨٢) .

وقد تكرر هذا التقرير في أسلوب هداية القرآن لإيقاظ العقل وتحريره .

ومن لطائفه أنه يجيء في أعقاب سق الأداة القاهرة والبراهين الساطعة التي تنبه العقل إلى النظر المتحرر من أغلال الجمود . ففي سورة لقمان يقول ربنا تبارك وتعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ ، وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا وَجَدْنَا آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ الشَّيْطَانُ يَدْعُوهُمْ إِلَى عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ سورة لقمان : الآيتين (٢٠ ، ٢١) .

وفي هذا المجرى يقول عز شأنه مبيناً أن هذ التقليد البليد والجمود على موروث الآباء دين المترفين الذين يقودون الأغمار والعامية : ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ سورة الزخرف : الآية (٢٣) .

ثم يبين القرآن الحكيم أن هذا الجمود على خلاف ماتقتضيه فطر العقول السليمة : ﴿قَالَ أَوْ لَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ﴾ سورة الزخرف : الآية (٢٥) .

ولكنهم لايعقلون شيئاً ممايقال لهم ولايهتدون إلى الحق لأنهم غللو عقولهم وجمدوا أذهانهم فلاينظرون ولايفتكرون ، بل هم في ضلالهم يعمهون : ﴿قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ ، فحق عليه انتقام الله : ﴿فَاتَّقِمْنَا مِنْهُمُ النَّظَرَ فَكَيفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكذِبِينَ﴾ سورة الزخرف : الآية (٢٤) .

يؤكد القرآن ارتباط هذا المنهج في هداية الفطرة وإيقاظ العقل وتحريره أوثق ارتباط بالمنهج العقلي الذي قامت عليه الملة الحنيفية في رسالة إبراهيم عليه السلام ، ولهذا

يجيء عقب الآيات السابقة من سورة الزخرف حكاية تبريء إبراهيم عليه السلام من كفر أبيه وقومه باتخاذهم آلهة من دون الله يعبدون ، فيقول الله تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ﴾ سورة الزخرف : الآيات (٢٦ ، ٢٧) .

يبد أن قصة إبراهيم مع قومه في سورة الأنعام تمثل منهج الهداية القرآنية في إيقاظ العقل وتحريره من أغلال التقليد والجمود أكمل تمثيل .

ومما يلفت إليه نظر الناظرين في رياض القرآن أن ترتيب آياته في نظام التلاوة على ترتيب المصحف الإمام الذي انعقد عليه إجماع الأمة لا يلزم حتى في القصة الواحدة أن يكون جارياً على ترتيب النزول ، أو على ترتيب سوابق المعنى ولواحقه ، وهذا من إعجاز القرآن الذي انفرد به في طريقة أدائه المعاني والحقائق التي يقصد إليها ، فقد يأتي لاحق القصة نزولاً ومعنى قبل سابقها كذلك لحكمة قد تدركها العقول وقد تحجب عنها .

وهنا في قصة حجاج إبراهيم عليه السلام لقومه نلمح شيئاً من هذا نشير إليه ، فهماً لائحاً ، لا يقيناً قاطعاً ، ذلك أن القصة بدأت بإعلان إبراهيم عليه السلام قبح نحلة أبيه آزر في اتخاذهم أصناماً آلهة يعبدها وقومهم من دون الله ، ثم قطع له الحكم عليه وعلى قومه بأنه يراهم غارقين في بحار الضلال المبين الذي لا تغطيه شبهة من عقل ، وذلك هو ما قال ربنا عز شأنه في أول القصة : ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ آزَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ سورة الأنعام : الآية (٧٤) .

وهذا الموقف من خليل الله إبراهيم عليه السلام يبعد جداً أن يكون قد كان إلا بعد أن يكون الله قد أراه آياته الكونية في ملكوته ليكون من الموقنين ، ومجرد إيمان إبراهيم عليه السلام بموجب عقله قبل رسالته ، لا يجعله يقف هذا الموقف الشديد من أبيه وقومه ، لأنه موقف في شدته وصراحته إنما تقتضيه قوة الرسالة الإلهية وبراهينها العقلية والإعجازية ، وهذه البراهين إنما بدأت بإراءة الله لخليله ملكوت السموات والأرض ليعرف سنن الله في خلقه ، وحكمته في تدبير ملكه ، وآياته الدالة ، على ربوبيته وإلهيته ، وليكون هو في خاصة نفسه على درجة من اليقين الراسخ الذي لا تناله شبه خصومه وحيث أن يكون قواماً برسالة ربه ، نهاضاً بحقها ، صادعاً بأمرها مع أبيه ومع قومه ، مبيناً ضلالهم ، داعياً لهم إلى الهدى ودين الحق ليخرجهم من ظلمات الوثنية والشرك إلى نور التوحيد وعبادة الله وحده .

فصدر القصة في نظام التلاوة وهو حديث إبراهيم عليه السلام مع أبيه وتسفيه رأيه في اتخاذ الأصنام إلهة ليس بلازم أن يكون صدرها في واقع الأمر وترتيب النزول، بل إنه قد يكون أقرب إلى الصواب أسبقية إراءة الله خليله إبراهيم عليه السلام ملكوت السموات والأرض ليكون من أهل اليقين، على حديثه مع أبيه وتقبيح رأيه في اتخاذ الأصنام إلهة من دون الله يُعبدون، لأن هذا كان بعض آثار يقين إبراهيم عليه السلام.

وهذا المنهج العقلي الذي يستمدُّ من الفطرة الأصلية قوته، هو الذي كان به إبراهيم عليه السلام حنيفاً مسلماً لأنه خالف قومه، ومال عن طريقتهم الفاسدة وأسلم وجهه لله تعالى بعد أن قامت لديه البراهين القاطعة على وجوده تعالى ووحدانيته كما حكى عنه القرآن العظيم ذلك في قوله جل شأنه: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ سورة الأنعام: الآية (٧٩).

وهذا المعنى في تفسير إسلام إبراهيم هو الذي طلبه إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام لنفسهما إثر فراغهما من بناء الكعبة المشرفة قبله المسلمين، وأن يجعل من ذريتهما أمة مسلمة، تُسلم وجهها لله تعالى عرفاناً بتوحيده وجلال كبريائه، وأن يبعث في هذه الأمة رسولاً منها، من أفضل أرومتها، يتلو عليهم آيات الله التي ينزل عليه بها وحيه، ويعلمهم الكتاب ويبين لهم ماحواه من أصول العقائد، وفروع الشرائع والآداب، ويعلمهم الحكمة، والحكمة هي المنهج العقلي النابع من الفطرة الأصلية، ذلك المنهج الذي تقيم عليه تلك الأمة حاجتها، وتبني عليه نظام حياتها، ويزكّيهم تطهيراً لهم من أرجاس الوثنيات، وجمود التقليد على موروث الآباء والأصلاف، على ما قال ربنا تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ * رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ، وَآرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ * رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ سورة البقرة: الآيات (١٢٧-١٢٩).

وهذا المنهج العقلي هو الأساس في ملة إبراهيم ورسائله الحنيفية المسلمة، هو الذي أحياء القرآن العظيم بعد أن دُرست معالمه، وطُمست طرائقه، وهُجرت أساليبه، فأوحى الله إلى رسوله خاتم النبيين محمد ﷺ أن يجعل هذا المنهج العقلي قاعدة دعوته، ودعامة رسالته، وأصل شريعته في كل ماتطلبه حياة الإنسانية من تثبيت عقيدة التوحيد وإبطال الشرك، وهو المنهج الذي هداه الله إليه وجعله صراطه المستقيم ودينه

القيم: ﴿ قُلْ إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيمًا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾ سورة الأنعام: الآية (١٦١).

صور بارعة من الحوار العقلي:

وللمنهج العقلي في رسالة إبراهيم عليه السلام صور مختلفة أوردها القرآن الكريم في عدد من سوره غير مذكروناه من نماذجها.

ففي سورة (الأنبياء) صورة من نماذج هذا المنهج بلغ فيها الحجاج غايته التي انتهت إلى أن العقل الإنساني على كثرة العقبات في طريقه عند قوم إبراهيم - تيقظ في لحظة من لحظات الإشراق الفكري في أثناء المحاجة وتنبه إلى ما نزل في من منحدر الوثنية البليدة، وأراد أن يثوب إلى موجب الفطرة الأصيلة، ولكن الصدا الذي تراكم على هذه الفطرة حجب عنه نور إشراقه اليقظة الطارئة، تلك الإشراق التي جعلت قوم إبراهيم يعترفون بأنهم ظالمون في اتخاذهم الأصنام آلهة يعبدونها من دون الله الواحد الأحد، وهذه الأصنام، على مرأى أعينهم ومسمع أذانهم، عاجزة لاتنطق، ولاتنفع عابديها العاكفين لها شيئاً من نفع ولاتضر شيئاً من ضرر.

وقد يلوح الناظر في هذه المحاجة لونا من السخرية يعقول هؤلاء القوم أريد به تحريك خصائص إنسانيتهم بإيقاظ بدائه الفكر، وريادة العقل لتدرك الحق المحجوب بسحاب التقليد البليد والجمود المظلم على موروثهم من عقائد الأسلاف، فلمعت لهم منه لامعة انقلب بها حالهم من بلادة بلهاء إلى نظرة عقلية عابرة كومض البرق الخادع، رجعوا فيها إلى فطرتهم فظلموا أنفسهم، ولكن سرعان ما أظلم عليهم برقهم، فنكسوا على رؤوسهم وارتدوا إلى بلادتهم القائمة، وعادوا إلى شركهم وتقليدهم لآبائهم.

والقرآن الحكيم يعرض هذه الصورة في براعته البيانية لتكون نموذجاً من نماذج المنهج العقلي في محاجة المبطلين، ليحتذوها أنصار الحق في مناظراتهم، مع ما فيها من أدب الصراحة وشجاعة الحق، يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا إِبْرَاهِيمَ رُشْدَهُ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ * إِذْ قَالَ لَئِنِ وَقَّعْتُ مَاهِدَةَ التَّمَاثِيلِ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ * قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ * قَالَ لَقَدْ كُنتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ * قَالُوا آجِئْنَا بِالْحَقِّ أَمْ أَنْتَ مِنَ اللَّاعِينَ * قَالَ بَلْ رُبُّكُمْ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ الَّذِي فَطَرَهُنَّ وَأَنَا عَلَى ذَلِكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ * وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ * فَجَعَلَهُمْ جَذَازًا إِلَّا كَثِيرًا لَّهُمْ لَعَلَهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ * قَالُوا مَنْ فَعَلَ هَذَا بِالْهَتَاتِ إِنَّهُ لَمِنَ الظَّالِمِينَ * قَالُوا سَمِعْنَا فَتًى

يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُ إِبْرَاهِيمُ * قَالُوا فَأْتُوا بِهِ عَلَى آعِينِ النَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَنْشَهُدُونَ. قَالُوا أَنْتَ
فَعَلْتَ هَذَا بِالْهَتَّا يَا إِبْرَاهِيمُ * قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ *
فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ * ثُمَّ نَكِسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَؤُلَاءِ
يَنْطِقُونَ * قَالَ أَتَتَّبِعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئاً وَلَا يَضُرُّكُمْ أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ * قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ فَاعِلِينَ * قُلْنَا يَنْارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى
إِبْرَاهِيمَ * وَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَخْسَرِينَ ﴿سورة الأنبياء: الآيات (٥١-٧٠)﴾.

فإتياء إبراهيم رشفه وصلاحه ومعرفته بربه من قبل الإنعام عليه بالنبوة والرسالة
يمكن أن يكون إشارة إلى مرتبة الخلة التي يحتمل أن يكون أوتيتها الخليل عليه السلام
قبل أن يوتى الرسالة، وقد يرشح هذا المعنى قوله: ﴿وَكُنَّا بِهِ عَالِمِينَ﴾، وهو
تخصيص من عموم ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ تنويها باختصاص إبراهيم بمزيد
من الفضل والقرب والمعرفة بالله تعالى.

وإجابة إبراهيم عليه السلام عن سؤال قومه في تكسير أصنامهم إجابة في منتهى
الصراحة والصدق، وكأنه قال: نعم أنا فعلته إن لم يكن كبيرهم غيورا على مكانه منهم
ويكون هو الفاعل أداء لحق غيرته فاسألوهم، إن كانوا ينطقون فسيجيئوكم عن
سؤالكم، فلما رجعوا إلى أنفسهم وثابوا إلى عقولهم لحظة من الزمان حكموا على
أنفسهم بأنهم هم الظالمون في اتخاذ هذه الأصنام الهة، ولكن سرعان ما انتكس غزل
تفكيرهم وعادوا إلى شركهم وسوء تفكيرهم، فأنكر عليهم إبراهيم عليه السلام هذا
الموقف المتهافت، وأبرز القرآن الحكيم إنكاره في صورة تعبر عن خوالج نفسه،
وما يتلجج فيها من ألم كظيم في سخرية من عقولهم: ﴿أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ
اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾، فلم يجدوا في أنفسهم قدرة للمقاومة أمام قهر الحجة إلا غرائزهم
الوحشية يسلطونها على رسول الله وخليله إبراهيم عليه السلام بأبشع صور التنكيل
والتعذيب: ﴿قَالُوا حَرِّقُوهُ وَانصُرُوا آلِهَتَكُمْ﴾، كما يفعل المغيط المحقق العاجز عن
المحاجة، ولكن الله الرؤوف الرحيم أمر نارهم - وهي بعض خلقه - أن تقلب حقيقتها
إلى ضدها فتكون على خليله بردا بديلا عن الاشتعال والتلهب، وسلاما بديلا من
الإهلاك والتدمير، ونجى الله خليله من القوم الظالمين.

وفي سورة (الشعراء) جاءت صورة لهذا الأنموذج الحجاجي جارية على أصول
المنهج العقلي بأسلوب قريب، يلمس القلوب، ويهيج الوجدان أكثر مما يوغل مع
العقول في مداخل المنطق الفكري. والذي أكسبه هذه الخاصة أنه دخل مدخل إيقاظ

العواطف الإنسانية في رغائب الأفراد من الناس، إبراهيم عليه السلام سأل قومه عن معبوداتهم سؤال تجهيل لهم وتهائف على موقفهم مع أصنامهم، فأجابوه إجابة العقل المقلد البليد، فناظرهم وقهرت حجته مزاعمهم، إذ يقول: ﴿ هَلْ يَسْمَعُونَكُم أَوْ يَنفَعُونَكُم أَوْ يَضُرُّونَ ﴾. ثم ألقى إليهم بما يحرك فيهم عواطف الرغبة، فوصف ربَّ ربِّ العالمين بعد أن أعلن عداوته الصارخة لمعبوداتهم من دون الله تعالى بأنه: ﴿ الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ * وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ * وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ * وَالَّذِي أَطْمَعُ أَنْ يَغْفِرَ لِي خَطِيئَتِي يَوْمَ الدِّينِ ﴾ سورة الشعراء: الآيات (٧٨-٨٢).

وهذه أوصاف كريمة رحيمة، يلمس كل إنسان رقتها ولطفها، وتلمس هي شغاف كل قلب بالحب والرغبة مع أكمل أدب النبوة والخلة في الإسناد والاختصاص، فالصفات كلها عدا صفة (الإمراض) مسندة إلى الله تعالى خالق كل شيء، واقتضى أدب الخلة ألا يتحدث عن صفة (الإمراض) وإنما تحدث عن نزول المرض بالجسم فقال: ﴿ مَرِضْتُ ﴾ أما الشفاء ورفع منازل الجسم من المرض، فهو من صفات الإسناد لله ربِّ العالمين.

وفي سورة (الصافات) ورد هذا الأنموذج للحجاج العقلي في صورة أخرى في حجاج إبراهيم لقومه بأسلوب عاد به إلى طريقة الأنموذج الأصيل لهذا المنهج في إراءة إبراهيم لملكوت السموات والأرض لتقوى حجته على قومه وليكون من أهل اليقين والرسوخ في معرفة الله ببراهين آياته في ملكوته.

يبد أن هذا الأنموذج في سورة الصافات لم يكن من قبيل الأسلوب المنطقي الغواص مع العقل في أعماق الفكر، ولكنه جاء بأسلوب الفطرة المعتمدة على الحس العام الذي يتساوى في ظواهر مدركاته العام والخاص، لتقوم به الحجة على الكافة، ويؤخذ به من ضل عنادا، ومن ضلل جهالة.

والقرآن الحكيم يبدأ هذا الأنموذج بالثناء على الخليل إبراهيم عليه السلام بأنه أقبل على ربه منذ تولاه بالخلة بقلب طاهر مطهر سليم من الغير، ليس فيه لغير الله تبارك وتعالى متسع، وهو بهذا القلب العامر بمشاهدة ملكوت الله توجه إلى أبيه وقومه يسألهم في عجب من ضلال عقولهم عن بدائه الحق ﴿ مَاذَا تَعْبُدُونَ؟ ﴾ وهو تساؤل لا يتنظر إجابة، ولكنه تساؤل تسفيه لآرائهم في اتفакهم آلهة من دون الله يريدون، وتهجين لمذهبهم في إشراكهم مع الله أصناماً بأيديهم ينحتون، وقد أخذه عليه السلام

العجب من شأن هؤلاء الضالّين، فنظر إلى مؤلّتهم من النجوم والكواكب الطالعة الآفلة، وهي تحمل دلائل مخلوقيتها للذي فطر السموات والأرض، فتألم لهم ومنهم أشدّ الألم، لأنهم أهدروا نعمة العقل الذي آتاهم ربهم، وطرحوا كرامة إنسانيتهم تحت أرجل أصنامهم، وعبر عن ألمه: ﴿فَقَالَ إِنِّي سَقِمْ﴾ ولاشك أن الألم ولاسيما ألم القلب بالأسف والحزن والتحسر سقم أي سقم، ومرض من أشد أنواع المرض، فهذا إخبار حق واقع، وصدق قاطع، لاشبهة شك فيه.

ثم يمضي الحديث مصوّراً موقف الخليل عليه السلام وموقف قومه منه إلى نهايته التي هي نهايته في جميع نماذجه، وهي دائماً نهاية الصراع بين الحق والباطل، يقول الله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ شِيعَتِهِ لَإِبْرَاهِيمَ إِذْ جَاءَ رَبَّهُ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ * إِذْ قَالَ لَأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَاذَا تَعْبُدُونَ * أَتَفْكِرُ آلِهَةً دُونَ اللَّهِ تُرِيدُونَ * فَمَا ظَنُّكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ * فَتَنَظَرُ نَظْرَةً فِي النُّجُومِ * فَقَالَ إِنِّي سَقِمْ * فَتَوَلَّوْا عَنْهُ مُدْبِرِينَ * فَرَأَى إِلَى آلِهَتِهِمْ فَقَالَ أَلَا تَأْكُلُونَ * مَا لَكُمْ لَا تَنْتَفِقُونَ * فَرَأَى عَلَيْهِمْ ضَرْبًا بِالْيَمِينِ * فَأَقْبَلُوا إِلَيْهِ يَزِفُونَ * قَالَ أَعْمِيذُونَ مَا تَحْتُونَ * وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ * قَالُوا ابْنُوا لَهُ بُيُوتًا فَأَلْفَوْهُ فِي الْجَحِيمِ * فَأَرَادُوا بِهِ كَيْدًا فَجَعَلْنَاهُمُ الْأَسْفَلِينَ﴾ سورة الصافات: الآيات (٨٣-٩٨).

هذه أربعة نماذج للمنهج العقلي الذي قامت على دعائمه أصول العقيدة في الملة الحنيفية، رسالة إبراهيم عليه السلام، ساقها القرآن الحكيم بياناً للأسلوب الذي سلكه في إيقاظ العقل وتحريره من أغلال الجمود وريقة التقليد.

هذا هو المنهج العقلي السليم الذي جاء به القرآن العظيم في إثبات الحقائق وتأسيس اليقين، ولقد اقتصرت يد التحريف والتزوير جريمة نكراء حين أخذت تصوير المنهج العقلي في القرآن على أساس فلسفي جدلي شُفسطائي تحت اسم «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» فدخل صاحبها في سجل التحريف والتزوير من أوسع أبواب هذا التاريخ الأسود الذي ملأه المبطلون بمخازي الإرجاف والكذب والبهتان على كتاب الله تعالى.

ونحمد الله سبحانه أن كشف بطلانهم وفضح ضلالهم وخيب آمالهم.

أسلوب التحدي في القرآن العظيم^(١)

لإثبات الوحانية وصدق النبوة

التحدي بالقرآن :

القرآن هو كتاب الله المعجز المنزل من عند الله على رسوله الأمين محمد ﷺ خاتم الأنبياء والمرسلين ، والمنقول عنه نقلاً متواتراً نظماً ومعنى ، وهو آخر الكتب السماوية نزولاً تعهد المولى بحفظه إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، قال تعالى : ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾ وتحقق وعد الله بحفظه ولن يخلف الله وعده .

ويوم أن خشى الرسول ﷺ من أن ينفلت القرآن منه ، وأخذ يحرك لسانه أثناء نزول جبريل عليه السلام ليحفظه ، نزل قوله تعالى ﴿لاتحرك به لسانك لتعجل به ، إنا علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه﴾^(٢) قال ابن عباس : كان رسول الله ﷺ يعالج من التنزيل بشدة ، فكان يحرك به لسانه وشفثيه مخافة أن ينفلت منه يريد أن يحفظه فأنزل الله ﴿لاتحرك به لسانك . . .﴾ الآيات ، فكان رسول الله ﷺ بعد ذلك إذا أتاه جبريل عليه السلام ، أطرق واستمع ، فإذا ذهب قرأه كما وعد الله عز وجل^(٣) . قال ابن عباس : ﴿إن علينا جمعه وقرآنه﴾ قال : فاستمع وأنصت ﴿ثم إن علينا بيانه﴾ قال : أن نبينه بلسانك^(٤) ، وقال ابن كثير : كان ﷺ يادر إلى أخذ القرآن ، ويسابق الملك في قراءته ، فأمره الله عز وجل أن يستمع له ، وتكفل له أن يجمعه في صدره ، وأن يبينه له ويوضحه ، فالحالة الأولى جمعه في صدره ، والثانية

(١) منهاج القرآن في عرض عقيدة الإسلام : جمعه أمين عبد العزيز ص ٩٥-١١٧/ ط دار الدعوة - الاسكندرية .

(٢) سورة القيامة آية ١٦-١٩ .

(٣) أخرجه الشيخان في صحيحهما وأحمد .

(٤) هذه الرواية عن ابن عباس ثابتة في الصحيحين .

تلاوته ، والثالثة تفسيره وإيضاح معناه^(١)

وهذه أربع آيات تحتوي توجيهاً خاصاً للرسول ﷺ ، وتعليماته في شأن تلقي هذا القرآن ويبدو أن هذا التعليم جاء بمناسبة حاضرة في السورة ذاتها ، إذ كان الرسول ﷺ يخاف أن ينسى شيئاً مما يوحى إليه ، فكان حرصه على التحرز من النسيان يدفعه إلى استذكار الوحي فقرة فقرة في أثناء تلقيه وتحريك لسانه به ليستوثق من حفظه ، فجاءه هذا التعليم ﴿لَا تَحْرُكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ . . .﴾ الآيات ، جاءه هذا التعليم ليطمئنه إلى أن أمر هذا الوحي ، وحفظ هذا القرآن وجمعه وبيان مقاصده ، كل أولئك موكل إلى صاحبه ، ودوره هو التلقي والبلاغ فليطمئن بالاً ، وليتلق الوحي كاملاً ، فيجده في صدره منقوشاً ثابتاً ، وهكذا كان ، فأما هذا التعليم فقد ثبت في موضعه حيث نزل ، أليس من قول الله ؟ وقول الله ثابت في أي غرض كان؟ ولأي أمر أراد؟ وهذه كلمة من كلماته تثبت في صلب الكتاب شأنها شأن بقية الكتاب ، ودلالة إثبات هذه الآيات في موضعها هذا من السورة ، دلالة عميقة موحية على حقيقة لطيفة في شأن كل كلمات الله في أي اتجاه ، وفي شأن هذا القرآن وتضمنه بكل كلمات الله التي أوحى بها إلى الرسول ﷺ ، لم يخرم منها حرف ولم تند منها عبارة ، فهو الحق والصدق والتحرّج والوقار^(٢) . إنه إحياء في النفس عميق بأن الله تكفل بشأن هذا الكتاب وحيّاً وحفظاً وجمعاً وبياناً وليس للرسول ﷺ إلا حمله وتبليغه ، وصدقت عائشة رضوان الله عليها حين قالت : لو كنتم محمد ﷺ شيئاً مما أوحى إليه من كتاب الله تعالى ، لكنتم ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾^(٣) تقصد قصة زينب بنت جحش .

نزول القرآن :

ولقد بدأ نزول القرآن بمكة ، وأول ما نزل منه في غار حراء ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ ، اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾^(٤) ، ثم توالى نزوله حسب الحوادث في ثلاث وعشرين سنة تقريباً . وسور القرآن مائة وأربعة عشر سورة ، وهي قسمان مكّي ومدني ، نزل مفرقاً

(١) تفسير ابن كثير .

(٢) في ظلال القرآن : سيد قطب رحمه الله تعالى ج ٦ / ٣٧٦٧ .

(٣) مختصر ابن كثير ، جزء ٣ ص ٩٨ - الأحزاب .

(٤) سورة العلق : ٢ .

بحسب الحاجة التي تكون سبباً في النزول ليكون ذلك آنس للعرب وأدعى للقبول ، وأبلغ في الحجة عليهم ، وأظهر لوجه إعجازه ، ولولا نزوله متفرقاً آية واحدة إلى آيات قليلة ، ما أفحمهم الدليل في تحديهم بأقصر سورة ، لأن القرآن تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله ، فلو نزل القرآن جملة واحدة لكان لهم بعض العذر في عجزهم عن معارضته ولكن الآية أو الآيات كانت تنزل في وقت ، وكان يفصل بين وقت وآخر زمن يكفي لأن تنهياً نفوس لمعارضته ، أو الاتيان بمثله ، ولكنهم كانوا يعجزون رغم الفرصة الكافية التي كانت تسنح لهم ، وهذا من أعظم الدلائل على وجه إعجاز القرآن ، وخاصة إذا اعتبرت أن أكثر ما نزل في ابتداء الوحي إلى أن هاجر النبي ﷺ من مكة إنما هو من قصار السور ، وذلك ولأرب مما تنهياً فيه المعارضة .

كما أن لنزول القرآن مفزقاً حكمة أخرى هي : استدراج العرب وتصريف أنفسهم بأوامره ونواهيه على حسب النزول والحوادث ، ليكون تحولهم عن أخلاقهم وعاداتهم بسهولة ويسر ، فلو نزل عليهم القرآن دفعة واحدة لثقلت عليهم التكاليف ولنفرت قلوبهم عن قبول ما فيه من الأوامر والنواهي ، هذا فضلاً عن أن من الحكمة أيضاً أن يحفظه النبي ﷺ ويحيه ، وأن يُثبِتَ الله به فؤاده كلما اشتدت معارضة المعارضين «وقال الذين كفروا لولا نُزِّلَ عليه القرآنُ جملةً واحدةً ، كذلك لثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلاً ، ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً»^(١) ، والجدير بالذكر أن رسولنا الكريم ﷺ كان أمياً لا يقرأ ولا يكتب أما غيره من الرسل فقد كانوا كاتبين قارئين يمكنهم أن يضبطوا ما ينزل عليهم من الكتب جملة^(٢) .

التحدي دليل على صدق النبوة والوحدانية :

والحق يقال إن إعجاز القرآن دليل على صدق النبوة ، وصدق النبوة يؤكد وحدانية الله سبحانه وتعالى ، ويدعو إليه إذ ما بعث الرسول ﷺ إلا بالتوحيد الخالص ، فالذين أنزل عليهم القرآن كانوا عبدة أصنام وأوثان وأحجار وشمس وقمر ونجوم ، وأهل كتاب منهم من يثلاثون ويثنون فالتنصاري يقولون إن الله ثالث ثلاثة ، وعيسى ابن الله ، واليهود يقولون عزيز ابن الله وكل ذلك شرك ، وجاءت رسالة محمد ﷺ تدعو الناس جميعاً للتوحيد الخالص وعلى ذلك فإن تحدى القرآن لهم ، ليكون دليلاً على صدق الرسول والرسالة وبالتالي إن صَدَقُوا بالرسول وَحَدُوا الإله ولم يشركوا به شيئاً ،

(١) سورة الفرقان : ٣٢-٣٣ .

(٢) روح الدين الإسلامي ، عفيف طيارة ، ص ٢٣-٢٤ ، بتصرف .

فالتحدي بالقرآن إذن دليل لإثبات التوحيد يقول المولى سبحانه وتعالى ﴿قل لئن اجتمعت الإنسُ والجنُ على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾^(١) ، ويقول ﴿وإن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا مثله وأدعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار﴾^(٢) ويقول ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾^(٣) .

أخرج البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : «ممن الأنبياء نبي إلا أعطي مأمثله آمن عليه البشر» ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إلي فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً .

قال العلماء معناه أن معجزات الأنبياء انقضت بانقراض أعصارهم فلم يشاهدها إلا من حضرها ، ومعجزة القرآن مستمرة إلى يوم القيامة ، وخرقه العادة في أسلوبه وبلاغته وإخباره بالغيبيات فلا يمر عصر من العصور إلا ويظهر فيه شيء مما أخبر أنه سيكون يدل على صحته ودعواه ، وقيل إن المعجزات الماضية كانت حسية تشاهد بالابصار كناية صالح وعصا موسى ، ومعجزة القرآن تشاهد بالبصيرة فيكون من تبعه لأجلها أكثر لأن الذي يشاهد بعين الرأس ينقض بانقراض مشاهده ، والذي يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمراً ، قال الحافظ بن حجر ويمكن نظم القولين في كلام واحد فإن محصلهما لا ينافي بعضه بعضاً^(٤) .

وعلى هذا فقد أجمع العقلاء على أن كتاب الله تعالى معجز لم يقدر أحد على معارضته مع تحديهم بذلك ، قال الله تعالى : ﴿وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتى يسمع كلام الله﴾^(٥) فلولا أن سماعه حجه عليه لم يقف أمره على سماعه ولا يكون حجة إلا وهو معجز ، وقال الله تعالى ﴿وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين ، أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم﴾^(٦) فأخبر أن الكتاب آية من آياته كاف في الدلالة ، قائم مقام معجزات غيره ،

(١) سورة الإسراء : ٨٨ .

(٢) سورة البقرة : ٢٣ .

(٣) سورة الطور : ٣٤ .

(٤) الخصائص الكبرى ، جزء ١ ، ص ١١٢ .

(٥) سورة التوبة : ٦ .

(٦) سورة العنكبوت : ٥٠-٥١ .

وآيات من سواه من الأنبياء ، وقد جاءهم به صلى الله عليه وسلم ، وكانوا أفصح الفصحاء ومصانع الخطباء وتحداهم على أن يأتوا بمثله وأمهلهم طوال السنين فلم يقدروا ، وكانوا أحرص شيء على إطفاء نوره وإخفاء أمره ، فلو كان في قدرتهم معارضته لعدلوا إليها ، قطعاً للحجة ، ولم ينقل عن أحد منهم أنه حدث نفسه بشيء من ذلك ولا فكر فيه بل عدلوا إلى العناد تارة ، وإلى الاستهزاء أخرى ، فتارة قالوا : سحر ، وتارة قالوا : شعر ، وتارة قالوا : أساطير الأولين ، كل ذلك من التحير والانقطاع ثم رضوا بتحكيم السيف في أعناقهم وسبي ذراريهم وحرْمِهم ، واستباحة أموالهم ، وقد كانوا أنف شيء وأشد حمية فلو علموا أن الإتيان بمثله في قدرتهم لبادروا إليه لأنه كان أهون عليهم .

قال الحافظ بعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم أكثر ما كانت العرب شاعراً وخطيباً وأحكم ما كانت لغة وأشد ما كانت عدة ، فدعا أقصاها وأدناها إلى المعارضة ثم نصب لهم الحرب فدل ذلك العاقل على عجز القوم مع كثرة كلامهم ، واستحالة لغتهم وسهولة ذلك عليهم ، وكثرة شعرائهم وخطبائهم ، لأن سورة واحدة وآيات يسيرة كانت أنقض لقوله ، وأفسد لأمره ، وأسرع في تفريق أتباعه ، من بذل النفوس والخروج من الأوطان وإنفاق الأموال .

وجوه إعجاز القرآن :

وقد اختلف الناس في الوجه الذي وقع به إعجاز القرآن على أقوال منها ، حسن تأليفه والتشام كلمه ، وفصاحته ، ووجوه إعجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب الذين هم فرسان الكلام ، وأرباب هذا الشأن ، ومنها صورة نظمه العجيب ، والأسلوب الغريب المخالف لأساليب كلام العرب ، ومنها جازع نظمها ونثرها الذي جاء عليه مقاطع آياته وانتهت إليه فواصل كلماته ، ولم يوجد قبله ولا بعده نظير له ، وما انطوى عليه من الأخبار بالمفنيات ، وما لم يكن فوجد كما ورد ، ومنها ما أنبا به من أخبار القرون الماضية ، والشرائع السالفة ، مما كان لا يعلم منه القصة الواحدة إلا الفذ من أخبار أهل الكتاب الذي قطع عمره في تعلم ذلك فيورده صلى الله عليه وسلم على وجهه ، ويأتى به على نصه ، وهو أمي لا يقرأ ولا يكتب ، ومنها ما تضمنته من الأخبار عن الضمائر كقوله تعالى ﴿إِذَا هَمَّتْ طَائِفَتَانِ مِنْكُمْ أَنْ تَفْشَلَا﴾^(١) ، وقوله تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ فِي

(١) سورة آل عمران : ١٢٢ .

أنفسهم لولا يعلبنا الله بما نقول»^(١) ، ومنها آي وردت بتعجيز قوم في قضايا ، وأعلامهم أنهم لا يفعلونها فما فعلوا ولا قدروا كقوله في اليهود «ولن يتمنوه أبداً»^(٢) ، ومنها ترك المعارضة مع توفر الدواعي وشدة الحاجة ، ومنها الروعة التي تلحق قلوب سامعيه عند سماعهم والهيبة التي تعترهم عند سماع تلاوته ، كما وقع لجبير بن مطعم أنه سمع النبي ﷺ يقرأ في المغرب بالطور وقال : فلما بلغ هذه الآية : «أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ»^(٣) إلى قوله «المصيطرون» كاد قلبي يطير ، قال : وذلك أول ما قرأ الإسلام في قلبي ، ومنها ، أن قارئة لا يمله ، وسماعه لا يمججه بل الأكباب على تلاوته يزيد حلاوة ، وترديده يوجب له محبة ، وغيره من الكلام يعادى إذا أعيد ويعمل مع التردد ، ولهذا وصف القرآن بأنه لا يخلق على كثرة الرد ، ومنها ، كونه آية باقية لا يعدم مابقيت الدنيا مع تكفل الله بحفظه ومنه جمعه لعلوم ومعارف لم يجمعها كتاب من الكتب ، ولا أحاط بعلمها أحد ، في كلمات قليلة وأحرف معدودة ، ومنها جمعه بين صفتي الجزالة والعذوبة وهما كالمتضادين لا يجتمعان في كلام البشر غالباً ، ومنها جعله آخر الكتب غنياً عن غيره ، وجعل غيره من الكتب المتقدمة قد تحتاج إلى بيان يرجع فيه إليه ، كما قال تعالى : «إن هذا القرآن يقصص على بني إسرائيل أكثر الذي هم فيه يختلفون» قال القاضي عياض ، وبقي من خصائصه كونه نزل على سبعة أحرف وكونه نزل مفرقاً منجماً ، وكونه ميسراً للحفظ ، وسائر الكتب بخلاف ذلك .

وقال إذا عرفت ما ذكر من وجوه إعجاز القرآن عرفت أنه لا يحصى عدد معجزاته بألف ولا ألفين ولا أكثر لأنه ﷺ قد تحدى بسورة منه فعجزوا عنها قال أهل العلم وأقصر السور «إنا أعطيناك الكوثر» فكل آية أو آيات بعددها وقدرها معجزة ، ثم فيها نفسها معجزات وهذا هو التحدي الباقي مع الزمن من النبي الأمي محمد ﷺ^(٤) .

(١) سورة المجادلة : ٨ .

(٢) سورة البقرة : ٩٥ .

(٣) سورة النمل : ٧٦ .

(٤) الخصائص الكبرى ، جزء ١ ، ص ١١٧-١١٨ .

النبي الأمي :

إن نبينا محمد ﷺ - كما نعلم - نبي أمي لا يقرأ ولا يكتب ، وهذه بينة على أنه ماتلقى العلوم التي حيرت العلماء ، إلا من الله العلي الحكيم ، ولقد واجه القرآن المشركين بهذه الحقيقة في حينها حين قال المولى ﴿وماكنتُ تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذا لارتاب المبتلون﴾ (١) .

فمن أين جاء بهذه العلوم ، وحياته شاهد على أنه ماخرج من جزيرة العرب وماعاش إلا بين ظهرانيهم عمراً طويلاً ﴿قل لو شاء الله ماتلوتُهُ عليكم ولأدراكم به فقد لبثتُ فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون﴾ (٢) فلما كانت هذه الحقيقة التي لا ينكرها ناكِر ولا يستطيع أن يجحدها جاحد ، لأنها حقيقة ساطعة أقوى من كل ناكِر ومعاوند ومكابر ، فلم يقل الكفار : إن محمداً كان متعلماً ، بل قالوا إن القرآن قد كتب له وأنه يملئ عليه بكرة وأصيلاً ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراء وأعانه قومٌ آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً ، وقالوا أساطيرُ الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ، قل أنزلهُ الذي يعلمُ السِّرَ في السمواتِ والأرض إنه كان غفوراً رحيماً﴾ (٣) .

وبالرغم من بطلان هذه المقولة ، وهذا الافتراء الكاذب ، فقد وضعهم القرآن أمام الحقيقة الناصعة ، أن هذا الذي يتلى من عند الله ، وتحداهم ، وهم أهل البلاغة والفصاحة والبيان ، إذ كان الشعر العربي حين أنزل الله القرآن على نبيه ﷺ نوراً يضيء ظلمات الجاهلية ، ويعكف أهله على بيانه عكوف الوثني للصنم ويسجدون لآياته سجدة خاشعة لم يسجدوا مثلها لأوثانهم قط ، فقد كانوا عبدة البيان ، قبل أن يكونوا عبدة الأوثان ، وقد استمعنا إلى من استخف منهم بأوثانهم ، ولم نسمع قط منهم من استخف ببيانهم ، وبالرغم من هذا فقد تحداهم رسول الله ﷺ وأخذ يقرأ عليهم ماأنزل عليه على مكث - كما أمر ربه - فتبع الأفراد من عشيرته وقومه ، يقرأ عليهم هذا الذي أنزل إليه ، ولم يكن من برهانه ولا مما أمر به أن يلزمهم الحجة بالجدال حتى يؤمنوا إنما هو إله واحد ، وأنه هو الله نبي ، بل طالبهم بأن يؤمنوا بمادعاهم إليه ويقولوا له بصدق نبوته ، بدليل واحد هو الذي يتلوه عليهم من قرآن يقرءونه ، ولا معنى لمثل هذه

(١) سورة العنكبوت : ٤٨ .

(٢) سورة يونس : ١٦ .

(٣) سورة الفرقان : ٦-٤ .

المطالبة بالإقرار لمجرد التلاوة إلا أن هذا المقروء عليهم ، كان هو في نفسه آية ، فيها أوضح الدليل على أنه ليس من كلامه هو ، ولامن كلام بشر مثله ، ثم أيضاً لamen لها ألبتة إلا أن يكون كان في طاقة هؤلاء السامعين أن يميزوا تميزاً واضحاً بين الكلام الذي هو من نحو كلام البشر ، والكلام الذي ليس من نحو كلامهم^(١) فإذا أقرؤا أنه كلام رب العالمين بهذا الدليل ، كانوا مطالبين بأن يؤمنوا بأن ماجاء في القرآن من أخبار الأمم وأنباء الغيب ، ودقائق التشريع وعجائب الدلالات على أسرار الكون والنفس والحياة وبالتالي الحقيقة الكبرى حقيقة وحدانية الله في هذا الوجود ، هو كله حق لا ريب فيه .

اثتمار قريش :

ولقد تحيرت العرب فيما تسمع من كلام يتلوه عليهم رجل منهم ، من جنس كلامها لأنه أنزل بلسانهم ، لسان عربي مبين ، ثم تجده مبايناً لكلامها ، فماتدري ماتقول فيه من طغيان اللدد والخصومة ، وأنه لخبر مشهور خبر تحير النفر من قريش وعلى رأسهم الوليد بن المغيرة ، لقد اثتمرت قريش يومئذ حين حضر الموسم ، لكي يقولوا في هذا الذي يتلى عليهم وعلى الناس قولاً واحداً لا يختلفون فيه ، وأدراوا الرأي بينهم في تاليه على أهل الموسم ، وتشاوروا أن يقولوا : كاهن ، أو مجنون ، أو شاعر أو ساحر ، فلما آلت المشورة إلى ذي رأيهم ومنهم الوليد بن المغيرة ، رد ذلك بالحجة عليهم ثم قال : والله إن لقوله لحلاوة ، وإن أصله لغدق ، وإن فرعه لجناه ، ومأثمت بقائلين من هذا شيئاً إلا عرف أنه باطل ، وأن أقرب القول فيه لأن تقولوا ساحر جاء بقول يفرق بين المرء وأبيه ، وبين المرء وأخيه ، وبين المرء وزوجته ، وبين المرء وعشيرته^(٢) .

روى البغوي في تفسيره عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال : اجتمعت قريش يوماً فقالوا : انظروا أعلمكم بالسحر والكهانة والشعر ، فلبأت هذا الرجل الذي فرق جماعتنا وشتت أمرنا وعاب ديننا ، فليكلمه ولننظر ماذا يرد عليه؟ فقالوا : مانعلم أحداً غير (عتبة بن ربيعة) فقالوا : أنت يا أبا الوليد ، فأتاه عتبة فقال : يا محمد أنت خير أم عبد الله ؟ فسكت رسول الله ﷺ فقال : أنت خير أم عبد المطلب ؟ فسكت رسول الله ﷺ .

(١) من مقدمة الأستاذ محمود شاكر ، لكتاب الظاهرة القرآنية ص ٢٠ ، لمالك بن نبي .

(٢) نفس المصدر السابق .

فقال : إن كنت تزعم أن هؤلاء خير منك فقد عبدوا الآلهة التي عبدت ، وإن كنت تزعم أنك خير منهم فتكلم حتى يسمع قولك ، إنا والله مارأينا سخلة قط أشأم على قومك منك ، فرقت جماعتنا وشتت أمرنا وعبت ديننا ، وفضحتنا في العرب ، حتى لقد طار فيهم أن في قريش ساحراً ، وأن في قريش كاهناً ، والله مانتظر إلا مثل صيحة الجبلى أن يقوم بعضنا إلى بعض بالسيوف حتى تتفانى ، أيها الرجل إن كان بك الحاجة جمعنا لك حتى تكون أغنى قريش رجلاً واحداً ، وإن كان مابك الباءة فاختر أي نساء قريش شئت فلتزوجك عشراً ، فقال رسول الله ﷺ «فرغت»؟ قال : نعم ، فقال رسول الله ﷺ : ﴿بسم الله الرحمن الرحيم ، حم تنزيل من الرحمن الرحيم - حتى بلغ - فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾^(١) فأمسك عتبة على فيه ، وناشده بالرحم ، ورجع إلى أهله ، ولم يخرج إلى قريش واحتبس عنهم ، فقال أبو جهل : يامعشر قريش والله مانرى عتبة إلا قد صبا إلى محمد وأعجبه طعامه ، وماذاك إلا من حاجة أصابته فانطلقوا بنا إليه ، فقال أبو جهل : ياعتبة ماحبسك عنا إلا أنك صبات إلى محمد وأعجبك طعامه ، فإن كانت بك حاجة جمعنا لك من أموالنا مايغنيك عن طعام محمد فغضب عتبة وأقسم أن لا يكلم محمداً أبداً ، وقال : والله لقد علمتم أنى من أكثر قريش مالا ، ولكن أتيت وقصصت عليه القصة ، فأجابني بشيء والله ماهو بشعر ولا كهانة ولا سحر ، وقرأ السورة إلى قوله تعالى : ﴿فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود﴾ فأمسكت بفيه وناشدته بالرحم أن يكف وقد علمتم أن محمداً إذا قال شيئاً لم يكذب ، فخشيت أن ينزل بكم العذاب .

وفي رواية محمد بن إسحاق في كتاب السيرة عن محمد بن كعب القرظي قال : حدثت أن عتبة بن ربيعة ، وكان سيداً ، قال يوماً وهو جالس في نادي قريش ورسول الله ﷺ جالس في المسجد وحده : يامعشر قريش ألا أقوم إلى محمد فأكلمه وأعرض عليه أموراً ، لعله أن يقبل بعضها فنعطيه أيها شاء وكيف عنا؟ وذلك حين أسلم حمزة رضي الله عنه ورأوا اصحاب رسول الله ﷺ يزيدون ويكثرون فقالوا . بلى ياأبا الوليد ، فقم إليه فكلمه ، فقام إليه عتبة حتى جلس إلى رسول الله ﷺ فقال : ياابن أخي إنك منا حيث علمت من السلطة في العشيرة والمكان في النسب ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم وسفهت به أحلامهم ، وعبت به ألهمهم ودينهم ،

وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أموراً تنظر فيها لعلك تقبل منها بعضها ، قال : فقال له رسول الله ﷺ : « قل ياأبا الوليد أسمع » قال : ياابن أخي إن كنت إنما تريد بما جئت من هذا الأمر مالاً جمعنا لك أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا حتى لايقطع أمراً دونك وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذي يأتيك رثياً نراه لا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الأطباء وبذلنا فيه أموالنا حتى نبركك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه أو كما قال له ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله يستمع منه قال : « أفرغت ياأبا الوليد؟ » قال : نعم . قال : « فاستمع منى » ، قال أفعل ، قال : « بسم الله الرحمن الرحيم ، كتاب فضلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ، بشيراً ونذيراً فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون » ثم مضى رسول الله ﷺ فيها وهو يقرؤها عليه ، فلما سمع عتبة أنصت لها وألقى يديه خلف ظهره معتمداً عليهما يستمع منه ، حتى انتهى رسول الله ﷺ إلى السجدة منها فسجد ثم قال قد سمعت ياأبا الوليد ما سمعت فأنت وذاك ، فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذي ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك ياأبا الوليد قال : ورائي أنني سمعت قولاً والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالسحر ، ولا بالشعر ولا بالكهانة ، يامعشر قريش أطيعوني واجعلوها لي ، خلوا بين الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذي سمعت نبأ ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر للعرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكتم أسعد الناس به ، قالوا : سحرك والله بلسانه ، قال : هذا رأيي فيه فاصنعوا ما بدا لكم ^(١) .

والجدير بالذكر أن هذا التحدي ليس بين الرسول الله ﷺ وبين قومه من العرب فحسب بل بينه وبين الإنس والجن ، مجتمعين متظاهرين ، تحداهم بقليل القرآن وكثيره ، وهم الذين أوتوا القدرة على التمييز والفصل بين كلام البشر والذي هو ليس من كلامهم ، وصدق الرسول الكريم ، صلوات الله وسلامه عليه - كما قلنا من قبل « ما من نبي إلا أوتي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر » ، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحى إليّ ، فأنا أرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة » .

تابع وجوه الإعجاز :

فالقرآن إذن هو آية الله في الأرض ، آيته المعجزة من الوجه الذي كان به معجزاً

(١) مختصر ابن كثير ، جزء ٣ ، ص ٢٥٦ .

للعرب ثم للبشر ، ثم للثقلين جميعاً ، أن يأتوا بمثله أو بعشر سور مثله مفتريات ، فلما انقطعت قواهم ، قطع الله عليهم وعلى الثقلين جميعاً منافذ اللدد والعناد فقال : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً ﴾^(١) .

ومن العلامات التي تبين إعجاز القرآن وأنه كلام الله ، الجدة الدائمة فكل كلام بشري يلى إذا كرر لكن القرآن لا يلى على كثرة الرد ، ولقد نطق أحد كبار المستشرقين بهذه الحقيقة وهو المستشرق (ليون) فقال : حسب القرآن جلالة ومجداً أن الأربعة عشر قرناً التي مرت عليه لم تستطع أن تحقق ولو بعض الشيء من أسلوبه الذي لا يزال غصاً كأن عهده بالوجود أمس .

هذا فضلاً عن الروح الإلهية التي يشعر بها قاريء القرآن ، وصدق ربي حين قال : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ﴾^(٢) ، أضف إلى ذلك قوة تأثيره وإعجازه العلمي والذي حقق وما يزال قول ربنا ﴿ سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق ﴾^(٣) وهذه العلوم والأخبار التي وردت فيه وتلاها رسول الله ﷺ ، وهو النبي الأمي الذي قال له ربه ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك وما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا ، فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾^(٤) .

القرآن يتحدى بوجوه إعجاز أخرى منها :

١- ولقد احتوى القرآن على تفصيل تاريخ الأنبياء والمرسلين السابقين وهو التاريخ الذي لم يكن يعرف أشتاتاً منه إلا الأخبار والرهبان وكانوا على خلاف فيما بينهم ، أما أمة العرب فلم تكن تعرف تفاصيل ذلك التاريخ ، فجاء رسولنا الكريم ﷺ بهذا التاريخ مفصلاً واضحاً جلياً ، اعترف به الكثير من الأخبار والرهبان .

٢- كما كان القرآن ينزل كاشفاً لما يدور في صدور الناس ، وخاصة المنافقين فيواجههم بحقيقة ما أخفوه في صدورهم ، ولقد جرب كثير من الأعراب صدق نبوة محمد ﷺ بإخفاء أشياء كثيرة كان الوحي ينزل فيكشفها فيعترفون ويتوبون ، وكان

(١) سورة الإسراء : ٨٨ .

(٢) سورة الشورى : ٥٢ .

(٣) سورة فصلت : ٥٣ .

(٤) سورة هود : ٤٩ .

القرآن كثيراً ما يذكرهم بهذا ، واستمع إن شئت إلى ما قاله القرآن في بعض المنافقين على سبيل المثال ﴿يعتذرون إليكم إذا رجعت إليهم قل لا تعتذروا لن نؤمن لكم قد نبأ الله من أخباركم وسيرى الله عملكم ورسوله ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون﴾ (١) .

٣- وما قصة اليهود بعيدة حين كانوا يشرون بظهور نبي قرب زمانه من بلاد العرب وكانوا يتهددون العرب بأنهم يتبعونه ويقتلونهم معه قتل عاد وإرم ، ﴿فلما جاءهم ماعرفوا كفروا به﴾ (٢) ، وحكى القرآن كاشفاً حالهم فقال : ﴿وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قال أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ، أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون﴾ (٣) .

٤- وما أكثر ما أخبر القرآن بأمور تتصل بالغيب ستحدث مستقبلاً تكون في عهد الرسول ﷺ وبعده فجاء مرور الأيام تفسيراً لما أنبأنا الله به في كتابه مثل إخباره بأن الروم ستغلب الفرس في أقل من عشر سنوات بعد أن فرح الوثنيون بانتصار الفرس على الروم وتأهبوا على كذب ما وعد الله في كتابه ، فما مرت سبع سنوات إلا وتحقق وعد الله ، مصداقاً لقوله ﴿آلَمْ ، غَلِبَتِ الرومُ في أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم سيفلبون في بضع سنين ، لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ، وَعَدَ اللهُ لَا يَخْلِفُ اللهُ وَعْدَهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٤) .

٥- والعجيب في الأمر أن القرآن كان يخبر الرسول بأن بعضاً من الكفار قریش لن يسلموا أبداً وقد كان بالرغم من مرور الأيام والسنين ، فلم يسلم منهم أحدٌ فعلاً ، كأبي لهب الذي قال فيه المولى عز وجل ﴿سَيَصْلَى نَاراً ذَاتَ لَهَبٍ وامرأته حمالة الحطب﴾ فمات وزوجته على الكفر ، ومثل الأخنس بن شريق الذي نزل فيه ﴿ويل لكل همزة لمزة﴾ فمات أيضاً على الكفر هو والوليد بن المغيرة الذي قال الله فيه ﴿سأصليه سقر﴾ .

(١) سورة التوبة : ٩٤ .

(٢) سورة البقرة : ٨٩ .

(٣) سورة البقرة : ٧٦-٧٧ .

(٤) سورة الروم : ١-٤ .

٦- وهل هناك تحد أكثر من أن الرسول ﷺ كان يتخذ بعض الحراس له في الغزوات أو كان بعض أصحابه ﷺ يتطوعون لحراسته من الكفار وفي غزوة من الغزوات أخرج الرسول ﷺ رأسه من خيمته وقال لحراسته : «انصرفوا أيها الناس فقد عصمني الله من الناس» ، وذلك حين نزل عليه «يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلغت رسالته ، والله يعصمك من الناس إن الله لا يهدي القوم الكافرين»^(١) وغير ذلك الكثير والكثير مما حدث في حياته أو بعد موته ﷺ ولا يزال القرآن يتحدى الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وحكمة هذا التحدي وذكره في القرآن ، إنما هو أن يشهد التاريخ في كل عصر بعجز العرب عنه وهم الخطباء اللد^(٢) والفصحاء اللسن ، حتى لا يجيء بعد ذلك فيما يجيء من الزمن مؤلّد^(٣) أو أعجمي كاذب ، أو منافق ذو غفلة فيزعم أن العرب كانوا قادرين على مثله وأنه غير معجز^(٤) .

فهذا القضاء الحاكم منه ، بأنهم لن يستطيعوا أن يأتوا بشيء من مثل ماتحداهم به ليس قضاء بشريا ، ومن الصعب بل ومن المتعذر أن يصدر عن عاقل التزام كالذي التزمه وشرط كالذي شرطه على نفسه لغلبة الظن عند من له شيء من العقل أن الأرض لا تخلو من صاحب قوة مثل قوته ، وإنما ذلك هو الله المتكلم والعليم الخبير هو الناطق على لسانه «أي محمد» وقد أحاط علمه بتصور جميع القوى عن تناول ماستهضمهم له وبلوغ ما حثهم عليه^(٥) .

القرآن معجزة محمد ﷺ :

ولذلك كان القرآن معجزة محمد ﷺ وهي من جنس ماشتهر به العرب بالنبوغ فيه لأن كل رسول تكون معجزته من جنس ما نبغت فيه أمته ، فموسى جاء بالعصى لنبوغ قومه في السحر ، وعيسى بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى لنبوغ القوم في الطب ، وإن كانت هذه المعجزات لزمانها بعكس القرآن الذي جاء وقد بلغ العقل الإنساني مداه فكان القرآن معجزة البشر بهديته ، وتشريعه ، وأسلوبه ، ومعانيه التي

(١) سورة المائدة : ٦٧ .

(٢) اللد : الخصم الشديد .

(٣) مولد : عربي غير محض .

(٤) إعجاز القرآن للرافعي ، ص ٢٢٢ ، ط/٢ .

(٥) رسالة التوحيد للشيخ محمد عبده ، ص ١٧٠ .

تتميز بخلودها وبقائها مع الزمن :

قال الأصمعي قرأت يوماً هذه الآية ﴿والسارق والسارقة فاقطعوا أيديهما جزاء بما كسبا نكالاً من الله والله عزيز حكيم﴾^(١) وإلى جنبي أعرابي فقلت «والله غفور رحيم» سهواً ، فقال الأعرابي : كلام من هذا؟ قلت : كلام الله ، قال : ليس هذا بكلام الله أعد ، فأعدت وتنبهت فقلت : والله عزيز حكيم ، فقال : نعم هذا كلام الله . فقلت : أتقرأ القرآن؟ قال : لا ، قلت : فمن أين علمت أني أخطأت؟ فقال : عزّ فحكم فقطع ، ولو غفر ورحم لما قطع^(٢) وهكذا كانوا يتذوقون اللغة لأنهم أهلها الفصحاء اللسن ، وبها تحداهم فعجزوا .

وما زال القرآن حتى يومنا هذا وبعد أربعة عشر قرناً من الزمان غصاً طرياً يتحدى الخلائق جميعاً ببيانها وفصاحتها ورجاحة عقلها ، وعلمها وتقدمها ، أو ليس كل ذلك دليلاً على صدق نبوة محمد ﷺ وصدق ما جاء من الوحدانية وصدق الله القائل ﴿إِنْ كُنْتَ فِي شكٍ مِمَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ فَاسْأَلِ الَّذِينَ يَقْرَءُونَ الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكَ ، لَقَدْ جَاءَكَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ، وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٣) فقال الرسول والله لم أرتب ولم أسأل ، وكيف لمسلم أن يشك أو يسأل ، فما بالك بالرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه . . . أو ليس هذا التحدي بالقرآن الخالد الباقي مع الزمن أكبر دليل على صدق الرسالة والرسول ، وهل جاءت الرسالة إلا بالتوحيد الخالص؟

المعجزات السابقة والقرآن :

نعلم جميعاً أن الله سبحانه وتعالى أيد الرسل والأنبياء قبل رسالة محمد ﷺ بالمعجزات المادية الباهرة لتكون دليلاً على صدقهم ، وآية لاقناع أقوامهم ، فأيد صالح عليه السلام بالناقة ، حين طالبه قومه ببرهان مبين ﴿قالوا إنما أنت من المسحَرين ، ما أنت إلا بشرٌ مثلنا فأتِ بآيةٍ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصّادقين ، قال هذه ناقةٌ لها شِرْبٌ ولكم شِرْبٌ يومٍ معلوم ، ولا تمسّوها بسوءٍ فيأخذكم عذابٌ يومٍ أليم﴾^(٤) . وأيد موسى عليه السلام بالعصا حين هدده فرعون ﴿قال لئن اتخذتُ إلهاً غيري

(١) سورة المائدة : ٣٨ .

(٢) صفوة التفسير ، جزء ١٠ ، ص ٣٤٢ سورة المائدة .

(٣) سورة يونس : ٩٤ .

(٤) سورة الشعراء : ١٥٣-١٥٦ .

لأجعلنك من المسجونين ، قال أولو جثتك بشيء مبين قال : فأت به إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين ﴿١﴾ .

وأيد عيسى بإبراء الأكمه والأبرص وإحياء الموتى بإذن الله تعالى فقال لبنى إسرائيل ﴿إني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبريء الأكمه والأبرص ، وأحيي الموتى بإذن الله ، وانبتكم بما تأكلون وماتدخرون في بيوتكم ، إن في ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين﴾ ﴿٢﴾ .

أما رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه فمعجزته الباقية مابقي ليل أو نهار هي القرآن ولا شيء غير القرآن ، قال ابن رشد : إن دلالة القرآن على نبوة محمد ﷺ ليست كدلالة انقلاب العصا حية ، ولإحياء الموتى وإبراء المرض ، فإن تلك وإن كانت أفعالاً لا تظهر إلا على أيدي الأنبياء وفيها ما ينفع الجماهير من العامة إلا أنها مقطوعة الصلة بوظيفة النبوة وأهداف الوحي ومعنى الشريعة أما القرآن فدلالته على صفوة النبوة وحقيقة الدين مثل دلالة الإبراء على الطب ، ومثال ذلك لو أن شخصين ادعيا الطب فقال أحدهما : الدليل على أنني طبيب أنني أطير في الجو ، وقال الآخر دليلي أنني أشفي الأمراض ، وأذهب الأسقام ، لكان تصديقنا بوجود الطب عند من شفى المرض قاطعاً ، وعند الآخر مقنعاً فقط ﴿٣﴾ .

فأنت ترى أن معجزة الرسالة الأخيرة هي كتاب الله الذي لا يأتیه الباطل من بين يديه ولا من خلفه بتزليل من لدن حكيم حميد ، بهذا الكتاب تحدى العالمين ، وبين دفتيه دليل صدق الرسالة والرسول ، وما زالت آياته ناطقة بأن دين الله هو الإسلام ﴿ومن يتنغ غير الإسلام ديناً فلن يقبل منه وهو في الآخرة من الخاسرين﴾ ﴿٤﴾ .

ولاشك أن المعجزات المادية لاتفيد الذين مسخت فطرهم ، واختلت عقولهم وختم على قلوبهم ، واسودت أفئدتهم ، فما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون وصدق الله القائل ﴿ومامننا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود

(١) سورة الشعراء : ٢٩-٣٣ .

(٢) سورة آل عمران : ٤٩ .

(٣) عقيدة المسلم ، الشيخ محمد الغزالي ص ١٨٩ .

(٤) سورة آل عمران : ٨٥ .

الناقة مبصرة فظلموا بها ومانرسل بالآيات إلا تخويفاً^(١) .

فلقد جاءت المعجزات المادية على يدي رسول الله ﷺ ورآها المشركون رأى العين فهل آمنوا؟ بل كذبوا بالحق لما جاءهم فهم في أمر مريب . . . بالرغم من أنهم أقسموا لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها كما قال القرآن : ﴿واقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ، ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ، ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون﴾^(٢) .

فهل أجذبت الآيات والمعجزات مع قوم جحدوا وكذبوا ، وعصوا؟ كلا إنهم لم يؤمنوا بها مهما تنوعت وتعددت مصداقاً لقول ربي ﴿ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يرجون ، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن مسحورون﴾^(٣) .

المعجزات والأخذ بالأسباب :

ومع أننا نؤمن بأن القرآن هو المعجزة المتجددة على صدق الرسالة والرسول كما قلنا من قبل - إلا أننا سنسوق بعض المعجزات التي أجزاها المولى على يدي الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه وبعض الكرامات لبعض الصحابة الغر الميامين ، و لتكون دليلاً من أدلة الإيمان ، فمن المعروف أن المعجزات تكون دليلاً على ذلك وإن كانت حجة في زمانها على من رآها بعينه كروية الشمس ، وليست حجة على من لم يرها ، ولكن سوف نسوقها هنا اثتناساً بها في تفسير ما في الكون من أسرار ليصحح المسلم تصوره عن حقيقته ومافيه ، فنحن إذن نسوقها للمسلمين لا لغيرهم ، فيعلمون أن مافي الكون من أحياء وأشياء يسبح ويسجد ، ويتكلم ويتألم ، ويفرح ويحزن ، يضحك ويبكي ، ويطيع الخالق جلا وعلا كرها ، وبذلك تستقيم نظرتهم للكون فإذا بهم يأتسون به ولا يهابونه فيحبونه ولا يكرهونه ، فكم من أناس عبدوا مافي الكون ، من شمس وقمر ، ونجم وكوكب ، وعجل وبقر ، وحجر وشجر ، وصنم ووثن ، هذه واحدة .

(١) سورة الإسراء : ٥٩ .

(٢) سورة الأنعام : ١٠٩-١١١ .

(٣) فقه السيرة ، الشيخ محمد الغزالي ص ٧٢ .

أما الأخرى فإننا إذا تكلمنا عن تسخير الكون للمسلم وأيدنا ذلك بما حدث للمسلمين الأوائل ومارأوه من الآيات والمعجزات التي أجراها الله أمام أعينهم على يد الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه ومشاهدتهم ملائكة الله ، والريح والحصى ، وغير ذلك من الأشياء والأحياء التي أيد الله بها الرسول وصحبه في حروبهم وغزواتهم ، فليس معنى ذلك أنها دعوة إلى التواكل والركون إلى الكون ومافيه كعامل من عوامل النصر فهذا من باب التمني وليس الإيمان بالتمني ولا بالتحلي ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل ، وإن قوماً ألتهم الأمانى وقالوا نحسن الظن بالله ، كذبوا لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل ، وصدق الحق إذ يقول ﴿ليس بآمانتكم ولا أمانتي أهل الكتاب من يعمل سوءاً يُجْزَ به ولا يجِدُ له من دُونِ اللَّهِ ولياً ولا نصيراً﴾^(١) ولكننا نسوقها ليشعر المسلم بالانتناس وأن جنود الله التي لا يعلمها إلا هو سبحانه معه إن بذل الجهد واستفرغ الوسع ، وأعد ما استطاع أخذاً بالأسباب ، حيثذ يحشد له الكون ومافيه لنصرته وتأييد دعوته وإعلاء كلمة الله في الأرض وبذلك لا يرتكن إلى أوهام أو يني تصورده على أمانى .

فما كان محمد ﷺ رجل خيال يتيه في مذاهبه ثم يبنى حياته ودعوته على أمانى بل كان رجل حقائق يصبر بعيداً كما يصبر قريباً ، فإن أراد شيئاً هياً له أسبابه ، وبذل في تهيتها ، على ضوء الواقع المر - أقصى ما في طاقته من حذر وجهد ، وما فكر قط ولا فكر أحد من صحابته أن السماء تسعى له حيث يقعد أو تنشط حيث يكسل ، أو تحتاط له حيث يفرط ، ولم تكن خوارق العادات ونواقص الأسباب والمسببات أساساً ولا طلاء في بناء رجل عظيم .

إن محمداً وصحبه تعلموا وعلموا ، خاصموا وسالموا ، وانتصروا وانهزموا ومدوا شعاع دعوتهم إلى الآفاق وهم على شبر من الأرض يكافحون ، لم ينخرم لهم قانون من قوانين الأرض ، ولم تلن لهم سنة من سنن الحياة ، بل أنهم تعبوا أكثر مما تعب أعداؤهم وحملوا المغارم الباهظة في سبيل ربهم فكانوا في ميدان تنازع البقاء أولى بالرسوخ والتمكين^(٢) .

إن الله سبحانه وتعالى شاء أن يكون انتصار هذا الدين بجهد البشر ، ولقد ضرب لنا الرسول ﷺ المثل الأعلى في ذلك وإبلى بلاء شديداً فكسرت رباعيته يوم أحد وشج

(١) سورة النساء: ١٢٣ .

(٢) فقه السيرة ، الشيخ محمد الفزالي ، ص ٧٢ .

في وجهه حتى سال الدم على وجهه فقال :

﴿كيف يفلح قوم فعلوا هذا بنبينهم ، وهو يدعوهم إلى ربهم عز وجل﴾ ؟ فأنزل الله عز وجل ﴿ليس لك من الأمر شيءٌ أو يتوب عليهم أو يمدبهم فإنهم ظالمون﴾ (١) .

إن التفريط في أسباب النصر يجلب الهزيمة ، لاشك في ذلك ولو كان الموحدون المدافعون عن راية لاإله إلا الله محمد رسول الله - ﷺ - هم المفرطون ولنا في سيرة رسول الله ﷺ المثل في ذلك فما زالت أحداث أحد وحنين وغيرها يذكرنا بها القرآن الكريم .

لهذا كله أردنا قبل أن نبدأ الحديث عن التفكير في الأنفس والآفاق أن نوضح أسباب استشهادنا ببعض الأحاديث التي بينت بعض معجزات الرسول الكريم صلوات الله وسلامه عليه والتي كانت على غير مألوف البشر - أقول - أوردناها للمسلمين وليس لغيرهم ، فالذين كفروا بالذكر لما جاءهم ماأفنتهم المعجزات المادية المرئية في زمانهم والرسول الكريم بين ظهرائهم فكيف بإخوانهم من المنكرين إذا سمعوا بخبرها ولم يروها ﴿إنما يؤمن بآياتنا الذين إذا دُكِّروا بها خرُّوا سجداً وسبحوا بحمدي ربهم وهم لا يستكبرون﴾ (٢) .

نعم نحن نذكر هذه الأحاديث الكريمة لاستجيش عواطف المسلمين ، ونستثير عقولهم وقلوبهم ونذكرهم بقدرة الله التي تخرق مألوف العادات وسنن الآفاق عليهم يشعرون أن الله سبحانه وتعالى قادر على تأييدهم بجند من عنده إن عادوا إلى حظيرة الإسلام ورضوا بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد ﷺ نبياً ورسولاً ، فبذلوا الجهد والطاقة وأخذوا بكل الأسباب وأعدوا لأعدائهم مااستطاعوا من قوة ورباط الخيل ، وقتها يتزل النصر ويرضى الرب ، ويُمكنُ لدين الله في الأرض ﴿ويومئذ يفرحُ المؤمنون بنصرِ الله ينصرون من يشاء وهو العزيز الرحيم ، وَعَدَ اللهُ لَايُخْلَفُ اللهُ وَعَدُهُ ولكن أكثر الناس لا يعلمون﴾ (٣) .

أما غيرهم من الكافرين الجاحدين ، المنكرين المعاندين ، فلا يزال القرآن يتحداهم ، ومازالت صفحات الكون منشورة أمام أعينهم لمن أراد أن يتديروها ﴿قل

(١) أخرجه مسلم والإمام أحمد في المسند مختصر ابن كثير جزء ١ ، ص ٣١٧ .

(٢) سورة السجدة : ١٥ .

(٣) سورة الروم : ٤-٦ .

انظروا ماذا في السموات والأرض»^(١) ، «قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق ثم الله يُنشِئُ النشأةَ الآخرة»^(٢) والآيات كثيرة تدعو الناس جميعاً للتفكير في الأنفس والآفاق ليعلموا أن الله على كل شيء قدير وأن الله قد أحاط بكل شيء علماً ، وما زال القرآن غضاً طرياً تتحدى به الخلائق جميعاً ونناديهم بنداء ربنا «يا أيها الناس اعبدوا رَبَّكُمْ الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون ، الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون ، وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ، وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات أن لهم جنات تجري من تحتها الأنهار كلما رزقوا منها من ثمرة رزقاً قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابهاً ولهم فيها أزواج مطهرة وهم فيها خالدون»^(٣) .

(١) سورة يونس : ١٠١ .

(٢) سورة العنكبوت : ٢٠٠ .

(٣) سورة البقرة : ٢١-٢٥ .

البحث الثامن :

الإعجاز التشريعي للقرآن العظيم^(١)

الحديث عن الإعجاز التشريعي في القرآن الكريم حديث عن النظام الخالد للكون ومافيه ، فالذي أبدع الكون من العدم وأوجد فيه من المخلوقات ما لا يحصى عدداً وجعل أشرف هذه المخلوقات وأكرمها بني آدم ، قد اختار لهذا المخلوق المعزّز دستوراً في الحياة ينظم سلوكه في الدنيا وعلاقته بنفسه وبخالقه سبحانه وتعالى ، ورتب نتائج دنيوية وأخروية على نتيجة سيره وفق هذا الدستور الإلهي الكريم ، حيث يحصل الإنسان على الطمأنينة والعزة والرفاه في الدنيا ويشعر بإنسانيته الحقّة ، ويدرك الحكمة الإلهية من خلقه وإيجاده وتفضيله على سائر المخلوقات ، كما ضمن الله سبحانه وتعالى له السعادة في الآخرة استمراراً لسعادته الدنيوية ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ، قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ الأعراف/ ٣٢ .

واشتمل القرآن الكريم على الأنظمة التي احتاجها البشر في حياتهم المعاشية ولم يدع جانباً من جوانب الحياة إلا كانت له نظره الخاصة وتشريعه المستقل بحيث يتج من مجموع أنظمته تشريع متكامل لمناحي الحياة كلها ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ المائدة/ ٣ .

ويتج من تطبيقه على الناس أمة متكاملة الشخصية متميزة الملامح والسلوك عن سائر الأمم ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ آل عمران/ ١١٠ .

إن الجانب التشريعي والخلقي في القرآن الكريم لآية وإيمانية على كون القرآن من عند الله وليس من عند البشر .

فالأسس الأخلاقية والقواعد التشريعية السامية التي تضمنها القرآن الكريم تخرج عن طوق البشر إحاطة ودقة وشمولاً .

(١) مباحث في إعجاز القرآن : للدكتور مصطفى مسلم ص ٢٢٣-٢٤٦ ط دار المنارة -

يدل تاريخ الإنسانية على أنها لم تُنجب مفكراً أو فيلسوفاً أو مُصلحاً اجتماعياً استطاع أن يضع نظاماً كاملاً للعلاقات الداخلية والخارجية لدولة ما ، وكم من حكميم حاول ذلك ، ولكن نظرياته ظهر فيها النقص أحياناً والتناقض طوراً ومجانبة الصواب كثيراً ، وثار على بعضها أتباعه في حياته أو بعد مماته .

ولا تزال هذه الظاهرة تتكرر إلى يومنا هذا في الأمم والشعوب التي لاتدين دين الحق ، علماً أن هذه النظريات لاتتناول إلا جانباً واحداً بل وضيقاً من جوانب الحياة الاجتماعية ، أما أن توضع نظرية متكاملة الجوانب للكون والمخلوقات والأفراد والجماعات في شتى صورها وحالاتها ، فهذا مما يخرج من طاقة البشر مهما أوتوا من علم وحكمة ، فمبالك إذا ورد مثل هذا النظام الكامل على لسان رجل أمي لم يشتهر في حياته بالاطلاع على كتب وفلسفات الأقدمين ، ولم يعرف بالأسفار العلمية والتجوال في الآفاق بحثاً وراء الأنظمة والتشريعات .

وبقيت تلك العلوم والمبادئ قروناً وأجيالاً كلما مرّ عليها دول وأزمان وتناولتها الأيدي والأفكار بالبحث والنقاش والنقد والتمحيص ظهر بريقها واشتدّ لمعانها وأدرك المنصفون من أهل كل عصر ربانية مصدرها وجدارة تطبيقها وصلاحها دون غيرها لكل زمان ومكان .

إن المبادئ السامية التي وردت في الشريعة الإسلامية وتضمنها القرآن الكريم برهان ساطع على مصدر القرآن الكريم ودليل صدق على نبوة محمد ﷺ وأنه تلقاها من لدن الحكيم الخبير ، ليكون رحمةً للعالمين .

وسنلقي في مبحث الإعجاز التشريعي بعض الأضواء على جوانب من الهدايات القرآنية في :

أولاً : العقيدة .

ثانياً : الشريعة .

ثالثاً : الأخلاق .

وسكتفي بالعمومات في كل ذلك ، لأن التفاصيل تستغرق عمر الأجيال ولازال علماء الأمة الإسلامية يستنبطون تشريعاتهم وأنظمة حياتهم وحلول مشاكلهم المستجدة من آي الذكر الحكيم ، وسيبقى الدستور الخالد نبزاساً في حياة المسلمين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

أولاً : في العقيدة :

جاء القرآن الكريم بعقيدة سهلة خالية من التعقيد ملائمة للفطرة الإنسانية تملأ النفس طمأنينة وارتياحاً ، والقلب نوراً وانسراحاً ، والعقل قناعة .

فقد تولى القرآن الكريم توضيح العقيدة الإسلامية بأسلوب عذب جذاب لا يمكن لتاليه أو سامعه إلا أن يستجيب لنداء الفطرة ومقالة الحق بأنه تنزيل من حكيم حميد :

١- ففي مجال بيان توحيد الله سبحانه وتعالى والاستدلال عليه من خلال مخلوقاته وآثار الإبداع في خلقه ، وهي الطريقة الفطرية للإقناع والاتباع . يقول تعالى : ﴿إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ . فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ ، قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ . وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ ، فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرَّمَانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُشَابِهٍ ، انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ . وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُصِفُونَ . بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ . ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ . لَا تَأْخُذُكُمُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُذْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ . قَدْ جَاءَكُمْ بِضَائِرُكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِحَفِيفٍ﴾ الأنعام/ ٩٥-١٠٤ .

وردة القرآن الكريم شبه المنحرفين وزيف الزائفين عن عقيدة التوحيد بالبراهين العقلية الدامغة ، يقول تعالى : ﴿قُلْ لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ كَمَا يَقُولُونَ إِذَا لَا تَبْتَغُوا إِلَى ذِي الْعَرْشِ سَبِيلًا﴾ الإسراء/ ٤٢ ، ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يُصِفُونَ﴾ الأنبياء/ ٤٢ .

﴿مَاتَخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ إِذَا لَدَّهَبَ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقَ وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ

على بعض سبحانه الله عما يصفون . عالم الغيب والشهادة فتعالى عما يشركون ﴿
المؤمنون/ ٩١ ، ٩٢ .

٢- وقرر القرآن الكريم وحدة الرسالات السماوية في أهدافها ومنطلقاتها وسائلها ، وإن اختلفت في جزئيات تشريعاتها ، يقول تعالى : ﴿كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين وأنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ماجاءتهم البينات بغيا بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم﴾ البقرة/ ٢١٣ .

وبين القرآن الكريم أن اختيار الرسل من البشر ومن جنس أقوامهم وبألسنتهم سنة الله في الرسالات إذ لا تتحقق الغاية من إرسالهم على الشكل الأمثل إلا بتلك المواصفات ، كما أن تأييدهم بالمعجزات أمر لازم لإقامة الحجة على الناس ، يقول تعالى : ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾ فاطر/ ٢٤ . ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت ، فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة ، فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ النحل/ ٣٦ . ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم فُضِّلَ لهم من يشاء ويهدي من يشاء وهو العزيز الحكيم﴾ إبراهيم/ ٤ . ﴿وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعت الله بشرا رسولا؟ . قل لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا﴾ الإسراء/ ٩٥ . ويوضح القرآن الكريم أن مهمة الرسل تبليغ رسالات ربهم إلى الأقوام بعد تطبيقها العملي في حياتهم الخاصة ، وليس من مهماتهم حمل الناس على الدخول في دينهم أو إنزال العقوبات بهم ، يقول تعالى : ﴿قل إني على بينة من ربي وكذبتم به . ما عندي ماتستعجلون به إن الحكم إلا لله ، يقص الحق وهو خير الفاصلين ، قل لو أن عندي ماتستعجلون به لقضي الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين﴾ الأنعام/ ٥٨-٥٧ .

ويقرر القرآن أن الميثاق قد أخذ على الأنبياء وأقوامهم أن يؤمنوا بخاتم النبيين ويجاهدوا معه لنصرة دعوته إن أدركوا زمان بعثته التي يتم بها صرح النبوات ، يقول تعالى :

﴿وإذ أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق

لَمَّا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّهُ ، قَالَ أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِي؟ قَالُوا أَقْرَرْنَا ، قَالَ فَاشْهَدُوا وَأَنَا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدِينَ ﴿٨١﴾ آل عمران / ٨١ .

ويقرر القرآن الكريم أن الإيمان برسُل الله جميعاً وبما جاؤوا به من عند الله من أركان الإيمان وأساسياته ، يقول تعالى : ﴿ وَقُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ البقرة / ١٣٦ . ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ يَقُولُونَ نُوْمُنُ بِبَعْضِ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴾ النساء / ١٥٠-١٥١ .

٣- وقرر القرآن الكريم عقيدة البعث بعد الموت والحساب والجزاء يوم القيامة أوضح تقرير وأدقه ، فالיום الآخر من مستوجبات العدل الإلهي المطلق ، فلا بد من التمييز بين المحسن والمسيء والصالح والطالح ، يقول تعالى : ﴿ أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ ، مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴾ القلم / ٣٥-٣٦ . ﴿ أَفَنَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ ص / ٢٨ .

﴿ أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴾ المؤمنون / ١١٥-١١٦ .

ولما كان البعث بعد الموت من الأمور الغيبية التي لا تدرك آثارها فقد أكثر القرآن الكريم من ضرب الأمثال والحجج العقلية والقياس على الأمور المشاهدة المحسوسة . يقول تعالى : ﴿ وَقَالُوا إِذَا كُنَّا عِظَامًا وَرُفَاتًا أَلَيْسَ لِمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا . قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حديدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ ، فَيسْقُلُونُ مِنْ يُعِيدُنَا؟ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ ، فَسَيُقْضَىٰ إِلَيْكَ رؤُوسُهُمْ ويقولون متى هو؟ قُلِ عَسَىٰ أَنْ يَكُونَ قَرِيبًا . يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا ﴾ الإسراء / ٤٩-٥٣ .

وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يَحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ . قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ، الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقَدُونَ ، أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ ، بَلَىٰ وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ . إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ .

فسبحان الذي بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون ﴿يس/٧٨-٨٣ .

وقال تعالى : ﴿ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحيها لمحيي الموتى إنه على كل شيء قدير﴾ فُصِّلَتْ/٣٩ .

إن الإيمان بالبعث بعد الموت والحساب والجزاء عنصر مهم في تقويم سلوك الإنسان في الحياة الدنيا ودفعه نحو الكمالات النفسية والتحلي بالفضائل والابتعاد عن الرذائل ، كما أنه عزاء لأهل الخير والصلاح إن فاتهم سراء أو أصابهم الضر في الحياة الدنيا .

لذا نجد القرآن الكريم يصف منكري البعث بالخسران :

قال تعالى : ﴿قد خسر الذين كذبوا بقاء الله حتى إذا جاءتهم الساعة بغتة قالوا يا خسرتنا على ما فرطنا فيها وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم ألا ساء ما يزرون . وما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو ، وللدائر الآخرة خير للذين يتقون أفلا تعقلون﴾ الأنعام/٣١-٣٢ .

ولقد خسر الكافرون بالبعث عقولهم وأفهامهم إذ فهموا - خطأ أن لا حكمة من خلقهم . وخسروا العزاء إذا شقوا في الحياة الدنيا . وخسروا ما أعده الله لأولياته المؤمنين يوم القيامة .

هذه أسس العقيدة الإسلامية : الألوهية - الرسالة - المعاد ، وقد فصلها القرآن الكريم أوضح تفصيل وأبلغه ، ولم يدع مجالاً من مجالاتها إلا وقرره أحكم تقرير . ولكل من هذه القضايا مستلزمات ومقومات عرضها القرآن الكريم أيضاً فمن مقتضيات الإيمان بالألوهية : الإيمان بأسماء الله وصفاته وما يجب لله سبحانه وتعالى من صفات الكمال المطلق وتنزيهه عن صفات النقص .

والرسالة تستلزم الإيمان بالكتب التي تضمنت الرسالات وبالأشخاص الذين حملوها ، وما يجب توقُّره فيهم من صدق وأمانة وفضانة وعصمة ، كما تستلزم الرسالة الإيمان بالملائكة الذين هم السفراء بين عالم الغيب والشهادة الأمان على تنفيذ حكم الله في خلقه .

والإيمان بالمعاد يستلزم الإيمان بمار ورد في هذا اليوم من موقف ومحشر وميزان وصراط وجنة ونار ، وما أعد لأهل الجنة من نعيم وما يلقاه أهل النار في الجحيم .

وقد تناول القرآن كل ذلك تفصيلاً ، فكانت العقيدة الإسلامية الراسخة النقية

الصفاء الجلية المشرقة من غير تعقيد أو غموض ، أو حيرة واضطراب ﴿آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لانفرق بين أحد من رسله ، وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير﴾ البقرة/ ٢٨٥ .

ثانياً : في الشريعة :

لقد أرسى القرآن الكريم دعائم المجتمع الإسلامي على أسس متينة وشرع له من التشريعات المستمدة من العقيدة الراسخة ما يوفر له السعادة والطمأنينة ويسمو به نحو الكمال البشري . وتمتاز هذه التشريعات بالعقيدة امتزاج الروح بالجسد ، ويمكن تلمس هذه النتائج العظيمة من خلال التطبيق الجاد المخلص لأحكامه ، وأحداث التاريخ التي ملئت بها بطون الكتب من سير السلف الصالح خير شاهد على مدى نجاح هذه التشريعات في توفير السعادة والطمأنينة والرفاه .

أسس التشريعات في القرآن الكريم :

وفيما يلي إشارة سريعة إلى جملة من هذه الأسس والتشريعات التي تضمنها القرآن الكريم :

١- الرابطة بين أفراد المجتمع الإسلامي رابطة الولاء لله ولرسوله وللمؤمنين :

إن الأساس الذي يُبنى عليه هيكل المجتمع الإسلامي هو أن رابطة العقيدة هي التي تشكل الآصرة التي تربط الأفراد في المجتمع ، وليس للرابطة الوطنية أو القومية أو القبلية أو الجنس أو اللون أي أثر في المجتمع الإسلامي . وارتباط المسلم بالوطن والقوم بمقدار ارتباط هذا الوطن وأهله بالإسلام ، فولاء المسلم لعقيدته أولاً وآخراً ، لذا نجد القرآن الكريم ندد بمن أثر الوطن والمسكن والأهل والأقارب على العقيدة ، وامتدح الذين ضحوا بكل ذلك في سبيل عقيدتهم ، يقول تعالى : ﴿لَا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ، أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ . أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ المجادلة/ ٢٢ .

وقال تعالى : ﴿ولو أنا أنزلنا عليهم أن اقتلوا أنفسكم أو اخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم ، ولو أنهم فعلوا ما يوعظون به لكان خيراً لهم وأشدّ ثبثاً﴾ النساء/ ٦٦ .

وقد تضمّن القرآن الكريم من أحكام العبادات والمعاملات والحدود والقصاص مايقوّي أواصر الجماعة ويثبت روح التعاون والتعاقد بين أفرادها ويعوّدهم على النظام والطاعة والانقياد للقيادة المؤمنة العليا في المجتمع الإسلامي ، ويتجلّى ذلك في تشريعات الصلاة والزكاة والصوم والحج . . .

ففي الصلاة تربية الفرد على النظام وتلقّي الأوامر من الرئيس المباشر (الإمام) . ولعل هذا المعنى أثر في نفس عدو الله رستم في القادسية عندما كان يراقب الجيش الإسلامي وهو يؤدي صلاة الجماعة صفوفاً خلف الإمام حيث قال : (لقد مزّق عمر كبدي ، يُعلّم الأعراب النظام) .

وفي الزكاة قضاء على الحقد والبغضاء بين الطبقات وإشعار بتكافل المسلمين وتضامنهم .

وفي الصوم إشعار بوحدة الأمة وتعويد لها على الصبر وقوة الإرادة وتنمية مراقبة الله تعالى في السر والعلن .

وفي الحج إبراز المساواة بين الناس وتذكيرهم بالموقف الأكبر وإظهار للمساواة بين المسلمين ، ووحدتهم الإسلامية على اختلاف ألوانها وأجناسها وتحقيق لقوله تعالى : ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُون﴾ الأنبياء/ ٩٢ .

إلى جانب تقوية صلة الفرد بالله سبحانه وتعالى وتزكية روحه والتسامي على الأهواء والتزوات المنحطة .

٢- قرر القرآن الكريم من التشريعات التفصيلية للفرد والمجتمع مايقطع دابر الشقاق والخلاف بين المسلمين ، وإن وقع شيء من ذلك ضيق هوة النزاع بين المتخاصمين للحيلولة دون انتشاره واستمراره .

فمن أجل ذلك جاءت التشريعات لصيانة دماء الناس فيما بينهم فشرع القصاص في النفس والأعضاء بقوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلِ الْحُرُّ بِالْحُرِّ وَالْعَبْدُ بِالْعَبْدِ وَالْأَنْثَى بِالْأُنْثَى فَمَنْ عُفِيَ لَهُ مِنْ أَخِيهِ شَيْءٌ فَاتَّبَاعْ بِالْمَعْرُوفِ وَأَدَاءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَانٍ ذَلِكَ تَخْفِيفٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ . فَمَنْ اعْتَدَى بِكُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ البقرة/ ١٧٨ .

﴿وَكُتِبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ ، فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ ، وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا

أنزل الله فأولئك هم الظالمون ﴿ المائدة/ ٤٥ .

وشرع من الأحكام ما صان أعراض الناس وحذر من انتهاكها ولم يبحها إلا بعقد الزوجية أو مئلك اليمين ، يقول تعالى : ﴿ الزانية والزاني فاجلدوا كل واحد منهما مائة جلدة ولا تأخذكم بهما رحمة في دين الله إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ، وليشهد عذابهما طائفة من المؤمنين . الزاني لا ينكح إلا زانية أو مشركة ، والزانية لا ينكحها إلا زانٍ أو مشرك ، وحُرِّمَ ذلك على المؤمنين ﴾ النور/ ٢-٣ .

كما سَنَّ القرآن الكريم من التشريعات ما يحفظ أموال الناس ويمنع الاستيلاء عليها عن طريق الغش والخداع والنصب والإكراه وجيل الربا وأنواع الاستغلال الحرام ، يقول تعالى : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقاً من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾ البقرة/ ١٨٨ .

وأبدل بذلك إباحة البيع والشراء فقال تعالى : ﴿ وأحلَّ الله البيعَ وحرمَ الربا ﴾ البقرة/ ٢٧٥ . وفرض الزكاة وحثَّ على الصدقات المطلقة توسيعاً لقاعدة التداول المالي وقال تعالى : ﴿ إنما الصدقاتُ للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ التوبة/ ٦٠ .

وحرم كنز المال ومنعه عن أصحاب الحقوق والمحتاجين فقال تعالى ﴿ والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعباب آليم . يوم يُخْمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون ﴾ التوبة/ ٣٤-٣٥ .

وعد المنفقين في سبيل الله بالمضاعفة في الدنيا والمثوبة العظيمة في الآخرة فقال جلَّ من قائل : ﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة ، والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾ البقرة/ ٢٤٥ .

وقال ﴿ مَنكُلُ الذين يُنْفِقُونَ أموالهم في سبيل الله كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ ، في كل سُنْبُلَةٍ مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم ﴾ البقرة/ ٢٦٣ .

كل ذلك لمنع تجميع المال في أيدي قليلة تعيش طفيلية على جهد العاملين وكدهم ﴿ كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ﴾ الحشر/ ٧ .

٣- الأسرة ومكانتها في القرآن :

أولى القرآن الكريم الأسرة اهتماماً كبيراً باعتبارها اللبنة الأولى من لبنات الأمة ، ومن البدهي أن البناء يستمد قوته من قوة لبناته وضعفه من ضعفها ، فكلما كانت الأسرة قوية متماسكة ذات مناعة تجاه الأويثة الخلقية والانحرافات الاجتماعية بُني صرح الأمة قوياً منيعاً وإذا كانت الأسرة ضعيفة منحلّة كان انحلال الأمة وتفسّخها نتيجة طبيعية لذلك . لذا لم يترك القرآن الكريم جانباً من شؤونها إلا وتوجّه له بالتوجيه والتسديد :

أ- جعل القرآن الكريم الزواج أصل نشوء الأسرة ومن هنا أخذ الزواج نفس العناية التي أخذتها الأسرة وأسبغ عليه نفس القدسية والجلال ، يقول تعالى : ﴿وَاللّٰهُ جَعَلَ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ بَنِينَ وَحَفَدَةً ، وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ ، أَنْفَالِبَاطِلٍ يُؤْمِنُونَ وَبِنِعْمَةِ اللَّهِ هُمْ يَكْفُرُونَ﴾ النحل/ ٧٢ .

﴿ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودةً ورحمةً إن في ذلك لآياتٍ لقوم يتفكرون﴾ الروم/ ٢١ .

﴿ وإن أردتم استبدال زوج مكان زوج وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئاً تأخذونه بُهتاناً وإثماً مُبيناً ، وكيف تأخذونه وقد أفضى بعضكم إلى بعض وأخذن منكم ميثاقاً غليظاً﴾ النساء/ ٢٠-٢١ .

ب - ولما كان للزواج هذه الأهمية فقد عُني القرآن الكريم بجملة من الوسائل التي من شأنها إذا روعيت أن تقوي الحياة الزوجية وتدعم استمرارها ، وتحول بين تدهورها وانحلالها .

من هذه الوسائل مايجب مراعاته في الزواج منذ اللحظة الأولى ، لحظة التفكير فيه والتوجه إليه والعزم عليه ، ومنها مايجب مراعاته بعد أن يتم عقد الزواج وتسير الحياة الزوجية في طريقها ، ومنها مايجب مراعاته حين الشعور بمبدأ الزعزعة والاضطراب فترجع النفوس عن غيها وتقف في جانب المحافظة ودوام الاتصال بدلاً من الاندفاع في الغضب والانحلال .

أما إذا لم تتسع ساحة الدار للشقاق والخلاف بين الزوجين فقد أمر الله بعرض النزاع على المهتمّين بشؤون الزوجين من القرابة لإيجاد الحل الذي يحفظ على الزوجين وُدّهما ويعيد المياه إلى مجاريها .

وإن كانت الأخرى فلكي يمضي كلٌ في سبيله وقد عرف ماله وماعليه فلاضيم ولاظلم . . .

وهكذا لو تتبعنا المسيرة القرآنية مع الأسرة لطال بنا المسير ونحن نستعرض التشريعات الحكيمة في حالات الوفاق والاستمرار ، وفي حالات الطلاق والانفصال ، وفي حال الحياة وبعد الممات .

٤- الدولة والحكومة في القرآن :

ومن الموضوعات اللافتة للنظر في القرآن الكريم تشريعاته المتعلقة بشؤون السلطة والسياسة الداخلية والخارجية للدولة الإسلامية في السلم والحرب ، لقد أقام الإسلام دولة لم يشهد لها مثيلاً تحققت فيها كل مقومات السعادة والأمن والعدل وكل مظاهر القوة والعظمة والمجد . وذلك نتيجة تطبيق أحكام القرآن الكريم ، فالدولة تستمد عظمتها ومجدها من المبادئ التي تحملها إلى الإنسانية وتسهر على تطبيقها بنزاهة وعدالة . ونشير إلى جملة من هذه المبادئ الأساسية التي قامت عليها الدولة الإسلامية :

أ- الشورى :

لقد قرن القرآن الكريم بين الشورى وبين عناصر الشخصية المؤمنة مثل الصلاة والزكاة فهي من المقومات الأساسية في تكوين شخصيته أيضاً .

يقول تعالى : ﴿وَالَّذِينَ يَخْتَفُونَ كِبَائِرَ الْإِثْمِ وَالْفَوَاحِشِ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ ، وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ، وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنْتَصِرُونَ﴾ الشورى/ ٣٦-٣٩ .

ولم يحدد القرآن الكريم طريقة المشورة ووسيلتها توسعةً ورحمةً لأن الوسيلة قد تختلف من جيل إلى جيل ، إلا أن السوابق الدستورية في عصر رسول الله ﷺ والخلافة الراشدة تبين أنهم كانوا يوسعون من أبعادها بقدر الإمكان ، حتى تشمل فئات المسلمين وطبقاتهم ، وأهل الاختصاص والرأي فيهم ، وإذا ما انتهت الشورى إلى رأي أو قرار وأجمع أهل الحل والعقد على أمر وجب على جميع المسلمين طاعتهم .

ب - العدل المطلق بين الرعية :

فلا وجود في الدولة الإسلامية للمتنفذين الذين يتسلطون على حقوق الضعفاء ، بل الناس سواسية ، الحاكم والمحكوم ، القوي والضعيف ، الصغير والكبير ، أمام القضاء

والحكم . ومن هنا كان إقامة العدل بين الناس من أوليات الدعوة الإلهية ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿فلذلك فادعُ واستقيم كما أمرت ولا تتبع أهواءهم وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب وأمرت لأعدل بينكم ، الله ربنا وربكم ، لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ، لآحجة بيننا وبينكم ، الله يجمع بيننا وإليه المصير﴾ الشورى/ ١٥ .

ويبين القرآن الكريم أن العدل في كل الظروف وحيال جميع المواقف وتجاه كل إنسان يجب أن يطبق سواء كانوا من الأقرباء أو البعداء ، وسواء كانوا من الأصدقاء أو الأعداء ، من المحبين أو المبغضين .

يقول تعالى : ﴿إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون﴾ النحل/ ٩٠ . ﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين ، إن يكن غنياً أو فقيراً فالله أولى بهما ، فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا وإن تلووا أو ثمرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيراً﴾ النساء/ ١٣٥ .

فلا تفرقة بين الأشخاص في تحقيق العدالة ، وإذا حوِيَ القريب المحب على حساب العدالة ، وأبغض البعيد وظلم بسبب العداوة أو الجنس أو اللون اضطرب شأن الدولة واختلت المعايير والقيم فيها ففوّض أركانها . ﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شأن قوم على أن لاتعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ المائدة/ ٨ .

ج - التكافل الاجتماعي : يبين القرآن الكريم أهمية التكافل الاجتماعي في بناء الدولة الإسلامية إذ أن شعور أفراد الأمة الإسلامية بمسؤوليتهم جميعاً عن تصرفات الأفراد ، وأن كل واحد منهم حامل لتبعات أخيه ومحمول على أخيه ، فيسأل عن نفسه ويسأل عن غيره .

وهذا قانون من قوانين الاجتماع الراقي ، ومن المقومات التي توفر الحياة السعيدة الكريمة للأمة وتوفر لها المناخ الملائم لأداء دورها في الحياة .

وقد أشار القرآن الكريم إلى شعبتي التكافل الاجتماعي ودعا إلى القيام بهما :

أما الشعبة الأولى فهي الجانب الأدبي في التكافل . وهي تبرز تكافل المسلمين وتعاونهم على إحقاق الخير وتأيدته ونصرته وكسر شوكة الباطل واجتثاث جذوره والقضاء عليه . إنه دعامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر يقول تعالى : ﴿والمؤمنون

والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرُونَ بالمعروف وينهَوْنَ عن المنكر وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾
التوبة/ ٧١ .

إن سنة الله في المجتمعات هي أن أفراد المجتمع إن لم يسندوا أولي الأمر في محاربة الباطل ، وإقامة العدل ، والأخذ على يد الظلمة والفسقة ، إن لم يقوموا بما كلفهم الله به استشرى الباطل وعجز السلطان عن تنفيذ الأحكام فكان مصير الأمة الدمار والخراب ﴿فلولا كان من القرون من قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ﴾ هود/ ١١٦ .

وأما الشعبة الثانية في التكافل الاجتماعي فشعبة مادية . وسيلها على مستوى الفرد في الجماعة الإسلامية هو أن يمد يد المعونة في حاجة المحتاج وإغاثة الملهوف وتفريج كربة المكروب وتأمين الخائف وإطعام الجائع . وقد حث القرآن الكريم على هذا التعاون المادي واستنهض الهمم فيه ، يقول جلّ جلاله : ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ ، وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمَوْفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ البقرة/ ١٧٧ .

وعلى نطاق الدولة فمهمتها كفالة المجتمع الإسلامي بأسره وتوفير الحاجيات الأساسية من مطعم وملبس ومأكل ، وقد جاء ذلك صريحاً في سنة رسول الله ﷺ وسنة خلفائه الراشدين . يقول عليه الصلاة والسلام : «أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فَمَنْ مَاتَ وَعَلَيْهِ ذَنْبٌ وَلَمْ يَتْرِكْ وَفَاءً فَعَلَيَّ قِضَاؤُهُ ، وَمَنْ تَرَكَ مَالاً فَلَوْرَثَتُهُ» وفي رواية : «مَنْ تَرَكَ ذَنْبًا أَوْ ضَيَاعًا فَلْيَأْتِنِي فَأَنَا مَوْلَاهُ» رواه مسلم من حديث أبي هريرة (١) .

ويقول عمر بن الخطاب رضي الله عنه : (ولم يبق أحد من المسلمين إلا وله في هذا المال حق ، إلا ماتمكون من رقيقكم ، فإن أعش إن شاء الله لم يبق أحد من المسلمين إلا سيأتيه حقه ، حتى الراعي بسر وحمير يأتيه ولم يعرق فيه جبينه) تفسير ابن كثير (٢) .

(١) صحيح مسلم ، كتاب الفرائض ج ٥ ص ٦٢ . الضياع بكسر الضاد وجمع ضائع .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٤ ص ٣٤٠ ، ورواه النسائي بلفظ قريب في كتاب قسم الفيء ج ٧ ص ١٣٧

٥- الأسس التي بُنِيَتْ عليها علاقات الدولة الإسلامية بغيرها :

ذكر القرآن الكريم المبادئ التي يحدد المسلمون بموجبها علاقاتهم بغيرهم . والنظرة القرآنية إلى هذه العلاقات متمشية مع مبادئه السامية في نظره إلى الكون والإنسان عامة . فمن سنن الله في المجتمعات الإنسانية سنة التدافع ، فالحق لا بد له من قوة تسند مسيرته ، وإلا تغلب عليه الباطل وأهله ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ البقرة/ ٢٥١ .

لذا كانت نظرة القرآن الكريم إلى الإنسانية أنها مأمورة بالسير في الكون على منهج خالق الكون . فإذا اضطرب أمرها واندثرت معالم الحق منها كانت مهمة الرسل عليهم الصلاة والسلام بيانه لها ، فإن صممت على السير في متاهات الحياة على غير بصيرة اقتضت مصلحتها أن تعاد إلى الطريق السوي بالقوة .

فالنظرة الإسلامية إلى الإنسان نظرة شفقة وعطف ورحمة ، والمسلمون حين يدعون الناس إلى الإسلام إنما يريدون لهم الخير والفلاح ، فإن أصر الناس على معاندة الحق وتنكب طريق الفلاح كانت النظرة الإسلامية العلاجية لمثل هذه الحالات إعلان الجهاد في سبيل إحقاق الحق وإزالة العقبات أمام الدعوة والدعاة ورفع الظلم والاضطهاد عن المستضعفين . وإلى هذه الغايات تشير الآية الكريمة ﴿أُذِّنْ لِلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَيُنَاقِضُونَ عَلَيْهِمْ نَفْسَهُمْ وَهُمْ يُقَاتِلُونَ﴾ البقرة/ ١٩٠ . ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيراً وَلَيَنْصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنْصُرُهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ الحج/ ٤٠ .

والناس أمام دعوة الحق فئات . وقد أشار القرآن إلى الموقف الذي ينبغي اتخاذه تجاه كل فئة .

١- فمنهم الذين يقفون في وجه دعوة الحق موقف العداء . ويحاولون الاعتداء على بيضة الإسلام في أرض المسلمين ، أو يمنعون الدعاة من إبلاغ الدعوة إلى الشعوب بالاعتداء عليهم وإخراجهم من أرض الله ، أو يفتنون المسلمين من سكان بلادهم عن دينهم بمنعهم من إقامة شعائر دينهم ، فهؤلاء المحاربون الذين حث القرآن على قتالهم بكل وسائله وطرقه بالهجوم على مآمنهم والقصد إلى مكائهم . وفي ذلك يقول الله

سبحانه وتعالى : ﴿فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصِرُوهُمْ وَقَعِدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصِدٍ ، فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوْا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ التوبة/ ٥ .

ويقول تعالى : ﴿قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ التوبة/ ٢٩ .

إلا أن الجهاد الإسلامي لا يتجاوز معسكر الحكام والجيوش ، أما العلاقة بين المسلمين والشعوب فتبقى علاقة ودّ وعطف ورغبة في الهداية ، يقول تعالى : ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ . إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ الممتحنة/ ٨-٩ .

ويرغب القرآن الكريم في إنهاء القتال إن مال الأعداء إلى السلم مالم تظهر منهم أمارات الخديعة والمكر ﴿وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ . وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ ، هُوَ الَّذِي آتَاكَ بُصْرَهُ وَبِالْمُؤْمِنِينَ وَالْفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلْفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلْفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ الأنفال/ ٦١-٦٣ .

٢- والفئة الثانية أهل الميثاق :

وتمشياً مع شرعة القرآن في جعل الجهاد علاجاً لحالات لم تنفع فيها الحكمة والموعظة الحسنة فقد سنّ للمسلمين حق إنشاء معاهدات ومواثيق بينهم وبين غيرهم بدءاً وبعد حرب ، وأمر بالوقوف عند هذه المواثيق بقطع النظر عن أي اعتبار ماداموا لا ينقضون منها شيئاً ولا يظاهرون على المسلمين أحداً ، يقول تعالى : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ الْعَهْدَ كَانَ مَسْئُولًا﴾ الإسراء / ٣٤ - ويقول : ﴿وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ النحل/ ٩١ .

إلا أن مراعاة المواثيق والعهود لاتجعلنا في غفلة عن حال العدو ، فنحن ملتزمون بمضمون المعاهدة إذا حافظ عليه الطرف الآخر ولم تبد من جانبه نية الخيانة ولم يُخْلَ

بشيء من التزاماته ، ولم يظهر علينا عدواً بالمال أو السلاح أو الرأي والتدبير . فإن بدر منه ما ينقض مضمون المعاهدة كان لنا أن نعامله بالمثل ، وبذلك تفقد المعاهدة حرمتها ونكون في حلٍّ من التزاماتها ، ولكن القرآن أوجب عندئذ إعلام الطرف الآخر بنبد المعاهدة ولايسمح بالمباغثة إلا بعد وصول نيا البند إليهم ، يقول تعالى : ﴿وَأَمَّا تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إنا الله لا يحب الخائنين﴾ الأنفال/ ٥٨ .

٣- والفئة الثالثة هم فئة المسالمين (المحايدين) :

وهم الذين يعتزلون قتال المسلمين ويكفون أيديهم وأستهم ولايظاهرون عليهم عدواً ، وهم الذين لايريدون أن يكونوا مع المؤمنين على قومهم ، ولامع قومهم على المؤمنين . فهؤلاء لايقاتلون ماالتزموا الحياد في مكانهم بعيدين عن المحاربين . يقول تعالى في شأن هؤلاء : ﴿... إنا الذين يصلون إلى قوم بينكم وبينهم ميثاق أو جاؤكم حصرت صدورهم أن يقاتلوكم أو يقاتلوكم قومهم ، ولو شاء الله لسلطهم عليكم فلقاتلوكم ، فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سيلاً﴾ النساء/ ٩٠ .

وهكذا تتضح لنا معالم هدايات القرآن الكريم في تنظيم شؤون الحياة كلها صافية نقية توفر السعادة للفرد والأمن والاستقرار للمجتمع وتحفظ للأمة كيانها وهيبتها ومركزها بين الأمم .

وإذا كان المعيار الذي يُعرف به عظمة التشريعات وصلاحها وشمولها ودقتها هو الأثر الذي تتركه في المجتمعات ومدى توفير السعادة والطمأنينة للشعوب فإن أثر تطبيق الشرائع الإسلامية ظاهرة للعيان في مختلف العصور الإسلامية وفي سائر أقطار المسلمين .

فسعادة المسلمين ورفيهم وتقدمهم مرتبطة بالتمسك بشرائع الإسلام وهم قوم أعزهم الله بالإسلام فمهما ابتغوا العزة في غيره أذلهم الله .

ثالثاً : في الأخلاق :

لقد أولى القرآن الكريم الأخلاق أهمية كبيرة ، وحث على التمسك بفضائلها وبمختلف الأساليب ، وحذر من ارتكاب مردولها بشتى الطرق . ونظرة القرآن إلى الأخلاق منبثقة أيضاً من نظره إلى الكون والحياة والإنسان . وإذا كانت العقائد تشكل أركان الصرح الإسلامي فإن التشريعات تكون تقسيمات حجراته وممراته ومداخله ،

والأخلاق تُصنفي البهاء والرونق والجمال على الصرح المكتمل ، وتصبغه الصبغة الربانية المتميزة .

وإذا كانت العقيدة الإسلامية تشكّل جذور الدوحة الإسلامية وجذعها فإن الشريعة تمثل أغصانها وتشعباتها ، والأخلاق تكون ثمارها اليانعة وظلالها الوارفة ومنظرها البهيح النضر :

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ ، تُؤْتِي أَكْلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا ، وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ إبراهيم/ ٢٤-٢٥ .

لقد عرضت آيات القرآن الكريم الدعوة إلى التحلي بالأخلاق الفاضلة من خلال الالتزام بالعقيدة الإسلامية ومن خلال الأوامر الربانية ، لأن الله الذي خلق الإنسان وأودع فيه الفطرة المستقيمة أودع فيه أيضاً العواطف والمشاعر والغرائز والحاجات ووضح المنهج الأمثل الذي يحافظ على استقامة الفطرة ، ويسمو بها توازع الخير ، ويحدّ من أهواء النفس والشهوات ويهذب الغرائز ويسمو بها ويوجّدها إلى الكمالات الإنسانية . ﴿إِنَّ رَبَّكَ وَاسِعُ الْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجْتُهُ فِي بَطُونٍ أَمْهَاتِكُمْ فَلَا تَزْكُوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ اتَّقَى﴾ النجم/ ٣٢ .

ولقد تنوّعت الأساليب القرآنية في عرض الأخلاق والحثّ على التحلي بها فكثيراً ما يكرّر القرآن الكريم خلقاً من الأخلاق أو صفة مستمدة منه ويستعملها استعمالات شتى . وما ذاك إلا بهدف ملء أسماع المؤمنين من هذه الصفة ، فإذا ماسيطرت عليهم استشعروا في أنفسهم واتصفوا بها في سلوكهم ونفروا من ضدها ، وهذا أسلوب من الأساليب التربوية الرفيعة .

خذ مثلاً على ذلك خُلُقُ (العِزَّة) ، فقد كرّر القرآن الكريم وصف ذات الله القدسية بصفة العزيز ما يقرب من تسعين مرة .

ووصف به الرسول والمؤمنين في قوله تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ المنافقون/ ٨ .

وقال تارة أخرى عن عباد الله الذين يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ : ﴿أَذَلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ المائدة/ ٥٤ .

وتارة يحصرها في الخالق سبحانه يهبها لمن يشاء : ﴿قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكَ الْمُلْكِ تُؤْتِي

الْمُلْكُ مِنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَمِزُ مِنْ تَشَاءُ وَتُذِلُّ مِنْ تَشَاءُ ، يَدُوكَ الْخَيْرُ
إِنَّكَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٦﴾ آل عمران/ ٣٦ .

وفيما يلي جملة من هذه الأساليب من خلال آيات الذكر الحكيم :

أ- تعرض كثير من الآيات الكريمة أمهات الأخلاق الفاضلة وتدعو إلى التمسك بها لأنها أمر إلهي ، وفي التمسك بها فلاح البشرية وسعادتها والفوز برضوان الله سبحانه وتعالى . وبالنص على هذه الأمور العامة وكان الهدايات القرآنية ترسم الخطوط العريضة في خارطة السلوك البشري وما ينبغي أن يكون الحال عليه .

فنفراً مثلاً قوله تعالى :

﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ
وَالْبَغْيِ ، يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ، وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلَا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ
تَوْكِيدِهَا وَقَدْ جَعَلَهُ اللَّهُ عَلَيْكُمْ كَفِيلًا إِنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا تَفْعَلُونَ﴾ النحل/ ٩٠-٩١ .

والبرّ والتقوى مرتبتان لا يدركهما إلا من اتصف بصفات عظيمة وارتفع عن الشهوات وتسامى في العواطف والمشاعر ، وكانت منطلقاته في ذلك الإيمان الراسخ بالله واليوم الآخر ، يقول تعالى : ﴿لَيْسَ الْبِرُّ أَنْ تُولَّوْا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ البقرة/ ١٧٧ .

فالآية الكريمة جمعت أطراف البر ابتداء بالعقيدة إذ هي الأساس الذي يُبنى عليه غيره واستطراداً إلى التشريعات التي تكون الهيكل والقوام وانتهاءً بالأخلاق والفضائل وهي المزايا الكريمة الراقية . يقول ابن عاشور : (فلهذا الاستقراء البديع الذي يعجز عنه كل خطيب وحكيم غير العلام الحكيم ، وقد جمعت هذه الخصال جماع الفضائل الفردية والاجتماعية الناشئة عنها صلاح أفراد المجتمع من أصول العقيدة وصالحات الأعمال . فالإيمان وإقام الصلاة هما منبع الفضائل الفريدة ، لأنهما ينبثق عنهما سائر الفرديات المأمور بها ، والزكاة وإيتاء المال أصل نظام الجماعة صغيرها وكبيرها ، والمواساة تقوى عنها الأخوة والاتحاد وتسدد مصالح للأمة كثيرة ، وببذل المال في الرقاب يتعزّز جانب الحرية المطلوبة للشارع حتى يصير الناس كلهم أحراراً ، والوفاء

بالمعهد فيه فضيلة فردية وهي عنوان كمال النفس وفضيلة اجتماعية وهي ثقة الناس بعضهم ببعض ، والصبر فيه جماع الفضائل وشجاعة الأمة ، ولذلك قال تعالى هنا : ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ فحصر فيهم الصدق والتقوى حصراً ادعائياً للمبالغة^(١) .

فهذه الآية الفذة قد جمعت بين البرّ في العقيدة والبرّ في التشريعات والبرّ في الأخلاق ، وهي قوام التقوى والفلاح في الدارين ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ . . .﴾ الأعراف/ ٩٦ .

﴿إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَنَهَرٍ ، فِي مَقْعَدٍ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِكٍ مُّقْتَدِرٍ﴾ القمر/ ٥٤ .

ب - وتارة تعرض جملة من أمهات الأخلاق على شكل وصية وميثاق يؤخذ على المؤمنين وعليهم الالتزام به والقيام عليه والوفاء به . يقول تعالى : ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْكُمْ : أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِتْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ ، وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ، وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ، وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنَّكُمْ لَفِي ذَلِكُمْ مِنْ أَتْلَاقٍ ، وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ ، وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ، ذَلِكَ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ . وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ، ذَلِكَ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ الأنعام/ ١٥١-١٥٣ .

ج - وتأتي التوصية أحياناً على لسان أحد الأولياء المصطفين وهو يمخض النصيحة لمن يحرص على نجاته ويعزّ عليه انحرافه وضلاله . وهذا ما نقرؤه في قوله تعالى على لسان لقمان وهو يعظ ابنه :

﴿وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لِابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لَا تُشْرِكْ بِاللَّهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ، وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حِمْلَةٌ لِمُتُّهُمَا وَهَنٌ عَلَىٰ وَهْنٍ ، وَفَصَالُكَ فِي عَامِينَ أَنْ أَشْكُرَ لِي وَلَوْلَا دَيْكَ إِلَيَّ الْمَصِيرُ ، وَإِنْ جَاهَدَاكَ عَلَىٰ أَنْ تُشْرِكَ بِي مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا وَصَاحِبُهُمَا فِي الدُّنْيَا مَعْرُوفًا وَاتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَيَّ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ . يَا بُنَيَّ إِنَّهَا إِنْ تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي سَمَاوَاتٍ أَوْ فِي الْأَرْضِ

(١) «تفسير التحرير والتنوير» ٢/ ١٣٢ .

يَأْتِي بِهَا اللَّهُ ، إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ . يَأْتِي أَقِمِ الصَّلَاةَ وَأْمُرْ بِالْمَعْرُوفِ وَانْهَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَاصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَكَ ، إِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ، وَلَا تَصْغُرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ . وَاقْصِدْ فِي مَشْيِكَ وَاغْضُضْ مِنْ صَوْتِكَ إِنَّ أَنْكَرَ الْأَصْوَاتِ لَصَوْتُ الْحَمِيرِ ﴿ لقمان/ ١٣-١٩ .

د - وتارة يأتي الحث على أمهات الأخلاق من خلال الثناء على طائفة ممتازة مختارة من عباد الله الذين نهجوا في حياتهم الدنيا نهجاً ربانياً استحقوا بذلك هذا الثناء في الدنيا ورضوان الله في الآخرة . وفي كل ذلك من الأساليب التربوية الرائعة عن طريق الإيحاء الشيء الكثير .

يقول تعالى : ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا . وَالَّذِينَ يَبْتَتِنُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا . إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا . وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا . وَالَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ، يَضَاعَفْ لَهُ الْعَذَابُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِ مُهَانًا . إِلَّا مَنْ تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَئِكَ يَبْدُلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا . وَمَنْ تَابَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَإِنَّهُ يَتُوبُ إِلَى اللَّهِ مَتَابًا . وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ وَإِذَا مُرُوا بِاللَّغْوِ مَرُّوا كِرَامًا . وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا . وَالَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا هَبْ لَنَا مِنْ أَزْوَاجِنَا وَذُرِّيَّاتِنَا قُرَّةَ أَعْيُنٍ وَاجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا . أُولَئِكَ يُجْزَوْنَ الْغُرْفَةَ بِمَا صَبَرُوا وَيُلَقَّوْنَ فِيهَا تَحِيَّةً وَسَلَامًا . خَالِدِينَ فِيهَا حَسُنَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا . قُلْ مَا يَعْبُؤُا بِكُمْ رَبِّي لَوْلَا دَعَاؤُكُمْ فَقَدْ كَذَّبْتُمْ فَسَوْفَ يَكُونُ لِزَامًا﴾ الفرقان/ ٦٣-٧٧ .

﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ . إِلَّا عَلَى أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ . فَمَنْ ابْتَغَى وَرَاءَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْعَادُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ لِأَمَانَاتِهِمْ وَعَهْدِهِمْ رَاعُونَ . وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَوَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ . أُولَئِكَ هُمُ الْوَارِثُونَ . الَّذِينَ يَرِثُونَ الْفَرْدُوسَ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ المؤمنون/ ١-١١ .

هـ - هذا إلى جانب الحث على خلق معين عند وجود الدواعي لإفراده بالذكر أو المناسبة المقتضية للنهي عن ضده أو التفسير عن خلق ذميم .

- فالحث على التقوى والصدق نجده في قوله تعالى :

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾ التوبة/ ١١٩ .

وذلك في تعقيب رائع على قصة الثلاثة الذين خَلَفُوا والتزموا الصدق في موقفهم فأكرمهم الله بقبول توبتهم وخلود ذكركم ، فقد كانوا متقين صادقين وعلمنا أن نتأسي بموقفهم وسيرتهم .

- والحث على الكرم والإيثار يأتي في تعقيب خاطف على الموقف المشرف الذي وقفه الأنصار من إخوانهم المهاجرين بعد حادثة فيء بني النضير حيث قال لهم رسول الله ﷺ : «إِنْ أَحْبَبْتُمْ قَسَمْتُ مَا آفَاءَ اللَّهِ عَلَيَّ مِنْ بَنِي النَّضِيرِ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ ، وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ عَلَى مَا هُمْ عَلَيْهِ مِنَ السَّكْنَى فِي مَسَاكِنِكُمْ وَأَمْوَالِكُمْ ، وَإِنْ أَحْبَبْتُمْ أُعْطِيْتُمْ وَخَرَجُوا مِنْ دِيَارِكُمْ» ، فقال سعد ابن عبادة وسعد بن معاذ : (بل تقسمه بين المهاجرين ، ويكونون في دُورنا كما كانوا) ، ونادت الأنصار قائلة : (رضينا وسلمنا يارسول الله) ، فقال رسول الله ﷺ : «اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار» ، وأعطى المهاجرين ولم يعط الأنصار شيئاً ، إلا اثنين أو ثلاثة كان بهم فقر وحاجة ، فنزل فيهم قول الله تعالى :

﴿وَالَّذِينَ تَبَوَّأُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِنْ قَبْلِهِمْ يُحْجِثُونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ . وَمَنْ يُوقِ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ الحشر/ ٩ .

فكانت ماثرة خالدة للأنصار وهم أهل لها وجديرون بها وبالتالي فهي خصلة إسلامية يندب لها ويكتب النجاح والفلاح لمن اتصف بها .

- والأمر بالتواضع يأتي في صيغة خطاب موجه إلى رسول الله ﷺ : «فِيمَا رَحِمَهُ مِنَ اللَّهِ لَئِنْ لَمْ يَكُنْ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ، فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ آل عمران/ ١٥٩ .

وفي قوله تعالى : «وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ الشعراء/ ٢١٥ . ورسول الله ﷺ هو القدوة والمثل الأعلى في سلوكه وتصرفاته وصفاته ، فأمره بخفض الجناح للاتباع ، واستشارتهم في شؤون الدولة والحكم إنما هو رسمٌ للمنهج الإسلامي في شؤون الحياة .

ولو ذهبنا نستعرض هدايات القرآن الكريم في شأن الأخلاق لطال بنا التطواف

ولانستطيع الإحاطة بالأساليب القرآنية في الحث على التحلي بالفضائل الخلقية والكمالات النفسية .

ومن أراد المزيد من ذلك فليراجع كتاب : «مدارج السالكين» لابن القيم ، و «أخلاق القرآن» للدكتور محمد عبد الله الدراز ، وكتاب «موسوعة أخلاق القرآن» للدكتور أحمد الشرباصي .

وجه دلالة الإعجاز التشريعي على مصدر القرآن الكريم :

إن المتعمق في دراسة التشريعات الإسلامية في مختلف مناحي الحياة يدرك إدراكاً واضحاً وجلياً أن هذه التشريعات تهدف إلى هداية الإنسان في حياته الدنيا إلى أقوم السبل التي تحفظ للإنسان إنسانيته وتطلق طاقاته الإيجابية نحو الكمالات البشرية ، وتحفظ له نظراته المستقيمة ، وتوفر له التوازن الدقيق في متطلباته الجسدية المادية وأشواقه الروحية ، مع انسجام تام مع المحاكمات العقلية ، مما يثمر الطمأنينة النفسية والسعادة في حياته الدنيا ، وهي السبيل إلى الحياة الباقية في الدار الآخرة .

إن تاريخ البشرية لم يحدثنا عن مصلح اجتماعي أو فيلسوف عبقرى أنه وضع نظام حياة لشعب من الشعوب بمختلف فئاته وتنوع مجالاتها بل حاول كثير من المصلحين أن يضعوا قوانين تنظيمية لدولة من الدول . ولكن محالاً وتهم كثر الانتقاد عليها في حياتهم وبعد مماتهم لأنها كانت متأثرة بيئة واضعها ، وقاصرة عن استيعاب المشاكل لمجتمعهم ، وأوجدت الجور والخيف على بعض الفئات لمصلحة آخرين .

وماقانون حمورابي وصولون . . . وغيرهم ، وماأخذ عليها وماتتج من تطبيقاتها قديماً إلا . مظهر من المظاهر التي ابتلي بها الإنسان في مراحل شقائه . ولازالت هذه الظواهر تتكرر في المجتمعات التي لاتدين دين الحق ، فالمجتمعات الرأسمالية والاشتراكية والشيوعية والوثنية تكتوي بمثل هذه التجارب المريرة إلى يومنا هذا .

إن التشريعات الإسلامية التي جمعت بين الروح والمادة فأشبعت كلا منهما في الإنسان بما يناسبها ، ووفرت السعادة والطمأنينة في الحياة الدنيا وأزالت القلق عن النفوس من المستقبل مع مراعاة الفطرة وتلاؤمها معها ، لدليل على أن أحداً من البشر لا يستطيع أن يدرك هذه المجالات أو يحيط بها . وهي برهان ساطع على أن منزلة من خالق الإنسان الذي أودع فيه هذه الطاقات والقدرات والاستعدادات فانزل ما ينظمها جميعاً ويوجهها لعبادة الخالق سبحانه وتعالى . وتكون الدلالة أوضح والبرهان أظهر عندما تعلم أن الذي نزلت عليه كان أمياً لم يتلق العلم على يد أحد من البشر ، ولم

يُعرف بتجواله في الآفاق بحثاً عن النظريات والدساتير الإصلاحية .

يقول الشيخ محمد أبو زهرة في كتابه القيم «المعجزة الكبرى» :

(. . .) إن ما شتمل عليه القرآن من أحكام تتعلق بتنظيم المجتمع وإقامة العلاقات بين آحاده على دعائم من المودة والرحمة والعدالة لم يسبق به في شريعة من الشرائع الأرضية . وإذا وازنا ما جاء في القرآن بما جاء به قوانين اليونان والرومان ، وما قام به الإصلاحيون للقوانين والنظم بما جاء في القرآن وجدنا أن الموازنة فيها خروج عن التقدير المنطقي للأمور ، مع أن قانون الرومان أنشأته الدولة الرومانية في تجارب ثلاثمائة سنة والف ، من وقت إنشاء مدينة روما إلى ما بعد خمسمائة من الميلاد ، ومع أنه قانون تعهده علماء قيل إنهم ممتازون منهم : سولون الذي وضع قانون أثينا ، ومنهم ليكورغ الذي وضع نظام أسبرطة .

فجاء محمد ﷺ ومعه القرآن الذي ينطق بالحق عن الله سبحانه وتعالى من غير درس دَرَسَه ، وكان في بلد أُمي ليس فيه معهد ولا جامعة ولا مكان للتدريس ، وأتى بنظام للعلاقات الاجتماعية والتنظيم الإنساني ، لم يسبقه سابق ، ولم يلحق به لاحق^(١) .

إن الإعجاز التشريعي لآية بيّنة على أن القرآن الذي اشتمل عليه هو كلام الله أنزله على قلب عبده ورسوله محمد ﷺ ليخرج الناس من ظلمات الانحراف والضلال والشقاء إلى نور الإيمان والهداية والتمسك بحبل الله المتين :

«هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون» الصف/ ٩ .

(١) «المعجزة الكبرى» ص ٤٥٥ .

البحث التاسع :

الإعجاز الغيبي في القرآن العظيم (١)

من وجوه الإعجاز للقرآن الكريم التي ذكرها العلماء الإعجاز بما فيه من أنباء الغيب ويقصدون كل ما كان غائباً عن محمد ﷺ ، ولم يشهد حوادث الواقعة ولم يحضر وقتها ، ولم يكن على علم بتفصيلاتها . فيدخل في الغيب بهذا المفهوم كل ماورد في القرآن عن بداية نشأة الكون وماوقع منذ خلق آدم عليه السلام إلى مبعث رسول الله ﷺ من عظيماات الأمور ومهمات السير ، وكذلك يشمل ماغاب عن محمد ﷺ في وقته من الحوادث التي كانت تحدث ويخبر بها بطريق الوحي ، كإخبار الله سبحانه وتعالى له بما يكيد اليهود والمنافقون ، ويشمل أيضاً ماتضمنه من الأخبار عن الكائنات في مستقبل الزمان .

ولشمول كلمة الغيب لكل هذه المعاني سيكون موضوعنا في هذا البحث من ثلاثة جوانب : غيب الماضي - غيب الحاضر - غيب المستقبل .

الجانب الأول : غيب الماضي :

لقد سمى الله سبحانه وتعالى الأخبار عن الأمم السابقة غيباً . وأشار إلى وجه دلالتها على صدق رسول الله ﷺ وعلى كون القرآن الكريم إنما نزل بوحي من الله سبحانه وتعالى ، فكثيراً مايفتح القرآن القصة أو يختمها بالإشارة إلى أن هذه الأمور ماكان لرسول الله طريق إلى العلم بها إلا عن طريق الوحي من الله تعالى شأنه وجلّت قدرته ، فمثلاً بعد ذكر قصة مريم وكفالة نبي الله زكريا لها يقول تعالى : ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك ، وماكنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وماكنت لديهم إذ يختصمون﴾ آل عمران/ ٤٤ .

فإن هذا النص يدل على أن القرآن من عند الله وعلى أن ذلك النوع من العلم ماكان

(١) مباحث في إعجاز القرآن : للدكتور مصطفى مُسلم ص ٢٤٧-٢٦٥ ط دار المنارة -

جدة بتصرف .

عند محمد ﷺ ، وليس له به دراية .

ويقول عز من قائل بعد قصة نوح عليه السلام ﴿تلك من أنبياء الغيب نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا ، فَاصْبِرْ إِنَّ الْعَاقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ هود/ ٤٩ . وهذه أيضاً إشارة واضحة إلى أن هذا العلم من عند الله ، وأنه لم يكن معروفاً عن العرب وما كانوا يتذكرون به .

ويقول جلت حكمته بعد قصة يوسف وذكر دقائقها وتفصيلاتها وعظاتها وعبرها : ﴿ذلك من أنبياء الغيب نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ﴾ يوسف/ ١٠٢ .

وقبل عرض قصة موسى عليه السلام يقول عز من قائل : ﴿تتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحقِّ لقومٍ يُؤْمِنُونَ﴾ القصص/ ٣ . وبعد انتهائها يقول جلّ ثناؤه : ﴿وما كنت بجانب الغربيِّ إِذْ قَضَيْنَا إِلَىٰ مُوسَى الْأَمْرَ ، وَمَا كُنْتَ مِنَ الشَّاهِدِينَ ، وَلَكِنَّا أَنْشَأْنَا قُرُونًا فَتَطَاوَلَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ ، وَمَا كُنْتَ ثَاوِيًا فِي أَهْلِ مَدْيَنَ تَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِنَا وَلَكِنَّا كُنَّا مُرْسِلِينَ ، وَمَا كُنْتَ بِجَانِبِ الطُّورِ إِذْ نَادَيْنَا وَلَكِنْ رَحِمْنَا مِنْ رَبِّكَ لِنُذْكَرَ قَوْمًا مَا أَنَاهُم مِنْ نَذِيرٍ مِنْ قَبْلِكَ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ القصص/ ٤٤-٤٦ .

إن ورود أخبار الأمم الماضية والقرون الخالية بهذا الشكل المفصل الدقيق في القرآن الكريم دليل على أنه وحي من الله سبحانه وتعالى وليس من عند البشر ، لأن من ترعرع في بيئة مثل البيئة التي نشأ فيها محمد ﷺ لا يمكنه أن يطلع على مثل هذه الأمور التي لا سبيل للحصول عليها إلا بالتلقي ، ولم يكن في تلك البيئة الأمية من يعرف هذه الأنبياء على هذا الوجه الدقيق .

وإن وجد في ذاك العصر في أطراف الجزيرة العربية بعض أهل الكتاب فلقد كانوا منغلقيين على أنفسهم ، ليس لهم تأثير فيمن حولهم ، وكان المتخصص منهم في علم الكتاب - على قلتهم - يرى في اطلاعه على جوانب من قصص السابقين ميزة عظيمة له فكان ضئيلاً به حتى لا ينافس على مركزه .

وكانوا يعرفون قرب مبعث الرسول الخاتم للأنبياء والمرسلين ، فكان من جملة ما يتحققون به من صدقه سؤاله عن القرون الغابرة ومصائر الأمم السابقة ، كما ورد في سبب نزول سورة الكهف ، حين سألت قريش اليهود أن يذلوهم على أمور يتحققون بها صدق محمد ﷺ ، فقالوا : اسألوه عن الروح وأصحاب الكهف وذي

القرنين^(١) . فلما وافق ما أخبر به رسول الله ﷺ عن ربه ما عندهم من أنباء بل فاقها دقة وتفصيلاً ، وصحح كثيراً مما التبس عليهم أمره واختلط عليهم واقعه أو حرفوه وبدّلوه عن قصدٍ منهم أو كتموه تعمية وتضليلاً للناس ، ووقف موقف التحدي منهم وبين الحق والصواب من بين ركام الباطل الذي ألّفوه عليه ، علموا أن هذا لم يكن لبشر أن يدركه بالاطلاع والتبصّر والاستقراء مهما أُوتِيَ من علم وحكمة ودراسة لسير الأولين فمابالك إذا كان الذي جاء به أمياً ونشأ في بيئة أميّة كما أخبر عنه ربه جلّ جلاله :

﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون﴾
العنكبوت/ ٤٨ .

وتهمة قریش له هي شهادة غير مباشرة له بالصدق . فعندما سمعوا منه هذه الأنباء سموها أساطير الأولين ، ولكن من أين أتى بها وهم يحيطون علماً بأحواله قبل البعثة ، من عدم اتصال بأحد من أهل الكتاب ، ولم تكن له أسفار علمية للبحث والتنقيب عن آثار الأمم ، قالوا لابد أنه يتعلمها من أحد فهو يملئها عليه ، ولكن من الذي أُوتِيَ علوم الأولين والآخرين حتى يستطيع إملأها على محمد ﷺ ، ولماذا لم يدّع هو النبوة بدل محمد ﷺ؟ لذا كانت تهمتهم هذه اعترافاً منهم بأن هذه الأنباء ، لا يمكن أن يأتي بها محمد ﷺ من عند نفسه ، ولكن تمويهاً وتضليلاً على الناس وخداعاً لأنفسهم فليصدقوها بأحد أتباع محمد ﷺ ، ورواجاً لهذا الفرية ليكون شخصاً غريباً عن قریش لعل في ذلك زيادة في التضليل والتمويه ، فليكن صهيياً الرومي أو غيره . وهذا ما تولى القرآن الكريم الرد عليه في قوله تعالى : ﴿وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزوراً ، وقالوا أساطيرُ الأولين اكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلاً ، قل أنزلهُ الذي يعلمُ السرَّ في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً﴾ الفرقان/ ٤-٦ . ﴿ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذي يُلجِدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾ النحل/ ١٠٣ .

وقد سلك القرآن في ذكر هذه الأنباء مسلك القصة ، ولهذا المسلك أكثر من غرض يرمي إليه القرآن الكريم ، ولقد وضعت مؤلفات مستقلة تبحث عن مزايا القصة القرآنية وأغراضها . وقد ذكرنا ما يتعلق منها ببحثنا وهو الدلالة على صدق محمد ﷺ فيما يُنْكَرُ عن ربه .

(١) انظر «باب القول في أسباب النزول» للسيوطي ، ص ١٥٥ .

يقول الإمام فخر الدين الرازي^(١) :

(ودلالة القصة على النبوة من وجهين :

الأول كما قال تعالى في سورة الشعراء بعد ذكر القصص : ﴿وَإِنَّ لَنتَنْزِيلَ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ﴾ الشعراء/ ١٩٢-١٩٤ .
ووجه الاستدلال أنه عليه السلام لما لم يتعلم علماً ولم يقرأ كتاباً ولم يتلمذ لأستاذ استحال منه دراية هذه القصص إلا عن وحي الله وتنزيله .

والثاني أنه كان يذكر القصة الواحدة مراراً مختلفة باللفاظ مختلفة ، وكل ذلك مشابهة في الفصاحة ، مع أن الفصيح إذا ذكر قصة مرة واحدة بالالفاظ الفصيحة عجز عن ذكرها بعينها مرة أخرى باللفاظ فصيحة ، فيستدل بفصاحة الكل على كونها من عند الله تعالى لا من البشر) .

الجانب الثاني : غيب الحاضر :

ويقصد بغيب الحاضر ماجرى في عصر رسول الله ﷺ من حوادث لم يحضرها ، ثم نزل القرآن الكريم متضمناً لها ومخبراً بحقيقة ماجرى .

وفي تنبيه القرآن الكريم الرسول ﷺ ومعه المؤمنون على الحقيقة وتوجيههم إلى ماينبغي اتخاذه حيال الوقائع ضمان لسلامة سير الدعوة وتجنب لها عن الوقوع فيما يخطط لها أعداؤها من الكفار والمنافقين .

فالغاية الأساسية من الغيب الحاضر هو تأييد الدعوة والأخذ بيدها والسير بها على بينة من أمرها .

وإن كان يؤخذ إلى جانب ذلك من هذا النوع من الغيب صدق رسول الله ﷺ فيما يبلغ عن ربه ، حيث لم يكن له علم بما دار في غيابه ، وماخطط وماجرى تنفيذه ، حتى أماط القرآن الكريم اللثام عن هذه الأمور .

لذا لانجد تنبيه القرآن الكريم عند الحديث عن هذه الحوادث الجارية ، على إثبات أصل الرسالة كما كان الأمر عند الحديث عن الغيب الماضي ، حيث وجدناه كثيراً مايجعل إخبار رسول الله عن أنباء الأمم السابقة دليل كونه من عند الله كما في قوله تعالى : ﴿تِلْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنْتَ تَعْلَمُهَا أَنْتَ وَلَا قَوْمُكَ مِنْ قَبْلِ هَذَا

(١) في كتابه «أسرار التنزيل» ص ٧ ، مخطوط بمكتبة الحرم النبوي الشريف .

فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴿هود/ ٤٩﴾ .

ونذكر أمثلة على هذا النوع من الغيب ليظهر لنا من خلالها الهدف الأساسي الذي رمى إليه هذا التوجيه الرباني ، والأهداف اللاحقة أو التبعية التي ستستفاد من سوق الخبر أو الحادثة .

وأغلب هذه الحوادث تتعلق بكشف خطط أعداء الله وكيدهم للقضاء على جماعة المسلمين ، وإطفاء نور الله سبحانه وتعالى ، فمن ذلك :

أولاً : ماجاء في شأن اليهود :

لما أدرك أعداء الله صدق رسول الله ﷺ فيما يخبر ، ومطابقة كثير من أحكام القرآن الكريم لما في توراتهم عمدوا إلى التوراة فحرفوا أحكامه ، وجاؤوا يسألون النبي ﷺ عنها وهم يقولون : إن قال بمثل ما في أيديكم فخذوه وإلا فاحذروا . روى أحمد ومسلم وغيرهما عن البراء ابن عازب قال : مرّ على النبي ﷺ يهودي محمّم مجلود ، فدعاهم فقال : «هكذا تجدون حدّ الزاني في كتابكم؟» فقالوا : نعم ، فدعا رجلاً من علمائهم فقال : «أنشدك بالله الذي أنزل التوراة على موسى هكذا تجدون حدّ الزاني في كتابكم؟» ، فقال : لا والله ولولا أنك ناشدتنني بهذا لم أخبرك ، نجد حدّ الزاني في كتابنا الرجم ولكنه كثر في أشرافنا ، فكنا إذا زنى الشريف تركناه ، وإذا زنى الضعيف أقمنا عليه الحد ، فقلنا : تعالوا حتى نجعل شيئاً نقيمه على الشريف والضعيف ، فاجتمعنا على التحميم والجلد ، فقال النبي ﷺ : «إني أول من أحيا أمرك إذ أماتوه» ، فأمر به فرجم ، فأنزل الله ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُلُ لَا يَحْزَنْكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ﴾ إلى قوله ﴿إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا فَخْذُوهُ﴾ يقولون اتوا محمداً فإن أفتاكم بالتحميم والجلد فخذوه وإن أفتاكم بالرجم فاحذروا^(١) .

وأخرج الحميدي في مسنده عن جابر بن عبد الله قال : (زنى رجل من أهل فذك ، فكتب أهل فذك إلى الناس من اليهود بالمدينة أن أسألوا محمداً عن ذلك ، فإن أمر بالجلد فخذوه عنه ، وإن أمركم بالرجم فلا تأخذوه عنه . . .)^(٢) .

وهذا ما حدّث عنهم رب العزة بقوله : ﴿... وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ سَمَّاعُونَ لِقَوْمٍ آخَرِينَ لَمْ يَأْتُوكَ يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ مِنْ بَعْدِ مَوَاضِعِهِ يَقُولُونَ إِنْ أُوتِيتُمْ هَذَا

(١) مسند الإمام أحمد ٢٨٦/٤ وصحيح مسلم ، كتاب الحدود ، ١٢٢/٥ .

(٢) هذه الروايات وغيرها في «لباب النقول في أسباب النزول» للسيوطي ، ص ٩٦ .

فخلوه وإن لم تؤتوه فاحذروا ، ومن يُرد الله فَنَسَّه فَن تملك له من الله شيئاً ، أولئك الذين لم يُرد الله أن يطهر قلوبهم ، لهم في الدنيا خزي ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم ﴿ المائدة/ ٤١ .

ب - ومن هذا القليل ما أخبر القرآن الكريم عن أساليبهم الملتوية في إدخال الوسواس والأحزان في قلوب المسلمين ، يقول تعالى : ﴿ ألم تر إلى الذين نُهوا عن النجوى ثم يعمدون لما نُهوا عنه ويتناجون بالإثم والمُدوانِ ومعصية الرسول وإذا جاءوك حيّوا بما لم يحيك به الله ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول ، حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير ﴿ المجادلة/ ٨ .

وذلك أن اليهود عليهم غضب الله كانوا إذا مرَّ بهم رجل من أصحاب النبي ﷺ جلسوا يتناجون بينهم حتى يظن المؤمن أنهم يتناجون بقتله أو بما يكرهه ، فنهاهم النبي ﷺ عن النجوى فلم يتهوا ، فأنزل الله ﴿ ألم تر إلى الذين نُهوا عن النجوى . . . ﴾ ، وأخرج أحمد والبخاري ، عن عبد الله بن عمرو أن اليهود كانوا يقولون لرسول الله ﷺ سام عليكم ، ثم يقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول ، فنزلت هذه الآية ﴿ وإذا جاءوك حيّوا بما لم يحيك به الله ﴾ (١) .

ج - ومن ذلك أيضاً قوله تعالى ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يُخمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم ﴾ آل عمران/ ١٨٨ .

وفي صحيح البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما : أن رسول الله ﷺ سأل اليهود عن شيء فكنموه إياه وأخبروه بغيره ، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم ، وفرحوا بما أتوا من كتمانهم (٢) .

ثانياً : ماورد في شأن المنافقين :

والفئة الثانية التي لم يقر لها قرار في المدينة بعد أن استوطنتها المسلمون المهاجرون وآخى رسول الله ﷺ بينهم وبين الأنصار هي فئة المنافقين ، وكان يتزعما عبد الله بن أبي بن سلول ، فكان هو وأتباعه يحاولون النيل من الإسلام ووضع بذور

(١) انظر «الباب النقول» ص ٢٢٦ ، ومسنند الإمام أحمد ٢٢٩/٦ .

(٢) صحيح البخاري ٥١/٦ ط/صحيح .

الشقاق والخلاف بين المسلمين من الأوس والخزرج ، وبين المهاجرين كلما وجدوا إلى ذلك سبيلاً ولكن آيات القرآن الكريم كانت لهم بالمرصاد حيث كشفت عن أفعالهم وعن دخيلة أنفسهم فكان المسلمون على بينة من أمرهم .

أ- فمن الأساليب التي كان يلجأ إليها المنافقون حرب الأعصاب ، ففي غزوة أحد قام رأس النفاق بشطر الجيش وسحب أنصاره منه وهم زهاء الثلاثمائة وهم يريدون بذلك إيقاع البلبلة والاضطراب في قلوب المسلمين ، ولما هزم المسلمون في المعركة أبدوا شماتة الجبناء الأندال ، والقرآن يصور خستهم القائمة على الخبث والجبن ويبرز الحقيقة الكامنة فيهم ، وهي أن ألسنتهم وصدورهم إنما تعيشان باستمرار على طرفي نقيض : ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَىٰ الْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ ، وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقِيلَ لَهُمْ تَمَالَوْا قَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَا تَبْعَانَاكُمْ ، هُمْ لِلْكَفَرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴾ آل عمران/ ١٦٦-١٦٧ .

وفي غزوة الخندق كان لنذالة المنافقين دورها ، فقد حفر المسلمون الخندق حول المدينة ليكونوا في مأمن من هذا الهجوم ولكن المسلمين أصبحوا مع ذلك في خطر يهددهم من داخل المدينة من قبل اليهود لاسيما بنو قريظة الذين غدروا بالعهد ليطعنوا المسلمين من الخلف ولم يكتف المنافقون بمهمة التشييط حتى قال قائلهم (١) : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقیصر ، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط ، لم يكتفوا بهذا بل قاموا بدور الانسحاب مرة أخرى ، والمعركة في أحد غير المعركة داخل المدينة ، فإن كانوا قد انسحبوا من الميدان في أحد فكيف ينسحبون وهم في دور الدفاع عن كيان بلدهم ، ومرة أخرى انتحلوا عذراً واهياً زاعمين أن بيوتهم عورة مكشوفة معرضة للخطر عليهم أن يتولوا حراستها والدفاع عنها ، علماً أن الخطر لم يكن كامناً على بيوتهم بل على الجبهة التي وقف أمامها المسلمون ولكن خسة الطبع زينت لهم هذا الغدر وسوغته فتركوا الميدان ﴿هناك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزلاً شديداً ، وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً ، وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأنف فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وما هي بعورة إن يريدون إلا فراراً﴾ الأحزاب/ ١١-١٣ .

(١) هو معتب بن قشير ، انظر «سيرة ابن هشام» ٢٦٢/٣ .

ب - ويتكرر موقف التخاذل والنذالة والانسحاب في غزوة تبوك - غزوة العسرة - بعد أن يحاولوا تثبيت المسلمين عن الخروج للجهاد ، وجهاز رأسهم جيشاً من المنافقين واليهود ينافس به جيش المسلمين ، حتى كان يقال ليس عسكر ابن أبي بأقل العسكريين ، ثم أعلن حرب الأعصاب حين قرر التخلف والانسحاب وهو يقول : يغزو محمد بني الأصفر - مع جهد الحال والحر والبلد البعيد إلى مالا قبل له به ، يحسب محمد أن قتال بني الأصفر اللعاب ، والله لكأنني أنظر إلى أصحابه غداً مقرنين في الجبال^(١) .

هذا ديدنهم في الشدائد وعند الاستعداد للمعارك ، وهو أن يفروا من الميدان ، ويرثرون هزيمتهم هذه بأنفه الأعذار ، وانظر إلى عذر أحدهم^(٢) يقول : إنه يخشى على نفسه الفتنة من نساء الروم لجمالهن .

وانظر إلى الآيات وهي تعري حقائقهم ﴿ إِنَّمَا يَسْتَأْذِنُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ، وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ ، لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا خِلَالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ ، لَقَدْ ابْتِغُوا الْفِتْنَةَ مِنْ قَبْلُ وَقَلَبُوا لَكَ الْأُمُورَ حَتَّى جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِثْنَنْ لِي وَلَا تَفْتِنِّي ، أَلَا فِي الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ التوبة / ٤٥-٤٩ .

ج - وخسة المنافقين ونذالتهم وكيدهم للمسلمين لا تقتصر على زمن الحرب بل لا يتورعون عن شيء يخدم قضيتهم إلا واستغلوه ، ويبدو ذلك في قضية الإفك جلياً ، فبعد الانتصار الساحق للمسلمين على بني جذيمة في غزوة بني المصطلق ، رجع المسلمون وهم في نشوة الانتصار ، والمنافقون كانوا في مأثم لأن كيدهم لم ينفع ، فوجدوا مجالاً في تخلف السيدة عائشة رضي الله عنها عن الركب وحمل صفوان بن المعطل رضي الله عنه لها على بعيره ، وجدوا في هذا ما يشفي غلهم وحقدهم الدفين ، وليعكروا صفو هذا الانتصار ، ولتسوء العلاقة بين الرسول ﷺ وأم المؤمنين عائشة ، وبينه وبين صديقه الأول أبي بكر ، وفوق كل ذلك لتزعزع ثقة المسلمين ببعضهم ورسولهم ، لكن الله سبحانه وتعالى ، جعل التباطؤ في قضية الإفك الذي

(١) انظر الروايات في «سيرة ابن هشام» ١٧٥/٤ وما بعدها .

(٢) هو الجذ بن قيس ، ذكره ابن هشام : ١٧٣/٤ .

حسبه المسلمون شراً كله ، جعل فيه الخير الكثير ، حيث كشف دخيلة أنفس المنافقين ، وعلم المسلمين درساً بليغاً في التربية وضبط النفس وعدم الانسياق والانحراف مع الإشاعات المفترضة المدسوسة .

﴿ إن الذين جاؤوا بالإفك عصبةٌ منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خيرٌ لكم ، لكلٍ امرئٍ منهم ما اكتسب من الإثم ، والذي تولى كبره منهم له عذابٌ عظيم ، لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وقالوا هذا إفكٌ مبينٌ ، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون . . . ﴾ ولولا إذ سمعتموه قلتُم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانه هذا بُهتانٌ عظيم ، يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين ﴾ الايات من (١١-١٧) من سورة النور .

هكذا نجد مواكبة القرآن الكريم لمسيرة الدعوة ، وتوجيهها ورعايتها بإلقاء الضوء أمامها كلما اشتد الظلام وتفرقت السبل واختلط الأمر ، وقويت وطأة التآمر من أعداء الله وراجت شائعاتهم ، للنيل من وحدة المسلمين وإلقاء الوهن في قلوبهم .

هذا هو الهدف الأساسي من ذكر هذا النوع من الغيب ، ولكن هناك مقاصد أخرى تأتي تبعاً ، وقد تتوصل إليها كنتائج عندما نتدبر النصوص التي كشفت النفاق والمنافقين وجميع أعداء الله .

فالنصوص التي استعرضنا قسماً منها عرفتنا بحقيقة الأنفس التي بارزت الله والرسول بالعداء ، لأن في ذكر خصال هذه الأنفس بتعرية النماذج الأولى منها في عهد رسول الله ﷺ وكشف حقيقتهم تمكيناً للمسلمين في شتى عصورهم وعلى اختلاف أمكتهم وأزمتهم من معرفة أعداء الله ، والأساليب التي يلجأون إليها ، فهذه النماذج تتكرر باستمرار ، فما وجدت دعوة وقائمون عليها لا بد من وجود أعداء يعلنون مافي قلوبهم من غيظ وحق ، ومنافقين يلبسون لكل حالة لبوسها .

الجانب الثالث : غيب المستقبل :

ويقصد بغيب المستقبل ما ذكره القرآن الكريم من حوادث ستقع سواء كان ذلك بتحديد مدة لوقوع هذه الحادثة كما حدّد غلبة الروم بوضع سنين أو أطلق من غير تحديد للمدة الزمنية وهو الشأن في اغلب الحالات .

ومن هذه الحوادث التي أخبر القرآن الكريم أنها ستقع ما وقع بالفعل ، فكان وقوعها دلالة صدق لرسول الله ﷺ ، ومنها ، ما تنتظر دورها والزمن كفيل بإظهار ذلك للأجيال .

ونذكر جملة من أنباء الغيب هذه ونعلق على بعض الآيات بإيجاز :

١- يقول تعالى : ﴿الْمَ . غَلِبَتِ الرُّومُ فِي أَذْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ فِي بَضْعِ سِنِينَ﴾ الروم/ ١-٤ . وقد حدث ما أخبر به القرآن الكريم فقد دارت رحى الحرب من بعد ذلك وهزم الفرس في بضع سنين ، ولم يكن النبي ﷺ ممن حضر هذه الحرب وعرف سبب الغلب ، وما يتوقع من بعده ، وقد تفاءل المشركون من هزيمة الروم ، وهم أهل الكتاب ، وعلو الفرس وهم أهل شرك ، وحسبوا من ذلك أن دعوة محمد ﷺ مآلها الخسران ، وشأنهم في ذلك شأن من سبقهم من أهل الكتاب .

ولقد تضمن آخر الآيات السابقة بشارة للمؤمنين لم يتبها لها إلا بعد وقوعها وهذه البشارة في قوله تعالى ﴿وَيَوْمَئِذٍ يُفْرِحُ الْمُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ اللَّهِ﴾ فقد فهم المسلمون أن هذا الفرح هو فرحهم بانتصار أهل الكتاب من الروم على الفرس ، ولقد بينت مجريات الحوادث أن ذاك انتصار المسلمين على المشركين في غزوة بدر الكبرى وفرحهم بذلك كان في نفس الوقت الذي تحققت فيه نبوة القرآن الكريم بتغلب الروم على الفرس .

٢- ويقول عزّ من قائل في معرض التحدي بأن يأتوا بسورة من مثل القرآن ﴿وَإِنْ كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ، وَادْعُوا شُهَدَاءَكُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنتُمْ صَادِقِينَ ، فَإِنْ لَمْ تَفْعَلُوا وَلَنْ تَفْعَلُوا فَأْتُوا نَارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ﴾ البقرة/ ٢٣-٢٤ .

٣- نوعد القرآن الكريم أناساً معينين معروفين وحدّد مصيرهم في الدنيا والآخرة أنهم سيموتون على الكفر ويخلدون في النار ، كأبي لهب ﴿تَبَّتْ يُدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ . سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ وَامْرَأَتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِنْ مَسَدٍ﴾ سورة المسد ، والوليد ابن المغيرة ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَيْنَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا سَأَرْهَقُهُ صَغُودًا . إِنَّهُ فَكَرَ وَقَدَّرَ . فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَسَىٰ وَتَسَّرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سَحَرٌ يُؤْتَرُ إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ . سَأَصْلِيهِ سَقَرًا﴾ المدثر/ ١١-٢٦ ، وأبي جهل ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يَنْهَىٰ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ . أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَىٰ أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَىٰ . أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَىٰ . كَلَّا لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعًا بِالنَّاصِيَةِ . نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ . فَلْيَدْعُ

نادية ، سندعُ الزبانية ﴿ العلق/ ٩-١٩ .

فلو لم يكن القرآن الكريم من علام الغيوب ، والمحيط بالماضي والمستقبل لما صح ذلك في كل ما أخبر به ، بل لما كان من عاقل البشر أن يضع مصير دعوته على شيء معين ، فلو آمن واحد من هؤلاء الثلاثة الذين دمغهم القرآن بالكفر ، وخلد في الأشقياء ذكرهم ، لانطفأت شعلة الإسلام ، ولقامت الحجة على القرآن ومن جاء به ، لو أسلم أبو لهب مثلاً لما كان لقوله تعالى فيه ﴿ سيصلى ناراً ذات لهب ﴾ منصرف ولا واقع ، ولأصبحت هذه الآية في واد والواقع في واد آخر .

وكيف كان محمد ﷺ يقابل الناس بها ، وقد أصبح أبو لهب من الصحابة كعمر بن الخطاب وغيره من الذين كان لهم موقف معادٍ للإسلام قبل أن يدخلوا فيه ، أفليست هذه معجزة قاهرة ، وأيّ معجزة أبهر وأقهر من أمر لا يكلف صاحبه أكثر من كلمة يقولها بلسانه فيظل بها قول محمد ﷺ ويفسد أمره جميعه ، ثم لا يقول الكلمة ، ولا تسمح له الحياة بأن يقولها فقد عاجلته المنية قبل يوم الفتح الذي دخلت فيه قريش كلها الإسلام ، وكان مصير أبي أبي جهل والوليد مثل مصير صاحبهما أبي لهب فلو دخلوا الإسلام لكان إسلامهم هدماً للإسلام كله .

أفلا يدل هذا جلياً أن القرآن من عند خالق الحياة والممات ، والذي مصير كل شيء بيده ، ومآل كل أمر إليه ، وهو الذي حفظ دينه وكتابه ﴿ وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ، ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين ﴾ يونس/ ٣٧ .

ولو ذهبنا نتبع أخبار القرآن الكريم في هذا الجانب من الغيب لطال بنا المسير ، وإنما نشير إلى جملة من الآيات الكريمة في هذا الشأن ، فمن هذا الآيات قوله تعالى :

- ﴿ سَهْزَمُ الْجَمْعُ وَيُولُونَ الذُّبُرُ ﴾ القمر/ ٤٥ .

- ﴿ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ﴾ المائدة/ ٦٧ .

- ﴿ لَتَدْخُلَنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ ﴾ الفتح/ ٣٧ .

- ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا

اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ ﴾ النور/ ٥٥ .

- ﴿ إِنَّا نَحْنُ الذِّكْرُ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ الحجر/ ٩ .

- ﴿ إِنَّا كَفَيْنَاكَ الْمُسْتَهْزِئِينَ ﴾ الحجر/ ٩٥ .

- ﴿ قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سُدْعُونَ إِلَى قَوْمِ بَاسٍ شَدِيدٍ يُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ

يُسْلِمُونَ ﴿الفتح/ ١٦﴾ .

- ﴿وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلن علواً كبيراً ، فإذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاشوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً ، ثم ردّدنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً . إن أحستّم أحستّم لأنفسكم ، وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسؤوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تبيراً ، عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيراً﴾ الإسراء/ ٤-٨ .
وجه دلالة الغيب على مصدر القرآن :

إن حالة محمد ﷺ عند إطلاق هذه الأنباء الموعلة في القدم ، أو الحاضرة الخافية في صدور أهلها ، أو الوعود المستقبلية التي كانت في مجاهل الغيب ، كان حاله في كل ذلك حال الواثق المتيقن من الأمر ، وهو بشر لم يطلع على كتب السابقين ولا يملك من تصرف أمور المستقبل شيئاً ، وكان هو بذاته ينفي عن نفسه علم الغيب ، ﴿قل لا أملك لنفسي نقماً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء﴾ الأعراف/ ١٨٨ .

فلو لم يكن مستنداً إلى ركن قويّ ما أطلق مثل هذا ، وجازف بدعوته وهو الذي عرف عنه التعقل والحكمة ولم يعهد منه تسرع في أمر أو تقول بلا روية حتى قبل أن يكرمه الله بالرسالة .

فلا شك أن الوحي الإلهي كان يُنطقه كما أن الصدق المطلق الذي رافق القرآن الكريم من يوم نزوله إلى يوم انقطاع الوحي بالتحاق رسول الله ﷺ بالرفيق الأعلى ، أمر يوجب التوقف والتدبر . إن الصدق في أخبار القرآن الكريم ظاهرة لا يستطيع إنكارها أحد ، حتى الذين عادوا الإسلام ، وقاوموه بكل طاقتهم في أول الدعوة الإسلامية ، كان هؤلاء يضمرون في أنفسهم احترام صدق القرآن وحقيقته بالرغم من ركام الوثنية والشرك والتكذيب الذي لاقوه به ، بل كان هذا الاحترام المتزعزع منهم والمفروض عليهم ملازماً لشخص الرسول ﷺ الذي كان ينطق بالقرآن .

ولقد أدرك مشركو العرب هذه الحقيقة من خلال اختلاطهم برسول الله ﷺ والمؤمنين به ، حيث صدقت الحوادث الكونية كثيراً مما أخبرهم به القرآن الكريم .

كما أدرك أهل الكتاب صدق القرآن فيما أخبرهم به من الحوادث الغائبة التي كانوا

يعرفونها من بطون كتبهم ، وكذلك أدركوا هذا الصدق المطلق من خلال كشف القرآن الكريم لمخططاتهم ومؤامراتهم على الإسلام وأهله .

إن هذه الأنباء الصادقة التي جاء بها القرآن الكريم لدليل ظاهر وبرهان قاهر على أنه كلام رب العالمين الذي يستوي عنده علم السابق واللاحق ، لاتخفى عليه خافية ، لقد ظهر صدق القرآن الكريم لكل ذي عينين في عشرات الحوادث التي أخبر عن وقوعها في المستقبل ووقعت بالفعل كما أخبر .

ولازالت الأيام تكشف عن جوانب من هذه الأنباء ، سواء في الكون أو الإنسان أو الحوادث الكونية العامة الشاملة .

إن ظاهرة الإخبار بالمغيبات في القرآن الكريم وتصديق الوقائع لها وعدم تخلف الصدق عنها ولو في في جزئية بسيطة ، لدليل على أنه وحي ممن خلق الأرض والسموات العلى ، أنزله على رسوله ليكون دلالة على صدقه .

خاتمة البحث :

لمّا كانت المعجزة قرينة الرسالة ، ولما كان القرآن الكريم معجزة الرسالة الخالدة ، فلا بد من أن تقام الحجة بالقرآن الكريم على كل جيل من الأجيال ليذعن أهل الإنكار والجحود في كل عصر لعظمة منزله ويوقنوا في قرارة نفوسهم أنه كلام الذي أحاط بكل شيء علماً ، الذي يعلم السرّ في السماوات والأرض .

وكلما تقدمت الوسائل العلمية ، وتوسعت دائرة المعرفة البشرية سَتَفْتَحُ آفاق جديدة أمام الباحثين في إعجاز القرآن الكريم .

وعلى أهل الاختصاص من علماء المسلمين أن يعايشوا القرآن المجيد ويستنتقوا آياته لكشف الأسرار عن الإشارات القرآنية وتليمحاته عن الحقائق المودعة في مخلوقات الله ، لتكون أبحاثهم ونتائج جهودهم وسيلة لتحقيق وعد الله سبحانه وتعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ فصلت/ ٥٣ .

الفصل الثاني

المنهج القرآني الفريد

في عرض العقيدة وإثبات التوحيد وترسيخ الإيمان

ويشتمل هذا الفصل على الأبحاث التالية :

البحث الأول : منهج القرآن في عرض العقيدة «منهجٌ للتفكير ودعوةٌ للتدبر» .

البحث الثاني : أهمية عقيدة التوحيد في الدين والحياة .

البحث الثالث : أثر عقيدة التوحيد في حياة الإنسان .

البحث الرابع : الأسلوب الميسر في عرض العقيدة الإسلامية .

البحث الخامس : فهم الإسلام عقيدةً وشرعةً .

البحث السادس : أمثال القرآن الكريم .

البحث السابع : أقسام القرآن الكريم .

البحث الثامن : جدل القرآن الكريم .

البحث التاسع : قصص القرآن الكريم .

منهج القرآن الكريم في عرض العقيدة «منهج للتفكر ودعوة للتدبر» :

إن المتأمل لمنهاج القرآن في عرض عقيدة الإسلام السمحة ، يجد منهاجاً واضحاً للتفكر ، ودعوة ميسرة صادقة للتدبر والتأمل ، وإعمال العقل ، والسمع والبصر وغير ذلك من الحواس ليتعرف الإنسان على ربه أولاً ، ليستقيم بعد ذلك الأمر وليقول والإيمان يملأ قلبه ﴿إِنِّي هَدَانِي رَبِّي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِثْلَ آبَائِهِمْ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ .^(١)

إنها دعوة للحواس أن تعمل ، وللعقل أن يتدبر ، وللقلب أن يخشع ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(٢) بغية الوصول إلى الحقيقة الكبرى حقيقة وحدانية الله سبحانه وتعالى خالقاً وأمراً ﴿إِلَّا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾^(٣) .

ولقد تحدث كتاب ربنا العظيم عن حقيقة الألوهية وخصائصها وآثارها وصفاتها باعتبارها الحقيقة الأولى ، والحقيقة الكبرى ، والحقيقة الأساسية في التصور الإسلامي ، كذلك تحدث عن حقيقة العبودية وخصائصها وصفاتها ، تحدث عن هذه الحقيقة ممثلة في الكون ، والحياة ، والإنسان ، وتناول - في هذا الحديث - طبيعتها ونشأتها وصفاتها وأحوالها ، وعلاقاتها فيما بينها ، ثم علاقتها بالحقيقة الإلهية الكبرى وربط بين مجموع تلك الحقائق من جميع جوانبها في تصور واحد منطقي فطري يتعامل مع بديهة الإنسان فكره ووجدانه ، ومع مجموع الكينونة البشرية في يسر وسهولة .

وهكذا تتكون من مجموعة الحقائق التي يتناولها هذا التصور في شمول وسعة ودقة وتفصيل ، صورة كاملة شاملة ، وتفسير جامع مفصل ، لايحتاج إلى إضافة من مصدر

(١) سورة الانعام: ١٦١ .

(٢) سورة محمد: ٢٤ .

(٣) سورة الأعراف: ٥٤ .

آخر ، بل لا يقبل إضافة من مصدر آخر ، لأنه أوسع وأدق وأعمق ، وأكثر تناسقاً وتكاملاً من كل مصدر آخر .

وهذا التصور يقوم ابتداء على تعريف الناس بربهم تعريفاً دقيقاً كاملاً شاملاً ، يعرفهم بذاته سبحانه ، ويعرفهم بصفاته ، ويعرفهم بخصائص الألوهية المتفردة ، التي تفرقها تماماً عن خصائص العبودية ، كما يعرفهم بأثر هذه الألوهية في الكون ، وفي الناس ، وفي جميع العوالم والأمم الحية ، ويتم هذا التعريف على نطاق واسع جداً في القرآن الكريم يصبح معه الوجود الإلهي في النفس البشرية ، وجوداً أكيداً واضحاً موحياً ، مؤثراً يأخذ النفس من أقطارها جميعاً ، وتعيش معه النفس مشدودة إليه لاتملك التفلت منه ، ولانسيانه ، ولاإغفاله ، لأنه من القوة والوضوح والفاعلية بحيث يواجه النفس دائماً ويتراءى لها دائماً ويؤثر فيها دائماً^(١) .

ولذلك فقد سلك القرآن أساليب عدة وبراهين متنوعة واضحة ، وأخذت أدلته تتابع لإثبات هذه الحقيقة - حقيقة الألوهية - بأسلوب القرآن الفريد كيلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ﴿قُلْ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾^(٢) وهذه الأساليب التي ساقها القرآن للتدليل على وحدانيته ، تعددت وتنوعت كي يتعلم المسلم كيف يعرض عقيدته بأساليب مختلفة ، يختار منها مايناسب المدعو بغية إقناعه حتى يكون إيمانه عن إقتناع وتسليمه عن يقين ، وحتى لا يكون الدين تقليداً للأباء والأجداد ، ومن هذه الأساليب التي استخدمها القرآن :

أولاً : مخاطبة الفطر - خطابٌ قلبي .

ثانياً : ضرب الأمثال - خطابٌ عقلي .

ثالثاً : التحدي بالقرآن - خطابٌ تعجيزي .

رابعاً : الأنفس والآفاق - خطابٌ عقلي قلبي .

ولاشك أن القرآن الكريم قد أفاض كثيراً في عرض عقيدتنا الإسلامية من خلال الكون ، والإنسان ، والحياة ، وستناول ذلك بمشيئة الله تعالى بشيء من التفصيل ، إلا أننا نود أن نعرض على الأساليب الأخرى لنستكمل المنهج الذي سلكه القرآن ، ولكي نتعلم الأسلوب القرآني الأمثل في عرض هذه العقيدة حين ندعو الناس لدين الله .

(١) خصائص التصور الإسلامي - سيد قطب - ص ١١٦ - بتصرف .

(٢) سورة الأنعام ١٤٩ .

فالله الحكيم العليم يعلمنا من خلال قرآننا كيف ندعو الناس لدينه ، وكيف لاناظرهم عليه أطراً . . . ولانجبرهم عليه جبراً . . . ولانكرهم عليه كرها ﴿فَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾^(١) ولكن ننوع من أساليب دعوتنا ، ونبسّط الحجج والبراهين لهم ، فمن لم يقتنع بأسلوب ربما يقتنع بغيره . ومن لم يؤثر فيه دليل ، ربما ألجمه آخر ، ومن لم ينشرح صدره مرة فربما يفتح قلبه للأخرى ، حتى إذا أعذرنا إلى الله تعالى ، وقلبنا جميع وجوه الاقتناع وتحريك مكامن المواهب العقلية في النفس البشرية وألفينا أنفسنا وجهاً لوجه أمام عقول غائبة ، وقلوب جاحدة ، ورؤوس جامدة ، وألسنة حداد ، وعزائم مستثارة لمواجهة الحق ومحاولة إطفاء نوره وإعلان الحرب على دين الله ، حيثئذ لانجد بداً إلا الأطر وإعمال السيف دفاعاً عن الحق الذي نؤمن به ﴿أَنْ لِّلَّذِينَ يُقَاتِلُونَ بَأْنَهُمْ ظُلُمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ ، الذين أخرجوا من ديارهم بغير حقٍ إِلَّا أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللَّهُ^(٢) .

وما هو إلا العقل أو حد مرهف ، يقيم ظباه العوج من كل مائل .
فهذا شفاء الداء من كل عاقل وهذا دواء الداء من كل جاهل
وهكذا فإن الداعي يستخدم هذه الأساليب كمفاتيح تكون سبباً لفتح القلوب إذا أراد الله لها الهداية ، فطوبى لمن جعله الله مفتاحاً للخير مغلقاً للشر ، فيسوق الأدلة المناسبة دليلاً تلو دليل بما يناسب المدعو ، حتى يبلغه رسالة ربه ، وما عليه إلا البلاغ ، والله وحده يتولى الهداية ، وشرح الصدور ، وإقبال القلوب على ربها ، فإنه وحده الهادي إلى الصراط المستقيم .

وباله من أسلوب فريد - ذلكم أسلوب القرآن - وهو يعدد طرق بسط الأدلة وأساليب عرضها لدعوة الناس للتوحيد الخالص ليكون إيمان المرء عن حق لا إكراه فيه ، وعن اقتناع لا تقليد معه ، وعن صدق لا مرأى فيه ، ويقين لا ظن معه ، وهكذا يتعلم الداعي ربانياً ويتربى على مائدة القرآن يأخذ بأسلوبه ونهجه في دعوة الناس لدين الله . فأنت ترى القرآن تارة يسوق أسلوب نداء الفطرة ، ومرة يضرب الأمثال ، وأخرى يتحدى بالقرآن ، ورابعة بالتأمل في الكون - والإنسان - والحياة - كأدلة لتوحيد الخالق . فمن لا يجدي فيه مخاطبة القلب ، ربما ينفعه أسلوب مخاطبة العقل ، أو يردعه التحدي أو تستثيره الدعوة للنظر في ملكوت السموات والأرض واختلاف الليل

(١) سورة يونس : ٩٩ .

(٢) سورة الحج : ٣٩ - ٤٠ .

والنهار والتفكر في الأنفس والآفاق ، إنها دعوة حكيم عليم ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمُتَخَفِي الصُّدُورِ﴾ (١) .

وبعد هذا العرض لمنهاج القرآن العظيم في عرض عقيدة الإسلام بأصولها وثوابتها وحقائقها على أساس منهجي واضح ودعوة صادقة للتدبر وإعمال العقل والتفكير في آيات الله تعالى ، نأتي لمعرفة منهج الانحراف الخطير على العقيدة والفكر الذي قامت عليه «القراءة المعاصرة في كتاب القرآن» للدكتور «محمد شحرور» حيث يزعم أن الإنسان في الأرض جعله الله تعالى خليفة له في قوانين الربوبية والألوهية ، وهذا الزعم الباطل يشكل قمة الإلحاد الفكري في تفسير آيات الله تعالى تفسيراً خارجياً عن منهج الإسلام في التفسير والتأويل ، فيقول في كتابه هذا ص ٢٥٩ : «عندما نضج البشر طائفاً رحمانياً ، وأراد الله سبحانه وتعالى أن يجعله خليفة له في الأرض ليخلفه في قوانين الربوبية أولاً ، أي في القدرة على التصرف في هذا الوجود المادي ، والألوهية ثانياً ، أي في القدرة على التشريع ، أعطاه من صفاته الذاتية الأحادية الخالية من التناقض وهي الروح ﴿ونفختُ فيه من رُوحِي﴾ لذا فإن الإنسان فقط مدين لله سبحانه وتعالى في أنسته وابتعاده عن المملكة الحيوانية ، ومن هنا جاءت لفظة الدِّين ، وهي من دان يدين ، ومنه جاء الدين والمدينة والمدنية» .

هكذا يزعم بلاخوف من الله تعالى ولاحياء «أن الإنسان خلف الله في قوانين ربوبيته في التصرف في هذا الوجود المادي ، وخلف الله في الألوهية ثانياً في القدرة على التشريع» وهذا يعني أن لا تصرف لله في هذا الوجود المادي ، وليس له فيه حق التشريع ، لأن الإنسان خلف الله في قوانين الوجود وقوانين التشريع فيه ، وبهذا التفسير الإلحادي فسّر الدِّين والمدنية والمدنية؟! وبهذا التصوّر الكاذب يمضي في كتابه هذا إلى تغيير العقيدة والشرعية باعتبار أنهما من وضع الإنسان الذي هو خليفة الله في الربوبية والألوهية ، وهذا الاعتقاد الكاذب الباطل مأخوذ عن عقيدة أهل الحلول والاتحاد من زنادقة القرامطة والوجوديين .

[وتابع البحث التالي] .

أهمية عقيدة التوحيد في الدين والحياة

صحة الاعتقاد شرط في قبول الأعمال^(١) :

لا يختلف مسلم أن خير ما تصرف فيه الجهود ، ويذل فيه الوقت ، ويستغل به العلماء توضيحاً وتفهماً هو عقيدة التوحيد ، إذ هي الركن الركين والأساس المتين ، والصراط المستقيم ، الذي عليه يقام صرح الإسلام العظيم ، فبدونها لا تقام أركانه ، ولا يستوى نظامه ، ولا تقبل أعماله إذ أن قبولها مرهون بصوابها مع سلامة التصور ، وصحة الاعتقاد ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾^(٢) .

وبفضل الله فقد أمد الله الإنسان بإمكانات تؤهله للسيادة على الأرض بهذه العقيدة الصافية ، التي يشيد عليها نظاماً ربانياً يحقق للبشرية سعادتها في الدنيا والفوز بالجنة في الآخرة ، هذه الامكانيات هي العقل ، والقلب والسعي . فبالعقل يهتدي الإنسان في مسالك الحياة ، وبالإيمان يدفع إلى ارتياد المسالك ، وبالسعي يتمكن من السيطرة على البر والبحر ويحصل رزقه من طيبات ما في الأرض ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾^(٣) .

العقيدة وتكوين الشخصية الإسلامية :

فينبغي للإنسان بعد أن أيدته الله بهذه الإمكانيات أن يستخدم عقله للهداية للإفساد والضلال ، ويستخدم قلبه للإيمان ومحبة الخلق ، لا للكفر والحقد والكراهية ويسعى في تحصيل الخير ، وعمران الأرض وبذلك يصبح سيداً على نفسه ، سيداً على هواه ، فيؤمن بالحق وينصره ، ويكفر بالباطل ويطارده لأن الإسلام يريد الإنسان أن يكون

(١) منهاج القرآن في عرض عقيدة الإسلام : جمعة أمين عبد العزيز ص ١٩-٢٥ ط دار الدعوة - الاسكندرية .

(٢) سورة الكهف آية ١١٠ .

(٣) سورة الإسراء آية ٧٠ .

إنساناً ، ولا يكون كذلك إلا إذا بدت إنسانيته في مظاهرها الواضحة ، ومظاهر الإنسانية الخالصة في الاعتقاد الصحيح ، والحكم العدل ، والسلوك المستقيم ، فإذا ضل في اعتقاده ، أو مال في حكمه ، أو انحرف في سلوكه ، فقد تأثر فيما ضل وفيما مال وفيما انحرف بعوامل أخرى بعيداً عن إنسانيته ، ولذا كانت محافظة الإنسان على استقلال شخصيته جزءاً رئيسياً في رسالة الإسلام^(١) . فلم يكره في الدخول فيه ، ولكن بين له الرشد من الغي ثم تركه وشأنه ﴿فَمَنْ شَاءَ فَلْيُؤْمِنْ وَمَنْ شَاءَ فَلْيُكْفِرْ﴾^(٢) حتى لا يكون إمعة يقول أنا مع الناس إن أحسن الناس أحسنت وإن أساءوا أسأت ، ولكن لا بد له من توطئ نفسه إن أحسن الناس أحسن وإن أساءوا اجتنب : على هذه المعاني ربى رسول الله ﷺ رجال دعوته ففرس فيهم عقيدة التوحيد ، فخافوا من الجليل وعملوا بالتزليل ، واستعدوا ليوم الرحيل ، فهانت عليهم الفانية وتشوقوا للباقية ، فأحبوا لقاء الله فأحب الله لقاءهم ، وخافوا الله فخافهم كل شيء ، وزهدوا في الدنيا فأقبلت عليهم صاغرة ، أعزهم الله بعقيدة التوحيد ، فدانت لهم القياصر والأكاسر ، وأصبحوا خير أمة أخرجت للناس يأملون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين .

العقيدة صانعة الرجال :

إنها عقيدة التوحيد التي صنعت الرجال في كل زمان . وسل التاريخ عنهم قبل بعثه للمصطفى ﷺ وبعده ، سل عن الذين اصطفاهم الله من بين خلقه من النبيين والرسل الكرام من لدن آدم حتى رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه .

سل القرآن عن إيمانهم ومواقفهم وثباتهم وتضحياتهم ، سل عن زكريا ويحيى وعيسى وإلياس وإبراهيم وإخوانهم ، سل عن أصحاب الأخدود ﴿النَّارِ ذَاتِ الْوَقُودِ إِذْ هُمْ عَلَيْهَا قُعُودٌ وَهُمْ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ بِالْمُؤْمِنِينَ شُهُودٌ وَمَانِعُوا مِنْهُمْ إِلَّا أَنْ يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾^(٣) وقف متأملاً حال سحرة فرعون وكيف صنعت عقيدة التوحيد فيهم ، وهم الذين ماعرفوا لهم قبلها رباً إلا فرعون ، فأقسموا بعزته ، واحتما ببقوته ، وافتقروا إليه ، فلما دخل الإيمان قلوبهم

(١) الإسلام في حياة المسلم - د . محمد البهي - ص ١٦٣ ، بتصرف .

(٢) سورة الكهف : ٢٩ .

(٣) سورة البروج : ٥-٩ .

صاروا رجالاً وهانت عليهم أرواحهم ، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله وماضعفوا وما استكانوا حين هددهم أطغى الطغاة وأبغى البغاة بقوله : ﴿أَتَمْتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ، فَلَأَقْطَعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ مِنْ خِلَافٍ وَلَا صُلْبَ لَكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلِتَعْلَمَنَّ أَيْتُنَا أَشَدُّ عَذَاباً وَأَبْقَى قَالُوا : لَنْ نؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرْنَا فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا ، إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَمْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾ (١) .

إن القرآن الكريم قص على رسولنا ﷺ تاريخ رجال العقيدة ليثبت فؤاده ويبين له ثمرة ثباتهم ، فكان ﷺ أثبت من في الأرض ، وأشجعهم ، وأقواهم وكان قمة سامقة في كل شيء ديناً وخلقاً وإقداماً ﴿كُنَّا إِذَا حُمِيَ الْوُطَيْسُ وَاشْتَدَّ الْبَأْسُ وَاحْمَرَّتِ الْحَدَقُ اتَّقَيْنَا بَرَسُولَ اللَّهِ ﷺ فَمَا يَكُونُ أَحَدٌ أَقْرَبَ إِلَى الْعَدُوِّ مِنْهُ﴾ ! .

وتعلم الصحابة رضوان الله عليهم من رسولهم هذا الثبات منذ اليوم الذي قال فيه : «والله ياعم لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يُظْهَرَهُ اللهُ أو أَهْلِكَ دُونَهُ» فكان الله غايتهم والرسول قدوتهم والقرآن دستورهم والجهاد سبيلهم والموت في سبيل الله أسمى أمانيتهم ، وكانوا يرددون وهم يُعَذِّبُونَ أَحَدًا أَحَدًا .

وسل التاريخ عن ياسر وعمار وسمية وبلال وصهيب وخباب ، وغيرهم ، وغيرهم رجالاً ، ونساء ، شباباً وشيبة .

سل عنهم في بدرٍ وأُحُدٍ وحمراء الأسد ، يوم أن قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل ، يوم تحزب الأحزاب ﴿فَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ (٢) .

وما حدث في هذه الغزوات من المواقف الإيمانية والتضحيات البطولية حدث مثله في اليرموك وطين والقادسية وغيرها من المواقع والمواقف التي سجلها بسطور من نور وماصلاح الدين منا ببعيد ، فأين أنت ياصلاح الدين لتقود المسيرة وتعيد إلينا ماضياً تليداً ، وتاريخاً مجيداً؟ .

(١) سورة طه : ٧١-٧٣ .

(٢) سورة الأحزاب : ٢٢ .

العقيدة التي صنعت هؤلاء ما زالت قادرة على صنع غيرهم :

تستطيع العقيدة الإسلامية أن تصنع أمثال صلاح الدين بل وآلاف من أتباعه وتصنعهم بصبغة الله ومن أحسن من الله صبغة ، نعم : أو ليست العقيدة الإسلامية التي حولت الحفاة العراة عبّاد الصنم والحجر والوثن والشجر إلى جحافل دانت لهم فارس والروم وغيرها من الممالك وجمعتهم بعد تمزق ، وأعزتهم بعد ذل ، وأغتهم بعد فقر ، وألفت بين قلوبهم بعد عدااء فأصبحوا بنعمة الله إخواناً فتحوا بها قلوب العباد قبل البلاد ، بأخلاقهم الكريمة وسيرتهم الحميدة فأصبحوا أساتذة البشرية ومازال ثناء الله عليهم في القرآن غصاً طرياً ولا يزال إلى أن يرث الله الأرض وما عليها ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَتَتَفَنُونَ فَضْلًا مِنْ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ ، وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَظَلَّ فِاسْتَوْى عَلَى سَوَاقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ﴾^(١) لتقتفي أثرهم وتنهج نهجهم .

إنها نماذج إيمانية رفع الله منزلتها وأعلى مقامها ، وخلّد ذكرها واستخلفهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ومكّن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وأبدلهم من بعد خوفهم أمناً ورضي عنهم ورضوا عنه وأعد لهم مغفرة وأجرًا عظيماً .

وكأنني بقاتل يقول إن الذي ربّى هؤلاء وتمهد هذه الغراس المباركة خير خلق الله - محمد ﷺ - وأنى لنا؟ فلن يتكرر هذا الجيل . . . وهذا حق مافي ذلك شك فخير القرون القرن الأول ثم الذين يليه ثم الذي يليه وفضل السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار أثبتة لهم رب عظيم في كتاب كريم ، ولكن يبقى المنهج الذي تركه الرسول ، ويبقى القرآن مابقيت الحياة ففضل السبق باق ، ولكن المنهاج الذي صنع الرجال دائم بدوام الليل والنهار ويوم أن توفي الرسول قالها الصديق : من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ ، وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقْبِهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾^(٢) وإلا للزم لنا بعته رسول جديد ، وهذا محال . . . فرسولنا ﷺ خاتم النبيين به أتم الله النعمة وأقام الحجة

(١) سورة الفتح : ٢٩ .

(٢) سورة آل عمران : ١٤٤ .

والخير في أمته إلى يوم القيامة «لاتزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم» أو كما قال ﷺ .

والتاريخ أصدق شاهد ، فكم من رجال حملوا هذه العقيدة بعد وفاة رسول الله ﷺ وفتحوا المشارق والمغارب؟ وهل الفتوحات الإسلامية التي أكرم الله المسلمين بها تمت إلا على أيدي رجال آمنوا بربهم وزادهم هدى بعد وفاة الرسول ﷺ . واقرأ التاريخ لترى كم فيه من هؤلاء الأفاضل إلى يومنا هذا؟ حملوا لواء لا إله إلا الله وذادوا عنه وحموه بأرواحهم ومهجهم وأموالهم واشتروا الجنة بالدنيا وما فيها «إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعَدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا ببيعكم الذي بايعتم به وذلك هو الفوز العظيم» (١) .

إنها العقيدة الإيمانية التي نهتم بتعميقها في القلوب لأنها الأصل ، صحيح في تعاليم الدين نظم خلقية واجتماعية كثيرة تتناول الحياة الخاصة والعامة من القاع إلى القمة ، لكن هذه التعاليم كلها بناء دعامة العقيدة ، أو هي أعمال غايتها وجه الله ، فإذا انهارت الدعامة ، أو اختلفت الغاية فقدت هذه النظم الخلقية ، والاجتماعية طابعها ، وقيمتها النفسية ، وصارت شيئاً آخر له قيمة أخرى كما تفقد الأوراق المالية قيمتها إذا فقدت رصيدها الذهبي ، فالَّذِينَ قَبْلَ كُلِّ شَيْءٍ شعورٌ ووجدانٌ وإيمانٌ و يقينٌ ، واعترافٌ بحقِّه ، في حكم عبادته ، ووضع المبادئ التي ينطلقون منها والحدود التي يتتهون إليها (٢) .

ولذلك عرفوا الإيمان بأنه عمل نفسي يبلغ أغوار النفس ويحيط بحواسها كلها من إدراك وإرادة ووجدان فلا بد من إدراك ذهني تنكشف به حقائق الوجود على ماهي عليه في الواقع ، وهذا الانكشاف لا يتم الا عن طريق الوحي الإلهي المعصوم ، ولا بد أن يبلغ هذا الإدراك الحزم الموقن ، واليقين الجازم الذي لا يزلزله شك «إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا» (٣) ولا بد أن يصحب المعرفة الجازمة إذعان قلبي وإنقياد إرادي يتمثل في الخضوع والطاعة والرضا والتسليم «فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا

(١) سورة التوبة : ١١١ .

(٢) عقيدة المسلم - الشيخ محمد الغزالي - ص ١٢٤ .

(٣) سورة الحجرات : ١٥ .

تسليماً^(١) ولا بد أن يتبع ذلك المعرفة ، وهذا الإذعان ، حرارة وجدانية قلبية تبعث على العمل بمقتضيات العقيدة والالتزام بمبادئها الأخلاقية والسلوكية ، والجهاد في سبيلها بالمال والنفس وبذلك تنفذ هذه العقيدة إلى العقل فتقنعه وتطمئنه ، وإلى القلب فتلهزه وتحركه وإلى الإرادة فتدفعها وتوجهها ، وإذا اقتنع العقل ، وتحرك القلب واتجهت الإرادة ، استجابت الجوارح ، واندفعت للعمل استجابة للراعي الصالح^(٢) .

وهكذا تجد العقيدة تغرس في النفس الإحساس بقدرة الخالق وإرادته وحكمته وعلمه وخبرته وسائر أسمائه الحسنى وجماله الأسنى وتدفع المسلم إلى خير الأعمال لأن الإيمان المعتبر هو اقتران بالسمع والطاعة وتطهر من الجحود والاستكبار .

ولقد تعالت صيحات الجحود للإسلام والاستكبار على علومه وكتبه في الصفحات الأولى لصاحب القراءة المعاصرة في «الكتاب والقرآن» حيث يقول في ص ٣٢: «ماذا نفعل بكتب التراث من الفقه والتفسير التي يُطبع منها كل عام آلاف النسخ، وتُدْرَس على أنها الإسلام؟» ثم يقول في ص ٣٣: «إنَّ القرآن قد نهانا عن أن نقف من التراث موقف الانصياع الأعمى والتقليد» في حين يُمجّد الفلسفة ويصفها بأنها أم العلوم، [وهي التي كانت العامل الأكبر في ضياع دارسيها والمتخرجين عليها]، فنجده يقول في ص ٣٢: «ليس من العبث تسمية الفلسفة بأم العلوم قاطبة» كما يزعم في ص ٤٣: «لا يوجد تناقض بين ما جاء في القرآن الكريم وبين الفلسفة التي هي أم العلوم» هكذا نجده مخلصاً للفلسفة التي لا تمت إلى القرآن العظيم بصلة فهي برمتها من تركيب خيال الفلاسفة ومن أساطير أوهامهم، ونجدّه متكرراً مستكبراً على كتب الفقه والتفسير التي قامت على فهم القرآن العظيم وبيان مدلولاته وتفصيل أحكامه .

ثم نجده يتنكر للحضارة الإسلامية ويصفها بالجفاف والنّضب وأن لا ثمار فيها، فيقول في ص ٣٤: «إذا نظرنا إلى الحضارة العربية الإسلامية في الوقت الحاضر، نرى فيها عنصر الجذور متوفراً، ولكنه لا يوجد ثمار لأنها جفّت ونضبت، فنحن الآن مستهلكون للسلع والأفكار، حتى إن أفكار التراث استهلكَتْ ونضبت، ووصلنا في طرحنا لأفكار التراث إلى حدّ السذاجة...!؟» .

هكذا انطلق هذا الكاتب في قراءته «للقرآن» قراءة معاصرة متكرراً جاحداً للثقافة الإسلامية وحضارتها، ومستكبراً على جلالها؟! فهل بعد هذا الجحود والاستكبار من مزيد تحت اسم المعاصرة؟! .

(١) سورة النساء : ٦٥ .

(٢) هذا التعريف للدكتور يوسف الفرضاوي من كتابه الإيمان والحياة بتصرف .

أثر عقيدة التوحيد في حياة الإنسان^(١)

ومن أثر الإيمان وجل القلب واطمئنان النفس ، وزيادة التقوى ، سرعان ما يترجم هذا الإحساس سلوكاً يتمثل في إقامة الصلاة والإتيان في سبيل الله وعمل الصالحات فيشهد الله لهم بالصدق وهو أعلم بهم ويرفع درجاتهم تفضلاً عليهم ويتجاوز عن سيئاتهم مغفرة منه لهم .

كما ينشأ من أثر هذه العقيدة في القلب والتوكل والإقدام والثقة في الله ، والاطمئنان لجناحه ، فإذا تحزب الأحزاب لا يقول ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾^(٢) إنما يقول ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾^(٣) . كما تنشأ خصلة الصبر والثبات ، وقوة التحمل في الشدائد والملمات ، فمهما أودى في سبيل الله فإنه يقول : ﴿وَمَا لَنَا إِلَّا نَتَوَكَّلَ عَلَى اللَّهِ وَقَدْ هَدَانَا سُبُلَنَا وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيْتُمُونَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾^(٤) فإذا واجه الموت في سلام أو حرب لم يجزع ويقول (غدا ألقى الأحبة محمداً وحزبه) . . . وهكذا باقي الخصال والفضائل الأخرى هي أثر من آثار علم القلب الذي يصبغ الإنسان بهذا الإسلام .

ولذلك فإن الإنسان حين كان يقبل على الإسلام كان يشعر في اللحظة التي يجيء فيها إليه أنه يبدأ عهداً جديداً ، منفصلاً كل الانفصال عن حياته التي عاشها في الجاهلية ، وكان يقف من كل ماعهده في جاهليته موقف المستريب الشاك الحذر المتخوف ، الذي يحس أن هذا رجس لا يصلح للإسلام لأنه غير مابنفسه والله سبحانه لا يغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم . وبهذا الإحساس كان يتلقى هدى الإسلام

(١) منهاج القرآن في عرض عقيدة الإسلام : جمعه أمين عبد العزيز ص ٣٣-٤٠/و ٣٢-٣١ .

(٢) سورة البقرة آية ٢٤٩ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٧٣ .

(٤) سورة إبراهيم آية ١٢ .

الجديد بإطمئنان نفس وثقة قلبية ، وتصميم على السير في هذا الطريق للوصول إليه ، وهذا ما نهدف إليه ونحن نقدم للناس عقيدة الإسلام في زمان صدق فيه الرسول ﷺ - مامعناه - «توشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، قلنا أو من قلة نحن يومئذ يا رسول الله؟ قال : لا : ولكنكم كثير ولكنكم كثناء السيل ، ولينزعن الله المهابة من قلوب أعدائكم وليقذفن في قلوبكم الوهن ، قلنا : وما الوهن يا رسول الله؟ قال : حب الدنيا وكراهية الموت» وصدق الله القائل : ﴿فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ أَضَاعُوا الصَّلَاةَ وَاتَّبَعُوا الشَّهْوَاتِ فَسُوفَ يَلْقَوْنَ غَيًّا﴾ (١) .

الفرق بين عقيدة التوحيد والعقائد الباطلة :

إن التوحيد هو مفرق الطريق بين سبيل الله وسبل الشيطان ، وبين عقيدة المسلم الخالصة ، وسائر العقائد الباطلة ، وحياة المسلم وحياة غيره من الناس ، هو مفرق الطريق في التصور والاعتقاد ، والحياة والسلوك ، بين تفرد الله سبحانه وتعالى بصفة الألوهية ، وذلك الركام من التصورات الجاهلية ، التي تدعو مع الله إلهاً آخر كان حجراً أو وثناً ، أو شمساً أو قمراً ، أو كوكباً ، أو نجماً أو بشراً ، فلامكان لعبودية غير الله عند المسلم ، ولا مكان للتلقى إلا منه لا في عقيدة أو شريعة أو نظام أو أخلاق أو اقتصاد أو اجتماع ، أو أي منحى من مناحي الحياة .

ومن ثم كان التميز والتفرد لطبيعة الحياة الإسلامية كلها ، لالطبيعة الاعتقاد وحده ، فالحياة الإسلامية بكل مقوماتها إنما تنبثق من حقيقة هذا التصور الإسلامي عن التوحيد الجازم ، التوحيد الذي لا يستقيم في الضمير مالم تتبعه آثاره العملية في الحياة ، ومن تلقى الشريعة والتوحيد وكل شأن من شؤون الحياة والتوجه إلى الله في كل نشاط وكل إتجاه (٢) .

إن الدعوة إلى كلمة التوحيد «لا إله إلا الله» تمثل نفيًا تسقط معه الآلهة الزائفة وإثباتًا يعطي الألوهية كل أوصافها وأفعالها لله رب العالمين ، يخلق ويرزق ، يدبر ويحكم له «الخلق والأمر» ، وهذا الذي نشير إليه إنما يمثل العلم بهذه الكلمة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء ، إذ أن لا إله إلا الله كما يقول ابن القيم لها قلب وقالب أو جسد وروح ، قالب أو جسد هو ماتعلمه من أن الله خالق كل شيء ، خالق الأحياء والأشياء والأنفس والآفاق وهذا ما يسمى بعلم القلب ، ويشترك فيه المؤمن

(١) سورة مريم آية ٥٩ .

(٢) في ظلال القرآن ج ١ / ٣٦٧

والكافر على حد سواء ﴿وَلَنَسْأَلَنَّهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ﴾^(١) ﴿وَلَنَسْأَلَنَّهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ﴾^(٢) . وقلب أو روح يحرك هذا الجسد ، ويسري فيه ويسمى «بعمل القلب» وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان^(٣) فعمل القلب هو الروح التي تسري فتحيي بعد موات مصداقاً لقوله تعالى ﴿أَوَ مَنْ كَانَ مَيِّتاً فَأُحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُوراً يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَنْ مِثْلُهُ﴾ في الظلمات ليس بخارج منها^(٤) ، فينمو بذلك الإيمان الصحيح في القلب ويتحول من معرفة نظرية إلى خشية وتقوى ، وحياء وخشوع وإخبات ، وسمع وطاعة وتتحدّد بذلك شخصية المسلم فيتميز المؤمن من الكافر والبر من الفاجر ، والصادق من الكاذب ، كل ذلك من تفتح القلوب ، وانسراح الصدور ، وصدق ربي حين قال ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ ، أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقّاً وَلَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾^(٥) .

(١) سورة لقمان : ٢٥ ، وسورة الزمر : ٣٨ .

(٢) سورة الزخرف : ٨٧ .

(٣) سورة الشورى : ٥٢ .

(٤) سورة الأنعام : ١٢٢ .

(٥) سورة الأنفال : ٢-٤ .

الأسلوب الميسر في عرض العقيدة الإسلامية^(١)

اختصَّ القرآن العظيم بالأسلوب الميسر في عرض العقيدة!!

هذا المنهج في عرض عقيدة التوحيد بأسلوب سهل ميسر بسيط يفهمه العامة والخاصة ، والمتعلم والجاهل ، والمثقف والامي ، والحضري والبدوي ، بدأ به أنبياء والمرسلون قبل رسول الله ﷺ بسيطاً يتناسب ومراحلهم الزمنية إلى أن نزل القرآن الكريم على قلب رسولنا الأمين محمد ﷺ واكمل الدين شريعة وأخلاقاً ، واكمل أيضاً منهاجاً وأسلوباً ليكون المنهج الأقوم والعرض الأكمل والتوجيه الأمثل من رب العالمين ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٢) .

فما أخرجنا إلى هذا المنهج والأسلوب في أيامنا هذه التي يموج فيها الناس في سوق من الأفكار والمعتقدات كل بضاعتها مزجاة ، فلاتجد في هذا السوق إلا غاشاً يعرض بضاعة شرقية ملحدة ، أو غربية طاغية ، أو صليبية حاقدة ، أو صهيونية خادعة ، تشوه الأفكار ، وتحرف الإسلام ، وتعلن الحرب عليه وأهله ، بالمدفع والطائرة تارة ، وبالقلم واللسان مرات ، مصداقاً لقول ربي : ﴿لَيَبْلُوَنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيراً ، وَإِنْ تُصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فَإِنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ﴾^(٣) .

ومعظم الناس في هذه السوق جاهلون بدينهم ، مخدوعون بما يسمعون ، حائرون مما يرون ، وهم متلهفون لتاجر أمين يُوفي لهم الكيل ويتصدق عليهم ، بتوضيح الإسلام وتبيين حقيقة الإيمان ، ليكونوا على بينة بكل هماز مشاء بنميم ، أو ضال

(١) منهاج القرآن في عرض عقيدة الإسلام : جمعه أمين عبد العزيز ص ٣٨-٤٠ .

(٢) سورة الملك آية ١٤ .

(٣) سورة آل عمران آية ١٨٦ .

مضلل مبین ، أو كافر حقود ، أو ملحد جحود ، يزينون لهم بضاعتهم الزائفة وعقائدهم الباطلة ، وتصوراتهم الفاسدة ، ويقسمون بالجنث العظيم على نقائها وصفاتها ، وصحتها وسلامتها وهم على يقين بأن يمينهم غموس ﴿وَدَّوْا لو تكفرون كما كفروا فتكونون سواء﴾^(١) وإن أردت أن تعرف حقيقتهم فسل رب العباد يجيبك عن صفاتهم المنفرة وأوصافهم المقززة فيقول : ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخْ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ ، ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾^(٢) .

ألا ما أحوج الناس اليوم لمن يبين لهم باطلهم وزيفهم ووصفهم ويوضح لهم الغث من الثمين ، والظلام من النور ، والحق من الباطل ، والهوى والظن من الصراط المستقيم ، بلسان مبين وخلق متين ، وسلوك قويم يناديهم وهو الرحيم بهم ، المشفق عليهم ، الحريص على مصيرهم : هلم إليَّ عباد الله ﴿... هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلك خير لكم إن كنتم تعلمون يفر لكم ذنوبكم ويدخلكم جنات تجري من تحتها الأنهار ومساكن طيبة في جنات عدن ذلك الفوز العظيم﴾^(٣) .

إنها تجارة رابحة لن تبور ، ولكن أين المنادي العليم الرحيم الذي ينادي على تلك السلعة الغالية وهو بطبيعة السوق عليم ، وبحس العرض خبير ، ويقول الحق جسور ، ويشويق المشتري حصيف ، ويأدب اللفظ شهير ، شعاره ﴿وقولوا للناس حسناً﴾ ومنهاجه ﴿ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن﴾^(٤) فمن أراد أن يتحلى بهذا كله فليعيش مع أنبياء الله ورسله ليتعلم كيف عرضوا هذه العقيدة على أقوامهم . . . فيها لنعش معهم ولتعلم أسلوبهم الحكيم ومنهاجهم الفريد .

(١) سورة النساء آية ٨٩ وهذا ما نجده فيما أسماه الدكتور «شعور» في الكتاب والقرآن قراءة معاصرة .

(٢) سورة الأعراف آية ١٧٥-١٧٦ .

(٣) سورة الصف آية ١٠-١٢ .

(٤) سورة النحل آية ١٢٥ .

الإنسان مخلوق متدين، ومنهج توجيه فطرته : (١)

إن الإنسان مخلوق متدين ، نستطيع أن نعرفه بذلك ، لماذا؟ لأن الإيمان فطرة ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها﴾ لذلك كان هذا الذي قلناه ، أصدق تعريف للإنسان أنه (مخلوق متدين) ، انظر إلى أشد الناس إلحاداً وأبعدهم عن الله عندما يأتيه الموت ﴿فيقول ربّ لولا أخرجتني إلى أجل قريب﴾ (٢) ويقول ﴿ربّ ارجعون ليعلّٰى أعملُ صالحاً فيما تركت﴾ (٣) فهو يقول ﴿رب﴾ أخبرنا بذلك رب العزة ، أنهم يقولونها ولو لم نر لهم شفاهاً تتحرك ، أو ألفاظاً تخرج أو كلمات تُسمع ، هم يقولونها لأن خالق الإنسان أخبرنا بذلك ، ولقد قالها فرعون الذي تكبّر وتجبّر ، وقال أنا ربكم الأعلى ، ﴿حتى إذا أدركه الغرق قال آمنتُ أنه لا إله إلا الذي آمنتُ به بنو إسرائيل﴾ (٤) . . . لكنه قالها في موقف لا ينفعه فيه الندم ، وقت لا تقبل فيه التوبة ﴿وليس التوبة للذين يعملون السيات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن ولا الذين يؤمنون وهم كفار أولئك أعثنا لهم عذاباً أليماً﴾ (٥) .

فأنت ترى أن الإيمان بوجود الله شعور فطري ينبع من النفس وما على المسلم إلا أن يؤيد إيمانه الفطري بالأدلة العقلية الناطقة ، والبيّنات الساطعة ، غير أن العلم بالله هداية من طلبها وجدّها ، وزاده الله منها ﴿والذين اعتدلوا زادهم هدى﴾ (٦) ومن أبى فلا يلومنّ إلا نفسه .

إن الإحساس الفطري شعور أصيل في النفس الإنسانية، يستوي فيه العالم والجاهل والحضري والبدوي ، والرجال والنساء ، والأولون والآخرون ، وهو دليل مأخوذ من واقع الإنسان وتجاريه ، فكم دعا الإنسان ربه فأجاب دعاءه؟ وكم ناداه فلبّى نداءه ، وكم سأله فأعطاه ، وكم توكل عليه فكفاه ، وكم من مرض شفاه منه؟ وكم من ألم خففه عنه؟ وكم من رزق ساقه إليه؟ وكم من كربة فرجها؟ وكم من غمة

(١) منهاج القرآن في عرض عقيدة الإسلام ص ٦٠-٧٥ بتصرف يسير .

(٢) سورة المنافقين من الآية ١٠ .

(٣) سورة المؤمنون آية ١٠٠ .

(٤) سورة يونس آية ٩٠ .

(٥) سورة النساء آية ١٨ .

(٦) سورة محمد ﷺ آية ١٧ .

كشفها؟ لكنه هو الإنسان لربه لكنود .

إن تجارب الإنسان في الحياة الدنيا تأخذ بيده وتوصله إلى الله مباشرة ، لأنها تكشف له عن الحقيقة التي لم يستطع أن يلمسها بحواسه ، والتي تدبر الكون وتسير وفق نظام محكم ، وقانون مطرد ، ومامن إنسان إلا وقد وقع له في حياته من التجارب ما عرفه بالله ، وهداهُ إليه وأوقعه عليه ، لكنه ينسى أو يتناسى . فكثيراً ما يفقد الإنسان جميع الأسباب المادية التي تجلب الخير له أو تدفع الشر عنه ، فإذا توجه بقلبه إلى ربِّ كلِّ شيء ومليكه ، تحقق له من الخير ما يصبو إليه واندفع عنه من الشر ما يخاف منه دون سبب ظاهر ، أو تعليل معقول ، فبماذا تفسر هذه الظواهر؟ وهل لها تفسير سوى أن من ورائها رب الأرباب ، ومسبب الأسباب^(١) .

أغير الله تدعون؟

وإن من الأمور المسلم بها أنه مامن نفس إلا وتلجأ إلى الله ساعة الخطر اليس كذلك؟ أنا لأجيبك بل الله يجيبك ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُ اللَّهِ أَوْ أَتَتْكُمُ السَّاعَةُ ، أَغَيْرَ اللَّهِ تَدْعُونَ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ، بَلْ يَأْتِيهِ تَدْعُونَ فَيَكْشِفُ مَا تَدْعُونَ إِلَيْهِ إِنْ شَاءَ وَتَنْسَوْنَ مَا تُشْرِكُونَ﴾^(٢) ، ﴿قُلْ مَنْ يُنْجِيكُمْ مِنْ ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ تَدْعُونَهُ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً لَنْ أَنْجَاكُمْ مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ، قُلِ اللَّهُ يُنْجِيكُمْ مِنْهَا وَمَنْ كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنْتُمْ تُشْرِكُونَ﴾^(٣) وصدق الله القائل ﴿أَمَنْ يُجِيبُ الْمُسْتَظِرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ السُّوءَ؟﴾^(٤) ﴿قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ﴾^(٥) ، وبهذا يجيب الشعور الداخلي الذي خلقه الله في الإنسان يجري علينا أقداره حتى يلجئنا إلى معرفته لتقوم علينا الحجة ، والسعيد من امتلأ قلبه بهذا الشعور فقال : لاملجأ من الله إلا إليه .

فهل أنت محتاجٌ بعد ذلك إلى أدلة تثبت لك أن الله تعالى هو الخالق إن الحقيقة الإنسانية والفطرة البشرية ، تكذبان هذا الادعاء ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفاً فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ، لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنْ أَكْثَرُ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(٦)

(١) العقائد الإسلامية : سيد سابق ص ٤٤ .

(٢) سورة الأنعام : ٤١-٤٠ .

(٣) سورة الأنعام : ٦٣-٦٤ .

(٤) سورة النمل : ٦٢ .

(٥) سورة الأنعام : ٩١ .

(٦) سورة الروم : ٣٠ .

وتتبع آيات القرآن الكريم وعش معها - وهي أصدق تاريخ للعقيدة - وخصوصاً الآيات التي تحدثت عن الرسل ورسالاتهم إلى أممهم ، تبين أن ضلال الأمم من عبادتها آلهة معينة كالأحجار والأصنام والشمس والقمر والشجر ، وبعض الحيوانات والحشرات لتقربها إلى الله تعالى وتكون واسطة بين الإنسان وبين الله ، ولذلك كانت دعوة الرسل منصبة على تحويلهم من عبادة غير الله إلى عبادة الله مباشرة دون واسطة ، قال تعالى ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴾ (١) .

وبذلك يتضح لك وضوحاً لا شك فيه ، أن قضية وجود الله تعالى قضية مفروغ منها لأنها فطرية في الإنسان ، فليست في حاجة إلى إقامة الأدلة والبراهين عليها وبذل الجهود لإثباتها ، وهل تحتاج الشمس لإثبات وجودها؟ إن وجود الله أوضح من شمس تشرق على الدنيا بنورها ، فالله نور السموات والأرض .

ألا ترى بعد ذلك أن أول واجب عليك هو أن تستخدم العقل المتأمل ، والفهم الواعي ، وأن ترجع إلى الوحي المنير لتعلم ما جهلت عن خالقك وتقول ﴿سبحانَكَ لا علمَ لنا إلَّا ما علمتَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ (٢) فإلهك واحدٌ أحدٌ ، فردٌ صمدٌ ، لم يلدْ ولم يولدْ ولم يكنْ له كفواً أحدٌ .

دعاء المضطر :

لاغربة إذن في أن الفطرة تستصرخ خالقها وبارئها لأنها توقن بوجوده ، وتشعر بوحدايته فلاعجب أن تقول : الغوث : الغوث : النجاء : النجاء : حين تحس بأي خطر من الأخطار أو ضرر من الأضرار ، لايمارى في ذلك أحد ، ولاينكره عاقل ، نطق بذلك القرآن فقال : ﴿وَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِداً أَوْ قَائِماً فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَذْعُنَا إِلَى ضُرِّهِ مَسَّهُ كَذَلِكَ زَيَّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَاكَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ (٣) .

لذلك كان الدعاء هو العبادة ، لأنه استشعار بالضعف الإنساني ، واعتراف بالإله

(١) سورة الأنبياء : ٢٥ .

(٢) سورة البقرة : ٣٢ .

(٣) سورة يونس : ١٢ .

القوي ، فيتحقق بذلك أسمى أنواع العبودية ، كمال الذل ، وكمال الحب لله رب العالمين .

وقبل أن نسترسل في معنى الاستغاثة والدعاء والابتهاال إلى الله ، نود أن نجلي أمراً يخيل للمرء أن فيه إشكالاً لا بد من توضيحه ، وشبهة لا بد من إزالتها ، هو أن الإنسان قد يستغيث بالمخلوق الحي ويناديه ويطلب غوثه ويحتمى به ، وهذا أمر طبيعي فيما يقدر عليه من الأمور التي في استطاعته ، وإمكانه ، وليس في الأمور المستحيلة التي يعجز عن الإتيان بها أو التي ليست في مقدور البشر ، هذه بديهية لا تحتاج إلى دليل أو برهان .

فقد تنشب النار ، ويشتعل الحريق في بيت من البيوت فيستغيث صاحبه بالشرطة أو الجيران طلباً للإنقاذ ، أو يعتدى عليك لص أثم فتستصر الناس ليخلصوك منه ، ويحموك من اعتدائه وهذا أمر معتاد يحدث مع كل الناس ، والقرآن الكريم يبيّن لنا أن هذا النوع من الاستنصار والاستغاثة من مألوف البشر فحكى لنا قصة موسى عليه السلام حين استغاثه الذي من شيعته على الذي من عدوه ﴿فوكّزه موسى فقضى عليه . .﴾^(١) وكما قال ﴿وإن استصرّوكم في الدين فعليكم النصر . .﴾^(٢) .

أما الأمور التي لا يقدر عليها إلا الخالق القادر سبحانه وتعالى ، فلا يصح أن يستغاث لها من البشر ولكن يستغاث بمن بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه ككشف الضر ، وتفريج الهم ، والشفاء من السقم ، ودفع الفقر ، وغفران الذنب ، والهداية إلى سواء السبيل ، وغير ذلك من الأمور والأحوال التي يداولها المولى سبحانه بين الناس فلا يلجأ فيها إلا إليه وحده ﴿أمنّ يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض إله مع الله قليلاً ما تذكرون﴾^(٣) . فإن استغاث الإنسان بمخلوق في مثل هذه الأمور فقد ضلّ ضلالاً ميئناً ، وافترى إثماً عظيماً وقال منكراً من القول وزوراً ، ووقع في المحذور ، وخالف الشرع الحكيم واتبع الشيطان الرجيم ، فنوضح له هذا المنزلق إن كان جاهلاً ، ونحذره من هذه الهاوية حتى لا تتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح في مكان سحيق لأنها الحالقة التي تحلق الدّين .

فالمسلم مطالب بأن يؤمن إيماناً راسخاً بأن الله هو القاهر فوق عباده وهو الحكيم

(١) سورة القصص : ١٥ .

(٢) سورة الأنفال : ٧٢ .

(٣) سورة النمل : ٦٢ .

والخير ، وأنه وحده المسؤول والمأمول وإليه وحده يرجع الأمر كله ، عبادة واستعانة ، والمسلم يردد ذلك في كل صلاة يصلّيها ، إياك نعبد وإياك نستعين ، اهدنا الصراط المستقيم ، لتذكرنا بالبداية والنهاية ، ﴿وَاللَّهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا وَذُرُّوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(١) وكلما تمكنت هذه العقيدة من قلب المسلم أذعن لله ، واعترف بالوحيته ، واستشعر ضعفه وقُدرة الله عليه ، فيلجأ إليه يدعوه مخلصاً له الذين لأنه لا ملجأ ولا منجى من الله إلا إليه ، وبذلك يعتزل الأضداد والأنداد فلا يدعو إلا ربّاً كريماً بالغداة والعشي لا يريد إلا وجهه ، خوفاً من ناره وطمعاً في جنته ويتمثل قول إبراهيم عليه السلام ﴿وَاعْتَرِلَكُمْ وَمَاتَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَأَدْعُوا رَبِّي عَسَىٰ أَلَّا أَكُونَ بِدُعَاءِ رَبِّي شَقِيًّا﴾^(٢) .

فالدعاء هو العبادة ، وسمة المؤمنين ، والأنبياء الصالحين ، والرسل الكرام المبعوثين رحمة للعالمين ، فهم يلجأون إلى الله دائماً في صغير الأمر وكبيره ، فهذا آدم عليه السلام يقول ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾^(٣) ، وهذا إبراهيم وإسماعيل يقولان ﴿رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾^(٤) ، وأما نوح عليه السلام فيقول ﴿إِنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾^(٥) ﴿وَأَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُ أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(٦) ، أما زكريا عليه السلام فنادى ربه ﴿رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّي شَقِيًّا ، وَإِنِّي خِفْتُ الْمَوَالِيَ مِنْ وَرَائِي وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا﴾^(٧) وهذا سليمان عليه السلام يقول ﴿هَبْ لِي مَلَكًا لَا يُبْغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ﴾^(٨) أما عيسى عليه السلام فيطلب من الله آية ﴿أَنْزِلْ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِأَوَّلِنَا

(١) سورة الأعراف : ١٨٠ .

(٢) سورة مريم : ٤٨ .

(٣) سورة الأعراف : ٢٣ .

(٤) سورة البقرة : ١٢٧ .

(٥) سورة القمر : ١٠ .

(٦) سورة الأنبياء : ٨٣ .

(٧) سورة مريم : ٤-٥ .

(٨) سورة ص : ٣٥ .

وَأَخْرَجْنَا آيَةً مِنْكَ وَارْزُقْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ» (١) .
ورسولنا الكريم «إِلَيْكَ أَشْكُو ضَعْفَ قُوَّتِي وَقَلَّةَ حِيلَتِي وَهُوَ إِيَّايَ عَلَى النَّاسِ يَا أَرْحَمَ
الرَّاحِمِينَ» .

وهكذا حال المؤمنين ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي
أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ (٢) ولا عجب من ذلك فكيف لا يتادونه
وهو القريب؟ وكيف لا يسألونه وهو المجيب؟ وكيف لا يطلبونه وهو المعطي؟ يقضي
حوائج السائلين ، ويسمع دعوة الداعين ، ويرى تضرعهم ويعلم حالهم ، ويجب
سؤالهم إن كان عن إيمان وخشوع ، لأنه القريب المجيب ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي
فَأِنِّي قَرِيبٌ أَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (٣)
قال الإمام ابن تيمية «وهو سبحانه فوق العرش رقيب على خلقه مهيم على
مطلع إليهم فدخل في ذلك الإيمان بأنه قريب من خلقه» وفي الصحيح «إن الذي
تدعونه أقرب إلى أحدكم من عنق راحلته» وما ذكر في الكتاب والسنة من قربهِ ومعيتهِ
لا ينافي ما ذكر من علوه وفوقيته فإنه سبحانه ليس كمثله شيء (٤) .

روي أَنَّ أَعْرَابِيًّا قَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ : أَقْرَبُ رَبَّنَا فِتْنَاهُ أَمْ بَعِيدُ فِتْنَاهُ؟ فَسَكَتَ النَّبِيُّ
ﷺ فَأَنْزَلَ اللَّهُ : ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَأِنِّي قَرِيبٌ أَجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِي إِذَا دَعَانِ
فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ﴾ (٥) .

وعن الحسن قال : سَأَلَ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ : أَيْنَ رَبَّنَا؟ فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ :
﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَأِنِّي قَرِيبٌ . . .﴾ الآية .

وقال عطاء : أَنَّهُ بَلَغَهُ لَمَّا نَزَلَتْ ﴿وَقَالَ رَبُّكُمْ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ وقال الناس
لو نعلم أي ساعة ندعو؟ فنزلت ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَأِنِّي قَرِيبٌ . . .﴾ الآية .
وعن أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ قَالَ : كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فِي غَزْوَةٍ فَجَعَلْنَا لَا نَصْعَدُ

(١) سورة المائدة : ١١٤ .

(٢) سورة آل عمران : ١٤٧ .

(٣) سورة البقرة : ١٨٦ .

(٤) الصفوة - جزء ١ - ص ١٢٤ .

(٥) أخرجه ابن أبي حاتم .

شَرَفًا ، ولانعلو شَرَفًا ، ولانهبطُ وادياً ، إلّا رفعنا أصواتنا بالتكبير قال : فدنا منا فقال : «يا أيها الناس أَرَبُّعُوا على أنفسِكُم فإنكُم لاتدعون أصمًا ولا غائبًا إنما تدعون سميعاً بصيراً ، إن الذي تدعون أقرب إلى أحدكُم من عنق راحلته ياعبد الله بن قيس ألا أعلمك كلمة من كنوز الجنة ؟ لأَحُولُ ولا قُوَّةَ إلّا بالله» (١) .

وقال ﷺ : «القلوب أوعية وبعضها أوعى من بعض ، فإذا سألتُم الله أيها الناس فأسألوهُ وأنتم موقنون بالإجابة ، فإنه لا يستجيب لعبد دعاه عن ظهر قلب غافل» (٢) .

والذين لا يدعون ربهم اليوم سائلين إياه أن يفرج الكرب ، ويسر الأمر وأن يبدل عسرهم يسراً ، وضيقهم فرجاً ، وحزنهم سروراً ، وفقرهم غنى ، هم المستكبرون المتعالمون ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ ذَاخِرِينَ﴾ (٣) ويومها يدعون فلا يفيد الدعاء ولا يستجاب لهم ، إذ يقولون وهم في النار لخزنة جهنم ﴿ادْعُوا رَبَّكُمْ يَخْفَفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ قَالُوا أَوْ لَمْ تَكُنَّا تَأْتِيكُم رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ ، قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَادُعَاءُ الْكَافِرِينَ إلّا فِي ضَلَالٍ﴾ (٤) .

روى الطبراني في معجمه الكبير : أنه كان في زمن النبي ﷺ منافق يؤذي المؤمنين فقال أبو بكر رضي الله تعالى عنه ، قوموا بنا نستغيث برسول الله ﷺ من هذا المنافق ، فقال ﷺ : «إِنَّهُ لَا يُسْتَغَاثُ بي وَإِنَّمَا يُسْتَغَاثُ بِاللَّهِ» .

لأن الرسول ﷺ ، لا يقدر على تحويل القلوب من النفاق إلى الإيمان ، إنما الذي يقلب القلوب والأبصار هو الذي يقلب الليل والنهار وهو الواحد القهار ، الذي يحول بين المرء وقلبه ، فتوجه إليه ونلجأ إليه نلوذ بحماه ، ونطلب رضاه ، وننتظر إجابته حين ندعوه لأنه سميع قريب يجيب دعوة الداع إذا دعاه .

ولذلك يجب على المسلم ألا يعتربه الشك في الإجابة ، بل لابد أن يوقن بقدرة الله وألا يُماري في علمه ، وألا يرتاب في رحمته ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُمْ بِشَيْءٍ إلّا كِبَاسٌ عَلَيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَادُعَاءُ

(١) رواه أحمد وأحمد والشيخان .

(٢) رواه أحمد عن عبد الله بن عمر . وإسناده حسن كما في الترغيب ج ٢/ ٤٩١

(٣) سورة غافر : ٦٠ .

(٤) سورة غافر : ٤٩-٥٠ .

الكافرين إلا في ضلال»^(١) .

ألا فادعه مخلصاً له الدين يوثك كفلين من رحمته ، وَيُلَبِّيْ نِدَاءَكَ ويعطيك أكثر مما سألت لأنه الغنى الحميد .

التوسل والوسيلة :

أما وأنتا حدثناك عن الدعاء ، فحريّ بنا أن نُعرِّجَ على التوسل والوسيلة بشيء من الإيجاز ، استكمالا للتصور ، وتصحيحاً للفهم .

فالوسيلة : هي المتزلة عند الملك ، والوسيلة : الدرجة والقربة ، ووسل فلان إلى الله وسيلة : إذا عمل عملاً تقرب به إليه ، والواصل : الراغب إلى الله ، وتوسل إليه وسيلة : إذا قرب إليه بعمل ، هكذا جاء في لسان العرب .

وقال الفيروز أبادي في القاموس المحيط ، والوسيلة والواسطة المتزلة عند الملك والدرجة والقربة ، ووسل إلى الله توسيلاً : عمل عملاً تقرب به إليه كتوسل ، والواصل الواجب والراغب إلى الله تعالى ، وقال الراغب في مفردات القرآن: الوسيلة التوصل إلى الشيء برغبة وهي أخص من الوسيلة لتضمنها معنى الرغبة ، قال الله تعالى «وابتغوا إليه الوسيلة» وحقيقة الوسيلة إلى الله تعالى مراعاة سبيله بالعلم والعبادة وتحري أحكام الشريعة ، وهي كالقربة ، والواصل : الراغب إلى الله تعالى .

وقال ابن الأثير في النهاية في حديث «اللهم آتِ محمدًا الوسيلة» هي في الأصل مايتوسل به إلى الشيء ، وجمعها : وسائل ، ويقال : وسل إليه وتوسل ، والمراد في الحديث : القرب من الله تعالى ، وقيل : هي الشفاعة يوم القيامة ، وقيل هي منزلة من منازل الجنة كذا جاء في الحديث .

أما قول الله تعالى : «يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ»^(٢) أي يالها الذين صدقوا الله ورسوله فيما أخبرهم ووعدهم من الثواب وأعد من العقاب «اتقوا الله» يقول : أجيئوا الله فيما أمركم ونهاكم ، من الطاعة له في ذلك ، وحققوا إيمانكم وتصدقكم ريكم ونيكم بالصالح من أعمالكم «ابتغوا إليه الوسيلة» أي اطلبوا القربة إليه بما يُرضيه^(٣) .

(١) سورة الرعد : ١٤ .

(٢) سورة المائدة : ٣٥ .

(٣) ابن جرير الطبري .

وكما يقول الإمام النسفي الوسيلة هي كل ما يتوسل به ، أي يتقرب من قرابة أو صنعة أو غير ذلك ، واستعيرت لما يتوسل به إلى الله من فعل الطاعات وترك السيئات .

فكان المولى سبحانه وتعالى يأمرنا بأن نطلب حاجتنا متوجهين إليه وحده دون غيره لأن بيده سبحانه مقاليد السموات والأرض ، فهو القوي العزيز وغيره الفقير الضعيف ، فليقت الله المسلم بترك المعاصي وفعل الطاعات ، فتلك هي الوسيلة الحق التي يدعو المولى سبحانه وتعالى عباده إليها .

وعلى هذا فالوسائل للقربى من الله لاتعد ولا تحصى لأن كل طاعة وسيلة من إمارة الأذى عن الطريق ، إلى الجهاد في سبيل الله ، فهذا ميدان فسيح أبوابه متعددة يلججه المؤمن من أي باب شاء ، وهذا التوسل إلى الله بأعمال الخير ، وقتاً ، ومالاً ، ونفساً .

معاني الوسيلة :

ولقد تتبعت معاني «الوسيلة» في الشرع والعرف فوجدتها لاتعدو هذه الصور الخمس :

١- التوسل إلى الله بذاته وصفاته وأسمائه الحسنی ، على نحو ما جاء في الحديث «اللهم إني أسألك بأنك أنتَ اللهُ الذي لا إلهَ إلا هو الأحذُ الصمَدُ الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد» ومثل ماورد في حديث حفظ القرآن «أسألكَ بجلالك ونور وجهك أن تلزم قلبي حفظَ كتابك كما علمتني» ومثل «أعوذُ برضاك من سَخَطِكَ ، وبمعافاتِكَ من عقوبتِكَ» .

وهذا النوع من التوسل لاشيء فيه يقيناً ، بل هو قمة التوحيد .

٢- التوسل إلى الله بطاعته ، وما قدمنا من عمل صالح نرجو به وجهه الكريم وهذا هو المراد من قوله تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ (١) .

وهذا مجمع على صحته مصداقاً لقول رسول الله ﷺ : «تعرف على الله في الرخاء يعرفك في الشدة» دليل ذلك حديث الثلاثة الذي رواه الإمام البخاري عن ابن عمر رضي الله عنهما ، أن رسول الله ﷺ قال : «بينما ثلاثة نفر ممن قبلكم يمشون ، إذ

(١) سورة المائدة : ٣٥ .

أصابهم مطر فأووا إلى غار ، فانطبق عليهم ، فقال بعضهم لبعض : إنه والله ياهؤلاء لا ينجيكم إلا الصدق فليدع كل رجل منكم بما يعلم أنه صدق فيه ، فقال واحد منهم : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أجيراً عمل على فَرْقٍ من أرز^(١) فذهب وتركه وإنِّي عمدتُ إلى ذلك الفَرْقِ فزرعته ، فصار من أمره أني اشتريت منه بقرة ، وأنه أتاني يطلب أجره فقلتُ له : اعمد إلى تلك البقرة ، فسقها فقال لي : إنما لي عندك فَرْقٌ من أرز ، فقلتُ له : اعمد إلى تلك البقرة فإنها من ذلك الفَرْقِ ، فساقها ، فإن كنت تعلم أني فعلتُ ذلك من خشيتك ففرِّجْ عَنَّا ، فانساحتْ عنهم الصخرةُ . . . قال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي أبوان شيخان كبيران ، وكنت آتيهما كل ليلة بلبن غنم ، فابطأتُ عنهما ليلةً فجنثُ وقد رقداً ، وأهلي وعيالي يتضاغون^(٢) من الجوع ، فكنتُ لأسقيهم حتى يشربَ أبوي فكرهتُ أن أوقظهما وكرهتُ أن أدعهما فيسكتا لشربتهما ، فلم أزل أنتظر حتى طلع الفجر ، فإن كنت تعلم أني فعلتُ ذلك من خشيتك ففرِّجْ عَنَّا ، فانساحتْ الصخرة حتى نظروا إلى السماء . . . فقال الآخر : اللهم إن كنت تعلم أنه كان لي ابنةٌ عمٌّ من أحبِّ الناس إلي ، وأنِّي راودتها عن نفسها فأبْتُ إلا أن آتيها بمائة دينار ، فطلبتها حتى قدرتُ عليها فأتيها بها فدفعتها إليها ، فأمكنني من نفسها ، فلما قعدتُ بين رجلها قالت : اتقِ الله ولا تنقضْ الخاتمَ إلا بحَقٍّ ، فقمْتُ وتركْتُ مائةَ الدينار ، فإن كنت تعلم إنني فعلتُ ذلك من خشيتك ففرِّجْ عَنَّا ، ففرِّجَ اللهُ عنهم فخرَّجُوا .

فأنت ترى في هذا الحديث رجلاً يتوسل إلى الله بأمانته في مال هذا الأجير بالحق ، واستثماره له حتى بلغ مابلغ ، وطابت نفسه عن هذا المال الكثير ابتغاء مرضاة الله ، وآخر يبر والديه لا يريد أن يقدم أولاده عليهما إثارةً لهما وبراً بهما ، واعتراضاً بحقهما طاعة الله ، وثالث عبث الشيطان به وأغراه بالإثم وحببه إليه حتى إذا هم باقتراه ، ذكرته صاحبه حق الله فذكر وأعرض عن الفاحشة خوفاً من الله تعالى ، وجميعهم يرجون رحمته ، ويخافون عذابه ، أبعد هذه الوسائل وسيلة . . . إنه التوسل الصحيح بطاعة الله وحب رسوله والتخلق بأخلاقه والتأدب بآدابه فمن توسل بهذه الطاعة أثيب ، ومن فعلها أجز ، هذا هو الصراط المستقيم ، والنهج القويم .

٣- التوسل بدعاء الصالحين من الأحياء ومن نتوسم فيهم درجة الإحسان، ودعاء المؤمنين بعضهم لبعض لأحيائهم وموتاهم ثابت من عهد نوح عليه السلام الذي قال : «رَبِّ اغْفِرْ

(١) مكيال بالمدينة يسع ثلاثة أصع أو ستة عشر رطلاً .

(٢) يتضايخون .

لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمناً وللمؤمنين والمؤمنات ولا تزد الظالمين إلا تباراً» (١)

وهذا مأثور مأجور صاحبه لما له من دلالة حسنة ، فالأخ يدعو لأخيه بظهر الغيب أو أمامه ، والخلف يدعون للسلف إشارة إلى وحدة المؤمنين في مجال العبودية وإن اختلف الزمان والمكان «والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان ولا تجعل في قلوبنا غلاً للذين آمنوا» (٢) .

وكان السلف من الأصحاب رضوان الله عليهم إذا تخلف المطر وخيف القحط يتوسلون برسول الله ﷺ فيرفع ذراعيه إلى السماء ويناشد الله رحمته فيجيء الغيث ، وقد توسل الصحابة بعد وفاة رسول الله ﷺ بعمه العباس ، فدعا حتى نزل المطر . إنه لأحرج أن تقول لمؤمن تحسن به الظن ، ادعُ الله لي أو ادعُ الله معي

٤- التوسل بذات الرسول ﷺ وماله عند الله من مكانة ، وهذا الأمر لم يثبت فيه شيء عن رسول الله ﷺ أو عن أحد من الصحابة .

وإنما هو أمر مبتدع ، وله صيغة عند أهل البدع : بجاء النبي أو بجاء الرسول ، ﷺ وهي صيغة ممنوعة شرعاً ، ولم يقل بها الأئمة الأربعة .

٥- التوسل إلى الله بدعاء المقرين منه من الموتى (المقبورين) ممنوع شرعاً وهو يدور بين الشرك والكبيرة وهذا هو المفروض باتفاق العلماء .

وكم رأينا من أناس يفعلون مثل هذه الأمور عند قبور الأولياء في صورة مزرية سخيفة والاعتذار عن هذا المسلك المنحرف لا يسمع من أحد ، والمفروض أن نعلن غيرتنا على كل مايمسُّ عقيدة التوحيد ، ونبين الصواب الذي ندين الله به .

(١) سورة نوح آية ٢٨ .

(٢) سورة الحشر آية ١٠ .

البحث الخامس :

فهم الإسلام عقيدةً وشرعةً^(١)

فهمنا للإسلام أنه عقيدة تنبثق منها شريعة يقوم عليها نظام حياة يستحيل فيها فصل العقيدة الكامنة في قلب المسلم عن الشريعة التي تحكم حياته ، لأن هذه الشريعة لا تقوم أصلاً على أساس تلك العقيدة التي هي بمثابة جذر الشجرة الطيبة الضارب في أعماق الأرض ، ولذا كان لزاماً علينا أن نبدأ بها واضحة كالشمس في رابعة النهار ، راسخة كالطود الأشم ، عميقة كأعمق ماتكون المياه في عرض البحار ليقام البناء المطلوب بقواعده المتينة ونظامه المرسوم فما أجمله من بناء وما أثبتته من جدار .

ولكي نحقق مانرجو فلاسييل إلا أن نحسن تقديم هذه العقيدة للناس أولاً باعتبارها الأصل كما قدمها القرآن لمستويات مختلفة لأعنى العتاة ، وأفجر الفجار ، وأبسط الناس فهماً ، وأعمقهم فكراً ، للفارسي والرومي ، للحضري والبدوي ، للأمي والمتعلم ، للناس جميعاً أسودهم وأبيضهم ، وأعجمهم لساناً ، وأفصحهم لغة ، بأيسر أسلوب ، وأوضح بيان في عرض عقيدة التوحيد التي جاء بها للناس أجمعين . . . فكيف قدمها لنا رب العالمين من خلال كتابه الكريم؟؟

قبل أن نبدأ معك العرض السلس السهل لهذه العقيدة الصافية أود أن أقول ليس لأحد أن يتقدم أو يتأخر عن نهج رسول الله ﷺ ، في تقديم هذا الإسلام للناس والذي علمه ربه إياه من خلال كتاب لا يأتية الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، إن كان ينشد النهج الأكمل والأمثل والأفضل ، وليس لمسلم أن يقدم بين يدي الله ورسوله - وليس له كذلك أن يرفع صوته فوق صوت النبي مدعياً أن لديه الأسلوب الأمثل للدعوة والمنهاج الأقوم لها ، فمن أحب الله وأحب منهاجه وأراد توفيق الله في كل ما يعمل ليس له إلا أن يطيع الرسول فيما قال أو فعل أو انتهج ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي﴾

(١) منهاج القرآن في عرض عقيدة الإسلام : جمعه أمين عبد العزيز ص ٤١-٤٨ ط دار الدعوة الاسكندرية .

يُخَيِّبُكُمُ اللَّهُ» (١)

فالذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجاً قال لرسولنا ﷺ ﴿بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ
وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢)

فتبيان الذكر للناس من عقيدة وشريعة أوضحه الرسول ﷺ فمن أراد أن يفتح الله له
القلوب حين يقدم عقيدة الإسلام وشريعته للناس مخلصاً ، عليه أن يتبع أسلوب القرآن
ومنهاجه في تقديم هذا الإسلام الذي أخذ به جيل تلقى هذا المنهج للتنفيذ والعمل
للادراسة والمتعة العقلية ، هذا الجيل الذي نعني ، أخذ الإسلام من القرآن عقيدة
وشريعة ، عقيدة تدفعهم لصالح الأعمال ، وتخط لهم معالم الطريق ، وشريعة بمبادئها
العامة ، وأحكامها الفرعية هي منهاج الحياة ، وأخلاق كريمة هي ثمرة هذه العقيدة
الخالصة حتى أصبح هذا الجيل كوكبة يهتدي بها الغادي والرائح وتدله على الطريق
وتهديه سواء السبيل ، فأصحاب الرسول ﷺ كالنجوم يهتدى بها في ظلمات البر
والبحر ، وكيف لا وما جاءهم إلا نور وما أنزل على رسولهم ﷺ إلا كتابٌ مبین :
﴿... قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ ، يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ
وَيُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ (٣)

منهج الرسل في عرض العقيدة :

والبدء بالعقيدة أمر حتمي ، وكان دأب رسل الله الكرام مع أقوامهم ، فلقد بدأوا
بالعقيدة أولاً ليعالجوا بها أوضاعاً خاطئة في مجتمعاتهم وتصورات ضالة في بيئتهم
وسلوك منحرف فيما بينهم ، ترى مصداق ذلك من استقرائك لقصاص الأنبياء ، والرسل
الكرام ، فهم يتفقون جميعاً في هذه البداية ، فما من نبي ولا رسول إلا قال لقومه أول
ما قال ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهِ غَيْرُهُ﴾ ، وكذلك بدأ رسولنا ﷺ البداية ليستقيم الفرع
باستقامة الأصل .

ولقد بذلوا جميعاً - صلوات الله وسلامه عليهم - الجهد وساقوا كثيراً من الدلائل
والبراهين مخاطبين بذلك العقل والقلب معاً للاستدلال على وحدانيته سبحانه ، وتفردة

(١) سورة آل عمران : ٣١ .

(٢) سورة النحل : ٤٤ .

(٣) سورة المائدة : ١٥-١٦ .

بالخلق والأمر ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾^(١) ، والجدير بالذكر أن العرب قبل الإسلام كانوا يعبدون الأصنام والأوثان معتقدين بأنها آلهة تضرهم وتنفعهم ، يقول ابن الكلبي : كان لأهل كل دار من مكة صنم في دارهم يعبدونه ، فإذا أراد أحدهم السفر كان آخر ما يصنع في منزله أن يتمسح به ، وإذا قدم من سفره كان أول ما يفعل إذا دخل منزله أن يتمسح به أيضاً . وكان منهم من يعبد الأجرام السماوية ، لاسيما الشمس والقمر ، ومنهم من كان يعبد الملائكة والجن ، وقليل ما هم أولئك الذين سمو بالدهريين فانكروا الخالق ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ﴾^(٢) فاعترفوا بقوة تهلكهم سموها الدهر .

كما كان منهم من يعتقد بوجود إله واحد سمو «بالحنفاء» ، قيل إنهم كانوا على دين إبراهيم عليه السلام ، والجدير بالذكر أن من أهل مكة من كان يعتقد بوجود إله واحد خلق السموات والأرض ولكن كانوا على الرغم من ذلك مشركين ، يعتقدون أن عبادتهم للأصنام وسيلة تقربهم إلى الله ، وقالوا ﴿مَانِعُهُمْ إِلَّا لِيُقَرَّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ ، ولذلك أوضح الله هذه القضية اتوضيحاً جلياً ، وكان لرسله الكرام - صلوات الله وسلامه عليهم - منهاج في عرض هذه العقيدة فكانوا يعرضونها على الناس عرضاً كله السهولة والبساطة ، فكانوا يلفتون أنظارهم إلى ملكوت السموات والأرض ، ويوقظون عقولهم للتفكير في آيات الله ونظام الكون البديع وينبهون فطرهم إلى ما غرس بها من شعور بالتدين ، وإحساس بعالم ما وراء هذا العالم المادي .

ونود أن نمر مرأً سريعاً على هذا المنهج من خلال استعراضنا لبعض آيات الله ليتبين لنا ثباته ، واستمراره مع رسل الله الكرام وأنبيائه ، فهذا رسول الله نوح عليه السلام يقول لقومه ﴿مَالَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً ، وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَاراً ، أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا ، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا ، وَاللَّهُ أُنَبِّتُكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا ، ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ، وَاللَّهُ جَمَلٌ لَكُمْ الْأَرْضِ بِسَاطًا لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا﴾^(٣) .

وكذلك سلك نبي الله هود عليه السلام مع قومه فقال : ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا

(١) سورة الأعراف : ٥٤ .

(٢) سورة الجاثية : ٢٤ .

(٣) سورة نوح : ١٢-٢٠ .

وَاتَّقُوا الَّذِي أَمَدَّكُمْ بِمَاتِلْمُونَ ، أَمَدَّكُمْ بِأَنْعَامٍ وَبَيْنَ ، وَجَنَاتٍ وَحُيُونَ ، إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١﴾ .

واسمع إلى نبي الله صالح عليه السلام فقال: ﴿ أَتَسْرِكُونَ فِيمَا هَا هُنَا آمَنِينَ ، فِي جَنَاتٍ وَحُيُونَ ، وَزُرُوعٍ وَنَخْلٍ طَلَمَهَا هَظِيمٌ ، وَتُنْحِتُونَ مِنَ الْجِبَالِ يُبُوتًا فَارِهِينَ ، فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا ۖ ﴾ (٢) .

وكذلك فعل شعيب عليه السلام فقال : ﴿ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالْجِبِلَّةَ الْأُولِينَ ﴾ (٣) أما الرسول الأمي إبراهيم عليه السلام فقد .حاج قومه وعرض عليهم حقيقة - الألوهية - كما تتجلى وحيًا من عند الله في ثنايا حوارهِ مع قومه عندما لفتهم إلى مافي الكون من آيات تدل على وحدانيته سبحانه ، واستمع - إن شئت - إلى هذه الصورة الرائعة تحكى لنا في هذا الموقف الجليل ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ أَسْبَحَ أَصْنَامًا آلِهَةً إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ . وَكَذَلِكَ نَرَى إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ . فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَأَحِبُّ الْأَفْلِينَ فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِعًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ لَنُتَّى لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ . فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِعَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ . إِنِّي وَجْهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ، وَحَاجَّهُ قَوْمُهُ قَالَ أَتُحَاجُّونِي فِي اللَّهِ وَقَدْ هَدَانِ وَلَا أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِ إِلَّا أَن يَشَاءَ رَبِّي شَيْئًا وَسِعَ رَبِّي كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ ، وَكَيْفَ أَخَافُ مَا أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُمْ بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ عَلَيْكُمْ سُلْطَانًا فَإِذَا الْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِالْأَمْنِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤) .

فإذا أدركنا درس إبراهيم ثم عشنا مع موسى عليه السلام نجده هو أيضاً يلفت نظر فرعون إلى رب السموات والأرض حين سأله ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ، قَالَ رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ ، قَالَ لِمَنْ حَوْلَهُ أَلَا تَسْتَمِعُونَ ، قَالَ رَبُّكُمْ

(١) سورة الشعراء : ١٣١-١٣٥ .

(٢) سورة الشعراء : ١٤٦-١٥٠ .

(٣) سورة الشعراء : ١٨٤ .

(٤) سورة الأنعام : ٧٤-٨١ .

وَرَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ ، قَالَ إِنَّ رَسُولَكُمْ الَّذِي أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ، قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ
وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُتُمًا تَعْقِلُونَ»^(١) .

أما يوسف عليه السلام فقد استثار العقل المجرد ليعترف بالمنطق السليم الذي يقر
بوحداية الله دون مرء فيقول «يا صاحبي الشجن أرباب متفرقون خير أم الله الواحد
القهار ، ماتعبون من دونه إلا أسماء سميتوها أنتم وآبائكم ما أنزل الله بها من
سلطان ، إن الحكم إلا لله أمر ألا تعبدوا إلا إياه ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس
لا يعلمون»^(٢) .

وهكذا رأينا رسل الله وأنبياءه الكرام ، يستخدمون أسلوباً فريداً ميسراً يعرضونه
بشتى الأساليب ، ومتنوع الوسائل في دأب طويل ، وصبر جميل ، وجهد نبيل كما
علمهم رب العز . ثم تعلمه الاتباع منهم - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين -
فأخذوا هم أيضاً يلفتون الأنظار ، ويفتقون الأفكار ، ويستثيرون العقول لتفكر تفكيراً
سليماً للوصول إلى الحق ، فهذا مؤمن آل فرعون يقول لقومه بأسلوب كله حرص ،
وكله عطف واشفاق «ويا قوم مالي أَدْعُوكُمْ إِلَى النَّجَاةِ وَتَدْعُونَنِي إِلَى النَّارِ ، تَدْعُونَنِي
لَاكْفَرُ بِاللَّهِ وَأَشْرِكُ بِهِ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ ، وَأَنَا أَدْعُوكُمْ إِلَى الْعِزِّزِ الْغَفَّارِ ، لَأَجْرَمَ أَنَّمَا
تَدْعُونَنِي إِلَيْهِ لَيْسَ لَهُ دُعَاةٌ فِي الدُّنْيَا وَلَا فِي الْآخِرَةِ وَأَنْ مَرَدَّنَا إِلَى اللَّهِ وَأَنَّ الْمُسْرِفِينَ هُمْ
أَصْحَابُ النَّارِ فَتَذَكِّرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأَفَوَضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ»^(٣) .

وينفس المنطق كان موقف أخ له ، هو الرجل المؤمن الذي ذكر في سورة يونس
والذي جاء من أقصى المدينة يسعى «قال يا قوم اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ . اتَّبِعُوا مِنْ لَايَسْأَلُكُمْ
أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ ، وَمَالِيَ لَأَعْبُدَ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تَرْجَعُونَ ، أَأَتَّخِذُ مِنْ دُونِهِ آلِهَةً إِنْ
يُرِيدُ الرَّحْمَنُ بَضْرًا لَأَتَّغَيْنَّ حَتَّى شَفَاعَتَهُمْ شَيْئاً وَلَا يُنْقِذُونَ ، إِنِّي إِذَا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ، إِنِّي
آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمِعُونِ»^(٤) .

إنه منطلق الإيمان الذي يخاطب العقول ، ويناجي القلوب ، وينبه الفطر لتصدع
بالحق وتزوب إلى الرشد ، وتنطق بالوحداية ، التي دعا إليه هدهد في مملكة سليمان

(١) سورة الشعراء : ٢٣-٢٨ .

(٢) سورة يوسف : ٣٩-٤٠ .

(٣) سورة غافر : ٤١-٤٤ .

(٤) سورة يس : ٢٠-٢٥ .

عليه السلام ، وأرشد وهو الطائر الإنسان وهو الخليفة إلى مافي الكون من آيات حين تعجب لسجودهم للشمس وقال لسليمان عليه السلام ﴿إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ، وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ، أَلَا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ، اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ (١) .

فليت الإنسان الخليفة يفقه مافقه هذا الهدهد المؤمن !! .

وهكذا كان نهج رسل الله وأنبيائه ، وماكان رسولنا ﷺ بدعا من الرسل فلقد علمه ربُّه كيف يدعو الناس إلى عقيدة التوحيد، ولقد جمع كتاب ربي فأوعى، الأساليب المختلفة والأدلة المتعددة والبيانات الواضحات ، من مخاطبة للظفرة ، إلى مُحَاجَّةٍ للعقول المجردة ، إلى تحذير للبشر جميعاً ، إلى استشارة للقليل وتفكر وتدبر في ملكوت السموات والأرض ، وماخلق الله من شيء ليقيم الحجة على وحدانيته سبحانه .

والجدير بالذكر أن جميع قومه كانوا يعبدون أصناماً آلهة ، ويعترفون بوجود الربِّ سبحانه وتعالى ، ولقد أثبت القرآن لهم ذلك في آياتٍ شتى منها قوله تعالى ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ، قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ ، قُلْ مَنْ يَدْرِي مَا يَكُونُ كُلُّ شَيْءٍ وَهُوَ يُجِيرُ وَلَا يُجَارُ عَلَيْهِ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ، سَيَقُولُونَ لِلَّهِ قُلْ فَأَنَّى تُسْحَرُونَ ، بَلْ أَتَيْنَاهُم بِالْحَقِّ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ، مَا اتَّخَذَ اللَّهُ مِنْ وَلَدٍ وَمَا كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَهٍ ، إِذْنُ لَهُمْ كُلُّ إِلَهٍ بِمَا خَلَقُوا وَلَعَلَّ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ سِبْحَانُ اللَّهِ عَمَّا يُصِفُونَ ، خَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (٢) .

جدالٌ يكشف عن مدى اضطراب القوم الذي لا يستند إلى منطق ، ولا يرتكن إلى عقل ويكشف عن مدى الفساد الذي كانت عقائد المشركين قد وصلت إليه في الجزيرة عند مولد الإسلام ، لدرجة أنك إن سألتهم من خلق السموات والأرض؟ يقولون الله ، ولئن سألتهم من خلقهم؟ يقولون الله ، فما لهؤلاء القوم لا يكادون يفقهون حديثاً .

(١) سورة النمل: ٢٣-٢٦ .

(٢) سورة المؤمنون: ٨٤-٩٢ .

قضية الإنسان :

لهذا كله بدأ رسول الله ﷺ مع الإنسان يصحح له تصورات ، ويوضح له اعتقاده الحق بغرس العقيدة في النفوس لافتاً الأنظار ، وموجهاً الأفكار ، وموقظاً العقول ، ومُنْبِهاً الفطر ، ومتعهداً هذا الغرس بالتربية والتنمية ، حتى بلغ الغاية من النجاح واستطاع أن ينقل الأمة من الوثنية والشرك إلى عقيدة التوحيد ويملا قلبها بالإيمان واليقين ، كما استطاع أن يجعل من أصحابه قادة في الإصلاح وأئمة في الخير ، وأن يكون جيلاً يعتز بالإيمان ، ويعتصم بالحق ، فكان هذا الجيل كالشمس للدنيا ، والعافية للناس ، وقد شهد الله لهذا الجيل بالتفوق والامتياز فقال : ﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ ﴾ (١) .

ولاشك أن قضية الإنسان هي قضية العقيدة ، وقضية الألوهية ، وقضية العبودية ، وقضية وجوده ومصيره ، وعلاقته بهذا الكون ، وبهؤلاء الأحياء ، ويخالق هذا الكون وهذه الأحياء ، ولما كان الإسلام الدِّينُ الخاتَمُ الذي أتمَّ الله به النعمة ، لذا جاء القرآن وهو خاتم الكتب أيضاً يُفسَّرُ هذا كله لهذا الإنسان ، كأن يقول له من هو؟ . . . ومن أين جاء ، وكيف جاء ، وإلى أين يذهب ، وما هذا الوجود ، ومن أنشأه؟ . . . وكيف يتعامل مع الإنسان والكون والخالق؟ . . . من خلال عرض القرآن لهذه العقيدة الصافية ، التي يريد المولى من عباده ، مركزاً على حقائق أساسية أيدها بالبراهين والأدلة ، والشواهد على وجودها ، ودعا للإيمان بها بعد التفكير والتدبر ليصل بهم إلى تصور كامل ، واعتقاد سليم ، ليستقيم الأصل إذ باستقامته تستقيم الفروع ، فيتحقق بذلك صحة الاعتقاد ، وكمال التصور الإسلامي .

هذه الحقائق الأساسية هي :

- ١- الإيمان بالغيب وأن الله هو خالق هذا الوجود «الكون - الإنسان - الحياة» .
 - ٢- أن مصدر معرفتنا لهذا نبوة أمينة ، ووحى صادق يخبرنا بما أذن الله لنا معرفته من عالم الغيب والشهادة .
 - ٣- أن هناك يوم لاريب فيه بعد هذه الحياة هو يوم الفصل يكون للإنسان فيه مصيره النهائي .
- للقرآن منهج فريد ، مؤثر متكامل في عرض هذه العقيدة - عقيدة التوحيد -

خطر ضلالات القراءة المعاصرة في كتاب «محمد شحرور» المزعوم بـ «الكتاب والقرآن».

إن خطر هذه الضلالات الواردة في كتاب هذا المزعوم يكمن في الأسلوب الجدلي السفسطائي القائم على المغالطة وإرغام القارئ على التسليم لها أو إرباكه فيها لكثرة ذكر الآيات القرآنية عند طرح المغالطة.

وهنا سنكتفي بذكر عبارات وردت فيه في حق الله تعالى وحق القرآن لبيان خطورة هذا الكتاب المزعوم على عقيدة المسلمين خاصة والناس عامة.

ففي ص ٧٢ يزعم: «أن الله تعالى أحادي في الكيف.. وواحد في الكم..» وتعالى الله عن هذا الوصف المصطنع والمختلق. وكما يقول في ص ٧١ أيضاً: «إن الله ليس عريباً ولا انكليزياً..». ويقول في ص ٥٨: «إن الله مطلق ومعلوماته مطلقة» وهذه العبارة هي أقرب الأسفاف منها إلى الإجلال، كما يزعم فيها أيضاً: «والله ليس بحاجة إلى أن يُعَلِّم نفسه أو يهدي نفسه» وكأنه بهذا الكلام يصوّر الرب مخلوقاً راقياً من البشر، والعياذ بالله تعالى من الجهل بأسمائه وصفاته ومن الإخلال بتعظيمه وتمجيده وتنزيهه سبحانه وتعالى.

كما يزعم في ص ٧٨: «أن كلمات الله هي عين الموجودات ونواميسها العامة والخاصة..» ويزعم في ص ٧٤: «أن كلمات الله هي الموجودات أي الأشياء..» فتارة يجعلها نواميس عامة وخاصة، وتارة يجعلها أشياء، وهو غير عارف بكلام الله تعالى ولا فاهم لمعنى أوامره التي يخلق بها، فهو لا يُمَيِّز بين كلام الله الشرعي الذي هو الوحي المنزّل على الأنبياء، وبين كلامه الكوني الذي يخلق به ويوجد به الأشياء التي يريدها ويقدّرها سبحانه.

وأما كلامه عن القرآن العظيم ففيه من الطامات والضلالات مالا يُرضي به غير إبليس وصنائعه من المستشرقين والملحدّين، وأعوانه من الضالّين، فيزعم في ص ٩١: «أن القرآن كتاب الوجود المادي والتاريخي، لذا فإنّه لا يحتوي على الأخلاق ولا التقوى..»

وهو يسعى بهذا الكلام الجائر إلى اعتبار القرآن من كتب الوجود المادي

والتاريخي، ليسلخه عن أصله القيادي في العقيدة والتشريع والتوجيه فيزعم هذا الزعم الكاذب أنه لا يحتوي على الأخلاق ولا التقوى ١٩

فأي جُرأة بلغت به حتى يفترى هذا الافتراء...!!

وهذا الكاتب المجادل الكاذب يخرج عن منهج الأمة في علومها وثقافتها، وهذا ما أفصح به عن نفسه فيقول في ص ٩١: «إننا في القرآن والسبع المثاني غير مقيدين بأي شيء قاله السلف» ٢١١.

ويزعم هذا الأفاك الأثيم أن «الصلاة والصوم» ليسا من قول الله الحق كما في ص ٧٨. وفي ص ٨٠ يزعم أن «صيغة ﴿قل هو الله أحد﴾ ليست قرآنية...» وفي ص ٣٧: «أن آية الإرث ليست من القرآن...» وفي ص ٥٨ يزعم أن «في الكتاب توجد الآيات المحكمات «آيات الرسالة» وهي ليست حقاً...».

كما يزعم أن القرآن جاء من «قَرَن» وذلك في ص ٨٠ «إن القرآن جاء من «قَرَن» وهو من جمع الجزء الثابت من قوانين الكون الموجود في اللوح المحفوظ مع الجزء المتغير الموجود في الإمام المبين...» إلى غير ذلك من جهالاته وضلالاته الجدلية الخبيثة.

أمثال القرآن^(١)

الحقائق السامية في معانيها وأهدافها تأخذ صورتها الرائعة إذا صيغت في قالب حسي يقربها إلى الأفهام بقياسها على المعلوم اليقيني، والتمثيل هو القالب الذي يبرز المعاني في صورة حية تستقر في الأذهان، بتشبيه الغائب بالحاضر، والمعقول بالمحسوس. وقياس النظر على النظر، وكم من معنى جميل أكسبه التمثيل روعة وجمالاً، فكان ذلك أدعى لتقبل النفس له، واقتناع العقل به، وهو من أساليب القرآن الكريم في ضروب بيانه ونواحي إعجازه.

ومن العلماء من أفرد الأمثال في القرآن بالتأليف، ومنهم من عقد لها باباً في كتاب من كتبه، فأفرداها بالتأليف أبو الحسن الماوردي^(٢)، وعقد لها باباً السيوطي في الاتقان^(٣) وابن القيم في كتاب أعلام الموقعين. حيث تتبع أمثال القرآن التي تضمنت تشبيه الشيء بنظيره، والتسوية بينهما في الحكم - فبلغت بضعة وأربعين مثلاً.

وذكر الله في كتابه العزيز أنه يضرب الأمثال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٤). ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾^(٥)، ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٦) وعن علي رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن الله أنزل القرآن أمراً وزاجراً وسنة خالية، ومثلاً مضروباً»^(٧).

(١) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان ص ٣١٧-٣٢٧ ط دار المريخ الرياض.

(٢) هو أبو الحسن علي بن حبيب الشافعي، صاحب كتاب «أدب الدنيا والدين» وكتاب «الأحكام السلطانية» توفي سنة ٤٥٠ هجرية.

(٣) انظر «الاتقان» ص ١٣١ ج ٢.

(٤) الحشر: ٢١.

(٥) العنكبوت: ٤٣.

(٦) الزمر: ٢٧.

(٧) رواه الترمذي.

وكما عنى العلماء بأمثال القرآن فإنهم عنوا كذلك بالأمثال النبوية. وعقد لها أبو عيسى الترمذي باباً في جامعه أورد فيه أربعين حديثاً. وقال القاضي أبو بكر بن العربي: «لم أر من أهل الحديث من صنف فأفرد للأمثال باباً غير أبي عيسى، والله دره، لقد فتح باباً، وبنى قصراً أو داراً، ولكنه اختط خطأ صغيراً. فنحن نقنع به، ونشكره عليه».

تعريف المثل

والأمثال: جمع مثل، والمثل والمثل^(١) والمثيل: كالشبه والشبه والشبيه لفظاً ومعنى.

والمثل في الأدب: قول محكي سائر يقصد به تشبيه حال الذي حكى فيه بحال الذي قيل لأجله، أي يشبه مضربه بمورده، مثل «رب رمية من غير رام» أي رب رمية مصيبة حصلت من رام شأنه أن يخطيء، وأول من قال هذا الحكم بن يغوث النخري، يضرب للمخطيء يصيب أحياناً، وعلى هذا فلا بد له من مورد يشبه مضربه به.

ويطلق المثل على الحال والقصة العجيبة الشأن. وبهذا المعنى فسر لفظ المثل في كثير من الآيات. كقوله تعالى: «مَثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعدَ الْمُتَّقُونَ. فِيهَا أَنْهَارٌ مِنْ مَاءٍ غَيْرِ آسِنٍ»^(٢): أي قصتها وصفتها التي يتعجب منها.

وأشار الزمخشري إلى هذه المعاني الثلاثة في كشافه فقال: «والمثل في أصل كلامهم بمعنى المثل والنظير، ثم قيل للقول السائر الممثل مضربه بمورده مثل، ولم يضربوا مثلاً ولا رأوه أهلاً للتفسير ولا جديراً بالتداول والقبول إلا قولاً فيه غرابة من بعض الوجوه». ثم قال: «وقد أستعير المثل للحال أو الصفة أو القصة إذا كان لها شأن وفيها غرابة».

وهناك معنى رابع ذهب إليه علماء البيان في تعريف المثل فهو عندهم: المجاز المركب الذي تكون علاقته المشابهة متى فشا استعماله. وأصله الاستعارة التمثيلية. كقولك للمتروك في فعل أمر: «مالي أراك تقدم رجلاً وتؤخر أخرى». قيل في ضابط المثل كذلك: أنه إبراز المعنى في صورة حسية تكسبه روعة.

(١) المثل والمثل: الأولى يفتح الميم والثانية بكسرهما.

(٢) انظر «بلاغة القرآن» للأستاذ محمد الخضر حسين ص ٢٦ - (والآية من سورة محمد: ١٥).

وجمالاً. والمثل بهذا المعنى لا يشترط أن يكون له مورد، كما لا يشترط أن يكون مجازاً مركباً.

وإذا نظرنا إلى أمثال القرآن التي يذكرها المؤلفون وجدنا أنهم يوردون الآيات المشتملة على تمثيل حال أمر بحال أمر، سواء أورد هذا التمثيل بطريق الإستعارة، أم بطريق التشبيه الصريح؟ أو الآيات الدالة على معنى رائع بإيجاز، أو التي يصح استعمالها فيما يشبه ماوردت فيه، فإن الله تعالى ابتدأها دون أن يكون لها مورد من قبل.

فأمثال القرآن لا يستقيم حملها على أصل المعنى اللغوي الذي هو التشبيه والنظري، ولا يستقيم حملها على ما يذكر في كتب اللغة لدى من ألفوا في الأمثال، إذ ليست أمثال القرآن أقوالاً استعملت على وجه تشبيه مضربها بموردها، ولا يستقيم حملها على معنى الأمثال عند علماء البيان فمن أمثال القرآن ما ليس باستعارة ومالم يفش استعماله. ولذا كان الضابط الأخير أليق بتعريف المثل في القرآن: فهو إبراز المعنى في صورة رائعة موجزة لها وقعها في النفس، سواء كانت تشبيهاً أو قولاً مرسلًا.

فابن القيم يقول في أمثال القرآن: تشبيه شيء بشيء في حكمه، وتقريب المعقول من المحسوس، أو أحد المحسوسين من الآخر واعتبار أحدهما بالآخر. ويسوق الأمثلة: فنجد أكثرها على طريقة التشبيه الصريح كقوله تعالى ﴿إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَزْلَاقُهُ مِنْ السَّمَاءِ﴾^(١) ومنها ما يجيء على طريقة التشبيه الضمني، كقوله تعالى ﴿وَلَا يَنْتَبِ بِمَعْصُكُم مَعْصُا، أَيَحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾^(٢) ! إذ ليس فيه تشبيه صريح. ومنها ما لم يشتمل على تشبيه ولا استعارة، كقوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ، إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ، وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَفِئُوهُ مِنْهُ، ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾^(٣) فقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا﴾ قد سماه الله مثلاً وليس فيه استعارة ولا تشبيه.

(١) يونس: ٢٤.

(٢) الحجرات: ١٢.

(٣) الحج: ٧٣.

أنواع الأمثال في القرآن

الأمثال في القرآن ثلاثة أنواع:

١- الأمثال المصراحة .

٢- الأمثال الكامنة .

٣- والأمثال المرسلة .

النوع الأول: - الأمثال المصراحة: - وهي ما صرح فيها بلفظ المثل، أو ما يدل على

التشبيه. وهي كثيرة في القرآن نورد منها ما يأتي:

(أ) قوله تعالى في حق المنافقين ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ
مَاحَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِي ظِلْمَاتٍ لَا يَبْصُرُونَ. صُمُّ بُكْمٌ عُمي فهم
لا يرجعون. أو كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظِلْمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾^(١) إلى قوله ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى
كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٢).

ففي هذه الآيات ضرب الله للمنافقين مثلين: مثلاً نارياً في قوله: ﴿كَمَثَلِ الَّذِي
اسْتَوْقَدَ نَاراً...﴾ لما في النار من مادة النور، ومثلاً مائياً في قوله: ﴿أو كَصَيِّبٍ مِنَ
السَّمَاءِ...﴾ لما في الماء من مادة الحياة، وقد نزل الوحي من السماء متضمناً
لاستتارة القلوب وحياتها. وذكر الله حظ المنافقين في الحالين. فهم بمنزلة من استوقد
ناراً للإضاءة والنفخ حيث انتفعوا مادياً بالدخول في الإسلام، ولكن لم يكن له أثر في
قلوبهم، فذهب الله بما في النار من الإضاءة ﴿ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ﴾ وأبقى ما فيها من
الإحراق، وهذا مثلهم الناري.

وذكر مثلهم المائي فشبههم بحال من أصابه مطر فيه ظلمة ورعد وبرق فخارت قواه
ووضع إصبعيه في أذنيه وغمض عينيه خوفاً من صاعقة تصيبه، لأن القرآن بزواجه
وأوامره ونواهيه وخطابه نزل عليهم نزول الصواعق.

(ب) وذكر الله المثلين: المائي والناري - في سورة الرعد للحق والباطل. فقال
تعالى ﴿أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَابِيًا، وَمِمَّا

(١) البقرة: ١٧-١٩.

(٢) البقرة: ٢٠.

يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حُلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِثْلَهُ، كذلك يضربُ الله الحقَّ والباطل، فأما الزَّبَدُ فيذهبُ جَفَاءً، وأما ما يَنْفَعُ النَّاسَ فيمكثُ في الأرض، كذلك يضربُ الله الأمثالَ ﴿١﴾.

شبه الوحي الذي أنزله من السماء لحياة القلوب بالماء الذي أنزله لحياة الأرض بالنبات، وشبه القلوب بالأودية، والسيل إذا جرى في الأودية احتلماً زبداً وغثاءً، فذلك الهدى والعلم إذا سرى في القلوب أثار مافيها من الشهوات ليذهب بها، وهذا هو المثل المائي في قوله ﴿أنزل من السماء ماء...﴾ وهكذا يضرب الله الحق والباطل.

وذكر المثل الناري في قوله ﴿ومما يوقدون عليه في النار...﴾ فالمعادن من ذهب أو فضة أو نحاس أو حديد عند سبكها تخرج النار مافيها من الخبث وتفصله عن الجوهر الذي يتنفع به فيذهب جفاءً. فذلك الشهوات يطرحها قلب المؤمن ويجفوها كما يطرح السيل والنار ذلك الزبد وهذا الخبث.

النوع الثاني من الأمثال: الأمثال الكامنة - وهي التي لم يصرح فيها بلفظ التمثيل، ولكنها تدل على معاني رائعة في إيجاز، يكون لها وقعها إذا نقلت إلى ما يشبهها، ويمثلون لهذا النوع بأمثلة منها:

١- مافي معنى قولهم (خيرُ الأمورِ الوسط):

(أ) قوله تعالى في البقرة ﴿لَا فَاْرِضْ وَلَا يَكْرَهُوا بَيْنَ ذَلِكَ﴾ ﴿٢﴾.

(ب) قوله تعالى في النفقة ﴿وَالَّذِينَ إِذَا أَنْفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾ ﴿٣﴾.

(ج) قوله تعالى في الصلاة ﴿وَلَا تَجْهَرُ بِصَلَاتِكَ وَلَا تُخَافِتُ بِهَا وَابْتَغِ بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا﴾ ﴿٤﴾.

(د) قوله تعالى في الإنفاق ﴿وَلَا تَجْمَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ﴾ ﴿٥﴾.

(١) الرعد: ١٧.

(٢) البقرة: ٦٨.

(٣) الفرقان: ٦٧.

(٤) الإسراء: ١١٠.

(٥) الإسراء: ٢٩.

٢- مافي معنى قولهم (ليسَ الخبرُ كالمعاينة):
قوله تعالى في إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ أَوْ لَمْ تُؤْمِنْ، قَالَ بَلَىٰ وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾^(١).

٣- مافي معنى قولهم (كما تدينُ تُدان):
قوله تعالى: ﴿مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ﴾^(٢).
مافي معنى (لا يلدغُ المؤمنُ من حُجْرٍ مرتين):
قوله تعالى على لسان يعقوب ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمْسَكُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِنْ قَبْلُ﴾^(٣).
النوع الثالث: الأمثال المرسلة في القرآن: وهي جمل أرسلت إرسالاً من غير تصريح بلفظ التشبيه. فهي آيات جارية مجرى الأمثال.

ومن أمثلة ذلك ما يأتي:

- ١- «الآنَ حَصْحَصَ الْحَقُّ»^(٤).
- ٢- «لَيْسَ لَهَا مِنْ دُونِ اللَّهِ كَاشِفَةٌ»^(٥).
- ٣- «قُضِيَ الْأَمْرُ الَّذِي فِيهِ تَسْتَفِيانَ»^(٦).
- ٤- «الَيْسَ الصَّبْحُ بِقَرِيبٍ»^(٧).
- ٥- «لِكُلِّ نَبَأٍ مَسْتَقَرٌّ»^(٨).
- ٦- «وَلَا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ»^(٩).

(١) البقرة: ٢٦٠.

(٢) النساء: ١٢٣.

(٣) يوسف: ٦٤.

(٤) يوسف: ٥١.

(٥) النجم: ٥٨.

(٦) يوسف: ٤١.

(٧) هود: ٨١.

(٨) الأنعام: ٦٧.

(٩) فاطر: ٤٣.

- ٧- «قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ» (١) .
 ٨- «وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئاً وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ» (٢) .
 ٩- «كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ» (٣) .
 ١٠- «هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ» (٤) .
 ١١- «كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ» (٥) .
 ١٢- «ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ» (٦) .
 ١٣- «الْمَثَلُ هَذَا فَلْيَعْمَلِ الْعَامِلُونَ» (٧) .
 ١٤- «لَا يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ» (٨) .
 ١٥- «كَمْ مِنْ فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِتْنَةٌ كَثِيرَةٌ بِإِذْنِ اللَّهِ» (٩) .
 ١٦- «تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى» (١٠) .

واختلفوا في هذا النوع من الآيات الذي يسمونه إرسال المثل ، ماحكم استعماله
 الأمثال؟

فرآه بعض أهل العلم خروجاً عن أدب القرآن، قال الرازي في تفسير قوله تعالى ﴿لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِي﴾ (١١) «جرت عادة الناس بأن يتمثلوا بهذه الآية عند المشاركة، وذلك غير جائز، لأنه تعالى ما أنزل القرآن ليتمثل به، بل يتدبر فيه، ثم يعمل بموجبه» .

(١) الإسراء: ٨٤.

(٢) البقرة: ٢١٦.

(٣) المدثر: ٣٨.

(٤) الرحمن: ٦٠.

(٥) المؤمنون: ٥٣.

(٦) الحج: ٧٣.

(٧) الصافات: ٦١.

(٨) المائدة: ١٠٠.

(٩) البقرة: ٢٤٩.

(١٠) الحشر: ١٤.

(١١) الكافرون: ٦.

ورأى آخرون أنه لاجرح فيما يظهر أن يتمثل الرجل بالقرآن في مقام الجد، كأن يأسف أسفاً شديداً لتزول كارثة قد تقطعت أسباب كشفها عن الناس فيقول: ﴿ليس لها من دون الله كاشفة﴾^(١) أو يحاوره صاحب مذهب فاسد يحاول استهواؤه إلى باطله فيقول: ﴿لكم دينكم ولي دين﴾ والاثم الكبير في أن يقصد الرجل إلى التظاهر بالبراعة فيتمثل بالقرآن حتى في مقام الهزل والمزاح^(٢).

فوائد الأمثال

١- الأمثال تبرز المعقول في صورة المحسوس الذي يلمسه الناس، فيقبله العقل لأن المعاني المعقولة لا تستقر في الذهن إلا إذا صيغت في صورة حسية قريبة الفهم، كما ضرب الله مثلاً لحال المنفق رياء، حيث لا يحصل من إنفاقه على شيء من الثواب، فقال تعالى: ﴿فمثلُه كمثلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابُهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا، لَا يَقْدِرُونَ عَلَى شَيْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا﴾^(٣).

٢- وتكشف الأمثال عن الحقائق، وتعرض الغائب في معرض الحاضر كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾^(٤).

٣- وتجمع الأمثال المعنى الرائع في عبارة موجزة كالأمثال الكامنة والأمثال المرسلة في الآيات الأنفة الذكر.

٤- ويضرب المثل للترغيب في الممثل حيث يكون الممثل به مما ترغب فيه النفوس، كما ضرب الله مثلاً لحال المنفق في سبيل الله حيث يعود عليه الانفاق بخير كثير، فقال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أُنْبِتَتْ سَبْعَ سَبَائِلَ فِي كُلِّ سَبِيلَةٍ مِائَةٌ حَبَّةٌ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ، وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(٥).

٥- ويضرب المثل للتنفير حيث يكون الممثل به مما تكرهه النفوس، كقوله تعالى في

(١) النجم: ٥٨.

(٢) بلاغة القرآن ص ٢٣.

(٣) البقرة: ٣٦٤.

(٤) البقرة: ٢٧٥.

(٥) البقرة: ٢٦١.

النهي عن الغيبة ﴿وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم مِّبْعَاضًا﴾، أَيْحَبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ^(١).

٦- ويضرب المثل لمدح الممثل كقوله تعالى في الصحابة ﴿ذَلِكَ مِثْلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾، ومثلهم في الإنجيل كزرعٍ أُخْرِجَ شَطَأُهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سَوَاقِهِ يُعْجِبُ الزَّرَّاعَ لِيْفِظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ^(٢). وكذلك حال الصحابة فإنهم كانوا في بدء الأمر قليلاً، ثم أخذوا في النمو حتى استحکم أمرهم. وامتلات القلوب إعجاباً بعظمتهم.

٧- ويضرب المثل حيث يكون للممثل به صفة يستقبحها الناس، كما ضرب الله مثلاً لحال من آتاه الله كتابه، فتنبك الطريق عن العمل به، وانحدر في الدنيا منغمساً. فقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُمْ عَلَىٰ نَبَأٍ الَّذِي آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسِلَخْ مِنْهَا فَأَتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾، ولو شتتاً لرفعناه بها ولكنك أخلد إلى الأرضِ وَاتَّبَعَ هَوَاهُ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ الْكَلْبِ إِنْ تَحْمِلْ عَلَيْهِ يَلْهَثْ أَوْ تَتْرَكْهُ يَلْهَثُ ذَلِكَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَبُوا بِآيَاتِنَا^(٣).

٨- والأمثال أوقع في النفس، وأبلغ في الوعظ، وأقوى في الزجر، وأقوم في الإقناع، وقد أكثر الله تعالى الأمثال في القرآن للتذكرة والعبرة، قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾^(٤) وقال: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالَمُونَ﴾^(٥) وضربها النبي ﷺ في حديثه، واستعان بها الداعون إلى الله في كل عصر لنصرة الحق وإقامة الحجة، ويستعين بها المربون ويتخذونها من وسائل الإيضاح والتشويق، ووسائل التربية في الترغيب أو التنفير، في المدح أو الذم.

ضرب الأمثال بالقرآن:

جرت عادة أهل الأدب أن يسوقوا الأمثلة في مواطن تشبه الأحوال التي قيلت فيها، وإذا صح هذا في أقوال الناس التي جرت مجرى المثل، فإن العلماء يكرهون ضرب الأمثال بالقرآن، ولا يرون أن يتلو الإنسان آية من آيات المثل في كتاب الله عند شيء يعرض

(١) الحجرات: ١٢.

(٢) الفتح: ٢٩.

(٣) الأعراف: ١٧٥-١٧٦.

(٤) الزمر: ٣٧.

(٥) المنكيات: ٤٣.

من أمور الدنيا، حفاظاً على روعة القرآن، ومكانته في نفوس المؤمنين قال أبو عبيد: «وكذلك الرجل يريد لقاء صاحبه أو يهيم بحاجته، فيأتيه من غير طلب فيقول كالمزح ﴿جئتَ على قَدَرٍ يا موسى﴾»^(١). فهذا من الاستخفاف بالقرآن، ومنه قول ابن شهاب الزهري: لا تناظر بكتاب الله ولا بسنة رسول الله ﷺ، قال أبو عبيد: يقول لا تجعل لهما نظيراً من القول ولا الفعل.

وقد خرج عن هذه القاعدة الجليلة صاحب القراءة المعاصرة فيما أسماه بـ «الكتاب والقرآن» فأتى تحت هذا العنوان بكل عجيب وغريب في التَقَوُّل المفتعل حول القرآن الكريم، بل وصل به التجرؤ على القرآن أن يستخف به ويضرب له الأمثال الممَّجوجة عقلاً والممقوتة ذوقاً، فمثلاً انظر إليه كيف يضرب المثل لقول الله تعالى: ﴿لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله وتلك الأمثال نضربها للناس ولعلهم يتفكرون﴾ [سورة الحشر (١)] فيقول [خشيته الله] في ص ١٧٣: «ولو قال: لو نزلنا هذا القرآن على جبل، فهذا يعني أنه وضع القرآن مادياً على الجبل «كتاباً منشوخاً في قرطاس» وينطبق على الجبل قوله تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَاراً [الجمعة/ ٥] فعندما يحمل الحمار أسفاراً «كتباً في قرطاس» فيها معلومات لا يفهمها يبقى حماراً، أما إذا فهمها ودخلت ضمن مدركاته فلن يبقى حماراً. وكذلك الجبل إذا جاءه القرآن واستوعبه أصبح عالماً «الإنزال» وإذا جاءه مادياً ولم يستوعبه يبقى جبلاً كما هو تنزيل فقط...» بهذا الإسفاف الفكري يضرب المثل لكلام الله تعالى في آيات أمثاله الحكيمة الكريمة.. ثم يتساءل تساؤل الجاهل الأحق: «هل فهم السلف الإنزالَ والتَّزِيلَ بهذا الفهم؟ الجواب: لو فهموه هكذا لكان الأمر عجباً ولكانت النتائج أعجب...» هكذا يهزي بهذا الهراء وهو يظن أن أوامره الهابطة نظرياتٍ عصريةٍ ينبغي أن تحملها عنه الأمة بعد أن تتخلّى عن كل ما في الإسلام من علوم وحقائق؟!..

أقسام القرآن^(١)

يختلف الاستعداد النفسي عند الفرد في تقبله للحق وانقياده لنوره، فالنفس الصافية التي لم تتدنس فطرتها بالرجس تستجيب للهدى، وتفتح قلبها لإشعاعه، ويكفيها في الانصياع إليه اللمحة والإشارة. أما النفس التي رانت عليها سحابة الجهل، وغشيتها ظلمة الباطل فلا يهتز قلبها إلا بمطارق الزجر، وصيغ التأكيد، حتى يتزعزع نكيرها. والقسم في الخطاب من أساليب التأكيد التي يتخللها البرهان المفحم، والاستدراج بالخصم إلى الاعتراف بما يجحد.

تعريف القسم وصيغته^(٢)

والأقسام: جمع قسم: بفتح السين، بمعنى الحلف واليمين، والصيغة الأصلية للقسم أن يؤتى بالفعل أقسم أو أحلف متعدياً بالباء إلى المقسم به. ثم يأتي المقسم عليه، وهو المسمى بجواب القسم، كقوله تعالى: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ إِيْمَانِهِمْ لَا يَمِثُّ اللَّهُ مَنْ يَمُوتُ»^(٣).

فأجزاء صيغة القسم ثلاثة:

١- الفعل الذي يتعدى بالباء.

٢- والمقسم به.

٣- والمقسم عليه.

ولما كان القسم يكثر في الكلام اختصر فصار فعل القسم يحذف ويكتفى بالباء^(٤) ثم

(١) افرد هذا الفصل بالبحث العلامة ابن القيم في كتابه «أقسام القرآن»، المسمى بالتيان وهو كتاب فريد في بابه اختصرنا منه هذا البحث.

(٢) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان / ٣٢٩-٣٣٨ ط دار المريخ - الرياض.

(٣) النحل: ٣٨.

(٤) والباء لم ترد في القرآن إلا مع فعل القسم. كقوله تعالى: «وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ إِيْمَانِهِمْ» (النور: ٥٣).

عوض عن الباء بالواو في الأسماء الظاهرة كقوله تعالى: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى﴾^(١) وبالتاء في لفظ الجلالة كقوله: ﴿وَتَاللَّهِ لَا يَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾^(٢) وهذا قليل، أما الواو فكثيرة.

والقسم واليمين واحد: ويعرف بأنه: ربط النفس، بالامتناع عن شيء أو الإقدام عليه، بمعنى معظم عند الحالف حقيقة أو اعتقاداً. وسُمي الحلفُ يميناً لأن العرب كان أحدهم يأخذ يمين صاحبه عند التحالف.

فائدة القسم في القرآن

تمتاز اللغة العربية بدقة التعبير واختلاف الأساليب بتنوع الأغراض، وللمخاطب حالات مختلفة هي المسماة في المعاني بأضرب الخبر الثلاثة: الابتدائي، والطلبي، والإنكاري.

فقد يكون المخاطب خالي الذهن من الحكم فيلقي إليه الكلام غفلاً من التأكيد، ويسمى هذا الضرب ابتدائياً.

وقد يكون متردداً في ثبوت الحكم وعدمه، فيحسن تقوية الحكم له بمؤكد ليزيل تردده، ويسمى هذا الضرب طليياً.

وقد يكون منكراً للحكم، فيجب أن يؤكد له الكلام بقدر إنكاره قوة وضعفاً، ويسمى هذا الضرب إنكارياً.

والقسم من المؤكدات المشهورة التي تمكن الشيء في النفس وتقويه، وقد نزل القرآن الكريم للناس كافة، ووقف الناس منه مواقف متباينة، فمنهم الشاك، ومنهم المنكر، ومنهم الخصم الألد. فالقسم في كلام الله يزيل الشكوك، ويحبط الشبهات، ويقيم الحجة، ويؤكد الأخبار، ويقرر الحكم في أكمل صورة.

المقسم به في القرآن

يقسم الله تعالى بنفسه المقدسة الموصوفة بصفاته، أو بآياته المستلزمة لذاته وصفاته، وأقسامه ببعض مخلوقاته دليل على أنه من عظيم آياته.

وقد أقسم الله تعالى بنفسه في القرآن في سبعة مواضع:

(١) الليل: ١.

(٢) الأنبياء: ٥٧.

- ١- في قوله: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنْ لَنْ يُغْنُوا قُلَّ بِلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعِنَّ﴾^(١).
- ٢- وقوله: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَأْتِنَا السَّاعَةُ، قُلْ بِلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ﴾^(٢).
- ٣- وقوله: ﴿وَيَسْتَبِذُّونَكَ أَهَقُّ هُوَ. قُلْ أَيُّ وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقُّ﴾^(٣).
وفي هذه الثلاثة أمر الله نبيه ﷺ أن يقسم به.
- ٤- وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُم وَالشَّيَاطِينَ﴾^(٤).
- ٥- وقوله: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ﴾^(٥).
- ٦- وقوله: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾^(٦).
- ٧- وقوله: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ﴾^(٧).

وسائر القسم في القرآن بمخلوقاته سبحانه، كقوله: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا، وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاهَا﴾^(٨)، وقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰ، وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّىٰ، وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَىٰ﴾^(٩). وقوله: ﴿وَالْفَجْرِ. وَلَيَالٍ عَشْرٍ﴾^(١٠) وقوله: ﴿فَلَا أَقْسَمُ بِالْخُنُوسِ﴾^(١١). وقوله: ﴿وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ. وَطُورِ سِينٍ﴾^(١٢) وهذا هو الكثير في القرآن.

والله أن يحلف بما شاء، أما حلف العباد بغير الله فهو ضرب من الشرك، فعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «من حلف بغير الله فقد كفر - أم أشرك»^(١٣). وإنما أقسم الله بمخلوقاته لأنها تدل على بارئها، وهو الله تعالى، وللإشارة

(١) التغابن: ٧.

(٢) سبأ: ٣.

(٣) يونس: ٥٣.

(٤) مريم: ٦٨.

(٥) الحجر: ٩٢.

(٦) النساء: ٦٥.

(٧) المعارج: ٤٠.

(٨) الشمس: ٢، ١.

(٩) الليل: ١-٣.

(١٠) الفجر: ١، ٢.

(١١) التكويد: ١٥.

(١٢) التين: ١، ٢.

(١٣) رواه الترمذي وحسنه، وصححه الحاكم.

إلى فضيلتها ومنفعتيها ليعتبر الناس بها. وعن الحسن قال: «إن الله يقسم بما شاء من خلقه وليس لأحد أن يقسم إلا بالله»^(١).

أنواع القسم

القسم إما ظاهر، وإما مضمّر.

١- فالظاهر: - هو ما صرّح فيه بفعل القسم، وصرّح فيه بالمقسم به.

ومنه ما حذف فيه فعل القسم كما هو الغالب اكتفاءً بالجار من الباء أو الواو أو التاء.

وقد أدخلت - (لا) - النافية على فعل القسم في بعض المواضع. كقوله تعالى: ﴿لَأُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَلَا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ﴾^(٢) فقيل: (لا) في الموضعين نافية لمحذوف يناسب المقام، والتقدير مثلاً: لاصحة لما تزعمون أنه لا حساب ولا عقاب، ثم استأنف فقال: أقسم بيوم القيامة، وبالنفس اللوامة، إنكم ستبعثون، وقيل: (لا). لنفي القسم كأنه قال: لا أقسم عليك بذلك اليوم وتلك النفس، ولكني أسألك غير مقسم، أتحتسب أنا لا نجمع عظامك إذا تفرقت بالموت؟ إن الأمر من الظهور بحيث لا يحتاج إلى قسم - وقيل: (لا) زائدة - وجواب القسم في الآية المذكورة محذوف دل عليه قوله بعد: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ﴾. إلخ. والتقدير: لتبعثن ولتحاسبن.

٢- والقسم المضمّر هو ما لم يصرّح فيه بفعل القسم ولا بالمقسم به، وإنما تدل عليه اللام المؤكدة التي تدخل على جواب القسم كقوله تعالى: ﴿لَتُبْلَوْنَ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ﴾^(٣) أي والله لتبلون.

أحوال المقسم عليه

١ - المقسم عليه يراد بالقسم توكيده وتحقيقه، فلا بد أن يكون مما يحسن فيه ذلك، كالأمور الغائبة والخفية إذا أقسم على ثبوتها.

٢ - وجواب القسم يذكر تارة - وهو الغالب - وتارة يحذف، كما يحذف جواب (لو) كثيراً، كقوله: ﴿كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ﴾^(٤) وحذف مثل هذا من أحسن

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.

(٢) القيامة: ١، ٢.

(٣) آل عمران: ١٨٦.

(٤) التكاثر: ٥.

الأساليب، لأنه يدل على التفضيم والتعظيم، فالتقدير مثلاً: لو تعلمون ما بين أيديكم علم الأمر اليقين لفعلتم ما لا يوصف من الخير، فحذف جواب القسم كقوله: ﴿والفجر وليالٍ عشرٍ﴾. والشَّقْعُ والوَثْرُ. واللَّيْلُ إذا يَسُرَّ. هل في ذلك قَسَمٌ لذي حَجَرٍ^(١) فالمراد بالقسم أن الزمان المتضمن لمثل هذه الأعمال أهل أن يقسم الرب عز وجل به. فلا يحتاج إلى جواب. وقيل: الجواب محذوف، أي: لتعذبن يا كفار مكة، وقيل: مذكور، وهو قوله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لِلْمَرْصَادِ^(٢)﴾ والصحيح المناسب أنه لا يحتاج إلى جواب.

وقد يحذف الجواب لدلالة المذكور عليه، كقوله تعالى: ﴿لَأَأْتِئُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا أَقْسَمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ^(٣)﴾ فجواب القسم محذوف دل عليه قوله بعد: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ^(٤)﴾. إلخ والتقدير: لتبعثن وتحاسبن.

٣ - والماضي المثبت المتصرف الذي لم يتقدم معموله إذا وقع جواباً للقسم تلزمه اللام وقد، ولا يجوز الاختصار على إحداهما إلا عند طول الكلام. كقوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا، وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَاها. وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَاها. وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاها. وَالسَّمَاءُ وَمَابَنَاهَا. وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاها. وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا. فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا. قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا^(٥)﴾ فجواب القسم ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا﴾ حذفت منه اللام لطول الكلام.

ولذلك قالوا في قوله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ. وَالْيَوْمِ الْمَوْعُودِ. وَشَاهِدٍ وَمَشْهُودٍ. قَتَلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ^(٦)﴾ إن الأحسن أن يكون هذا القسم مستغنياً عن الجواب، لأن القصد التنبيه على المقسم به، وإنه من آيات الرب العظيمة، وقيل الجواب محذوف دل عليه ﴿قَتَلَ أَصْحَابُ الْأُخْدُودِ﴾ أي أنهم ملعونون، يعني كفار مكة كما لعن أصحاب الأخدود، وقيل حذف صدره، وتقديره: لقد قتل لأن الفعل الماضي إذا وقع جواباً للقسم تلزمه اللام وقد، ولا يجوز الاختصار على إحداهما إلا عند طول الكلام، كما سبق في قوله تعالى: ﴿وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا^(٥)﴾. ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا^(٥)﴾.

(١) الفجر: ١ - ٥.

(٢) الفجر: ١٤.

(٣) القيامة: ١ - ٢.

(٤) القيامة: ٣.

(٥) الشمس: ١ - ٩.

(٦) البروج: ١ - ٤.

٤ - ويقسم الله على أصول الإيمان التي يجب على الخلق معرفتها فتارة يقسم على التوحيد كقوله: ﴿وَالصَّافَاتِ صَفًا، فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا، فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا، إِنَّ إِلَهُكُمُ لَوَاحِدٌ﴾^(١).

وتارة يقسم على أن القرآن حق كقوله تعالى: ﴿فَلَا أَقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ. وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ. إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ﴾^(٢).

وتارة على أن الرسول حق كقوله: ﴿يَسَّ. وَالْقُرْآنِ الْحَكِيمِ، إِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾^(٣).

وتارة على الجزاء والوعد والوعيد، كقوله: ﴿وَالذَّارِيَاتِ ذُرُوءًا، فَالْحَامِلَاتِ وِقْرًا، فَالْجَارِيَاتِ يُسْرًا، فَالْمُقَسَّمَاتِ أَمْرًا. إِنَّمَا تُوعَدُونَ لَصَادِقٍ. وَإِنَّ الدِّينَ لَوَاقِعٌ﴾^(٤).

وتارة على حال الإنسان، كقوله: ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى. وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى. وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى. إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى﴾^(٥).

والمتبع لأقسام القرآن يستخلص الفنون الكثيرة.

٥ - والقسم إما على جملة خبرية - وهو الغالب - كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ﴾^(٦). وإما على جملة طلبية في المعنى كقوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ، عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾^(٧). لأن المراد التهديد والوعيد.

القسم والشرط

يجتمع القسم والشرط فيدخل كل منهما على الآخر فيكون الجواب للمتقدم منهما - قسماً كان أو شرطاً - ويفني عن جواب الآخر.

فإن تقدم القسم على الشرط كان الجواب للقسم أغنى عن جواب الشرط، كقوله

(١) الصافات: ١ - ٤.

(٢) الواقعة: ٧٥ - ٧٧.

(٣) يس: ١ - ٣.

(٤) الذاريات: ١ - ٦.

(٥) الليل: ١ - ٤.

(٦) الذاريات: ٢٣.

(٧) الحجر: ٩٢ - ٩٣.

تعالى: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ لَأَرْجَمَنَّكَ﴾^(١) إذ التقدير: والله لئن لم تنته.

واللام الداخلة على الشرط ليست بلام جواب القسم كالتي في مثل قوله تعالى: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ﴾^(٢) ولكنها اللام الداخلة على أداة شرط للإيذان بأن الجواب بعدها مبني على قسم قبلها لا على الشرط، وتسمى اللام المؤذنة، وتسمى كذلك الموطئة، لأنها وطأت الجواب للقسم، أي مهدته له. ومنه قوله تعالى: ﴿لَئِنْ أَخْرَجُوا لَايُخْرِجُونُ مَعَهُمْ وَلَئِنْ قُوتِلُوا لَايَنْصُرُونَهُمْ وَلَئِنْ نَصَرُوهُمْ لَيُولَنَّ الْأَذْبَارُ ثُمَّ لَايَنْصُرُونَ﴾^(٣) وأكثر. ماتدخل اللام الموطئة على «إن» الشرطية، وقد تدخل على غيرها.

ولا يقال: إن الجملة الشرطية هي جواب القسم المقدر، فإن الشرط لا يصلح أن يكون جواباً، لأن الجواب لا يكون إلا خبراً، والشرط إنشاء، وعلى هذا فإن قوله تعالى في المثال الأول: ﴿لَأَرْجَمَنَّكَ﴾ يكون جواباً للقسم المقدر أغنى عن جواب الشرط.

ودخول اللام الموطئة للقسم على الشرط ليس واجباً، فقد تحذف مع كون القسم مقدراً قبل الشرط. كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ لَمْ يَنْتَهِوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾^(٤).

والذي يدل على أن الجواب للقسم لا للشرط دخول اللام فيه وأنه ليس بمجزوم، بدليل قوله تعالى: ﴿لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَايَأْتُونَ بِمِثْلِهِ﴾^(٥)، ولو كانت جملة «لايأتون» جواباً للشرط لجزم الفعل.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ مَتَّعْتُمْ أَوْ قَتَلْتُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ تَحْشَرُونَ﴾^(٦)، فاللام في «ولئن» هي الموطئة للقسم، واللام في «لإلى الله» هي لام القسم، أي الواقعة في الجواب، ولم تدخل نون التوكيد على الفعل^(٧) للفصل بينه وبين اللام بالجار والمجرور

(١) مريم: ٤٦.

(٢) الأنبياء: ٥٧.

(٣) الحشر: ١٢.

(٤) المائدة: ٧٣.

(٥) الإسراء: ٨٨.

(٦) آل عمران: ١٥٨.

(٧) يجب توكيد الفعل إذا كان مثبتاً مستقبلاً، جواباً لقسم، غير مفصول من لاه بفاصل،

والأصل : لئن متم أو قتلتم لتحشرون إلى الله .

إجراء بعض الأفعال مجرى القسم :

إذا كان القسم يأتي لتأكيد المقسم عليه فإن بعض الأفعال يجري مجراه إذا كان سياق الكلام في معناه، كقوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ﴾^(١) فاللام في قوله : ﴿لَتُبَيِّنَهُ لِلنَّاسِ﴾ لام القسم، والجملة بعدها جواب القسم . لأن أخذ الميثاق بمعنى الاستحلاف .

وحمل المفسرون على هذا قوله تعالى : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ﴾^(٢) وقوله : ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَاءَكُمْ﴾^(٣) . وقوله : ﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾^(٤) .

هذه بعض المسائل المهمة في موضوع الأقسام في القرآن الكريم، ذكرناها لتكون عوناً لفهم هذا الجانب من جوانب آيات الله تعالى في كتابه العزيز .

= وجواب القسم هنا وإن كان مثبتاً مستهلاً فإنه قد فصل بينه وبين اللام بالجار والمجرور .

(١) آل عمران : ١٨٧ .

(٢) البقرة : ٨٣ .

(٣) البقرة : ٨٤ .

(٤) النور : ٥٥ .

جدل القرآن^(١)

الحقائق الظاهرة الجلية يلمسها الإنسان وتنطق بها شواهد الكون ولا يحتاج إلى برهان على ثبوتها، أو دليل على صحتها. ولكن المكابرة كثيراً ما تحمل أصحابها على إثارة الشكوك وتمويه الحقائق بشبه تلبسها لباس الحق، وتزينها في مرآة العقل، فهي في حاجة إلى مقارعتها بالحجة، واستدراجها إلى ما يلزمها بالاعتراف آمنت أو كفرت. والقرآن الكريم - وهو دعوة الله إلى الإنسانية كافة - وقف أمام نزعات مختلفة حاولت بالباطل إنكار حقائقه ومجادلة أصوله. فألجم خصومتهم بالحس والعيان، وعارضهم في أسلوب مقنع، واستدلال ملزم، وجدل محكم.

تعريف الجدل^(٢)

والجدل والجدال: - المفاوضة على سبيل المنازعة والمغالبة لإلزام الخصم، أصله من جدلت الحبل: أي أحكمت فتله، فكان المتجادلين يفتل كل واحد الآخر عن رأيه. وقد ذكره الله في القرآن على أنه من طبيعة الإنسان في قوله: ﴿وَكَانَ الْإِنْسَانُ أَكْثَرَ شَيْءٍ جَدَلًا﴾^(٣) أي خصومة ومنازعة.

وأمر رسول الله ﷺ أن يجادل المشركين بالطريقة الحسنة التي تلين عريكتهم في قوله: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(٤).

(١) أفردته من المتأخرين بالتصنيف العلامة سليمان بن عبد القوي بن عبد الكريم المعروف

بابن أبي العباس الحنيلي نجم الدين الطوفي المتوفي سنة ٧١٦ هجرية.

(٢) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان ص ٣٣٩ - ٣٤٦ / ط دار المريخ - الرياض.

(٣) الكهف: ٥٤.

(٤) النحل: ١٢٥.

وأباح مناظرة أهل الكتاب بتلك الطريقة في قوله: «وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ» (١).

ومثل هذا من قبيل المناظرة التي تهدف إلى إظهار الحق، وإقامة البرهان على صحته، وهي الطريقة التي يشتمل عليها جدل القرآن في هداية الكافرين وإلزام المعاندين. بخلاف مجادلة أهل الأهواء فإنها منازعة باطلة، قال تعالى: «وَيُجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ» (٢).

طريقة القرآن في المناظرة

والقرآن الكريم تناول كثيراً من الأدلة والبراهين التي حاج بها خصومه في صورة واضحة جلية يفهمها العامة والخاصة، وأبطل كل شبهة فاسدة ونقضها بالمعارضة والمنع في أسلوب واضح النتائج، سليم التركيب، لا يحتاج إلى إعمال عقل أو كثير بحث.

ولم يسلك القرآن في الجدل طريقة المتكلمين الاصطلاحية في المقدمات والنتائج التي يعتمدون عليها، من الاستدلال بالكلي على الجزئي في قياس الشمول، أو الاستدلال بأحد الجزأين على الآخر في قياس التمثيل، أو الاستدلال بالجزئي على الكلي في قياس الاستقراء.

(أ) لأن القرآن جاء بلسان العرب، وخاطبهم بما يعرفون.

(ب) ولأن الاعتماد في الاستدلال على ما فطرت عليه النفس من الإيمان بما تشاهد وتحس دون عمل فكري عميق أقوى أثراً وأبلغ حجة.

(ج) ولأن ترك الجلي من الكلام والاتجاء إلى الدقيق الخفي نوع من الغموض والألغاز لا يفهمه إلا الخاصة، وهو على طريقة المناطقة ليس سليماً من كل وجه، فأدلة التوحيد والمعاد المذكورة في القرآن من نوع الدلالة المعينة المستلزمة لمدلولها بنفسها من غير احتياج إلى اندراجها تحت قضية كلية: قال شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه (الرد على المنطقيين): وما يذكره النظار من الأدلة القياسية التي يسمونها براهين على إثبات الصانع سبحانه وتعالى لا يدل شيء منها على عينه، وإنما يدل على أمر مطلق كلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه، فإننا إذا قلنا: هذا محدث، وكل محدث فلا بد له من محدث. أو ممكن، والممكن لا بد له من واجب، إنما يدل هذا على محدث

(١) المنكبات: ٤٦.

(٢) الكهف: ٥٦.

مطلق، أو واجب مطلق... لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه... وقال: «فبرهانهم لا يدل على شيء معين بخصوصه، لا واجب الوجود ولا غيره، وإنما يدل على أمر كلي، والكلي لا يمنع تصوره من وقوع الشركة فيه، وواجب الوجود يمنع العلم به من وقوع الشركة فيه، ومن لم يتصور ما يمنع الشركة فيه لم يكن قد عرف الله...» وقال: «وهذا بخلاف ما يذكر الله من الآيات في كتابه، كقوله: ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاختلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١) وقوله: ﴿إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾، «لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ»^(٢) وغير ذلك، فإنه يدل على المعين كالشمس التي هي آية النهار... وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ، فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِّبُغْيَا فَضْلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلَتَعْلَمُوا عَدَدَ السَّيِّنِّ وَالْحِسَابِ﴾^(٣) فالآيات تدل على نفس الخالق سبحانه لا على قدر مشترك بينه وبين غيره، فإن كل ماسواه مفتقر إلى نفسه، فيلزم من وجوده وجود عين الخالق نفسه». فادلة الله على توحيده وما أخبر به من المعاد، وما نصبه من البراهين لصدق رسله لانفتقر إلى قياس شمولي أو تمثيلي، بل هي مستلزمة لمدلولها عيناً، والعلم بها مستلزم للعلم بالمدلول، وانتقال الذهن منها إلى المدلول بين واضح كانتقال الذهن من رؤية شعاع الشمس إلى العلم بطلوعها، وهذا النوع من الاستدلال بدهي يستوي في إدراكه كل العقول.

قال الزركشي^(٤): «اعلم أن القرآن العظيم قد اشتمل على جميع أنواع البراهين والأدلة، وما من برهان ودلالة وتقسيم وتحديد شيء من كليات المعلومات العقلية والسمعية إلا وكتاب الله تعالى قد نطق به، لكن أورده تعالى على عادة العرب دون دقائق طرق أحكام المتكلمين لأمرين:

أحدهما: بسبب ما قاله: «وما أرسلنا من رسولٍ إلا بلسانٍ قومه ليبين لهم». الآية^(٥)

(١) البقرة: ١٦٤. وأعلم أن الجدل الذي قامت عليه القراءة المعاصرة جدلٌ مادّي سفسطائي قائم على المغالطة.

(٢) يونس: ٢٤، وسور أخرى.

(٣) الإسراء: ١٢.

(٤) انظر «البرهان» ص ٢٤ وما بعدها، بتصرف ج ٢.

(٥) إبراهيم: ٤.

والثاني: إن المائل إلى دقيق المحاجة هو العاجز عن إقامة الحجة بالجليل من الكلام، فإن من استطاع أن يفهم بالأوضح الذي يفهمه الأكثرون لم يتخط إلى الأعمش الذي لا يعرفه إلا الأقلون ولم يكن ملغزاً، فأخرج تعالى مخاطباته في محاجة خلقه في أجل صورة تشتمل على أدق دقيق، لفهم العامة من جليلها ما يقنعهم ويلزمهم الحجة، وتفهم الخواص من أثنائها ما يؤفي على ما أدركه فهم الخطباء.

وعلى هذا حمل القول المروي: «إن لكل آية ظهراً وبطناً ولكل حرف حداً ومطلعاً» لا على ما ذهب إليه الباطنية، ومن هذا الوجه كل من كان حظه في العلوم أوفر كان نصيبه من علم القرآن أكثر، ولذلك إذا ذكر تعالى حجة على ربوبيته ووحدانيته اتبعها مرة بإضافته إلى أولي العقل، ومرة إلى السامعين، ومرة إلى المفكرين، ومرة إلى المتذكرين، تنبيهاً أن بكل قوة من هذه القوى يمكن إدراك حقيقة منها، وذلك نحو قوله تعالى: «إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ»^(١) وغيرها من الآيات.

وأعلم أنه قد يظهر منه بدقيق الفكر استنباط البراهين العقلية على طرق الباحثين والأصوليين، من ذلك الاستدلال على أن صانع العالم واحد، بدلالة التمانع المشار إليه في قوله تعالى: «لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا»^(٢) لأنه لو كان للعالم صانعان لكان لا يجري تدبيرهما على نظام، ولا يتسق على أحكام، ولكان العجز يلحقهما أو أحدهما، وذلك لو أراد أحدهما إحياء جسم، وأراد الآخر إماتته، فلما أن تنفذ إرادتهما فتتناقض لاستحالة تجزؤ الفعل إن فرض الاتفاق، أو لامتناع اجتماع الضدين إن فرض الاختلاف، وإما لا تنفذ إرادتهما فيؤدي إلى عجزهما، أو لا تنفذ إرادة أحدهما فيؤدي إلى عجزه، والإله لا يكون عاجزاً.

أنواع من مناظرات القرآن وأدلته

(أ) ما يذكره تعالى من الآيات الكونية المقرونة بالنظر والتدبر للاستدلال على أصول العقائد كتوحيده سبحانه في ألوهيته، والإيمان بملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر - وهذا النوع كثير في القرآن.

فمنه قوله تعالى: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ. الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بَنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنْ

(١) الرعد: ٤.

(٢) الأنبياء: ٢٢.

الثمارِ رزقاً لكم، فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون^(١) وقوله تعالى: ﴿وَالْهَكْمُ إِلَهُ وَاحِدٌ، لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ﴾^(٢) إلى قوله: ﴿آيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٣).

(ب) مايرد به على الخصوم ويلزم أهل العناد، ولهذا صور مختلفة:

١ - منها تقرير المخاطب بطريق الاستفهام عن الأمور التي يسلم بها الخصم وتسلم بها العقول حتى يعترف بما ينكره، كالاستدلال بالخلق على وجود خالق في مثل قوله تعالى: ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ. أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ، بَلْ لَا يُوقِنُونَ. أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رِزْقِ أَمْ هُمُ الْمَسِيرُونَ. أَمْ لَهُمْ سُلَّمٌ يَسْتَمِعُونَ فِيهِ، فَلْيَاثِمْهُمْ بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ. أَمْ لَهُ الْبَنَاتُ وَلَكُمُ الْبَنُونَ. أَمْ تَسْأَلُهُمْ أَجْرًا فَهُمْ مِنْ مَغْرَمٍ مُثْقَلُونَ. أَمْ عِنْدَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُمُونَ. أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا، فَالَّذِينَ كَفَرُوا هُمُ الْمَكِيدُونَ. أَمْ لَهُمْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ، سُبْحَانَ اللَّهِ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾^(٤).

٢ - الاستدلال بالمبدأ على المعاد. كقوله تعالى: ﴿أَفَمِثْنَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ، بَلْ هُمْ فِي كِبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾^(٥) وقوله: ﴿أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى، أَلَمْ يَكُنْ نَظْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى. ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فَخُلِقَ فَنَسْوَى. فَجَعَلْ مِنْهُ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى. أَلَيْسَ ذَلِكَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يُحْيِيَ الْمَوْتَى﴾^(٦). وقوله: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِنْ مَاءٍ دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ. إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لِقَادِرٌ﴾^(٧) - ومثله الاستدلال بحياة الأرض بعد موتها بالإنبات على الحياة بعد الموت للحساب كقوله: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْتَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ، إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُحْيِي الْمَوْتَى﴾^(٨).

٣ - إبطال دعوى الخصم بإثبات نقيضها - كقوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ

(١) البقرة: ٢١ - ٢٢.

(٢) البقرة: ١٦٣.

(٣) البقرة: ١٦٤.

(٤) الطور: ٣٥ - ٤٣.

(٥) سورة ق: ١٥.

(٦) القيامة: ٣٦ - ٤٠.

(٧) الطارق: ٥ - ٨.

(٨) فصلت: ٣٩.

الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس، تجعلونه قراطيس تبدونها وتخفون كثيراً، وعلمتم مالم تعلموا أنتم ولا آباؤكم، قل الله ثم ذرهم في خوضهم يلعبون ﴿١﴾ رداً على اليهود فيما حكاه الله عنهم بقوله: ﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ إِذْ قَالُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى بَشَرٍ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٢).

٤ - السبر والتقسيم - بحصر الأوصاف، وإبطال أن يكون واحد منها علة للحكم، كقوله تعالى: ﴿ثمانية أزواج، من الضأن اثنين ومن المعز اثنين، قل الذكركين حرّم أم الاثنين أم ما اشتملت عليه أرحام الاثنين، نبشني بعلم إن كنتم صادقين. ومن الإبل اثنين ومن البقر اثنين، قل الذكركين حرّم أم الاثنين أم ما اشتملت عليه أرحام الاثنين، أم كنتم شهداء إذ وصاكم الله بهذا، فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً ليضل الناس بغير علم، إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾ (٣).

٥ - إفحام الخصم وإلزامه ببيان أن مدعاه يلزمه القول بما لا يمتدح به أحد - كقوله تعالى: ﴿وجعلوا لله شركاء الجنّ وخلقهم وخرقوا له بنين وبنات بغير علم، سبحانه وتعالى عما يصفون. بديع السموات والأرض. أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة وخلق كل شيء، وهو بكل شيء عليم﴾ (٤) نفى التولد عنه لامتناع التولد من شيء واحد، وأن التولد إنما يكون من اثنين، وهو سبحانه لأصاحبه له، وأيضاً فإنه خلق كل شيء، وخلق له لكل شيء يناقض أن يتولد عنه شيء، وهو بكل شيء عليم، وعلمه بكل شيء يستلزم أن يكون فاعلاً بإرادته، فإن الشعور فارق بين الفاعل بالإرادة والفاعل بالطبع فيمتنع مع كونه عالماً أن يكون كالأمور الطبيعية التي يتولد عنها الأشياء بلا شعور - كالحار والبارد، فلا يجوز إضافة الولد إليه (٥).

وهناك أنواع أخرى من الجدل كثيرة، كمناظرة الأنبياء مع أممهم، أو فريق المؤمنين مع المنافقين، وما شابه ذلك.

وأما الجدل الذي قامت عليه القراءة المعاصرة في [الكتاب والقرآن] في تحريف

(١) الأنعام: ٩١.

(٢) الأنعام: ٩١.

(٣) الأنعام: ١٤٢ - ١٤٤.

(٤) الأنعام: ١٠٠ - ١٠١.

(٥) هذه الفقرة .. من كتاب الرد على المنطقيين لشيخ الإسلام ابن تيمية، وهي رائعة في الاستدلال.

الكلم عن مواضعه وصرف الآيات عما نزلت بخصوصه فهو جدل ماديّ يتولّد عنه الإلحاد في آيات الله، والإفساد لعقيدة المسلمين.

قصص القرآن (١)

الحادثة المرتبطة بالأسباب والنتائج يهفو إليها السمع . فإذا تخللتها مواطن العبرة في أخبار الماضين كان حب الاستطلاع لمعرفة من أقوى العوامل على رسوخ عبرتها في النفس، والموعظة الخطابية تسرد سرداً لا يجمع العقل أطرافها، ولا يعي جميع ما يلقي فيها، ولكنها حين تأخذ صورة من واقع الحياة في إحداثها تضح أهدافها، ويرتاح المرء لسماعها، ويصغي إليها بشوق ولهفة، ويتأثر بما فيها من عبر وعظات، وقد أصبح أدب القصة اليوم فناً خاصاً من فنون اللغة وآدابها، والقَصَصُ الصادقُ يمثل هذا الدور في الأسلوب العربي أقوى تمثيل، ويُصَوِّرُه في أبلغ صورة قصص: القرآن الكريم.

معنى القصص

القصص: تتبع الأثر: يقال: قصصت أثره: أي تتبعته، والقصص مصدر، قال تعالى: ﴿فارتدّا على آثارهما قصصاً﴾ (٢) أي رجعا يقصان الأثر الذي جاء به. وقال على لسان أم موسى: ﴿وقالت لأختي قُصِّيه﴾ (٣) أي تبعي أثره حتى تنظري من يأخذه. والقصص كذلك: الأخبار المتبعة قال تعالى: ﴿إنّ هذا لهو القصص الحق﴾ (٤) وقال: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألباب﴾ (٥) والقصة: الأمر، والخبر، والشأن، والحال.

وقصص القرآن: أخباره عن أحوال الأمم الماضية، والنبوات السابقة، والحوادث الواقعة - وقد اشتمل القرآن على كثير من وقائع الماضي، وتاريخ الأمم، وذكر البلاد

(١) مباحث في علوم القرآن: مناع القطان ص ٣٤٧ - ٣٥٣ ط دار المريخ - الرياض.

(٢) الكهف: ٦٤.

(٣) القصص: ١١.

(٤) آل عمران: ٦٢.

(٥) يوسف: ١١١.

والديار. وتتبع آثار كل قوم، وحكى عنهم صورة ناطقة لما كانوا عليه.

أنواع القصص في القرآن

والقصص في القرآن ثلاثة أنواع:

النوع الأول: - قصص الأنبياء، وقد تضمن دعوتهم إلى قومهم، والمعجزات التي أيدهم الله بها، وموقف المعاندين منهم، ومراحل الدعوة وتطورها وعاقبة المؤمنين والمكذبين. كقصص نوح، وإبراهيم، وموسى، وهارون، وعيسى، ومحمد، وغيرهم من الأنبياء والمرسلين، عليهم جميعاً أفضل الصلاة والسلام.

النوع الثاني: قصص قرآني يتعلق بحوادث غابرة، وأشخاص لم تثبت نبوتهم، كقصة الذين أخرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت. وطالوت وجالوت، وإبني آدم، وأهل الكهف، وذو القرنين، وقارون، وأصحاب السبت، ومريم، وأصحاب الأخدود، وأصحاب الفيل ونحوهم.

النوع الثالث: قصص يتعلق بالحوادث التي وقعت في زمن رسول الله ﷺ كغزوة بدر وأحد في سورة آل عمران، وغزوة حُنين وتبوك في التوبة، وغزوة الأحزاب في سورة الأحزاب، والهجرة، والإسراء، ونحو ذلك.

فوائد قصص القرآن

وللقصص القرآني فوائد نجمل أهمها فيما يأتي:

١ - إيضاح أسس الدعوة إلى الله، وبيان أصول الشرائع التي بعث بها كل نبي «وما أرسلنا من قبلك من رسولٍ إلَّا نوحِي إليه أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ»^(١).

٢ - تثبيت قلب رسول الله ﷺ وقلوب الأمة المحمدية على دين الله وتقوية ثقة المؤمنين بنصرة الحق وجنده، وخذلان الباطل وأهله «وَكَلَّا نَقْصُصَ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنَبِّئُ بِهِ فُؤَادَكَ، وَجَاءَ فِي هَذِهِ الْحَقِّ وَالْمَوْعِظَةُ وَذِكْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ»^(٢).

٣ - تصديق الأنبياء السابقين وإحياء ذكراهم وتخليد آثارهم.

٤ - إظهار صدق محمد ﷺ في دعوته بما أخبر به عن أحوال الماضين عبر القرون والأجيال.

(١) الأنبياء: ٢٥.

(٢) هود: ١٢٠.

٥ - مقارنته أهل الكتاب بالحجة فيما كتموه من الينات والهدى، وتحديه لهم بما كان في كتبهم قبل التحريف والتبديل، كقوله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حَلَالًا لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِنْ قَبْلِ أَنْ تُنَزَّلَ التَّوْرَةُ، قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَةِ فَاتْلُوهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾^(١).

٦ - والقصص ضرب من ضروب الأدب، يصغي إليه السمع، وترسخ عبرة في النفس، ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٢).

تكرار القصص وحكمته

يشتمل القرآن الكريم على كثير من القصص الذي تكرر في غير موضع، فالقصة الواحدة يتعدد ذكرها في القرآن، وتعرض في صور مختلفة في التقديم والتأخير، والإيجاز والإطناب، وما شابه ذلك. ومن حكمة هذا:

١ - بيان بلاغة القرآن في أعلى مراتبها. فمن خصائص البلاغة وإبراز المعنى الواحد في صور مختلفة، والقصة المتكررة ترد في كل موضع بأسلوب يتميز عن الآخر، وتصاغ في قالب غير القالب، ولا يمل الإنسان من تكرارها، بل تتجدد في نفسه معانٍ لا تحصل له بقراءتها في المواضع الأخرى.

٢ - قوة الإعجاز - فإيراد المعنى الواحد في صور متعددة مع عجز العرب عن الإتيان بصورة أبلغ منها في التحدي.

٣ - الاهتمام بشأن القصة لتمكين عبْرَها في النفس، فإن التكرار من طرق التأكيد وإشارات الاهتمام. كما هو الحال في قصة موسى مع فرعون، لأنها تمثل الصراع بين الحق والباطل أتم تمثيل - مع أن القصة لا تكرر في السورة الواحدة مهما كثر تكرارها.

٤ - اختلاف الغاية التي تساق من أجلها القصة - فتذكر بعض معانيها الوافية بالغرض في مقام، وتبرز معانٍ أخرى في سائر المقامات حسب اختلاف مقتضيات الأحوال.

القصة في القرآن حقيقة لا خيال

ومن الجدير بالذكر أن أحد الطلاب الجامعيين في مصر قدم رسالة لنيل درجة

(١) آل عمران: ٩٣.

(٢) يوسف: ١١١.

«الدكتوراه» كان موضوعها «الفن القصصي في القرآن»^(١) أثارت جدلاً طويلاً سنة ١٣٦٧ هجرية، وكتب عنها أحد أعضاء اللجنة الذين اشتركوا في مناقشة الرسالة، وهو الأستاذ أحمد أمين - تقريراً بعث به إلى عميد كلية الآداب، ونشر في مجلة «الرسالة» وقد تضمن التقرير نقداً لاذعاً لما كتبه الطالب الجامعي، وإن كان أستاذه المشرف قد دافع عنه. وصدر الأستاذ «أحمد أمين» تقريره بالعبارة الآتية:

«وقد وجدتها رسالة ليست عادية، بل هي رسالة خطيرة، أساسها أن القصص في القرآن عمل فني خاضع لما يخضع له الفن من خلق وإبتكار من غير التزام لصدق التاريخ. والواقع أن محمداً فتان بهذا المعنى» ثم قال: «وعلى هذا الأساس كتب كل الرسالة من أولها إلى آخرها، وإني أرى من الواجب أن أسوق بعض أمثلة، توضح مرامي كاتب هذه الرسالة وكيفية بنائها» ثم أورد الأستاذ «أحمد أمين» أمثلة مُتَزَعَةً من الرسالة تشهد بما وصفها به من هذه العبارة المجملة^(٢). كادعاء صاحب الرسالة أن القصة في القرآن لا تلتزم الصدق التاريخي. وإنما تتجه كما يتجه الأديب في تصوير الحادثة تصويراً فنياً، وزعمه أن القرآن يختلق بعض القصص وأن الأقدمين أخطأوا في عد القصص القرآني تاريخاً يعتمد عليه..

والمسلم الحق هو الذي يؤمن بأن القرآن كلام الله، وأنه منزّه عن ذلك التصوير الفني الذي لا يعني فيه بالواقع التاريخي، وليس قصص القرآن إلا الحقائق التاريخية تصاغ في صور بديعة من الألفاظ المتقاة، والأساليب الرائعة.

ولعل صاحب الرسالة درس فن القصة في الأدب، وأدرك من عناصرها الأساسية الخيال الذي يعتمد على التصور، وإنه كلما ارتقى خيالها ونأى عن الواقع كثر الشوق إليها، ورغبت النفس فيها، واستمتعت بقراءتها، ثم قاس القصص القرآني على القصة الأدبية.

وليس القرآن كذلك، فإنه تنزيل من عليم حكيم، ولا يرد في أخباره إلا ما يكون موافقاً للواقع، وإذا كان الفضلاء من الناس يتورعون من أن يقولوا زوراً ويعدون من أقبح الرذائل المزرية بالإنسانية، فكيف يسوغ لعامل أن يلصق الزور بكلام ذي العزة والجلال؟

(١) هو الدكتور محمد أحمد خلف الله.

(٢) انظر نقد كتاب «الفن القصصي في القرآن» - الأستاذ محمد الخضر حسين - بلاغة القرآن ص ٩٤.

والله تعالى هو الحق :
﴿ذَلِكَ بَأْنِ اللَّهِ هُوَ الْحَقُّ وَأَنْ مَّايَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ﴾^(١) .
وأرسل رسوله بالحق :

﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾^(٢) .
﴿وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ هُوَ الْحَقُّ﴾^(٣) .
﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ﴾^(٤) .
﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾^(٥) .
﴿وَالَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ﴾^(٦) .
وما قصه الله تعالى في القرآن هو الحق :
﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ﴾^(٧) .
﴿تَتْلُوا عَلَيْكَ مِنْ نَبَأِ مُوسَى وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ﴾^(٨) .

أثر القصص القرآني في التربية والتهديب

مما لا شك فيه أن القصة المحكمة الدقيقة تطرق المسامع بشغف - وتنفذ إلى النفس البشرية بسهولة ويُسْر، وتسترسل مع سياقها المشاعر فلا تمل ولا تكل، ويرتاد العقل عناصرها فيجني من حقولها الأزاهير والثمار .
والدروس التلقينية والإلقائية تورث الملل، ولا تستطيع الناشئة أن تتابعها وتستوعب عناصرها إلا بصعوبة وشدة . وإلى أمد قصير . ولذا كان الأسلوب القصصي أجدى نفعاً . وأكثر فائدة .

والمعهود - حتى في حياة الطفولة - أن يميل الطفل إلى سماع الحكاية، ويصغي

(١) الحج : ٦٢ .

(٢) فاطر : ٢٤ .

(٣) فاطر : ٣١ .

(٤) النساء : ١٧٠ .

(٥) المائدة : ٤٨ .

(٦) الرعد : ١ .

(٧) الكهف : ١٣ .

(٨) القصص : ٣ .

إلى رواية القصة، وتعني ذاكرته ما يروى له، فيحاكيه ويقصه.
هذه الظاهرة الفطرية النفسية ينبغي للمربين أن يفيدوا منها في مجالات التعليم،
لا سيما التهذيب الديني، الذي هو لب التعليم، وقوام التوجيه فيه.

وفي القصص القرآني تربة خصبة تساعد المربين على النجاح في مهمتهم، وتمدهم
بزاد تهذيبي، من سيرة النبيين، وأخبار الماضين وسنة الله في حياة المجتمعات،
وأحوال الأمم، ولاتقول في ذلك إلا حقاً وصدقاً.

ويستطيع المربي أن يصوغ القصة القرآنية بالأسلوب الذي يلائم المستوى الفكري
للمتعلمين. في كل مرحلة من مراحل التعليم. وقد نجحت مجموعة القصص الديني
للأستاذين «سيد قطب، والسحار» في تقديم زاد مفيد نافع لصغارنا نجاحاً باهراً، كما
قدم «الجارم» القصص القرآني في أسلوب أدبي بليغ، أعلى مستوى، وأكثر تحليلاً
وعمقاً، وحبذا لو نهج آخرون هذا المنهج التربوي السديد.

ولقد نظر صاحب القراءة المعاصرة في [الكتاب والقرآن] إلى القصص القرآني نظرة
قاصرة مع التزوير والتحريف لمعنى القصص القرآني، فيقول في ص ٩٥ تحت عنوان
«القصص من القرآن وهي الكتاب المبين»: «القرآن هو الحديث، وإنه جاء من قرآن
قوانين أحداث الطبيعة مع أحدث التاريخ بعد وقوعها. . لأقبله».

فقوله: «القصص هي الكتاب المبين» مغالطة جدلية، لأنه يريد أن يفرق بين مفهوم
الكتاب والقرآن، والكتاب المبين، وهذه تسميات لمسمى واحد هو «القرآن العظيم»
ولكنه حين أقام دراسته لآيات الله تعالى على أساس جدلي عقيم أتى في قراءته
المعاصرة بكل غريب وعجيب من المعاني المنكرة والتسميات المغلوطة، وهذا ظاهر
في تعريفه للقرآن العظيم من أنه هو الحديث، وأن تسمية القرآن جاءت من قرآن
أحداث الطبيعة مع أحداث التاريخ، فهذا الزعم الباطل يعني أن القرآن لا يبعد عن سجل لهذه
الأحداث الطبيعية والتاريخية، وهذا هو قمة الإلحاد في كتاب الله تعالى والعياذ بالله تعالى.

الفصل الثالث

تاريخ تفسير القرآن العظيم

في مراحلہ الأولى ومنهج الصحابة فيه

ويشتمل هذا الفصل على الأبحاث التالية :

المدخل إلى أبحاث هذا الفصل : بيان القرآن الكريم في صدر الإسلام .

التمهيد : أهمية التفسير وحاجة المسلمين إليه .

البحث الأول : تاريخ مراحل تفسير السلف .

البحث الثاني : القرآن الكريم وتهيب الصحابة في تفسيره .

البحث الثالث : مصادر تفسير الصحابة للقرآن الكريم .

البحث الرابع : التفسير والصحابة المفـسـرون .

البحث الخامس : منهج ابن عباس في التفسير أنموذج في منهج السلف في التفسير .

المدخل إلى أبحاث هذا الفصل :

بيان القرآن الكريم في صدر الإسلام

١ - القرآن دستور الأمة، وهداية الخالق لإصلاح الخلق، وشرعية السماء لأهل الأرض، وهو التشريع العام الخالد، الذي تكفل بكل ما يحتاج إليه البشر في أمور دينهم، ودنياهم، في العقائد والأخلاق والعبادات، وفي المعاملات المدنية والجنائية، وفي الاقتصاد والسياسة، والسلم والحرب، والمعاهدات والعلاقات الدولية. وهو في ذلك كله حكيم كل الحكمة، لا يعتريه خلل ولا اختلاف: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ، وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ، وَهُدًى، وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة يونس: ٥٧).

٢ - فلا عجب إن كانت السعادة الحقيقية لاتنال إلا بالاهتداء بهديه، والتزام ما جاء به، فهو شفاء لما في الصدور، وعلاج لما حلّ، أو يحل بالمجتمع من شرور ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ، وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ (سورة الإسراء: ٨٢).

٣ - ومن المؤسف أن أكثر المسلمين في الوقت الحاضر، اكتفوا من القرآن بالفاظ يرددونها، وأنغام يُلحَنُونَهَا، في المآتم والمقابر والدور، وبمصاحف يحملونها، أو يودعونها البيوت تبركاً بها، ونسوا أن بركة القرآن العظمى إنما تكون في العمل به، والوقوف عند نواحيه. ولا يتأتى ذلك إلا بتدبره، والاتعاظ بما فيه ﴿كَتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ، وَلِيَذْكُرَ أُولُوا الْأَلْبَابِ﴾ (سورة ص: ٢٩). ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ؟ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (سورة محمد: ٢٤)، ﴿وَلَقَدْ يَسْرَنَ الْقُرْآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَكِّرٍ﴾ (سورة القمر: ١٧).

٤ - لقد هبّا الله عز وجل السبل لبيان القرآن، حتى يقوم الناس بالقسط، فبدون هذا البيان لا يمكن العمل بالقرآن، لأن من شروط صحة التكليف بعمل ما، أن يكون معلوماً للمكلف علماً تاماً، حتى يستطيع القيام به كما طلب منه. وعلى هذا فنصوص القرآن المجملة مثلاً لا يصح تكليف المكلف بها، إلا بعد أن

يفصل الرسول صلى الله عليه وسلم ما فيها من إجمال، إذ كيف يكلف بالصلاة من لا يعرف أركانها وشروطها، وكيفية أدائها؟! وكذلك الحج والزكاة، وكل فعل تعلق به خطاب من الشارع، إذا كان هذا الخطاب مجملاً، لا يعلم مراد الشارع به، فإنه لا يجوز مطالبة المكلفين بامتثاله، إلا بعد بيانه وتفسيره^(١). ولهذا فرض الله على رسوله أن يبين كتابه، حيث قال سبحانه: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (سورة النحل: ٤٤).

واهتماماً بهذا البيان، وحشاً على الرجوع إليه في فهم القرآن، أمرنا سبحانه وتعالى بطاعة رسوله فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ (سورة محمد: ٣٣). وقال: ﴿مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾ (سورة النساء: ٨٠). وقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ، وَمَا نَهَاكُمُ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (سورة الحشر: ٧).

٥ - وإذا ما استعرضنا بيان الرسول صلى الله عليه وسلم للقرآن وجدناه على وجوه نوجزها فيما يلي:

١ - بيان معنى لفظ مُتَعَلِّقِهِ: كيان المغضوب عليهم باليهود^(٢)، والضالين بالنصارى^(٣).

٢ - توضيح مُشْكِلِهِ: ومن ذلك تفسيره صلى الله عليه وسلم للخيطة الأبيض، والخيطة الأسود في قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَبَيِّنَ لَكُمْ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ (سورة البقرة: ١٧٨)، بأنه النهار، وسواد الليل^(٤).

٣ - تأكيد ما جاء في القرآن: كأن يأتي قوله صلى الله عليه وسلم مطابقاً لما ورد فيه، بقصد تأكيد الحكم وتقويته، فقوله: «لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه»^(٥)، موافق لقوله تعالى:

(١) انظر علم أصول الفقه، لعبد الوهاب خلاف ص ١٤٧، وراجع كتب أصول الفقه في شروط صحة التكليف، من بحث الحكم.

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٥٥/١، والدر المنثور ١٦/١ للسيوطي.

(٣) انظر صحيح الترمذي ٧٢/١١ أبواب التفسير.

(٤) انظر صحيح مسلم ٢٠٠/٧ كتاب الصيام، وقد أخرجه في الصوم كل من البخاري وأبو داود والنسائي.

(٥) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ٧٢/٥.

﴿وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ (سورة البقرة: ١٨٨) (١).

٤ - تفصيل مجمله: كيانه صلى الله عليه وسلم عملياً لمواقيت الصلاة، وأركانها، وعدد ركعاتها بقوله: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي» ومثل ذلك الحج والزكاة (٢).

٥ - تخصيص عامه: كتخصيصه - عليه صلوات الله - المورث بغير الأنبياء بقوله: (إِنَّا لَنُورِثُ، مَاتَرَكْنَاهُ صَدَقَةً) (٣)، وتخصيصه الوارث بغير القاتل، بقوله: (القاتل لا يرث) (٤).

٦ - تقييد مطلقه: ومن ذلك، ورود الوصية مطلقة في قوله سبحانه. ﴿مَنْ بَعْدَ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دِينَ﴾ (سورة النساء: ١١)، فقيدها الرسول صلى الله عليه وسلم بعدم الزيادة على الثلث (٥). وقد يلحق بعضهم بأوجه بيان الرسول صلى الله عليه وسلم للقرآن بيان الأحكام الزائدة عليه: كالديات، وتحريم أكل لحم الحمر الأهلية، وسباع البهائم. كما يعتبرون منها بيان النسخ أيضاً.

(١) انظر هذا البحث في كتاب: أصول التشريع الإسلامي للأستاذ علي حسب الله ص: ٤١ - ٤٢.

(٢) انظر هذا البحث في كتاب أصول التشريع الإسلامي للأستاذ علي حسب الله ص: ٤١ - ٤٢.

(٣) انظر مسند أحمد ج ٣ ص ٤ الحديث رقم: ١٤٠٦.

(٤) انظر صحيح الترمذي ٢٥٩/٨، وسنن ابن ماجه ٨٦/٢.

(٥) انظر أصول التشريع الإسلامي للأستاذ علي حسب الله ص ٤١ - ٤٢، رواه الشيخان

وانظر صحيح الترمذي ٢٥٩/٨، وانظر ما أخرجه الترمذي أيضاً في ٢٦٨/٨ - ٢٧٠ عن سعد بن أبي وقاص قال: «مرضت عام الفتح مرضاً أشفيت منه على الموت، فأتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم يعودني فقلت: يا رسول الله إن لي مالاً كثيراً وليس يرثني إلا ابنتي، أفأوصي بمالي كله؟ قال: لا. قلت: فثلثي مالي؟ قال: لا. قلت: فالشطر؟ قال: لا. قلت: فالثلث! قال: الثلث، والثلث كثير، إنك إن تدع ورثتك أغنياء خير من أن تدعهم عالة، يتكففون الناس، وإنك لن تنفق نفقة إلا أجرت فيها، حتى اللقمة ترفعها إلى رئي امرأتك. قال: قلت يا رسول الله أخلف عن هجرتي؟! قال: إنك لن تخلف بعدي، فتعمل عملاً تريد به وجه الله، إلا ازددت به رقعة زدرجة، ولعلك أن تخلف حتى ينفع بك أقوام ويضر بك آخرون. اللهم امض لأصحابي هجرتهم، ولا تردهم على أعقابهم» ورد بنحوه في سنن ابن ماجه ٨٢/٢ (الطبعة الأولى).

٦ - وإذا كنا قد ذكرنا كلمة وجيزة عن أوجه بيان الرسول صلى الله عليه وسلم للقرآن، فلسنا نقصد بذلك أنه بين كل معانيه أفراداً وتركيباً، ولو كان الأمر كذلك لاستوى الصحابة جميعاً في فهم كتاب الله تعالى، ولما كان هناك وجه لتخصيص النبي صلى الله عليه وسلم ابن عباس حينما دعا له فقال: (اللَّهُمَّ فَهِّهُ فِي الدِّينِ، وَعَلِّمُهُ التَّأْوِيلَ) (١).

وعلى هذا، فقد كان للصحابة - رضي الله عنهم - دور لا يستهان به، في تبيين بيان الرسول صلى الله عليه وسلم للقرآن، لأنهم شاهدوا الوحي والتزيل، وعرفوا وعاینوا من أسباب النزول ما يكشف لهم النقاب عن حكم ومعاني الكتاب، ولهم من سلامة فطرتهم، وصفاء نفوسهم، ما يمكنهم من الفهم الصحيح لكلام الله تعالى، وما يجعلهم يدركون المراد من تنزيله.

من هنا كان لما أثر عن الصحابة أهمية بالغة، وأصبح من غير الممكن الاستغناء عنه، وخصوصاً ماروي عن مشاهير المفسرين منهم، أمثال: الخلفاء الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبي موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير، وغيرهم - رضوان الله عليهم -.

وإذا كان عبد الله بن عباس قد امتاز من بينهم جميعاً في التفسير - فقد كان لصغر سنه دور لا ينسى في استعداده لتلقي العلم وجمعه، لقد استفاد بفضل جده ونشاطه من علوم الصحابة جميعاً، ثم إن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا له بأن يعلمه الله التأويل، حتى سماه عبد الله بن مسعود: «ترجمان القرآن» حيث كان يقول: (نَعَمْ ترجمان القرآن ابن عباس) (٢).

وقد كان أكثر الصحابة تفسيراً، وذلك لتأخر الزمان به حتى اشتدت حاجة الناس إلى التفسير، بعد اتساع الإسلام واستبحار العمران ولانقطاعه وتفرغه لنشر الدعوة والعلم، دون أن تشغله خلافة، أو تصرفه سياسة، لكن ما عُرِي إليه ليس كله صحيحاً، فقد نسب إليه من الآراء ما لم يقله، نظراً لاشتهاره بالتفسير، ولذلك تقضينا دراسة مدرسته في التفسير أن ندرس حياته، وأشهر الأسانيد التي رويت بها آثاره، حتى يتبين على ضوء هذه الدراسة ما قاله، وما نسب إليه ولم يقله. لقد طعن صاحب القراءة المعاصرة في [الكتاب والقرآن] بتفسير الصحابة ونسبهم إلى قلة العلم وقال في ص ٩١: «نحن غير مقيدین بأي شيء قاله السلف» وقال في ص ١١٥: «إن التيه الأكبر في كتاب التفاسير».

(١) انظر تفسير القرطبي ٢٨/١.

(٢) انظر تذكرة الحفاظ للذهبي ج ١ ص ٤٠، وتهذيب التهذيب لابن حجر ج ٥ ص ٢٧٨. والإصابة لابن حجر ج ٢ ص ٣٢٣.

التمهيد:

أهمية التفسير وحاجة المسلمين إليه

تتميز اللغة العربية بأنها مَضْرِبُ المَثَل في غزارة مفرداتها وجزالة ألفاظها وتعدد أوجه البلاغة فيها، مما جعلها لغة الشعر على اختلاف أَبْحَرِه وقوافيه الذي أخذ ينساب كالجدول الرقاق على ألسنة الأحداث من قبائل العرب وهم في يفاعه الصبا وعمر الورود. ومع ما أوتيت هذه اللغة من تفتق في البلاغة فقد تحدى الله تعالى روادها بل تحدى الإنس والجن على أن يأتوا ولو بسورة مما في القرآن، فأخفق المتحدّون به وبقي التحدي قائماً.. مما يدل هذا على أن كلام الله لا يشبهه كلام لافي الفصاحة والغرابة والتصرف والبديع والمعاني ولا في مجال التراكيب والجمال الدالة على مايشير إليه اللفظ وما ترشد إليه العبارة.

كتاب كهذا، سماوي المصدر، إلهي الكلمة، عربي النبرة، بلغ الذروة اللامتناهية في فصاحة البيان ودقة التعبير وبلاغة المعنى، هل يمكن أن يفهمه كل العرب فلا يحتاجون في مجاله إلى بيان أو تفسير؟ قال ابن خلدون: (فاعلم أن القرآن نزل بلغة العرب، وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه)^(١).

والمآخذ على عبارة ابن خلدون هذه كثيرة، منها أن ابن خلدون أغفل ما تضمنه القرآن الكريم من أحكام مجملة لا تفهم إلا بتفصيل واقتصر في النظرة على الجانب اللغوي منه حتى في هذا الجانب لم يوفق في نظريته لأن الآثار الصحيحة أثبتت العكس، أعني أثبتت أن ليس كل العرب حتى القرشيين فهموا كل مفردات القرآن. فقد سأل عمر بن الخطاب عن الأب في قوله تعالى: (وفاكهةً وأباً) ثم تراجع وقال: إنه التكلف ياعمراً^(٢). علماً بأن السيوطي أورد عدة آثار تشير إلى توقف بعض الصحابة في فهم مفردات وردت في القرآن الكريم أحيل إليها^(٣).

وقد يرد في هذا الصدد إشكال أوجزه بما يلي:

(١) مقدمة ابن خلدون ٩٩٦/٣.

(٢) الإتيان في علوم القرآن: للسيوطي ١١٣/١.

(٣) الإتيان في علوم القرآن: للسيوطي ج ١١٣/١.

وصف الله تعالى القرآن الكريم بأنه كتاب مبين في أكثر من موضع كقوله تعالى: ﴿الرَّ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَقُرْآنٍ مُبِينٍ﴾ (سورة الحجر: ١). وقوله جل شأنه: ﴿حَمْدُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ. إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ (سورة الزخرف/ ١ - ٣). فأول ما يتبادر إلى الذهن من هذه الآيات أن القرآن بين جلي لا أثر للغموض فيه مما يجعله غنياً عن التفسير لكمال وضوحه، فكيف نجتمع بين هذه الآيات الدالة على وضوح القرآن وبين قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ...﴾؟ (سورة النحل/ ٤٤).

فمن أين إذن يحسن الاشتغال بتبيين ما هو مبين لاحتياج إلى بيان؟ فالناس إذن بالنسبة لهذا القرآن بين رجلين:

١ - عارف بلسان العرب فحق مثل هذا أن يفقه القرآن بنفسه دونما حاجة إلى أن يفسر له شيئاً منه أصلاً وإلا لزم التناقض بين وصفه تعالى لكتابه بالإبانة وبين واقع هذا الكتاب الذي هو الغموض وعدم البيان لأهله.

٢ - وغير عارف بهذا اللسان فلا يحتاج مثل هذا إذن إلى أكثر من أن يعرف هذا اللسان حتى يفقه به القرآن.

يجيب عن هذا التساؤل الدكتور ابراهيم عبد الرحمن خليفة فيقول:

(وللجواب عن هذا السؤال نقول: لانسلم أن وصف القرآن بالإبانة والبيان يقتضي عدم حاجة شيء منه إلى شرح فإنه إنما يلزم ذلك لو أريد من البيان وضوح جميع معانيه للكافة فأما لو أريد منه ظهور كونه من عند الله وأنه معجزة للثقلين ظاهر الحجة عليهم أو أريد منه ظهور المعنى بشرط التدبر واستبانته صلى الله عليه وسلم في بعض المواضع وسؤال أهل الذكر فيما يحتاج إليه إلى سؤال^(١)).

ولتقرير حاجة الأمة إلى تفسير للقرآن الكريم يمكن استخلاص أدلة عقلية وعقلية.

فمن الأدلة العقلية:

١ - قوله جل جلاله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾.

٢ - ما ثبت عن الصحابة رضي الله عنهم أنهم سألوا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بعض من الآيات ففسرها لهم. منها ما أشكل على عدي بن حاتم في قوله تعالى:

(١) دراسات في مناهج المفسرين ٣٤/١.

﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ﴾ (سورة البقرة ١٨٧). فاخذ عدي عقلاً أبيض وآخر أسود وظل يأكل حتى ميز بينهما على ضوء النهار فبين له النبي صلى الله عليه وسلم أن المراد من الآية سواد الليل وبياض النهار^(١).

٣ - الحثُّ على تدبر القرآن الكريم والوعيد لمن أعرض عن ذلك لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (سورة محمد ٢٤). ولقوله جل وعلا: ﴿كَتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَذَّبَ رُؤَايَاةَ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ (سورة ص ٢٩).

وأما الأدلة العقلية فيمكن استنباطها من واقع القرآن الكريم من حيث ألفاظه ومعانيه أي من حيث اللغة، ومن حيث موضوعه والأغراض التي أنزل من أجلها.

فمن حيث اللفظ يجب أن يعلم أنه لا يكفي الإدراك الإجمالي للقرآن بل لابد من الإدراك التفصيلي للكليات والجزئيات ولو بشكل إجمالي، ولأجل تصور هذا الإدراك التفصيلي أشير ولو بلمحة إلى كيفية الوصول إلى الإدراك لواقع القرآن من حيث مفرداته وتراكيبه وتصرفه في المفردات والتراكيب ومن حيث الأدب العالي في الخطاب..

أما واقع القرآن من حيث مفرداته فالمشاهد أن فيه مفردات كثيرة ينطبق عليها المعنى اللغوي حقيقة، والمعنى اللغوي مجازاً. وقد يراد المعنى اللغوي والمجازي معاً ويعرف المعنى المراد بالقرينة في كل تركيب، وقد يتناسى المعنى اللغوي ويبقى المعنى المجازي، فيصبح هو المقصود، وقد نجد في القرآن الكريم مفردات أريد بها المعنى اللغوي حقيقة دون المجازي لعدم وجود قرينة تصرفها عن المعنى اللغوي. كما أننا نجد في القرآن مفردات ينطبق عليها المعنى اللغوي وينطبق عليها معنى شرعي جديد غير المعنى اللغوي حقيقة وغير المعنى اللغوي مجازاً. والذي يساعد على تحديد المراد من هذه المفردات تركيب الآية وسياقها ومناسبتها لما قبلها وبعدها.

والأمثلة على ما سبق ذكره كثيرة فمثلاً في قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَىٰ أَهْلَ قَرْيَةٍ﴾ (سورة الكهف ٧٧). المراد بالقرية هنا المعنى اللغوي فقط. أما في قوله تعالى: ﴿وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا﴾ (سورة يوسف ٨٢). فالمراد من القرية هنا معناها المجازي لأن القرية لاتسأل والمراد فيها أهل القرية. ومثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ...﴾ (سورة الأحزاب ٥٦) فالمراد بالصلاة هنا معناها الشرعي دون اللغوي. أي قولوا: اللَّهُمَّ صَلِّ عَلَى عَبْدِكَ وَرَسُولِكَ مُحَمَّدٍ ﷺ.

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير. الفتح ٨/١٨٢.

هذا من حيث المفردات، أما من حيث التراكيب فقد نجد في القرآن تراكيب تخللتها مفردات تشترك في أكثر من معنى ككلمة (العين)، و(الروح)... أو مترادفة مثل (جاء وأتى) و(أسد وقسورة) أو تشترك في معاني مضادة مثل كلمة (قُرء) للحيفض والطهر، و(بان) بمعنى ظهر واختفى، ولا بد لفهم المعنى المراد في مثل هذه المفردات من فهم التركيب كله إذ لا يمكن فهم المراد وتحديد معنى الكلمة في هذه الحال بالرجوع إلى القاموس، فلا بد من فهم التركيب الذي يحدد المعنى المراد وكما نقول ذلك في المفردات بالنسبة للتراكيب نقوله بالنسبة للتراكيب نفسها فإنها من حيث هي ألفاظ وعبارات مطلقة دالة على معاني مطلقة فهذه هي دلالتها الأصلية، وما لم ترد قرينة دالة على غير ذلك فإن معناها المطلق هو المراد، وهذا كثير في القرآن لايحتاج إلى تمثيل لأنه الأصل.

وأما واقع القرآن من حيث المعاني الشرعية كالصلاة والصيام والأحكام الشرعية كتحريم الربا، وجِلِّ البع، وما يتعلق بالأمور الغيبية كالجنة والنار والملائكة والشياطين والبعث... فالقرآن الكريم جاء بآيات أجملت ذكر ما فصلها رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله وعمله وتقريه. وجاءت آيات عامة خصصها رسول الله صلى الله عليه وسلم، كما قيد الرسول صلى الله عليه وسلم بعض الآيات المطلقة. فالقرآن من هذه الجهة يحتاج فهمه إلى الاطلاع على ما بينه الرسول صلى الله عليه وسلم. والرسول قد بلغ وبين ما يحتاج إلى بيان.

ولهذا لا بد من المعرفة باللغة، وبالنسبة أولاً لطلب التفسير.. كل هذا يؤكد لنا الحاجة إلى تفسير القرآن الكريم إذ لا يفهم بمجرد تلاوته عند البعض.

وماسبق ذكره يوضح لنا ما روي عن ابن عباس في هذا الصدد، إذ أخرج الطبري بسنده إلى ابن عباس قال: (التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحدٌ بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء وتفسير لا يعلمه إلا الله)^(١).

يفيد الأثر أن الوجه الأول الذي تعرفه العرب هو الذي يرجع فيه إلى لسانهم وذلك شأن اللغة والإعراب. والوجه الثاني الحلال والحرام وما كلف به المسلم. والقسم الثالث ما يستنبطه العلماء من القرآن استنباطاً بتأويل ونحوه. والرابع المغيبات كأحوال الجنة والنار والحشر وغيرها..

(١) مقدمة تفسير الطبري ٢٦/١ - ومقدمة في أصول تفسير: لشيخ الإسلام ابن تيمية ص ١١٥ والإتقان في علوم القرآن: للسيوطي ١٨٢/٢ - والبرهان ١٦٤/٢ وغيرهم.

قال السيوطي: (وأما وجه الحاجة إليه فقال بعضهم: اعلم أن من المعلوم أن الله خاطب خلقه بما يفهمونه ولذلك أرسل كل رسول بلسان قومه وأنزل كتابه بلغتهم وإنما احتيج إلى التفسير لما سيذكر بعد بقرير قاعدة وهي أن كل من وضع من البشر كتاباً فإنما وضعه ليفهم بذاته من غير شرح وإنما احتيج إلى الشروح لأمر ثلاثة:

أحدها: كمال فضيلة المصنف فإنه لقوته العلمية يجمع المعاني الدقيقة في اللفظ الوجيز فربما عسر فهم مراده فقصد بالشرح ظهور تلك المعاني الخفية.. وثانيها: إغفاله بعض تتمات المسألة أو شروط لها اعتماداً على وضوحها أو لأنها من علم آخر فيحتاج الشارع لبيان المحذوف ومراتبه. وثالثها: احتمال اللفظ لمعان كما في المجاز فيحتاج الشارع إلى بيان غرض المصنف وترجيحه. وقد يقع في التصانيف ما لا يخلو عنه بشر من السهو والغلط أو تكرار الشيء أو حذف المبهم وغير ذلك فيحتاج الشارع للتنبيه على ذلك) اهـ^(١).

إذا تقرر هذا فنقول إن القرآن إنما نزل بلسان عربي في زمن أفصح فيه العرب وكانوا يعلمون ظواهره وأحكامه. أما بدقائق باطنه فإنما كان يظهر لهم بعد البحث والنظر مع سؤالهم النبي صلى الله عليه وسلم في الأكثر كسؤالهم لما نزل قوله تعالى: ﴿وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ (سورة الأنعام ٨٢).

قالوا: وأينا لم يظلم نفسه ففسره النبي صلى الله عليه وسلم بالشرك واستدل عليه بقوله: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (سورة لقمان ١٣)^(٢)..

ولعل ما سبق بيانه يؤكد حاجة المرء إلى التفسير مهما كان المرء ملماً باللغة العربية وبأساليبها وأسرارها. ونلخص الأدلة على هذه الحاجة بما يلي:

١ - قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ (سورة النحل ٤٤).
٢ - التكير على من ترك تدبر القرآن لقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ (سورة محمد: ٢٤).

٣ - في القرآن الكريم أحكام شرعية وردت مجملة لاسبيل إلى استيضاح معناها إلا بالرجوع إلى السنة النبوية للتعرف عليها وذلك بغية التعبد بها على الوجه الصحيح.

٤ - في القرآن الكريم آيات تنبئ عن مغيبات توقف الرسول صلى الله عليه وسلم

(١) الإتيان في علوم القرآن ١٧٤/٢.

(٢) السيوطي في الإتيان ١٩٣/٢.

عن تفسيرها فلا نملك إلا أن نؤمن بها ونكتفي بالظاهر فيها.

٥ - في القرآن الكريم آيات متشابهات، تعبر عن موضوعات لا يمكن إدراكها إلا بنوع من التأويل، ولا يملك التأويل في هذا إلا الراسخون في العلم من المفسرين.

٦ - في القرآن الكريم آيات كريمة ومفردات يفهمها العالم بأصول اللغة العربية وقواعدها أما من خفيت عليه قواعد اللغة ولو قاعدة واحدة اضطره الأمر إلى أن يستعين بالمفسرين.

٧ - لو كان المفروض بأمة الإسلام أن تحيط بمغاني القرآن الكريم بمجرد تلاوته لما بقيت فائدة من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لابن عباس بأن يعلمه الله التأويل.

وعليه فإن التفسير أشرف العلوم وأسناها على الإطلاق وذلك لتعلقه بأقدس موضوع فيكفيه شرفاً أنه يبحث في كلام الله ويكفي رواه نبلاً أنهم يستتيرون بهديه لمعرفة الصراط المستقيم فيتبعوه ويدعون إليه فيسعدون ويسعدون.

حاجة الأمة اليوم إلى التفسير والمفسرين:

بعد أن تأكد لدينا آنفاً أن أمة الإسلام كانت بحاجة إلى تفسير القرآن في وقت مبكر جداً، أي في الوقت الذي كانت تشهد فيه مطلع النور ونزول الوحي. وكلما ابتعد الناس عن عصر التنزيل كلما اشتدت حاجتهم إلى التفسير وإلى هذا أشار السيوطي بقوله: (ونحن محتاجون إلى ما كانوا يحتاجون إليه وزيادة على ذلك مما لم يحتاجوا إليه من أحكام الظواهر لقصورنا عن مدارك أحكام اللغة بغير تعلم فنحن أشد الناس احتياجاً إلى التفسير)^(١).

أقول: إن كان السيوطي قد قال هذا قبل خمسة قرون فماذا عسانا أن نقول نحن اليوم عن حاجتنا إلى تفسير ومفسرين خاصة بعد أن ظهرت مطامح الكفر في تحريف معاني القرآن بما يخدم مصالحهم وذلك بمحاولة إيجاد مدرسة للتفسير تخدم الإلحاد الماركسي وأخرى تخدم النظام الرأسمالي كل ذلك بأقنعة زائفة؟.

فالأمة اليوم بحاجة إلى مفسرين وخاصة بعد أن جدّت أمور لم تكن لا بد من التعرف عليها إن كانت تندرج تحت كليات عامة ذكرت في القرآن أو يمكن انطباق أحكام جزئية عليها على أن أسلوب التفاسير القديمة باعتباره جمعاً للتفسير هو نوع من أنواع التأليف من حيث الشكل والعرض، وهو أسلوب المؤلفات المطوّلة لا يجد أبناء

(١) الاتقان ١٧٤/٢ ويزعم صاحب القراءة المعاصرة في ص ١١٥: «أنّ التّيه الأكبر في كتاب التفسير» وذلك لتفقد الأمة ثقفتها بعلوم دينها وكتاب ربها ؟! ..

هذا الجيل رغبة وشغفاً بقراءة هذه التفاسير إلا لمن تعود على قراءة المطولات من المؤلفات، وقليل ما هم. ولهذا كان لابد من أسلوب يبعث الرغبة في المسلمين فضلاً عن غيرهم لقراءة التفاسير ككتاب فكري عميق الفكر مستنير، وفوق ذلك فإن ما سار عليه المفسرون في العصر الذي جاء بعد وجود ترجمة الكتب الفلسفية والتأثر بها، وفي العصر الذي أتبع الحروب الصليبية، فقد أدى إلى وجود تفاسير صرفت جهداً كبيراً نحو العناية بأمور ليست ذات علاقة وثيقة بالتفسير فضلاً عما تراكم فيها من الإسرائيليات والعقائد الباطنية. فكان لابد من تفسير للقرآن يجري على سُنَن تفسير الصحابة من حيث الاجتهاد في فهم القرآن والاستعانة بما نقل من تفسير عن الصحابة بأسلوب يتفق مع الذوق الأدبي لهذا العصر بعبارة واضحة. كل ذلك على أسس من منهج السلف في العقيدة. فما أشبه حاجتنا إلى التفسير بحاجة مريض بين يديه دواء يشفيه إلا أنه يجهل استعماله فيبقى في علته متظراً الموت. أو بحاجة عطشان بيده إناء محكم الرتاج^(١) وفيه العذب الفرات فلا يمكنه أن يبل منه غلته أو يشفي علته إلا إذا فتح رتاجه، فإن لم يعقل فتحه قتله الظماً والماء بين جنبيه.

ويدعي أصحاب القراءة المعاصرة تحت ما أسموه بـ«الكتاب والقرآن» الذي أصدره باسم المدعو «محمد شحرور» أنهم أتوا في هذا الكتاب بمنهج جديد في تفسير القرآن ليكون البديل عن منهج المسلمين، وقد أقاموه على أساس فلسفي جدلي لاصلة له بأي وجه من وجوه المعرفة بالعلوم العربية والشرعية، حيث خرجوا فيه عن جميع الضوابط الشرعية والمصطلحات العلمية والمعاني اللغوية. حيث يقول ناطقهم في ص ٣٨: «لقد أجرينا مسحاً شاملاً للكتاب «وجدنا» فيه مفهوم المصطلحات الأساسية وهي: الكتاب وأم الكتاب والقرآن والسبع المثاني والذكر والفرقان وتفصيل الكتاب والحديث وأحسن الحديث والعرش والكرسي والألوهية والربوبية والرسالة» فوضعوا مدلولات غريبة ومشكلة قد وُضعت بشكل جدلي فلسفي يدعو إلى تحريف كل دلالات القرآن العظيم بما يتفق مع الأفكار الاستشراقية والإلحادية. ففي ص ٤٠ «إن قوانين الجدل المادي وتغيير الصيرورة «التطور» هي العمود الفقري لقوانين الوجود في القرآن «النبوة». وفي صدر ص ٤٠ «للنبوة «القرآن» وهي الوجود الكوني...» وفي ص ٨٠ «إن القرآن جاء من «قرن» وهو من جُنع الجزء الثابت مع قوانين الكون والموجود في اللوح المحفوظ مع الجزء المتغير الموجود في الإمام المبين» وفي ص ٩٥ «الحديث: هو القرآن، لأنه قرن أحداث الكون مع أحداث التاريخ» وعلى هذه المغالطات الجدلية السفسطائية قامت جميع أبحاث هذا الكتاب المزعوم.

(١) الرتج والرتاج: الباب العظيم وقيل هو الباب المغلق.

البحث الأول

تاريخ مراحل تفسير السلف

١ - التفسير في عهد النبي صلى الله عليه وسلم:

أنزل الله تعالى قرآنًا عربيًّا على نبيه الأمي محمد صلى الله عليه وسلم ليلبِّغه ويبيِّته للناس كافة ومنهم العرب الذين غلبت عليهم الأمية فنعثوا بها. قال تعالى: ﴿وهو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته، ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلالٍ مبين﴾ (سورة الجمعة آية ٢).

فالآية تشير إلى أن إحدى وظائف النبي الكريم الذي أنزل عليه القرآن أن يعلمه للناس ويؤكد هذا قوله تعالى: ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم﴾ (سورة النحل آية ٤٤). ولا إشكال في هذا لأن الله تعالى تكفل بتعليم نبيه محمد صلى الله عليه وسلم عن طريق الوحي القرآن الكريم تلاوةً ودرايةً وحفظاً إذ لما حاول النبي صلى الله عليه وسلم أن يكثر من تلاوته خشية ضياعه طمأنه الله بقوله: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه. فإذا قرأناه فاتبع قرآنه. ثم إن علينا بيانه﴾ (سورة القيامة آية ١٦ - ١٩). فاعتبرت تعاليم النبي صلى الله عليه وسلم من تعاليم الله لقوله تعالى: ﴿وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى﴾ (سورة النجم آية ٣).

ولقد أكدت آنفاً الحاجة الملحة إلى تفسير القرآن الكريم رغم وضوح بيانه وإشراق عباراته فأوكل الله تعالى هذا الأمر إلى نبيه محمد صلى الله عليه وسلم.

أ - هل فسر الرسول صلى الله عليه وسلم القرآن كله؟

قال السيوطي: (صرح ابن تيمية وغيره بأن النبي صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه تفسير جميع القرآن أو غالبه ويؤيد هذا ما أخرجه أحمد وابن ماجه عن عمر أنه قال:

من آخر ما نزل آية الربا وأن الرسول صلى الله عليه وسلم قبض قبل أن يفسرها. دل فحوى الكلام على أنه كان يفسر لهم كل ما نزل وإنما لم يفسر هذه الآية لسرعة موته بعد نزولها وإلا لم يكن للتخصيص بها وجه^(١) ١ هـ. كلام السيوطي.

(١) الاتقان ٢/٢٠٥.

قلت: يشير السيوطي في كلامه هذا إلى ما قاله ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير الذي سيرد ذكره لاحقاً إن شاء الله. والسيوطي على جلالته قدره لم يصل إلى فهم واحد مما قاله ابن تيمية لهذا أورد احتمالين لمراد ابن تيمية: إما أن يكون مراد ابن تيمية أن النبي صلى الله عليه وسلم فسر القرآن كله، أو فسر غالبه. بينما يقرر الشيخ محمد حسين الذهبي أن مراد شيخ الإسلام أن النبي صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه كل معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه^(١).

وهذا يعني أن مقالة ابن تيمية في مقدمة أصول التفسير تحتل أكثر من معنى مما يتعين عرض مقالته وتحليلها.

قال ابن تيمية رحمه الله: (يجب أن يعلم أن النبي صلى الله عليه وسلم بين لأصحابه معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه. فقوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لَتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ يتناول هذا وهذا^(٢) ١ هـ. ثم استدل شيخ الإسلام على ما جنح إليه بما جاء عن أبي عبد الرحمن السلمي قال: حدثنا الذين كانوا يقرئونا القرآن، كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود وغيرهما أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي صلى الله عليه وسلم عشر آيات لم يجاوزها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل. قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة^(٣).

ثم قال ابن تيمية: (ومن المعلوم أن كل كلام فالمقصود منه فهم معانيه دون مجرد ألفاظه فالقرآن أولى بذلك وأيضاً فالعادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم كالطب والحساب ولا يستشرحوه فكيف بكلام الله تعالى الذي هو عصمتهم وبه نجاتهم وسعادتهم وقيام دينهم ودنياهم)^(٤) ١ هـ.

ب - كيفية التفسير في عهد النبي صلى الله عليه وسلم:

١ - كان النبي عليه الصلاة والسلام إذا نزلت عليه آية بادر أحياناً بتوضيح ما خفي منها إذ لما نزل قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ﴾ (سورة الأنفال ٦٠) قال عليه الصلاة والسلام: ألا وإن القوة الرمي^(٥).

(١) التفسير والمفسرون: الدكتور محمد الذهبي ٤٩/١.

(٢) مقدمة في أصول التفسير ٣٥.

(٣) أخرج الطبري الأثر من وجه آخر في تفسيره ٢٧/١.

(٤) مقدمة في أصول التفسير ٣٥ - ٣٧.

(٥) أخرجه أحمد عن عتبة بن عامر في مسنده ١٥٦/٤٥.

٢ - كانت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم في حياته وعبادته تفسيراً لما أجمله القرآن الكريم. إذ فسر معنى الصلاة بعمله وقال: (صلوا كما رأيتموني أصلي) وفسر معنى الحج بعمله فقال: (خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ). وهكذا فسر الأحكام والجهاد حتى الآيات المتعلقة بالأخلاق فقد فسرهما تطبيقاً بعمله سئلت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها عن خلق رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت: (كان خلقه القرآن).

٣ - كان السائل يأتيه فيسأل عليه الصلاة والسلام عن شيء مما في القرآن فأحياناً يجيبه فوراً وأحياناً يتوقف في الإجابة حتى يأتيه خبر السماء. وقد يأتي الوحي حالاً وقد يتأخر بأمر الحكيم العليم سبحانه. وقد يسألونه عليه الصلاة والسلام للاختبار وللتأكد من صدق رسالته فيأتيه المدد من السماء ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ ذِي الْقُرْآنَيْنِ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْرًا﴾ (سورة الكهف ٨٣). وقد يسألون النبي صلى الله عليه وسلم عن أمور يخبر الوحي أن علمها عند الله ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ (سورة الإسراء ٨٥).

أورد السيوطي في آخر الاتقان بعضاً من أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم في التفسير مرتبة حسب سور القرآن الكريم منها الصحيح ومنها الضعيف والحسن.

ج - ميزة التفسير في عهد النبي صلى الله عليه وسلم:

١ - مصدر التفسير في هذه الفترة كان وحياً من السماء، سواء ما نزل من آيات أو ما قاله النبي صلى الله عليه وسلم وكلاهما وحي، لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ (سورة النجم ٣)، ولقول النبي صلى الله عليه وسلم: (ألا وإنني أوتيت الكتاب ومثله معي ألا يؤشك رجل شعبان على أريكتي يقول: عليكم بهذا القرآن فما وجدتم فيه من حلال فاحلوه وما وجدتم فيه من حرام فحرّموه)^(١).

٢ - كان هذا التفسير هو الفيصل في كل خلاف يمكن أن يقع.

٣ - وأما عن تدوينه، فقد ثبت فيما لا مجال للشك فيه من أن النبي صلى الله عليه وسلم كان له كتاب للوحي كتبوا في عهده القرآن الذي عرف فيما بعد بالنسخة الأم وكان بعض الصحابة يكتبون أيضاً لأنفسهم وحركة التدوين (بمعنى الكتابة) كانت معروفة في عهد النبي صلى الله عليه وسلم لقوله عليه الصلاة والسلام: (من كتب عني شيئاً غير القرآن فليمحّه). ولكن السؤال: هل كتب التفسير

في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم؟

تُبَيِّنُ الرواياتُ أن في مصحف أم المؤمنين عائشة كتب (صلاة العصر) عند قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى﴾ (سورة البقرة آية ٢٣٨)^(١) إشارة إلى تفسير الرسول صلى الله عليه وسلم الصلاة الوسطى: بصلاة العصر. إذ أخرج الترمذي وابن حبان عن ابن مسعود، وأحمد والترمذي عن سمرة، والطبري عن أبي هريرة: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: (صلاة الوسطى صلاة العصر)^(٢) والغالب أن التفسير لم يكن مدوناً وقتئذ. والله أعلم.

٢ - التفسير في عهد الصحابة رضي الله عنهم:

تبدأ هذه المرحلة بوفاة النبي صلى الله عليه وسلم وتنتهي بوفاة آخر صحابي تكلم في التفسير.

أ - من اشتهر بالتفسير من الصحابة مع أصح الأسانيد الموصلة إلى مروياتهم فيه:

اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة رضي الله عنهم وهم:

الخلفاء الأربعة، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير. وهناك آخرون من الصحابة لهم روايات في التفسير ولكنهم لم يشتهروا به منهم: أنس بن مالك، وأبو هريرة، وجابر بن عبد الله، وعبد الله بن عمرو بن العاص^(٣).

وأكثر من روي عنه في التفسير من الصحابة ابن عباس ومن الخلفاء الأربعة علي بن أبي طالب، وأما الرواية عن الخلفاء الثلاثة الباقية فنادرة جداً. ويعيد السيوطي^(٤) ومن جاء بعده سبب هذه التزرة إلى تقدم وفاتهم. إلا أنني لا أعتقد أن هذا هو السبب، فعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان عاشا بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فترة طويلة يمكنهما خلالها أن يرويا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من التفسير ما يشاءان إلا أنهما لم يفعلوا، وذلك لأن اشتغالهما برواية الحديث أصلاً قليلة، وعمر رضي الله عنه بصورة خاصة كان يحبذ التقليل من الرواية والاكتفاء بها على قدر الحاجة لتحصان من العبث، وهو الذي قيل إنه ضرب بدرته أبا هريرة لما أكثر من الرواية. كما استدلل لما

(١) انظر الدر المنثور ٣٠٢/١.

(٢) الاتقان في علوم القرآن: للسيوطي ١٩٢/٢.

(٣) الاتقان ١٨٧/٢. وكشف الظنون ٤٢٨.

(٤) الاتقان في علوم القرآن للسيوطي ج ٢/ ١٨٧.

ذهبت إليه من أن السبب في النزرة يعود إلى قلة الرواية بما قاله السيوطي: (ولا أحفظ عن أبي بكر رضي الله عنه في التفسير إلا آثاراً قليلة جداً لا تكاد تتجاوز العشرة)^(١).

كما أن ابن مسعود وأبي بن كعب كانا أكثر الصحابة اشتغالا في التفسير وروايته بعد ابن عباس وعلي ولعل السبب في هذا تفرقهم في البلاد معلمين فكثرت الناس عليهم يسألونهم ويستفتونهم ولم يجدوا بداً من إجابتهم لعدم جواز كتم العلم. فإذا تكلمنا عن شخصية هؤلاء الأصحاب الأربعة في التفسير رضوان الله عليهم يمكننا معرفة الجوهر التفسيري العام في هذه المرحلة.

علي بن أبي طالب رضي الله عنه:

ابن عبد المطلب القرشي الهاشمي. ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وزوج ابنته الزهراء فاطمة رضي الله عنها، أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم وهو أول هاشمي ولد من هاشمية ورابع الخلفاء الراشدين وأول خليفة من بني هاشم^(٢) وهو أول صبي دخل في الإسلام. وله من المناقب ما يضيق المقام لحصرها ويكفي أن نقول: إنه من الخيار البررة المبشرين بالجنة. خَرَّ شهيداً في الكوفة وهو ينادي لصلاة الفجر في رمضان عام ٤٠ هـ. ومكانته العلمية لا تخفى فقد وردت عشرات الأخبار والآثار الصريحة الدالة على سعة علمه وقد ولاه الرسول صلى الله عليه وسلم قضاء اليمن وبرع في هذا الفن حتى صار يضرب به المثل ويقال: قضية ولا أبا حسن لها. ولمن يود المزيد يرجع إلى ماجاء في الإصابة عنه. وأسد الغابة وغيرهما من تراجم الصحابة.

(وأما علي فقد روي عنه الكثير وقد روى معمر عن وهب بن عبد الله عن أبي الطفيل قال: (شهدتُ علياً يخطب وهو يقول: سلوني فوالله لا تسألون عن شيء إلا أخبرتكم وسلوني عن كتاب الله فوالله ما من آية إلا وأنا أعلم بليل نزلت أم بنهار أم في سهل أم في جبل). وأخرج أبو نعيم في الحلية عن ابن مسعود قال: (إن القرآن أنزل علي سبعة أحرف ما منها حرف إلا وله ظهر وبطن وإن علي بن أبي طالب عنده من الظاهر والباطن) وأخرج أيضاً من طريق أبي بكر ابن عياش عن نصير بن سليمان الأحمسي عن أبيه عن علي قال: (والله ما نزلت آية، إلا وقد علمت فيم أنزلت وأين

(١) الاتقان في علوم القرآن: للسيوطي ج ٢ / ١٨٧.

(٢) التفسير والمفسرون ١ / ٨٨.

أنزلت إن ربي وهب لي قلباً عقولاً ولساناً سؤولاً^(١) .

ب - مصادر التفسير في عصر الصحابة رضي الله عنهم :

لابد لكل قضية علمية هادفة - حسب أبسط القواعد العلمية المنهجية - أن يصطلح أولاً على معاني الألفاظ الواردة في البحث - فإن أردنا مثلاً الحديث هنا عن مصادر التفسير في عصر الصحابة لابد والحالة هذه من أن نحدد المفهوم الذي نريده من كلمة (مصادر) فعلية: أعني بالمصادر هنا تلك المراجع التي نقل عنها المفسرون وأدرجوا ما نقلوه عنها في تفاسيرهم بغض النظر عن الاتجاه الذي اتجهه كل واحد منهم في تفسيره مما يوضح هذا التباين بين هذا المفهوم الذي أعنيه لكلمة المصادر وبين (المصادر) كمفهوم لما اعتمد عليه المفسرون في تفسير كل منهم للقرآن حسب الفكرة التي يعلمها كالتوحيد والفقه والبلاغة والتاريخ وما شاكل ذلك فهي ليست مصادر للتفسير، بل هي الأمور التي أثرت على المفسر فتحاً نحواً معيناً في التفسير.

١ - القرآن الكريم :

ويعتبر أهم مصدر من مصادر التفسير لأدلة نقلية وعقلية فمن الأدلة النقلية قول الله تعالى: ﴿... فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ...﴾ (سورة النساء ٥٩). فعندما نحمل آية غمض علينا تفسيرها على آية أخرى تفسرها نكون بذلك رددنا الأمر إلى الله. وأما الدليل العقلي فهو أن القائل أحق من غيره في تفسير مقوله. ثم أن القرآن الكريم هو المصدر الأول من مصادر الإسلام فيعتبر بالضرورة المصدر الأول في التفسير.

ولهذه الاعتبارات أطبقت الأمة سلفاً وخلفاً على أن أصح طرق التفسير أن يفسر القرآن بالقرآن كما ذكر ذلك ابن تيمية^(٢) وغيره من أساطين العلم. والتزمت أمة الإسلام بهذا النهج من عهد الصحابة وصدر الإسلام إلى اليوم.

كيف تتم عملية تفسير القرآن بالقرآن :

من المعلوم أن القرآن تناول شتى ضروب البلاغة والبيان والمعاني فمن أسلوبه أنه يجمل في موضع ويبين ما أجمله في موضع آخر ويعمم أمراً ما في سورة ويخصه في أخرى أو يقيد حكماً في مكان ويطلقه في مكان آخر من القرآن الكريم وهكذا...

(١) الاتقان في علوم القرآن: للسيوطي ١٨٧/٢ .

(٢) المقدمة في أصول التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية ٩٣ .

فتفسير القرآن بالقرآن يكون بحمل المجمل على المبين كقوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ (سورة البقرة/ ٣٧) فالكلمات هنا وردت مجملة بينها قوله تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة الأعراف/ ٢٣). فحمل المجمل على المبين وفسر به.

وكقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ﴾ (سورة المائدة/ ٣). فالميتة هنا عامة ولكن خصصت بميتة البر بقوله تعالى: ﴿أَحْلَلَّ لَكُم صَيْدُ الْبَحْرِ وَطَعَامُهُ مَتَاعاً لَكُمْ وَلِلْغِيَارَةِ﴾ (سورة المائدة/ ٩٦) فحمل العام هنا على الخاص... وكقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالْدَّمُ﴾ (سورة المائدة/ ٣). فالدم جاء مطلقاً هنا قيده قوله تعالى بالدم المسفوح في قوله جل وعلا: ﴿... إِلَّا أَنْ يَكُونَ مَيْتَةً أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا﴾ (سورة الأنعام/ ١٤٥). فحمل المطلق على المقيد^(١) هنا. وكذا الحال في جميع ما يتوهم أنه مختلف أو غامض. ومثل هذا حمل قراءة صحيحة على أخرى فاختلف القراءات يساعد على التفسير ويوضحه وهكذا...

علماً بأنه يشترط فيمن يفسر بهذه الطريقة أن يكون واسع العلم متمكناً من اللغة وأساليبها ورعاً يتغني بذلك وجه الله.

ومن المفيد أن نذكر هنا أن الأمة الإسلامية أسهمت في استنباط كثير من المعاني بطريقة تفسير القرآن بالقرآن حتى أضحت مدرسة خاصة لها أصولها ورجالها ومؤلفاتها وآخر ما صدر عن هذه المدرسة: أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن وهو تفسير كتبه الشيخ العلامة محمد الأمين الشنقيطي الجكني الذي لم تمهله المنية لإتمامه إذ صدر منه ستة مجلدات فقط تغمده الله بواسع رحمته وكذا تفسير الشيخ عبد الكريم الخطيب.

٢ - السنة المطهرة:

وهي المصدر الثاني للتفسير بعد القرآن الكريم وتتمثل بأقوال وأفعال وتقارير الرسول صلى الله عليه وسلم.

فمن أقواله صلى الله عليه وسلم في التفسير ما أخرجه الطبري والترمذي وغيرهما عن سمرة بن جندب أن النبي صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى

(١) وللعلماء أقوال في حمل المطلق على المقيد لامجال لتناولها هنا.

الصلوات والصلوة الوسطى﴾ (سورة البقرة ٢٣٨). قال: (صلوة الوسطى صلاة العصر)^(١).

ومثل ما روي عن علي كرم الله وجهه أنه قال: ﴿سألتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم عن يوم الحج الأكبر - في قوله تعالى: ﴿وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ﴾ (سورة التوبة ٣). قال: يوم النحر^(٢)... إلا أن هذا النوع وأعني به السنة القولية للتفسير في غاية القلة كما قال السيوطي^(٣). علماً بأن هذا القدر من التفسير المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم قلَّ أو كَثُرَ له حكم الأحاديث الواردة عن النبي صلى الله عليه وسلم من حيث قوتها فيمكن تصنيفها إلى صحيح وحسن ولين وضعيف وموضوع... الخ.

وأركز على هذه النقطة لأن كثيراً ممن كتب في هذا الشأن أبدى تخوفه من هذه الأحاديث بحجة أن القصاص زادوا فيها كثيراً ووضعوا على لسان النبي ما لم يقله واستشهدوا بما نقل عن الإمام أحمد أنه قال: (ثلاثة ليس لها أصل: التفسير والملاحم والمغازي)^(٤). وعجبت لهذا التخصيص لأن الوضعيين والقصاصين كذبوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الأحاديث وفي غيرها فقام علماء الحديث في وقت مبكر جداً ومحصوا في السنة النبوية برمتها وبينوا الصحيح فيها من الضعيف وانسحب هذا التمهيص على كل ما روي عن رسول الله صلى الله عليه وسلم. وبذلك أصبحت الأحاديث المرفوعة إلى الرسول صلى الله عليه وسلم في التفسير كغيرها من الأحاديث معروفة الحال قوة وضعفاً. ولهذا لا أرى مبرراً لما أثاره المعاصرون من مثل هذا التخوف والله أعلم.

إن السنة العمليّة وهي حياة الرسول صلى الله عليه وسلم في عبادته وجهاده وحكمه وأخلاقه كانت هي الأخرى تفسيراً للقرآن الكريم وتطبيقاً لمعانيه فأركان الإسلام في القرآن جاءت مجملة بيّنها الرسول صلى الله عليه وسلم بتطبيقه لها. ولقد أدرك السلف أهمية السنة في تفسير القرآن لما رواه الأوزاعي عن حسان بن

(١) أخرجه الترمذي في جامعه ٢١٧/١.

(٢) أخرجه الطبري في تفسيره بطرق. وكذا الترمذي في جامعه ٢٧٤/٥.

(٣) الاتقان في علوم القرآن: للسيوطي ١٧٩/٢.

(٤) نسبة الشيخ الذهبي إلى فجر الإسلام صفحة ٢٤٥ - التفسير والمفسرون للدكتور محمد خير الذهبي ٤٧/١.

عطية أنه قال: (كان الوحي ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم ويحضره جبريل بالسنة التي تفسر ذلك)^(١) وعن مكحول قال: القرآن أحوج إلى السنة من السنة إلى القرآن^(٢).

٣ - الرأي:

وأعني به: (الاجتهاد في التفسير). ذلك أن المفسر يعرف كلام العرب ومفردات اللغة ومعانيها وأساليبها مستعيناً بما ورد مثله في الشعر الجاهلي والنثر ونحوهما، ويقف على ماصح عنده من أسباب نزول الآية فيستعين بهذه الأدوات في التفسير حسب ما أداه إليه فهمه واجتهاده وعليه فالتفسير بالرأي لا يعني أن يقول المفسر في الآية ما يشاء وما تتطلبه رغبته إنما هو فهم الجمل بواسطة مدلولاتها التي تدل عليها المعلومات اللغوية والثقافية التي توفرت لدى المفسر ليس إلا.

وقد كان كثير من المفسرين من الصحابة يفسرون بالرأي^(٣) خاصة بعد أن ثبت أن السنة لم تشمل في بيانها كل القرآن وهذا سبب اختلافهم أحياناً في تفسير الكلمة الواحدة مما يدل هذا على اعتمادهم على فهمهم الخاص مما لا نص فيه. وأضرب لهذا مثلاً: فقد اختلفوا في معنى (الشاهد والمشهود واليوم الموعود) على أحد عشر قولاً نُسبَ جلّها إلى الصحابة أو ردتها بالتفصيل في قسم التفسير من هذه الدراسة عند تفسير سورة البروج. ومثل هذا عن اختلافهم في معنى الطور في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ﴾ (سورة البقرة ٩٣). فمنهم من قال الطور: مطلق الجبل، وآخر قال جبل بعينه وثالث يرى أنه ما انبث من الجبال، فهذا الاختلاف بين الأصحاب ناشئ عن اختلاف في الاجتهاد والرأي لانتيجة للاختلاف في المنقول. هذا فيما يتعلق باللفظة الواحدة فما بالك حين يكون الرأي لمدلول جملة لا معنى لفظة.

ويعلل ابن تيمية رحمه الله اختلاف الصحابة فيقول: (وخلافهم في الأحكام أكثر من خلافهم في التفسير. وغالب ما يصح عنهم من الخلاف يرجع إلى اختلاف تنوع لا اختلاف تضاد وذلك صنفان أحدهما: أن يعبر كل واحد منهما عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر مع اتحاد المسمى بمنزلة

(١) تفسير القرطبي ٣٩/١.

(٢) تفسير القرطبي ٣٩/١.

(٣) ولقد حددت في بداية هذا البحث المقصود به وهو الاجتهاد وقوة الاستنباط.

الأسماء المتكافئة التي بين المترادفة والمتباينة كما قيل في اسم السيف: الصارم والمهند^(١).

ج - حكم تفسير الصحابي :

قال النووي: (وأما قول من قال تفسير الصحابي مرفوع فذاك في تفسير يتعلق بسبب نزول آية أو نحوه)^(٢).

قال الزركشي: (تفسير الصحابي بمنزلة المرفوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم كما قاله الحاكم في تفسيره)^(٣).

ولكن هناك تفصيل في هذه المسألة أوردها السيوطي عن الزركشي قال السيوطي:

(قال الزركشي: الحق أن علم التفسير منه ما يتوقف عن النقل كسبب النزول والنسخ وتعيين المبهم وتبيين المعجل ومنه ما لا يتوقف ويكفي في تحصيله الثقة على الوجه المعبر... واعلم أن القرآن قسمان: قسم ورد تفسيره بالنقل وقسم لم يرد والأول إما أن يرد عن النبي صلى الله عليه وسلم أو الصحابة أو رؤوس التابعين فالأول يبحث فيه عن صحة السند والثاني ينظر في تفسير الصحابي فإن فسر من حيث اللغة فهم أهل اللسان فلا شك في اعتماده أو بما شاهده من الأسباب والقرائن فلا شك فيه)^(٤)

نستخلص من هذا النص ما يلي :

١ - أن مارفه الصحابي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو في حكم المرفوع.

٢ - ما فسرهُ الصحابي فيما يتعلق بسبب النزول والنسخ وتعيين المبهم والمعجل مما لا دخل للرأي فيه. فهو في حكم المرفوع أيضاً.

٣ - قال ابن كثير في مقدمة تفسيره: (... وحيث إذا لم نجد التفسير في القرآن ولا في السنة رجعنا في ذلك إلى أقوال الصحابة فإنهم أدري بذلك لما شاهدوا من القرائن والأحوال التي اختصوا بها. ولما لهم من الفهم التام والعلم الصحيح والعمل الصالح ولا سيما علماؤهم وكبرائهم كالأئمة الأربعة والخلفاء الراشدين: والأئمة

(١) مقدمة في أصول التفسير لشيخ الإسلام ابن تيمية ٣٨.

(٢) تدريب الراوي للحافظ السيوطي ١٩٣/١.

(٣) البرهان في علوم القرآن: للزركشي ١٥٧/٢.

(٤) الاتقان في علوم القرآن: للسيوطي ١٨٣/٢.

المهتدين المهديين وعبد الله بن مسعود رضي الله عنهم^(١).

قلت: والظاهر أن مذهب جمهور المحققين والأصوليين في تفسير الصحابي ما أفادته النصوص المذكورة وهو الراجح والله أعلم.

د - ميزات التفسير في عهد الصحابة:

١ - لم يفسر القرآن كله، لأن الصحابة رضوان الله عليهم لقرب عهدهم بالوحي ومعاصرتهم لنزوله لم يكونوا بحاجة إلى أن يفسروا من القرآن إلا ما غمض عليهم إذ كلما ابتعد الناس عن عصر النبي صلى الله عليه وسلم كانوا أكثر حاجة لتفسير القرآن الكريم.

٢ - قلة الاختلاف بين الصحابة في فهم معانيه - لأن عقيدتهم كانت نقيّة واتجاهاتهم كانت موحدة وأفكارهم متقاربة وخالية من التكلف والشطط.

٣ - كانوا يكفون بالمعنى الإجمالي ولا يلزمون أنفسهم بفهم معانيه على سبيل التفصيل وكانوا أيضاً كثيراً ما يقتصرون على إدراك المعنى اللغوي الذي فهموه بأخصر لفظ. فيكفي أن يفهموا من مثل قوله تعالى: ﴿وفاكهةً وأباً﴾ أنها تعداد للنعم التي أنعم الله بها على عباده. وقد تراجع عمر بن الخطاب في البحث عن الأب في قوله تعالى: ﴿وفاكهةً وأباً﴾ وقال: إنه التكلف يا عمر. ويكفي أن يفهموا من قوله تعالى: ﴿خير متجانف لإثم﴾ أي غير معترض لمعصية.

٤ - وكان التفسير في هذه المرحلة جزءاً من الحديث النبوي وفرعاً من فروعه.

٥ - لم يكن التفسير مرتباً حسب النزول بل كانت تفاسيرهم متناثرة كما كان الشأن في رواية الحديث.

٦ - ندرة الاستنباط الفقهي من الآيات الكريمة لعدم جهلهم في الغالب بالأمور الفقهية إذ كانت سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم وتطبيقه لأحكام الشرع ماثلة غضة في أذهانهم وهم الذين عاشوها مع الرسول صلى الله عليه وسلم.

٧ - خلو تفسيرهم من المذاهب الكلامية.

٣ - التفسير في عهد التابعين:

وهي المرحلة الثالثة في نظري. وتبدأ بانتهاء عهد الصحابة وتنتهي بانتهاء عهد التابعين

(١) مقدمة تفسير ابن كثير ٣/١ ط. الحلية.

اتسعت رقعة الفتوحات الإسلامية فانتشر بعض من الصحابة في الأمصار معلمين ودعاة. فذهب ابن عباس إلى مكة المكرمة - وسير عمر بن الخطاب عبد الله بن مسعود إلى الكوفة بكتاب لأهلها قال فيه: (إني قد بعثت عمار بن ياسر أميراً، وعبد الله بن مسعود معلماً ووزيراً وهما من النجباء من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم من أهل بدر فاقتدوا بهما، وأطيعوا واسمعوا قولهما. وقد أئرتكم بعبد الله على نفسي) اهـ. وأما سيد القراء أبي بقي في المدينة المنورة. وأخذ هؤلاء الصحابة يعلمون التابعين الذين ازدحموا حولهم يتلقون منهم علوم التفسير والحديث. فنشأت بذلك ثلاث مدارس للتفسير عرفت فيما بعد: بمدرسة التفسير بمكة ورائدة ابن عباس. ومدرسة المدينة المنورة وكان شيخها سيد القراء أبي بن كعب. ومدرسة الكوفة أسسها عبد الله بن مسعود فلما انقضى عهد الصحابة تولى تلاميذه هذه المدارس من التابعين حركة التفسير فيها. أتى ابن تيمية على ذكر هذه المدارس فقال: (وأما التفسير فأعلم الناس به أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة مولى ابن عباس وغيرهم من أصحاب ابن عباس كطاووس وأبي الشعثاء وسعيد بن جبير وأمثالهم وكذلك أهل الكوفة من أصحاب ابن مسعود، ومن ذلك ما تميزوا به عن غيرهم، وعلماء أهل المدينة في التفسير مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير وأخذ عنه أيضاً ابنه عبد الرحمن وعبد الله بن وهب^(١)).

مدرسة مكة المكرمة:

اشتهر من تلاميذ ابن عباس فيها: سعيد بن جبير، ومجاهد وعكرمة مولى ابن عباس، وطاووس بن كيسان اليماني، وعطاء بن أبي رباح.

١ - سعيد بن جبير: بن هشام الأسدي الوالبي مولاهم، كان حبشي الأصل أخذ القراءة عن ابن عباس عرضاً وسمع منه التفسير، وكان يتورع عن التفسير برأيه وروي عنه قوله: (لأن يسقط شقي أحب إلي من ذلك) ولقد جمع من العلوم ما جعله ينال ثقة ابن عباس به فيحيل إليه من يستفنيه. أجمع علماء الجرح والتعديل على توثيقه. قتله الحجاج بن يوسف الثقفي صبراً ستة خمس وتسعين.

مجاهد بن جبر:

أبو الحجاج المخزومي مولى السائب بن أبي السائب ولد سنة إحدى وعشرين

(١) مقدمة في أصول التفسير لشيخ الاسلام ابن تيمية/ ٦١.

وتوفي وهو ساجد بمكة المكرمة سنة أربع ومائة. وكان أوثق تلاميذ ابن عباس وأقلهم رواية عنه، والبخاري في قسم التفسير من صحيحه يعتمد على رواية مجاهد، أخرج الطبري بسنده إلى مجاهد قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية منه وأسأله عنها^(١) وأخرج عن الثوري قال: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به^(٢).

والذي يظهر من تفسير مجاهد أنه يطلق لدهنه تفسير بعض الآيات. فقد أخرج الطبري عن مجاهد في قوله تعالى: فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين قال. (لم يمسخوا إنما هو مثل ضربه الله لهم مثل ماضرب مثل الحمار يحمل أسفارا)^(٣).

جاء في ميزان الاعتدال للذهبي أن أبا بكر عياش قال: قلت للأعمش: ما بال تفسير مجاهد مخالف؟ أو ما بالهم يتقون تفسير مجاهد؟ قال: كانوا يرون أنه يسأل أهل الكتاب^(٤).

تفسير مجاهد:

أغلب الروايات المشهورة عن مجاهد في التفسير من رواية ابن أبي نجيج وتأكد لدي هذا بعد اطلاعي على تفسير مجاهد المطبوع بتحقيق الشيخ عبد الرحمن السورتي. والمعلوم أن ابن أبي نجيج لم يسمع التفسير من مجاهد إنما الذي سمعه فقط من القاسم ابن أبي حمزة أملاه عليه - فابن أبي نجيج والليث بن أبي سليم والحاكم أخذوا تفسير مجاهد من كتاب القاسم ابن أبي حمزة وقد روه إجازة عن مجاهد. وذلك للدليل التالي:

أخرج البسوي قال: سئل علي: سمع ابن أبي نجيج التفسير من مجاهد؟ قال. لا، وقال سفيان بن عيينة: (لم يسمعه أحد من مجاهد إلا القاسم ابن أبي حمزة أملاه عليه، وأخذ كتابه الحكم وليث وابن أبي نجيج^(٥)).

وأخرج البسوي أيضاً عن علي بن المديني قال: (قال سفيان بن عيينة قال لي فلان

(١) تفسير الطبري ٣١/١ - وكذا في مقدمة أصول التفسير لابن تيمية ١٠٢.

(٢) نفس المصدرين

(٣) تفسير الطبري ٢٦٥/١.

(٤) ميزان الاعتدال ٤٣٩/٣.

(٥) المعرفة والتاريخ ١٥٤/٢.

بن مسلم - سماه - قل لليث بن أبي سليم يتق الله ويرد كتاب القاسم ابن أبي بزة عن مجاهد في التفسير فإنه لا ينাম، فقلت له: ابن أبي نجيع لم يسمع التفسير؟ فقال: نعم إنما يدور تفسير مجاهد على القاسم بن أبي بزة^(١).

وعلى كل فمكانة مجاهد في التفسير مرموقة وهو عند كثير من علماء الجرح والتعديل ثقة.

٣ - عكرمة مولى ابن عباس :

أصله من البربر بالمغرب نسب إليه ادعاؤه بمعرفة القرآن وجراته عليه. كما نسب إليه كذبه على ابن عباس. ولكن أئمة الجرح والتعديل كابن حجر في تهذيب التهذيب وغيره نفوا هذه التهم عنه. والمتتبع لسيرة عكرمة وحياته يرى أن هذه التهم والموجهة إليه مردها إلى خلافات - الأقران وتنافسهم ولعل ابن عمر وسعيد بن المسيب صدقا ما نسب إلى عكرمة، وذلك لأن الاتهام كان في حياة عكرمة لا بعد مماته. روى حماد بن زيد عن أيوب أنه قال: قال عكرمة: رأيت هؤلاء الذين يكذبونني، يكذبونني في خلفي؟ أفلا يكذبونني في وجهي؟.

روى ابن سعد عن الواقدي الاتهامات الموجهة إلى عكرمة. فالواقدي ليس ثقة في نظر رجال الجرح والتعديل. وابن سعد وإن كان ثقة في نفسه فقد أخذ عن الواقدي. وحيث أن الواقدي من المتقدمين فقد أخذ الخلف عنه فأثبتها بعض وأنكرها البعض الآخر واستغل جولده تسيهر هذه الاتهامات وبنى عليها عدة افتراءات مضللة إحداها أن العرب من تحقيرهم للموالي لم يشهد أحد منهم جنازة عكرمة الذي توفي سنة أربع ومائة^(٢). والخلاصة أن عكرمة ثقة ثبت عالم جليل من الصالحين.

٤ - طاووس بن كيسان :

اليمني الحميري. مولى بحير بن ريسان أخذ عن ابن عباس وغيره. كان تقياً ورعاً وعابداً مستجاب الدعوة. فقال فيه ابن عباس: (إني لأظن طاووساً من أهل الجنة). وقال فيه عمرو بن دينار: (ما رأيت أحداً مثل طاووس) وكان كثير الحج فاتفق موته بمكة سنة ست ومائة^(٣).

(١) المعرفة والتاريخ ج ٢/ ١٥٤.

(٢) مذاهب التفسير الإسلامي ٩٦.

(٣) تهذيب التهذيب ٨/ ١٠ - ١٠٠.

٥ - عطاء بن أبي رباح :

المكي القرشي مولاهم ولد سنة سبع وعشرين وتوفي سنة أربع عشرة ومائة على الراجح كان رحمه الله أسود اللون، أعور، أفتس، أشل، أخرج ثم عمي بعد ذلك أدرك مائتين من الصحابة. وإليه انتهت فتوى أهل مكة. كان كثير الحديث غزير العلم^(١).

والملاحظة أن جميع المذكورين من الموالي.

مدرسة المدينة المنورة في التفسير:

وممن اشتهر فيها من التابعين:

١ - أبو العالية :

رفيع بن مهران الرياحي مولاهم. مخضرم أسلم في السنة الثانية عشرة من الهجرة وثقة رجال الجرح والتعديل وأجمع عليه أصحاب الكتب الستة. قال فيه ابن أبي داود: ليس أحد أعلم بالقراءة من أبي العالية. روى عن أبي نسخة كبيرة في التفسير رواها: أبو جعفر الرازي عن الربيع بن أنس، عن أبي العالية، عن أبي. أخرج منها: ابن جرير وابن أبي حاتم، والحاكم، والإمام أحمد. وكانت وفاته على الراجح سنة تسعين للهجرة^(٢).

٢ - محمد بن كعب القرظي :

محمد بن كعب بن سليم بن أسد القرظي المدني. لم يأخذ عن أبي مباشرة بل روى عنه بالواسطة. قال ابن حبان: من أفاضل أهل المدينة علماً وفقهاً كان يقص في المسجد فسقط سقف فمات هو وجماعة تحت الهدم سنة ثمانى عشرة ومائة من الهجرة. وهو ابن ثمان وسبعين سنة^(٣).

٣ - زيد بن أسلم :

أبو أسامة العدوي المدني الفقيه المفسر مولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه وثقة جماعة منهم الإمام أحمد، وأبو زرعة، والنسائي... وكان يجلس إليه علي بن

(١) تهذيب التهذيب ٨/٥ - ١٠ .

(٢) تهذيب التهذيب ٣/٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٣) خلاصة تهذيب الكمال ٣٠٥ .

الحسين. اشتهر عنه أنه كان يفسر القرآن بالرأي ولا يتحرج. وله تفسير مخطوط روى عنه مالك بن أنس وولده عبد الرحمن بن زيد. توفي سنة ست وثلاثين ومائة^(١).

مدرسة التفسير بالعراق:

اشتهر فيها:

١ - علقمة بن قيس النخعي:

كان من أمهر وأحفظ تلامذة ابن مسعود. من رجال الكتب الستة. قال فيه أحمد: ثقة من أهل الخير. قلت: وهو خال إبراهيم النخعي والأحناف يعتبرون علقمة من أجدادهم في الفقه لأن أبا حنيفة أخذ عن حماد بن أبي سليمان، وحماد أخذ عن إبراهيم النخعي، وإبراهيم النخعي أخذ عن خاله علقمة بن قيس.

٢ - مسروق:

ابن الأجدع بن مالك الهمداني الكوفي أبو عائشة سماه عمر بن الخطاب قائلاً: الأجدع شيطان أنت مسروق بن عبد الرحمن. أكثر الجلوس مع الصحابة وأخذ عنهم جميعاً فاشتهر بسعة علمه. ثقة إمام في الحديث والتفسير عابد. عن أبي إسحاق أنه قال: حج مسروق فلم ينم إلا ساجداً. توفي سنة ثلاث وستين^(٢).

٣ - الأسود بن يزيد بن قيس النخعي:

قيل كان يصوم الدهر فذهبت إحدى عينيه من الصوم. قيل توفي سنة أربع وسبعين للهجرة.

٤ - مرة الهمداني الكوفي:

لقب بمرة الخير لعبادته. كان يصلي كل يوم ستمائة ركعة توفي سنة ست وسبعين للهجرة.

٥ - عمر الشعبي:

أبو عمرو عامر بن شراحيل الشعبي الحميدي الكوفي قاضي الكوفة روى عن عمر وعلي وابن مسعود وأبي هريرة وعائشة وابن عباس. قال الشعبي: أدركت خمسمائة من

(١) تهذيب التهذيب ٣/ ٣٩٥ - ٣٩٧.

(٢) تهذيب التهذيب ١٠/ ١٠٩ - ١١١.

الصحابة: وقال ابن عيينة: كان الناس تقول بعد الصحابة: ابن عباس في زمانه، والشعبي في زمانه، والثوري في زمانه، كان غزير العلم في جميع الفنون. وكان يفتي بوجود الصحابة. قيل إنه توفي سنة تسع ومائة.

٦ - قتادة:

قتادة بن دعامة السدوسي البصري كان قوي الحفظ واسع الاطلاع في الشعر العربي بصيراً بأيام العرب قال سعيد بن المسيب: ما أثناني عراقي أحسن من قتادة. ونسب إليه تكلمه في القدر. توفي سنة سبع عشر ومائة وعمره ست وخمسون سنة^(١).

حكم تفسير التابعي:

إذا لم يرد نص من الكتاب والسنة أو من قول صحابي في تفسير آية ما من القرآن الكريم، وقام أحد التابعين بتفسيرها اجتهداً من عنده، فهل يقبل تفسيره؟. اختلفوا في هذه المسألة عن أقوال:

١ - منهم من جوز ذلك مطلقاً. إذ روى عن أحمد روايتان بالمنع والقبول.

٢ - منهم من منع ذلك مطلقاً منهم شعبة بن الحجاج، وابن عقيل.

٣ - ومنهم من فصل في المسألة كابن تيمية.

قال الزركشي: وفي الرجوع إلى قول التابعين روايتان عن أحمد واختار ابن عقيل المنع وحكوه عن شعبة^(٢).

قال شعبة بن الحجاج: (أقوال التابعين في الفروع ليست حجة فكيف تكون حجة في التفسير؟)^(٣)

ومذهب ابن تيمية في هذه المسألة أن التابعي إذا تفرد بقبول ليس له شاهد أو مايؤيده رُفِضَ. أما إذا اجتمع التابعون على شيء فلا شك في اعتباره حجة وأما إذا اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم...

قال ابن تيمية في هذا: (... أما إذا اجتمعوا على الشيء فلا يُرتاب في كونه

(١) انظر تهذيب التهذيب ٨/ ٣٥١ - ٣٥٦.

(٢) الاثنان ٢/ ١٧٩.

(٣) مقدمة في أصول التفسير/ ١٠٥.

حجة. فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك^(١).

ورد عن أبي حنيفة أنه قال: (ما جاء عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعلى الرأس والعين، وما جاء عن الصحابة تخيرنا، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال^(٢)).

مصادر التفسير في عهد التابعين:

كان التفسير الغالب في هذه الفترة تفسير بالمأثور. لهذا فقد كان المشتغلون في التفسير يحرصون على النصوص الواردة في التفسير للاعتماد عليها ومصادرهم في هذا:

١ - القرآن الكريم.

٢ - السنة المطهرة.

٣ - أقوال الصحابة.

٤ - وما يفتح الله للتابعين من فهم وقوة في الاستنباط.

وأقتصر هنا على المصادر الأربع ولا أقول أن الذين دخلوا في الإسلام من أهل الكتاب كانوا مصدراً خامساً. مع العلم بأن النصوص الإسرائيلية نفشت خلال هذه الفترة وكثرت ولكن ليس إلى الحد الذي يجعلها مصدراً رئيسياً خامساً إلى جانب الكتاب والسنة. ثم إن كل هذه الإسرائيليات كانت تروى موقوفة على قائلها مما لم يؤثر وجودها على اتجاه المدارس الإسلامية في التفسير بمعنى أنها لم تؤثر على الفكر الإسلامي ولا على عقيدته.

مزايا التفسير في عهد التابعين:

للتفسير في هذا العهد ميزات ومآخذ. فمن ميزاته:

١ - أنه ظل محتفظاً بطابع التلقي والرواية.

٢ - كان يغلب على روايات التفسير تسلسل أسانيدھا إلى علماء البلد الواحد بمعنى أن تلاميذ مكة كانوا يتلقون عن مدرسة، وكذا الحال في المدينة والكوفة مما سبب

(١) مقدمة في أصول التفسير/ ١٠٥.

(٢) التفسير والمفسرون ١/ ١٢٨.

إضفاء صبغة خاصة على كل مدرسة ميزتها عن غيرها.

٣ - انفصل في هذه الفترة الحديث عن التفسير، إذ كان التفسير ينقل مع أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم. أؤكد هذا رغم أن أكثر المتأخرين يرون أن الانفصال تم في نهاية القرن الثاني^(١). وأستدل على ما ذهبت إليه بتلك التفسيرات المحققة والكاملة التي وصلتنا عن التابعين: أمثال مجاهد، فتفسيره مطبوع محقق - وسفيان الثوري، وتفسيره مطبوع محقق وزيد بن أسلم وتفسيره مخطوط... وكلها مرتبة حسب سور القرآن وآياته وغير متضمنة إلا ما يتعلق بالتفسير.

٤ - ليس من الضروري أن يكونوا قد فسروا كل الآيات ولكنهم رتبوا ما فسروه حسب ترتيب المصحف وجعلوه بين دفتين وأصبح أكبر حجماً عما كان عليه في عهد الصحابة.

ومن المآخذ عليه:

١ - تسرب كثير من الروايات الإسرائيلية إلى التفسير عن طريق اليهود والنصارى الذين دخلوا في الإسلام ولكن هذه الروايات كثرت أو قلّت لم تؤثر في الفكر الإسلامي ولم تغير عقيدته ولم تكن إحدى مصادره آمنة.

٢ - ظهور القول في القضاء والقدر وفي العهد بدأت سحائب عقائد المعتزلة تبرز.

٤ - التفسير في عهد أتباع التابعين:

وهي المرحلة الرابعة من مراحل التفسير. أطلق عليها المتأخرون: (مرحلة التدوين) إذ اعتبروا أن التدوين بدأ فيها.

المهم أن أشهر من عرف من المفسرين في هذا العهد:

سفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ هـ - وابن وهب المتوفى سنة ١٩٧ هـ - وعبد الرزاق الصنعاني المتوفى سنة ٢١١ هـ - وسعيد بن منصور المتوفى سنة ٢٢٧ هـ - وعبد بن حميد المتوفى سنة ٢٤٩ هـ.

(١) قال محمد حسين الذهبي عن المفسرين في عهد أتباع التابعين مايلي:

(فهؤلاء جميعاً كانوا أئمة الحديث فكان جمعهم للتفسير جمعاً لباب من أبواب الحديث ولم يكن جمعاً للتفسير على استقلال وانفراد... غير أن هذه التفسيرات لم يصل إلينا شيء منها ولذلك لا نستطيع أن نحكم عليها) إ هـ التفسير والمفسرون ١/١٤١. تأمل، بل حكم عليها فعلاً بأنها لم تكن مستقلة عن التفسير.

كما اشتهر أيضاً وكيع بن الجراح - وشعبة بن الحجاج - ويزيد بن هارون - وآدم بن أبي إياس - وإسحاق بن راهويه - وروح بن عباد - وأبو بكر بن أبي شيبة^(١) . وقد ثبت أن أغلب المذكورين كتبوا تفاسير نُسبت إليهم .

ولقد تنكّر صاحب القراءة المعاصرة لعلماء هذه الأمة قاطبة، وجعلهم وبالأعلى عليها، فيزعم في كتابه الذي أسماه «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» ص ١٨١ : «إن هؤلاء العلماء الرّبّانيين ماذا قدّموا للنّاس ؟ البنج والمحرّك البخاري والعمليات الجراحية والأدوية ووسائل الاتصال والمراكب البحرية والحاسبات الإلكترونية .» ثم يصف علماء الإسلام في ص ٢٠٩ بأنهم : «قدّموا لنا تراثاً إسلامياً ميتاً . وكل الشواهد التي نراها في القرن العشرين هي أنّ الإسلام دين خارج الحياة جاء للناس جميعاً وهو عبء عليهم ، والمشكلة أنّهم نقلوه عن أموات . . . وبذلك أصبح الإسلام دين نقل ومات العقل والنظرة النقدية إلى النصوص ، وعند مشايخنا فهُم القرآن هو عن . . عن . . وقال مجاهد وعكرمة وابن عباس وابن كثير . . علماً بأن أقوال هؤلاء ليس لها قيمة علمية كبيرة بالنسبة لنا .»

هذه هي نظرتهم إلى علماء الإسلام قديماً وحديثاً ، ليس أحدٌ فيهم يحتل مكانة مرموقة ، فهم الذين قدّموا الإسلام تراثاً ميتاً ، ولم يقدّموا للنّاس شيئاً سوى الوهم ، فأَيُّ جُحود هذا ١١؟ وأَيُّ نُكرانٍ هذا ١١؟ حيث بلغ فيه أن أسقط نفسه من بين العقلاء ، وحكم عليها بالجهل المركب الذي لا تبلغه المعجمات من الدّواب . .

ومن يقدح بعلماء المسلمين فليس له أن يُنصب نفسه جاملاً للعلم إلى النّاس ، وهو في الحقيقة يُقدّم للنّاس الكذب والبهتان باسم التّطوّر والمعاصرة ٢١١ .

ومن يرى أنّ علماء المسلمين قدّموا الإسلام تراثاً ميتاً ، فليس يعرف من الإسلام إلّا ما عرفه عنه الحاقدون المارقون السّاعون في القضاء عليه ٢١١ . .

ومن يعتبر أنّ الإسلام دين خارج الحياة جاء للنّاس جميعاً وهو عبء عليهم ، فلن يصحّ أن ينسب إليه ، أو أن يتكلّم عنه أو أن يبحث فيه ، طالما قدّم أكبر خدمة لأعداء الإسلام من الطعن فيه ويعلماته ، وماذا يُريد الكافرون أكثر من هذا ١٢ . .

وهل هناك جنابة على الإسلام أخطر من هذا الذي يُقرى على الإسلام والقرآن والعلماء تحت اسم «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» ١١؟ . .

إنّها فتنة دجال . . ووسيلة شيطان . .

(١) الاتقان ٢/ ١٩٠ وكذا كشف الظنون/ ٤٣٠ .

البحث الثاني

القرآن الكريم وتهيب الصحابة في تفسيره

١ - نزل القرآن الكريم على نبيّ أمي، وقوم أميين، ليس لهم إلا الستهم وقلوبهم: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ...﴾ (سورة الجمعة: ٢)، وكانت لهم فنون من القول يذهبون فيها مذاهبهم، ويتواردون عليها، وكانت هذه الفنون لا تكاد تتجاوز ضروباً من الوصف، وأنواعاً من الحكم، وطائفة من الأخبار والأنساب، وكان كلامهم مشتملاً على الحقيقة والمجاز، والتصريح والكناية، والإيجاز والإطناب.

٢ - وجرباً على سنة الله في إرسال الرسل، نزل القرآن على النبي صلى الله عليه وسلم بلغة قومه، وعلى أساليبهم في كلامهم: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُذَكِّرَ﴾ (سورة إبراهيم: ٤) فجاء على نمط العرب في كلامهم، غير أن القرآن يعلو على غيره من الكلام العربي، بمعانيه الرائعة التي اثن بها في غير مذاهبهم، ونزع منها إلى غير فنونهم، تحقيقاً لإعجازه، ولكونه من لدن حكيم عليم.

٣ - وكان طبعياً أن يفهم النبي صلى الله عليه وسلم القرآن جملة وتفصيلاً، بعد أن تكفل الله تعالى بحفظه وبيانه: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ. فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا بَيَانَهُ﴾ (سورة القيامة: ١٧ - ١٨ - ١٩). كما كان طبعياً أن يفهم أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم القرآن في جملته، - أي بالنسبة لظاهره وأحكامه - أما فهمه تفصيلاً، ومعرفة دقائق باطنه، بحيث لا تغيب عنهم شاردة ولا واردة - فهذا غير ميسور لهم بمجرد معرفتهم للغة القرآن بل لا بد لهم من البحث والنظر، والرجوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيما يشكل عليهم فهمه، وذلك لأن القرآن فيه المفضل والمشكل، والمتشابه والمحكم، وغير ذلك مما لا بد في معرفته من أمور أخرى يرجع إليها.

٤ - ولقد كان الصحابة - رضي الله عنهم - يتفاوتون في فهمهم لمعاني القرآن، فيشكل على بعضهم ما يظهر لبعضهم الآخر، ويرجع هذا إلى القوة العقلية لدى كل

منهم، فهي تختلف من شخص إلى شخص، وإلى درجة وقوف كل منهم على ما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، ومعرفته للمعاني التي وضعت لها المفردات، فمن مفردات القرآن ما خفي معناه على بعض الصحابة، ولا ضير في هذا، فإن اللغة لا يحيط بها إلا المعصوم ﷺ، ولا يدعي أحد أن كل فرد في أمة يعرف جميع ألفاظ لغتها^(١).

٥ - ومما يشهد لذلك ما روي أن عمر بن الخطاب قرأ على المنبر: ﴿وفاكهةً وابتاك﴾ فقال: هذه الفاكهة قد عرفناها، فما الابتاك؟ ثم رجع إلى نفسه فقال: إن هذا لهو التكلف يا عمر^(٢)! وقرأ على المنبر يوماً: ﴿أو يأخذهم على تخوف﴾ (سورة النحل: ٤٧). ثم سأل عن معنى التخوف فقام إليه رجل من هذيل فقال: التخوف عندنا: التنقص ثم أنشده:

تَخَوَّفَ الرَّخْلُ مِنْهَا تَأَمِكاً قَرِداً كما تَخَوَّفَ عُودُ النَّبْعَةِ السَّفِينِ^(٣)
وقال ترجمان القرآن ابن عباس: (كنت لا أدري ما «فاطر» السماوات، حتى أتاني أعرابيَان يتخاصمان في بئر، فقال أحدهما: أنا فطرتها. يقول: أنا ابتدأتها)^(٤)

٦ - فإذا كان عمر بن الخطاب يخفي عليه معنى الأب، ومعنى التخوف، ويسأل عنهما غيره، وابن عباس - ترجمان القرآن - لا يظهر له معنى فاطر، إلا بعد سماعها من الأعرابي، فكيف شأن غيرهما من الصحابة؟! هذا عدي بن حاتم لا يفهم معنى قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾ (سورة البقرة: ١٨٧). فيأخذ عقلاً أبيض وعقلاً أسود، فما إن يمضي بعض الليل حتى ينظر إليهما فلا يستبينهما. وفي الصباح يخبر الرسول - رضي الله عنه - بشأنه، فيعرض بقله فهمه ويُفهِّمُهُ المراد^(٥).

- (١) انظر التفسير والمفسرون لمحمد حسين الذهبي ج ١ ص ٣٢ - ٣٤.
- (٢) انظر الاتقان للسيوطي ج ٢ ص ١١٣.
- (٣) انظر الموافقات للشاطبي ج ٢ ص ٨٧ - ٨٨. والتامك: السنام، والقرد: الذي تجعد شعره فكان كأنه وقاية للسنام، والنعج: شجر يُصْنَعُ منه السهام، والسفن: كل ما ينحت.
- (٤) انظر الاتقان للسيوطي ج ٢ ص ١١٣.
- (٥) أخرج البخاري في صحيحه ج ٦ ص ٢٦ عن الشعبي - قال: أخذ عدي عقلاً أبيض وعقلاً أسود حتى كان بعض الليل، نظر فلم يستبين، فلما أصبح قال: يا رسول الله، جعلت تحت وسادتي عقالين. قال: إن وسادتك إذاً لعريض أن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك. وأخرج البخاري أيضاً من طريق أخرى عن عدي بن حاتم -

٧ - والحق أن الصحابة - رضوان الله عليهم أجمعين - كانوا يتفاوتون في القدرة على فهم القرآن، وبيان معانيه المرادة منه، بسبب اختلافهم في أدوات الفهم، وتبعاً لما ناله كل منهم من شرف ملازمته للنبي صلى الله عليه وسلم ومعرفته بقدر من أسباب النزول، لا يعرفه غيره؛ ولهذا قال مسروق: «جالست أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم فوجدتهم كالإخاذا - يعني الغدير - فالإخاذا يروي الرجل، والإخاذا يروي الرجلين، والإخاذا يروي العشرة، والإخاذا يروي المائة، والإخاذا لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم»^(١).

٨ - وإذا أردنا أن نرسم بأذهاننا صورة متكاملة عن تفاضل الصحابة في فهم، وتفسير كتاب الله، فلا بد لنا من أن نبحث عن الخطة التي يتبعها الصحابة، والمصادر التي يرجعون إليها لفهم كتاب الله وتفسيره.

ولقد جنى صاحب القراءة المعاصرة فيما زعمه على السلف من الكذب والبهتان تحت اسم [الكتاب والقرآن] على الحقائق التاريخية التي تثبت عظيم شأن الصحابة علماً وفهماً حين تنكّر لفضلهم بدعوى المعاصرة والتطور، حيث زعم في ص ٩١: «إننا في القرآن والسبع المثاني غير مقبلين بأي شيء قاله السلف» ٩١..

= رضي الله عنه - قال: قلت يا رسول الله، ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود؟ أهما الخيطان؟ قال: إنك لمریض القفا إن أبصرت الخيطين، ثم قال: لا، بل هو سواد الليل وبياض النهار. وانظر فتح الباري ج ٨ ص ٢٧، وتفسير الألوسي ج ١ ص ٤.

(١) انظر أعلام الموقعين لابن القيم ج ١ ص ١٦، وتاريخ الفقه الاسلامي لكلية الشريعة بالجامعة الأزهرية للسايس ص ٣٩.

مصادر تفسير الصحابة للقرآن

لقد كان الصحابة يعتمدون على ثلاثة مصادر في تفسيرهم للقرآن الكريم:

١ - أولها: القرآن الكريم: إن الناظر في القرآن الكريم يجد أنه قد اشتمل على كلام فيه من الإيجاز والإطناب، ومن الإجمال والتفصيل، ومن الإطلاق والتقييد، ومن العموم والخصوص. وما أوجز في مكان قد ييسر في مكان آخر، وما أجمل في موضع قد يفصل في موضع آخر، وما جاء مطلقاً في سورة قد يلحقه التقييد في سورة أخرى، وما كان عاماً في آية قد يدخله التخصيص في آية أخرى^(١). ولهذا كان لابد لمن يتعرض لتفسير كتاب الله تعالى أن ينظر في القرآن أولاً، فيجمع ما تكرر منه في موضع واحد، ويقابل الآيات بعضها ببعض، ليستعين بما جاء مسهباً على معرفة ما جاء موجزاً، وبما جاء مفصلاً على ما جاء مجملًا، وليحمل المطلق على المقيد، والعام على الخاص، وبهذا يكون قد فسر القرآن بالقرآن، وفهم مراد الله تعالى بما جاء عن الله، وهذه مرحلة لا يجوز لأحد مهما كان أن يعرض عنها، ويتخطاها إلى مرحلة أخرى، لأن صاحب الكلام أدرى بمعاني كلامه، وأعرف به من غيره.

٢ - وإذا غفل المرء عن بعضه لم يسلم استنباطه من الزلل، وتعرض تفسيره للفساد، فلا ينبغي - مثلاً - أن يفسر قوله تعالى: ﴿لَا تَذْكُرُ الْأَبْصَارُ﴾ (سورة الأنعام: ١٠٣). مع الغفلة عن قوله سبحانه: ﴿وَجُودَ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَىٰ رَبِّهَا نَاطِرَةٌ﴾ (سورة القيامة: ٢٢، ٢٣)^(٢). ولا يجوز أن يفسر آية: التيمم، ويففل عن القيد بالمرافق الذي جاء قبلها في آية الوضوء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ فَاغْسِلُوا وُجُوهَكُمْ، وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ﴾ (المائدة: ٦)^(٣).

(١) انظر المقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ٢٥، والاتقان في علوم القرآن للسيوطي

ج ٢ ص ١٧٥.

(٢) انظر الاتقان ج ٢ ص ١٩.

(٣) انظر مسلم الثبوت وشرحه لمحب الله عبد الشكور ج ١ ص ٣٦١.

٣ - ومن تفسير القرآن بالقرآن حمل بعض القراءات على بعضها الآخر^(١)، فإن بعض القراءات يبين ماهو مجمل في القراءة الأخرى: فقراءة: (يطهرن) بالتشديد في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذَىٰ فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهَرْنَ﴾ (البقرة ٢٢٢)، تبين المعنى بقراءة التخفيف، وقراءة: ﴿فَانْمَضُوا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ تبين أن المراد بقراءة: ﴿فَانْعَمُوا﴾ في قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَادَيْتُمُ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ، فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ...﴾ (سورة الجمعة: ٩)، هو الذهاب لا المشي السريع وقراءة ابن مسعود: ﴿فَاقْطَعُوا أَيْمَانَهُمَا﴾ تحدد المراد بقراءة ﴿فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾^(٢) وهكذا..

ومما يدل على أن القراءات مرجع هام من مراجع تفسير القرآن بالقرآن، قول مجاهد: (لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود قبل أن أسأل ابن عباس، ما احتجت أن أسأله عن كثير مما سألته عنه)^(٣).

٤ - هذا بيان موجز لتفسير القرآن بالقرآن، وما يحتاج إليه من النظر والتدبير والتعقل، وهو المصدر الأول من ثلاثة مصادر كان الصحابة يعتمدون عليها في تفسيرهم للقرآن.

٥ - أما المصدر الثاني فهو: النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان الصحابة إذا أشكلت على أحدهم آية من كتاب الله، رجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في تفسيرها، فبين له ما خفي عليه من معناها، لأن من مهامه صلى الله عليه وسلم البيان، كما أخبر الله بذلك في كتابه حيث قال: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة النحل: ٤٤).

والأمثلة على أخذ الصحابة عن النبي صلى الله عليه وسلم تفسير القرآن كثيرة، منها: قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَىٰ وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (سورة البقرة: ٢٣٨) فالقنوت: يطلق على الذكر وعلى الطاعة، وعلى الخضوع. وهذا كله لا ينافي الكلام، غير أن السنة بينت أن من معاني القنوت: السكوت، وترك الكلام في

(١) انظر النشر في القراءات العشر لابن الجزري ج ١ ص ٥٢ - ٥٣.

(٢) انظر الاتقان للسيوطي ج ١ ص ٨٢.

(٣) ارجع إلى: نظرة عامة لتاريخ التشريع الإسلامي لعلي حسن عبد القادر ص ١٦٣ وانظر «التفسير والمفسرون لمحمد خير الذهبي ج ١ ص ٤٤١».

الصلاة، فقد روي عن ابن مسعود أنه قال: (أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو يصلي، فسلمت عليه، فلم يرد علي، فلما قضي الصلاة قال: إنه لم يمنعني أن أرد عليك السلام إلا أنا أمرنا أن نقوم لله قانتين، لانتكلم في الصلاة)^(١). وعن زيد بن أرقم أنه قال: (كنا نتكلم في الصلاة، يكلم أحدهنا أخاه في حاجته، حتى نزلت: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ (سورة البقرة: ٢٣٨)، فأمرنا بالسكوت)^(٢)، وروي عن رجل من الصحابة أنه قال: (يا رسول الله، أرأيت قول الله: «الطلاق مرتان» فأين الثالثة؟ قال: «أو تسريح بإحسان» (سورة البقرة، ٢٢٩)^(٣) وغير ذلك كثير مما ملكت به بطون كتب الحديث.

٦ - المصدر الثالث - الاجتهاد: وقد كان يلجأ إليه الصحابة - رضي الله عنهم - في المرحلة الأخيرة، عندما يعيهم أن يجدوا التفسير في كتاب الله، ولا يتيسر لهم أخذه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنهم يجتهدون ويعملون عقولهم!

٧ - وأدوات الاجتهاد في التفسير عندهم أربعة:

أولها - معرفة أوضاع اللغة العربية وأسرارها: فإن ذلك يعين على فهم الآيات التي لا يتوقف فهمها على غير العرب، أما ترى عمر - رضي الله عنه - يقول لأصحابه: (عليكم بديوانكم لا تضلوا، قالوا: وما ديواننا؟ قال شعر الجاهلية، فإن فيه تفسير كتابكم، ومعاني كلامكم)^(٤).

٨ - والثانية - معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها، ومجاري أحوالها^(٥) في عصر التنزيل: فإن ذلك مما يعين على فهم القرآن، ويبعد من الوقوع في الشبه، فمن عرف من عادات العرب أن خزاعة منهم عبدت الشعري، ولم يعبد العرب كوكباً سواها - فهم سر تخصيصها بالذكر في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ هُوَ رَبُّ الشُّعْرَى﴾ (النجم: ٤٩)^(٦).

(١) انظر مستند أحمد الأحاديث رقم: (٣٥٦٣ و ٣٥٧٥ و ٣٨٨٤ و ٣٨٣٥) وانظر البحث في

أصول التشريع الإسلامي للأستاذ علي حسب الله ص ٢٤.

(٢) انظر صحيح البخاري ج ٦ ص ٣٠، والمواقفات ج ٣ ص ٢٤٨، وأصول التشريع

الإسلامي: للأستاذ علي حسب الله ص ٣٤.

(٣) انظر الاتقان في علوم القرآن ج ٢ ص ١٩.

(٤) انظر المواقفات للشاطبي ج ٢ ص ٨٨.

(٥) انظر المرجع السابق ج ٣ ص ٣٥١.

(٦) انظر المواقفات للشاطبي ج ٣ ص ٣٥٢، وأصول التشريع الإسلامي للأستاذ علي حسب

الله ص ٣٦.

ومن علم أنهم كانوا يتخذون آلهة في الأرض: من جمادها أو حيوانها - عرف سبب ذكر صفة العلو لله في قوله تعالى: «أَلَمْ تَرَ أَنَّ السَّمَاءَ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ» (الملك: ١٦) (١).

٩ - والثالثة: معرفة أسباب النزول (٢)، وما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات، فإنها قرائن تعين على الفهم، قال الواحدي: «لا يمكن معرفة تفسير الآية دون الوقوف على قصتها، وبيان نزولها» (٣)، وقال ابن دقيق العيد: «بيان سبب النزول طريق قوي في فهم معاني القرآن» (٤) ولا أدل على اعتبار الصحابة لأسباب النزول من قول عبد الله ابن مسعود: «والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت، وأين نزلت. ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله مني، تناله المطايا لأتيته» (٥). وانظر إن شئت إلى جواب ابن عباس عندما سأله عمر عن سر اختلاف الأمة، فقال له: «كيف تختلف هذه الأمة، ونبيها واحد، وقبلتها واحدة؟» فقال ابن عباس: «يا أمير المؤمنين، إنا أنزل علينا القرآن فقرأناه، وعلمنا فيما نزل، وإنه سيكون بعدنا أقوام يقرؤون القرآن، ولا يدرون فيم نزل، فيكون لهم فيه رأي، فإذا كان لهم فيه رأي اختلفوا، فإذا اختلفوا اقتتلوا» (٦).

١٠ - والرابعة - قوة الفهم وسعة الإدراك: وهذا فضل الله، يؤتيه من يشاء من عباده، وكثير من آيات القرآن الكريم يدق معناها، ويخفى المراد منها، ولا يظهر إلا لمن أوتي حظاً من الفهم، ونور البصيرة. ولقد كان ابن عباس صاحب النصيب الأكبر، والحظ الأوفر من ذلك، ببركة دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، حيث قال: «اللهم فقهه في الدين، وعلمه التأويل». وقد روى البخاري في صحيحه بسنده إلى أبي جحيفة أنه قال: «قلت لعلي - رضي الله عنه - هل عندكم شيء من الوحي إلا

(١) انظر الموافقات للشاطبي ج ٣ ص ٣٥١، وأصول التشريع الإسلامي للأستاذ علي حسب الله ص ٣٦.

(٢) انظر الموافقات ج ٣ ص ٣٤٧.

(٣) انظر الاتقان ج ١ ص ١٩.

(٤) انظر المرجع السابق ج ١ ص ١٩، ومنهج الفرقان لمحمد أبي سلامة ج ١ ص ٣٦.

(٥) انظر المقدمة في أصول التفسير لابن تيمية ص ٢٥ - ٢٦، والاتقان للسيوطي ج ٢ ص ١٨٧.

(٦) انظر الموافقات للشاطبي ج ٣ ص: ٣٤٨، وأصول التشريع الإسلامي: للأستاذ علي حسب الله ص ٣٥.

ما في كتاب الله؟ قال: لا، والذي فلق الحبة، وبرأ النسمة ما أعلمه، إلا فهما يعطيه الله رجلاً في القرآن، وما في هذه الصحيفة. قلت: وما في هذه الصحيفة؟ قال: العقل^(١)، وفكك الأسير، وألا يقتل مسلم بكافر^(٢).

هذه هي أدوات الفهم والاستنباط التي كان الصحابة يستعينون بها على فهم كثير من آيات القرآن، وتفسيرها، وهذا هو مبلغ أثرها في الكشف عن غوامض كتاب الله وأسراره.

ولقد تنكّر صاحب القراءة المعاصرة فيما أسماه [الكتاب والقرآن] لمنهج السلف في تفسير كتاب الله تعالى، وادّعى أنه لا حاجة له في تفسير القرآن إلا إلى البحث العلمي والفلسفة التي يصفها بأنها أم العلوم كما ص ٣٢، ثم يزعم في ص ١٠٣: أن «القرآن حقيقة موضوعية... وفهم هذه الحقيقة لا يخضع إلا لقواعد البحث العلمي الموضوعي، وعلى رأسها الفلسفة... وأما الشريعة والأخلاق والعبادات والقانون والسياسة والتربية، فليس لها علاقة بالقرآن لامن قريب ولامن بعيد» هكذا يزعم بلاضابط ولارباط ليقلب الحقائق ويغيّر الثوابت؟! ..

(١) عقلت القتل عقلاً: أدبت ديته، قال الأصمعي: سميت الدية عقلاً، تسمية بالمصدر، لأن الإبل كانت تعقل بفناء ولي القتل، ثم كثر الاستعمال حتى أطلق على الدية، إبلًا كانت أو نقدًا. (المصباح المنير).

(٢) انظر صحيح البخاري، كتاب الجهاد ج ٤ ص ٦٩. والمفسرون لمحمد حسين الذهبي ج ١ ص ٥٩.

البحث الرابع التفسير والصحابة والمفسرون

١ - وقد اشتهر بالتفسير من الصحابة عشرة: الخلفاء الراشدون الأربعة، وابن مسعود، وابن عباس، وأبي بن كعب، وزيد بن ثابت، وأبو موسى الأشعري، وعبد الله بن الزبير رضي الله عنهم أجمعين - (١).

٢ - وكان معظم ما روي عن الخلفاء الراشدين في التفسير، هو ما روي عن علي - رضي الله عنه - والسبب في ذلك يرجع إلى بعده عن مهام الخلافة، إلى نهاية خلافة عثمان - رضي الله عنه - وتأخر وفاته إلى زمن كثرت فيه حاجة الناس إلى من يفسر لهم ما خفي عنهم من معاني القرآن، واتسعت فيه رقعة الإسلام، بدخول كثير من الأعاجم في دين الله، مما كاد يذهب بخصائص اللغة العربية!

٣ - وكذلك كثرت الرواية في التفسير عن عبد الله بن عباس، وعبد الله بن مسعود، وأبي بن كعب، لحاجة الناس إليها، ولصفات عامة، مكنت لهم ولعلي بن أبي طالب أيضاً في التفسير. هذه الصفات هي: قوتهم في اللغة العربية، وإحاطتهم بأسرار أساليبها، وعدم تخرجهم من الاجتهاد، وتقرير ما وصلوا إليه باجتهادهم، ومخالطتهم للنبي صلى الله عليه وسلم باستثناء ابن عباس، مخالطة مكنتهم من معرفة الحوادث التي نزلت فيها آيات القرآن، أما ابن عباس، فإنه لم يلزم النبي صلى الله عليه وسلم في شبابه، لوفاة النبي صلى الله عليه وسلم وهو في سن الثالثة عشرة أو مايقاربها، فاستعاض عن ذلك بملازمة كبار الصحابة، يأخذ عنهم ويروي لهم (٢).

٤ - وليتضح لنا المنهج الذي كان عليه الصحابة - رضي الله عنهم - في تفسيرهم للقرآن، لا بد من استعراض بعض النماذج التي صحت من تفسيرهم لبعض آيات القرآن الكريم، بعد أن نعرض شيئاً مما صح في التفسير عن رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) انظر الاتقان للسيوطي ج ٢ ص ١٨٧.

(٢) انظر الاتقان للسيوطي ج ٢ ص ١٨٧ وانظر التفسير والمفسرون للذهبي ج ١ ص ٦٣ -

فعلى ضوء ذلك، يمكننا أن نعيش فترة يسيرة في جو الصحابة - رضي الله عنهم -
فتلمس طريقهم في تفسيرهم لكتاب الله - عز وجل - والمنهل الذي نهلوا منه:

٥ - الرسول صلى الله عليه وسلم يلفت نظر الصحابة لتفسير القرآن بالقرآن،
فيقول: (مفتاح الغيب خمس^(١)): إن الله عنده علم الساعة، وينزل الغيث، ويعلم ما
في الأرحام، وما تدري نفس ماذا تكسب غداً، وما تدري نفس بأي أرض تموت، إن
الله عليم خبير^(٢)) (لقمان: ٢٤). وعن عبد الله بن مسعود قال: (لما نزلت هذه الآية:
﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾، شق ذلك على الناس وقالوا: يا رسول الله،
فأينا لا يظلم نفسه؟ قال: إنه ليس الذي تعنون، ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح:
«يا بني لا تشرك بالله، إن الشرك لظلم عظيم»؟ إنما هو الشرك^(٣).

٦ - والرسول صلى الله عليه وسلم يعلم الصحابة استنباط الأحكام من القرآن،
وذلك فيما يرويه عنه ابن عباس فيقول: «ماتت شاة لسودة بنت زمعة، فقالت: يا
رسول الله، ماتت فلانة - تعني الشاة - فقال: فلولاً أخذتم مسكها: فقالت: نأخذ
مسك شاة قد ماتت؟ فقال لها رسول الله صلى الله عليه وسلم إنما قال الله - عز وجل -:
﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِينَا أَوْحِيَّ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُ أَوْ دَمًا
مُسْفُوحًا، أَوْ لَحْمَ خَنزِيرٍ﴾ (الأنعام: ١٤٥)، فإنكم لا تطعمونه، إن تدبغوه فتتفعفوا به،
فأرسلت إليها فسلخت مسكها فدبغته، فاتخذت منه قربة، حتى تخرقت عندها^(٤).

٧ - كذلك يشرح النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة بعض الأمور الغيبية، حين
يبين لهم رؤيته لجبريل فيما يرويه ابن مسعود فيقول: (في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ رَأَوْا نَزْلَةً
أُخْرَى﴾ (النجم: ١٣). قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: رأيت جبريل عند سدره

(١) الآية: ٥٩ من سورة الأنعام ﴿وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو﴾.

(٢) انظر البخاري ج ٥ ص ١٩٣. باب وعنده مفاتيح الغيب... من كتاب التفسير.

(٣) انظر المسند لأحمد بن حنبل ج ٥ ص ٢٠٧ رقم (٣٥٨٩) وقد نقله عنه ابن كثير في
تفسيره ج ٣ ص ٣٥١، ونسبه السيوطي في الدر المنثور ج ٣ ص ٢٦ - ٢٧ للبخاري
ومسلم والترمذي وابن جرير وغيرهم، والآية الأولى: هي الآية ٨٢ من سورة الأنعام،
والآية الأخيرة لقمان ١٣.

(٤) انظر مسند أحمد ج ٥ ص ١٣، وهو في تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٥١٤ - ٥١٦ عن هذا
الموضع، وكذلك في الفتح لابن حجر ج ٩ ص ٥٩٦.

المتهى، عليه ستمائة جناح، يثر من ريشه التهاويل: الدر والياقوت^(١)، ويبين لهم وضع بني إسرائيل، وظلمهم، بتبديلهم قولاً غير الذي قيل لهم فيقول. (قيل لبني إسرائيل: «ادخلوا الباب سَجْدًا وَقُولُوا حِطَّةٌ» (البقرة: ٥٨)، فدخلوا يزحفون على أستاهم، فبدلوا وقالوا: حبة في شَعْره)^(٢).

٨ - والنماذج مما روي عن الصحابة في التفسير كثيرة: منها ما روي عن عبد الله بن مسعود في قوله تعالى: «مَا كَذَّبَ الْفُؤَادُ مَا رَأَى» (النجم: ١١). قال: (رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم جبريل في حلة من رفر، وقد ملأ ما بين السماء والأرض)^(٣).

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - أنه قال: «لما أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم انتهى به إلى سدره المتهى، وهي في السماء السادسة، وإليها يتهي ما يصعد به من الأرض» وقال مرة: «وما يعرج به من الأرض فيقبض منها، وإليها يتهي ما يهبط به من فوقها، فيقبض منها، «إِذْ يَفْشَى السَّدرَةُ مَا يَفْشَى» (النجم: ١٦). قال: فراش من ذهب، قال: فأعطي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة خلال: الصلوات الخمس، وخواتيم سورة البقرة، وغفر لمن لا يشرك بالله - عز وجل - من أمته المقحّمات^(٤).

وروى الإمام أحمد في مسنده قال: حدثنا محمد بن جعفر قال: حدثنا شعبة، عن سليمان، عن إبراهيم، عن أبي معمر، عن عبد الله أنه قال في هذه الآية: «اقتربت الساعةُ وانشَقَّ الْقَمَرُ» (القمر: ١) قال: (قد انشق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فرقتين، أو فلقتين - الشك من شعبة -، فكان فلقه من وراء الجبل، وفلقه على

(١) انظر مسند الإمام أحمد بن حنبل ج ٦ ص ٩ وذكره ابن كثير في تفسيره ج ٨ ص ١٠٣ عن المسند من رواية أحمد عن حسن بن موسى عن حماد بن سلمة بنحوه، وقال: «هذا إسناد جيد قوي».

(٢) انظر البخاري ج ٥ ص ١٤٨ باب وإذ قلنا ادخلوا هذه القرية فكلوا منها حيث شئتم - وورد ص ١٩٧ بإسناد آخر.

(٣) انظر مسند أحمد ج ٥ ص ٢٧٩، ورواه الترمذي وقال: «حديث حسن صحيح» والرفرف ما كان من الدياج وغيره رقيقاً حسن الصنعة.

(٤) انظر مسند الإمام أحمد ج ٦ ص ٤٥.

الجبل فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (اللهم اشهد)^(١) ..

٩ - وروى الإمام أحمد في مسنده بسنده إلى أبي بكر الصديق أنه قام فحمد الله وأثنى عليه فقال: «يا أيها الناس، إنكم تقرأون هذه الآية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مِنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ (المائدة: ١٠٥) إلى آخر الآية، وإنكم تضعونها على غير موضعها، وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن الناس إذا رأوا المنكر فلم يغيروه، أوشك أن يعمهم الله بعقابه: (قال قيس - هو ابن أبي حازم، راوي الحديث - وسمعت أبا بكر يقول: (يا أيها الناس إياكم والكذب، فإن الكذب مجانب للإيمان)^(٢) .

وروى البخاري في صحيحه قال: حدثنا إسحق، قال: حدثنا النضر، قال: حدثنا شعبة، عن سليمان، قال: سمعت أبا وائل، عن حذيفة، ﴿وأنفقوا في سبيل الله، ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ (البقرة: ١٩٥)^(٣) قال: نزلت في النفقة^(٤) .

• ويزعم صاحب القراءة المعاصرة فيما أسماه بـ «الكتاب والقرآن» أن السنة النبوية كانت «التفاعل الأول للإسلام في شبه جزيرة العرب» كما في ص ٣٦ وفي ص ٣٨: «أن آيات التشريع والعبادات... قد طبقها النبي ﷺ حسب الظروف الموضوعية لتشبه جزيرة العرب... وكذا في ص ١١٢، ويزعم في ص ٥٤٩: «أن الذي فعله النبي ﷺ في القرن السابع [الميلادي] في شبه جزيرة العرب هو الاحتمال الأول لتفاعل الإسلام... ويُسبِّه كتاب الحديث النبوي بأناجيل النصارى، باعتبار أنها سيرة ذاتية للمسيح، وكذا الأحاديث هي السيرة الذاتية للنبي... فكما أن هناك عدة أناجيل، فهناك عدة كتب للحديث...» .

وينفي علاقة أسباب النزول بالقرآن، فيزعم في ص ١١٨: «... الأحداث التي حصلت في أثناء بعثة محمد ﷺ «أسباب النزول» أما القرآن فليس له علاقة بالأحداث

(١) انظر المسند ج ٦ ص ١٣٥ وقد ورد فيه: - شعبة الذي يشك -، والأصوب: - الشك عند شعبة

(٢) انظر المسند ج ٨ ص ١٦٣ رقم ١٦ وإسناد الحديث صحيح.

(٣) تمام الآية: ﴿وأنفقوا في سبيل الله ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة وأحسنوا إن الله يحب المحسنين﴾ .

(٤) انظر صحيح البخاري ج ٥ ص ١٥٨ .

التي حصلت في أثناء بعثة ﷺ...» ويزعم في ص ٩٣: «أنَّ القرآن ليس له أسباب نزول...».

فهذه المزاعم الباطلة قد قامت في فكر صاحبها حين ابتعد عن أصالة أمته وتنكَّر لعلومها، فحاول تغيير الثوابت العلمية في علوم القرآن العظيم والسنة النبوية المطهرة، كما حاول وضع البديل عنها من الأوهام والتخيُّلات والأساطير التي يراها «تقدِّماً ومعاصرة» نعم تقدِّماً نحو الهلاك... ومعاصرة للضلال والضياغ...؟!..

منهج ابن عباس في التفسير أنموذج

من منهج السلف في التفسير

لقد كان ابن عباس كغيره من الصحابة الذين اشتهروا بالتفسير، يرجع في فهم معاني القرآن إلى القرآن أولاً وإنا لنرى شاهد ذلك واضحاً عندما يسأله مجاهد عن السجدة التي في سورة ص، فيجيبه ترجمان القرآن: (أتقرأ هذه الآية: ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِهِ دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ﴾ (الأنعام: ٨٤)، وفي آخرها: ﴿فَبِهَدَاهُمْ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٩٠)؟ ثم أتبع يقول: (أمر نبيكم صلى الله عليه وسلم أن يقتدى بدادود)^(١).

فإذا لم يجد في القرآن ما يفسر به القرآن، رجع إلى النبي صلى الله عليه وسلم ثانياً: فيأخذ عنه تفسيره وبيانه للقرآن، وشواهد ذلك مستفيضة في كتب الحديث والتفسير بما يغني عن البيان. ولا ننسى في هذا المضمار أن ابن عباس كان إذا فاته سماع شيء من الرسول صلى الله عليه وسلم في بيان القرآن، لصغر سنه، وقصر مدة ملازمته له، فإنه يعوض ما فاته بتلقيه عن الأكابر من صحابته صلى الله عليه وسلم وييدي ابن عباس في الأخذ عن الصحابة ثبثاً منقطع النظر، فيقول عن نفسه: (إن كنت لأسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم)^(٢).

وإذا ما فاته الأخذ عن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام، فإنه يلجأ أخيراً إلى إعمال عقله والاجتهاد برأيه، وهنا يظهر تفوقه ونبوغه، ويكاد يتميز منهجه عن

(١) انظر المسند للإمام أحمد ج ٥ ص ١٣١ رقم الحديث (٣٣٨٨). ونقله ابن كثير في تفسيره ج ١ ص ١٩٤ عن البخاري من طريق محمد بن عبيد الطنافسي، عن العزام، ونقله أيضاً في ج ٣ ص ٣٥٧ عن البخاري من طريق سليمان الأحول عن مجاهد بمعناه.

(٢) تاريخ الإسلام للذهبي ج ٣ ص ٣٣.

منهج غيره من الصحابة.

لقد رأينا أن أدوات الاجتهاد عند الصحابة أربعة:

١ - معرفة أوضاع اللغة العربية وأسرارها.

٢ - معرفة عادات العرب في أقوالها، وأفعالها، ومجاري أحوالها في عصر التنزيل.

٣ - معرفة أسباب النزول، وما أحاط بالقرآن من ظروف وملابسات تعين على الفهم.

٤ - قوة الفهم، وسعة الإدراك.

وابن عباس لم يكن ليقول في كتاب الله برأيه دون علم ولا قواعد في اجتهاده، إنما كان كغيره من الصحابة، يعتمد على هذه الأدوات نفسها ويركن إليها عندما يجتهد في كتاب الله، لكنه بسق فيها على غيره كما تبسق النخلة السحوق على الودي الصغار:

أما عن قوة الفهم وسعة الإدراك: فلا تسئل عن صاحبنا وعلو كعبه في هذا المضمار، مما كان نتيجة لمواهبه الفطرية وذكائه المتكامل، وبركة كثرة دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم له^(١)، وعنايته به، بعد توصية جبريل الأمين - عليه السلام - به^(٢).

ويكتفينا لنعلم مدى اطلاع ابن عباس على أسباب النزول، أن نعرف أنه قد عرف - أو كاد يعرف - من ذلك ما عند الصحابة جميعاً، ومن البديهي أن ما يعرفه من أسباب النزول واحد منهم، ليس بلازم أن يعرفه الآخر، فكان - رضي الله عنه - كالنحلة التي تظيز من زهرة إلى زهرة، لثمنحنا بعد ذلك عسلًا طيب المذاق، وقد ألمحنا من قبل إلى جلده ودأبه في أخذه عن أوعية العلم من الصحابة، وكيف سافر مع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - السفر الطويل، وقام على خدمته، ليعرف منه المرأتين من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم اللتين قال الله تعالى لهما: ﴿إِنْ تَوَيَّأَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ

(١) انظر الاستيعاب ج ٢ ص ٣٤٤، وتاريخ بغداد ج ١ ص ١٧٣ وتذكرة الحفاظ ج ١ ص ٤٠،

وتهذيب التهذيب لابن حجر ج ٥ ص ٢٧٨ و ٢٧٩، والاتقان ج ٢ ص ١٨٨ وغيرها.

(٢) انظر تهذيب التهذيب ج ٥ ص ٢٧٩، والاتقان ج ٢ ص ١٨٨.

صفت قلوبكما» (التحريم: ٤) (١) وكيف كان يجلس على باب أحد الصحابة وهو قائل، فيتوسد رداءه تسفي الريح عليه التراب (٢)، متحدياً عوادي الطبيعة، غير آبه للحر والقر، والجوع والعطش، ليسأله عما نزل من القرآن بالمدينة، أو عن مغازي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما نزل من القرآن في ذلك (٣)، أو غير هذا وذاك، مما يريد من العلم (٤). أما معرفة عادات العرب في أقوالها وأفعالها ومجاري أحوالها في عصر التنزيل، فقد كان حجة، يرجع إليه فيها، وكان مرجعاً يقصده الناس من كل حذب وصوب لمعرفة أيام العرب ووقائعها (٥).

ولما إحاطته بأسرار اللغة العربية وأوضاعها: فحدث عنها ولا حرج (٦)، لقد أوتي علم العربية، وخبر أسرارها، ووقف على دقائقها، حتى ليلفت الانتباه إلى مواقع الحروف، ومعانيها، ومواضع استعمالها في كتاب الله بأسلوب المربي الحكيم، كما في قوله: (الحمد لله الذي قال: «عن صلاتهم ساهون» ولم يقل: «في صلاتهم ساهون» (٧).

وإذا أردت الأدب من شعر ونقد وغير ذلك، فقد كان أديباً ناقداً، اعترف له أكابر الصحابة بالتقدم في هذا الميدان، فهذا عمر مع بعض أصحابه يتذكرون الشعر يوماً، فيقول بعضهم: فلان أشعر الناس - ويقول بعضهم: بل فلان أشعر، ويقبل ابن عباس عليهم حيثئذ فيقول عمر لأصحابه: (قد جاءكم أعلم الناس بها)، ثم يسأله عن أشعر الشعراء، وعن دليل من شعره، فيجيبه خبر الأمة، بأن أشعر الشعراء زهير بن أبي سلمى، ويذكر من شعره ما يستدل به على ذلك (٨). والآن بعد أن عرضت منهج ابن

(١) انظر ذلك موسعاً في البخاري ج ٣ ص ١٠٣، واللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان

ج ٢ ص ١٢٩ - ١٣٥ ومسند الطيالسي ج ١ ص ٦ باختصار.

(٢) انظر تذكرة الحفاظ ج ١ ص ٤١، والإصابة ج ٢ ص ٣٢٣.

(٣) انظر طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٣٧١.

(٤) انظر طبقات ابن سعد ج ٢ ص ٣٦٧ - ٣٦٨.

(٥) انظر ما رواه ابن سعد في طبقاته: ج ٢ ص ٣٦٨ عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة، وما

ذكره الزركلي في الأعلام ج ٤ ص ٢٢٩ عن عطاء، وانظر الاستيعاب ص ٤٢٦.

(٦) انظر طبقات ابن سعد: قصد الناس لابن عباس في الشعر والأنساب.

(٧) انظر الاثنان ج ١ ص ١٤٥.

(٨) انظر الكامل في التاريخ لابن الأثير الجزري ج ٣ ص ٢٤، وارجع إلى الفقرة ١٢٢ من

عباس في التفسير عرضاً مبسطاً، أستطيع أن أقول عنه. إنه كان يجمع في تفسيره للقرآن الكريم بين المنقول والمعقول، وأرى من المهتم علي في هذه المرحلة من البحث العلمي، أن ألقى الأضواء على النقاط التي تفرد بها في نهجه، فأبرزها بوضوح:

فقد امتاز حبر الأمة في الأمور الثقيلة بالثبوت، وكأنني به يريد أن يأخذ ما فاتته أخذه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بطريق القطع، فيسأل عن الأمر الواحد ثلاثين من الصحابة^(١).

ولعله اقتبس هذه الخصيصة من أستاذه وابن عمه علي بن أبي طالب، الذي كان يثبت بطلب اليمين ممن يروي له الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، إذا لم يكن قد سمعه منه بنفسه، قال علي - رضي الله عنه -: «كنت إذا سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم حديثاً، نفعتني الله بما شاء منه. وإذا حدثني عنه غيري استحلفت، فإذا حلف صدقته، وحدثني أبو بكر - وصدق أبو بكر - قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (ما من عبد يذنب ذنباً، ثم يتوضأ ويصلي ركعتين، ثم يستغفر الله، إلا غفر الله له)^(٢).

أما في الاجتهاد، فقد أكثر من الاعتماد على الشعر الجاهلي، لفهم الألفاظ الغريبة التي وردت في القرآن، وكان يقول: «الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منه» ويقول أيضاً: «إذا سألتموني عن غريب القرآن فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب»^(٣). وليس هذا مجرد توجيه كلامي إلى طريقة معرفة غريب القرآن، فقد كان يمارس ذلك عملياً، عندما يسأل عن القرآن، فينشد الشعر ليستشهد على التفسير^(٤)، وقد روي عنه من ذلك الشيء الكثير.

وأوعب ما روي عنه في هذا مسائل نافع بن الأزرق وأجوبته عنها، وهي كثيرة، أخرج بعضها ابن الأباري في كتاب الوقف والابتداء، وأخرج بعضها الآخر الطبراني

هذه الرسالة.

(١) انظر ما مر في الفقرة (١٣٦) من هذه الرسالة.

(٢) انظر مسند أحمد ج ١ ص ١٥٣ - ١٥٤ رقم ٢. وتذكرة الحفاظ ج ١ ص ١٠.

(٣) انظر غاية النهاية في طبقات القراء ص ٤٢٦، والاتقان ج ١ ص ١١٩.

(٤) انظر الاتقان ج ١ ص ١٢٠.

في معجمه الكبير^(١)، وقد ذكر السيوطي في الاتقان مبدأ الحوار بين نافع وابن عباس، وسرد مسائل ابن الأزرق وأجوبة ابن عباس عنها.

وهكذا كانت عناية الصّحابة والتابعين بتفسير القرآن العظيم على هذا المنهج العلمي الرصين، وإنّ المسمين جميعاً في كل زمان ومكان مديّنون لهم في هذا الجانب الكبير في حياتهم العلمية، فقد بذلوا رضي الله عنهم أقصى اهتمامهم لتبيين معاني القرآن ودلالاته وإشاراته وتوجيهاته، فتلقّى ذلك عنهم التابعون وتابعوهم جيلاً عن جيل حتى هذا العصر الذي ظهر فيه أنصاف الرجال، وأمساخ المستشرقين الذي يتلقّطون مغالطاتهم ويتلقّفون شبهاتهم التي أثاروها حول القرآن العظيم وعلومه السامية الكريمة، فكان صاحب القراءة المعاصرة فيما أسماه بـ«الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» تحت شعار التطوّر والمعاصرة والتقدّم والحداثة، فجاء بما تحمله العوادي من مغالطات جدلية مأكرة وتأويلات فلسفية باطلة حول آيات الله تعالى، فكان يسوق الآيات لأفكاره الوهمية سوقاً ويحمّلها من المعاني المغلوطة تحميلاً، بل نراه يسوق الآيات الكريمة عن معانيها الأصيلة، وإلباسها زوراً وبهتاناً ثوب الحداثة والمعاصرة التي تعني عنده الإنسلاخ عن العلوم الإسلامية والضوابط الشرعية واللغوية، ولهذا نجده يصرّح في ص ٩١ فيقول: «نحن غير مقيدّين بأيّ شيء قاله السلف». فجاء بكتاب مخالف لأصول العلوم القرآنية والشرعية واللغوية، وداعياً إلى الخروج عنها والتنكّر لها. فأبى خطر أدهى من ذلك !!!..

(١) انظر الاتقان ج ١ ص ١٢٠.

الفصل الرابع

مراحل التفسير العلمي والموضوعي للقرآن العظيم

وهو يشتمل على الأبحاث التالية :

- البحث الأول: أثر القرآن العظيم في العلوم الكونية.
- البحث الثاني: دعوة القرآن العظيم إلى التفكر في الأنفس والآفاق.
- البحث الثالث: التفسير العلمي بين المنهج القديم والمنهج الحديث.
- البحث الرابع: التفسير العلمي في رحاب إعجاز القرآن العظيم.
- البحث الخامس: الآيات الكونية في القرآن العظيم.
- البحث السادس: التعريف بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم.
- البحث السابع: نشأة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.
- البحث الثامن: التفسير الموضوعي بين الماضي والحاضر.
- البحث التاسع: ألوان التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

أثر القرآن العظيم في العلوم الكونية

للقرآن الكريم في هدايته التي يقصد بها إلى إيقاظ العقل وتحريره ألوان من الأساليب البيانية يستثير بها هذا العقل ليثير أسرار الحياة الدفينة في آيات الكون، ويتعرف حقائق الوجود، ويكشف عن عناصر الطبيعة، ويدرس ظواهرها المتفاعلة، ليقف على مدى تسخيرها للإنسان وانتفاعه بهذا التسخير قياماً بحق التكليف الإلهية إلى أقصى ما يمكن أن يدفع بالإنسانية في آفاق التقدم الحضاري بقدر ما تستطيع أن تصل إليه وتحققه الطاقة البشرية.

وهذه الألوان من الأساليب البيانية في هداية القرآن هداية توقف العقل من غفوته وتحرره من عبوديته بلغت من الكثرة حداً لا يبلغ الحصر استيفاءها، ولا الكتابة استيعابها، فلا جرم أن اكتفينا بالشواهد والأمثال نسوقها من أي القرآن نماذج لأشبابها^(١).

نص النموذج الأول:

يقول الله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ * يُنْبِثُ لَكُمْ فِيهِ الزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ * وَسَخَّرَ لَكُمْ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ * وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا

(١) القرآن العظيم هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين: محمد الصادق عرجون
ص ٧٦-٨٥/ دار العلم - بدمشق.

مِنْهُ حَلِيبَةٌ تَلْبِسُونَهَا وَتَرَى الْفُلَّكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ * وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَأَنْهَاراً وَشُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ * وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ * أَفَمَنْ يَخْلُقُ كَمَنْ لَا يَخْلُقُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴿١﴾ .

نص النموذج الثاني :

وقال عز شانه : ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ وَسَحَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ * وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقُرُونَ * وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مُتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَاطٌ مِنْ أَغْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفْضِلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢﴾ .

والقرآن الكريم يجمع هذا التفصيل مبنياً حكمة الله في خلقه، وأنه تعالى خلق هذه النعم العامة والخاصة للإنسان خاصة، لينظر فيها نظر اهداء بها إلى عظمة خالقها، ونظر انتفاع بما فيها من خير وجمال وجلال فيقول ربنا تبارك وتعالى : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً﴾ (٣) .

فأفاد بقوله : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ﴾ انفراده بالكمال الوجودي المتجلي في مظهر خالقيته، وأفاد بقوله : ﴿خَلَقَ﴾، مناط الدلالة في الكائنات على وجوده وقدرته، وسريان حكمته في الموجودات، وأفاد بقوله : ﴿لَكُمْ﴾ اختصاص الإنسان ومدى سلطان خلافته في الأرض، وتسخير ماعليها من كائنات له، ليعتبر بما فيها من دلائل القدرة الإلهية، ويستفح بما فيها من نعم الله تعالى المكنونة في ذرات عناصرها، وهذا يقتضيه إجمالة النظر والبحث في حقائقها لتتجلى له حكمة الله في خلقه، وأفاد بقوله : ﴿جَمِيعاً﴾، شمول العبرة لكل كائن على الأرض، والانتفاع بكل كائن حتى لا يتعظم الإنسان شيء على الأرض إلا وهو مقهور له بتسخير الله خاضع لسلطان عقله وتفكيره

(١) سورة النحل: الآيات (١٠-١٧) .

(٢) سورة الرعد: الآيات (٤-٢) .

(٣) سورة البقرة: الآية (٢٩) .

ويجري هذا المجرى قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ﴾ (١). ويقول جل وجهه: ﴿وَاللَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ * وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَرًا وَرِزْقًا حَسَنًا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ * وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنْ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ * ثُمَّ كُلِّي مِنَ الثَّمَرَاتِ فَأَسْلِكِي سُبُلَ رَبِّكَ ذُلُلًا، يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٢).

وقد أكثر القرآن الكريم من إخبار الله تعالى بإنزال الماء من السماء وإحياء الأرض بعد موتها، ولكنه يخرج هذا الإخبار مخارج متنوعة، فتارة تراه يسوقه مثلاً للدنيا وزيتها وسرعة تقضيها وفناها مهما اخضرت وزهت وأينعت ثمارها، كما في نحو قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا مِثْلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالْأَنْعَامُ، حَتَّى إِذَا أَخَذَتِ الْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازْبَهَّتْ وَطَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ، كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (٣)، وقوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مِثْلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِرًا﴾ (٤).

وتارة يسوقه برهاناً على صحة البعث بياناً لقدرة الله في الأمور المشاهدة المحسوسة التي يؤمن الحس بوقوعها، وإن كان يجهل كيفيتها، ليقيس العقل أمر البعث على هذا الواقع المشاهد المحسوس، فلا يتعاطمه التصديق به كما في قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ * ذَلِكَ بِأَنَّ

(١) سورة الحج: الآية (٦٥).

(٢) سورة النحل: الآيات (٦٥-٦٩).

(٣) سورة يونس: الآية (٢٤).

(٤) سورة الكهف: الآية (٤٥).

اللَّهُ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُخَيِّبُ الْمَوْتَى وَأَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ * وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي الْقُبُورِ (١).

وكما في قوله تعالى: ﴿وَمَنْ آيَاتِهِ أَنَّا تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخَيِّبُ الْمَوْتَى إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢).

وتارة يسوقه لمجرد العبرة لتهدي به إلى معرفة الله والإقرار بوجوده وكمالاته كما في آية النحل ويرشد إليه تعقيها بقوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾، لأن المقصود به من يسمع سماع نعقل وتفكير فيهتدي إلى المعنى الذي من أجله كان ذلك آية من آيات الله وعبرة في أسرار خلقه.

ويؤكد ذلك مجيء العبرة في آية خلق الأنعام والانتفاع بها بعد آية إنزال الماء من السماء، وتفصيل العبرة في خلق الأنعام بأخص منافعها للإنسان، منفعة قد تدخل في تكوين عناصره وتقويم بدنه، وهي من أجل منافع هذه الأنعام في حياة الناس وأعمها بيئة وزماناً وأجيالاً وخلاصة العبرة في هذه الآية التكوينية البديعة هي في تصوير الإنعام في خلق الأنعام لأجل نفع الإنسان بهذه النعمة، فالتعبير عنها بقوله: ﴿نُسْقِيكُمْ﴾ فهي سقياً وشراب لاتعب بالإعداد والتهيئة والتحضير في طريقه إلى منافذ توزيعه على أعضاء الجسم للانتفاع به.

والإبهام في قول: ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ آية من أعمق آيات العبرة، لأن ما في بطون الأنعام ليس فقط هو الغذاء والماء وإنما هناك إفرازات الغدد الكثيرة التي عرف العلم بعضها ولا يزال معها في طريق البحث، وهناك عناصر هذه الإفرازات، وكيفية تكوينها، ومن أي الأشياء تتكون، وهناك الأعضاء الداخلية المهيئة لهذه الإفرازات وتوزيعها بأقدار محددة، وهناك ما لم يكشف عنه العلم مما في بطون الأنعام، وهناك العروق والأعصاب الداخلية في دقة نظامها، وإعداد الكل للقيام بمهامها في تمثيل الطعام بما يشبه الأنابيب الدافعة والمستقبلة، وهناك أعضاء الخلط والمزج لما يدخل المعدة من الطعام والشراب، وهناك أعضاء الفرز والتمييز بعد التمثيل، وهناك الكثير مما يعجز العقل عن حصره.

(١) سورة الحج: الآيات (٥-٧).

(٢) سورة فصلت: الآية (٣٩).

وكل ذلك عبر عنه القرآن العظيم بقوله: ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ بهذا الإيجاز المعجز، وهو أشبه بوحى الرمز والإشارة، بيد أنه في إفهامه المعنى وأدائه المقصود أوضح من الإسهاب المطنّب، والتفصيل المطيل.

ثم جاءت بعد ذلك عبرة العبر، فالقرآن في بيانه المعجز لم يكف بقوله: ﴿نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ لما فيه من الإبهام الذي قد تنفر عنه بعض النفوس، وهذا الإبهام كان يمكن دفعه بذكر مفعول الفعل ﴿نُسْقِيكُمْ﴾ بلفظة متصلاً بمتعلق الفعل، فيقال: (نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ لَبناً خَالِصاً) ولكن البيان القرآني لم ينهج في أسلوبه هذا النهج، بل اتبع متعلق الفعل: ﴿مِمَّا فِي بُطُونِهِ﴾ وقد أشرنا إلى بعض مافيه من لوازم الإعجاز، بما فوق مناره معجزة الإعجاز في هداية القرآن، ومعجزته في براعة البيان، فقال: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَناً خَالِصاً﴾ وهنا مجال العقل وغوصه إلى أعماق الآيات الكونية، ليعرف فيها عظمة القدرة الإلهية، باحثاً متعمقاً منطلقاً في أجواء العلم والمعرفة ليهتدي إلى بديع صنع الله تعالى.

فهذا الشراب الشهي اللذيذ، الهنيء المريء، الحلو السائغ يتولد من بين (أزبال كرش الحيوان ودمه) يقول المتأفون: (أف. أف) وسيقول العلم الطبيعي، والتحليل العنصرية، وتقول مخابر تفتيت المواد إلى عناصرها المعروفة، وتقول معامل الطبيعة في معاهد العلم ومدارسه ماتقول من نظريات وصلت إليها في طريق تركيب المواد وتحليلها وتحويل بعض المواد بنسب خاصة بين العناصر وذرات المادة، ولكن العلم بمخابره ومعامله وتحليلاته لا يستطيع أن يقول: كيف خرج ذرات هذا الطعام اللذيذ الهنيء الذي تشغف بحبه النفوس من بين (الفرث - زبل الكرش - والدم) المستقذرين لدى النفوس؟ ويتساءل بعد ذلك: كيف تجمعت بهذه النسب الخاصة وتكونت لبناً خالصاً؟ وكيف امتزجت بنسبها الخاصة لم تزد عنها أو تنقص منها؟ وهل مجرد وجود هذه النسب الخاصة بين ذرات المواد كافٍ في تكوين مادة أخرى؟ أو أن هناك احتمالاً قائماً بوجود عوامل أخرى قد تكون مادية، وقد تكون غير مادية لها دخل في تكوين المادة الثانية بعد تحقق تلك النسب؟ سيقول العلمانيون من أحلاس المعامل والمخابر وعبيد المادة: أليس قد صنع (اللبن) بعيداً عن الفرث والدم، وبعيداً عن بطن الحيوان، وسرى بين الناس جافاً معلباً في علبة، وشربه الناس بعد أن أذابوه بالماء، فشربوا منه لبناً

خالصاً سائغاً للأطفال والشاربين؟ نعم، بلى، قد كان ذلك، ولكن سلوا أهل الاختصاص من أهل العلم المتواضعين لنعمة العلم هل هذا كذا؟ وفي أهل الاختصاص من علماء تحليل العناصر المادية أدباء الأسلوب يجيبون عن هذا التساؤل بقول الشاعر: ليس التكحل في العينين كالكحل، والعقل يقول: ليس التطيع كالطبع، وليس المقلد كالأصل، فليمض العلم في بحثه ليكشف حقائق الآيات الكونية في بيان الهداية القرآنية عن طريق العقل الحر الطليق الذي أيقظته تلك الهداية من غفوته وحررته من عبودية الجمود على موروث الآباء والأسلاف.

ثم أتبع القرآن الكريم آية الإنعام بخلق الأنعام آية كونية عجيبة في أسلوب من براعة البيان القرآني فقال: ﴿وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ سَكَراً وَرِزْقاً حَسَناً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١)

وموطن الإبداع في هذه الآية أنها تتحدث عن عظمة قدرة الله تعالى - الذي أخرج اللبن الشهي اللذيذ من بين زبل الكرش والدم طعاماً سائغاً للشاربين - في أنه تعالى جعل من ثمرات النخيل والأعناب خصائص الخير ومحض الإنعام إذا تناولها الإنسان كما خلقها بارئها دون عمل منه يحولها عن حقيقتها الإنعامية، وجعل منها خصائص إذا عولجت بعمل الإنسان تحولت عن حقيقة الخير والإنعام إلى مصدر شر وانتقام، فهي ثمرة واحدة أثمرتها شجرة واحدة، سقيت بماء واحد واستخلصت عناصر غذائها من تربة الأرض التي نبتت فيها، وفيها هذه الخصائص المتخالفة التي يستطيع الإنسان أن يتخذ منها رزقاً حسناً وطعاماً شهياً نافعاً، وفاكهة لذيذة مفيدة، ويشخذ منها سكرًا يفسد عقله وجسمه، فتكون عليه شراً ووبالاً بعد أن كانت نعمة وخيراً، فهذه الآية من قبيل قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مِّنْجَاوِرَاتٍ وَجِئَاتٍ مِّنْ أَغْنَابٍ وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ صِنَوَانٍ وَغَيْرِ صِنَوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضُلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(٢)، ولذلك اتحدت فاصلتهما لتنبه العقل إلى مواطن الدلالة في الآيتين على عظمة قدرة الله ووحدانيته ومحكم تدبيره، وبالفحكمة، وقد وقع الامتنان بهذه النعمة باعتبار أصل وجودها قبل بعث الإنسان بهاء ووقع بها الاستدلال على عظمة القدرة

(١) سورة النحل: الآية (٦٧).

(٢) سورة الرعد: الآية (٤).

الإلهية باعتبار مافيه من الخصائص المتخالفة في غايتها.

أما حديث النحل ودلالة هذا الكائن العجيب البديع على جلال الله وعظيم صنعه وما أودعه الله فيه من خصائص يعجز العقل والعلم عن الإحاطة بها، ولكنها بيّنة الأثر، في دلالتها على إيقاظ العقل وتحريره من أغلال الجمود ليبحث ويفكر ويستتج فهو حديث طويل عريض، متسع الجوانب، تبادل الباحثون من العلماء وأهل الاختصاص في دراسة طبائع الكائنات الحية وآثارها في الحياة وإن كانوا منه في النقطة التي يبدأ منها الخط المستقيم، وقد أصبح للنحل مناحل دولية، وله بحوث ودراسة عميقة في معاهد الزراعة وكلياتها الجامعية.

والذين فتحوا أنظارهم على ثمرات هذه الدراسات العلمية الحديثة عرفوا ما قال ويقول العلم عن طبائع هذا الكائن وعن منافع هذا الشراب الذي لاتفيه كلمة (حلو) حقه من وصف (الحلاوة) والذي لازال العلم منه في موقف البحث، كيف تكون؟ ومم تكون؟ وكيف اختلفت ألوانه؟ ومن أين تأتية هذه الخصيصة، خصيصة (الشفاء للناس)؟ ومن أي الأمراض يشفي؟ وهنا أيضاً سيقول علماء الطبيعة وتحليل العناصر المادية وأحلاس المخابر والمعامل مثل ما قالوا في (اللبن) وسيقول لهم العقل الذي أيقظته هداية القرآن، تعالوا معي، فأنا وأنتم في نقطة البداية على الطريق الذي توثبه القرآن توثباً طويلاً له فيه المكان والزمان، وهو هنالك عند ذروة النهاية في انتظار المؤمنين من العلماء.

وقد كان الطب، وهو غلم الحياة أجراً الفنون العلمية على التجاوب مع الهداية القرآنية في إشارتها إلى العقل بالتححر والبحث، فكتبت مجلاته العلمية في بلاد العالم المتعبد بالعلم إلحاداً أو إيماناً تذكر عن هذا الشراب الذي يخرج من بطون النحل أموراً كان المؤمنون يؤمنون بها تديناً ويجهلونها علماً ومعرفة وبحثاً، فلفت أنظارهم إلى هداية كتابهم بإعجازها الفكري والمعنوي، وتلفتوا خلفهم يفتشون في تراثهم من تفسير هذا الكتاب الكريم، فوجدوا إشارات ورموزاً لاتغني غناء البحث الجاد المتعمق عن طريق العلم ووسائله المستحدثة.

ولعل ذلك يدفعهم إلى أن يسهموا في هذه البحوث العلمية بطرائقها الخاصة مستظلين بظل الإيمان بهداية القرآن العظيم في إيقاظ العقل الإنساني وتحريره من ريقه الجمود والتقليد، والعلم - أي علم - لا وطن له.

وفي فواصل هذه الآيات تنبيه إلى طريق الهداية القرآنية، وأنها عمل من أعمال العقل المتيقظ المتحرر، الذي يجعل من العلم والمعرفة بأوسع معانيهما، وأعلم فنونهما، وأشمل موضوعاتهما قوة كاشفة عن حقائق الآيات الكونية في القرآن العظيم، لتكون وسيلة إلى معرفة الله، ووحدانيته في إلهيته، وربوبيته، وبديع صنعه في خلقه، وبالغ حكمته في تقديره وهدايته، وتفرد به الكمال المطلق.

والهداية القرآنية وحي الله تعالى، فلا مدخل للعقل في وجودها، ولكن الطريق إلى معرفتها والتحقق بها في واقع الإيمان البرهاني هو عمل العقل واجبه، ولهذا جاءت فواصل الآيات الكونية منبّهة للعقل، لتوقظه حتى يتبين أنه عمله في الهداية القرآنية إنما هو الكشف عن حقائقها في آيات الله، ولتهدى بها في توطيد دعائم الإيمان في قلوب المؤمنين.

ومن هنا نعلم فساد الطريقة الجدلية السفسطائية الفلسفية التي قامت عليه القراءة المعاصرة للمدعو «محمد شحرور» فيما صنّعه أو اصطنعه من الأغاليط والنظريات الوهمية تحت ما أسماه بـ«الكتاب والقرآن قراءة معاصرة».

ومن مغالطاته الجدلية زعمه في ص ١٠٣: «والقرآن حقيقة موضوعية مطلقة... وفهم هذه الحقيقة لا يخضع إلا لقواعد البحث العلمي الموضوعي، وعلى رأسها الفلسفة وكل العلوم الموضوعية من كوسمولوجيا وفيزياء وكيمياء وأصل الأنواع وأصل الكون والبيولوجيا وسائر العلوم الطبيعية. أما الشريعة والأخلاق والعبادات والقانون والسياسة والتربية، فليس لها علاقة بالقرآن لامن قريب ولامن بعيد...» كذا يزعم بلا مسكّة من علم!.. ويزعم في ص ٩٥: «أن القرآن.. جاء من قرْنِ قوانين أحداث الطبيعة مع أحداث التاريخ... أي قرْنِ بين القوانين الناطمية لأحداث الطبيعة والقوانين الناطمة لأحداث التاريخ»!!؟..

ويزعم في ص ٩١: أن «القرآن حقيقة موضوعية مادية وتاريخية لا تخضع لإجماع الأكثرية حتى ولو كانوا كلُّهم ثَقَاءً، ويخضع لقواعد البحث العلمي حتى ولو كان الناس كلهم غير ثَقَاءٍ، وعلينا أن نكسر هذا الحاجز الوهمي المبني على عبارة «هذا ما قاله الجمهور» أو «هذا ما أجمع عليه الجمهور - جمهور الفقهاء»!!..

هذه هي الأسس التي قامت عليها قراءته المعاصرة لكتاب الله تعالى، وتحت هذا

التحلل من كل الضوابط والثوابت التي اتفق عليها علماء الإسلام، يطرح أفكاره
الموهومة ونظرياته المزعومة كتجديد للإسلام وعلومه ؟!..
وقد خاب كلُّ أفَّاكٍ أثيم !!..

دعوة القرآن الكريم إلى التفكير في الأنفس والآفاق

١- الدعوة إلى التفكير والتدبر :

نعلم جميعاً أن الله سبحانه وتعالى خلقنا لعبادته، فأودع فينا القدرات والإمكانات للتعرف عليه، فهو سبحانه أخرجنا من بطون أمهاتنا لنعلم شيئاً ثم منحنا أدوات المعرفة المختلفة، من سمع وبصر وفؤاد لتعرف عليه سبحانه ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَتَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١) فانزل القرآن ليخاطب هذه الفطر والعقول لتصل إلى الحقيقة الكبرى حقيقة الألوهية وحقيقة العبودية وأن هناك خالقاً يخلق ويأمر وعبدًا يؤمر فيطيع.

ولقد دعانا القرآن الكريم للتفكير والتدبر والتأمل وتطبيق منهجه في ذلك للتوصل إلى هذه الحقائق فلانعطل هذه القدرات ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(٢) ثم دعانا للتأمل والتفكير في الأنفس والآفاق ليتعرف الإنسان على ذاته وعلى هذا الكون وهذه الحياة ليعرف من هو؟ ومن الذي خلقه وخلق الأكوان؟ وعلى حقيقة هذه الحياة بدايتها ونهايتها وبالتالي يتعرف على عقيدته التي ترشده إلى أرشد الطرق وأسعدها، ليفوز برضى الله في دنياءه، وبالجنة التي وعد المتقون في أخراه، وذلك بأسلوب شيق آخاذ، وعرض رائع جذاب... ومن الذي يدعوك هذه الدعوة إنه رب الأكوان وخالق الإنسان يدعو خلقه على لسان رسوله ﷺ ﴿قُلْ إِنَّمَا أَدْعِيكُمْ بِوَاحِدَةٍ

(١) سورة النحل: ٧٨.

(٢) سورة محمد: ٢٤.

بأن تقوموا لله مثني وفُرَادَى، ثم تفكروا... ﴿١﴾.

دعوة من الرؤوف بالعباد إلى العباد... تفكروا فيما حولكم، فيما تراه أعينكم وتشمه أنوفكم، دعوة تجدد منهج البحث ووسائله للوصول إلى الحق، والمعرفة الصادقة لنستبين الصدق من الكذب والحق من الباطل، واليقين من الافتراء، والظن والهوى من النور المبين، دعوة بعيدة عن المصالح والأغراض بعيدة عن التأثير بالتيارات السائدة في البيئة. وهي دعوة إلى منطق الفطرة الهادي الصافي، وإلى التعامل مع الواقع البسيط لا مع القضايا النظرية والأقيسة المنطقية^(٢)، والدعاوي الرائجة التي تبعد القلب والعقل عن مواجهة الحقيقة في بساطتها وهي في نفس الوقت منهج البحث عن الحقيقة.

إنه منهج بسيط يعتمد على التجرد من الرواسب والمؤثرات، يعتمد على مراقبة الله، فإن تحقق ذلك صح واستقام الطريق ﴿أن تقوموا لله﴾ لا لغرض أو هوى أو مصلحة، ﴿ثم تفكروا﴾ تفكر القائمين لله المتجربين له...

ولقد منّ الله على عباده فجعل قراءة هذا الكتاب المنظور- كتاب الكون - وتدبره ميسوراً للجميع، للعالم والجاهل، والقارئ والأمي، وإن كان لا يتدبر قراءته ولا يفقهها إلا المتقون ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ كما لا يعقل آياته إلا العالمون، فهل يبذل الإنسان جهده مع تقوى الله وهو يطالع هذا الكتاب المفتوح لهذا الكون الفسيح الذي يعيش فيه؟ وهو يشم هواه ويأكل ثماره، ويشرب من أنهاره، ويركب بحاره، ويسير فجاجه، وينظر إلى سمائه، ويستخدم أنعامه، ثم يفكر تفكر العاقل... يفكر فقط فيما وقع عليه حسه، فإنه بتوفيق الله له سيجد الدلالات التي لاتعد ولا تحصى من العبر والآثار الدالة على معاني صفاته جل شأنه فتشير هذه المطالعة في القلب إحساسات رقيقة ووجدانات عالية، لأنه اتصل بالله سبحانه وتعالى فاهتز القلب وخشعت النفس وفاضت العين، واستنار الطبع، فإذا بالإنسان في هذه اللحظة التي استغرق فيها بفكره وتدبر فيها بعقله قبضة من نور الله عز وجل، قلبه نور، ولحمه نور، وخلقه وأمامه كل ذلك نور على نور...

فإذا أحس الإنسان بقلبه يختلج وبدنه يرتجف، ودمعه يفيض، وهو يسبح في

(١) سورة سبأ: ٤٦ كما هو واقع كتاب الدكتور «شحرور» في قراءته المعاصرة للكتاب والقرآن

ملكوت الله بفكره وعقله وقلبه، فليعلم أنه فهم سطرّاً من كتاب الوجود، فإن ثمرة التأمل أن تنفذ بعض آثار صفات الخالق، وفي الآثار عبرة، والعبرة إشعاع رقيق يسطع في القلب ليصله في رفق بالله سبحانه وتعالى، فإذا أفضت إلى الله، وخرت مشاعرك ساجدة خاشعة، راجية محبة بلغت من أسباب الفهم والمعرفة مالا يبلغه إلا الراسخون في العلم ولو كنت ممن لم يقرأوا كتاباً أو يجلسوا إلى أستاذ في مدرسة أو جامعة^(١).

٢- تساؤل عن السموات والأرض:

ولكى يتشر هذا النور ليصير العبد الصالح - الذي هداه الله لنوره - طريقه ويتدبر آياته ليكون من أولى الألباب، سلك القرآن معه أسلوب التساؤل الذي يثير العقل للتفكير الهادىء، ويشد انتباه المسلم شداً بهذا التساؤل، وهو بذلك لا يطلب منك إجابة بلسانك على أسئلته التي يطرحها، لكنه يجعل داخلك ينطق بالحقيقة التي تراها العين الباطنة ويوققك أمامها ﴿الْمَ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَاداً، وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً، وَخَلَقْنَاكُمْ أَزْوَاجاً، وَجَعَلْنَا نَوْمَكُمْ سُبَاتاً، وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاساً، وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشاً، وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعاً شِدَاداً، وَجَعَلْنَا سِرَاجاً وَهَّاجاً، وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَاجاً، لَنُخْرِجَ بِهِ حَبّاً وَنَبَاتاً وَجَنَّاتٍ أَلْفَافاً﴾^(٢) فيجعل من هذه المقدمات العقلية إثباتاً ليوم البعث ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً﴾^(٣) فلا تملك خيال هذه التساؤلات إلا أن تقول حقاً حقاً صدقت ربيّاً.

ياله من أسلوب بديع مثير يدعو الإنسان الغافل ليفيق من غفوته، ويصحو من نومه بالإلحاح في الدعوة إلى النظر في السماء والأرض ومافيهما، من جمال وتنسيق بديع ودقة متناهية ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا، وَمَالَهَا مِنْ فُرُوجٍ، وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ، تَبْصِرَةً وَذِكْرَى لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ﴾^(٤) وتشكر الدعوة مرات ومرات دون ملل للنظر ﴿إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ، وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ، وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ، وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾^(٥).

(١) تذكرة الدعاة، للبهى الخولي، ص ١٩٠.

(٢) سورة النبأ: ١٦٦.

(٣) سورة النبأ: ١٧.

(٤) سورة ق: ٨٦.

(٥) سورة الفاشية: ٢٠-١٧.

ثم يتقل بك نقلة أخرى، في مشهد يشارك فيه كل البشر ويلمسه كل إنسان بل يفعل في اليوم أكثر من مرة حتى ألفه كما ألف رؤية السماء والأرض ومافيهن فلا تستثيره المشاهد الكونية الجميلة، والآيات الربانية الكثيرة، فيقص عليك قصة طعامك الذي تأكله مرحلة لمرحلة لتتظر إليها وتسأل نفسك هل لك من يد في هذا الطعام الذي تأكل؟ هل لك من تدبير لأمره؟ ألا تعلم أن اليد التي أخرجتك إلى الحياة وأبدعت خلقتك هي ذات اليد التي أخرجت طعامك وأبدعت إخراجك، فطعامك الذي تضعه بين يديك ليتناوله فمك، وينبت به لحملك، وتقوى به على معيشتك، معجزة كمعجزة خلقك سواء بسواء، تمت بيد القدرة التي أبدعت وأتقنت كل شيء وتحدث الخلائق جميعاً ﴿أفأنتم ماتحرون أنتم تزرعون أم نحن الزارعون؟﴾^(١) يا قوم هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه؟؟

إن الذي يعرف شيئاً عن طبيعة هذا الكون ونظامه - كما كشف العلم الحديث عن جوانب منها- يدركه الدهش والذهول، ولكن روعة الكون لا تحتاج إلى هذا العلم الحديث، فمن نعم الله على البشر أن أودعهم القدرة على التجاوب مع هذا الكون بمجرد النظر والتأمل، فالقلب يتلقى إيقاعات هذا الكون الهائل تلقياً مباشراً حيث يفتح ويستشرف، ثم يتجاوب مع هذه الإيقاعات تجاوب الحي مع الحي، قبل أن يعلم بفكره ويأرصاده شيئاً عن هذا الخلق الهائل العجيب.

وليتك تقرأ كتاب ربك مرة متدبراً، مستشعراً معنى واحداً من هذه المعاني ولتكن وقفة تأمل وتفكر وتدبر في السموات، ومافيها من نظام بديع، وتناسق جميل، فستجد القرآن يوجه النظر إلى خلق الله في السماوات بصفة خاصة، وفي كل ماخلق بصفة عامة، ويوجه النظر إلى خلق الله، وهو يتحدى بكماله كمالاً لا يرد البصر عاجزاً قليلاً مبهوراً مدهوشاً ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾^(٢) فليس هناك خلل ولا نقص ولا اضطراب ﴿فارجع البصر﴾ وانظر مرة أخرى للتأكد والتثبت ﴿هل ترى من فطور؟﴾ هل وقع نظرك على شق أو صدع أو خلل؟ ﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾ فربما فاتك شيء في النظرة السابقة لم تتيهه، فأعد النظر ثم أعد

(١) سورة الواقعة: ٦٣.

(٢) الآيات من سورة الملك.

﴿يَنْقَلِبُ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئاً وَهُوَ حَسِيرٌ﴾.

أسلوب فيه تحدٍ، وأسلوب التحدى من شأنه أن يثير الاهتمام والجد فى النظر إلى السموات وإلى خلق الله كله، وهذه النظرة الجادة الفاحصة المتأملّة المتدبرة هى التى يريد القرآن أن يثيرها وأن يعيئها، فبلادة الألف تذهب بروعة النظرة إلى هذا الكون الرائع العجيب الجميل الرقيق، الذى لاتشبع العين من تملّى جماله وروعته، ولايشبع القلب من تلقى إحياءاته، ولايشبع العقل من تدبر نظامه ودقته والذى يعيش منه من يتأمله بهذه العين فى مهرجان إلهي باهر رائع، لاتخلق بدائعها لأنها أبداً متجددة للعين والقلب والعقل.. ومن ثم يكل القرآن الناس إلى النظر فى هذا الكون، وإلى تجلّى مشاهدته وعجائبه، ذلك أن القرآن يخاطب الناس جميعاً فى كل عصر، يخاطب ساكنى الغابة وساكنى الصحراء، كما يخاطب ساكنى المدينة ورائد البحار، وهو يخاطب الأمي الذى لا يقرأ ولم يخط حرفاً، كما يخاطب العالم الفلكي والعالم الطبيعي والعالم النظري سواء، وكل واحد من هؤلاء يجد فى القرآن ما يصله بهذا الكون، وما يثير قلبه بالتأمل والاستجابة والمتاع والجمال، ومن ثم يوجه القرآن النظر إلى جمال السموات بعد أن وجه النظو إلى كمالها..

فهذا الفضاء الواسع لا يمل النظر امتداده، ولا يبلغ النظر أماده إنه الجمال، الجمال الذى يملك الإنسان الذى يعيشه ويتملاه، ولكن لا يجد له وصفاً فيما يملك من الألفاظ والعبارات..

والقرآن يوجه النفس إلى جمال السماء، وإلى جمال الكون كله، لأن إدراك جمال الوجود هو أقرب وأصدق وسيلة لإدراك خالق الوجود، وهذا الإدراك هو الذى يرفع الإنسان إلى أعلى أفق يمكن أن يبلغه، لأنه حيثئذ يصل إلى النقطة التى يتهاى فيها للحياة الخالدة، فى عالم طليق جميل، بريء من شوائب العالم الأرضي والحياة الأرضية، وأن أسعد لحظات القلب البشرى لهى اللحظات التى يتقبل فيها جمال الإبداع الإلهي فى الكون، ذلك أنها هى اللحظات التى تهينه وتمهد له ليتصل بالجمال الإلهي ذاته ويتملاه^(١)، فإذا بقلبه يتسع وصدوره ينشرح للإسلام فيتلقى كل ما أوحى به الإله ﴿أَفَمَنْ شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَى نُورٍ مِنْ رَبِّهِ فَوَيْلٌ لِلْقَاسِيَةِ قُلُوبُهُمْ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ أُولَئِكَ

(١) فى ظلال القرآن، جزء ٦، ص ٣٦٣٢.

٣- صفحات من آيات الكون :

وكثيراً ماقرأ فى كتاب الله آيات تصنف الكون ومافيه، وترى هذه الآيات توجه الأنظار إلى الماء النازل من السماء وإلى النخل الباسقات، وإلى الجنات والنبات، ليستدل بذلك على البعث والنشور، ويناقش المعترضين على هذه الحقيقة الإيمانية بعرض مظاهر الحق فى بناء الكون وبداية من يؤمن بالبعث يؤمن بمالك يوم الدين ونظرة إلى الكون ومافيه تدل على أنه واحد أحد ولذا يقول القرآن ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج، والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب، ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد، والتخل باسقات لها طلع نضيد، رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك الخروج﴾^(٢) .

إن هذه السماء صفحة من كتاب الكون تنطق بالحق الذى فارقه، أفلم ينظروا إلى ما فيها من تشامخ وثبات واستقرار؟ وإلى ما فيها بعد ذلك من زينة وجمال وبراءة من الخلل والاضطراب، إن الثبات والكمال والجمال هي صفة السماء التي تتناسق مع السياق هنا، مع الحق وما فيها من ثبات وكمال وجمال.. ومن ثم تجيء صفة البناء وصفة الزينة وصفة الخلو من الثقوب والفروج.

وكذلك الأرض صفحة من كتاب الكون القائم على الحق المستقر الأساس الجميل البهيج ﴿والأرض مددناها، وألقينا فيها رواسي، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾ فالامتداد فى الأرض والرواسي الثابتات والبهجة فى النبات.. تمثل كذلك صفة الاستقرار والثبات والجمال، التي وجه النظر إليها فى السماء، وعلى مشهد السماء المبنية المتطاولة الجميلة، والأرض الممدودة الراسية البهيجة يلمس قلوبهم، ويوجهها إلى جانب من حكمة الخلق، ومن عرض صفات الكون ﴿تبصرة وذكرى لكل عبد منيب﴾ تبصرة تكشف الحجب، وتثير البصيرة، وتفتح القلوب، وتصل الأرواح بهذا الكون

(١) سورة الزمر: ٢٢.

(٢) سورة ق: ٦-١١.

العجيب وماوراءه من إبداع وحكمة وترتيب.. تبصرة يتفجع بها كل عبد منيب، يرجع إلى ربه من قريب.

وهذه هي الوصلة بين القلب البشرى وإيقاعات هذا الكون الهائل الجميل، هذه الوصلة التي تجعل للنظر في كتاب الكون، والتعرف إليه أثراً في القلب البشرى، وقيمة في الحياة البشرية، فهذه هي الوصلة التي يقيمها القرآن بين المعرفة والعلم وبين الإنسان الذي يعرف ويعلم، وهي التي تهملها مناهج البحث التي يسمونها «علمية» في هذا الزمان فتقطع ماوصل الله من وشيجة بين الناس والكون الذي يعيشون فيه، فالتناس قطعة من هذا الكون لاتصح حياتهم ولاتستقيم إلا حين تنبض قلوبهم على نبض هذا الكون، وإلا حين تقوم الصلة وثيقة بين قلوبهم وإيقاعات هذا الكون الكبير، وكل معرفة بنجم من النجوم، أو فلك من الأفلاك، أو خاصة من خواص النبات والحيوان، أو خواص الكون كله على وجه الإجمال ومافيه من عوالم حية جامدة أو شيء واحد جامد في هذا الوجود، كل معرفة «علمية» يجب أن تستحيل في الحال إلى إيقاع في القلب البشرى، وإلى ألفة مؤنسة بهذا الكون، وإلى تعارف يوثق أوأصر الصداقة بين الناس والأشياء والأحياء وإلى شعور بالوحدة التي تنتهي إلى خالق هذا الكون ومافيه ومن فيه.. وكل معرفة أو علم أو بحث يقف دون هذه الغاية الحية الموجهة المؤثرة في حياة البشر، هي معرفة ناقصة، أو علم زائف، أو بحث عقيم.

إن هذا الكون هو كتاب الحق المفتوح، الذي يقرأ بكل لغة، ويدرك بكل وسيلة ويستطيع أن يطالعه الساذج ساكن الخيمة والكوخ، والمتحضر ساكن العمائر والقصور، كل يطالعه بقدر إدراكه واستعداده، فيجد فيه زاداً من الحق، حيث يطالعه بشعور التطلع إلى الحق، وهو قائم مفتوح: «تبصرةً وذكرى لكل عبد منيب».. ولكن العلم الحديث يطمس هذه التبصرة أو يقطع تلك الوشيجة بين القلب البشرى والكون الناطق المبين، لأنه في رؤوس مطموسة رانت عليها خرافة «المنهج العلمي»، المنهج الذي يقطع بين الكون والخلايق التي تعيش فيه^(١).

٤- المنهج الإيماني:

والمنهج الإيماني لاينقص شيئاً من ثمار «المنهج العلمي» في إدراك الحقائق

(١) في ظلال القرآن، ج٦، ص٣٣٦.

المفردة، ولكنه يزيد عليه ربط هذه الحقائق بعضها ببعض، وردها إلى الحقائق الكبرى، ووصل العقل البشرى بها، أى وصله بنواميس الكون وحقائق الوجود، وتحويل هذه النواميس والحقائق إلى إيقاعات مؤثرة فى مشاعر الناس وحياتهم، لا معلومات جامدة جافة متحيزة فى الذهان لاتفضي لها بشيء من سرها الجميل، والمنهج الإيمانى هو الذى يجب أن يكون له الكرة فى مجال البحوث والدراسات ليربط الحقائق العلمية التى يهتدى إليها بهذا الرباط الوثيق.. وانظر مثلاً إلى هذه اللفتة المؤثرة فى عرض صفحات الحق فى كتاب الكون وهو يربطها بقضية الإحياء والبعث ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا، فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ، وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ، رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَحْيَيْنَا بِهِ بَلَدَةً مَيِّتًا، كَذَلِكَ الْخُرُوجُ﴾ فالماء النازل من السماء آية تحيي موات القلوب قبل أن تحيي موات الأرض، ومشهده ذو أثر خاص فى القلب لاشك فيه، وليس الأطفال وحدهم هم الذين يفرحون بالمطر ويطيرون له خفافاً، فقلوب الكبار الحساسين تستروح هذا المشهد وتصفق له كقلوب الأطفال الأبرياء القريبى العهد بالقطرة.

ويصف الماء هنا بالبركة، ويجعله فى يد الله سبباً لإنبات جنات الفاكهة وحب الحصيد - وهو النبات المحصول - ومما ينبته به النخل، ويصفها بالسموق والجمال ﴿وَالنَّخْلَ بَاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ﴾.. وزيادة هذا الوصف للطلع مقصود لإبراز جمال الطلع فى النخل الباسق، وذلك تمشياً مع جو الخلائق وظلاله، الحق السامق الجميل.. ويلمس القلوب وهو يمتنّ عليها بالماء والجنات والحب والنخل الطالع ﴿رِزْقًا لِلْعِبَادِ﴾ رزقاً يسوق الله سببه ويتولى نبتة، ويطلع ثمره، للعباد وهو المولى، وهم لا يقدرّون ولا يشكرون، وهى عملية دائمة التكرار فيما حولهم، مألوفة لهم، ولكنهم لا يتبهون إليها ولا يلاحظونها قبل الاعتراض والتعجب.. كذلك الخروج على هذه الوتيرة، وبهذه الوتيرة، وبهذه السهولة، الآن يقولها وقد حشد لها من الإيقاعات الكونية على القلب البشرى ذلك الحشد الطويل الجميل المؤثر الموحى لكل قلب منيب فيوجهها إلى الرب المعبود صاحب هذا الوجود الذى سيجمع الناس فى يوم موقوت، وهكذا يعالج القلوب خالق القلوب^(١).

(١) فى ظلال القرآن، جزء ٦، ص ٣٣٦٠.

إن الجو الذي يحيا فيه قارئ القرآن يسع البر والبحر، والسماء والأرض، ويطلق الفكر سابحاً في ملكوت لانهاية له، ويؤكد للإنسان أنه مَلِكٌ يخدمه كلُّ شيء، وأن منابع الإيمان في نفس الإنسان تنبجس^(١) من علم عميق محيط دارس للكون، دراسة ملاحظة وتجربة واستقراء، لادراسة تخمين وظنون وخيال، وإذا لم تنبعث نهضتنا من هذا الأصل فلن تكون نهضة إسلامية صحيحة، وإن هذا العلم بالمادة، بالفطرة التي فطر الله الكون عليها، بالسنن التي تحكم هذا الكون علوه وسفله، وطوله وعرضه - أقول - إن هذا العلم ينظم الإنسان مع الملائكة في الشهادة لله الكبير بالتوحيد والعدل، نعم إن أولي العلم، والملا الأعلى يؤكدون هذه الحقيقة التي شهد الله بها لنفسه فقال ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾^(٢).

ولذلك فنحن لانستطيع أن نتصور داعية إلى الله، يدعو الناس إلى الوحدةانية دون أن يلفت نظرهم إلى مايحيط بهم من آثار القادر سبحانه، فهذا الوجود الذي أمامك هو كتاب الله المنشور، وهذه الكائنات العجيبة التي تملؤه هي سطور حية تقرأ فيها قدرته سبحانه، وعلمه، وحكمته، وكرمه وودّه، وعظمته ﴿وفي الأرض آياتٌ للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾^(٣)، وهكذا يكون نهج المسلم في عرض عقيدته، نهجاً يترك أثره الطيب في القلوب فيحييها. بإذن الله كما يحيي الأرض بعد مَوَاتِهَا.

٥- الأنفس والآفاق صِنَوَان:

وكما وجهنا المولى عز وجل، للتفكير والنظر، والتأمل والتدبر في الكون ومافيه من شمس، وقمر، ونجوم وكواكب، وليل ونهار، وبحار وأنهار، ونبات وجماد، وكل ما فيه ومن فيه، كذلك وجهنا إلى النظر إلى الناس وخلقهم فكما قال ﴿قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا تُنْفِئِ الْآيَاتِ وَالتَّذْذُرِ عَنْ قَوْمٍ لَا يُؤْمِنُونَ﴾^(٤) قال ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الْآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ

(١) تنبجس: تنفجر- مختار الصحاح مادة: بجس.

(٢) سورة آل عمران: ١٨.

(٣) سورة الذاريات: ٢٠-٢١.

(٤) سورة يونس: ١٠١.

على كل شيء قدير^(١) وقال ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ﴾^(٢).

إنها دعوة من الله بل أمر منه سبحانه وتعالى بالتفكير والتدبر في خلق الإنسان الذي ﴿خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾^(٣) ، وكما جعل نتيجة النظر والتأمل في خلق السموات والأرض أحد الأدلة على قدرة الله لإعادة الخلق والبعث والحساب، فإنه جعل أيضاً النظر في خلق الإنسان والتأمل في خلقه دليلاً أيضاً على هذا اليوم الذي لا ريب فيه وهذا أكبر دليل على أنه رب الوجود كله واحد أحد ندين له بالوحدانية، فانصت إليه سبحانه وهو يقول ﴿إِنَّهُ عَلَى رَجْعِهِ لَقَادِرٌ، يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ﴾^(٤) وينفس الأسلوب يدل على هذا اليوم الذي يبعث فيه المولى الناس فيقول عز من قائل ﴿أَبِحَسَبِ الْإِنْسَانِ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى، أَلَمْ يَكُ نَظْفَةً مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى، ثُمَّ كَانَ عِلْقَةً فخلق فسوى، فجعل منه الزوجين الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى، أليس ذلك بقادرٍ على أن يحيي الموتى﴾^(٥) ، ويجعل سبحانه من مراحل خلق الإنسان ومراحل نموه آية على قدرته، فيقول وهو أصدق القائلين ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ مِنْ نَظْفَةٍ، ثُمَّ مِنْ عِلْقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلاً، ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ، ثُمَّ لَتَكُونُوا شِيوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلَتَبْلُغُوا أَجْلاً مُّسَمًّى وَلِعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ، وَهُوَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ فَإِذَا قُضِيَ أَمْرٌ فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٦) .

ويوم أنكر الكافر الأحق الذي جاء بعظم وفته وكسره ووضعه أمام النبي ﷺ، وقال في استهزاء: أترى يا محمد أن الله يحيي هذه العظام بعدما أرميت وبليت؟ فأجابه رسول الله ﷺ، بما يصلح لامثاله من منكري البعث فقال له: «نعم يحييها ويبعثك ويدخلك النار».

وكان رسول الله ﷺ قادراً على أن يكتفي بإجابة «نعم يحييها» وإنما أردف بقوله

(١) سورة العنكبوت: ٢٠.

(٢) سورة الطارق: ٥.

(٣) سورة الطارق: ٧.

(٤) سورة الطارق: ٩٨.

(٥) سورة القيامة: ٣٦-٤٠.

(٦) سورة غافر: ٦٧.

ويبعثك ويدخلك النار، وذلك ليلقمه حجراً هو ومن على شاكلته من منكري البعث الذين يكشف القرآن زعمهم فيقول ﴿زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بل يلى ووي لنبعثن ثم لنتنن بما عملتم وذلك على الله يسير﴾ (١)، وهل كفروا إلا بالواحد الأحد؟

وتعال معى لتتصت إلى كتاب الله وهو ينقل لنا صورة حية ترك أثرها العميق فى النفس، من هذا الحوار الذى دار بين رسول الله ﷺ وذلك الكافر الذى أنكر البعث والنشور فيقول القرآن ﴿أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلاً ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهي رميم، قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلقه عليم، الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فإذا أنتم منه توقدون، أوليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم، إنما أمره إذا أراد شيأ أن يقول له كن فيكون، فسبحان الذى يبدو ملكوت كل شئ واليه ترجعون﴾ (٢).

وكثيراً ما يجمع القرآن بين السماء والأرض وذلك المخلوق خليفة الله فى الأرض، أو بين الأنفس والآفاق فى آية واحدة، أو آيات متتالية تبين قدرة الله القادر وتوضح الترابط بين الإنسان والكون، وهاك مثلاً على ذلك فى قول المولى سبحانه وتعالى ﴿يا أيها الناس إن كنتم فى ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علق ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر فى الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شئ قدير، وأن الساعة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من فى القبور﴾ (٣).

والمأمل فى آيات الله يرى ارتباطاً متلازماً بين الكون والإنسان بل يرى تعاوناً وثيقاً بينهما لتستمر الحياة إلى أن يشاء الله، وليعان على تأدية رسالته، ويحفظ نوعه ويستمر

(١) سورة التغابن: ٧.

(٢) سورة يس: ٧٨-٨٣.

(٣) سورة الحج: ٥-٧.

فى الحياة دون عنا . .

وتعال لتأمل وضع الأرض أمام الشمس، من الذى وضعها هكذا بإحكام على مساحة معينة دون أن تتقدم عنها أو تتأخر، إنها أن نقصت بحيث ازداد قربها للشمس احترقت أنواع الأحياء من نبات وحيوان ولاستحالت الحياة هائلة هادئة ذلولا ولوبعدت لعم الجليد والصقيع وجه الأرض ولهلك الزرع والضرع، فهلا سألت نفسك من قدر هذا وأحسن خلقه سبحانه؟ إنه القائل «إنا كل شيء خلقناه بقدر»^(١).

ثم تأمل معي وضع القمر فإنه لواقرب لسحب أمواج المحيطات سحبا يغطى وجه الأرض كلها ثم ينحسر منها وقد تلاشى كل شيء . . فماذا يقولون عن هذه السنن الربانية والقوانين الإلهية؟ أهى الصدفة العمياء - كما يقولون -؟ إن الذى خلق هذا كله هو الخبير البصير بالعباد.

ماطيب مقاله الشهيد الشيخ حسن البنا رضوان الله عليه ليوضح لنا هذه القضية:

«أنت إذا نظرت إلى هذا الكون ومافيه من بدائع الحكم، وغرائب المخلوق ودقيق الصنع، وكبير الإحكام، مع العظمة والانتساع، والتناسق والإبداع، والتجدد والاختراع، ورأيت هذه السماء الصافية بكواكبها وأفلاكها، وشموسها وأقمارها ومداراتها، ورأيت هذه الأرض بنباتها وخيراتها، ومعادنها وكنوزها وعناصرها وموادها، ورأيت عالم الحيوان ومافيه من غرائب الهداية والإلهام، بل لو رأيت تركيب الإنسان وماحتواه من أجهزة كثيرة، كل يقوم بعمله، ويؤدي وظيفته، ورأيت عالم البحار ومافيه من عجائب وغرائب وعرفت القوى الكونية ومافيه من حكم وأسرار من كهرباء ومغناطيس وأثير وراديوم، ثم انتقلت من النظر إلى ذوات العالم وأوصافها إلى الروابط والصلات فيما بينها، وكيف أن كلاً منها يتصل بالآخر اتصالاً محكماً وثيقاً بحيث يتألف من مجموعها وحدة كونية كل جزء منها يخدم الأجزاء الأخرى كما يخدم العضو فى الجسم الواحد بقية الأعضاء، لخرجت من كل ذلك - من غير أن يأتيك دليل أو برهان، أو وحي أو قرآن - بهذه العقيدة النظرية السهلة وهي أن لهذا الكون خالقاً صانعاً موجداً، وأن هذا الصانع لا بد أن يكون عظيماً فوق مايتصور العقل البشرى الضعيف من العظمة وقادراً فوق مايفهم الإنسان من معانى الحياة، وأنه مستغن عن كل هذه المخلوقات، لأنه كان

قبل أن تكون، وعليماً بأوسع حدود العلم، وأنه فوق نواميس هذا الكون لأنه واضعها، وأنه قبل هذه الموجودات لأنه خالقها، وبعدها لأنه الذى سيحكم عليها بالعدم، وإجمالاً سترى نفسك مملوءاً بالعقيدة بأن صانع هذا الكون ومدبره متصف بكل صفات الكمال فوق ما يتصورها العقل البشرى الصغير، ومنزه عن كل صفات النقص، وسترى هذه العقيدة وحي وجدانك لوجدانك، وشعور نفسك لنفسك ﴿فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم﴾^(١)

٦- من غرائب هذا الكون:

ونسوق إليك بعد هذه المقدمة بعض غرائب الحوادث فى هذا الكون، وسترى أنها على قلتها، بالنسبة لعظمة الكون ومافيه من دقة وإحكام ستكون كافية لأن تشعر فى نفسك بما قدمت لك.

الملاحظة الأولى: هذا الهواء الذى نستنشق مركب من عدة عناصر، منها جزءان هامان جزء صالح لتنفس الإنسان ويسمى باصطلاح الكيميائيين (الأوكسجين) وجزء ضار به ويسمى (الكربون) فمن دقائق الارتباط بين وحدات هذا الموجود المعجز أن هذا الجزء الضار بالإنسان يتنفسه النبات وهو نافع له، ففي الوقت الذى لا يكون الإنسان فيه يستنشق الاوكسجين ويطرد الكربون يكون النبات يعمل عكس هذه العملية، فيستنشق الكربون ويطرد الاوكسجين، فانظر إلى الرابطة التعاونية بين الإنسان والنبات في شيء هو أهم عناصر الحياة عندهما، وهو التنفس، وقل لي بعد ذلك، هل يفعل هذا في الكون العظيم غير عظيم قادر واسع العلم، دقيق الحكمة؟

الملاحظة الثانية: أنت تأكل الطعام وهو يتركب من عدة عناصر نباتية وحيوانية يقسمها العلماء إلى مواد زلالية، أو نشوية، أو دهنية، مثلاً فترى أن الريق يهضم بعض المواد النشوية، ويذيب المواد السكرية ونحوها مما يقبل الذوبان، والمعدة يهضم عصيرها المواد الزلالية كاللحم وغيره، والصفراء المنفرزة من الكبد تهضم الدهنيات، وتجزئها إلى أجزاء دقيقة يمكن امتصاصها، ثم يأتي البنكرياس بعد ذلك فيفرز أربع عصارات تتولى كل واحدة منها تميم الهضم في عنصر من العناصر الثلاثة: النشوية أو الزلالية أو الدهنية، والرابعة تحول اللبن إلى جبن، فتأمل هذا الارتباط

(١) سورة الروم: ٣٠.

العجيب بين عناصر الجسم البشري، وعناصر النبات والحيوان والأغذية التي يتغذى بها الإنسان.

الملاحظة الثالثة: ترى الزهرة في النبات فترى لها أوراقاً جميلة جذابة ملونة بألوان بهيجة، فإذا سألت علماء النبات عن الحكمة في ذلك، أجابوك بأن هذا إغراء للنحل وأشباهه من المخلوقات التي تمتص رحيق الأزهار لتسقط على الزهرة حتى إذا وقفت على عيdanها علقت حبوب اللقاح وانتقلت من الزهرة الذكر إلى الزهرة الأنثى فيتم التلقيح، فانظر كيف جعلت هذه الأوراق الجميلة في الزهرة حلقة اتصال بين النبات والحيوان حتى يستخدم النبات الحيوان في عملية التلقيح الضرورية للإثمار والإنتاج.

كل ما في الكون يبتك بوجود حكمة عالية، وإرادة سامية، وسيطرة قوية ونواميس في غاية الدقة والإحكام يسير عليها هذا الوجود، ورب هذه الحكمة، وصاحب هذه العظمة، وواضع هذه النواميس هو: الله.

وقد أفاض القرآن في ذلك، ليلفت الأنظار إلى هذه الحكم البارعة، والأسرار العالية، فلاتكاد تخلو سورة من سوره من ذكر آلاء الله ونعمه، ومظاهر قدرته وحكمته، وحث الناس على تجديد النظر في ذلك ودوام التفكير فيه. قال تعالى ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ، ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَرٌ تَنْتَشِرُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ السِّتَكُمِ وَالْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ، وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ، وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا، إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ^(١)﴾.

٧- حقيقة لامفرّ منها:

إن القرآن بعد أن بث بين دفتيه دلائل قدرة الله ووحدانيته وضع العقل بهذه الصورة أمام الحق الذي يقرره فإما أن يعترف به وإما أن يجحد ويكابّر، وقرأ إن شئت قوله

(١) سورة الروم: ٢٠-٢٤.

تعالى ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ؟ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ﴾^(١) فهو سبحانه يستفهم ليستثير عقولهم عن حقيقة وجودهم، هم أنفسهم، وهي حقيقة قائمة لامفر من مواجهتها، ولا سبيل لهم إلى تفسيرها بغير ما يقوله القرآن، سواء بالنسبة لهم أو بالنسبة للسموات والأرض من أن لهم خالقاً أوجدهم وأوجد السموات والأرض هو موجود بذاته وهم مخلوقون بديهية لا تستحق الكثير من الأدلة ولا الكثير من البراهين والحجج فهي حقيقة لا يماري فيها عاقل.

وبنفس الأسلوب والإيقاع تهتز النفس وهي تسمع ﴿نحن خلقناكم فلولا تُصَدِّقُونَ، أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ؟ نَحْنُ قَدَرْنَا بَيْنَكُمْ الْمَوْتَ وَمَا نَحْنُ بِمُسَوِّقِينَ عَلَى أَنْ نُبَدِّلَ أَمْثَالَكُمْ وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ، وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ النَّشْأَةَ الْأُولَىٰ فَلَوْلَا تَذَكَّرُونَ، أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ؟ أَأَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ لَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلَمْتُمْ تَفَكَّهُونَ، إِنَّا لَمَغْرُمُونَ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ، أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ، لَوْ نَشَاءُ لَجْعَلْنَاهُ أَمْجَآءً فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ، أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ؟ أَأَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَتَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ، نَحْنُ جَعَلْنَاهَا تَذْكِرَةً وَمَتَاعاً لِلْمُقْوِينَ﴾^(٢).

بهذه السهولة يعرض القرآن قصة النشأة الأولى، والنشأة الآخرة والكون وما فيه، وبهذه البساطة يشد الإنسان بفطرته أمام المنطق الذي تعرفه ولا تملك أن تجادل فيه بلا تعقيد ولا تجريد، ولا فلسفة تكد الأذهان، ولا تبلغ الوجدان إنها طريقة الله مبدع الكون وخالق الإنسان ومنزل القرآن..

أرأيت كيف أن منهاج القرآن في إرساء العقيدة هو منهاج فريد يخاطب عقلك ووجدانك، قلبك وفؤادك، فيستثير العقل ويستجيش القلب، ويقف بك أمام بديهية لا تحتاج إلى دقة تأمل وعمق تفكير وطول تدبر لبساطتها ووضوحها للناس كافة على اختلاف مستوياتهم ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ؟ أَمْ خَلَقُوا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ، أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُضْطَرُّونَ؟﴾ واسمع إلى مارواه

(١) سورة الطور: ٣٥.

(٢) سورة الواقعة: ٥٧-٧٣.

البخارى عن جبير بن مطعم - وكان من أسرى بدر- قال: سمعت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بالطور فلما بلغ هذه الآية ﴿أَمْ خُلِقُوا مِنْ غَيْرِ شَيْءٍ أَمْ هُمُ الْخَالِقُونَ، أَمْ خُلِقُوا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بَلْ لَا يُوقِنُونَ، أَمْ عِنْدَهُمْ خَزَائِنُ رَبِّكَ أَمْ هُمُ الْمُصْطَرُّونَ؟﴾^(١) كاد قلبي أن يطير وجبير بن مطعم هذا قدم على النبي ﷺ بعد الغزوة - غزوة بدر- في فداء الأسرى وكان إذ ذاك مشركاً، فكان سماعه هذه الآية من هذه السورة من جملة ماحمله على الدخول في الإسلام^(٢).

وبهذا التقرير الواضح وهذا المنهج البسيط وهذه الحقيقة الناصعة، يعلم المؤمن أن الله سبحانه وتعالى ما خلق السموات والأرض إلا بالحق وأجل مسمى وأنه سبحانه على كل شيء قدير وأنه قد أحاط بكل شيء علماً، وهذا يقينٌ من شرح الله صدورهم للإيمان فهم على نور من ربهم فيوقنون بأن هذا هو الحق الذي يسعدهم في الدنيا والآخرة.

أما الذين ضلوا الطريق إلى الله ولم يتعرفوا على الحق أو عرفوه وجحدوه فقد حُرِمُوا نعمة العقل ونور القلب فليس لهم حظ من التدبر والتأمل والإدراك أو غرهم علمهم وأضلهم فاتخذوا إلههم هَوَاهُمْ فخيَّلَ إليهم أنهم قادرون على أن يبتغوا نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء لبلوغ الأسباب فيطلعوا على الإله - تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً - فساروا في صحراء قاحلة كلما رأوا سراباً حسبه ماء ﴿حتى إذا جاءه لم يجزئه شيئاً ووجد الله عنده فوَّاهُ حِسَابَهُ﴾^(٣)، هؤلاء يعيشون كالسائمة سواء بسواء ﴿يتمتعون ويأكلون كما تأكلُ الأنعامُ والنارُ مثوىٌ لهم﴾^(٤) لا يلفت نظرهم تناسق الكون وجماله ولا بديع صنعه ولا يوقظ مشاعرهم الليل إذا عسعس، ولا الصبح إذا تنفس ﴿لهم قلوبٌ لا يفقهون بها ولهم أعينٌ لا يبصرون بها ولهم أذانٌ لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضلُّ، أولئك هم الغافلون﴾^(٥) فهل يستون وأولوا الألباب الذين يتفكرون ويتدبرون

(١) سورة الطور: ٣٧.

(٢) مختصر ابن كثير، جزء ٣، ص ٣٩٣.

(٣) سورة النور: ٣٩.

(٤) سورة محمد: ١٢.

(٥) سورة الأعراف: ١٧٩.

خَلَقَ اللهُ يَقُولُونَ: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلاً سُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ﴾^(١) ورضوان الله عليك يا بلال بن رباح حين سأل رسول الله ﷺ ، وقد رآه يبكي فسأله عن سبب بكائه، فقال رسول الله ﷺ: ويحك يا بلال وما يمنعني أن أبكي وقد أنزل الله على هذه الليلة ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ - حَتَّىٰ قَوْلِهِ - فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ...﴾ الآيات، ثم قال: ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها^(٢).

فكيف لا نتفكر في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار وهذا الكون بذاته كتاب مفتوح، يحمل بذاته دلائل الإيمان وآياته، ويُوحى بأن وراءه يداً تدبره بحكمة، كما يوحى بأن وراء هذه الحياة الدنيا آخرة، وحساباً وجزاء، ولا شك أن الذي يدرك الدلائل ويقرأ هذه الآيات، ويرى هذه الحكمة ويسمع هذه الإحياءات هم أولوا الألباب من الناس الذين لا يمرون بهذا الكتاب المفتوح وبهذه الآيات الباهرة مغمضي الأعين غير واعين ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾^(٣).

وهذه الحقيقة - حقيقة التفكير والتدبر- التي دعانا إليها رسولنا الكريم صلوات الله وسلامه عليه، تمثل إحدى مقامات التصور الإسلامي عن هذا الكون والصلة الوثيقة بينه وبين فطرة الإنسان، والتفاهم الداخلي الوثيق بين فطرة الكون وفطرة الإنسان، ودلالة هذا الكون بذاته على خالقه من جهة، وعلى الناموس الذي يصرفه وما يصاحبه من غاية وحكمة وقصد من جهة أخرى، وهي ذات أهمية بالغة في تقرير موقف الإنسان من الكون وإله الكون سبحانه وتعالى، فهي ركيزة من ركائز التصور الإسلامي للوجود^(٤).

إن من يستمع إلى هذا القرآن يشعر أن هناك شيئاً ما وراء المعانى التى يدركها العقل من التعبير وأن هناك عنصراً ما ينسكب فى الحس بمجرد الاستماع لهذا القرآن يدركه

(١) سورة آل عمران: ١٩٠-١٩١.

(٢) رواه ابن أبى الدنيا فى كتابه «التفكير».

(٣) سورة الأنفال: ٢.

(٤) خصائص التصور الإسلامى: لسيد قطب، رحمه الله تعالى.

بعض الناس واضحاً ويدركه بعض الناس غامضاً، ولكنه على كل حال موجود، ثم تأتي بعد ذلك الأسرار المدركة بالتدبر والنظر والتفكير كله، في التصور الكامل الصحيح الذي ينشئه في الحس والقلب والعقل، التصور لحقيقة الوجود الإنساني، وحقيقة الوجود كله، وللحقيقة الأولى التي تنبع منها كل حقيقة، حقيقة الله سبحانه وتعالى^(١).

(١) في ظلال القرآن: لسيد قطب ج ٦/ بتصرف.

التفسير العلمي للقرآن بين المنهج القديم والمنهج الحديث

فخر الدين الرازي والتفسير العلمي: (١)

جاء بعد الإمام الغزالي فخر الدين الرازي المتوفى سنة ٦٠٦هـ، فطبق في تفسيره (مفاتيح الغيب) ما جدد في البيئة الإسلامية من ثقافة فكرية على آيات القرآن الكريم، مستنداً بذلك على وحدانية الله تعالى وقدرته وإدارته وواسع علمه.

والرازي هو القائل في مقدمة تفسيره لسورة الفاتحة:

«أعلم أنه جرى على لساني في بعض الأوقات أن هذه السورة الكريمة - الفاتحة - يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة، فاستبعد هذا بعض الحساد وقوم من أهل الجهل والغي والعناد، وحملوا ذلك على مآلفوه من أنفسهم من التعلقات الفارغة عن المعاني، والكلمات الخالية عن تحقيق المعاهد والمباني. فلما شرعت في تصنيف هذا الكتاب قدمت هذه المقدمة لتصير كالتنبيه على أن مذكرناه أمر ممكن الحصول قريب الوصول» (٢).

وإذا كان الغزالي ومن قبله قد وضعوا الأسس النظرية للتفسير العلمي فإن الرازي قد طبق ذلك عملياً، وسنذكر أمثلة يتضح منها طريقته في تناوله تفسير بعض الآيات الكونية.

فهو في تفسير قوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً...﴾ (٣)

(١) التفسير العلمي للقرآن في الميزان: أحمد عمر أبو حجر ص ١٥٠-١٥٦. ط دار فتيية - دمشق.

(٢) مفاتيح الغيب: للرازي ج ١/١.

(٣) سورة البقرة آية ٢٢.

الآية. يذكر أن كون الأرض فراشاً مشروط بأمور:

الأول: كونها ساكنة، وذلك لأنها لو كانت متحركة لكانت حركتها إما بالاستقامة أو بالاستدارة، فإن كانت بالاستقامة لما كانت فراشاً على الإطلاق، لأن من طفر من موضع عال كان يجب ألا يصل إلى الأرض، لأن الأرض هاوية وذلك الإنسان هاو، والأرض أثقل من الإنسان، والثقلان إذا نزلا كان أثقلهما أسرعهما والأبطأ لا يلحق الأسرع فكان يجب ألا يصل الإنسان إلى الأرض، ثبت أنها لو كانت هاوية لما كانت فراشاً.

أما لو كانت حركتها بالاستدارة لم يكن انتفاعنا بها كاملاً، لأن حركة الأرض - مثلاً - لو كانت إلى المشرق، والإنسان يريد أن يتحرك إلى جانب المغرب، ولا شك أن حركة الأرض أسرع فكان يجب أن يبقى على مكانه وأنه لا يمكنه الوصول إلى حيث يريد فلما أمكنه ذلك علمنا أن الأرض غير متحركة بالاستقامة ولا بالاستدارة فهي ساكنة^(١)

ثم ذهب الرازي يذكر سبب هذا السكون الذي اعتقد أنه تمت له البرهنة عليه، مع أنه قد أصبح من المسلم به الآن أن الأرض متحركة وليست ساكنة، ولها دورتان: الأولى حول نفسها والثانية حول الشمس.

وقد يلتمس العذر للإمام الرازي في رأيه هذا بأن الأرض لما كانت متسعة جداً ولا تشاهد الحركة فيها في نظر العين المجردة كان القول بسكونها هو الأقرب إلى العقل، وأما حركتها فلا تثبت إلا بدليل، وهو لم يكن ليعلم إلا بإجراء التجارب والملاحظة.

ولما ذكر الرازي بقية الشروط التي قال إنها ضرورية ليتحقق كون الأرض فراشاً لنا، نراه يرد على من زعم أن الأرض ليست كرة مستدلاً بهذه الآية فيقول: «ومن الناس من زعم أن الشرط في كون الأرض فراشاً ألا تكون كرة، واستدل بهذه الآية، وهذا بعيد جداً، لأن الكرة إذا عظمت جداً كانت القطعة منها كالسطح في إمكان الاستقرار عليه. والذي يزيده تقريراً أن الجبال أوتاد الأرض ثم يمكن الاستقرار عليها، فهذا أولى^(٢)».

(١) مفاتيح الغيب: للرازي ج ١/ ٢٢٣.

(٢) مفاتيح الغيب ج ١/ ٢٢٥.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَأَمْ أَنْزَلْنَا اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١). يعود إلى الأسلوب العلمي فيستدل بهذه الآية على وجود الله وعلى وحدانيته وبراءته من الضّدِّ والتّدِّ، ويجد فيها ثمانية أنواع من الدلائل على ذلك ويعدها كما جاءت في الآية.

وقبل أن يعرض الرازي لهذه الأدلة بالتفصيل ويبين كيفية الاستدلال بهذه الأحوال على وجود الخالق ووحدانيته يثير عدة مسائل تتصل بالآية من بينها سبب نزولها، ثم يعود بعد إثارة هذه المسائل إلى بيان كيفية الاستدلال بأحوال السموات والأرض واختلاف الليل والنهار... إلى آخر ماورد في الآية الكريمة.

فبدأ بالنظر في أحوال السماء فطرق موضوعات كثيرة من علم الفلك وعقد لذلك فصلاً: (الفصل الأول) في ترتيب الأفلاك و(الثاني) في معرفة الأفلاك و(الثالث) في مقادير الحركات و(الرابع) في كيفية الاستدلال بهذه الأحوال على وجود الخالق.

ثم يتقل بعد ذلك إلى بيان معرفة الأفلاك ومقادير حركاتها ويستعرض في ذلك آراء بطليموس وآراء الفلكيين القدماء من الهنود والصينيين والبابليين والمصريين وعلماء الروم والشام، ويعترض عليهم أحياناً.

ثم رجع إلى الأرض وذكر في أحوالها فصلاً، وفي بيان دلالة هذه الأحوال على وجود الخالق فصلاً آخر، وفي بيان أحوال السماء على وجود الخالق يذكر أربعة عشر وجهاً ترجع جميعها إلى أن الأفلاك رغم اتفاقها في الطبيعة الفلكية إلا أن كلاً منها قد اختص بمقدار معين وحيز معين وشكل معين وحركة معينة وترتيب معين واتلاف معين ولون معين.

ولابد من مُخَصَّصٍ مُدَبَّرٍ يَخْصُصُ كلاً منها بمقداره وحيزه وشكله وحركته ولونه، ويجعلها على هذا الترتيب المعجيب.

ثم يمضي الرازي على هذا النمط في بيان أحوال الأرض وسائر ما جاء في الآية

(١) سورة البقرة آية ١٦٤.

الكريمة من الدلائل التي يستدل بها على وجود الله^(١).

وعند تفسير قوله تعالى: «يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنَّجُومُ
مَسْخَرَاتٍ بِأَمْرِ آلِهِ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ»^(٢).

تكلم على حركة الشمس وحصول الليل والنهار، وعلى حركات الأفلاك. ثم نجده
يستشعر استغراب المطالع لتفسيره جلب تلك المسائل المغرقة في علم الهيئة والفلك
فيعود إلى التوبة بمنهجه والتعريض بأصحاب التفاسير الآخرين، فيقول:

«وربما جاء بعض الجهال والحمقى وقال: إنك أكثر في تفسير كتاب الله تعالى
من علم الهيئة والنجوم، وذلك على خلاف المعتاد».

فيقال لهذا المسكين: إنك لو تأملت في كتاب الله تعالى حق التأمل لعرفت فساد
ماذكرته... ثم قرر ذلك من وجوه.

الأول: إن الله تعالى ملأ كتابه بمثل تلك الاستدلالات الكونية، فلولم يكن البحث
عنها والتأمل في أحوالها جائزاً لماملأ الله كتابه منها.

الثاني: إنه تعالى قال: «أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَالَهَا
مِنْ قُرُوجٍ»^(٣). فهو قد حث على التأمل في كيفية بنائها، ولا معنى لعلم الهيئة إلا
هذا.

الثالث: إن الله تعالى رغب التأمل في أبدان الناس بقوله: «وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا
تُبْصِرُونَ»^(٤) فما كان أعلى شأنًا وأعظم برهاناً منها أولى بأن يجب التأمل في أحوالها
ومعرفة ما أودع الله فيها من العجائب والغرائب.

الرابع: إن الله تعالى مدح المتفكرين في خلق السموات والأرض، «وَيَتَفَكَّرُونَ فِي
خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ»^(٥) ولو كان ذلك ممنوعاً منه
لما فعل.

الخامس: إن الناس في ذلك التفكير على درجتين: منهم من يكتفي بالاستدلال

(١) مفاتيح الغيب ج ٢/ ٥٦-٧٠.

(٢) سورة الأعراف/ آية ٥٤.

(٣) سورة ق/ آية ٦.

(٤) سورة الذاريات آية ٢١.

(٥) سورة آل عمران آية ١٩١.

الإجمالي، ومنهم من يسمو إلى الاستدلال التفصيلي، وإن لكثرة الدلائل وتواليها أثراً في تقوية اليقين وإزالة الشبهات.

ثم ختم هذا البيان بقوله:

«فإذا كان الأمر كذلك ظهر أنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب لهذه الفوائد والأسرار للتكثير النحو الغريب والاشتقاقات الخالية من الفوائد والحكايات الفاسدة، نسأل الله العون والعصمة».

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ نجده في هذا الموضع أمام أثر يرويه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال:

«إذا استقر العلف في الكرش صار أسفله فرثاً وأعلاه دماً وأوسطه لبناً، فيجري الدم في العروق، واللبن في الضرع، ويبقى الفرث كما هو، فذلك هو قوله تعالى: ﴿مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ﴾ لا يشوبه الدم ولا الفرث.

فيقف الرازي أمام هذا الأثر موقف الناقد الواثق من علمه، البصير بما توصل إليه العلم في عهده في شأن اللبن وفي كيفية تكونه داخل الجسم: جسم الأثني من الإنسان والحيوان، من الغذاء والدم، فلا يتردد في رد هذا الأثر قائلاً: «والشيء الذي دلت المشاهدة على فساده لم يجز المصير إليه. الدليل الحسي لا يثبت ذلك، فإن هذه الحيوانات تذبج ومارأى أحد في كرشها لادماً ولالبناً.

بل الحق أن الحيوان إذا تناول الغذاء وصل ذلك العلف إلى معدته إن كان إنساناً وإلى كرشه إن كان من الأنعام وغيرها، فإذا طبخ وحصل الهضم الأول فيه فما كان منه صافياً انجذب إلى الكبد، وما كان كثيفاً نزل إلى الأمعاء، ثم ذلك الذي يحصل منه في الكبد ينطبخ فيها ويصير دماً، وذلك هو الهضم الثاني، ويكون ذلك الدم مخلوطاً بالصفراء والسوداء وزيادة المائية. أما الصفراء فتذهب إلى المرارة، والسوداء إلى الطحال، والماء إلى الكلية ومنها إلى المثانة. وأما ذلك الدم فإنه يدخل إلى الأوردة وهي العروق النابتة على الكبد وهنا يحصل الهضم الثالث، وبين الكبد وبين الضرع عروق كثيرة، فينصب الدم في تلك العروق إلى الضرع، والضرع لحم غددي رخو أبيض، فيقلب الله تعالى الدم عند انصبابه إلى ذلك اللحم الغددي الرخو لأبيض من صورة الدم إلى صورة اللبن.

ثم يقول: فهذا هو القول الصحيح في كيفية تولد اللبن^(١).

فهو بذلك لا يتردد في الأخذ بحقائق الأشياء التي تثبتها التجربة وتدعمها المشاهدة، وتفسرها حقائق العلم.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَوْحَىٰ رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ثُمَّ كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾^(٢)، يطيل القول في وصف بيوت النحل ودقة هذه البيوت، والعجائب التي في خلق النحل، وكيف أن هذه البيوت مبنية بطريقة هندسية عجيبة، وكيف اهتدت النحل إلى الأجزاء العسلية من أطراف الأشجار والأوراق، فيشير عدة مسائل^(٣).

هذا، وقد قصد الرازي من تفسيره للآيات الكونية على هذا المنهج أن يبين تفوق الحكمة القرآنية على سائر الطرق الفلسفية، وانفراد القرآن بهداية العقول البشرية إلى غايات الحكمة عن طريق العصمة.

ولهذا نجده يكتب في وصيته التي أملاها وهو على فراش الموت:

«لقد اخترت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيْتُها تشفي عيلاً ولا تروى غليلاً... ثم يقول: وَمَنْ جَرَّبَ مِثْلَ تَجْرِبَتِي عَرَفَ مِثْلَ مَعْرِفَتِي»^(٤).

موقف ابن أبي الفضل المرسي من التفسير العلمي^(٥):

لقد كان موقفه من هذا أن الله تبارك وتعالى جمع علوم الأولين والآخرين في القرآن العظيم كما نقل ذلك عنه الحافظ السيوطي في كتابه: «الإتقان في علوم القرآن ج ٢/١٢٦-١٢٨» و«معتك الأقران في إعجاز القرآن ج ١/١٧-٢٢» حيث يقول:

(١) مفاتيح الغيب ج ٥/٣٣٦-٣٣٧.

(٢) سورة النحل آية ٦٨/٦٩.

(٣) مفاتيح الغيب ج ٥/٣٣٩.

(٤) درء تعارض العقل والنقل: لشيخ الإسلام ابن تيمية ج ١/٦٠، وموافقة صحيح المنقول

لصريح المعقول ج ١/٩٣.

(٥) ابن أبي الفضل المرسي هو محمد بن محمد بن عبد الله بن أبي الفضل المرسي [ت ٦٥٥هـ]

كان إماماً في القراءات واللغة والنحو، وكان يحفظ صحيح مسلم مجرداً عن السند/

معجم الأدباء ج ١٨/٢٠٩-٣١٢.

جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم بها ثم رسول الله ﷺ خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى، ثم ورث عنه معظم ذلك سادات الصحابة وأعلامهم مثل الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس حتى قال: لو ضاع لي عقل بعير لوجدته في كتاب الله تعالى.

ثم ورث عنهم التابعون بإحسان ثم تقاصرت الهمم وفترة العزائم وتضاءل أهل العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة وتابعون من علومه وسائر فنونه فنوعوا علومه وقامت كل طائفة بفن من فنونه وبعد أن بين هذه الفنون التي أخذتها الملة الإسلامية منه قال:

وقد احتوى على علوم آخر من علوم الأوائل مثل الطب والجدل والهيئة والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة وغير ذلك.

أما الطب فمداره على حفظ نظام الصحة واستحكام القوة، وذلك إنما يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة. وقد جمع ذلك في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾^(١). وعرفنا فيه بما يفيد نظام الصحة مع اختلاله، وحدث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله: ﴿شَرَابٌ مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾^(٢). ثم ازداد على طب الأجساد طب القلوب وشفاء الصدور.

وأما الهيئة ففي تضاعيف سورة من الآيات التي ذكر فيها ملكوت السموات والأرض ومابث فيها في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات.

وأما الجدل فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والنتائج والقول بالموجب والمعارضة وغير ذلك، ومناظرة إبراهيم نمرود ومحاجته قومه أصل في ذلك عظيم^(٣).

وأما الجبر والمقابلة فقد قيل: إن أوائل السور فيها ذكر عدد وأيام وأعوام لتواريخ أمم سالفة، وإن فيها تاريخ بقاء هذه الأمة، وتاريخ مدة الدنيا وماضى ومابقي مضروب بعضها في بعض.

وأما النجامة ففي قوله: ﴿أَوْ أَثَارَةٌ مِنْ عَلَمٍ﴾^(٤)، وقد فسر به بذلك ابن عباس.

وذكر علوماً كثيرة مستشهداً على ثبوتها بآيات من القرآن الكريم، كما ذكر من أسماء الآلات وأنواع المأكولات وغير ذلك، محتجاً بقوله تعالى: ﴿مَافَرَطْنَا فِي

(١) سورة الفرقان آية ٦٧.

(٢) سورة النحل آية ٦٩.

(٣) سورة البقرة آية ٢٥٨.

(٤) سورة الأحقاف آية ٤.

وهذا المنهج الذي انتهجه ابن أبي الفضل المرسى في بيان اشتغال القرآن على هذه العلوم والفنون هو منهج غريب وبعيد عن مقصد القرآن وهداياته، لأن هذه العلوم والفنون والصنائع والآلات التي ذكرها وجعلها من العلوم التي احتواها القرآن لم يكن المقصود في ورودها في القرآن وروداً عابراً اقتضاه المقام في ذكر قصة أو عظة وعبرة، أو الإشارة إليها في آيات القرآن تقريراً أنها علوم ومعارف وفنون أنزل القرآن بمسائلها وقضاياها وموضوعاتها لتبحث في تفسيره كما تبحث في مصانعها ومعاملها بالآيات ووسائلها التجريبية الخاصة، لأن ذلك مما لا ينبغي أن يكون مما يعرض له القرآن. هذا من جهة. ومن جهة أخرى لو تأملنا في هذه الأمثلة التي ساقها وأخذ منها دلالتها على قضايا معينة هي في واقع الأمر لاتدل عليها.

وعلى سبيل المثال لا الحصر: أخذ من قوله تعالى: ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾ دلالتها على النجامة، مستشهداً بتفسير ابن عباس بذلك. مع أن التفسير السليم لها هو أن المراد بها (بقية من علم الأولين) بذلك فسرها ابن قتيبة. وأصل الكلمة من الأثر وهو الرواية. وبذلك يكون المعنى: أو بقية بقيت عندكم تروونها عن أهل العلم السابقين غير مسطورة في الكتب، وهو توسيع عليهم في أنواع الحجة ليكون عجزهم عن الإتيان بشيء من ذلك أقطع لعذرهم. فهم لا يستطيعون الإتيان بحجة لآمن جانب العقل ولآمن جانب النقل المسطور المشار إليه بقوله تعالى: ﴿بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَذَا﴾ أو المأثور المشار إليه ﴿أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ﴾.

ولهذا نجد الشوكاني في تفسيره (فتح القدير) يسوق روايات من بينها رواية عن ابن عباس قال: «خط كان يخطه العرب في الأرض» ثم يعلق بقوله:

«ومن أين لنا أن هذه الخطوط الرملية (خط الرمل) موافقة لذلك الخط؟ وأين السند الصحيح، فليس ما يفعله أهل الرمل إلا جهالات وضلالات»^(٢)

وكذلك أخذه من قوله تعالى: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ﴾ دلالتها على قاعدة هندسية وهي أن الشكل المثلث لا ظل له، في حين أن الآية تثبت ظلاً ولكنه مسلوب خصائص الظل، ذلك لأن من شأن الظل أن ينفس عن الذي يأوي إليه ألم الحر، ولكن هذا الظل الذي يؤمر المكذبون بجهنم في الدنيا بالانطلاق إليه في الآخرة

(١) سورة الأنعام آية ٣٨.

(٢) فتح القدير ج ٥ / ١٥٠.

وهو ظل لاظليل أي ليس هو مثل ظل المؤمنين الذي يقول الله في جزائهم: ﴿وَنُدْخِلُهُمْ ظِلًّا ظَلِيلًا﴾^(١). والمراد بالظل هنا في الآية التي استشهد بها: دخان جهنم لكثافته، عبّر عنه بالظل تهكمًا بهم لأنهم يتشوقون إلى ظل يأوون إلى برده، والشعب جمع شعبة وهي الطائفة من الشيء، وأريد بها طوائف من الدخان، فإن النار إذا عظم اشتعالها تصاعد دخانها من طرفيها ووسطها، لشدة انضغاطه في خروجه منها^(٢).

الزركشي والتفسير العلمي:

يدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي المتوفى سنة ٧٩٤هـ، من العلماء الذين يرون أنه يمكن استخراج كل شيء من القرآن.

ولهذا نجده في كتابه (البرهان في علوم القرآن) ينقل أقوال بعض الصحابة في هذا الموضوع، كما ينقل أقوال الإمام الغزالي التي ذكرها في كتابه (إحياء علوم الدين)، فهو يعقد فصلًا في حاجة المفسر إلى الفهم والتبحر في العلوم يقول فيه: «كتاب الله بحره عميق، وفهمه دقيق لا يصل إلى فهمه إلا من تبحر في العلوم وعامل الله بتقواه في السر والعلانية وأجلّه عند مواقف الشبهات.

واللطائف والحقائق لا يفهما إلا من ألقى السمع وهوشهيد، فالعبارات للعموم وهي للسمع، والإشارات للخصوص وهي للعقل، واللطائف للأولياء وهي المشاهد، والحقائق للأنبياء وهي الاستسلام...

وقد قال أبو الدرداء- رضي الله عنه -: «لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهاً». وقال ابن مسعود: «من أراد علم الأولين والآخرين فَلْيُتَوَرَّ القرآنَ أي لينقل عنه ويفكر في معانيه وتفسيره وقراءته»^(٣).

وقال ابن سبع (أبو الربيع سليمان بن سبع السبتي) في شفاء الصدور: «هذا الذي قاله أبو الدرداء وابن مسعود: لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر، وقد قال بعض العلماء: لكل آية ستون ألف فهم ومابقي من فهمها أكثر. وقال آخر: القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم، إذ لكل كلمة علم، ثم يتضاعف ذلك أربعة إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحدّ ومطلع.

(١) سورة النساء آية/٥٦.

(٢) التحرير والتنوير/٢٩/٤٣٥.

(٣) البرهان في علوم القرآن: ج ٢/١٥٤.

وبالجملة: فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله تعالى وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وصفاته وأفعاله، فهذه أمور تدل على أن في فهم القرآن مجالاً رحباً ومتسعاً بالغاً، وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس يتهي الإدراك فيه بالنقل، والسماع لا بد منه في ظاهر التفسير ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط.

والغرب التي لاتفهم إلا باستماع فنون كثيرة ولا بد من الإشارة إلى جمل منها ليستدل بها على أمثالها، ويعلم أنه لا يجوز التهاون بحفظ التفسير الظاهر أولاً ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر
ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم الظاهر فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل تجاوز الباب.

ثم يقول في فصل آخر من هذا الكتاب:

«إن في القرآن علم الأولين والآخرين، ومامن شيء إلا ويمكن استخراج منه لمن فهمه الله تعالى، حتى أن بعضهم استنبط عمر النبي ﷺ ثلاثاً وستين سنة من قوله تعالى في سورة المنافقين: ﴿وَلَنْ يُؤَخَّرَ اللَّهُ نَفْساً إِذَا جَاءَ أَجْلُهَا﴾^(١) فإنها رأس ثلاث وستين سورة، وأعقبها بالتغابن ليظهر التغابن في فقده.

وقوله تعالى مخبراً عن عيسى: ﴿قَالَ إِنِّي عَبْدُ اللَّهِ آتَانِيَ الْكِتَابَ وَجَعَلَنِي نَبِيّاً وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً أَيْنَ مَا كُنْتُ وَأَوْصَانِي بِالْصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَادُمْتُ حَيّاً وَبَرّاً بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْ لِي جَبَّاراً شَقِيّاً وَالسَّلَامُ عَلَيَّ يَوْمَ وُلِدْتُ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيّاً﴾^(٢) ثلاث وثلاثون كلمة وعمره ثلاث وثلاثون سنة. وقد استنبط الناس زلزلة عام اثنين وسبعمائة من قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾^(٣) فإن الألف باثنين والذال بسبعمائة. وكذلك استنبط بعض أئمة العرب فتح بيت المقدس وتخليصه من أيدي العدو من أول سورة الروم بحسب الجمل، وغير ذلك^(٤).

وتعقينا على هذه الاستنباطات أن القرآن أبعد ما يكون عن هذا الحساب الفلكي، فإنه هداية ودستور عمل يسعد المسلمون عند العمل بمقتضاه، ويشقون عندما يعرضون عن تعاليمه وأحكامه. كما أنه لا يتعرض لجزيئات المسائل بهذه الصورة الشكلية، وإنما يمس جوهر الموضوع ومناطق العبرة.

(١) البرهان ج ٢/ ١٥٣-١٥٥.

(٢) سورة مريم آية ٣٠-٣٣.

(٣) سورة الزلزلة آية ١.

(٤) البرهان ج ٢/ ١٨١-١٨٢.

الجلال السيوطي والتفسير العلمي:

ثم جاء جلال الدين السيوطي المتوفى [عام ٩١١هـ] وصاحب المؤلفات الكثيرة فتابع من قبله من العلماء القائلين بأن القرآن يشتمل على علوم الأولين والآخرين، ففي كتابه الإتيقان في علوم القرآن نجده - في النوع الخامس والستين منه - يتكلم على العلوم المستنبطة من القرآن الكريم. كما يجعل اشتغال القرآن على العلوم المختلفة وجهاً من وجوه الإعجاز فيه في كتابه (معترك الأقران) فيسوق الآيات والأحاديث والآثار وأقوال العلماء التي تدل على أن القرآن مشتمل على كل العلوم.

فمن الآيات التي يستشهد بها قوله تعالى: ﴿مَافَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾^(١) وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢)

ومن الأحاديث ما أخرجه الترمذي وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «ستكون فتن قيل: فما المخرج منها؟ قال كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم».

وما أخرجه أبو الشيخ عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل لو أغفل شيئاً لأغفل الذرة والخردلة والبعوض».

ومن الآثار ما أخرجه سعيد بن منصور عن ابن مسعود قال: «من أراد العلم فعليه بالقرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين».

وما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود - أيضاً أنه قال: أنزل في القرآن كل علم وبيّن لنا فيه كل شيء، ولكن علمنا يقصر عما بيّن لنا في القرآن.

وأخرج البيهقي عن الحسن قال: أنزل الله مائة وأربعة كتب وأودع علومها في أربعة منها التوراة والإنجيل والزيور والفرقان، ثم أودع علوم الثلاثة في القرآن.

ثم يحكي السيوطي عن ابن سراقه أنه روى في كتاب الإعجاز عن أبي بكر بن مجاهد أنه قال يوماً: ما من شيء في العالم إلا وهو في كتاب الله تعالى، ف قيل له: فأين ذكر الخانات؟^(٣) فيه؟ فقال في قوله تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَدْخُلُوا بُيُوتاً غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَاعٌ لَكُمْ﴾^(٤)، فهي الخانات.

(١) سورة الأنعام آية/٢٨ .

(٢) سورة النحل آية/٨٦ .

(٣) التحرير والتنوير/ ١٨ / ٢٠٢ .

(٤) سورة النور آية/٢٩ .

وقال غيره: مامن شيء إلا ويمكن استخراجهُ من القرآن لِمَنْ فَهَمَهُ اللهُ.
ثم يورد السيوطي قول ابن سِراقة في إعجاز القرآن يقول:

وقال ابن سِراقة: «من بعض وجوه إعجاز القرآن ما ذكر الله فيه من أعداد الحساب والجمع والقسمة والضرب والموافقة والتأليف والمناسبة والتصنيف والمضاعفة، ليعلم بذلك أهل العلم بالحساب أنه ﷺ صادق في قوله، وأن القرآن ليس من عنده إذ لم يكن ممن خالط الفلاسفة ولا تلقى الحساب وأهل الهندسة. ويورد قول الراغب الأصفهاني فيقول:

وقال الراغب: إن الله تعالى كما جعل نبوة النبيين نبوة محمد ﷺ مختمة وشرائعهم من وجه متسخة، ومن وجه مكملة متممة.

جعل كتابه المنزل عليه متضمناً لثمره كتبه التي أولاهما أولئك كما نبه عليه بقوله: «يَتْلُو صَحْفاً مطهرةً فيها كتبٌ قيمة»^(١)، وجعل من معجزة هذا الكتاب أنه مع قلة الحجم متضمن للمعنى الجَم بحيث تقصر الأبواب البشرية عن إحصائه. والآلات الدنيوية عن استيفائه، كما نبه عليه بقوله: «ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم»^(٢).

ويذكر عن القاضي أبي بكر بن العربي أنه قال في كتابه (قانون التأويل): «علوم القرآن خمسون علماً وأربعمائة علم وسبعة آلاف علم وسبعون ألف علم على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة، إذ لكل كلمة ظهر وبطن وحد ومطلع. وهذا مطلق دون اعتبار التركيب، وما بينهما من روابط، وهذا ما لا يحصى وما لا يعلمه إلا الله.

ثم يعقب الجلال السيوطي على هذه الأقوال وغيرها فيقول:

أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها. وفيه عجائب المخلوقات وملكوته السموات والأرض، وما في الأفق الأعلى وما تحت الثرى... إلى غير ذلك مما يحتاج شرحه إلى مجلدات.

وقد ألّف كتاباً سمّيته (الإكليل في استنباط التنزيل) ذكرت فيه كل ما استنبط منه من مسألة فقهية أو أصلية أو اعتقادية، وبعضاً مما سوى ذلك، كثير الفائدة جم العائدة يجري مجرى الشرح لما أجملته في هذا النوع.

(١) سورة البينة آية/٢-٣.

(٢) سورة لقمان آية/٢٦.

القائلون بالتفسير العلمي في العصر الحديث :

إذا كان العلماء القدامى قد وضعوا للتفسير تعريفات كثيرة تلتقي كلها عند معنى الإبانة لكلام الله تعالى والكشف عن مقاصده، فإنه من الممكن في حدود الإطار العام لهذه التعريفات نفسها أن يعد من التفسير كل نشاط ثقافي يعتمد في تأسيس موقفه على فهم معين للنص القرآني، سواء في ذلك النمط المسلسل الذي ورثناه عن السلف في خطة التفسير أم غير ذلك من الأنماط التي تأخذ شكل المقالة أو طريقة التفسير الموضوعي للقرآن. وبهذا تتسع دائرة التفسير ويصبح أفقه على هذا شاملاً لكل ألوان التفكير المؤسس على فهم معين للنص القرآني، مهما تكن الصورة الفنية لهذا التفسير^(١).

ولما أصاب المسلمين ما أصابهم من جمود فكري في القرون الأواخر، قام بعض العلماء للدعوة إلى الانفتاح على العلوم العصرية، للاستفادة منها فيما ينفع المسلمين في دينهم ودنياهم.

يقول الدكتور الذهبي رحمه الله تعالى^(٢) :

«فاتجهت أنظار العلماء الذين لهم عناية بدراسة التفسير إلى التحرر من قيد هذا الركود، فنظروا في كتاب الله تعالى نظرات، وإن كان لها اعتماد - من غير شك - على مادونه الأوائل في التفسير، إلا أنها تحمل شيئاً من التجديد والتطور، وكان ذلك بالعمل على التخلص من كل الاستطرادات التي حشرت في التفسير والعمل على تنقيته من الإسرائيليات والموضوعات التي كادت تذهب بجمال القرآن وجلاله، وتمحيص ما جاء فيه من الأحاديث الضعيفة، وإلباس التفسير ثوباً أدبياً اجتماعياً يظهر روعة القرآن ويكشف عن مقاصده الدقيقة وأهدافه السامية، والتوفيق بجهد بالغ وجهد ظاهر من بعض العلماء بين القرآن وماجد من نظريات علمية، على تفاوت بين هؤلاء في الغلو والاعتدال - كما سبق القول - وكان ذلك من أجل أن يعرف المسلمون وغير المسلمين أن القرآن - وهو كتاب الإسلام الخالد - يتمشى مع الزمن في كل أطواره ومراحلته.

الشيخ محمد عبده والتفسير العلمي

كان الشيخ محمد عبده [١٩٠٥م] صاحب اتجاه حديث في التفسير وغيره من الأفكار الدينية والاجتماعية، غير أنه لم يترك للناس إلا ثروة يسيرة في التفسير بالقياس

(١) اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث/ ١٨، ٨٢.

(٢) التفسير والمفسرون ج ٣/ ١٦٢.

إلى مكائنه العلمية. فقد ترك تفسيراً لجزء (عم) وهو مطبوع في كتاب ذائع شائع بين المثقفين، ولكنه كتاب مدرسي ألفه ليكون مرجعاً لمدرسي مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية التي كان له فضل في رعايتها، وهو لهذا لا يكشف كشفاً تاماً عن منهجه في تفسير القرآن، وقد توخى فيه سهولة العبارة وقلة وجوه الإعراب، كما ترك تفسيراً مطولاً لسورة العصر وتفسيراً لبعض الآيات التي يثير حولها أعداء الإسلام كثيراً من الشبهات والأباطيل مثل الآيات:

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ وَلَا نَبِيٍّ إِلَّا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ فَيَنْسَخُ اللَّهُ مَا يُلْقِي الشَّيْطَانُ ثُمَّ يُحْكِمُ اللَّهُ آيَاتِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ الآيات (١). وقد فند فيها قصة (الغرائيق) تنزيهاً للنبي ﷺ عما قيل عنه فيها (٢).

وكتفسيره للآية ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ﴾ (٣).

وكتفسيره لسورة البقرة وآل عمران والنساء، وكان ذلك تديساً لتلاميذه في الأزهر الشريف، وقد دون تفسيره لما ذكر تلميذه وترجمان أفكاره الشيخ محمد رشيد رضا (٤).

وبالرجوع إلى تفسير جزء عم نجد أنه يفسر بعض الآيات في ضوء العلم الحديث، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾ (٥) يقول:

أما تسجير البحار فهو أن يفجر الزلزال ما بينها حتى تختلط وتعود بحراً واحداً، وهو بمعنى الملاء فإن كل واحد منها يمتلىء حتى يفيض ويختلط بالآخر...

ثم قال: وقد يكون تسجيرها إضرامها ناراً، فإن ما في بطن الأرض من النار إذ ذاك يظهر بتشققها وتمزق طبقاتها العليا، أما الماء فيذهب عند ذلك بخاراً، ولا يبقى في البحار إلا النار.

(١) سورة الحج آية ٥٠-٥١/.

(٢) وهي قصة باطلة تذكر أن النبي ﷺ جرى على لسانه تعظيم تلك الغرائيق الملى... وقد صنف الشيخ محمد ناصر الدين الألباني رسالة في إبطالها أسماها «نصب المجانيق» لنسف قصة الغرائيق جزاء الله خيراً.

(٣) سررة الأحزاب آية ٣٧/.

(٤) اتجاه التفسير: مصطفى الطير الحديدي/٤٦/.

(٥) سورة الحديد آية ٦/.

أما كون باطن الأرض يحتوي على نار فقد ورد به بعض الأخبار، ورد أن البحر غطاء جهنم وإن لم يعرف في صحيحها... ولكن البحث العلمي أثبت ذلك، ويشهد عليه غليان البراكين وهي جبال النار، كما تشهد عليه الزلازل الشديدة التي تشق الأرض والجبال في بعض الأطراف كما وقع في (جأوا) من عدة سنوات، فإن آثار النار في بطن الأرض قد ظهرت فيه ظهوراً لاشبهة تظراً على الذهن بعده^(١).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ يقول:

«انشقاق السماء مثل انفطارها الذي مر تفسيره... وهو فساد تركيبها واختلال نظامها عندما يريد الله خراب هذا العالم الذي نحن فيه، وهو يكون بحادثة من الحوادث التي قد ينجر إليها سير العالم كأن يمر كوكب في سيره بالقرب من آخر فيتجاذبا فيتصادما فيضطرب نظام الشمس بأسره ويحدث من ذلك غمام وأي غمام يظهر في مواضع متفرقة من الجو والفضاء الواسع، فتكون السماء قد تشققت بالغمام واختل نظامها حال ظهوره»^(٢).

وقد انتقده بعض العلماء في هذا التفسير لخراب العالم، لأن الكون أعظم من أن يختل نظامه بمجرد ضرب كوكب آخر من المجموعة الشمسية. فما أكثر المجموعات الشمسية التي تتجاوز الأرقام الحسائية التي عرفها البشر! وما أصغر أفكار البشر في شأن مستقبل العالم خراباً أو عماراً. فمثل ذلك يجب تفويض الأمر فيه إلى الله تعالى فهو علام الغيوب^(٣).

وفي تفسيره لسورة الفيل نراه يجمل معنى آياتها في عبارة موجزة تصور ما في السورة من هداية وعظة، ثم يقول:

«وكان يمكننا أن نكتفي بذلك المعنى من الآيات ولا نزيد عليه أدنى تفصيل، وهو كاف في الاعتبار والعظة - وليته فعل - ولكنه تابع الكلام وذكر ما قال أنه تواتر من الواقعة، إلى أن قال: وفي اليوم الثاني فشا في جند الحبش داء الجدري والحصبة.

ثم ذكر رواية عكرمة أن أول مارؤيت الحصبة والجدري ببلاد العرب في ذلك العام... ثم عقب على ذلك بقوله:

(١) تفسير جزء «عم» ٢٦ / ط بلاق.

(٢) تفسير جزء «عم» ٤٩ / .

(٣) اتجاه التفسير في العصر الحديث: مصطفى الطير / ٥٤ / ط مجمع البحوث الإسلامية.

«هذا ما اتفقت عليه الروايات ويصح الاعتقاد به» واستطرد قائلاً:

«وقد بينت لنا هذه السورة أن ذلك الجدري أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات، فإذا اتصل بجسد دخل في مسامه فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه، وإن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن (بالميكروب) لا يخرج عنها.

هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة، وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله إلا بتأويل إن صحت روايته»^(١).

هذا ما قاله الشيخ محمد عبده في تفسيره لسورة الفيل، وقد أخذت عليه في تفسيره هذا مأخذ كثيرة:

أولاً: أن حديث الجدري والحصبة ما كان ينبغي له أن يعول عليه في تفسير سورة بدأها الله بصيغة التعجب والتعظيم لصنعه بما أنزله بهؤلاء الطغاة تمهيداً لمبعث نبيه محمداً ﷺ.

وقد عرض ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ) لهذا الحديث فقال: «وقال كثير من أهل السير: إن الحصبة والجدري أول ما رؤيا في العرب بعد الفيل، وهذا مما لا ينبغي أن يُعرج عليه، فإن هذه الأمراض قبل الفيل منذ خلق الله العالم»^(٢).

ثانياً: قوله، بعد أن ذكر حديث الجدري والحصبة: «هذا ما اتفقت عليه الروايات»، مع أنها في حقيقة الأمر لم تتفق على هذا الذي ذكره، بل ذكرت بعض الروايات أن هذه الطير كانت أشبه ما تكون بالطير المسمى بالخطاف. وبعضها ذكر أنها أشبه باليعاسيب، وقد أقبلت من وجهة البحر في جماعات إثر جماعات حاملة في مناقيرها وأرجلها حجارة صغيرة في حجم الحمصة أو حصى كحصى الخذف فألقته على الجيش الظالم، فتساقط هلاكاً وفناء.

(١) تفسير جزء «عم» ١٥٨/.

(٢) الكامل في التاريخ: لابن الأثير ج ١/ ١٩٩ ط أولى.

والسورة الكريمة لم تبين نوع الطير الذي رمى أصحاب الفيل بالحجارة ولا وصفت الحجارة التي رمتها، لأن فهم الآية المقصود منها لا يتوقف على هذا التفصيل. فالسورة صريحة في أن أسراباً من الطير أرسلها الله على هؤلاء المعتدين فأضعفت قواهم وأبطلت كيدهم، وردتهم على أعقابهم خاسرين. والحمل على هذا أولى لأنه به تبقى السورة على ظاهرها ويبقى الحادث على وضعه الإعجازي إرهاساً للنبوة الخاتمة.

ثالثاً: إنه لم يعرف في اللغة العربية التي نزل بها القرآن واستعمالاتها إطلاق لفظ (الطير) على الحيوان المسمى (بالميكروب) وأن العرب المخاطبون في وقت المواجهة بالخطاب التعجيبى الذي افتتحت به السورة لا يعلمون شيئاً عن هذا الحيوان.

رابعاً: قوله: «وقد بينت لنا السورة الكريمة أن ذلك الجدري وتلك الحصبة من حجارة يابسة. السورة الكريمة يقرؤها ويحفظها عن ظهر قلب أكثر المسلمين، وهي لم تتعرض لذكر الجدري والحصبة فضلاً عن أن تبين حقيقتهما ومنشأهما».

خامساً: تفرّيعه على ما فرضه واقعاً من حديث الجدري والحصبة إنه يجوز لمن يريد فهم معاني القرآن ليؤمن بها أن يعتقد أن هذا الطير الذي أرسله الله على أصحاب الفيل من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم الأمراض. وأن هذا الحيوان الذي يسمى (الميكروب) من هذا الطير. فهو تحميل لآيات القرآن فوق طاقة أساليب اللغة العربية، وفوق طاقة أفهام من نزل القرآن لتعجيبيهم من شأن هذه الحادثة المبدعة إرهاساً لمقدم بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين^(١).

سادساً: ماهو الوباء الذي يصيب في أرض واحدة طائفة من الناس من جنس معين ويستثني بقية سكان البلد. والمعهود في الأمراض السارية انتشارها مع الهواء بين سكان المنطقة دون تفريق، وإن المألوف في الجدري والحصبة لا يتفق مع ما روي من الآثار التي تركها الحادث بأجسام الجيش وقائده، فإن الجدري وكذا الحصبة لا يسقط الجسم عضواً عضواً وأنملة أنملة ولا يشق الصدر عن القلب، مع أن هذه الصورة هي التي يوحي بها النص القرآني إحياء مباشراً وقریباً، حيث جاء فيه «فجعلهم كعصف مأكول»^(٢).

(١) القرآن العظيم: هدايته وإعجازه: لمحمد الصادق عرجون/ ٢٤١/.

(٢) ظلال القرآن: لسيد قطب رحمه الله تعالى ج ٦/ ٣٦٧٨/ ط دار الشروق.

الشيخ طنطاوي جوهرى والتفسير العلمى :

ولد الشيخ طنطاوي جوهرى عام ١٨٦٢م، وقد نشأ محباً لدينه ذا رغبة قوية في توجيه المسلمين إلى الإيمان الراسخ بالله تعالى عن طريق النظر في ملكوته وآثار نعمته ورحمته^(١). وقد كان يؤمن بأن القرآن لا يفسر إلا بالعلم الحديث، فألف تفسيراً للقرآن الكريم سماه (الجواهر في تفسير القرآن الكريم) وضعه في خمسة وعشرين جزءاً مزج فيه كما قال - الآيات القرآنية بالعجائب الكونية^(٢).

ولقد أمل من تأليف هذا التفسير- كما يقول - أن يشرح الله به قلوباً ويهدي به أمماً وتنقش به الغشاوة عن أعين عامة المسلمين فيفهموا العلوم الكونية.

كما يقرر أن في القرآن من آيات العلوم ما يربو على سبعمائة وخمسين آية، في حين أن علم الفقه لا تزيد آياته الصريحة على مائة وخمسين آية، كما يقرر- في الوقت نفسه - أن الإسلام جاء لأمر كثيرة، وأن سور القرآن الكريم متممات لأمر أظهرها العلم الحديث.

كما يتحدث عن تفسيره هذا ويصرح بأنه نفحة ربانية وإشارة قدسية وإشارة رمزية أمر به بطريق الإلهام.

وكثيراً ما يهيب بالمسلمين أن يتأملوا في آيات القرآن التي ترشد إلى علوم الكون ويحثهم على العلم بما فيها، ويندد بمن يغفل هذه الآيات على كثرتها، وينعي على من أغفلها من السابقين، ووقف عند آيات الأحكام وغيرها مما يتعلق بأمور العقيدة. ويكرر هذا القول في كثير من مواضع الكتاب.

طريقته في التفسير :

أما طريقته في تفسيره فإنه يبدأ بالتفسير اللفظي للآيات التي يعرض لها، ثم يتلوه بالشرح والإيضاح والكشف، متوسعاً في الفنون العصرية والعلوم الكونية.. كما نراه ينقل عن التوراة والإنجيل كثيراً.

كما يرد على بعض النصارى والمشتشرقين^(٣).

كما يستشهد بكلام علماء الغرب، وكثيراً ما يضع في تفسيره صور النباتات

(١) اتجاه التفسير في العصر الحديث، ص ٥٥.

(٢) تفسير الجواهر ج ١/٢.

(٣) تفسير الجواهر ج ٢/١٢٢.

والحيوانات ومناظر الطبيعة والتجارب العلمية والجداول الإحصائية.

وقد طبق في تفسيره القرآن على النظريات العلمية الحديثة واستخرج هذه النظريات من القرآن، فجاء تفسيره مزيجاً من علوم الأمم قديماً وحديثاً، مع التوفيق بين الآراء الحديثة والأفكار الدينية.

وأول ما يتصفح القارئ هذا التفسير يصادفه تفسيره لسورة الفاتحة، وفيها يظهر تطبيقه لمنهجه في التفسير.

ومن ضمن ما جاء في تفسيره لها قوله:

«لما كان أكثر الناس لا يلاحظون العجائب الكائنة فيهم، ولا يعرف نفسه إلا قليل منهم وهم أكابر الحكماء والأولياء وجب أن أبين في هذا المقام بعض رحمته - عز وجل - في العالم المشاهد... وذكر قصة طريقة لرحمة الله ببعض الحيوانات الضعيفة... وبعد كلام طويل أبان فيه اختصاص الحمد بالله تعالى وأن العرب كانوا يحمّدون ملوكهم وأمراءهم والمحسّنين منهم. فلما جاء القرآن أمرهم أن يقصروا الحمد على الله تعالى. وكيف أثر ذلك في نفوس العرب حتى فتحوا الأمم شرقاً وغرباً وأخرجوا الناس من جور الأديان إلى عدل الإسلام. أتبع ذلك بهذه الترجمة: «الشرعة الإسلامية والنظر في الآفاق وفي الأنفس».

وتحت هذا العنوان كتب صفحة ونصفاً في الحوض على النظر في آيات العلوم الكونية القرآنية، وذكر أننا ينبغي أن ندرس علوم الهيئة والفلك والحساب والهندسة وعلم المعدن والنبات والحيوان وسائر علوم هذه الدنيا، وأن دراستها من الدين، فيكون علم الدين على قسمين:

العلم الأول: علم الآفاق، والأنفس. والعلم الثاني: علم الشرعة. وبذلك ترى العالم الديني شارحاً للنبات والحيوان، والآخر يدير المعمل الكيميائي، وهذا من قوله تعالى:

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (١).

ومن قوله هنا - سورة الفاتحة - «الحمد لله رب العالمين»..

ثم ذكر في معنى قوله تعالى: «رب العالمين» أنه تعالى مربّي الموالم كلها ومربيها من حال النقص إلى حال الكمال وغايات التمام، فهو الذي يتعهد النباتات بالتغذية

والإنماء، وهكذا الحيوان والإنسان، وكذا العوالم العلوية. وهذه هي التربية التي كان مبدؤها الرحمة. ثم ذكر عدداً من المسائل في هذه التربية: (الأولى) في الذرة و(الثانية) في القمح و(الثالثة) في تربية الثمرة في النخلة و(الرابعة) في تربية اللؤلؤ في البحر و(الخامسة) في تربية الجنين في بطن أمه و(السادسة) في تربية الولد باللبن و(السابعة) في التربية الطيبة و(الثامنة) في التربية بالمدارس و(التاسعة) في تربية الله للعقول بعلم المنطق لإدراك العلوم العالية، وبلغ ماكتبه في ذلك أربع صفحات.

ثم تكلم عن معنى العالمين، فعرف العالم بأنه ماسوى الله تعالى، وقسمه إلى قسمين: عالم علوي وعالم سفلي. والعلوي هو الكواكب والشمس والقمر والسيارات وأقمارها، ثم وضع ذلك بضرب مثل، ثم قال:

وهذه الشموس وحركاتها ونظامها لا يتسنى لك معرفتها إلا بعلم العدد والحساب والهندسة وعلم الجبر والفلك ﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل﴾ لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق تفصل الآيات لقوم يعلمون^(١).

ثم تكلم عن العالم السفلي وقال: إنه مافي البر من مخلوق حي ومافي الأرض من معدن ونبات وحيوان وإنسان. ثم تكلم عن عالم البحار بإسهاب. ثم ذكر النبات والحيوان وعلم التشريح وقال: ألا فليعلم المسلمون أنهم لا يحمدون الله حق حمده ولا يشكرونه حق شكره إلا إذا درسوا هذه العلوم وعرفوا ما تفرع عنها وانتفعوا بها ونفعوا الناس بفوائدها.

والشيخ الطنطاوي جوهرى في تفسيره ينخدع بدعوى علم تحضير الأرواح ودعائه، بل ويؤمن به ويدافع عنه ويستنبطه من القرآن، فهو عند تفسير قوله تعالى: ﴿وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم أن تدبحوا بقرة﴾ قالوا اتخذنا هزواً قال أعود بالله أن أكون من الجاهلين... ﴿الآيات^(٢)﴾.

نجده يعقد بحثاً في عجائب القرآن وغرائب، فيذكر ما انطوت عليه هذه الآيات من عجائب ويذكر من بينها (علم تحضير الأرواح) الذي ظهر أخيراً. والمناسبة التي يستطرد منها إلى هذا البحث هي إحياء الله لقتيل بني اسرائيل لما ضرب بشيء من لحم البقرة

(١) سورة يونس آية ٥٠ / ٥٠.

(٢) سورة البقرة الآيات ٦٦-٧٢.

التي أمروا بذبحها، فيقول:

«وأما علم تحضير الأرواح فإن من هذه الآية استخراجها، إن هذه الآيات تُتلى والمسلمون يؤمنون بها حتى ظهر علم تحضير الأرواح بأمريكا أولاً ثم بسائر أوروىا ثانياً». ثم ذكر نبذة طويلة عن مبدأ ظهور هذا العلم وكيف كان انتشاره بين الأمم، وفائدة هذا العلم واستغرق ذلك منه خمس صفحات، ثم قال:

ولما كانت السورة التي نحن بصدها قد جاء فيها حياة العزيز بعد موته وكذلك حمارة، ومسألة الطير وإبراهيم الخليل، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الطاعون فماتوا ثم أحياهم الله، وعلم الله أننا عاجزون عن ذلك جعل قبل ذكر تلك الثلاثة في السورة مايرمز إلى استحضار الأرواح في مسألة البقرة، كأنه يقول:

إذا قرأتم ماجاء عن بني إسرائيل في إحياء الموتى في هذه السورة من أواخرها فلاتياسوا من ذلك فإنني قد بدأت بذكر استحضار الأرواح فاستحضروها بطرقها المعروفة «فأسألو أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون»، ولكن ليكن محضر الأرواح ذا قلب نقي خالص على قدم الأنبياء والرسل كالعزيز وإبراهيم وموسى، فهؤلاء لعلو نفوسهم أريتهم بالمعينة ليطمئنوا وأنا أمرت نبيكم أن يقتدي بهم فقلت: «فبهدهم اقتده» فاقصدوا بهم في تعلم ما تطمنون وتوقنون، ولكن قبل ذلك اقتدوا بالأنبياء في طهارة القلوب وزوال الرجز من النفوس، فإن هذه الأمور إنما تعرف بالتجربة والعمل لا بالقياس العقلي ولا بالنظر والحدس الفكري»^(١)

هكذا يقول الشيخ طنطاوي جوهرى عن تحضير الأرواح وأخذه من القرآن، وهو أمر غريب في تفسير القرآن لأنه بعيد عن معناه ومن أهدافه وأغراضه السامية، فكيف يسوغ القول بأن علم تحضير الأرواح يستخرج من هذه الآية؟ وهي أبعد ما تكون عن ذلك.

وهذا العلم ذاته لم يكن مسلماً به عند المسلمين على الأقل، وكيف يجوز أن نُقول القرآن مالم يقل؟.

«إن علم تحضير الأرواح علم كاذب فلا يوافق الدين على الإيمان به فضلاً عن جعله تفسيراً لآية من القرآن الكريم، ولا يعترف بأخبار الأرواح التي تحضر عن طريقه فهي أرواح جن تكذب بادعائها أنها الأرواح المطلوب إحضارها ومكالمتها. وكيف يمكن

(١) تفسير الجواهر ج ١ / ٨٩٨٤.

أن تكون صادقة وهي تقول عن نفسها أخباراً غير مطابقة لحالتها في الحياة؟ وكيف يمكن استحضار الأرواح حقيقة في حين أن السلطان عليها لله وحده»^(١).

وعن هذا الموضوع يحدثنا الدكتور محمد جمال الدين الفندي فيقول:

«ولقد نجم عن تعرف الناس على بعض معالم ما وراء المادة عن طريق الدين أن راحت طائفة منهم تجري محاولات الاتصال بمن في ذلك العالم بطريقة يسمونها (تحضير الأرواح)، ونحن لانستطيع أن نطلق على تلك المحاولات اسم (التجارب) لاختلافها في جوهرها عن المؤلف في التجارب العلمية، ولعدم إمكان تعميم إجرائها. وقد فهم خطأ أن بعض جامعات الغرب أقرت دراسة علم الأرواح، ولكن الحقيقة أن ما وافقت عليه هو دراسات علم النفس على غرار ما هو قائم في بعض جامعاتنا العربية.

ثم يقول:

وأغلب الظن إذا سلمنا ببعض تلك الاتصالات ثم محصناها نجدها إنما تتم عن عالم غير مادي حدثنا عنه الأديان يسمى عالم الجن»^(٢).

إن تفسير الجواهر يقال فيه - كما قدمنا - وكما قال الشيخ محمد حسين الذهبي: أنه موسوعة ضربت في كل فن من فنون العلم بسهم وافر، مما جعل هذا التفسير يوصف بما وصف به تفسير الفخر الرازي فليل: فيه كل شيء إلا التفسير بل هو أحق من تفسير الفخر لهذا الوصف وأولى به^(٣). وإن المانعين لهذا التفسير لاحظوا جنوح صاحبه بل ولوعه الشديد بإخضاع الآيات القرآنية وقهرها لكي تتحمل الكثير من مسائل العلوم الكونية. وهذا تعسف ظاهر وميل بالقرآن عن مقصده الأسمى وهو سعادة البشرية في الدنيا والآخرة^(٤).

التفسير العلمي للآيات الكونية:

هذا كتاب جمعه الباحث «حنفي أحمد» وهو عالم مصري معاصر تأثر بمنهج الشيخ طنطاوي جوهرى في تفسير القرآن تفسيراً علمياً إلى جانب ثقافته التي كان لها أثر كبير

(١) اتجاه التفسير في العصر الحديث: لمصطفى الطير الحديدي/٧٥/ ويأتي مزيد بيان في الرد على مثل هذا في فصل «أخطار المناهج المنحرفة في التفسير».

(٢) الكون بين الدين والعلم/٢٤/.

(٣) التفسير والمفسرون ج ٣/١٨٣/.

(٤) اتجاهات التفسير في العصر الحديث: عبد المجيد المحتسب/٢٧٧/.

في منهجه، فهو حاصل على دبلوم المعلمين العليا بمصر وبكالوريوس في العلوم من جامعة درهام ببريطانيا، وقد شغل منصب عميد مفتشي العلوم ومدير عام لتعليم البنات بوزارة المعارف المصرية سابقاً.

يقول في مقدمته:

وبعد فقد وضعنا هذا الكتاب بفضل من الله وعون منه تعالى، إذ كانت الحاجة ماسة إليه في هذا الزمان الذي التبس فيه الحق بالباطل وأسميناه (معجزة القرآن في وصف الكائنات) وموضوع هذا الكتاب - كما يدل اسمه - ذو أهمية بالغة لأنه يبحث في تصوير القرآن للكائنات تصويراً يكشف عن دقيق معناه ويبين مافيه من آيات الإعجاز الدالة على صدق وحيه وسمو رسالته. ويرى المؤلف أنه على الرغم من ذبوع العلم الحديث وتقدمه العظيم في النصف الأول من القرن العشرين فإنه لم يعرف إلى الآن عن دقائق معاني حديث القرآن عن الكائنات سوى نثر يسير. ويرجع السبب في ذلك إلى عوامل شتى أهمها - في رأيه - وراثه العقيدة التي كانت ولا تزال سائدة في الأذهان بأن القرآن رسالة هداية وإرشاد لاشأن لها بأصول العلوم الكونية، وأن حديثه عن الكائنات لا يحتاج في فهمه إلا لمجرد التعقل والخبرة العادية، وأنه بذلك لا يحوي دقائق أو تفاصيل عن طبائع الكائنات تتطلب علماً خاصاً لإبانتها وإدراكها.

كما يرى المؤلف أن أهل العلم والفكر قد استبعدوا وجود علم مفصل عن الكائنات في القرآن، ولهذا غاب عنهم مفتاح طريقة البحث فيه، وهو جمع آياته المتفرقة وتبويبها على حسب موضوعاتها ثم بحثها بحثاً كاملاً، وهو المنهاج الذي سار عليه في كتابه.

ويرى - أيضاً - أنه من الواجب الاعتراف بالجهود الطيبة التي بذلها بعض أفاضل العلماء المعاصرين في كشف مكنون الآيات الكونية من أمثال الدكتور محمد أحمد الغمراوي والدكتور عبد العزيز إسماعيل والشيخ طنطاوي جوهرى.

وفي الفصل الأول من المقدمة يقرر أن الناحية العلمية هي إحدى الأوجه التي حصل بها الإعجاز، بل هي الآن أوضح الأوجه لغير من يفهمون اللغة العربية.

ولما كان القرآن منزلاً لجميع الناس في كل زمان ومكان من أهل العربية وغيرهم، ويصعب على غير العرب إدراك معجزته الكبرى في بلاغته وأسلوبه كان لهم من معجزاته الأخرى عن طريق ترجمة معانيه ما يمكنهم من إدراك إعجازه، ويلزمهم الحجة بصدق دعواه، إذ يفى نقل المعاني دون النص الأصلي بالفرض المقصود في هذا الشأن.

وطريقته في البحث أنه يجمع الآيات التي تدور حول موضوع واحد ثم يكون منها بعد الجمع والترتيب والاستنباط الأصول والقواعد العامة. وقد ضرب لذلك مثلاً من عديد الأمثلة التي يقوم عليها البحث في كتابه فقال: «وردت النجوم في ثلاث عشرة آية ووردت باسم السموات في آيات أخرى متعددة، وهذه الآيات وتلك تفيد خصائص علمية شتى من النجوم، فمنها ثلاث تتحدث عن حالتها من حيث الضياء والحركة والسكون، وأخرى عن علومها وهي:

١- يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ﴾^(١).

٢- وقال تعالى: ﴿وَعَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾^(٢).

٣- وقال تعالى: ﴿وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ النَّجْمُ الثَّاقِبُ﴾^(٣).

وقد وضح المفسرون هذه الآيات كل آية في موضعها من السورة التي وردت فيها على حسب ظاهرها الذي تدل عليه المشاهدة العادية.

ففسروا الأولى بمعنى أنه تعالى جعل النجوم ليَهْتَدِيَ بضياؤها الناس في ظلمة الليل على الأرض.

والثانية: بأنه تعالى جعلها ترى كعلامات ثابتة في السماء كالجبال والأنهار يَهْتَدِيَ بها الناس - أيضاً - في ظلام الليل.

والثالثة: بأن الطارق معناه الآتي أو الظاهر ليلاً أو نهاراً «أن الثاقب معناه المضيء»، مع أن القرآن استعمله للأجسام المتقدمة المضيئة كالنار في وصف الشهب والسراج. وبالإجمال فقد فسروا الطارق النجم الثاقب بمعنى النجم الذي يظهر ليلاً مضيئاً بضياء يثقب الظلام. وظاهر هذه الآيات في مجموعها يفيد أنه تعالى جعل النجوم تظهر في الليل مضيئة في السماء كالعلامات لكي يَهْتَدِيَ بها الناس في ظلمات البر والبحر.

وما من شك في أن هذه المعاني من دلائل قدرة الله العظيمة وحكمته البالغة ما يتفجع به الناس في الإيمان بالحق جل وعلا.

ولكن الباحث الخبير بأحوال النجوم وبما يقتضيه نظام البحث، يجمع بين هذه

(١) سورة الأنعام آية/٩٧.

(٢) سورة النحل آية/١٦.

(٣) سورة الطارق آية/٣-١.

الآيات ثم يبحثها فيجد فيها ما يستلفت النظر، يجد أنه تعالى قد اختص النجوم بالذكر في الآية الأولى دون الكواكب - مع أنها نيرات مثل النجوم وضياؤها يصل إلى الأرض مثل ضياء النجوم في الليل - فيستدل من ذلك على أن هذا التخصيص بالنجوم فيه إشارة إلى أن النجوم هي مصدر الضياء الأصلي في السماء، وأن ضياء الكواكب غير أصلي فيها بل هو مكتسب من ضياء النجوم ولذلك لم يذكرها. أرايت وجه الحكمة في الذكر؟ إنها حكمة العلي القدير.

ويجد أن قوله ﴿لتهتدوا به﴾ وفي الآية الثانية ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ معناه لتهتدوا بذاتها وبذات النجوم هم يهتدون، أي أن الباء للسببية مثل قولك يكتب بالقلم، وأن الهداية حاصلة من ذات النجوم فيكون ضوؤها ذاتياً، هكذا يقول، وتمثله بهذا غير صحيح لأن الباء فيه للاستعانة - وهي الداخلة على المستعان به أي الوسيلة التي بها حصل الفعل - أما باء السببية فهي الداخلة على سبب الفعل وعلة التي من أجلها حصل مثل قوله تعالى: ﴿فكلاً أخذنا بذنبه﴾ العنكبوت: ٤٠.

ويجد أنه تعالى وصف النجوم بلفظ الثاقب في الآية الثالثة الذي تستعمله العرب في وصف النار ولهب السراج واستعمله تعالى في وصف الشهب بقوله: ﴿فأتبعه شهابٌ ثاقبٌ﴾^(١). والشهب معروفة عند الناس بأنها أجسام نارية مضيئة فيستدل منه مع الإشارتين الواضحتين سابقتي الذكر على أن النجم الثاقب معناه: النجوم المتقدمة المضيئة بذاتها كالنار أو السراج، أو بعبارة أخرى يرى الأخذ بالمعنى الكامل للثاقب وهو أن النجوم أجرام نارية ملتهبة ومضيئة معاً، وهذا فيما يختص بحال الضياء في النيرات.

ويرى الباحث في الآية الثالثة أنه تعالى وصف النجوم (بالطارق) ومعناه: القادم والآتي ليلاً، ثم استعمل للقادم مطلقاً فيستدل منه على أنه تعالى نعت النجوم بالحركة في السماء، ولكنه في الوقت نفسه يرى أن هذا المعنى يتعارض مع مشاهدة النجوم ثابتة في السماء، كما نص تعالى بذلك في الآية الثانية، فتدفعه روح البحث إلى النظر في الآيات المختلفة ليرى كيف يقول تعالى: إن النجوم متحركة وفي الوقت نفسه يقول إنها ترى ثابتة فيعثر على ضالته في آية رابعة في قوله تعالى: ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض والسموات العلوى﴾^(٢) التي يصف فيها ارتفاع السموات عن الأرض بأنه ارتفاع عظيم

(١) سورة الصافات آية ١٠/.

(٢) سورة طه آية ٤/.

جداً فوق ما يمكن تقديره فيعلم من ذلك أنه تعالى قد قال: أن النجوم ترى ثابتة وقال ما يعارضه بأنها متحركة ولكنه أزال هذا التعارض الظاهري ببيان بُعْدِها الساقع عن الأرض فدل بذلك على أن ثبوتها المشاهد ظاهري، وذلك كما تدل المشاهد العادية على الأرض حين ترى العين الأجسام المتحركة بسرعة والبعيدة جداً كأنها ساكنة غير متحركة.

وبالإجمال يرى الخبير بحال الكائنات في حدود معاني هذه الآيات الأربع بعد جمعها وبحثها معاني دقيقة عن صفات النجوم، من صريح النص تارة، وبالإشارة القوية المحدودة تارة أخرى، وأن هذه الصفات تتفق فعلاً مع ما وصل إليه العلم الحديث، وهذا ما لا يراه الناظر غير العليم بالكائنات.

وهذه المعاني الدقيقة عن النجوم تفيد دلائل تزيد من المعرفة والإيمان بقدرة الله تعالى، كما تفيد صفات عن النجوم لم يكن يعرفها أحد عند (ظهور) (١) القرآن، ثم أظهرها البحث العلمي الدقيق بعد ذلك بقرون عديدة.

ومغزى ذلك أنها صادرة من لدن خبير عليم بأحوال الكائنات وليست من كلام البشر، وهذه وتلك هي الغاية الخاصة من المعاني الدقيقة للآيات الكونية.

وفي موضوع (آيات الشهب والحاصب أو الحجارة من سجل المرسل من السماء على شياطين الجن والإنس) يذكر إيضاح المفسرين - كمعانيه في كل موضوع - ومن بينهم رأي الشيخ محمد عبده الذي قدمناه في بداية هذا الفصل ثم يعلق عليها.

وفيما يختص في معنى (الطير الأبابل) في سورة الفيل يضرب صفحاً عن دلالة اللغة وسياق الآية ليأتي برأي جديد خلاصته أن المقصود بالطير؛ الحجارة نفسها لأنها على رأيه - كالطير في الكثرة ولأن هذه الحجارة كانت من السرعة بحيث لا يقوى الطير على إيصالها لأهدافها أي على قذفها بهذه السرعة الهائلة حتى تدمر فيقول:

«وحيث تبين مما تقدم - فيما ساقه من إيضاح - أن حجارة قوم لوط وحجارة أصحاب الفيل شيء واحد فإني أرى الأخذ برأي المفسرين دون رأي الشيخ محمد عبده في أن الحجارة من سجل هي التي أهلك أصحاب الفيل على الصورة التي أوضحوها: لأنها كانت من نوع حجارة قوم لوط ذات القدرة العظيمة على التدمير.

(١) قوله «ظهور القرآن» غير لائق، كان الواجب عليه أن يقول: «نزل القرآن» كما هو الثابت في الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة النبوية.

يبد أنني أخالفهم جميعاً في أن تلك الحجارة رمتها طيور حقيقية، إذ المعقول والمعروف أن الطير مهما كان قوياً فليس له قدرة على قذف حجارة يحملها بحيث يكسبها سرعة سقوط هائلة مدمرة مثل سرعة حصباء قوم لوط. وأن المقصود من الطير في قوله: ﴿طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل﴾ إنما هو نفس الحجارة التي رجم بها أصحاب الفيل لأنها في حركة سقوطها عليهم كانت طيراً في الهواء، إذ الطير في اللغة - كما قال الشيخ محمد عبده في إيضاحه: هو كل ما يطير أو يتقل في الهواء، فالطائرة التي تحمل المسافرين والمقذوف الذي ينطلق في الهواء وماتحمله الرياح ويتقل في الهواء من أجسام كل منها يطلق عليه لفظ الطير، كما يطلق على الطائر الحقيقي.

أما كيف انتشر وباء الجدري والحصبة بين جنود أبرهة أصحاب الفيل بعد رجمهم بالحجارة فتعليله سهل وبسيط، فالحجارة التي رموا بها كانت مدمرة للغاية فمزقت - بطبيعة الحال - جلودهم وهشمت عظامهم وأحدثت فيها جروحاً عميقة وخطيرة، ولم تكن وسائل الإسعاف الطبي السريع للطوارئ متوافرة لدى الجيش على نطاق واسع وكاف بالنسبة لظروفهم، فأدت هذه الحالة السيئة إلى تفشي الأمراض بين الجنود وخاصة الميكروبية المعدية أو الوبائية ومنها وباء الجدري والحصبة.

هذا التأويل الذي ذهب إليه واختاره في تفسير قصة إهلاك أصحاب الفيل يؤخذ عليه المآخذ التي تقدمت عند تفسير الشيخ محمد عبده لهذه القصة. ويضاف إليها مآخذ أخرى في تفسيره الطير بالحجارة:

١- إن فيه صرف اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز والتمثيل من غير سبب يدعو إلى ذلك، إلا إذا كان ممن يستكثرون على قدرة الله تعالى أن تجعل من الطير الضعيف قوة هائلة تستطيع إهلاك من يريد الله إهلاكه، أو ممن يقيسون الأمور بمقاييس العقل، ونحن نعيذه من ذلك.

٢- إن القرآن في جميع الآيات التي ذكر فيها إهلاك قوم لوط - عليه السلام - عبر بالحجارة وبالخاصب فهو يقول: ﴿فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك﴾^(١) ويقول: ﴿فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾^(٢)، ويقول: ﴿لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة عند

(١) سورة هود آية/ ٨٢-٨٣.

(٢) سورة الحجر آية/ ٧٤.

رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ»^(١)، ويقول: «إنا أرسلنا عليهم حاصباً إلا آلَ لوطٍ نجَّيناهم بسَحَرٍ»^(٢).

كما جاء التعبير بالحاصب في قوله تعالى: «فَكَلَّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُمْ مَنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِباً وَمِنْهُمْ... الآية»^(٣).

فلو كان المقصود من الطير هو الحجارة لجاء التعبير القرآني بذلك. أما وقد عبر القرآن بقوله: «وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل» فلا بد أن يكون هذا التعبير مقصوداً في الدلالة على معناه الظاهر منه.

٣- إن كل أحد يفرق بين (وأرسل عليهم حجارة ترميهم بحجارة)، وبين النص القرآني، ذلك أنه أوَّل الطير بالحجارة فإما أن تكون أحد اللفظين تكراراً لامعنى له وإما أن يكون له معنى غير ما يفيد اللفظ الآخر.

٤- لو كان هذا الفهم صحيحاً وأن المراد من الطير هي الحجارة نفسها لقال العرب الذين تحداهم القرآن، وكانوا يتحنون لويجدون أي مغمز فيه وأكثرهم قد سمع بحادثة الفيل إن لم يكن قد شاهدها عياناً، لقالوا: إن القرآن لا يذكر الحقيقة لأنه قال أرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة مع أنه لا وجود للطير، وهذا خلاف الواقع، فالواقع أن العرب قد سمعوا بهذه الحادثة وتناقلوها حتى عدوها من الأحداث العظام التي يؤرخون بها، وقد وجدوا القرآن أخبر عنها كما وقعت وكما شاهدها أو سمعوا بها، ولأدل على ذلك من اختلافهم في شكلها ولونها، وقد وصفها القرآن (بأبابيل) وهي جمع إبالة - بكسر الهمزة وتشديد الباء - الحزمة من الحطب - شبهت جماعة الطير في تضامنها بإبالة الحطب، والمعنى «جماعات من الطير كثيرة»^(٤).

والقرآن لم يذكر نوع الطير ولا وصفه لأن فهم الآية لا يتوقف عليه فكفى أن يكون هلاك هؤلاء المعتدين على أيدي طير، مع أنهم مصحوبون بالفيل، وكم بين الفيل والطير من فروق.

وفي الفصل الثاني من الباب الثاني يعقد المبحث الثالث عن مد الأرض وتمهيدها

(١) سورة الذاريات آية/٣٣-٣٤.

(٢) سورة القمر آية/٣٤.

(٣) سورة العنكبوت آية/٤٠.

(٤) التحرير والتنوير/٣٠/٥٥٠.

وجعل إلقاء الرواسي فيها، فيسوق عدة آيات في هذا الخصوص .
 وبعد أن ساق إيضاح المفسرين لمعنى الألفاظ الواردة في هذه الآيات جاء بالمعنى العام فقال: «قد صارت المعاني العامة للآيات بعد إيضاح ألفاظها واضحة، ولذلك سنكتفي بعرض إيضاح المفسرين لما أولوه منها ويحتاج إلى تعليق عليه، قالوا في قوله: ﴿جعل فيها رواسي﴾ و﴿جعلنا في الأرض من رواسي﴾ و﴿والقينا فيها رواسي﴾ و﴿والقى في الأرض رواسي﴾ أن الرواسي هي الجبال وأن معناها أنه تعالى ثبت الجبال على الأرض لكي تسكن ولا تميل أو تهتز بالناس إذ كان الاعتقاد قديماً أنها ساكنة غير متحركة، وقال المرحوم الشيخ محمد عبده في قوله: ﴿والجبال أوتاد﴾ مامعناه أنه تعالى جعل الجبال لتثبيت الأرض ومنعها من الاهتزاز والاضطراب كما تثبت الخيام بشدها إلى الأوتاد، وأنه لولا الجبال لكانت الأرض دائمة الاضطراب بما في جوفها من المواد الدائمة الجيشان، أي أنه - أي الشيخ محمد عبده - كان يعتقد أن الأرض متحركة من غير اهتزاز أو اضطراب وأن الجبال هي التي تحول بينها وبين الاهتزاز والاضطراب .

وبعد أن علق على ما نقله من أقوال المفسرين، وتحت عنوان المعاني العامة للآيات نجده يفسر الرواسي بأنها عبارة عن أراضي جامدة راسية غير الجبال لكي لا تميل ولا تهتز بالناس عند إقامتهم عليها^(١) .

والذي يؤخذ عليه في هذا التفسير هو:

١- أن القرآن في كل الآيات التي جاء فيها ذكر الرواسي كان تعبيره بحرف الجر (في)^(٢) ، وعلى حسب تفسيره لها باعتبارها جزءاً من الأرض يكون المقام الحرف الجر (من) التي تفيد أو من معانيها التبعية .

٢- كيف يفسر قوله تعالى: ﴿وجعلنا فيها - الأرض - رواسي شامخات﴾^(٣) على اعتبار أن الرواسي هي الأرض الجامدة الراسية غير الجبال، فهذه الآية تصفها بأنها شامخات ومعناها - كما قال الراغب الأصفهاني - عاليات، ومنه شمع بأنفه عبارة عن الكبير، وفي القاموس المحيط: (شمخ الجبل) علا و طال -

- مما يدل على أن المراد بالرواسي في جميع الآيات التي وردت فيها هي الجبال أن

(١) التفسير العلمي للآيات الكونية/ ٣٩٨ .

(٢) كما تقدمت الإشارة إليه أول الكلام عن منهجه

(٣) سورة المرسلات آية/ ٢٧ .

الله تعالى عندما يذكر الجبال كثيراً ما يقرن بها الأنهار، وهذا واضح في الآيات السابقة مما يدل على أن الجبال لها دخل كبير في نزول المطر. ومن المعلومات العامة أن الأنهار مرد منابعها إلى الجبال.

والعلم يقول: إن أهم العوامل الطبيعية لتبريد الهواء الجوي هي الرياح والجبال فالجبال العاليات الشامخات - كما وصفها الحق سبحانه - في تعرضها للرياح الأفقية المنخفضة تجبرها على الصعود إلى أعالي الجو حيث تبرد ويتكاثف بخار الماء فيها إلى سحب، كما أن قمم الجبال العالية التي تكون دائماً مكسوة بطبقة من الجليد تبرد السحاب الذي يمر بها وتعمل على تكثيفه وإنزال الماء منه.

الأستاذ عبد الرزاق نوفل والتفسير العلمي^(١).

الأستاذ عبد الرزاق نوفل أصدر عدة مؤلفات تدور حول التفسير العلمي. وهو يقول في أحد كتبه: «إن البشرية أوجدت في القرآن الكريم أوجه الإعجاز المختلفة البيانية والتشريعية والخلقية والإنسانية، وفي عصر العلم وجد العلماء في آياته الشريفة معجزة علمية ضخمة يكفي لأن ينشر بها الإسلام في أوساط العلم والعلماء، وفي كل مكان لا يعرف أهله لغة القرآن.

ويقول: «إن الله تعالى قد أمده بفيض منه فأصدر عدة مؤلفات في هذه الناحية كان منها (القرآن والعلم الحديث) الذي ضمنه بعض آيات القرآن الكريم العلمية، وأوجه الإعجاز فيها. ولما توصل العلم إلى حقائق مثيرة في قطاعاته المختلفة، ووجد أن آيات القرآن الكريم قد سبقت كذلك إلى هذه الحقائق فرأى أن يعرضها على قرائه الذين يلتبس منهم أن يروا أن هذه المحاولات إن أصاب فيها فمن فضل الله وإن لم يصب فلإنما هو خطأ منه، والآية الشريفة أبعد وأقدس من أن ينالها الخطأ.

وقد أحسن في افتراض الخطأ والصواب فيما فسر به الآيات الكونية القرآنية وفي قوله: إن كان قد أخطأ فالخطأ منه، وأما الآية الشريفة فهي أبعد وأقدس من أن ينالها

(١) عبد الرزاق نوفل كاتب مصري معاصر وعالم جامعي، ألف كثيراً من الكتب التي تعالج قضية الإعجاز العلمي في القرآن وتبين أن الإسلام دين العلم والمعرفة، وتلمس الحكمة في أحكام الإسلام وفرائضه. تخرج في كلية الزراعة بعد أن درس العلوم المختلفة فيها من نبات وحيوان وحشرات وتشريح، ويقول إنه بقي ستة عشر عاماً بعد تخرجه يعيد قراءة مآدرسه ويتابع ما وصل إليه العلم من تقدم يقضي على كل شبهة يركن إليها الملحد أو المتشكك. (انظر كتابه الله والعلم الحديث - المقدمة).

الخطأ.

وقد ألف كتابه (الله والعلم الحديث) الذي عقد فيه فصلاً للإعجاز العلمي في القرآن) عالج فيه ربط بعض الآيات القرآنية بالعلوم الحديثة.

ثم أتبع كتابه السابق بكتاب (الإسلام والعلم الحديث) لفائدة المسلمين وغيرهم ممن يودون أن يعرفوا حقائق هذا الدين.

كما ألف كتاباً بعنوان (بين الدين والعلم) يثبت فيه أنه لا تعارض ولا جفوة بين الدين والعلم إطلاقاً.

وفي كتابه (القرآن والعلم الحديث) ينطلق عبد الرزاق نوفل من فكرة أساسية عند القائلين بالتفسير العلمي وهي صلاحية القرآن لكل زمان ومكان لأن فيه إشارات إلى كل مستحدث من العلوم.

ويرى عبد الرزاق نوفل أن القرآن معجزة علمية قد حوى أصول العلم الحديث وسبق إلى كل مستحدث من العلوم، وأن هذا الوجه من الإعجاز كان لإقناع غير العرب بمعجزة القرآن، وأنه السبيل إلى تبليغ الدعوة الإسلامية لغير الناطقين بالضاد.

ويقول: إن اليوم الذي ننشر فيه على العالم بلغاته المختلفة ما قد سبق القرآن إلى القول به وأثبت التقدم العلمي في مختلف العلوم لهو اليوم الذي نكون فيه قد أدينا الرسالة وأبلغنا الدعوة وأظهرنا معجزة القرآن لغير العرب^(١).

كما نراه يدافع عن اتجاهه في تفسير بعض آيات القرآن الكريم علمياً فيقول في كتابه (بين الدين والعلم): «وقد يكون لبعض المعترضين الحق إذا كان ما ندعو إليه هو التفسير بنظريات علمية، ولكن لم يتجه أي إنسان مخلص في دعوته إلى النظريات العلمية بل إلى الحقيقة العلمية. والفارق بين النظرية العلمية والحقيقة العلمية كبير وكبير جداً، إذ أن النظرية العلمية هي ما لم يقم الدليل على صحتها بدرجة تجعلها حقيقة غير قابلة للتطور أو التغيير أو التبديل».

ثم ضرب للفرق بين النظرية والحقيقة العلمية مثلاً فقال:

كان من المعروف أولاً أن الأرض منبسطة بدليل أن الإنسان إذا نظر أمامه يراها هكذا منبسطة، ولم تكن هذه حقيقة علمية ولم ترتفع إلى درجتها، بل عندما رأى العلماء أنه عند رصد السفن في البحار فإن أول ما يرى منها أعلاها قالوا بنظرية كروية الأرض،

(١) القرآن والعلم الحديث/ ٣٠ / ط ٢.

ولم تقرر كروية الأرض كحقيقة إلا بعد أن أضيف إلى هذا الدليل أدلة متعددة وضعت موضع الاختبار القياسي فقيست أبعادها وأخذت أقطارها وصورت من خارجها فإذا بها كروية، وعندئذ أصبحت كروية الأرض حقيقة، فهل من خوف الآن من أن نجد الأرض غير ذلك.

فإذا فسرنا الآيات الشريفة الواردة في القرآن والتي تشير إلى كروية الأرض قبل أن يصل العلم إلى ذلك بعشرات المئات من السنين أ يكون هناك من خوف على هذه الآيات ونكون قد عرضناها لنظريات متغيرة؟!

ثم هذه الأوجه في هذه الآية الواحدة والتي وصل المفسرون إلى ما يقرب من عشرة أوجه فيها ماضٍ لو زادت وجهاً علمياً مؤكداً؟!

ثم هل إذا ظهر العلم بعد ذلك بحقيقة أخرى تغاير مافسرت به الآية، هل يمكن أن يقول قائل: إن الخطأ في الآية؟ أم ترى سيقول الناس: لقد أخطأ المفسر. كما أن مما قد يثيره الخصوم الشك في تفسير كل آية في موضع من القرآن تفسيراً يغاير تفسير آية مماثلة في سورة أخرى لاسيما الآيات العلمية أو التشريعية.

إن إعجاز القرآن ليظهر بوضوح أكثر إذا مادرت آيات الموضوع الواحد وربطت بعضها ببعض وفسر بعضها بعضاً، وثم التعليق عليها بما أوضحه العلم، وهكذا فإنه لاتعارض بين العلم والدين إطلاقاً^(١).

ويلوم عبد الرزاق نوفل من فسر بعض الآيات تفسيراً علمياً لايتفق مع سياق الآية مثل تفسير الآيات ﴿والفجرِ وليلِ عشرِ والشَّعِ والوثرِ والليلِ إذا يسرُ هل في ذلك قسَمٌ للذي حجرُ﴾^(٢)، ومحاولة الربط بينها وبين تحنيط الفراعنة لأجسادهم حيث كا يتم ذلك في الفجر بعد عشر ليال، وكذلك تفسير الآيات ﴿والتينِ والزيتونِ وطورِ سينينِ وهذا البلدِ الأمين﴾^(٣)، بادعاء أن هذه الآيات تشير إلى (بوزا) حيث بات ليلة تحت شجرة من فصيلة التين، والزيتون إشارة إلى رسالة عيسى وطوررسينين إشارة إلى رسالة موسى، وهذا البلد الأمين رمز النبوة المحمدية.

والمعروف أن بوزا يقرر أنه لم يرسل من السماء ولانزل عليه وحي أو كتاب، كما

(١) بين الدين والعلم / ١٤٤-١٤٦ ط ١/.

(٢) سورة الفجر آية / ٥-١.

(٣) سورة التين آية / ٣-١.

أنه لا يقول بالآخرة، فكيف يربط البعض بينه وبين باقي المرسلين؟

كما يرى أن من الأسباب التي قد يتخذها الخصوم - يقصد المعارضين للتفسير العلمي - سبيلاً إلى إشاعة معارضة العلم للإسلام المحاولات الفردية لتفسير القرآن بأكمله ويقول: إن هذا من أخطر ما يمكن على التفسير، إذ لا يمكن للفرد مهما كانت طاقته ودرجة علمه القيام بتفسير آيات القرآن كلها، فكيف يعلم الإنسان متفرداً بكل ماتضمنه القرآن الكريم من علوم وإعجاز إماماً يجعله على درجة من العلم تمكنه من القيام بهذا العمل الضخم الجليل الخطير^(١) ١٩

التفسير العلمي للقرآن بثوابت العلوم:

بعد هذه الجولة مع التفسير العلمي بين المنهج القديم والمنهج الحديث نأتي لاستخلاص الحقيقة الراسخة التي أتى بها القرآن العظيم، ألا وهي: قول الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ ١١ [سورة فصلت آية ٥٢].

وعلى هذا فإن الحقائق القرآنية لا يتوصل إليها الإنسان إلا بعد سبر العلوم الموصلة إليها، وهذا يحتاج إلى دأب متواصل وتحصيل مستمر للوقوف على حقائق العلوم وثوابتها، وعندها يستطيع الباحث أن يكشف جوانب مما في آيات الله تعالى في القرآن العظيم، لاجمعيها، فإن هذا العلم سيقى أبد الدهر وراء آيات الله تعالى لا يعلمها ولا يتقدم عليها، ولا ينتهي من بيانها، وهذه المكشفات الحديثة ماهي إلا غيض من فيض لا ينضب معينة أبداً، ولهذا لا يجوز للباحث المُسارعةُ إلى الخوض في التفسير العلمي إلا بعد استيفاء شروطه والتقيد بقواعده وأصوله وضوابطه..^(٢)

وإن أهم شروطه وقواعده مايلي:

- ١- أن يكون التفسير العلمي للآيات الكونية مطابقاً لمعنى النظم القرآني.
- ٢- أن لا يخرج عن حدّ البيان إلى عرض النظريات العلمية المتضاربة.
- ٣- أن يتحقق الباحث من ثبوت القضايا العلمية التي يُفسّر بها معاني الآيات الكونية.

(١) التفسير العلمي في الميزان: أحمد عمر أبو حجر/ ٢١٠/ ط دار قتيبة دمشق.

(٢) انظر «أصول التفسير وقواعده» للمؤلف/ ط دار النفائس / ص ٢١٧-٢٢٤.

- ٤- أن لا يحمل الآيات حملاً على النظريات العلمية.
 - ٥- أن يلتزم بالمعاني اللغوية للآيات، لأن القرآن عربي مبين.
 - ٦- تجريد البحث عن جميع الاحتمالات المظنونة، فلا تفسير إلا بما هو ثابت.
 - ٧- جعل الآيات الكونية أصلاً في البحث لاتبعاً له.
- فيجب الالتزام بهذه الشروط والتقيد بهذه القواعد حتى يكون المنهج سليماً والتفسير صحيحاً.

نماذج من التفسير العلمي:

إن القرآن الكريم قد ساق الأدلة الكثيرة التي تثبت وجود الله تعالى، وترينا آثار رحمته بنا وتدبيره في الكائنات. وقد أكثر من الآيات الكونية القرآنية وساقها في أساليب مختلفة وألوان شتى من البيان، يفصل تارة ويجمع أخرى، ولكل مقام مقال. وفي هذه الآية يخص القرآن بالذكر الأرض التي نعيش فوقها والنفس التي تعبر عن الذات.

الأرض هذا الكوكب المعد للحياة المجهز لاستقبالها وحضانتها بكل خصائصه، ولواختلفت خصيصة واحدة من تلك الخصائص الكثيرة جداً لتعذر وجود هذا النوع من الحياة عليها. لو تغير حجمها صغراً أو كبراً، لو تغير ميل الأرض عن محورها هنا أو هنا، لو تغيرت حركتها حول نفسها أو حول الشمس سرعة أو بطئاً، لو تغير حجم القمر أو بُعْدُهُ عنها. لو تغيرت نسبة الماء واليابس فيها زيادة أو نقصاً، لو... لو الخ الموافقات المعروفة والمجهولة التي تتحكم في صلاحيتها لاستقبال هذا النوع من الحياة^(١). والتي لا يمكن أن تتم مصادفة وأن تتناسق كلها هذا التناسق. لو تغير شيء من هذا أدنى أدنى تغيير لما كانت الأرض صالحة للحياة.

يقول (فرانك ألن) العالم الطبيعي في مقال نشأة العالم هل هو مصادفة أو قصد من كتاب (الله يتجلى في عصر العلم)^(٢) عندما يتحدث عن الأرض وعن نشأة الحياة فيها، يقول:

«إن ملائمة الأرض للحياة تتخذ صوراً عديدة لا يمكن تفسيرها على أساس المصادفات أو العشوائية، فالأرض كرة معلقة في الفضاء تدور حول نفسها فيكون في

(١) في ظلال القرآن: ج ٢٧/ ٣٣٧٨. ط دار الشروق.

(٢) ص ٥/ ٣ ط.

ذلك تتابع الليل والنهار، وهي تسبح حول الشمس مرة في كل عام، فيكون في ذلك تتابع الفصول الذي يؤدي بدوره إلى زيادة المساحة للجزء الصالح للسكنى من سطح كوكبنا، ويزيد من اختلاف الأنواع النباتية أكثر مما لو كانت ساكنة.

ويحيط بالأرض غلاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ويمتد حولها إلى ارتفاع كبير (يزيد على ٥٠٠ ميل). ويبلغ هذا الغلاف الغازي من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة يوماً إلينا منقضةً بسرعة ثلاثين ميلاً في الثانية، والغلاف الجوي المحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات حيث يمكن أن يتكاثف مطراً يحيي الأرض بعد موتها. والمطر مصدر الماء العذب، ولولاه لأصبحت الأرض صحراء جرداء خالية من كل أثر للحياة. ومن هنا نرى أن الجو والمحيطات الموجودة على سطح الأرض تمثل عجلة التوازن في الطبيعة، ولو أن الأرض كانت صغيرة كالقمر أو أن قطرها كان ربع قطرها الحالي لعجزت عن احتفاظها بالغلافين: الجوي والمائي اللذين يحيطان بها، ولصارت درجة الحرارة فيها بالغة حد الموت.

أما لو كان قطرها ضعف قطرها الحالي لتضاعفت مساحة سطحها أربعة أضعاف، وأصبحت جاذبيتها للأجسام ضعف ما هي عليه، وانخفض تبعاً لذلك ارتفاع غلافها الهوائي، وزاد الضغط الجوي من كيلو جرام واحد إلى كيلوجرامين على السنتيمتر المربع. ويؤثر كل ذلك أبلغ الأثر في الحياة على سطح الأرض، فتتسع مساحة المناطق الباردة اتساعاً كبيراً، وتنقص مساحة الأراضي الصالحة للسكنى نقصاً ذريعاً.

ولو كانت الأرض في حجم الشمس مع احتفاظها بكثافتها لتضاعفت جاذبيتها للأجسام التي عليها (١٥٠) ضعفاً، ولتنقص ارتفاع الغلاف الجوي إلى أربعة أميال ولأصبح تبخر الماء مستحيلاً ولا ترتفع الضغط الجوي إلى ما يزيد على (١٥٠) كيلوجراماً على السنتيمتر المربع ولوصل وزن الحيوان الذي يزن حالياً رطلاً واحداً إلى ١٥٠ رطلاً، ولتضائل جسم الإنسان حتى صار في حجم ابن عرس، ولتعذرت الحياة الفكرية لمثل هذه المخلوقات.

ولو أزيلت الأرض إلى ضعف بعدها الحالي عن الشمس لنعقت كمية الحرارة التي تتلقاها من الشمس إلى ربع كميتها الحالية وقطعت الأرض دورتها حول الشمس في وقت أطول، وتضاعف تبعاً لذلك طول فصل الشتاء وتجمدت الكائنات الحية على سطح الأرض.

ولو نقصت المسافة بين الأرض والشمس إلى نصف ما هي عليه الآن لبلغت الحرارة

التي تتلقاها الأرض أربعة أمثال، وتضاعفت سرعتها المدارية حول الشمس ولآلت الفصول إلى نصف طولها الحالي إذا كانت هناك فصول مطلقاً ولصارت الحياة على سطح الأرض غير ممكنة.

وعلى ذلك فإن الأرض بحجمها وبَعْدِهَا الحاليين عن الشمس وسرعتها في مدارها يهيء للإنسان أسباب الحياة والاستمتاع بها في صورها المادية والفكرية والروحية على النحو الذي نشاهده اليوم في حياتنا^(١).
هذا ما قاله العلم.

وصدق الله في قوله: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾^(٢) قدر حجمه وشكله وقدر وظيفته وعمله، وقدر زمانه ومكانه، وقدر تناسقه مع غيره من أفراد هذا الوجود الكبير. وإن تركيب هذا الكون وتركيب كل شيء فيه مما يدعو إلى الدهشة حقاً وينفي فكرة المصادفة نفيّاً باتاً ويظهر التقدير الدقيق الذي يعجز البشر عن تتبع مظاهره في جانب واحد من جوانب هذا الكون الكبير. وكلما تقدم العلم البشري فكشف عن بعض جوانب التناسق العجيب في قوانين الكون ونسبه ومفرداته اتسع تصور البشر لمعنى ذلك النص القرآني ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾.

«وربما كان المخاطبون إذ ذاك غير مدركين كل هذه العجائب المتعلقة بالأرض ولكنهم كانوا يرون أن الأرض التي خلقها الله لتكون مستقراً ومستودعاً لهم صالحة للحياة على وجه الإجمال، وهذا يكفي. ثم يبقى النص القرآني بعد ذلك مفتوحاً للأجيال، وكلما اتسع نطاق علم البشر أدركوا شيئاً من معناه المتجدد على توالي الأجيال. وتلك معجزة القرآن في خطابه لجميع العقول على توالي الأزمان^(٣).
﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾!؟

لقد أطل القرآن الحديث عن الإنسان في أصل وجوده وفي تطور خلقه في بطن أمه وفي خصائصه وتميزه عن سائر المخلوقات بالإجمال تارة وبالتفصيل تارة أخرى. ومما جاء في القرآن من الاحتجاج على وجود الله وقدرته وتدبيره وحكمته لخلق الإنسان، هذه الآية التي قرنت بين الأرض وبين النفس الإنسانية.

وقال فخر الدين الرازي: «سبحان من أسمع بعظم وبصر بشحم وأنطق بلحم،

(١) الله يتجلى في عصر العلم ص ٩٦/ ط ٣.

(٢) سورة الفرقان آية ٢.

(٣) في ظلال القرآن ج ٢٠/ ٢٦٥٧.

واعلم أن كتاب التشريح لبدن الإنسان مشهور، وكل ذلك يدل على تربية الله تعالى للعبد^(١).

أما بواطن عجائب الإنسان فتعرف فيما وصل إليه الطب الحديث من دقائق الخلق في كل عضو من أعضائه بل في كل خلية من خلاياه، ويعرف كثير من الناس اليوم كيف تفرعت علوم الطب والنفس إلى عشرات من الفروع لتبحث في تحليل وظائف الأعضاء وما يعترئها من الأمراض وما هي في حاجة إليه من العلاج للشفاء.

إن الإنسان عجيب في تكوينه الجسماني، وحيثما وقف الإنسان يتأمل عجائب نفسه التقى بأسرار تدهش وتُحير، تكوين أعضائه وتوزيعها، وظائفها وطريقة أدائها لهذه الوظائف عملية الهضم العجيبة والامتصاص. عملية التنفس والاحتراق دورة الدم في القلب والعروق. الجهاز العصبي وتركيبه وإدارته للجسم الغدد وإفرازها وعلاقتها بنمو الجسم ونشاطه وانتظامه، تناسق هذه الأجهزة كلها وتعاونها وتجاوبها الكامل الدقيق.

وكل عجيبة من هذه تنطوي تحتها عجائب، وفي كل عضو وكل جزء من عضو خارقة تحير الألباب.

وللعلم الحديث محاولات في معرفة شيء عن نعمتي البصر والسمع، نذكر منها مايلي: تبدأ حاسة السمع بالأذن الخارجية ولا يعلم إلا الله تعالى أين تنتهي، ويقول العلم: إن الاهتزاز الذي يحدثه الصوت في الهواء ينقل إلى الأذن التي تنظم دخوله ليقع على طبلة الأذن، وهذه تنقلها إلى التيه داخل الأذن. والتيه يشتمل على نوع من الأقنية بين لولبية ونصف مستديرة. وفي القسم اللولبي وحده أربعة آلاف قوس صغيرة متصلة بعصب السمع في الرأس. فمما طول القوس منها وما حجمه؟ وكيف ركبته هذه الأقواس التي تبلغ عدة آلاف؟ وما الحيز الذي وضعت فيه؟ ناهيك عن العظام الأخرى الدقيقة المتماوجة. هذا كله في التيه الذي لا يكاد يُرى.

وفي الأذن مائة ألف خلية سمعية وتنتهي الأعصاب بأهداب دقيقة دقة وعظمة تُحير الألباب. ومركز حاسة الإبصار العين التي تحتوي على مائة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء، وهي أطراف أعصاب الإبصار. وتتكون العين من الصلبة والقرنية والمشيمة والشبكية، وذلك بخلاف العدد الهائل من الأعصاب والأوعية. وتتكون الشبكية من تسع طبقات منفصلة، والطبقة التي في أقصى الداخل تتكون من أعواد ومخروطات، وقد نظمت كلها في تناسب محكم.

(١) مفاتيح الغيب ج ١/ ١٢٥.

ويقوم بحمايتها الجفن ذو الأهداب الذي يقيها ليلاً ونهاراً والذي تعتبر حركته حركة لاإرادية، والذي يمنع عنها الأتربة والذرات والأجسام الغريبة، كما يكسر من حدة الشمس بما تلقي الأهداب على العين من ظلال.

وحركة الجفن علاوة على هذه الوقاية تمنع جفاف العين. أما السائل المحيط بالعين والذي يعرف باسم الدموع فهو أقوى مطهر، كما أنه يجعل حركة العين سهلة ميسورة وبدونه تصاب العين بما يمنعها عن الإبصار والحركة.

ويكفي أن تعلم أن صورة الشيء المنظور تطبع معكوسة على الشبكية، وينقل العصب البصري هذه الصورة المعكوسة الشكل إلى المخ فيعيد المخ إلى العين وقد عكسها مرة أخرى أي عدلها، فيراها الناظر معدولة وغير معكوسة^(١).

ويقول كريسي موريسون^(٢) عن عملية الهضم والجهاز الهضمي:

إذا نظرنا إلى الهضم على أنه عملية في معمل كيميائي أدركنا أنه عملية عجيبة حقاً، إذ تهضم كل شيء يؤكل ماعدا المعدة نفسها.

فنحن نأكل شرائح اللحم والخبز والخضر والبقول وغيرها ثم نشرب الماء وغيره فتختار المعدة من بين هذا الخليط الأشياء ذات الفائدة وذلك بتحطيم كل صنف من الطعام إلى أجزائه الكيميائية دون مراعاة للفضلات، وتعيد تكوين الباقي إلى بروتينات جديدة تصبح غذاء خفيفاً لمختلف الخلايا. وتختار أداة الهضم الجير والكبريت واليود والحديد وكل المواد الأخرى الضرورية، وتعنى بعدم ضياع الأجزاء الجوهرية، وبإمكان إنتاج الهرمونات وبأن تكون الحاجات الحيوية للحياة حاضرة في مقادير منتظمة ومستعدة لمواجهة كل ضرورة وهي تخزين الدهن والمواد الاحتياطية الأخرى للقاء كل حالة طارئة مثل الجوع، وتفعل ذلك كله بالرغم من تفكير الإنسان أو تعليله.

وحين تتحلل هذه الأطعمة وتجهز من جديد تقدم باستمرار إلى كل خلية من ملايين الخلايا. ويجب أن يكون التوريد إلى كل خلية فردية مستمراً ولا يورد سوى تلك المواد التي تحتاج إليها تلك الخلية المعينة لتحويلها إلى عظام وأظافر ودم ولحم وشعر وعينين وأسنان، كما تتلقاها الخلية المختصة.

فها هنا معمل كيميائي ينتج من المواد أكثر مما ينتجه أي معمل ابتكره ذكاء الإنسان،

(١) الله والعلم الحديث: عبد الرزاق نوفل/٤٦-٥٠/.

(٢) العلم يدعو للإيمان ص ٥/ ترجمة محمود صالح الفلكي.

وهاهنا نظام للتوريد أعظم من أي نظام للنقل والتوزيع عرفه العالم ويتم فيه كل شيء بمتهى النظام.

وفي حالة العدوى بجراثيم معادية يحتفظ الجسم بجيش قائم على قدم الاستعداد باستمرار ليلاقى الغزاة، وهو يتغلب عليها عادة.

ومثل هذه المجموعة من المعجزات لا يوجد ولا يمكن أن يحدث بأي حال في غيبة الحياة، وكل ذلك يتم في نظام كامل «أليس ذلك كله من صنع الخالق؟!»^(١).

لقد منح الله الإنسان القدرة على فهم أسرار الكون ولكن ذلك شغله عن الوصول إلى معرفة أسرار ذاته، تلك النفس التي وضعها القرآن الكريم في كفة الكون كله بمافيه من عوالم «سريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق»^(٢).

وإذا نجح الإنسان في اكتشاف الكون من حوله فإنه عاجز عن اكتشاف النفس بمافيه من أبعاد ويمالها من قوى دافعة واتجاهات في دروب الحياة المختلفة، وفي الاحتجاج بأصل خلق الإنسان يقرر الإنسان هذه الحقيقة ليتخذها مجالاً للتدبر في صنع الله ولتأمل النقلة البعيدة بين الطين وهذا الإنسان. لقد نشأ الجنس الإنساني من سلالة من طين «وبدأ خلق الإنسان من طين»^(٣)، فأما نشأة الفرد الإنساني بعد ذلك فتمضي في طريق آخر «ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين»^(٤).

وهنا يقف الإنسان مدهوشاً أمام ماكشف عنه القرآن من حقيقة في تكوين الجنين لم تعرف على وجه الدقة إلا بعد تقدم علم الأجنة فتبارك الله أحسن الخالقين.

وكما استدل القرآن بالإنسان من حيث نشأته وتكوينه بالأرض على وحدانيته سبحانه وقدرته على البعث وإبداعه في الخلق. استدل بالسموات وقرنها في كثير من الآيات بالأرض في مثل قوله تعالى: «إِنَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لَآيَاتٍ لِلْمُؤْمِنِينَ»^(٥) وقوله تعالى: «قُلْ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»^(٦). وآيات السماء كثيرة ومتنوعة بعضها تدرك بأدنى تأمل وبعضها يدركه المتخصصون من أولي العلم في هذا الشأن.

(١) العلم يدعو للإيمان ص ١٥٣.

(٢) سورة فصلت آية/٥٢.

(٣) سورة السجدة آية/٦.

(٤) سورة السجدة آية/٧.

(٥) سورة الجاثية آية/٢.

(٦) سورة يونس آية/١٠١.

ففي كيفية بنائها آية، وفي رفعها بلا عمد مرئية لنا آية، وفي تزيين الكواكب لها آية، وفي عدم تصادم هذه الكواكب بعضها مع بعض آية، وفي جعلها سقفاً محفوظاً من الوقوع آية، «وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون»^(١).

ولاشك أن الذي يعرف شيئاً عن طبيعة هذه الكواكب ونظامها كما كشف العلم الحديث عن جوانب منها تدركه الدهشة والذهول.

وصدق الله العظيم في قوله: «ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور. ثم أرجع البصر ينقلب إليك البصر خاسئاً وهو حسير»^(٢).

كما تعرض القرآن لبعض خواص النبات ولفت نظر الإنسان إلى بعض تصاريف القدرة الإلهية في عالم النبات الذي لا يمكن أن يصدر إلا عن قدرة واسعة وعلم تام وحكمة بالغة.

فقد أمر الله الإنسان أن ينظر إلى طعامه والمراحل التي يمر بها حتى يصل إليه فقال: «فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صبينا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقاً فأنبثنا فيه حباً وعنباً وقصباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلبا وفاكهة وأبا متاعاً لكم ولأنعامكم»^(٣).

إن الله تعالى صب الماء من السماء صباً، ثم شق النبات بجذر الأرض شقاً، ومع أن باطن الأرض قد يكون صلباً لا تنفذ فيه الأشياء القوية فضلاً عن الضعيفة لكن جذور الشجر والنبات - مع أنها في غاية الدقة واللطافة - تأخذ طريقها فيه وتغوص لتأخذ ما تحتاج إليه من غذاء فيصير النبات أشكالاً مختلفة وألواناً متعددة بعضه صالح لطعام الإنسان، وبعضه صالح لطعام الحيوان «متاعاً لكم ولأنعامكم».

إن خروج النبات من الأرض كان ينظر إليه الناس على أنه أمر عادي وطبيعي، حتى كشف العلم عن بعض خصائص الخلايا التي تحتويها كل بذرة من البذور مهما دقت. ولكن العلم وقف عاجزاً أمام القوة الكامنة التي تجعل الخلايا الحية في البذور تقوم بتلك الوظائف المعقدة من إنبات جذور النبات وسوقه، وما يتبع ذلك من فروع وأوراق وثمار.

(١) سورة الأنبياء آية/٣٢

(٢) سورة الملك آية/٤٣.

(٣) سورة عبس الآيات ٢٤/٣٢.

لقد نجح العلم في اكتشاف ما يسمى بالتمثيل الكلوروفلي، وبأن الجذر يمتص ما يحتاج إليه من غذاء من تربة الأرض.

ولكن لماذا تمتص بذرة الحنظل مثلاً العناصر الشديدة المرارة وتمتص بذرة البطيخ - رغم التشابه الكبير بينهما- العناصر الحلوة.

لم ينجح واحد من العلماء في ذكر سبب علمي معقول حتى قال العالم الألماني (تشارلز أرتست) (وكيل الأكاديمية العلمية في أنديانا):

«إن كل خلية حية من الخلايا الموجودة في البذور أوفي النباتات بلغت من التعقيد درجة من المستحيل على العقل البشري حل طلاسمها. وأنا لأملك إلا القول إن ذلك يرجع إلى قدرة هائلة في تكوينها، وهي قدرة خالق هذا الكون». وقال عالم آخر وهو (جون زمرمان) - ويعمل استاذاً للزراعة في كلية (جوشن):

«إننا نخدع أنفسنا إذا اعتقدنا أن النظريات العلمية التي لدينا تكفي لإنبات البذور وإنماء النبات، نحن نقول إنَّ الماء والهواء والمواد الكيميائية التي تمتصها الجذور من الأرض هي التي تنبت النباتات، ولكن ذلك كله هراء، إذا لم نؤمن بوجود قوة قادرة هي التي توجه التفاعلات الكثيرة المتشابكة التي تعمل في توافق عجيب. والدليل القاطع على ذلك أننا على الرغم مما ندعيه من تقدم العلوم لا يمكننا صنع أي بذرة من البذور مهما بلغ صغر شأنها»^(١).

وبهذه الطريقة ويتبع الآيات الكونية القرآنية التي تتعلق بالإنسان أو الحيوان أو السموات والأرض وغيرها، بهذا الأسلوب الذي يعتمد على التحليل العلمي المبين للخصائص والمميزات واستخلاص الدلائل من كل ذلك على وجود الله وقدرته وإبداعه، هذه الطريقة المثلى للاستفادة من مقررات العلم وحقائقه في تعميق نصوص القرآن الكريم دون ربطه بالعلم في فروضه ونظرياته.

وقال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَأً خَالِصاً سَائِغاً لِلشَّارِبِينَ﴾^(٢).

إن هذه الآية من الآيات التي تستدعي تأملاً دقيقاً لمعرفة حكمة الخلق والتدبير الإلهي العظيم، وفيها عبرة وآية دالة على وحدانية الله وقدرته وحكمته في خلقه.

(١) القرآن والقصة الحديثة: محمد كامل حسين ص/ ٧٣ / ط ١.

(٢) سورة النحل آية/ ٦٦ .

وقد كتب الأستاذ أحمد كامل ضو تعليقاَ عليها في كتابه (القرآن والعلوم الحديث) يقول: إن الجهاز الهضمي يقوم بهضم الغذاء وامتصاص الصالح منه، وهذا الجزء الصالح منه يذهب إلى الدم فيختلط به، وباستمرار دخوله في القلب وخروجه منه ثم مروره في أجزاء الجسم المختلفة يغذي ما يحتاج منها إلى غذاء، فالغذاء إذا تحول جزء منه إلى دم وجزء إلى (فرث) فالدم يسير في أوعية وهي الشرايين والأوردة المنتشرة في جميع أجزاء الجسم صغيرها وكبيرها حاملاً المواد الغذائية الذاهبة إليه من القناة الهضمية ليوزعها في أنحاء الجسم لبناء الأنسجة وتعويض المستهلك أثناء تأدية الوظائف الحيوية، وهو يغذي الغدد التي منها الغدد اللبنية (ضرع الحيوان) المنوط بها إفراز اللبن.

فالغذاء يتحول جزء منه إلى دم، وهذا الدم يذهب إلى ضرع الحيوان حيث يغذي الغدد اللبنية بما يحمله من مواد مهضومة فتتمكن من القيام بوظيفتها وهي إفراز اللبن أو بعبارة أوضح تحول هذا الجزء من الدم إلى لبن.

أما الجزء الآخر فإنه يتحول إلى براز غير صالح وهو الفرث فإنه تعالى سيطر بقدرته على الطعام فشطره شطرين هما الدم والفرث وأخرج من بينهما اللبن خالصاً من كل شائبة تشوبه من أثر الطعام المهضوم ورائحته، صافياً من كل المواد التي كانت في الدم ناصع البياض طاهراً، وذلك بعملية الغدد اللبنية التي خلقها سبحانه كمعمل كيميائي يتحول الدم فيه إلى لبن، ثم يصفى بأدق مصفاة وأنظف أداة حتى يخرجته تعالى «لبناً خالصاً سائغاً للشاربين» لاتشوبه شائبة من لون الدم ولا من قذارة الفرث ورائحته. ولواجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا من الدم الأحمر القاني لبناً أبيض خالصاً، له طعم ورائحة وقوام وتركيب يخالف الدم الذي نشأ منه نتيجة واتفق معه أصلاً، أو حتى يجعلوه صافياً كما خلقه الله - جلّت قدرته - لأخفقوا ولما استطاعوا.

وقد جعله الله تعالى سائغاً للشاربين سهل المرور في حلقهم حلو الطعم في أفواههم وأوجد فيه ذلك اليسر لما فيه من فوائد جمّة تعود على مخلوقاته إنسية وحيوانية. واللبن يتكون من الماء والدهن والسكر والزلال والأملاح والفيتامينات، فهو يحتوي على جميع العناصر الغذائية التي يحتاج إليها الإنسان والحيوان، ويعتبر بحق أهم الأغذية على الإطلاق^(١).

ومما جاء في تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور حول هذه الآية

(١) القرآن الكريم والعلم الحديث/٥٦-٦٠ ط ٢.

قوله: وجه العبرة في ذلك أن ماتحتويه بطون الأنعام من العلف والمرعى ينقلب بالهضم في المعدة ثم الكبد ثم غدود الضرع مائعاً يسقى وهو مفرز من بين إفراز فرث ودم. والفرث: الفضلات التي تركها الهضم المعدي فتتحد إلى الأمعاء فتصير فرثاً. والدم: إفراز تفرزه الكبد من الغذاء المنحدر إليها، ويصعد إلى القلب فتدفعه حركة القلب الميكانيكية إلى الشرايين والعروق ويبقى يدور كذلك بواسطة القلب.

ومعنى كون اللبن من بين الفرث والدم أنه إفراز حاصل في حين إفراز الدم وإفراز الفرث، وعلاقته بالفرث أن الدم الذي ينحدر في عروق الضرع يمر بجوار الفضلات البولية والثفلية، تفرزه غدود الضرع لبناً، كما تفرزه غدود الكليتين بولاً بدون معالجة زائدة، وكما تفرز تكاميش الأمعاء ثفلًا بدون معالجة، بخلاف إفراز غدود المثانة للمني لتوقفه على معالجة ينحدر بها الدم إليها. وليس المراد أن اللبن يتميخ من بين طبقتي فرث ودم وإنما الذي أوهم ذلك من توهمه حملة (بين) على حقيقتها من ظرف المكان، وإنما هي تستعمل كثيراً في المكان المجازي فيراد بها الوسط بين مرتبتين كقولهم: الشجاعة صفة بين التهور والجبن، فمن بلاغة القرآن هذا التعبير القريب للأفهام لكل طبقة من الناس بحسب مبالغ علمهم، مع كونه موافقاً للحقيقة.

والمعنى: إفراز ليس هو بدم لأنه ألبن من الدم، ولأنه غير باق في عروق الضرع كباقي الدم في العروق فهو شبيه بالفضلات في لزوم إفرازه، وليس هو بالفضلة لأنه إفراز طاهر نافع مغذ، وليس قدرًا ضارًا غير صالح للتغذية كالبول والثفل.

وموقع ﴿من بين فرثٍ ودمٍ﴾ موقع الصفة للبن، قدمت عليه للاهتمام بها لأنها موضع العبرة فكان لها مزيد اهتمام، وقد صارت بالتقديم حالاً.

ولما كان اللبن يحصل في الضرع لافي البطن جعل مفعولاً لفعل (نسقيكم) وجعل ﴿مما في بطونه﴾ تبييناً لمصدره لالمورد، فليس اللبن مما في البطون، ولذلك كان ﴿مما في بطونه﴾ متقدماً في الذكر ليظهر تعلقه بفعل نسقيكم وليس وصفاً للبن. وقد أحاط بالأوصاف التي ذكرناها للبن قوله تعالى ﴿خالصاً سائغاً للشاربين﴾ فخلوصه: نزاهته مما اشتمل عليه البول والثفل، وسوغه للشاربين: سلامته مما يشتمل عليه الدم من المضار لمن شربه، فلذلك لا يسيغه الشارب ويتجهمه. وهذا الوصف العجيب من معجزات القرآن العلمية، إذ هو وصف لم يكن لأحد من العرب يومئذ أن يعرف دقائق تكوينه ولأن يأتي على ما وصفه بما لو وصفه به العالم الطبيعي أم يصفه بأوجز من هذا وأجمع. (١)

الميتة والدم ولحم الخنزير والتماس الحكمة في تحريمها:

أحل الله تعالى لعباده المأكولات والمشروبات وحرم عليهم أشياء قليلة منها لضررها البين بصحة الأجسام والعقول. كما حرمها ابتلاء واختباراً ليعلم المطيع من العاصي، فالميتة حرم الله أكلها في عدة آيات من القرآن الكريم^(١) وهي الحيوان الذي فقد حياته بغير ذكاة شرعية، وذلك بأن يكون سبب وفاته مرضاً من الأمراض أو حادثة من الحوادث كالخنق والتردي وما يشبهها.

ويكفي أن يموت الحيوان من مرض فتبقى جرائيم هذا المرض في دمائه، فأكل الميتة مقدم على عمل ضار بصحته لامحالة.

قال الرازي في تفسيره: «تحريم الميتة موافق لنا في العقول، لأن الدم جوهر لطيف جداً، فإذا مات الحيوان حثف أنفه احتبس الدم في عروقه وتعفن وحصل من أكله مضار عظيمة^(٢)».

وقد جاء في القرآن من قبل أن يكتشف الناس مافيه من أضرار قوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالدَّمُ وَلَحْمُ الْخَنزِيرِ وَمَأْكُلٌ لِّغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَنِقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ﴾^(٣).

والمنخنة: هي التي خنقت بحبل أو غيره حتى ماتت، ومن المعروف علمياً أن الكائن الحي إذا اختنق أي منع دخول الأوكسجين إلى رتيه فإنه تتراكم في جسمه غازات ثاني أوكسيد الكربون السامة، كما تتراكم جميع الإفرازات السامة التي تخرج عادة مع التنفس في عملية الزفير، وهذه المواد إذا احتسبت عادت لتمتص في الجسم فتحدث التسمم في كل أنسجته ثم الوفاة.

والموقوذة: هي التي ضربت فماتت.

والمتردية: هي التي سقطت من مكان مرتفع فماتت.

والنطيحة: هي التي نطحها حيوان آخر فتسبب في موتها، وهذه كلها في حكم الميتة.

(١) كما في سورة البقرة آية/١٧٢/ والمائدة آية/٤/ والأنعام آية/١٤٦/ والنحل آية/١١٥/.

(٢) مفاتيح الغيب: للرازي ج ٣/٣٦٥/.

(٣) سورة المائدة آية/٤/.

وماأكل السبع: أي الحيوان الذي افترسه حيوان من السباع فأكل بعضه وأبقى البعض الآخر، وحكمة ذلك علمياً أن هذا الحيوان قد يكون مصاباً بمرض يظهر في فمه ولعابه وتبقى آثاره على اللحم فتؤدي من يأكل منه «ولأن أكلة السبع تموت بغير سفح الدم غالباً بل بالضرب على مقاتل الحيوان»^(١).

والدم: المقصود به الدم المسفوح لاماخالط اللحم، لأن الله تعالى يقول في آية سورة الأنعام: «أو دماً مسفوحاً» وحمل المطلق في بقية الآيات على المقيد هنا. «والدم يعتبر أصلح الأوساط لنمو الجراثيم فبمجرد ذبح الحيوان يصبح عرضة لانتشار الجراثيم فيه، فإذا ما شرب الدم إنسان فكأنما شرب مزرعة نمت فيها الجراثيم وتكاثرت»^(٢).

وقد ثبت علمياً أن أي مرض يستعصي تشخيصه فإن تحليل الدم يكشف عن أصل هذا المرض لما يحتويه الدم من ميكروبات المرض.

يقول الدكتور: محمد توفيق صدقي: «الدم عسر الهضم جداً حتى أنه إذا انصب جزء منه في المعدة تقيأه الإنسان أو يخرج مع البراز بدون هضم على صورة مادة لزجة سوداء، والسبب في عسر هضمه هو وجود المادة الحمراء الحديدية فيه، وفي أثناء مرور الدم في القناة الهضمية يتحلل ويتعفن. وبذلك يضر الجسم أيضاً. ثم قال:

فإن قيل: لم لا يطبخ الدم ويؤكل بعد قتل هذه الميكروبات بالغلي؟ ويجيب عن هذا السؤال بقوله:

إن الغلي يجمد جميع المواد الزلالية التي في الدم وبذلك تصير أشد عسراً مما كانت.

إن من هذه السموم ما لا يتغير بالغلي تغيراً يجعلها صالحة للجسم، ومنها ما لا يتغير مطلقاً»^(٣).

وهنا ملحوظات يجب أن تؤخذ في الاعتبار:

أولاً: إن الإسلام لا يحرم علي المسلم تناول أي نوع من هذه الأطعمة إذا كان مضطراً، كمن يتعرض للهلاك جوعاً ولا يجد ما يتناوله ليحفظ به حياته.

(١) التحرير والتنوير: لابن عاشور ج ٦/ ٩٢.

(٢) بين الطب والإسلام: حامد الغزالي ص ٩٠/ دار الكتاب العربي - القاهرة.

(٣) دروس سنن الكائنات ج ١/ ٥٤.

ثانياً: إن هناك جانباً روحياً وأخلاقياً في التحريم - كما ذكرت سابقاً - يجب ألا يفغل، فليس الطب الجسمي هو العامل الوحيد، ولكن هناك الطب الروحي والأخلاقي أيضاً، فالإسلام يحرم تحريماً قاطعاً كل أنواع العنف والعدوان للحصول على الطعام، فيحرم ضرب الحيوان أو خنقه أو تعذيبه، كما يكرم الإسلام الإنسان تكريماً عظيماً حين ينهيه عن أكل لحم حيوان أكل منه حيوان آخر أو أنهيت حياته بغير الذكاة المشروعة.

ثالثاً: إن الإسلام يحرم أكل ما أهّل لغير الله به، والقصد من ذلك ألا يؤكل إلا ما ذبح ذبحاً شرعياً فيه إكرام للحيوان نفسه وصيافته له من التعذيب، وصيانة المسلم عن مخالطة عقيدة الشرك بأكل حيوان ذكر عليه اسم غير الله كأسماء الأصنام التي كانت تعبد من دون الله العلي الأعلى^(١).

لحم الخنزير: وهو يتقل مرضاً من أخبث الأمراض، فقد نشرت مجلة الدكتور عدد نوفمبر ١٩٤٧ كلمة للدكتور سالم محمد بعنوان «صحتك من أدب القرآن» تقتطف منها مايلي:

أورد المقال آيتي البقرة والمائدة الخاصتين بتحريم بعض الأطعمة، ثم أخذ يشرحهما ويبين الحكمة في التحريم من الناحية الصحية إلى أن قال:

«ولكن أغرب ما في هاتين الآيتين هو تحريم لحم الخنزير بالذات فنص عليه ذبح أو لم يذبح، والله حكمة في ذلك كشف عنها الطب الحديث.

ثم أشار إلى أن أكل لحم الخنزير يصاب بالدودة الشريطية المسماة (تيتا السوليم) وهي تعيش في أمعائه الدقاق، ويبلغ طولها متران إلى ثلاثة، وهذه الدودة لاتنمو ولا تتكامل إلا بين الإنسان والخنزير، ولا تصيب بعدواها سواهما.

ذلك أن الإنسان المصاب بها يكون برازه متلوثاً ببيضها فيأتي الخنزير وهو ولوع بأكل الأقدار فيتناول البراز فيفقس البيض في جوفه ويتحول إلى علقه تسمى بالدودة الكيسية وهي تعيش في عضلات الخنزير وأعضائه - فيأتي الإنسان فيأكل لحم الخنزير، وهذه الديدان فيه تتحول في جوفه - إن لم تكن قد - قتلت أثناء الطبخ - إلى الدودة الشريطية التي تبيض بدورها وهكذا».

كما أن لحم الخنزير يحتوي على كمية كبيرة من الدهن بين جميع اللحوم، ومن المعروف طبياً أن اللحوم المختلفة التي يأكلها الإنسان تتوقف سهولة هضمها في المعدة

(١) الوعي الإسلامي/ بحث للدكتور أحمد الفنجري عدد/ ١٣٩ / سنة ١٩٧٦.

على كميات الدهن الذي تحويه، وعلى نوع هذه الدهون، فكلما زادت كميات الدهون كان اللحم أصعب في الهضم.

هذا بعض ماكشفه الطب الحديث من الأمراض التي تصيب آكل لحم هذا الحيوان. ويقول قوم: إن وسائل الطهو الحديثة قد تقدمت فلم تعد هذه الديدان وبويضاتها مصدر خطر، لأن إبادتها مضمونة بالحرارة العالية التي توفرها وسائل الطهو الحديثة. وينسى هؤلاء الناس أن علمهم قد احتاج إلى قرون طويلة ليكشف آفة واحدة، فمن ذا الذي يجزم بأن ليس هناك آفات أخرى في لحم الخنزير لم يكشف عنها بعد؟.

أفلا تستحق الشريعة التي سبقت العلم البشري بعشرات القرون أن تثق بها وتدع كلمة الفصل لها، ونحرم ماحرمت ونحلل ماحللت، وهي من لدن حكيم خبير^(١).

وقد عللت آية الأنعام تحريم أكله بكونه رجساً حيث قال: ﴿أَوْ لَحْمِ الْخَنزِيرِ فَإِنَّهُ رَجَسٌ﴾ وهو لفظ عام يطلق على كل ضار مستقبح حساً أو معنى، فتعليل آية الأنعام يشمل الأمرين، فهي من إيجاز القرآن الذي يشمل كل ما يصل الناس إلى معرفته وتفصيله باتساع دائرة علومهم وتجاربهم من أضرار، ولولا العادة التي تسهل على كثير من الناس تناول السموم أكلاً وشرباً وتدخيناً، ولولا مايعالجون به لحم الخنزير لتخفيف ضرره لما أمكن أن يأكلوه ولا سيما أهل البلاد الحارة^(٢).

الخمرة وحكمة تحريمها علمياً

لقد وصف القرآن الخمرة بأنها رجس من عمل الشيطان، وبأنها تصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة، ولا يوجد إثم من الآثام يدخل ضرره في كل شيء كالخمرة من الأفعال والكذب من الأقوال. فإلى جانب أضرارها الدينية والاجتماعية والاقتصادية، وإذهابها للعقل لها أضرارها الصحية، وهي كثيرة أثبتها الطب الحديث. فمنها إفساد المعدة وفقد الشهية للطعام، ومرض الكبد والكلي وداء السل.

وقد قال الأطباء: إن المسكر لا يتحول إلى دم كما تتحول سائر الأغذية بعد الهضم بل يبقى على حاله فيزاحم الدم في مجاريه فتسرع حركة الدم وتتخلل موازنة الجسم وتعطل وظائف الأعضاء أو تضعف وتخرج عن وضعها الطبيعي المعتدل.

ومن تأثير الخمرة في اللسان: إضعاف حاسة الذوق، وفي الحلق الالتهاب، وفي

(١) في ظلال القرآن ج ١/ ١٥٥-١٥٦.

(٢) تفسير المنار: لرشيد رضا ج ٦/ ١٣٦.

المعدة ترشيح العصارة الفاعلة في الهضم حتى يغلظ نسيجها وتضعف حركتها. وقد يحدث فيها احتقاناً والتهاباً، وتحدث في الأمعاء التقرح، وفي الكبد تمديده وتوليد الشحم الذي يضعف عمله وكل هذا يتعلق بالجهاز الهضمي.

ومن تأثيرها في جهاز التنفس إضعاف مرونة الحنجرة وتهيج شعب التنفس، وأهون من ذلك بحة الصوت والسعال، وأعظمها تدرن الرئة.

وفي الجهاز العصبي تولد الجنون، وفي التعامل مع الناس وقوع النزاع والخصام بين السكارى بعضهم مع بعض وبينهم وبين من يعاملهم أو يعاشرهم^(١).

كما تزيد الخمر من سرعة النبض وتسبب اتساع أوعية الدم السطحية، وهذا يفسر سبب احمرار وجوه متعاطي الخمر، فليس هذا الاحمرار علامة على الصحة ولادليلاً على القوة، إنما هو دم اتسعت أوعيته الخارجية فوضح، في حين أن الأوعية الداخلية انقبضت. وأن الخمر فوق ذلك تسبب ارتفاعاً في ضغط الدم، وبذلك تعرض مرتفعي الضغط للخطر.

أما تأثير الخمر في حرارة الجسم فقد ثبت طياً أن كأساً من الخمر إلى ثلاثة كؤوس تسبب انخفاضاً في درجة حرارة الجسم بمقدار نصف درجة ستجrad تقريباً، وذلك بسبب اتساع أوعية الدم السطحية، وعلى ذلك تزيد في فقد الحرارة فينشأ عن ذلك فقد حرارة من الجسم أكثر^(٢).

يقول الدكتور محمد توفيق صدقي:

«يظن كثير من الناس أن استعمال الخمر في البلاد الباردة ضروري للحياة، وقد أثبت جميع أطباء العالم بلا خلاف بينهم نقيض هذه الدعوى وظهر لهم أن الخمر من أعظم مايخفض الحرارة الجسمانية للأسباب:

أحدها: أنها تقلل الاحتراق الداخلي في الجسم المسمى بالتفاعل الحيوي.

ثانيها: أنها تمدد جميع أوعية الجلد وتكثر العرق، وبذلك يخرج كثير من حرارة الجسم.

ثالثها: أنها إذا تعوطيت بمقادير كبيرة انتهى الأمر بها إلى إضعاف جميع قوى الجسم، فيضعف القلب والدورة الدموية، ولذلك شوهد في البلاد الباردة كثير من

(١) تفسير المنارج ٢/٣٢٦.

(٢) بين الطب والإسلام ص/١٢١.

الناس الذين قتلهم الخمر.

نعم إن جزءاً منها يحترق في الجسم فيولد فيه حرارة، ولكنها لاتعدّ شيئاً في جانب تبريدها الشديد للجسم، كمايينا.

أما الإحساس بالحرارة عقب تعاطيها فذلك ناشئ من ورود الدم بكثرة إلى الجلد لالزيادة في الاحتراق فهو إحساس كاذب ضار بالجسم - اهـ (١).

كما أثبت الطب الحديث أن الأشخاص الذين يتعاطون الخمر أكثر استعداداً للمرض وأقل مقاومة له من الذين لايتعاطونها، وكذلك يكونون أقل تحملاً لأن تجري في أجسامهم العمليات الجراحية.

وقد يدعي بعض الناس أن الخمر قد تستعمل كدواء لبعض الأمراض، ولكن هذا الادعاء لأساس له من الصحة، وقد نقل كثير من أطباء العالم قولهم: إنها لاتصلح كدواء، فهذا طبيب انجليزي يصرح في قوة قائلاً: «أنا لأعلم مريضاً شفي من الخمر». ويقول طبيب آخر اسكتلندي: «الخمر لاتشفي شيئاً» ويقول طبيب ثالث: «إن الخمر تدخل الجسم وتخرج منه ولاأثر لها إلا ماتحدثه من أضرار» (٢).

وهكذا تتوارد أقوال الأطباء في أنها لاتصلح أن تكون علاجاً لأي مرض ولقد روى مسلم في صحيحه أن طبارق بن سويد الجعفي سأل النبي ﷺ عن الخمر فنهاه أو كره أن يصنعها فقال: إنما أصنعها للدواء فقال الرسول ﷺ: إنه ليس بدواء ولكنه داء (٣). وقد انتقد مؤتمر الأطباء الدولي سنة ١٩٢٩ الخمر كدواء، وقرر أن انتشارها هدم لسعادة الأمم وتقويض لبناء الأخلاق (٤).

المحيض وحكمة النهي عن القرب

لقد بين الله تعالى في كتابه الكريم أسس الزواج، وتولى تلك العلاقة بالعناية والرعاية فوضح أهميتها ونأى بها عن أن تكون مجرد علاقة حيوانية لارابط لها ولاهدف منها. ومن هنا نهى القرآن الرجل عن مباشرة زوجته أثناء العادة الشهرية كمثّل صادق ملزم بتحديد الأوقات المناسبة للمباشرة التي يراعى فيها قبول المرأة، كمايراعى فيها

(١) دروس من الكائنات / ١٣-١٤.

(٢) تفسير الجواهر: للطنطاوي جوهرى ج ١/ ١٩٧.

(٣) أخرجه مسلم / شرح النووي ج ١٣/ ١٥٢.

(٤) الغذاء والدواء في القرآن للدكتور مهران والدكتور حفني صابر ص ١٤٩.

شعور الرجل. وقد سئل رسول الله ﷺ عن المحيض في وقت لم يكن يعرف عنه إلا أنه إفراز داخلي، فتزل القرآن مقررًا أن المحيض أذى وأمر باعتزال النساء فيه وعدم قربهن.

ففي صحيح مسلم عن أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يجامعوهن^(١) في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَأَعْتَزِلُوا النَّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّى يَطْهَرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ التَّوَّابِينَ وَيُحِبُّ الْمُتَطَهِّرِينَ﴾^(٢) فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح». فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه. فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا يارسول الله: إن اليهود تقول كذا وكذا أفلا نجامعهن؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد^(٣) عليهما فخرجا فاستقبلهم هدية من لبن رسول الله فأرسل في أثرهما فساقيهما فعرف أن لم يجد عليهما^(٤).

قال العلماء: كانت اليهود المجوس تجتنب الحائض، وكانت النصارى يجامعون الحيض فأمر الله بالقصد بين هذين^(٥).

وهذا النهي الوارد من الله تعالى لعباده لفتة إلى تلك العلاقة بين الرجل والمرأة تسمو بأهدافها عن لذة الجسد، لأن المباشرة المترتبة على تلك العلاقة وسيلة لا غاية، وسيلة لتحقيق هدف أسمى في طبيعة الحياة هدف النسل وامتداد الحياة على هذه الأرض والمباشرة في الحيض قد تحقق اللذة الحيوانية مع ما ينشأ عنها من أذى وأضرار صحية، ولكنها لا تحقق الهدف الأسمى، ومن ثم جاء ذلك النهي إجابة عن ذلك السؤال^(٦).

و(الأذى) لفظ عام صالح لأن يكون بمعنى إيذاء وضرر، وصالح لأن يكون بمعنى قدر تعافه النفس. والاتصال الجنسي أثناء الحيض فيه هذان النوعان من الأذى لكل من

(١) يجامعوهن في البيوت: أي لم يخالطوهن فيها.

(٢) سورة البقرة آية ٢٢٠/.

(٣) وجد عليهما: أي غضب عليهما.

(٤) أخرجه مسلم في صحيحه النووي ج ٢/ ١١/.

(٥) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ٣/ ٨١/.

(٦) في ظلال القرآن ج ١/ ٤١/.

المرأة والرجل .

ولم تظهر حكمة النهي بوضوح إلا بعد أن تقدمت علوم الصحة الوقائية . يقول الدكتور عبد العزيز إسماعيل : «إن إفرازات الجسم على نوعين : نوع له فائدة في الجسم كإفرازات الغدد الهاضمة والتناسل ، وكافة الإفرازات الداخلية التي تنظم أجهزة الجسم وأنسجته . وهذا النوع من الإفراز ضروري للحياة وليس فيه ضرر إلا انعدام إفرازه .

ونوع آخر ليس فيه فائدة بل بالعكس يجب إفرازه من الجسم إلى خارجه إذ أنه مواد سامة يجب أن يتخلص منها الجسم ، فإذا بقيت فيه أضرت به . ضرراً بليغاً ، بل تكاد تؤدي به ومثل هذه الإفرازات البول والبراز والعرق وأهمها الحيض . وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يخرج من المرأة وإلا قتلها عن طريق التسمم ، أفليس هذا المحيض أذى (١) .

أما حكمة اعتزال النساء في المحيض فإن القرآن أول من نبه على ذلك .

ويحدثنا العلم الحديث فيقول : إن الأعضاء التناسلية للأنثى تكون أثناء الحيض في حال احتقان ، وأعصابها في حالة اضطراب بسبب إفرازات الغدد الداخلية ، ويصحب ذلك أعراض مرضية معينة كالصداع وآلام في الظهر وهبوط في الجسم . وقد تزيد هذه الأعراض فتصبح شديدة شدة الأمراض .

فالاختلاط الجنسي في هذه الفترة يضر المرأة أكبر ضرر ، فربما منع نزول الحيض ، وما يترتب على ذلك معروف ، وقد يحدث اضطراباً عصبياً يطول علاجه . ولا بد أن يسبب الاختلاط التهاباً في الأعضاء التناسلية قد يصعب علاجه . فحالة الأنثى وقت الحيض حالة مرضية غير عادية ، ولذا فإن الطبيب يصعب الكشف على الأنثى وقت الحيض .

«وهناك ضرر بالغ للرجل ، فقد يكون بالرجل حالة من المرض الذي لا يلاحظه كالتهاب أو خدش أو جروح ، فإذا ماتلوث بإفراز الحيض كانت الكارثة . وقد يحدث عقماً في الذكر والأنثى . ولذلك نجد أطباء العالم ينصحون بعدم الاتصال في ذلك الوقت ، كما نهى القرآن عنه ، فإنه لاشك أذى للرجل والمرأة» (٢) .

كما يقرر علم الصحة ضرورة اغتسال المرأة بعد الحيض بعد أن قررت ذلك الآية

(١) الإسلام والطب الحديث ص/٣٩ .

(٢) دؤوس سنن الكائنات ص/٥٧ .

بعشرات المئات من السنين، وذلك لإزالة ماخالط جسمها من الإفرازات والأوساخ والميكروبات، هذا من الناحية الطبية.

«وهناك ناحية نفسية أفصح عنها التقدم العلمي وهي ضرورة الاغتسال لتبدو المرأة بعد الحيض في زينة ونظافة تبعث الرضا والسرور في نفس زوجها، وتزيل عنه مايكون قد لاحظته من وعكتها وسوء حالها»^(١).

الظواهر الطبيعية في آثار الله تعالى :

من هذه الآيات الكريمة آية الحجر «وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ» الآية / ٢٢ / .

ومفتاح الفهم لهذه الآية الكريمة هو ترتيب إنزال الماء - لسقيا الناس - على إرسال الرياح لواقح. والناس يحملون وصف الرياح بأنها لواقح على أنها لواقح للزرع والشجر. وفي هذا الفهم إغفال للنصف الثاني من الآية، إذ لوكان ماذهبوا إليه هو المراد لترتب عليه إنماء الزرع وإخراج الثمر للناس يأكلونه لإنزال الماء يشربونه. أما وقد رتب الله على إرسال الرياح لواقح إنزال الماء لسقي الناس، فقد تحتم أن يكون للواقح معنى آخر غير معنى تلقيح الزرع، ويكون مع ذلك شبيهاً بلقاح الأحياء من زروع وحيوان، كمايكون بينه وبين نزول الماء مابين العلة والمعلول أو السبب والمسبب.

فالمراد من وصف الرياح بأنها لواقح هو الإشارة إلى أثرها في الجمع بين الكهربائية الموجبة والكهربائية السالبة في السحاب، فالتلقيح هنا بين قطيرات وقطيرات أو بين سحاب وسحاب لابين زهر وزهر أو نبات ونبات^(٢).

ومما يقوي هذا الفهم لهذه الآية الكريمة الذي قال به الغمراوي إن بعض الآيات التي ذكرت فيها تلك المعاني تربط دائماً بين إثارة السحب وهطول الأمطار وإرسال الرياح أي هبوبها لهذا الغرض، ومن هذه الآيات الكريمة قوله تعالى : «وهو الذي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ»^(٣) وقوله تعالى : «والله الذي أرسل الرِّيحَ فَتَشِيرُ

(١) القرآن والعلم الحديث : عبد الرزاق نوفل ١٤٥ .

(٢) الإسلام في العصر الحديث ص ٣٥٢ .

(٣) سورة الأعراف آية ٥٧ .

سحاباً فسقناه إلى بلدٍ مَيِّتٍ فأحييناهُ بهِ الأرضَ بعد موتِها كذلك النُّشُورُ^(١) .

فأية الحبر هذه مظهر من مظاهر الإعجاز المتجدد للقرآن ، لأن تلاقي السحاب وأثره في نزول المطر أمر كان يجهله الإنسان حتى كشف عنه العلم الحديث ، وهي مثل رائع من التطابق التام ، بين العلم والدين في الإسلام^(٢) .

وآية أخرى أكثر تفصيلاً من آية الحبر هي قوله تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَّاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ ، وَيُنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾^(٣) . ومفتاح هذه الآية الكريمة هو قوله تعالى : ﴿ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ﴾ لأنها حقيقة من أمهات الحقائق الكونية لأنها تدل بوضوح على الحقيقة الكهربائية التي تقوم عليها تلك الظواهر الجوية ، فإن التأليف بين السحاب ماهو إلا إشارة واضحة ووصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلفة الكهربائية حتى يتجاوزها ويتعبأ في الجو تعبئة تتفق مع مايريد الله أن يخلقه من بين السحاب من برق أو صواعق ومن مطر أو برد ، فإذا كانت السحاب المتجاذب بعضها فوق بعض نشأ السحاب الركام ، فإذا حدث التفريغ داخل السحاب بين بعض تلك الطبقات وبعض - كما هو الغالب - نزل المطر الناشيء عن ذلك التفريغ من خلال الطبقات الدنيا وتكبر قطراته أثناء نزولها بما تستلحقه من القطيرات وهو الودق ، فإذا بلغت الحالة الجوية الكهربائية في ذلك السحاب الركام من القوة ومن الاضطراب مايسمح بوقوع تلك الظاهرة الغريبة : ظاهرة تردد بلورات الماء بين منطقتين ثلجية علوية ومطرية سفلية تكون البرد ونما حتي يصير أثقل من أن يظل في أسر تلك القوى فيسقط على الأرض رحمة إن كان صغيراً هيناً ، ونقمة إن كان كبيراً راجماً فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء . والإنسان لا يدري كثيراً عن الظروف التي يتكون فيها البرد ولكنه يدري أنها ظروف يسودها اضطراب جوي عظيم ، هذا الاضطراب أشارت إليه الآية وإلى طبيعته إشارتين :

الأولى : حين شبهت السحاب الركام الذي يتكون البرد داخله بالجبال .

الثانية : حين أشارت إلى عظم القوى الكهربائية المشتركة في تكوين بعضها على عظم برقه وشدته وبلوغه من الحرارة ودرجة الايضاض أو مافوق ذلك ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقِهِ

(١) سورة فاطر آية ٩ / .

(٢) الإسلام في عصر العلم ص ٣٥٢ / .

(٣) سورة النور آية ٤٣ / .

يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ»^(١) .

وهناك آيات أخرى أشارت إلى الطبيعة الكهربائية لتلك الظواهر إشارة من نوع آخر ﴿أَفَرَأَيْتُمُ الْمَاءَ الَّذِي تَشْرَبُونَ أَلَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ مِنَ الْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ الْمُنْزِلُونَ لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا فَلَوْلَا تَشْكُرُونَ﴾^(٢) .

نستطيع بعد معرفة العوامل المتعددة التي لا بد من تعاونها على تكوين المطر أن ندرك شيئاً من سر الحجة في هذا السؤال ﴿أَلَأَنْتُمْ أَنْزَلْتُمُوهُ... الخ﴾؟. لكن الإشارة التي أردنا أن تلفت الأنظار إليها هي في قوله تعالى: ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾، والناس يسلمون بالقدرة الإلهية على قلب الماء العذب أجاجاً، ويظنون أن هذا يكون عن طريق الخوارق، ولا يتساءلون هل في سنن الله ما يسمح بهذا؟ ولوتساءلوا وتطلبوا الجواب في العلم لوجدوه قريباً، ولعرفوا أن عذوبة الماء هي بمحض رحمة الله.

إن الماء عذب بطبيعته، وماء المطر معروف أنه أعذب المياه ولكن طبيعة تكونه تعرضه لأن يتقلب أجاجاً لا يتفتح به الإنسان.

إن الهواء - كما هو معروف - أربعة أخماسه (آزوت) وهو لا يكاد يتحد في العادة بشيء حتى بالأوكسجين الذي يكاد يتحد بكل شيء، لكن الكيماويين وجدوا أنهم يستطيعون بالكهربائية أن يحولوا (الآزوت) غير الفعال إلى فعال يتحد بأشياء كثيرة في درجة الحرارة العادية، كما وجدوا أنهم يستطيعون أن يحملوا الآزوت على الاتحاد بالأوكسجين بإمرار الشرر الكهربائي في مخلوط منهما. ومن هذا الاتحاد ينشأ بعض أكاسيد للآزوت قابل للذوبان في الماء، وإذا ذاب فيه اتحد به وكوّن حمضين آزوتيين أحدهما حمض الآزوتيك أو ماء النار كما كان يسمى وإليه يصير الحمض الثاني، وقليل من حمض الآزوتيك في الماء كاف لإفساد طعمه.

وأظنك الآن بدأت تدرك الطريق الذي يمكن أن يتقلب به ماء المطر ماء أجاجاً من غير خرق لأي سنة من سنن الله الكونية فهو نفس الطريق الكهربائي الذي يتكون به المطر، وكل الذي يلزم هو أن يتعدل أو يتكيف التفريغ الكهربائي ويتكرر في الهواء، وما يتكون من الأكاسيد الآزوتية يذوب في ماء السحاب ويحوّله حمضياً لا يستسيغه الناس، وهذا هو موضع المَن من الله على الناس أن يكيف التفريغ بالصورة التي ينزل

(١) الإسلام في عصر العلم ص ٣٥٣ / .

(٢) سورة الواقعة الآيات ٦٨ - ٧٠ .

بها المطر ولا يؤج بها الماء .

إن شيئاً من ذينك الحمضين لابد أن ينزل إلى ماء العواصف، وهذا ضروري للحياة لأن يتحول في الأرض إلى الآزوتات الضرورية لحياة النبات، لكن الله برحمته وحكمته يقدر تكونه بحيث لا يتأذى به إنسان ولا حيوان، ولو شاء الله لكثّره في ماء المطر فأنفسه على الناس . وسواء أشكر الناس هذه النعمة أم كفروها فإن قوله تعالى : ﴿لَوْ نَشَاءُ جَعَلْنَاهُ أُجَاجًا﴾ إشارة إلى تلك الحقائق السابقة، ومن يعرف أن الطريق الكهربائي هو أحد الطرق العملية التي يمكن بها تحويل الآزوت الجوي إلى حمض .

إن نعمة الله في الماء العذب أكبر من أن يقوم الناس بشكرها، لأن كل ماء عذب في الأرض كان أجاجاً في الأصل إذ هو آت من ماء البحار^(١) .

هذه بعض النماذج من التفسير العلمي المقبول لتكون مثلاً يُقتفى ومنهجاً يُحتذى . والله تعالى وحده الموفق لطاعته ورضاه سبحانه .

وفي البحث التالي مزيد من البيان والإيضاح والتفصيل لهذا الجانب الهام من جوانب تفسير القرآن العظيم .

التفسير العلمي في رحاب إعجاز القرآن العلمي «الاعجاز العلمي في القرآن العظيم»

﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾
[فُصِّلَتْ/ ٥٣]

تمهيد: بين يدي البحث في الآيات الكونية:

إن الهدف الأساسي للقرآن الكريم هو تبصير الإنسان بطريق الهداية ودعوته لسلوكها، «إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم» ويشير المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً الإسراء/ ٩.

وجاءت هذه الهدايات والدعوة إليها بأساليب متنوعة، فمن مخاطبة للفتنة الإنسانية، ومن استدلال بواقع الأشياء المحسوسة، إلى مجادلة عقلية، إلى تذكير بعاقبة الأمم السابقة، إلى لفت نظر إلى واقع القصور البشري... ولما كان المخاطبون هم جملة الناس بمختلف طبقاتهم وفتاتهم وعلى اختلاف مستوياتهم الفكرية والثقافية، جاء في القرآن الكريم من البراهين والأدلة والأمثال ما يعم الشرائع الاجتماعية على مختلف العصور والبيئات لأن المنطلقات الإنسانية محكومة بالفطرة والعقل والتجارب، وكل ذلك في دائرة المحدود الممكن، لذا كانت قواعد المخاطبات وأسسها العامة تعم كل من كان في عصر نزول الوحي ومن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة. «ولقد صرفنا في هذا القرآن للناس من كل مكل وكان الإنسان أكثر شيء جدلاً» الكهف/ ٥٤.

وإذا أدركنا هدف القرآن ومنهجه في الخطاب أدركنا أن ورود الآيات الكونية سواء ما يتعلق منها بالآفاق وما يتعلق منها بالأنفس البشرية شيء بدهي أيضاً، لأن من فئات الناس المكلفين بالمخاطبين بالقرآن الكريم من ينصب جل اهتمامه على هذه الجوانب من مخلوقات الله، ولا بد من إقامة الحجة عليهم وإظهار أن القرآن كلام الله المنزل على محمد ﷺ ليبشر به المؤمنين وينذر به قوماً لئلا، ومن العسير أن تذوق هذه الطوائف

الجمال البياني وتدرج فصاحته وبلاغته لتعترف بالتالي أنه كلام الله المعجز... ولكنهم يدركون أن هذه المعارف الإنسانية وهذه الحقائق الكونية لا يتصور أن يدركها بشر من ذاته، لأن كثيراً منها لم تكتشف إلا في عصور متأخرة جداً بعد التقدم العلمي في العلوم الكونية وبعد اختراع آلات دقيقة لم يكن للسابقين عهد بها.

فإن ورود هذه الحقائق الضخمة والدقيقة في نفس الوقت على لسان رجل لم يكن له إلمام بمثل هذه العلوم دليل على أنه تلقاها ممن يعلم السر في السماوات والأرض ﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً﴾ الفرقان/ ٦.

والمتبع لآيات القرآن الكريم يجد أن مئات الآيات قد تحدثت عن سنن الله سبحانه وتعالى في هذا الكون ونظامه وألوان العناية الربانية بمخلوقاته فيه^(١)، لذا كان لزاماً على المهتمين بالدراسات القرآنية أن يولوا هذا الجانب اهتمامهم.

إلا أن دراسات سابقة اتجهت هذا الاتجاه^(٢)، من غير ضوابط، على الرغم من حماس أصحابها وصدق مشاعرهم قد أدت إلى نتائج عكسية، مما جعل كثير من الناس يحملون على هذا الاتجاه حرصاً منهم على إبعاد القرآن الكريم من مجال الإخضاع للنظريات العلمية المتقلبة، أو التعسف في تأويل النصوص أو تحميلها مالاتحتمل من الدلالات^(٣).

إلا أن طرفي القضية قد وقعا في محذور، فالذين اتجهوا هذا الاتجاه من غير ضوابط تكبح جماح الفكر والخيال والسعي وراء النظريات قد أفرطوا ووقعوا في أخطاء ينبغي تنزيه القرآن الكريم من مثل ذلك. وكذلك الطرف الآخر الذين منعوا هذه البحوث وحاولوا سد الباب أمام الباحثين قد فرطوا في مئات الآيات ولم يعطوها حقها في التدبر والبحث، ومنعوا الدعاة من حمل سلاح من أمضى الأسلحة في العصر الراهن لإقامة الحجة على ملاحدة العصر، وإثبات صحة الرسالة وصدق الرسول. هذا ما يجعلنا نضع ضوابط محددة قبل البدء في قلب النظر في آيات القرآن الكريم التي نتحدث عن الآفاق والأنفس.

(١) يقدر بعض الباحثين عدد الآيات التي تحدثت عن الكون (الآفاق والأنفس) بما يزيد عن ٩٠٠/ آية مبثوثة في ثنايا القرآن الكريم. انظر كتاب «القرآن والعلوم» للدكتور جمال الدين الفندي.

(٢) انظر على سبيل المثال: «تفسير الجواهر» للشيخ طنطاوي جوهري.

(٣) انظر كتابات الدكتورة بنت الشاطيء في هذا الخصوص.

ضوابط التفسير العلمي للقرآن العظيم:

قبل البدء يبحث الآيات الكونية ينبغي أن نضع نصب أعيننا الضوابط التالية:

١- القرآن كتاب هداية:

إن القرآن الكريم كتاب هداية، هداية الناس إلى بارئهم، للقيام بالدور الذي أوكل إليهم في خلافة الأرض ولأداء المهمة التي خُلِقُوا من أجلها ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾، ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يُطعمون. إن الله هو الرزاق ذو القوة المتين ﴿الذاريات/٥٦-٥٨﴾. وقد سلك القرآن الكريم جميع الأساليب والمسالك العقلية والفطرية لحمل الإنسان على هذا الهدف فلفت الأنظار من أجل ذلك إلى الكون المحيط بأفلاكه وكواكبه وليله ونهاره وسهوله وجباله وبحاره وأنهاره وسجبه وأمطاره ونباته وأشجاره.

ولفت النظر كذلك إلى أعماق النفس الإنسانية بعواطفها ومشاعرها وطاقاتها وقدراتها وإمكانات جوارحها، وارتفاعها أو إخلادها إلى الأرض.

وشد الانتباه إلى ما يحيط بالإنسان مما هو مسخر له لخدمته وتيسير المشقات عليه من الحيوان والنبات والجماد... فينبغي أن تبقى الدراسات القرآنية المتعلقة بالآيات الكونية في حدود هذا الغرض، ولا تؤثر على الهدف الأساسي للقرآن الكريم.

٢- ترك الإفراط والتفريط:

عدم التفريط في البحث في الآيات الكونية، وبشرط التقيد بالمنهج القرآني وعدم تحميل النصوص ما لا تحتمل، فلا ينبغي أن تهمل التوجيهات بصدد ما في الكون المسخر لمصلحة الإنسان فإن أهملنا فقد فرطنا في مئات الآيات التي تشدنا إليها شداً. إلا أن هذا الشد والتنبيه ينبغي أن نقف عند حدوده فلا نتجاوزه إلى البحث عن دقائق خصائص هذه الأمور الكونية أو الإنسانية أو الحيوانية أو النباتية، فنفصل القول في ذلك ونجعل تفاسير القرآن وكأنها كتب لهذه العلوم المتخصصة ولا نترك شاردة ولا واردة ولا نظرة مستحدثة إلا ونربطها بتفسير الآية الكريمة. إن هذا العمل يخرجنا عن حد الاعتدال، كما يخرج القرآن الكريم والتفسير - الذي هو بذل الجهد في بيان مراد الله من الآية - يخرج كل ذلك عن الهدف الأساسي وهو أن القرآن الكريم كتاب هداية، وأن تفاسيرنا ينبغي أن تكون لشرح وبيان الأساليب المستخدمة لتحقيق هذه الهداية.

٣- مرونة الأسلوب القرآني :

الأسلوب القرآني في الآيات مرن يقبل وجوهاً في التأويل فينبغي أن يكون معلوماً لدينا أن القرآن الكريم عندما يعرض القضايا الكونية أو الجوانب المادية أو المعنوية في الإنسان أو ما يحيط به، يستعمل أسلوباً مرناً يقبل وجوهاً للتأويل. فعند إرادة فهم الكلمة القرآنية أو العبارة القرآنية لابد من الرجوع إلى دلالات الكلمة الحقيقية والمجازية، واستعمالاتها في اللغة العربية، لتكون المعاني التي تحملها الكلمة واضحة في الذهن عند الإقدام على تفسيرها في هذا المجال.

٤- الحقائق العلمية مناهل الاستدلال :

الاقتصار على الحقائق العلمية في صدد تفسير الآيات بأن نبعد عن الساحة الفرضيات والنظريات العلمية التي لم تصل إلى درجة الحقيقة العلمية، وينبغي عدم ذكر النظريات ولومن باب الاستئناس بها، لأن ربط نظرية قابلة للتغير والإبطال بتفسير آية قرآنية يورث شعوراً معيناً لدى القراء، وفي حال ظهور بطلان هذه النظرية فلن يسلم الفهم الخاص بالآية من تشويش واهتزاز، وكلام الله سبحانه وتعالى متزه عن أن يطرأ عليه مثل ذلك، ومن هنا كان خطأ بعض المفسرين الذين ذكروا الروايات الإسرائيلية - التي تدخل تحت نص: «حدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج» - عندما وضعوها في تفاسيرهم وقرنوها بالآيات الدالة على ماهو قريب منها، حتى أصبح الناس ينظرون إليها على أنها تفسير للآية لامحيد عنه. ثم ظهر بطلان كثير من هذه الروايات ومناقضتها للحقائق التاريخية والكونية والفلكية مما هز ثقة الناس بالتفسير بالمأثور.

٥- عدم حصر دلالة الآية على الحقيقة الواحدة :

عند إحاطتنا بدلالات الكلمة اللغوية الحقيقية والمجازية واستعمالات العرب لها، إن وجدنا أن حقيقة علمية تؤيد إحدى هذه الدلالات، لا بأس عندئذ أن نرجح الدلالة التي أيدها الحقيقة العلمية على أن لانحكم بالبطلان والفساد على الدلالات الأخرى للكلمة من جهة، وأن لانحصر معنى الآية على الدلالة التي رجحناها من جهة أخرى فقد تكون الحقيقة العلمية التي رجحناها على ضوئها هذه الدلالة إحدى وجوه دلالات الآية، وظلالها ممتدة إلى حقائق أخرى لم نتمكن من التوصل إليها حسب ثقافة عصرنا، إلا أن التقدم العلمي والحضاري كفيلاً أن يُميط اللثام لنا عن جوانب أخرى.

فمثلاً قوله تعالى: ﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾. القيامة/ ٤.

كان إلى ما يقرب من مائة سنة يُنظر إلى دلالة (تسوية البنان) نظرة تختلف عن نظرتنا

لها الآن بعد معرفة قضية البصمات، إلا أننا لانبطل كلام السلف في معنى الآية، فالآية تدل على ما قالوه وما فهموه.

والشعور الذي استقر في نفوسهم عن أن هناك حكمة عظيمة في خلق البنان وتسويته على هذه الشاكلة شعور مرهف وصحيح. وإن كان فهما الآن لدلالة الآية على ضوء معطيات العلم الحديث أعمق وأدل، وكذلك فإن شعورنا في دقة صنعة الخالق سبحانه وتعالى وحكمته سليم وصحيح. ومع ذلك فإننا لانستطيع أن نقول: إن معنى الآية هو هذا فحسب، وليس بعد فهما لها فهم آخر، بل قد يكشف لنا المستقبل عن أسرار إلهية في البنان فوق ماتصورناه ووصلت إليه مداركنا العصرية، وتبقى الآية الكريمة مجال بحث الباحثين واستنباط المفكرين وبصمة إعجاز على جبين العصور «بلى قادرين على أن نسوي بنانه».

٦- استحالة التصادم بين الحقائق القرآنية والحقائق العلمية:

يستحيل التصادم بين الحقائق القرآنية وبين الحقائق العلمية لأنهما من مشكاة واحدة. وينبغي أن يكون من المسلّمات في أذهاننا أن الحقائق القرآنية المتعلقة بأي جانب من جوانب الكون أو الإنسان و الحيوان و النبات - إذا كانت قطعية الدلالة - لا يمكن أن تصادمها حقيقة علمية توصل الجهد البشري إليها بناء على جهود المختصين خلال التاريخ الحضاري للبشرية.

وما يثيره بعض الناس من توهم بوجود تناقض فهو سوء فهم للحقيقة العلمية بأن يظنها حقيقة علمية وهي لانزال في طور النظرية. ونحن نقول جازمين باستحالة وقوع مثل هذا التناقض ، لأننا نؤمن بأن القرآن منزل من خالق السماوات والأرض وواضع سننه ومدبر شؤونه وأن الحقائق العلمية التي تكتشف هي من صنعه ووضعه في الكون، ولا يليق بحكمة الحكيم الخبير أن يخلق شيئاً على هيئة معينة ثم يخبرنا بخلافها. حاشاه سبحانه وتعالى عن ذلك علواً كبيراً «أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللطيف الخبير» الملك/١٤، «قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفوراً رحيماً» الفرقان/٦.

٧- اتباع المنهج القرآني في طلب المعرفة:

من البر والحكمة سلوك سبل الأسباب للوصول إلى حقائق المعرفة «دخول البيوت من أبوابها» وعدم تعجل النتائج بأن نعلم أن الأمور مرهونة بأوقاتها وأن خير مفسر للقرآن الزمن، وأن نضع نصب أعيننا قوله تعالى «وليس البرُّ بأن تأتوا البيوت من

ظهورها ولكن البرّ من اتقى وأثوا البيوت من أبوابها، واتقوا الله لعلكم تفلحون» البقرة/١٨٩، فإنه التوجيه القرآني لسلوك المنهج الذي ينبغي أن يسلك في هذه المجالات.

وبما أن أمور الكون قائمة على سنن خلقها الله سبحانه وتعالى، وسير الكون بموجبها، فإنه من تعرف على هذه السنن أمكنه تسخيرها لمصالحه والإفادة منها في تيسير سبل العيش وإحراز التقدم المادي، بغض النظر عن معتقده وسلوكه. وذلك بمقدار ما يشاء الله ويخص بذلك من يريد.

وهذه سنة الله في أمور الحياة الدنيا، فهي تُعطى لمن أحبه الله ولمن لم يحبه، أما الآخرة والهدايات الربانية فلا تعطى إلا لمن يحبه الله. وإلى مثل هذا تشير الآيات الكريمة: ﴿من كان يُريدُ العاجلة عَجَلْنَا له فيها مانِشَاءً لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً. ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً. كلاً نُمِذْهُ هَؤُلَاءِ وهَؤُلَاءِ من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظوراً﴾ الإسراء/١٨-٢٠.

تفسير آيات بدء الكون:

يقول تعالى: ﴿قُلْ أَنتَكُم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين. وجعلنا فيها رواسي من فوقها. وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين. فقضاهن سبع سموات في يومين، وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم﴾ فصلت/٩-١٢.

في الآيات الكريمة إشارة إلى ثلاث حقائق كونية:

١- خلق الأرض وتقدير الأقوات في أربعة أيام قبل السماء.

٢- أصل الكون المادي من الدخان.

٣- الدورات التكوينية للأرض والسماء ومجموعها ستة أيام.

إن العلوم الفضائية والعلوم الطبيعية لازالت تحبو للتعرف على أصل الكون ونشأته والمادة الأولية التي تتكوّن منها الأجرام السماوية وطريقة تشكيلها. ولقد درسوا ملياً

مايقع على الكرة الأرضية من خارج مجالها من النيازك^(١) والأثرية الكونية وماحصلوا عليه أخيراً من قِطْع من سطح القمر.

كل ذلك يؤكد وحدة أصل الكون المادي. وأصبح ذلك حقيقة علمية عندهم ولكنهم لم يستطيعوا تحديد الحالة الأولية لهذه المواد التي كانت عليها قبل تجمّعها في مجموعات من النجوم والكواكب والمَجَرَّات ولن يستطيعوا ذلك إلا ظناً وتخميناً. يقول تعالى: ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَا خَلَقَ أَنْفُسَهُمْ وَمَا كُنْتُ مَتَّخِذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا﴾ الكهف/ ٥١.

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا الأصل الموحد وساق حقائق كونية في غاية الوضوح، يقول تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ. وَجَعَلْنَا فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيزَ بِهِمْ وَجَعَلْنَا فِيهَا فِجَاجًا سُبُلًا لَّعَلَّهُمْ يَهْتَدُونَ. وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا معرضون﴾ الأنبياء/ ٣٠-٣٢.

ويفصل في آيات أخرى مراحل الخلق والتكوين، فيقول جلّ جلاله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾ فصلت/ ١٠.

لم يصل العلم الحديث للآن إلى معرفة أصل الوجود المادي للكون على الرغم من توصل العلم إلى نجاحات كبيرة في المسائل التطبيقية والاستفادة من دراسة خصائص المادة واستخدام الطاقات الكونية المختلفة.

فنحن نعرف طرقاتي لاستخدام الكهرباء في التدفئة والعلاج والإنارة وإدارة الآلات وتسيير القاطرات والسيارات وغير ذلك من الاستخدامات إلا أننا لانعرف تماماً ماهي الكهرباء. وقل مثل ذلك في الضوء والحرارة...

فنطلق على كل ذلك لفظاً مبهماً هو الطاقة التي أودعت بين ثنايا الكون وأرجائه المختلفة. «ويمكن أن يتحول بعضها إلى بعض، إلا انه لا يمكن خلقها أو استحداثها من العدم»

(١) النيزك: كتلة صلبة تخترق الغلاف الجوي وتصل الأرض، أما الكتل التي تحترق في الغلاف الجوي للأرض بفعل الحرارة الناتجة عن دخول الغلاف الجوي فتسمى (شهباً). وقد أمكن للآن التعرف على مائة نيزك، أما الشهب فهي كثيرة جداً تشاهد كل ليلة. «من روائع الإعجاز»، د. جمال الدين الفندي، ص ٥٢.

وعلى الرغم من محاولة العلم الحديث التعرف على اللبنة الأولى التي يبنى عليها الكون المادي ومحاولة التعرف على الذرة، إلا أنه لم يخرج بطائل من دراسته هذه. يقول العلم الحديث:

قوام الذرات جسيمات متناهية في الصغر تشابه في جميع ذرات العناصر المختلفة، ويتوقف على عددها وترتيبها داخل كل ذرة - بالإضافة إلى النواة - نوع المادة أو العنصر، وأبسط الذرات تركيباً على الإطلاق ذرة الأيدروجين وهو الغاز المعروف باسم الغاز الكوني، أو الغاز الذي خلقت منه الأجرام السماوية وتطورت داخل الشمس والنجوم سائر المواد المعروفة. وقد كان المعتقد إلى عهد ليس ببعيد بين جمهرة العلماء أن الذرة غير قابلة للتجزئة إلى جسيماتها أو طاقاتها الأولية... ولكن لما عرفت وسائل تحطيم الذرة في هذا العصر أمكن الجزم بإمكان اقتسام الذرة وانطلاق طاقات عظيمة مما يُدّخر بين ثناياها أساسها الطاقة التي استخدمت في الأصل في ربط جسيماتها الأولية. فهل هذا الغاز الكوني هو الدخان الذي شكّل أصل التكوين المادي أو أن المراد بالدخان هي تلك السدم الغازية الملتببة التي تتجمع في ساحات هائلة من الكون تشكل نجوماً أو مجموعات منها؟

والأمر الآخر في آيات «فُصِّلَتْ» هو خلق الأرض ووضع البركة فيها وتقدير الأقوات في أربعة أيام. كل ذلك قبل تشكيل السماء وجعلها سبع سماوات.

وهذه الحقيقة لا يستطيع العلم البشري أن يصل إليها إلا من طريق الوحي من خالق السماوات والأرض، لأن وسائل البشر محدودة فلا يستطيع أن يخترق بوسائله المادية حجب غيب الماضي ليعرف تكوين الأجرام الكونية والسابق منها عن اللاحق.

وهنا لابد من الإشارة إلى آيات سورة «النازعات» فقد يفهم بعضهم أنها تتعارض مع آيات سورة «فُصِّلَتْ».

وقد ثار هذا الاشكال في عصر الصحابة رضوان الله عليهم:

في صحيح البخاري قال.. وقال المنهال عن سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما إني لأجد في القرآن أشياء تختلف عليّ، قال: «فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون»، «وأقبل بعضهم على بعض يتساءلون»، «ولا يكتُمون الله حديثاً»، «والله ربنا ما كنا مشركين» فقد كتموا في هذه الآية، وقال تعالى: «أنتم أشدُّ خلقاً أم السماء بناها» إلى قوله تعالى: «والأرض بعد ذلك دحاها» فذكر خلق السماء

قبل الأرض ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَنتَكُم لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمِينَ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿طَائِعِينَ﴾ فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء، قال: ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾، ﴿سميماً بصيراً﴾ فكانه كان مضى.

فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ﴿فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون﴾ في النفخة الأولى ﴿ثُمَّ نُفِّخَ فِي الصُّورِ فَصُيِّقَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ فلا أنساب بينهم عند ذلك ولا يتساءلون بينهم. وفي النفخة الأخرى ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾، وأما قوله: ﴿وَاللَّهُ رَبُّنَا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً﴾ فإن الله تعالى يغفر لأهل الإخلاص ذنوبهم فيقول المشركون تعالوا نقول لم تكن مشركين فيختم على أفواههم فتتطق أيديهم فعند ذلك يعرف أن الله تعالى لا يكتم حديثاً وعنده ﴿يَوْمَ الَّذِينَ كَفَرُوا...﴾ الآية. وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسواهن في يومين آخرين، ثم دحى الأرض ودحيا أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين، فذلك قوله تعالى ﴿وَدَحَاهَا﴾، وقوله: ﴿خلق الأرض في يومين﴾. فخلق الأرض وما فيها من شيء في أربعة أيام وخلق السماوات في يومين. ﴿وكان الله غفوراً رحيماً﴾ سمي نفسه بذلك وذلك قوله: أي لم يزل كذلك فإن الله تعالى لم يرد شيئاً إلا أصاب به الذي أراد. فلا يختلفن عليك القرآن فإن كلاً من عند الله عز وجل^(١).

يقول ابن كثير: (فأما خلق الأرض فقبل خلق السماء بالنص. وفي قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ أن دحو الأرض كان بعد خلق السماء، فالدحو مفسر بقوله: ﴿أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾).

أما الحقيقة الثالثة في آيات سورة «فصلت» فهي الدورات التكوينية للأرض والسماء ومجموعتها ستة أيام.

وقد اختلف المفسرون قديماً في مقدار اليوم المقصود في الآيات الكريمة، فالיום الاصطلاحي الذي ترتبط به الأحكام التكليفية من الصوم والصلاة والعدة وغير ذلك من مطلع الفجر أو الشمس إلى غروبها.

إلا أن هذه المدة الزمنية المعيّنة لا تقدر بهذا المقدار إلا بعد وجود الأرض والشمس

(١) صحيح البخاري كتاب التفسير ج ٦ ص ٣٥.

ووجود دوراتهما في أفلاكهما. والحديث هنا عن خلق الأرض والسماء، فكيف تقدر قبل وجودهما؟!

وهذا مادفع بعض المفسرين للذهاب إلى تقدير تلك الأيام بفترات زمنية تتناسب مع أدوار التكوين. فعن مجاهد: يوم من الستة الأيام كالف سنة مما تعدّون. وهو يشير إلى قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ الحج/٤٧. وجاء في سورة المعارج قوله تعالى ﴿تَعْرُجُ الْمَلَائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ خَمْسِينَ أَلْفَ سَنَةٍ﴾ المعارج/٤. وفي سورة السجدة ﴿يَذُبُّ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ السجدة/٥.

ويذهب علماء الفلك المعاصرون إلى ما يُطلقون عليه (النسبية الزمنية) وأن لكل كوكب وحداته الزمنية الخاصة به، وذلك يقدر بالنسبة لسبحها في الفضاء ودورانها في أفلاكها^(١).

وإطلاق القرآن الكريم اسم اليوم على مقدار ألف سنة تارة وخمسين ألف سنة تارة أخرى يشير إلى مفهوم النسبية هذا.

هذا ماجعل الباحثين في أصل تكوين الأجرام السماوية يُطلقون اصطلاح الدوران التكوينية. فالدور الأول: كون الأرض مع السماء رتقاً، ودور انفصال الأرض عن السماء هو الثاني، والدور الثالث والرابع هما دور تهيئة الأرض للحياة بإرساء الجبال فيها وتقدير الأقوات، وخلق الحياة.

إلا أن تقدير هذه الدورات بالمدد الزمنية تتفاوت أقوالهم فيها، وهم في ذلك يتبعون الظن وماهم بمستيقنين.

يتساءل بعضهم: (هل يمكن أن يصل العلم إلى الزمن المحدّد الصحيح المؤكّد

-
- (١) - يوم القمر نحو (٣٠) يوماً وهو مقدار دورته حول الأرض.
- يوم الزهرة حوالي (٣٠) يوماً تقريباً من أيام الأرض أما دورتها حول الشمس فسيعة أشهر ونصف.
- يوم عطارد (٨٨) يوماً من أيام الأرض أي بمقدار طول سنته فهو يتم دورته حول الشمس وحول محوره في مدة واحدة.
- يوم الشمس أطول من ثلاثة أسابيع: عند خط استواء الشمس ٢٥ يوماً. وعند القطبين أكثر من شهر.
- يوم المريخ يزيد عن يوم الأرض بمقدار سبع وثلاثين دقيقة.

لخلق الأرض؟ هذا مستحيل... فالتوقيت الزمني الذي خلقت فيه الأرض لا يوجد ما يدل عليه إطلاقاً، وإذا وصل العلم إلى التوقيت السليم فسيكون هو الأقرب إلى الصحيح اجتهداً. وهل يمكن أن يصل العلم إلى الطريقة التي خلقت فيها الأرض، والأزمنة الصحيحة التي تطورت فيها منذ كانت دخاناً إلى أن أصبحت صالحة لإقامة الإنسان؟ وكذلك بالنسبة للإنسان وخلق... والسما وخلقها وما فيها...).

فطالما أن الإنسان - أي إنسان - لم يشهد خلق السماوات والأرض وكذلك لم يشهد خلق نفسه ولا خلق غيره فكيف يعرف الحقيقة إذن؟ وصدق الله العظيم ﴿مَا أَشْهَدُهُمْ خَلْقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَا خَلْقَ أَنْفُسِهِمْ وَمَا كُنْتُمْ مُنْخَذَ الْمُضِلِّينَ عَصُدًا﴾ الكهف/ ٥١.

تفسير آيات خلق السماوات والفضاء والأرض:

يقول الله تعالى: ﴿وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ الذاريات/ ٤٧.

إن بناء الكون المادي المترامي الأطراف المشتمل على بلايين المجرات التي تحتوي كل مجرة منها بلايين الشمس والنجوم وما يتبع كل شمس أو نجم من كواكب وأقمار، وكل ذلك إلى جانب ما يعجُّ به الفضاء من طاقات وإشعاعات مختلفة القدر والصفات. وقد اتسعت له قدرة الخالق عز وجل، ولديه أكثر وأكثر يضاف إلى ذلك. إنالموسعون السماء حين خلقنا الكون ابتداءً على اتساع لانهاية له، ولذلك فهو يتسع لكل المجرات مهما تباعدت عن بعضها بعضاً.

ومن الوجهة العلمية لم يثبت حجم الكون على حال منذ راح العلماء يقيسون أبعاده. ولقد جعل العلماء للنجوم أقداراً بحسب درجات بريقها أو لمعانها. وعدد النجوم التي يمكن أن تُرى في القبة السماوية وتلمع بدرجات متفاوتة القدر بالنسبة للعين المجردة لا يزيد عن نحو ستة آلاف نجم تقريباً.

وعندما استخدمت المناظير الفلكية المكبرة صور الفلكيون مجرتنا وحدها على هيئة قرص أو عدسة، تقع شمسنا على بعد ٣٠ ألف سنة ضوئية من مركزها، ويبلغ قطرها نحو مائة ألف سنة ضوئية، أما سمكها فيبلغ زهاء ستة آلاف سنة ضوئية^(١).

ويقول تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ، وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ بَلْقَاءَ

(١) «القرآن والعلم»، د. جمال الدين الفندي، ص ٢١٣ مختصراً.

رَبِّكُمْ تَوْقِنُونَ. وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رِوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمَنْ كُلِّ الشَّجَرَاتِ
جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣-٢﴾
الرعد/٣-٢.

ويقول تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَقَالَى فِي الْأَرْضِ رِوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ
بِكُمْ، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ، وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ. هَذَا
خَلَقَ اللَّهُ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾
لقمان/١٠-١١.

الحقيقة الواردة في الآيتين في «الرعد» و«لقمان» حول السماء هو ذكر العمدة، وذكر
المفسرون تأويلين للآيات:

- فمنهم من أثبت أن للسموات أعمدة إلا أنها لا تُرى. فمعنى الآية: الله الذي رفع
السموات - بغير عمد مرئية - وذلك بجعل جملة (ترونها) صفة (العمدة) والضمير يعود
إلى عمد.

- ومنهم من ذهب إلى أن ليس للسموات عمد أصلاً. ويكون معنى الآية: الله الذي
رفع السموات كما ترونها، بغير عمد، وذلك بجعل جملة (ترونها) حالاً من السموات
ويعود الضمير إلى السموات.

ويميل علماء الفلك المعاصرون إلى التأويل الأول فيقولون: إن الأجرام السماوية
كلها قد بناها الخالق سبحانه وتعالى وجعل كل جرم فيه بمثابة لبنة من بناء شامخ،
ورفع هذه الأجرام كلها بعضها فوق بعض بقوى هي من نوع القوة الطاردة المركزية،
كما ربطها في نفس الوقت برباط الجاذبية العالية، والجاذبية تتعادل مع القوى الطاردة
المركزية الناجمة عن الدوران في مسارات شبه دائرية أو قطاعات ناقصة، وهي بمثابة
الأعمدة المقامة بالفعل. ورغم أننا لا نبصرها بأعيننا إلا أن ذلك لا يعني أن تلك الأعمدة
غير موجودة بحال من الأحوال، فنحن نستطيع أن نتصورها في مجال كل جسم مادي
وربما إذا مُنح شخص منا حاسة أخرى زيادة على مالدينا من حواس يستطيع ذلك
الشخص أن يرى تلك الأعمدة أو يُحس بها تماماً كما ندرك بحواسنا العادية أي جسم
مادي عادي^(١).

(١) «القرآن والعلم»، د. جمال الدين الفندي، ص ٢٢٨، ط دار المعرفة، رئيس قسم
الفلك وأستاذ الطبيعة الجوية بجامعة القاهرة.

تفسير آيات خلق الأرض ومالها من خصائص:

جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تتحدث عن الأرض خصائصها ومزاياها مبدأ خلقها ونهايتها.

يقول تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ. وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ، كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى، إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ﴾ الزمر/ ٥.

في «مفردات الراغب» في مادة (كور)^(١): كَوَّر الشيء: إدارته وضم بعضه إلى بعض ككور العمامة، وقوله تعالى: ﴿يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ﴾ فإشارة إلى جريان الشمس في مطالعها وانتقاص الليل والنهار وازديادهما.

وفي «لسان العرب»^(٢): وتكوير الليل والنهار: أن يُلْحَق أحدهما بالآخر، وقيل تكوير الليل والنهار تغشية كل واحد منهما صاحبه، وقيل: إدخال كل واحد منهما في صاحبه، والمعاني متقاربة.

وفي «الصاحح»: وتكوير الليل على النهار تغشيته إياه، ويقال زيادته في هذا من ذلك. وفي التنزيل العزيز: يَكُورُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُورُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ، أي يدخل هذا على هذا وأصله من تكوير العمامة وهو لفها وجمعها. وكُوِّرَت الشمس جُمِعَ ضَوْؤُهَا وَلَفَّ كما تَلَفَت العمامة، وقيل معنى كُوِّرَت غُوِّرَت.

يقول سيد قطب^(٣) عند تفسير هذه الآية: ﴿يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ﴾: (وهو تعبير عجيب يُقْسَر الناظر فيه قسراً على الالتفات إلى ما كشف حديثاً عن كروية الأرض، ومع أنني في هذه الظلال حريص على ألا أحمل القرآن على النظريات التي يكشفها الإنسان لأنها نظريات تخطيء وتصيب وتثبت اليوم وتبطل غداً، والقرآن حق ثابت يحمل آية صدقه في ذاته ولا يستمدّها من موافقة أو مخالفة لما يكشفه البشر الضعاف المهازيل).

مع هذا الحرص فإن هذا التعبير يقسرنى قسراً على النظر في موضوع كروية

(١) ص ٦٦٥.

(٢) ١٥٦/٥.

(٣) «في ظلال القرآن» ٦/٣٠٣٨.

الأرض، فهو يصوّر حقيقة مادية ملحوظة على وجه الأرض، فالأرض الكروية تدور حول نفسها في مواجهة الشمس. فالجزء الذي يواجه الشمس من سطحها المكور يغمره الضوء ويكون نهاراً، ولكن هذا الجزء لا يثبت لأن الأرض تدور وكلما تحركت بدأ الليل يغمّر السطح الذي كان عليه النهار، وهذا السطح مكور فالنهار كان عليه مكوراً والليل يتبعه مكوراً. وكذلك وبعد فترة يبدأ النهار من الناحية الأخرى يتكور على الليل، وهكذا في حركة دائبة: يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل.. واللفظ يرسم الشكل ويحدد الوضع، ويعين نوع طبيعة الأرض وحركتها، وكروية الأرض ودورانها يفسران هذا التعبير تفسيراً أدق من أي تفسير آخر لا يستصحب هذه النظرية).

خصائص الكرة الأرضية:

﴿الم نجعل الأرض كفاتاً. أحياء وأمواتاً. وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماءً فراتاً﴾ المرسلات/ ٢٥-٢٧.

في «مفردات الراغب»: كَفَت: الكَفَت: القبض والجمع. قال تعالى: ﴿الم نجعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواتاً﴾.

وقيل معناه: تضم الأحياء التي هي الإنسان والحيوان والنبات، والأموات التي هي الجمادات من الأرض والماء وغير ذلك.

والكفات: قيل هو الطيران السريع وحقيقته قبض الجناح للطيران. والكفت: السوق الشديد^(١).

وفي «لسان العرب» لابن منظور: (الكفت: صرفك الشيء عن وجهه. وكفت يكفت كفتاً وكفاتاً: أسرع في العدو والطيران وتقبض فيه... وفرس كَفَتَ سريع... وعَدُوٌّ كَفِيت: أي سريع)^(٢).

وقال الجوهري: (الكَفَتُ: السوق الشديد. والكفات: الموضع الذي يُضم فيه الشيء ويُقبض.. وفي التزويل العزيز: ﴿الم نجعل الأرض كفاتاً أحياء وأمواتاً﴾ قال ابن سيده: هذا قول أهل اللغة، قال: وعندي أن الكفات هنا مصدر من كَفَتَ إذا ضم وقبض، وأن أحياء وأمواتاً متصّب به أي ذات كفات للأحياء والأموات. وكفات

(١) «المفردات في غريب القرآن» للراغب الأصفهاني، ص ٦٥٢.

(٢) ٧٩، ٧٨/٢.

الأرض ظهرها للأحياء وبطنها للأموات، ومنه قولهم للمنازل: كفات الأحياء وللمقابر كفات الأموات... وفي الحديث: «نُهِنَا أَنْ نَكْفِتَ الثِّيَابَ فِي الصَّلَاةِ» أي نضمها ونجمعها من الانتشار، يريد جمع الثوب باليدين عند الركوع والسجود. وهذا جراب كفيت إذا كان لا يضيع شيئاً مما يجعل فيه...).

هذا هو أدق وصف وأجمعه لواقع الأرض فهي كرة كفات من حيث الجريان والسرعة مسوقة بقدرة إلهية في مدارها، وفي نفس الوقت تضم سكانها على ظهرها في حال الحياة والموت.

وفي تسلسل الحديث: من ذكر خلق الإنسان في الرحم - القرار المكين الذي يضم الإنسان في مراحل الأولى في النشأة والتكوين - وهو الشكل الكُثْرِيُّ الهَيْئَةُ، وقد جعله قراراً مكيناً للجنين بشدته بتلك الأربطة من العضلات وجعل مستنده الحوض المحاط من أغلب جهاته بجدران الحوض المقعر، وهياً له وسائل التغذية والراحة لمدة معلومة إلى قدر محدد محسوب عند القادر ونعم القادر.

ثم عقب ذلك بضم الكرة الأرضية لهم أحياء وأمواتاً تكفت بهم وتسرع في مجراها تضمنهم على ظهرها أحياء وفي بطنها أمواتاً، وهي محتفظة بهم في كلتا الحالين فلا تنقذ بهم بعيداً.

ووسائل الحياة متوفرة لهم على ظهرها من هواء وماء وغذاء، كما وفرت لهم في القرار المكين قبل هذا الطور.

ووسائل حفظ الأشلاء موجودة في الأرض إلى يوم الوقت المعلوم..

إنها مناسبات معبرة دقيقة في ذكر المستقر لكل طور من الطورين: «أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ. فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ. فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ. وَيَلِيَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ كِفَاتاً أَحْيَاءَ وَأَمْوَاتاً. وَجَعَلْنَا فِيهَا رِوَاسِيَّ شَامَخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُمْ مَاءً قُرَاتاً. وَيَلِيَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ.»

يقول جلّ جلاله: «أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خُلُقاً أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا. رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا. وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا. وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا. أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا. وَالْجِبَالُ أَرْسَاهَا. مَتَاعاً لَكُمْ وَلِأَنْعَامِكُمْ» النازعات/ ٢٧-٣٣.

ويقول تعالى: «وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا. وَالْقَمَرُ إِذَا تَلَّاهَا. وَالتَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا. وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا. وَالسَّمَاءُ وَمَا بَنَاهَا. وَالْأَرْضُ وَمَا طَعَاهَا» الشمس/ ٦١.

وهنا كلمتان معبرتان تتعلقان بالأرض وهما كلمتا (دحاها، وطحاها). فلتنظر إلى دلالات الكلمتين في قواميس اللغة ثم نتدبر مايقوله العلم الحديث.

في «مفردات الراغب»/ ٢٣٩: (دحاها، قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ أي أزالها عن مقرها، وكقوله: يوم ترجف الأرض والجبال. وهو من قولهم: دحا المطر الحصى من وجه الأرض أي جرفها.

ومرّ الفرس يدحو: إذا جرّ يده على وجه الأرض فيدحو ترابها).

وفي «لسان العرب»^(١) لابن منظور: (دحاها: الدحو: البسط. دحا الأرض يدحوها دحواً: بسطها.

وقال الفراء في قوله عزّ وجلّ: (وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا) قال: بسطها.

- وقال شمر: دحا الأرض: أوسعها.

- وفي حديث علي وصلاته رضي الله عنه: اللهم داحي المدحوات، يعني باسط الأرض موسعها.

- والأدحية: مبيض النعام في الرمل، لأن النعامة تدحوه برجلها ثم تبيض فيه.

- وفي حديث ابن عمر: فدحا السيل فيه بالبطحاء أي رمى وألقى.

- وقال ابن الأعرابي: يقال: هو يدحو الحجر بيده أي يرمي به بيده ويدفعه، قال:

والداحي الذي يدحو الحجر بيده،.. ودحا المطر الحصى عن وجه الأرض دحواً: نزع.

- وفي حديث أبي رافع: كنت ألاعب الحسن والحسين رضوان الله عليهما

بالمداحي، هي أحجار أمثال القرصة، كانوا يحفرون حفرة ويدحون فيها بتلك الأحجار، فإن وقع الحجر فيها غلب صاحبها، وإن لم يقع غلب، والدحو: هو رمي اللاعب بالحجر والجوز وغيره.

- وقال شمر: المدحاة لعبة يلعب بها أهل مكة، قال: وسمعت الأسدي يصفها

ويقول: هي أحجار أمثال القرصة وقد حفروا حفرة بقدر ذلك الحجر فيفتحون قليلاً، ثم يدحون بتلك الأحجار إلى تلك الحفرة، فإن وقع فيها الحجر فقد قَمَرَ وإلا فقد قَمَرَ).

(١) ج ١٤ ص ٢٥١ ومابعدها.

وأما كلمة «طحاها» :

ففي «مفردات الراغب» : الطحو كالدحو، وهو بسط الشيء والذهاب به، قال تعالى: ﴿وَالْأَرْضُ وَمَا طَحَاها﴾. قال الشاعر: طحا بك قلب في الحسان طروب: أي ذهب.

وفي «لسان العرب» تدور المادة كلها حول البسط والامتداد والذهاب، وبعضهم جعلها مثل الدحو.

ولورجعنا إلى مايقوله العلم الحديث في فلك الأرض وواقعه لوجدنا أن أدق وصف وأبلغه يتضمن في وصف الأرض بالدحو.

فالدحو وفق الاستعمال اللغوي يتضمن دفعا من الداحي وحركتين للمدحو إحداهما على خط مسار ما، والأخرى حركة دورانية حول نفسه.

والأرض كرة مدحوة في الفضاء ذات حركتين: حركة في مسار دائري حول الشمس، وحركة حول نفسها.. وتعقيب الدحو بإخراج الماء والمرعى، وهي من مستلزمات دحو الأرض فلولم يكن دوران الأرض حول نفسها لما وُجد الليل والنهار، ولو لم يكن دورانها حول الشمس لما وُجدت الفصول، فنتيجة الدحو كان أن تهيأت لإخراج الماء والمرعى وبالتالي وجود الحياة عليها.

تفسير آيات خلق الشمس والقمر :

﴿وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجًا﴾ نوح/١٦.

﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجا وجعل فيها سراجا وقمرا منيرا﴾ الفرقان/٦١.

﴿وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا﴾ يونس/٥.

﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا

من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب. وكل شيء فصلناه تفصيلا﴾ الإسراء/١٢.

إن الآيات الكريمة تفرق بدقة متناهية بين صفة كل من الشمس والقمر، ووظيفة كل منهما. فالشمس سراج وهاج يعطي الضوء من ذاته.. والقمر كالمرآة التي تعكس الضوء الساقط على سطحها نورا يبدد به الظلام.

يقول العلم الحديث في هذا التفريق بين الجرمين السماويين:

تبلغ حرارة سطح الشمس ستة آلاف درجة مئوية، وحرارة جوفها تصل إلى ٢٠

مليون درجة مئوية. وألسنة اللهب ترتفع عن سطحها إلى نصف مليون كيلومتر ناثرة في الفضاء طاقة سوى تساوي ١٦٧,٤٠٠ حصان من كل متر مربع، لا يصل منها للأرض سوى جزء من مليون جزء^(١).

أما القمر فقد تجلت الأسرار وزالت الأستار عن وجهه بعد نزول الإنسان عليه فهو كوكب هامد جامد لا أثر للماء والحياة فيه. وهو يعكس ضوء الشمس الذي يقع عليه ليعيده إلى الكرة الأرضية ثانية للجانب المظلم منها.

﴿الشمس والقمر بحسبان﴾ الرحمن/٥.

يتبادر إلى الذهن أنهما جُعلا لإدراك حساباتنا بهما كما جاء في قوله تعالى: ﴿لتعلموا عدّة السنين والحساب﴾ الإسراء/١٢.

ولكن هناك حسابان يتعلق بذات الشمس والقمر:

(إن الشمس هي أهم نجم بالنسبة لنا نحن سكان الكوكب الأرضي الصغير الذي يعيش هو وسكانه جميعاً على ضوء الشمس وحرارتها وجاذبيتها. وكذلك القمر وهو تابع صغير للأرض ولكنه ذو أثر قوي في حياتها وهو العامل الأهم في حركة الجزر والمدّ في البحار.

وحجم الشمس، ودرجة حرارتها، ويُعدها عنا وسيرها في فلكها، كل ذلك بحسبان. وكذلك حجم القمر ويُعده ودورته، كلها محسوبة حساباً كاملاً بالدقة بالقياس إلى آثارهما في حياة الأرض، وبالقياس إلى وضعهما في الفضاء مع النجوم والكواكب الأخرى.

إن الشمس تبعد عن الأرض حوالي ٩٣/ مليون ميل ولو كانت أقرب إلينا من هذا لاحتقرت الأرض وانصهرت أو استحالت بخاراً يتصاعد إلى الفضاء. ولو كانت أبعد منا لأصاب التجمد والموت ماعلى الأرض من حياة إذ الذي يصل إلينا من حرارة الشمس لا يتجاوز جزءاً من مليون جزء من حرارتها. وهذا القدر الضئيل هو الذي يلائم حياتنا، ولو كانت الشعري بضخامتها وبإشعاعها هي التي في مكان الشمس منا لتبخرت الكرة الأرضية، وذهبت بدداً.

وكذلك القمر في حجمه وبُعده عن الأرض، فلو كان أكبر من هذا لكان المدّ الذي

(١) «النجوم في مسالكها» للدكتور أحمد الكرواني نقلاً عن «وجوه من الإعجاز القرآني» لمصطفى الدباغ.

يحدثه في بحار الأرض كافياً لغمرها بطوفان يعم كل ما عليها وكذلك لو كان أقرب مما وضعه الله بحسابه الذي لا يخطئ مقدار شعرة.

وجاذبية الشمس وجاذبية القمر للأرض لهما حسابهما في وزن وضعها وضبط خطاها في هذا الفضاء الشاسع الرهيب، والذي تجري فيه مجموعتنا الشمسية كلها بسرعة ألف ميل في اتجاه واحد نحو (برج الجبار)، ومع هذا لا تلتقي بأي نجم في طريقها على ملايين السنين^(١).

والأشعة فوق البنفسجية التي تطلقها الشمس يصل منها مقدار بحسبان وهو المقدار الضروري لهذه الحياة على الكرة الأرضية، ولو وصلت كلها إلى الأرض لفضت على الحياة على وجه الأرض. لذلك كان على ارتفاع معين من قشرة الأرض طبقة من الأوزون لا تسمح بالمرور إلا للقدر المعلوم.

تفسير آيات النجوم والكواكب:

يقول تعالى: ﴿فَلَا أَسْأَلُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّتَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾ الواقعة/ ٧٥.

هذه الآية من الآيات التي تظهر إعجاز القرآن الكريم في تقرير حقائق الكون. فلم يكن يدور بخلد أحد عند نزول القرآن أن مواقع النجوم شيء جدير بأن يقسم به الخالق ويقرر عظمته.

والحديث عن مواقع النجوم يتناول جانبين: بعدها، منازلها:

يقرر العلم الحديث أن أقرب نجم^(٢) إلينا داخل مجرتنا مثلاً في مجموعة النجم (قنطوس) مثلاً، يبعد عنا بمسافة تقدر بعدد من السنين الضوئية. وشمسنا في طرف مجرتنا تبعد آلاف السنين الضوئية عن المركز، حيث تتكدس الشمس والنجوم. وعندما نخرج إلى خضم الفضاء الفسيح نجد أن أقرب المجرات تبعد عنا بعدة مئات آلاف السنين الضوئية، ويتزايد بُعد المجرات الأخرى عنا حتى تصل حدود الكون المرئي على مسافة نحو خمسة آلاف مليون سنة ضوئية. وهكذا نرى أننا نعيش على كوكب يقع شمسنا في طرف ذراع مجرة من بين بلايين المجرات التي تقبل إلينا أضواؤها خافتة لشدة بُعدها عنا. إنها مواقع النجوم التي أقسم الخالق جلّ شأنه بها

(١) «في ظلال القرآن» ١١٢/٢٧، ولقنات علمية من القرآن/ ٣٥.

(٢) اصطلاح الفلكيون على التفريق بين النجم والكوكب. فالنجوم والشمس: أجرام سماوية مستعرة ومضيئة بذاتها. أما الكواكب: فهي التي بردت سطوحها كالأرض.

﴿وإنه لقسم لوتعلمون عظيم﴾.

ويقرب أحد الفلكيين أحجام الكواكب والنجوم إلينا بمثال حسي مصغر فيقول:
لو أننا أردنا وضع نموذج صغير جداً للكون نجعل فيه الأرض بحجم حبة الخردل
فإن القمر سيكون ذرة بحجم ربع حبة الخردل. وعلى مسافة بوصة واحدة ستكون
الشمس بحجم التفاحة وبقية الكواكب السيارة ستباعد وتقرب من حجم الذرة إلى أكبر
من ذلك، ومسافاتهن عن الشمس تختلف بين عشرة أقدام إلى ربع ميل، هذه المجموعة
الشمسية على نموذج نصف ميل، وبعدها لا بد أن تقطع فضاء - على هذه النسبة نفسها -
مساحتها أعرض من قارة أمريكا حتى تستطيع أن ترى جرماً سماوياً، وهكذا تبعد
النجوم بعضها عن بعض بحيث إن نموذجاً مساحته مساحة الكرة الأرضية لا يتسع لأكثر
من ثلاثة نجوم على فرض أن حجم الكرة الأرضية فيه بحجم حبة الخردل. فمابالنا
بالمساحة التي عليها أن تكفي وتحتوي على مائة مليون نجم مثلاً؟! (١).

وهذا العدد الهائل من النجوم ما يمكن رؤيته بالعين المجردة، وما لا يرى إلا
بالمجاهر والأجهزة، وما يمكن أن تحس به الأجهزة دون أن تراه، وكلها تسبح في
الفلك الغامض ولا يوجد أي احتمال أن يقترب مجال مغناطيسي لنجم من مجال نجم
آخر أو يصطدم بكوكب آخر إلا كما يحتمل تصادم مركب في البحر الأبيض المتوسط
بآخر في المحيط الهادي يسيران في اتجاه واحد وبسرعة واحدة وهو احتمال بعيد وبعيد
جداً، إن لم يكن مستحيلاً (٢).

﴿هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه بل الظالمون في ضلال مبين﴾
لقمان/ ١١.

وجانب آخر من مواقع النجوم هو تلك المنازل والمدارات التي لا تتبدل ولا تتغير
بنسبة بعضها إلى بعض على مرّ العصور، وقد أمكن الوصول إلى معرفة نسب مقدرة
تقديراً دقيقاً في المجموعة الشمسية.

يقول علماء الفلك في ذلك:

إن أبعاد السيارات في المجموعة الشمسية جارية على نسب مقدرة ومطرودة تسير
وفق (٩) منازل، أولها الصفر ثم تليه ثمانية أعداد تبدأ بالعدد (٣) ثم تندرج مضاعفة هكذا:

(١) «وجوه من الإعجاز القرآني» لمصطفى الدباغ ص ٨٩.

(٢) «الله والعلم الحديث» لعبد الرزاق نوفل، نقلاً عن «لغات علمية من القرآن» ص ١٩.

(٣٨٤، ١٩٢، ٩٦، ٤٨، ٢٤، ١٢، ٦، ٣، ٠).

فإذا أضيف إلى كل واحد من هذه الأعداد العدد (٤) ثم ضرب حاصل الجمع بتسعة ملايين ميل ظهر مقدار بعد الكوكب عن الشمس.

ومن المعلوم المقرر أن ترتيب هذه الكواكب حسب بعدها عن الشمس كالتالي:

(عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ، المشتري، زحل، أورانوس، نبتون)

| | | | | | | | |
|-----|-----|----|----|----|----|---|---|
| ٣٨٤ | ١٩٢ | ٩٦ | ٤٨ | ٢٤ | ١٢ | ٦ | ٣ |
|-----|-----|----|----|----|----|---|---|

فإذا أردنا معرفة بعد كوكب (الزهرة) مثلاً، وهو في المنزل الثانية من الترتيب إذ ليس أمامه غير عطارد ومنزله الصفرة، فمنزلة الزهرة رقم (٣). وإذا أضفنا إلى رقم منزلة الكوكب العدد (٤) كما أفادت القاعدة ثم ضربنا الناتج في (٩) ملايين يكون الناتج (٦٣) مليون ميل وهو بعده عن الشمس.

وإذا أخذنا المريخ ومنزله الرابعة بعد (عطارد، الزهرة، الأرض، المريخ) لأمكتنا بكل سهولة حساب بُعده عن الشمس بتطبيق القاعدة المتقدمة: $(٤+١٢) \times ٩$ مليون = ١٤٤ مليون ميلاً تقريباً وهكذا سائر الكواكب.

وقد لفت نظر الفلكيين في بداية الأمر إشكال لم يلبس أن وضح حله وزال من أذهانهم، فقد لاحظوا أن المنازل التي تقدرها حساباتهم هي تسعة منازل في حين أن الكواكب المعروفة لديهم في المجموعة الشمسية ثمانية، فمنزلة العدد (٢٤) ليس فيها كوكب بل يأتي بعد المريخ - صاحب العدد (١٢) - كوكب المشتري وهو صاحب العدد (٤٨)، فأثيرت الشبهة في اطراد هذه النسبة بين المجموعة الشمسية، ثم وجدوا بعد الرصد والبحث الدقيق المتواصل، وجدوا في هذا الفراغ الذي قدروا أنه لا بد من وجود كوكب فيه وجدوا كويكبات صغيرة كثيرة تدور كلها في الفراغ المذكور بين المريخ والمشتري، أي في المنزل رقم (٢٤).

ومما يقرره علماء الفلك بهذا الصدد أن المجموعة الشمسية وغيرها من المجموعات التي تسير في مواقعها وتسبح في أفلاكها لوحادت قيد شعرة عن مسارها المخصص لاختلال نظام الكون كله باختلال نظام الجاذبية بين الكواكب. فنبحان الذي عظم من هذه الحقائق بقوله: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ﴾.

﴿هو الذي جعل الشمس ضياءً والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب. ما خلق الله ذلك إلا بالحق. يفصل الآيات لقوم يعلمون. إن في اختلاف الليل والنهار وما خلق الله في السماوات والأرض لآيات لقوم يتقون﴾ يونس/ ٦، ٥.

تفسير آيات الجبال:

يقول الله تعالى: ﴿وَالْجِبَالِ أَوْتَادًا﴾ النبا/ ٧.

﴿وجعلنا فيها رواسي شامخات وأسقيناكم ماءً فراتًا﴾ المرسلات/ ٢٧.

﴿أَمْنٌ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا، وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا، وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي، وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا، أَلَمْ يَعْزِزْهُمُ اللَّهُ بِأَكْثَرِهِمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ النمل/ ٦١.

﴿خَلَقَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوُنَهَا وَالْقِي فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ، وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ، هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ لقمان/ ١٠-١١.

نجد في الآيات المتعددة التي تتحدث عن الجبال ودورها ثلاث كلمات تحدد دور الجبال ووظائفها وهذه الكلمات: رواسي، أن تميد، أوتاداً.

يقول الراغب في شرح هذه الكلمات: (رسا، يقال رسا الشيء يرسو: ثبت، قال تعالى: ﴿رواسي شامخات﴾ أي جبالاً ثابتات. ﴿والجبال أرساها﴾ وذلك إشارة إلى قوله تعالى: ﴿والجبال أوتاداً﴾^(١).

وفي «ميد» يقول: (الميد اضطراب الشيء العظيم، كاضطراب الأرض)^(٢).

فدور الجبال يبرز في ترسية الأرض وتثبيتها من الميدان وهو الاضطراب فهي كالأوتاد التي تمسك الخيمة من الاضطراب والسقوط. ويفسر العلم الحديث هذا الدور فيقول: تقرر الحقيقة العلمية القاطعة أن توزيع الجبال على الكرة الأرضية إنما قصد به حفظها من أن تميد إلى الشمس أو تحيد عنها، وأنها فعلاً السبب الأول لحفظ توازن الأرض، فكان الجبال هي أوتاد للأرض تحفظها في مكانها وتحفظ عليها حركتها^(٣).

والحقيقة العلمية التي ذكرها القرآن الكريم في دور الجبال في حفظ توازن الأرض والميدان وأنها كالأوتاد ﴿وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِي﴾ الحجر/ ١٩، ﴿أَلَمْ نجعل الأرض مهاداً والجبـال أوتاداً﴾ النبا/ ٦-٧.

(١) الجبال: هي المرتفعات من الأرض التي يزيد ارتفاعها عن ألف متر وتكون مساحة قممتها أقل من مساحة قاعدتها.

(٢) مفردات الراغب ص ٢٨٥.

(٣) مفردات الراغب ص ٧٢٥.

هذه الحقيقة أدركها علماء طبقات الأرض (الجيولوجيا) في العصر الحديث، ولنسمع مايقوله أهل الاختصاص في هذا الشأن:

لو كانت الأرض بحجمها الحالي مكوّنة من الماء لبلغ وزنها خمس ماهي عليه ولما أمكنها حفظ نسبة بُعدها عن الشمس بل لانجذبت إليها، ولو كانت مكوّنة كلها من اليابس لبلغ ضعف ماهي عليه ولبعدت عن الشمس البعد الذي لا تتحقق معه الحياة.

ولاتقف الدراسات عند هذا الحد، بل وصلت إلى مزايا للجبال ودورها في القشرة الأرضية نفسها، فلكل قارة جبالها التي تتميز بها، وهناك سلسلة من الجبال موزعة على سطح الأرض توزيعاً دقيقاً محكماً، وارتفاع الجبل يتناسب ومكانه من الكرة الأرضية، ونوع الصخور المكونة له وطبيعة الأرض من حوله.

والجبال الثقيلة يتكون أسفلها من مواد هشة خفيفة، وتحت المياه توجد المواد الثقيلة الوزن، وذلك حتى تتوزع الأوزان في المناطق المختلفة للكرة الأرضية، ووجد العلماء أن هذا التوزيع يتماشى مع مرونة القشرة الأرضية ودرجة حرارتها. ثم كانت الحقيقة القاطعة في إثبات دور الجبال في ترسية الأرض في فلكها الذي تدور فيه، كما تقدم، ومما يلفت النظر كثرة ذكر المياه، والمياه العذبة على الخصوص عند ذكر الجبال ﴿الم نجعل الأرض ركفاتاً أحياء وأمواتاً. وجعلنا فيها رواسيَ شامخاتٍ وأسقيناكم ماءً قُرأتاً﴾ المرسلات/ ٢٥-٢٧، ﴿وهو الذي مدّ الأرض وجعل فيها رواسيَ وأنهاراً﴾ الرعد/ ٣.

وقد توصل العلماء بعد الاستقراء إلى أن أعذب المياه وأغزرها ماكانت ينابيعها من الجبال وسفوحها.

تفسير آيات البحار:

يقول تعالى: ﴿امن جعل الأرض قراراً، وجعل خلالها أنهاراً، وجعل لها رواسيَ وجعل بين البحرين حاجزاً، إله مع الله بل أكثرهم لا يعلمون﴾ النمل/ ٦١.

ويقول جلّ شأنه ﴿مَرَجَ البحرين يلتقيان، بينهما برزخ لا يبغيان، فبأيّ آلاء ربكما تكذّبان. يخرج منها اللؤلؤ والمرجان فبأيّ آلاء ربكما تكذّبان وله الجوار المنشآت في البحر كالأعلام فبأيّ آلاء ربكما تكذّبان﴾ الرحمن/ ١٩-٢٥.

الكلمات المعبرة ذات الدلالة في هذه الآيات وهي: حاجز، مرج، برزخ.

يقول الراغب في «مفرداته» في مادة «حجز»^(١) : (يقال: الحجز المنع بين الشيئين بفصل بينهما، قال عز وجل: ﴿وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾).

وفي مادة «مرج»^(٢) يقول الراغب: (والمروج الاختلاط، يقال: مرج أمرهم اختلط. ويقال: أمر مريج: أي مختلط، ومنه غصن مريج مختلط).

وفي مادة «برزخ»^(٣) يقول الراغب: (البرزخ: الحاجز، والحد بين الشيئين. والبرزخ في القيامة: الحائل بين الإنسان وبين بلوغ المنازل الرفيعة في الآخرة، وقيل البرزخ في القيامة ما بين الموت إلى القيامة).

إن الكلمات المذكورة تفيد إطلاق ماء البحرين فيختلطان، ولكن لا يتجاوز ماء أحدهما على ماء الآخر.

ولقد توصل العلم الحديث إلى صور شتى وحالات متعددة لا يتجاوز فيها ماء أحد البحرين على الآخر ولا يتعدى الحاجز الموضوع للفصل بينهما. فمن هذه الصور قالوا:

١- إن دورة المياه في الكون والتي تبدأ بتبخر كميات هائلة من سطح المحيطات وتتكون منها السحب وتنزل على اليابسة مطراً ينبت به الزرع وتحيا الأرض بعد موتها، وهذه المياه كميات لا يستهان بها وهي مياه عذبة، فارتفاعها من المحيطات لا يزيد من نسبة ملوحة المياه في البحر وتبقى نسبة الملوحة كما هي، كما أن الأمطار التي تشكل السيول والأنهار تصب ثانية في البحار والمحيطات حاملة معها ملوحة الأرض وشيئاً من المعادن والأتربة لا يجعلها تطفئ على البحر بل يبقى البحر ملحاً أجاجاً بنسبة واحدة.

٢- وقالوا: إن مستوى سطح الأنهار أعلى في العادة من مستوى سطح البحر، ومن ثم لا يبغي البحر على الأنهار التي تصب فيه، ويغير مجاريها بمائه الملح فيحولها عن وظيفتها ويبغي على طبيعتها، وبينهما دائماً هذا البرزخ من صنع الله فلا يغيان.

٣- ويقرر علماء البحار أن الأنهار الضخمة تشكل عند مصباتها أشبه ما يكون ببحيرات خاصة، لها خواصها من حيث المذاق فليست هي بالمياه العذبة كمياه النهر، وليست بالمياه المالحة الأجاج كما هي الحال في مياه البحر. وهذه المنطقة تعيش فيها الكائنات الحية التي لا تستطيع الخروج إلى مياه البحر لعدم ملائمة البيئة لها فتهلك،

(١) مفردات الراغب ص ١٥٦.

(٢) مفردات الراغب ص ٧٠٦.

(٣) مفردات الراغب ص ٥٦.

ولاستطيع الخروج إلى مياه النهر لعدم إمكان العيش فيها أيضاً. فهذه المنطقة حجر محجور، يحجر كائناته الخاصة وطبيعة مياهه عن الاختلاط بغيره، ومحجور عن المياه الأخرى، فسبحان الذي جعل بين البحرين برزخاً وحجراً محجوراً.

٤- وقال بعضهم: إن هنالك حاجزاً بين البحار أنفسها يمكن تمييز خاصيات ماء كل بحر على جانبي الحاجز، وكذلك مافيه من معادن وكائنات حية. يقول صاحب لفتات علمية^(١): نشرت بعثة السيرجون افري مع بعثة الجامعة المصرية وخفر السواحل لدرس أعماق البحر الأحمر، والمحيط الهندي في جنوب عدن، نشرت بعض الملاحظات منها:

أ- أن البعثة وجدت المياه في خليج العقبة تختلف في خواصها وتركيبها الطبيعية والكيميائية عن المياه في البحر الأحمر، وحققت البعثة (بواسطة قياس الأعماق) وجود حاجز مغمور عند مجمع البحرين يبلغ ارتفاعه أكثر من ألف متر.

ب- وكذلك تبين وجود حاجز مغمور بين المحيط الهندي والبحر الأحمر، وأثبتت التحاليل الكيميائية أن مياه المحيط الهندي تختلف في خواصها الطبيعية والكيميائية عن مياه البحر الأحمر، ومرجع ذلك إلى وجود هذا الحاجز المغمور عند ملتقى كل بحر.

٥- وقال بعضهم: إن هنالك حاجزاً من نوع آخر أيضاً وفي داخل المحيطات إذ ثبت أعظم الأنهار على الإطلاق موجودة داخل البحار، يقول فرديناندلين^(٢):

وتوجد أعظم أنهار الدنيا في البحر، ويبدو نهر المسيسيبي أو حتى نهر النيل أو نهر الأمازون بجانبها وكأنه غدير، يبدو غريباً أن تستطيع تيارات المياه أن تتحرك لمثل هذا البعد خلال مياه أخرى دون أن تختلط بها. ولكن أي مجرى من الماء أدفاً أو أبرد من الماء المحيط من كل الجهات يستمر في جريانه بمفرده لزمان طويل، وفي بعض الأحيان تتميز صفاته بوضوح يشبه تقريباً وضوحهما لوكان المجرى على الأرض اليابسة، وقد يختلف أيضاً تيار الماء المتحرك في لونه عن ماء البحر المحيط به.

وتوجد حركات أخرى في البحر هي أعظم حتى من التيارات السطحية، وهذه هي صعود المياه الأدفاً والمياه الأخف، وهبوط المياه الأثقل والمياه الأبرد. وفي البحار القطبية تغوص المياه الباردة إلى أسفل وترحف على قاع المحيط كما أن المياه الدافئة

(١) ص ٥٧.

(٢) «كل شيء عن البحر» ترجمة الدكتور محمود محمد رمضان، ص ٤١.

في المناطق الحارة تندفع ببطء على السطح تجاه القطبين. ومثل هذه الحركات تمد كل الكائنات الحية في البحر باحتياجاتها فهي تحمل الأوكسجين الضروري للحياة إلى أسفل قاع المحيط، وتوزع الأملاح والمعادن الأخرى هنا وهناك في الماء تماماً مثلما يضع الفلاحون السماد في التربة. وهذه المعادن ضرورية لحياة النباتات التي هي غذاء الحياة الحيوانية في البحر. وتيارات السطح، وصعود المياه ونزولها، والزحف البطيء على طول القاع في المحيط، كل هذه تُنظفُ البحر وتنقيهِ، فهي تحميه من أن يأسن كما يأسن ماء البركة الراكدة. ويقدر العلماء أن مياه المحيط القطبي الشمالي تتغير كل ١٦٥ سنة كما يتغير الماء في حمام السباحة، ويجري هذا في كل مكان في المحيطات وفي أغلب الخلجان والمداخل الصغيرة^(١).

وهكذا نجد أن النص القرآني المعجز يحتمل كل ما قيل واكتشف من الحواجز سواء كانت بين الأنهار العذبة وبين مصباتها في البحار، أو بين البحار الملحة أنفسها، أو بين التيارات المائية في المحيط ومائه. وقد يكتشف غير هذا في المستقبل، وتبقى الحقيقة الخالدة ﴿وما يستوي البحران، هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج، ومن كل تأكلون لحماً طرياً، وتستخرجون حليّة تلبسونها، وترى الفلّك فيه مواخر لتبتغوا من فضله ولعلّكم تشكرون﴾ فاطر/١٢، ﴿وهو الذي مرّج البحرين، هذا عذب فرات وهذا ملح أجاج، وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً﴾ الفرقان/٥٤.

تفسير آيات الظواهر الجوية:

(الرياح - السحب - المطر - الرعد والبرق)

يقول الله سبحانه وتعالى: ﴿والله الذي يرسل الرياح فيسوطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله، فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون﴾ الروم/٤٨، ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾ الحجر/٢٢.

إن الحقائق التي ذكرتها آيات القرآن الكريم عامة وما يتعلق منها بتأثير الرياح في إنشاء السحب وتلقيحها وتشكيلها، ثم نزول المطر أو البرد منها، هذه الحقائق من أعجب الأمور وأدقها التي توصل إليها العلم الحديث فلو لم يكن في القرآن الكريم إلا هذه الحقائق لكانت كافية في تعريفنا بأن منزل القرآن هو خالق السماوات والأرض ومصروف الرياح ومنزل الماء من السماء يحيي به الأرض بعد موتها.

(١) «كل شيء عن البحر»، ص ٤٧.

ولنسمع مايقوله العلم الحديث في هذا الشأن :

الأصل في تكوين السحب على اختلاف أنواعها وأشكالها إنما هي الرياح، فالسحب الطبقيّة وهي التي تنمو في اتجاه أفقي يكون الهواء الذي يحملها صاعداً إلى أعلى ببطء، أما السحب الركامية الرأسية تكون الرياح التي تحملها صاعدةً إلى أعلى بسرعة ﴿... فتثيرُ سحباً فيسُطُّ في السماء كيف يشاء﴾.

وحقيقة أخرى أشارت إليها الآية الكريمة ﴿وأرسلنا الرياحَ لواقِحَ فَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾ الحجر/ ٢٢، فقد حملها كثير من المفسرين على أن الرياح اللواقح تلقح النباتات فتحمل الطلع من الذكر إلى الأنثى فتلقح بويضاتها. والحقيقة أن هذا الأمر ممايتحقق بواسطة الرياح، إلا أن سياق الآية في هذا المقام لايشتمل ذلك بل يشير إلى حقيقة أخرى أدق وهي «تلقيح السحب». (١)

وقد توصل العلم الحديث إلى أن نمو السحب ونزول المطر يتطلب أن تلقح الرياح هذه السحب بأكداش من جسيمات مجهرية تسمى (نويات التكاثف)، ومن أهم خواص هذه النويات أنها تمتص الماء أو تذوب فيه، وتحمل الرياح كذلك بخار الماء وتلقح به السحاب لكي يمطر. وتتم العملية بتجمع جزئيات الماء المنفصلة والموجودة في الهواء حول نويات التكاثف حيث إن أصغر نقط الماء تحتوي على ما لا يقل عن (١٠٠) جُزْيء وليس من السهل أن يتجمع مثل هذا العدد مع بعضه لمجرد الصدفة مالم توجد نويات ترسب عليها الجزئيات وتحفظ بها. وعلى هذا النحو عرف الناس الآن أن الآية الكريمة إنما تشير إلى تلقيح الرياح للسحب ببخار الماء ثم بنويات التكاثف كخطوة أساسية لكي تجود بالمطر (٢).

أما قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُرْسِلُ سَحَاباً ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَاماً فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ، وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِزَّ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ، فَيَصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَمَّنْ يَشَاءُ يَكَاذُ سَنَّا بِرَقِّهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾ النور/ ٤٣، فيشير إلى جملة من الحقائق الباهرة التي لم تُكتشف إلا بعد تقدّم علوم الأرصاد الجوية في العصر الحديث، من ذلك:

(١) أشار ابن القيم في كتابه «مفتاح دار السعادة»، ص ٢٠١ إلى ذلك، حيث يقول: (...). فجعله رخاء - أي الهواء - ورحمة وبشرى بين يدي رحمته ولائقاً للسحاب يلقيه بحمل الماء كما يلقيح الذكر الأنثى بالحمل).

(٢) «من روائع الإعجاز في القرآن» للدكتور جمال الدين الفندي، ص ٨٤.

يقول علماء الأرصاد الجوية: إن المطر يتوقف على تكوين السحب الماطرة (المُزن) ومن هذه المزن ما يسمى (المزن الركامي). وهي سحب تنمو في الاتجاه الرأسى، وقد تمتد إلى علو عشرين كيلو متراً، وداخل السحب الركامية ثلاث طبقات، وهي الطبقة السفلى وقوامها نقط نامية من الماء ثم الطبقة الوسطى وتكون درجة حرارة نقط الماء فيها تحت الصفر المئوي، ومع ذلك فهي باقية في حالة السيولة^(١)، أما الطبقة العليا فتكون من بلورات الثلج ذات اللون الأبيض الناصع. وجعل الله سبحانه وتعالى نقط الماء فوق المبردة غير المستقرة قابلة للتجمد بمجرد ارتطامها بجسم صلب، لذا فبمجرد أن تتساقط بلورات الثلج من الطبقة العليا إلى الطبقة الوسطى وتلتقي بنقط الماء فوق المبردة تلتصق البلورات بنقط الماء وتتجمد فينمو حجمها سريعاً، وينشط عليها التكاثف فتساقط على هيئة برد ﴿وَيُنْزَلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ﴾. وأثناء سقوط هذا البرد يلتقي بنقط الماء النامية فيتجمع معها، ويزداد حجم النقط كثيراً ولا يقوى الهواء على حملها فتساقط على هيئة مطر، ويذوب أغلب البرد قبل وصوله إلى سطح الأرض.

ولنمو البرد وذوبانه أهمية عظيمة في عمليات شحن السحابة بالكهربائية التي تسبب البرق والرعد، فالبرد عندما ينمو فوق (٢) ملمتر يشحن بالكهربائية، وعندما يذوب يشحن أيضاً بشحنة مضادة، وفي كلتا الحالتين يحمل الهواء الصاعد شحنة كهربائية مضادة عظمى. والآية الكريمة ذكرت كلمة (ركاماً) وأعقبها بالـ(برد) وقد أثبت العلم أن هذا النوع (السحب الركامية) هي الوحيدة التي تعطي البرد. وفي التعبير بقوله: ﴿ثُمَّ يُؤَلَّفُ بَيْنَهُ﴾ سرٌّ من الأسرار الدقيقة الرائعة التي تعتبر الآن من أمهات الحقائق الجوية، إذ فيها الدلالة على الحقيقة الكهربائية التي تقوم عليها تلك الظواهر الجوية كلها. فإن التأليف بين السحاب وصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية حتى يتجاذب ويتعاباً في الجو تعبئة الجيوش، وهو يتفق مع ما يريد الله أن يخلقه من بين السحاب من برق وصواعق، ومطر أو برد.

وتشبيه الآية الكريمة هذه السحب بالجيال لا يدركه إلا من ركب الطائرة وعلت به فوق السحب أو بينها، فإنه سيدهش لدقة الوصف فإنه يجد مشهد الجبال حقاً بضخامتها ومساقطها وارتفاعاتها وانخفاضاتها.

(١) يجمد الماء تحت الضغط العادي في درجة الصفر المئوي، أما إذا اختل الضغط الجوي الذي يقدر بـ (٧٦) سنتيمتر زئبق، فإن تجمد الماء وكذلك غليانه يختلفان، لذا تكون درجة الحرارة أقل من الصفر ولا يجمد الماء لضعف الضغط الجوي.

وأشارت الآية الكريمة إلى عظم القوى الكهربائية المشتركة في تكوين البرد بالنص على عظم برقه وشدته وبلوغه من الحرارة درجة الايضاض، الذي يخطف بالأبصار ويصيبها بالعمى المؤقت، وأكثر من أن يعاني من هذه الظاهرة هم الطيارون ﴿يَكَادُ سَنَا بَرْقُهُ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ﴾^(١).

تفسير آيات خلق الحيوان:

يقرر القرآن الكريم حقائق عن الحيوان لا تقل في الأهمية والدقة عن الحقائق التي يقررها في كل جانب من جوانب الكون والحياة، فهو يلفت النظر تارة إلى المنافع التي يحصل عليها الإنسان من تسخير هذه الدواب ركوباً وحملًا ولباساً وطعاماً وشراباً وزينة، فهي مسخرة للإنسان مذللة له متقادة.

إن ظاهرة انقياد الحيوان للإنسان ظاهرة تستدعي شكر المنعم الذي جعل فيها هذه الطباع، ولولا وجود هذا الطبع فيها لما استطاع الإنسان إلى التغلب عليها سبيلاً.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ، وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ، وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ﴾ يس/ ٧٣.

يقول الإمام الغزالي: اعلم - وفقك الله وإيانا - أن الله خلق البهائم لمنافع العباد وامتناناً عليهم.. فخلقها سمیعة بصيرة لبلغ الإنسان حاجته لأنها لو كانت عمياء صماء لم ينفع الإنسان بها ولا وصل بها إلى شيء من مآربه. ثم مُنعت العقل والذهن حكمة من الله، لتدل للإنسان فلا تمتنع عليه إذا أكدها عند حاجته إلى إكدادها في الطحن وحمل الأثقال إلى غير ذلك.. أما ترى الحمار يذلّ للحمولة والطحن، والبعير لاتطيقه عدة رجال لو استعصى وينقاد لصبي صغيرة والثور الشديد يذعن لصاحبه حتى يضع النير على عنقه ليستحرضه، والفرس تركب وتحمل عليها السيوف والأسنة في الحروب وقاية لراكبها، والقطيع من الغنم يرعاهما صبي واحد، فلو تفرقت فأخذت كل شاة منها جهة لنفورها، لتعذرت رعايتها، وربما أعجزت طالبها.

وكذلك جميع الحيوان المسخر للإنسان، وما ذلك إلا لأنها عدمت العقل والتروي فكان ذلك سبباً لتذليلها^(٢).

(١) «سنن الله الكونية» للدكتور محمد أحمد الغمراوي، نقلا عن «الفتات علمية في القرآن» ص ٥٣.

(٢) «الحكمة في مخلوقات الله» للإمام الغزالي ص ١٠١.

وعبرة أخرى يلفت القرآن الكريم الأنظار إليها في الحيوان وهي مسألة رزق الحيوان؛ إن الإنسان يعقل ويفكر ويخطط ويسعى في سبيل تحصيل معيشته وكسبه وإذا حصل على الكسب بطريقة ما، فكّر في ادخاره وخزنه للمستقبل، أما الحيوان فليست عنده القدرة على التفكير والتخطيط، وليس من طبعه ذلك، إلا أنواع قليلة منها يعدّها علماء الحيوان في الطبقة الراقية من الحيوان كالثمل والنحل. إن قدرة الحكيم الخبير المحيطة بكل شيء قد تكفّلت بأرزاقها، وتوفّر سبل البقاء أمامها. يقول عز من قائل:

﴿وَكَيْفَ مِنْ دَابَّةٍ لَاتَحْمِلُ رِزْقَهَا، اللَّهُ يَرْزُقُهَا إِنْ شَاءَ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾
العنكبوت/ ٦٠.

هكذا شأن الألوهية في المخلوقات: العلم والإحاطة بالمكان وتكفل الرزق في جميع الظروف، فالحيوان مرزوق في كل مكان، في أعماق البحار والمحيطات، وفي الصحراء المحرقة، والأصقاع المتجمدة، تحت الصخور الصماء وفي أجواء الفضاء. كل ذلك في كتاب لا يضل ربي ولا ينسى.

﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرّها ومستودعها كلّ في كتابٍ مبين﴾ هود/ ٦٠.

يقول الإمام الغزالي: ولما كانت البهائم لأذهان لها ولا أكفّ، ولا أصابع تهيأ للأعمال، كُفِّيت مؤونة ما يضر بها، بأن جعلت كسوتها في خلقها باقية عليها مابقيت، فلا تحتاج إلى استبدال بها وتجديد بغيرها، بخلاف آدمي فإنه ذو فهم وتديبر، وأعضاء مهياة لأعمال ما يقترحه، وله في إشغاله بذلك صلاح، وفيه حكمة، فإنه خُلِقَ على قابلية لفعل الخير والشر.

انظر إلى النمل وما ألهمته له، في اجتشادها في جمع قوتها وتعاونها على ذلك وإعدادها لوقت عجزها عن الخروج والتصرف بسبب حرّ أو برد. وألهمته في قلبه ذلك من الحزم ما لم يكن عند من يعرف العواقب حتى تراها في ذلك إذا عجز بعضها عن حمل ما حمله أو جهد به أعانه آخر منه، فصارت متعاونة على النقل كما يتعاون الناس على العمل الذي لا يتم إلا بالتعاون.

ثم إنها ألهمته حفر بيوت في الأرض، تبتدىء في ذلك بإخراج ترابها وتقصد إلى الحب الذي فيه قوتها، فتقسمه خشية أن ينبت بنداوة الأرض فما خلق هذا في جبلتها إلا الرحمن الرحيم، ثم إذا أصاب الحب بلل أخرجه فنشرته حتى يجف، ثم إنها

لاتتخذ البيوت إلا فيما علا من الأرض، خوفاً من السيل أن يغرقها^(١).

لقد نص القرآن الكريم أن هذه المخلوقات من الدواب والحشرات المتباينة في الأشكال والحجوم وطريقة الحركة والسير أمم وفصائل أمثال الناس: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ، فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رَجْلَيْنِ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ، يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ، إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ النور/ ٤٥.

﴿وَمِمَّنْ دَابَّةٌ فِي الْأَرْضِ لَا طَائِرُ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَلُكُمْ مَافَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ الأنعام/ ٣٨.

لقد أدرك العلم الحديث شيئاً جزئياً من حياة الحيوان بالمخالطة والتتبع والاستقراء، وتأكد لدى كل الباحثين أن كل حيوان ينتمي إلى فصيلة معينة تجمع بين أفرادها خصائص واحدة وتربطها فيما بينها نظم ثابتة ولها وسائلها الخاصة في التفاهم.

ومن دراسة ظواهر الحيوانات الأليفة أثبتوا أن لكل صنف منها لغة خاصة يتفاهم بها ويتعارف مع غيره على أحواله، وأحوال ما يحيط به.

فالدجاجة تُصدر أصواتاً خاصة مميزة عندما تدعو صغارها إلى التقاط الحبوب وترى الصغار تتجمع حولها بسرعة، ولكنها تصدر أصواتاً أخرى عند تحذيرها من خطر وشيك، فترى الصغار تهرب للاختباء في القن أو تحت أجنحتها.

يقول «ألن يفو» أحد علماء الحيوان: إنه وقف يوماً يرقب ثلاثة من صغار الثعالب تلعب حول أمها، وإذا بصغير منها يدخل الغابة ويبتعد عنها كثيراً حتى غاب عن النظر، فاستوت الأم قائمة ومدت أنفها إلى الناحية التي ذهب منها وبقيت على حالها هذه برهة عاد بعدها الصغير في اتجاه لا يلتفت يمينه ولا يسرة كأنما تجذبه بخيط لا تراه العين.

والنحلة إذا حصلت على حقل مزهر عادت إلى الخلية، وما أن تتوسطها حتى ترقص رقصاً خاصاً فإذا بالنحل يندفع إليها ويسير خلفها إلى حيث تهديها النحلة إلى الزهور، بل برقصاتها المعينة تكون قد حددت الجهة والبعد ونوع المرعى.. فلا بد لكل هذه الفصائل من الحيوانات والحشرات من لغة للتفاهم ونظام تسير عليه.

لقد قرر القرآن الكريم هذه الحقائق بكل وضوح قبل أن يتطور علم الحيوان الذي لا يزال يدرس الحالات الظاهرة، ويبين أن هذه اللغة يمكن إدراكها إذا شاء الله سبحانه وتعالى، بأن أودع في الإنسان خاصية تمكنه من استقبال إشارات هذه اللغة، وأخبر

(١) «الحكمة في مخلوقات الله» للإمام الغزالي، ص ١١٢.

القرآن الكريم أن ذلك قد تحقق لأحد من أصفياء الله من البشر وهو سليمان عليه السلام: ﴿وَوَرِّثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ. وَخُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ.﴾ حتى إذا أَثْوَا على وادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ: يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. فَبَسَّمَ ضَاحِكاً مِنْ قَوْلِهَا، وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحاً تَرْضَاهُ، وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ النمل/١٦-١٩.

وهناك فصائل من الحيوان تمتاز عن غيرها بصفات أودعها الله سبحانه وتعالى فيها غريزة وفطرة يعجز عنها العقل البشري مع وسائله المتطورة المتقدمة.

فمثلاً النحل ومملكته، والتنظيم الرائع بين أفراد النحل عامة، إن دراسات مستفيضة قامت حول هذه المملكة فأظهرت العجب العجاب.

فالتقسيمات الدقيقة بين أصناف النحل وتحديد مهمة كل صنف منها: صنف مهمته جمع رحيق الأزهار وإيداعه في مستودعاته من الخلية، وصنف يعمل داخل الخلية لبناء بيوت سداسية الشكل، واختيار الشكل السداسي لم يأت اتفاقاً، بل عن اختيار وحكمة فإنَّ أيَّ شكل هندسي آخر لا يمكن أن يملأ كل الفراغات، بل تبقى زوايا مهمة لا يستفاد منها، أما الشكل السداسي فلا تبقى معه أية زاوية مهمة، وهناك صنف من النحل يجهز للملكة طعاماً خاصاً، ومهمة الملكة هي الإنجاب ليس إلا، إذ بعد أن تضع بيوضها تموت لتختار ملكة جديدة من بين الجيل القادم وتقتل كل الأصناف الشبيهة بالملكة المختارة حتى لا تتنازع الملكة سلطتها وهناك على باب الخلية حرس يفتشون العلامات بدقة متناهية، فالتى تقع على نجاسة أو شيء خبيث الرائحة يكون جزاؤها القتل أو الطرد والمنع من دخول الخلية.

فسبحان الذي أوحى إلى النحل مهمتها في الحياة، وخصها بهذا الدور العظيم لإخراج مافيه الشفاء للناس ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذي من الجبال بيوتاً ومن الشجر ومما يعرشون. ثم كُلِّي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكِ ذُلُلاً، يَخْرُجُ مِنْ بَطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ النحل/٦٨-٦٩.

وليطهر الله سبحانه وتعالى معجزات كتابه ويُرِي آياته للناس في هذا العصر فقد سخر أناساً لدراسة طبيعة العسل وتركيبه. وذهبوا إلى تشريح جسم النحلة واستخراج السم الذي في بطنها وتحليله للتعرف على خاصياته، وتوصلوا إلى نتائج باهرة تميّط

الثام عن معجزة الكتاب الخالد «يُخْرِجُ من بطونها شرابٌ مختلفٌ ألوانُهُ فيه شفاءٌ للناسِ»، وفيما يلي إشارات إلى بعض هذه النتائج:

أما عن تركيب العسل فقد وجدوا أنه يتركب من:

| | | |
|---------|---------|-----------|
| (٤٠-٢٥) | دكستروز | (جلوكوز) |
| (٤٥-٣٠) | لفيلوز | (فروكتوز) |
| (٢٥-١٥) | ماء | |

والجلوكوز الموجود فيه بنسبة أكثر من أي غذاء آخر هو سلاح الطبيب في أغلب الأمراض، واستعماله في ازدياد مستمر بتقدم الطب، فيعطى بالفم والحقن الشرجية وتحت الجلد وفي الوريد، ويُعطى بصفته مقوياً ومغذياً ومضاداً للتسمم الناشئ عن مواد خارجية مثل الزرنيخ والزرنيق والذهب. وضد التسمم الناشئ عن أمراض الكبد والاضطرابات المعدية والمعوية، وضد التسمم في الحميات مثل التيفوئيد والالتهاب الرئوي والسحائي المخي والحصبة، وفي حالات ضعف القلب، وحالات الذبحة الصدرية، وبطريقة خاصة في الارتشاحات العمومية الناشئة من التهابات الكلى الحادة، وفي احتقان المخ وفي الأورام المخية.

واتجهت الأبحاث العلمية التي تُجرى على النحل والعسل إلى دراسة سم النحل، إذ تقوم حالياً بعض المؤسسات الطبية باستخراج سم النحل الذي يفرزه عن طريق آلة اللسع لاستعماله في معالجة بعض الأمراض المستعصية، وفي أمريكا وإنجلترا حالياً مناحل لاغرض لها إلا تربية النحل لاستخراج مصله، وعمل حقن منها لعلاج كثير من الأمراض الروماتيزمية، اللباجو وعرق النساء، ونجحت في علاج التراخوما «الرمد الحبيبي» ومازال العلم يحمل إلينا في كل يوم فائدة طيبة من فوائد ما يخرج من بطون النحل من عسل وسم.

قام الدكتور «أف. ج. ساكيت» بكلية كولورادو الزراعية بتجربة فزرع جراثيم مختلف الأمراض على العسل الصافي، ولبت ينتظر النتيجة، وقد أثارت النتائج إعجابه، إذ ماتت الجراثيم وقضى عليها كلها في فترة بضع ساعات، أو في مدة أقصاها بضعة أيام. ماتت جراثيم حمى التيفوس بعد (٢٤) ساعة، وماتت جراثيم التهاب الرئوي (المكورات الرئوية) في اليوم الرابع، وكذلك بعض الأنواع الأخرى كجراثيم التهاب البريتون والبلورا والخراجات والمكورات العنقودية والمكورات العقدية، أما جراثيم الدوسستاريا فقد قضى عليها بعد (١٠) ساعات.

وخلال الحرب العالمية الثانية استعمل الأطباء العسل في علاج الجروح المتسبية

عن الإصابات بالرصاص، وكانت النتيجة مذهلة من حيث سرعة الشفاء الجروح وشفاؤها. واستعمل المرهم المكون من المزيج التالي في شفاء الجروح المستعصية التي فشل علاجها بالأشعة وسائر المضادات الحيوية، ويتكون من: ٨٠ غ عسل نحل + ٢٠ غ زيت كبد الحوت + ٣ زير نورم.

وقد وجد في نتائج هذه الوصفة ما يأتي:

أحد المصابين في الحرب وعمره (٣٥) عاماً عنده ندبة كبيرة في ظهر قدمه اليمنى وفي وسط الندبة قرحة مساحتها ٣ × ٥ سم وقاعها عميق. ظل الجرح على هذه الحالة لمدة ثلاثة شهور ولم تجد المراهم والعلاج بالأشعة وغيرها من الطرق معها نفعاً. وقد استعمل مرهم العسل لمدة (٢٢) يوماً فشفيت القرحة.

وقد استعمل العسل ولا يزال علاجاً عالمياً للزكام بإضافته إلى بعض أنواع السوائل. فبعض الأطباء مثل «ك. أ. منيس» و«س. كنيب» ينصحون بالعسل مع اللبن الدافئ، وآخرون ينصحون باستعمال العسل الممزوج بعصير الليمون، أما الدكتور «أورتل» فأوصى باستعمال العسل الممزوج بعصير البرسيم الدافئ في علاج الزكام علاجاً ناجحاً.

وللعسل تأثير قوي لعلاج السعال. أما العسل مع الرمان فينصح به ابن سينا لعلاج أمراض القلب والذبحة الصدرية. وفي العصر الحديث يقول الدكتور «م. س. جولدمب» و«رافي»، وغيرهم إن تناول مائه ٥٠-١٤٠ غ يومياً من العسل لمدة شهر أو شهرين للمرضى الذين يشكون من علل خطيرة في القلب يحدث تحسناً ملحوظاً في حالتهم ويرجع حالة الدم إلى الحالة العادية ويزيد من الهيموجلوبين وقوة الجهاز الدوري.

ويتفق الأطباء الأمريكيون والروس على أن العسل أفضل علاج للمصابين بقرح المعدة والاثني عشر، على أن يؤخذ قبل وجبات الطعام بساعة أو أكثر، وأفضل الأوقات هو قبل الإفطار، ومذاباً في كوب ماء دافئ.

ويقرر «أ. أويرتل دي» أن عسل النحل علاج ممتاز للاضطرابات العصبية، وأن كوب ماء مذاب فيه العسل إذا أخذ قبل النوم كفيل بتوفير نوم هادئ.

وقد وصف بعض الأطباء الروس والصينيين العسل لعلاج أمراض الجلد والخرايج والدمامل، أما علاج القرنية في العين بالعسل، فقد أعطى نتائج مذهلة.

ويقول الدكتور «بيك» الأمريكي، إن مرض السرطان غير معروف بين النحاليين في الغالب، وهذا يرجع إما إلى العسل الذي يتناوله النحالون باستمرار أو نتيجة الغذاء.

الملكي أو حبوب اللقاح الموجودة بالعسل أو أنها نتيجة لسّم النحل الناتج من اللسع .
وإذا أخذ مرضى السكر العسل تحت إشراف الطبيب فقد أثبتت التجارب انخفاض
نسبة السكر في دمائهم وعودتها إلى الحالة الطبيعية^(١) .

هذا بعض ماتوصلوا إليه من شأن النحل والشراب الخارج من بطونها، ومن يدري
ماذا يكون بعد تطور مسائل المعرفة والاكتشاف؟ فقد تكتشف خصائص للعسل أضعاف
ما عرفوا الآن، وستبقى المعجزة الخالدة تحدوهم «فيه شفاء للناس» . وستبقى الحقيقة
الإيمانية ماثلة في الأذهان: «اسقِهِ عَسلاً .. صدق الله العظيم وكَذَبَ بطنُ أخيك»^(٢) .

الإنسان سيّد المخلوقات في الأرض:

لقد حظي الإنسان بالجانب الأكبر من اهتمام القرآن الكريم، كيف لا، وهو سيد
المخلوقات الذي سخر له كل مافي السماوات والأرض، وخُصَّ بملكة العقل والبيان،
فكان أهلاً لحمل الأمانة التي عجزت عنها السماوات والأرض والجبال وأشفقت منها
وحملها الإنسان .

لقد بيّن القرآن مبدأ خلق النوع البشري، ثم سنة الله في تطوّره وتكاثره من الزوجين
الذكر والأنثى، وبيّن أطوار خلقه في الظلمات الثلاث داخل القرار المكين إلى أن
يخرج خَلْقاً مكتمل الخلقة سويّها، كما تحدّث القرآن الكريم عن خصائص هذا الإنسان
الذي أكرمه ربه من بين سائر المخلوقات، إلا أن الإنسان كثيراً مايتنكّر لهذه النعم
ويُسيء الأدب مع خالقه المتفضّل عليه بالنعم الوافرة، كما يتحدّث القرآن الكريم عن
مصير الإنسان باعتباره كائنًا حيًّا فمصييره الموت، ثم البعث والنشور للحساب .

إن دراسة الإنسان من خلال آي الذكر الحكيم لن يصل إلى دقائق أسرارها جيل من
الأجيال مهما بُذلت الجهود من المختصين ومهما رُصدت الأموال للأبحاث في مخلوق
يكتنف الغموض جوانب كينونته وتلتف الأسرار حقيقة ماهيته ..

وفي عصرنا الحاضر وعلى الرغم من تقدم العلوم الهائل في مجالات الحياة
المختلفة فلا يزال الإنسان ذاك اللغز المحيّر، ولا تزال جوانب كثيرة مجهولة تماماً في
الإنسان لم يستطع العلماء أن يفهموا حتى ظواهرها البسيطة: كيف يفكر الإنسان؟ كيف

(١) انظر في استعمالات العسل في الطب: كتاب «الأدوية والقرآن الكريم» للدكتور محمد
هاشم، ص ٦٨ ومابعدها .

(٢) رواه البخاري، كتاب الطب، ج ٧ ص ١٣ .

يحلل الأمور؟ كيف ينام؟ كيف يضحك؟ كيف يحب؟ كيف يغضب؟ كيف..؟
كيف..؟

قائمة من التساؤلات التي قد تبدو بسيطة لأول وهلة للإنسان العادي، ولكنها تحير الدارسين المتعمقين في دراسة الإنسان.

إن الدراسات لاتزال تقف على عتبة الظواهر التشريحية لمعرفة وظائف الأعضاء ولم تصل إلا إلى بعض وظائفها، إلا أنها عاجزة تمام العجز عن إدراك كيفية عملها، فإن خلف ذلك سر الروح والحياة ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ. قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ الإسراء/ ٨٥.

تفسير آيات خلق الإنسان:

قال تعالى: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ، خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ، يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ الطارق/ ٧-٥.

يقول ابن القيم: (فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولاً وماصارت إليه ثانياً، وأنه لواجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا لها سمعاً أو بصرأ أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً بل عظماً واحداً من أصغر عظامها بل عرقاً من أدق عروقها بل شعرة واحدة لعجزوا عن ذلك، بل ذلك كله آثار صنع الله الذي أتقن كل شيء في قطرة من ماء مهين. فمن هذا صنعه في قطرة ماء. فكيف صنعه في ملكوت السماوات وعلوها وسعتها واستدارتها وعظم خلقها وحسن بنائها وعجائب شمسها وقمرها وكواكبها ومقاديرها وأشكالها)^(١).

يقول تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا: بَلَى شَهِدْنَا، أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ﴾ الأعراف/ ١٧٢.

ويقول جل ثناؤه: ﴿فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ. خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ. يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ﴾ الطارق/ ٧-٥.

تشير الآية الأولى أن الله سبحانه وتعالى أخذ من ظهور بني آدم ذريتهم، وذلك في عالم الذر، وأشهدهم على أنفسهم الإقرار بربوبية الله سبحانه وتعالى وعبوديتهم لخالقهم. وموطن الشاهد في الآية أن مكمن الذرية هي الظهور. وتشير الآيات في

(١) «مفتاح دار السعادة» ١٩٦/١.

سورة الطارق إلى أن الماء الدافق مصدره من بين الصلب والترائب. يقول خبراء علم الأجنة: إن الجنين عند تكوينه في الرحم تنبت الخصيتان في ظهره عند أسفل الكليتين تماماً وتبقى كذلك في ظهره حتى أشهره الأخيرة في بطن أمه ثم تنحدران إلى الأسفل، وعند الولادة تكونان في المركز المعتاد.

وكذلك مركز المبيض في الأنثى فإنه في الظهر تماماً تحت الكلية ذكراً كان أم أنثى، ومعلوم أن الخصيتين والمبيض هما مستقرّا النطفة التي هي مبدأ خلق الإنسان وهما في الظهر. ويقولون: إن الخصيتين والمبيض يعتمدان على شريان يمدهما بالدم، وأصل هذا الشريان من الشريان اللاورطي في مكان يقابل مستوى الكلية الذي يقع بين الصلب والترائب. ويقولون إن الخصية والمبيض يعتمدان على الأعصاب التي تتصل بالضفيرة اللاورطية ثم بالعصب الصدري العاشر الذي يخرج من النخاع بين الضلع العاشر والحادي عشر. وهذا أيضاً من بين الصلب والترائب^(١).

النشأة الجنينية في الرحم:

يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَكِينٍ﴾ المؤمنون/ ١٢.

ويقول تعالى: ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَهِينٍ، فَجَعَلْنَاهُ فِي قرارٍ مَكِينٍ، إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ، فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾ الرسائل/ ٢٠-٢٣.

ويقول جلّ جلاله: ﴿يَخْلُقْكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ الزمر/ ٦.

الآيات الكريمة تشير إلى أصل الخلقة من الماء المهين - النطفة - التي تودّع في القرار المكين - الرحم -، وتسمية الرحم بالقرار المكين الذي يستقر فيه الجنين إلى قدر معلوم حدده الله سبحانه وتعالى تسمية ذات دلالة، وقد وفر له وسائل الراحة والاستقرار والعناية الربانية التي تفوق التصور، وتبرز هذه الوسائل ودقتها في الأمور التالية:

١- الحوض وشكله: ويتكون من مجموعة من العظام متصلة ببعضها اتصالاً دقيقاً، فتكون مثل الصندوق الخشبي، ونظراً لاختلاف وظيفة حوض المرأة عن وظيفة حوض الرجل في قضية المحافظة على وضع الرحم فإن الله قد هياها بعناية لاحتواء الرحم

(١) «القرآن والعلوم»، ص ١٢-١٤.

المتنامي الذي يبلغ آلاف المرات في نهاية الحمل عن حجمه قبل الحمل، حيث لا تتجاوز سعة الرحم قبل الحمل لأكثر من (٢,٥) ميليلتر عند الأنثى البالغة، أما في نهاية الحمل فيتسع لسبعة آلاف ميليلتر.

لذا كان تجويف الحوض عند الأنثى أوسع وأقصر، وعظام الحوض أرق وأقل خشونة وأبسط تضاريساً، كل ذلك ليكون حصناً ودرعاً للرحم الذي يشغل على هذه الدرة الشمينية التي تتجلى عظمة الخالق في تكوينها.

ولتسيير طروء التغيرات على هذه العظام عند الولادة فتكوين عظام الحوض يتناسب تماماً مع ما يتطلب منها القيام بعمل تنفرد به دون غيرها من عظام الهيكل، وهكذا يحفظ الحوض العظمي الرحم بداخله بحيث لا يصله شيء من الكدمات والهزات التي تتعرض لها المرأة، بل لو أصيبت المرأة في حادث أو سقطت من شاهق وتكسرت عظامها فإننا نجد الرحم في أغلب الأحوال سليماً لم يمسه سوء، ولو أن شخصاً اعتدى على امرأة ومزق أحشاءها بالسكين فإنه لن يستطيع أن يصل إلى الرحم، إلا إذا كانت المرأة حاملاً في الشهر الرابع فمابعده، وأما قبل ذلك فيكاد يكون من المستحيل الوصول إلى الرحم بأي أذى.

والحوض على متانته له مفاصل أربعة يمكن من خلالها أن يتحرك قليلاً حتى يزداد اتساعه وخاصة عند الحمل والولادة، بينما حوض الرجل لا يكاد يتحرك.

٢- العضلات والأربطة: تكاد العضلات تحيط بالرحم من جميع جوانبه لتحفظ توازنه وبقائه معلقاً في منتصف الحوض. فمنها العضلات التي تمسكه من أعلى، ومنها ماتشده إلى أسفل، ومنها ماتجزه يمنة ويسرة، ومنها التي تشده إلى عظام الحوض، وإلى جهات أخرى من الأحشاء تعرف بالصفاقات الحشوية والصفاقات الجدارية.

وهذه الأربطة جميعاً تتعاون في حفظ الرحم في موضعه الطبيعي، وفي نفس الوقت تسمح له بالحركة الحقيقية والنمو الهائل في فترة الحمل، ولكأنما الرحم جسر معلق تربطه مجموعة محكمة من الأربطة والأعمدة المتينة المحكمة، بل إنه أعظم من ذلك بكثير، إذ لا يمكن للجسر المعلق أن ينمو أو يغير وضعه وهو متصل بمكانه لا يبرحه، كما أن وجود وفرة من الأحشاء الطرية اللينة وامتلاء الحوض بها يهيء فراشاً وثيراً للرحم عند امتلائه بالجنين وتعاضمه خلال الأشهر الأخيرة من الحمل.

٣- هرمون الحمل (البروجسترون) ويؤثر هذا الهرمون على تقلصات عضلات الرحم فيجعلها مثبدة وقوية بدلاً من تلك الحركات النزقة الطائشة التي يسببها هرمون الأنوثة (الأوستروجين). ولهرمون الحمل تأثير هام في استقرار الرحم في فترة الحمل،

حتى لا يقذف الجنين وخاصة في أشهره الأولى .

وهكذا تتضافر هذه العوامل لجعل الرحم القرار المكين وهل هناك وصف أعظم من هذا الوصف، وتحديد أدق للوظيفة من التحديد الرباني لطبيعة تكوين الرحم ومهمته، إنه وصف الخالق لمخلوقه (ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير؟) المُلْك/ ١٤ . إنها العناية الإلهية بهذا المخلوق المعزَّز المكرم، إنه الله سبحانه وتعالى الذي قدَّر وأحكم . وإنه الإعجاز القرآني الباهر الذي جاء على لسان النبي الأمي ﴿أَلَمْ نَخْلُقْكُمْ مِنْ مَّاءٍ مَّهِينٍ فَجَعَلْنَاهُ فِي قَرَارٍ مَكِينٍ إِلَى قَدَرٍ مَعْلُومٍ، فَقَدَرْنَا فَنِعْمَ الْقَادِرُونَ﴾
المرسلات/ ٢٠-٢٣ .

أما الظلمات الثلاث: فإن اكتشافها أحدث، وإن واقعها أعجب، وإن وظائفها أعظم . يقول الطب الحديث عن الظلمات الثلاث مايلي: إنها ثلاثة أغشية تحيط بالجنين داخل الرحم وتسمى:

(أ) غشاء السلي أو (الأمنيون) ويحيط بالجنين مباشرة .

(ب) غشاء الكوريون (الغشاء المشيمي) .

(ج) الغشاء الساقط .

(أ) غشاء السلي «الأمنيون»: وهو عبارة عن كيس غشائي رقيق ومُقفل يحيط بالجنين إحاطة تامة وبه سائل يزداد مع نمو الجنين . . والجنين يلعب وسط هذا السائل ويتقلب يمنة ويسرة بل ويتشقلب رأساً على عقب . . ويمسك بالحبل السري وهو في أمان تام، وللوسائل الأمنيوني فوائد جمة من أهمها:

أ- تغذية الجنين: حيث يحتوي السائل على مواد زلالية وسكرية وأملاح يمتصها الجنين مما يساعد على تغذيته ونموه .

ب - حماية الجنين ووقايته من الصدمات المفاجئة والحركات الخفيفة والسقطات التي تتعرض لها الأم .

ج - يحتفظ الجنين بحرارة ثابتة تقريباً فهو مكيف جيد بحيث لا تزيد الحرارة ولا تقل إلا في حدود ضئيلة جداً .

د - يمنع السائل الأمنيوني غشاء الأمنيوني من الالتصاق بالجنين، وذلك لأن التصاق الغشاء بالجنين من العوامل الهامة في حدوث التشوهات الخلقية فوجود السائل عامل مهم في تجنب هذه التشوهات الخلقية .

(ب) غشاء الكوريون (الغشاء المشيمي): وهو الغشاء الثاني من الأغشية التي تحيط بالجنين، والزغابات الكثيرة الموجودة. في هذا الغشاء يتقل الغذاء والأوكسجين بواسطتها من الأم إلى الجنين، كما يتقل غاز أوكسيد الكربون والبولينا من الجنين إلى دم الأم.

وبداية تكوين هذا الغشاء عند تكوّن النطفة الأمشاج بعد تلقيح البويضة بالحيوان المنوي. وتنقسم البويضة الملقحة وتصبح مثل الكرة أو مثل ثمرة التوت وتسمى (التوتة). وتتكون من طبقات فالطبقة الداخلية يتكون منها الجنين أما الطبقة الخارجية فيتكون منها هذا الغشاء المشيمي وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّن تَرَابٍ ثُمَّ مِّن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِّن عَلَقَةٍ ثُمَّ مِّن مَّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنَبِّئَنَّ لَكُمْ. وَنُقَرِّءُ فِي الْأَرْحَامِ مَآئِشَاءَ﴾ الحج/ ٥، فهي المضغة غير المخلفة التي تقوم بمهمة مصنع كامل لتهيئة الغذاء المبسط المناسب للجنين، وإبعاد الفضلات التي يطرحها إلى الدورة الدموية للأم، حيث تفرزها بواسطة الكلى عن طريق البول.

(ج) الغشاء الساقط: وهو الغشاء الثالث الذي يحيط بالجنين من جميع جوانبه، وهو مكوّن من الغشاء المخاطي المبطن للرحم، وسمي الساقط لأنه يسقط ويخرج مع دم النفاس.

فسبحان من خلق فسوّى، وقدر فهدى وجلّ جلاله وعظمت حكمته.. ﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ﴾ الواقعة/ ٥٨، ٥٩.

النشأة الجنينية: يقول تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ^(١) مِنْ طِينٍ، ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفَةً فِي قرارٍ مَّكِينٍ، ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً، فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ، فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ المؤمنون/ ١٢-١٤.

تشير الآيات الكريمة إلى أطوار التكوين السبعة التي يمر فيها الإنسان حتى يصبح بشراً سوياً. ولقد أصبحت هذه الأطوار من أهم دراسات العلوم الطبية الحديثة، وكشفت هذه العلوم أسرار التعبير بهذه الألفاظ المخصوصة في هذه الأطوار (نطفة،

(١) في «مفردات» الراغب: ... وقوله تعالى ﴿مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ﴾ أي من الصفو الذي يسلم من الأرض.

علقة، مضغة، تكوّن العظام، تكوّن اللحم على العظام». ولا يتسع المجال لذكر ما قالوه هنا، وإنما نشير إلى مقتطفات من أقوالهم ثلثي الضوء على جوانب من أسرار التعبير المعجز. ولنستمع إلى رأي العلم الحديث في الطب في هذا الصدد فهم أهل الذكر في هذا المجال:

يقول الدكتور محمد علي البار في كتابه القيم «خلق الإنسان بين الطب والقرآن»: من هذه الآيات^(١) الكريمة نستطيع أن نحدد معالم أطوار الجنين الإنساني وهي: (١) نطفة، (٢) علقة، (٣) مضغة مخلقة وغير مخلقة، (٤) عظام، (٥) لحم يكسو العظام، (٦) التسوية والتصوير، (خلق آخر) والتعديل، (٧) نفخ الروح.

مرحلة النطفة

والنطفة تطلق على ثلاثة أشياء هي:

١- نطفة الذكر وهي الحيوانات المنوية.

٢- نطفة الأنثى وهي البويضة.

٣- النطفة الأمشاج وهي النطفة المختلطة من ماء الرجل وماء المرأة أي البويضة الملقحة، والنطفة الأمشاج هي بداية مرحلة خلق الإنسان حيث يلقي الحيوان المنوي البويضة. «إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً» الإنسان/ ٢. فإذا ما لقحت البويضة وصارت بويضة ملقحة، ابتدأت انقسامات متعددة. وتُعرف هذه المرحلة بمرحلة الانقسام والانشقاق وتتحول البويضة الملقحة (النطفة الأمشاج) إلى ما يشبه التوتة. . . ويبقى قطر النطفة الأمشاج حتى بعد أن تصبح كرة جرثومية لا يزيد عن (٤/١) (ربيع) ملليمتر. وتستغرق هذه المرحلة أسبوعاً كاملاً حتى تعلق هذه النطفة الأمشاج التي تحولت إلى كرة جرثومية لها خلايا آكلة وقاضمة تعلق بواسطتها وبواسطة خملات دقيقة بجدار الرحم، وتتحول حيثئذ إلى المرحلة التي تليها وهي:

مرحلة العلقة:

وهي الطور الثاني الذي تنتقل إليه النطفة، ويبدأ العلوق منذ اليوم السابع (منذ التلقيح) عندما تلتصق الكرة الجرثومية بجدار الرحم. . . وهناك جملة تعلقات في هذه

(١) آيات سورة: السجدة، الانفطار، آل عمران، الحج، المؤمنون.

المرحلة: تعلق أولي بواسطة الخملات الدقيقة، ثم تعلق ثانٍ بواسطة الخلايا الآكلة، ثم تعلق ثالث بواسطة الخملات المشيمية، ثم تعلق رابع يربط بين الجنين الحقيقي وبين الغشاء المشيمي بواسطة المعلاق، ولاشك أن أهم ما يميز هذه المرحلة هو هذا التعلق، وإن وصف العلقة العالقة بجدار الرحم والمحاطة بالدم المتجمد (المتخثر) هو أدق وصف لهذه المرحلة.

وتستغرق هذه المرحلة أسبوعين تقريباً ينمو خلالها القرص الجنيني إلى لوح كمثري الشكل. وفي نهاية هذه المرحلة تنكشف الطبقة المتوسطة القريبة من محور الجنين لتشكل الكتل البدنية، ويبدأ ظهور أول كتلة بدنية في اليوم العشرين أو الواحد والعشرين منذ التلقيح، وعندئذ تكون العلقة قد تحولت إلى مضغة.

وفي هذه المرحلة نجد أن الكرة الجرثومية التي كانت قبيل العلوق لا تزيد عن (٢/١) نصف ميليمتر قد أصبحت بعد العلوق بأسبوع واحد فقط مليمتراً ونصف. وفي نهاية الأسبوع الثالث، منذ التلقيح، يصبح اللوح الجنيني مليمترياً ونصف. مرحلة المضغة «الأسبوع الرابع»^(١):

ويبدأ هذا الطور بظهور الكتل البدنية ويكون أول ظهورها في أعلى اللوح الجنيني جهة الرأس ثم يتوالى ظهور هذه الكتل من الرأس إلى مؤخرة الجنين. . . ويبدأ ظهورها في اليوم العشرين أو الواحد والعشرين منذ التلقيح. . . ثم تستمر في الظهور واحدة على كل جانب من محور الجنين. . . ويكون وصف المضغة أو القطعة من اللحم التي مضغتها الأسنان ولاكتها ثم قذفها هو أصدق وصف وأدق لهذه المرحلة.

مرحلة العظام واللحم:

وهي مرحلة تستغرق الأسبوع الخامس والسادس والسابع، وفي الأسبوع السادس تكون هذه الهياكل الغضروفية لعظام الأطراف العلوية والسفلية قد ظهرت بوضوح وإن كان الطرف العلوي يسبق الطرف السفلي ببضعة أيام، وأول علامة على وجود عضلات

(١) عندما يكون عمر الجنين أسبوعين «مرحلة العلقة» فإن حجمه لا يزيد عن نقطة، وفي بداية المضغة (٢٤) يوماً لا يزيد عن حرف، وفي نهايتها يبلغ حجمه حجم حبة القمح، وفي قمة تكوين الأعضاء في الأسبوع السادس والنصف ليبلغ حجمه حجم حبة الفاصولياء، وفي نهاية تلك المرحلة في الأسبوع السابع والنصف لا يزيد كثيراً عن حبة الفول، وفي الأسبوع التاسع يكون شكله الإنساني مميزاً، ويستمر النمو بعد ذلك. «خلق الإنسان بين الطب والقرآن»، ص ٤١٨.

الأطراف تظهر في الأسبوع السابع.

ومعنى هذا أن العظام تسبق العضلات.. ثم تكسو العضلات العظام وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا﴾.
ثم أنشأناه خلقاً آخر:

هو التصوير والتسوية والتعديل ثم نفخ الروح، لقوله تعالى: ﴿هو الذي يصوّرکم فی الأرحام كيف يشاء﴾ آل عمران/6.

ويقول عزّ من قائل: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ، الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَّلَكَ، فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّشَاءَ رُكَّبَكَ﴾ الانفطار/8-6.

وأما التسوية فهي تتم مع التصوير وقبلة وبعده.. فهي تشمل جميع الأعضاء، إن عملية الهدم والبناء والتسوية والتعديل مستمرة في الجنين بشكل مثير.. إذ كل يوم بل كل ساعة تشهد جديداً.. هذه أنبوبة القلب المستطيلة تتحول إلى شكل (s) ثم تتكون الغرف المتتالية: الأذين العام، والبطين العام، وبصلة القلب، والجيب الوريدي. ثم يعاد التركيب ليدخل الجيب الوريدي في الأذين الأيمن، وتدخل بصلة القلب في البطين الأيمن والأيسر. ومن بصلة القلب تنشا جذور الشريان الأورطي والشريان الرئوي.

إن عملية التسوية والتعديل مستمرة في بناء جسم الإنسان منذ أن كان جنيناً إلى أن يصبح شيخاً هرمًا.. ولكن هذه التسوية والتعديل أبرز ما تكون في الجنين. ولا يمكن أن تتم التسوية والتعديل إلا بعد وضع الأسس.. والأسس لجميع الأعضاء توضع في الفترة ما بين الأسبوع الرابع والثامن.. ولهذا تعتبر هذه الفترة هي الفترة الحرجة التي تكون فيها الجينات أشد ما تكون قابلية للتغيير، ولذا فإن تأثير الأدوية والعقاقير أو الأشعة أو الحميات.. يكون في أوج تأثيرها على الجنين في هذه الفترة.

وقد شرحت بعض الأحاديث النبوية جوانب في هذه المراحل، فقد جاء في صحيح مسلم قول الرسول ﷺ: «إِذَا مَرَّ بِالنَّطْفَةِ اثْنَانِ وَأَرْبَعُونَ لَيْلَةً بَعَثَ اللَّهُ مَلَكًا فَصَوَّرَهَا وَخَلَقَ سَمْعَهَا وَبَصَرَهَا وَجَلَدَهَا وَلَحَمَهَا وَعِظَامَهَا، ثُمَّ قَالَ: يَا رَبِّ ذَكَرَ أَمْ أَنْثَى؟ فَيَقْضِي رَبُّكَ مَا يَشَاءُ وَيَكْتُبُهُ الْمَلَكُ»^(١).

(١) صحيح مسلم/ كتاب القدر ج ٧/ ٤٥.

ويقول الطب الحديث: في نهاية الأسبوع السادس تكون النطفة قد بلغت أوج نشاطها في تكوين هذه الأعضاء وهي قمة المرحلة الحرجة الممتدة من الأسبوع الرابع وحتى الأسبوع الثامن.

والمبيض والخصية لا يمكن التعرف عليهما إلا في الأسبوع السابع والثامن حيث يمكن التعرف على الغدة التناسلية خصية هي أم مبيض.

وفي رواية أخرى عند مسلم: «إن النطفة إذا استقرت في الرحم أربعين ليلة ثم يتصور عليها الملك فيقول: يارب ذكر أم أنثى؟» وفي رواية: «بضع وأربعين ليلة» وفي رواية: «الخمس وأربعين»^(١).

وهكذا نرى من مجموع الآيات الكريمة والأحاديث الشريفة أن قمة تكوين الأعضاء وتحديد الذكورة والأنوثة على مستوى الغدد التناسلية إنما يكون في الأربعين.

وفي هذه الفترة يستطيل الحمل من (٥) مليمتراً إلى (٢٣) مليمتراً، وتظهر علامات خارجية كثيرة وواضحة، وإن كان بعضها لم يكتمل في هذه الفترة.

ومما تقدم يبدو أن التقسيم القرآني لمراحل نمو الجنين الإنساني أدق من وصف علم الأجنة، ولا يركز بعض علماء الأجنة على مرحلة العلق كما يركز عليها التقسيم القرآني، وكذلك مرحلة التصوير والتسوية والتعديل، أما نفخ الروح فهو لا يزال في طي الغيب الذي لا يعلمه إلا الله ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ، كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ آل عمران/٧٢^(٢).

﴿أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ. أَلَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ؟﴾ الواقعة/٥٨-٥٩.

﴿هَذَا خَلْقُ اللَّهِ فَأَرُونِي مَاذَا خَلَقَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ بَلِ الظَّالِمُونَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ لقمان/١١، ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصَرُونَ﴾ الذاريات/٢١.

تفسير آية تسوية البنان «البصمات»:

يقول تعالى ﴿لَأَنْقُصَنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا أَقْصِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَامَةِ إِيحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَنْ لَنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ؟ بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ﴾ القيامة/٣-٤.

(١) صحيح مسلم كتاب القدر ج ٨/٤٦.

(٢) من كتاب «خلق الإنسان بين الطب والقرآن» للدكتور محمد علي البار ص ٣٧٩-٣٦٥ باختصار.

لقد أثارَت الإشارة في الآيات الكريمة انتباه المفسرين ودهشتهم، حيث أقسم الله سبحانه وتعالى بيوم القيامة وبالنفس الباقية على فطرتها التي تلوم صاحبها على كل معصية أو تقصير في طاعة، أقسم بهما على شيء عظيم يُعتبر الركن الثاني من أركان العقيدة، ألا وهو بعث الإنسان بعد موته وجمع عظامه للحساب والجزاء. فبعد القسم على ذلك بيّن الله سبحانه وتعالى أن ذلك غير مستحيل، لأن من كان قادراً على تسوية بنان الإنسان يقدر على جمع عظامه وإعادة الحياة إليها.

والشيء المستغرب لأول وهلة في هذا الاستدلال، هو أن القدرة على تسوية البنان، والبنان جزء صغير من تكوين الإنسان، لا يدل بالضرورة على القدرة على إحياء العظام وهي رميم، لأن القادر على خلق الجزء لا يستلزم بالضرورة القدرة على بناء الجسم كله.

وعلى الرغم من محاولات المفسرين لإلقاء ضوء على البنان وإبراز جوانب الحكمة والإبداع في تكوين رؤوس الأصابع من عظام دقيقة وتركيب الأظافر فيها ووجود الأعصاب الحساسة وغير ذلك، إلا أن الإشارة الدقيقة أدركت فيما بعد في القرن التاسع عشر الميلادي، عندما اكتشف علماء الطب أن الخطوط الدقيقة الصغيرة الموجودة على البشرة في رؤوس الأصابع تختلف من شخص لآخر وأن هذه الخطوط تكون على ثلاثة أنواع «أقواس»، أو «عراو»، أو «دومات» - بمعنى دوائر متحدة المركز - وهناك نوع رابع يختلف عن الأنواع المذكورة ويطلق عليه اسم (المركبات) لأنها مركبة من أشكال متعددة.

وهذه الخطوط تظهر في جلد الجنين وهو في بطن أمه عندما يكون عمره بين ١٠٠-١٢٠ يوماً، وتتكاثر تماماً عند مولده، ولا تتغير مدى الحياة ومهما عرض له من إصابات وحروق وأمراض، كما أنها لا تتطابق تمام التطابق من شخص إلى آخر بل لا بد من فوارق تميز أحدهما عن الآخر.

لقد قلب الأطباء هذا الاكتشاف العجيب على وجوهه، وأجريت الدراسات العميقة حولها وعلى أعداد كبيرة من الناس من مختلف الجنسيات والأعمار، ثم وقفوا أمام الحقيقة عارية ليحنوا الرؤوس للقادر على أن يسوي البنان، وفي سنة ١٨٨٤م استعملت البصمات في إنجلترا رسمياً كوسيلة للتعرف على شخصية الشخص المراد، ولا تزال البصمات أمضى سلاح يشهر في وجه الجريمة إلى يومنا هذا.

وتبرز عظمة الخالق سبحانه وتعالى في تشكيل هذه الخطوط على مسافة ضيقة

لاتتجاوز بضعة سنتمترات مربعة، فلاتشابه بين بنان اثنين من ألوف الملايين من البشر.

ولوأعطي إنسان مساحة بمقدار قعر الكف مثلاً وطلب منه أن يرسم لوحات كثيرة لاتشابه في خطوطها وتقسيماتها، إن هذا الإنسان مهما كان واسع العقل، ومهما بلغت حيلته في هذا الشأن يمكن أن يرسم ألفاً أو عدة آلاف من النسخ، تتباين أشكالها وتقسيماتها، ومن ثم تنتهي إمكانياته، وتأتي الأشكال بعد ذلك متماثلة مع بعض ماسبق رسمه. أما خلق الله وإبداعه فلا يعجزه شيء في ذلك.

هذا ماتوصل إليه العلماء إلى وقتنا الحاضر، ولانقصر دلالة الآية القرآنية على هذا الجانب حصراً بل قد يأتي اليوم الذي تكشف فيه أسرار ربانية أخرى في تسوية البنان، وتبقى الحقيقة الخالدة ﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ معلماً بارزاً على مرّ الأجيال والعصور تشير إلى مصدر القرآن الكريم.

﴿قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الفرقان/ ٦.

وشيء قريب من سرّ الخالق في البنان، قضية اختلاف ألوان الناس وأصواتهم فلانجد شخصين متطابقين في تقاسيم الوجه والبشرة واللون، وكذلك نبرات الصوت وطريقة الكلام، إنها قدرة الخالق العظيم الذي لانتتهي بدائع صنعه، ولانتقضي عجائب مخلوقاته، سبحانه وتعالى عما يقول الظالمون علواً كبيراً ﴿ومن آياته خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَاخْتَلَفَ الْأَلْوَانُكُمْ وَالْوَاوِنُكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِلْعَالَمِينَ﴾ الروم/ ٢٢.

تفسير آية الضغط الجوي:

الضغط الجوي وتأثيره على الانسان:

يخبرنا القرآن الكريم عن حالة الذين يضيقون ذرعاً بهدايات الإسلام ووعيده وإنذاره، يشبه حالتهم عند سماعها بحالة من يصعد في السماء وذلك في قوله تعالى: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصْعَقُ فِي السَّمَاءِ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ الأنعام/ ١٢٥.

قال المفسرون: إن الآية الكريمة تشير إلى أن حالة الكفار عند سماع الإسلام كحالة من يزاوّل أمراً غير ممكن لأن الصعود إلى السماء مثل فيما يمتنع ويبعد عن الاستطاعة، فكان الكافر في نفوره من الإسلام وثقله عليه بمنزلة من يتكلف الصعود إلى السماء،

فحالته كحال من يزاول مالا يقدر عليه^(١).

وهذا الفهم محتمل من حيث ظاهر الآية، ولم يكن يتصور قبل صعود الإنسان في الفضاء أكثر من ذلك.

إلا أن آفاقاً جديدة فتحت في دلالة الآية الكريمة عندما صعد الإنسان في الفضاء وعرف تأثير الضغط الجوي على أجهزة الإنسان الداخلية.

يقول العلم الحديث في هذا الصدد: إن الله سبحانه وتعالى جعل الضغط في داخل الجسم متناسباً تماماً مع الضغط الجوي المحيط بالجسم، وقدر قياس هذا الضغط بما يساوي وزن ستة وسبعين سنتماً من زئبق.

ففي الأحوال الاعتيادية للإنسان ليس هنالك أي تغلب من الضغط الداخلي على الخارجي ولا العكس، وبعد اكتشاف الوسائل الحديثة للارتفاع في أجواء السماء فقد لاحظوا مدى التأثير عند الصعود بهذا الضغط وما يرافقه من انقباض وضيق في الصدر وآلام مبرحة في الرأس والأذنين وجميع المناطق الحساسة في الجسم، وكلما ارتفع في الجو تخلخل الضغط الجوي وزاد الضغط الداخلي واشتد هذا الضيق والشعور بالاختناق، وإذا ما استمر الإنسان في الصعود يأتي الوقت الذي يكون فيه هلاكه المحتم، لذا يضطر رواد الفضاء والطيارون الذين يحلقون عالياً في الأجواء إلى استخدام الألبسة المجهزة الخاصة بهذه الحالات. والتفسير العلمي لهذه الظواهر هو:

- كلما ارتفع الإنسان في الجو، انخفض الضغط الجوي، وتغلب عليه الضغط الداخلي للإنسان.

- تخلخل الهواء وعدم وجود الأوكسجين الكافي للتنفس.

- برودة الجو وعدم حفظ درجة الحرارة بنسبة معينة.

- يصل الإنسان عند الخروج من الغلاف الجوي إلى انعدام الوزن وهي مرحلة دقيقة خطيرة.

وكل هذه الظواهر تؤدي إلى تغير في وظائف أعضاء الإنسان الداخلية فالغازات والأمعاء تتمدد وتسبب تقلصات عنيفة، وقد يؤدي تمدد هذه الغازات إلى انتفاخ يدفع الحجاب الحاجز إلى أعلى، فيضغط على القلب والرئتين مما يسبب الإغماء أو

(١) انظر في ذلك «غرائب القرآن» للنيسابوري، ٢/٢١، و«تفسير البيضاوي»، ص ١٧٨.

الاختناق في الحالات الشديدة، ويختل نظام الدورة الدموية فقد تنفجر بعض العروق والأغشية في الجسم كغشاء الطبل في الأذنين والإصابة برُعاف شديد.. إلخ.

هذه هي الحالة التي يشبه بها القرآن الكريم حالة الذين يضيّقون ذرعاً بسماع آيات القرآن وهدايات الإسلام، إنها كحالة من يصعد في السماء من شعور بالضيق والاختناق، ﴿.. وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾.

هكذا تنكشف الحجب عن الآيات المعجزة كلما تقدم العلم وتطور على مرّ العصور.

الجلود وشبكة الإحساس العصبي:

يقول الله في معرض بيان ألوان العذاب التي يلاقيها يوم القيامة الذين كفروا بآيات الله وأغمضوا بصرهم وبصيرتهم عن نور الحق:

﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ يُضْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيماً﴾ النساء/ ٥٦.

إن قدرة الله سبحانه وتعالى لا يقف أمامها شيء فتبديل الجلود المحترقة بأخرى جديدة أمر غير معجز عنه، وقد أعاد بعث العظام وهي رميم، إنما الإشارة المعجزة في قوله تعالى: ﴿لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾.

لقد قرر الأطباء أن حدود الشعور بألم الكيّ في الجلد السطحي، فلو احترق الجلد ووصل إلى اللحم لما كان هناك شعور بالألم بدرجة الحالة السابقة لأن الأعصاب التي تشعر بالألم موجودة في الجلد الخارجي.

أما في الأنسجة والعضلات والأعضاء الداخلية، فالإحساس فيها ضعيف، لذلك يقول الأطباء: إن الحرق الذي لا يتجاوز الجلد يحدث ألماً شديداً بخلاف الحرق الشديد الذي يتجاوز الجلد إلى الأنسجة لأنه مع شدته وخطره لا يحدث ألماً كثيراً، فكان الآية الكريمة تبين أن النار كلما أنضجت الجلد الذي يحتوي على أعصاب الإحساس بالألم جُددت هذه الجلود بجلود جديدة ليستمر الشعور بالألم بلا انقطاع ويزدوقوا العذاب الأليم^(١).

(١) «الجانب العلمي في القرآن الكريم» للدكتور صلاح الدين خطاب، ص ٤٩ بتصرف.

إنه علم الله الذي أحاط بكل شيء، ودليل على أن هذا الكتاب الخالد هو تنزيل الذي خلق الجلود والأنفس وأودع فيها خاصيات الإحساس بالألم، وإلا فمن علم الأمي هذه الحقائق المذهلة في نفس الإنسان وتكوينه وميزاته التي تميز بها عن سائر المخلوقات.

خاتمة هذا البحث :

إن الإشارات التي وردت في ثنايا أي الذكر الحكيم تحدث عن بديع صنع الخالق سبحانه وتعالى في هذا الكون الفسيح في مختلف مجالاته، وتحدث عن النفس الإنسانية وأعماقها وعواطفها ومشاعرها.

بلغت هذه اللّفات والإشارات من السعة والشمول مبلغاً لا يستطيع أجيال من العلماء الإحاطة بها مهما أوتوا من وسائل وإمكانات وجهود وطاقات، فهي من الشمول بحيث تمتد في البعد الزمني إلى أصل الكون بمجراته وأفلاك نجومه وكواكبه.

ومن الإحاطة بحيث تتعرض للأنظمة المرئية وغير المرئية التي تسير عليها الكائنات الحية والجمادات من رياح، وسحب، وبحار، ونبات، وحيوان، وإنسان، وبلغت هذه الإشارات والتلميحات مبلغاً من الدقة بحيث تعجز أحدث الوسائل والمختبرات العلمية عن متابعة هذه الحقائق، وكما رأينا من الأمثلة المتقدمة يقف العلم التجريبي الحديث فاغراً فاه عند بعض هذه الحقائق الدقيقة.

إن سَوَّاق القرآن الكريم هذه الحقائق بهذه السعة والشمول، وبهذه الدقة المتناهية يحمل كل صاحب عقل منصف إلى القول بأن هذا تنزيل العزيز الحكيم الذي أحاط بكل شيء علماً.

إن البشرية كلها عاجزة عن الإحاطة بهذه الحقائق والوصول إلى ماهيتها وأسرارها، فهل يعقل أن يكون هذا القرآن من عند رجل أمي عاش في بيئة أمية لم يذكر التاريخ عن أسلافها تقدماً في فنون علوم الكون أو النفس البشرية؟

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنَّ هَذَا إِلَّا إِفْكُ افْتَرَاهُ وَأَعَانَهُ عَلَيْهِ قَوْمٌ آخَرُونَ. فَقَدْ جَاءُوا ظُلْماً وَزُوراً، وَقَالُوا أَطِيزُ الْأَوَّلِينَ اكْتَبَهَا فَهِيَ تُمْلَى عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلاً. قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفوراً رَحِيماً﴾ الفرقان/ ٦٤.

هذا هو وجه الإعجاز العلمي في القرآن العظيم :

آياتٌ بينات!! ودلائل واضحة!! وحقائق ثابتة!! وبراهين ساطعات!! وحجج دامغات!! ومعالم شامخات!! على صدق القرآن!! وأصالة الإسلام!!..

البحث الخامس:

الآيات الكونية في القرآن العظيم

الله خالق السموات والأرض

٢ البقرة ﴿٢٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

﴿٢٩﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.

﴿١١٧﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ.

٣ آل عمران ﴿١٩٠﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِّأُولِي الْأَلْبَابِ

﴿١٩١﴾ الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذَا بَاطِلًا شُبْحَانَكَ فَقِنَا عَذَابَ النَّارِ.

٦ الأنعام ﴿١٠١﴾ بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُنْ لَهُ صَاحِبَةً وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ

﴿١٢٥﴾ فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ.

٧ الأعراف ﴿٥٤﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَبِيبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

١٠ يونس ﴿٣﴾ إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ ذَلِكَكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ.

١١ هود ﴿٧﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُ عَلَى الْمَاءِ لِيُتْلُوَكُمْ آيَاتِهِمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَلَئِنْ قُلْتَ إِنَّكُمْ مَبْعُوثُونَ مِنْ بَعْدِ الْمَوْتِ لَيَقُولَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ.

١٣ الرعد ﴿٣﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُفَكِّرُونَ.
 ﴿٤١﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ.
 ١٥ الحجر ﴿١٩﴾ وَالْأَرْضُ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ.

١٩ مريم ﴿٤٠﴾ إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا وَإِلَيْنَا يُرْجَعُونَ.
 ٢٠ طه ﴿٥٣﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى.
 ٢١ الانبياء ﴿١٦﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ.
 ﴿٣٠﴾ أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا...
 ﴿٣٢﴾ وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ.
 ﴿٤٤﴾ بَلْ مَتَّعْنَا هَؤُلَاءِ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى طَالَ عَلَيْهِمُ الْعُمُرُ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ.

٢٢ الحج ﴿٦٥﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مِمَّا فِي الْأَرْضِ وَأَلْفَلَكَ تَجَرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَّوُوفٌ رَحِيمٌ.
 ٢٣ المؤمنون ﴿١٧﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ الْخَلْقِ غَافِلِينَ.
 ٢٥ الفرقان ﴿٥٩﴾ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَسْتَلِ بِهِ خَبِيرًا.

٢٩ العنكبوت ﴿٤٤﴾ خَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ.
 ٣٠ الروم ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوُحُوشِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ.

﴿٢٥﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ...
 ٣١ لقمان ﴿١٠﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرْوْنَهَا وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ.

٣٢ السجدة ﴿٤﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ... ﴿٥﴾ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَرْجِعُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ

مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ.

٣٤ سبأ ﴿٢٦﴾ يَغْلَمُ مَا يَلْجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَنْصُرُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ.

٣٥ فاطر ﴿١﴾ الْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَكَةِ رُسُلًا أُولَى أَجْنَحَةٍ مَتْنًى وَثَلَاثَ وَرُبَاعَ يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

٣٦ يس ﴿٣٣﴾ وَآيَةٌ لَهُمْ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ.

٣٨ ص ﴿٢٧﴾ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ.

٤٠ غافر ﴿٥٧﴾ لَخَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ.

٦٤ ﴿٦٤﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً....

٤١ فصلت ﴿٩﴾ قُلْ أَنْتُمْ لَكُمْ تُكْفِرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لَيْنًا ﴿١١﴾ ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ ﴿١٢﴾ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ.

٤٢ الشورى ﴿١١﴾ فَاطِرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا....

٤٣ الزخرف ﴿١٠﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ.

٤٦ الأحقاف ﴿٣﴾ مَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى وَالَّذِينَ كَفَرُوا عَمَّا أُنذِرُوا مُّعْرِضُونَ.

٥٠ ق ﴿٦﴾ أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ ﴿٧﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ.

﴿٣٨﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ.

٥١ الذاريات ﴿٥١﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْحُبُوكِ.

﴿٤٧﴾ وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَالْأَرْضَ فَرَشْنَاهَا فَنِعْمَ الْمَاهِدُونَ.

٦ الأنعام ﴿٩٦﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ

الْعَزِيزِ الْمَلِيمِ

﴿٩٧﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الثُّجُومَ لِيَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.

٧ الأعراف ﴿٥٤﴾ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْثُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

١٠ يونس ﴿٥٥﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ.

١٣ الرعد ﴿٢٥﴾ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِمَعْلَكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُم تُوَفَّقُونَ.

١٤ إبراهيم ﴿٣٣﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ.

١٥ الحجر ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ.

١٦ النحل ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالْثُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

١٨ الكهف ﴿٨٦﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِي عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ جَنْدَهَا قَوْمًا

﴿٩٠﴾ حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَلْ لَهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا.

٢١ الأنبياء ﴿٣٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ.

٢٥ الفرقان ﴿٤٥﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَىٰ رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ وَلَوْ شَاءَ لَجَعَلَهُ سَاكِنًا ثُمَّ جَعَلْنَا الشَّمْسَ عَلَيْهِ دَلِيلًا.

﴿٤٦﴾ ثُمَّ قَبَضْنَاهُ إِلَيْنَا قَبْضًا يَسِيرًا.

﴿٦١﴾ تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا.

٢٩ العنكبوت ﴿٦١﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ.

٣١ لقمان ﴿٢٩﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ

٥٢ الطور ﴿٩﴾ يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا ﴿١٠﴾ وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا.

٥٥ الرحمن ﴿٧﴾ وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ.

﴿١٠﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنْعَامِ.

٥٧ الحديد ﴿٤﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يَعْلَمُ مَا يَلْجِ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ.

٦٥ الطلاق ﴿١٢﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا.

٦٧ الملك ﴿٣﴾ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَافُوتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ.

٧١ نوح ﴿١٥﴾ أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا.

﴿١٩﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ بِسَاطًا ﴿٢٠﴾ لَتَسْلُكُوا مِنْهَا سُبُلًا فِجَاجًا.

٧٨ النبا ﴿٦﴾ أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا ﴿٧﴾ وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا.

﴿١٢﴾ وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا.

٧٩ النازعات ﴿٢٧﴾ ءَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا ﴿٢٨﴾ رَفَعَ سَمَكَهَا فَسَوَّاهَا ﴿٢٩﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا ﴿٣٠﴾ وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣١﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا

﴿٣٢﴾ وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا.

٨٥ البروج ﴿١﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ.

٨٦ الطارق ﴿١﴾ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿٢﴾ وَمَا أَذْرَكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٣﴾ النَّجْمُ الثَّاقِبُ.

٨٨ الغاشية ﴿١٨﴾ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ ﴿١٩﴾ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ ﴿٢٠﴾ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ.

٩١ الشمس ﴿٥﴾ وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا ﴿١٦﴾ وَالْأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا.

اللَّهُ خَالِقُ الشَّمْسِ وَالْقَمَرِ وَالنَّجُومِ

٢ البقرة ﴿١٨٩﴾ يَسْتَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ

﴿٢٥٨﴾ ... قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَلْيَنْ أَلَّهِ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ.

٣ فاطر (١٣) يُؤَلِّجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَىٰ لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبُّكُم لَهُ الْمُلْكُ.
 ٣٨ يس ﴿٣٨﴾ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٩﴾ وَالْقَمَرَ
 مَدْرَنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ ﴿٤٠﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ
 وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ.
 ٣٩ الزمر ﴿٥٠﴾ ... وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ
 الْغَفَّارُ.

٤٠ فصلت ﴿٣٧﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لَا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلَا لِلْقَمَرِ
 وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ.
 ٥٢ النجم ﴿١﴾ وَالنَّجْمُ إِذَا هَوَىٰ
 ٥٤ القمر ﴿١﴾ اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ.
 ٥٥ الرحمن ﴿٥﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانِ.
 ٥٦ الواقعة ﴿٧٥﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ﴿٧٦﴾ وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لِّوَتَفْلَحُمُونَ عَظِيمٌ.
 ٧١ نوح ﴿١٦﴾ وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا.
 ٧٤ المدثر ﴿٣٢﴾ كَلَّا وَالْقَمَرَ ﴿٣٣﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا أَذْبَرَ ﴿٣٤﴾ وَالصُّبْحُ إِذَا أَسْفَرَ.
 ٧٥ القيامة ﴿٧﴾ فَإِذَا بَرَقَ الْبَصَرُ ﴿٨﴾ وَخَسَفَ الْقَمَرُ ﴿٩﴾ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ.
 ٧٧ المرسلات ﴿٨﴾ فَإِذَا النُّجُومُ طُسِيتْ.
 ٨١ التكوير ﴿١﴾ إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ ﴿٢﴾ وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ.
 ٨٤ الانشقاق ﴿١٦﴾ فَلَا أُقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٧﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٨﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ.
 ٨٥ البروج ﴿١﴾ وَالسَّمَاءِ ذَاتِ الْبُرُوجِ.
 ٨٦ الطارق ﴿١﴾ وَالسَّمَاءِ وَالطَّارِقِ ﴿٢﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا الطَّارِقُ ﴿٣﴾ النُّجُومُ الثَّاقِبُ.
 ٩١ الشمس ﴿١﴾ وَالشَّمْسُ وَضُحَاهَا ﴿٢﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا تَلَّهَا.

اللهُ خَالِقُ الْكَوَاكِبِ وَالشَّهَبِ

١٥ الحجر ﴿١٦﴾ وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ﴿١٧﴾ وَحَفِظْنَاهَا
 مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ﴿١٨﴾ إِلَّا مَنْ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ.
 ٣٧ الصافات ﴿٦﴾ إِنَّا زَيْنَا السَّمَاءَ دُنْيَا بِزِينَةِ الْكَوَاكِبِ ﴿٧﴾ وَحَفِظْنَا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ
 مَّارِدٍ ﴿٨﴾ لَا يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلَأِ الْأَعْلَى وَيَقْدِفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ﴿٩﴾ دُحُورًا وَلَهُمْ

عَذَابٌ وَاصِبٌ ﴿١٠﴾ إِلَّا مِنْ خَطِئَةٍ فَاتَّبَعَهُ شِهَابٌ ثَائِبٌ.

٤١ فصلت ﴿١٢﴾ وَزَيْنَا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ.

٦٧ الملك ﴿٥﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحٍ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِلشَّيَاطِينِ

٧٢ الجن ﴿٨﴾ وَأَنَا لَمَنَّا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلْتِ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴿٩﴾ وَأَنَا كُنَّا نَقُودُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَنْ يَسْمَعُ الْآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَصَدًا.

٨٢ الانفطار ﴿٢﴾ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ.

الله خالق الليل والنهار

٢ البقرة ﴿١٦٤﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

٣ آل عمران ﴿٢٧﴾ تُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَتُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَتُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَتَرزُقُ مَنْ تَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ.

﴿١٩٠﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لِأُولِي الْأَلْبَابِ.

٦ الأنعام ﴿٩٦﴾ فَالِقَ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ.

٧ الأعراف ﴿٥٤﴾ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِه أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ.

١٠ يونس ﴿٦﴾ إِنَّ فِي اخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَّقُونَ.

﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْمَعُونَ.

١٣ الرعد ﴿٣﴾ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.

١٤ ابراهيم ﴿٣٣﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ.

١٦ النحل ﴿١٢﴾ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِه إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

١٧ الاسراء ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مُبْصِرَةً لِيَجْتَنِبُوا قُضُلًا مِنْ رَبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا

٢١ الأنبياء ﴿٣٣﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ.
٢٢ الحج ﴿٦١﴾ ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ.

٢٣ المؤمنون ﴿٨٠﴾ وَهُوَ الَّذِي يُخَيِّ وَيُمِيتُ وَلَهُ اخْتِلَافُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ أَفَلَا يَعْقِلُونَ.
٢٤ النور ﴿٤٤﴾ يُقَلِّبُ اللَّهُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُولِي الْأَبْصَارِ.
٢٥ الفرقان ﴿٤٧﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِبَاسًا وَالنَّوْمَ سُبَاتًا وَجَعَلَ النَّهَارَ نُشُورًا.
﴿٦٢﴾ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ خِلْفَةً لِّمَن أَرَادَ أَن يَذَّكَّرَ أَوْ أَرَادَ شُكُورًا.
٢٧ النمل ﴿٨٦﴾ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّا فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

٢٨ القصص ﴿٧١﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ اللَّيْلَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ ﴿٧٢﴾ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ جَعَلَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ النَّهَارَ سَرْمَدًا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ إِلَهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُمْ بِلَيْلٍ تَسْكُنُونَ فِيهِ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٧٣﴾ وَمِنْ رَحْمَتِهِ جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.
٣٠ الروم ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَتَاعُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَاثْبَاوَكُمْ مِنْ فَضْلِهِ إِنَّا فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ.

٣١ لقمان ﴿٢٩﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي إِلَى أَجَلٍ مُّسَمًّى وَأَنَّ اللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.
٣٥ فاطر ﴿١٣﴾ يُولِجُ اللَّيْلَ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارَ فِي اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ الْمُلْكُ
٣٦ يَسَّ ﴿٣٧﴾ وَإِنَّ لَهُمُ اللَّيْلَ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ فَإِذَا هُمْ مُظْلَمُونَ.
﴿٤٠﴾ لَا الشَّمْسُ يَنْبِئُهَا أَنَّ تَذَرِكُ. الْقَمَرَ وَلَا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ.

٣٩ الزمر ﴿٥٥﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى أَلَا هُوَ الْعَزِيزُ الْغَفَّارُ.
٤٠ غافر ﴿٦١﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّا اللَّهُ لَدُوٌّ فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ.
٤١ فصلت ﴿٣٧﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ

٤٥ الجاثية ﴿٥﴾ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَضَرِّبُ الرِّيحُ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

٥٧ الحديد ﴿٦﴾ يُزْلَجُ اللَّيْلِ فِي النَّهَارِ وَيُزْلَجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ وَهُوَ عَلَيْنَا بِذَاتِ الصُّدُورِ.

٧٣ المزمل ﴿٢٠﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَى مِنْ ثُلُثِي اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ وَطَائِفَةٌ مِنَ الَّذِينَ مَعَكَ وَاللَّهُ يُقَدِّرُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ

٧٨ النبا ﴿١٠﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ لِبَاسًا ﴿١١﴾ وَجَعَلْنَا النَّهَارَ مَعَاشًا.

٨١ التكويد ﴿١٧﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا عَسَسَ ﴿١٨﴾ وَالصُّبْحُ إِذَا تَنَفَّسَ.

٨٤ الانشقاق ﴿١٦﴾ فَلَا أَقْسِمُ بِالشَّفَقِ ﴿١٧﴾ وَاللَّيْلِ وَمَا وَسَقَ ﴿١٨﴾ وَالْقَمَرِ إِذَا اتَّسَقَ.

٨٩ الفجر ﴿٤﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا يَنسَرِ.

٩١ الشمس ﴿٣﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا جَلَّاهَا ﴿٤﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَاهَا

٩٢ الليل ﴿١﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا يَغْشَى ﴿٢﴾ وَالنَّهَارُ إِذَا تَجَلَّى

٩٣ الضحى ﴿٢﴾ وَاللَّيْلُ إِذَا سَجَى.

اللهُ مصرف ومرسل الريح

٢ البقرة ﴿١٦٤﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَتَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضَرِّبُ الرِّيحُ وَالسَّحَابُ الْمُسَخَّرُ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

٧ الأعراف ﴿٥٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَتْ سَحَابًا نَقَالَ سُفْقَاهُ لِبَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.

٢٥ الفرقان ﴿٤٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا.

٢٧ النمل ﴿٦٣﴾ آمَنَ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُرْسِلِ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ.

٣٠ الروم ﴿٤٦﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ يُرْسِلَ الرِّيحَ مُبَشِّرَاتٍ وَلِيُظْهِرَ لَكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ وَلِتَجْزِيَ

الْفَلَكَ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

﴿٤٨﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتَنُفِثُ سَحَابًا فَيَسْطِطُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ.

٣٥ فاطر ﴿٩٩﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتَنُفِثُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَخْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الثُّمُورُ.

٤٥ الجاثية ﴿٥٥﴾ وَأَخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَضَرِّيفِ الرِّيَّاحِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

تسخير الرياح لتسيير السفن

١٠ يونس ﴿٢٢﴾ هُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفَلَكَ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرَحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهُمُ الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَلُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ.

١٧ الإسراء ﴿٦٦﴾ رَبُّكُمْ الَّذِي يُزْجِي لَكُمْ الْفَلَكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٧﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِلَاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا.

﴿٦٩﴾ أَمْ أَمِنتُمْ أَن يُعِيدَكُمْ فِيهِ تَارَةً أُخْرَى فَيُرْسِلَ عَلَيْكُمْ قَاصِفًا مِنَ الرِّيحِ فَيَغْرِقَكُمْ بِمَا كَفَرْتُمْ ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ عَلَيْهَا بِهِنِيغًا.

٤٢ الشورى ﴿٣٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَغْلَامِ ﴿٣٣﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٤﴾ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ.

تسخير الرياح لتلقيح الأشجار

١٥ الحجر ﴿٢٢﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ.

تسخير السحاب بقدره الله تعالى

﴿٦٣﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ.

٢٣ المؤمنون ﴿١٨﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَسْكَنَاهُ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّا عَلَى ذَهَابٍ بِهِ لِقَادِرُونَ.

٢٥ الفرقان ﴿٤٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً طَهُورًا.

٢٧ النمل ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً

٢٩ العنكبوت ﴿٦٣﴾ وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ

٣٠ الروم ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخْرِجُ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا

٣١ لقمان ﴿١٠﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ.

٣٥ فاطر ﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا

٣٩ الزمر ﴿٢١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَتَابِعُ فِي الْأَرْضِ

٤٣ الزخرف ﴿١١﴾ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ.

٥٠ ق ﴿٩﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَنَّاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ.

اللَّهُ مُسَخِّرُ الْبَحَارِ وَالْأَنْهَارِ

٢ البقرة ﴿١٦٤﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَنَى فِيهَا مِنْ كُلِّ ذَايَةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

٥ المائدة ﴿٩٦﴾ أَحَلَّ لَكُمْ صَيْدَ الْبَحْرِ وَطَعَامَهُ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِلْيَتَامَى

١٤ ابراهيم ﴿٣٢﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمْ الْأَنْهَارَ.

١٦ النحل ﴿١٤﴾ وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حَبْلَةً تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ مَوَاحِرَ فِيهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ

١٧ الإسراء ﴿٦٦﴾ رَبُّكُمْ الَّذِي يُرْجِي لَكُمْ الْفُلْكَ فِي الْبَحْرِ لِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ إِنَّهُ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٦٧﴾ وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَنْ تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ فَلَمَّا نَجَّكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ وَكَانَ الْإِنْسَانُ كَفُورًا.

﴿٧٠﴾ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا.

٢٢ الحج ﴿٦٥﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِي الْأَرْضِ وَالْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرؤُوفٌ رَحِيمٌ.

٢٤ النور ﴿٤٠﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ.

٢٥ الفرقان ﴿٥٣﴾ وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا.

٢٧ النمل ﴿٦١﴾ أَمَّنْ جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِي وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ؕ إِنْ عَمِلْتُمْ إِلَّا ظُلْمًا.

﴿٦٣﴾ أَمَّنْ يَهْدِيكُمْ فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَنْ يُزِيلِ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ ؕ إِنْ عَمِلْتُمْ إِلَّا ظُلْمًا.

٣٠ الروم ﴿٤١﴾ ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ.

٣١ لقمان ﴿٣١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ الْفُلْكَ تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِنِعْمَتِ اللَّهِ لِيُرِيَكُمْ مِنْ آيَاتِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ.

٣٥ فاطر ﴿١٢﴾ وَمَا يَسْتَوِي الْبَحْرَانِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَائِغٌ شَرَابُهُ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَمِنْ كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حَبْلًا تَلْبَسُونَهَا وَتَرَى الْفُلْكَ فِيهِ مَوَاحِرَ لِيَتَّبِعُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

٤٢ الشورى ﴿٣٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ الْجَوَارِ فِي الْبَحْرِ كَالْأَغْلَامِ ﴿٣٣﴾ إِنْ يَشَأْ يُسْكِنِ الرِّيحَ فَيَظْلَلْنَ رَوَاكِدَ عَلَى ظَهْرِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿٣٤﴾ أَوْ يُوقِفَهُنَّ بِمَا كَسَبُوا وَيَعْفُ عَنْ كَثِيرٍ.

٤٥ الجاثية ﴿١٢﴾ اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمْ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِنْ فَضْلِهِ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

٥٢ الطور ﴿٦٦﴾ وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ.

٥٥ الرحمن ﴿١٩﴾ مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿٢٠﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ.

﴿٢٤﴾ وَلَهُ الْجَوَارِ الْمُنشَآتُ فِي الْبَحْرِ كَالْأَغْلَامِ.

٨١ التكويد ﴿٦﴾ وَإِذَا الْبَحَارُ سُجِّرَتْ.

٨٢ الانفطار ﴿٣﴾ وَإِذَا الْبَحَارُ فُجِّرَتْ.

اللهُ مُنْشِئُ السَّحَابِ وَمُسَخِّرُهُ

٢ البقرة ﴿١٦٤﴾ إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنْ السَّمَاءِ مِنْ مَّاءٍ فَأَخْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضَرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

٧ الأعراف ﴿٥٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِيَلْدَ مِنْهُ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ.

١٣ الرعد ﴿١٢﴾ هُوَ الَّذِي يُرِيكُمْ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ.

٢٤ النور ﴿٤٠﴾ أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَخْرٍ لُجِّي يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ مَوْجٌ مِنْ فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدُهُ لَمْ يَكَذْ يَرَاهَا وَمَنْ لَمْ يُجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِنْ نُورٍ.

﴿٤٣﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَابًا ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَهُ ثُمَّ يَجْعَلُهُ رُكَامًا فَتَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خَلَالِهِ وَيَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ جِبَالٍ فِيهَا مِنْ بَرَدٍ فَيُصِيبُ بِهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَصْرِفُهُ عَنِ مَنْ يَشَاءُ يَكَاذِبُ سَآئِرُ بَرَقِهِ يَذْهَبُ بِالْأَبْصَارِ.

الله فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى. مَخْرَجُ الثَّمَرَاتِ وَالنَّبَاتِ

٢ البقرة ﴿٢٢﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ.

٦ الانعام ﴿٩٥﴾ إِنَّ اللَّهَ فَالِقُ الْحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الْحَيِّ ذَلِكَمُ اللَّهُ فَأَنْتَى تُؤْفَكُونَ.

﴿٩٩﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنْ النَّخْلِ مِنَ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ

وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَنَعْمَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

﴿١٤١﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنشَأَ جَنَّاتٍ مَّعْرُوشَاتٍ وَغَيْرَ مَعْرُوشَاتٍ وَالنَّخْلَ وَالزَّرْعَ مُخْتَلِفًا أَكْلُهُمُ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُتَشَابِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ كُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ.

٧ الأعراف ﴿٥٧﴾ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقْلَّتِ سَحَابًا ثِقَالًا سُقَّتْهُ لَبَدٌ مَّيِّتٌ فَآتَوْاكَ بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٥٨﴾ وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرِجُ نَبَاتَهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَالَّذِي خَبُثَ لَا يَخْرِجُ إِلَّا نَكِدًا كَذَلِكَ نُصَرِّفُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَشْكُرُونَ.

١٣ الرعد ﴿٣﴾ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٤﴾ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَّتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفِضَ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

١٤ ابراهيم ﴿٣٢﴾ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ....

١٥ الحجر ﴿١٩﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَابْتَنَيْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْزُونٍ ﴿٢٠﴾ وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَايِشَ وَمَنْ لَسْتُمْ لَهُ بِرَازِقِينَ ﴿٢١﴾ وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا عِنْدَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنْزِلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَعْلُومٍ ﴿٢٢﴾ وَأَرْسَلْنَا الرِّيَّاحَ لَوَاقِحَ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ.

١٦ النحل ﴿١٠﴾ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً لَكُمْ مِنْهُ شَرَابٌ وَمِنْهُ شَجَرٌ فِيهِ تُسِيمُونَ ﴿١١﴾ يُثْبِتُ لَكُمْ بِهِ الزَّرْعَ وَالزَّيْتُونَ وَالنَّخِيلَ وَالْأَعْنَابَ وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ. ﴿١٣﴾ وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ.

﴿٦٧﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ شَرِبًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَذَكَّرُونَ.

﴿٦٧﴾ وَمِنْ ثَمَرَاتِ النَّخِيلِ وَالْأَعْنَابِ تَتَّخِذُونَ مِنْهُ شَرِبًا وَرِزْقًا حَسَنًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

٢٠ طه ﴿٥٣﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ

السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى ﴿٥٤﴾ كُلُوا وَارْزُقُوا أَنْعَامَكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى.

٢٢ الحج ﴿٥٥﴾ وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ.

﴿٦٣﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ.

٢٣ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٩﴾ فَأَنْشَأْنَا لَكُمْ بِهِ جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ لَكُمْ فِيهَا فَوَاكِهُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٠﴾ وَشَجَرَةٌ تَخْرُجُ مِنْ طُورٍ سَيْنَاءَ تَنْبُتُ بِالذَّهْنِ وَصِبْغٍ لِلْكَالِبِينَ.

٢٦ الشعراء ﴿٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الْأَرْضِ كَمْ أَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ ﴿٨﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُمْ مُؤْمِنِينَ.

٢٧ النمل ﴿٦٠﴾ أَمَّنْ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَأَنْزَلَ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا بِهِ حَدَائِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَا كَانَ لَكُمْ أَنْ تُنْبِتُوا شَجَرَهَا ؕ إِنَّ اللَّهَ بَلِّ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ.

٣٠ الروم ﴿١٩﴾ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُخَيِّ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تَخْرُجُونَ.

﴿٢٤﴾ وَ مِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَيُخَيِّ بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ.

﴿٤٨﴾ اللَّهُ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَّاحَ فَتُثَبِّتُ السَّحَابَ فِيهِ نِسْطُهُ فِي السَّمَاءِ كَيْفَ يَشَاءُ وَيَجْعَلُهُ كِسْفًا فَنَرَى الْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَالِهِ فَإِذَا أَصَابَ بِهِ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ.

٣١ لقمان ﴿١٠﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَقَلَّى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ.

٣٢ السجدة ﴿٢٧﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَسُوقُ الْمَاءَ إِلَى الْأَرْضِ الْجُرُزِ فَنُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا تَأْكُلُ مِنْهُ أَنْعَامُهُمْ وَأَنْفُسُهُمْ أَفَلَا يُبْصِرُونَ.

٣٥ فاطر ﴿٩﴾ وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثَبِّتُ السَّحَابَ فَسُقْنَاهُ إِلَى بَلَدٍ مَيِّتٍ فَأَخْيَيْنَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا كَذَلِكَ الشُّعُورُ.

﴿٢٧﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا.

٣٦ يَسَ ﴿٣٣﴾ وَآيَةً لَهُمُ الْأَرْضُ الْمَيِّتَةُ أَحْيَيْنَاهَا وَأَخْرَجْنَا مِنْهَا حَبًّا فَمِنْهُ يَأْكُلُونَ

﴿٣٤﴾ وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ ﴿٣٥﴾ لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ ﴿٣٦﴾ سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا مِمَّا تُنْبِتُ

الْأَرْضُ وَمِنْ أَنْفُسِهِمْ وَمِمَّا لَا يَعْلَمُونَ.

﴿٨٠﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ.

٣٩ الزمر ﴿٢١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرًا لِأُولَى الْأَلْبَابِ.

٤١ فصلت ﴿٣٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْكَ تَرَى الْأَرْضَ خَاشِعَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ إِنَّ الَّذِي أَحْيَاهَا لَمُخِي الْمَوْتِ إِنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

﴿٤٧﴾ إِلَيْهِ يُرَدُّ عِلْمُ السَّاعَةِ وَمَا تَخْرُجُ مِنْ ثَمَرَاتٍ مِنْ أَكْمامِهَا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِي قَالُوا أَدْذَاكَ مَآثِمًا مِنْ شَهِيدٍ.

٥٠ هق ﴿٧﴾ وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ ﴿٨﴾ تَبْصِرَةً وَذِكْرًا لِكُلِّ عَبْدٍ مُنِيبٍ ﴿٩﴾ وَنَزَّلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً مُبَارَكًا فَأَنْبَتْنَا بِهِ جَبَاتٍ وَحَبَّ الْحَصِيدِ ﴿١٠﴾ وَالتَّخْلَ بِاسِقَاتٍ لَهَا طَلْعٌ نَضِيدٌ ﴿١١﴾ رِزْقًا لِلْعِبَادِ وَأَخْيَيْنَا بِهِ بَلْدَةً مِيتًا كَذَلِكَ الْخُرُوجُ.

٥٥ الرحمن ﴿١٠﴾ وَالْأَرْضَ وَضَعَهَا لِلْأَنَامِ ﴿١١﴾ فِيهَا فَاكِهَةٌ وَالتَّخْلُ ذَاتُ الْأَكْمَامِ ﴿١٢﴾ وَالْحَبُّ ذُو الْعَصْفِ وَالرَّيْحَانُ.

٥٦ الواقعة ﴿٦٣﴾ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَحْرُثُونَ ﴿٦٤﴾ أَنْتُمْ تَزْرَعُونَهُ أَمْ نَحْنُ الزَّارِعُونَ ﴿٦٥﴾ لَوْ نَشَاءُ لَجَعَلْنَاهُ حُطَامًا فَظَلْتُمْ تَفَكَّهُونَ.

﴿٧١﴾ أَفَرَأَيْتُمُ النَّارَ الَّتِي تُورُونَ ﴿٧٢﴾ أَنْتُمْ أَنْشَأْتُمْ شَجَرَهَا أَمْ نَحْنُ الْمُنْشِئُونَ.

٧٨ النبا ﴿١٤﴾ وَأَنْزَلْنَا مِنَ الْمُعْصِرَاتِ مَاءً ثَجَّاجًا ﴿١٥﴾ لِنُخْرِجَ بِهِ حَبًّا وَنَبَاتًا ﴿١٦﴾ وَجَبَاتٍ أَلْفَافًا.

٧٩ النازعات ﴿٣٠﴾ وَالْأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا ﴿٣١﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْغَهَا.

٨٠ عبس ﴿٢٤﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ ﴿٢٥﴾ أَنَا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٦﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٧﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا ﴿٢٨﴾ وَعَيْنًا وَقَضْبًا ﴿٢٩﴾ وَزَيْتُونًا وَنَخْلًا ﴿٣٠﴾ وَحَدَائِقَ غُلْبًا

﴿٣١﴾ وَفَاكِهَةً وَأَبًّا ﴿٣٢﴾ مَتَاعًا لَكُمْ وَلِإِنْعَامِكُمْ.

٨٧ الأعلى ﴿٤﴾ وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَى ﴿٥﴾ فَجَعَلَهُ غَنَاءً أَحْوَى.

٩٥ التين ﴿١﴾ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ.

اللهُ خَالِقُ الطَّيْرِ أَمَّا

٦ الأنعام ﴿٣٨﴾ وَمِمَّنْ ذَابَ فِي الْأَرْضِ وَلَاطِئِرٌ يَطِيرُ بِجَنَاحِهِ إِلَّا أُنْثَىٰ مِمَّا لَكُمْ

١٦ النحل ﴿٧٩﴾ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوْاءِ السَّمَاءِ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ.

٢٤ النور ﴿٤١﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُسَبِّحُ لَهُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالطَّيْرِ صَافَاتٍ كُلٌّ قَدْ عَلِمَ صَلَاتَهُ وَتَسْبِيحَهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ.

٦٧ الملك ﴿١٩﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمَسِّكُهُنَّ إِلَّا الرِّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ.

اللهُ خَالِقُ كُلِّ حَيٍّ وَدَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ

٢١ الأنبياء ﴿٣٠﴾ وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ.

٢٤ النور ﴿٤٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَن يَمْشِي عَلَىٰ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.

الأنعام

٦ الأنعام ﴿١٤٢﴾ وَمِنَ الْأَنْعَامِ حُمُولَةٌ وَفَرَسًا كُلُوا مِنَّمَا رَزَقَكُمُ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿١٤٣﴾ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ مِنَ الضَّأْنِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْمَعْزِ اثْنَيْنِ قُلِ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمَّا الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ نَبِّئْنِي بِعِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٤٤﴾ وَمِنَ الْإِبِلِ اثْنَيْنِ وَمِنَ الْبَقَرِ اثْنَيْنِ قُلِ الذَّكَرَيْنِ حَرَّمَ أَمَّا الْأُنثَيَيْنِ أَمَّا اشْتَمَلَتْ عَلَيْهِ أَرْحَامُ الْأُنثَيَيْنِ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ وَصَّاكُمُ اللَّهُ بِهَذَا

١٦ النحل ﴿٥٠﴾ وَالْأَنْعَامَ خَلَقَهَا لَكُمْ فِيهَا دِفْءٌ وَمَنَافِعُ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٦٠﴾ وَلَكُمْ فِيهَا جَمَالٌ حِينَ تُرِيحُونَ وَحِينَ تَسْرَحُونَ ﴿٧٠﴾ وَتَحْمِلُ أَثْقَالَكُمْ إِلَىٰ بَلَدٍ لَّمْ تَكُونُوا بِالْغِيَةِ إِلَّا جِشَقَ الْأَنْفُسِ إِنَّ رَبَّكُمْ لَرؤُوفٌ رَّحِيمٌ.

﴿٦٦﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لَبَنًا خَالِصًا سَائِغًا لِلشَّارِبِينَ.

﴿٨٠﴾ وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنْ جُلُودِ الْأَنْعَامِ بُيُوتًا تَسْتَخِفُّونَهَا يَوْمَ ظَعْنِكُمْ وَيَوْمَ إِقَامَتِكُمْ وَمِنْ أَصْوَابِهَا وَأَوْبَارِهَا وَأَشْعَارِهَا أَثَاثًا وَمَتَاعًا إِلَى حِينٍ.

٢٢ الحج ﴿٢٨﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَاكْلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ.

﴿٣٦﴾ وَالْبُذُنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ.

٢٣ المؤمنون ﴿٢١﴾ وَإِنَّ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةً نُسْقِيكُمْ مِمَّا فِي بُطُونِهَا وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ كَثِيرَةٌ وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٢٢﴾ وَعَلَيْهَا وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ.

٣٦ يس ﴿٧١﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧٢﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ ﴿٧٣﴾ وَلَهُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَمَشَارِبُ أَفَلَا يَشْكُرُونَ.

٣٩ الزمر ﴿٦﴾ خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَانزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ

٤٠ غافر ﴿٧٩﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَنْعَامَ لَتَرْكَبُوا مِنْهَا وَمِنْهَا تَأْكُلُونَ ﴿٨٠﴾ وَلَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ وَلِتَبْلُغُوا عَلَيْهَا حَاجَةً فِي صُدُورِكُمْ وَعَلَى الْفُلْكِ تُحْمَلُونَ.

٤٢ الشورى ﴿١١﴾ فَاطَرُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ جَعَلَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا وَمِنَ الْأَنْعَامِ أَزْوَاجًا يَذُرُّكُمْ فِيهِ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ.

٤٣ الزخرف ﴿١٢﴾ وَالَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا وَجَعَلَ لَكُمْ مِنَ الْفُلْكِ وَالْأَنْعَامِ مَا تَرْكَبُونَ ﴿١٣﴾ لَتَسْتَبْتُوا عَلَى ظُهُورِهِ ثُمَّ تَذْكُرُونَ نِعْمَةَ رَبِّكُمْ إِذَا اسْتَوَيْتُمْ عَلَيْهِ وَتَقُولُوا سُبْحَانَ الَّذِي سَخَّرَ لَنَا هَذَا وَمَا كُنَّا لَهُ مُقْرِنِينَ.

٨٨ الغاشية ﴿١٧﴾ أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ.

الخيول والبغال والحمير

٣ آل عمران ﴿١٤﴾ زَيْنٌ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِصَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا

وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الْمَآبِ.

١٦ النحل ﴿٨﴾ وَالخَيْلَ وَالْبِغَالَ وَالْحَمِيرَ لِتَرْكَبُوهَا وَزِينَةً وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ.

٣٨ ص ﴿٣١﴾ إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِبَادُ ﴿٣٢﴾ فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ الْخَيْرَ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ ﴿٣٣﴾ رُدُّوهَا عَلَيَّ فَفُطِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ.

١٠٠ العاديات ﴿١﴾ وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا ﴿٢﴾ فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا ﴿٣﴾ فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا ﴿٤﴾ فَأَنْزَنَ بِهِ نَقْعًا ﴿٥﴾ فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا.

النحل

١٦ النحل ﴿٦٨﴾ وَأَوْحَى رَبُّكَ إِلَى النَّحْلِ أَنِ اتَّخِذِي مِنَ الْجِبَالِ بُيُوتًا وَمِنَ الشَّجَرِ وَمِمَّا يَعْرِشُونَ ﴿٦٩﴾ ثُمَّ كُلِي مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ فَاسْلُكِي سُبُلَ رَبِّكَ ذُلًّا يَخْرُجُ مِنْ بُطُونِهَا شَرَابٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ شِفَاءٌ لِلنَّاسِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ.

اللهُ خَالِقُ الْإِنْسَانِ

٣ آل عمران ﴿٦﴾ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَإِلَهِ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ.

٦ الأنعام ﴿٢﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ طِينٍ ثُمَّ قَضَى أَجَلًا وَأَجَلٌ مُسَمًّى عِنْدَهُ ثُمَّ أَنْتُمْ تَمْتَرُونَ.

﴿٩٨﴾ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ.

٧ الأعراف ﴿١١﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ لَمْ يَكُنْ مِنَ السَّاجِدِينَ ﴿١٢﴾ قَالَ مَا مَنَعَكَ آلَتَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ.

١١ هود ﴿٦١﴾ هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَاسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوا إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُجِيبٌ.

١٥ الحجر ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ.

﴿٢٨﴾ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ.

- ﴿٣٣﴾ قَالَ لَمْ أَكُنْ لَأَسْجُدَ لِشَيْءٍ خَلَقْتَهُ مِنْ صَلَصالٍ مِنْ حَمَلٍ مَسْنُونٍ.
- ١٦ النحل ﴿٤﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ.
- ١٧ الاسراء ﴿٦١﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ قَالَ أَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا.
- ١٨ الكهف ﴿٣٧﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا.
- ٢١ الانبياء ﴿٣٧﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأَرِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ.
- ٢٢ الحج ﴿٥٥﴾ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لَشَيْئٍ لَكُمْ وَتَقَرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ نَخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِنْ بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا....
- ٢٣ المؤمنون ﴿١٢﴾ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ﴿١٣﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ ﴿١٤﴾ ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ.
- ٢٤ النور ﴿٤٥﴾ وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى رَجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ مَنْ يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ.
- ٢٥ الفرقان ﴿٥٤﴾ وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَاءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وَصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا.
- ٣٢ السجدة ﴿٧﴾ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ﴿٨﴾ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ﴿٩﴾ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ.
- ٣٥ فاطر ﴿١١﴾ وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ.
- ٣٦ يس ﴿٧٧﴾ أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ.

٣ الصافات ﴿١١﴾ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَنِ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لَازِبٍ.

٣٨ ص ﴿٧١﴾ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِنْ طِينٍ. ﴿٧٦﴾ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ.

٤٠ غافر ﴿٦٤﴾ اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ الْأَرْضَ قَرَارًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ.....

﴿٦٧﴾ هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُفْثَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخًا وَمِنْكُمْ مَنْ يَتُوفَى مِنْ قَبْلٍ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُّسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ.

٥٣ النجم ﴿٣٢﴾ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّمَى.

﴿٤٥﴾ وَأَنَّهُ خَلَقَ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى ﴿٤٦﴾ مِنْ نُفْثَةٍ إِذَا تُنْمَى.

٥٥ الرحمن ﴿١٤﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ.

٥٩ الحشر ﴿٢٤﴾ هُوَ اللَّهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ.....

٦٤ التغابن ﴿٣﴾ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْحَقِّ وَصَوَّرَكُمْ فَأَحْسَنَ صُورَكُمْ وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ.

٧١ نوح ﴿١٧﴾ وَاللَّهُ أَنبَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ نَبَاتًا.

٧٥ القيامة ﴿٣٦﴾ أَيَحْسَبُ الْإِنْسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى ﴿٣٧﴾ أَلَمْ يَكْ نُفْثَةٍ مِنْ مَنِيٍّ يُمْنَى ﴿٣٨﴾ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّى ﴿٣٩﴾ فَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنثَى.

٧٦ (الدهر) ﴿٢﴾ إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُفْثَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا.

٨٠ عبس ﴿١٧﴾ قَتَلَ الْإِنْسَانُ مَا كَفَرَهُ ﴿١٨﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٩﴾ مِنْ نُفْثَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَرَهُ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ السَّبِيلَ يَسْرَهُ.

٨٢ الانفطار ﴿٧﴾ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ ﴿٨﴾ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَاشَاءَ رَكَّبَكَ.

٨٦ الطارق ﴿٥﴾ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٦﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٧﴾ يَخْرُجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ.

٩٥ التين ﴿٤﴾ لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ.

٩٦ العلق ﴿٢﴾ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ.

الْعِلْمُ وَالْعُلَمَاءُ

٢ البقرة ﴿١٥١﴾ كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ.

٣ آل عمران ﴿٧﴾ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ.

﴿١٨﴾ شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ ﴿١٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ عِنْدَ اللَّهِ الْأَسْلَامَ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ.

٤ النساء ﴿١١٣﴾ وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا.

﴿١٦٢﴾ لَكِنَّ الرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ وَمَا أَنْزَلَ مِنْ قَبْلِكَ

٦ الأنعام ﴿٩١﴾ قُلْ مَنْ أَنْزَلَ الْكِتَابَ الَّذِي جَاءَ بِهِ مُوسَى نُورًا وَهُدًى لِلنَّاسِ تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا وَعُلَّمْتُمْ مَالًا تَعْلَمُوا أَنتُمْ وَلَا آبَاءَكُمْ قُلِ اللَّهُ ثُمَّ ذَرْهُمْ فِي خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ.

١٠ يونس ﴿٣٩﴾ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ
١٤ إبراهيم ﴿١﴾ الرَّكَّابَاتِ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِ رَبِّهِمْ إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ.

١٧ الإسراء ﴿٨٥﴾ وَيسْتَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا.

٢٢ الحج ﴿٥٤﴾ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادِ الَّذِينَ آمَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.

٢٩ العنكبوت ﴿٤٣﴾ وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ لِنَاسٍ لِّئَلَّا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ.

استحباب الرحلة لطلب العلم

٩ التوبة ﴿١٢٢﴾ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ.

١٨ الكهف ﴿٦٦﴾ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا.

رفعة درجات العلماء

- ٦ الانعام ﴿٨٣﴾ نَزَّعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ إِنْ رَّيْتَكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ.
١٢ يوسف ﴿٧٦﴾ نَزَّعُ دَرَجَاتٍ مِّنْ نَّشَاءٍ وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ.
٥٨ المجادلة ﴿١١﴾ يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ
وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ.

وجوب الاسترشاد بالعلماء

- ١٦ النحل ﴿٤٣﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.
٢١ الانبياء ﴿٧﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ إِلَّا رِجَالًا نُوحِي إِلَيْهِمْ فَاسْتَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ.

مشروعية الاستنباط

- ٤ النساء ﴿٨٣﴾ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولَى الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ

الوعظ والارشاد

- ٣ آل عمران ﴿١٠٤﴾ وَلَتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ
١٤ ابراهيم ﴿٥﴾ وَذَكَرْهُمْ بَأْيَامِ اللَّهِ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ.
١٦ النحل ﴿٤٤﴾ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ.
٣٣ الاحزاب ﴿٣٤﴾ وَأَذْكُرَنَّ مَا يَتْلَىٰ فِي يَمِينِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا.

فِرَاسَةُ الْمُؤْمِنِ
١٥ الحجر ﴿٧٥﴾ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْمُتَوَسِّمِينَ .

مَا يُصِيبُ مِنْ عِلْمٍ عُلَمَاءُ فَكْتَمَهُ

٢ البقرة ﴿١٥٩﴾ إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ
لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ ﴿١٦٠﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا
وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنَّا فَاُولَٰئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ .

الْحَثُّ عَلَى التَّعَلُّمِ وَالتَّعْلِيمِ

٣ آل عمران ﴿٧٩﴾ وَلَكِنْ كُونُوا رَبَّانِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ الْكِتَابَ وَبِمَا
كُنتُمْ تَدْرُسُونَ .

الْمُنَازَعَةُ فِي الْعِلْمِ

٢ البقرة ﴿٢٥٨﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ
إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ
مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ .
٤٦ الأحقاف ﴿٤٦﴾ اِيتُونِي بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هَٰذَا أَوْ آثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنتُمْ
صَادِقِينَ .

النَّهْيُ عَنِ الْمَجَادَلَةِ بِغَيْرِ عِلْمٍ

٢٢ الحج ﴿٣﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ
﴿٨﴾ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ .
﴿٣١﴾ لَقَمَانُ وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ .

النَّهْيُ عَنِ اتِّبَاعِ أَشْيَاءٍ غَيْرِ مُتَّكَدٍ مِنْ صَحَّتِهَا

١٧ الاسراء ﴿٣٦﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ
أُولَٰئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا .

١٨ الكهف ﴿٢٢﴾ فَلَا تَمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَاءً ظَاهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِمْ مِنْهُمْ أَحَدًا .

الذي يُولَّى أمراً يجبُ أن يكونَ عارفاً به

٢ البقرة ﴿٢٤٧﴾ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اضْطَفَهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ

١٢ يوسف ﴿٢٢﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ.
﴿٥٥﴾ قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ.

٢١ الأنبياء ﴿٧٤﴾ وَلَوْطَا أَتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً
﴿٧٩﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً

٢٨ القصص ﴿١٤﴾ وَلَمَّا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى آتَيْنَاهُ حُكْماً وَعِلْماً وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ.

تعليم الحيوانات والطيور

٥ المائدة ﴿٤﴾ قُلْ أَحِلَّ لَكُمْ الطَّيَاتُ وَمَاعَلَّمْتُمْ مِنَ الْجَوَارِحِ مُكَلِّينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ اللَّهُ

٢٧ النمل ﴿٢٧﴾ سَتَنْظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنْتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٢٨﴾ اذْهَبْ بِكِتَابِي هَذَا فَاَلْقِهِ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانْظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ.

المجادلة بالباطل استوجبت عقاب الله

٤٠ غافر ﴿٥﴾ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ وَجَادِلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ.

دَمُّ الجدل والمراء

٤٣ الزخرف ﴿٥٨﴾ مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ.

الحث على تعلم عدد السنين والحساب

٦ الأنعام ﴿٩٦﴾ فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا

٩ التوبة ﴿٣٦﴾ إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ

١٠ يونس ﴿٥٥﴾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا
عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ.....
١٧ الإسراء ﴿١٢﴾ وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَاتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ
مُبْصِرَةً لِتَبْتَغُوا فَضْلًا مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ.....
١٨ الكهف ﴿٢٥﴾ وَلِئْتُوا فِي كَهْفِهِمْ ثَلَاثَ مِائَةٍ سِنِينَ وَازْدَادُوا تِسْعًا.
٥٥ الرحمن ﴿٥٥﴾ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ.

التعريف بالتفسير الموضوعي للقرآن الكريم

أما تعريف مصطلح (التفسير الموضوعي) بعد أن أصبح علماً على لون من ألوان التفسير فقد تعددت تعاريف الباحثين المعاصرين له . منها :

- هو بيان مايتعلق بموضوع من موضوعات الحياة الفكرية أو الاجتماعية أو الكونية من زاوية قرآنية للخروج بنظرة قرآنية بصده .

- وعرفه بعضهم بقوله : هو جمع الآيات المتفرقة في سور القرآن المتعلقة بالموضوع الواحد لفظاً أو حكماً وتفسيرها حسب المقاصد القرآنية .

- وقيل : هو بيان موضوع مامن خلال آيات القرآن الكريم في سورة واحدة أو سور متعددة .

- وقيل : هو علم يبحث في قضايا القرآن الكريم، المتحدة معنى أو غاية، عن طريق جمع آياتها المتفرقة، والنظر فيها، على هيئة مخصوصة، بشروط مخصوصة لبيان معناها، واستخراج عناصرها، وربطها برباط جامع^(١) .

- وقيل : هو علم يتناول القضايا حسب المقاصد القرآنية من خلال سورة أو أكثر . ولعل التعريف الأخير هو الأرجح، لخلوه عن التكرار ولإشارته إلى نوعيه الرئيسيين .

والتعاريف السابقة يغلب عليها طابع الشرح والتوضيح لمنهج البحث في التفسير الموضوعي .

أما تعريفه بشكل تفصيلي فهو كما يلي :

واقع التفسير الموضوعي :

في هذا اللون من التفسير، يعتمد الباحث والناظر في القرآن، إلى الآيات التي تتصل بموضوع واحد، فيجمعها، ويجعلها نصب عينيه، وموجودة بين يديه، ثم يقلب الطرف

(١) المدخل إلى التفسير الموضوعي : ٢٠ ؛ ودراسات في التفسير الموضوعي للدكتور محمد عوض : ٧ .

فى أنحائها، ويجبل الفكر فى جوانبها، ويكوّن منها الموضوع الذى تتصل به، ثم يعمد إلى جوانب ذلك الموضوع، ويجعله فى إطار متناسب، وهىكل متناسق، ملوّناً لنواحيه، مبرزاً لمراميّه: حتى يكون هيكلاً تاماً، متكامل الأجزاء، تامّ البنيان، قائم الأركان.. فإن أعوزه كمال ذلك الموضوع إلى حديث، جاءت به السنة حتى يكمل له هيكله، ويتم له صرحه، جاء به.

وعلى ذلك ينجلي للقارىء - بوضع الآية بجوار الآية - الهدف الذى يقصد القرآن إليه، والمعنى الذى يقول عليه، وبهذا يستكشف القارىء للقرآن هدايته، ويبرز للناس من مواضع القرآن، ما جاء به لأداء مهمته ورسالته^(١).

هذا اللون من التفسير الموضوعي، وإن نحا نحوه علماء العلوم المختلفة، كعلم الكلام، عند الاستدلال على صفات الله - تعالى - بالدليل الثقلى، من مثل قوله تعالى: ﴿فَقَالَ لِمَا يُرِيدُ﴾ [البروج: ١٦] وقواه تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ [السجدة: ٦] وقوله عز شأنه: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، وكذلك فى علم الأخلاق، والتصوف، والفقه.. فإن تلك العلوم بوّت فيها أبوابها، واستشهد بها، ودعمت بما يلائم تلك الأبواب من أدلة قرآنية، وآيات تنزيلية.

نقول: إن ذلك اللون من التفسير وجد مايدانيه فى علوم أخرى، إلا أنه على النحو التفسيري لم يتم بنيانه، ولم تقم أركانه، ولم ينح نحوه أحد من العلماء السابقين، بل لم يتعرض له من اللاحقين إلا القليل.

وهذا اللون من التفسير، يتطلب جمع الآيات المتصلة بالموضوع، وإمعان النظر فيها، بوصفها وحدة واحدة، وتحريك النظر فى اتجاهاتها، لاستكشاف ما يكون فيها من معان ثانية، وبذلك تقتطف من كل غصن من أغصان ذلك البحث مايناسبه، حتى تكون فروع ذلك الموضوع الواحد مستوفاة مستكملة، ويكون لكل فرع من الآيات مايناسبه ثم يتقل إلى موضوع آخر، وهكذا.. حتى تتحقق الأهداف التى توخاها القرآن، وتبرز وحدة الموضوع، التى قصد إليها هذا التفسير الموضوعي، كموضوعات الرسالة، والتوحيد، والبعث والنشور، والجنة والنار، وموضوع الخمر، والزواج والطلاق، والمعاملات المالية، والجهاد، وحقوق الأفراد إلى غير ذلك.. وقد سمي بالتفسير الموضوعي نسبة إلى وحدة الموضوع الذى يعالجه.

(١) الدكتور أحمد السيد الكومى: التفسير الموضوعي طبع، دار الهدى بمصر سنة ١٩٨٠ ص ١٣

ويتصل بهذا اللون من التفسير، لون آخر - يمكن أن نطلق عليه التفسير المقارن أو الموازن. وفي هذا اللون من التفسير، القائم على الموازنة، يعتمد المفسر إلى جملة من الآيات القرآنية في مكان واحد، ويستطلع آراء المفسرين، متبعاً ما كتب في تفسير تلك الجملة من الآيات، سواء كانوا من السلف، أم كانوا من الخلف، وسواء أكان تفسيرهم من التفسير الثقلي، أم كان من التفسير العقلي، ويوازن بين الاتجاهات المتباينة، والمشارب المتنوعة، فيما سلكه كل منهم في تفسيره، وما اتجه في مسلكه، فيرى من كان منهم متأثراً بالخلاف المذهبي، ومن كان منهم معبراً عن آراء فرقة معينة، أو مذهب من المذاهب.

وقد يكون هذا اللون من التفسير المقارن ذا مجال أوسع، ونشاط أفسح، فيتجه فيه الباحث المفسر إلى مقارنة النصوص القرآنية المشتركة في موضوع واحد، وما جاء في السنة كذلك من الأحاديث، ثم يوازن بين النصوص القرآنية بعضها مع بعض، كما يوازن بين ما جاء في القرآن الكريم، وبين ما جاء به السنة، وذلك مما يكون ظاهره الاختلاف.

من مثل قوله: ﴿وَقِفُّهُمْ إِنَّهُمْ مَسْنُؤُلُونَ﴾ [الصفات: ٢٤] - أي احبسوهم، احبسوا أيها الملائكة هؤلاء المشركين، إنهم مسؤولون عما كانوا يعبدون من دون الله. وقوله تعالى: ﴿فَيَوْمَئِذٍ لَا يُسْأَلُ عَنْ ذَنْبِهِ إِنْسٌ وَلَا جَانٌّ﴾ [الرحمن: ٣٩] - أي لا يسأل الملائكة المجرمين عن ذنوبهم، لأن الله قد حفظها عليهم، ولا يسأل بعضهم عن ذنوب بعض.

ومثل قوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ، يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ...﴾ الآية... [التوبة: ١١١] وقوله سبحانه: ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [الزخرف: ٧٢] - أي أورثكموها الله - عز وجل - عن أهل النار الذين أدخلهم جهنم. وقوله - ﷺ - في الحديث الصحيح: «لن يدخل أحدكم الجنة بعمله».

وذلك ما عني به العلماء تحت عنوان آخر، وهو «موهم الاختلاف والتناقض في علوم القرآن» ومختلف الحديث في علوم الحديث.

وقد تكون المقارنة بين النصوص القرآنية ذات القصة الواحدة، أو الموضوع الواحد. لتظهر المفارقات بين مختلف التعبيرات عن المعنى الواحد، بعبارات تختلف إيجازاً وإطناباً، وأكثر ما يكون ذلك في القصص القرآني، فتكون مهمة المفسر في ذلك،

البحث عن الأسباب، والكشف عن الأسرار والحكم التي من أجلها كانت المخالفة بين التعبيرين، والمغايرة بين الأسلوبين، إيجازاً تارة، وإطناباً تارة أخرى، وتعبيراً بلفظ مرة، ووضع لفظ آخر بدله مرة أخرى، وذلك وإن بحث في مشتبه القرآن إلا أنه نوع آخر من المقارنة والموازنة^(١).

(١) التفسير الموضوعي للقرآن ص ١٦.

نشأة التفسير الموضوعي للقرآن الكريم^(١)

لم يظهر هذا المصطلح (التفسير الموضوعي) إلا في القرن الرابع عشر الهجري، عندما قُررت هذه المادة ضمن مواد قسم التفسير بكلية أصول الدين بالجامع الأزهر. إلا أن لبنات هذا اللون من التفسير وعناصره الأولى كانت موجودة منذ عصر التنزيل في حياة رسول الله ﷺ.

فإن تتبع الآيات التي تناولت قضية ما والجمع بين دلالاتها وتفسير بعضها لبعض، مما أطلق عليه العلماء فيما بعد بتفسير القرآن بالقرآن، كان معروفاً في الصدر الأول، وقد لجأ رسول الله ﷺ إليه عندما سُئل عن تفسير بعض الآيات الكريمة:

- روى الشيخان وغيرهما عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ...﴾ [الأنعام: ٨٢] شق ذلك على الناس، فقالوا: يا رسول الله وأئنا لا يظلم نفسه؟ قال: «إنه ليس الذي تَعْنُونَ، ألم تسمعا ما قال العبد الصالح: ﴿إِنَّ الشُّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ [لقمان: ١٣]، إنما هو الشرك»^(٢).

- روى البخاري^(٣) أن رسول الله ﷺ فسر مفاتيح الغيب في قوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ [الأنعام: ٥٩] فقال: «مفاتيح الغيب خمس: ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ﴾، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مِمَّا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [لقمان: ٣٤]».

- ومن هذا القبيل ما كان يلجأ إليه الصحابة رضوان الله عليهم من الجمع بين الآيات القرآنية التي يظن بها بعضهم التعارض، كما روى البخاري قال: وقال المنهال عن

(١) مباحث في التفسير الموضوعي: للدكتور مصطفى مسلم/ ٢٣-٣١ ط دار القلم - دمشق. بتصرف يسير.

(٢) صحيح البخاري، كتاب التفسير: ٢٠/٦، صحيح مسلم، كتاب الإيمان: ٨٠/١.

(٣) صحيح البخاري، كتاب التفسير: ١٩٣/٥.

سعيد بن جبير قال: قال رجل لابن عباس رضي الله عنهما إني لأجد في القرآن أشياء تختلف علي، قال: ﴿فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ﴾ ﴿وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ﴾، ﴿وَلَا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثًا﴾، ﴿وَاللَّهُ رِئْثًا مَا كُنَّا مُشْرِكِينَ﴾ فقد كنتموا في هذه الآية، وقال تعالى: ﴿أَنْتُمْ أَشَدُّ خُلُقًا أَمْ السَّمَاءُ بَنَاهَا - إِلَى قَوْلِهِ: وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا﴾ فذكر خلق السماء قبل الأرض، ثم قال تعالى: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ كُفْرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ إِلَى قَوْلِهِ: طَائِعِينَ﴾ فذكر في هذه خلق الأرض قبل خلق السماء... وخلق الأرض في يومين ثم خلق السماء ثم استوى إلى السماء فسوَاهن في يومين آخرين ثم دحى الأرض ودحياها أن أخرج منها الماء والمرعى وخلق الجبال والرمال والجماد والآكام وما بينهما في يومين آخرين فذلك قوله تعالى ﴿دَحَاهَا﴾ (...)(١).

وقد وضع العلماء بعد ذلك قاعدة في أصول التفسير بضرورة العودة إلى القرآن الكريم نفسه لمعرفة تفسير آية ما، فما أجمل في مكان فُصِّل في مكان آخر، وما أطلق في سورة مقيّد في سورة أخرى... يقول ابن تيمية: (... إن أصح الطرق في ذلك - أي في تفسير القرآن - أن يفسّر القرآن بالقرآن، فما أجمل في مكان فإنه قد فسر في موضع آخر، وما اختصر في مكان فقد بسط في موضع آخر)(٢).

ومن أبرز تلك الأمثلة قوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا مَا قَصَصْنَا عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ﴾ [١١٨]، فقد أفادت الآية الكريمة أن ما حُرِّم على اليهود قد قصّه الله سبحانه وتعالى على نبيّه، وبالرجوع إلى الآية التي ورد فيها ذكر المحرمات عليهم، نجد أن آية الأنعام قد فصّلت هذا الإجمال وأزالت ذاك الإبهام في قوله تعالى: ﴿وَعَلَى الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا كُلَّ ذِي ظُفْرٍ وَمِنَ الْبَقَرِ وَالْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَا إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَا أَوْ الْحَوَايَا أَوْ مَا اخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ وَإِنَّا لَصَادِقُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٦].

وكذلك ما يتعلق بالمحرمات من بهيمة الأنعام على هذه الأمة نجد في ذلك عدة آيات: كقوله تعالى: ﴿... أَحَلَّتْ لَكُمْ بَهِيمَةَ الْأَنْعَامِ إِلَّا مَا يُبْلَى عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ١]. وقد جاء تفصيل هذه المحرمات في عدة آيات كقوله تعالى:

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير: ٣٦/٦.

(٢) مقدمة في أصول التفسير. لابن تيمية بتحقيق عدنان زرزور: ٩٣.

﴿قُلْ لَا أُجِدُ فِيهَا أَوْحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا عَلَى طَاعِمٍ يَطْعَمُهُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ مِثْلَهُ أَوْ دَمًا مَسْفُوحًا أَوْ لَحْمَ خِنْزِيرٍ فَإِنَّهُ رِجْسٌ أَوْ فِسْقًا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ﴾ [الأنعام: ١٤٥].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُلُوا مِنْ طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا لِلَّهِ إِنْ كُنْتُمْ تُعْبَدُونَ، إِنَّمَا حَرَّمَ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةَ وَالذَّمَّ وَلَحْمَ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ لِغَيْرِ اللَّهِ﴾ [البقرة: ١٧٢، ١٧٣].

وقوله تعالى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ وَالذَّمُّ وَلَحْمُ الْخِنْزِيرِ وَمَا أُهِلَّ بِهِ لِغَيْرِ اللَّهِ بِهِ وَالْمُنْخَفَقَةُ وَالْمَوْقُوذَةُ وَالْمُتَرَدِّيَةُ وَالنَّطِيحَةُ وَمَا أَكَلَ السَّبُعُ إِلَّا مَا ذَكَّيْتُمْ وَمَا ذُبِحَ عَلَى النُّصُبِ وَأَنْ تَسْتَقْسِمُوا بِالْأَزْلَامِ ذَلِكُمْ فِسْقٌ...﴾ [المائدة: ٣].

وقد جمع الفقهاء هذه الآيات ذات الصلة بموضوع واحد في كتبهم الفقهية فجمعوها ما يتعلق بالوضوء والتميم تحت كتاب الطهارة واستنبطوا منها الأحكام الخاصة بها، كما جمعوا ماورد في الصلاة وقيامها وركوعها والقراءة فيها تحت كتاب الصلاة، وما يتعلق بالصدقات وجوباً ومصارف وأنواع المال التي تخرج الصدقة منها تحت كتاب الزكاة، وهكذا في سائر أبواب الفقه من العبادات والمعاملات والفرائض والسير.

وكل ذلك لون من ألوان التفسير الموضوعي في خطواته الأولى.

وقد أخذت هذه الدراسات الموضوعية اتجاهاً آخر في نفس الوقت وهو الاتجاه اللغوي وذلك بتتبع اللفظة القرآنية ومحاولة معرفة دلالاتها المختلفة. فقد ألّف مقاتل بن سليمان البلخي المتوفى سنة ١٥٠ هـ كتاباً سماه (الأشباه والنظائر في القرآن الكريم)، وذكر فيه الكلمات التي اتحدت في اللفظ واختلفت دلالاتها حسب السياق في الآيات الكريمة.

وألّف يحيى بن سلام المتوفى سنة ٢٠٠ هـ كتابه (التصاريّف)^(١)، تفسير القرآن مما اشبهت أسماءه وتصرفت معانيه على طريقة الأشباه والنظائر.

ألّف الراغب الأصفهاني المتوفى سنة ٥٠٢ هـ كتابه (المفردات في غريب القرآن) حيث تتبع مادة الكلمة القرآنية وبين دلالاتها في مختلف الآيات.

ثم ألّف ابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ هـ كتابه (نزهة العين النواضر في علم الوجوه والنظائر). وعلى هذه الشاكلة كتاب الدامغاني المتوفى سنة ٤٧٨ هـ بعنوان (إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم).

وكتاب الفيروزآبادي المتوفى سنة ٨١٧ هـ بعنوان (بصائر ذوي التمييز في لطائف

(١) حققت الكتابَ هند شلبي، وطبعته الشركة التونسية للتوزيع.

الكتاب العزيز).

وكتاب ابن العماد المتوفى سنة ٨٨٧هـ بعنوان (كشف السرائر في معنى الوجوه والأشياء والنظائر).

وكان الغالب على هذه المؤلفات الجانب اللغوي للكلمات الغريبة التي تتعدد دلالاتها حسب الاستعمال.

والى جانب هذا اللون من التفسير فقد برزت دراسات تفسيرية لم تقتصر على الجوانب اللغوية بل جمعت بين الآيات التي يربطها رابط واحد أو يمكن أن تدخل تحت عنوان معين:

فقد ألف الإمام أبو عبيد القاسم بن سلام، المتوفى سنة ٢٢٤هـ كتابه في الناسخ والمنسوخ.

وألف الإمام علي بن المديني (شيخ البخاري) والمتوفى سنة ٢٣٤هـ كتابه في أسباب النزول.

وألف الإمام ابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦هـ كتابه (تأويل مشكل القرآن).

وألف أبو بكر الجصاص الحنفي المتوفى سنة ٣٧٠هـ كتابه (أحكام القرآن).

وألف ابن العربي المالكي المتوفى سنة ٥٤٣هـ كتابه (أحكام القرآن) أيضاً.

وألف إلكيا الهراسي الشافعي المتوفى سنة ٥٠٤هـ كتابه (أحكام القرآن) أيضاً.

وظهرت مؤلفات أخرى جمع أصحابها مايشمله عنوان الكتاب:

مثل (أمثال القرآن) للماوردي المتوفى سنة ٤٥٠هـ.

وكتاب (مجاز القرآن) للعز بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠هـ.

وكتاب (أقسام القرآن) و (أمثال القرآن) لابن القيم المتوفى سنة ٧٥١هـ.

ولازال هذا الخط من التأليف في التفسير الموضوعي مستمراً إلى يومنا هذا، وقد توجهت أنظار الباحثين إلى هدايات القرآن الكريم حول معطيات الحضارات المعاصرة وظهور المذاهب والاتجاهات الاقتصادية والاجتماعية، والعلوم الكونية والطبيعية.

ف نجد مؤلفات كثيرة تحت عناوين شتى مثل:

* الإنسان في القرآن.

* المرأة في القرآن.

* الأخلاق في القرآن.

* اليهود في القرآن.

* سيرة الرسول صور مقتبسة من القرآن.

* الصبر في القرآن.

* الرحمة في القرآن.

ومثل هذه الموضوعات لا تكاد تنتهي، فكلما جدّ جديد في العلوم المعاصرة، التفت علماء المسلمين إلى القرآن الكريم ليسترشدوا بهداياته وينظروا في توجيهات الآيات الكريمة في مثل هذه المجالات الجديدة.

أهمية التفسير الموضوعي :

أولاً: إن تجدد حاجات المجتمعات ويزور أفكار جديدة على الساحة الإنسانية وانفتاح ميادين للنظريات العلمية الحديثة لا يمكن تغطيتها ورؤية الحلول الصحيحة لها إلا باللجوء إلى التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

وذلك أن الباحث المسلم عندما يجابه مشكلة في الحياة، أو تقدّم له نظرية مستحدثة في علم النفس، أو علم الاجتماع، أو في علوم الحضارة الإنسانية، أو العلوم الفلكية، أو العلوم الطبيعية أو نظرية في الاقتصاد... فإنه لا يستطيع أن يجد لكل هذه النظريات المستجدة نصوصاً من آيات الذكر الحكيم تناقش مثل هذه القضية المطروحة وتبين حكم الله تعالى فيها، بل يلجأ الباحث عندئذ إلى معرفة الهدايات القرآنية وإرشادات السنة النبوية في هذا الاتجاه ويجمع الأفكار الرئيسية في هذا المجال، بحيث تتكوّن لديه ملكة لإدراك مقاصد القرآن الكريم في هذا الصدد، ويمنظار القرآن الكريم ينظر إلى حلّ هذه المشكلة أو يقوم هذه النظرية.

إن نصوص القرآن الكريم محددة والقضايا التي تناولها بالتوضيح والبيان والتفصيل محددة أيضاً. أما المشاكل الإنسانية وآفاق المعرفة فغير محددة مادامت الحياة مستمرة على هذه الكرة الأرضية، ولا يمكن أن نجابه هذه المشكلات بظواهر النصوص المحددة. بل نجد المرونة والسعة في الخطوط الأساسية التي تعرض لها آيات التنزيل الحكيم.

ومن خلال علل النصوص وهداياتها العامة ودلالاتها وظلالها نستطيع أن نصل إلى

أنوار كاشفة ترسم لنا الطريق وتحدد لنا المعالم لتقويم كل مستحدث جديد.

لذا لا يمكن أن نجابه مشاكل العصر ومعطيات الحضارة إلا بأسلوب الدراسات الموضوعية للقرآن الكريم أو بأسلوب (التفسير الموضوعي).

إن جمع أطراف موضوع مامن خلال نصوص القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة والإحاطة بدلالاتها يمكن الباحث من القيام بدور اجتهادي للتوصل إلى أفكار وقواعد عامة جديدة، وعلى ضوء هذه القواعد والهدايات المستمدة من مقاصد النصوص الشريفة يستطيع الباحث أن يدرك معالجة الإسلام لهذه المعضلات والمشكلات.

ثانياً: إن تخصيص موضوع بالبحث والدراسة وجمع أطرافه والاطلاع على أسباب النزول للآيات المتعلقة به، وتحديد المرحلة التي نزلت الآيات الكريمة تعالج بعض جوانبه، وتوجيه مظاهره التعارض، كل ذلك يهيئ للموضوع جواً علمياً لدراسة هذا الموضوع بعمق وشمولية تُثري المعلومات حوله وتبلور قضاياها وتبرز معالمه.

ومثل هذا العمق ومثل هذا التوسع لإبراز معالم الموضوع لا يتيسر للباحث في أي نوع من أنواع التفاسير سواء التحليلي، أو الإجمالي، أو المقارن، بل التفسير الموضوعي هو الأسلوب الأمثل في بحث مثل هذه الأمور.

ثالثاً: عن طريق التفسير الموضوعي يستطيع الباحث أن يبرز جوانب جديدة من وجوه إعجاز القرآن الكريم الذي لا تنقضي عجائبه.

فكلما جذت على الساحة معطيات جديدة لتطور الفكر البشري، يعايشها المفسر ويحيط بدقائقها وحقائقها ثم يلجأ إلى القرآن الكريم وإلى السنة النبوية الشريفة ليستنتق النصوص الشريفة ويميط اللثام عن وجوه جديدة من الهدايات القرآنية.

ويجد أهل الاختصاص في كل فن أن المعجزة الخالدة الباقية تقيم الحجة على الأجيال وأن في القرآن من الكفاية والغناء عن كل شيء: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ، أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥١، ٥٠].

رابعاً: تأهيل الدراسات القرآنية وتصحيح مسارها: لقد نالت بعض العلوم القرآنية حظاً وافراً من جهود العلماء وصُنِّت فيها المصنفات الكثيرة مثل العلوم المتعلقة بالجوانب اللغوية، والدراسات الفقهية لآيات الأحكام، إلا أن علوماً جديدة برزت

تحتاج إلى تأهيل قواعدها على ضوء القرآن الكريم مثل (الإعجاز العلمي)، فقد برز هذا العلم وكثرت الكتابات فيه إلا أنه يحتاج إلى ضبطه بقواعد علمية مستمدة من هدايات القرآن الكريم لتجنب الإفراط والتفريط في إدخال الآيات مجال البحث والمتعلقة بالعلوم التجريبية من علوم الفلك والطبيعة والإنسان.

وكذلك علم (أصول التربية القرآنية) فبعد بروز المدارس الاجتماعية ومدارس علم النفس في الغرب، وغزوها للأمم والشعوب، ومحاولة إقامة صرح التعليم والتربية حسب مناهجها، رأى المفكرون المسلمون أن من الضرورة بمكان استخلاص مبادئ هذا العلم من هدايات القرآن الكريم ولازالت الكتابات في هذا الجانب قليلة جداً، إذ تحتاج مثل هذه العلوم إلى علماء راسخين في علوم الشريعة، إلى جانب استيعابهم لثقافة العصر ومناهج المدارس الحديثة في الغرب والشرق، إلى جانب ملكة قوية في الإبداع والاستنباط، ليقوم هذا العلم على أسس راسخة.

ومثل هذا (أصول علم الاقتصاد الإسلامي) و (أصول الإعلام الإسلامي).

إن كثيراً من العلوم تلعب دوراً هاماً في حياتنا المعاصرة، ولازالت معالم هذه العلوم غير واضحة الصلة بهدايات القرآن، ولايمكن أن نجد نصوصاً محدّدة من القرآن الكريم أو السنة النبوية تناولتها، وإنما نستشفّ أصولها من خلال روح النصوص الكريمة وهدايات القرآن الكريم والسوابق القضائية والفقهية لسلف هذه الأمة. ولاوسيلة لوضع أسس هذه العلوم وبيان ضوابطها إلا من خلال التعامل مع الآيات الكريمة وفق منهج التفسير الموضوعي للقرآن الكريم.

التفسير الموضوعي بين الماضي والحاضر

نزل القرآن الكريم على قلب النبي الأمي - ﷺ - ولم يكذب يقرع آذان القوم حتى وصل إلى قلوبهم، وتملك عليهم حشمتهم ومشاعرهم - ولم يعرض عنه إلا نفر قليل، إذ كانت على القلوب منهم أقفالها، ثم لم يلبث أن دخل الناس في دين الله أفواجا، ورفع الإسلام رايته خفاقة فوق ربوع مكة، وأقام المسلمون صرح الحق، مشيدا على أنقاض الباطل.

سعد المسلمون بهذا الكتاب الكريم، الذي جعل الله فيه الهدى والنور، ومنه طب الإنسانية، وشفاء مافي الصدور، وأيقنوا بصدق الله، حيث يصف القرآن، فيقول:

﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾ [الإسراء: ٩]

وبصدق رسول الله، حيث يصف القرآن، فيقول:

«فيه نبا من كان قبلكم، وخبر مابعدكم، وحكم مايينكم، هو الفصل ليس بالهزل، من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، ونوره المبين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، هو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا تشعب منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم تنته الجن إذ سمعته حتى قالوا: «إنا سمعنا قرآنا عجباً يهدي إلى الرشد» من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل، ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم^(١)».

صدق المسلمون هذا، وأيقنوا أن لاشرف إلا والقرآن سبيل إليه، ولاخير إلا وفي آياته دليل عليه، فراحوا يبحثون عن معانيه، ليقفوا على مافيه من مواضع وعبر، وأخذوا يتدبرون في آياته، ليأخذوا من مضامينها، مافيه سعادة الدنيا، وخير الآخرة.

وكان القوم عربا خلصا، يفهمون القرآن، ويدركون معانيه، ومضامينه ومراميه، بمقتضى سليقتهم العربية، وبما يتمتعون به من صفاء الذهن، وقوة العارضة، وكانوا يعرفون من أسرارها مالا يعرفه أحد، ولكنهم لم يدونوها، لأن القرآن قد ملا عليهم

حياتهم، فكانوا دائبين على دراسته وفقهه، ونشره بين المسلمين.

وكانت للقوم وقفات أمام بعض النصوص القرآنية، التي دقت مراميها، وخفيت معانيها، ولكن لم تطل بهم هذه الوقفات، إذ كانوا يرجعون في مثل ذلك، إلى رسول الله - ﷺ. فيكتشف لهم مَادَقَ عن أفهامهم، ويجلي لهم ماخفي عن إدراكهم، وهو الذي عليه البيان، كما عليه البلاغ، تحقيقاً لقول الحق سبحانه:

﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [النحل: ٤٤]

كان النبي - ﷺ - يفسر القرآن، فيربط بين الآيات والآيات، وبين الآيات ومناسبات النزول، ويوازن بين المعاني..

تذكر لنا المصادر القديمة، أن بذوراً من التفسير الموضوعي، نبتت على عهد رسول الله - ﷺ - وعهد صحابته. رضوان الله عنهم أجمعين.

من ذلك ما جاء في مناسبة نزول الآية الكريمة:

﴿وَاللَّائِي يَشْنَنَ مِنَ الْمَحِيضِ مَنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبَسْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ، وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ وَأُولَاتُ الْأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَنْ يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ٤]

يقول تعالى، مبيناً لعدة الآية، وهي التي قد انقطع عنها المحيض لكبرها، أنها ثلاثة أشهر، عوضاً عن الثلاثة قروء في حق من تحيض، كما دلت على ذلك آية البقرة، وكذا الصغار اللاتي لم يبلغن سن المحيض، أن عدتهن كعدة الآية ثلاثة أشهر.

فقد أشكل على بعض الصحابة هذا الشرط، وجاء سبب النزول معينا لهم على فهم المراد منه.

فقد أخرج الحاكم، عن أبي بن كعب، أنه لما نزلت التي في سورة البقرة في عدد النساء وهي:

﴿وَالْمُطَلَّاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ﴾ [البقرة: ٢٢٨]

والآية الأخرى ﴿وَالَّذِينَ يَتَوَفَّوْنَ مِنْكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنْفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [البقرة: ٢٣٤]

قالوا: قد بقيت عدد لم تذكر، وهي عدد الصغار، والكبار، فنزل قول الله:

﴿وَاللَّائِي يَكْسَنُ مِنَ الْمَحِضِ مِنْ نِسَائِكُمْ إِنْ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ . . الآية﴾

وقوله تعالى: ﴿إِنْ ارْتَبْتُمْ﴾ فيه قولان:

أحدهما: وهو قول مجاهد والزهري. أي إن رأين دماً وشككتن في كونه حَيْضاً أو استحاضة، وارتبتم فيه.

والثاني: وهو قول سعيد بن جبير - إن ارتبتم في حكم عدتهن، ولم تعرفوه، فهو ثلاثة أشهر، وهو أظهر في المعنى. وقد احتج عليه بقول أبي بن كعب: يارسول الله: إن عِدَّةً من عِدَّة النساء لم تذكر في الكتاب، الصغار والكبار وأولات الأحمال، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿وَاللَّائِي يَكْسَنُ مِنَ الْمَحِضِ مِنْ نِسَائِكُمْ - إِنْ ارْتَبْتُمْ - فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثُ أَشْهُرٍ . . [الآية]

ويضع علي بن أبي طالب، بفكره الثاقب، ونظره الصائب - لبنة أخرى من لبنات التفسير الموضوعي. فقد كان علي يجمع الآيات في الموضوع الواحد، ليستخلص منها جميعاً، حكماً صادقاً، يفسر فيه القرآن بعضه بعضاً. من ذلك قصة مراجعته لعمر بن الخطاب في إقامة حدِّ الزنا على امرأة وضعت بعد زواجها بستة أشهر.

يقول ابن حزم: إن علياً ذكّر عمر بن الخطاب بقوله تعالى:

﴿وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا﴾ [الأحقاف: ١٥]

مع قوله تعالى: ﴿وَالْوَالِدَاتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَادَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ﴾ [البقرة: ٢٣٣]

فرجع عمر عن إقامة الحد عليها^(١)

أي أن عمر بن الخطاب، حَكَمَ العادة الجارية، من أنه لا تلد المرأة لأقل من سبعة أشهر، فاعتبر ولادتها قبل ذلك قرينة لإقامة الحد عليها.

لكن علياً - كرم الله وجهه - استدرك عليه، وتدارك الأمر، حيث حَكَمَ القاعدة التي تدرأ الحدود بالشبهات، وفهم من الآيتين السابقتين مجتمعتين، أن مدة الحمل يمكن أن تكون ستة أشهر، وهي المدة التي تكتمل باستي الرضاع (٢٤ شهراً)، ثلاثين شهراً، واعتبر ذلك شبهة تحول دون القطع بوقوع الزنا، ومن ثم فلا يقع الحد.

وبمرور الزمن، تطورت الحياة العلمية تطوراً كبيراً، ونشط التأليف في معظم العلوم والفنون، نشاطاً ملحوظاً، وشمل هذا النشاط تفسير القرآن الكريم، والتأليف في

(١) الإحكام في أصول الأحكام ١٢٥/٢

علومه، ونرى ممن اهتموا بالتأليف في موضوعات القرآن، علماء كثيرين، يختلفون في عصورهم، ومذاهبهم، ونوع اهتماماتهم...

- فقد ألف في الناسخ والمنسوخ:

قتادة بن دعامة السدوسي، المتوفى سنة ١١٨هـ

وأبو عبيد القاسم، المتوفى سنة ٢٢٤هـ

وأبو جعفر النحاس، المتوفى سنة ٣٣٨هـ

- وألف في معاني القرآن:

أبو زكريا الفراء، المتوفى سنة ٢٠٧هـ

- وألف في غريب القرآن:

أبو بكر السجستاني، المتوفى سنة ٣٣٠هـ

والراغب الأصفهاني، المتوفى سنة ٥٠٣هـ

- وألف في مشكل القرآن:

ابن قتيبة، المتوفى سنة ٢٧٦هـ

- وألف في مجاز القرآن:

أبو عبيدة، المتوفى سنة ٢٠٦هـ

والشريف الرضي، المتوفى سنة ٤٠٦هـ

- وألف في إعجاز القرآن:

الجاحظ، المتوفى سنة ٢٥٥هـ

والرمانى، المتوفى سنة ٣٨٦هـ

والخطابي، المتوفى سنة ٤٨٨هـ

والباقلانى، المتوفى سنة ٤٠٣هـ

والجرجاني، المتوفى سنة ٤٧١هـ وغيرهم

- وألف في أقسام القرآن:

ابن قيم الجوزية، المتوفى سنة ٧٢١هـ

- وألف في أسباب النزول:

علي بن المديني، المتوفى ٢٣٤هـ

وأبو الحسن الواحدي، المتوفى سنة ٤٦٨هـ

- وألف في تناسب الآيات والسور:

البقاعي، المتوفى سنة ٨٨٥هـ

وفيما يتصل بالتفسير، نجد ابن تيمية - في القرن السابع - يحمل حملة شعواء على الإسرائيليات المدسوسة في التفاسير، وفي رأيه أن هذا هو الذي دفع الإمام أحمد بن حنبل، إلى أن يقول: «ثلاثة لأصل لها: التفسير، والملاحم، والمغازي»

كما حمل ابن تيمية - في تفسيره - على المعتزلة والباطنية، الذين يصرفون ألفاظ القرآن عن معانيها الظاهرة، إلى معان بعيدة، تتطابق مع آرائهم ومعتقداتهم، وحمل أيضاً على الصوفية، ملاحظاً أنهم قد يفسرون القرآن بمعان صحيحة، غير أن القرآن لا يتضمنها، وقد ينزلقون فيحملون بعض الآيات على ما يؤمنون به من وحدة الوجود، ووحدة الشهود، والفناء في حقيقة الله.

وخلص ابن تيمية - في تفسيره - إلى أن خير طرق التفسير، أن يفسر القرآن بالقرآن، فما أجمل في موضع، يُسَط في موضع آخر، وما ذكر موجزاً في آية، جاء مفصلاً في آية أخرى، وإن لم يَفِ القرآن أحياناً بالمراد، رجع المفسر إلى الحديث النبوي، فإن الرسول - ﷺ - فسر بعض الآيات. ويضم المفسر إلى ذلك أقوال الصحابة، الذين رافقوا الرسول - ﷺ - وفهموا منه التنزيل، وكذلك أقوال التابعين، الذين خالطوهم، ووقفوا منهم على معاني القرآن الكريم.

ويرى ابن تيمية - في منهجه التفسيري - أن يفتح الأبواب أمام المفسر، ليجتهد ويستنبط، ولكن بعد أن يكون قد استوفى العدة لذلك، باستيعابه للذكر الحكيم، وآياته، ومعانيه المتقابلة، ولأقوال الرسول والصحابة والتابعين فيه، وبعد أن يُثَقِّن العربية، ويتعمق علوم الشريعة، وبعد علمه الدقيق بدلالات القرآن، وتذوقه لخصائصه البيانية الرائعة.

وتلك هي العناصر التي ترتبط في معظمها بالتفسير الموضوعي بمفهومه الشامل.

ولقد مضى ابن تيمية يطبق منهجه التفسيري هذا على بعض السور القرآنية، وفي مقدمتها سورة النور، وبعض سور قصار من جزء عم، وخصَّ سورتي المعوذتين برسالة مستقلة، وأفرد كتاباً لتفسير سورة الإخلاص، وتفسير كل آية من آيات هذه السور عنده، يتحوّل إلى بحث في مضمونها من خلال القرآن كله.

وسار على نهجه، تلميذه الإمام ابن قيم الجوزية (ت ٧٢١هـ) في تفسير أقسام القرآن، وفي تفسيره للمعوذتين، إذ كثيراً مايتوقف إزاء مضمون آية ليشير إلى مضمون مماثل لآية أخرى، ابتغاء الدقة في التفسير.

هذا وقد وضع الراغب الأصفهاني - في القرن الخامس الهجري - معجماً عظيماً لألفاظ القرآن، عرض فيه كل لفظة من ألفاظه، وجميع استعمالاتها المبثوثة فيه، لتكون دائماً تحت أعين المفسرين، فلا يختلط عليهم معنى، ولا تضطرب عليهم دلالة. فكان هذا المعجم منبعاً خصباً يردده كل من تصدى لتفسير القرآن حسب المنهج الموضوعي.

والحقيقة إن العلماء الأوائل، خاصة رجال التفسير - لم يتركوا للأواخر كبير جهد في تفسير كتاب الله، والكشف عن معانيه ومرامي، إذ أنهم نظروا إلى القرآن باعتباره دستورهم، الذي جمع لهم بين سعادة الدنيا والآخرة، فتناولوه من أول نزوله بدراساتهم التفسيرية التحليلية، دراسة سارت مع الزمن على تدرج ملحوظ وتلون بألوان مختلفة.

والباحث المدقق، الذي يعكف على دراسة بحوث التفسير على اختلاف ألوانها، لا يدخله شك في أن كل مايتعلق بالتفسير من الدراسات المختلفة، قد وقاه هؤلاء المفسرون الأقدمون حقّه، من البحث والتحقيق، والدراسة والتدقيق، فالناحية اللغوية، والناحية البلاغية، والناحية الأدبية، والناحية النحوية، والناحية الفقهية، والناحية الكونية .

كل هذه النواحي وغيرها، تناولها المفسرون الأول بتوسّع ملموس، لم يترك لمن جاء بعدهم - إلى ما قبل العصر الحديث بقليل - من عمل جديد، أو أثر مبتكر، يقومون به في تفاسيرهم التي ألفوها، اللهم إلا عملاً ضئيلاً، لا يعدو أن يكون جمعاً لأقوال المتقدمين، أو شرحاً لغامضها، أو نقداً وتفنيداً لما يعتوره الضعف منها، أو ترجيحاً لرأي على رأي، مما جعل التفسير يقف وقفة مليئة بالركود، خالية من التجديد والابتكار^(١).

وفي العصر الحديث... ظل الأمر على هذا، وبقي التفسير واقفاً عند هذه المرحلة، مرحلة الركود والجمود، لا يتعداها، ولا يحاول التخلص منها، حتى جاء عصر النهضة العلمية الحديثة، فاتجهت أنظار العلماء، الذين لهم عناية بدراسة التفسير، إلى أن

(١) الدكتور محمد حسين الذهبي: التفسير والمفسرون ج ٢ ص ٤٩٥. طبع مصر سنة

١٩٦٨م

يتحرروا من قيد هذا الركود، ويتخلصوا من نطاق هذا الجمود، فنظروا في كتاب الله نظرة - وإن كانت تعتمد على مادونه الأوائل، إلا أنها أثرت في الاتجاه التفسيري للقرآن، تأثيراً لا يسعنا إنكاره، ذلك هو العمل على التخلص من كل هذه الاستطرادات العلمية، التي حُشرت في التفسير حشراً. ومزجت به على غير ضرورة لازمة، والعمل على تنقية التفسير من القصص الإسرائيلي، الذي كاد يذهب بجمال القرآن وجلاله، وتمحيص ماجاء فيه من الأحاديث الضعيفة، أو الموضوعية على رسول الله - ﷺ - أو على صحابته - عليهم رضوان الله تعالى، والباس التفسير ثوباً أدبياً اجتماعياً، موضوعياً، يظهر روعة القرآن، ويكشف مراميهِ الدقيقة، وأهدافه السامية، والتوفيق بجِد بالغ، وجهد ظاهر، بين القرآن وما جَدَّ من نظريات علمية صحيحة. وكان ذلك من أجل أن يعرف المسلمون، وغير المسلمين، أن القرآن هو كتاب الله الخالد، الذي يتمشى مع الزمن في جميع أطواره ومراحله.

وهناك غير هذه الآثار، آثار أخرى ظهرت في الاتجاه التفسيري - في هذا العصر الحديث - نشأت عن عوامل مختلفة، أهمها التوسع العلمي، وانتشار الثقافة، واتساع الحضارة^(١). في مقدمتها: التفسير العلمي، التفسير الأدبي الاجتماعي، والتفسير الموضوعي.

التفسير الموضوعي:

نشأ التفسير الموضوعي، في العصر الحديث، مقترناً وممتزجاً بالتفسير الأدبي، ذلك التفسير الذي تظهر فيه ذاتية المفسّر، وشخصيته، وملكته الأدبية، وقدرته على بلورة الأفكار، وتقديم التصورات الممكنة، والمحتملة، والجائزة، في غلاف شفاف من الأسلوب الأدبي المؤثر، المحرك لمشاعر القارئ أو السامع ووجدانه، وهو يعتمد أيضاً على التفنن في استجلاء مكان من علوم البلاغة، لإظهار ما يؤيده من جمال التصوير، وروعة التعبير، في إطار من حُسن العرض، وكمال التحليل، وجودة التعليق، ويُعدّ السابق في هذا المضمار:

الشهيد سيد قطب:

يعد الشيخ سيد قطب - رحمه الله - من أوائل العلماء، الذين اهتموا بهذا اللون من التفسير الموضوعي. الذي يقترن بالتفسير الأدبي الفني فله تفسير يدعى (في ظلال

(١) التفسير والمفسرون ج ٢ ص ٤٩٥

القرآن)، وله إلى جانب هذا التفسير كتابان، درس فيهما موضوعين من موضوعات القرآن، أولهما يتناول (مشاهد القيامة في القرآن)، والثاني يحلل الصور الفنية والجمالية في القرآن، وهو (التصوير الفني في القرآن)

والتفسير (الظلال) و (التصوير) و (المشاهد) ثلاثهم تنبع من روح واحدة، وتنتج وجهة واحدة، هدفها: محاولة تفسير القرآن الكريم تفسيراً أدبياً وموضوعياً، يبرز جمال الصور الفنية، ويحللها تحليلاً أدبياً جميلاً.

يتحدث الشيخ سيد قطب - في مقدمة كتابه التصوير الفني، عن الحافز الذي أغراه بانتهاج هذا المنهج، وسلوك هذه الطريقة من التفسير، فيقول:

«إنه قرأ القرآن وهو طفل صغير، لاترقى مداركه إلى آفاق معانيه، ولا يحيط فهمه بجليل أغراضه، ولكنه كان يجد في نفسه منه شيئاً، وكان خياله الساذج الصغير، يجسم له بعض الصور من خلال تعبير، وإنها لصور ساذجة، ولكنها كانت تُشوق نفسه، وتُلذِّ حِسَّهُ، فيظل حقبة غير قصيرة يتملاها، وهو بها فرح، ولها نشاط.

وضرب الشيخ سيد قطب - على الصور الساذجة - أمثلة عدة، كانت ترسم في خياله كلما قرأ شيئاً من القرآن. ومن تلك الأمثلة، قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ، فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ، وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ، خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ﴾ [الحج: ١١]

قال: (كان يشخص في مخيلتي رجل قائم على حافة مكان مرتفع - مصطبة، فقد كنت في القرية، أو قمة تل ضيقة، فقد رأيت التل المجاور للوادي، وهو قائم يصلي، ولكنه لا يملك موقفه، فهو يتأرجح في كل حركة، ويهَمُّ بالسقوط، وأنا بإزائه أتبع حركاته، في لذة وشغف عجيبين)^(١).

«تلك أيام.. ولقد مضت بذكرياتها الحلوة، وبخيالاتها الساذجة، ثم تلتها أيام، ودخلت المعاهد العلمية، فقرأت تفسير القرآن في كتب التفسير، وسمعتُ تفسيره من الأساتذة، ولكنني لم أجد فيما أقرأ، أو أسمع، ذلك القرآن اللذيذ الجميل، الذي كنت أجدّه في الطفولة والصبا».

«وا أسفاه، لقد طُمِسَتْ كل معالم الجمال فيه، وخلا من اللذة والتشويق، تُرى هل هما قرآنان؟ قرآن الطفولة العذب، الميسر المشوق، وقرآن الشباب للعسر المعقد

(١) التصوير الفني في القرآن ص ٧ (الطبعة الثانية)

الممزَّق؟.. أم تلك جناية الطريقة المتبعة في التفسير.

«وَعُدْتُ إلى القرآن أقرؤه في المصحف، لاني كتب التفسير، وعُدْتُ أجد قرآني الجميل، الحبيب، وأجد صوري المشوقة اللذيذة، إنها ليست في سذاجتها، التي كانت هناك، لقد تغيرَ فهمي لها، فَعُدْتُ الآن أجد مراميها وأغراضها، وأعرف أنها مَكَلٌّ لاحداث يقع ولكن سحرها مايزال، وجاذبيتها ماتزال...» (١)

«لقد بدأت البحث، ومرجعي الأول فيه هو المصحف، لأجمع الصور الفنية في القرآن، وأستعرضها، وأبين طريقة التصوير فيها، والتناسق الفني في إخراجها، فبرزت لي حقيقة واحدة هي:

«أن الصور في القرآن ليست جزءاً منه يختلف عن سائره، إن التصوير هو قاعدة التعبير في هذا الكتاب الجميل، القاعدة الأساسية المتبعة في جميع الأغراض، فيما عدا غرض التشريع بطبيعة الحال، فليس البحث إذن عن صور تجمع وتُرتب، ولكن عن قاعدة تكشف وتبرز.

وعلى هذا الأساس قام البحث، وكل ما فيه إنما هو عَرْض لهذه القاعدة، وتشريح لظواهرها، وكشف عن هذه الخاصية في التعبير القرآني».

«وحين انتهيت من التحضير للبحث، وجدتنني أشهد في نفسي مولد القرآن من جديد، لقد وجدته كما لم أعُده من قبل أبداً، لقد كان القرآن جميلاً في نفسي، نعم..!، ولكن جماله كان أجزاء وتفاريق، أما اليوم، فهو عندي جملة موحدة، تقوم على قاعدة خاصة، قاعدة فيها من التناسق العجيب، مالم يكن أحلم من قبل به، ومالا أظن أحداً تصوّره».

إن تفسير الشيخ سيد قطب، وإن كان قد اهتم اهتماماً كبيراً بإبراز الصور الفنية، والقيم الجمالية، إلا أنه اهتم أيضاً بالموضوعات القرآنية، فأبرزها من خلال تحليله وتناوله للصور الفنية، فكان يربط بين الموضوعات، مستغلاً في ذلك كل العناصر التوضيحية، من آيات القرآن الكريم، ومناسبات نزوله، ومن الأحاديث النبوية، وأقوال الصحابة والتابعين، فكان الموضوع القرآني بين ذهنه وتفسيره، وكأنه بحث متناسق متكامل، يرتبط أوله بآخره، مشتملاً على كل مايتصل به من جزئيات.

والحقيقة.. إن تفسير الشيخ سيد قطب، كان وحيد عصره، على الرغم من وجود

بعض المحاولات التفسيرية، لاستنباط الصور الفنية، والموضوعات القرآنية، فإن واحداً من تلك البحوث أو المؤلفات، لم يبلغ ما بلغه الشيخ سيد قطب في هذا المصنوع، خاصة وأنه فسر القرآن الكريم جميعه، بهذه الطريقة الفنية، الأدبية والموضوعية الفريدة والقلدة رحمه الله تعالى!

ألوان التفسير الموضوعي للقرآن الكريم^(١)

من خلال الاستعراض التاريخي لنشأة التفسير الموضوعي والمؤلفات التي وضعت فيه يظهر أنه تنوّع إلى ثلاثة ألوان:

اللون الأول:

أن يتبع الباحث لفظة من كلمات القرآن الكريم ثم يجمع الآيات التي ترد فيها اللفظة أو مشتقاتها من مادتها اللغوية، وبعد جمع الآيات والإحاطة بتفسيرها يحاول استنباط دلالات الكلمة من خلال استعمال القرآن الكريم لها.

وكثير من الكلمات القرآنية المتكررة أصبحت مصطلحات قرآنية.

فكلمات: الأمة، الصدقة، الجهاد، الكتاب، الذين في قلوبهم مرض، المنافقون، الزكاة، أهل الكتاب، الربا، نجدها تأخذ وجوهاً في الاستعمال والدلالة.

فالمستبح لمثل هذا يخرج بلون من التفسير لأساليب القرآن الكريم في استخدام مادة الكلمة ودلالاتها.

وقد سبقت الإشارة إلى أن كتب غريب القرآن وكتب الأشباه والنظائر قد تضمنت هذا اللون من التفسير، وهي العمدة في مثل هذه الأبحاث.

إلا أن المؤلفات القديمة من هذا اللون بقيت في دائرة دلالة الكلمة في موضعها. ولم يحاول مؤلفوها أن يربطوا بينها في مختلف السور، فبقي تفسيرهم للكلمة في دائرة الدلالة اللفظية.

أما المعاصرون الذين كتبوا في هذا اللون فقد تبّعوا الكلمة وحاولوا الربط بين دلالاتها في مختلف المواضع فكان أشبه مايكون باللون الثاني من التفسير الموضوعي.

وفيما يلي نقل نموذجاً على هذا اللون من التفسير الموضوعي من كتاب الدامغاني:

(١) مباحث في التفسير الموضوعي: للدكتور مصطفى مُسلم ص ٢٣-٢٩ ط دار القلم - دمشق.

نموذج من كتاب: (إصلاح الوجوه والنظائر)، للدماغاني:

قال الدماغاني تحت مادة (خ ي ر) (١):

«خ ي ر على ثمانية أوجه:

المال، الإيمان، الإسلام، أفضل، العافية، الأجر، الطعام، الظفر والغنيمة.

فوجه منها الخير بمعنى المال، قوله سبحانه في سورة البقرة: «إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا» يعني مالا. كقوله تعالى فيها: «قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ وَالَّذِينَ الْأَقْرَبِينَ» وكقوله تعالى في سورة البقرة: «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلَأَنْفُسِكُمْ» أي لا تنفقوا مالا وقوله تعالى فيها: «وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ خَيْرٍ يُؤْتِ إِلَيْكُمْ» يعني من مال، وقوله تعالى في سورة (ص): «إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ» يعني حب المال، وكقوله تعالى في سورة النور: «إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا» يعني مالا.

الثاني: الخير يعني الإيمان. قوله تعالى في سورة الأنفال: «وَلَوْ عَلِمَ اللَّهُ فِيهِمْ خَيْرًا لَأَسْمَعَهُمْ» يعني لو علم الله فيهم إيمانا، كقوله تعالى فيها: «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا» يعني إيمانا، كقوله تعالى في سورة هود: «وَلَا أَقُولُ لِلَّذِينَ تَزْدَرِي أَعْيُنُكُمْ لَنْ يُؤْتِيَهُمُ اللَّهُ خَيْرًا» يعني إيمانا.

الثالث: الخير يعني الإسلام. قوله تعالى في سورة البقرة: «مَا يُوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَلَا الْمُشْرِكِينَ أَنْ يُنْزَلَ عَلَيْكَ مِنْ خَيْرٍ مِنْ رَبِّكَ» يعني الإسلام، نظيرها في سورة (ق): «مَتَاعٌ لِلْخَيْرِ» يعني الإسلام نزلت في الوليد بن المغيرة منع ابن أخيه أن يسلم، نظيرها في سورة (ن).

الرابع: خير يعني أفضل. قوله تعالى في سورة المؤمنون: «وَقُلْ رَبِّ اغْفِرْ وَارْحَمْ وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ» يعني أفضل الراحمين، كقوله تعالى في سورة يونس: «وَهُوَ خَيْرُ الْحَاكِمِينَ» أي أفضل الحاكمين، ونحوه قوله تعالى في سورة الزخرف «أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ» يقول أفضل من هذا.

الخامس: الخير يعني العافية. قوله تعالى في سورة الأنعام: «وَإِنْ يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُ إِلَّا هُوَ وَإِنْ يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ» يعني بعافية.

(١) إصلاح الوجوه والنظائر للدماغاني: ١٦٧ - ١٦٩، ط. دار العلم للملايين.

السادس: الخير يعني الأجر. قوله تعالى: ﴿لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ﴾ يعني لكم فيها أجر. يعني البُذْن.

السابع: الخير يعني الطعام. قوله تعالى في سورة القصص: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي لَمَّا أَتَزَلْتُ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ يعني الطعام.

الثامن: الخير يعني به الظفر والغنيمة والطمع في القتال قوله تعالى في سورة الأحزاب: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا﴾ يعني ظفراً وغنيمةً.

ونلاحظ أن المؤلف لم يربط بين أصل الكلمة واستعمالاتها وسياق الآيات التي وردت فيها الكلمة: ليني عليها هداية قرآنية أو ليستنبط من دلالات اللفظة وسياق استعمالاتها توجيهاً قرآنياً معيناً. وإنما بقيت الكلمة حيث وردت في نطاق الدلالة اللفظية المفردة.

نموذج من كتاب (المفردات في غريب القرآن)، للراغب الأصفهاني، المتوفى سنة ٥٠٢ هـ في كلمة (أمة):

والأمة: كل جماعة يجمعهم أمر ما: إما دين واحد، أو زمان واحد، أو مكان واحد، سواء كان ذلك الأمر الجامع تسخييراً أو اختياراً. وجمعها أمم.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمٌّ أمثالكم﴾ أي كل نوع منها على طريقة قد سخرها الله عليها بالطبع. فهي بين ناسجة كالعنكبوت، وبانية كالشُرْقة^(١)، ومدخرة كالنمل، ومعتمدة على قوت وقته كالعصفور والحمام إلى غير ذلك من الطباع التي تخصص بها كل نوع.

وقوله تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي صنفاً واحداً وعلى طريقة واحدة في الضلال والكفر.

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ أي في الإيمان.

وقوله تعالى: ﴿وَلَنَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ أي جماعة يتخَيرون العلم والعمل الصالح يكونون أسوة لغيرهم.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ﴾ أي على دين مجتمع.

(١) الشُرْقة: بضم السين وسكون الراء وفتح الفاء، دودة القز.

قال الشاعر: وهل يأتمن ذو أمة وهو طائع.
وقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ بَعْدَ أُمَّةٍ﴾ أي حين. وقُرِئَ بعد أُمَّةٍ^(١): أي نسيان. وحقيقة ذلك بعد انقضاء أهل عصر أو أهل دين.
وقوله تعالى: ﴿إِنْ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانَتْ أَهْلُ اللَّهِ﴾ أي قائماً مقام جماعة في عبادة الله، نحو قولهم: فلان في نفسه قبيلة.

وروي انه يُحشر زيد بن عمرو بن نفيل أمةً وحده^(٢).
وقوله تعالى: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ﴾ أي جماعة.
وجعلها الزجاج ههنا للاستقامة، وقال تقديره ذو طريقة واحدة، فترك الإضمار^(٣).
ثم انتقل إلى لفظة (أمة) ودلالات الكلمة، ثم إلى كلمة (الإمام) ودلالاتها، ثم إلى كلمة (الأمة) بمعنى القصد، وختم المادة بالحديث عن حرف (أمة).
وفي كل ذلك لم يتعرض لسياق الآيات التي استُخدمت فيها كلمة (أمة) وإنما تعرّض لها في مواطنها ولم يفصل القول في عناصر تكوين دلالات اللفظة ولامقومات استمرارها ودورها.

اللون الثاني:

تحديد موضوع مايلحظ الباحث تعرض القرآن الكريم له بأساليب متنوعة في العرض والتحليل والمناقشة والتعليق.

فيستتبع الموضوع من خلال سور القرآن الكريم، ويستخرج الآيات التي تناولت الموضوع، وبعد جمعها والإحاطة بتفسيرها يحاول الباحث استنباط عناصر الموضوع من خلال الآيات الكريمة، فينتق بين عناصره، ويقدم له بمقدمة حول أسلوب القرآن الكريم في عرض أفكار الموضوع. ويحاول أن يقسمه إلى أبواب وفصول ومباحث، ويستدل بالآيات القرآنية على كل ما يذهب إليه ويتحدث عنه مع ربط ذلك كله بواقع الناس ومشاكلهم ومحاولة حلها وإلقاء أضواء قرآنية عليها.

ويتجنب خلال بحثه التعرض للأمور الجزئية في تفسير الآيات فلا يذكر القراءات،

(١) هي قراءة الحسن، انظر: القراءات الشاذة لعبد الفتاح القاضي: ٥٧.

(٢) أسد الغابة في معرفة الصحابة: ١٤٣/٢.

(٣) انظر: المفردات للراغب: ٢٧ - ٢٨.

ووجوه الإعراب والنكات البلاغية إلا بمقدار ما تلقى أضواءً على أفكار الموضوع الأساسية، ويعرض ما يتحدث عنه بأسلوب جذاب لتوضيح مرامي الآيات ومقاصدها والحكمة الإلهية في عرض أفكار الموضوع بأساليب معينة واختيار ألفاظ محددة لها.

وهذا اللون من التفسير الموضوعي هو المشهور في عرف أهل الاختصاص، وإذا أُطلق اسم (التفسير الموضوعي) فلا يكاد ينصرف الذهن إلا إليه.

ولقد كثرت المؤلفات قديماً وحديثاً في هذا اللون من التفسير الموضوعي.

فما كُتب: إعجاز القرآن.

والناسخ والمنسوخ في القرآن.

وأحكام القرآن.

وأمثال القرآن.

ومجاز القرآن... قديماً إلا أمثلة ناطقة على أهمية هذا اللون من التفسير عند السلف الصالح من علماء هذه الأمة.

وكذلك الموضوعات المختلفة المعاصرة: المتعلقة بمجالات المعرفة المختلفة حيث ربطها الباحثون بالقرآن الكريم ونظروا بمنظاره إلى هذه المجالات وكيفية البحث عنها، سواء كانت هذه المجالات مما يتعلق بالكون المحيط بالإنسان من أرض وسماوات وكواكب ونجوم وبحار ومحيطات وجبال وأنهار ونبات وحيوان، أو كانت مما يتعلق بالإنسان خلقه وتكوينه وعواطفه وغرائزه ومشاعره ونفسه وعقله، وأخلاقه وسموه وتسفله، أو بالحياة الاجتماعية التي يحياها الإنسان في مجتمعه بدءاً بالعلاقات الأسرية والاجتماعية في القوم والعشيرة، والعلاقات الدولية والأمور الاقتصادية والسياسية، وأنظمة السلم والحرب والدعوة إلى الله، وأخذ العبر والعظات من سير الأ أقوام والأمم الماضية.

وما يتعلق كذلك بأمور الغيب من البعث بعد الموت والحشر والحساب والجنة والنار، وصنوف النعيم في دار السعادة للمتقين، وصنوف الشقاء للتعساء في دار الجحيم.

ولا تكاد تنتهي مثل هذه الموضوعات، بل كلما جدت علوم وصنوف من المعرفة لدى الإنسان يجد الباحث في القرآن الكريم ما يشبع فكره اقتناعاً، وقلبه طمأنينة من عرض القرآن الكريم لأساسيات هذا اللون من المعرفة بوضع الأسس العامة والتوجيهات الأساسية في هذا الشأن.

اللون الثالث من التفسير الموضوعي :

وهذا اللون شبيه باللون الثاني إلا أن دائرة هذا اللون أضيق من دائرة سابقه. حيث يبحث في هذا اللون عن الهدف الأساسي في السورة الواحدة، ويكون هذا الهدف هو محور التفسير الموضوعي في السورة.

وطريقة البحث في هذا اللون هو :

أن يستوعب الباحث هدف السورة الأساسي، أو أهدافها الرئيسية، ثم يبحث عن سبب النزول للسورة أو الآيات التي عرضت الموضوع الأساسي للسورة، ثم ينظر إلى ترتيب نزول السورة من بين السور المكية أو المدنية، ثم يدرس الأساليب القرآنية في عرض الموضوع والمناسبات بين مقاطع الآيات في السورة.

وسيجد الباحث أن لكل سورة شخصيتها المستقلة وأهدافها الأساسية. فمن المعلوم أن السور المكية قد عرضت أسس العقيدة الإسلامية الثلاثة بشكل مفصل: الألوهية، الرسالة، البعث بعد الموت، لذا يمكن أن يتناول الباحث في كل سورة مكية أحد الجوانب الثلاثة من العقيدة، كما اشتمل كثير منها على الحث على أمهات الأخلاق والتنفير من مردولها.

ولم يظفر هذا اللون من التفسير الموضوعي بعناية المفسرين القدماء بل جاء في ثانياً تفاسيرهم الإشارة إلى بعض أهداف السور وخاصة القصيرة منها، وكذلك التوخي لوجه المناسبة بين مقاطع بعض السور، كما فعل الفخر الرازي في تفسيره الكبير، وكما فعل البقاعي في نظم الدرر، وعبد الحميد الفراهي في كتابه نظام القرآن.

أما في العصر الحديث فقد كان سيد قطب مولعاً بعرض أهداف وأساسيات كل سورة، قبل البدء في تفسيرها، وبيان شخصية كل سورة وملامحها المتميزة عن بقية السور. والأساليب المتبعة في عرض أفكارها. فيعتبر كتابه (في ظلال القرآن) نموذجاً جيداً وبخاصة مقدمة تفسيره لكل سورة.

كما كتب غيره ممن جاء بعده مستفيداً من منهجه، كما فعل إبراهيم زيد الكيلاني في كتابه (تصور الألوهية كما تعرضه سورة الأنعام)، وكتابه (معركة النبوة مع المشركين) أو: قضية الرسالة كما تعرضها سورة الأنعام وبينها القرآن الكريم.

أما ماكتبه د. محمد البهي في رسائله المسماة بالتفسير الموضوعي لسور القرآن الكريم فلا اعتبره من التفسير الموضوعي وإنما هو تفسير إجمالي للآيات في السورة كما لم يحدد موضوع كل سورة فترها، وإنما جاء بكلام إنشائي للمعنى الإجمالي للآيات.

الفصل الخامس

تاريخ

تفسير القرآن العظيم

بعد نُشوء العلوم المستحدثة والمنقولة إلى كتب التفسير

ويشتمل هذا الفصل على الأبحاث التالية :

التمهيد: نبذة تاريخية عن نشوء علم التفسير وتطوّره.

البحث الأول: أثر نشأة الفِرَق على مسيرة التفسير.

البحث الثاني: أثر العلوم الفلسفية على مسيرة التفسير.

البحث الثالث: أثر الفلسفة الصوفية على مسيرة التفسير.

البحث الرابع: أثر العلوم العقلية على مسيرة التفسير.

البحث الخامس: أثر منهج الإمام الرازي في التفسير.

البحث السادس: أثر منهج الإمام الألوسي في التفسير.

البحث السابع: تفسير المنار وبيان منهجه وما يؤخذ عليه.

البحث الثامن: تفسير المراغي وبيان منهجه مع مناقشة بعض تفسيراته.

البحث التاسع: مناقشة علمية لتفسير الشيخ محمد عبده لسورة «الفيل».

البحث العاشر: الإعجاز العلمي ودلالته في تفسير القرآن الكريم.

البحث الحادي عشر: الآيات الكونية في القرآن وسلطان العقل.

التمهيد:

نبذة تاريخية عن نشوء علم التفسير وتطوره

لم يكن بمستغرب عند من يدرك سنن الله في خلقه، في رقي المجتمعات وتقدمها عندما يدرك الأسباب التي أوجدها الله سبحانه وتعالى لتكوين هذه الأمة وتقدمها وتفوقها.

وما أن رسخت الدولة الإسلامية قواعدها في أرجاء المعمورة، وما أن هدأت اندفاع الفتوحات الإسلامية، حتى التفت العلماء إلى مدارس القرآن الكريم الذي يشكل أساس النجاح والفلاح في الدنيا والآخرة، لتدوين تفسيره والعلوم التي تخدم توضيح المراد من كلام رب العالمين، وتعين على فهمه وتطبيقه وكانت الأجيال السابقة إلى عهد بني العباس تعتمد بشكل أساسي على التلقي والرواية مشافهة إلا في حالات استثنائية قليلة.

وتنوعت المجالات التي توجهت الجهود إليها لخدمة أي الذكر الحكيم. فمنهم من توجه إلى جمع ما أثر عن رسول الله ﷺ من أمور الدين، وعن صحابته الكرام، ومنهم من توجه إلى حفظ وجوه الأداء للفظ القرآني، ومنهم من حافظ على لغته وبيان معاني غريبه، ومنهم من توجه إلى استنباط القواعد التي تكفل سلامة التحدث به وعدم اللحن فيه...

وقام صرح العلوم كلها لخدمة القرآن الكريم حفظاً وفهماً وتطبيقاً، ولسنا بصدد تعداد العلوم المختلفة التي قامت وتاريخ تدوين هذه العلوم، وإننا نرمي إلى بيان نشوء علم التفسير بإيجاز.

نشوء علم التفسير وتطوره

بيّنت الآيات القرآنية الحكمة الإلهية من خلق الإنس والجن في قوله تعالى: ﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون...﴾ [الذاريات: ٥٦].

كما بيّنت السنة الإلهية في بعثهم بعد موتهم لمحاسبتهم عن الأمانة التي حملوها: ﴿فاحسبتم أنما خلقناكم عبثاً وأنكم إلينا لا ترجعون﴾ [المؤمنون: ١١٥].

وبيّن الخلق والتكليف والإعادة بعد الموت.

لم يتركه لعقله واجتهاداته وأهوائه في التعرف على أسلوب العبادة، ومنهجه في

الحياة الدنيا، بل أرسل إليه الرسل وأنزل الكتب لهدايتهم: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا...﴾ [الإسراء: ١٥].

وكانت السنة الإلهية أن يكون الرسل من الأقوام المرسل إليهم ويلسانهم. وذلك أداء للرسالة على أحسن وجه، ولتحقق الغرض من إرسالهم ببيان الهدايات بأيسر الطرق إلى الأقوام ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبيّن لهم...﴾ [إبراهيم: ٤].

لذلك كان الرسول المكلف بالتبليغ هو أوعى الناس لمهمته وأكثرهم علماً وإحاطة برسالته، وبالتالي أقدرهم على بيان مراد الله سبحانه وتعالى من كتابه وآياته. وهذه السنن والحكم الإلهية تتجلى في خاتم النبيين ﷺ ورسالته. وقد نزلت الآيات الكريمة تبين هذه الجوانب بياناً كاملاً:

فتارة يتكفل له ربه سبحانه وتعالى بحفظ القرآن: ﴿إنّا نحن نزلنا الذكر وإنّا له لحافظون﴾ [الحجر: ٩].

وتارة أخرى يتعهد له ربه سبحانه وتعالى بجمع القرآن له وتوضيحه لاستيعابه: ﴿إنّ علينا جمعه وقرآنه، فإذا قرأناه فاتّبع قرآنه، ثم إنّ علينا بيانه﴾ [القيامة: ١٧-١٩].
وتارة يأمره ربّه بتبليغ الآيات الكريمة للناس ومجاهدتهم بالقرآن: ﴿فلا تطع الكافرين وجاهدوهم به جهاداً كبيراً﴾ [الفرقان: ٥٢].

لذا كان رسول الله ﷺ أعلم عباد الله بكتاب الله، إذ إن تبليغ الرسالة على الوجه الأكمل مترتب على فهمه لمحتوى الرسالة جملة وتفصيلاً، وهذا أمر تفرضه بدهيات الأمور ﴿وأنزلنا إليك الذكر لتبيّن للناس ما نزل إليهم﴾ [النحل: ٤٤].

ويأتي بعد فهم الرسول ﷺ للقرآن الكريم فهم الصحابة رضوان الله عليهم وإن كان فهمهم له جملة (لظاھرہ على الإجمال ولأحكامه على التفصيل).

وليس من الضروري إحاطتهم التامة بمعاني القرآن الكريم بحيث لاتغيب عنهم شاردة ولا واردة، نقول ذلك لما نقل إلينا عن الصحابة رضي الله عنهم. فعلى الرغم من رجوعهم إلى النبي ﷺ المرة تلو الأخرى لبيان ما أشكل عليهم فهمه، أو لإزالة غموض اغتور فهمهم للآيات البيّنات، تنقل إلينا كتب التفسير والروايات الصحيحة من السنة النبوية أن بعض الصحابة كان يستفسر عن بعض الآيات والمعاني إلى مرحلة متأخرة من حياتهم بعد وفاة رسول الله ﷺ، فمثلاً تنقل لنا الروايات أن عمر بن

الخطاب سأل على المنبر في إحدى خطبه عن (الأب) في قوله تعالى: ﴿وفاكهةً وابتاً﴾ [عبس: ٣١]، ثم عاد إلى القول: وما يضررك لو لم تعلم معناها^(١)، فإن في بحث هذه الأمور التي لا ينبغي عليها حكم عملي تكلفاً لا فائدة منه، لذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يكتفون فيما يتعلق بالجوانب النظرية من فروع العقائد، أو ما يتعلق بسير الأمم، أو تخليق السماوات والأرض... فكانوا يكتفون بموطن العظة والعبرة ومجمل الاعتقاد فيها. بل جاء النهي القرآني الصريح عن الخوض في مثل هذه الأمور التي لا تدخل في إطار الأحكام العملية، يقول تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن يُبَدَّ لكم تُسْئَلُونَ وإن تسألوا عنها حين ينزّل القرآن تبَدَّ لكم، عفا الله عنها والله غفورٌ حلِيم. قد سألها قوم من قبلكم ثم اصبَحوا بها كافرين﴾ [المائدة: ١٠١ - ١٠٢].

كما ورد عن رسول الله ﷺ النهي عن الاستفسارات التي لا يكون لها واقع عملي في حياة المسلمين. يقول عليه الصلاة والسلام: «إن أعظم المسلمين جُرماً من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته»^(٢). وفي الحديث الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ذروني ماترككم فإنما أهلك من كان قبلكم كثرة سؤالهم واختلافهم على أنبيائهم»^(٣).

وفي الحديث الآخر الصحيح: «إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوها وحدّ حدوداً فلا تعتدوها وحرم أشياء فلا تنتهكوها وسكت عن أشياء رحمة بكم غير نسيان فلا تسألوا عنها»^(٤).

والحكمة الإلهية في ذلك - والله أعلم - أن انصراف الأمة إلى الأمور النظرية والفرعيات التي لا ترتبط بالأحكام العملية يؤدي إلى الفرقة والتزاع وإلى الجدل العقيم والترف الثقافي، والأمة الإسلامية أمة جهاد ودعوة وعمل فلا يليق بها مثل هذه المشاغل، وبخاصة في الصدر الأول وفي مرحلة تأسيس الدولة الإسلامية.

بالإضافة إلى ما تقدم فإن إمكانات الصحابة رضوان الله عليهم الثقافية واللغوية لم تكن على مستوى واحد في الإدراك والفهم والاستنباط.

روى البخاري في صحيحه عن الشعبي عن عدي بن حاتم رضي الله عنه قال: أخذ

(١) انظر: الإتيان في علوم القرآن للسيوطي: ١١٣/٢.

(٢) رواه البخاري في كتاب الاعتصام: ١٤٢/٨، ومسلم في كتاب الفضائل: ٩٢/٧.

(٣) رواه مسلم في صحيحه في كتاب الفضائل: ٩١/٧.

(٤) أخرجه ابن جرير وابن المنذر والحاكم وصححه. انظر الدر المنثور للسيوطي ٢٠٨/٣.

عديّ عقلاً أبيض وعقلاً أسود حتى كان بعض الليل نظر فلم يستيناً، فلما أصبح قال: يارسول الله جعلت تحت وسادتي فقال: «إن وسادك إذا لعريض أن كان الخيط الأبيض والأسود تحت وسادتك»^(١).

وكان منهم من لازم الرسول ﷺ ولم يفارقه في سفر ولا حضر، فاطلع على أسباب النزول وما كان يرافق أحوال الوحي مما لم يدركه الآخرون، كل ذلك أوجد ملكة ذهنية وعلمية لم تتوافر لغيرهم.

يقول مسروق: (جالست أصحاب محمد ﷺ فوجدتهم كالإخاذ - الغدير - فالإخاذ يروي الرجل، والإخاذ يروي الرجلين، والإخاذ يروي العشرة، والإخاذ يروي المائة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدهم)^(٢).

﴿أنزل من السماء ماءً فسالت أوديةً بقدرها...﴾ [الرعد: ١٧].

وفي الرواية التي أخرجها أبو الشيخ وابن مردويه والحاكم في صحيحه عن ابن عباس ما يدل أن بعض الصحابة كان يفهم بعض الآيات على غير وجهها الصحيح فيقع في محذور. يقول ابن عباس: إن الشراب كانوا يضربون على عهد رسول الله ﷺ بالأيدي والنعال والعصي، حين توفي رسول الله ﷺ فقال أبو بكر: لو فرضنا لهم حداً فتوفي ماكانوا يضربون في عهد رسول الله ﷺ، فكان أبو بكر يجلدهم أربعين حتى توفي ثم كان عمر من بعدهم كذلك أربعين، حتى أتى برجل من المهاجرين الأولين قد شرب فأمر به أن يُجلد، فقال: لِمَ تجلدني؟ بيني وبينك كتاب الله، قال: وفي أيّ كتاب الله تجد أن لاأجلدك؟ قال: فإن الله تعالى يقول في كتابه: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا﴾ فأننا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وأحسنوا. شهدت مع رسول الله ﷺ بداراً واحداً والخندق والمشاهد، فقال عمر: ألا تردّون عليه؟ فقال ابن عباس: هؤلاء الآيات نزلت عذراً للماضين وحجة على الباقيين، عذراً للماضين لأنهم لقوا الله قبل أن حرّم عليهم الخمر، وحجة على الباقيين لأن الله يقول: ﴿إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام...﴾ حتى بلغ الآية الأخرى، فإن كان من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا، فإن الله نهى أن يشرب الخمر، فقال عمر: فماذا ترون؟ فقال علي بن أبي طالب: نرى أنه إذا شرب سكر وإذا سكر هذى وإذا هذى

(١) صحيح البخاري، كتاب التفسير: ١٥٦/٥.

(٢) التفسير والمفسرون للذهبي: ٣٠/١.

افتري، وعلى المفتري ثمانون جلدة فأمر عمر فجلد ثمانين^(١).
وفي عهد التابعين اتسعت دائرة الأقوال في التفسير نظراً لحاجة الناس إلى تفسير القرآن الكريم، وذلك:

- لبعده العهد عن عصر النزول، ولانتشار الإسلام.
- ودخول أقوام فيه ممن لم تكن لديهم خلفية عن الثقافة الإسلامية، بل كان لبعضهم خلفيات ثقافية أخرى ممن اعتنقوا ديانات قبل الإسلام.
- كما وُلد في الإسلام جيل لم يكن على علم تام بأساليب العربية ومارافق نزول القرآن إلا ماتلقّوه عن الصحابة رضوان الله عليهم.
وكان إلى هذا العهد يُتناقل التفسير بطريق الرواية، فالصحابة يروون عن رسول الله ﷺ كما يروي بعضهم عن بعض، والتابعون يروون عن الصحابة كما يروي بعضهم عن بعض.

- وفي أواخر عهد بني أمية وأوائل العصر العباسي بدأ عصر التدوين، فُجّع حديث رسول الله ﷺ. فطاف الآفاق رجال كان شغلهم الشاغل جمع ما روي عن رسول الله ﷺ وكان على رأس هؤلاء:

| | |
|-------------------------------|--------------------|
| ابن شهاب الزهري، | المتوفى سنة ١٢٤هـ. |
| وشعبة بن الحجاج، | المتوفى سنة ١٦٠هـ. |
| ووكيع بن الجراح، | المتوفى سنة ١٩٧هـ. |
| وسفیان بن عينة، | المتوفى سنة ١٩٨هـ. |
| وروح بن عبادة البصري، | المتوفى سنة ٢٠٥هـ. |
| وعبد الرزاق بن همام الصنعاني، | المتوفى سنة ٢١١هـ. |
| وآدم بن إياس، | المتوفى سنة ٢٢٠هـ. |
| وأحمد بن حنبل، | المتوفى سنة ٢٤١هـ. |
| وعبد بن حميد، | المتوفى سنة ٢٤٩هـ. |
| وابن ماجه، | المتوفى سنة ٢٧٣هـ. |
| وابن جرير الطبري، | المتوفى سنة ٣١٠هـ. |
| وغيرهم كثير... | |

(١) انظر: الدر المنثور للسيوطي: ١٦٢/٣.

ولكن لم يصلنا شيء عن تفاسيرهم سوى تفسير مجاهد، وتفسير عبد الرزاق الصنعاني، وتفسير ابن ماجه، وتفسير ابن جرير الطبري.

وكان إلى هذا العهد يجمع التفسير على أنه باب من أبواب الحديث، يُدَوَّن فيه ما روي عن رسول الله ﷺ أو كبار الصحابة مما يتعلق بتفسير آية أو آيات.

ولم يبحث عن تفسير كل آية من آيات القرآن الكريم، وإنما يُذكر فيه ما ثبت بطريق السند نسبته إلى رسول الله ﷺ أو أحد الصحابة.

ولم نجد تفسيراً مستقلاً للقرآن الكريم تتبع القرآن سورة سورة أو آية آية قبل بداية القرن الثالث الهجري، على الرغم من أن روايات تذكر أن مجاهداً المتوفى سنة ١٠٤هـ سأل ابن عباس ومعه الواحة، فكتب تفسير القرآن كاملاً إلا أن التفسير المطبوع لا يختلف عن التفاسير المأثورة لإيات متفرقة. كما قيل أن سعيد ابن خبير المتوفى عام ٩٤هـ كتب تفسيراً كاملاً للقرآن الكريم. كما يقال إن عمرو بن عبيد شيخ المعتزلة كتب تفسيراً للقرآن عن الحسن البصري المتوفى سنة ١١٦هـ. إلا أننا لانستطيع أن نجزم بصحة هذه الروايات لأن هذه التفاسير لم يصلنا منها إلا القليل، ووصلت أجزاء من بعضها.

ولعل أقدم تفسير كامل لآيات القرآن الكريم، وصلنا وتحت أيدينا، هو تفسير شيخ المفسرين ابن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠هـ.

ثم توالى المؤلفات في التفسير وتشعبت ألوانها حسب اتجاهات أصحابها والفنون التي أجادوا فيها، إلا أن الذي يهمنّا هنا هو تاريخ تفسير القرآن العظيم بعد نشوء العلوم المستحدثة والمنقولة في كتب التفسير.

أثر نشأة الفرق على مسيرة التفسير (١)

لما اتسعت الفتوحات الإسلامية لنشر راية الهداية والعدل بين الأمم والشعوب دخل في غمار المسلمين - تقيّة - كثير ممن لا يرجون الله وقاراً من الموتورين والحاقدين على الإسلام من اليهود والمنافقين، والزنادقة، ليفسدوا على المسلمين دينهم ويشككهم في إسلامهم عن طريق الأكاذيب والأساطير والخرافات والقصص الزائفة، بعد أن عجزوا عن مواجهته بالحجة والمنطق المعقول، بعد أن عجزوا أيضاً عن مواجهته بقوة السلاح في ميادين الجهاد، واتخذوا من تفسير القرآن مادة لأغراضهم ووسيلة خفية لأهدافهم الخبيثة وحملوا إليه من موروثاتهم في عقائدهم وأقاصيصهم بلأيا من الأكاذيب والترهات التي قبلها بعض ذوي البله والغفلة من المتسبين للعلم من المسلمين الذين ربما لا يهتمون في إخلاصهم، والتي دسها عليهم عمداً بعض الملاحدة، حتى ضاعت كثرة الحقائق في غمرة الأساطير.

وكان من آثار دخول الأعاجم في الإسلام، وظهور اللحن في القرآن أن ظهر إلى جانب ذلك قوم من أهل اللغة والأدب، شغفوا بالإعراب واتخذوا من نصوص القرآن وآياته مادة لإظهار براعتهم في علوم اللغة وفنون الأدب، وراحوا يعقدون مجالس الإملاء في توجيه آيات من القرآن جاءت على غير السنن الذي يعرفونه من قواعدهم التي قعدوها، وغفلوا عن النظر البلاغي الذي اقتضى مجيء الآيات كما أنزل الله تعالى كقوله: ﴿لَكِنَّ الرَّاٰسِخُوْنَ فِي الْعِلْمِ مِنْهُمْ وَالْمُؤْمِنُوْنَ يُؤْمِنُوْنَ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ وَالْمُقِيمِينَ الصَّلَاةَ وَالْمُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالْمُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ أُولَٰئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾^(٢)، وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَادُوا وَالصَّابِئِينَ وَالنَّصَارَىٰ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ

(١) القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين محمد الصادق إبراهيم

عرجون/ص ٢١٥-٢١١ ط دار القلم: دمشق - الدار الشامية: بيروت.

(٢) سورة النساء/آية ١٦٢.

وَلَا هُمْ يَخْزَنُونَ ﴿١١﴾

ثم أخذ فريق منهم يؤلفون الكتب والدواوين في إعراب القرآن آية آية، وكلمة كلمة، ويكثرون من الشواهد شعراً ونثراً على ما يذكرون من وجوه في الإعراب، أو لهجات عن بعض قبائل العرب، واتسعوا في ذكر وجوه الأعراب، وتفتنوا في التخريج تعالماً باللغة وأساليها، وقد اضطر بعضهم إلى أن يصطنع شواهد من الشعر لم ينطق بها العرب ولا عرفوها، ولكنها العصبية المذهبية هي التي حملتهم على هذا الباطل، واختلفوا إلى مدارس، لكل مدرسة مذهب في النحو والتصريف وفقه اللغة، ولا تزال الكتب الدراسية تحمل الخلاف العريض بين مدرستي الكوفة والبصرة.

وقد زاد من حدة هذا الخلاف التنافس على الدنيا والتقرب من أهلها في دواوين الحكم وقصور الخلافة، وكان بعض الخلفاء يزكي نار هذا الخلاف ويختص بعض الأدباء والنحويين بالزلفى ويسند إليهم مناصب التدريس والتأديب في قصور الخلافة، ويشير بين المتنافسين من علماء مدرستي الكوفة والبصرة المسائل الخلافية كالذي قيل: إنه وقع بين الكسائي زعيم نحوي الكوفة وسيويه إمام البصرة في مسألة العقرب والزبور المشهورة، وقد قيل: إن أنصار الكسائي استنطقوا بعض الأعراب أن ينطق بما يوافق رأيهم ويتصر لصاحبهم.

وإذا تجاوزنا هذا الجانب مما أتخمت به بعض كتب تفسير القرآن التي نزع في طريقها إلى الجانب اللغوي الإعرابي، وجدنا إلى جانبه منزعاً آخر يتصل به من قريب، ذلك هو جانب البحث البلاغي في القرآن لتبيين إعجازه وعلو طبقة في البلاغة والبيان، وهذا الجانب وإن كان لم يستكمل المدى المطلوب منه ولم يف بالغرض الذي أنشئ له لأن السرعة التي كتب بها حصرت في دائرة ضيقة من القواعد الخاصة والضوابط المصطنعة والتعاريف المتكلفة، والتفريعات المتكثرة، وقعدت به دون أن يبلغ الغرض الذي كان ينبغي أن يبلغه وما هو ببالغه إلا أنه شغل العلماء ببحوث لفظية لاتعني في العلم شيئاً.

يبد أن هذا اللون من البحث البلاغي - مع أنه لم يؤد إلى الهدف الذي قصد به - أحدث لوناً من الخلاف في بيان إعجاز القرآن، وظهر لمنافسته القول بالإعجاز بالصرفة، وهو قول مال إليه أكثر المتكلمين، وأسند القاضي عياض إلى الإمام أبي الحسن الأشعري وجماعة من أصحابه، وجنح إليه الفخر الرازي في مواضع من

(١) سورة المائدة/ آية ٦٩.

تفسيره، وفي كتابه «نهاية الإيجاز» - الذي لخص به كتابي عبد القاهر «دلائل الإعجاز» و «أسرار البلاغة» ورتبهما كما شاء - انتهى إلى أن إعجاز القرآن في فصاحته وقد حاول إبطال كل وجه غير هذا الوجه.

والرازي مضطرب الرأي جداً في وجه إعجاز القرآن في تفسيره وسائر مؤلفاته التي يعرض فيها لهذا الموضوع.

وقد صور مذهب الصرفة في كتابه (نهاية الإيجاز) ونسبه إلى إبراهيم النظام أحد شيوخ المعتزلة فقال: قال النظام: إن الله تعالى ما أنزل القرآن ليكون حجة على النبوة، بل هو كسائر الكتب المنزلة لبيان الأحكام من الحلال والحرام، والعرب إنما لم يعارضوه لأن الله تعالى صرفهم عن ذلك وسلب علومهم به.

وقد أدى هذا الخلاف إلى أن يزدهم المختلفون في ساحة القرآن، يتجادلون ويتدافعون، ودخل هذا الجدل العقيم في تفسير القرآن، وكون جانباً منه قامت عليه كثرة من الكتب والمؤلفات، وصرف كثيراً من المفسرين عن العناية بجانب الهداية العلمية والمعنوية في القرآن.

تفسير الكشاف وابتعاده عن مقاصد القرآن:

ولعل أظهر مثل لذلك بين أيدينا هو كشاف الزمخشري الذي يشبه أن يكون قد قصره على غرضين اثنين، الغرض الأول منهما هو تبين مافي آيات القرآن من سمو في التعبير وفوق في البيان وعلو في البلاغة والفصاحة، بما جاء فيه من بارع التمثيل، ودقيق الاستعارة، ولطيف الكناية. والغرض الثاني هو نصر مذهب المعتزلة بأخضره ويابسه وعجزه وبجره، وحمل آيات القرآن قسراً على أن تنهض حجة لمزاعمه، وهذا الاتجاه دعا بعض العلماء إلى أن يشمر للرد عليه، مما زهد الكثيرين في النظر فيه والإفادة بنفي عبارته عن مقاصد القرآن، مما فتح باب الجدل في المسائل الكلامية وجعل القرآن ميداناً لها، تحمل آياته عليها حملاً، وتنزل في فهمها على ماتقتضيه مسائلهم وقواعدهم، حتى إن الناظر في تلك الكتب يظن أن القرآن الكريم كتاب من كتب فلسفة الكلام نزل ليفتح ميداناً للجدل وليس كتاب هداية نزل ليعث اليقين والسكينة في القلوب.

أصول المعتزلة:

وفي ذلك يقول الإمام ابن تيمية في رسالته أصول التفسير: فالذين أخطأوا في الدليل والمدلول مثل طوائف من أهل البدع اعتقدوا مذهباً يخالف الحق الذي عليه

الأمة الوسط الذين لا يجتمعون على ضلالة كسلف الأمة وأئمتها، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم، تارة يستدلون بآيات على مذهبهم ولادلالة فيها وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم بما يحرفون به الكلم عن مواضعه، وهذا كالمعتزلة فإنهم من أعظم الناس كلاماً وجدلاً، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم، مثل تفسير عبد الرحمن بن كيسان، وتفسير الجبائي، وتفسير القاضي عبد الجبار، وتفسير الروماني، والكشاف لأبي القاسم الزمخشري، فهؤلاء اعتقدوا مذهب المعتزلة وأصولهم الخمسة التي هي التوحيد، والعدل، والمعتزلة بين المنزلتين، وإنفاذ الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ثم قال ابن تيمية: والمقصود أن مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، لا في رأيهم ولا في تفسيرهم، وما من تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة، وذلك من جهتين: تارة من العلم بفساد قولهم، وتارة من العلم بفساد ما فسروا به القرآن: إما دليلاً على قولهم، أو جواباً على المعارض لهم، ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحاً، ويدس البدع في كلامه وأكثر الناس لا يعلمون، كصاحب الكشاف ونحوه، حتى إنه يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم ما شاء الله.

وقال ابن قتيبة في الرد على المعتزلة ومن سلك مسلكهم من المتكلمين في حمل آيات القرآن على مذاهبهم: وفسروا القرآن بأعجب تفسير، يريدون أن يردوه إلى مذاهبهم ويحملوا التأويل على نحلهم، فقال فريق منهم في قوله تعالى: ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ أي: علمه، وجاؤوا على ذلك بشاهد لا يعرف، وهو قول الشاعر: * ولا بكرسي علم الله مخلوق * كأنه عندهم، ولا يعلم علم الله مخلوق، يستوحشون أن يجعلوا الله تعالى كرسيًا... وقالوا في قوله تعالى: ﴿وَاتَّخَذَ اللَّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا﴾ أي: فقيراً إلى رحمته وجعلوه من الخلقة استيحاشاً من أن يكون الله تعالى خليلاً لأحد من خلقه... فأبي فضيلة في هذا لإبراهيم؟ أما تعلمون أن الناس كلهم فقراء إليه، وهل إبراهيم في خليل الله إلا كما قيل: موسى كليم الله! وعيسى روح الله؟

(١) أثر العلوم الفلسفية على مسيرة التفسير

ولما تسلت العلوم المترجمة والفلسفات الأجنبية عن الإسلام بأصولها وعقائدها أهلها إلى ساحة الإسلام أسرع إليها أقوام، واعتنقوا مبادئها، وتوغلوا في دراستها، وكان أعقلهم وأذكاهم من جعل نفسه عبداً لآراء أرسطو يتعبد بها وينافح عنها وينشر أصولها، وأدخلوها في تفسير القرآن، يحتجون بها له، ويدافعون بمنطقها عنه، وهو في غنية عنها وعن منطقها، لأن له منطقاً هو منطق الفطرة، ويحتجون به لها ليقربوها إلى العقول، ويخدعوا عامة المسلمين ببريقها، وقد يعتسفون الرأي اعتسافاً لا يتمشى مع سماحة البيان القرآني، واتخذوا من آيات العقائد وبيان دلائل القدرة الإلهية وعظمة ملك الله ميداناً لأوسع خلاف وأشد جدل يذهب بنضارة الهداية القرآنية في تعاريج الجدل المنطقي الجاف.

ومن هذا الباب - باب الفلسفة الأجنبية - دخل طوائف الباطنية من القرامطة والروافض الذين حرفوا آيات الله عن مواضعها، فحملوا على كتاب الله في تفسيره غشاء من الرأي الخبيث التافه لاتساوي ضرورة غير ولا عفة عز، وإنما أملاها على قائلها حقد أبله وجهل بليد، كقولهم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً﴾ هي عائشة أم المؤمنين وكقولهم في قوله تعالى: ﴿قَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ هم طلحة والزبير، وكقولهم في قول عز شأنه: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ علي وفاطمة، من أمثال هذه الترهات التي لا يعقلها إلا المبرسمون كما نقل عن أبي مسلم الأصفهاني أنه قال: رأيت في بعض التفاسير، قول من قال في ﴿حَمَقَسَقَ﴾: إن الحاء حرب علي ومعاوية، والميم ولاية المروانية، والعين ولاية العباسية، والسين ولاية السفينية، والقاف قدوة المهدي، قال أبو مسلم: وإنما حكيت ذلك لأنني أردت أن يُعلم أن فيمن يدعي العلم حمقى.

(١) القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين/ لمحمد الصادق بن إبراهيم عرجون ص ٢١٥-٢١٧ ط دار القلم: دمشق - الدار الشامية: بيروت.

وقد خدع بهذا النوع من الخرافات السخيفة قوم من أهل السلامة من المتصوفة، فذكروا منها الكثير وحسبوه تفسيراً، قال ابن الصلاح في الفتاوى: وجدت عن الإمام أبي الحسن الواحدي المفسر رحمه الله تعالى أنه قال: صنف أبو عبد الرحمن السلمي حقائق التفسير. فإن كان اعتقد أن ذلك تفسير فقد كفر، قال ابن الصلاح: وأنا أقول الظن بمن يوثق به منهم أنه قال شيئاً من أمثال ذلك أنه لم يذكره تفسيراً ولا ذهب به مذهب الشرح للكلمة المذكورة في القرآن العظيم، فإنه لو كان كذلك كانوا قد سلكوا مسلك الباطنية وإنما ذلك ذكر منهم لنظير ماورد به القرآن فإن النظير يذكر بالنظير، ومن ذلك قتال النفس في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ﴾، فكأنه قال: أمرنا بقتال النفس ومن يلينا من الكفار، ومع ذلك فياليتهم لم يتساهلوا في مثل ذلك لما فيه من الإيهام والإلباس.

(١) أثر الفلسفة الصوفية على مسيرة التفسير

لأنريد أن نخرج على ماينسب إلى بعض الصوفية من أقوال في تفسير القرآن يسودها الغموض والإبهام، وكثير من ظاهرها يشم منه رائحة الإلحاد والكفر الباطني الخبيث، وأكثر ما يظهر ذلك في التفسير المنسوب إلى ابن عربي الحاتمي، والناس مختلفون أشد الاختلاف في نسبته إليه والمحققون على أنه أو الكثير منه مكذوب عليه، وقد قطع صاحب المنار بأن هذا التفسير من تأليف القاشاني الباطني.

ونكتفي بذكر مثل واحد من هذا التفسير المنسوب إلى ابن عربي في الفتوحات. ولهذا الشيخ كلام في الفتوحات - وهو كتاب محقق النسبة إليه في جملته لاني تفصيله فقد قال الشعراني رحمه الله: إن فيه كثيراً مما دس على الشيخ، والله عليم بحقيقة حاله - يفسر به بعض الآيات تفسيراً يقلب قواعد الشريعة رأساً على عقب، والله تعالى لم يطلب من عباده إلغاء عقولهم ليصلوا إلى مقاصد من يرمي بالقول على حسب ما يكتنه في ضميره.

رفض المناهج المنحرفة في تفسير الصوفية:

وكيف يمكن فهم ما ينسب إلى الشيخ في الفتوحات تفسيراً لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾. حَتَّمَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَعَلَى سَمْعِهِمْ وَعَلَى أَبْصَارِهِمْ غِشَاوَةً وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ^(٢)، تقول الفتوحات في تفسيرها: يا محمد إن الذين كفروا ستروا محبتهم في، دعهم فسواء عليهم أأنذرتهم بوعيدك الذي أرسلتك به أم لم تنذرهم، لا يؤمنون بكلامك فإنهم لا يعقلون غيري، وأنت تنذرهم بخلقهم وهم ماعقلوه ولا شاهدوه وكيف يؤمنون بك وقد ختمت على قلوبهم فلم أجعل فيها متسعاً لغيري، وعلى سمعهم فلا يسمعون كلاماً في العالم إلا مني، وعلى

(١) القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين ص ٢٢٠ - ٢٣٠ /.

(٢) سورة البقرة الآيتان: ٦ - ٧ /.

أبصارهم غشاوة من بهائي عند مشاهدتي، فلا يصرون سواي ولهم عذاب عظيم عندي، أردهم بعد هذا المشهد السني إلى إنذارك وأحجبهم عني كما فعلت بك بعد قاب قوسين أو أدنى قريباً، أنزلتلك إلى من يكذبك ويرد ماجئت إليه مني في وجهك... إلخ.

أفكان أبو جهل وحزبه من رؤوس الكفر الفاجر ممن يحبون الله محبة ستروها وكانوا مستغرقين في الله لا يعقلون غيره ولا يفهمون عن رسوله، وكانت قلوبهم معمورة بالله فلم تتسع لغيره، ولا يسمعون كلاماً إلا منه سبحانه، وعلى أبصارهم غشاوة من بهاء الله فلا يصرون سواه؟

هذا كلام يهدم الشريعة ويرد رسالات الرسل ويدعو إلى الكفر والإلحاد بصورة بشعة ونحن ننزه عامة المسلمين بله علمائهم عن صدور هذه الكفريات الإلحادية من أقلامهم وأقل درجات نشر هذا الكلام وأمثاله بين العامة والخاصة في سوء العواقب أنه فتنة للعقول وإفساد للقلوب، والحديث الذي يرويه البخاري عن علي رضي الله عنه وكرم وجهه يقول: حدثوا الناس بما يفهمون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله؟ هل هناك دعوة لتكذيب الله ورسوله من شر القول بأن أكفر الكافرين وألعن الملعونين مستغرقون في محبة الله لا يعقلون غيره ولا يسمعون إلا منه، ونحن نرد هذا الباطل الفاجر، ولا نجزم بنسبته إلى شخص معين، والله تعالى هو المتولي لسرائر الناس بعلمه.

وهكذا صور لانتهي عند حصر، أتختم بها تفسير القرآن ووقف عندها ولم يتجاوزها إلى تفصيل هدايته العلمية ودلائله الفكرية وبراهينه الكونية، والهداية في القرآن هي أصل أصوله، ومعقد مقاصده، وأهم أغراضه، يجب أن تتوجه إليها العزائم، وتقصد إليها الهمم بأساليب تستجيب إلى نداء العلم والمعرفة في هذا العصر وفيما يستقبل من زمن الحياة والناس، بما لا يخالف الأصول الإسلامية التي جاء بها القرآن الحكيم وبيتها السنة المطهرة وأجمعت عليها الأمة.

وقد عرض الإمام جلال الدين السيوطي صورة للألوان التفسيرية التي ظهرت في المؤلفات وكتب التفسير واستغرقت حياة المسلمين إلى عصره في القرن التاسع الهجري فقال: ثم ألف في التفسير خلائق فاخصروا الأسانيد ونقلوا الأقوال ترى فدخل من هنا الدخيل والتبس الصحيح بالعليل، ثم صار كل من يسبح له قول يورده، ومن يخطر بباله شيء يعتمد عليه ثم ينقل ذلك عنه من يجيء بعده ظاناً أن له أصلاً غير ملتفت إلى تحرير ماورد عن السلف الصالح ومن يرجع إليه في التفسير، حتى رأيت

من حكي في تفسير قوله تعالى: ﴿غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾، نحو عشرة أقوال، وتفسيرها باليهود والنصارى هو الوارد عن النبي ﷺ وجميع الصحابة والتابعين وأتباعهم، حتى قال ابن أبي حاتم: لأعلم في ذلك اختلافاً بين المفسرين، ثم صنف بعد ذلك قوم برعوا في علوم فكان كل منهم يقتصر في تفسيره على الفن الذي يغلب عليه.

فالنحوي تراه ليس له هم إلا الإعراب، وتكثير الأوجه المحتملة فيه ونقل قواعد النحو ومسائله وفروعه وخلافياته كالزجاج والواحدي في البسيط وأبي حيان في البحر والنهر، والإخباري ليس له شغل إلا القصص واستيفائها، والأخبار عمن سلف سواء كانت صحيحة أو باطلة كالثعلبي.

والفقيه يكاد يسرد فيه الفقه من باب الطهارة إلى أمهات الأولاد، وربما استطرد إلى إقامة أدلة الفروع الفقهية التي لاتعلق لها بالآية، والجواب عن أدلة المخالفين كالقرطبي.

أثر العلوم العقلية على مسيرة التفسير (١)

وصاحب العلوم العقلية خصوصاً الإمام فخر الدين الرازي، فقد ملأ تفسيره بأقوال الحكماء والفلاسفة وشبهها، وخرج من شيء إلى شيء يقضي الناظر فيه العجب من عدم مطابقة المورد للآية. قال أبو حيان في البحر: جمع الإمام الرازي في تفسيره أشياء كثيرة طويلة لاجابة بها في علم التفسير، ولذلك قال بعض العلماء: تفسير الرازي فيه كل شيء إلا التفسير.

ونحن قبل أن نسترسل في نقل كلام السيوطي نقول لأبي حيان بشهادة السيوطي: رمتي بدائها وانسلت، لأن كثيراً مما ذكره الإمام الرازي مفيد جداً في موضعه، وهو أحد المفسرين القلائل الذين مسوا الآيات الكونية بالنظر بما كان عنده من معارف عصره، وقد يكون من الحق أنه أغرق وبالع في الاستطراد في بعض المواضع، وأكثر من الحديث عن العرض والجوهر للاستدلال بحدوثها على وجود الخالق تفسيراً لبعض الآيات كما أكثر من اللجاج مع المعتزلة بثبر شبههم ويرد عليها بعد أن يستفرغ جهده في تقرير مذهبهم وهذا مما عيب عليه، وأما أبو حيان فقد حشى كتابيه البحر والنهر بمسائل من النحو وتفرعاته وعلله لاجابة لها مطلقاً في تفسير القرآن سوى أنها تشتت الفكر وتغطي معاني الآيات بغشاوة من الخلافات النحوية لاطائل تحتها.

ثم قال السيوطي: والمبتدع ليس له قصد إلا تحريف الآيات وتسويتها على مذهبه الفاسد بحيث إنه متى لاح له شاردة من بعيد اقتنصها أو وجد موضعاً له فيه أدنى مجال سارع إليه، قال البلقيني: استخرجت من الكشاف اعتزالاً بالمناقش، من قوله تعالى: ﴿فَمَنْ رُخِزَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ﴾، حيث قال: وأي فوز أعظم من دخول الجنة، أشار به إلى عدم الرؤية.

والملاحظ فلا تسأل عن كفره وإلحاده في آيات الله وافتراءه على الله مالم يقله، كقول بعضهم في قوله تعالى: ﴿إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ﴾، ماعلى العباد أضر من ربهم، قال

(١) القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين ص ٢٢٣-٢٣٠ ط دار القلم دمشق.

صاحب كشف الظنون: وينسب هذا القول إلى صاحب قوت القلوب أبي طالب المكي.

وهنا جانب للتأمل يرينا كيف أن القرآن الكريم جعل مصيدة للمذاهب والآراء، وتصيدها من ثنايا أقوال أصحابها مع خفائها، وليت الزمخشري أخلص كشافه للتفسير البياني على نهجه وطريقته في بيان البراعة البيانية التي يتجلى فيها أسلوب القرآن، وترك الجدل العقيم لمذهبه في الاعتزال.

وفي الحق أن جار الله كان بنهجه البياني إماماً من أئمة الفصاحة وجودة التعبير عن بلاغة القرآن حتى نأسى به كل من جاء بعده من صنعة التفسير، فكلهم وردوا حياضه، واستقوا من كوثره، ونهلوا من منابعه، ودرجوا في مدارج البيان معتمدين على بيانه، يقتبسون ألفاظه وعباراته، ويحلون عرائس تفسيرهم بحلى تفسيره، ويزنون معاصم جملهم بأساور من إبريز جملة، ولكنها العصبية المذهبية دفعت به إلى أن يخطط هذه الروعة البيانية بما أصداً مرآتها فجاءت صورته فيها كما قال الإمام ابن تيمية في المقدمة: ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة فصيحاً ويدس البدع في كلامه ولكن أكثر الناس لا يعلمون كصاحب الكشف ونحوه حتى يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ماشاء الله، وقد رأيت من العلماء المفسرين وغيرهم من يذكر في كتابه وكلامه من تفسيرهم ما يوافق أصولهم التي يعلم اويعتقد فسادها ولا يهتدي لذلك.

مكانة تفسير الطبري بين التفاسير:

وتصوير السيوطي في عرضه للتفاسير المؤلفة منذ أول عصر التدوين والتأليف - لا يستثنى منها سوى تفسير الطبري، لأنه أجل التفاسير وأعظمها، لأن صاحبه أبا جعفر تعرض فيه إلى جانب الأستاذ عن الصحابة والتابعين لتوجيه الأقوال وترجيح بعضها على بعض - يوجب أن نتساءل ماذا كان موقف السيوطي من هذا التصوير وهو من أكبر المفسرين في عصره وأكثرهم إنتاجاً في التأليف؟ هل استفاد من ذلك شيئاً تفادى به المؤاخذات التي أخذها على أولئك المفسرين من حشد المذاهب والآراء والعلوم ومسائلها مما يتصل أولاً يتصل بتفسير القرآن؟.

سندع السيوطي نفسه يجيب عن هذا التساؤل، وهو يقول في ذلك: وقد شرعت في تفسير جامع لجميع ما يحتاج إليه من التفاسير المتقولة والأقوال المقولة والاستنباطات والإشارات والأعاريب واللغات ومحاسن البدائع وغير ذلك بحيث

لا يحتاج معه إلى غيره وسميته «مجمع البحرين ومطلع البدرين» وجعلت كتاب «الإتقان في علوم القرآن» مقدمة لهذا التفسير.

ترى هل صنع السيوطي رحمه الله شيئاً؟ نعم أفادنا أنه ألف دائرة معارف عربية إسلامية تجمع فنوناً من اللغة والأدب والعقائد والروايات الحديثية وأقوال العلماء ومذاهبهم في وجوه الإعراب واستنباط الأحكام ونكت البلاغة ومحاسن البديع تحت عنوان تفسير القرآن.

ونحن وإن كنا لم يتح لنا أن نطلع على هذا الكتاب الذي لانسميه تفسيراً، ولكننا نصر على تسميته دائرة معارف إسلامية عربية إن كان قد وفي السيوطي بشرطه فيه، فليس ذلك من موجبات الأسف عندنا على فائت لاينال، لأن السيوطي رحمه الله دلنا في صدق وإخلاص على أصول كتابه، وهي مبثوثة في الكتب والمكاتب الإسلامية، فمن أرادها فهي منه على طرف الثمام كما يقول الأدباء.

وهذا اللون من دوائر المعارف من تفرعات الفنون كثير جداً في المكتبات العربية الإسلامية وكان للسيوطي فضل توجيهنا إلى فهم مااشتملت عليه كتب الطبقات والفهارس من وصف بعض الكتب بأنها تقع في عشرات المجلدات مما قد تجاوز المائة مجلد وبعضها المئات، وقد كنا نقرأ هذا الكلام فنقف منه موقف الحائر المتشكك، ولكن صنيع السيوطي كان مفتاحاً لفهمنا له على نحو ماأخذ به نفسه في تفسيره الجامع لأشتات العلوم والمعارف.

من ذلك ماذكره المقرئ أن الإمام أبا الحسن الأشعري ألف تفسيراً في سبعين مجلداً ويزعم ابن عربي أنه في خمسمائة مجلد، ويقول العسكري في «تبين كذب المفترى» مبيّناً منهج الإمام في هذا التفسير: إن أبا الحسن كتب كتاباً في التفسير يسمى «المختزن» لم يترك آية تعلق بها بدعي إلا أبطل تعلقه بها وجعلها حجة لأهل الحق.

ومن ذلك تفسير ابن النقيب المسمى بالتحريير والتحرير، قال في «كشف الظنون»: إنه في نيف وخمسين مجلداً، وقال بعض العلماء: إنه في مائة سفر.

ومن ذلك التفسير المنسوب إلى عبد السلام بن محمد بن يوسف القزويني المعتزلي تلميذ القاضي عبد الجبار، قال صاحب «كشف الظنون»: يقال إنه أزيد من ثلثمائة مجلد، وقال غيره: إنه في خمسمائة مجلد، ويقول عنه ابن النجار: حشد فيه من العجائب حتى رأيت منه مجلداً في آية واحدة، هي «وَاتَّبِعُوا مَا تَتْلُو الشَّيَاطِينُ عَلَىٰ مُلْكٍ سَلِيمٍ» (١).

(١) سورة البقرة: الآية (١٠٢).

ومن ذلك ما ذكره - بلدينا - كمال الدين أبو الفضل جعفر بن ثعلب الإدفوي في كتابه (الطالع السعيد) في ترجمة الإمام أبي بكر محمد بن علي المقرئ الإدفوي إذ يقول بعد أن نقل قول أبي الحسن القفطي في أن لأبي بكر الإدفوي تصانيف في التفسير والقراءة واللغة والنحو وغير ذلك، وأنا - صاحب الطالع - قد وقفت على كتابه المسمى بـ «الاستغنا» في التفسير في مجادات رأيت منها من نسخة عشرين مجلداً ويقال: أنه في مائة مجلد أو ما يقاربها ويقول صاحب كشف الظنون تفسير الإدنوي محمد بن أحمد المقرئ النحوي المتوفى سنة ثمان وثمانين وثلاثمائة المسمى (الاستغنا) في علم القرآن مائة وعشرون مجلداً صنفه في اثني عشرة سنة.

ومنهج السيوطي في كتابه «مجمع البحرين» سهل علينا ما روي عن الإمام أبي جعفر الطبري أنه حينما أراد أن يملئ تفسيره قال لأصحابه: أنتشطون لتفسير القرآن؟ قالوا: كم يكون قدره؟ فقال: ثلاثون ألف ورقة، فقالوا: هذا مما تفتى فيه الأعمار قبل تمامه، فاختصره لهم في ثلاثة آلاف ورقة، فكان المختصر هو هذا التفسير الذي بين أيدي الناس، وهو - على ذلك - أضخم ما أخرجته المطبعة من كتب التفسير كما أنه أفخمها وأعلاها منزلة، يقول عنه الإمام ابن تيمية في المقدمة: إنه من أجل التفاسير وأعظمها قدراً. ويقول عنه الإمام النووي في التهذيب: كتاب ابن جرير في التفسير لم يصنف أحد مثله. ويقول السيوطي: وكتابه أجل التفاسير وأعظمها، وإليه أرشد حيث يقول: فإن قلت: فأبي التفاسير ترشد إليه، وتأمّر الناظر بالتعويل عليه؟ قلت: تفسير الإمام أبي جعفر الطبري الذي أجمع العلماء المعتبرون على أنه لم يؤلف مثله في التفسير.

ويقول الإمام القاضي أبو بكر بن العربي المعافري المالكي في كتابه «أحكام القرآن»: من أجل من فسر القرآن الطبري شيخ الدين فجاء فيه بالعجب العجائب، ونثر فيه لباب الألباب وفتح فيه لكل من جاء بعده إلى معارفه الباب، فكل أحد غرف منه على قدر إنائه، ومانقت قطرة من مائه.

يقول الإمام الطبري في خطبة كتابه العظيم: (فإن من جسيم ما خص الله به أمة نبينا محمد ﷺ من الفضيلة، وشرفهم به على سائر الأمم من المنازل الرفيعة وحياهم به من الكرامة السنية، حفظه ما حفظ عليهم - جل ذكره وتقدست أسماؤه - من وحيه وتنزيله، الذي جعله على حقيقة نبوة نبيهم ﷺ دلالة، وعلى ما خصه به من الكرامة علامة واضحة وحجة بالغة، أبانه به من كل كاذب ومفتر، وفصل به بينهم وبين كل جاحد وملحد، وفرق به بينهم وبين كل كافر ومشرك، الذي لو اجتمع جميع من بين أقطارها من جنّها وإنسها، وصغيرها وكبيرها على أن يأتوا بسورة من مثله لم يأتوا بمثله ولو

كان بعضهم لبعض ظهيراً...) إلى أن يقول مبتهلاً إلى الله تعالى ميئاً لمنهجه بذكر رؤوس المسائل التي عول عليها في تفسيره: (اللهم فوقنا لإصابة صواب القول من محكمه ومتشابهه، وحلاله وحرامه، وعامه وخاصه، ومجمله ومفسره، وناسخه ومنسوخه، وظاهره وباطنه، وتأويل آيه، وتفسير مشكله...) إلى أن يقول: (ونحن في شرح تأويله وبيان مافيه من معان - منشئون إن شاء الله ذلك - كتاباً مستوعباً لكل ما بالناس إليه الحاجة من علمه جامعاً، ومن سائر الكتب غيره في ذلك كافياً، ومخبرون في كل ذلك بما انتهى إلينا من اتفاق الحجة فيما اتفقت عليه منه، واختلافها فيما اختلفت فيه منه ومينو علل كل مذهب من مذاهبهم، وموضحو الصحيح لدينا من ذلك، بأوجز ما أمكن من الإيجاز في ذلك وأخصر ما أمكن من الاختصار فيه).

ولتصور مع أبي جعفر الطبري - رحمه الله - أن تفسيره الموجود بين أيدي العلماء هو أوجز ما أمكنه من الإيجاز، وأخصر ما أمكنه من الاختصار، وهو - على ذلك - عشر ما كان يزمع أن يعليه على أصحابه وتلاميذه في ثلاثين ألف ورقة، فماذا يكون الحال لو أن أصحابه نشطوا لقبول عرضه الأول، وأطلق أبو جعفر لقلمه العنان وأورد ما كان يريد أن يعليه؟

وهل يمكن أن نتصور نوع البحوث والأفكار والمعاني التي كان تفسير أبي جعفر يبلغ بها عشرة أمثال ما هو بأيدي العلماء؟ والتي أعرض عنها الطبري رحمة بأصحابه؟ أكانت تلك البحوث مجرد روايات وأسانيد مختلفة الطرق للمعاني التي ذكرها في هذا التفسير الموجز بأمكن ما يمكن من الإيجاز؟ أم كانت بحوثاً في معاني الآيات وتبيين هداية القرآن لإصابة صواب القول في فنون القرآن وعلومه التي ذكرها أبو جعفر في خطبته والتي طواها ولم يذكرها بأوسع وأعمق مما ذكره في هذا التفسير الذي هو أخصر ما أمكن من الاختصار؟

وفضل الطبري وغزارة علمه وإحاطته بثقافة عصره مع البصيرة النافذة لا يبعد الاحتمال بأن الطبري كان عنده في خزائن تفكيره علوم ومعارف في هداية القرآن وفنونه احتسبها لنفسه، لأنه لم يجد من ينشط لحملها عنه وليته فعل؟

ومارأيناه في استكثار أبي جعفر في تفسيره الموجود من الروايات للمعنى الواحد بطرق مختلفة وأسانيد متعددة لا يبعد الاحتمال بأن كثيراً مما اختزنه الطبري كان من نوع تلك الروايات والأسانيد المتعددة للمعنى الواحد في الآية من نوع مذكره في مواضع من تفسيره وكان لها أكبر الأثر في تضخم الكتاب والصد عن دراسته تهياً له واستطالة لما فيه من الأسانيد التي رغب الناس عنها اتكالاً على وجودها في كتبها الخاصة،

والطبري يذكر هذه الروايات تأييداً لرأيه وفهمه وتفكيره استقلالاً دون تقليد لأحد من المفسرين الذين سبقوه، لأن الطبري لا ينازع أحد في إمامته وفضله وهو - على ذلك - يؤثر أن يؤثر عن السلف رأياً بموافقة رأيه ويتأيد به فهمه.

أثر منهج الإمام الرازي في التفسير (١)

وهناك منهج آخر غير منهج الطبري في تطويل كتب التفسير، تكثر به المسائل وتزدحم به المؤلفات دون أن يكون لها كبير صلة بتفسير آيات القرآن، وهذا المنهج ذكره الإمام فخر الدين الرازي في مقدمة تفسيره إذ يقول: اعلم أنه مر على لساني في بعض الأوقات أن هذه السورة الكريمة - الفاتحة - يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة، فاستبعد هذا بعض الحساد وقوم من أهل الجهل والغبي والعناد، وحملوا ذلك على ما ألفوه من أنفسهم من التعلقات الفارغة عن المعاني، والكلمات الخالية عن تحقيق المعاهد والمباني، فلما شرعت في تصنيف هذا الكتاب قدمت هذه المقدمة لتصير كالتبئية على ما ذكرناه أمر ممكن الحصول قريب الوصول، فنقول - وبالله التوفيق:

إن قولنا: (أعوذ بالله من الشيطان الرجيم) لاشك أن المراد منه الاستعاذة بالله من جميع المنهيات والمحظورات ولاشك أن المنهيات: إما أن تكون من باب الاعتقاد أو من باب أعمال الجوارح، أما الاعتقادات فقد جاء في الخبر المشهور قوله ﷺ: «ستفترق أمتي على ثلاث وسبعين فرقة: كلهم في النار إلا فرقة واحدة» وهذا يدل على أن الاثنتين والسبعين موصوفون بالمعائد الفاسدة، والمذاهب الباطلة، ثم إن ضلال كل واحدة من أولئك الفرق غير مختص بمسألة واحدة، بل هو حاصل في مسائل كثيرة من المباحث المتعلقة بذات الله تعالى وبصفاته، وبأحكامه، وبأفعاله، وبأسمائه، وبمسائل الجبر، والقدر، والتعديل والتجويز، والثواب والمعاد، والرعد والوعيد، والأسماء والأحكام والإمامة، فإذا وزعنا عدد الفرق الضالة - وهو الاثنان والسبعون - على هذه المسائل الكثيرة بلغ العدد الحاصل مبلغاً عظيماً وكل ذلك أنواع الضلالات الحاصلة من فرق الأمة، وأيضاً فمن المشهور أن فرق الضلالات من الخارجين عن هذه الأمة يقربون من سبعمائة، فإذا ضمت أنواع ضلالاتهم إلى أنواع الضلالات الموجودة في

(١) القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين/ لمحمد الصادق عرجون
ص ٢٣٠-٢٣٣ ط دار القلم.

فرق الأمة في جميع المسائل العقلية المتعلقة بالإلهيات والمتعلقة بأحكام الذوات والصفات، بلغ المجموع مبلغاً عظيماً في العدد، ولاشك أن قولنا (أعوذ بالله) يتناول الاستعاذة من جميع تلك الأنواع، والاستعاذة من الشيء لا يمكن إلا بعد معرفة المستعاذ منه، وإلا بعد معرفة كون ذلك الشيء باطلاً وقيحاً فظهر بهذا الطريق أن قولنا (أعوذ بالله) مشتمل على الألوف من المسائل الحقيقية البقينية.

وأما الأعمال الباطلة فهي عبارة عن كل ماورد النهي عنه: إما في القرآن، أو في الأخبار المتواترة، أو في أخبار الآحاد أو في إجماع الأمة أو في القياسات الصحيحة، ولاشك أن تلك المنهيات تزيد على الألوف، وقولنا (أعوذ بالله) فتناول لجمعها وجمالها، فثبت بهذا الطريق أن قولنا (أعوذ بالله) مشتمل على عشرة آلاف مسألة أو أزيد أو أقل: من المسائل المهمة المعتمدة، اهـ.

وهذه طريقة عجبية. ومنهج غريب في التوصل إلى تضخيم الكتب وتطويلها، تكشف لنا ماكان يسود بعض العصور من تنافس في استخراج المسائل واستنباط القضايا العلمية من العبارات التي لا تدل عليها ولا تقصد للدلالة عليها إلا من أبعد الاحتمالات التعسفية وفي غمار هذا التكديس والاستطراد في المناسبات والخروج من موضوع إلى موضوع آخر تضعيف الإشارات العابرة التي قد تنبه على مواطن الهداية القرآنية في آيات القرآن العظيم.

وعلى ضوء هذا المنهج الذي اعتمد عليه الإمام الرازي في تفسيره نستطيع أن نفهم مسلك المفسرين العقلين الذين لن تصل إلينا كتبهم، ولكننا عرفنا سبيلها ومنهجها عن طريق الفهارس والطبقات التي تحدثت عن تلك الكتب حديث المعجب بكثرة ما فيها من العلوم والآراء والمسائل التي طالت بها طولاً أخرجها عن منهج التفسير المبين لهداية القرآن، سواء أكانت تلك الكتب الموهلة في الطول لمؤلفين من أهل السنة كتفسير الإمام أبي الحسن الأشعري أم كانت من وضع المعتزلة كتفسير أبي يوسف القزويني تلميذ القاضي عبد الجبار شيخ المعتزلة في عصره.

وطريقة الإمام الرازي التي أراد أن يبرهن بها على أن فاتحة الكتاب تتضمن ألوف المسائل والفوائد طريقة أشبه ماتكون بالعمليات الحسابية لا يهش لها العلم ولا سيما في تفسير القرآن الكريم الذي أنزل هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان، وهي طريقة يمكن لكل عالم أو متعلم أراد أن يقتل فراغ وقته أن يعتمد عليها ويجريها في كلام آحاد الناس، بله القرآن العظيم.

فلو قال قائل - على طريقة الرازي -: إن قولنا (الحمد لله) يمكن أن يستبطن منه

ألف الألف من المسائل والفوائد لما أبعد الشقة في طريق الإمكان، لأنه يستطيع أن يقول (الحمد لله) جملة اسمية تثبت الحمد لله على أكمل وجه، وهي أقوى في الدلالة على الإثبات من الجملة الفعلية، وهذا يقتضي بيان الجملة الاسمية وأركانها وبيان الجملة الفعلية وأركانها، ونوع فعليتها من جهة الماضي والحضور والاستقبال إلى آخر ما يمكن الاستطراد فيه من فن النحو والمعاني في الموازنة بين الجملتين في تقرير المعنى المراد وثبوته.

ثم يقول: لاشك أن الحمد إما أن يكون مطلقاً لمجرد التعبد والتقديس، وإما أن يكون مقيداً بنعمة، والنعمة إما أن تكون عامة أو خاصة، النعمة العامة اما سماوية أو ارضية، والخاصة إما أن تكون في خلق الإنسان وتكوينه مما امتن الله به على الإنسان. وإما أن تكون في وسائل حياته وعيشه، وهي إما مادية أو معنوية، والنعمة العامة السماوية والأرضية لا تدخل تحت حصر، والنعمة الخاصة مادية أو معنوية لا يدخل حصرها في دائرة الإمكان.

فثبت بهذا التوليد أن قولنا (الحمد لله) يتضمن ألف ألف الألف من المسائل والفوائد، بل يتضمن ما لا يمكن حصره، أف يكون هذا الكلام علماً يفسر به القرآن؟!

أثر منهج الإمام الألوسي في التفسير^(١)

ولو أردنا أن نضرب مثلاً مشهوداً للناس على هذه التفاسير الجامعة التي وضع منها السيوطي كخلاصة لجمع الطرق التفسيرية التي سبقته لكان ذلك في آخر صورها التي وصلت إلينا عن عالم من علماء القرن الثالث عشر الهجري، كانت له مكانته العلمية في عصره، وله معارفه الواسعة التي تهىء له الأسباب المساعدة لوضع تفسير القرآن الكريم على طريقته الجمعية الخاصة هو كتاب «روح المعاني» لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادى، وهو كتاب ضخم يشبه أن يكون صورة عريضة لمنهج السيوطي في كتابه.

ثم وقف الناس بعد الألوسي عن التأليف في التفسير، والمحاولات التي جاءت بعده لا تبلغ أن تسمى كتب تفسير للقرآن، وأمثلة من حاول ذلك كان يقصر محاولته على تفسير سورة أو آية يجرد تفسيرها من جملة التفاسير التي تقع له، ويجعل ذلك كتاباً أو رسالة تحمل اسمه، حتى وصلت إلى الشرق الإسلامي أعلام النهضة العلمية قادمة من الغرب ترعد وتبرق وتذر وتحذر وكان لا بد أن يحس بعض أبناء الإسلام الذين أيقظتهم نذر هذه النهضة بحاجتهم إلى الأخذ منها بسبب، فأسرع إليها طلائع الرواد، ونظروا فيها فهاهم مارأوا من المذاهب المستحدثة في العقائد والفلسفات ومارأوا من مذاهب في الاجتماع والاقتصاد، ومارأوا من نظريات مبتدعة في العلوم والمعارف ومارأوا في أنظمة الحكم من أوضاع مما لفت أنظارهم إلى تعرف موقف الإسلام من هذه المذاهب والآراء والنظم، والإسلام دستور الخالد الذي يستمد بقاءه منه هو القرآن العظيم، فتساءلوا هل لدينا تفاسير للقرآن تسعفنا بما يجب أن نبني عليه مستقبل أمتنا في هذه الحياة الفوّارة بكل جديد من العلم والمعرفة؟ فنظروا وأمعنوا في النظر، وبحنوا وشددوا في البحث فلم يجدوا على قرب منهم سوى هذه التفاسير الجمعية التي تجمع معارف العصور الماضية بغثها وسمينها، وحققها وباطلها مما عرفه تاريخ الإسلام في ظل اللغة العربية.

(١) القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال التفسير ص ٢٤٠-٢٤٢.

يبد أنهم وجدوا الهداية القرآنية في تلك التفاسير مبددة هنا وهناك مغمورة بين الروايات والأسانيد في التفاسير المأثورة عن العصر الأول، ووجدوها تائهة بين المذاهب والتفريعات في التفاسير الاجتهادية، واستخرجها من بين ركام الروايات والمذاهب يحتاج إلى جهد ومشقة وأعمار تفتى ولا يبلغ منها ماتريد، ولكنهم وجدوا آيات القرآن تهيب بهم أن تقدّموا إلى الحياة وخدوا حقكم من النهضة العلمية والتقدم العقلي، وتبوّوا مكانكم في ميادينها فأنتم أهلها وأحق بها، وهذه النهضة منكم خرجت وإليكم يجب أن تعود.

وشمر فريق من العلماء النابيين واتجهوا إلى القرآن العظيم باعتباره الدستور الخالد للإسلام يتلونه حق تلاوته وينظرون فيه على ضوء ماوصل إليه اجتهادهم من الإلمام بشيء من هذه العلوم والمعرفة التي أيقظت عقولهم لها هذه النهضة، وفتح لهم القرآن الحكيم أبواب الفكر الحر على مصاريعها فولج منهم القليل إلى مداخل الحياة الفكرية معتصمين بهدى القرآن يستنبثونه عن تاريخهم من العزة والكرامة، وعن مكانهم من العلم والمعرفة، فجاءهم الجواب من آفاق وحيه: «سُتْرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ».

يبد أن هذه الطليعة كانت متفاوتة التفكير والمعرفة بتاريخ الإسلام، وفهم أسلوب القرآن، والصبر على مرارة البحث، ومشقة استطلاع الحقائق، فمنهم من تعجل واندفع إلى أحضان النظريات الجديدة وآمن بها دون قيد أو شرط على أنها حقائق ثابتة لاتقبل الجدل، فراح يعتسف الطريق اعتسافاً، ليطبق هذه النظريات على تفسير القرآن ويخضعه لها ويحمله عليها حملاً لاترتضيه لغة العرب التي نزل بها القرآن المبين، ولايحتمله أسلوب القرآن، ولا يتفق مع جوه وروحه، ولا نعرف تفسيراً كاملاً جرى على هذا النهج المتعجل الجماع لكل ماوصل إليه من نظريات مستحدثة لم تستحكم طاقات فتلها سوى تفسير «الجواهر» للشيخ طنطاوي جوهرى، وقد ذاع هذا التفسير وانتشر في بعض بلاد الشرق الإسلامي التي استيقظت من النوم حديثاً، وهي عطشى لاتزال تمسح رمص النوم من عينيها، وتمطى على نفسها من طول ماعاشت تحت كابوس الكسل البليد، والجهل بتاريخ الإسلام وحقائقه العلمية والتشريعية، وما أدخله الغرباء المغتصبون معهم من نظريات علمية تخدمهم وتخدم استغلالهم، وتباعد هؤلاء الأصلاء في أوطانهم الإسلامية عن الإسلام وتاريخه وشرائعه فشغلت تلك البلاد بهذا التفسير، لأنها تخيلته في تصورها المنعكس عليها من حياتها الواقعية أنه هو التفسير لكتاب الإسلام ودستوره القرآن العظيم، وكان لها عذرها لأنها لم تجد من تفاسير الهداية

القرآنية ما يروي غلتها، ويشبع نهمها، ويرضي رغائبها، ويقرب إليها معاني القرآن
بأسلوب سهل ميسر رغيب.

تفسير المنار وبيان منهجه وما يؤخذ عليه^(١)

أما تفسير المنار فهو من وضع الشيخ رشيد رضا صاحب مجلة المنار وتلميذ الأستاذ الشيخ محمد عبده^(٢)، ويمكن أن يكون فيه أفكار وآراء من أفكار الشيخ محمد عبده، استقاها السيد رشيد رضا من دروس أستاذه، وكان أخص تلاميذه به.

وقد صرح السيد رشيد بأنه بعد وفاة الإمام أنه استقل بالتفسير وأدخل عليه كثيراً من المسائل والبحوث، فقال: (وإنني لما استقلت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه رحمه الله تعالى بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنة الصحيحة سواء كان تفسيراً لها أو في حكمها وفي تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة، وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد حاجة المسلمين إلى تحقيقها بما يثبتهم بهداية دينهم في هذا العصر أو يقوي حججهم على خصومهم من الكفار والمبتدعة أو يحل بعض المشكلات التي أعاها حلها بما يطمئن به القلب وتسكن إليه النفس).

وقد أحس السيد رشيد رضا بأن تفسيره أصبح تفسيراً جمعياً كغيره من التفاسير الحاطبة في ليل أو نهار بما أدخله عليه بعد وفاة الإمام من الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتد إليها حاجة المسلمين - كما يقول -، ولا تتصل بتفسير القرآن إلا كما يتصل فن النغم بفن النحو ولذلك نراه يعتذر عن هذه الاستطرادات إذ يقول: وأستحسن للقارئ أن يقرأ الفصول الاستطراذية الطويلة وحدها في غير الوقت الذي يقرأ فيه التفسير لتدبر القرآن والاهتداء به في نفسه، وفي النهوض بإصلاح أمته، وتجديد شباب ملته الذي هو المقصود بالذات منه.

وهو بهذا يكلف القارئ لتفسيره شططاً حتى يستطيع أن يفيد منه شيئاً من الهداية التي هي الهدف الأصيل من تفسير القرآن، على أن هذا الذي يستحسنه للقارئ قد

(١) القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين ص ٢٤٣-٢٤٤.

(٢) انظر البحث الرابع من فصل أخطار المناهج المتحرفة في تفسير القرآن «نماذج من انحراف تفسير أصحاب المدرسة العقلية الحديثة في تفسير القرآن».

يمكن تحقيقه في فصول طوال متميزة بعنوانات خاصة، أما ما أدرج في التفسير من هذه الاستطرادات وهو كثير فلا يمكن تمييزه إلا بتمزيق الاتصالات البيانية في أسلوب التفسير، وبذلك يفوت على القارئ كثير من الفوائد والملايسات.

وتفسير المنار إلى جانب هذا المآخذ الذي اعترف به مؤلفه تظهر فيه العصبية المذهبية فهو شديد الحملة في مسائل فرعية على من يسميهم «المبتدعة» وهذه المسائل اختلف فيها العلماء، ويشدد صاحب المنار فيرفع النزاع فيها إلى درجة الإيمان والكفر، ولو أنه صرف همه إلى تعليم الجاهلين وهداية الضالين بالاعتصار على بيان هداية القرآن لكان في تفسيره خير كثير وقد أساء إلى تفسيره عند كثير من الناس تحمُّسه الشديد لرأيه ومذهبه، مما رفع الثقة به عندهم فيما يقول أو يروي.

وصاحب المنار أقوم بعلم الحديث والسنة دراية ورواية - وهو أصل أصيل في تفسير القرآن - من شيخه الذي يدل ماعرف من منهجه في التفسير أنه كان قليل الرعاية للسنة وعلومها أو كان على مذهب من يرون تفسير القرآن بما يرون من الرأي والاجتهاد في دائرة قواعد اللغة واطراح الأحاديث التي تعجز عقولهم عن فهمها ولو كانت صحيحة الإسناد.

تفسير المراغي وبيان منهجه مع مناقشة بعض تفسيراته^(١)

ولقد كان أمثل من نهج نهج الأستاذ الشيخ محمد عبده - في عمومته - هو الأستاذ الشيخ محمد المراغي شيخ الأزهر، في دروسه التفسيرية الرمضانية التي كان يلقاها - غالباً - في كل أسبوع من أسابيع شهر رمضان المعظم.

كان - رحمه الله - يختار لدروسه آيات من الكتاب الكريم، يفسرها بطريقة هادئة مهدية يعرض إلى مفردات الكلمات في الآيات مبيناً معانيها اللغوية، ثم معانيها القرآنية، ثم يأخذ في بيان معنى الآية ملماً بما فيها من دلائل الهداية عارضاً لها في أسلوب رغب مذهب العبارة نقي الجمل، وقد يعرض عرضاً خفيفاً لمسألة نحوية أو بلاغية حسب ما يحتمله المقام.

وهي دروس أشبه بالمحاضرات العامة، لا تتعمق، ولا تستطرد إلا لحاجة ماسة تدعو إليها ضرورة بيان الحق والنصح للمسلمين «وكان - رحمه الله - شجاعاً في بيان الحق إذا عرض للبيان مناسبة صالحة لا يكره الآيات، ولا يقصرها على استجلاب المعاني، ولكنه يعرض الرأي بعد بيان معنى الآية على أنه استنباط واضح من مدلولاتها التي تقصد من عامة مبادئ الهداية في القرآن، وكان يستهدف النصح في مواجهة من يملكون الإصلاح، أداء لواجب أمانة الحق والعلم.

وذلك كقوله وهو يفسر هذه الآية الكريمة: «وَمِنَ النَّاسِ مَن يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ»^(٢): (من الناس فريق مؤمن بالقرآن إجمالاً وبرسالة محمد ﷺ ويعظمها ويعجلها، فإذا قلت له: لم لا تقطع يد السارق، وتحذ القاذف؟ ولم لا تحكّم القرآن في الحياة ونحن مؤمنون به؟ هز كفيه وابتسم أو زاد إنها رجعية لا يحتملها تمدن العصر الحديث، أليس هذا

(١) القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين ص ٢٤٦-٢٥١/.

(٢) سورة لقمان/ آية ٦/.

استهزاء بالآيات واشتراء للباطل وضلالاً عن سبيل الله؟ هناك مقلدون للمذاهب في العقائد والأحكام إذا عرضت عليهم الآيات الدالة على فساد مذهبهم ولَّوا عنها وإن كانوا لا يسخرون بها بل يسخرون بمن يعرضها، أليس هذا شراء للباطل وبيعاً للحق بغير علم؟).

وكان رحمه الله - يرى تجنيب القرآن للهزات التي استحدثها العلم الحديث بنظرياته، فلا ينبغي في نظره أن ينهج مفسر القرآن منهجاً يحتمل آيات القرآن الدلالة على نظرية علمية لتكون هذه النظرية هي بيان المعنى المقصود من الآية وذلك إذ يقول تحت عنوان «غرور المسلمين بالعقل والفلسفة»: (وجد خلاف بين المسلمين في العقائد والأحكام الفقهية، ووجد مرض آخر هو الغرور بالفلسفة وتأويل القرآن ليرجع إليها وتأويله لبعض النظريات العلمية التي لم يقر قرارها، وذلك خطر عظيم على الكتاب، فإن للفلاسفة أوهاماً لاتزيد على هذيان المصاب بالحمى والنظريات التي لم تستقر لايصح أن يرد إليها كتاب الله).

ولكن يظهر أن الضعف البشري في جميع أفراد البشرية قد جعله الله تعالى برهاناً على تفرد الكمال المطلق.

فالأستاذ المراغي - رحمه الله - إذ يقرر هذا يقرر في تفسير قوله تعالى: ﴿خَلَقَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا وَالْأَرْضَ فِي الْأَزْوَاسِ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ وَبَرٌّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ زَوْجٍ كَرِيمٍ﴾^(١)، أن الكتاب الكريم - القرآن - قرر أن الأرض كانت جزءاً من السموات وانفصلت عنها... وهذا الذي قرره الكتاب الكريم - القرآن - هو الذي دل عليه العلم، وقد قال العلماء: إن حادثاً كونياً جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها، وأن هذه القطعة بعد أن مرت عليها أطوار تكسرت وصارت قطعاً كل قطعة منها صارت سياراً من السيارات. وهذه السيارات طافت حول الشمس وبقيت في قبضة جذبها والأرض واحد من هذه السيارات، فهي بنت الشمس، والشمس هي المركز لكل هذه السيارات، اهـ.

أما أن العلماء قالوا ذلك فلا حرج علينا أن ننظر فيما قالوا، بل يجب علينا أن ننظر فيه ونعلم علمه، ونعرف بقدر ما نستطيع مصادر وموارد مايقوله العلماء.

وأما أن الكتاب الكريم - القرآن - قرر، هكذا بصيغة الجزم والإيمان فهذا ماكان ينبغي للأستاذ أن يتحرز من التصريح الجازم به، لأنه يناقض مبدأ في عدم تأويل القرآن

(١) سورة لقمان: الآية (١٠).

ليرجع إلى بعض النظريات العلمية.

ثم قد يتساءل قارئ هذا الكلام، أين قرر القرآن أن الأرض كانت جزءاً من السموات وانفصلت عنها؟ والمفروض أن المعنى «قرر» أنه نص على ذلك نصاً لا يحتمل التأويل؟ وفي القرآن الحكيم آية واحدة هي التي يتشبه بها أصحاب هذه النظرية الانفصالية، تلك هي قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾^(١)، وهذه الآية قرأها المؤمنون من عهد رسول الله ﷺ وفهمها من فهمها قبل أن تظهر هذه النظرية الانفصالية ومن لم يفهمها لم يسكت على جهله ولكنه سأل أهل الذكر، وفسرها الحبر ابن عباس في رواية صحيحة النقل عنه. روى أبو نعيم عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما؟ فقال له ابن عمر: اذهب إلى ابن عباس فاسأله، ثم تعال أخبرني، فذهب الرجل فسأل ابن عباس، فقال له ابن عباس: كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض لاتبت، ففتقت هذه بالمطر، وهذه بالنبات فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره، فقال ابن عمر: قد كنت أقول ما يعجبني جراءة ابن عباس على تفسير القرآن، فالآن علمت أنه أوتي علماً.

فما الذي يدعو إلى صحة هذا التفسير؟ وما الذي يدعو إلى استبعاد احتمال الآية له، إن لم يكن هو المعنى القريب الاحتمال؟ فلو أن الشيخ رحمه الله قرر أن أسلوب الآية صالح لفهم ما يقرره العلم الصحيح، مع صلاحيته لفهم ما قرره أئمتنا في معنى الآية لكان ذلك أنسب بمقامه العلمي بين أئمة المسلمين، ولكان أنسب برأيه الذي قرره صراحة في تجنيب القرآن التأويل الذي يعرضه للهزات التي استحدثها العلم.

فالقرآن لم يقرر أبداً النظرية الانفصالية بين الشمس والأرض، ولكنه وهو في أفقه الأعلى من براءة البيان المعجز تحدث عن السموات والأرض في صدد بيان جلال القدرة الإلهية حديثاً صبه في إطار لا يناقض علماً ثبت أو يثبت ثبوتاً لا يخالبه ريب، ولا تتوارد عليه الشبه والشكوك، على أن المتتبع لحديث القرآن عن السموات والأرض يراه يذكر الأرض في مقابلة السموات بصورة قد تدل بفحواها - إن لم يكن بظاهرها - على استقلال الأرض في خلقها كوكباً تعيش عليه الحياة الخاصة به بمن عليه وما عليه وما فيه من الموجودات، بل إن القرآن ينفسح لأكثر من هذه في دلالة ظاهرة على استقلال خلق الأرض عن السموات، فهو يقول في سورة «فصلت»: ﴿قُلْ إِنَّا نَحْنُ الْغَفَّارُونَ بِالَّذِي

(١) سورة الأنبياء: الآية (٣٠).

خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَندَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ. وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلنَّاسِ لِيْنِ. ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ^(١).

فهذه الآيات الكريمة ظاهرة الدلالة على أن الأرض خلقت خلقاً مستقلاً عن السموات، وجعلت فيها الجبال الرواسي لحفظها أن تميد فتختل الحياة فوقها، وأن الله بارك فيها بما شاء من أنواع البركة في إعدادها ونهيتها للحياة، وأنه قدر فيها أقواتها، وأنه سبحانه وتعالى حدد لذلك الخلق مع مايتبعه مما ذكر ربنا تبارك وتعالى أوقاتاً خاصة معينة عنده مقربة لعقولنا بما نعرف ونألف.

ثم ذكر ربنا تبارك وتعالى السموات ذكراً مستقلاً بحرف يفيد عند أهل اللغة الوجود المتراخي لتقريب مراتب الخلق لعقول الخلق التي لاتدرك إلا ما عرفت وما ألقت وما يصح قياسه على المعروف لها المألوف - وشأن الله أعظم من مدركات العقول - وأخبرنا أن السموات كانت دخاناً فخطبت - كما شاء رب العالمين في خطابه لأصناف خلقه - هي والأرض معاً، ثم ذكر أنه أحكم خلق السموات وأكملها سبعاً من العنصر الذي أخبر أنها كانت عليه وهو الدخان وأنه خص السماء الدنيا التي هي أقرب السموات في ترتيبها الذي اقتضته إرادته ومشيته بزيينة المصابيح من اللوامع، وجعل فيها شهباً لحفظها، ثم أثنى على نفسه بما هو أنسب صفاته وأسمائه بهذا المقام فقال جل شأنه: ﴿ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ وكلمة ﴿تَقْدِيرُ﴾ في هذا المقام لاتوجد كلمة تؤدي المقصود منها غيرها، والاسمان الكريمان ﴿الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ هما منبع الفيض بما اشتملت عليه الآيات من معان متزلة من خزائن القهر والجود.

على أنه لاذكر في القرآن الكريم للشمس باعتبارها السماء التي انفصلت عنها الأرض - كما يقول العلم في نظريته - بل المذكور السخوات بعنوانها ومفهومها الشرعي الذي لايفهم منه إرادة الشمس إلا بضرب متعسف من التأويل، والشمس في القرآن الكريم تذكر مقابلة للقمر وقرينة له باعتبارهما كوكبين مغايرين للسموات بمفهومها الشرعي.

(١) سورة فصلت: الآيات (٩-١٢).

فنظرية انفصال الأرض عن الشمس لم يقرها القرآن الحكيم، فلا تصلح تفسيراً لآياته على أنه هو المعنى الذي يتحتم في فهم تعبير البيان القرآني.

ولو أن الناظرين في هداية القرآن أمعنوا النظر في مقاصد هذه الهداية لوجدوا أن تفسير رتق السموات والأرض وفتحهما بما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، وتلقاه الأئمة بالرضا والقبول، أقرب إلى تحقيق تلك المقاصد، لأنه المعنى الذي يفهمه كل من يتجه إليه بنظر الحس والعقل من عامة الناس وخاصتهم.

وتفسير آية رتق السموات والأرض الانفصال الشمسي التي قال بها العلم المستحدث بعيد عن مقاصد الهداية القرآنية، لا يفهمه من أسلوب البيان القرآني إلا من قصده متأولاً، ولا يفهمه علمياً إلا أخص الخاصة من العلماء الكونيين، والقرآن لم ينزل بهديته لهؤلاء العلمانيين وحدهم، وإنما نزل لهداية كافة البشرية على مستويات عقولهم وثقافتهم.

وقد استكمل الأستاذ الشيخ المراغي تفسير بعض السور، كسورة لقمان، وسورة الحجرات، وسورة الحديد، وسورة العصر، وفسر آيات متفرقات من سور متعددة، وكان من غير شك بعيد النظر فيما حاضره عند إرادته لإخراجه للناس كتباً ورسائل مطبوعة لتقرأ على مكث وتدبر فهي مأمونة الجانب أن تنالها السرعة فالآراء التي فيها محسوبة في مذهب الأستاذ في فهم القرآن الحكيم.

ولو أتيح للأستاذ الشيخ المراغي تفسير القرآن العظيم كله تفسيراً كاملاً على نهجه الذي سلكه لكان للناس اليوم منه تفسير يرضي الكثير من رغائبهم ويسد مكاناً من الفراغ الذي يشعر به المسلمون نحو تفسير كتابهم الكريم ودستور هدايتهم القرآن العظيم.

مناقشة علمية لتفسير الشيخ محمد عبده سورة «الفيل»^(١)

ولقد كان الأستاذ الشيخ محمد عبده حذراً في لباقة عندما عرض لمثل هذا التأويل العلمي في بعض آيات القرآن فنراه في تفسير سورة «الفيل» يجمل معنى آياتها في عبارة موجزة تصور ما في السورة من هداية وعظة، ثم يقول: وكان يمكننا أن نكتفي بذلك المعنى من الآيات، ولا نزيد عليه أدنى تفصيل، وهو كاف في الاعتبار والعظة. وليته فعل وسكت عند هذا، ولكنه تابع الكلام، وذكر ما قال إنه تواتر من الواقعة إلى أن قال: وفي اليوم الثاني أي لخروج أهل مكة فزعين إلى شسف الجبال بعد ما بلغهم خبر جيش الفيل، فشا في جند الحبشي داء الجدري والحصبة وذكر رواية عكرمة في قوله: وهو أول جدري ظهر ببلاد العرب، ثم ذكر قول يعقوب بن عتبة إن أول مارؤيت الحصبة والجدري ببلاد العرب ذلك العام.

ثم عقب على ذلك بقوله: هذا ما اتفقت عليه الروايات ويصح الاعتقاد به، وقد بينت لنا هذه السورة الكريمة أن ذلك الجدري، أو تلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله مع الريح. فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم بعض الأمراض... وأن كثيراً من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جند-الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن (بالمكروب) لا يخرج عنها، اهـ ملخصاً.

وحديث الجدري والحصبة في هذا المقام حديث مقحم متهافت، ماكان ينبغي أن يعول عليه مثل الشيخ في تفسير القرآن الحكيم في سورة يبدؤها الله بصيغة التعجب والتعظيم لصنعه بما أنزله بهؤلاء الطغاة الجبابرة مقدمة لمبعث نبيه ﷺ.

(١) القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين / لمحمد الصادق عرجون / ص ٢٥١ - ٢٥٧ / ط دار القلم: دمشق - الدار الشامية: بيروت / .

وقد عرض بيان تهافت هذا الرأي ابن الأثير في تاريخه الكامل فقال: وقال كثير من أهل السير: إن الحصبة والجدرى مارؤيا في العرب بعد الفيل، وهذا مما لا ينبغي أن يعرج عليه... فإن هذه الأمراض... قبل الفيل مذ خلق الله العالم.

وقول الشيخ بعد أن ذكر حديث الجدرى والحصبة: هذا ما انفقت عليه الروايات غريب في باب العلم، وعجيب في تفسير القرآن، لأن الروايات لم تتفق على هذا، بل ذكرت بعض الروايات أن هذه الطير كانت أشبه ماتكون بالطير المسمى بالخطاف، وهو طائر من طيور الليل، وبعض الروايات ذكر أنها أشبه بالوطايط، وبعضها ذكر أشبه باليعاسيب، وهي ذكور النحل وأمراؤها، وقد أقبلت من جهة البحر في جماعات إثر جماعات، تحمل في مناقيرها وأرجلها حجارة صغيرة في حجم الحمصة، أو حصى كحصى الخذف، فألقتها على الجيش الظالم فتساقط هلاكاً وفناء، فأى محال يترتب على تجويز ذلك، وبه تبقى السورة على ظاهرها، ويبقى الحادث على وضعه الإعجازي إرهاباً للنوبة الخاتمة؟ وقد قال الحافظ ابن كثير في تفسيره بعد ذكر بعض الروايات: وهذه أسانيد صحيحة.

أو ليس هذا أقرب إلى الأسلوب العربي من حديث الجدرى والحصبة والذباب والبعوض والمكروب؟ وهل في عرف اللغة العربية واستعمالاتها إطلاق لفظ (الطير) على الحيوان المسمى بـ «المكروب» وهل كان القوم المخاطبون في وقت المواجهة بالخطاب التعجيبى الذي افتتحت به السورة يعلمون شيئاً عن هذا الحيوان المسمى بـ «المكروب».

وقول الشيخ: وقد بينت السورة الكريمة أن ذلك الجدرى وتلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة، إغراق في الغربة عن العلم، وإيغال في العجب أن يكون في تفسير القرآن، وأين تعرضت السورة الكريمة لذكر الجدرى والحصبة، بله بينت إنهما من حجارة يابسة، والسورة بين دفتي المصحف كاملة، كما أنزلت يتلوها الناس، ويقرؤها القراء من حفظة القرآن وليس فيها إشارة من بعيد أو قريب إلى الجدرى والحصبة.

وقد فرع الشيخ على ما فرضه واقعاً من حديث الجدرى والحصبة أنه يجوز لمن يريد فهم معاني القرآن ليؤمن بها أن يعتقد أن هذا الطير الذي أرسله الله على أصحاب الفيل من جنس البعوض أو الذباب الذي يحمل جراثيم الأمراض، وأن هذا الحيوان الذي يسمى بـ «المكروب» من هذه الطير.

أليس هذا تحميلاً لآيات القرآن فوق طاقة أساليب العربية، وفوق طاقة أفهام من

نزل القرآن لتعجيبيهم من شأن هذه الحادثة المبدعة إرهاباً لمقدم بعثة خاتم النبيين محمد ﷺ؟

لقد كان حديث الجدري والحصبة على تهافته أيسر أمراً من حديث «المكروب» وأنه من الطير الذي أرسله الله على جيش الفيل، وهو ضرب من التعسف في التأويل المتملق لنظريات العلم المستحدثة، وهو مذهب لكثير من المجددين في تفسير القرآن، والمتسورين على تبين مفاهيم الإسلام الذين يرفضون قبول الخوارق المادية، سواء أكانت إرهاباً قبل النبوة أو معجزات بعد الرسالة.

والأستاذ الشيخ محمد عبده يسلك هذه الطريقة التي تبدأ ببيان الهداية القرآنية في الآيات بياناً لا يستطرد ولا يتعسف التأويل، ثم يبدو له أن يتولج إلى مداخل التأويل الذي يبعده عن اختياره لمذهب السلف، ولكنه لا يلقى به مع الخلف في الوصول إلى نتائج مذهبهم.

ويستبين ذلك بصورة واضحة في تفسيره - الذي نلخصه من تفسير تلميذه صاحب المنار، وقد أسنده إليه صراحة - لآيات قصة آدم، وجعله خليفة، وحوار الملائكة في هذه القصة، وأمرهم بالسجود لآدم، وإباء إبليس عن ذلك الأمر الإلهي استكباراً وعتواً.

فبعد أن ذكر الشيخ مذهب السلف والخلف في التشابهات، وذكر أن آيات هذه القصة منها، ولا يمكن حملها على ظاهرها، وصرح بأنه على مذهب السلف في وجوب التسليم والتفويض فيما يتعلق بصفات الله تعالى وعالم الغيب، ذكر رأي السلف والخلف في حقيقة الملائكة بعبارة مبسطة وافية.. إلى أن قال: الملائكة خلق غيبي، لانعرف حقيقته، وإنما نؤمن بإخبار الله تعالى الذي نقف عنده ولا نزيد عليه، والقرآن ناطق بأن الملائكة أصناف، لكل صنف وظيفة وعمل، وأن إلهام الخير والوسوسة بالشر قد أسند إلى هذه العوالم الغيبية، وخواطر الخير التي تسمى إلهاماً وخواطر الشر التي تسمى وسوسة كل منهما محلله الروح، فالملائكة والشياطين إذن أرواح تتصل بأرواح الناس.

وهذا - لو وقف عنده الشيخ - كان كافياً في بيان الهداية القرآنية التي تفسر الآيات في هذه القصة في ظلها، لكن الشيخ تابع السير، فقال: وذهب بعض المفسرين مذهباً آخر في فهم معنى الملائكة، وهو أن مجموع ماورد في الملائكة في كونهم موكلين بالأعمال من إنماء ونبات وخلق حيوان وحفظ إنسان وغير ذلك فيه إيماء إلى الخاصة بما هو أدق من ظاهر العبارة، وهو أن هذا النمو في النبات لم يكن إلا بروح خاص

نفخه الله في البذرة فكانت به هذه الحياة النباتية المخصوصة، وكذلك يقال في الحيوان والإنسان، فكل أمر كلي قائم بنظام مخصوص تمت به الحكمة الإلهية في إيجاده فإنما قوامه بروح إلهي، سمي في لسان الشرع ملكاً، ومن لم يبال في التسمية بالتوقيف يسمى هذه المعاني القوى الطبيعية إذا كان لا يعرف من عالم الإمكان إلا ما هو طبيعة أو قوة يظهر أثرها في الطبيعة...

إلى أن يقول الشيخ: فإذا صح الجري على هذا التفسير فلا يستبعد أن تكون الإشارة في الآية إلى أن الله تعالى لما خلق الأرض ودبرها بما شاء من القوى الروحانية التي بها قوامها ونظامها، وجعل كل صنف من القوى مخصوصاً بنوع من أنواع المخلوقات لا يتعداه ولا يتعدى ما حدد له من الأثر الذي خص به، خلق الإنسان وأعطاه قوة يكون بها مستعداً للتصرف بجميع هذه القوى وتسخيرها في عمارة الأرض. وعبر عن تسخير هذه القوى له بالسجود الذي يفيد معنى الخضوع والتسخير، وجعله بهذا الاستعداد الذي لاحد له والتصرف الذي لم يعط لغيره خليفة الله في أرضه، لأنه أكمل الموجودات في هذه الأرض، واستثنى من هذه القوى قوة واحدة عبر عنها بإبليس، وهي القوة التي لزمها الله بهذا العالم لزا، وهي التي تميل بالمستعد للكمال أو بالكمال إلى النقص، وتعارض مد الوجود لترده إلى العدم... ثم قال الشيخ: ولو أن نفساً مالت إلى قبول هذا التأويل لم تجد في الدين ما يمنعها من ذلك.

وقد أحس صاحب تفسير المنار بما في هذا الكلام من غموض وإبهام وعدول عن سنن السلف الذي اختاره الشيخ مذنباً له في المتشابه من الآيات وجعل منه آيات هذه القصة فأراد أن يعتذر عن الشيخ ويذكر سبباً لذلك، وساق كلاماً قال: إن الشيخ كتبه بنصه وحروفه، وهو كلام يزيد الغموض غموضاً والإبهام إبهاماً، وقد عقب عليه بقوله: هذا ما كتبه شيخنا في توضيح كلامه في تقريب ما يفهمه علماء الكائنات من لفظ القوى إلى ما يفهمه علماء الشرع من لفظ الملائكة، ولا يفقه من هؤلاء إلا من له الإمام بما يقوله أولئك في القوى، وإسناد كل أحداث الكائنات وتطوراتها إليها مع اعترافهم بجهل كنهها... إلخ.

ونحن نتساءل: هل كان العرب الذين نزل القرآن بلسانهم يفهمون من أسلوبه وعباراته هذه المعاني التي ذهب إليها الشيخ في كلامه؟ وهل كان الصحابة رضوان الله عليهم يعلمون هذا العلم ونشروه على الناس في تبليغهم رسالة نبيهم ﷺ؟ أو كانوا يعلمونه وكتموه عنهم؟ أو كانوا لا يعلمونه ولا تلقوه من رسول الله ﷺ في بيانه للقرآن الكريم؟ وهل هذا الكلام يتفق مع ما ورد في السنة الصحيحة من شأن الملائكة، وشأن

آدم وقصته مع إبليس وشأن إبليس وذريته؟

إن الباطنية المحرفين لكلمات الله عن مواضعها لم يدخلوا إلى تأويلاتهم إلا من هذا الباب الذي يجعل من كل كلام يتعاصى فهمه على بعض العقول تمثيلاً وحقيقة له، وإيماء إلى معان أدق من ظاهر العبارات.

وهل تسور المتحمسون لنظريات العلم المستحدثة في هذا العصر على آيات القرآن يحرفونها عن مقاصد الهداية إلى تحميلها مقاصد معان تخضعها لتطبيق تلك النظريات التي لاتزال في مهب الرياح إلا من طريق التعسف في التأويل؟

إن هذا القرآن العظيم أنزله الله تعالى على خاتم أنبيائه محمد ﷺ بلسان عربي مبين هدى للناس وبينات ورحمة، ولم ينزل بالإشارات والرموز، والإيحاء، وأنزل فيه - كما أخبر الله تعالى - آيات محكمات هن معظمه وجماعه كما قال الطبري: أحكمت بالبيان والتفصيل، وأثبتت حججهن وأدلتهن على ما جعلن أدلة عليه من حلال وحرام، ووعد ووعيد، وثواب وعقاب، وأمر وزجر، وخبر ومثل، وعظة وعبر.

كما أنزل فيه آيات متشابهات، وهي كل مالا حاجة إلى العباد بمعرفته، لأنه مما استأثر الله بعلم حقيقته ووقته، وإنما أنزله الله امتحاناً لعبودية خلقه، وتمييزاً لأهل المعرفة بجلال الله الذين يسلمون وجوههم لله تعالى لائذين بساحة الإيمان يقولون معبرين عن تسليمهم: آمنا بالمحكم والمتشابه كل من عند ربنا، نعلم ما علمنا ونقف على سدة الأدب رادين علم مالم نعلم إلى علام الغيوب.

وإظهاراً لحقيقة من في قلوبهم زيغ وانحراف عن هداية القرآن الذين يتبعون مالا حاجة إليهم بمعرفته ليلبسوا على المؤمنين دينهم تضليلاً لهم وميلاً بهم عن مهيع الحق إلى طرائق الفتنة والتشكيك.

قال الطبري: إن جميع ما أنزل الله عز وجل من أي القرآن على رسوله ﷺ فإنما أنزله عليه بياناً له ولأمته وهدى للعالمين، وغير جائز أن يكون فيه مالا حاجة بهم إليه، ولا أن يكون فيه ما بهم إليه الحاجة ثم لا يكون لهم إلى علم تأويله سبيل.

الإعجاز العلمي ودلالته في تفسير القرآن الكريم^(١)

ولا نقصد بالفهم العلمي ما ذهب إليه بعض القدامى من المفسرين، كالذي يحكيه السيوطي في كتابه «الإتقان» عن أبي الفضل المرسي في تفسيره إذ يقول: جمع القرآن علوم الأولين والآخرين... وقد احتوى على علوم أخرى من علوم الأوائل مثل: الطب، والجدل، والهيئة، والهندسة، والجبر، والمقابلة، والنجامة، إلى أن يقول: وفيه - أي القرآن - أصول الصنائع، وأسماء الآلات... كالخياطة... والحدادة... والنجارة... والغزل... والنسج... والفلاحة... والصيد... والغوص... والصياغة... والزجاجة... والفخارة... والملاحة... والكتابة... والخبز... والطبخ... والقصارة... والجزارة... والبيع والشراء... والصبغ... والحجارة... والكيالة... والوزن... والرمي... وفيه من أسماء الآلات ضروب والمأكولات والمشروبات... وجميع ما وقع ويقع في الكائنات ما يحقق معنى قوله: ﴿مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾.

وهذا منهج في التفسير غريب جداً عن مقصد القرآن وهدايته، لأن هذه العلوم والفنون، والصنائع والآلات التي عرض لذكرها هذا المفسر وجعلها من العلوم التي احتواها القرآن، لم يكن المقصود من ورودها في القرآن وروداً عابراً اقتضاه المقام في ذكر قصة أو عظة وعبرة، أو الإشارة إليها في آيات القرآن، أنها علوم ومعارف وفنون أنزل القرآن بمسائلها وقضاياها وموضوعاتها لتبحث في تفسيره كما تبحث في مصانعها ومعاملها بالآتها ووسائلها التجريبية الخاصة، لأن ذلك مما لا ينبغي أن يكون مما يعرض له القرآن، لأن القرآن لم ينزله الله كتاب فن وصناعة وإنما أنزل هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان.

وقد سلك نحو هذا المسلك في الإشارة إلى جمع القرآن للعلوم مع اختلاف

(١) القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين / لمحمد الصادق عرجون ص ٢٦٥ - ٢٧٤ / ط دار القلم: دمشق - الدار الشامية: بيروت.

الأسلوب الإمام أبو حامد الغزالي، فذكر في كتابه «إحياء العلوم» أن القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم، وماتني علم، ثم فصل في كتاب «جواهر القرآن» ما أجمله في «الإحياء» فذكر من العلوم التي احتواها القرآن: علم الطب، والنجوم، وهيئة العالم، وهيئة بدن الحيوان، وتشرح أعضائه، وعلم السحر، وعلم الطلسمات... ثم ذكر بعض الآيات التي تشير إلى بعض الحقائق الكونية في صدد الاستدلال على عظمة ملك الله وباهر قدرته وبالف حكمته، وبين أن فهمها، وبيان ما فيها من دلالة على مقصودها لا يقوم به إلا من فهم العلم الذي تشير إليه، فذكر الشفاء والمرض في قوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾، وقال: فهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكماله وعلاماته، ومعرفة الشفاء وأسبابه، ثم قال: ومن معرفة الله تعالى تقدير معرفة الشمس والقمر ومنازلهما بحسبان، وقد قال تعالى: ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾، وقال تعالى: ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾، وقال: ﴿وَحَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾، وقال: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُؤَلِّجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾، وقال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾. ولا يعرف حقيقة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما، ولولج الليل في النهار، وكيفية تكرر أحدهما على الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض، وهو علم برأسه، ولا يعرف كمال معنى قوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾، إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطناً، وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها.

وهذا المسلك إذا نظر إليه في ضوء الهداية القرآنية - التي تستهدف بيان مقاصد القرآن في الكشف عن الحقائق الكونية لتبين دالاتها على عظمة خالقها ووحدانيته، وباهر قدرته، وبالف حكمته، ومحكم تدبيره لملكوته - كان مسلكاً علمياً صحيحاً في تفسير القرآن، على معنى أن من يتعرض لتفسير القرآن يجب أن يكون متضلعا من العلوم الشرعية أصولاً وفروعاً، ومن الفنون العربية بجميع ضروبها المختلفة، وأن يكون متشعباً من العلوم الكونية، ملماً بحقائقها، ليستطيع في ظلها وظل العلوم الشرعية والعربية أن يتبين معالم الهداية القرآنية في إقامة الحجة على مقاصد القرآن، فسيبل هذه العلوم الكونية في تفسير القرآن سبيل غيرها من الوسائل التي تساعد على فهم النص القرآني فهماً يحقق الغرض منه.

وليس سبيلها أن تكون بنظرياتها تفسيراً للقرآن، ولا أن تكون مما يُعتقد أن القرآن

قصد إليها في آياته لتحمل عليها في تفسيرها، وهذا هو ما يظهر أنه مقصود الإمام الغزالي كما يدل عليه قوله تعقياً على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾ وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله، وهكذا في تعقيباته على سائر ماساقه من الآيات الكونية.

وقد جاء بعد الغزالي الإمام فخر الدين الرازي فحاول أن يطبق هذا المنهج العلمي في تفسيره، غير أنه بالغ في الإيمان بنظريات العلم الكوني الذي عرفه العقل البشري في عصره مبالغاً طمست معالم الهداية القرآنية، وصرفت الآيات عن مقاصدها في الهواية إلى التوغل في بحوث علمية جافة، ونظريات فلسفية معقدة.

فأنت تراه في تفسير قوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فَرَاشًا﴾ يذكر كلاماً، يؤمن به ويعتقده، في الدلالة على كون الأرض فراشاً للخلق لاتسلمه له النظريات المستحدثة، فهذه النظريات انتهت إلى بداهة أن الأرض متحركة بدورانها حول الشمس، فهو يقول: اعلم أن كون الأرض فراشاً مشروط بأمور، الشرط الأول كونها ساكنة، وذلك لأنها لو كانت متحركة لكانت حركتها إما بالاستقامة أو بالاستدارة، فإن كانت بالاستقامة لما كانت فراشاً لنا على الإطلاق، لأن من طفر من موضع عالٍ كان يجب أن لا يصل إلى الأرض، لأن الأرض هاوية، وذلك الإنسان هاوٍ، والأرض أثقل من الإنسان، والثقلان إذا نزلا كان أثقلهما أسرعهما والأبطأ لا يلحق الأسرع، فكان يجب أن لا يصل الإنسان إلى الأرض، فثبت أنها لو كانت هاوية لما كانت فراشاً.

أما لو كانت حركتها بالاستدارة لم يكتمل انتفاعنا بها، لأن حركة الأرض مثلاً إذا كانت إلى المشرق، والإنسان يريد أن يتحرك إلى جانب المغرب، ولا شك أن حركة الأرض أسرع فكان يجب أن يبقى الإنسان على مكانه وأنه لا يمكنه الوصول إلى حيث يريد، فلما أمكنه ذلك علمنا أن الأرض غير متحركة لا بالاستقامة ولا بالاستدارة فهي ساكنة.

ثم ذهب يذكر سبب هذا السكون الذي زعم أنه قد تم له البرهنة عليه فأطال رشاء القول، وذهب فيه كل مذهب إلا مذهب الإبانة عن هداية القرآن في آيات الله الكونية.

ثم عاد الرازي إلى منهجه وأسلوبه في تطبيق النظريات العلمية في عصره على تفسير آيات القرآن فكتب في تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ﴾، نحو خمس وعشرين

صفحة من الحجم الكبير في فصول، الأول منها (في ترتيب الأفلاك) والثاني (في معرفة الأفلاك) والثالث (في مقادير الحركات) والرابع (في كيفية الاستدلال بهذه الأحوال على وجود الصانع) وهذه الفصول في أحوال السموات فقط، وقد ذكر أنه كتب ذلك في الوجه المختصر الذي يليق بهذا الموضوع، ثم رجع إلى الأرض وذكر في أحوالها فصلاً وفي بيان دلالة هذه الأحوال على وجود الصانع فصلاً آخر. وهكذا أتخم الرازي كتابه بنظريات العلم الذي ملأ عصره وجعل هذه النظريات تفسيراً لكتاب الله تعالى، وقد نقض العلم نفسه تلك النظريات بنظريات أخرى قد ينقضها في المستقبل القريب أو البعيد.

هذا المنزع الذي نزع به طائفة من العلماء في تفسير القرآن بإدخال نظريات العلم التي هي نتاج تفكير بشري على مناهج التفسير، وتحكيم تلك النظريات في معاني القرآن حمل طائفة من العلماء القدامى والمحدثين على الوقوف في مقابلة أولئك، زاعمين أنه لا ينبغي مطلقاً أن تدخل نظريات العلم ساحة تفسير القرآن بل لا ينبغي أن يستعان بشيء من هذه النظريات على تبين معاني القرآن.

وأظهر من يمثل هذا الطرف الإمام الشاطبي صاحب كتاب «الموافقات» فإنه رحمه الله ذهب مذهباً عجيباً لا يلائم منصبه في العلم وحرية التفكير، ونباهة الذكر، يذهب الإمام الشاطبي إلى أن شريعة الإسلام شريعة أمية، لأن أهلها كذلك، وهذا أجرى وأوفق باعتبار المصالح التي يقصدها الشارع من التشريع. ثم راح «الشاطبي» يسوق الأدلة من الكتاب والسنة على مازعمه من أن الشريعة الإسلامية شريعة أمية، لا تقوم على العلم بأوسع معانيه، ولا على التفكير العقلي بأبلغ مراميهِ، وساق الآيات والأحاديث التي جاءت لإثبات أمية النبي ﷺ تحقيقاً لمعجزة القرآن الكريم وإظهاراً لدلالته على صدق رسالة من أرسل به محمد خاتم النبيين، والتي جاءت للتنبيه على واقع الأمة العربية في أنها أمة أمية لم تكن تعرف العلم بالتعلم والمدارس والكتابات والقراءة، وأنها اختبرت على وصفها هذا الحمل أعظم رسالة سماوية تؤاخي العقل وتظاهر العلم، وتحمل أمانة خلافة الله في الأرض بإقامة معالم التفكير الإنساني ودفع العقل إلى مجالات الفتوحات العلمية في ميادين الوجود السماوية والأرضية، وذلك أثبت في إثبات معجزة القرآن وشريعته.

وموقف الشاطبي في هذه القضية متهافت لا يقوم على دعائم من الأصول القوية التي تسنده، إذ لا دخل أبداً لأمية النبي ﷺ التي فسرها العلماء بأنه ﷺ كان لا يكتب ولا يقرأ، وأنه لم يجلس إلى العلماء لمدرسة العلم عن الكتب والصحف، كما يشير إلى ذلك ماساقه الشاطبي نفسه في أدلته من نحو قوله تعالى: ﴿فَأَمَّاؤا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ

النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ^(١) ، وقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتَ تَتْلُو مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ بِيَمِينِكَ إِذَا لَارْتَابَ الْمُبِطِلُونَ﴾^(٢) .

ويسوق الشاطبي دليلاً عقلياً على مُدَّعَاهُ، وهذا الدليل عند التأمل عليه لا له، فيقول: إن الشريعة التي بعث بها النبي الأمي ﷺ إلى العرب خصوصاً وإلى من سواهم عموماً إما أن تكون على نسبة ماهم عليه من وصف الأمية أو لا تكون كذلك، فإن كانت على نسبة ماهم عليه من الأمية فهو معنى كونها شريعة أمية، أي منسوبة إلى الأميين، وإن لم تكن على نسبة ماهم عليه من الأمية لزم أن تكون على غير ماعهدوا، فلم تكن لتنزل من أنفسهم منزلة ماتعهد، وذلك خلاف ماوضع عليه الأمر فيها، فلا بد أن تكون على ماعهدون، والعرب لم تعهد إلا ماوصفها الله من الأمية فالشريعة إذاً أمية.

ونحن حين نناقش هذا الدليل نعكسه على الشيخ الإمام الشاطبي، فنقول: إن الشريعة التي بعث بها النبي ﷺ إلى الناس كافة، وفيهم العرب الأميون إيماناً أن تكون على نسبة ماكان وتكون عليه عامة الإنسانية كلها في أممها وشعوبها من العلم والمعرفة الحاصلة والمتجددة إلى يوم القيامة أو لا تكون كذلك، فإن كانت على نسبة ماعليه الإنسانية المبعوث إليها رسول الله ﷺ من حصائل الفكر الإنساني في العلم والمعرفة، ومايكون لها في مستقبل حياتها من التفكير العلمي المستكشف لحقائق الكون وأسرار الطبيعة وذلك هو معنى كونها شريعة علمية أي منسوبة إلى العلم والمعرفة، على معنى أن كتابها الذي هو دستورها الأعظم فتح للعقل الإنساني مجالات البحث والتفكير، وحث على العلم والمعرفة بمالم يبلغه كتاب سواه.

وإن لم تكن شريعة الإسلام على نسبة ماعليه الإنسانية ومايكون لها في مستقبل حياتها من العلم والمعرفة لزم أن تكون هذه الشريعة على غير ماتعهد الإنسانية وماتعرف من تاريخها العلمي وأطوارها الفكرية في المعرفة، فلم تكن لتنزل من أنفس الأمم والشعوب العالمة التي تعنى بالمعرفة وحصيلة الفكر الإنساني المتجددة منزلة ماعهدوا، وذلك خلاف ما جاءت به الشريعة ووضع عليه أمرها، فلا بد أن تكون على ماتعهد الإنسانية وتعرف من واقعها وتاريخها العلمي، فالشريعة إذاً علمية، لا تنقف أبداً دون البحث العلمي، ولاتأبى أن تؤاخي العلم والمعرفة، وهي بهذا تنافي الأمية في طبيعتها

(١) سورة الأعراف: الآية (١٥٨).

(٢) سورة العنكبوت: الآية (٤٨).

وحقيقتها، وأمية نبيها ﷺ مفخرة لها ومعجزة لنبيها وكتابها، وأمية العرب واقع تاريخي تحدث عنه النبي ﷺ في صدد بيان حكم الشرعي يتعلق بعمامة من كان في عصره مؤمناً برسالته، وهم جمهور العرب الذين كانوا أميين لا يقرءون ولا يحسبون، ولم يكن الإسلام قد امتد إلى الأمم التي تقرأ وتحسب، وهي بلا شك لو وصلت إليها الدعوة لم يُحكم عليها بالأمية التي هي واقع العرب في وقت نزول الشريعة، والأحكام الشرعية تناط بأعم الوسائل المحققة عند كافة الخلق، لأن التشريع للكافة لا للخاصة.

ثم ذكر الإمام الشاطبي دليلاً آخر على أن القرآن نزل على ما يعهد العرب فقال: لو لم يكن - القرآن - على ما يعهدون لم يكن عندهم معجزاً، ولكانوا يخرجون عن مقتضى التعجيز بقولهم: هذا على غير ما عهدنا إذ ليس بمفهوم ولا معروف فلم تقم الحجة عليهم به ولذلك قال سبحانه: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَأَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ﴾ فجعل الحجة على فرض كون القرآن أعجمياً، ولما قالوا: ﴿إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ﴾ رد الله عليهم بقوله: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ لكنهم أذعنوا لظهور الحجة، فدل ذلك لعلمهم به وعهدهم بمثله مع العجز عن مماثلته.

وهذا الدليل أيضاً يُعكس على الإمام الشاطبي، فلنقاتل أن يقول: لو لم يكن القرآن في هدايته العامة الشاملة لجميع ما يقوم بحاجة الإنسانية الفكرية والاجتماعية قياماً عاماً باقياً ببقاء رسالته على الأرض على ماتعهد الإنسانية كلها باعتبارها مدعوة للإيمان برسالة القرآن من العلم والمعرفة الشاملين لجميع فنونهما لم يكن عندهم معجزاً، ولكان كثير من الأمم والشعوب يخرجون عن مقتضى التعجيز بقولهم: هذا القرآن على غير ما عهدنا ونعهد، فأسلوبه وألفاظه وعباراته ليست من أسلوبنا وألفاظنا وعبارتنا، فليس لنا بأسلوبه وألفاظه وعباراته عهد ولا معرفة، ومعانيه وأفكاره قاصرة على ما يعهد الأميون من المعاني والأفكار المعهودة لهم، وليس فيه مما نعهد من المعاني الفكرية والأفكار العلمية شيء، فلا تلزمنا الحجة به.

وماساقه الإمام الشاطبي من الآيات خاص بأسلوب القرآن وعباراته وألفاظه، والمراد بها الاحتجاج على العرب بأن التحدي وقع بكتاب عربي مبين، فلو نزل بأسلوب وعبارات غير عربية لقالوا دفعاً لحجته عليهم: لولا أنزل بلساننا وعبارتنا، فإذعانهم لحجته إنما كان باعتبار الأسلوب والألفاظ والعبارة، لا باعتبار معانيه وفنون هدايته وأفكاره وعلومه ومعارفه، لأن كثيراً من هذه المعاني والأفكار لم يكن من معهود العرب ومعارفهم.

وللإمام الشاطبي بعض العذر في وقوفه في الطرف المقابل لخط القائلين بأن القرآن جمع علوم الأولين والآخرين فجاء فيه الطب والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة والصنائع التي تتغير وتتطور بتغير التفكير وتطور الحياة، وكان هذا من غير شك إغراقاً في تحميل القرآن مالم يقصد إليه، ولذلك نجد الشاطبي يصرح بذلك فيقول: إن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق وعلم الحروف وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها.

معنى الإعجاز العلمي في الإشارات القرآنية للحقائق الكونية:

وقضية موقف القرآن العظيم من العلم قديمة وحديثة، ونظرياته وفنونه وأصوله وفروعه، وقضاياه ومسائله، يجب ألا ينظر إليها بهذه النظرة التي ذهب إليها المتحمسون الذين جعلوا القرآن كتاباً يحتوي على مسائل العلوم الطبيعية والنظريات التجريبية والحرف والصناعات مما ذكره.

كما يجب ألا ينظر إليها بهذه النظرة التي تقف بالقرآن في هدايته ومعانيه عند معهود العرب الأميين، وإنما يجب أن يجري النظر فيها على أساس أن القرآن كتاب هداية ودعوة إلى الله الواحد الأحد، الخالق المبدع، القادر الحكيم، الذي أحاط بكل شيء علماً، وأنه أنزل من عند الله بشريعته خاتمة للشرائع الإلهية، قائمة على نظام شامل للحياة يعتمد على العدل والرحمة.

وقد اقتضت دعوة القرآن وهدايته أن تكون حجته عقلية، تقوم على النظر في الكون وآياته في الأنفس والآفاق، وبيان مافيه من آثار اقتدار الله تعالى وحكمته وجلال كبريائه، ولا يمكن الوصول إلى إقامة هذه الحجة لتكون برهاناً يقنع غير الأميين من أبناء الإنسانية في أرجاء الأرض في حاضرها ومستقبلها إلا إذا اعتمدت على دعائم العلم والبحث.

والقرآن الكريم أعطى العلم من العناية والرعاية والحث والإغراء ما رفعه فوق جميع خصائص الإنسانية، وفتح باب البحث في جميع فنونه بصورة لم تعرفها الإنسانية لغيره من الكتب، وقد أوضحنا ذلك فيما سبق، ونزيده إيضاحاً فيما يأتي.

الآيات الكونية في القرآن وسلطان العقل

إن الله تعالى أمد الإنسان بسلطان العقل، وسخر له مافي السموات ومافي الأرض، ودعاه إلى كشف أسرار الوجود ببذل أقصى الطاقة البشرية التي أودعها الله فيه، ليعرف جلال الله تعالى في عظمة ملكه، وعظيم قدرته في إبداع خلقه، وحكمته في بديع صنعه، ورحمته في لطيف تدبيره، فقال عز شأنه: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَافِي الْأَرْضِ جَمِيعاً ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(١)، وقال تبارك: ﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٢) وقال سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللَّهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَافِي السَّمَوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُبِينٍ﴾^(٣).

وفي قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُمْ﴾ و﴿وَسَخَّرَ لَكُمْ﴾ نص لا يحتمل التأويل على أن الله تعالى ينه العقل البشري في كافة أفراده بأن خلق هذا الكون بجميع آياته السماوية والأرضية، وتسخير مافيه من عناصر الحياة ومظاهر النعم إنما كان لأجل الإنسان الذي كرمه الله تعالى بخصيصة العقل وفضله به على سائر ماحواه الوجود من مخلوقات ليستفح به، ولاشك أن الانتفاع بأي من هذه المخلوقات لا يتم ولا يتحقق إلا بعد معرفة فائدة كل مخلوق من هذه المخلوقات التي امتن الله بخلقها وتسخيرها للإنسان، ومعرفة فائدة المخلوقات لا تتحقق إلا بعد معرفة حقائقها تفصيلاً، لأن معرفة الحقيقة يرشد إلى مواطن الانتفاع، وهذه مهمة تستنفد أعمار الأحياء في هذه الحياة، فالبحث عن حقائق الموجودات سماوية أو أرضية، هو في نظر القرآن، مهمة الإنسان مادام على ظهر هذه الأرض لأنه وسيلته إلى استخلاص أكبر قسط من المنافع المادية والروحية التي يحيا بها الحياة طيبة يغمره فيها الإيمان بجلال الخلاق العظيم. قال الإمام الرازي في تفسير قوله

(١) سورة البقرة: الآية (٢٩).

(٢) الجاثية (١٣).

(٣) لقمان الآية: (٢٠).

أن المذكور بعد قوله: ﴿خَلَقَ﴾ لأجل انتفاعنا في الدين والدنيا، أما في الدنيا فلنصلح أبدنا ولتتقوى به على الطاعات، وأما في الدين فللاستدلال بهذه الأشياء والاعتبار بها، وجمع بقوله: ﴿مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ جميع المنافع، فمنها ما يتصل بالحيوان والنبات والمعادن والجبال، ومنها ما يتصل بضروب الحرف والأمور التي استنبطها العقلاء، ويبين تعالى أن كل ذلك إنما خلقه لكي نتفع به. (١)

فهم الآيات الكونية خصيصة العلماء الراسخين:

ومما يجري مجرى إيقاظ العقل الإنساني وتنبهه إلى تعمق الوجود وكشف حقائقه وتعرف آيات الله في عناصر ذلك الوجود المفعم في كل ذرة من ذراته بالأسرار قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ وَالْوَاوِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّلْعَالَمِينَ﴾ (٢).

ولباب هذه الآية وخلاصة حكمتها تجمع - بعد نثره في مفرداتها وجملها - فكان في فاصلتها، لأن تخصيص «العالمين» بالذكر في هذه الفاصلة توجيه لذوي العقول المستضيئة بنور العلم إلى البحث عن أسرار آيات الله الكونية في آفاق السموات وأرجاء الأرض لكشفها ورفع الحجب والأغطية عن حقائقها لتقع من الحياة موقعها، ويتفع بها الأحياء لأنها مخلوقة لأجلهم، حتى تظهر خصيصة العلم في العلماء ويمتازوا بها عن سائر العقلاء لانفرادهم بإدراك حقائق آيات الله الكونية التي نصبها الله حجة على وجوده وإحاطة سلطان قدرته وعلمه.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ﴾ (٣)، تسجيلاً لامتياز العلماء القائمين بحجة الله على الخلق في الأرض، وبياناً لفوقهم على من باينهم في المعارف من سائر الناس بإدراكهم ما وراء حجب الحس المادي فهماً لمرامي إشارات الله تعالى في دلائله الآفاقية والأنفسية، وقد جاء التصريح ببعض مظاهر هذا الامتياز - الذي اختص به العلماء بالله لإدراكهم أسرار آياته الكونية - في سورة فاطر، حيث أثنى عليهم هذا الثناء الذي تقطع له أعناق الربانيين فوصفهم باختصاصهم بخشيته فقال: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾، وسياق هذه المدحة العظيمة يبين

(١) القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين/ محمد الصادق عرجون/ ص ٢٧٥-٢٨٦ و ٣٢٨-٣٣١.

(٢) سورة الروم: الآية (٢٢).

(٣) سورة العنكبوت: الآية (٤٣).

جلي في أن المراد من العلماء المميزين بهذا المقام هم العلماء بالله الذين عرفوه بمعرفة آياته في خلقه معرفة تقوم على إدراك أسرار ظواهر ما خلق من أشياء، والمتأمل في موقع هذه المدحة مما سبقها يفهم من هم العلماء في هذا المقام. قال عز شأنه: ﴿الَّذِينَ تَرَىٰ أَنَّهُ أُنْزِلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءٌ فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا، وَ مِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ * وَ مِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَ الْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾^(١)، فالذين علموا - بعد البحث - حكمة الله في إنزاله الماء من السماء وكيفية تجمع هذا الماء في مكانه، والذين علموا بديع صنع الله تعالى في إحداث ما يحدث من تفاعلات العناصر الحية في باطن الأرض حتى تتكون فيها أجنة الثمرات المختلفة في طعومها وألوانها وأشكالها ومقاديرها فتخرج بإذن الله طيبة شهية نافعة كما قال تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ رَوْحٍ يَبْرِجُ﴾^(٢).

والذين علموا صنع الله وعظيم قدرته في خلقه، ونظروا نظرة تدبر إلى خلق الجبال وتلوينها من طرائق مختلفة وطبقات متنوعة الألوان والمنافع بين بيض وحمر وسود، والذي ينظر نظر تدبر في خلق الناس وتكوينهم وفي الدواب وخلقها واختلاف الألوان في الناس والدواب، هو الذي يصدق عليه وصف العالم بالله الذي بجلاله يعرفه حق معرفته ويخشاه حق خشيته.

أسلوب الآيات الكونية في القرآن:

والقرآن الكريم أكثر جداً من الآيات الكونية، لكنه ساقها في أساليب مختلفة، وألوان شتى من التعبير، يفصل مرة، ويجمل أخرى، ولكل مقام مقال، يذكر الشيء مع قرينه وصاحبه، ثم يفردة ليذكر حكمته المستقلة بوجوده، ودلالته، ثم يعود إلى صاحبه فيذكره بحكمة استقلاله في القيام بحق الحجة النيرة والبرهان المستقيم، يجمع مرة الآيات السماوية إلى الآيات الأرضية في إطار واحد، وأخرى يذكر الآيات الأرضية منفردة للتنبيه على عموم الاستدلال بها، لقربها من مشاهد الحس الممد للعقل العام عن طريق الحواس، والحواس هي النوافذ المادية التي يستطيع العقل أن يدرك بواسطتها - في أوائل خطوه نحو الحقائق الكونية - الروابط العنصرية والوشائج الطبيعية بين ذرات الموجودات على تنوع أشكالها واختلاف أنواعها، فيحكم ويستنبط.

(١) سورة فاطر: الآيتان (٢٧، ٢٨).

(٢) سورة الحج: الآية (٥).

وقد يفرد الآيات السماوية بالذكر تنبيهاً لأهل الاختصاص من العلماء لينقلهم على سفائن الفكر من عوالم الأرض إلى آفاق السماء، لينظروا إلى ما أودع الله فيها من آيات أجَلْ وأعظم مما أودع في الأرض، مع تيسير السبيل للعامة في النظر المتأمل الذي يحرك وجداناتهم ويوقظ إحساسهم لتوثق عرى الإيمان القطعي في قلوبهم.

والمقام هنا لا يتسع لاستيعاب الآيات الكونية التي جاء بها القرآن الحكيم لكثرتها واختلاف مسافاتهما، وهي ماثورة فيه، تنساب في محيطه، وتتخلل سوره، فقلما تخلو سورة من سوره الكريمة من لون من ألوانها أو لفظة إلى ظاهرة من ظواهرها.

وحسبنا أن نشير على سبيل المثال والشاهد إلى قوله تبارك وتعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَعُ النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَخْبَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَغَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَضْرِبُ الرِّيحُ السَّحَابَ الْمُسَخَّرَ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾^(١)، وإلى قوله جل شأنه في سورة آل عمران: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لَأُولِي الْأَلْبَابِ﴾^(٢)، ففي الآية الأولى تفصيل بالتنصيص على آيات هي دلائل قاطعة على وجود الله وقدرته وحكمته، وهي أيضاً نعم من الله على عباده يتفكرون بها في معاشهم وذلك أنجع في البيان، كما سبقت الإشارة إليه.

ومما يجري هذا المجرى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٣)، ففيه إرشاد إلى النظر التفصيلي بما اشتمل عليه من تعميم الجزئيات في قوله: ﴿وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ وقد جاء هذا التعميم الكلي في قوله: ﴿مَلَكُوتِ السَّمُوتِ وَالْأَرْضِ﴾ لبيان أن جملة الكون دليل قاهر على وجود الصانع الحكيم، وأن كل ذرة من ذراته برهان مستقل في الدلالة عليه سبحانه، والإجمال يناسب العوام ومن كان على شاكلتهم في عدم الخوض في بحار الدلائل الكونية بالتفصيل.

وعلى ضوء هذا ننظر في قوله تعالى من سورة يونس: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ

(١) سورة البقرة: (١٦٤).

(٢) آل عمران: الآية (١٢٠).

(٣) سورة الأعراف: آية (١٨٥).

السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ»^(١) ، لنجد إجماله مفصلاً بعض التفصيل المنبّه على مواطن الهداية والاستدلال بذكر آيات النعم، وبيان جهات المنافع في تسخيرها، وذلك في قوله تعالى من السورة نفسها: «هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ مَا خَلَقَ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ»^(٢) ، وتأمل قوله: «جَعَلَ الشَّمْسُ ضِيَاءً» وقوله: «وَالْقَمَرَ نُوراً»، وقوله: «وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ» أفرد القرآن الحكيم، وهو بصدد إقامة البرهان على عظمة ملك الله وجلال ملكوته، الشمس بخصيصة الضياء ويخص القمر بوصف النور لغير حكمة كونية ترجع إلى طبيعة كل من الكوكبين؟ وهل يتم الاستدلال بهما على الغرض الذي سيقا بوصفهما لإثباته دون معرفة العلة في هذه التفرقة؟ وإذا كان ذلك كذلك أفلا يكون من البدهة أن يُطلب من القوّامين على فهم القرآن أن يحيطوا علماً بالظواهر العلمية الطبيعية التي تميز طبيعة الضياء عن طبيعة النور حتى يمكن فهم الآية على حقيقتها التي أنزلها الله في كتابه من أجلها؟ ثم ألا يكون من البدهة - لأجل فهم الآية فهماً مثمراً - أن يطلب من القوامين على دراسة القرآن أن يحيط علماً بقدر الطاقة البشرية ببعض الظواهر الطبيعية للشمس التي جعلها الله «ضياء» وبعض الظواهر الطبيعية للقمر الذي جعله الله «نوراً» حتى يتبين للدارسين ولمن يقلون إليهم معاني القرآن في آياته الكونية موقع وصف كل من الكوكبين - بوصفه الملائم بطبيعة موقعه، ومن هنا تجيء نتيجة البرهان على صدق الدعوى بتخصيص كل كوكب بوصفه المنبعث من طبيعته التي خلقه الله عليها بحكمته واختياره.

موقف العلماء من الآيات الكونية في القرآن:

والعجب أن كثيراً من أئمتنا من حكماء الإسلام وعلمائه لم يغفلوا هذا النظر عند دراستهم لآيات القرآن الكونية باعتبارها دلائل أقامها الله تعالى على وجوده وباهر قدرته وجلال كبريائه، بل خاضوا بحاره، بقدر ماوسعه علمهم ومعارفهم، ووسائل الفكر والمعرفة في عصورهم، قال الإمام الفخر الرازي: (الاستدلال بأحوال الشمس والقمر على وجود الصانع المقدر هو أن يقال: الأجسام في ذواتها متماثلة، وفي ماهياتها متساوية، ومتى كان الأمر كذلك كان اختصاص جسم الشمس بضوئه الباهر وشعاعه

(١) سورة يونس الآية (٣).

(٢) سورة يونس: الآية (٥).

القاهر، واختصاص جسم القمر بنوره المخصوص لأجل الفاعل المختار)، ثم بين تساوي الأجسام وماهياتها في الحجمية والتحيّز والجرمية، وقال: (وإذا ثبت أن الأجسام متماثلة في ذواتها، متساوية في ماهياتها، كانت متساوية في جميع لوازم الماهية فكل ماصح على بعضها وجب أن يصح على الباقي، فلما صح على جرم الشمس اختصاصه بالضوء القاهر الباهر، وجب أن يصح مثل ذلك الضوء القاهر على جرم القمر وبالعكس، وإذا كان كذلك وجب أن يكون اختصاص جرم الشمس بضوئه القاهر، واختصاص القمر بنوره الضعيف بتخصيص مخصص، وإيجاد موجد وتقدير مقدر، وذلك هو المطلوب ثبت بالدليل القاطع صحة قوله سبحانه وتعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُورًا﴾.

ومعنى هذا في كلام الإمام وأسلوبه الاصطلاحي بأسلوب متقارب أن المادة في حقيقتها الأولى واحدة في ذاتها فإذا عرض لها اختصاص بطبيعة خاصة، تقبل بسببها بعض اللوازم والعوارض وتختص منها الشمس بالضوء ويختص القمر بالنور كان ذلك ترجيح مرجح، وتخصيص مخصص، وإيجاد موجد، وتقدير مقدر، وذلك المخصص والمرجح والموجد والمقدر هو الله تعالى، وهذا هو الغرض الذي سبقت الآية لإثباته وتحقيقه في البرهنة على قدرة الله ووراء ذلك معان كثيرة تتفجر من ينابيع الآية إذا فجرها العقل بالنظر في عناصر الموجودات وخصائصها ليستفح بها الإنسان فأنت ترى هذا الإمام الحكيم لم يقف مع الآية عند أسلوبها البلاغي المعجّز ببراعة بيانها ولكنه أدار البحث حول الآيات الكونية فيها، وفي كيفية دلالتها على الغرض المقصود منها حسب معارف عصره، وأسلوب العلم في ذلك العصر.

ثم ألا يكون من البداة أن يطلب من القوامين على فهم القرآن فهماً علمياً صحيحاً أن يحيطوا علماً بمنازل القمر وسيره في تلك المنازل وكيفية علم عدد السنين والحساب من معرفة تلك المنازل وسير القمر فيها؟ وهل للشمس سير ومنازل كسير القمر ومنزله، وهل لها دخل في علم عدد السنين والحساب؟ بلى، كل ذلك يجب أن يعلم، ولقد علم أسلافنا من ذلك مابلغ إليه جهدهم، وبهذا العلم استعانوا على تفسير هذه الآيات وأمثالها.

ثم كيف يستطيع القوامون على دراسة القرآن الحكيم فهم قوله تعالى في ختام الآية: ﴿مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ فهماً يدعو به الناس - ولا سيما الماديون وعلماء الطبيعة والفلك - إلى عقيدة الإسلام المؤسسة على وجود الصانع، الخلاق العليم، الواحد الأحد القادر الحكيم، لو لم يكونوا على علم راسخ

بخواص الأفلاك، وما أودع الله في أجرامها من القوى حتى يعرف الحق الذي خلقها الله به، ليقع تفصيل الآيات موقعه من العقول والقلوب لقوم يعلمون؟ يقول الرازي: (قال حكماء الإسلام: هذا يدل على أنه سبحانه أودع في أجرام الأفلاك والكواكب خواص معينة وقوى مخصوصة باعتبارها تتنظم مصالح هذا العالم السفلي، إذ لو لم يكن لها آثار وفوائد في هذا العالم لكان خلقها عبثاً وباطلاً وغير مفيد، وكونها كذلك يتنافى هذه الآيات).

وإذا كان أسلافنا من أعلام العلماء، وحكماء الإسلام قد خاضوا بحار العلوم، ولجج المعارف واقتحموا حصون الأفكار في أزمانهم، ولم يتركوا منها مشرعاً إلا وردوه واتخذوا من كافة معارفهم وأفكارهم معيناً لفهم كتاب الله فهماً يقوم على حقائق العلم الصحيح لتبيين هدايته وإقامة حجته، فما موقفنا نحن من عصرنا ومعارفه ووسائله وأفكاره ومذاهبه؟ هل نقف من آيات الله عند مبلغ ما وصل إليه أسلافنا في أعصرهم، وهو نهاية أقدام العقول في بيئاتهم وأزمانهم ومجتمعهم؟ أو نتقدم في شجاعة كما تقدموا إلى البحث بوسائل عصرنا، ونخوض في بحار معارفه بعقولنا التي رباه القرآن الكريم بحكمته وحرثته وبراعة أسلوبه، ولطف مدخله ودقة تصويره، ورائع تناوله لقضايا الحياة والكون، مع عنايته بثبيت قواعد الإيمان في قلوب دارسيه من المؤمنين؟.

طريقة تفسير الآيات الكونية في القرآن:

إن الجانب الكوني في آيات القرآن الحكيم - وهو جانب مهم جداً، لأنه عماد الدلائل الإلهية على وجود الله تعالى، وتوحيده، وباهر قدرته، وواسع علمه، ولطيف حكمته وسائر ما يجب له تعالى من الكمال - في حاجة ماسة إلى إعادة النظر فيه للتفسير والبيان بأسلوب علمي يبرز عن طريق ملاحظة الظواهر الكونية حجة الله على خلقه، ويكشف عما في الآيات من أسرار وحقائق ناطق الله بها كثيراً من منافعنا ومصالحنا في الدين والدنيا، وقد أشار إليها القرآن في آياته ودلائله وبدأ العلم يكشف عنها الحجب، ولكن على شرط أن نحذر، فلا نخضع القرآن لنظريات لاتزال في مهيب التجارب، وقد تعصف بها فتصبح من قبيل الأساطير فنقول إنها تفسير لآيات القرآن كما صنع ذلك بعض المتحمسين وبعض المخدوعين بريق العلم التجريبي.

والقرآن كتاب الله الذي أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير، فهو لا يخضع لأسلوب حديث ولا أسلوب قديم، وإنما تفسره الحقائق والبراهين التي يحققها البحث العلمي المستند إلى الأصول الإسلامية، وقضايا العقول المستقيمة.

والنظر في تفسير الآيات الكونية يجب أن يقصد أولاً إلى تبين هداية القرآن تبيناً علمياً، لا على أساس أن نجعل النظريات العلمية هي تفسير الآيات القرآنية ومعانيها التي قصدها القرآن الكريم، ولكن على أساس أن القرآن الكريم لا يصادم علماً ثبت بالبرهان القطعي ثبوتاً لا يحتمل الارتباب، وهذا يتطلب بالاحاح من علماء الإسلام أن يتسلحوا بالعلم والمعرفة بأوسع معانيهما بقدر ما توسع له الطاقة البشرية.

والراسخون في العلم من المؤمنين تزيدهم النظريات العلمية في حقائق الكون وظواهر الطبيعة إيماناً بجلال الله وعظمة الخلاق العليم لأنهم قرؤوا في لوح الوجود قول خالق الوجود: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١)، وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أَنفُسِهِمْ مَآخَلَقَ اللَّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا بِالْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾^(٢)، وقوله: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنسَانِ مِن طِينٍ، ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلَالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ﴾^(٣)، وإذا احتملت قضية خلق الإنسان من طين الجدول والتأويل فإن قضية جعل الأنسال الإنسانية من سلالة من ماء مهين، لا يختلف فيها ملحد مع مؤمن ولا درويني مع آدمي، لأنها أكبر وأدخل في الصديق الواقعي من أضخم قضاياهم التجريبية التي يؤمنون بها، بل هي أصدق في نظر التجربة المتكررة التي لم تشذ عنها المرة الواحدة في ملايين الملايين من السنين من أي قضية تدخل تحت البدهة المسلمة.

والقرآن الحكيم - دستور الإسلام - هو الكتاب الذي أنزل على النبي الأمي يوجه العقل الإنساني بكل مامنحه الله من قوة وجبروت إلى النظر في ملكوت الله ليكشف حقائق الكون ويرفع الحجب عن أسرارهِ ويفسر آياته في الأنفس وفي الآفاق، وكلما عظم شأن الكون عظم في نظر المؤمنين جلال المكوّن الخلاق العظيم وانفتحت مغاليق الإيمان الراسخ أمام العقلاء المتدبرين ﴿أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ﴾ ﴿قُلْ أَنْظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٤). ﴿اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي

(١) أول سورة الملك.

(٢) سورة الروم: الآية (٨).

(٣) سورة السجدة: الآيتان (٨، ٧).

(٤) سورة يونس: الآية (١٠١).

لَا جَلَّ مُسَمًّى يُدَبَّرُ الْأَمْرَ يَقْضِلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ يَلْقَاءِ رَبَّكُمْ ثَوَقُونَ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَمَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَاراً وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَمَلَ فِيهَا رُؤُوسَ الثَّيْنِ يُعْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ وَفِي الْأَرْضِ قِطْعٌ مَتَجَاوِرَاتٍ وَجَنَاطٌ مِنْ أَخْتَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضِلٌ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأَكْلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ^(١).

وإذا كان هذا شأن القرآن في آيات الله الكونية وتوجيه النظر إليها، فلن يضيق ذرعاً بكشف علمي يصل السماء بالأرض، لو قدر لذلك أن يكون، بله للسعي لكشف عن حقيقة بعض الكواكب ومعرفة عمارها ومافها من ألوان الحياة والخلق والأشياء، وحسبنا هذا لكتابنا الكريم وديننا القويم، وسلامة عقيدتنا، ولايجمل بنا أن نتطلب من القرآن شرح نظريات العلم والتحدث في تركيب الأشياء، وبيان جزئياتها وأشكالها ومايطرأ عليها من تغير كيميائي أو طبيعي كما تتحدث كتب الطبيعة والكيمياء والفلك وطبقات الأرض، لأن القرآن كتاب عقيدة وهداية، وعبر وتهذيب للنفوس، وتوجيه للعقول، وتطهير للأرواح والقلوب، فإذا عرض لشيء من الآيات الكونية - وكثر ماعرض لها - فإنما يعرض لها باعتبارها مصدر هداية إلى عظمة الكون لنصل على ضوئها إلى تعظيم الله خالق الكون، ومافه من آيات وأسرار، لنستفيد بما فيها من منافع خلقها الله لأجلنا في ديننا ودنيانا.

العقول الصحيحة لاتصادم آيات القرآن الكريم:

إذا حاول العقل الإنساني القيام بمهمته في تبين عجائب آيات الله، وحاول أن يكشف عن أسرار هذه الكائنات بوسائله العلمية وآلاته التجريبية كان محققاً لوعده الله تعالى في قوله: ﴿سَتُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾ حتى يظهر للعقلاء أن القرآن حق من عند الله وأن الرسول الأمي الذي نزل عليه صادق مؤيد من الله الذي أرسله للعالمين، وإذا وصل العقل في محاولته إلى حقيقة من الحقائق الكونية الصادقة فلا يمكن أن يصادم شيئاً من نصوص القرآن الحكيم الذي وكل إليه البحث عن هذه الآيات، وناط ببعثه الكشف عن أسرارها، وحيث يكون كشفه لشيء منها تفسيراً لقوله تعالى في سورة النحل: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾. وعلماء الإسلام منذ صدره الأول فقها عن الله مارمز إليه من جلال ملكه وعظمة ملكوته، وذكروا في تفسير آية النحل

(١) سورة الرعد: الآيات (٢، ٤).

عجائب لو ذكرت قبل أن يبلغ العقل البشري رشده، ويكشف عن آثار غوصه في آيات الله لقال عنها الجاهلون - كما قال أسلافهم -: إنها أساطير الأولين.

بل إن علماء الإسلام منذ عصر الصحابة والتابعين فهموا أن هذا الكوكب الأرضي الذي نعيش فيه ماهو إلا واحد من سبعة كواكب أرضية كلها معمورة بخلق من خلق الله تعالى، يقول الألوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾: (قال الجمهور: مثلية الأرض هنا في كونها طباقاً بعضها فوق بعض، بين كل أرض وأرض مسافة كما بين السماء والأرض، وفي كل أرض سكان من خلق الله عز وجل، لا يعلم حقيقتهم إلا الله تعالى. قال العلماء: وهذا تأويل ماورد في صحيح البخاري من قول النبي ﷺ في دعائه: «اللهم رب السموات السبع، وما أظللن ورب الأرضين السبع وما أظللن»).

ثم قال رحمه الله: (وحيث كان من أصولنا - نحن المسلمين - أنه متى عارض الدليل العقلي، أو الواقع القطعي القائم على التجربة والمشاهدة التي لا تحتمل الشك، الدليل السمعي، وجب تأويل الدليل السمعي، لأجل مطابقة الدليل العقلي في مقتضاه، لأن الدليل العقلي أصل الدليل السمعي، ولو أبطل الدليل العقلي بالدليل السمعي لزم بطلان الدليل السمعي نفسه، وباب التأويل أوسع من فلك الثوابت، ولا أرى بأساً في ارتكاب تأويل بعض ظواهر النصوص المستبعدة بما لا يستبعد، وإن لم يصل الاستبعاد بالمعنى الذي دل عليه ظاهر النص إلى حد الامتناع، إذا تضمن ذلك مصلحة دينية، ولم يستلزم مصادرة معلوم من الدين بالضرورة، وقد يستلزم الإبقاء على الظاهر، وتفويض الأمر إلى قدرة الله تعالى التي لا يتعاضاها شيء، رعاية لأذهان العوام المقيدين بالظواهر، الذين يعدون الخروج عنها لاسيما إلى ما يوافق الحكمة الجديدة (العلم الحديث) ضلالاً محضاً، وكفراً صرفاً، وبالجمل: من صدق بسعة ملك الله تعالى، وعظيم قدرته عز وجل ينبغي أن لا يتوقف في وجود سبع أرضين على الوجه الذي قدمناه وليس في ذلك ما يصادف ضرورياً من الدين، أو يخالف قطعياً من أدلة المسلمين)، اهـ. والحرص على صيانة عقائد العوام وعدم الإلقاء بهم في لجج الحيرة بإسماعهم ما يتعاضى على عقولهم فهمه، وعدم تعريضهم للفتنة في عقائدهم السليمة هو الذي استهدفه حديث البخاري عن علي كرم الله وجهه: (حدثوا الناس بما يفهمون، أتريدون أن يكذب الله ورسوله).

والناس في عقولهم الفطرية المكتسبة درجات متفاوتون، فمنهم الذكي العليم الذي يطلب الحق على البحث عنه، لأنه حق، يرغب فيه لذاته، ومنهم الجدلي المنحرف

عن الجادة الذي لا يطلب حقاً، ولا يقصد إلى هدف، ومنهم العامي الساذج الذي تحركه الرغبة والرغبة، وتتملكه العواطف الفوارة، حظه من العقل الفطري حظ عامة الأحياء، ولا حظ له في عقل مكتسب.

وقد جعل الله تعالى لكل صنف من هؤلاء لونا من الخطاب يليق به وذلك في رأي حكماء العلماء هو تأويل قوله تعالى: ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١)، فجعل الدعوة إلى سبيل الله، وهو الحق والخير، والبر والإحسان، والعدل والرحمة، على ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: الدعوة بالحكمة، وهي خصيصة العلماء الراسخين الذين يلتمسون الحق للحق، فالحق في ذاته غايتهم وهدفهم.

الوجه الثاني: الدعوة بالموعظة الحسنة، وهذه وسيلة العامة الذين يسكنون إلى الوعد طمعاً في الجزاء ورغبة في الثواب، ويفيئون إلى الوعيد خوفاً من الآلام ورهبة من العقاب.

الوجه الثالث: المجادلة بالتي هي أحسن، وهذه خصيصة العقول التي لا تقصد إلى شيء ولكنها تجادل للمجدل فحسب، وقد أوصى القرآن الحكيم بأن يكون الحديث والحوار مع هؤلاء - تلطفاً معهم - بالطريقة التي هي أحسن الطرق وأمثلها أدباً وعلماً ورحمة، لتجذبهم إلى جانب الحق ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ الْمُؤْمِنِينَ الَّذِينَ يَعْمَلُونَ الصَّالِحَاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً كَبِيراً﴾^(٢).

(١) سورة النحل: الآية (١٢٥).

(٢) سورة الإسراء: الآية (٩).

الفصل السادس

أثر شيخ الإسلام ابن تيمية

في علم التفسير وأصوله ، وفي الكشف عن تأثير الفلسفة وعلم الكلام
على بعض علماء المسلمين

ويشتمل هذا الفصل على الأبحاث التالية :

البحث الأول : قواعد التفسير وأصوله .

البحث الثاني : التأويل والتفسير .

البحث الثالث : حكم تفسير القرآن بالرأي .

البحث الرابع : حكم ترجمة معاني القرآن لغير العرب .

البحث الخامس : أثر علم الكلام على بعض علماء الإسلام .

البحث السادس : لمحات من تاريخ نقض مذاهب الفلاسفة والمتكلمين .

قواعد التفسير وأصوله

الأصل الأول والقاعدة الأم: النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: (١)

يجب أن يُعْلَمَ أَنَّ النبي ﷺ بين لأصحابه معاني القرآن، كما بين لهم ألفاظه، فقوله تعالى: ﴿لَتُبَيِّنَنَّ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [سورة النحل / ٤٤]، يتناول هذا وهذا.

وقد قال أبو عبد الرحمن السلمي: حَدَّثَنَا الَّذِينَ يُثَرِّقُونَ الْقُرْآنَ، كعثمان بن عفان، وعبد الله بن مسعود، وغيرهما: «أنهم كانوا إذا تعلموا من النبي ﷺ عشرَ آيات لم يُجاوِزوها حتى يتعلموا مافيها من العلم والعمل؛ قالوا: فتعلمنا القرآن والعلم والعمل جميعاً» (٢) ولهذا كانوا يبقون مدة في حفظ السورة.

وقال أنس: كان الرجل إذا قرأ البقرة وآل عمران جلَّ في أعيننا!! وأقام ابن عمر على حفظ البقرة عدة سنين، قيل: ثمان سنين، ذكره مالك (٣).

وذلك أَنَّ الله تعالى قال: ﴿كَتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [سورة ص / ٢٩] وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ؟﴾ [سورة النساء / ٢٨ / ومحمد / ٢٤] وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَذَّبَرُوا الْقَوْلَ؟﴾ [سورة المؤمنون / ٦٨]؛ وتدبر الكلام بدون فهم معانيه لا يمكن!!

وكذلك قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة يوسف / ٢]

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ٣٨٣٥.

(٢) وذكره القرطبي في مقدمته لتفسيره ج ١/ ٣٩ / وأبو عبد الرحمن هو عبد الله بن حبيب الكوفي المقرئ، من كبار التابعين، ثقة ثبت، ولأبيه صحبة. تقريب التهذيب لابن حجر ج ١/ ٤٠٨.

(٣) الموطأ ج ١/ ٢٠٥ / بتحقيق عبد الباقي.

وَعَقِلَ الْكَلَامَ مُتَضَمِّنٌ لِفَهْمِهِ. ومن المعلوم أَنَّ كُلَّ كَلَامٍ فَاَلْمَقْصُودُ مِنْهُ فَهْمٌ مَعَانِيهِ دُونَ مَجْرَدِ أَلْفَاظِهِ، فَالْقُرْآنُ أَوَّلَىٰ بِذَلِكَ! وَأَيْضًا فَالْعَادَةُ تَمْنَعُ أَنْ يَقْرَأَ قَوْمٌ كِتَابًا فِي فَنٍّ مِنْ الْعِلْمِ كَالطَّبِّ وَالْحِسَابِ، وَلَا يَسْتَشْرَحُوهُ؛ فَكَيْفَ بِكَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي هُوَ عَصَمْتُهُمْ، وَبِهِ نَجَاتُهُمْ وَسَعَادَتُهُمْ، وَقِيَامُ دِينِهِمْ وَدُنْيَاهُمْ!!

ولهذا كَانَ التَّزَاعُ بَيْنَ الصَّحَابَةِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ قَلِيلًا جَدًّا، وَهُوَ وَإِنْ كَانَ فِي التَّابِعِينَ أَكْثَرَ مِنْهُ فِي الصَّحَابَةِ، فَهُوَ قَلِيلٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا بَعْدَهُمْ. وَكَلَّمَا كَانَ الْعَصْرُ أَشْرَفَ كَانَ الْجَمَاعَةُ وَالْإِتِّلَافُ وَالْعِلْمُ وَالْيَقِينُ فِيهِ أَكْثَرَ.

وَمِنَ التَّابِعِينَ مَنْ تَلَقَّى جَمِيعَ التَّفْسِيرِ عَنِ الصَّحَابَةِ، كَمَا قَالَ مُجَاهِدٌ: عَرَضْتُ الْمَصْحَفَ عَلَى ابْنِ عَبَّاسٍ، أَوْقَفَهُ عِنْدَ كُلِّ آيَةٍ مِنْهُ وَأَسْأَلُهُ عَنْهَا!! وَلِهَذَا قَالَ الثَّوْرِيُّ: إِذَا جَاءَكَ التَّفْسِيرُ عَنْ مُجَاهِدٍ فَحَسْبُكَ بِهِ!! وَلِهَذَا يَعْتَمِدُ عَلَى تَفْسِيرِهِ: الشَّافِعِيُّ وَابْنُ خَالٍ وَغَيْرُهُمَا مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَكَذَلِكَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَغَيْرُهُ مَنْ صَنَّفَ فِي التَّفْسِيرِ، يَكْرُرُ الطَّرِيقَ عَنْ مُجَاهِدٍ أَكْثَرَ مِنْ غَيْرِهِ.

وَالْمَقْصُودُ: أَنَّ التَّابِعِينَ تَلَقَّوْا التَّفْسِيرَ عَنِ الصَّحَابَةِ، كَمَا تَلَقَّوْا عَنْهُمْ عِلْمَ السُّنَّةِ، وَإِنْ كَانُوا قَدْ يَتَكَلَّمُونَ فِي بَعْضِ ذَلِكَ بِالِاسْتِنْبَاطِ وَالِاسْتِدْلَالِ، كَمَا يَتَكَلَّمُونَ فِي بَعْضِ السُّنَنِ بِالِاسْتِنْبَاطِ وَالِاسْتِدْلَالِ.

الأصل الثاني:

بيان أن اختلاف السلف في التفسير؛ اختلاف تنوع!

لَقَدْ بَيَّنَّ شَيْخُ الْإِسْلَامِ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي هَذَا الْأَصْلِ مِنْ أَصُولِ التَّفْسِيرِ أَنَّ الْإِخْتِلَافَ الَّذِي وَقَعَ لِلْسَلَفِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ كَانَ رَاجِعًا إِلَى إِخْتِلَافِ تَنْوَعٍ لَا إِلَى إِخْتِلَافِ تَضَادٍّ؛ وَذَلِكَ لِأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى يَشْتَمِلُ عَلَى الْمَعَانِي الْكَثِيرَةِ فِي الْأَلْفَاظِ الْيَسِيرَةِ، فَذَهَبَ كُلُّ مُفَسِّرٍ مِنْهُمْ إِلَى الْمَعْنَى الَّتِي ظَهَرَ لَهُ وَتَبَيَّنَ مَعْنَاهُ مِنْ خِلَالِ تَبَحُّرِهِ فِي اللُّغَةِ الْعَرَبِيَّةِ بِالإِضَافَةِ إِلَى مَا مَعَهُ مِنْ عِلْمِ السُّنَّةِ وَالْفَقْهِ!!

فَيَقُولُ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى (١):

الْخِلَافُ بَيْنَ السَّلَفِ فِي التَّفْسِيرِ قَلِيلٌ، وَخِلَافُهُمْ فِي الْأَحْكَامِ أَكْثَرُ مِنْ خِلَافِهِمْ فِي التَّفْسِيرِ. وَغَالِبُ مَا يَصِحُّ عَنْهُمْ مِنَ الْخِلَافِ تَنْوَعٌ لَا إِخْتِلَافٌ تَضَادًّا!!

وَذَلِكَ صِنْفَانِ: أَحَدُهُمَا أَنْ يُعَبَّرَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا عَنِ الْمُرَادِ بِعِبَارَةٍ غَيْرِ عِبَارَةِ

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ٣٨-٥٥/.

صاحبه، تدلُّ على معنى في المسمّى غير المعنى الآخر، مع اتحاد المسمّى، بمترلة
الأسماء المتكافئة التي بين المترادفة والمتباينة، كما قيل في اسم السيف: الصارم،
والمهتد. وذلك مثل أسماء الله الحسنى... فإن أسماء الله كلها تدلُّ على مسمّى
واحد؛ فليس دعاؤه باسم من أسمائه سبحانه الحُسنى مضاداً لدعائه باسم آخر؛ بل
الأمر كما قال تعالى: ﴿قُلْ اذْهَبُوا إِلَى اللَّهِ أَوْ اذْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ
الْحُسْنَى﴾ [سورة الإسراء / ١١٠]، وكلُّ اسم من أسمائه يدلُّ على الذات المسماة
وعلى الصفة التي تضمّنها الاسم؛ كالعليم؛ يدلُّ على الذات والعلم، والقدير، يدل
على الذات والقدرة، والرحيم، يدل على الذات والرحمة.

والمقصود: أن كلّ اسم من أسمائه يدلُّ على ذاته وعلى مافي الاسم من صفاته،
ويدلُّ أيضاً على الصفة التي في الاسم الآخر بطريق اللزوم.

ثم قال: فالسلف كثيراً ما يُعبّرون عن المسمّى بعبارة تدلُّ على عينه، وإن كان فيها
من الصفة ما ليس في الاسم الآخر؛ كمن يقول: القُدُّوس: هو الغفور الرحيم، أي: إن
المسمّى واحد، لأن هذه الصفة هي هذه!

ومعلوم أن هذا ليس اختلاف تضاد كما يظن بعض الناس؛ مثال ذلك تفسيرهم
للصراط المستقيم، فقال بعضهم: هو القرآن، أي اتباعه، وقال بعضهم: هو
الإسلام.. فهذان القولان متفقان؛ لأن دين الإسلام هو اتباع القرآن، ولكن كلّ منهما
نَبْة على وصف غير الوصف الآخر، كما أن لفظ «صراط» يشعر بوصف ثالث، وكذلك
قول مَنْ قال: هو السّنة والجماعة، وقول مَنْ قال: هو طريق العبودية، وقول مَنْ قال:
هو طاعة الله ورسوله ﷺ، وأمثال ذلك.

فهؤلاء كلهم أشاروا إلى ذات واحدة، لكن وصفها كلّ منهم بصفة من صفاتها!!.

الصف الثاني: أن يذكر كلّ منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل
وتنبية المستمع على النوع، لاعلى سبيل الحد المطابق للمعدود في عمومته وخصوصه؛
مثل سائل أعجمي سأل عن مُسمّى لفظ «الخبز» فأري رغيفاً، وقيل له: هذا؛ فالإشارة
إلى نوع هذا، لا إلى هذا الرغيف وحده.

مثال ذلك: ما نقل في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا
فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ﴾ [سورة فاطر / ٣٢]، فمعلوم
أن الظالم لنفسه يتناول المضيق للواجبات، والمتهمك للحرّمات. والمقتصد يتناول فاعل
الواجبات، وتارك المحرّمات. والسابق يدخل فيه مَنْ سبق فتقرّب بالحسنات مع

الواجبات. فالمقتصدون هم أصحاب اليمين، والسابقون السابقون أولئك المقرَّبون. ثم إنَّ كلاً منهم يذكر هذا في نوع من أنواع الطاعات، كقول القائل: السابق: الذي يُصلي في أول الوقت، والمقتصد: الذي يصلي في أثناؤه، والظالم لنفسه: الذي يؤخر العصر إلى الاصفرار.

أو يقول: السابق والمقتصد والظالم قد ذكرهم في آخر سورة البقرة؛ فإنَّه ذكر المُحسِّنَ بالصَّدَقَةِ، والظالم بأكل الربا، والعاقل بالبيع^(١). والنَّاسُ في الأموال: إمَّا محسنٌ وإمَّا عادل وإمَّا ظالم؛ فالسابق: المحسن بأداء المستحبات مع الواجبات، والظالم: آكل الربا، أو مانع الزكاة، والمقتصد: الذي يؤدِّي الزكاة المفروضة، ولا يأكل الربا، وأمثال هذه الأقاويل.

فكلُّ قول: فيه ذِكْرُ نوعٍ دَخَلَ في الآية، ذِكْرٌ لتعريف المستمع بتناول الآية له، وتنبية به على نظيره؛ فإنَّ التعريف بالمثال قد يسهل أكثر من التعريف بالحدِّ المطابق. والعقل السليم يتفطن للنوع كما يتفطن إذا أُشير له إلى رغيْف فقليل له: هذا هو «الخبز» [كما مرَّ مثاله].

من أسباب الاختلاف تعدّد أسباب النزول:

وقد يجيء كثيراً من هذا الباب قولهم: هذه الآية نزلت في كذا، لاسيما إذا كان المذكور شخصاً، كأسباب النزول المذكورة في التفسير؛ كقولهم: إنَّ آية الظهار نزلت في امرأة ثابت بن قيس بن شماس، وإنَّ آية اللعان نزلت في عُويمر العجلاني، أو هلال بن أمية. وإنَّ آية الكَلَالَةِ نزلت في جابر بن عبد الله، وإنَّ قوله تعالى: ﴿وَأَن اخْكُم بينهم بما أنزل الله﴾ [سورة المائدة / ٤٩] نزلت في بني النضير وقریظة، وإنَّ قوله تعالى: ﴿وَمَن يُؤْلَمْ يَوْمَئِذٍ﴾ [سورة الأنفال / ١٦]، وإنَّ قوله تعالى: ﴿شَهَادَةُ بَيْنَكُم إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ﴾ [سورة المائدة / ١٠٦] نزلت في قضية تميم الداري وعدي بن بداء. ونظائر هذا كثير ممَّا يذكرون أنَّه نزل في قوم من المشركين بمكة، أو في قوم من أهل الكتاب؛ اليهود والنصارى، أو في قوم من المؤمنين.

والنَّاسُ وإن تنازعوا في اللفظ العام الوارد على سبب، هل يختص بسببه؟ فلم يقل أحدٌ من علماء المسلمين: إنَّ عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين، وإنما غاية ما يقال: إنها تختص بنوع ذلك الشخص، فتعمُّ ما يشبهه، ولا يكون العموم فيها

(١) انظر الآيات من سورة البقرة/ ٢٧٠ فما بعد.

بحسب اللفظ! والآية التي لها سبب معين إن كانت أمراً أو نهياً فهي متناولة لذلك الشخص، ولغيره ممن كان بمنزلة، وإن كانت خبراً بمدح أو ذم فهي متناولة لذلك الشخص، ولمن كان بمنزلة.

معرفة سبب النزول يُعينُ على فهم الآية:

فإن العلم بالسبب يُورث العلم بالمُسبَّب^(١)؛ ولهذا كان أصح قولي الفقهاء أنه إذا لم يعرف مانواه الحالف: رجع إلى سبب يمينه، وما هيَّجها وأثارها.

وقولهم: نزلت هذه الآية في كذا؛ يُراد به تارة أنه سبب لنزول، ويُراد به تارة أن هذا داخل في الآية، وإن لم يكن السَّبب كما تقول: عَنِ بهذه الآية كذا.

وقد تنازع العلماء في قول الصاحب [أي: الصحابي] نزلت هذه الآية في كذا؛ هل يجري مجرى المسند - كما يذكر السبب الذي أنزلت لأجله - أو يجري مجرى التفسير منه الذي ليس بمسند؟ فالبخاري يدخله في المسند، وغيره لا يدخله في المسند [أي: في الحديث المرفوع أو في حكمه]. وأكثرُ المَسَانِدِ على هذا الاصطلاح، كمسند أحمد وغيره، بخلاف ما إذا ذكر سبباً نزلت عقبه، فإنهم كلهم يدخلون مثل هذا في المسند.

وإذا عُرف هذا فقول أحدهم: نزلت في كذا، لا يُثافي قول الآخر: نزلت في كذا إذا كان اللفظ يتناولهما، كما ذكرناه في التفسير بالمثل [الذي تقدم قبل].

وإذا ذكر أحدهم لها سبباً نزلت لأجله، وذكر الآخر سبباً، فقد يمكن صدقهما بأن تكون نزلت عقب تلك الأسباب، أو تكون نزلت مرتين؛ مرة لهذا السبب، ومرة لهذا السبب.

وهذان الصنفان اللذان ذكرناهما في تنوع التفسير: تارة لتنوع الأسماء والصفات، وتارة لذكر بعض أنواع المسمّى وأقسامه، كالتمثيلات: هما الغالب في تفسير سلف الأمة، الذي يُظنُّ أنه مخالف!!

أسباب التنازع الموجود عنهم:

ومن التنازع الموجود عنهم: ما يكون اللفظ فيه محتملاً للأمرين:^(٢) إمّا لكونه مشتركاً في اللغة، كلفظ «قَسُورَة» [من سورة المدثر/٥١] الذي يُراد به الرامي، ويُراد به الأسد، ولفظ «عَشَسْنَ» [من سورة التكاوير/١٧] الذي يُراد به إقبال الليل وإدباره.

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ٤٧-٥١.

(٢) مقدمة في أصول التفسير/٤٩-٥١.

وإما لكونه متواطئاً [يقصد به التوافق] في الأصل، لكن المراد به أحد النوعين، أو أحد الشخصين؛ كالضمائر في قوله تعالى: (ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّى فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَى) [سورة النجم/٩] وكلفظ «الفجر، والشفع، والوتر» وما أشبه ذلك.

فمثل هذا قد يجوز أن يُراد به كل المعاني التي قالتها السلف، وقد لا يجوز ذلك. فالأول إما لكون الآية نزلت مرتين، فأريد بها هذا تارة، وهذا تارة. وإما لكون اللفظ المشترك يجوز أو يُراد به معناه؛ إذ قد جَوَّز ذلك أكثر الفقهاء المالكية والشافعية والحنبلية، وكثير من أهل الكلام. وإما لكون اللفظ متواطئاً، فيكون عاماً إذا لم يكن لتخصيصه موجب. فهذا النوع إذا صحَّ فيه القولان كان من الصنف الثاني.

الاختلاف لاحتمال وجوه اللغة:

ومن الأقوال الموجودة عنهم ويجعلها بعض الناس اختلافاً: (١)

أن يعتبروا عن المعاني بالفاظٍ متقاربة لامتدادة، فإن الترادف في اللغة قليل، وأما في ألفاظ القرآن فإما نادر وإما معدوم، وقَلَّ أن يُعبَّرَ عن لفظٍ واحدٍ بلفظٍ واحدٍ يؤدي جميع معناه، بل يكون فيه تقريب لمعناه.

وهذا من أسباب إعجاز القرآن؛ فإذا قال القائل: ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا﴾ [سورة الطور/٩] إن المور هو الحركة؛ كان تقريباً إذ المور حركة خفيفة سريعة. وكذلك إذا قال: الوحي الإعلام، أو قيل: ﴿أَوْحِينَا إِلَيْكَ﴾ [سورة النحل/١٢٣]: أنزلنا إليك، أو قيل: ﴿وَقَضَيْنَا إِلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ [سورة الاسراء/١٧]: أي أعلمنا، وأمثال ذلك.

فهذا كله تقريب لتحقيق؛ فإن الوحي هو إعلام سريع خفي، والقضاء إليهم أخص من الإعلام؛ فإن فيه إنزالاً إليهم وإيحاء إليهم!!.

والعرب تضمّن الفعل معنى الفعل، وتعديّه تعديته. ومن هنا غلط من جعل بعض الحروف تقوم مقام بعض، كما يقولون في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعَجِكَ إِلَىٰ نَعَاجِهِ﴾ [سورة ص/٢٤]، و: ﴿مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ﴾ [سورة آل عمران/٥٢] أي: مع الله، ونحو ذلك.

والتحقيق: ما قاله نحاة البصرة من التضمين؛ فسؤال النعجة يتضمن جمعها وضمها إلى نعاجه، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَإِنْ كَادُوا لَيَفْتِنُوكَ عَنْ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ [سورة الإسراء/٧٣]؛ ضَمَّنَ: يزيغونك ويصدونك، وكذلك قوله تعالى: ﴿وَنَصَرْنَاهُ مِنَ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا﴾ [سورة الأنبياء/٧٧]، ونظائر كثيرة..

(١) مقدمة في أصول التفسير/٥١-٥٥.

وَمَنْ قَالَ: ﴿لَارِيبَ فِيهِ﴾ [سورة البقرة/٢]: لاشك فيه، فهذا تقريب، وإلا فالريب فيه اضطراب وحركة، فكما أَنَّ اليقين ضمن السكون والطمأنينة، فالريب ضده، ولفظ الشك وإن قيل إنه يستلزم هذا المعنى لكن لفظه لا يدلُّ عليه.

وكذلك إذا قيل: ﴿ذَلِكَ الْكِتَابُ﴾ [سورة البقرة/٢] هذا القرآن، فهذا تقريب، لأنَّ المشار إليه وإن كان واحداً فالإشارة بجهة الحضور غير الإشارة بجهة البعد والغيبة، ولفظ ﴿الْكِتَابُ﴾ يتضمن من كونه مكتوباً مضموناً ما لا يتضمن لفظ القرآن من كونه مقروءاً مظهرأً بادياً، فهذه الفروق موجودة في القرآن.

فإذا قال أحدهم: ﴿أَنْ تُبْسَلَ﴾ [سورة الأنعام/٧٠] أي تُحبس، وقال الآخر: ترتحن، ونحو ذلك؛ لم يكن من اختلاف التضاد، وإن كان الحبوس قد يكون مرتين وقد لا يكون؛ إذ هذا تقريبٌ للمعنى كما تقدم.

وجمعُ عبارات السلف في مثل هذا نافع جداً، فإنَّ مجموعَ عباراتهم أدلُّ على المقصود من عبارة أو عبارتين، ومع هذا فلا بُدَّ من اختلاف مُخَفِّفٍ بينهم، كما يوجد مثل ذلك في الأحكام!!

ثم يقول: والاختلاف قد يكون لخفاء الدليل والذهول عنه، وقد يكون لعدم سماعه، وقد يكون للغلط في فهم النص، وقد يكون لاعتقادٍ معارضٍ راجح، فالمقصود هنا: التعريف بمجمل الأمر دون تفاصيله^(١).

نوعَي الاختلاف في التفسير:

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (٢)

الاختلاف في التفسير على نوعين:

منه ما مستنده النقل فقط، ومنه ما يُعلم بغير ذلك؛ إذ العلمُ إمَّا نقلٌ مُصَدِّقٌ، وإمَّا استدلالٌ مُحَقِّقٌ. والمنقول إمَّا عن المعصوم، وإمَّا عن غير المعصوم.

[النوع الأول: الاختلاف الواقع في التفسير من جهة النقل]:

والمقصود بأنَّ جنس المنقول سواء كان عن المعصوم أو غير المعصوم؛ فمنه يمكن معرفة الصحيح منه والضعيف، ومنه ما لا يمكن معرفة ذلك، وهو ما لا طريق لنا إلى الجزم بالصدق منه، وهذا غائمه مما لا فائدة فيه، والكلام فيه من فضول الكلام.

(١) مقدمة في أصول التفسير/٥٥.

(٢) مقدمة في أصول التفسير/٦٠-٥٥.

وأما ما يحتاج المسلمون إلى معرفته فإنَّ الله تعالى نصب على الحقِّ فيه دليلاً. فمثال ما لا يفيد [أي: في التفسير] ولا دليل على الصحيح منه: اختلافهم في لون كلب أصحاب الكهف، وفي البعض الذي ضرب به موسى من البقرة، وفي مقدار سفينة نوح وما كان خشبها، وفي اسم الغلام الذي قتله الخضر، ونحو ذلك.

فهذه الأمور طريق العلم بها النقل، فما كان من هذا منقولاً نقلاً صحيحاً عن النبي ﷺ كاسم صاحب موسى أنه الخضر، فهذا معلوم^(١).

ومالم يكن كذلك، بل كان مما يؤخذ عن أهل الكتاب كالمقول عن كعب، ووهب، ومحمد بن اسحاق، وغيرهم، ممن يأخذ عن أهل الكتاب.

حكم الأخبار الإسرائيلية:

فهذا لا يجوز تصديقه ولا تكذيبه إلا بحجة، كما ثبت في الصحيح عن النبي ﷺ أنه قال: (إذا حدثكم أهل الكتاب فلا تصدقوهم ولا تكذبوهم؛ فإما أن يحدثوكم بحق فتكذبوه، وإما أن يحدثوكم بباطل فتصدقوهم).

وكذلك ما نقل عن بعض التابعين وإن لم يذكر أنه أخذه عن أهل الكتاب فمتى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض.

حكم أقوال الصحابة في التفسير:

وما نقل في ذلك عن الصحابة نقلاً صحيحاً فالنفس إليه أسكن مما نقل عن بعض التابعين؛ لأنَّ احتمال أن يكون سمعه من النبي ﷺ، أو من بعض من سمعه منه أقوى، ولأنَّ نقل الصحابة عن أهل الكتاب أقل من نقل التابعين، ومع جزم الصحابي بما يقوله: كيف يقال إنه أخذه عن أهل الكتاب، وقد نهوا عن تصديقهم.

والمقصود: أن الاختلاف الذي لا يعلم صحاحه، ولا يفيد حكاية الأقوال فيه، هو كالمعرفة لما يروى من الحديث الذي لا دليل على صحته، وأمثال ذلك.

وأما القسم الأول الذي يمكن معرفة الصحيح منه فهذا موجود فيما يحتاج إليه والله الحمد، فكثيراً ما يوجد في التفسير والحديث والمغازي أمور منقولة عن نبيِّنا ﷺ وغيره من الأنبياء صلوات الله عليهم وسلامه - والنقل الصحيح يدفع ذلك - بل هذا موجود فيما مستنده النقل، وفيما يُعرف بأمرٍ أخرى غير النقل.

(١) ورد ذلك في صحيح البخاري، انظر فتح الباري ج ١/١٣٧.

فالمقصود أنّ المنقولات التي يحتاج إليها في الدّين قد نصب الله الأدلّة على بيان مافيه من صحيح وغيره.

ومعلوم أنّ المنقول في التفسير أكثره كالمنقول في المغازي والملاحم؛ ولهذا قال الإمام أحمد: ثلاثة أمور ليس لها إسناد: التفسير، والملاحم، والمغازي.

ويروى: ليس لها أصل. أي: إسناد؛ لأنّ الغالب عليها المراسيل، مثل ما يذكره عروة بن الزبير، والزهري، وموسى بن عقبة، وابن اسحاق، ومن بعدهم كيحيى بن سعيد الأموي، والوليد بن مسلم، والواقدي، ونحوهم من كتاب المغازي.

فإنّ أعلم الناس بالمغازي أهل المدينة، ثم أهل الشام، ثم أهل العراق؛ فأما أهل المدينة فإنّهم أعلم بها لأنّها كانت عندهم، وأهل الشام كانوا أهل غزو وجهاد، فكان لهم من العلم بالجهاد والسير ما ليس لغيرهم.

أعلم الناس بالتفسير:

وأما التفسير فإنّ أعلم الناس به أهل مكة؛ لأنهم أصحاب ابن عباس، كمجاهد وعطاء بن أبي رباح، وعكرمة مولى ابن عباس، وغيرهم من أصحاب ابن عباس، كطاووس، وأبي الشعثاء، وسعيد بن جبير، وأمثالهم. وكذلك أهل الكوفة من أصحاب عبد الله بن مسعود؛ ومن ذلك ما تميّزوا به على غيرهم!

وعلماء أهل المدينة في التفسير: مثل زيد بن أسلم الذي أخذ عنه مالك التفسير، وأخذه عنه أيضاً ابنه عبد الرحمن، وعبد الله بن وهب.

التحذير من الأحاديث الموضوعة في الفضائل:

وكما أنّ على الحديث أدلّة يُعلم بها أنه صدق، وقد يُقطع بذلك^(١)؛ فعليه أدلّة يُعلم بها أنه كذب، ويُقطع بذلك. مثل ما يُقطع بكذب ما يرويه الرضاعون من أهل البدع والغلو في الفضائل، مثل حديث يوم عاشوراء، وأمثاله ممّا فيه أنّه من صلي ركعتين كان له كأجر كذا وكذا..

وفي التفسير من هذه الموضوعات قطعة كبيرة، مثل الحديث الذي يرويه الثعلبي والواحدي والزمخشري في فضائل سور القرآن، سورة سورة، فإنّه موضوع باتفاق أهل العلم.

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ٧٤-٧٨.

والثعلبي: هو في نفسه كان فيه خير ودين، ولكنه كان حاطب ليل، ينقل ما وجد في كتب التفسير من صحيح وضعيف وموضوع..

والواحدي: صاحبه كان أبصر منه بالعربية، لكن هو أبعد عن السلامة واتباع السلف.

والبغوي: تفسيره مختصر من الثعلبي؛ لكنه صان تفسيره عن الأحاديث الموضوعية، والآراء المبتدعة.

والموضوعات في كتب التفسير كثيرة؛ منها الأحاديث الكثيرة الصريحة في الجهر بالبسملة، وحديث عليّ الطويل في تصدّقه بخاتمه في الصلاة؛ فإنّه موضوع باتفاق أهل العلم. ومثل ما روي في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ [سورة الرعد/٧] إنّ عليّ. وقوله تعالى: ﴿وَتَعْبَهَا أُنْزِلَ وَاعِيَةً﴾ [سورة الحاقة/١٢] إذنك يا عليّ!!؟.

الخلاف الواقع في التفسير من جهة الاستدلال:

وهو النوع الثاني من سببي الاختلاف^(١)؛ وهو ما يعلم بالاستدلال لابلنقل، فهذا أكثر ما فيه الخطأ من جهتين حدّثنا بعد تفسير الصحابة والتابعين وتابعيهم بإحسان.

فإنّ التفاسير التي يُذكر فيها كلام هؤلاء صرفاً لا يكاد يوجد شيء من هاتين الجهتين، مثل تفسير عبد الرزاق، ووكيع، وعبد بن حميد، وعبد الرحمن بن إبراهيم دُحيم. ومثّل تفسير الإمام أحمد، وإسحاق بن راهويه، وبقيّ بن مَخْلَد، وأبي بكر بن المنذر، وسفيان بن عيينة، وشنيد، وابن جرير، وابن أبي حاتم، وأبي سعيد الأشج، وأبي عبد الله بن ماجه، وابن مَرْذَوِيَه.

أحدهما: قومٌ اعتقدوا معاني ثم أرادوا حمل ألفاظ القرآن عليها!!.

والثاني: قوم فسّروا القرآن بمجرد مايسوغ أن يريده مَنْ كان مِنَ النَّاطِقِينَ بلغة العرب بكلامه، من غير نظر إلى المتكلّم بالقرآن، والمنزّل عليه والمُخَاطَب به!!؟.

فالأوّلون راعوا المعنى الذي رآوه من غير نظر إلى ماتستحقه ألفاظ القرآن من الدّلالة والبيان. والآخرون راعوا مجرّد اللفظ، ومايجوز أن يريد به عندهم العربي من غير نظرٍ إلى ما يصلح للمتكلّم، وسياق الكلام.

ثم هؤلاء كثيراً ما يغلطون في احتمال اللفظ لذلك المعنى في اللغة، كما يغلط في

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ٧٩-٩٣/.

ذلك الذين من قبلهم. كما أَنَّ الأولين كثيراً ما يغلطون في صحة المعنى الذي فسروا به القرآن، كما يغلط في ذلك الآخرون، وإن كان نظر الأولين إلى المعنى أسبق، ونظر الآخرين إلى اللفظ أسبق.

والأولون صنفان: تارة يسلبون لفظ القرآن مادلاً عليه، وأريد به، وتارة يحملونه على مالم يدل عليه يُرذ به. وفي كلا الأمرين قد يكون ما قصدوا نفيه أو إثباته من المعنى باطلاً، فيكون خطؤهم في الدليل والمدلول. وقد يكون حقاً فيكون خطؤهم فيه في الدليل لا في المدلول.

وهذا كما أَنه وقع في تفسير القرآن؛ فإنه وقع أيضاً في تفسير الحديث. فالذين أخطأوا في الدليل والمدلول مثل طوائف من أهل البدع؛ اعتقدوا مذهباً يخالف الحق الذي عليه الوسط الذين لا يجتمعون على ضلالة، كسلف الأمة وأئمتها، وعمدوا إلى القرآن فتأولوه على آرائهم تارة، يستدلون بآيات على مذهبهم ولادلالة فيها، وتارة يتأولون ما يخالف مذهبهم بما يُحرّفون به الكلم عن مواضعه.

ومن هؤلاء فرق الخوارج، والروافض، والجهمية، والمعتزلة، والقدرية، والمرجئة، وغيرهم. وهذا كالمعتزلة مثلاً: فإنهم من أعظم الناس كلاماً وجدالاً، وقد صنفوا تفاسير على أصول مذهبهم؛ مثل تفسير عبد الرحمن بن كيسان الأصم، شيخ إبراهيم بن إسماعيل بن عُلَكة الذي كان يُناظر الشافعي. ومثل كتاب أبي عليّ الجبائي، والتفسير الكبير للقاضي عبد الجبار بن أحمد الهمداني، والجامع لعلم القرآن لعليّ بن عيسى الرمانى، والكشاف لأبي القاسم الزمخشري، فهؤلاء وأمثالهم اعتقدوا مذهب المعتزلة، وأصول المعتزلة خمسة، يُسمونها هُم: التوحيد، والعدل، والمترلة بين المترلتين، وإنفاذ الوعيد، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

توحيد المعتزلة:

وتوحيدهم هو توحيد الجهمية الذي مضمونه نفي الصفات، وعن ذلك قالوا: إِنَّ الله لا يُرى، وإنَّ القرآن مخلوق، وإنَّ تعالى ليس فوق العالم، وإنَّه لا يقوم به علم ولا قدرة ولا حياة ولا سمع ولا بصر ولا كلام ولا مشيئة، ولا صفة من الصفات.

وأما عدلهم فمن مضمونه أَنَّ الله لم يشأ جميع الكائنات، ولا خلقها كلها، ولا هو قادر عليها كلها، بل عندهم أَنَّ أفعال العباد لم يخلقها الله، لا خيرها ولا شرها، ولم يُرذ إلا ما أمر به شرعاً، وما سوى ذلك فإنه يكون بغير مشيئة.

وقد وافقهم على ذلك متأخرو الشيعة، كالنفيد، وأبي جعفر الطوسي، وأمثالهم.

ولأبي جعفر هذا تفسير على هذه الطريقة، لكن يضم إلى ذلك قول الإمامية الإثنى عشرية، فإنَّ المعتزلة ليس فيهم مَنْ يقول بذلك، ولا مَنْ ينكر خلافة أبي بكر وعمر وعثمان وعليّ.

ومن أصول المعتزلة مع الخوارج: إنفاذ الزعيد في الآخرة، وأنَّ الله لا يقبل في أهل الكبائر شفاعاً، ولا يخرج منهم أحداً من النار.

ولأرب أنه قد رَدَّ عليهم طوائف من المرجئة والكرامية والكَلَّائية، وأتباعهم. فأخسَّوْا تارة وأسأَوْا أخرى، حتى صاروا في طرفي نقيص، كما قد بُسِّطَ في غير هذا الموضع.

والمقصود: أنَّ مثل هؤلاء اعتقدوا رأياً ثم حملوا ألفاظ القرآن عليه، وليس لهم سلف من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، ولا من أئمة المسلمين، لا في رأيهم ولا في تفسيرهم.

تفاسير المبتدعة عباراتها حسنة ومعانيها باطلة:

وامن تفسير من تفاسيرهم الباطلة إلّا وبطلانه يظهر من وجوه كثيرة؛ وذلك من وجهين: تارة من العلم بفساد قولهم. وتارة من العلم بفساد مافسَّروا به القرآن؛ إمَّا دليلاً على قولهم، أو جواباً عن المُعَارِضِ لهم.

ومن هؤلاء من يكون حسن العبارة، فصيحاً، ويدسّ البدع في كلامه، وأكثر النَّاس لا يعلمون، كصاحب «الكشاف» ونحوه، حتى إنَّه يروج على خلق كثير ممن لا يعتقد الباطل من تفاسيرهم الباطلة ما شاء الله!!.

وقد رأيتُ من العلماء المفسرين وغيرهم مَنْ يذكر في كتابه وكلامه من تفسيرهم ما يوافق أصولهم التي يعلم، أو يعتقد فسادها، ولا يهتدي لذلك؟!.

ضلالات الفرق المنحرفة في التفسير:

ثم إنَّه بسبب تطرُق هؤلاء [إلى هذه التأويلات الباطلة] وضلالهم دخلتِ الرافضةُ الإمامية، ثم الفلاسفة والقرامطة وغيرهم، فيما هو أبلغ من ذلك، وتفاقم الأمر في الفلاسفة والقرامطة والرافضة، فإنَّهم فسَّروا القرآن بأنواع لا يقضي منها العالم عجباً!!.

فتفسير الرافضة: كقولهم: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [سورة المسد/١] هما أبو بكر وعمر، و﴿لَنْ أَسْرَكَتَ لِيْخْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [سورة الزمر/٦٥] أي: بين أبي بكر وعمر،

وعليّ، في الخلافة؟! و﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ [سورة البقرة/ ٦٧] هي عائشة [والخطاب من موسى لبني إسرائيل، فحرّفوه] و﴿فَقَاتِلُوا أَمَّةَ الْكُفْرِ﴾ هما طلحة والزبير؟! و﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ [سورة الرحمن/ ١٩] علي وفاطمة؟! و﴿اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ [الرحمن/ ٢٢] الحسن والحسين. و﴿كُلُّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [سورة يس/ ١٢] في عليّ بن أبي طالب؟! و﴿عَمَّ يَتَسَاءَلُونَ عَنِ النَّبَاِ الْعَظِيمِ﴾ [سورة النبا/ ١-٢] عليّ بن أبي طالب. و﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ [سورة المائدة/ ٥٥] هو عليّ؟! وهم يذكرون الحديث الموضوع بإجماع أهل العلم، وهو تصدّقه بخاتمه في الصلاة؟! وكذلك قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ﴾ [سورة البقرة/ ١٥٧] نزلت في عليّ لما أصيب بحمزة؟!..

انحرافات بعض المفسرين:

ومما يُقارب هذا من بعض الوجوه: ما يذكره كثيرٌ من المفسرين، في مثل قوله تعالى:

﴿الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنْفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالسَّحَارِ﴾ [سورة آل عمران/ ١٧] إِنَّ الصَّابِرِينَ رَسُولَ اللَّهِ، وَالصَّادِقِينَ أَبُو بَكْرٍ، وَالْقَانِتِينَ عُمَرُ، وَالْمُنْفِقِينَ عُثْمَانُ، وَالْمُسْتَغْفِرِينَ عَلِيٌّ؟!

وفي مثل قوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [سورة الفتح/ ٢٩]: أَبُو بَكْرٍ ﴿أَشْدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ عُمَرُ، ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ عُثْمَانُ ﴿تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا﴾ عليّ؟! وأعجب من ذلك قول بعضهم: ﴿وَالَّذِينَ﴾ [سورة التين/ ١-٣]: أَبُو بَكْرٍ، ﴿وَالزَّيْتُونَ﴾ عُمَرُ، ﴿وَطُورِ سِنِينَ﴾ عُثْمَانُ، ﴿وَهَذَا الْبَلَدِ الْأَمِينِ﴾ عليّ؟!

وأمثال هذه الحرافات التي تتضمن تارة تفسير اللفظ بما لا يدلُّ عليه بحال، فإنّ هذه الألفاظ لا تدلُّ على هؤلاء الأشخاص بحال، وقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشْدَاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا﴾ كلُّ ذلك نعتٌ للذين معه، وهي التي يسميها الثُّعَاة: خبراً بعد خبرٍ.

والمقصود هنا أنّها كلها صفاتٌ لموصوفٍ واحد، وهم الذين معه، ولا يجوز أن يكون كلُّ منها مراداً به شخص واحد؟! وتتضمن تارة جعل اللفظ المطلق العام منحصراً في شخص واحد، كقوله: إِنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ

﴿آمنوا﴾ [سورة المائدة/ ٥٥] أريد بها عليّ وحده؟! وقول بعضهم: إن قوله تعالى: ﴿والذي جاء بالصدقِ وصدق به﴾ [سورة الزمر/ ٣٣] أريد بها أبو بكر وحده؟! وقوله تعالى: ﴿لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتحِ وقاتل﴾ [سورة الحديد/ ١٠] أريد بها أبو بكر وحده؟! ونحو ذلك.

حكم من عدل عن مذهب السلف:

وفي الجملة: مَنْ عدَلَ عن مذاهب الصحابة والتابعين وتفسيرهم إلى ما يخالف ذلك كان مخطئاً في ذلك، بل مبتدعاً، وإن كان مجتهداً مغفوراً له خطؤه!!.

فالمقصود: بيان طرق العلم وأدلته، وطرق الصواب. ونحن نعلم أن القرآن قرأه الصحابة والتابعون وتابعوهم، وأنهم كانوا أعلم بتفسيره ومعانيه، كما أنهم أعلم بالحق الذي بعث الله به رسوله ﷺ، فمن خالف قولهم وفسر القرآن بخلاف تفسيرهم فقد أخطأ في الدليل والمدلول جميعاً. ومعلوم أن كُلَّ مَنْ خالف قولهم له شبهة يذكرها؛ إما عقلية، وإما سمعية، كما هو مبسوط في موضعه.

والمقصود هنا: التنبيه على مآثر الاختلاف في التفسير، وأن من أعظم أسبابه: البدع الباطلة التي دعّت أهلها إلى أن حرّفوا الكلم عن مواضعه، وفسّروا كلام الله ورسوله ﷺ بغير ما أريد به، وتأوّلوه على غير تأويله!!.

فمن أصول العلم بذلك: أن يعلم الإنسان القول الذي خالفوه، وأنه الحق، [يعني قول السلف] وأن يعرف أن تفسير السلف يُخالف تفسيرهم، وأن يعرف أن تفسيرهم محدث مبتدع، ثم أن يعرف بالطرق المفصلة فساد تفسيرهم بما نصبه الله من الأدلة على بيان الحق!!.

وكذلك وقع من الذين صنّفوا في شرح الحديث وتفسيره من المتأخرين من جنس ما وقع بما صنّفوه من شرح القرآن وتفسيره.

وأما الذين يُخطئون في الدليل لافي المدلول؛ فمثل كثير من الصوفية، والوعاظ، والفقهاء، وغيرهم؛ يفسّرون القرآن بمعانٍ صحيحة لكن القرآن لا يدلُّ عليها، مثل كثير ممّا ذكره أبو عبد الرحمن السلمي [النيسابوري] في «حقائق التفسير» وإن كان فيما ذكره ما هو معان باطلة، فإن ذلك يدخل في القسم الأول، وهو الخطأ في الدليل والمدلول جميعاً، حيث يكون المعنى الذي قصدوه فاسداً.

الأصل الثالث: أحسنُ طرقِ التفسير

قال رحمه الله تعالى: (١)

فإن قال قائل: فما أحسنُ طرقِ التفسير؟

فالجواب: إنَّ أصحَّ الطرقِ في ذلك أن يُفسَّرَ القرآنُ بالقرآنِ؛ فما أُجْمِلَ في مكانٍ فإنه قد فُسِّرَ في موضعٍ آخر، وما اختصر في مكانٍ فقد بُسِطَ في موضعٍ آخر.

فإن أعياك ذلك فعليك بالثَّنة؛ فإنها شارحة للقرآن وموضحة له، بل قد قال الإمام أبو عبد الله محمد بن إدريس الشافعي: كل ما حكم به رسول الله ﷺ فهو ممَّا فهمه من القرآن! قال الله تعالى: ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلَا تَكُنْ لِلْخَائَتَيْنِ خَصِيمًا﴾ [سورة النساء/١٠٥]، وقال تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل/٤٤]، وقال تعالى: ﴿وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة النحل/٦٤]، ولهذا قال رسول الله ﷺ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْقُرْآنَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ» [أخرجه أبو داود والترمذي] يعني السَّنةَ، والسَّنةُ أيضاً تنزل عليه بالوحي كما ينزل القرآن، لأنها تُتلى كما يُتلى.

وقد استدللَّ الإمامُ الشافعي وغيره من الأئمة على ذلك بأدلة كثيرة، ليسَ هذا موضع ذلك.

والغرض: أنَّك تطلب تفسير القرآن منه، فإن لم تجده فَمِنَ السَّنة، كما قال رسول الله ﷺ لمعاذ حين بعثه إلى اليمن: (بِمَ تحكم)؟ قال: بكتاب الله، قال: (فإن لم تجد)؟ قال: بسنة رسول الله، قال: (فإن لم تجد)؟ قال: أجتهد رأيي، قال: فضرب رسول الله ﷺ في صدره، وقال (الحمد لله الذي وفقَّ رسولَ الله ﷺ لما يرضي رسولَ الله)!! وهذا الحديث في المسانيد والسنن بإسنادٍ جيِّد!!.

تفسير القرآن بأقوال الصَّحابة:

وحينئذ إذا لم تجدِ التفسيرَ في القرآن ولا في السَّنة رجعتَ في ذلك إلى أقوال الصحابة، فإنهم أدرى بذلك؛ لما شاهدوه من القرآن، والأحوال التي اختصَّوا بها، ولما لهم من الفهمِ التامِّ والعلمِ الصحيح، لاسيما علماؤهم وكبراؤهم، كالأئمة الأربعة

(١) مقدمة في أصول التفسير ص ٩٣-١٠٥/

الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين، وعبد الله بن مسعود؛ قال الإمام أبو جعفر محمد ابن جرير الطبري:

حدثنا أبو كريب، قال: أنبأنا جابر بن نوح، أنبأنا الأعمش عن أبي الضحى عن مسروق، قال: قال عبد الله - يعني ابن مسعود -: «والذي لا إله غيره ما نزلت آية من كتاب الله إلا وأنا أعلم فيمن نزلت وأين نزلت، ولو أعلم مكان أحد أعلم بكتاب الله، مني تناله المطايا لأتيته»!!^(١)

وقال الأعمش - أيضاً - عن أبي وائل عن ابن مسعود قال: «كان الرجل منا إذا تعلم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهن»^(٢).

ومنهم الحَبْرُ البحرُ «عبد الله بن عباس» ابن عم رسول الله ﷺ، وترجمان القرآن ببركة دعاء رسول الله ﷺ له حيث قال: (اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل). وقال ابن جرير.. قال عبد الله بن مسعود: «نعم ترجمان القرآن ابن عباس»!!

تفسير السدي:

ولهذا فإن غالب مايرويه إسماعيل بن عبد الرحمن السدي الكبير في تفسيره عن هذين الرجلين: ابن مسعود، وابن عباس! ولكن في بعض الأحيان ينقل عنهم ما يحكون من أقاويل أهل الكتاب التي أباحها رسول الله ﷺ حيث قال: (بَلِّغُوا عَنِّي وَلَوْ آيَةً، وَحَدِّثُوا عَن بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَاخَرَجَ، وَمَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَدًّا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ فِي النَّارِ)، رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو.

ولهذا كان عبد الله بن عمرو قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب، فكان يحدث منهما، بما فهمه من هذا الحديث من الإذن في ذلك.

الغاية من ذكر الأخبار الإسرائيلية:

ولكن هذه الأحاديث الإسرائيلية تُذَكِّرُ للاستشهاد بالاعتقاد؛ فإنها على ثلاثة أقسام، أحدها: ما علمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق، فذاك صحيح. والثاني: ما علمنا كذبه بما عندنا مما يخالفه. والثالث: ما هو مسكوت عنه، لامن هذا القبيل، ولامن هذا القبيل؛ فلا نُؤمن به ولا نكذبه، وتجاوز حكايته، لما تقدم. وغالب ذلك مما لا فائدة فيه تعود إلى أمر ديني!!

(١) تفسير الطبري ج ١/ ٨٠.

(٢) وقد تقدم نحو هذا عن أبي عبد الرحمن السلمي في أول البحث.

تفسير القرآن بأقوال التابعين :

إذا لم تجد التفسير في القرآن ولا في السنة، ولا وجدته عن الصحابة؛ فقد رجع كثير من الأئمة في ذلك إلى أقوال التابعين كمجاهد بن جبر، فإنه آية في التفسير!! كما قال محمد بن إسحاق: حدثنا أبان بن صالح عن مجاهد قال: عرضت المصحف على ابن عباس ثلاث عرصات من فاتحته إلى خاتمته، أوقفه عند كل منه وأسأله عنها!!.

وبه إلى الترمذي قال: حدثنا الحسين بن مهدي البصري، حدثنا عبد الرزاق، عن معمر عن قتادة قال: ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً!!.

وبه إليه: عن الأعمش قال: قال مجاهد: لو كنت قرأت قراءة ابن مسعود لم أحتج أن أسأل ابن عباس عن كثير من القرآن مما سألت.

وقال ابن جرير: عن ابن أبي مليكة قال: رأيت مجاهداً سأل عن تفسير القرآن، ومعه الواح، قال ابن عباس: اكتب، حتى سأله عن التفسير كله!!.

ولهذا كان سفيان الثوري يقول: إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به!! وكسعيد بن جبير، وعكرمة مولى ابن عباس، وعطاء بن أبي رباح، والحسن البصري، ومسروق بن الأجدع، وسعيد بن المسيب، وأبي العالية، والربيع بن أنس، وقاتدة، والضحاك بن مزاحم، وغيرهم من التابعين وتابعيهم، ومن بعدهم!!.

فتذكر أقوالهم في الآية، فيقع في عباراتهم تباين في الألفاظ يحسبها من لا علم عنده اختلافاً، فيحكى أقوالاً، وليس كذلك؛ فإن منهم من يعبر عن الشيء بلازمه أو نظيره. ومنهم من ينص على الشيء بغيره. والكل بمنى واحد في كثير من الأماكن، فليفتنن اللبيب لذلك. والله الهادي.

قاعدة مهمة في مكانة أقوال التابعين :

وقال شعبة بن الحجاج وغيره: أقوال التابعين في الفروع ليست حجة، فكيف تكون حجة في التفسير؟! يعني: أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم. وهذا صحيح، أما إذا اجتمعوا على الشيء فلا يرتاب في كونه حجة، فإن اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض، ولا على من بعدهم، ويرجع في ذلك إلى لغة القرآن أو السنة، أو عموم لغة العرب، أو أقوال الصحابة في ذلك!!^(١).

(١) مقدمة في أصول التفسير/١٠٥/.

التأويل والتفسير

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى (١):

التأويل: في عُرْفِ المتأخرين من المتفقهة والمتكلمة والمتصوفة ونحوهم هو صرف اللفظ عن المعنى الراجع إلى المعنى المرجوح لدليل يقترن به، وهذا هو التأويل الذي يتكلمون عليه في أصول الفقه، ومسائل الخلاف. فإذا قال أحدهم: هذا الحديث أو هذا النص مؤولٌ أو هو محمولٌ على كذا؛ قال الآخر: هذا نوعٌ تأويل، والتأويل يحتاج إلى دليل.

والتأويل عليه وظيفتان: بيان احتمال اللفظ للمعنى الذي ادّعاه، وبيان الدليل الموجب للصرف إليه عن المعنى الظاهر، وهذا هو التأويل الذي يتنازعون فيه في مسائل الصفات إذا صتَق بعضهم في إبطال التأويل، أو ذَمَّ التأويل، أو قال بعضهم: آيات الصفات لا تُؤوَّل، وقال الآخر: بل يجب تأويلها، وقال الثالث: بل التأويل جائزٌ يُفعل عند المصلحة ويُترك عند المصلحة، أو يصلح للعلماء دون غيرهم، إلى غير ذلك من المقالات والتنازع.

التأويل عند السلف:

وأما التأويل في لفظ السلف فله معنيان:

أحدهما: تفسير الكلام وبيان معناه، سواء وافق ظاهره أم خالفه، فيكون التأويل والتفسير عند هؤلاء متقاربا أو مترادفاً. وهذا - والله أعلم - هو الذي عناه مجاهد: أن العلماء يعلمون تأويله، ومحمد بن جرير الطبري، يقول في تفسيره: القول في تأويل قوله تعالى كذا وكذا، واختلف أهل التأويل في هذه الآية ونحو ذلك، ومراده التفسير.

والمعنى الثاني: في لفظ السلف - وهو الثالث من مسمى التأويل مطلقاً هو: «نفس

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ١٣/ ٢٨٨-٣١٣/ باختصار.

المراد بالكلام؛ فإنَّ الكلام إن كان طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشيء المُخْبَرُ به .

وبين هذا المعنى والذي قبله بَيِّنٌ؛ فإنَّ الذي قبله يكون التأويل فيه من باب العلم والكلام؛ كالتفسير والشرح والإيضاح، ويكون وجود التأويل في القلب واللسان له الوجود الذهني واللفظي والرسمي .

وأما هذا [وهو الثالث من مسمّى التأويل] فالتأويل فيه نفس الأمور الموجودة في الخارج، سواء كانت ماضية أو مستقبلية... فتأويل الكلام هو الحقائق الثابتة في الخارج بما هي عليه من صفاتها وشؤونها وأحوالها، وتلك الحقائق لاتعرف على ماهي عليه بمجرد الكلام والإخبار إلّا أن يكون المستمع قد تصوّرها أو تصوّر نظيرها بغير كلام وإخبار، لكن يعرف من صفاتها وأحوالها قدر ما أفهمه المُخاطَبُ: إمّا بضرب المثل، وإمّا بالتقريب، وإمّا بالقدر المشترك بينها وبين غيرها، وإمّا بغير ذلك .

وهذا الوضعُ والعُرف الثالث هو لغة القرآن التي نزلَ بها .

قال الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ [سورة النساء/٥٩]؛ قالوا: أحسن عاقبة ومصيراً. فالتأويل هنا: تأويل فعلهم الذي هو الرُّدُّ إلى الكتاب والسنة. والتأويلُ في سورة يوسف تأويل أحاديث الرؤيا؛ فتأويلها هي نفس مدلولها التي تؤولُ إليه^(١). والتأويل في الأعراف ويونس^(٢) تأويل القرآن، وكذلك في سورة آل عمران^(٣).

فالتأويل: هو ماؤولُ إليه الكلام أو يؤولُ إليه، أو تأولُ هو إليه. والكلامُ إنّما يرجع ويعود ويستقرّ، ويؤُولُ ويؤُولُ إلى حقيقته التي هي عين المقصود به، كما قال بعض السلف في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ [سورة الأنعام/٦٧] قال: حقيقة، فإنّه إن كان خبراً فإلى الحقيقة المخبر بها يؤُولُ ويرجع، وإلّا لم تكن له حقيقة ولا مآل ولا مرجع، بل كان كذباً. وإن كان طلباً فإلى الحقيقة المطلوبة يؤُولُ ويرجع، وإن لم يكن مقصوده موجوداً ولا حاصلًا. ومتى كان الخبر وعداً أو وعيداً فإلى الحقيقة

(١) سورة يوسف آية/٦، ٢١، ٤٤، ١٠٠، ١٠١/.

(٢) سورة الأعراف/٥٣ وسورة يونس/٣٩.

(٣) سورة آل عمران/٧: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ...﴾. والتأويل في سورة الكهف/٧٨، ٨٢: ﴿ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ فهو تأويل عمل لا تأويل قول.

المطلوبة المتظرة يؤول، كما رُوي عن النبي ﷺ أنه تلا هذه الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَمِثَّ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِنْ فَوْقِكُمْ أَوْ مِنْ تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبَسَكُمْ شِيعًا﴾ [سورة الأنعام/٦٥] قال: (إنها كائنة ولم يأت تأويلها بعد).

تأويل الأسماء والصفات:

وأما إدخال أسماء الله تعالى وصفاته في المتشابه الذي لا يعلم تأويله إلا الله، أو اعتقاد أن ذلك هو المتشابه الذي استأثر الله بعلم تأويله.. وأنه لا يفهم معناه؛ فإني ما أعلم عن أحد من سلف الأمة ولا من الأئمة، لأحمد بن حنبل ولا غيره أنه جعل ذلك من المتشابه الداخل في هذه الآية، ونفى أن يعلم أحد معناه. وجعلوا أسماء الله وصفاته بمنزلة الكلام الأعجمي الذي لا يفهم، وقالوا: إن الله يُنزل كلاماً لا يفهم أحد معناه، وإنما قالوا كلمات لها معان صحيحة. قالوا في أحاديث الصفات: تمر كما جاءت. ونهوا عن تأويلات الجهمية ورذوها وأبطلوها..

ونصوص أحمد والأئمة قبله بيّنة في أنهم كانوا يُطْلون تأويلات الجهمية ويُقرّون النصوص على ما دلّت عليه من معناه، ويفهمون منها بعض ما دلّت عليه، كما يفهمون ذلك من سائر نصوص الوعد والوعيد والفضائل وغير ذلك.

ثم قال رحمه الله تعالى:

وأما التأويل الذي اختصّ الله به حقيقة ذاته وصفاته؛ كما قال مالك: والكيف مجهول. فإذا قالوا: ما حقيقة علمه وقدرته وسمعه وبصره؟ قيل: هذا هو التأويل الذي لا يعلمه إلا الله!!

وما أحسن ما يُعاد التأويل إلى القرآن كله!!

فإن قيل: فقد قال النبي ﷺ لابن عباس: (اللهم فقهني في الدين وعلمني التأويل)؟ قيل: أما تأويل الأمر والنهي فذاك يعلمه، واللام هنا للتأويل المعهود، ولم يقل: تأويل كل القرآن؛ فالتأويل المنفي هو تأويل الأخبار التي لا يعلم حقيقة مخبرها إلا الله، والتأويل المعلوم هو الأمر الذي يعلم العباد تأويله، وهذا كقوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ، يَوْمَ يَأْتِي تَأْوِيلَهُ﴾ [سورة الأعراف/٥٣]، وقوله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلَهُ﴾ [سورة يونس/٣٩]؛ فإن المراد تأويل الخبر الذي أخبر فيه عن المستقبل، فإنه هو الذي "يتظر" و"يأتي" و"لَمَّا يَأْتِهِمْ". وأما تأويل الأمر والنهي فذاك في الأمر والنهي. وتأويل الخبر عن الله وعمّن مضى إن أدخل في التأويل

لَا يُتَظَرُّ. والله سبحانه أعلم.

وقال رحمه الله في قول الإمام مالك: «والكيف مجهول» لما سُئِلَ عن الاستواء:
ولو أراد لقال: معنى الاستواء مجهول، أو تفسير الاستواء مجهول، أو بيان
الاستواء غير معلوم؛ فلم يَنْفِ إِلَّا العلم بكيفية الاستواء لا العلم بنفس الاستواء.
وهذا شأن جميع ما وصف الله به نفسه^(١).

فلو قال أحدٌ في قوله تعالى: ﴿إِنِّي مَعَكُمْ أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ كَيْفَ يَسْمَعُ؟ وكيف
يَرَى؟ لقلنا: السَّمْعُ والرُّؤْيَا معلومٌ والكيف مجهول!! ولو قال: كَيْفَ كَلَّمَ موسى
تَكْلِيمًا؟ لقلنا: التَّكْلِيمُ معلومٌ والكيف غير معلوم!!.

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ١٣ / ٣١٠.

حكم تفسير القرآن بالرأي

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:

فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام؛ حدثنا مؤمل، حدثنا سفيان، حدثنا عبد الأعلى، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، قال: قال رسول الله ﷺ: (مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ بغيرِ عِلْمٍ فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ) [ورواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن / ١ / وقال: هذا حديث حسن صحيح].

وهكذا روي عن بعض أهل العلم من أصحاب النبي ﷺ وغيرهم أنهم شددوا في أَنْ يفسَّرَ القرآن بغير علم.

وأما الذي روي عن مجاهد وقتادة، وغيرهما من أهل العلم أنهم فسَّروا القرآن؛ فليس الظنُّ بهم أنهم قالوا في القرآن أو فسَّروه بغير علم، أو من قبل أنفسهم.

وقد روي عنهم ما يدلُّ على ما قلنا: أنهم لم يقولوا مِنْ قَبْلِ أَنْفسِهِمْ بغير علم. فمَنْ قال في القرآن برأيه فقد تكلف ما لا علم له به، وسلك غير ما أمر به. فلو أنه أصاب المعنى في نفس الأمر لكان قد أخطأ لأنه لم يأت الأمر من بابه! ^(١) كَمَنْ حكم بين الناس على جهل فهو في النار، وإن رافق حكمه الصواب في نفس الأمر، لكن يكون أخف جرماً ممن أخطأ. والله أعلم. وهكذا سمى الله تعالى القذفة كاذبين، فقال: ﴿فَإِذَا لَمْ يَأْتُوا بِالشَّهَادَةِ فَأُولَئِكَ عِنْدَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [سورة النور/ ١٣]، فالقاذف كاذب، ولو كان قد قذف من زنى في نفس الأمر؛ لأنه أخبر بما لا يحلُّ له الإخبار به، وتكلف ما لا علم له به. والله أعلم ^(٢).

ولهذا تخرج جماعة من السلف عن تفسير ما لا علم لهم به، كما روى شعبة عن سليمان عن عبد الله بن مرة، عن أبي معمر، قال: قال أبو بكر الصديق: أيُّ أرضٍ

(١) وقد روى أن رسول الله ﷺ قال: (مَنْ قَالَ فِي الْقُرْآنِ برأيه فَأَصَابَ فَقَدْ أَخْطَأَ) رواه الترمذي، وقال: غريب/ كتاب التفسير/ ١ / .

(٢) مقدمة في أصول التفسير / ١١٥-١٠٥ / باختصار.

تَقْلُنِي وَأَيُّ سَمَاءٍ تُظَلِّلُنِي إِذَا قُلْتُ فِي كِتَابِ اللَّهِ مَا لَا أَعْلَمُ؟^(١).

وقال الليث عن يحيى بن سعيد: عن سعيد بن المسيب إنه كان لا يتكلم إلا في المعلوم من القرآن!!.

وقال شعبة عن عبد الله بن أبي الشَّفَر، قال: قال الشعبي: والله مامن آية إلا وقد سألت عنها، ولكنها الرواية عن الله!!.

وقال الشعبي عن مسروق، قال: اتقوا التفسير؛ فإنما هو الرواية عن الله!! فهذه الآثار الصحيحة وماشاكلها عن أئمة السلف، محمولة على تحرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه.

ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوالاً في التفسير، ولا منافاة؛ لأنهم تكلموا فيما علموه، وسكتوا عما جهلوه. وهذا هو الواجب على كل أحد، فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به، فكذلك يجب القول فيما شئل عنه مما يعلمه؛ لقوله تعالى: ﴿لَيْسَ لِلنَّاسِ الْغَيْبُ إِلَّا بِمَا عَرَفُوا﴾ [سورة آل عمران/ ١٨٧]، ولما جاء في الحديث المروي من طريقي: (مَنْ شِئَلَ عَنْ عِلْمٍ فَكْتَمَهُ أَلْجِمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ) [رواه الطبراني ورجاله موثقون].

وروى ابن جرير أن ابن عباس قال:

التفسير على أربعة أوجه: وجه تعرفه العرب من كلامها. وتفسير لا يُعَذَّرُ أحدٌ بجهالة. وتفسير يعلمه العلماء. وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى. والله سبحانه أعلم.

حكم تفسير الباطنية:

قال رحمه الله تعالى: ^(٢)

وأما الباطن المخالف للظاهر لمعلوم فمثل ما يدعيه الباطنية القرامطة من الإسماعيلية وأمثالهم، ممن وافقهم من الفلاسفة وغلاة المتصوفة والمتكلمين.

وشر هؤلاء «القرامطة» فإنهم يدعون أن للقرآن والإسلام باطناً يخالف الظاهر؛ فيقولون: الصلاة المأمور بها ليست هذه الصلاة، أو هذه الصلاة إنما يؤمر بها العامة، وأما الخاصة فالصلاة في حقهم معرفة أسرارنا. والصيام كتمان أسرارنا. والحج السفر

(١) وذلك لما شئل عن قوله تعالى: ﴿وفاكهةً وابتاً﴾ ما هو الأب؟ فقال ذلك، وكان هذا اللفظ لم يطرُق سمعه من لغة العرب.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ١٣/ ٢٣٦-٢٤٠.

إلى زيارة شيوخنا المقدسين.

ويقولون: إِنَّ الْجَنَّةَ لِلْخَاصَّةِ: هي التمتع في الدنيا باللذات. والنَّارُ: هي التزام الشرائع والدخول تحت أنقالها.

ويقولون: إِنَّ الدَّابَّةَ التي يخرجها الله للنَّاسِ هي العالم الناطق بالعلم في كل وقت. وَإِنَّ إِسْرَافِيلَ الذي ينفخ في الصور هو الْعَالِمُ الذي ينفخ بعلمه في القلوب حتى تحيا. وجبريل: هو العقل الفعَّال الذي تفيض عنه الموجودات. والقلمُ: هو العقل الأول الذي تزعم الفلاسفة: إِنَّهُ المبدع الأول. وَأَنَّ الكواكب والقمر والشمس التي رآها إبراهيم هي النفس والعقل وواجب الوجود. وَأَنَّ الأنهار الأربعة التي رآها النبي ﷺ ليلة المعراج هي العناصر الأربعة. وَأَنَّ الأنبياء التي رآها في السماء هي الكواكب، فآدم هو القمر، ويوسف هو الزهرة، وإدريس هو الشمس، وأمثال هذه الأمور.

وقَدْ دَخَلَ في كثير من أقوال هؤلاء كثيرٌ من المتكلمين والمتصوفين؛ لكنَّ أولئك القرامطة ظاهرهم الرفض وباطنهم الكفرُ المحض؟!.

وعامة الصوفية والمتكلمين ليسوا رافضة يُقَسِّقُونَ الصحابة، ولا يكفرونهم؛ لكن فيهم مَنْ هو كالزيدية الذين يُفَضِّلُونَ عَلِيًّا عَلَى أَبِي بَكْرٍ، وفيهم مَنْ يَفْضِلُ عَلِيًّا فِي الْعِلْمِ الْبَاطِنِ كطريقة الحربيِّ وأمثاله، ويدَّعون أَنَّ عَلِيًّا كَانَ أَعْلَمَ بِالْبَاطِنِ، وَأَنَّ هَذَا الْعِلْمَ أَفْضَلُ مِنْ جِهَتِهِ - وَأَبُو بَكْرٍ كَانَ أَعْلَمَ بِالظَّاهِرِ. وهؤلاء عكس محققي الصوفية وأئمتهم، فَإِنَّهُمْ مُتَّفِقُونَ عَلَى أَنَّ أَعْلَمَ الْخَلْقِ بِالْإِلْمِ الْبَاطِنِ هُوَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَقَدْ اتَّفَقَ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ عَلَى أَنَّ أَبَا بَكْرٍ أَعْلَمُ الْأُمَّةَ بِالْبَاطِنِ وَالظَّاهِرِ، وَحَكِي الْإِجْمَاعِ عَلَى ذَلِكَ غَيْرِ وَاحِدٍ.

تفسيرات الباطنية:

وهؤلاء الباطنية قد يفسِّرون: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ أَحْصَيْنَاهُ فِي إِمَامٍ مُبِينٍ﴾ [سورة يس/ ١٢]؛ أَنَّهُ عَلِيٌّ؟! وَيُقَسِّرونَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿تَبَّتْ يُكَا أُمِّي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [سورة المسد/ ١] بِأَنَّهُمَا أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟! وَقَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ﴾ [سورة التوبة/ ١٢] أَنَّهُمْ طَلْحَةُ وَالزُّبَيْرُ. وَقَوْلُهُ: ﴿وَالشَّجَرَةُ الْمُلْعُونَةُ فِي الْقُرْآنِ﴾ [سورة الإسراء/ ٦٠] بِأَنَّهُا بَنُو أُمَيَّةٍ؟!

الباطنية الصوفية:

وَأَمَّا بَاطِنِيَّةُ الصُّوفِيَّةِ فيقولون في قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اذْهَبْ إِلَى فِرْعَوْنَ﴾ [سورة طه/ ٢٤] إِنَّهُ الْقَلْبُ؟! وَقَوْلُهُ: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقْرَةً﴾ [سورة البقرة/ ٦٧]؛ إِنَّهَا

النفس؟! ويقول أولئك [أي الرافضة] هي عائشة؟! ويُفسّرون هم والفلاسفة تكليم موسى بما يفيض عليه من العقل الفعّال أو غيره، ويجعلون: ﴿فَاخْلُغْ نَعْلِكَ﴾ [سورة طه/١٢] ترك الدنيا والآخرة؟! ويُفسّرون الشجرة التي كلّم منها موسى و﴿الوادي المقدّس﴾ [سورة طه/١٢] ونحو ذلك بأحوال تعرض للقلب عند حصول المعارف له، وممّن سلّك ذلك صاحب «مشكاة النوار» وأمثاله، وهي ممّا أعظم المسلمون إنكاره عليه، وقالوا: أمرضة «الشفاء»^(١)، وقالوا: دخل في بطون الفلاسفة، ثم أراد أن يخرج فما قدر! ومن الناس من يطعن في هذه الكتب، ويقول: إنّها مكذوبة عليه. وآخرون يقولون: بل رجع عنها، وهذا أقرب الأقوال؛ فإنّه قد صرّح بكفر الفلاسفة في مسائل، وتضليلهم في مسائل أكثر منها وصرّح بأنّ طريقهم لاتوصل إلى المطلوب.

باطنية الفلاسفة:

وباطنية الفلاسفة يُفسّرون الملائكة والشياطين بقوى النفس، وما وعد الناس به في الآخرة بأمثال مضروبة لتفهيم مايقوم بالنفس بعد الموت من اللذة والألم، لايبائبات حقائق منفصلة يتتبع بها ويتألّم بها، وقد وقع في هذا الباب في كلام كثير من متأخري الصوفية، مالم يُوجد مثله عن أئمتهم ومتقدّمين، كما وقع في كلام كثير من متأخري أهل الكلام والنظر من ذلك مالا يُوجد عن أئمتهم ومتقدّميهم.

وهؤلاء المتأخّرين - مع ضلالهم وجهلهم - يدّعون أنّهم أعلم وأعرف من سلف الأئمة ومتقدّميها، حتى آل الأمرُ بهم إلى أن جعلوا الوجودَ واحداً، كما فعل ابن عربي صاحب «الفصوص» وأمثاله، فإنّهم دخلوا من هذا الباب حتى خرجوا من كلّ عقلٍ ودين!! وهم يدّعون مع ذلك أنّ الشيوخ المتقدّمين: كالجنيد بن محمد وسهل بن عبد الله التستري، وإبراهيم الخواص، وغيرهم ماتوا وماعرفوا التوحيد...

ثم إنّهم [أي باطنية الفلاسفة] يدّعون أنّهم أعلم بالله من المرسلين، وأنّ الرسل إنّما تستفيد معرفة الله من مشكّاتهم؟! ويُفسّرون القرآن بما يُوافق باطنهم الباطل، كقوله تعالى: ﴿مما خطيئتهم﴾ [سورة نوح/٢٥] فهي التي خطت بهم ففرقوا في بحار العلم بالله؟! وقولهم: إنّ العذاب مشتق من العذوبة؟! ويقولون؟! ويقولون: إنّ كلام نوح في حقّ قومه ثناءٌ عليهم بلسان الذم؟! ويُفسّرون قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَوَاءٌ عَلَيْهِمْ أُنذِرْتَهُمْ أَمْ لَمْ تُنذِرْهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [سورة البقرة/٦] بعلم الظاهر، بل «ختم الله

(١) وهو كتاب في الفلسفة وضعه ابن سينا، والمقصود هنا الإمام الغزالي.

على قلوبهم ﴿ فلا يعلمون غيره ﴾ وعلى سمعهم وعلى أبصارهم ﴿ فلا يسمعون من غيره ولا يرون غيره، فإنه لاغير له فلا يرون غيره ﴾ (١) ٢١.

ويقولون في قوله تعالى: ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ [سورة الإسراء/٢٣]، أن معناه: قدّر ذلك، لأنه ليس ثمّ موجود سواه، فلا يُتصوّر أن يُعبد غيره، فكلّ مَنْ عبد الأصنام والعجل ماعبدَ غيره، لأنه مائثمٌ غير؟! وأمثال هذه التأويلات والتفسيرات التي يعلم كلّ مؤمن وكلّ يهودي ونصراني علماً ضرورياً إنها مخالفة لما جاءت به الرسل، كموسى وعيسى ومحمد صلى الله عليهم أجمعين.

مزاعم ابن سينا وأصحاب رسائل إخوان الصفا:

إن القرامطة وأمثالهم من الفلاسفة يقولون (٢):

إنّه [أي النبي ﷺ] أظهر خلاف ما بطن؛ وأنه خاطب العامة بأمرٍ أرادَ بها خلاف ما فهمهم لأجل مصلحتهم؛ إذ كان لا يمكنه صلاحهم إلّا بهذا الطريق، وقد زعم ذلك ابن سينا وأصحاب «رسائل إخوان الصفا» وأمثالهم من الفلاسفة والقرامطة الباطنية؛ فإنّ ابن سينا كان هو وأهل بيته من أتباع الحاكم القرمطي العبيدي، الذي كان بمصر.

وقول هؤلاء كما أنه من أكفر الأقوال فجهلهم من أعظم الجهل!!..

الملاحدة شرٌّ من المنافقين:

والملاحدة يُظهرون موافقة المسلمين ويُطنون خلاف ذلك.

وهم شرٌّ من المنافقين؛ فإنّ المنافقين نوعان:

نوعٌ يُظهر الإيمان ويبطن الكفر، ولا يدعي أنّ الباطن الذي يُطن من الكفر هو حقيقة الإيمان، والملاحدة تدعي أنّ ما بطن من الكفر هو حقيقة الإيمان!! وأنّ الأنبياء والأولياء هم من جنسهم، يُطنون ما يُطنونه ممّا هو كفرٌ وتعطيل، فهم يجمعون بين إبطان الكفر وبين دعواهم أنّ ذلك الباطن هو الإيمان عند أهل العرفان، فلا يظهرون للمستجيب لهم أنّ باطنه طعنٌ في الرسول ﷺ والمؤمنين، وتكذيب له، بل يجعلون ذلك من كمال الرسول وتمام حاله، وأنّ الذي فعله هو الغاية في الكمال...

(١) ومثل هذا التفسير الإلحادي في تفسير القاشاني - أحد الملاحدة - الذي وضعه ونسبه إلى ابن عربي؛ ليروّجه بين الناس.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ١٣/ ٢٤٩.

وهذا قد يظنه طوائف حقاً باطنياً وظاهراً، فيؤولا أمرهم إلى أن يكون النفاق عندهم هو حقيقة الإيمان، وقد عُلِمَ بالاضطرار أن النفاق ضد الإيمان.

مدخل الملاحظة: التشيع والرفض:

ولهذا كان أعظم الأبواب التي يدخلون منها باب التشيع والرفض؛ لأن الرافضة هم أجهل الطوائف وأكذبها وأبعدها عن معرفة المنقول والمعقول، وهم يجعلون التقية من أصول دينهم، ويكذبون على أهل البيت كذباً لا يحصى إلا الله، حتى يرووا عن جعفر الصادق أنه قال: «التقية ديني ودين آبائي»؟! و«التقية» هي شعار النفاق؛ فإن حقيقتها عندهم أن يقولوا بالسّتهم مالم يس في قلوبهم، وهذا حقيقة النفاق!!

ثم إذا كان هذا من أصول دينهم صار كل ما ينقله الناقلون عن عليّ أو غيره من أهل البيت ممّا فيه موافقة أهل السنة والجماعة يقولون: هذا قالوه على سبيل التقية؛ ثم فتحوا باب النفاق للقرامطة الباطنية.. ونحوهم؛ فجعلوا ما يقوله الرسول ﷺ هو من هذا الباب [باب النفاق والإلحاد]^(١)..

فنسأل الله العظيم أن يصلح ظواهرنا وبواطننا، ويوفقنا لما يحبه ويرضاه من جميع أمورنا بمَنِّه وكرمه..

حكم ترجمة معاني القرآن لغير العرب

جواز اتخاذ المترجم:

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (١)

وكذلك يمكن أن يُقرأ من نسخة مترجمة بالعربية؛ قد ترجمها الثقات من المسلمين، كزيد بن ثابت ونحوه لما أمره النبي ﷺ أن يتعلم ذلك، والحديث معروف في السنن (٢)، وقد احتج به البخاري في باب «ترجمة الحاكم، وهل يجوز [اتخاذ] ترجمان؟ قال: وقال خارجة بن زيد بن ثابت عن زيد بن ثابت: «أَنَّ النبي ﷺ أمره أن يتعلم كتاب اليهود، حتى كتبُ للنبي ﷺ كُتبه، وأقرأته كتبهم إذا كتبوا إليه» (٣).

يشترط في المترجم أن يكون مسلماً ثقةً:

قال رحمه الله تعالى: (٤)

[تجوز] بواسطة المترجمين الثقات من المسلمين.

[فإنَّ غير المسلمين كاليهود] فإنَّهم كانوا: «يلوون أَلَسْتَهُمْ بالكتاب لتحسبوه من الكتاب وما هو من الكتاب» [سورة آل عمران/٧٨] و«يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله» [سورة البقرة/٧٩]، ويكذبون في كلامهم وكتابهم، فلهذا لا تقبل الترجمة إلا من ثقة [من المسلمين].

وإذا كان من المعلوم: أنَّ أكثر المسلمين، بل أكثر المتتبعين منهم إلى العلم، لا يقومون بترجمة القرآن وتفسيره وبيانه؛ فلأن يعجز غيرهم عن ترجمة ما عنده وبيانه

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج٤/١١١/ وكتاب نقض المنطق: لابن تيمية ص٩٣/.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه في كتاب العلم.

(٣) البخاري تعليقاً في كتاب الأحكام/٤٠/.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج٤/١١٢/ ونقض المنطق له ص٩٢/٩٣/.

أولى بذلك؛ لأنَّ عقل المسلمين أكمل... ولغتهم أوسع... (١)
ترجمة معاني القرآن ليست قرآناً:

قال رحمه الله تعالى: (٢)

فكذلك إذا قُدِّرَ أنا ترجمنا القرآن ترجمة جائزة؛ لم يُقَلَّ: إنَّ الترجمة «قرآن»، ولم نُسمَّها «قرآناً».

وذلك إن كان للترجمة ضرورة، كتعليم غير العرب معاني العقيدة من القرآن، وكذلك لتبليغ الدعوة إلى الأمم. ولغير ذلك فإنه رحمه الله تعالى يقول: (٣)
ونحن مُتَعَنِّاتٌ من ترجمة القرآن؛ لأنَّ لفظه مقصودٌ!!.

والترجمة [التفسيرية] ثلاث طبقات:

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: (٤)

والترجمة والتفسير ثلاث طبقات:

أحدها: ترجمة مجرد اللفظ، مثل نقل اللفظ بلفظ مرادف، ففي هذه الترجمة تريد أن تعرف أنَّ الذي يعني بهذا اللفظ عند هؤلاء هو بعينه الذي يعني باللفظ عند هؤلاء. فهذا علمٌ نافع؛ إذ كثير من الناس يقيّد المعنى باللفظ، فلا يجرده عن اللفظين جميعاً.

والثاني: ترجمة المعنى وبيانه، بأن يصوّر المعنى للمخاطب، فتصوير المعنى له وتفهمه إياه قدرٌ زائد على ترجمة اللفظ، كما يشرح للعربي كتاباً عربياً قد سمع ألفاظه العربية، لكنّه لم يتصوّر معانيه ولا فهمها، وتصوير المعنى يكون بذكر عينه أو نظيره، إذ هو تركيب صفات من مفردات يفهمها المخاطب يكون ذلك المركبُ صور ذلك المعنى: إمّا تحديداً وإمّا تقريباً.

الدرجة الثالثة: بيان صحة ذلك وتحقيقه بذكر الدليل والقياس الذي يُحقّق ذلك المعنى، إمّا بدليل مجرد وإمّا بدليل يبيّن علّة وجوده.

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ج ٤/١١٦ ونقض المنطق ص ٩٨.

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ٦/٥٤٣.

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ٢٢/٤٧٧.

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ج ٤/١١٥-١١٧، ونقض المنطق له ص ٩٧-٩٨.

وهنا قد يحتاج إلى ضرب أمثلة ومقاييس تفيده التصديق بذلك المعنى، كما يحتاج في «الدرجة الثانية» إلى أمثلة تصوّر له ذلك المعنى. وقد يكون نفس تصوّره مفيداً للعلم بصدقه. وإذا كفى تصوّر معناه في التصديق به لم يحتج إلى قياس، ومثّل ودليل آخر.

فإذا عُرف القرآن هذه المعرفة؛ فالكلام الذي يوافقه أو يخالفه من كلام أهل الكتاب... لابدّ فيه من الترجمة للفظ والمعنى أيضاً. وحيثُذ فالقرآن فيه تفصيل كل شيء، كما قال تعالى: ﴿مَا كَانَ حَدِيثًا يُفْتَرَى وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة يوسف/١١١]، وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ [سورة النحل/٨٩].

ومعلوم أنّ الأمة مأمورة بتبليغ القرآن لفظه ومعناه، كما أمرَ بذلك الرسول ﷺ، ولا يكون تبليغ رسالة الله إلّا كذلك.

وأنّ تبليغه إلى المعجم قد يحتاج إلى ترجمة لهم، فيُترجم لهم بحسب الإمكان. والترجمة قد تحتاج إلى ضرب أمثال لتصوير المعاني؛ فيكون ذلك من تمام الترجمة.

البحث الخامس

أثر علم الكلام على بعض علماء الإسلام

حالة علم الكلام من نشأته إلى تأصيله ثم تفنيده

كانت العقيدة الإسلامية في عهدها النبوي صافية المأخذ، سليمة من كل العوائق التي لحقتها من جزاء نشوء علم الكلام، يأخذها المسلمون عن كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ من غير مناقشة أو تردد، فكانوا يعتقدون بآيات الصفات الإلهية وأحاديثها من غير أن يقفوا عند شيء منها، ولا يرون أنفسهم في حاجة إلى التصرف بمعانيها من تأويل أو تشبيه أو تعطيل، بل كانوا يحرصون على الإيمان بها مع إدراك معانيها والتسليم في حقائقها لله تبارك وتعالى؛ من غير تكيف ولا تشبيه ولا تعطيل. ولا تأويل، فكانوا بذلك يؤمنون بما جاء عن الله تعالى على مراد الله تعالى، وبما جاء عن رسول الله على مراد رسول الله ﷺ.

وقد كانت آيات تنزل بالعقيدة واضحة دون لبس أو غموض، ولم تثر هذه الآيات أية شبهة لدى الصحابة [الذين فارقوا عقائد الوثنية والإشراك ودخلوا في عقيدة التوحيد والتنزيه والتقديس للإله الخالق سبحانه] بل غمِلَتْ على إزالة الشكوك من حول جذور الإيمان، فضلاً عن التعرض لعقائد المشركين وأهل الكتاب؛ تُجادلهم بالتي هي أحسن، تهزُّ فيهم العقول لإسقاط شوائب الشرك والإلحاد، في نفس الوقت الذي كانت هذه الآيات تهزُّ أفئدة المسلمين هزاً عنيفاً لإثبات عقيدة التوحيد وغرس الإيمان الجازم في أنفسهم...

وبذلك فهم الصحابة كلٌّ ما طُلِبَ منهم الإيمان به بتصديق جازم، وتسليم كامل لجميع نصوص العقيدة من آيات منزلة من عند الله أو أحاديث واردة عن رسول الله ﷺ...

فآمنوا بالله تعالى وتوحيد ربوبيته وألوهيته، وبالقضاء والقدر والبعث وأحواله

وأمواله.. وبأن القرآن كلام الله تعالى القديم، دون أن تثار لديهم أية تساؤلات مُرية حول آيات وأحاديث الصفات من تشبيه أو تعطيل أو تأويل، ولا حول القرآن أم مخلوق أم غير مخلوق؟! ولم يتعرضوا لمسألة القضاء والقدر.. وهل الإنسان مسير أو مخير؟! وهل للعبد كسب في أفعاله؟ أو هو خالق لأفعال نفسه أو هي مخلوقة فيه؟!..

واستمرَّ حالُ السلف الصالح من الصحابة والتابعين وتابعيهم على ذلك المنهاج السوي والطريق المستقيم في فهم العقيدة الإسلامية وحملها وتبليغها للشعوب الداخلة في دين الإسلام أفواجاً أفواجاً.. إلى أن هبَّت على المسلمين رياح الفلسفة اليونانية وماتبها من هندية وفارسية وسواها من فلسفات عقائد الأمم السابقة..

فتارَّ غبارُ الشك.. وعصفت رياحُ الجدل العنيف بين أصحاب الفرق التي تأثرت بتلك الفلسفات الغريبة الدخيلة.. حتى آل أمرُ غالبها إلى تكفير من يخالفها الرأي، ولو كان من صميم المسلمين وأهل التوحيد؟!..

وقد كانت بداية انتشار الأفكار الفلسفية في عهد الأمويين [٤١-١٣٢هـ]، عندما احتدم النقاش والحوار والجدال بين أصحاب تلك الفرق، وبخاصة بين أولئك الذين كانوا متأثرين بتصوّرات معتقداتهم السابقة حول بعض المسائل التي سُرعانَ ما اقتحمت الساحة الفكرية الإسلامية، مثل مسألة القضاء والقدر التي أثارها «معبد الجهنمي» [ت/٨٠هـ] وكان أول من تكلم بالقدر، وأنه أخذ ذلك عن نصراني يعرف بـ«الاسواري»^(١). وتبناها من بعده «غيلان الدمشقي» الذي بالغ بنفي القدر إلى أن همَّ به عمر بن عبد العزيز، فلم يته عن مقالته في القدر، إلى أن أمر هشام بن عبد الملك بصلبه على باب دمشق^(٢).

وكذلك مسألة القول بأن «القرآن مخلوق» وما أثاره «الجعد بن درهم» الفارسي الأصل، وكان مؤدياً لمروان بن الحكم، قتله خالد بن عبد الله القسري سنة/١٢٠هـ/ لما كان والياً لهشام بن عبد الملك على العراق. ومن بعده «الجهم بن صفوان» الذي ذهب إلى نفي الصفات الإلهية.

ونجَّ عن ذلك ظهورُ فرقٍ مختلفة متنازعة في فهم العقيدة، وكلها تدعو إلى أفكار غريبة عن الإسلام، كالجهنمية والجهمية والقدرية والمعتزلة والمرجئة، ومن قبلها

(١) الملل والنحل: للشهرستاني ج ١/٤٧/الهامش.

(٢) الملل والنحل: للشهرستاني ج ١/٤٧/الهامش.

وعلى أثر ظهور تلك الفرق نشأ علم الكلام، حيث لم ينشأ ضمن مرحلة واحدة، بل تقلّب كثيراً بين أطوار مختلفة، ومرّت عليه مراحل عديدة.

يقول المؤرخ ابن خلدون [ت ٨٠٨هـ] في علم الإلهيات^(١) : يزعمون أنّه يوقفهم على معرفة الوجود على ما هو عليه، وإنّ ذلك عين السعادة في زعمهم، وهو تالٍ للطبيعيات في ترتيبهم، ولذلك يسمونه «علم ما وراء الطبيعة». وكتب المعلم الأوّل فيه موجودة بين أيدي الناس، ولخصه ابن سينا في كتاب الشفاء والنجاء، وكذلك لخصها ابن رشد من حكماء الأندلس.

ولمّا وضع المتأخرون في علم القوم ودوّنوا فيها، وردّ عليهم الغزالي ماردة منها، ثم خلط المتأخرون من المتكلّمين مسائل علم الكلام بمسائل الفلسفة لعروضها في مباحثهم وتشابه موضوع علم الكلام بموضوع الإلهيات، ومسائله بمسائلها، فصارت كأنّها فنّ واحد، ثم غيّر ترتيب الحكماء في مسائل الطبيعيات والإلهيات، وخلطوهما فنّاً واحداً قدّموا الكلام في الأمور العامة، ثم أتبعوه بالجسمانيات وتوابعها ثم بالروحانيات وتوابعها إلى آخر العلم. . وهو غير صواب؛ لأنّ مسائل علم الكلام إنّما هي عقائد متلقاة من الشريعة كما نقلها السلف من غير رجوع فيها إلى العقل، ولانعويل عليه بمعنى أنّها لا تثبت إلّا به، فإنّ العقل معزول عن الشرع وأنظاره، وما تحدّث فيه المتكلّمون من إقامة الحجج فليس بحثاً عن الحق فيها. فالدليل بعد أن لم يكن معلوماً هو شأن الفلسفة؛ بل إنّما هو التماس حجة عقلية تعضد عقائد الإيمان ومذاهب السلف فيها، وتدفع شبه أهل البدع عنها الذين زعموا أنّ مداركهم فيها عقلية؛ وذلك بعد أن تُقرّض صحيحة بالأدلة النقلية كما تلقاها السلف واعتقدوها، وكثير منها بين المقامين، وذلك أنّ مدارك صاحب الشريعة أوسع لاتّساع نطاقها عن مداركنا لأنظار العقلية فهي فوقها ومحيط بها لاستمدادها من الأنوار الإلهية، فلا تدخل تحت قانون النظر الضعيف، والمدارك المُحاط بها، فإذا هدانا الشارع إلى مدرك فينبغي أن نقدّمه على مداركنا ونثق به دونها، ولانتظر في تصحيحه بمدارك العقل ولو عارضه، بل نعتمد ما أمرنا به اعتقاداً وعلماء. ونسكت عمّا لم نفهم من ذلك ونفوّضه إلى الشارع، ونعزل العقل عنه، والمتكلّمون إنّما دعاهم إلى ذلك كلام أهل الإلحاد في معارضات العقائد السلفية بالبدع النظرية، فاحتاجوا إلى الردّ عليهم من جنس معارضاتهم، واستدعى ذلك

الحجج النظرية ومحاذاة العقائد السلفية بها.

ويقول في «علم الكلام»^(١) هو علم يتضمّن الحجاج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية، والردّ على المبتدعة المنحرفين في الاعتقادات عن مذاهب السلف وأهل السنة، وسرّ هذه العقائد الإيمانية هو التوحيد... وأمرنا بالتوحيد المطلق: ﴿قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد﴾ ولا تثقن بما يزعم لك الفكر من أنّه مقتدر الاحاطة بالكائنات وأسبابها والوقوف على تفصيل الوجود كله، وسفّه رأيه في ذلك، واعلم أنّ الوجود عند كل مدرك في بادية رأيه منحصر في مداركه لا يعدوها، والأمر في نفسه بخلاف ذلك، والحق من ورائه، ألا ترى الأصمّ كيف ينحصر الوجود عنده في المحسوسات الأربع والمعقولات ويسقط من الوجود عنده ضعف المسموعات، وكذلك الأعمى أيضاً يسقط عنده صنف المراتب، ولولا مايردّهم إلى ذلك تقليد الآباء والمشايخ من أهل عصرهم، والكافة لما أقرّوا به لكنهم يتبعون الكافة في إثبات هذه الأصناف لامتقضى فطرتهم وطبيعة إدراكهم... والعقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينه لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة وحقيقة النبوة وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره فإنّ ذلك طمع في محال.

ثم يقول^(٢): وإذا تأملت حال الفنّ في حدوثه، وكيف تدرّج كلام الناس فيه، صدرأ بعد صدر، وكلهم يفرض العقائد صحيحة ويستنهض الحجج والأدلة علمت حيثنّ مآقرنا لك في موضوع الفنّ وأنّه لا يعدوه، ولقد اختلطت الطريقتان عند هؤلاء المتأخرين، والتبست مسائل الكلام بمسائل الفلسفة بحيث لا يميّز أحدُ الفنين من الآخر، ولا يحصل عليه طالبه من كتبهم... وأمّا محاذاة طريقة السلف بعقائد علم الكلام، فإنما هو للطريقة القديمة للمتكلمين... فينبغي أن يُعلم أنّ هذا العلم هو علم الكلام غير ضروري لهذا العهد على طالب العلم؛ إذ الملحدة والمبتدعة قد انقرضوا، والأئمة من أهل السنة كفونا شأنهم فيما كتبوا ودوّنوا، والأدلة العقلية إنّما احتاجوا إليها حين دافعوا ونصروا، وأمّا الآن فلم يبقَ منها إلّا كلام تنزّه الباري عن كثير إيهاماته وإطلاقه. ولقد سأل الجنيد رحمه الله عن قوم مرّ بهم من المتكلمين يفيضون فيه، فقال: ما هؤلاء؟ فقيل: قوم ينزّهون الله بالأدلة عن صفات الحدوث وسمات النقص،

(١) مقدمة تاريخ ابن خلدون ج ١/ ٣٨٢-٣٨٤.

(٢) مقدمة ابن خلدون ج ١/ ٣٨٩-٣٩٠.

فقال: نفى العيب حيث يستحيل العيب عيباً ١١.

هكذا يعرض ابن خلدون [ت ٨٠٨هـ] تاريخ هذا العلم من أول نشوئه إلى أن امتزج بالفلسفة على يد المتأخرين من غير تعرض لما حدث في عهد ابن تيمية وتلامذته لإحياء مذهب السلف على طريقة مذهب الإمام أحمد، ومقاومة تيار الذين مزجوا علم الكلام بالفلسفة. ونحن هنا لانرى توجيه النقد إلى ابن خلدون وحده في إغفاله لتلك الحركة التي قام بها شيخ الإسلام ابن تيمية وتلامذته بل هناك كثير من المؤرخين ممن ألف في تاريخ علم الكلام ومثاله من المتأخرين لم يتعرضوا لبيان تلك الحركة، حتى إن الإمام محمد عبده عرض لتاريخ هذا العلم في مقدمة رسالته في التوحيد دون أن يشير إلى تلك الحلقة الهامة من تاريخ علم الكلام، ممّا جعل تلميذه السيد محمد رشيد رضا يستدرك عليه في تعليقه على تلك الرسالة بقوله: (١)

فات المؤلف أن يذكر في هذه الخلاصة التاريخية أنّه بعد أن استفحل سلطان الأشعرية في القرون الوسطى، وضعف أهل الحديث ومثبّو السلف، ظهر في القرن الثامن المجدّد العظيم شيخ الإسلام أحمد بن تيمية الذي لم يأت الزمان له بنظير في الجمع بين العلوم الثقلية والعقلية، وقوة الحجة؛ فنصّر مذهب السلف على المذاهب الكلامية كلها ببرهانيّ النقل والعقل. وقد أحييت مصر والهند كتبهُ وكتب تلميذه الأكبر العلامة ابن القيم.

ولكنّ المؤرّخ المقرئزي [ت ٨٤٥هـ] ذكر في كتابه «الخطط» (٢) بعد أن بيّن حال المذهب الأشعري، وماكان من انتشاره في مصر على يد صلاح الدين الأيوبي، ومن بعده من ملوك الأيوبيين، وفي بلاد المغرب على يد «محمد بن تومرت» قال:

فكان هذا هو السبب في اشتهاار المذهب الأشعري، وانتشاره في أمصار الإسلام، بحيث نُسيّ غيره من المذاهب وجُهل، حتى لم يعد مذهب يخالفه إلّا أن يكون مذهب الحنابلة أتباع الإمام أحمد بن حنبل رضي الله عنه، فإنهم كانوا على ماكان عليه السلف، لا يرون تأويل ماورد في الصفات. إلى أن كان بعد السبعمئة من الهجرة اشتهر بدمشق وأعمالها تقيّ الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن تيمية الحراني، فتصدّى للانتصار لمذهب السلف، وبالع في الرّد على مذهب الأشاعرة، وصدع بالنكير عليهم، وعلى الرافضة، وعلى الصوفيّة.

(١) رسالة التوحيد: للإمام محمد عبده/٢٢.

(٢) الخطط المقرئزية ج ٤/١٥٤-١٨٥.

وكان فرط تعمق المتكلمين بالقضايا الكلامية على منهج الفلاسفة، وتصويرهم للناس بأنه مذهب أهل السنة والجماعة هو الذي جعل شيخ الإسلام ابن تيمية يبالغ في نقده لهم كثيراً حتى يمحو من الأذهان ذلك السلطان الذي خيم على معظم أقطار الإسلام.

خطأ منهج المتكلمين^(١) :

ونتيجة لاستقراء آراء المتكلمين في المسائل الكلامية فإنه يتبين أن منهجهم قد انحصر في الطرق التالية:

أولاً: اعتماد منهج إقامة البراهين للعقيدة على الأساس المنطقي.

ثانياً: تجاوز البحث في المحسوس إلى ما وراء المحسوس.

ثالثاً: إعطاء العقل حرية البحث في كل ما يذكرك وما لا يذكرك.

رابعاً: جعل العقل أساساً لفهم القرآن الكريم.

خامساً: جعل خصوصية الفلاسفة أساس دراساتهم.

والذي يتضح من استعراض منهج المتكلمين غير صحيح، وسلوكه لا يؤدي إلى إيجاد الإيمان، ولا إلى تقويته، بل إن سلوكه لا يؤدي إلى إيجاد التفكير، ولا إلى تقويته، وإنما يوجد معرفة فحسب، والمعرفة غير الإيمان وغير التفكير. وذلك لأن التفكير طريق الإيمان لا المعرفة فحسب.

ووجه الخطأ في هذا المنهج ظاهر من عدة وجوه:

الوجه الأول: عدم صلاحية الأساس المنطقي برهاناً على صحة العقائد.

إن استقرار منهج المتكلمين على اعتماد الأساس المنطقي في البرهان، وليس الأساس الحسي خطأ من ناحيتين:

الأولى: جعل علم المنطق أساساً لقدرة المسلم على إقامة البرهان على وجود الله تعالى. ومعنى ذلك: أن من لا يعرف المنطق عاجز عن البرهنة على صحة عقيدته. وإذا كان الأمر كذلك فإن تعلم المنطق يصبح واجباً على الأمة، أخذاً من القاعدة الشرعية: «ملايتهم الواجب إلا به فهو واجب» ولم يثبت في القرآن أو السنة أو الإجماع دليل يثبت وجوب تعلم المنطق. مع أن الصحابة جميعاً لهم عقيدة الإسلام عن يقين قبل ترجمة

(١) الشخصية الإسلامية: للعلامة الشيخ تقي الدين النبهاني ج ١/ ٤٨٤١/ بتصرف.

منطق أرسطو بمائة سنة.

الثانية: أنّ الأساس المنطقي مظنة للخطأ، بخلاف الأساس الحسيّ. فهو بعيد عن احتمال الخطأ، وما يمكن أن يتسرّب إليه الخطأ لا يصح أن يكون أساساً للإيمان؛ فمثلاً يُقال منطقياً:

القرآن كلام الله تعالى، وهو مركب من حروف مرتبة متعاقبة في الوجود، وكل كلام مركب من حروف مرتبة متعاقبة في الوجود حادث، فالنتيجة: القرآن حادث ومخلوق [وهذا الذي حدّا بالمعتزلة إلى القول بخلق القرآن] فهذا الترتيب للقضايا وفق المنطق الأرسطوطاليسي أوصل إلى نتيجة ليست ممّا يقع تحت الحس، فلا سبيل للعقل إلى بحثها أو الحكم عليها، وذلك لأن القرآن كلام الله تعالى المنزل من السماء. على أنّه يمكن بواسطة نفس المنطق أن نصل إلى نتيجة تناقض هذه النتيجة، فيُقال: القرآن كلام الله تعالى، وهو صفة لله فهو قديم؛ فالنتيجة: القرآن قديم غير مخلوق. وبذلك برز التناقض في المنطق في قضية واحدة.

لذلك فإنّ طريقة المتكلمين في إثبات الإيمان بالمنطق غير صحيحة لاحتمال الخطأ الذي يؤدّي إلى الضلال في الاعتقاد. (١)

الوجه الثاني: إنّ إفراط المتكلمين في البحث فيما وراء الطبيعة خطأ محض؛ لأنّ البحث فيما لا يصل إليه الحس، لا يصل إلى شيء أبداً. فبحثهم في ذات الله تعالى، وفي صفاته بطريقة «قياس الغائب على الشاهد» أي: قياس ذات الله تعالى على الإنسان كما يتصوره الإنسان في شيء وهو السميع البصير [سورة الشورى ١١]، وقال سبحانه: (لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير) [سورة الأنعام ١٠٣].

وما وقع المتكلمين في القول في ذات الله وصفاته إلا منهجهم هذا.

الوجه الثالث: منَح المتكلمين العقل الحرّة المطلقة في بحث كل شيء. فلمّا بحثوا في ذات الله تعالى قالوا: إنّ الصفة غير الموصوف، ومنهم من قال: الصفة عين الموصوف، ومنهم من قال: الصفة ليست عين الذات ولا غير الذات.

جاء في جوهره التوحيد

متكلّم ثمّ صفات الذات ليسَتْ بغيرٍ أو بعينِ الذاتِ

(١) انظر «طرق التصديق» في كتاب فصل المقال فيما بين الحكمة والشرعية من الاتصال: لابن رشد/ ٥٨٥٥ ط دار المعارف بمصر.

وقال ملا عبد الرحمن الجامي في كتاب «الدرة الفاخرة»^(١) :

ذهبت الأشاعرة إلى أن الله تعالى صفات موجودة قديمة زائدة على ذاته، فهو عالم بعلم قادر بقدرة مريد بإرادة، وعلى هذا القياس. وذهب الحكماء إلى أن صفاته تعالى عين ذاته لا بمعنى أن هناك ذاتاً وله صفة وهما متحدان حقيقة، بل بمعنى أن ذاته تعالى يترتب عليه ما يترتب على ذات وصفة معاً، مثلاً ذاتك ليست كافية في انكشاف الأشياء وظهورها عليك، بل تحتاج في ذلك إلى صفة العلم التي تقوم بك بخلاف ذاته تعالى، فإنه لا يحتاج في انكشاف الأشياء وظهورها عليه إلى صفة تقوم به، بل المفهومات بأسرها منكشفة عليه لأجل ذاته، فذاته بهذا الاعتبار حقيقة العلم، وكذا الحال في القدرة... وعلى هذا تكون الذات والصفات متحدة في الحقيقة متغايرة بالاعتبار والمفهوم.

هكذا منح المتكلمون مع الفلاسفة الحرية للعقل حتى بحث في صفات الله هل هي عين الذات أم خارجة عن الذات؟!..

ومن المقطوع به أن ذات الله تعالى وصفاته لاتقع تحت الحس، ولا يمكن إدراكها عقلياً، لذلك يستحيل للعقل أن يصدر حكماً عليها، بل قبل كل شيء لا يجوز للعقل البشري أن يبحث في ذات الله تعالى، قال الله تعالى: ﴿وَلَا تَقَفَّ مَالِيسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾ [سورة الإسراء ٣٦]، وليس لحد علم في ذات الله وصفاته إلا ما جاء في كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، ولم يرد فيهما شيء مما تكلم به المتكلمون والفلاسفة المسلمون، بل جاء في السنة النهي عن التفكير في ذات الله تعالى^(٢).

(١) ملحق كتاب أساس التقديس/٢٠٨/ ط مصطفى البابي الحلبي بمصر.

(٢) روى ابن أبي شيبة في كتاب العرش من حديث سعيد بن جبير عن عباس: (تفكروا في كل شيء، ولا تفكروا في الله) وروى الأصبهاني في ترغيبه وأبو نعيم في الحلية عن عبد الله بن سلام يرفعه: (لا تفكروا في الله، وتفكروا في خلق الله) ولأبي نعيم من حديث ابن عباس: (تفكروا في خلق الله، ولا تفكروا في الله، فإنكم لن تقدروا قدره)، وللطبراني في الأوسط والبيهقي في شعب الإيمان من حديث ابن عمر مرفوعاً: (تفكروا في الإله الله ولا تفكروا في الله)، وأسانيدها ضعيفة، لكن اجتماعها يكتسب قوة، والمعنى صحيح؛ وفي صحيح مسلم عن أبي هريرة مرفوعاً: (لا يزال الناس يتساءلون حتى يقال: هذا خلق الله الخلق، فمن خلق الله؟ فمن وجد من ذلك شيئاً فليقل: آمَنْتُ بالله) المقاصد الحسنة/١٥٩/ للحافظ السخاوي. صحيح مسلم ج١/١١٩/رقم ١٣٤٤.

ورغم كل ذلك خاض المتكلمون في فرضيات لاتدرك، مثل: «إن الله تعالى خلق الفعل عند قدرة العبد وإرادته، لا بقدرة العبد وإرادته» فهذا التصور الخيالي مما لا واقع له حساً. وأوجبوا الإيمان بهذا التصور، وقالوا عنه: إنه «الكسب والاختيار». ولو جعل المتكلمون عقولهم تبحث في المحسوسات المدركة لما آمنوا بكثير من الوهميات والفروض النظرية التي شحنت بها مؤلفاتهم^(١).

الوجه الرابع: جعل المتكلمون العقل أساساً لفهم القرآن، ولم يجعلوا القرآن أساساً لإدراك العقل. وقد أدى بهم إلى أن حكموا العقل بالآيات التي يبدو في ظاهرها التعارض، فجعلوا العقل هو الفاصل بين المتشابهات، وأولوا الآيات التي لا تتفق والرأي الذي يذهبون إليه.

حتى صار التأويل طريقة لهم لافرق بين المتكلمين من المعتزلة وأهل السنة والجبرية.

قال ابن رشد الفيلسوف^(٢) [ت ٥٩٥هـ]: ومن قبل التأويلات والظن بأنها يجب أن يُصرَّحَ بها في الشرع للجميع، نشأت فرق الإسلام، حتى كفر بعضهم بعضاً، وبدع بعضهم بعضاً، وبخاصة الفاسدة منها. فأولت المعتزلة آيات كثيرة، وأحاديث كثيرة، وصرَّحوا بتأويلهم للجمهور، وكذلك فعلت الأشعرية، وإن كانت أقل تأويلاً. فأوقعوا الناس من قبل ذلك في شتاتٍ وتباغض وحروب، ومزقوا الشرع، وفرقوا الناس كلَّ التفريق.

هكذا أدى جعل العقل أساساً للقرآن إلى خطأ في البحث ونتائجه..

قال شيخ الإسلام ابن تيمية^(٣): إنك تجد أهل الكلام أكثر الناس انتقالاً من قول إلى قول، وجزماً بالقول في موضع، وجزماً بتقيضه، وتكفير قائله في موضع آخر، وهذا دليل عدم اليقين. فإن الإيمان كما قال فيه «قيصر» لما سأل أبا سفيان عمن أسلم مع النبي ﷺ: هل يرجع أحدٌ منهم عن دينه سخطاً له، بعد أن يدخل فيه؟

(١) العقيدة وعلم الكلام: للدكتور محمود الخالدي ص ٥٤/ ط مكتبة الرسالة الحديثة عمان.

(٢) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال: لأبي الوليد ابن رشد / ٦٣ / ط دار المعارف بمصر.

(٣) مجموع الفتاوى ج ٤ / ٥٠.

قال: لا، قال: وكذلك الإيمان إذا خالط بشاشته القلوب لايسخطة أحد. (١)

ولهذا قال بعضُ السلف - عمر بن عبد العزيز أو غيره -: «من جعل دينه عرضاً للخصومات أكثرَ التَّنَقُّلِ» ٢١١..

وأما أهل السنة والحديث فما يعلم أحدٌ من علمائهم، ولا صالح عاينهم رجع قط عن قوله واعتقاده، بل هم أعظم الناس صبراً على ذلك، وإن امتحنوا بأنواع المحن، وفتنوا بأنواع الفتن، وهذه حال الأنبياء وأتباعهم من المتقدمين، كاهل الأخدود ونحوهم، وكسلف هذه الأمة من الصحابة والتابعين.

فالثبات والاستقرار في أهل الحديث والسنة أضعاف أضعاف ما هو عند أهل الكلام والفلسفة؛ بل المتفلسف أعظم اضطراباً وحيرة في أمره من المتكلم؛ لأن عند المتكلم من الحق الذي تلقاه عن الأنبياء ما ليس عند المتفلسف، ولهذا تجد مثل «أبي الحسين البصري» وأمثاله أثبت من مثل «ابن سينا» وأمثاله. (٢)

ثم إن الإيمان بكون القرآن كلام الله تعالى، وإن كان مبنياً على العقل، باعتباره المعجزة الباقية على إثبات صدق نبوة محمد ﷺ وقد ثبت ذلك بالتحدي؛ فإن القرآن نفسه بعد أن يتحقق الإيمان به، يصبح هو الأساس للإيمان والتصديق بما جاء به وليس العقل. إلا أن العقل وظيفته الفهم والإدراك، لكن المتكلمين لم يفعلوا ذلك، بل جعلوا العقل أساساً في تأويل الآيات والأحاديث المتعلقة بالصفات.

الوجه الخامس: إن المتكلمين جعلوا الفلسفة وعاءً لأفكارهم، بمعنى أنهم أخذوا من الفلسفة قدراً كبيراً للرد على أصحابها، أي: أخذوا من الفلاسفة ثم ردوا عليهم منها. وبذلك أبعدت حُجج الإسلام عن مواجهة الإلحاد والضلال. في حين أن الموضوع أساساً هو اعتماد حجج العقيدة الإسلامية لقمع أي فكر إلحادي وإخماده، وليست القضية مع الفلاسفة أو مع سواهم من أهل الكتاب قضية خصومة يلزم منها أن تتحقق الغلبة بأي وسيلة كانت.

وبذلك فقد المتكلمون الانتصار بالقرآن والسنة، وخاضوا في ساحة الصراع بأفكار خصومهم، وحولوا تبليغ الإسلام وعقيدته وشرعيته إلى مناظرات جوفاء ومجادلات خرقاء. فاستبدت العقيدة من قوة اليقين وحرارة الإيمان، إلى حالة جدلية ومهنة كلامية

(١) البخاري في كتاب بدء الوحي / ٦ / والإيمان / ٣٨ / والجهاد / ١٠٢ / وتفسير سورة ٣ / ومسلم في كتاب الجهاد / ٧٣ .

(٢) مجموع الفتاوى ج ٤ / ٥٠ .

مع أنَّ السلف الصالح من الصحابة والتابعين نشروا عقيدة الإسلام بين الداخلين فيه من الفرس والروم بآيات الله تعالى وأحاديث رسوله ﷺ، ولم يعوزهم ذلك إلى غيرها. مع أننا لم نسمع عن أحد من غير المسلمين دخل الإسلام بتلك المناظرات الجدلية التي كانوا يعقدونها مع علماء الكلام والمتكلمين من المسلمين، بل كان أحدهم إذا رأى الحُجَّةَ قد قامت عليه، أخذ يُكابِر في ردّها وإبطالها بشتى صنوف الحيل المنطقية والأساليب الفلسفية. وإذا اقتضاه الحال إلى السكوت قام مولياً ظهره للإسلام وهو عازم على إعداد جولة أخرى ليدحض بها حجة خصومه من المتكلمين المسلمين. ناهيك هذا عما كان يجري بين أصحاب الفرق الكلامية التي كانت كثيراً من الأوقات والحالات مسرحاً ليشهده غير المسلمين عما يجري بين أهل الإسلام من منازعات وخلافات كلامية، تكون سبباً في زيادة القسوة في قلوبهم في رفض الإسلام والكفر بعقيدته.

هكذا كان الحال أو نحواً منه عند أهل الكلام.. إلى أن جاء شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى، فأخذ على عاتقه حملَ أعباءِ توعية المسلمين من خطورة الخوض في المسائل الكلامية، والقضايا الفلسفية، والمجادلات المنطقية، وصار يدعوهم إلى الرجوع إلى مذهب السلف في العقيدة والإيمان، فكان بذلك أحد المجددين للأمة دينها، بدعوة أبنائها إلى العودة إلى الكتاب والسنة، فأيقظها من رقادها الطويل التي كادت أن تفقد صلتها بهذين الأصلين الكريمين المباركين للإسلام وعقيدته وشريعته!! فجزاه الله تعالى خيرَ الجزاء!!..

لمحات من تاريخ نقض مذاهب الفلاسفة والمنطقيين والمتكلمين بعد عهد الرازي

١ - عصر الهيمنة الفلسفية:

لقد ظهر في القرن السابع «نصير الدين الطوسي» [ت ٦٧٢هـ] في أوساط الفلسفة، وعرفت حلقات مدارسها ومعاهد تعليمها بـ «المحقق الطوسي»، وكان العالم الإسلامي قد أصابته دهشة الازدهار الثقافي، وأصيب بالذهول في هذا الزمن بهجوم التتر، وسقوط بغداد بأيديهم، وخيم على العالم الإسلامي كله انحطاط علمي عام، وقد كان نصير الدين الطوسي، وهو حامل لواء العلم والفلسفة اليونانية، وهو من مقرّبي «هولاكو» ومستشاريه؟! وتولّى تلاميذه أمور التدريس والتأليف، وعلى رأسهم «قطب الدين الشيرازي» و «قطب الدين الرازي» وعلى يدهم وجد ذلك المنهج الخاص للتعليم السائد في إيران الذي يحلّ فيه المنطق والفلسفة محلاً رئيسياً، وقد كان نصير الدين الطوسي يتصل بالمدرسة التي كانت تعتبر «أرسطو» العقل الكل؟! وترى في نظراته وتحقيقاته المرجع الأخير، وقد دافع عن فلسفة أرسطو مخالفاً للإمام الرازي، وكان قد بث فيها حيوية جديدة.

وُلد شيخ الإسلام ابن تيمية قبل وفاة الطوسي بعشر سنين، وكان للفلسفة والمنطق اليونانيين غلبةً وازدهار عظيم، بتأثير نصير الدين الطوسي وتلاميذه الفلاسفة البارعين، وكان يُعتبر منتهى الذكاء ومقياس الفضل آنذاك أن يكون المرء ضليعاً بالفلسفة، وعلى الأخص بما عليه الشيرازي والرازي، ولم يكن لأحد أن يتجرأ على القول بإزائهما أو ضدهما، ولم يكن الحفاظ والمحدثون والفقهاء من فُزسان هذا الميدان، وجُلّ ما كان يسعهم هو أن يُقنوا بحرمتها ويُننوا ضلالها، إلا أن هذا السبيل ما كان يقف بهذا ومثله من الأعمال، فقد كان العالم الإسلامي كله يعيش تحت ضغطهما وهيمنتها، ولقد كان للتشكك والارتياب جولة في بعض الأوساط التي كانت تتصل بالفلسفة اليونانية مباشرة، ويوجد فيها نحو إنكار حقائق الأشياء، أما الطبقة التي ابتعدت عنها ولم تتصل بها مباشرة فقد وقعت فريسة مركّب النقص والشعور بالعجز.

ولمحاربة هذا الوضع كانت الحاجة ماسة إلى نقدٍ صريحٍ واستعراضٍ علميٍّ حرٍّ للفلسفة والمنطق، وإلى إزاحة الستار عن مواضع ضعفها العلمية، وقد أنجزَ حاجةَ الساعة هذه شيخُ الإسلام ابنُ تيمية، وقام بنقض الفلسفة اليونانية، ومحاسبتها العلمية مؤيداً ببحوثه بالدلائل والبراهين، ونقضَ فلسفة أرسطو بمناظرات علمية وجهاً لوجه، ذلك الذي كان علماء الفلسفة يعتبرونه شخصيةً فوقَ مستوى البشر، وغنيّةً عن النقد أو الرد، فدكَّ صرح فلسفته المزعومة، وأراح الأمة من هيمنة فلسفته، وإلى الأبد!!!..

٢ - مكانة شيخ الإسلام العلمية بالفلسفة:

ولإدراك عظمة عمل شيخ الإسلام في نقض الفلسفة، ولمعرفة معيار نقده ومحاسبته للفلاسفة، لا بُدَّ من وقفات مع تقويمه لقضايا الفلسفة، ووجهة نظره نحوها وأسلوب تفكيره في نقضها، وذلك فيما نقتطفه من مؤلفاته ورسائله التي وضعها لهذا الخصوص، تحت هذه العناوين.

٣ - بحث الفلاسفة في الطبيعيات والرياضيات:

إن شيخ الإسلام ابن تيمية لما قام بنقض الفلسفة، لم ينقضها برمّتها، وذلك لوجود أبحاث لهم لا تُنكر شرعاً، وذلك أنه فرق بين البحث في الطبيعيات والرياضيات وبين البحث في الإلهيات، فيعترف بصحة معظم مسائل الطبيعيات والرياضيات، فيقول:

نعم! لهم في الطبيعيات كلامٌ غالبٌ جيّدٌ، وهو كلامٌ كثيرٌ واسعٌ، ولهم عقول عرفتوا بها ذلك، وهم قد يقصدون الحقَّ ولا يظهر عليهم العنادا. ^(١)

كما يعترف لهم بهذا المجال، فيقول:

لكن لهم معرفة جيدة بالأمور الطبيعية، وهذا بحر علمهم، وله تفرّغوا، وفيه ضيَعُوا زمانهم! ^(٢)

كما يصريح بضرورة علم الرياضيات، فيقول:

فهذه الأمور - أي: الرياضيات - وأمثالها مما يتكلّم فيه الحساب أمرٌ معقولٌ ممّا يشترك فيه دَوُو العقول، ومانن أحدٍ من النَّاسِ إلّا يعرف منه شيئاً؛ فإنه ضروري في

(١) الرد على البكري ص ١٤٣.

(٢) تفسير سورة الإخلاص ص ٥٧.

العلم، ضروري في العمل.. ولارب أن قضاياه كلية واجبة القبول، لا تُنقصُ
الْبَتَّةَ! (١)

٤ - قضايا الفلاسفة الإلهية:

هذا هو الجانب المهم الذي يُعارضه شيخ الإسلام ابن تيمية في الفلسفة اليونانية؛
«جانب الإلهيات» وينقض منهاجهم فيه، ويثبتُ عجزَ الفلاسفة جميعاً عن إدراكِ سرِّ
الإلهيات، ويثبتُ جهلهم بذلك وخيبة أبحاثهم في قضايها، وأنهم بخوضهم في هذا
الموضوع إنما تعدّوا حدودهم، ومهدوا الطريقَ لتقدم وتسفيههم، ولتحقير شأنهم
والحكم بضلالتهم، فيقول:

للمتفلسفة في الطبعيات خوضٌ وتفصيل تميّزوا به، بخلاف الإلهيات؛ فإنهم أجهلُ
البّاس بها، وأبعدهم عن معرفة الحقّ فيها، وكلام معلّمهم «أرسطو» فيها قليلٌ كثيرٌ
الخطأ! (٢)

ويقول: وأما معرفة الله تعالى فحظُّهم منها مبخوسٌ جداً، وأما ملائكتُه وكتبُه ورُسُلُه
فلا يعرفون ذلك البتّة، ولم يتكلّموا فيه بنفي ولا إثبات، وإنّما تكلم في ذلك
متأخروهم الدّاخلون في الملل! (٣)

ثم يبيّن رحمه الله تعالى أنّ الفلاسفة يعترفون بأنّهم لا يملكون الوسائل والمبادئ
لاكتساب هذا العلم، ولذلك فإنّهم يقرّون بأنّهم لم يتوصّلوا في هذا الموضوع إلى
اليقين، فيقول:

بل قد صرّح أساطين الفلسفة، أنّ العلوم الإلهية لا سبيل فيها إلى اليقين؛ إنّما يُتكلّم
فيها بالآخرى والأخلاق، فليس لهم فيها إلّا الظنّ، وإنّ الظنّ لا يُعني من الحقّ
شيئاً! (٤)

٥ - علم الإلهيات لدى الفلاسفة وقيّمته في الدّين:

لقد أظهر شيخ الإسلام ابن تيمية عجبه البالغ حينما تناول مباحث العلوم الفلسفية
في الإلهيات، فيقول معتبراً عن ذلك:

(١) الرد على المتكلمين ص ١٣٤.

(٢) معارج الوصول ص ١٨٦.

(٣) تفسير سورة الإخلاص ص ٥٧.

(٤) نقض المنطق ص ١٨٧.

إذا نظَرَ في كلام معلمهم الأول - أرسطو - وتدبَّره الفاضلُ العاقل لم يُقْذَ إلا العلم بأنهم كانوا من أجهل الخلق برَبِّ العالمين، وصار يتعجَّب تعجباً لا ينقضي ممن يقرن علم هؤلاء بالإلهيات بما جاءت به الأنبياء، ويرى أنَّ هذا من جنس من يقرن الحدَّادين بالملائكة، بل من يُقرن دهاقين القرى بملوك العالم، فهو أقرب إلى العلم والعدل ممَّن يقرن هؤلاء بالأنبياء، فإنَّ دهقان القرية متولٍ عليها كتولي المَلِك على مملكته، فله جزء من المُلك؟! (١)

وأما ما جاءت به الأنبياء فلا يعرفه هؤلاء ألبتَّة، وليسوا قرييين منه، بل كفار اليهود والنصارى أعلم منهم بالأمر الإلهيَّة، ولستُ أعني بذلك ما اختصَّ الأنبياء بعلمه من الوحي الذي لا ينال غيرهم، فإنَّ هذا ليس من علمهم ولا من علم غيرهم، وإنَّما أعني العلوم العقلية التي يبيِّنها الرُّسل للناس بالبراهين العقلية في أمر معرفة الرَبِّ وتوحيده، ومعرفة أسمائه وصفاته، وفي النبوات والمعاد، وما جاؤوا به من مصالح الأعمال التي تُورث السعادة في الآخرة، فإنَّ كثيراً من ذلك لم يشمُّوا رائحتها، ولا في علومهم ما يدُلُّ عليها، وأما ما اختصَّت الرُّسل بمعرفته وأخبرت به من الغيب فذلك أمرٌ أعظم من أن يُذكر في ترجيحه على الفلسفة، وإنَّما المقصود الكلام في العلوم العقلية دَغ ما جاءت به الأنبياء فإنَّه مرتبةٌ عالية!! (٢)

٦ - إثبات جهل الفلاسفة بالدين والشرع:

ويُبين شيخُ الإسلام ابنُ تيمية الأسباب التي جعلت الفلاسفة جاهلين بالعلوم الإلهية، وبالحقائق الغيبية، فيقول:

أما الغيب الذي تُخبر به الأنبياء والكلِّيات العقلية التي تعمُّ الموجودات كلها، وتقسم الموجودات قسمه صحيحة، فلا يعرفونها ألبتَّة، فإنَّ هذا لا يكون إلا ممَّن أحاط بأنواع الموجودات، وهم لا يعرفون إلا الحساب وبعض لوازمها، وهذا معرفة بقليل الموجودات جدًّا، فإنَّ ما لا يشهده الآدميون من الموجودات أعظم قدراً وصفة ممَّا يشهدونه بكثير، ولهذا كان هؤلاء الذين عرفوا ماعرفته الفلاسفة إذا سمعوا إخبار الأنبياء بالملائكة والعرش والكرسي والجنة والنار، وهم يظنون أن لا موجود إلا ما علموه، وهم والفلاسفة يصيرون حائرين متأولين لكلام الأنبياء على ما عرفوه، وإن كان هذا لا دليل عليه، وليس لهم بهذا النفي علم، فإنَّ عدم العلم ليس علماً بالعدم، لكنَّ نفيهم هذا

(١) الرد على المنطقيين ص ٣٩٤.

(٢) الرد على المنطقيين ص ٣٩٥.

كنفي الطبيب للجنّ لأنه ليس في صناعة الطب ما يدلّ على ثبوت الجنّ، وإلاّ فليس في علم الطب ما ينفي وجود الجنّ، وهكذا تجد من عرف نوعاً من العلم وامتاز به على العامة الذين لا يعرفونه، فيبقى بجهله نافياً لما لا يعلمه وبنو آدم ضلالهم فيما جحدوه ونفوه بغير علم أكثر من ضلالهم فيما أثبتوه وصدّقوا به، قال الله تعالى: ﴿بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعَلَمِهِ وَلَمَّا بَأْنِهِمْ تَأْوِيلُهُ﴾^(١) [سورة يونس/ ٣٩].

٧ - الفلاسفة الأقدمون عبّادُ كواكب وأوثان:

يثبتُ شيخُ الإسلام ابنُ تيمية من خلال سبره غور تاريخ الفلاسفة اليونان القدماء أنّهم كانوا يعبدون الكواكب والأصنام، وأنّهم كانوا يبنون لها الهياكل؛ وقد أثبتت الآثارُ اليونانية المكتشفة حديثاً عن وجود أصنام لليونان تمثل الوثنية القومية لهم، فلم يعد الآن من شك أنّ فلاسفة اليونان القدماء كانوا يرزحون تحت نير الآلهة المزعومة من الكواكب والهياكل، ويقول شيخُ الإسلام في هذا:

أما قدماء اليونان فكانوا مشركين من أعظم الناس شركاً وسحراً؛ يعبدون الكواكب والأصنام، ولهذا عَظُمَت عنايتهم بعلم الهيئة والكواكب لأجل عبادتها، وكانوا يبنون لها الهياكل؟!^(٢)

ويقول في موضع آخر:

ولهذا كان رؤوسهم المتقدّمون والمتأخرون يأمرّون بالشرك، فالأولون يُسمّون الكواكب الآلهة الصغرى، ويعبدونها بأصناف العبادات، كذلك كانوا في ملة الإسلام لا يهتدون عن الشرك ويؤجّبون التوحيد، بل يُسوِّغون الشرك ويأمرّون به، أو لا يؤجّبون التوحيد؟!^(٣)

٨ - مقارنة أرسطو بغيره من الفلاسفة:

لقد أثبت شيخُ الإسلام ابنُ تيمية أنّ أرسطو كان أبعد الفلاسفة عن الحقائق الدينية، وذلك فيما يراه من الفارق الذي بينه وبين غيره من الفلاسفة، وهو أنّ المتقدمين من هؤلاء الفلاسفة اتفقت لهم السياحة في البلدان التي بُعث فيها الأنبياء عليهم السلام، فتستى لهم الاطلاع على بعض الحقائق الدينية، أمّا أرسطو فلم يتفق له ذلك، فيتحدّث

(١) تفسير سورة الإخلاص / ٣٥٩-٣٦٠.

(٢) تفسير سورة الإخلاص ص ٣٦٠.

(٣) نقض المنطق ص ١٧٧.

رحمه الله تعالى عن ذلك رواية عن بعض المؤرخين، فيقول:

وسبب ذلك مذكّره طائفة ممّن جمع أخبارهم أنّ أساطين الأوائل - كفيثاغورس وسقراط وأفلاطون - كانوا يهاجرون إلى أرض الأنبياء بالشام، ويتلقون عن لقمان الحكيم، ومن بعده من أصحاب داود وسليمان، وأنّ أرسطو لم يسافر إلى أرض الأنبياء، ولم يكن عنده من العلم بأثارة الأنبياء ما عند سلفه، وكان عنده قدر يسير من الصائبة الصحيحة، فابتدع لهم هذه التعاليم القياسية، وصارت قانوناً مشى عليه أتباعه. (١)

ومن سوء الحظ أنّ فلسفة أرسطو هي التي نالت رواجاً في العالم الإسلامي، وهي التي اشتهرت في العهد الأخير بفلسفة اليونان، يقول شيخ الإسلام رحمه الله تعالى:

ولكنّ هذه الفلسفة التي يسلكها الفارابي وابن سينا، وابن رشد والسهوردي المقتول، ونحوه، فلسفة المشائين، وهي المنقولة عن أرسطو الذي يُسمّونه المعلم الأول؟! (٢)

٩ - فكرة الألوهية في الفلسفة اليونانية:

لم تكن الفلسفة اليونانية تعتبر قضية الإيمان بوجود الإله إلّا فكرة ذهنية فقط، فيقول شيخ الإسلام في ذلك:

فإذا تصوّر العاقل أقوالهم حتّى التصوّر تبين له أنّ هذا الواحد الذي أثبتوه لا يتصوّر وجوده إلّا في الأذهان، لا في الأعيان؟! (٣)

إنّ أسلوب المبالغة الذي اتخذه الفلاسفة في بيان النفي لأفعال الإله وصفاته، وفي تجريده عن جميع صفات الكمال، يرى شيخ الإسلام أنّ في هذا الاعتقاد الفاسد لهؤلاء الفلاسفة غاية السّفه والكفر، وفي هذا يقول رحمه الله تعالى:

لقد أحسنَ بعضُ الفضلاء إذ قال: الصّفحُ أحسنُ من توحيد الفلاسفة، بل قصّر فيما قال!! (٤)

(١) نقض المنطق ص ١١٣.

(٢) الرد على البكري ص ٢٠٦.

(٣) تفسير سورة الإخلاص ص ٣٧.

(٤) الرد على المنطقيين ص ٢٢١.

١٠ - الفلاسفة المتسبون إلى الإسلام هم مقلدون لليونان :

وأثبت شيخ الإسلام أنّ المتأخرين من الفلاسفة الذين يتسبون إلى الإسلام إنّما هم مقلدون عُميان لأرسطو وفلسفته، ومن تقليدهم له ونهجهم على فلسفته وقعوا في أخطاء فاحشة وكبيرة، كما وقعوا في تناقض شديد، ويشكّر رحمهم الله تعالى تألّمه الشديد، وبُدي عتابه على هؤلاء الفلاسفة الذين انتسبوا إلى الإسلام وجحدوا نعمة هدايته وإرشاده، ولم يستفيدوا من نور هدايته، بل كانوا دائماً يريدون حجب نوره وهدايته؟! وفي هذا يقول:

إنّ هؤلاء المتفلسفة المتأخرين في الإسلام من أجهل الخلق عند أهل العلم والإيمان، وفيهم من الضلال والتناقض مالا يخفى على الأذكياء الصبيان؛ لأنّهم لمّا التزموا أنّ لا يسلكوا إلّا سبيل سلفهم الضالّين، وأنّ لا يقرّوا إلّا بما يثبته على تلك القوانين [الفلسفية] وقد جاءهم من النور والهدى والبيان مملأً القلوب والألسنة والآذان، وصاروا بمنزلة مَنْ يُريدُ أن يُطفئَ نورَ الشمس بالنفخ في الهباء، أو يغطي ضوءَها بالهباء!!... (١)

١١ - جهل شيخ الفلاسفة ابن سينا بالنبوة :

لقد تناول شيخ الإسلام ابن تيمية نقد الفلاسفة الذين حاولوا شرح الحقائق الغيبية والعقائد الدينية تقليداً لأرسطو واتباعاً لفلسفته، نقداً لاذعاً، حيث بيّن أنّهم يحاولون تفهم هذه الحقائق والعقائد وإفهامها لغيرهم على ضوء الفلسفة والاعتماد عليها، وهو يتقد قبل كل شيء «شيخ الفلاسفة ابن سينا» الذي يُعتبر خليفة أرسطو الكبير وشارح فلسفته العظيم؟! فيقول:

وعلى هذا بنى ابن سينا أمر النبوة أنّها من قوى النفس، وقوى النفوس متفاوتة، وكل هذا كلامٌ من لا يعرف النبوة، بل هو أجنبي عنها؟! وهو أنقص ممّن أراد أن يقرّر أنّ في الدنيا فقهاء وأطباء، وهو لم يعرف غير الشعراء؟! فاستدلّ بوجود الشعراء على وجود الفقهاء والأطباء، بل هذا المثال أقرب؛ فإنّ بُعد النبوة عن غير الأنبياء أعظم من بُعد الفقيه والطبيب عن الشاعر، ولكنّ هؤلاء من أجهل الناس بالنبوة، ورأوا ذكر الأنبياء قد شاع فأرادوا تخريج ذلك على أصول قوم لم يعرفوا الأنبياء؟!... (٢)

(١) الرد على البكري ص ١٦٨.

(٢) النبوات ص ٤٧.

وقال في بيان حقيقة الوحي :

وأبعد هؤلاء عن النبوة المتفلسفة والباطنية والملاحدة، فإن هؤلاء لم يعرفوا النبوة إلا من جهة القدر المشترك بين بني آدم وهو المنام، وليس في كلام أرسطو وأتباعه كلام في النبوة، والفارابي جعلها من جنس المنامات فقط، ولهذا يُفَضَّلُ هو وأمثاله الفيلسوف على النبي [والعياذ بالله] وابن سينا عَظَمَها أكثر من ذلك، فجعل للنبي ثلاث خصائص:

أحدها: أن ينال العلم بلا تعلّم، ويُسمّوها القوة القدسية، وهي القوة الحدسية عنده. والثاني: أن يتخيّل في نفسه ما يعلمه، فيرى في نفسه صوراً نورانية، ويسمع في نفسه أصواتاً، كما يرى النائم في نومه صوراً تُكَلِّمُه، ويسمع كلامهم، وذلك موجود في نفسه لا في الخارج، فهكذا عند هؤلاء جميع ما يختصّ به النبي ممّا يراه ويسمعه دون الحاضرين، إنّما يراه في نفسه، ويسمعه في نفسه، وكذلك المَمْرُورُ عندهم. والثالث: أن يكون له قوة يتصرّف بها في هولي العالم بإحداث أمور غريبة، وهي عندهم آيات الأنبياء، وعندهم ليس في العالم حادث إلاّ عن قوة نفسانية، أو ملكية أو طبيعية، كالنفس الفلكية والإنسانية، والأشكال الفلكية والطبائع التي للعناصر الأربعة، والمولدات لا يقرّون بأنّ فوق الفلك نفس شيء يفعل، ولا يحدث شيئاً فلا يتكلّم ولا يتحرّك بوجه من الوجوه، لاملك ولا غير ملك فضلاً عن ربّ العالم، والعقول التي يثبوتها عندهم ليس فيها تحوّل من حالٍ إلى حال البتّة، لا بإرادة ولا قول ولا عمل، ولا غير ذلك.

وكذلك المبدأ الأول، وهؤلاء عندهم جميع ما يحصل في نفوس الأنبياء إنّما هو من فيض العقل الفعال، ثم إنهم لما سمعوا كلام الأنبياء أرادوا الجمع بينه وبين أقوالهم، فصاروا يأخذون ألفاظ الأنبياء فيضعونها على معانيهم، ويسمون تلك المعاني بتلك الألفاظ المنقولة عن الأنبياء، ثم يتكلّمون ويصفون الكتب بتلك الألفاظ المأخوذة عن الأنبياء، فيظنّ من لم يعرف مراد الأنبياء ومرادهم، أنهم عَنَوْا بها ماعنّه الأنبياء، وضلّ بذلك طوائف، وهذا موجود في كلام ابن سينا، ومن أخذ عنه. (١)

١٢ - أثر الفلاسفة على المتكلّمين :

لم يكن شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى موجّهاً انتقاده الشديد إلى الفلاسفة

(١) النبوات ص ٢٧٤-٢٧٥.

اليونانيين ومقلّديهم من متلفسي الإسلام فحسب، بل يتعدّاهم إلى أولئك المتكلّمين الذين اتخذوا أساليب الفلسفة ومقدماتها ومصطلحاتها الناقصة، فذهبوا يُحاولون الدفاع عن الإسلام وحقائقه الدينية والغيبية، بتلك الأساليب الهزيلة الضعيفة التي لا تقوى على ترسيخ نفسها، فكيف تقوى على ترسيخ غيرها؟!١

والإسلام بجوهره وحقائقه غنيّ كلّ الغنى عن الفلسفة وأساليبها ومقدماتها ونتائجها، بل إنّ الفلسفة في مجال علم الإلهيات والبحث فيها مناقضة ومخالفة للإسلام في ذلك، وعلى هذا فلا يصح استخدامهما في إثبات العقائد الإسلامية، كما لا يصح استعمال مصطلحاتها في التعبير عن مضامينها، ومن هنا جاء نقد شيخ الإسلام للمتكلّمين...؟!..

يقول رحمه الله تعالى:

لَمَّا تكلَّمُوا في إثبات النبوة صاروا يوردون عليها أسئلة في غاية القوة والظهور، ولا يجيبون عنها إلّا بأجوبةٍ ضعيفةٍ كما ذكرنا كلامهم، فصارَ طالب العلم والإيمان والهدى من عندهم لاسيما إذا اعتقد أنهم أنصار الإسلام ونظاره، والقائمون ببرايمه وأدلته، إذا عرف حقيقة ما عندهم لم يجذّ مذكروه يدلّ على ثبوت نبوة الأنبياء، بل وجده يقدر في الأنبياء ويورث الشك فيها أو الطعن، وأنها تقدح في الأنبياء وتورث الشك فيها أو الطعن فيها، وأنها حجة لمكذب الأنبياء أعظم ممّا هي حجة لمصدق الأنبياء، فانسدّ طريق الإيمان والعلم، وانفتح طريق النفاق والجهل لاسيما على من لم يعرف إلّا ما قالوه؟!.. (١)

ثم يقول:

ولهذا لَمَّا ظهر للغزالي ونحوه ضعف طريق الاستدلال بالمعجزات الذي سلكه شيوخه وهو لا يعرف غيره، أعرض عنها، وذكر أنّه إنّما علم ثبوت النبوة بقرائن تعجز عنها العبارة، وهي علوم ضرورية حصلت له على الطول، وجعل الدليل على النبوة هو العلم بأنّ ما جاء به حق من غير جهته، وهذه طريقٌ صحيحةٌ...! (٢)

والرازي كلامه في النبوة متردّد بين نبوة الفلاسفة، ونبوة أصحابه هؤلاء.. وليس في واحد من الطريقتين إثبات النبوة التي خصّ الله بها أنبياءه، فلهذا ضعفت معرفة

(١) النبوات ص ٣٨٣.

(٢) النبوات ص ٣٨٤.

هؤلاء بالأنبياء، وضعف أخذ العلم من طريقهم لاسيما وقد عارضوا كثيراً مما جاء عنهم بالعقليات، ودخلوا فيما هو أبعد عن الهدى والعلم من العقليات والذوقيات، التي من سلكها ضلّ ضلالاً بعيداً.^(١)

١٣ - لاعتماد على دلائل المتكلمين:

ولقد عارض شيخ الإسلام ابن تيمية المتكلمين فيما يزعمون أنه دلائل يثبتون بها عقائدهم، وقّرر أنها تفيد في بيان فساد أقوال سائر الطوائف وتناقضها، ولاتفيد في معرفة ماجاء به الرسول ﷺ، فيقول:

أكثر الانتفاع بكلام هؤلاء هو فيما يثبتونه من فساد أقوال سائر الطوائف وتناقضها، وكذلك كلام عامة طوائف المتكلمين يتفجع بكلام كل طائفة في بيان فساد قول الطائفة الأخرى، لا في معرفة ماجاء به الرسول، فليس في طوائف أهل الأهواء والبدع من يعرف حقيقة ماجاء به الرسول، ولكن يعرف كل طائفة منه مايعرفه، فليسوا كفّاراً جاحدين فيه، وليسوا عارفين به!!.

ولهذا اعترف الرازي بهذا في آخر مصنفاته حيث قال: ولقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيتها تشفي عيلاً ولا تروي غليلاً!!^(٢)

١٤ - الاستدلال بحجج القرآن أقوى وأحق:

لقد أثبت شيخ الإسلام رحمه الله تعالى في عامة كتاباته بكل تأكيد أن حجج القرآن الكريم ومنهج أسلوبه في الاستدلال لإثبات الحقائق الغيبية والإيمان بها، وتحقيق القضايا الاعتقادية أبلغ وأقوى وأرسخ من كل الحجج والأساليب التي يستدل بها المتكلمون في هذا الخصوص، وأشد تأثيراً في النفس من أي استدلال آخر!! وفي هذا يقول:

إن ماعند أئمة النظار - أهل الكلام والفلسفة - من الدلائل العقلية على المطالب الإلهية؛ فقد جاء القرآن بما فيها من الحق، وما هو أبلغ وأكمل منها على أحسن وجه، مع تزعمه عن الأغاليط الكبيرة الموجودة عند هؤلاء!!^(٣)

ويقول أيضاً:

(١) النبوات ص ٣٨٤-٣٨٥.

(٢) النبوات ص ٣٨٥.

(٣) الرد على المنطقيين ص ٣٢١.

ولهذا كانت الأقيسة العقلية البرهانية المذكورة في القرآن من هذا الباب كما يذكره في دلائل رُبُوبِيَّتِهِ وإِلَهِيَّتِهِ ووَحْدَانِيَّتِهِ وعِلْمِهِ وقُدْرَتِهِ، وإمكان المعاد، وغير ذلك من المطالب العالية السَّيِّئَةِ، والمعالم الإلهية التي هي أشرف العلوم، وأعظم ماتكمل به النفوس من المعارف^(١).

وَيُبَيِّنُ رحمه الله تعالى الفرقَ الأساسي بين القرآن والفلسفة في ذات الله تعالى وصفاته، في حديثه عن الفرق المبدئي بين القرآن والفلسفة في ذات الله تعالى وصفاته، فيقول:

والقرآن أثبت الصفات على وجه التفصيل، ونفى عنها التمثيل، وهي طريقة الرسل؛ جاؤوا بإثبات مفصّل ونفي مجمل، وأعداؤهم جاؤوا بنفي مفصّل مجمل؟!^(٢)

١٥ - أثر نفي الصفات الإلهية على الحياة البشرية:

إنَّ شيخَ الإسلام ابنَ تيمية رحمه الله تعالى بيّنَ خطرَ أثر نفي الصفات الإلهية على الحياة البشرية، حين أوضح ما يستلزم من نفيها، وقد تقدّم أنَّ الفلاسفة يعتبرون الألوهية مجرد فكرة [في الفقرة رقم ٩].

وإنَّ التاريخ الفكري للعقل البشري كله شاهد على أنَّ الإنسان لا يمكن له أن يتصل بذات مجهولة لا يعرف شيئاً عن صفاتها وأفعالها، والإنسان مفطور على أن يكون على صلةٍ بخالقه ومُوجده، ولا يمكن له ذلك إلّا بمعرفة صفاته وأفعاله، وممّا لا يخفى أنَّ الحُبَّ والخوف، والأمل والرجاء، والطلب والسؤال، كلّ ذلك يحتاج إلى الصفات؛ فإذا نُفِيت الصفاتُ الإلهيةُ أصبح الحُبُّ لشيء وهميٍّ - وكذا الرجاء والسؤال، ممّا يحتاج إليه المخلوق من خالقه - وذلك يستلزم قطع الصلة بين المخلوق والخالق!..

ولقد تكلم شيخ الإسلام ابن تيمية في مسألة نفي الصفات فيبيّن أبعادها الخطيرة، وآثارها الرهيبة على العقيدة فقال:

فنفي اتّصافه بالصفات يستلزم أن لا يكون في الوجود شيء يتصف بصفة، ونفي فعله وإحداثه يقتضي ألا يكون في الوجود شيء حادث فكان حافظه مستلزماً نهاية السفسطة وجحد الحقائق، ولهذا كان من وافق هؤلاء على نفي محبة الله لِمَا أمر به، من الصوفيّة يلزمهم تعطيل الأمر والنهي، وأن لا ينفي إلّا القَدَر والعلم، وقد التزم ذلك طائفة من

(١) الرد على المنطقيين ص ١٥٠.

(٢) النبوات ص ٢٥٢.

محققهم وكان نفي الصفات يستلزم نفي الذات، وأن لا يكون موجودان أحدهما واجب قديم خالق، والآخر ممكن أو مُحَدَّث أو مخلوق، وهكذا التزمه طائفة من محققهم وهم القائلون بوحدة الوجود، وهم يقولون بكون العبد أولاً يشهد الفرق بين الطاعة والمعصية، ثم يشهد طاعة بلا معصية، ثم لاطاعة ولا معصية، بل الوجود واحد. (١)

١٦ - نفاة الصفات لم يكن دينهم اتباع الكتاب والسنة:

وَيُتَبَنَّى شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أن الذين نفوا الصفات الإلهية من الجهمية لم يكن أصل دينهم اتباع الكتاب والرسول ﷺ، فيقول:

وأما الجهمية النافية للصفات فلم يكن أصل دينهم اتباع الكتاب والرسول ﷺ، فإنه ليس في الكتاب والسنة نصٌّ واحد يدلُّ على قولهم، بل نُصوصُ الكتاب والسنة متظاهرة بخلاف قولهم، وإنما يدَّعون التمسك بالرأي المعقول، وقد بُسِطَ القولُ على بيان فساد حججهم العقلية وما يدعيه بعضهم من السمعيات، ويُنَّ أن المعقول الصريح موافق للمقول الصحيح في بطلان قولهم لا مخالف له!! (٢)

١٧ - القرآن مصدر أصول الدين:

لقد أثبت شيخ الإسلام ابن تيمية أن أصول الدين قد بيَّنها القرآن، وأنه مصدرها الوحيد، وذلك على غير طريقة المتكلمين الذين قسَّمُوا قواعد الدين على خمسة عشر أصلاً: الأصل الأول في بيان الحقائق والعلوم.. الأصل الثاني في بيان حدوث العالم.. الأصل الثالث معرفة صانع العالم ومعرفة نعوته الذاتية.. الأصل الرابع بيان الصفات القائمة بالإله سبحانه.. الأصل الخامس بيان أسماء الله عز وجل وأوصافه.. الأصل السادس بيان عدل الصانع وحكمته.. الأصل السابع معرفة الأنبياء.. الأصل الثامن المعجزات والكرامات.. إلى آخر ما ذكره في تقسيمهم لقواعد أصول الدين.. (٣) وذلك على أساس منهج المتكلمين في البحث والتقسيم.. وشيخ الإسلام يُبَيِّن أن أصول الدين قد بيَّنها القرآن أحسن بيان، فيقول:

إنَّ أصول الدين الذي بعث الله به رسوله محمداً ﷺ قد بيَّنها الله في القرآن أحسن بيان، ويبيِّن دلائل الربوبية والوحدانية، ودلائل أسماء الرب وصفاته، ويبيِّن دلائل نبوة

(١) النبوات ص ١٦٥.

(٢) النبوات ص ١٥٤ وبسط ذلك في كتابه موافقة صريح المعقول الصحيح المنقول/ ط على هامش منهاج السنة.

(٣) انظر كتاب «أصول الدين للإمام أبي منصور البغدادي» ط استامبول.

أنبيائه، ويبين المعاد بين إمكانه وقدرته عليه في غير موضع، ويبين وقوعه بالأدلة السمعية والعقلية، فكان في بيان الله أصول الدين الحق، وهو دين الله، وهي أصول ثابتة صحيحة معلومة فتضمن بيان العلم النافع، والعلم الصالح ودين الحق^(١).

وأهل البدع الذين ابتدعوا أصول دين يخالف ذلك ليس فيما ابتدعوه لاهدى ولادين حق، فابتدعوا مازعموا أنه أدلة وبراهين على إثبات الصانع وصدق الرسول، وإمكان المعاد أو وقوعه، وفيما ابتدعوه ماخالفوا به الشرع، وكل ماخالفوه من الشرع فقد خالفوا فيه العقل أيضاً، فإن الذي بعث الله به محمداً ﷺ وغيره من الأنبياء هو حق وصدق، وتدلل عليه الأدلة العقلية، فهو ثابت بالسمع والعقل، والذين خالفوا الرسل ليس معهم لاسمع ولا عقل!!^(٢).

إن المبتدعين الذين ابتدعوا كلاماً وأصولاً تخالف الكتاب، وهي أيضاً مخالفة للميزان، وهو العدل، فهي مخالفة للسمع والعقل، كما ابتدعوا في إثبات الصانع إثباته بحدوث الأجسام، وأثبتوا حدوث الأجسام بأنها مستلزمة للأعراض لا تنفك عنها، قالوا: وما لا يخلو عن الحوادث فهو حادث لا متنازع حوادث لأول لها، فهؤلاء إذا حقق عليهم ما قالوه لم يؤجّدوا قد أثبتوا العلم بالصانع ولا أثبتوا النبوة ولا أثبتوا المعاد، وهذه هي أصول الدين والإيمان، بل كلامهم في الخلق والبعث والمبدأ والمعاد، وفي إثبات الصانع ليس فيه تحقيق العلم لاعتقلاً ولا نقلاً، وهم معترفون بذلك كما قال الرازي: لقد تأملت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية، فما رأيتها تشفي عيلاً، ولا تروي غليلاً، ورأيت أقرب الطرق طريقة القرآن!! ثم قال: ومن جرب مثل تجربتي عرف مثل معرفتي، وكذلك الغزالي وابن عقيل وغيرهما يقولون ما يشبه هذا...^(٣)

١٨ - نظرة أهل الكلام إلى منهج السلف:

يذكر شيخ الإسلام رحمه الله تعالى عن نظرة بعض أهل الكلام إلى منهج السلف في عقيدتهم وأصول دينهم فيقول:

ومن أهل الكلام من يقول: بل الصحابة كانوا على عقائدهم وأصولهم، لكن لم يتكلموا بذلك لعدم حاجتهم إليه، فهؤلاء جمعوا بين أمرين بين أنهم ابتدعوا أقوالاً باطلة

(١) النبوات ص ٢٤١.

(٢) النبوات ص ٢٤١.

(٣) النبوات ص ٢٤٤.

ظنوا أنها هي أصول الدين، لا يكون عالماً بالدين إلا مَنْ وافقهم عليها، وأنهم علموا وبيّنوا من الحق ما لم يبيّنه الرسولُ والصحابّة، وإذا تدبّر الخبيرُ حقيقةَ ما هم عليه تبيّن له أنه ليس عندَ القوم فيما ابتدعوه لاعلم ولادين ولا شرع ولا عقل. وآخرون لما رأوا ابتداء هؤلاء وأنّ الصّحابة والتّابعين لم يكونوا يقولون مثل قولهم ظنوا أنّهم كانوا كالعامّة الذين لا يعرفون الأدلّة والحجج وأنهم كانوا لا يفهمون ما في القرآن ممّا تشابه على من تشابه عليه، وتوهموا أنّه إذا كان الوقف على قوله: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ [سورة آل عمران/٧] كان المراد أنّه لا يفهم معناه إلاّ الله لا الرسول ﷺ ولا الصّحابة، فصاروا ينسبون الصّحابة، بل والرسولَ إلى عدم العلم بالسمع والعقل، وجعلوهم مثل أنفسهم لا يسمعون ولا يعقلون، وظنوا أنّ هذه طريقة السلف، وهي الجهلُ البسيط التي لا يعقل صاحبها ولا يسمع، وهذا وصف أهل النّار لا وصف أفضل الخلق بعد الأنبياء.

قال ابن مسعود رضي الله عنه: مَنْ كان منكم مُسْتَنّاً فَلْيَسْتَنَّ بِمَنْ قَدْ مَاتَ، فَإِنَّ الْحَيَّ لَا يُؤْمَنُ عَلَيْهِ الْفِتْنَةُ، أولئك أصحابُ محمد ﷺ أبْرؤ هذه الأمّة قلوباً، وأعمقها علماً، وأقلّها تكلفاً؛ قومٌ اختارهم الله لصحبة نبيّه ﷺ، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم حقّهم، وتمسّكوا بهديهم، فإنّهم كانوا على الهدى المستقيم.

وقال أيضاً: إنّ الله نظر في قلوب العباد فوجد قلبَ محمد ﷺ خيراً قلوب العباد فاصطفاه لنفسه وابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ، فوجد قلوب أصحابه خيراً قلوب العباد بعد قلبه، فجعلهم وزراء نبيّه ﷺ، يُقَاتِلُونَ عَلَى دينه. وقد ثبت في الصحيحين من غير وجه عن النبي ﷺ أنّه قال: (خيرُ القرونِ القرنُ الذي بُعِثَ فِيهِمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُكُونُهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُكُونُهُمْ) وقد قال الله تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ﴾ [سورة التوبة/١٠١]، فرضي الله عن السّابِقين مطلقاً، ورَضِيَ عَمَّنِ اتَّبَعَهُمْ بِإِحْسَانٍ، وذلك مُتَنَاقِلٌ لِكُلِّ مَنْ اتَّبَعَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، كما ذَكَرَ ذَلِكَ أَهْلُ الْعِلْمِ!!^(١)

١٩ - مِيزَةُ الصّحَابَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

إنّ شيخَ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى كان يرى أنّ ما حصل للصّحابة الكرام رضي الله عنهم، الذين دَرَجُوا فِي ظِلِّ النّبوة من معرفة وعلوم متكاملة عميقة بدون أن تُشَوِّبَهُمْ شائبةٌ من التّكلف، كلّ ذلك كان نتيجة التّربية الصحيحة التي نالوها في رعاية

(١) النبوات ص ٢٤٨-٢٤٩.

النبي ﷺ، ثم إنه يُوازن بين الصحابة رضي الله عنهم وبين المتأخرين من العلماء الذين تأثروا بالفلسفة وعلم الكلام، فيقول:

وأصحاب محمد ﷺ كانوا مع أنهم أكبرُ النَّاسِ علماً نافِعاً، وعملاً صالحاً، أقلَّ النَّاسِ تكلفاً، يصدر عن أحدهم الكلمة والكلمتان من الحكمة، أو من المعارف ما يهدي الله به أمةً!! وهذا من مَنِّ الله تعالى على هذه الأمة، وتجد غيرهم يحشون الأوراق من التكاليف والشطحات ما هو من أعظم الفضول المُبدعة والآراء المُخترعة؟! (١)

٢٠ - أهل الكلام يعظمون أئمة الاتحاد والحلول:

إنَّ ممَّا أخذه شيخ الإسلام على أهل الكلام تعظيمهم لأئمة الاتحاد والحلول بعد تصريحهم في كتبهم بعبارات الاتحاد، وتكلفهم لها محامل غير ما قصدوه فيقول:

وتجد عامة أهل الكلام ومن أعرض عن جادة السلف - إلَّا من عصم الله - يعظمون أئمة الاتحاد، بعد تصريحهم في كتبهم بعبارات الاتحاد، ويتكلفون لها محامل غير ما قصدوه، ولهم في قلوبهم من الإجلال والتعظيم والشهادة بالإمامة والولاية لهم، وأنهم أهل الحقائق، ما الله به عليم!!.

ففي فصوص الحكم [المنسوب لابن عربي] أنَّ الولاية أعظم من النبوة، بل أكمل من الرسالة، ومن كلامه:

مَقَامُ النَبِوَّةِ فِي بَرَزَخ

فَوَيْقَ الرَّسُولِ وَدُونَ الْوَلِيِّ

وبعض أصحابه يتأول ذلك بأن ولاية النبي أفضل من نبوته، وكذلك ولاية الرسول أفضل من رسالته، أو يجعلون ولاية حالة مع الله، ورسالته حالة مع الخلق، وهذا من بليغ الجهل!! (٢)

٢١ - نقض المنطق اليوناني وهدم هيئته:

لقد تناول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى علم المنطق الذي كانت تفتخر به اليونان بالنقض بعدما نقض الفلسفة اليونانية، وأثبت أنه لا يقوم إلَّا على أساس متضعع ضعيف. ولقد كان علماء الكلام مأخوذين بسحر المنطق أكثر بالنسبة إلى

(١) نقض المنطق ص ١١٤.

(٢) نقض المنطق ص ١٤٠-١٤١.

الفلسفة. فهذا الإمام الغزالي يقول في كتابه الكبير «المستصغر»^(١) عن مقدمات علم المنطق: هي مقدمة العلوم كلها، ومن لا يحيط بها فلا ثقة بعلومه أصلاً!! ويقول في «مقاصد الفلاسفة»: أما المنطقيات فأكثرها على منهج الصواب...^(٢)

فجاء شيخ الإسلام فنقض هذه المزاعم، كما نقض قول من قال إنه من فروض الكفاية، فيقول:

وأما المنطق: فمن قال إنه فرض كفاية، وأن من ليس له به خبرة فليس له ثقة بشيء من علومه؛ فهذا القول في غاية الفساد من وجوه كثيرة التعداد، مشتمل على أمور فاسدة، ودعاو باطلة كثيرة، لا يتسع هذا الموضوع لاستقصائها.

بل الواقع قديماً وحديثاً أنك لا تجد من يلزم نفسه أن ينظر في علومه به، ويُنَظَرُ به إلا وهو فاسد النظر والمناظرة، كثير العجز عن تحقيق علم وبيانه. فأحسن ما يحمل عليه كلام المتكلم على هذا، أن يكون قد كان هو وأمثاله في غاية الجهالة والضلالة!.. فلا يصح نسبة وجوبه إلى شريعة الإسلام بوجه من الوجوه.

ثم يقول: إن القول بوجوبه قول غلاته وجهال أصحابه، ونفس الحذّاق منهم لا يلتزمون قوانينه في كل علومهم، بل يعرضون عنها، إما لطولها وإما لعدم فائدتها، وإما لفسادها، وإما لعدم تميزها، وما فيها من الإجمال والاشتباه. فإن فيه مواضع كثيرة هي لحم جمل غث على رأس جبلٍ وعرٍ، لاسهل فيرتقى، ولا سمين فيستقل!!^(٣)

ولهذا مازال علماء المسلمين وأئمة الدين يذمّونه ويذمّون أهله، وينهون عنه وعن أهله، حتى رأيت للمتأخرين فتياً فيها خطوط جماعة من أعيان زمانهم من أئمة الشافعية والحنفية وغيرهم، فيها كلام عظيم في تحريمه وعقوبة أهله، حتى إن من الحكايات المشهورة التي بلغتنا أن الشيخ أبا عمرو بن الصلاح أمر بانتزاع مدرسة معروف من أبي الحسن الآمدي وقال: أخذها منه أفضل من أخذ عكا[أي: من أيدي الصليبيين] مع أن الآمدي لم يكن أحد في وقته أكثر تبحراً في العلوم الكلامية والفلسفة منه. وكان من أحسنهم إسلاماً، وأمثلهم اعتقاداً!!^(٤)

(١) المستصغر ج ١/١٠.

(٢) مقاصد الفلاسفة ص ٣.

(٣) نقض المنطق ص ١٥٥.

(٤) نقض المنطق ص ١٥٦. وجاء في فتاوى ابن الصلاح «مسألة: ٥٥» ج ١/٢٠٩: فيمن يشتغل بالمنطق والفلسفة تعليماً وتعلّماً؟ وهل المنطق جملة وتفصيلاً مما أباح الشارع

٢٢ - خطر تأثير المنطق على العقل وقوة البيان :

يرى شيخ الإسلام رحمه الله تعالى أنَّ المنطق طالماً جنى على العقل فأفقدته نشاطه الطبيعي وسلاسة اللسان والأفكار، ولاشك فإنَّ الذين يحافظون على القواعد المنطقية والأسلوب المنطقي يُصَابُونَ بعجزِ اللسان، وتعقيدِ البيان وتطويل الكلام وزين في التفكير، وأوضح مثال لذلك مُتَوْن المتأخرين، وكتب المناهج الدراسية المتقدمة، فيقول:

وما زال نَظَار المسلمين يعيون طُرُقَ أهل المنطق وَيُتَيَّنُونَ مافيهَا من العيِّ واللكنة وقصور العقل وعجز المنطق، وَيُتَيَّنُونَ أَنَّهَا إلى إفساد المنطق العقليِّ واللسانيِّ أَقْرَب منها إلى تقويم ذلك. ^(١)

ويقول في موضع آخر :

إذا اتسعتِ العقولُ وتصوراتها اتسعتِ عباراتها، وإذا ضاقتِ العقولُ والتصوراتُ بقي صاحبها كأنه محبوسُ العقل واللسان، كما يُصيب أهل المنطق اليوناني، تجده من أضيق النَّاسِ علماً وبيانا وأعجزهم تصوراً وتعبيراً، ولهذا مَنْ كان منهم ذكياً إذا تصرَّف في العلوم وسلك مسلك أهل المنطق طَوَّلَ وضيقَ، وتكَلَّفَ وتعسَّفَ، وغايته بيانُ البَيِّن

تعليمه وتعلّمه؟ أم لا؟ فأجاب: الفلسفة رأس الشفه والإنحلال، ومادة الحيرة والضلال، ومثار الزيف والزندقة، ومن تفلسف عميت بصيرته عن محاسن الشريعة المؤيدة بالحجج الظاهرة والبراهين الباهرة، وَمَنْ تَلَبَّسَ بها تعليماً وتعلّماً قارنه الخذلان والحرمان، واستحوذ عليه الشيطان، وأبى فُرُّ أخزى من فُرِّ يُعْمِي صاحبه عن نبوة نبينا ﷺ! مع انتشار آياته المستبينة ومعجزاته المستنيرة، حتى لقد انتدب بعض العلماء لاستقصائها، فجمع منها ألف معجزة وعددناه مقصراً، إذ فوق ذلك بأضعاف لاتحصى!! وأما المنطق فهو مدخل الفلسفة، ومدخل الشرِّ شرّاً، وليس الاشتغال بتعليمه وتعلّمه ممّا أباحه الشرع، ولا استباحه أحدٌ من الصحابة والتابعين والأئمة المجتهدين والسلف الصالحين، وسائر مَنْ يُقْتَدَى به من أعلام الأئمة وساداتها، وأركان الأمة وقاداتها، قد برأ الله الجميع من مفرزة ذلك وأدناسه وطهرهم من أوضاره. وأما استعمال الاصطلاحات المنطقية في مباحث الأحكام الشرعية؛ فَمِنْ المنكرات المستبشعة، والرّقاعات المستحدثة، وليس بالأحكام الشرعية.

وقال الحافظ الذهبي في «بيان زغل العلم» ص ٢٤ [في علم المنطق]: نفعه قليل وضرره وبيل، وما هو من علوم الإسلام.

(١) الردّ على المنطقيين ص ١٩٤.

ولايضاح الواضح من العي، وقد يُوقعه ذلك في أنواع من السفسطة التي عافى الله منها
من لم يسلك طريقهم!!^(١)

٢٣ - انحطاط العلوم العقلية من جراء علم المنطق:

لقد أوضح شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى أن الأمة إذا أخذت بعلم المنطق
في العلوم العقلية أصابها الانحطاط الفكري فلم تقدر على مواكبة الحياة فيما تتطلبه من
رُقي فكري في العلوم العقلية، وذلك لأن سلوك منهج المنطق سلوك في التقليد
المحض، ولا يصلح التقليد في العلوم العقلية، فيذهب إلى:

أن هذه العلوم مادامت عقلية مجردة [تقصد علم الطب والصيدلة والفيزياء
والكيمياء، وسائر العلوم العقلية] وهي لاتقوم إلا على أساس الفكرة والدراسة، فأبي
مسوخ للتقليد البحث فيها، حتى إن ناقلها لايعتبرونها مبنية على أي وحي أو إلهام إنما
يبنونها على العقل، ولذلك فأهل العقل في كل عصر يحق لهم أن يتناولوها بالنقد
والوزن في ميزان العقل، ويرفض كل مايعارض العقل، فيقول ردًا على قول بعض
شيوخ المنطق في كتابه «الرد على المنطقيين»: «هذه علوم [ويقصد علوم المنطق] قد
صقلت الأذهان أكثر من ألف سنة وقيلها الفضلاء»:

هَبْ أَنْ الأمر كذلك؟! فهذه العلوم العقلية محضة ليس فيها تقليد لقائل، وإنما
تُعلم بمجرد العقل، فلا يجوز أن تصحّ بالنقل [لأن النقل مختص بتصحيح العقيدة
والدين]، بل لايتكلم فيها إلا بالمعقول المجرد، فإذا دلّ المعقول الصريح على بطلان
الباطل منها لم يَجْزُ رَدُّهُ، فَإِنْ أَهْلُهَا لَمْ يَدْعُوا أَنَّهَا مَأْخُذَةٌ عَمَّنْ يَجِبُ تَصْدِيقُهُ، بَلْ عَنْ
عَقْلِ مُحَضٍّ، فَيَجِبُ التَّحَاكُمُ فِيهَا إِلَى مَوْجِبِ الْعَقْلِ الصَّرِيحِ! ^(٢)

فإذا كان لا يصحّ الأخذ بعلم المنطق في العلوم العقلية المحضة؛ فكيف يصحّ أخذه
في العلوم الشرعية التي مصدرها الوحي المحض!!..

وإنّ ممّا لاشكّ فيه أنّ من أكبر أسباب تأخر المسلمين في العصور المتأخرة في العلوم
العقلية والكونية ركون العلماء إلى علم المنطق، إضافة إلى ماكانوا عليه من جمود
وتقليد!!..

(١) الرد على المنطقيين ص ١٦٧/ والسفسطة عند الفلاسفة هي الحكمة المموهة. وعند
المنطقيين هي القياس المركب من الوهميات. والغرض منه تغليب الخصم وإسكاته.
المعجم الفلسفي ج ١/ ٦٥٨.

(٢) الرد على المنطقيين ص ١٠٨

الفصل السابع

أخطار المناهج المنحرفة

في تفسير القرآن الكريم

ويشتمل هذا الفصل على الأبحاث التالية :

التمهيد: رعاية الله تعالى لكتابه شنة ثابتة إلى الأبد.

البحث الأول: الكشف عن الاتجاهات المنحرفة في التفسير.

البحث الثاني: تطرّف المنهج الفلسفي في تفسير الآيات المتشابهات.

البحث الثالث: انحراف المنهج الفلسفي الصوفي في التفسير.

البحث الرابع: انحراف أصحاب المدرسة العقلية الحديثة في تفسير القرآن الكريم.

البحث الخامس: انحراف المتطرفين في التفسير العلمي للقرآن الكريم.

البحث السادس: انحراف مدّعي التجديد في تفسير القرآن الكريم.

البحث السابع: انحراف أصحاب القراءات المعاصرة للقرآن الكريم.

البحث الثامن: معالم الانحراف في فهم القرآن والإسلام.

البحث التاسع: ماذا يعني التجديد في الإسلام؟.

البحث العاشر: التجديد في الإسلام ضمن الثوابت العلمية والضوابط المنهجية.

البحث الحادي عشر: ثوابت العقيدة الإسلامية عصمة من كل ضلال.

التمهيد: رعاية الله تعالى لكتابه سنّة ثابتة إلى الأبد

هذه أبحاث مركّزة مقتضبة تتعلّق به أخطار المناهج المنحرفة في تفسير القرآن الكريم نقدّمها خدمةً واجبةً في مجال توعية المسلمين، ممّا يجول في كثير من الأفكار التي قد تطرّق مسامعهم، أو تراءى لأبصارهم، ممّا يسمعون أو يقرؤونه، ممّا يُهدّد عقيدتهم، أو يمسّ بقدسيّة قرآنهم، أو يُشوّه شريعتهم، وممّا يُبْرِئ أعداء الإسلام في كلّ زمانٍ ومكانٍ.

وهذه الأبحاث على اختصارها، تُشكّل حلقةً من تلك الحلقات التي يعقدها المخلصون من العلماء، دفاعاً عن الإسلام والمسلمين؛ وذلك لإدراكهم العميق أن سلامة المسلمين تتحقّق بسلامة إسلامهم، عقيدةً وشرعةً.. ومنهجاً وتطبيقاً..

وقد ظهرَ في هذا الزمان من عوامل المروق من الدّين، ما يُشكّل خطراً جسيماً على المسلمين، من جرّاء ما يثارُ حول الإسلام وعقيدته وشريعته، وقرآنه وسنّة نبيه، ومن الشُّبُهات والافتراءات التي يروّجها أعداؤنا؛ وأنّ بعض مَنْ يدّعي الإسلام ويجهلُ حقائقه، يقومُ بترويج وإشاعة ونشر ما يُعتبر طعنًا في الدّين؛ من غير أن يكتثّر لخطورة صنيعه وبشاعة جريمته، وهو آمِنٌ من العقوبة، بعيدٌ من المؤاخذه؛ حتى أصبحت «قضية المسّاس بقدسيّة الإسلام» قضيةً من القضايا المألوفة لدى الجهلة بالإسلام، بل تكادُ تكونُ رأياً سائداً عند ذلك القبيل من الناس!!..

كما ظهرت في هذا الزمان ظواهرٌ منكّرةٌ في حياة المسلمين وبلادهم، وعلى الأخص في ثقافتهم ومعارفهم؛ حيثُ فشا بين مثقفيهم الجهلُ بالإسلام وبالقرآن، حتى غدا الواحد فيهم عالماً بنوافل العلوم الكونية، جاهلاً بالضروريات الدّينية؛ ونجدُ الكثير من هؤلاء عندما يُصادفون حقيقةً من حقائق الإسلام التي يكتشفها العلم الحديث، قد ملكتهم الدهشة، وبدت على وجوههم أمارات التعجب والاستغراب، كأنهم يجزمون بأنّ ليس في الإسلام ما يمتُّ إلى العلم الحديث بصلة، وقد فاتهم أنّ العلم الحديث، مهما قطع أشواطاً في المدنيّة والتقنيّة العلمية، فإنّه لا يمكن بحال أن يبلغ نزراً سيراً ممّا أشار إليه القرآن الكريم من أسرار الكون، ذلك أنّه فتح للعقول الإنسانية سُبلَ المعرفة في جميع مجالات الحياة، وما هذا التراث العلمي الخالد لأسلافنا الأماجد إلّا دليلٌ ناصعٌ على ماذنبنا إليه، والذي اعترف بفضل علماء الغرب قديماً وحديثاً، وبُؤسنا عليه صرح تقدّمهم العلمي ومدنيّتهم الحديثة.

وليس من المستغرب أن يقوم بين المسلمين صنفٌ من هذا النوع من الجهال، إن

كَانَ ضِعَافُهُمْ يُهْرُولُونَ وَرَاءَ سَرَابٍ الْغَرَبِ يَنْشُدُونَهُمُ الرِّقْيَ وَالتَّقَدَّمَ وَالْحَضَارَةَ
وَالسَّعَادَةَ، وَيَتَأَوْنَ عَنْ دِينِهِمْ، وَيُعْرِضُونَ عَنْ قُرْآنِهِمْ.

وَلَقَدْ زَهَدَ كَثِيرُونَ فِي هَذَا الْعَصْرِ بِالْعِلْمِ الشَّرْعِيِّ وَالثَّقَافَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ، وَأَعْرَضُوا عَنْ
الْمَنْهَجِيَّةِ الْإِسْلَامِيَّةِ فِي رِبْطِ الدُّنْيَا بِالذِّينِ، وَدِرَاسَةِ الظَّوَاهِرِ الْكُونِيَّةِ فِي ظُلِّ الْحَقَائِقِ
الْقُرْآنِيَّةِ وَالْعَقِيدَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ؛ فَمَا فِي الْقُرْآنِ مِنْ آيَةٍ مِنْ آيَاتِ الْعَقِيدَةِ وَالْإِيمَانِ إِلَّا مَرْبُوطَةٌ
بِآيَةٍ مِنَ الْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ؛ لِتَكُونَ دَلَالَةً وَاضِحَةً عَلَى أَنَّ خَالِقَ هَذَا الْكَوْنِ هُوَ مُنَزَّلٌ هَذَا
الْقُرْآنَ؛ وَبِهَذَا تَرَابُطُ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ الْمَسْطُورَةِ بِالْآيَاتِ الْكُونِيَّةِ الْمَنْظُورَةِ!!..

كَمَا أَنَّنَا وَجَدْنَا بَعْضَ مَنْ يَدْخُلُ عَالَمَ الْقُرْآنِ مِمَّنْ فَقَدَ أَهْلِيَّةَ فَهْمِ آيَاتِهِ وَأَحْكَامِهِ، غَيْرَ
قَادِرٍ عَلَى الْوُصُولِ إِلَى حَقَائِقِ الْقُرْآنِ، فَتَرَاهُ يُخْطِئُ كَثِيرًا فِي اسْتِخْلَاصِ النَتَائِجِ
وَالْقَضَايَا الْقُرْآنِيَّةِ، وَيَأْتِي بِتَفْسِيرَاتٍ خَاطِئَةٍ وَتَأْوِيلَاتٍ بَاطِلَةٍ، وَيُقَدِّمُ مِنْ خِلَالِ ذَلِكَ
أَبْحَاثًا تَتَصَفَّ بِالسُّطْحِيَّةِ تَارَةً، وَبِالنَّظَرَةِ التَّجَارِيَّةِ تَارَةً أُخْرَى.

وَبَيْنَ الْحَيْنِ وَالْحَيْنِ.. نَرَى عُلَمَاءَ أَعْلَامًا يَنْبُرُونَ لَهُوْلَاءِ مُصَحِّحِينَ لِأَغَالِيظِهِمْ،
مَقُومِينَ لِأَخْطَائِهِمْ، وَيَنْهَضُونَ كَاشِفِينَ لَشَبَهَاتِهِمْ، مُثْبِتِينَ لِمَخَاطِرِهِمْ، نَاصِحِينَ
وَمُرْشِدِينَ لَهُمْ وَلِلْأُمَّةِ؛ يَقْفُونَ خُرَاسًا أَمْنًا عَلَى حُسْنِ الْفَهْمِ لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى؛ يَنْفُونَ
عَنْ تَحْرِيفِ الْغَالِيْنَ، وَاتِّحَالِ الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلِ الْجَاهِلِينَ، فَقَدْ جَاءَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ
أَنَّهُ قَالَ: «يَحْمَلُ هَذَا الْعِلْمَ مِنْ كُلِّ خَلْفٍ عُذُولُهُ؛ يَنْفُونَ عَنْهُ تَحْرِيفَ الْغَالِيْنَ، وَاتِّحَالَ
الْمُبْطِلِينَ، وَتَأْوِيلَ الْجَاهِلِينَ»!!.

فَلَمْ يَخْلُ عَهْدٌ أَوْ زَمَانٌ إِلَّا فِيهِ قَائِمٌ لِلَّهِ بِالْقِسْطِ وَالْعَدْلِ؛ لِيَكُونَ نَبْرَاسًا لِمَنْ دُونَهُ،
يَقْتَفِي أَثَرَهُ، وَيَسْلُكُ مَنْهَجَهُ، وَيَتَّبِعُ طَرِيقَتَهُ، وَتِلْكَ نِعْمَةٌ مِّنْ بِنَاءِ اللَّهِ تَعَالَى عَلَى هَذِهِ
الْأُمَّةِ أَنْ جَعَلَ الْمَصْلِحِينَ خُلَفَاءَ فِيهَا، يَخْلَفُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا، كُلَّمَا رَحَلَ مَصْلِحٌ خَلَفَهُ
آخَرٌ، وَهَكَذَا إِلَى أَنْ يَتِمَّ أَمْرُ اللَّهِ، وَيَرِثَ اللَّهُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا.

وَأَبْحَاثُ هَذَا الْفَصْلِ عَلَى إِيجَازِهَا امْتَدَّادٌ لِتِلْكَ الْخِلَافَةِ الرَّاعِيَةِ لِلدِّينِ اللَّهُ وَكِتَابِهِ وَسُنَّةِ
رَسُولِهِ ﷺ؛ تَظْهَرُ مِنْ خِلَالِهِ عَظَمَةُ حِفْظِ اللَّهِ تَعَالَى لِهَذَا الدِّينِ الَّذِي تَكْفُلُ بِحِفْظِهِ
وَرِعَايَتِهِ وَتَخْلِيدِهِ، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾

البحث الأول

الكشف عن الاتجاهات المنحرفة في التفسير

نشأت إثر الفتن التي أثارها أعداء الإسلام فرقٌ تأثرت بالشبهات الدخيلة، التي صاحبت ثائرة تلك الفتن التي عصفت قروناً في ديار الإسلام، والتي كانت أكبر عامل على إثارة الفرقة بين الأمة الواحدة...

ولقد كانت تلك الفرق الضالة على خلافات كبيرة فيما بينها، ونتيجةً لانتصار كل فرقةٍ لما عليه من الضلال؛ نشأت الاتجاهات المنحرفة لتفسير القرآن الكريم، حين سعت كل فرقة إلى تطويع النصوص القرآنية والنبوية، وإخضاعها لميولها واتجاهها الضال المنحرف، وبالإضافة إلى ذلك، ذهبت تلك الفرق المنحرفة إلى اختلاق الأقاويل التي تزوج أفكارها؛ ثم الادّعاء أنها مروية عن النبي ﷺ أو عن الصحابة، وعلى الأخص سيدنا عليّ كرم الله وجهه. وذلك زيادة في التضليل على عامة الناس. وقد برزَ حول تفسير القرآن الكريم اتجاهان خطيران:

الاتجاه الأول: الانحراف في التفسير والتأويل.

والاتجاه الثاني: الوضع والكذب على رسول الله ﷺ وآله وسلم وأصحابه.

وفي هذا البحث إطلالة موجزة حول الكشف عن الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن الكريم.

الانحراف عن النهج الصحيح في تفسير القرآن:

ترجع عوامل الانحراف عن النهج الصحيح في تفسير القرآن الكريم إلى أسباب عدّة، نجملها فيما يلي:

١- التزايدات الخلافية بين الفرق.

٢- الخلافات بين أصحاب المذاهب النحوية.

٣- التأويل الباطني للفرق المنحرفة.

٤- الوضع والكذب على النبي ﷺ.

أما السبب الأول:

فإنه يظهر في الإتجاه المنحرف في التفسير للمعتزلة، وذلك لما ظهرت النزاعات الخلافية بين الفرق، تأثر التفسير بها تأثراً كبيراً، وذلك لأن القرآن الكريم هو المرجع الأول لجميع المسلمين، فكان من الطبيعي أن يرجع أهل جميع الفرق إلى القرآن الكريم، ليجدوا فيه حجتهم فيما ذهبوا إليه من الرأي، ولو بطريق إخضاع النص القرآني له، وقسره على موافقة رأيه وهواه، وتأويل ما يصادمه من ذلك.

ولقد استفحل الأمر إلى حد جعل أصحاب المذاهب والأهواء، يسعون إلى حماية مذاهبهم وأهوائهم، والترويج لها في غير محيطهم، بما أخرجوه للناس من تفاسير حملوا فيها كلام الله تعالى وفق أهوائهم، وبمقتضى نزعاتهم واختلافاتهم.

وكانت فرقة المعتزلة من بين هذه الفرق التي تأولت كثيراً من آيات القرآن بغير تأويلها، واتجهت بالكثير من نصوصه اتجاهاً منحرفاً، من أجل خدمة مبادئها التي تدّين بها.

وإذا ذهبنا نستعرض ماكتبه المفسرون من المعتزلة في تفاسيرهم، خرجنا منها بجملته كثيرة من هذه التأويلات، التي تخدم أصولهم الخمسة التي يجمعون عليها، وهي: التوحيد، والعدل، والوعد، والوعيد، والمثلة بين المتزّلين. والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتي أثاروا حولها مجادلات كلامية، لم تأت للامة بأي خير...

ويكفي أن نعرض هذا المثال من تأويلات، المعتزلة، لتعطينا الصورة الواضحة لحقيقة تكلفهم في تأويل الآيات التي لاتوافق أفكارهم، وذلك في قول الله تعالى: ﴿وَجُودَ يُؤْمِلُ نَاصِرَةً﴾ إلى رَبِّهَا نَاطِرَةً [القيامة/ ٢٢-٢٣] فأولوا الآية الكريمة بما يتمشى مع مذهبهم الذي ينفي جواز رؤية الله تعالى.

ففي تفسير الزمخشري - وهو من أقطاب المعتزلة - نجد أن المعتزلة يؤولون معنى (ناطرة) إلى معنى «التوقع والرجاء» أي: هو من قبيل قول الناس: أنا إلى فلان ناظر ما يصنع بي، يريدون معنى التوقع والرجاء.

وعلى هذا يكون معنى الآية عندهم. أن المؤمنين يوم القيامة، لا يتوقعون النعمة والكرامة إلا من ربهم، كما كانوا في الدنيا لا يبخشون ولا يرجون إلا إياه^(١).

(١) تفسير الكشاف، ٥٠٩/٢.

فالنظر في تأويل المعتزلة لهذه الآية، يرى أنهم صرفوا معنى الآية الصريح في رؤية المؤمنين الله تبارك وتعالى يوم القيامة في الجنة، والذي وردت الأحاديث النبوية - التي رواها أصحاب الصحاح - بإثبات معنى الآية الكريمة، صرفوه إلى احتمال غير مقصود من الآية، فإن تأويل النظر في الآية بمعنى الانتظار مدفوع، لأنه بهذا المعنى لا يتعدى إلى، بل يتعدى «أي: الانتظار» بنفسه، ثم إنه لا يسند إلى الوجه، فلا يقال: وجه فلان متظر. وحمل النظر على النعمة والكرامة المتوقعة من الله تعالى تكلف ظاهر، وهو يؤدي إلى الانتظار، والانتظار غير النظر، وأخبر الله عز وجل عن مراده بلفظ صريح يدل دلالة واضحة لمعنى المراد وأوضحه النبي ﷺ بقوله الثابت في صحيح البخاري ومسلم: عن جرير بن عبد الله رضي الله عنه قال: كنا عند رسول الله ﷺ، فنظر إلى القمر ليلة البدر، وقال: «إنكم سترون ربكم عياناً - أي: مُعَايَنَةً - كما ترون هذا القمر، لا تُضَامُونَ في رؤيته»، أي: لا يُصَيِّكُمْ ضِيم في ذلك. وفي حديث ضُهِيب عند مسلم: في دخول أهل الجنة الجنة: أن رسول الله ﷺ قال: «إذا دخل أهل الجنة الجنة: يقول الله تبارك وتعالى: تُريدون شيئاً أزيدكم؟ فيقولون: أَلَمْ تُبَيِّضْ وُجُوهَنَا؟ أَلَمْ تُدْخِلْنَا الجنةَ وَتُنَجِّبْنَا مِنَ النارِ؟ فيكشف الحجاب، فما أعطوا شيئاً أحبَّ إليهم من النظر إلى ربهم»^(١).

ونحن في هذا البحث لا نريد أن نستقصي ما للمعتزلة من تأويلات منحرفة في القرآن الكريم، ومن يُرد المزيد من معرفة ذلك، فليقرأ في تفسير الكشاف للزمخشري، وتزيه القرآن عن المطاعن للقاضي عبد الجبار، ثم ليقارن بينها وبين تفاسير الأئمة، ليقف على مالهم من تأويلات منحرفة، يجب تزيه كتب التفسير عنها.

وكذلك نجد لدى الشيعة اختلافات منحرفة في تفسير كثير من آيات القرآن الكريم، حملوها على غير محلها وأولوها على غير وجهها، لتوافق وماذهبوا إليه من الآراء والاجتهادات الخاطئة، والتي تدور في مجملها حول إثبات العصمة للأئمة من أهل البيت - عليهم السلام - والعصمة لا تثبت إلا للنبي ﷺ. وكذلك فكرة المهدية والرجعة، وكذلك فكرة التقية التي يجعلونها أساس التعامل مع سواهم من المسلمين.

والذي يُظهر انحرافهم في تفسير القرآن الكريم حملهم آيات كثيرة، نزلت في حق المشركين والكافرين وأهل الكتاب، على أجلاء أصحاب رسول الله ﷺ، كأبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب وعثمان بن عفان، وسواهم رضي الله تعالى عنهم أجمعين

وقد أعرضنا عن ذكر الأمثلة فيما تقدم خشية إثارة فتنة الأحقاد والضغائن التي تحملها تلك التأويلات الباطلة، والتفسيرات المزيفة، والتي يجب تطهير كتب التفسير عامة: السنيّة والشيعيّة منها، لأنها تبثّ روحَ الفرقة بين الأمة الواحدة.

وأما السبب الثاني:

فإنه يظهر في الاتجاه المنحرف لبعض أصحاب المذاهب النحوية المتبعية التي التزموها؛ كأن يجدوا في كتاب الله تعالى آية تُقرأ بقراءة ثابتة متواترة عن سيدنا رسول الله ﷺ، وهم يرونها لا تتماشى مع مذهبهم النحوي فينكرون على من يقرأ بها من الأئمة وسائر الأمة.

كما فعل الزمخشري في ردّ قراءة ابن عامر - وهي من السبع المتواترة - في قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ زَيْنٌ لِكَثِيرٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ قَتَلَ أَوْلَادِهِمْ شُرَكَاؤُهُمْ﴾ [الأنعام / ١٣٧]، وقد ردّ عليه ابن المنير في «الاتصاف» المطبوع مع الكشاف ج ١ / ٢٧٢ .
وأجاد في الردّ عليه أيضاً الإمام ابن حيان في تفسيره^(١).

ومن أسباب الانحراف في التفسير، الجهلُ في اللغة العربية وقواعدها:

فمن الناس فريق ممن يزعم العلمَ والفهمَ، يُفسرون القرآن الكريم، من غير أن تكون لهم دراية تامة بقواعد اللغة العربية وأصولها، ولا يبدأ اشتقاق الكلمات وكيفية تصريفها، ومن هنا كان لهم في تفسير القرآن الكريم اتجاه منحرف، يخرج باللفظ القرآني عن معناه اللغوي الذي وضع له، إلى معنى آخر غير مراد به حقيقةً أو مجازاً^(٢).

وأما السبب الثالث:

فإنه يظهر في الاتجاه المنحرف لأصحاب الفرق الضالة من الباطنية، كالقرامطة، والخرمّية، والبابكية والسبعيّة، والإسماعيلية. والباطنية لقبٌ عام مشترك تتدرج تحته مذاهب شتى وطوائف كثيرة، والصفة المشتركة بينها، هي تأويل النص الظاهر بالباطن، تأويلاً يذهب به أصحابه وراء المقصود فيما يخالف المراد من النص، ولقد يصل التباين بين التأويل الباطني وبين المراد من النص حدّ التناقض الخالص.

(١) البحر المحيط ٤ / ٢٣٠.

(٢) انظر الاتجاهات المنحرفة في تفسير القرآن للدكتور محمد حسين الذهبي ٣٧-٤٣.

والتأويل الباطني يعني عند هذه الفرق الضالة، أن النصوص الدينية المقدسة، رموز وإشارات إلى حقائق خفية وأسرار مكتومة، وأن عامة الشعائر والعبادات والأحكام العملية الأخرى، هي عندهم أيضاً رموز وأسرار، وأن عامة الناس هم الذين يقنعون بالظواهر والقشور - على حد زعمهم - ولا ينفذون الى المعاني الخفية المستورة، التي هي من شأن أهل المعرفة عندهم.

نماذج من التأويل الباطني:

قالوا في تأويل قول الله عز وجل: ﴿وَإِنَّ الدَّارَ الْآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ﴾ [العنكبوت/ ٦٤]: الآخرة التي يصير الناس إليها بعد الموت إنما هي انتقال الروح من حيوان الى حيوان، حتى يكون آخر ما يصيرون إليه من الأبدان السود المحترقة، أو الى الأبدان الصافية النورانية.

وقالوا في تأويل قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ؟ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَّا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾ [الانفطار/ ٨٦]: إن الله يُرَكِّبُ الإنسان فيما شاء من صور الحيوان، على قدر ما اكتسب من الطاعات والمعاصي.

ولذلك كان الوضع والكذب، أثراً بارزاً في الاتجاه المنحرف في تفسير القرآن الكريم، وساعد على هذا تساهل بعض المفسرين كالثعلبي والزمخشري، في ذكر الأحاديث الموضوعة في تفاسيرهم.

فهؤلاء يزعمون أن القيامة تكون بخروج الروح من بدن الى بدن، طاهرة وصورة حسنة ولذات دائمة. ثم لا يزالون يتقلدون في مراتب الحسن والطهارة واللذات، على قدر نظافتهم حتى يصيروا ملائكة، ويصيروا في أبدان صافية نورية. وإذا كانت الأرواح عاصية، نقلت الى أبدان نجسة وصورة مشوهة، وخلق مذمومة كالكلاب والقرود والخنازير والحيات والعقارب. وهذا مذهب إليه أصحاب الفرقة الباطنية المسماة بـ«الخرامية»^(١).

والى هذا ذهب سائر الفرق الباطنية من الاسماعيلية والقرامطة.

وأما السبب الرابع:

فإنه يظهر في الاتجاه المنحرف الذي سلكه القصاصون، الذين كانوا يضعون

(١) مذاهب الإسلاميين ٢/ ٤٦ - ٧٤.

الأحاديث في التفسير والأحكام والمواظ، وقد كان أكثرهم من الملاحدة والزنادقة والباطنية، كانوا يتصنعون الكلام وينمقونه، ويجعلونه يُشابه أحاديث النبي ﷺ، ويضعون له الأسانيد المكذوبة، ليوهموا عامة الناس بأنها مروية عن رسول الله ﷺ، وكان هؤلاء يضمنون هذه الأقاويل المكذوبة. ما يريدون دسّه على الإسلام، من المعاني الباطلة والعقائد المضلة، ليصلوا الى ما يريدون من إفساد عقيدة المسلمين، وتشويه جمال الإسلام.

قال العلامة المحدث ابن عَرَّاق الكِنَّاني، في مقدمة كتابه «تنزيه الشريعة» في فصل الوضاعين:

«الوضاعون أصناف» الصنف الأول: الزنادقة، وهم السابقون الى ذلك، والهاجمون عليه، حملهم على الوضع الاستخفاف بالدين والتليس على المسلمين، كعبد الكريم بن أبي العوجاء - ربيب حماد بن سلمة - ومحمد بن سعيد المصلوب، والحاتر الكذاب، الذي ادعى النبوة في زمن عبد الملك بن مروان، والمغيرة بن سعيد الكوفي، حتى قال حماد بن زيد: وضعت الزنادقة على النبي ﷺ أربعة عشر ألف حديث. وقال ابن عدي: لَمَّا أخذ ابن أبي العوجاء وأتى به محمد بن سليمان بن علي فأمر بضرب عنقه، قال: والله لقد وضعت فيكم أربعة عشر ألف حديث أحرم فيها الحلال وأحل فيها الحرام. «الصنف الثاني: أصحاب الأهواء والبدع، وضعوا أحاديث نصرة لمذهبهم، أو ثلثاً لمخالفيهم. روى ابن أبي حاتم في مقدمة كتاب الجرح والتعديل عن شيخ من الخوارج أنه كان يقول بعدمَا تَابَ: انظروا عَمَّن تأخذون دينكم، فإننا كنَّا إذا هويتُ أمراً صيرنا له حديثاً. وقال الحاكم أبو عبد الله: كان محمد بن القاسم الطالقاني من رؤساء المرجئة، يضع الحديث على مذهبهم. وحكى ابن عدي أن محمد بن شجاع الثلجي كان يضع الأحاديث التي ظاهرها التجسيم - أي: لذات الله تبارك وتعالى - وينسبها الى أهل الحديث، يقصد الشناعة عليهم، لِمَا بينه وبينهم من العداوة المذهبية. «الصنف الثالث» قوم اتخذوا الوضع صناعةً وتسوقاً. جُرْأة على الله ورسوله، حتى إنَّ أحدهم ليسهر عامّة ليلة في وضع الحديث، كأبي البخري وهب بن وهب القاضي، وسليمان بن عمرو النخعي - وغيرهم - «الصنف الرابع» قوم ينسبون الى الزهد، حملهم التدين الناشئ عن الجهل، على وضع أحاديث في الترغيب والترهيب، ليحثوا الناس على الخير ويزجروهم عن الشر. [وكما فعل بعضهم: كان يضع لكل سورة من القرآن فضائل ينسبها الى النبي ﷺ، ليحث الناس على حفظ القرآن وقراءته]. «الصنف الخامس» أصحاب الأغراض الدنيوية كالقصاص والشحاذين،

وأصحاب الأمراء، وأمثلة ذلك كثيرة». ولقد تواتر عن سيدنا رسول الله ﷺ، أنه قال: «من كَذَّبَ عليَّ فليتبوأ مقعده من النار»^(١)

(١) تنزيه الشريعة المرفوعة عن الأخبار الشنيعة الموضوعة ١/٩-١٣.

تطرف المنهج الفلسفي في تفسير الآيات المتشابهات

منشأ الانحراف في المنهج الفلسفي الكلامي:

يرجع منشأ الانحراف في المنهج الفلسفي الكلامي، إلى جعل العقل أساساً لفهم النصوص القرآنية المتشابهة، وتأويل الآيات المتشابهات وآيات الصفات على مفهوم العقل للمحسوسات، مع أننا لم نؤمر بتفسير هذه الآيات أو تأويلها، وإنما أمرنا بالإيمان بها، مع التسليم بالمراد بها إلى مُتَرَلِّها وهو الله سبحانه وتعالى.

إن أول مظهر من مظاهر الفلسفة الكلامية، هو التأويل للآيات المتشابهات على أساس العقل، وجعلهم ذلك أساساً لفهم القرآن الكريم، ولم يجعلوا القرآن الكريم أساساً للعقل، أي: لم يُطَوِّعوا العقل للقرآن، وإنما أرادوا تطويع القرآن للعقل.

ولذلك ذهبوا في تأويل الآيات المتشابهات حسب ادراك عقولهم للمعاني في حدود المحسوسات. وإذا أرادوا جعل آية شاهدة على أفكارهم، أخذوا في تأويلها بشتى وجوه التأويل ليطابقوها على ما يريدون، ولو خالفوا في ذلك أصول اللغة. وبذلك أصبح التأويل منهجاً يتهجون عليه في تطويع نصوص الكتاب والسنة، فيما يتعارض مع آرائهم وأصول مذهبهم، حتى قالوا: كل آية خلاف مذهبنا منسوخة أو مؤولة. فجعلوا ادعاء النسخ عند العجز عن التأويل، تهريباً من الإقرار بما يخالف آراءهم.

وفي هذا البحث إطلالة موجزة حول هذا الموضوع مع إظهار منهج التطرف فيه.

تطرف المنهج الفلسفي الكلامي في التفسير:

لقد أتى القرآن الكريم بالآيات المتشابهات لاختبار إيمان المؤمنين، وامتحان يقينهم، حيث جاءت الآيات المتشابهات على شكل وصف لأشياء محسوسة، ومعانٍ غير محسوسة؛ وصفاً اجمالياً لا يقدر سامعها أو قارئها، على ادراك حقيقة ما ترمي إليه بمقدار مدلولات ألفاظها، فكان من الطبيعي الوقوف عندها والتسليم بحقيقة معانيها ومقاصدها لقائلها ومترلها، وهو الله تبارك وتعالى.

قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ، فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ، وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا، وَمَا يَذْكُرُ إِلَّا أَهْلَ الْكِتَابِ﴾ [آل عمران/ ٧].

والمتشابه: هو تلك الآيات القرآنية التي استأثر الله تعالى بعلمها، وجعلها سراً من أسرار كتابه العزيز ولا حظ لأحد في علمها ولو كان من الراسخين في العلم. بل إن حفظهم منها الإيمان بها وترك الاشتغال بمضمونها. مع التسليم بحقيقتها لله تبارك وتعالى.

وقد ثبت بالاستفاضة. أن جميع الصحابة والتابعين والأئمة والمحدثين والمقرئين. يقفون في التلاوة عند قوله تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ﴾ ثم يتدثرون بالقراءة: ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا﴾ بياناً لتفويضهم علم المتشابه إلى علم الله تعالى، واعتراضاً بقصور أفهامهم في إدراك معاني المتشابه الذي جعله الله تعالى من علم أسرارهِ في القرآن العظيم^(١).

فكُلٌّ مَنْ وَقَفَ مِنَ الْمُتَشَابِهِ مَوْقِفَ السَّلَفِ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَالأئِمَّةِ الْمُهْدِيِّينَ؛ هو من الراسخين في العلم، وَمَنْ خَاضَ فِيهِ فَهُوَ مُخَالَفٌ لِمَنْهَجِهِمْ، يَبْتَغِي الْفِتْنَةَ..

وقد ذكر العلماء عن فائدة إنزال الله تعالى للآيات المتشابهة فقالوا: هو ابتلاء المؤمنين الراسخين في العلم بمنعهم عن التفكير بالمتشابه، والوصول الى ماهو غاية مُتَمَنَّاهُمْ من العلم بأسرارهِ، فكما أن الجاهل مُبْتَلَوْنَ بِتَحْصِيلِ مَا هُوَ غَيْرُ مَطْلُوبٍ عِنْدَهُمْ، من العلم والإمعان في الطلب؛ كذلك العلماء الراسخون مُبْتَلَوْنَ بِالْوَقْفِ، وترك ماهو محبوب عندهم من حب الاطلاع وزيادة المعرفة، وإدراك المقصود من كل نص؛ إذ ابتلاء كل واحد إنما يكون بما هو خلاف هواهِ وعكس مُتَمَنَّاهُ^(٢)

ولقد كان السلف الصالح يقفون. من الآيات المتشابهات وآيات الصفات، موقف الإيمان والتصديق والتسليم. قال الإمام ابن تيمية: «فمن سبيلهم - أي: الصحابة - في الاعتقاد الإيمان بصفات الله تعالى وأسمائه التي وصف بهانفسه، وسمى بها نفسه في

(١) دستور العلماء ج ٣/ ٢٠٣-٢٠٤/

(٢) دستور العلماء ج ٣/ ٢٠٣/.

كتابه وتزيله، أو على لسان رسوله - الصادق المصدوق ﷺ - من غير زيادة عليها ولا نقص فيها، ولا تجاوز لها، ولا تفسير لها، ولا تأويل لها، بما يخالف ظاهرها، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين، ولا سمات المحدثين، بل أمرؤها كما جاءت، وردّها علمها إلى قائلها، ومعناها المتكلّم بها سبحانه^(١).

وهذا الإمام الأكرم «الشافعي» يقول في شأن آيات الصفات الكريمة، والآيات المتشابهة: «أمنت بما جاء عن الله، وبما جاء عن رسول الله ﷺ؛ على مراد رسول الله».

وسأل الربيع بن سليمان، الإمام الشافعي عن صفات الله تعالى، فقال له: «حرام» على العقول أن تُثَمِّلَ الله تعالى، وعلى الأوهام أن تُحَدِّدَهُ، وعلى الظنون أن تقطع، وعلى النفوس أن تُفَكِّرَ، وعلى الضمائر أن تعمق، وعلى الخواطر أن تحيط، وعلى العقول أن تعقل؛ إلا ما وُصف به نفسه، أو على لسان نبيه ﷺ.

وقال الإمام محمد بن الحسن الشيباني - صاحب الامام أبي حنيفة - : «اتفق الفقهاء كلهم من الشرق والغرب، على الإيمان بالقرآن، وبالأحاديث التي جاء بها الثقات عن رسول الله ﷺ، في صفة الرب عز وجل، من غير تفسير ولا وصف ولا تشبيه، فمن فسر شيئاً من ذلك، فقد خرج مما كان عليه النبي ﷺ، وفارق الجماعة، فإنهم لم يصفوا ولم يُفسِّروا، ولكن آمنوا بما في الكتاب والسنة، ثم سكتوا، فمن قال بقول جهم فقد فارق الجماعة^(٢).

وقال الامام ابن تيمية: «إنهم - أي: الصحابة - كانوا إذا رأوا من يسأل عن المتشابه بالغوا في كفه؛ تارة بالقول العنيف، وتارة بالضرب، وتارة بالإعراض الدال على شدة الكراهة لمسألته، ولذلك بلغ عمر رضي الله عنه أن «صبيغاً» يسأل عن المتشابه؛ أعَدَّ له عَرَجَيْنِ النخل، فبينما عمر يخطب، قام فسأله عن قول الله تعالى: «وَالدَّارِيكَاتُ ذُرُوءًا فَالْحَامِلَاتُ وِقْرًا» وما بعدها، فنزل عمر فقال: «لو وجدتُك مخلوقاً لضربتُ الذي فيه عيناك بالسيف» - يقصد: لو وجده مرتدّاً - ثم أمر به فُضِرِبَ ضرباً شديداً، وبعث به إلى البصرة، وأمرهم ألا يجالسوه، فكان بها كالبعير الأجرب، لا يأتي مجلساً إلا قالوا: «عَزَمَةُ أمير المؤمنين» فنفروا عنه، حتى تاب وحلف بالله ما بقي يجد مما كان في نفسه شيئاً، فأذن عمر في مُجالسته، فلما خرجت الخوارج أتى ف قيل له: هذا وقتك؟ فقال:

(١) نقض المنطق: لشيخ الإسلام أحمد بن عبد الحليم بن تيمية/٤٠٣/.

(٢) نقض المنطق ص/٢.

لا، نَفَعْتَنِي مَوْعِظَةُ الْعَبْدِ الصَّالِحِ»، يقصد عمر بن الخطاب^(١).

هذا هو مذهب السلف الصالح، من آيات الصفات والآيات المتشابهات، قولاً وإيماناً وفعلاً ومنهجاً.

وعلى هذا كان منهج التابعين، إلى أن هبَّت على المسلمين ريحُ الفلسفة اليونانية، وعصفت في ديار الإسلام فكرُها، على أيدي بعض من استشرف لمعرفة، فسارع إلى ترجمتها نسطرة أهل الكتاب، والمنجمون من المجوس من بلاد فارس؛ حتى اختلطت تصوّراتها القائمة على البحث والمعرفة في الغيبيّات - فيما وراء الكون والحياة - في عقول الجهميّة والمعتزلة، ومن كان على شاكلتها من أصحاب الفرق الضالّة فنضحت عليهم من أصباغها المختلفة ومفاهيمها العقيمة، وأدخلت عليهم شبهات ضالّة، حتى أثاروا من خلالها جدالات، كان سبباً لضلّال الكثيرين من الذين انخدعوا بها، وعاملاً كبيراً من عوامل الخلاف بين الأمة...

فالجهميّة: هم أوّل من نادى بالتعطيل ونفي الصفات، وأن القرآن الكريم مخلوق، ومؤسس هذا المذهب الضالّ المنحرف، هو «الجهم بن صفوان» الذي أخذ علومه عن الجعد بن درهم الضالّ المضل، قال المطلي في كتابه «التنبيه»: «إن الشُمتيّة - وهم جماعة من عبدة الأصنام، يقولون بتناسخ الأرواح - شكّوا الجهم في دينه حتى ترك الصلاة أربعين يوماً، وقال: لا أصلي لمن لا غرْفُهُ، ثم خرج من غرْزته واشتقّ هذا الكلام وبني عليه آراء»^(٢).

والمعتزلة: هم الذين تكلموا في الغيبيات والصفات، وهم الذين ابتدعوا فكرة «هل الصفات عين الذات فلا معنى لها؟ أم هي غير الذات، فهي ذات أخرى مع ذات الله؟ وإذا كانت الصفات ذاتاً؟ فهل هي قديمة والله قديم؟ ولا ينبغي أن يكون قديمان؟ وإذا كانت حادثة؟ فالله غني عن الحادث؟ إذا فما الله؟ وما هو؟ وماصلته بالوجود؟ وماصلة الوجود به؟ وهل هو حال في الوجود؟ أم هو خارج عنه؟» إلى غير ذلك من الخوض فيما يوصل إلى الضلالة والإضلال.

وسبب كل ذلك.. هو الفلسفة اليونانية، بعدما تُرجمت ونُقلت إلى العرب ولغتهم...

وذلك لأن الفلسفة، تقوم في أبحاثها في الإلهيات، على «القياس التمثيلي» الذي

(١) نقض المنطق ص ٢/.

(٢) التنبيه والرد على الأهواء والبدع للإمام المطلي ٩٩.

يستوي فيه الأصل والفرع، أو على «القياس الشمولي» الذي تستوي فيه أفرادها، فالله تبارك وتعالى: «لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ» في صفاته وأسمائه وأفعاله، فلا يجوز البتة أن يمثل بغيره [تعالى الله عُلُوًّا كَبِيرًا] ولا يجوز أن يدخل هو - سبحانه - وغيره تحت قضية كلية تستوي أفرادها، ولهذا لما سلك طوائف من المعتزلة والمُتَكَلِّمة مثل هذه الأقيسة في المطالب الإلهية؛ لم يصلوا بها إلى اليقين، بل تناقضت أدلتهم، وغلب عليهم بعد التناهي الحيرة والاضطراب لما يروونه من فساد أدلتهم^(١).

«وقد صرّح أساطين الفلسفة: أن العلوم الإلهية لا سبيل فيها إلى اليقين، وإنما يتكلم فيها بالأحرى والأخلاق»^(٢).

هذا، وإن منشأ الانحراف في المنهج الفلسفي الكلامي، إنما يعود إلى جعل هذا المسلك أساس البحث في الإلهيات وتفسير الصفات، وتأويل الآيات المتشابهات. وقد صدق الله العظيم في قوله الحق في هؤلاء: «فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ».

(١) موافقة صريح المعقول لصحيح المنقول لابن تيمية على هامش منهاج السنة ١٤/١-١٥.

(٢) نقض المنطق لابن تيمية ١٧٨.

انحراف المنهج الفلسفي الصوفي الباطني في التفسير

ترجعُ نشأة الانحراف في المنهج الصوفي الفلسفي الباطني، في تفسير القرآن الكريم، إلى الاعتماد على الفكر الفلسفي اليوناني، وطريقة البحث والفهم والتفكير التي يسلكها هؤلاء في تأويل النصوص المقدسة تأويلاً رمزياً باطنياً.

وأصحاب الفلسفة الصوفية ذات النزعة الباطنية، فرقة قائمة على أسس ومفاهيم خاصة بهم، استقوها من مناهج عدة: كالفيثاغورية، والأفلاطونية، والرواقية، والغنوصية، وجميع هؤلاء يعتمدون على تفسير الظواهر الكونية، والأفكار الميتافيزيقية «علم ما وراء الكون والحياة» على أساس التأويلات الرمزية الإشارية^(١).

وفي هذا البحث كشف موجز لمنهج الصوفية الرمزية، التي خرجت بتأويلاتها لآيات القرآن الكريم عن المنهج القويم والصراط المستقيم، وأصبحت في عداد الفرق الضالة المنحرفة.

ولسنا نقصد هنا جميع مناهج التصوف، وإنما نقصد في بحثنا هذا الصوفية الباطنية الرمزية فحسب..

انحراف المنهج الفلسفي الصوفي الباطني في التفسير:

لقد سلك أصحاب الفلسفة الصوفية النظرية، منهج التفسير الإرشادي الرمزي لآيات القرآن الكريم، لاعتقادهم: «أنَّ كُلَّ آية في القرآن تُخفي وراءها معنىً باطنياً مقصوداً لا يكشفه الله إلا للخاصة منهم»، «وأنَّ المعرفة الحقة اليقينية لا تُدرك إلا بالتأويل الباطني العميق، والمجاهدة النفسية، في حالات الكشف العليا. وأن الوقوف على ظواهر النصوص القرآنية، حجابٌ يمنع من الوصول إلى معرفة حقائق الأمور، وأن علم الظاهر يدخله الظنّ والشك، والكشف الباطني يرفع الظنّ ويزيل الشك».

ولقد صاحب هذا المسلك الصوفي النظري الرمزي ازدراء العلماء من الفقهاء

(١) انظر تاريخ الفلسفة اليونانية؛ ليوسف كرم، بحث التأويل الرمزي ٢٤٨-٢٤٩.

والمحدثين والمفسرين، والتنديد بالمنهج الشرعي الاجتهادي الذي سلكه الأئمة المجتهدون لاستنباط الأحكام الشرعية من الكتاب والسنة، حتى أطلقوا عليهم اسم «علماء الرسوم» أو «علماء الظاهر».

فمما نسبته هؤلاء إلى الشيخ ابن عربي، في كتابه «الفتوحات المكية»: «أن ما خلق الله أشق وأشد من علماء الرسوم على أهل الله المختصين بخدمته، العارفين به من طريق الوهب الإلهي الذي منحهم أسرارهم في خلقه، وفهم معاني كتابه، وإشارات خطابه، فهم لهذه الطائفة مثل الفراعنة للرسول عليهم السلام»^(١).

ومن الطبيعي أن ينظر هؤلاء الصوفيون الرمزيون، إلى علماء الشريعة المطهرة، الذين جعلهم الله تعالى أمناء الرسل في تبليغ شرعة القويم، هذه النظرة الممتلئة بالكره والبغض والعداء؛ لأن هؤلاء العلماء كانوا يقفون في مجابهة تلك الموجات الإلحادية، التي كانت تعصف بين الحين والآخر في عقول العامة من الناس؛ فلهذا كانوا يرونهم كالفراعنة للرسول.

أبرز تفسير للصوفية الباطنية:

ومن أشهر التفاسير الصوفية الرمزية الإشارية الباطنية، التفسير المزعوم المنسوب «لابن عربي» الذي وضعه أحد الملاحدة، ونسبه لابن عربي ليروجه بين الناس، المعروف «بالقاشاني» الذي خرج بتفسيره هذا عن منهج القرآن والإسلام، فقد جعله مجمع الأفكار الفلسفية الغنوصية، القائمة على العرفان الحدسي التجريبي الحاصل عن اتحاد العارف بالمعروف، والتي تهدف إلى معرفة الله تبارك وتعالى على هذا النحو، بكل ما في النفس من قوة حدس وعاطفة وخيال.

فسلك القاشاني في تفسيره الذي نسبته إلى ابن عربي، منهج وحدة الوجود، القائمة على اعتبار أن جميع العالم بظواهره ماهو إلا مجال لوجود الحق - تعالى الله عما يصفون علواً كبيراً - فحين يُفسر قول الله تعالى: «وَأَذْكُرْ اسْمَ رَبِّكَ وَتَبَيَّنْ إِلَيْهِ تَبَيُّلاً، رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ» [المزمل، ٩٨] قال: «واذكر ربك الذي هو أنت»، أي: اعرف نفسك واذكرها ولا تنسها فينسيك الله، واجتهد لتحصل كما لها بعد معرفة حقيقتها.. «ربُّ المشرق والمغرب» أي: الذي ظهر عليك نوره من أفق وجودك بإيجادك، والمغرب: الذي اختفى بوجودك، «وغرب نوره فيك، واحتجب بك» هكذا

(١) الفتوحات المكية: الباب الرابع والخمسون ٢٧٩.

يصرف الآيات عمّا سبقت له، بهذا الفكر الإلحادي الذي يظهر معنى الآية، وكأنّها لم تنزل على قوم يفهمون مضمونها، ويُدركون مقصدها.

ولولا خشية الإطالة في ذكر الباطل، لاكثر من ذكر الأباطيل التي حشّا بها الكتاب، غير أنّي أحيل من يُريد الزيادة من الوقوف على مثل هذه الأباطيل التي وردت في هذا الكتاب، فانظر مثلاً: ج ١ ص ١٤١ من الطبعة الأميرية، وج ٢ ص ٢٩١، وج ٢ ص ٢٩٤، وج ٢ ص ٣٥٢، وج ٢ ص ٣٨٠.

وليس من شك في أنّ هذا التفسير - وحرامّ علينا تسميته بتفسير - الذي وضعه هذا الملحد «القاشاني» ونسبه لابن عربي، ليروّجَه بين الناس^(١)؛ إنما كان يقصد من خلاله هدم عقيدة الإسلام، إفساد معاني القرآن، والعياذ بالله تبارك وتعالى..

ولقد وضع العلامة ابن عابدين صاحب الحاشية المشهورة، رسالةً في تبرئة الشيخ ابن عربي ممّا نسب إليه من القول بالحلول والاتحاد، وعقائد الإلحاد^(٢).

رسائل إخوان الصفا:

لقد حُشيت هذه الرسائل، التي وضعها جماعة لم يُعلنوا عن أنفسهم، بشتى أنواع التأويل الرمزي الباطني، الذي يميل إلى المنهج الفلسفي الصوفي النظري، فقد جاء في إحدى رسائلهم:

«ينبغي لأخواننا ان يعلموا أنّ ظاهرة الشريعة إنّما يصلح للعامة، فهو دواء للنفس المريضة الضعيفة، أما العقول القوية فغذاؤها الحكمة العميقة المستمدة من الفلسفة»^(٣).

وهذه الفكرة هي عقيدة الغنوصية، التي تقوم على أساس «أنّ الخلاص يتمّ بالمعرفة، أكثر ممّا يتمّ بالإيمان والأعمال الخيرة. وقد قسمت الناس إلى ثلاث طبقات: الغنوصيين، وخلاصهم مضمون، وغير غنوصيين ويمكنهم أن يخلصوا أنفسهم بالإيمان، ومنّ عدا هؤلاء وأولئك هالكون»^(٤).

(١) نسب هذا الكتاب إلى القاشاني، أو الكاشي: المؤرخ حاجي خليفة في كتابه «كشف الظنون» ج ١ ص ٣٣٦، وكذا البغدادي في كتابه «هدية العارفين في أسماء المؤلفين» ج ١ ص ٥٦٧.

(٢) ذكر ذلك الزركلي في كتابه الأعلام ١/١٥٢.

(٣) رسائل إخوان الصفا ١٤/١٤.

(٤) الموسوعة العربية الميسرة ٢/١٢٥٨.

ويُشير إخوان الصفا إلى أن: «للكتب النبوية تأويلات وتفسيرات غير ما يدل عليها ظاهر ألفاظها، يعرفها الراسخون في العلم»، ويشيرون إلى مصادر علومهم ومعارفهم فيقولون: «إنّ علومنا مأخوذة من أربعة كتب: أحدهما الكتب المصنفة على السنة الحكماء والفلاسفة. والآخر: الكتب المنزلة التي جاء بها الأنبياء والثالث: الكتب الطبيعية التي تشرح تركيب الأفلاك وأقسام البروج وحركات الكواكب. والرابع: الكتب الإلهية التي لا يُمسها إلا المطهرون، الملائكة التي هي بأيدي سفرة كرام بركة، وهي جواهر النفوس، وأجناسها وأنواعها وجزئياتها»^(١).

وكثيراً ما تشتمل هذه الرسائل على تأويل الآيات القرآنية تأويلاً رمزياً باطنياً، تصرف الآيات عن معانيها، إلى ما لا يجوز ولا يصح من المعاني المتكلفة، الباطلة الضالة المضلّة..

انحرافات خطيرة في تفسير الصوفية المعاصرة:

كتاب «رحمة من الرحمن في تفسير وإشارات القرآن» من كلام الشيخ محيي الدين ابن العربي، تأليف «محمود غراب».

ففي ص ١٥ ج ١: قوله في التشنيع على علماء الشريعة الذين يُنكرون على أهل الباطل تأويلاتهم وانحرافاتهم: «إنّه ما خلق الله أشقّ ولا أشدّ من علماء الرسوم على أهل الله المختصين بخدمته.. الذي منحهم أسرارهم في خلقه..» ثم يُعلّل إشاراتهم بقوله: «فيسمون ما يرونه في نفوسهم إشارة؛ ليأنس الفقيه صاحب الرسوم إلى ذلك، ولا يقولوا في ذلك إنّ تفسير، وقاية لشَرِّهم وتشنيعهم في ذلك بالكفر عليه، وذلك لجهلهم بمواقع خطاب الحق..».

فنقول: لماذا كان علماء الشريعة أشدّاء على مَنْ يزعم أنّهم «أهل الله» إلّا لأنهم مخالفون لدين الله تعالى، وليس مَنْ يخالف شريعة الله «من أهل الله» فأهل الله هم أهل شرعه ودينه وطاعته. ثم إذا كان هؤلاء هم أهل الله فلم يُحابون الفقيه صاحب الرسوم بإشاراتهم، فأهل الله لا يعملون إلّا الله ولا يخشون إلّا الله، فلو كانوا من أهل الله حقاً لما صدرت منهم تلك المُحاباة!!

ثم إن تسمية أحكام الشريعة بـ«الرسوم» غير جائزة ولا مقبولة، فهل الأحكام الشرعية عند من يزعم أنه من أهل الله غير لازمة له؟ أم «غير مكلفٍ بها؟ إن تسمية الأحكام

(١) رسائل إخوان الصفا ج ٤/ ٤٢٠.

الفقهية الشرعية «رسوماً» من باب الإلحاد في شريعة الله تعالى، والعياذ بالله !!

وفي ص ٢٧ ج ١: «وأما رحمة الامتنان فهي التي تنال من غير استحقاق بعمل، وبرحمة الامتنان رحم الله مَنْ وفقه الله للعمل الصالح الذي أوجب له الرحمة الواجبة، فيها ينال العاصي وأهل النار إزالة العذاب، وإن كان مسكنهم ودارهم جهنم، وهذه رحمة الامتنان..» فهذا الكلام لأصل له في دين الإسلام، ولا تشهد له آيات الله تعالى بل وردت الآيات والأحاديث الصحيحة بإثبات العذاب وعدم إزالته عن أهل النار.

ويتكرر هذا الزعم في ص ٣١ ج ١: بأن من استحقَّ غضبَ الله «فيُزيل عنهم العذاب، ويُعطِيهم النعيم فيما هم فيه» فكيف يصح إثبات النعيم لأهل غضب الله تعالى وهم في العذاب؟؟!!

وفي ص ٤٢-٤٣ ج ١ هذا الزعم الذي يُعدّ من أساطير الخرافة وذلك في قوله عن «آلَم» من أول سورة البقرة: «إنَّ الحروف أمة من الأمم مخاطبون ومكلّفون، وفيهم رسلٌ من جنسهم، ولهم أسماء من حيث هم، وهم عوالم، ولكل عالم رسول من جنسهم، ولهم شريعة تعبدوا بها، ولهم لطائف وكثائف.. وفيهم عامة وخاصة.. وحروف أوائل السور من الخاصة التي فوق العامة..» ثم يقول عن هذه الخرافة: «ولا يعرف هذا العلم إلا أولياء الله كشفًا»، فأئِج أولياء هؤلاء الذين خصّهم بهذه الخرافة؟؟!!

ويزيد في الوهم والخيال ص ٤٤ فيقول: «ملائكة الحروف (٢٨) حرفاً، وهذه الحروف أجساد تلك الملائكة لفظاً لفظاً» وفي ص ٤٦ يقول: «ولكل حرف ليلة من الشهر» فربط الحروف بسير القمر، بعد أن جعلها أجساداً للملائكة، فأئِج وهم بلغ به تصوّره إلى هذا الحد من التخيل؟؟!!

وفي ص ٦٣ ج ١/ زعمه بأن العذاب لأهل النار من «العذوبة» فيقول في «ولهم عذابٌ أليم» آية ٧ من سورة البقرة: «..ومن وجهٍ آخر سُمِّي عذاباً ما يقع به الآلام بشري من الله لعباده، أنّ الذي تتألمون به لا بدّ إذا شملتكم الرحمة أن تستعذّبوه وأنتم في النَّار، كما يستعذب المقرور حرارة النَّار والمحروور برودة الزمهرير، ولهذا جمعت جهنم النَّار والزمهرير، لاختلاف المزاج، فما يقع به الألم لمزاج مخصوص يقع به النعيم في مزاج آخر يضاده، فلا تتعطل الحكمة، ويُقيي الله على أهل جهنم الزمهرير على المحرورين، والنَّار على المقرورين في جهنم، فهم على مزاج لو دخلوا به الجنة تعذبوا بها لاعتدالها، فسُمي العذاب عذاباً لأنّ المال إلى استعذابه لمن قام به بعد

شمول الرحمة، كما يستحلي الجرب مَنْ يحكُّه... « فأني إلحاد وزندقة بلغ بها صاحب هذه الجرأة على آيات الله تعالى، بأن جعل العذاب «عذوبة» وجهنم دار نعيم للكافرين، وأنهم على مزاج لو دخلوا به الجنة تعذبوا بها لاعتدالها؟!... »

فما الذي يريدُه الشيطان الرجيم أكثر من هذا؟! فهذا أحد جنوده يحول له النار في جهنم «عذوبة» يستعذبها أهلها ويجعل له الجنة باعتدالها عذاباً؟!.. وهل بعد هذا من جدوى في دعوة الناس والجن إلى توحيد الله تعالى وعبادته وطاعته، واتباع رسله؟!..

ولماذا يعيش أهل الإيمان في حرمان من الشهوات المحرمات، وأهل الكفر والظلم والطغيان والشرك مساؤون لهم في النعيم المقيم في جهنم يستعذبون النار؟!.. إن هذا الزعم الباطل تكذيب لكتاب الله تعالى، وإبطال لرسالته، وهدم لدينه وشرعه، ولأحكام حلاله وحرامه؟!..

وفي ص ٥٣١ ج ٢ يقول في قوله تعالى: «وَجَعَلْنَا جَهَنَّمَ لِلْكَافِرِينَ حَصِيرًا»: «إن جهنم أعظم المخلوقات، وهي سجن الله في الآخرة.. وهي تحوي على حرور وزمهير، ففيها البرد على أقصى درجاته، والحرور على أقصى درجاته، وهي الآن مخلوقة.. وجميع ما يخلق فيها من الآلام التي يجدها الداخلون فيها من الغضب الإلهي، ولا يكون ذلك إلا عند دخول الخلق فيها من الجن والإنس متى دخلوها، وأما إذا لم يكن فيها أحد من أهلها، فلا ألم فيها في نفسها ولا في نفس ملائكتها، بل هي ومن فيها من زبائنها في رحمة الله منغمسون ملتذون يستجون ولا يفترون..» ثم يقول: «وأشد الخلق عذاباً في النار إبليس الذي سنّ الشرك وكلّ مخالفة، وعذابه بما فيها من الزمهير، فإنه يقابل النار الذي هو أصل نشأة إبليس».

ففي هذا الزعم يدعي أموراً أخرى، وهي «أن الآلام يجدها الداخلون فيها من الغضب الإلهي، ولا يكون ذلك إلا عند دخول الخلق فيها متى دخلوها» فيجعل العذاب فقط عند دخولها، ثم يزعم أنها تفرغ من أهلها «أما إذا لم يكن فيها أحد من أهلها، فلا ألم فيها في نفسها، ولا في نفس ملائكتها» ثم يزعم أن زبائنها ملتذون فيها: «ومن فيها من زبائنها في رحمة الله منغمسون ملتذون..».

وهنا تتوجه بالسؤال التالي إلى صاحب هذا الزعم الباطل فنقول: من أين أتيت بالقول: أن العذاب فقط عند دخولها؟ ثم إلى أين يذهب بأهل جهنم إذا لم يكن فيها أحد من أهلها؟ ثم من أين علمت أن إبليس يوضع في الزمهير ليقابل النار؟ وهل أن

إبليس الذي هو أشدُّ الخلق عذاباً في النَّارِ كما قُلْتُ قَبْلُ؛ هو أشدُّ النَّاسِ في جهنَّمَ عذوبة فيها؛ على ما ذكرتُ من أَنَّهُ يُوضَعُ في الزمهرير لِيُقَابِلَ النَّارَ، لِيَعْتَدَلَ مَزَاجُهُ بَيْنَ الْحَرِّ وَالْقُرُورِ؟ ثُمَّ إِلَى أَيْنَ يَذْهَبُ بِهِ إِذَا لَمْ يَكُنْ فِي جَهَنَّمَ أَحَدٌ مِنْ أَهْلِهَا؟

وَلْتَلَّا نُخْرِجَ صَاحِبَ هَذِهِ الْمَزَامِعِ بِالتَّكَلُّفِ لِلْكَذِبِ أَكْثَرَ مِنْ هَذَا الَّذِي ذَكَرَهُ، فَتُكْفِيهِ بِهِذِهِ الْإِجَابَةُ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَمِنْ أَحَادِيثِ رَسُولِهِ ﷺ، عَنِ النَّارِ وَأَهْلِهَا، فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ آيَةُ ٢٤: ﴿... فَأَنقُضُوا النَّارَ الَّتِي وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ أَحَدَتِ لِلْكَافِرِينَ﴾ وَفِي سُورَةِ النَّسَاءِ آيَةُ ٥٦: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نُصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَّلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ﴾ وَفِي سُورَةِ الْأَعْرَافِ آيَةُ ٣٨: ﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِكُمْ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ فِي النَّارِ كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَعْنَتْ أُخْتَهَا إِذَا دَارَكُوا فِيهَا جَمِيعاً قَالَتْ أَخْرِاهُمْ لَأُؤْلَاهُمْ رَبِّئاً هَؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَاتَّهِمُ عَذَاباً ضِعْفاً مِنَ النَّارِ قَالَ لِكُلِّ ضِعْفٌ وَلَكِنْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وَفِي سُورَةِ التَّوْبَةِ آيَةُ ٣٥: ﴿يَوْمَ يُخَمَّى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ تَتَكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كُنْتُمْ لَأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْتَبُونَ﴾ وَفِي سُورَةِ إِبْرَاهِيمَ آيَةُ ١٦-١٧: ﴿مِنْ وَرَائِهِ جَهَنَّمَ وَيُسْقَى مِنْ مَاءٍ صَدِيدٍ. يَتَجَرَّعُهُ وَلَا يَكَادُ يُسَبِّغُهُ وَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَمَا هُوَ بِمَيِّتٍ وَمِنْ وَرَائِهِ عَذَابٌ غَلِيظٌ﴾ وَفِي سُورَةِ الْإِسْرَاءِ آيَةُ ٩٧: ﴿... وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمُقاً وَيُكْمَأْؤَمُّونَ وَأَضْمَأْؤَمُّونَ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعيراً﴾ وَفِي سُورَةِ الْحَجِّ آيَةُ ١٩-٢٢: ﴿... فَالَّذِينَ كَفَرُوا قُطِعَتْ لَهُمْ نِيَابٌ مِنْ نَارٍ يُصَبُّ مِنْ فَوْقِ رُؤُوسِهِمُ الْحَمِيمُ. يُصْهَرُ بِهِ مَا فِي بُطُونِهِمْ وَالْجُلُودُ. وَلَهُمْ مَقَامِعٌ مِنْ حَدِيدٍ. كُلَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَخْرُجُوا مِنْهَا مِنْ غَمٍّ أُعِيدُوا فِيهَا وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ وَفِي سُورَةِ الْفُرْقَانِ آيَةُ ١١-١٣: ﴿وَاعْتَدْنَا لِمَنْ كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعيراً. إِذَا رَأَوْهُمُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفيراً. وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَاناً ضيقاً مُقَرَّبِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُوراً﴾ وَفِي سُورَةِ فَاطِرِ آيَةُ ٣٦-٣٧: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَى عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَفُورٍ. وَهُمْ يَصْطَرِحُونَ فِيهَا رَبِّئاً أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ...﴾

وَفِي سُورَةِ الصَّافَاتِ آيَةُ ٦٢-٦٧: ﴿أَذَلِكَ خَيْرٌ نَزْلاً أَمْ شَجَرَةُ الزَّقومِ. إِنَّا جَعَلْنَاهَا فِتْنَةً لِلظَّالِمِينَ. إِنَّهَا شَجَرَةٌ تَخْرُجُ فِي أَصْلِ الْجَحِيمِ. طَلْعُهَا كَأَنَّهُ رُؤُوسُ الشَّيَاطِينِ. فَإِنَّهُمْ لَا يَكِلُونَ مِنْهَا فَمَالِثُونَ مِنْهَا الْبُطُونَ. ثُمَّ إِنَّ لَهُمْ عَلَيْهَا لَشَوْباً مِنْ حَمِيمٍ﴾ وَفِي سُورَةِ الزَّمَرِ آيَةُ ١٦: ﴿لَهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ ظُلَلٌ مِنَ النَّارِ وَمِنْ تَحْتِهِمْ ظُلَلٌ ذَلِكَ يُخَوِّفُ اللَّهَ بِهِ عِبَادَةً يَأْعْبُدُونَ

فَاتَّقُونَ» وفي سورة الشورى آية ٤٥: ﴿لَا إِنْ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُّقِيمٍ﴾ وفي سورة الزخرف آية ٧٧: ﴿وَنَادُوا يَا مَلِكُ لِيَقْضِيَ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَا كُنْتُمْ﴾ وفي سورة التحريم آية ٦: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنْفُسَكُمْ وَأَهْلِكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾.

فهذه بعضُ آياتٍ من كتاب الله تبارك وتعالى في وصف جهنم - أجازنا الله تعالى منها برحمته ومغفرته - لا كما يقول هذا الأفاك الكذاب الذي يُريد تحوير الحق إلى باطل، والعذاب عذوبة، والنار رحمة، إلى آخر بُهتانه، قال الله تعالى في سورة الأنعام آية ٢١-٢٤: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِآيَاتِهِ، إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ «انظر كيف كَذَّبُوا على أنفسهم وضلَّ عنهم ما كانوا يفترون» وأما ماورد في السنة الصحيحة من الأحاديث في وصف النار - أجازنا الله تعالى منها.

١- ففي الصحيحين /خ/ ٣٢٦٥م /٢٨٤٣/ عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «نَارُكُمْ هَذِهِ جُزْءٌ مِنْ سَبْعِينَ جُزْءًا مِنْ نَارِ جَهَنَّمَ»، قيل: يا رسول الله! إن كانت لكافية؟ قال: «فإنها فَضِّلْتُ عليهنَّ بِتِسْعَةٍ وَسِتِّينَ جُزْءًا كُلُّهُنَّ مِثْلُ حَرِّهَا».

٢- وفيهما أيضاً: /خ/ ٦٥٦١ و ٦٥٦٢م /٢١٣/ ٣٦٤م عن النعمان بن بشير رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ أَهْلَ النَّارِ عَذَابًا مِّنْ لَهُ نَعْلَانِ وَشِرَاكَانَ مِنْ نَّارٍ يَغْلِي مِنْهَا دِمَاعُهُ كَمَا يَغْلِي الْمِزْجَلُ، مَا يَرَى أَنَّ أَحَدًا أَشَدَّ مِنْهُ عَذَابًا، وَإِنَّ لَأَهْوَنَهُمْ عَذَابًا».

٣- وفيهما أيضاً: /خ/ ٦٥٥١م /٢٨٥٢م: عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مابينَ مَكْنَبَيِ الْكَافِرِ فِي النَّارِ مَسِيرَةُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ لِلرَّاكِبِ الْمُسْرِعِ». وروى مسلم /٢٨٥١/ عنه أيضاً قال: قال رسول الله ﷺ: «ضِرْسُ الْكَافِرِ مِثْلُ أَحَدٍ، وَغِلْظُ جِلْدِهِ مَسِيرَةُ ثَلَاثٍ».

٤- وفي سند أحمد ج ١/ ٣٠١ و ٣٣٨ /والترمذي ٢٥٨٥ وقال: حسن الصحيح: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ قَطْرَةً مِنَ الزَّقُومِ قَطَرَتْ فِي دَارِ الدُّنْيَا لَأَسْدَتِ عَلَى أَهْلِ الْأَرْضِ مَعَايِشَهُمْ، فَكَيْفَ بَمَنْ يَكُونُ طَعَامُهُ؟! أجازنا الله تعالى منها، ورزقنا الجنة بفضلِهِ ورحمته.

٥- وفي سند أحمد ج ٣/ ٢٨-٨٣ /والترمذي، والحاكم في المستدرک ج ٤/ ٦٠١/، بإسناد صحيح عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «لَوْ أَنَّ دَلْوًا مِنْ غَسَاقٍ يَهْرَاقُ فِي الدُّنْيَا لَأَكْتَنَّ أَهْلُ الدُّنْيَا» والغساق: مايسيل من صديد أهل

النار- أجازنا الله تعالى منها - ولهذا كان رسول الله ﷺ يُحَذِّرُ أُمَّتَهُ مِنَ النَّارِ، فيقول: «أُنْذِرْتُكُمُ النَّارَ، أُنْذِرْتُكُمُ النَّارَ، أُنْذِرْتُكُمُ النَّارَ» رواه أحمد ج ٤/٢٦٨ و ٢٧٢ والدارسي ج ٢/٣٣٠ والبخاري في مصابيح السنة ج ٤/١٣ من الأحاديث الحسان.

فهذا هو حال أهل النار كما وصف الصادق المصدوق ﷺ، لا كما زعم الأفاك الكذاب، وهناك في كتابه الذي زعمه أنه «رحمة من الرحمن» في تفسير وإشارات القرآن جمع «محمود غراب» من كلام الشيخ محيي الدين ابن العربي، من الأباطيل والأخطاء الفاحشة في التفسير والتأويل ما يلزمه مجلدٌ بكامله، للرد عليه، وما ذكرناه عنه كافٍ لإثبات أن هذا التفسير من التفاسير المنحرفة التي يجب التنبيه على خطورة القراءة فيها.

وهناك كتاب آخر يُعتبر من كتب التفسير المنحرفة، وهو منسوب «لمحمد أمين شيخو» جمعه «عبد القادر يحيى» الشهير بالديراني، وأسماء «تأويل جزء عم» وقد حوى على أغلاط كثيرة بلغت أكثر من ثلاثمائة أغلوطة في التفسير والتأويل.

ويغلب عليه التأويل الرمزي المخالف مخالفته صريحةً لمناهج التأويل المعتمدة لدى أئمة التفسير، مع المخالفة للأحكام الشرعية واصطلاحاتها، وكذلك المخالفة لما هو ثابت في اللغة العربية. فهو تفسير فاحش الأخطاء، حوى على تأويلات باطلة في عامة سور «جزء عم» فنحذر من القراءة فيه.

ومن انحرافات وضلالاته: زعمه أن «الشيخ محمد أمين شيخو» رسول أرسله الله، كما في ص ٦ [التي ألزم بحذفها من الكتاب]، وهذه دعوة كفر وإلحاد وزندقة في الدين.

تأويل جزء عم:

نماذج من انحرافات:

ص ٢٨: قوله في الآية: «ومن شرّ غاسقٍ إذا وَقَبَ» المراد بالغاسق هنا الشيطان.. والوَقَب: هو الحفرة في الصخرة.. والمراد بالوَقَب هنا: صَدْرُ الإنسان.. وهذا غير صحيح تفسيراً ولغةً. والصحيح: الغاسق هو الليل، إذا وَقَبَ: إذا أقبل بظلامه.

ص ٣٨: قوله في الآية «وامرأته حمالة الحطب» المراد بالحطب هنا: الأعمال التي كانت تقوم بها هذه المرأة... فهذه الأعمال.. هي الحطب.. وهذا غير صحيح وهو خلاف ظاهر اللغة. وقوله ص ٣٩ «في جيدها حبل من مسد» المراد بكلمة في

جيدها أي ما يحرر بعنقها من القول منبعثاً من نفسها وصدرها وجارياً على لسانها. والمراد بكلمة جبل: وصف ذلك القول بالتواصل والاستمرار. والمراد بكلمة من مسد: وصف تلك الحالة النفسية القائمة فيها. « فهذا تكلف في التأويل، ولادليل عليه، وهو مخالف لأقوال المفسرين.

ص ٤٠: قوله في «إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ» «المراد بنصر الله هنا: معونة الله لرسوله، بأن أظهر الحق على لسانه...» وص ٤١ «والفتح: هو الإظهار بعد غموض...» والمراد بالفتح هنا: تلك الهداية والمعرفة...» وهذا خلاف ماثبت من تفسيرها لدى المفسرين قاطبة!!

من أن «نصر الله والفتح» هو نصر الرسول ﷺ على قريش، والفتح فتح مكة.

ص ٤٣-٤٤: قوله في «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ...» «وسَبِّحْ: من سَبَّحَ في الأمر، أي أَمَعَنَ فيه واسترسل، وسَبَّحَ في الماء: أي عَامَ وانبسط، وسَبَّحَ في السير: أي أَبْعَدَ...» ويكون المراد من كلمة «سَبَّحَ» أي: سَبَّحَ نَفْسَكَ في فضل الله، واسترسل في تذوق بَرِّهِ... وسَبَّحَ نَفْسَكَ في هذا الفضل الذي تفضّل به عليك، واسترسل في تذوق الإحسان الذي ساقه إليك» فهذا التأويل باطل مخالف لمعنى الآية الكريمة، وهو خارج عن منهج المفسرين!!

ففي تفسير الألوسي ج ٣٠/٢٥٧: «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ» أي فترّعه تعالى بكل ذكر يدلّ على التنزيه، حامداً له جلّ وعلا زيادة في عبادته والثناء عليه لزيادة إنعامه سبحانه عليك، فالتسبيح: التنزيه... «واستغفِرُهُ» أي اطلب منه أن يغفر لك... وفي الصحيحين عن عائشة رضي الله عنها قالت: وكان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول في ركوعه وسجوده: سُبْحَانَكَ اللَّهُمَّ وَبِحَمْدِكَ اللَّهُمَّ اغْفِرْ لِي، يتأول القرآن، تعني هذا مع قوله تعالى: «فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ واستغفِرُهُ» وكذا في مسند أحمد وصحيح مسلم: «كان رسول الله ﷺ يكثر في آخر أمره من قول: سُبْحَانَ اللَّهِ وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وأتوب إليه...» فهذا هو الثابت الصحيح في تأويل الآية الكريمة، وبهذا يظهر بطلان مازعمه «الديراني» في تأويله المغلوط!؟...

ص ٤٩-٥١: قوله في «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ» «الكوثر: هو الكثير، والملف مع كل شيء...»

والكوثر هو المراكم، يُقال: تَكَوَّثَر الغبار أي تراكم وكثر، والمراد بالكوثر الواردة في هذه الآية: الفضل الإلهي الكبير... ويكون مانقهم من آية «إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ»

أي عبدي أعطيتك قبل أن أخرجك لهذه الحياة الدنيا. ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ الصلاة: هي الصلاة بالله.. والتَّحَرُّ: هو أعلى الصدر.. والنحر هو الطعن في أعلى الصدر.. والمراد بكلمة ﴿وانحَرْ﴾ هنا: أي ادْفَعْ عَدُوَّكَ وهو الشيطان.. فهذا التأويل غير صحيح ولا مقبول لمخالفته لما هو ثابت عن رسول الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: «هَلْ تَذَرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «هو نهرٌ اعطانيه ربي عزَّ وجلَّ في الجنة تردُّ عليه أمتي يوم القيامة، آتيتُهُ عدد الكواكب!! وأما «التَّحَرُّ» فهو النُّشْكُ الذي يُذْبَح على اسم الله تعالى وحده لاشريك له، كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ لَاشْرِيكَ لَهُ..﴾ كما هو وارد في تفسير ابن كثير. ص ٥٦-٦١: قوله في ﴿إِلْيَافٍ قَرِيشٍ﴾. إيلافهم رحلة الشتاء والصيف ﴿في مطلع هذه الصورة الكريمة يُريد الله تعالى أن يُبين ذلك النظام البديع الذي قام عليه ذلك الكون، ثم هو يُلَفِّت نظرهم ويذكرهم بذلك الترتيب الحكيم الذي جعل المخلوقات متألِّفة... فكلمة قريش: تشمل كلَّ ما تراه عينك في ترابطه وتماسكه.. ﴿إِلْيَافٍ قَرِيشٍ﴾ أي: عبادي انظروا إلى الترابط الموجود في هذا العالم، ودَقُّقُوا في إيلاف الأشياء الموجودة في هذا الكون... ﴿رحلة الشتاء والصيف﴾ ولا يقتصر المعنى في رحلة الشتاء والصيف على هذين الفصلين.. بل يشمل الفصول الأربعة كلها.. فهذه الآية تُشير إلى إيلاف الأشياء وانسجامها مع تبدلات الفصول.. فالله سبحانه بما ذكره لنا من إيلاف المخلوقات مع تبدلات الفصول، يُريد أن يُوجِّهنا كما رأينا من قبل إلى التفكير والتأمل في هذا الكون.. ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ وكلمة البيت: هنا وبحسب سياق الآيات المتقدمة، تشمل هذا الكون كله، السموات وما فيها، والأرض وما عليها. فالكون كله إنَّما هو بمثابة بيتٍ لهذا الإنسان.. ويكون مانفهمه من آية ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ﴾ أي إذا ذَكَرَ عبادي عظمة هذا الكون، وتوصَّلُوا منه إلى معرفتي والإيمان بي.. فما عليهم إلَّا الإذعان لأمري.. إلى آخر تأويله لهذه السورة القائم على التكلفِ والتصنُّع، وصرفِ السورة إلى غير المُرادِ منها..

والذي عليه جميع المفسرين أنَّ هذه السورة الكريمة تذكير لقريش قبيلة النبي ﷺ بما فضَّلَ الله تعالى عليهم من نعمة الإيلاف الذي كان لهم في حرم الله في مكة، وما تفضَّلَ عليهم من الأمن في رحلتهم إلى بلاد الشام في الصيف، ورحلتهم إلى بلاد اليمن في الشتاء، ثم نعمة الأمن في البلد الحرام ﴿وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾، ورب البيت: أي رب الكعبة و«هي بيتُ الله الحرام» بدليل نصِّ القرآن الكريم، كما في سورة المائدة

آية ٩٧: ﴿جَعَلَ اللهُ الْكَعْبَةَ الْيَتَّى الْحَرَامَ قِيَاماً لِلنَّاسِ وَالشَّهَرَ الْحَرَامَ...﴾ فصرف معنى «البيت» إلى الكون تحريف لمعنى الآية، وهو من الإلحاد في آيات الله - والعياذ بالله تعالى.

ص ٦٢-٦٣: قوله في تحريف الآية: ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْراً أَبَابِيلَ. تَرْمِيهِمْ بِحِجَارَةٍ مِنْ سِجِّيلٍ﴾ «فالطير الأبابيل: أي ذلك المخلوق الضعيف الذي لاطاقة له بمقاومة عدو...» و«السِّجِّيلُ» هو العمل المسجَّل المكتوب... فالحجارة... مما هو مسجَّل عليهم» فهذا غير صحيح ولا يثبت في كتب التفسير، ولا في اللغة؛ فالطير الأبابيل: هي الطير التي أرسلها الله على جيش أبرهة الحبشي الذي يريد هدم الكعبة، والحجارة من سجيل: هي الكثيرة الشديدة. والسِّجِّيلُ: كل شديد صلب. كما في تفسير القرطبي وابن كثير وغيرهما.

ص ٨١-٨٢: قوله في تحريف الآية: ﴿وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحاً﴾. فالموريات قَدْحاً. فالمغيرات صَبْحاً. فَأَثَرُنَ به نَقْعاً ﴿فهذه الآيات تلفتُ نظرك أيها الإنسان إلى ذلك النظام البديع، الذي تنزل به الأمطار... والعاديات هنا: هي الريح... والموريات هنا: أي الغيوم، والقَدْحُ: هو الطعن... والمراد بالموريات قَدْحاً: الغيوم تحتك ببعضها وتقْدَحُ... والمغيرات صَبْحاً: الأمطار... تنصب أصبَاباً... فَأَثَرُنَ به نَقْعاً﴾ أَثَرٌ: بمعنى نقل وحِفْظ، ومنه الحديث المأثور... والنون في كلمة «أَثَرُنَ» إنما يدل على صفات الله تعالى من رحمة وإحسانٍ وعطفٍ وحنانٍ وغيرها من صفات الكمال... «فَوْسَطُنَ به جَمْعاً» والنون في كلمة «فَوْسَطُنَ» تعود أيضاً على صفات الله تعالى. والهاء من كلمة «به» ترجع إلى النقع، أي الماء المجتمع. وكلمة «جَمْعاً» تعني جميع المخلوقات الحية من إنسان وحيوان ونبات... فهذا التأويل باطل، وهو من تحريف الكَلِم عن مواضعه.

والمجمع عليه في تفسير الأئمة على خلاف ما ذكره، فالله تعالى أقسم في هذه الآيات بـ«العاديات» وهي الخيل إذا أجريت في سبيله، فعدت وضَبَحَتْ، وهو صوتها حين تعدو، «فالموريات قَدْحاً» يعني اصطكاك حوافرها للصخر، فتقدح من التار، «فالمغيرات صَبْحاً» يعني الإغارة وقت الصبح، «فَأَثَرُنَ به نَقْعاً» يعني غباراً في مكان معترك الخيول، «فَوْسَطُنَ به جَمْعاً» أي فوسطن بركابهنَّ العدو. [انظر تفسير الطبري وابن كثير والقرطبي وغيرها من التفاسير المعتمدة].

فانظر إلى الفارق البعيد بين ما هو ثابت في كتب التفسير المعتمدة، وبين ما ذهب إليه

صاحب «تأويل جزء عم» من التحريف في تفسيرها وتأويلها؟ ١٩.

ص ٩٧-١٠٨: قوله في تحريف سورة ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ حيث أتى في تأويلها بكل غريب عن التفسير واللغة، وبكل عجيب من الأوهام والتخيلات؟ ١٩.

فيزعم في تأويل ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ بعد أن ذكر شتى من التخيلات: وتلك الليلة العظيمة التي يشهد فيها الإنسان هذه المشاهد النفيسة، ويرى هذه الرؤية الذوقية، وتحصل له بها تلك المعرفة الشهودية، تلك الليلة هي ليلة القدر، أي ليلة رؤية الإنسان عظمة الخالق وتقديره كمال الله.. إنَّ تنزيل ما انطوى عليه القرآن الكريم من الحقائق على قلبك إنما كان في ليلة القدر، أي ليلة مشاهدتك لعظمة ربك وتقديرك لخالقك..».

ثم يزعم فيقول: «ومتى هي ليلة القدر؟ فيُجيب نفسه:.. فكلُّ من أعدَّ نفسه الإعداد المطلوب لهذه المشاهدة.. فلا بدَّ له من الإكرام بهذه المشاهدة والفوز بتلك الليلة.. هنالك ينكشف للنفس عن كمال صاحب الجلال والجمال طَرَفٌ من السُّرِّ، فتشهد ما يتناسب مع حالها من جماله وجلاله وعظيم صفاته، وتُرى الكون كله قائماً بإمداده، وتسيره، سابحاً بفضلِهِ وإحسانه، مغموراً برحمته وحنانه»، تلك هي ليلة القدر يشهد فيها العبد عظمة ربِّه وسامي صفاته، ويتنزل القرآن على قلبه، تلك هي ليلة القدر التي زَيْنَ الله بها شهر رمضان..»، «فليلة القدر أي: العلم والمعرفة والفضيلة والكمال الذي ينطبع في نفس المؤمن في تلك الليلة.. خيرٌ مما يحصل عليه امرؤ عاش مائة عام قضى منها الألف شهر في الصيام والدراسة الجادة لاكتساب المعرفة»، فهذا التأويل غير صحيح ولا مقبول..

فهذه نماذج من انحرافات «تأويل» الديراني «الجزء عم» وهناك كثير من التأويلات المنحرفة وردت فيه، كما في ص ١٢١: «وهذا البلد الأمين» فيقول: «والمراد بالبلد هنا: الكون كله، فهذا لهذا النوع الإنساني بلد أمين فيه كلُّ شيء فليس ينقصه شيء» وهذا خلاف ما ذكره جميع المفسرين: أن البلد الأمين: هو مكة قطعاً؟!.

وكذا حرّف معنى الآية «لَا أَسْمُ بِهِذَا البلد» ص ١٦٧: فيقول: «والبلد: هو المقر والمقام وعلى هذا بلد كل إنسان مكان إقامته.. وإذا نحن نظرنا هذه النظرة الواسعة رأينا الكون كله بلداً واحداً، ومقاماً لهذه المخلوقات..» وهذا لم يقل به أحدٌ من المفسرين؟!.. وإنما الثابت من تفسيرها هو كما ذكره الحافظ ابن كثير في تفسيره: هذا قسمٌ من الله تعالى بمكة.. «وَأَنْتَ حِلٌّ» يا محمد «بهذا البلد» أي: مكة المكرمة

وكذا حَرَفَ معنى الآية «وَلَا يُوثِقُ وَثَاقُهُ أَحَدًا» ص ٢٠٢ فيقول: «... ويكون مانفهمه من هذه الآية أَنَّهُ في ذلك اليوم لا يشدُّ الوثَاقَ على ذلك المسكين في النَّارِ أَحَدًا، بل هو ذاته يُوثِقُ نَفْسَهُ بنفسه، إذ يصبر على ألم الحرق، ويُرغم نفسه على تحمُّلِ العذاب ليتخلَّصَ ممَّا هو فيه...» فهذا الزعم كذبٌ وافتراءٌ على كتاب الله تعالى، وتحريف لآيات الله تعالى، فيجب التنبيه هنا أَنَّ هذا الكتاب الذي جمعه «عبد القادر يحيى الديراني» باسم «تأويل جزء عم» قد حوى أخطاءً كثيرة في فهم الآيات، وتحويرها عمَّا جاء من أجله من البيان، فهو من كتب التفسير والتأويل المنحرفة المخالفة لمنهج الأئمة المفسرين، التي يُحذَّر من قراءتها والاصطلاح عليها إلَّا لمن كان له القدرة العلمية لنقضه وإبطاله. والله تعالى الموفقُ إلى طاعته ورعايته كتابه، وصونه من تحريف الضالين وتأويل المنحرفين!!!.

انحراف أصحاب المدرسة العقلية الحديثية في تفسير القرآن الكريم

ويحمل راية هذه المدرسة العقلية الحديثة في تفسير القرآن الكريم كلٌّ من جمال الدين الأفغاني، ومحمد عبده، ومَنْ سارَ في فلكهما واتبع طريقتهما، مِمَّنْ تتلمذ عليهما ونهج سبيلهما.

وقد أعطت هذه المدرسة الحديثة في تفسير القرآن أبعاداً ثلاثة. كانت الأساس لمن جاء من بعدها، وتتلخص فيما يلي:

أولاً: أنَّ هذه المدرسة أعطت العقل أكثر من حقّه وكلفته ما لا يطيق، ورفعت من قيمته، وضخمت حجمه حتى ساوته بالوحي، بل قدمته عليه، وقدمت مازعمته من أحكامه على أحكام الوحي.

وسعت في هذا السبيل لأجل تضييق حيز الغيبيات في مسائل العقيدة الإسلامية.

ثانياً: قامت هذه المدرسة بتأويل حقائق العقائد الإسلامية بما يتمشى مع الأحكام العقلية من جهة، ومكتشفات الغرب ونظرياته العلمية من جهة أخرى.

وفي سبيل ذلك أيضاً قامت بتأويل المعجزات والخوارق وإنكار بعضها كالمعتزلة في كثير من الغيبيات كالملائكة والجنّ والسحر، وفي إنكار كثير من الأحاديث الصحيحة التي تخالف عقولهم.

ثالثاً: هذه الفرقة الحديثة تزيد على المعتزلة بالدعوة للتقريب بين المسلمين والكافرين «اليهود والنصارى»، وتبرير الأخذ بالحضارة الغربية ومجاراتها بالأخلاق والآداب والعادات الزائفة.

والتقريب الذي سعت به هذه الفرقة المنحرفة، قرّبت من خلاله المسلمين من الكافرين، في حين لم تقرّب كافراً واحداً من الإسلام؟!..

رابعاً: إنّ الكثير من مفاهيم هذه الفرقة المنحرفة ومبادئها هي السائدة في تفكير

المعاصرين البارزين الذين تعاونوا مع الغرب في فرض سيطرته على البلاد الإسلامية، وطلاب هذه المدرسة العقلية المنحرفة هم الذين روجوا لأفكار المستشرقين بين المسلمين، التي تحمل قضايا التشكيك بالإسلام؛ عقيدةً وشريعةً ومسلكاً. وهم الذين سعوا إلى إضعاف ثقة المسلمين بتراث سلفهم الفكري والثقافي.

خامباً لم تكن نتيجة ذلك ذات أثر على أفراد المسلمين فحسب، بل على كثير من الدول الإسلامية التي نبذت العمل بالشريعة الإسلامية، وأقصت قوانين الفقه الإسلامي في الحكم والاقتصاد والسياسة، واستعاضت عنها بالقوانين الغربية الجائرة المارقة من كل قيود الحق والعدل الإلهي.

نماذج من انحراف تفسير أصحاب هذه المدرسة:

١- جمال الدين الأفغاني:

يُفسّر قوله تعالى: في آية تحريم الرِّبَا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُضَاعَفَةً﴾ [آل عمران / ٣٠] بـ «جواز الربا المعقول، الذي لا يُقتل كاهل المديون، ولا يتجاوز في برهة من الزمن رأس المال ويصير أضْعَافًا مضاعفة»^(١). والله تعالى حرّم الرِّبَا قليله وكثيره على حدٍّ سواء.

ويُفسّر «جَدَّ رَبَّنَا» في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا﴾ [الجن/ ٣] أن «جَدَّ» معرّب «كَدَّ» ومعناه العرش بالفارسية أو الهندية^(٢).

ويُفسّر قوله تعالى: ﴿فَإِنْ خِفْتُمْ أَنْ لَا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [النساء/ ٣] بأنّه «قَدَّ مَنْ» خاف أن لا يعدل «بالمرأة الواحدة» وترك لمن يخشى أن لا يعدل - حتى مع الواحدة - عدم الزواج وهذا ما يستتجه العقل مادام يحمله العاقل، ويقول به الحق والعدل^(٣).

ويُفسّر الأمور الغيبية من غير نصّ، فيقول: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ بَارِزَةً﴾ [سورة الكهف/ ٤٧]: «أي خارجة عن محورها غير راضخة للنظام الشمسي، وإذا ما حصل ذلك فلا شك يختلف ماعرف من الجهات اليوم، فيصير الغرب شرقاً والجنوب شمالاً، وبذلك الخروج عن النظام الشمسي وما يحدثه من الزلزال العظيم - لاشك تبعثر أجزاء الأرض لبعدها عن المركز، وتنسف الجبال نسفاً، وتتحوّل براكين هائلة، وبالنتيجة

(١) جمال الدين الأفغاني: لمحمود أبو رية ص ٩٨/.

(٢) المصدر المذكور ص ١١٠/.

(٣) المصدر المذكور ص ١٠٠/.

تخرب الكرة الأرضية، ويَعُثُّها الفناء بما فيها من حيوان، وتقوم القيامة»^(١).

وهذا التفسير مخالف لنصوص القرآن الكريم التي تحدّثت عن قيام الساعة.

ومما يُعرف عن الشيخ الأفغاني أنّه كان على صلة وثيقة مع الإنكليز، كما كان منتظماً في سلك الماسونية «المنظمة الصهيونية السرية»، وقد بلغ فيها بعد انتسابه إليها بثلاث سنوات «رئيساً للوج كوكب الشرق بتاريخ ٧ جنبايو ١٨٧٨م» انظر «كتاب الدكتور فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي ج ١، ١٠٦-٩٥، مع ذكر المستندات المصوّرة والوثائق المخطوطة في خصوص ذلك» [طبع مؤسسة الرسالة - بيروت].

ولقد كان للأفغاني أثرٌ بارز على كثير ممّن نبغ من أهل العلم والفكر والثقافة والسياسة والصحافة، في زمانه ومابعده حتى هذا الوقت، ممّن افشّن بأفكاره الخطيرة، وكان على رأس أولئك الشيخ محمد عبده.

٢- الشيخ محمد عبده:

ولئن كان الشيخ الأفغاني هو المؤسس للمدرسة العقلية التي قامت على أساس تحكيم العقل في نصوص الكتاب الكريم والسنة النبوية المطهرة، وعلى تميع المواقف الإسلامية تجاه أهل الفكر «الذّمين منهم والحريين»؛ فإنّ «محمد عبده» هو الذي أقام صروح هذه المدرسة، ودعا إليها ونشرها بين الناس، فكان بحق هو أستاذها وإمامها الأول بعد الأفغاني، بل أصبح له من الشهرة الواسعة والصيت الكبير ما لم يكن لشيخه الأفغاني؟!.

والذي يعني هنا عن الشيخ محمد عبده موقفه تجاه تفسير القرآن الكريم، وماتركه من بعده من أثر خطير على من نهج نهجاً في التفسير، وهذا ما سنذكره عند الكلام عن «محمد رشيد رضا».

وقد تعرّض لتفصيل مواقف «محمد عبده» وصلته بالإنكليز، والماسونية، «الدكتور فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي ج ١/ ١٢٤-١٦٩، مع ذكر المصادر والوثائق المخطوطة المتعلقة بذلك، فنحن نحيل القارئ إليها ليقف بنفسه على أشياء لم تشر في غيره».

ولم يكن الشيخ محمد عبده يميل إلى التأليف أولاً، وإنما كان يملّي أفكاره وآراءه على مريديه فكان بعضهم يكتب ماسمعه منه وكان على رأسهم الشيخ رشيد رضا

(١) خاطرات جمال الدين الأفغاني: لمحمد المخزومي ص ١٠٤.

«القلموني» الذي أقام في مصر وأنشأ مجلة «المنار» فيها.

وقد أثر عن الشيخ محمد عبده بعض المؤلفات، منها «حاشية عقائد الجلال الدواني» في علم الكلام، وشرح «نهج البلاغة» المنسوب إلى علي بن أبي طالب رضي الله عنه. ورسالة في «التوحيد» وهي أهم مؤلفاته وأشهرها على الإطلاق، وطُبعت مراراً، وحازت على قبول كثير من النصارى، فاقترح بعضهم تدريسها في مدارسهم، بعد حذف مبحث «نبوة محمد ﷺ»؟! وتبرع آخر بتوزيع بعض نسخها، وقَرَّظها بعضهم بإعجاب شديد، ولم يسمح المؤلف لأحد أن يشرح هذه الرسالة، ولا أن يضع لها حاشية، وعُلِّل هذا تلميذه «رشيد رضا» بأنه تعمّد الإيهام في بعض المباحث^(١).

ولقد أثّر عن الشيخ محمد عبده في بعض رسائله إلى شيخه الأفغاني التي أرسلها إليه وهو في منفاه ما يُوجب إعادة النظر في عقيدته^(٢).

ولقد عاتب الشيخ العلامة «يوسف النبهاني» رحمة الله تعالى الشيخ «رشيد رضا» على صحبته لـ «محمد عبده» وتسميته له بـ «الأستاذ الإمام» مع تركه للحج والفروض الصلاة، ولاشتراكه في المنظمة الصهيونية السرية «الماسونية» في قصيدة ذكر الدكتور فهد الرومي في كتاب «منهج العقلية الحديثة في التفسير ج ١/ ١٥٣-١٥٤/.

ولقد كان «محمد عبده» مؤيداً لـ «قاسم أمين» الذي دعا إلى نبذ الحجاب الشرعي، وأن تخرج المرأة سافرة، بل كان مشاركاً له في تأليف «تحرير المرأة» يقول «محمد عماره» جامع مقالات محمد عبده ومؤلفاته في كتاب «الأعمال الكاملة للإمام محمد عبده»: «إن في هذا الكتاب [يعني كتاب «تحرير المرأة» المنسوب لقاسم أمين] عدّة فصول قد كتبها الأستاذ الإمام وحده، بحيث جاء أسلوبه على نمط واحد هو أقرب إلى أسلوب محمد عبده الأستاذ الإمام وكتاب الله في كفتي الميزان» فيقول: «إنني أرى الرسالة المستنكرة أي: الفن القصصي في القرآن الكريم لمحمد أحمد خلف الله»، وما سبقها في مصر من الأحداث والفتن المماثلة الماسّة بدين الإسلام وعقائده المحفوظة إلى عصر الشيخ «محمد عبده».. كلها ناشئة من الأسس التي ابتدعها هذا الشيخ الملقب بـ «الأستاذ الإمام»؟!..

فلا مناص إذن للفضاء على تيار الفتنة من مصدرها، من أن تفصل الدعوى مع

(١) الدكتور «فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي» منهج العقلية الحديثة في التفسير ج ١/ ١٤٥-١٤٦. نقلاً عن تاريخ الأستاذ الإمام، لرشيد رضا، ج ١/ ٧٨٢-٧٨٣.

(٢) المصدر المذكور ج ١/ ١٥٣-١٦٤.

الإمام دون المؤتمنين.. وكان هذا الواجب قد بقي منذ أمد بعيد على عاتق مصر -تملاً ثقيلاً، ودينياً عظيماً غير مقضي.. [ولعلّ هذا الوقت الذي تكافح مصر فيه داء «الكوليرا» قدّره الله لمعالجة هذا المرض أيضاً الذي هو وباء أفتك من وباء الكوليرا، بحيث لو ترك على حاله لكان شرّ ميراث للأجيال الآتية يظهر نكسه الفينة بعد الفينة، ويشند بأسه عليهم حتى يكفي لأن يأتي بنيانهم من القواعد فينهار به في نار جهنم»^(١).

ثم يقول: «.. جاء الأستاذ الإمام فوضع منهاجاً عجيباً لتأويل النصوص [القرآنية والنبوية] يُمثّل باسم النهضة الدينية الحركة القهقرية أمام خصوم الإسلام الغربيين المسلّطين على كتابه، ويُلقي الشك في قلوب المسلمين الذين يعتقدونه كتاباً منزلاً من عند الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه قائلاً: «إنّ وجود شيء في القرآن لا يقتضي صحته»؟؟!! [نعوذ بالله من الكفر بآياته].

وبهذه النهضة المعكوسة والحماسة الضالة المأثورة من الإمام، قال تلميذه الشيخ صاحب المنار فيما كتبه دفاعاً عن كتاب «حياة محمد» لمعالي هيكल باشا: «إن المعجزات شبهة لاحجة»؟!..

وقد ارتكزت فكرة إنكار معجزات الأنبياء في قلوب العلماء الأزهرين من تلامذه الإمام، وفيهم من تولى مشيخة الأزهر؟؟! كما شجعت مقررات الإمام في المغييات إلى نفي وجود الشيطان؟؟!..^(٢)

وتفسير الأستاذ الإمام «محمد عبده» لم يظهر بقلمه، وإنما ظهر بقلم الشيخ «محمد رشيد رضا»، وذلك بأنه اقترح على شيخه «الأستاذ الإمام» أن يلقي درساً في تفسير القرآن الكريم فاستجاب له، فبدأه في الأزهر سنة ١٣١٧هـ وانتهى في سنة ١٣٢٣هـ عند الآية ١٢٥ من سورة النساء، حيث توفي بعد ذلك. فأملاه عنه.

ويصف الشيخ رضا طريقته بعد وفاة أستاذه في التفسير فيقول^(٣) «هذا وإنني لما استقلت بالعمل بعد وفاته خالفت منهجه رحمه الله تعالى بالتوسع فيما يتعلق بالآية من السنّة الصحيحة، سواء كان تفسيراً لها أو في حكمها، وفي تحقيق بعض المفردات أو الجمل اللغوية، والمسائل الخلافية بين العلماء، وفي الإكثار من شواهد الآيات في السور المختلفة، وفي بعض الاستطرادات لتحقيق مسائل تشتدّ حاجة المسلمين إلى

(١) موقف العقل والعلم والعالم: لشيخ الإسلام مصطفى صبري ج ١/ ٣٤٧-٣٤٥.

(٢) موقف العقل والعلم والعالم: لشيخ الإسلام مصطفى صبري ج ١/ ٣٤٧-٣٤٥.

(٣) تفسير المنار ج ١/ ١٦.

تحقيقها».

وكان يدعو إلى إعادة الخلافة الإسلامية وألف في ذلك كتاباً عنوانه: «الخلافة أو الإمامة العظمى».

ومن هذا ندرك مدى مخالفة السيد «رشيد رضا» لسيرة أستاذه: «الأفغاني» و«محمد عبده»، ولم يكن هذا التحول فجائياً. بل كان التدرج في سيره واضحاً؛ فقد كان يزداد قرباً إلى منهج السلف كلما امتدت به الحياة إلى أن توفاه الله تعالى، رحمه الله وطيب ثراه.

لا يعني هذا خروج «الشيخ رضا» من نطاق بحثنا هنا فإننا لانحاسبه على الجانب أو الجوانب السلفية منه في فكره، فهذه أمور نحمده عليها ونذكرها له. ولكن نعني هنا بالجانب الآخر من فكره، وهو جانب تأثره بالأفغاني ومحمد عبده، الذي بقي أثره معه إلى وفاته، ولم يترك عنه، وليس هو بالقليل^(١) منها:

١- موافقته في تفسيره للوحي وعلاقته برسول الله ﷺ لشيخه محمد عبده^(٢)

٢- تصديق مدعي تحضير الأرواح، مع ثبوت بطلان هذه الدعوى^(٣).

٣- تشكيكه في وقوع أسرار الساعة الصغرى والكبرى، بعد إقراره بثبوت أخبارها، وهذا جانب غريب منه^(٤).

٤- تفسيره لخبر الدجال بعد إقراره بثبوته، وهو يحكيه عن شيخه محمد عبده؛ أنه أي «الدجال رمزٌ للخرافات والدجل والقبائح التي تزول بتقرير الشريعة على وجهها»^(٥).

٥- تشكيكه بثبوت خبر طلوع الشمس من مغربها في آخر الزمان؛ بأنه ربما سمع ذلك أبو هريرة من كعب الأحبار، أو أنها من المتشابهة^(٦).

وإذا كان إيمانه بما تواترت الأخبار بوروده على هذه الشاكلة، فما بالنا بالتي لم تبلغ حدّ التواتر من الأحاديث الصحاح والحسان؟! لاغرو أنه متأثر بمذهب شيخه

(١) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير: للدكتور فهد الرومي ج ١/١٨٧.

(٢) الوحي المحمدي ص ٣٩، تفسير المنار ج ١/٢٢٠ وانظر رسالة التوحيد: لمحمد عبده ص ١٠٨.

(٣) انظر: الروحية الحديثة: للدكتور محمد حسين ص ٣٣.

(٤) تفسير المنار ج ٩/٤٤٥-٤٥٠ و٤٥١-٤٦٠.

(٥) تفسير المنار ج ٩/٣١٧.

(٦) تفسير المنار ج ٨/٢١١.

محمد عبده الذي يقول فيه: «ولقد كان الاستاذ الإمام يقول: «إن الإسلام الصحيح هو ماكان عليه أهل الصدر الأول قبل ظهور الفتن» ولم يكن يثق إلا بأقلّ القليل ممّا روي في الصحاح من أحاديث الفتن»^(١).

٦- تقليله من شأن المعجزات التي ذكرها الله تعالى في القرآن الكريم عن الأنبياء السابقين فيقول: «ولولا حكاية القرآن لآيات الله التي أيدّ بها موسى وعيسى عليهما السلام لكان إقبال أحرار الإفرنج عليه أكثر، واهتداؤهم به أعم وأسرع، لأنّ أساسه قد بُني على العقل... [يعني القرآن] ثم يقول: وأمّا تلك المعجائب الكونية فهي مثار شبهات وتأويلات كثيرة في روايتها وفي صحتها وفي دلالتها، وأمثال هذه الأمور [ويقصد معجزات الأنبياء] تقع من أناس كثيرين في كل زمان والمنقول عن صوفية الهند والمسلمين أكثر من المنقول عن العهدين: العتيق والجديد، وعن مناقب القديسين، وهي منفرات العلماء عن الدين في هذا العصر»^(٢).

إذن فالمعجزات عنده: مثارٌ شبهات وثمارٌ تأويلات في صحتها ودلالتها... ١٢٢.

٧- ويقول الشيخ «رشيد رضا»: «وأمّا ماأكرمه الله تعالى به [أي ﷺ] من الآيات الكونية، فلم يكن لإقامة الحجة على نبوته ورسالته»^(٣) ١٢٢.

٨- ويقول: «وقد كان أكثر من آمن بتلك الآيات إنما خضعت أعناقهم، واستخذت أنفسهم لما لايعقلون له سبيلاً، وقد انطوت الفطرة على أنّ كلّ ما لا يُعرف له سببٌ فالآتي به مظهر للخالق سبحانه إن لم يكن هو الخالق نفسه، وكان أضعاف أضعافهم يخضع مثل هذا الخضوع نفسه للسحرة والمشعوذين والدجالين، ولايزالون كذلك»^(٤) ١٢٢.

وعلى هذا المسلك من التقليل من شأن المعجزات التي ذكرها الله تعالى عن الأنبياء في القرآن الكريم قد خطا جميع المتأثرين بمذهب «محمد عبده» من العلماء والأدباء والكتاب، أمثال «محمد رشيد رضا» و «محمود شلتوت» و «عبد العزيز جاويز» و «فريد وجدي» صاحب دائرة المعارف والتفسير الميسر، و «محمد حسين هيكل» صاحب «حياة محمد» ﷺ ومن تأثر بهم...

(١) تفسير المنار ج ٩/٤٦٦.

(٢) تفسير المنار ج ١١/١٥٥ والوحي المحمدي له ص ٦٢.

(٣) تفسير المنار ج ١١/١٥٩ والوحي المحمدي ص ٧٠.

(٤) تفسير المنار ج ١١/١٦٠ والوحي المحمدي ص ٧١.

يقول الدكتور «فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي»^(١) : «نخلص من هذا إلى أنّ رجال المدرسة العقلية الحديثة لا يحيلون وقوعها [أي: المعجزات] بل هي عندهم «جائزة عقلاً» فلا مانع من وقوعها بقدرة الله تعالى في يد نبي من الأنبياء، ويجب أن نؤمن بها على ظاهرها. لكنهم يخصّون هذا بفترة ماقبل رسالة محمد ﷺ ، أمّا في عصره عليه الصلاة والسلام «فانتهى بذلك زمن المعجزات، ودخل الإنسان بدین الإسلام في سن الرشد، فلم تعد مدهشات الخوارق هي الجاذبة له إلى الإيمان وتقويم ما يعرض للفطرة من الميل عن الاعتدال في الفكر والأخلاق والأعمال كما كان في سن الطفولية النوعية، بل أرشده الله تعالى بالوحي الأخير «القرآن» إلى استعمال عقله في تحصيل الإيمان بالله وبالوحي»^(٢).

ويرى الشيخ عبده أنّ المعجزات إما هي لأولئك الأقوام الذين لم ترتق عقولهم إلى فهم البرهان، ولا يضر الإسلام أن يروي تلك المعجزات، فمجرد روايته لها لا ينفي عنه أن دين العقل مادام لم يرد فيه شيء منها.

يقول الشيخ عبده: «فإنما بما أيّد الله تعالى به الأنبياء من الآيات لجذب قلوب أقوامهم الذين لم ترتق عقولهم إلى فهم البرهان لا يتأفّى كون ديننا هو تقديمه لكتاب «حياة محمد» ﷺ للأستاذ محمد حسين هيكل: «ولم تكن معجزة محمد ﷺ القاهرة إلّا في القرآن، وهي معجزة عقلية».

ويردّد هذا الكلام أيضاً السيّد رشيد رضا: «وأما آيته - ﷺ - والتي احتجّ بها على كونه من عند الله تعالى هي القرآن وأميّة محمد عليه الصلاة والسلام ، فهي آية علميّة تدرك بالعقل والحسّ والوجدان.

وأما تلك العجائب الكونية فهي ماثار شبهات وتأويلات كثيرة؛ في روايتها وفي صحتها وفي دلالتها، وأمثال هذه الأمور تقع من أناس كثيرين في كل زمان، والمنقول منها عن صوفية الهنود والمسلمين أكثر من المنقول عن المهديين العتيق والجديد، وعن مناقب القديسين وهي من منقرات العلماء عن الدين في هذا العصر»^(٣).

ويقول: «هذا وإنّ مارواه المحدثون بالأسانيد المتصلة تارة، وبالمرسلة أخرى من الآيات الكونية التي أكرم الله تعالى بها رسوله محمداً ﷺ هي أكثر من كل مارواه

(١) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ج ١/ ٥٥٥-٥٥٨.

(٢) تفسير المنارج ١/ ٣١٥.

(٣) تفسير المنارج ١١/ ١٥٥.

الإنجيليون، وأبعد عن التأويل، ولم يجعلها برهاناً على صحة الدين، ولا أمر بتلقيها للناس ذلك بأن الله تعالى جعل نبوة محمد ﷺ ورسالته قائمة على قواعد العلم والعقل في ثبوتها، وفي موضوعها لأن البشر قد بدأوا يدخلون في سن الرشد والاستقلال النوعي الذي لا يخضع عقل صاحبه فيه لاتباع من تصدر عنهم أمور عجيبة مخالفة للنظام المألوف في شئ الكون».

ويقول: «أهم ما ينكره الأزهريون.. على هيكل أو أكثره مسألة المعجزات أو خوارق العادات، وقد حررتها في كتاب «الوحي المحمدي» من جميع مناحيها ومطاويها في الفصل الثاني وفي المقصد الثاني من الفصل الخامس، بما أثبت به أن القرآن وحده هو حجة الله القطعية على ثبوت نبوة محمد ﷺ بالذات، ونبوة غيره من الأنبياء، وآياتهم بشهادته لا يمكن في عصرنا إثبات آية إلا بها، وأن الخوارق الكونية شبهة عند علمائه لاحجة، لأنها موجودة في زماننا ككل زمان مضى، وأن المفتونين بها هم الخرافيون من جميع الملل، وبينت سبب هذا الافتتان، والفروق بين ما يدخل منها، في عموم السنن الكونية والروحية وغيره»^(١).

وهكذا نجد جميع المتأثرين بمنهج «محمد عبده» وبفكره كيف ينظرون إلى معجزات الأنبياء ومعجزات نبينا ﷺ؟ ولم يقف الأمر عندهم إلى هذا الحد بل تعداه إلى العبث في القول في نبوته ﷺ بأنها «عبرية».

إن نتيجة تجريد نبوة محمد ﷺ عن المعجزات هو القول بـ «عبريته» لدى من يعتقد ذلك.

ولنقرأ قول الأستاذ محمد فريد وجدي وهو يقرر عبقرية محمد ﷺ ويقده كسباً للقائلين بنبوته، ومارأيتُ خسارة فادحة تسمى «كسباً» عظيماً إلا بهذا المقياس الذي يقيس به وجدي؛ يقول:

«ربما يخيل لمن يطلع على شرطنا إيراد السيرة النبوية على أصول الدستور العلمي أن جانب الإعجاز فيها سيكابد نقصاً عظيماً، إن لم يغفل إغفالاً تاماً، وإغفال هذا الجانب منها يجعلها أمراً طبعياً، فتفقد النبوة صفتها المميزة، وتصبح سيرة النبي ﷺ كسيرة أحد عظماء الرجال، وليكن من الممكن إثبات أنه أعظمهم فتكون النتيجة سلبية من الناحية الدينية؟! نقول: لا، فإننا إن سرنا على شرط العلم في إثبات الحوادث وعزوها إلى عللها القريبة، فإنه سيتألف من جملة أمر جليل يقف العلم نفسه

(١) تفسير المنارج ١١/١٥٩ - ١٦١/.

أمامه حائراً، لا يستطيع تعليل صدوره عن فرد واحد، وسيكون مضطرباً بأن يعترف بأن محمداً ﷺ كان «عبقرياً» من طراز خاص فاق به جميع العباقرة. وهذا كسب «عظيم» للقائلين بنبوته؛ لأنّ العبقري في العلم لا تعني ماتعنيه في عرف العامة، هي في العلم ما يُلقي في روع العبقري من علم أو عمل بدون جهد منه، فيجيء فذاً لاسابقة له، يتخذ مثالا لغيره، ولا يمكن تقليده، فالعبقرية بهذا المعنى العلمي تُقرب معنى النبوة إلى العقل، وتسوّغها في العلم»^(١).

وهذا الكلام كثر تردده بين الكتاب في تلك الفترة وهم يساومون على نبوة رسول الله ﷺ، ويكفيهم ثمناً لها الإقرار بعبقريته ويعدونه كسباً عظيماً؟ يقول زكي مبارك: «كان محمد - ﷺ - إنساناً قبل أن يكون نبياً، وذلك من أعظم الحظوظ التي غنمها في التاريخ، فسيأتي يوم قريب أو بعيد يثور فيه الناس على الأمور الغيبية، ولكنهم لا يستطيعون أن يثوروا على «عبقرية» محمد ﷺ..»^(٢)

وكثر ترديد هذا الوصف لنبياً ﷺ حتى أُلّف فيه بعضهم كتباً مستقلة عن عبقرية محمد ﷺ، كما فعل الأستاذ «العقاد» وهو وإن لم يُشاركهم إثبات العبقرية على حساب النبوة إلا أنه شاركهم في الترويج لهذه الدعوة الهدامة لمعنى «النبوة والرسالة المحمدية».

ولا تحسبن أن القوم يدعون إلى العبقرية إضافةً إلى النبوة فهو من زيادة الثناء والإعجاب، بل هم حين يصفونه عليه الصلاة والسلام بالعبقرية فإنهم يثبتونها على حساب نبوته ﷺ، وأكبر دليل على ذلك إنكارهم للمعجزات، والمعجزة والنبوة سيان في كونها من الأمور الغيبية الخارقة لسنن الكون، بل إنّ المعجزة من أدلة الإثبات للنبوة، ومن يُنكر المُثبت فهو إلى إنكار المُثبت أقرب، وقول وجدي أنف الذكر يُمهد لذلك: «وسيأتي يوم قريب أو بعيد يثور فيه الناس على الأمور الغيبية»^(٣)؟

وهناك لابد من ذكر لمحة عن معنى «العبقرية» في الاصطلاحات الحديثة، فيقول صاحب «المعجم الأدبي»^(٤):

(١) مجلة الأزهر الأول المجلد العاشر محرم ١٣٥٨هـ مقال «السيرة المحمدية تحت ضوء العلم والفلسفة»: لمحمد فريد وجدي ص ١٥.

(٢) مجلة الرسالة العدد ٢٩٧ ص ٥٠٧/ في ٢٢ محرم ١٣٥٨هـ مقال: «النواحي الإنسانية في الرسول «زكي مبارك».

(٣) منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير ج ١/ ٥٦٥-٥٦٦.

(٤) المعجم الأدبي: جبور عبد النور ص ١٧٠-١٧١.

«العبقري: كل جليل نفيس فاخر من الرجال والنساء وغيرهم، المتفوق في الشيء والآتي بما يعجز عن إاراته فيه الآخرون..»

والعبقري: مبدعٌ يُحقّق آثاراً معجزةً، ولا يأتي بمثلها إلا سكّان «عبر» أو من كان هو على اتصال بهم، ويتلقّى الوحي منهم؟!..

ويقول عن «عبر» أنها «قرية يسكنها الجنّ، ويُنسب إليها كلُّ فائقٍ جليل. وتوسّع الأدباء في مدلول اللفظة، فأصبحت في مفهومهم كناية عن عالمٍ سحري تقطنه مخلوقات عجيبة في خلقها وإدراكها، مُسيطر على الشعراء والفنانين، مُوحية إليهم بما ينطقون أو يُبدعون، بحيث يُصيحون حسب هذا المدلول أدوات مُرددة لما يُوحى إليها، وليست هي في ذاتها مُبتكرة أو خالقة، وبذلك قرب معناه من لفظة «الأولمب» أو جبل الإلهام عند اليونان، واشتقّ منها عبقريّ وعبريّة؟؟

ثم يقول تحت لفظة «عبريّة»: «وذهب بعض المحلّلين التفسيرين إلى اعتبار العبقريّة نوعاً من العُصاب، ملاحظين أنّ كثيراً من العباقرة كانوا مُرضى مُصابين بالوساوس، أو معرّضين للانفعال السريع بالأهواء الجائحة، أو منفصلين اجتماعياً وشعورياً عن بيئتهم ومجتمعهم، وكلُّ هذا مظهرٌ من أعراض الجنون. وقال آخرون: إن العبقريّة في ذاتها قضية نسبيّة..؟!»

هذا بعض معاني العبقريّة، وهناك معانٍ أخرى أطلقوها على الفنانين المبدعين، كقول أحدهم: «إنّ عباقرة الفنّ يُتجّون الآثار الفنيّة التي تناسب إعجاب الجميع، على غير قاعدة أو مثال يقتفونه؟؟!..»

فالقائلون بعبقرية «محمد» ﷺ على أيّ المعاني حملوها؟؟ أو بأيّ اصطلاحاتها قاسوا «النبي» ﷺ عليها؟؟

والله سبحانه وتعالى قد وصفه بأكمل الأوصاف وأجمعها لمعاني الجلال والجمال والبهاء والسّموّ والرفعة حين قال «مُحَمَّدٌ رَسُوْلُ اللهِ»!!! ووصفه: «بالتّيّ الأمي» و«بعبد» ﷺ!!! فهل هؤلاء قد عابهم هذا الوصف؟ أو أنهم وجدوه غير كاف لمقامه الشريف؟ حتى ذهبوا إلى وصفه بالعبقرية؟؟!

إنهم راموا هذا المسلك المنحرف لتقويض معنى معجزات النبي ﷺ التي لم تتسجم مع أمزجة مفكري الغرب، وكأنهم في إنكارهم المعجزات، ونفيها عن الدين الإسلامي، قد خلّصوا الإسلام من عيب يجب تطهيره منه؟؟!

ولأجل غاية الوصول إلى مواكبة الغرب في مفاهيم المادية في كل شيء فلا هم

قَدَّمُوا خِدْمَةً لِلْقُرْآنِ الْكَرِيمِ يَتَغَوَّنَ بِهَا الْوَسِيلَةَ عِنْدَ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَلَا هُمْ قَدَّمُوا
كَافِرًا مِنْ كُفَّارِ الْغَرْبِ شَبْرًا نَحْوَ الْإِسْلَامِ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي قَدَّمُوهُ لِلْمُسْلِمِينَ هُوَ
التَّشْكِيكُ بِمُعْجَزَاتِ الْأَنْبِيَاءِ الَّتِي ذَكَرَهَا اللَّهُ تَعَالَى، وَبِمُعْجَزَاتِ الرَّسُولِ ﷺ الثَّابِتَةِ
بِالْأَسَانِيدِ الْمُوثُوقَةِ الصَّحِيحَةِ؛ وَلِهَذَا تَجَرَّأُوا عَلَى مَا وَرَدَ مِنَ الرِّوَايَاتِ الصَّحِيحَةِ فِي
السَّنَةِ النَّبَوِيَّةِ الْمُطَهَّرَةِ لِبَعْضِ الْمُعْجَزَاتِ، فَأَبْطَلُوا وَتَجَرَّأُوا عَلَى رَوَاتِهَا فَقَدَحُوا فِيهِمْ
وَجَرَحُوهُمْ، وَلَمْ يَفَرِّقُوا أَوْ أَكْثَرَهُمْ بَيْنَ صَحَابِيٍّ أَوْ تَابِعِيٍّ، أَوْ سِوَاهُمْ مِنَ الْأُئِمَّةِ الثَّقَاتِ
الْعَدُولِ الَّذِينَ كَانُوا الدَّرْعَ الْوَاقِيَ لِجَمِيعِ هُجَمَاتِ أَعْدَاءِ الْإِسْلَامِ، وَدَسَائِسِهِمْ؟؟؟
فَبِمَاذَا يَفْرَحُونَ؟؟؟

انحراف المتطرفين في التفسير العلمي للقرآن الكريم

اتجه كثير من العلماء إلى تفسير القرآن، على أساس أنه قد حوى، إلى جانب العلوم الشرعية والدينية، سائر علوم الدنيا على اختلاف أنواعها وتعدد ألوانها، وكان من نتيجة ذلك أن ظهر من يُحكّم الاصطلاحات العلمية في آيات القرآن الكريم وكلماته، كما ذهب بعضهم إلى حمل الآية القرآنية على النظرية العلمية المكتشفة حديثاً، حتى ولو أدّى به ذلك إلى إخراج معنى الآية عما جاءت من أجله، وتنزيلها على مقتضى النظرية العلمية.

وإذا كان اصحاب هذا الاتجاه العلمي في التفسير، يستندون إلى ما حواه القرآن الكريم، من إشاراته إلى حقائق الكون والحياة، فليس لهم أن يحملوا الآيات الكونية، ويذهبوا بها إلى ما استحدثت اكتشافه من الأمور الكونية، ثم جعلها أساساً لإيضاح معنى الآيات الكونية، من غير إدراك القصد الذي نزلت من أجله، وإنما الواجب عليهم، جعل تلك الآيات الكونية، أساساً لتصديق ما استحدثت اكتشافه من هذه الأمور الكونية، وبذلك تكون الآيات القرآنية الكونية أساساً وأصلاً؛ لأنها كلام خالق هذا هو مجمل الأمور، التي جعلت تفسيره يخرج عن المنهج الصحيح لتفسير القرآن الكريم.

فمن الأمثلة التي توضح انحرافه في تفسيره ما قاله في تفسير قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً..﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿فَقُلْنَا اضْرِبُوهَا بِعَصَاهَا، كَذَلِكَ يُخَيِّبُ اللَّهُ الْمُوْتَى..﴾ [البقرة، ٦٧-٧٣] فيذكر في تفسيرها من المعجائب والغرائب: «علم تحضير الأرواح» فيقول: «وأمّا علم تحضير الأرواح، فإنه من هذه الآية استخراجاً، إنّ هذه الآية تُثَلِّى والمسلمون يؤمنون بها، حتى ظهر علم الأرواح بأمريكا أولاً، ثم بسائر أوربا ثانياً» ثم يذكر قصة ظهور هذا العلم وتطوّره بإسهاب.

وهو في هذا يرمي القرآن بالتناقص، ثم ينسب للأنبياء علوماً مكتسبةً ادّعوا من

خلالها المعجزات؟.

أما الناحية الأولى: فإنه يزعم أن علم تحضير الأرواح مأخوذ من هذه الآية، مع أن القرآن الكريم نفسه ينص على أن علم الروح، هو من العلوم التي خص الله تعالى نفسه بها، ولم يُطلع أحداً على حقيقتها، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ [الإسراء/ ٨٥]؟ فكيف يقول ذلك؟؟...

وأما الناحية الثانية: فإنه يُزعم أن ما أجراه الله تعالى لرسوله موسى عليه السلام، من أمره بذبح البقرة، ثم ضرب القتل بجزء منها، ثم إحياء الله تعالى ذلك المقتول، بعدما فعلوا ما أمروا به؛ أن ذلك من باب تحضير الأرواح المزعوم، وهذا بلا شك باطل لا يصح اعتقاده، ولا القول به.

ولست أشك أن في مثل هذا التفسير خروج بالقرآن عن قصده، وانحراف به عن هدفه، فيجب صون القرآن وتفسيره عن مثل هذا الانحراف، وذلك الشطط.

وبعض الباحثين دفعهم الحماس إلى أن يتلمسوا لكل نظرية اشتهرت بين الناس دليلاً من القرآن، ولو كان ذلك عن طريق التكلف، بحمل الآية على معنى النظرية، وفي هذا من الخطر ما فيه من الوقوع في الإلحاد في آيات الله تعالى الذي حرّمه الله تعالى أشدّ التحريم، وذلك أن النظرية إذا فشل ثبوتها، نُسبَ مثل ذلك إلى الآية. والعياذ بالله تعالى، فإن كلام الله تعالى حقٌ لامية فيه، فيجب إجلاله وتعظيمه، وجعله الأصل في البحث والأساس في النظر.

إن العلم الحديث يُعتبر مجموعة القواعد والأسس التي تبحث في صحته النظرية أو عدم صحتها، وهذا لا ينطبق على كلام الله تعالى، ولهذا لا يجوز حمل الآيات القرآنية على النظريات العلمية الحديثة، بل يجب أن تكون النظريات محكومة إليها، فما كان موافقاً للآيات القرآنية حكمنا على النظرية بالصحة، وما خالفها حكمنا عليه بعدم الصحة.

وهنا يجب التنبيه والتحذير من خطر التفسير العلمي الخارج عن الأصول والقواعد والضوابط الشرعية والعربية، يقول الدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه «التفسير والمفسرون [ج ٢/ ٥٢٢- ٥٢٣]

مني الإسلام من زمن بعيد بأناس يكيدون له، ويعملون على هدمه بكل ما يستطيعون من وسائل الكيد، وطرق الهدم. وكان من أهم الأبواب التي طرّقوها ليصلوا منها إلى نواياهم السيئة: تأويلهم للقرآن الكريم على وجوه غير صحيحة، تتنافى مع ما

في القرآن من هداية، وتناقض ما هو عليه من محجة بيضاء وتهدف إلى ماسولته لهم نفوسهم من نحل خاسرة وأهواء!...

مني الإسلام بهذا من أيامه الأولى، ومني بمثل هذا في أحدث عصوره، فظهر في هذا العصر أشخاص يتأولون القرآن على غير تأويله، ويلوونه إلى ما يوافق شهواتهم، ويقضي حاجات في نفوسهم، فأدخلوا في تفسير القرآن آراء سخيفة، ومزاعم منبوذة، تقبلها بعض المخدوعين من العامة وأشباه العامة ورفضها بكل إباء من حفظ الله عليهم دينهم وعقولهم.

الباعث على هذا اللون من التفسير:

اندفع هؤلاء النفر من المؤولة إلى ماذهبوا إليه من أفهام زائفة في القرآن بعوامل مختلفة، فمنهم من حسب أن التجديد ولو بتحريف كتاب الله سبب لظهوره وشهرته، فأخذ يثور على قدماء المفسرين ويرميهم جميعاً بالسفه والغفلة ثم طلع على الناس بجديده في تفسير الله... جديد لا تقره لغة القرآن، ولا يقوم على أصل من الدين.

ومنهم من تلقى من العلم حظاً يسيراً، ونصيياً قليلاً، لا يرقى به إلى مصاف العلماء، ولكنه اغتر بما لديه، فحسب أنه بلغ مبلغ الراسخين في العلم، ونسى أنه قل في علم اللغة نصيبه، وخف في علم الشريعة وزنه، فراح ينظر في كتاب الله نظرة حرة لا تتقيد بأي أصل من أصول التفسير، ثم أخذ يهذي بأفهام فاسدة، تتنافى مع ما قرره أئمة اللغة وأئمة الدين، ولأول نظرة يتضح لمن يطلع عليها أنها لا تستند إلى حجة، ولا تنكئ على دليل.

ومنهم من لم يرسم لنفسه نحلة دينية، ولم يسر على عقيدة معروفة، ولكنه لعبت برأسه الغواية، وتسلمت على قلبه وعقله أفكار وآراء من نحل مختلفة، فانطلق إلى القرآن وهو يحمل في قلبه ورأسه هذه الأمشاج من الآراء، فأخذ يؤوله بما ينفق معها، تأويلاً لا يقرره العقل ولا يرضاه الدين. [كما هو حال صاحب القراءة المعاصرة في الكتاب والقرآن].

هؤلاء جميعاً خاضوا في القرآن على عماية، فلم يراعوا في فهمهم قوانين البلاغة، ولم يدخلوا إلى تفسيره من باب السنة الصحيحة، وحسبوا أنهم أرضوا ضمائرهم، وأنصفوا البحث الحر، والرأي الطليق.

ولولا أن الله قيض لهذا الدين رجالاً يدرسونه ببصائر تنفذ إلى لبابه، ويدفعهم الإيمان والإخلاص إلى أن يبعدوا عنه الخبائث، التي يُراد أن تُلصق به أو تنزل في

رحابه... لولا هذا لأصاب المسلمين من هؤلاء المضللين شرٌ مستطير، ولتج عن
أفكارهم وأهوائهم فتنة في الأرض وفساد كبير.

انحراف مدّعي التجديد في التفسير

مُنِيَ الإسلام في العصر الحديث بأناس، حَوَّزوا طرفاً مِنَ العلم، لم يبلغوا فيه مبلغه، فحاضوا غمار تفسير القرآن العظيم، وأرادوا أن يخرجوا إلى الناس بتفسيرات مُستجدة، خالفوا فيها المنهج الصحيح لتفسير القرآن الكريم، وخرجوا فيها عن قواعد التفسير وأصوله وضوابطه.

وكان من أولئك مَنْ يتصف إمّا بالغرور وعظمة التعلّم على أهل العلم، وإمّا بالفهم السقيم والأفكار الزائفة، وإمّا بدعوى التجديد، ولو كان فيه مخالفة لمنهج أهل العلم، ومجانبة لطريقة الأئمة المفسرين.

فمن هؤلاء مَنْ خرج بتفسيره عن أصول التفسير وقواعده وضوابطه. ومنهم مَنْ خالف في تفسيره منهج اللغة العربية، في بيان المعاني وإظهار المقاصد. ومنهم من تجاهل أو كان جاهلاً حقاً في الأحكام الشرعية، فضمن تفسيره أخطاءً فاحشة كانت ثمرة استتاجه واجتهاده المنحرف..

وسنختار في هذا البحث، نماذج من مناهج الانحراف، عند مدّعي التجديد في التفسير في هذا العصر نوضح من خلالها منشأ الانحراف في تفسيرهم للقرآن الكريم.

نشأة الانحراف عند مدّعي التجديد في التفسير:

يقول الدكتور محمد حسين الذهبي، رحمه الله تعالى:

«مُنِيَ الإسلام من زمن بعيد بأناس يكيدون له، ويعملون على هدمه بكل ما يستطيعون من وسائل الكيد وطرق الهدم، وكان من أهم الأبواب التي طرّقوها ليصلوا بها إلى نواياهم السيئة: تأويلهم للقرآن الكريم على وجوه غير صحيحة، تتنافى مع مافي القرآن من هداية، وتناقض ما هو عليه من مَحَجَّةٍ بيضاء، وتهدف إلى ماسوّله لهم أنفسهم من نَحْلٍ خاسرة واهواء».

«مُنِيَ الإسلام بهذا من أيامه الأولى، ومُنِيَ بمثل هذا في احدث عصوره، فظهر في هذا القرن أشخاص يتأولون القرآن على غير تأويله، ويلوونه إلى ما يُوافق شهواتهم،

ويقضي حاجات في نفوسهم؛ فأدخلوا في تفسير القرآن آراءً سخيّةً، ومزاعم باطلة، تقبلها بعضُ المخدوعين من العامة وأشباه العامة، ورفضها بكل إباءٍ مَنْ حفظ الله عليهم دينهم وعقولهم».

«ولقد اندفع هؤلاء النفر من المضللة، إلى مذهبوا إليه من أفهام زائفة في القرآن، بعوامل مختلفة؛ فمنهم من حسب أن التجديد، ولو بتحريف كتاب الله تعالى، سبب لظهوره وشهرته في المحيط العلمي، فذهب يُفسر كتاب الله تفسيراً لا تقرّه لغة القرآن، ولا يتفق مع قواعد الدين العامة».

«ومنهم مَنْ تلقى من العلم حظاً يسيراً، لا يرقى به إلى مستوى العلماء.. ولكنه اغترّ بما لديه، فحسب أنه بلغ مبلغ الراسخين في العلم، ونسي أنه قلّ في علم اللغة نصيبه، وخفّ في علم الشريعة وزنه، فراح ينظر في كتاب الله نظرة حُرّة لا تتقيّد بأي أصل من أصول التفسير، ثم اخذ يهذي بأفكارٍ فاسدة، تتنافى مع ما قرّره علماء اللغة وأئمة الدين، ولأول نظرة يتضح لمن يطلع عليها أنها لا تقوم على حُجّةٍ ولا ترتكز على دليل»^(١).

ولو أردنا استقصاء المناهج المنحرفة في تفسير القرآن الكريم في هذا العصر، لوجدناها متعدّدة ذات جوانب متفرعة، وسنقتصر في هذا البحث على ذكر اثنين منها، هي أشدّ انحرافاً من غيرها، وهي للتالية أسماؤهم:

١- الدكتور مصطفى محمود: في تفسيراته العصرية للقرآن الكريم.

٢- الشيخ أبو زيد الدمنهوري: في كتابه الهداية والعرفان في تفسير القرآن أمّا انحرافات الدكتور مصطفى محمود في تفسيره العصري، فيعود منشؤها إلى النقاط التالية:

أولاً تصويره أن القرآن الكريم، إذا لم يُقدّم للناس علوم الطب والتشريح والرياضيات والفلك، وأسرار البيولوجيا والإلكترون والذرة.. فليس صالحاً لزماننا، ولا جديراً بأن تسيغه عقليتنا العلمية، ويقبله منطقنا العصري.. بهذا الشكل يُصور القرآن باسم العصرية، ويُغري الناس بأن يرفضوا فهم القرآن كما فهمه الصحابة في مدرسة النبوة؛ ليفهموه من خلال تفسير عصري متطور.. مشحون بالكثير من بدع هذا الزمان..

(١) الاتجاهات المنحرفة في التفسير ٩١.

ثانياً: تفلته من قيود الآداب الإسلامية في التعبير في مجال التفسير، حيث وقع في أسر الانفعال، والرغبة في التعبير المتحلل من الألفاظ الرصينة الهادفة لأسمى المعاني، التي تليق أن يؤتى في تفسير كلام الله تعالى، فلم يَهْدَبَ عبارته بالتأديب مع كلام الله تعالى، كما لم يَهْدَبَ ألفاظه مع علماء الإسلام، فقدح بهم بما نقله عن لسان المتصوفة الرمزيين ..

ثالثاً: تمثله في كتابته بصورة المتلهف الظمان إلى آفاق روحية حديثة، مندفة اندفاع من أتخمه الشبغ المادي .. حتى أحسَّ بثقل أغلاله، فانطلق وراء سراي للخلاص، غير عابئ بأي شيء، فوقع في شطحات الصوفية النظرية الرمزية، كما وقع في تأويلات الباطنية.

رابعاً: ومن خلال ضجيج العصر الرنّان، يُقدّم تفسيره العصري في صورة المعجائب والغرائب، التي تبهر أبصار العامة، فلا تعود ترى الرؤية الصحيحة، التي تميز بين الحق والباطل، ولا تقدر أن تفصل بين منطق التفكير العلمي الصحيح، وبين جراءة الادعاء ...

هذه هي أهم الأسباب التي جعلت رجل العلم العصري، ينحرف نحو اتجاه يسلك به هاوية السقطات العلمية الحديثة ..

ويجدد بنا التنويه بالذين وقفوا في مجابهة انحرافات هذا الرجل - رجل العصر والعلم - فوضعوا زُرداً موقفة، في سبيل إحقاق الحق وإزهاق الباطل؛ دفاعاً عن كتاب الله العزيز، وهي:

١- عبد المتعال محمد جبري: «شطحات مصطفى محمود في تفسيراته العصرية للقرآن الكريم» طبع دار الاعتصام بمصر.

٢- الذكورة بنت الشاطيء: «القرآن الكريم والتفسير العصري» طبع دار المعارف بمصر.

٣- مصطفى إسماعيل الرّج: «رد على محاولة لفهم عصري للقرآن» طبع حلب، سوريا.

فقد قام هؤلاء - جزاهم الله تعالى خيراً - بواجب الدفاع عن القرآن الكريم، فردّوا عليه مفتدين مزاعمه، فاضحين انحرافه، موضحين خطره.

وأما انحرافات الشيخ أبي زيد الدمنهوري في كتابه: الهداية والعرفان في تفسير القرآن؛ فقد أحدث ضجةً كبرى في أوساط علماء الأزهر، حيث أنكروا عليه إنكاراً

شديداً، وبيّنوا انحرافه في تفسيره، وقد انتهى الأمر بمصادرة الكتاب ومنع قراءته، والحكم على صاحبه بالزيف والضلال.

وقد أتى انحراف صاحب هذا التفسير، على أشنع صور التحريف والتزييف لمعاني القرآن الكريم، فهو يخرج بتفسير الآية من القرآن، عن عُرف الشرع ومعاني اللغة.

وقد ذكر المرحوم الدكتور محمد حسين الذهبي، نماذج من انحرافات وتخرصاته في تفسير القرآن، في كتابه القيم: «الاتجاهات المنحرفة في التفسير» ص ٩٤-٩٦، أعرضنا عن ذكرها في هذا الكتاب، مكتفين بما ذكرناه منها في كتابنا «أصول التفسير».

وممن وقع في انحرافات خطيرة في التفسير الشيخ «محمد أديب حسون» في كتابه «التفسير المنير»، ففي ص ٢٠ من كتابه هذا، يقول في تفسير الأحرف المقطعة الواردة في أوائل السور: «ومعناها مفهوم عند النبي ﷺ وخاصة عباد الله، فهي رمزٌ بينه تعالى وبين خاصّة عباده، كإشارة البرق والبريد»، ففي قوله هذا من الفساد ما لا يخفى على كل ذي علم وبصيرة؛

أولاً: من أين علم أنها مفهومة عند النبي ﷺ ولم يرد عنه ﷺ شيء في خصوصها؟ فهذا رجم بالغيب وتقول بغير علم. ثانياً: زعمه أنّ هذه الأحرف مفهومة عند خاصّة عباد الله، وهذا زعم باطل، بدليل أنّ الصحابة - الذين كانوا من اخصّ خواصّ عباد الله - لم يخوضوا في تأويلها، بل كان إجماعهم على أنها من النوع الذي لا يُطلبُ تفسيره، وأنها «سرٌّ الله تعالى في القرآن». ثالثاً: تشبيه الفاسد لهذا السرّ الإلهي في القرآن بأنّه «رمز بينه تعالى وبين خاصّة عباده، كإشارة البرق والبريد»؟! وهذا من أفسد التشبيهات وأسوأها، حيث شبه «الأعلى» بالأدنى، وقاسّ الغائب اللامعلوم بإشارات البرق والبريد أي: بما يُسمّى بالمواصلات الهاتفية والبريدية - وهذا حاصل مع جميع الناس؛ مؤمنهم وكافرهم، وفاسدهم وصالحهم، فليست إشارات البرق والبريد تخصّ طبقةً مخصوصة من الناس، فهي ميسورة للجميع!! فجعلهُ سرّاً الله تعالى في القرآن العظيم الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه؛ كإشارات البرق والبريد التي يشترك باستعمالها جميع الناس؛ تقوّل في آيات الله بغير علم وتجرؤ عليها بجهل، وهذا يدل على عدم مهابة كلام الله تبارك وتعالى، وهذا من أشنع الصفات التي تُصيب أهل العلم الغافلين.

كما أن صاحب هذا التفسير قد وقع في تقليد المتقولين على الله تعالى من أصحاب المزاعم الباطلة والشطحات المخالفة للشرع، فنقل عن بعضهم في تفسير الآية الرابعة من سورة يوسف في /ص ٢٣-٢٤/ من كتابه «التفسير المنير»: وتجلّى الله تعالى على المرید الصادق بواسطة شيخه الكامل، غير تجلّيه له بانفراد مهما كان صادقاً، وتجلّى

الله تعالى للشيخ بواسطة مريده الصادق غير تجليّه بواسطة غيره.

وهذا من المغالطات الشيعة التي يثيرها أصحاب الرغبة في استزلام الناس، وجعلهم بين أيديهم كالأزلام يتصرفون بها كما يشاؤون ويُدبرونها كما يُريدون.

وليس في الإسلام هذه المعاني الكهنوتية التي تُعبّر عن الوساطة بين الخالق والمخلوق، وبين الربّ والمربوب، التي ابتدعها الكهان والرهبان في ديانتهم، وتقولوا بها بغير سلطان أتاها.

ومن شطحاته أيضاً قوله في تفسير الآية الرابعة من سورة يوسف: إن يوسف كان طُوراً ليعقوب يُناجي الله تعالى ويسمع منه بواسطة يوسف، فهو طور يعقوب، كما كان «جبل الطور» محلاً لمناجاة الله تعالى لموسى.

وهذا الشطط من القول مخالف كل المخالفة لمعاني القرآن الكريم وهديه وأحكامه.

ثم هو تقول على أنبياء الله تعالى بغير علم ولا هدى ولا بيان منير، فإنّ دلّ هذا القول على شيء، فإنما يدلّ على استخفاف مقام النبوة، فإنّ من المعلوم بالضرورة في العقيدة الإسلامية حرمة القول على أيّ نبيّ من الأنبياء، بالرأي والهوى وآلاً نصفهم إلا بما وصفهم الله تعالى به، وآلاً نقول فيهم إلا ما قاله الله تعالى فيهم.

نسأل الله تعالى العافية، ونعوذ به من القول في دينه وأنبيائه بغير علم ولا هدى.

انحراف أصحاب القراءة المعاصرة

للقرآن الكريم

كما وردت فيما أسموه بـ

«الكتائب والقرآن قراءة معاصرة»

تقومُ أبحاثُ هذا الكتاب المزعوم للدكتور محمد شحرور على أساس فلسفي جدلي، قد حُشدت فيها المغالطات حشداً، بحيثُ تجعلُ الباحثَ الناقدَ يمجُجُ في متاهاتها، كما تجعلُ المطلعَ عليها من المثقفين يتيه في ضلالٍ بعيد، وذلك لكثرة الأخطاء والمغالطات والأغلوطات والانحرافات والخرافات التي صوّرها صاحبها بصورة النظريات، وهي لاتعدو عن كونها وهميات سفسطائية.

وحقيقة هذه الأبحاث التي أفرحت أصحابها فيما يرمونه من تغيير معالم الإسلام وإبطال ثوابته من خلال الدراسات القرآنية المشبوهة؛ أن الباحث والدارس والفاحص فيها يجدُ كل شيءٍ من تصورات الأوهام وتخيلات الأباطيل بوفرة كبيرة بحيث يقلُّ حشدُ مثيلاتها في كتب المنحرفين والضالين في القديم؛ من أصحاب الاتجاهات المنحرفة من الأزارقة والجهمية والقدرية والمعتزلة والقرامطة، فهؤلاء على ما هم عليه من الضلال لم يبلغوا القدرَ الذي وصل إليها أصحابُ القراءة المعاصرة «في الكتاب والقرآن»، وكما يندرُ حشدُ مثيلاتها في كتب المستشرقين والمبشرين الصليبيين!...

وقد أصبحت هذه المقولة في حق هذا الكتاب المزعوم «تجدُ فيه كلَّ شيءٍ من الخطأ، ويندرُ فيه القليلُ من الصواب» حاشا الآيات القرآنية التي سيقَّت في غير مناسباتها، ودُكرت في غير مقاصدها، بحيث تُفَعَّم في الاستشهاد بها قحماً.

وقديماً كانَ الفلاسفةُ والمناطقَةُ أجهلُ الناسِ الإلهيات والنّبوات والشرعيات التي

جاء بها الأنبياء!! وحديثاً الفلاسفة هم أبعدُ الناس عن العلوم الشرعية وثوابتها وضوابطها ومناهجها!! فما ظنُّ أهل الحق في مقولة «القراءة المعاصرة» «أن الفلسفة أمُّ العلوم قاطبة»؟! فلا غرو أن أصحاب العلوم النظرية والتجريبية لا يقبلونها ولا يُصدّقونها ولا يرضون بها!!..

ونحن في هذا البحث من الفصل السابع في «أخطار المناهج المنحرفة في تفسير القرآن الكريم» سنذكر جملةً من كبريات الأغلوطات الواردة في هذا الكتاب المزعوم. وحين نقول «كبريات الأغلوطات» لانستعين بالأغلوطات الصُغرى الواردة فيه، فالباطلُ باطلٌ إن كانت قضيته كبرى أم كانت قضيته صُغرى، لافترق البتة!!..

١- أغلوطته: أن «الفلسفة أم العلوم»:

زعم صاحب القراءة المعاصرة في ص ٣٢: «فإنه ليس من العبث تسمية الفلسفة بأم العلوم قاطبة» هذا زعم باطلٌ، فإنَّ الفلسفة من حيث «الحكمة» لم تكن أم العلوم، لكونها نتاج تجاربٍ حياتية تتفاوت بين فيلسوف وفيلسوف. ومن حيث هي «البحث في الطبيعيات» فما كان سائداً في ذلك الوقت من معارف فالיום غير مسلّم به.. ومن حيث هي «البحث في الإلهيات» فهي في هذا الجانب لم تقدّم سوى الوهميات، ولم يكن الفلاسفة فيما مضى على مدى التاريخ متفقين إلى مذهبوا إليه في حكم على عالم الغيب أو البحث عن ذات الله الخالق سبحانه وتعالى. ومن الفلاسفة - قديماً - ذهب إلى تقدّيس الكواكب وعبادتها، وحديثاً من يقدّس «الطبيعة» ويهبها كل الخوارق والمعجزات.

فليست الفلسفة بأم العلوم، بل المقبول منها والصحيح فيها هو من مواليد العلوم.

٢- أغلوطته: أن «الحضارة الإسلامية لا يوجد لها ثمار»:

زعم في قوله ص ٣٤: «إذا نظرنا إلى الحضارة العربية الإسلامية في الوقت الحاضر، نرى فيها عنصر الجذور متوفراً، ولكن لا ثمار، لأنها جفت ونضبت... حتى إن أفكار التراث استهلكت ونضبت».

وهذا الزعم لا يصدر إلا من جاهل غارق في جهله فيما تحمله الحضارة الإسلامية من حقائق سامية وأصول راسخة لإغناء الحياة البشرية بالفكر والعطاء والازدهار والسعادة والهناء والأمن والاستقرار!!..

٣- أغلوطته: أن «الإسلام في عهد النبوة هو التفاعل والاحتمال الأول للإسلام»:

زعم في ص ٣٦: «أن ما حدث في القرن السابع في شبه جزيرة العرب هو تفاعل

الناس في ذلك الزمان والمكان مع الكتاب [أي القرآن] وهذا التفاعل هو الاحتمال الأول للإسلام... وقد كان هذا التفاعل إنسانياً في محتواه «إسلامياً» قومياً في مظهره... وقد قام النبي ﷺ بهذا التفاعل الأول، وفي ص ٣٨: «وقد طبقها النبي ﷺ حسب الظروف الموضوعية لشبه جزيرة العرب، حيث أن التشريع قابل للتطور وقابل للإلغاء والاستبدال ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ﴾ [سورة الرعد آية ٣٩].

فهذه الأغلوطة ذات أغاليط كثيرة وفاحشة:

١- لم يكن فهم الإسلام في عهد النبوة هو تفاعل الناس في ذلك الزمان [القرن السابع الميلادي] فهذه المقولة كذبٌ بكذب، بل كان هو الفهم الصحيح الراسخ الثابت، فلم يكن هو الاحتمال الأول للإسلام، وإنما هو الحقيقة الثابتة والدائمة - رغم أنف أعداء الإسلام - أبد الدهر والحياة!!

٢- لم يكن الإسلام قومياً في مظهره... بل كان للناس كافةً.

٣- ولن يصح اعتبار ما قام به النبي ﷺ حسب الظروف الموضوعية لشبه جزيرة العرب، فهذه مقالة قد أغرقت بالتضليل والتشغب الذي يُدندن حوله الكثيرون من أهل الغرب «في أن الإسلام الذي يفهمه المسلمون في كل زمان ومكان، كان صالحاً للقرن السابع الميلادي ولشبه الجزيرة العربية» أي هو غير مُؤاتٍ وغير صالح للقرن العشرين، فهذه المقولة الخاطئة الظالمة ليست جديدة قد أبدعها صاحب القراءة المعاصرة، وإنما هي مقولة أعداء الإسلام في هذا الزمان!..؟

٤- عدم الإقرار بما جاء به رسول الله ﷺ من البيانات النبوية لمعاني القرآن وهذا تنكّرٌ فاضح للسنّة النبوية التي هي المصدر الثاني من مصادر التشريع الإسلامي بعد القرآن الكريم.

٥- الزعم بأن التشريع قابل للتطور وقابل للإلغاء والاستبدال، كذبٌ باطلٌ، والاستشهاد عليه بالآية الكريمة بُهْتٌ وزُورٌ. ومن له أذنٌ معرفة بالإسلام لا يصدر عنه مثل هذا البهتان.

٤- أغلوطته: أن «الجدل المادي» «التطور» في القرآن:

زعم في ص ٤٠: «أن قوانين الجدل المادي وتغير الصيرورة «التطور» هي العمود الفقري لقوانين الوجود في القرآن «النبوة».

فهذا غاية الضلال حيث أقحمت المفاهيم المادية المتغيرة والمتبدلة في كل زمان ومكان، على ثوابت الإسلام في أخص خصائصه في «النبوة» و «القرآن» إقحاماً بلا

أدنى مسكة من علم أو معرفة بأصول الإسلام!؟..

٥- أغلوطته: أن «القرآن مع الفلسفة»:

زعم في ص ٤٣ بقوله: «لا يُوحد تناقض بين ماجاء في القرآن وبين الفلسفة التي هي أم العلوم».

وهذا الزعم في غاية البطلان، وهو أشبه بقول من لا يعرف ماهو القرآن، ولا يعرف ماهي الفلسفة!! ومتى كان الفلاسفة يتصورون للقرآن؟! إن عامة ماجاء به الفلاسفة مناقض للقرآن، فهم أجهل الناس بالأنبياء والوحي، فحظهم من ذلك مبخوس جداً، فهم لم يتكلموا عن الملائكة والكتب السماوية والرسول، فهم لا يعرفون عن ذلك شيئاً البتة، وإنما تكلم في ذلك متأخروهم الداخلون في الملل. وإذا نُظر في كلام معلمهم الأول «أرسطو» وتدبرة العاقل الفاضل لم يُقَدْ إلا العلم بأنهم كانوا من أجهل الخلق برّب العالمين.

٦- أغلوطته: أن هناك «كتاب المشي وكتاب النوم وكتاب الصلاة»:

زعم في ص ٥٣ بقوله: «فأعمال الإنسان كلها كُتِبَ: ككتاب المشي، وكتاب النوم، وكتاب الزواج، وعبادته كُتِبَ: ككتاب الصلاة والحج والزكاة والصوم، وظواهر الطبيعة كلها كُتِبَ، ككتاب خلق الكون، وكتاب خلق الإنسان، وكتاب الموت، وكتاب الحياة، وكتاب النصر، وكتاب الهزيمة، وكتاب الزراعة، وكتاب الأنعام»..

فهذا التصنيف والتقسيم في غاية السذاجة العقيمة، وكأنّ هذا الكلام موجهٌ إلى العجاواات التي يُراد تثقيفها لتغدو بين مثيلاتها طبقة متميزة!؟..

وهل في هذا الكون مَنْ رأى - بالطبع غير صاحب هذه المقالة - كتاباً هو «كتاب المشي»؟! وكتاباً هو «كتاب النوم»؟! وكتاباً هو «كتاب الموت» و «كتاب الهزيمة» و «كتاب الأنعام»؟!.. مَنْ يصدق بهذا الهراء!؟..

٧- أغلوطته: أن «الحق شيء والكتاب شيء آخر»:

زعم في ص ٥٧: «ونلاحظ أنه في سورة «الرعد» عطفَ الحقَّ على الكتاب، فهذا يعني أن الحقَّ شيء والكتاب شيء آخر، أو أن الحقَّ هو جزء من الكتاب، وليس كل الكتاب».

فهذا الزعم الجدلي السفساطائي المراد به إثارة القلق حول قدسية «الكتاب الكريم» وإثارة الشبهات حول بعض قضاياها بداعي أن الحق ليس هو كل الكتاب، وليس الكتاب هو كل الحق، فالنتيجة «الباطلة» أن في الكتاب مالم يس بحق!؟!.. فأني انحراف

فكري هذا الذي بلغه هذا المبلغ في جدله الباطل؟! ..

٨- أغلوطته: أن «آيات الإرث ليست من كلام الله .. آيات الرسالة ليست حقاً .. الله لا يعلم نفسه...»:

زعم في ص ٣٧ وص ٧٨: «فإذا سأل سائل: هل آية الإرث من القرآن؟ فالجواب: لا، هي ليست من القرآن» وفي ص ٥٨: «.. في الكتاب توجد الآيات المحكمات «آيات الرسالة» وهي ليست حقاً». وفيها: «إن الله مطلق ومعلوماته مطلقة .. والله ليس بحاجة إلى أن يعلم نفسه أو يهدي نفسه؟! ..»

فنفي آية الإرث من القرآن في غاية الإلحاد في آيات الله تعالى، والعياذ بالله تعالى من الضلال والإضلال؟! ..

وكذلك الزعم «بأن آيات الرسالة ليست حقاً» في غاية «الأبلسة» التي يُوسوس بها إبليس اللعين؟! ..

وكذلك الزعم «بأن الله ليس بحاجة إلى أن يُعلم نفسه أو يهدي نفسه لأنه مطلق ومعلوماته مطلقة؟! ..» هو في غاية الشيطنة الجدلية في ذات الله تعالى، فهل في هذه التسمية المفتعلة المصطنعة سوى التجرؤ على الله تعالى؟! .. والعياذ بالله من ذلك ..

ومثل هذه المزاعم الباطلة مافي الأغلطة التالية:

٩- أغلوطته: أن «الله ليس عربياً ولا تركياً ولا ..»:

زعم في ص ٦٢: «وبما أن الله سبحانه وتعالى منزّه عن الجنس فهو ليس عربياً ولا تركياً ولا .. ولكن قد جاء النص من الله أن الإنزال عربي. فهذه الصيغة للكتاب التي بين أيدينا وهي صيغة عربية محدثة بلسان إنساني وغير قديمة، وذلك ليذكر بها القرآن من الناس».

فهذا الزعم السفاسطي على مافيه من تقوّل على الله تعالى بأنه ليس عربياً ولا تركياً ولا .. ولا .. ففيه من الباطل كأمثال الجبال التي تبلغ قممها إلى نفي أن يكون القرآن هو كلام الله تعالى، بزعم أن القرآن عربي فلو كان كلام الله لكان الله عربياً؛ فالنتيجة «الباطلة» القرآن ليس كلام الله لأن صيغته عربية وهي صيغة محدثة بلسان إنساني وغير قديم؟! وهنا تساؤلٌ وارِدٌ على هذه المقدمة الإبلسية ذات النتيجة الشيطانية: مَنْ هو المستفيد من إثارة هذه الأغاليط حول قدسية القرآن العظيم؟ جوابها وارِدٌ بديهية في عقل كل مؤمن غيرٍ على كتاب الله تعالى: «المستفيد من إثارة هذه الأباطيل جميع الكافرين الذين لا يؤمنون بكتاب ولا يصدّقون بكلماته التي أودعها في قرآنه!!».

١٠- أغلوطته: أن «اليهود «بنو إسرائيل» هم أصحاب الصراط المستقيم»:

زعم في ص ٦٦: «لقد ورد في سورة فاتحة الكتاب ﴿اهدنا الصراط المستقيم﴾ [الفاتحة ٤] وحَّد هذا الصراط في قوله: ﴿صراط الذين أنعمت عليهم﴾ فمن هؤلاء الذين أنعم الله عليهم، وجاءهم الصراط المستقيم لأول مرة؟ إن الناس الذين أنعم الله عليهم بالصراط المستقيم لأول مرة هم بنو إسرائيل: .»

فهذا الزعم الباطل الذي يعطي «اليهود» قدسية قرآنية جاءت في الفاتحة التي يتلوها المسلمون في كل ركعة من صلواتهم - والتي لاتصح الصلاة بغيرها - من أنها تُعَلِّي من شأن «بنو إسرائيل» فيما تحمله من أمر المسلمين أن يكونوا على هُداهم فهم أصحاب الصراط المستقيم، والذي يعلمه المسلمون قاطبة أن الذين أنعم الله عليهم في هذه الآية الكريمة من سورة الفاتحة قد يبتهم الله في قوله سبحانه في سورة (النساء آية ٦٩) ﴿فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين﴾ وفي سورة (المائدة آية ٥٨) ﴿أولئك الذين أنعم الله عليهم من النبيين من ذُرِّيَةِ آدَمَ﴾ فالذين أنعم الله عليهم هم هؤلاء، فلم تجَاهلهم والانصاف إلى أنهم هم بنو إسرائيل؟ والأنبياء كانوا أسبق في الوجود من بني إسرائيل؟

والثابت عن رسول الله ﷺ أن المغضوب عليهم (في سورة الفاتحة) هم اليهود، واليهود اليوم وقبل اليوم هم الذين يزعمون بأنهم هم بنو إسرائيل مع أن أنسابهم قد ضاعت وتلاشت في إباحتهم للزنا، فمن يصدق منهم بأنه إسرائيلي؟! وعلى فرض ثبوت هذا النسب المزعوم؛ هل المطلوب من المسلمين الاهتداء بمن ثبت نسبُه أنه من بني إسرائيل؟ لأنهم هم الذين أنعم الله عليهم بالصراط المستقيم لأول مرة؟! ومن يقول إن بني إسرائيل كانوا على الصراط المستقيم، والقرآن الكريم أثبت كفرهم وطغيانهم وتمردهم على أنبيائهم وتحريفهم لكلام الله، وقتلهم الأنبياء، وأكلهم الرِّبَا والأموال بالباطل، وهم اليوم يعيشون في الأرض بغياً وفساداً وضلالاً، فهؤلاء الأشرار الفجار في نظر «صاحب القراءة المعاصرة» هم أصحاب الصراط المستقيم الذين كانوا أول من أنعم الله عليهم؟! ليكونوا القدوة للمسلمين؟؟!!...

فأيُّ بهتان بلغ به هذا الكذب هذا المبلغ الفاحش من التحريف لكلام الله تعالى؟؟!!...

١١- أغلوطته أن: «الله أحادي في الكيف.. وواحد في الكم..»:

زعم في ص ٧٢: «إن الله تعالى أحادي في الكيف.. وواحد في الكم.. وأن الله

ليس حريياً ولا انكليزياً.. وأن الوجود المادي «الموضوعي» ونواميسه العامة هي عين كلمات الله، وكلمات الله هي عين الوجود ونواميسه العامة» كما يزعم في مقدمة هذا الافتتاح على الله تعالى وعلى كلماته فيقول: «لو كان النص القرآني المتلو أو المكتوب الموجود بين أيدينا هو عين كلام الله فهذا يعني أن الله له جنس وجنسه عربي، وأن كلام الله ككلام الإنسان يقوم على علاقة دالٍ ومدلول..» وهذا الزعم المركب ظاهر البطلان ابتداءً من إطلاق «الأحادي في الكيف والواحد في الكم» على ذات الله تعالى: والله تعالى لا يُسمى إلا بما سُمي به نفسه في القرآن، ووصولاً إلى أن القرآن ليس كلام الله، فالمقدمة التي دخل بها باطله، والنتيجة التي خرج بها مكذوبة خاطئة، تعالى الله عما يصفه المبطلون علواً كبيراً، وتعالى كلامه الحكيم عما يصفه الكاذبون علواً كبيراً!!..

١٢- أغلوطته أن: «القرآن الذي أنزل في رمضان ليس هو القرآن المجيد»:

زعم في ص ٧٣ فقال: «القرآن الحكيم هو القرآن العظيم نفسه، وهو الذي أنزل في رمضان، وليست عبارة «قرآن مجيد» هي بالضرورة (القرآن العظيم) لكنها من جنسه، وتعني جزءاً منه لا كله».

فهذا الزعم قمة السفسطة الجدلية العقيمة القائمة على التوهم والتخيل!!..؟

١٣- أغلوطته أن: «القرآن من قرن القانون العام مع القانون الخاص»:

زعم في ص ٧٧ بقوله: «وسُمي [القرآن] قرآنًا لأنه قرَن القانون العام للوجود مع القانون الخاص، مع خط تطورٍ سُيرَ التاريخ الإنساني».

فهذا الزعم أيضاً من عجائب الجدلية المادية التي أقحمها صاحب القراءة المعاصرة على القرآن العظيم إقحاماً بلا أدنى مَسْكِةٍ من فهم أو إثارة من علم!!..؟

أغلوطته أن: «القرآن المجيد هو القوانين العامة النازمة للوجود»:

زعم في ص ٧٤ في تفسير قول الله تعالى في سورة البروج آية ٥١- ٥٢ «بل هو قرآنٌ مجيدٌ. في لوحٍ محفوظٍ»: أن «هذا الجزء هو القوانين العامة النازمة للوجود كله ابتداءً من خلق الكون (الانفجار الكوني الأول) وفيه قوانين التطور «الموت الحق» وتغيير الصيرورة «التسيب».

وفي ص ٧٨ زعم «أن كلمات الله هي عين الموجودات ونواميسها العامة والخاصة حين وقوعها...» وفي ص ٧٤: «إن كلمات الله هي عين الموجودات، أي الأشياء...»

وفي ص ٧٤ عن اللوح المحفوظ: «وفي اللوح المحفوظ يوجد القانون الصارم لهذا الوجود».

فهذه السفسة العقيمة التي اتخذها صاحب القراءة المعاصرة مدخلاً لتقسيماته وتفريداته يستعني عنها الجهلاء، ويمقتها العلماء، ويكرهها الفضلاء، فلم هذا العبث الغاشم في كتاب الله تعالى وآياته؟!..

١٥- أغلوطته أن: «القرآن المتغير: الإمام المبين»:

زعم في ص ٧٤ فقال: «الجزؤ المتغير من القرآن.. هذا الجزء عبر عنه بأنه مأخوذ من إمام مبين.. فالإمام المبين يحتوي على شقين: أحداث وقوانين الطبيعة الجزئية: مثل تصريف الرياح واختلاف الألوان»، «آيات الله تختص بظواهر الطبيعة.. وهذه الأحداث ليست مبرمجة سلفاً «أي في الكتاب المبين» وليست قديمة».

والنوع الثاني من الإمام المبين: «أفعال الإنسان الواعية، وهو مانسميه القصص.. وهي تتبع أفعال الإنسان المسجلة عليه بعد وقوعها، يتم في (إمام مبين) ليميزه عن (لوح محفوظ) وفي ص ٧٦: «القصص وظواهر الطبيعة كتاب مبين» «إن كليهما أوحى من الإمام المبين، وليست من اللوح المحفوظ».

فهذه المزاعم المتخيلة المختلفة في القراءة المعاصرة من أوام الضلالة التي تُفرك صاحبها في أحوال من الأراجيف على القرآن الكريم، وهي ليست غريبة عن المتفاعلين مع الفلسفة الجدلية المادية الذين ينظرون إلى القرآن نظرة مادية تجعلهم يتزلقون في التصورات الوهمية والأساطير الخيالية.

والمقصود من هذا السفسة الجدلية نزع الثابت عن الحقائق القرآنية - وهذا حتماً غير كائن - وبالتالي جعل القرآن مادة مادية قابلة للتطور وفق الجدلية المادية، وهذا من المستحيل وجوده.

١٦- أغلوطته أن: «الإعجاز في القرآن وليس في أم الكتاب»:

زعم في ص ٧٧ فقال: «نرى أن الإعجاز جاء في القرآن فقط، وليس في أم الكتاب، إذ أن أم الكتاب ذاتية..».

وهذا الزعم ظاهر البطلان لنفي الإعجاز عن أم الكتاب، وأم الكتاب هي الآيات المحكمات، كما في قوله تعالى في سورة آل عمران آية ٧: ﴿منه - أي القرآن - آيات محكمات هن أم الكتاب.﴾، فالتفريق بين القرآن وأم الكتاب من السفسة الباطلة.

١٧- أغلوطته أن: «القرآن هو القوانين المطلقة للوجود»:

زعم في ص ٨٩ فقال: «القرآن وفيه كلام الله، قوله الحق، الذي هو القوانين المطلقة للوجود» وفي ص ٩١: «القرآن كتاب الوجود المادي والتاريخي، لذا فإنه لا يحتوي على الأخلاق ولا التقوى».

ويطّان هذا الزعم ظاهر لا يعوز الدحض لعدم قيامه على الحقيقة. ومؤداه جعل القرآن كتاباً مادياً، وهذا باطل قطعاً، فالقرآن الكريم كما هو معلوم بالضرورة أنه كلام الله تعالى أتى بحقائق الإسلام والإيمان والعقيدة والشريعة قد أتى أيضاً بالأخلاق والتقوى. وانظر إلى مايلي من مقولات الجدلية المادية في القرآن العظيم:

١٨- أغلوطته في: «فصل القرآن عن السلف لكونه كتاب الوجود المادي»:

زعم في ص ٩١ فقال: «القرآن كتاب الوجود المادي والتاريخي» و «إننا في القرآن والسبع المثاني غير مقيدين بأي شيء» قاله السلف.

فظاهره الحقد على السلف الصالح رضي الله تعالى عنهم وذلك يفوح من هذه الكلمات الخاطئة، وهي ليست غريبة عن انسلخ عن أصالة الإسلام، وتكرّر لمن فتح البلاد بعد فتح قلوب العباد بهداية القرآن وسنة النبي عليه الصلاة والسلام، وهم الصحابة الأمجاد وتابعوهم بإحسان.

١٩- أغلوطته في: «تحريف معنى العرش والكرسي»:

زعم في ص ١٦٤ - ١٦٥ في تفسيره للعرش بأنه «الأمر والنهي» وزعم في قوله تعالى «وكانَ عرشُهُ على الماء» الهيدروجين «مولد الماء».. كان أمر الله على مولد الماء.. ١٢.. وزعم في قوله تعالى: «وسع كرسيه السّمواتِ والأرضَ» فالكرسي هنا من الكرّاسة، لا الكرسي الذي يجلس عليه الإنسان. فها هنا نفهم «وسع كرسيه» أي وسع علمه كل الموجودات، وذلك لكي يأمر وينهى. ويُفسّر الكرسي أولاً فيزعم «الكرسي جاء من «كُرسٍ» فتقول: كُرسْتُ وقتي لهذا العمل.. ومن هنا جاءت الكرّاسة والكرسي، والكرّاسة هي ما يدوّن عليها معلومات ما..».

فهذا التأويل الباطل للعرش والكرسي هو بأم عينه فيما ذهب إليه الجهمية الضالّون قديماً.

فالبحث العلمي يوجب على صاحبه أن لا يتقول بشيء لآساس له من الصحة، فهل صاحب القراءة المعاصر قد وقف على حقيقة العرش والكرسي حتى يزعم هذا الزعم؟

أم هو القول في آيات الله تعالى بغير هدى ولا كتاب منير؟! ..

٢٠- أغلوطته أن: «علماء الإسلام لم يقدّموا سوى الوهم»:

زعم في ص ١٨١ فقال: «إن هؤلاء العلماء الرّبّانيين ماذا قدموا للناس؟ وبأي شيء أفادوا الناس؟ الجواب: لا شيء سوى الوهم» هكذا ينظر إلى علماء الإسلام! ..

في حين يعظم علماء الغرب فيزعم في قوله: «أمّا العلماء الرّبّانيّون الحقيقيون فقد قدّموا للناس البنج والمحرك البخاري والعمليات الجراحية والأدوية ووسائل الاتصال... وكل ماتعم به الإنسانية من نعيم من نتاج هؤلاء العلماء الرّبّانيين». وهو يتغافل عمّا قدمه العلماء المسلمون من إبداعات شهد لها جميع العقلاء ..

٢١- أغلوطته في أن زعمه: «الراسخون في العلم هم علماء الطبيعة والفلاسفة»:

زعم في ص ١٨٣ و ١٩٢ و ١٩٣ و ١٩٤ في تفسير قوله تعالى: «والراسخون في العلم» (سورة آل عمران آية ٧): «يجب أن نفهم أنّ الراسخين في العلم هم مجموعة كبار الفلاسفة وعلماء الطبيعة وأصل الإنسان وأصل الكون وعلماء الفضاء وعلماء التاريخ مجتمعين...»، «فالراسخون في العلم هم من الناس الذين يحتلون مكان الصدارة بين العلماء والفلاسفة، وهؤلاء أمثال... إسحاق نيوتن، أينشتاين، تشارلز داروين [صاحب نظرية الفرد- الإنسان] كانت، هيجل».

هكذا يذهب في قراءته المعاصرة «في الكتاب والقرآن» إلى تعظيم غير المسلمين، والتنكر لعلماء الإسلام الذين يجهل مكائهم وماقدموه في سبيل الإسلام ونفع المسلمين كلّ الجهل، أو هو يتجاهلهم إرضاء لمن يكرهونهم من أعداء الحق والعلم والخير والفضيلة.

وفي ختام هذا البحث لابدّ من القول في هذا الكتاب الذي حشده واضعوه وأظهروه باسم المزعوم «محمد شحرور» تحت غطاء «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة» المئات من الأغاليط التي زرعوها في صفحاته، وساقوا إليها الآيات القرآنية سوقاً بلا ضابط ولا رابط، فلا تخلو صفحة منه من الأغلوطات الجدلية السفسطائية المعروفة بـ «الحكمة المموهة» ذات المقدمات المغلوطة والنتائج الخاطئة التي تُربك المطلع عليها. ولذا ننصح بعدم قراءته حفاظاً على العقيدة والإيمان من أن تشوّهها شبهات هذه الضلالات المنشورة على تلك الصفحات التي شوّدت في التاريخ الأسود للمنحرفين عن طريق المتّقين والصّالحين والصّادقين من العلماء العاملين.

وبهذه الإشارات إلى تلك الاغلوطات مع ماقدمته فيما سبق من المقدمات أكون قد قمتُ
باليسير القليل في الدفاع عن كتاب الله تبارك وتعالى، فاللَّهُمَّ اجعله عندك مقبولا
ولعبادك نافعا وبالله التوفيق لما يحبه ويرضاه.

معالم الانحراف في فهم القرآن والإسلام

أسباب الانحراف: (١)

إن أسباب الانحراف في فهم الإسلام تأتي من فئتين من الناس هم العلماء والعامة. ولاشك أن الانحراف الذي يتسبب به العلماء أشد خطراً من ذلك الذي يحدثه العامة، لأن انحراف العامة يُصَحَّح، أما انحراف العلماء فإنه يتَّبَع على أنه هدى ودين. وتحريف اليهودية والنصرانية كان معظمه من الرهبان والأخبار.

وفيما يلي عرض لأهم الأسباب التي نشأ عنها نوع الانحراف الخاص بالإسلام، والذي سيتبين لنا من خلال البحث أنه ليس تحريفاً بالمعنى الصحيح، ولا بالطريقة التي وقعت في الأديان الأخرى.

١- انحراف العلماء، وهذا الانحراف يأخذ اتجاهين:

أولاً: عدم كفاءة أهل العلم الشرعي، وهذه ناحية علمية بحثة لها مظاهر منها:

أ- ضعف التحصيل العلمي عندهم وعدم زيادته، لقلة القراءة والدراسة، مما أدى إلى تولي أناس غير مؤهلين وغير أكفاء لمناصب التعليم والتدريس الشرعي والخطابة والوعظ، قال ﷺ «إن من أشراط الساعة أن يرفع العلم ويظهر الجهل...» (٢)، وقال عليه السلام «لا تقوم الساعة حتى يقبض العلم...» (٣).

ب - عدم اعتماد المراجع والمصادر الأصلية، فلا ينون علومهم على الأصلين وهما الكتاب والسنة، وبعضهم يعتمد الفقه والفقه فحسب، وآخرون يأخذون العلم من غير مصادره ابتداءً، فيأخذونه من كتب التاريخ والأدب مثلاً!!

(١) معالم الهدى إلى فهم الإسلام ص ١٦١ / للدكتور مروان إبراهيم القيسي / ط ١ / المكتبة الإسلامية - عمان / بتصرف يسير.

(٢) أخرجه البخاري ومسلم في صحيحهما / صحيح الجامع الصغير وزيادته / ٢٢٠٢ / .

(٣) أخرجه البخاري وأحمد وابن ماجه / صحيح الجامع الصغير وزيادته / ٧٣٠٥ / .

ثانياً: الانحراف الناتج عن البواعث والدواعي الفاسدة التي تحمل أصحابها على التأويلات الباطلة للقيم الإسلامية وتشويه التصور الإسلامي الصحيح كما ورد في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ. وفي مقدمة هذه الدواعي:

أ - طلب رضا السلطة السياسية لتحقيق مركز نفوذ أو رفع مستوى مادي.
ب - الانتصار لرأي حزب ديني أو جماعة، فيعمد بعض المتسبين للعلم إلى التأويلات الفاسدة للنصوص الدينية لدعم رأي معين.
ولقد أصاب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذ قال «يهدم الإسلام زلة العالم وجدال المنافق بالكتاب وحكم الأئمة المضلين»^(١).

٢- دخول أناس جدد في الإسلام من أمم شتى وأديان مختلفة. وحيث أن الأديان السابقة تظل تمارس تأثيراً أو نفوذاً ما، فإن ذلك قد يمتد تأثيره على الدين الجديد، بأن يتقل الداخلون إليه من تلك الأديان عناصر معينة تحت ضغط التأثير النفسي لاعن قصد سيء، ولذا يجب التنبيه لهؤلاء الداخلين الجدد في الإسلام وصهرهم في بوتقة الدين في أسرع وقت، ولاشك أن القصد السيء، قد يكون من بعضهم فيحاول أن يفسد الدين الذي تظاهر باعتناقه (الإسلام). غير أن هناك أسباباً أخرى عند بعضهم وهي عن غير قصد، منها: الفهم الناقص للإسلام أو التأثير المستمر للدين السابق مما يدفع به إلى محاولة التوفيق بين دينه الأول والإسلام في أوجه معينة، أو أنه يميل لشيء في دينه فيحاول أن يجد له دليلاً في الإسلام ولو من وجه ضعيف.

٣- الملازمة بين الفكر الدخيل والإسلام:

فقد تأخر المسلمون بالثقافات الأجنبية الأخرى مما أدى إلى تسرب الفكر الأجنبي: الوثني (الإغريقي أو المصري) والديني الشرقي البوذي، البرهمي، الزرادشتي المانوي، المسيحي، اليهودي، الفلسفي اليوناني. وهذا التسرب خلق ما يأتي:

أ- المذاهب الفلسفية التي منها:

١- الاتجاه الفلسفي الطبيعي الذي يمثله أبو بكر الرازي.

٢- الاتجاه الفلسفي لما بعد الطبيعة الذي يمثله ابن سينا في المشرق، وابن رشد في المغرب.

(١) أخرجه الدارمي في سننه ج ١/ ٧١/ وصححه الشيخ محمد ناصر الدين الألباني في المشكاة ج ١/ ٨٩/.

٣- الاتجاه الفلسفي الاشراقي الذي يمثلهُ الشُّهرُورُزدي المقتول.

ب - كما ساعد الفكر الأجنبي الدخيل على نشأة:

١- التصوف الزهدي الذي يمثلهُ الحارث المحاسبي.

٢- التصوف الفلسفي الذي يمثلهُ الغزالي.

٣- التصوف الهندي المسيحي الأفلاطوني الحديث الذي يمثلهُ ابن عربي وابن سبعين والحلاج.

لقد ركزت المعتزلة على الفلسفة اليونانية، يقول الأستاذ أنور الجندي بهذا الخصوص «فإنها كانت المحاولة الكبرى لإخراج الإسلام عن جوهره وإذابته ودفعه إلى نفوذ الفلسفة اليونانية لتغالبه بعد أن اغتالت اليهودية والمسيحية من قبل»^(١) ويقول المؤلف نفسه في موضع آخر من كتابه: «ولربما اشاد المستشرقون بالمعتزلة من أجل اتصال مذهبهم بالفلسفة اليونانية وكان لهم مطمع ان تأكل الفلسفة اليونانية الإسلام»^(٢).

على أن من أبرز الدوائر الإسلامية التي تأثرت بالثقافات والديانات الأخرى هي دوائر التصوف. فقد قبل التصوف الإسلامي عقائد وأفكاراً ترجع إلى المسيحية والأفلاطونية الحديثة والبرهمية وبعض الديانات الفارسية القديمة.

٤- دعوى الدليل العقلي وتقديس العقل.

وقد سرت هذه النزعة بين الكثير من المسلمين، فظنوا خطأ أنها من الإسلام.

ولاريب أن الإسلام أعطى العقل مكانة مميزة، لكن ليس إلى الحد الذي وصل إليه بعضهم متمثلاً فيما يأتي:

أ- إخضاع الدين للعقل وجعل الأخير مقياساً للدين وحكماً عليه. فما يقبله العقل مقبول وما ينكره العقل مرفوض. بحيث يتم تجريد الإسلام من دليله النقلي وتفريغه في مضمون عقلي فلسفي. فمن هؤلاء قديماً الأشاعرة وكثير غيرهم من المتكلمين قدموا العقل وأولوا النصوص تبعاً له. والمعتزلة لم يكتفوا بذلك أيضاً بل إنهم حاولوا إعلاء العقل وحده وأسرفوا في ذلك حتى كادوا أن يخرجوا عن الاتجاه الإسلامي العام. وقد اتسم ذلك بالغلو في التأويل مما أدى إلى تصورات منحرفة عن الحقائق القرآنية

(١) شبهات في الفكر الإسلامي: أنور الجندي/ص ٤٠/ ط دار الإعتصام - القاهرة.

(٢) شبهات في الفكر الإسلامي/ص ٤٥/.

ومخالفة للأصول الصحيحة في الإسلام .

ب - جعل العقل أساساً للتشريع وبناء أحكام شرعية جديدة على أساس ما يظن أنه مقصود الشارع ولا شك أن الشارع يبين الحكمة أحياناً من بعض الأحكام، لكن الحكمة ليست فقصوص الشارع كله، فالعقل غير قادر على الإحاطة المطلقة بالحقائق التي أوردتها الدين وأسرارها.

٥- التهاون في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتبليغ الدعوة .

ويحصل ذلك بأن لانتهم الأمة في فترة من الزمان بأمر الدين والأخذ بتشريعاته، ويتهاون الناس في واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فتتشأ بالتدرج عادات وقيم لانتم للإسلام بصلة، ويزداد الأمر خطورة مع مرور السنين حينما تزداد نسبة هذه العادات غير الإسلامية، حتى يصبح المجتمع في نهاية الأمر ليس له من الإسلام إلا اسمه .

وهذا التهاون سببه الأمة كلها، لكنه إهمال له خطورته وضرره البالغ إذا كان من العلماء، ولذا تعظم خطورة مهمتهم في ظل هذه الظروف، قال تعالى: ﴿فلولا كان من القرون من قَبْلِكُمْ أُولُو بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنْجَيْنَا مِنْهُمْ﴾ [هود: ١١٦] وقال تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مُنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾ [المائدة: ٧٩]

٦- الادعاء بأن الدين هو أمر آخر غير العقل بطريقة توهم أن الدين ليس فيه أدلة وبراهين عقلية، وأنه بحاجة لاثبات صدقة إلى أدلة عقلية خارجة عنه . وهذا ما ظهر قديماً ومازال سائراً فيما يظهر من تقسيم الأدلة الى عقلية ونقلية . ومثل هذا التفصيل بدعة وهو فكرة دخلت على المسلمين من اللاهوت المسيحي الذي استعمل العقل اداة لدعم الدين ونصرتة، لكن الأمر يختلف في الإسلام، إذ أن القرآن هو المدلول عليه وهو الدليل، وهو المشهود له وهو الشاهد، فالقرآن مليء بالأدلة العقلية التي سماها القرآن امثالاً، قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الحشر: ٢١].

اننا ولاشك لانقصد ان نرفض المنهج العقلي، لكننا لانرى أي تناقض بين العقل والنقل، فالمقاييس الشرعية هي أيضاً عقلية . ولهذا كان علماء السلف لا يرون أي تناقض بين الأدلة الشرعية والعقلية، وبالعكس فهم يرون ان كل من خالف صحيح المنقول فقد خالف ايضاً صريح المعقول .

فالحجة الشرعية الصحيحة لاتناقض الحجة العقلية الصريحة، ودلالة القرآن عقلية تماماً كما أنها شرعية.

إن الكون خلق الله والقرآن كلام الله فكيف يمكن ان يكون تناقض بين خلق الله وبين كلامه، والمصدر واحد. ولذا فإن ما يثار بين الفينة والأخرى من ضرورة تقديم الدين للناس على أساس عقلي بحث وإلا فإن الأجيال المعاصرة سترفضه، إن كان هذا التصور ينطبق على الأديان الأخرى فإنه لا صلة له بالإسلام ولذا فإن الأمر ليس كما يقول محمد حمدان: «إن الاعتقاد التصديقي المتأني عن الإيمان الديني، لم يعد في الزمان الحاضر قادراً على كبت تساؤلات الانساني بسبب ما استجد من نظريات فكرية حديثة اهمها تلك التي تنسف المعتقد الديني من أساسه وتدعوا لأخذ الحقائق من العقل ومما يمليه واقع الانسان الحياتي والتاريخي»^(١) ويستمر المؤلف في موضع آخر عارضاً حلولاً لهذه المشكلة التي لا وجود له أصلاً ثم يخلص إلى ما يلي:

«وخلاصة القول: إن أحوج ما نحتاج إليه هو شرح الدين بطريقة فكرية تتلاءم وثقافة هذا العصر لتقربه من عقول شبابنا المتعلم وتطرحه كعقيدة».

٧- الضعف العام في الوعي والتعليم الديني عند عامة الناس. ويعود ذلك إلى انحسار التعليم الديني في العالم الاسلامي، وعدم إقبال الناس عليه نتيجة للإقبال على العلوم التي تَدُرُّ أموالاً ومادة، الشيء الذي نتج عنه جهل واسع النطاق بين أبناء الأمة بالإسلام، والجهل أصل كل داء وسبب كل انحراف وخطأ، فتمسك الناس بعبادات اجتماعية لأصل لها في الدين ظنوها مع ذلك من الإسلام، كما تعبوا الله. بشعائر دينية لأصل لها في الشريعة.

(١) الفلاسفة والفكر الإسلامي: محمد أبو حمدان/ ص ٣ / ط دار الكتاب اللبناني - بيروت.

البحث التاسع:

ماذا يعني التجديد في الإسلام^(١)؟

«يجب التنبيه لجميع المسلمين إلى ضرورة القيام بصيانة الإسلام من الأفكار الأجنبية الدخيلة، ومقاومتها بنشر علوم الكتاب والسنة بين المسلمين، وهذه مسؤولية كل مسلم.. قال الله تعالى في سورة البقرة آية ١٤٣: ﴿لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ ١.

ما من شك أن التجديد لا يعني التغيير أو التحول عن المبادئ والأهداف، والتبعية لجميع التيارات الفكرية أو المادية أو الذهاب مع الأهواء والشهوات، لأن هذا لا يسمى تجديداً بل يسمى انحلالاً وتفككاً وذوباناً وموتاً. لأن جميع الأديان والمذاهب العالمية والأحزاب الكبرى لا يمكنها أن تثبت ذاتيتها وتفرض وجودها وتدعم وسائل بقائها إلا إذا كان لها دستور واضح ومبادئ محدودة وأهداف معينة محترمة ومنهاج حاكم لامحكوم.

كما أن التجديد لا يعني الإتيان بشيء جديد أو سلوك طريق جديد، فهذا إنما هو خلط بين الإسلام وغيره وتوفيق بين الإسلام وما يناقضه، في حين أن التجديد يعني تنقية الإسلام من العناصر الأجنبية الدخيلة ولا يعني التوفيق بينها وبين الإسلام.

والحق أن تجديد الإسلام هو الإتيان به جديداً كما كان، ولا يكون ذلك إلا بعد درس بعض معالمه. فالتجديد ارتقاء وتقدم بالامة لتسلك طريقها مرة أخرى، وهذا لا يكون مرة واحدة بل هو ضروري كلما ابتعد المسلمون عن الصحيح الأصل المتوارث من لدن رسول الله، قال ﷺ: «إن الله تعالى يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدد لها دينها»^(٢).

(١) معالم الهدى إلى فهم الإسلام ص ١٠٩-١١٢ / للدكتور مروان إبراهيم القيسي/ ط١
المكتبة الإسلامية - عمان/ بتصرف يسير.

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود في سننه برقم ٤٢٩١ / وصححه الشيخ محمد ناصر الدين في الجزء الثاني من الأحاديث الصحيحة ج ٢/ ١٥٠.

إن لفظ الحديث يتضمن الأمر والحث على التجديد والتشويق إلى احراز هذه الفضيلة العظيمة. فالحديث كقوله تعالى: «ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً» [الآية ١٤١ النساء] فالآية خبر بمعنى أنه لم يجعل ذلك شرعاً لنا، ولكنها تفيد النهي أيضاً. ومن هنا فإن تجديد مسؤولية الأمة وهو فرض كفاية، على العلماء أن يقوموا به وإلا انقلب إلى فرض عين وأثمت الأمة كلها بإهماله. قال ﷺ: «إن الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء. قيل: من هم يارسول الله قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس»^(١).

غير أنه مما يجب ان يلفت النظر إليه أن التجديد بمعان معينة مرفوض، فالتجديد بمعنى التطوير والتطور، تبعاً لتقدم الزمان والعصر أمر لا تفرقه الشريعة، فالأحكام الشرعية لا تتغير بتغير الأزمنة، لأن الزمان ليس عامل تغيير بالنسبة للأحكام.

أما تغيير الحكم للمسألة الواحدة بتغيير العلة فهذا ليس تطوراً وتغيراً في الشريعة بل هو أحد أهم خصائصها وهو المرونة. وحتى هذه المرونة لا تتسم بها مبادئ الإسلام كلها. فهناك مبادئ ثابتة لا يمكن أن تتغير بتغير الزمان والمكان، ويجب حتماً أن لا يلحقها تطور تشريعي.

فيجب إذن أن نفرق بين الجوهرى من الدين وهو أصوله التي تضمنتها نصوصه الصريحة الواضحة مما يعد دستور الاسلام، وبين أحكامه المبنية على علة متبدلة أو عرف متغير أو مصالح اقتضتها الحاجة. فأما ماهو جوهرى فإنه خالد باق لا يقبل التغير، وأما ماعداه فإن أحكامه قابلة للتغير للتطور، وهذا التغير محكوم بعلة الحكم، لا بحكمة الحكم.

إن الإسلام فكر متكامل كامل قادر ذاتياً على الاستجابة لكل المشاكل المتجددة، فلا حاجة إلى إدخال عناصر غريبة عليه بقصد تطويره، لأن إدخال هذه العناصر يعني أنه غير كامل وغير قادر، هذا إذا كان بحاجة لهذه العناصر، وإن لم يكن بحاجة إليها فلا فائدة منها.

إن تطويع العقيدة أو الشريعة أو أي مظهر منها لدعاوي التطوير الخاطئة هي إدانة للإسلام بأنه غير كامل. هذا إذا افترضنا حسن القصد، أو على أسوأ الأحوال هي

(١) أخرجه مسلم في صحيحه برقم ٢٣٢/١٤٥/ بأخصر مما هنا/ انظر الأحاديث الصحيحة رقم ١٢٧٣.

عملية مقصودة ترمي إلى تشويه الإسلام وتحريف مساره الصحيح وتمييع الثابت منه ليلائم الأهواء البشرية المتبدلة والمتغيرة.

ولاريب أن هناك فجوة بين الإسلام والواقع الذي تعيشه البشرية، وحتى تزول هذه الفجوة: فأمامنا ثلاثة حلول يجب أن نختار منها واحداً؟

١- أن يكتفِ الواقعُ لكي يتلاءم مع الإسلام.

٢- أن يكتفِ الإسلام لكي يتلاءم مع الواقع.

٣- أن يحدث التكيف بقدر متساوٍ بين الاثنين.

وأنه مما لا يحتاج لبرهان أو دليل أن متطلبات الحياة متجددة، وهذا التجدد دائم مستمر. والسؤال الذي يطرح نفسه بهذا الصدد هو: هل تخضع الشريعة لمتطلبات الحياة المتجددة، أم تخضع متطلبات الحياة المتغيرة والمتجددة للشريعة؟ ويمكننا أن نضع السؤال بطريقة أخرى: هل نخضع المتغير للثابت أم نخضع الثابت للمتغير؟. إن الثابت إذا خضع للمتغير لم يعد ثابتاً بل أصبح متغيراً، وبالتالي فإنه لم يعد صالحاً لأن يخضع له المتغير.

وما لاريب فيه أن العقل البشري متفاوت ومختلف، بل العقل الواحد متغير ومتفاوت. ومن غير المعقول ولا المقبول أن يخضع الثابت الإلهي للمتغير البشري، فالمتغير بحاجة دائمة إلى ثابت يرقاه ويضبطه. والثبات لايعني الجمود وعدم القدرة على حل المشاكل، والشريعة جمعت بين العنصرين: الثبات والمرونة، ففي الثبات أصالة وفي المرونة معاصرة، والثاني يخضع للأول وينبثق منه. والأمر يجب أن لاينظر إليه من حيث الثبات والجمود، فلا يرفض الثابت لأنه ثابت. بل يجب أن ينظر إليه من حيث صلاحيته، فإن كان صالحاً فنعم، وإن لم يكن صالحاً فيرفض، لالكونه ثابتاً بل لكونه غير صالح. الشيء الذي يقال أيضاً عن القديم والجديد، فلا يرفض القديم لقدمه، ولايقبل الجديد لأنه جديد، وإنما ينظر للمصلاحية أولاً وأخيراً.

والاعتقاد بصلاحية الإسلام، - كما هو - لكل زمان ومكان جزء من الاعتقاد بالإسلام أصلاً. فلا يصح إسلام مالم يعتقد ذلك ويجزم به.

مرونة الإسلام ذاتية لاإضافية:

والإسلام صالح لكل زمان ومكان وحده، دون تعديلات إضافية عليه. ومرونة الإسلام نابعة من ذاته، لاجابة لأن تضاف إليه عناصر مرونة أجنبية

ودخيلة. ومتى طوّعنا الإسلام للعصر بادخال تعديلات عليه غير نابعة من قواعده وأصوله، فإننا نكون بذلك قد سلكتنا مسلك أهل الأديان الأخرى قبل الإسلام.

وحينما نقول: إن الإسلام صالح لكل زمان ومكان، فإن ذلك لايعني بحال أن الإسلام صالح لكل مجتمع. فصلاحيّة الإسلام للمجتمعات البشرية مرهونة بتطويع تلك المجتمعات للإسلام وتبنيها الإسلام عقيدة وشريعة ونظام حياة، لا بتطويع الإسلام وتعاليمه لثقافتها وأسلوب حياتها كما هو.

البحث العاشر:

التجديد في الإسلام ضمن الثوابت العلمية والضوابط المنهجية

العنصر الأساس في التجديد: (١)

مع مرور الأيام والسنين على الإسلام وتقادم العصور عليه يتجمع تراكم من التصورات المخنطة مضافاً إليها عناصر دخيلة، مما يكوّن مع مرور الزمن هوة بين ممارسات المسلمين وبين الإسلام نفسه. فتقضي الضرورة تجديد الإسلام بإعادة الفهم الصحيح لنصوصه، والتطبيق القويم لأحكامه، وتنقيته من العناصر الدخيلة عليه. ولتحقيق هذه الغاية لابد من أمر يعمل على تصفية الشوائب، ولابد أن يكون هذا بدوره نقياً لاشائبة فيه، الشيء الذي لا يتوفر إلا في الكتاب والسنة.

الرجوع للكتاب والسنة:

إن الخطوة الأساس في تجديد الإسلام لاتعني أكثر من الرجوع إلى الإسلام الحق الموجود بنظريته السليمة في الكتاب والسنة، وبتطبيقه السليم بأعمال الصحابة والتابعين وتابعيهم. وهذا يعني سلوك طريق أهل السنة والجماعة، وهم الذين اجتمعوا على الأخذ بسنة رسول الله عليه السلام، والعمل بها ظاهراً وباطناً في القول والعمل والاعتقاد.

أما التطبيق العملي لهذا المفهوم فقد عبر عن نفسه عبر التاريخ بالتيار السلفي، ولذا فإن العلاقة بين التجديد وهذا التيار علاقة عضوية لاتنفك، فحيث كانت السلفية كان تجديد الإسلام

والسلف هم الصحابة والتابعون من أهل القرون الثلاثة الأولى الذين شهد لهم رسول الله. فأصبح مذهب السلف علماً على ماكان عليه هؤلاء الصحابة والتابعون وتابعوهم، ومن تبعهم من الأئمة الأربعة والبخاري ومسلم وسائر أصحاب السنن، الذين اتبعوا طريق الأوائل جيلاً بعد جيل. ثم أصبح اصطلاحاً يطلق على السلف

(١) معالم الهدى إلى فهم الإسلام ص ١٢١-١٢٣/الدكتور مروان إبراهيم القيسي/.

ومنهجهم في تلقي الإسلام وفهمه وتطبيقه، فهو ليس محدوداً في فترة زمنية معينة. وهكذا نشأ التيار السلفي منذ زمن بعيد كرد فعل إيجابي لتصحيح الأمور واعادتها إلى نصابها كما كانت في عهد النبوة. وهذا مايميز الدعوة السلفية والعاملين فيها بالرغم من تباين ظروف البيئة الحضارية وتغاير العصور والأزمنة.

والسلفية لاتعني إعطاء السلف أكثر مما يستحقون من مكانة وتقدير، وإنما الأمر كله يعود إلى كون السلف أكثر فهما للشرع من غيرهم.

وعلى الرغم من أننا لسنا معنيين هنا بتفصيلات التيار السلفي والدعوة السلفية، إلا أن المقام يقتضي إشارة الى بعض قواعد المنهج السلفي ومنها:

- ١- تقديم الكتاب والسنة على أي شيء آخر.
- ٢- تقديم الشرع على العقل وإخضاع العقل للنص.
- ٣- القرآن الكريم مصادر للأدلة الثقلية والعقلية معا.
- ٤- رفض التأويل الكلامي للصفات الإلهية.
- ٥- رفض منهج المتكلمين والفلاسفة فيما يخص العقيدة الاسلامية.
- ٦- التأكيد على عدم إغلاق باب الاجتهاد.
- ٧- رفض التقليد الأعمى وهو تقليد الإمام لشخصه ودون البحث عن الدليل.
- ٨- رفض تحديد التقليد بالأئمة الأربعة، والدعوة للاتباع.
- ٩- التزكية القلبية.
- ١٠- التأكيد على العلم وأهميته.

إن رجال الإصلاح الديني على اختلاف أعصارهم وبيئاتهم ومكوناتهم الشخصية، قد وردوا جميعاً من معين واحد: (كتاب الله وسنة رسوله)، وتأسوا في طريقة الإصلاح بإمام الهدى محمد ﷺ. ولذا نرى أن منهجهم قيس من منهجه، وأن طريقهم تبع لطريقه، وحظ كل منهم من النجاح مرتبط بمقدار حظه من التوفيق في حسن الأخذ وحسن التطبيق لذلك المنهج.

ولاشك أن الهدى هو ماكان من الله ورسوله، وأن هذا الهدى محصور في كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ فقط، وليس وراء هذا طريق ثالث للهداية. ولذا فقد كانت دعوة الرسول ﷺ تركز على أمرين:

- ١- توحيد الله، فهو المعبود وحده.
 - ٢- توحيد الطريق إليه، طريق عبادته وطاعته. وهذا لا يكون إلا بالتزام الكتاب والسنة.
- إنّ الرجوع للكتاب والسنة بفهم السلف الصالح أمر في غاية الضرورة، والحاجة إليه مستمرة، وهو التجديد بعينه، وهو الأصالة بعينها، وهو أساس أي بعث إسلامي مرتقب، وهو الأساس المشترك الذي يمكن أن تتوحد عليه الأمة من جديد.

ثوابت العقيدة الإسلامية عصمة من كل ضلال

خطر الانحراف في فهم العقيدة: (١)

إن الانحراف في فهم العقيدة يُعدّ أكثر خطراً من غيره، فالعقيدة هي أساس الإسلام. وماتمتع به المسلمون يوماً ما من قوة كان سببه وضوح تصور العقيدة لديهم أولاً، وتفاعلهم معه ثانياً. وما يعايناه المسلمون الآن من ضعف عام في كافة جوانب حياتهم إنما يعود إلى سوء فهمهم للعقيدة، وبالتالي فلا مجال لتفاعلهم معها، وإن كان هناك من تفاعل فَمَعَ فهم مخطيء.

ولاريب أيضاً أن الانحراف في فهم العقيدة كان اساس كل الانحرافات التي تلت في حياة المسلمين. فقد شغلت المسائل الفلسفية والكلامية - التي اثرت - المسلمين عن حقيقة العقيدة وأصلها كقوة محررة لهم ولبني البشر الآخرين إلى البحث في مسائل وتفصيلات لاجدوى من البحث فيها، وابتعد المسلمون عن غايتهم.

الأصلية في الأرض وهي نشر الإسلام. فبعد أن كانت حياتهم عملاً وجهاداً وإنقاذاً للبشرية أصبحت جدالاً ونقاشاً في صفات الله وماشابه. فما الذي أحرزه المسلمون من الصراع العقلي والخصومة الجدلية بين الإتجاهات الفكرية للفرق الإسلامية التي غدت مصدر خلاف بين المسلمين في حين أن العقيدة هي مصدر توحيد.

وحينما غاب أوتشوه الفهم الصحيح للعقيدة انتشرت الخرافات. ولاشك أن هذا كان أحد أهم أسباب الانحطاط الروحي والاجتماعي والتدهور العام الذي أصاب حياة المسلمين. ذلك ان العقيدة هي الأصل الذي يطبع طريقة البشر في تفكيرهم وفي سلوكهم. فأصل الكون ومنزلة الانسان فيه وعمله في أبعاده وعلاقة الفرد بغيره وعلاقة المجتمعات فيما بينها كلها منبثقة من العقيدة.

(١) معالم الهدى إلى فهم الإسلام ص ١٢٥-١٢٧ / للدكتور مروان إبراهيم القيسي /

ولقد انتشر الإسلام وتقبلته الأمم والشعوب الأخرى بسرعة حينما كان أصيلاً نقياً،
ففي أصلاته ونقاؤه سر تقبله واعتناقه. وفي يسره سر قوته.

إن القول: إنه لم يحدث اختلاف بين المسلمين في مسائل معينة أمر لا يقره
التاريخ، فهذا قد حصل للأسف، وإن كان الله عز وجل قد حفظ الأمة ودينها من
مضاعفاته وآثاره كما سيتضح معنا فيما بعد.

ولذا وجب أن يأخذ التجديد في العقيدة أولى أولويات التجديد، وهذا ما كان
دائماً، فتصفية العقيدة مما داخلها من ضلال الجاهلية هو أول ما يتجه إليه المصلحون.

وإن القول: إنَّ العقيدة الإسلامية في بعض جوانبها جرت فيها محاولات للانحراف
بها عن المسار الصحيح، لا يمس الإسلام بسوء. فالعقيدة شأنها شأن بقية جوانب
الإسلام لم تسلم من محاولات الهدم والإيذاء، وهل يعقل أن يحاول أعداء الدين هدم
أجزاء الإسلام الأخرى، دون أن يتجهوا إلى الانقضااض على أهم أجزائه وعناصره،
وهي الأساس الذي تقوم عليه الأجزاء الأخرى وأعني العقيدة.

غير أن القول بأنه قد جرت محاولات للانحراف بالعقيدة لا يعني بالضرورة أن تلك
المحاولات نجحت إلى الحد الذي أصبحت العقيدة الإسلامية الآن غير تلك العقيدة
التي جاء بها رسول الله ﷺ، كما حدث بالنسبة للعقيدة التي جاء بها المسيح عليه
السلام وهي عقيدة التوحيد والتي أصبحت بعد مرور أقل من ثلاثمائة عام على رفعه
للفريق الأعلى وكأنها عقيدة أخرى، الشيء الذي يختلف تماماً عما عليه الإسلام، فقد
حفظ الله على الأمة معتقدها الصحيح، فنحن على بينة بأن عموم الأمة في الشرق
والغرب من ناحية علم أصول الدين غير محتاجة إلى إضافة جديدة، وإنما هو مفتقر
إلى التعليم الصحيح وترك ما يؤدي للتشكيك. ولذا فإن تجديد العقيدة إنما يكون:

١- بتصفيتها مما داخلها من عناصر أجنبية، ومن شوائب البدع.

٢- تصحيح فهم المسلمين لها بإبعاد التفسيرات المنحرفة الخاطئة.

٣- بلفت النظر والتركيز على دور التوحيد وأهميته وتخليص النفوس من الشرك
الخفي.

وهذا لا يمكن أن يتم باستقاء العقيدة من منابعها الأصلية ونعني مصدري الإسلام
الرئيسين الكتاب والسنة.

إن الله تعالى هو المقرر للعقائد المشرع للأحكام فليس لأحد أن يحتج في أي
جانب من جوانب الدين، بما يحدثه من بدع. ولا شيء يخرج المسلمين مما هم فيه

من الإنحلال الديني وضعف العقيدة إلا الرجوع بهم إلى الدين في أصوله الصافية.
وإن العقيدة والإيمان بالغيب مصدرهما الله تبارك وتعالى ولا يجوز أبداً لأي مسلم أن يتخذ طريقاً آخر للغيب يتلقى عنه، وهكذا فكل عقيدة تخالف كتاب الله تعالى وسنة رسوله فهي عقيدة باطلة يجب حربها والقضاء عليها.
المنهج الصحيح في فهم العقيدة: (١)

ومن هنا فإن المنهج الصحيح الوحيد في فهم العقيدة هو منهج القرآن والسنة لا منهج علماء الكلام أو الفلاسفة المسلمين. وعلى سبيل المثال لا الحصر فإن منهج القرآن في الصفات الإلهية يقتضي إثباتها بلا كيف، ويقضي أيضاً أن يتم الإيمان بصفات الله وأسمائه من غير زيادة ولا نقص فيها، ولا تأويل لها بما يخالف ظاهرها، ولا تشبيه لها بصفات المخلوقين، بل بإمرارها كما جاءت في كتاب الله أو على لسان رسوله، ورد علمها إلى قائلها. وهكذا فإن هناك أصولاً ثلاثة لفهم صفات الله عز وجل لا بد منها مجتمعة وهي:

١- الإثبات: فالواجب فيما يخص صفات الله عز وجل ورسوله أثباته. ومانعاه الله ورسوله نفيه. وفيما يخص الألفاظ والمعاني المستعملة بهذا الخصوص فهي مجموعتان:

الأولى: الألفاظ التي وردت في الكتاب والسنة، فثبت ما أثبتته الله ورسوله في الكتاب والسنة من الألفاظ والمعاني، ونفي ما نفته نصوصها من الألفاظ والمعاني.

الثانية: أما الألفاظ التي لم يرد نفيها ولا إثباتها فلا تطلق حتى ينظر في مقصود قائلها: فإن كان معنى صحيحاً قبل لكن ينبغي التعبير عنه بالفاظ النصوص، دون الألفاظ المجملة العامة، إلا عند الحاجة، مثل أن يكون المخاطب أو السامع غير قادر على استيعاب المعنى الصحيح، ولا بد عندهما من استعمال قرائن تبين المقصود.

٢- التنزيه:

إن اثبات ما أثبتته الله تعالى لنفسه، ونفي ما نفاه عن نفسه لا يكفي، فلا بد من التنزيه. فالله سبحانه وتعالى موصوف في القرآن الكريم بصفات الوجدانية، ومنعوت بمنوت الفردانية قال تعالى: ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ الإخلاص. فالله تعالى ليس كمثله شيء في صفاته ولا في أسمائه ولا في أفعاله، وتنزيه الله يقتضي الأمور التالية:

(١) معالم الهدى في فهم الإسلام ص ١٢٧-١٣١ / للدكتور مروان إبراهيم القيسي.

أ- إن الله تعالى ليس كمثله شيء، لافي ذاته، ولا في صفاته، ولا في أفعاله.

فالله تعالى لا يشبه المخلوق في أسمائه وصفاته وأفعاله. فأسماء الله تعالى ليست كأسماء غيره، وأفعاله ليست كأفعال غيره، وصفاته ليست كصفات غيره. فالله تعالى وإن وُصِفَ بأنه متكلم، لكن لا يوصف بمعنى من معاني البشر التي يكون الإنسان بها متكلماً.

ب- إن خصائص الله تعالى لا يوصف بها شيء من المخلوقات، ولا يماثله شيء من المخلوقات في شيء من صفاته. فلا ريب أن نفي مشابهة شيء من مخلوقاته له مستلزم لنفي مشابهته لشيء من مخلوقاته.

٣- الأصل الثالث هو استحالة معرفة كيفية صفات الله عز وجل سئل الإمام أحمد رحمه الله عن كيفية استواء الرحمن على العرش فقال للسائل: قل لي كيف هو أقول لك كيف استوى. وقال الإمام مالك رحمه الله لما سئل عن قوله تعالى ﴿الرحمن على العرش استوى﴾ الاعراف: ٥٣ كيف استوى؟ فقال «الاستواء غير مجهول والكيف غير معقول والإيمان به واجب، والسؤال عنه بدعة وما أراك إلا ضالاً وأمر به أن يخرج من المجلس»^(١) وهكذا فإنه بالأخذ بهذه الأصول الثلاث يكون الجواب عن السؤال التالي مثلاً حدثني عن بصر الله تعالى؟ لله تعالى بصر (وهذا أخذ بالأصل الأول) وبصره تعالى لا يشبه بصر غيره، وبصر غيره لا يشبه بصره تعالى (وهذا أخذ بالأصل الثاني وهو التنزيه) ولا أحد يعرف كيفية بصره تعالى (وهذا أخذ بالأصل الثالث).

إن الفضل في الحفاظ على أصالة العقيدة الإسلامية يعود لأمرين:

١- الحفاظ على النصوص الدينية المقدسة كما هو دون تحريف، وأعني القرآن والسنة، وهما مصدرا العقيدة الأساسيان. وبذا بقي المصدر الأهم مصوناً محافظاً عليه.

٢- الحفاظ على الفهم الصحيح للنصوص العقيدية، وهو فهم الصحابة المستقي من رسول الله مباشرة، والذي انتقل إلينا عبر التابعين وتابعيهم، وهذا عنصر مهم جداً في الفهم الصحيح لتفصيلات العقيدة.

غير أن هناك أمراً آخر يجب ألا ننغفله وله دوره الإيجابي المهم في هذه القضية، وهو خطر الاجتهاد في أمور العقيدة، فقد حال ذلك دون أن تصبح العقيدة الإسلامية

(١) البغوي، شرح السنة، ج ١، ص ١٧١

إلى ماصارت عليه العقيدة النصرانية واليهودية.

تحصل لنا مما سبق نتيجتان:-

١- لقد جرت محاولات لتحريف الفهم الصحيح للعقيدة، وقد نجحت في بعض الجوانب والمظاهر إلى حد ما، مع بقاء التصور الصحيح مصوناً يعود إليه أصحاب الفهم السليء متى شأؤوا ذلك.

٢- إن العقيدة الإسلامية بقيت سليمة مصونة من أي تحريف .

على انه ليس هناك تناقض بين هذين القولين . فالفرق الإسلامية التي أساءت في فهمها لبعض جوانب العقيدة الإسلامية، والتي تمثل في الواقع محاولات الانحراف هذه مقصودة كانت او غير مقصودة، أفرز نشاطها الفكري مجموعة من الآراء لاتمثل في معظمها العقيدة النقية التي جاء بها رسول الله عن ربه.

وإزاء هذه الانحرافات وجد لدينا تراثٌ آخر عكف اصحابه على استقاء العقيدة من النصوص وفهمها كما فهمها الصحابة من رسول الله . وبذا ردت الأمور إلى نصابها، وأصبح لدينا مصدران لدراسة العقيدة الإسلامية :-

١- المصدر الأصيل الذي يمثل النقاء في العقيدة .

٢- المصدر الدخيل الذي يمثل صورة غير أصيلة .

ولكن بقي سؤال هو: مامدى التأثير العملي للمصدر الدخيل على عقائد الأفراد والأجيال عبر التاريخ؟

الحق أنه لايمكن بأي حال تشبيه الانقسام العقدي في الديانات الأخرى بما حدث في الإسلام . فالأمر مختلف تمام الاختلاف من حيث الجوهر والنتائج . ولا يهمنا مناقشة اختلاف الجوهر بمقدار ما يهمنا مناقشة الأمر الآخر وهو حصيلة الاختلاف . فالاختلاف الذي حدث في الديانة النصرانية مثلاً لم يندثر بل على العكس فقد برز وتبلور وظهر واضحاً . فهذه الفرق المشتقة من كاثوليكية وبروتستانتية وأرثوذكسية وغيرها إنما هي جماعات مستقلة ومتميزة عن بعضها بعضاً .

والأمر الأكثر معنى وأهمية أن الانقسام الذي حصل لم يندثر وهذا هو بيت القصيد .

أما الخلاف الذي اخذ مكانه بين المسلمين في فهم أمور العقيدة زال في غالبيته الساحقة . فأين هي تلك الفرق التي تمثل الاتجاه الدخيل في فهم العقيدة؟ أين هم

المعتزلة وأين هم الخوارج والمعتلة والجهمية؟ إن آراءهم تعيش في عقول شذاذ فقط؟!..

إن ما نشق وخرج عن جسم الأمة من مجموعات صغيرة لا يمكن الإشارة إليه بأنه يمثل امتداداً لذلك الاختلاف الأول في العقيدة الذي أحدثته الفرق آنفة الذكر.

فالقاديانية والبهائية مثلاً لا تمثل اختلافاً في العقيدة بل تمثل خروجاً كاملاً عن الإسلام. ويجب التفرقة بين مجموعتين مختلفتين مازالتا ضمن نطاق الإسلام كالسنة والشيعه، وبين مجموعتين الأولى مسلمة والأخرى خارجة عن الإسلام بالكلية كالمسلمين عموماً والقاديانيين، فليس هناك مجال للبحث في التوافق والتعارض في الحالة الثانية.

ولقد أخبر رسول الله عَمَّا سيحصل من انقسام في الأمة الإسلامية فقال: «والذي نفس محمد بيده، لتفترقن أمتي على ثلاث وسبعين فرقة، فواحدة في الجنة، واثنان وسبعون في النار»^(١).

لكن ما حصل فعلاً أن هذا الانقسام لم يستمر فقد بادت هذه الفرق وأتباعها، ولم يبق في الواقع ومنذ زمن بعيد غير التصور الصحيح للعقيدة الصحيحة مسيطراً على الواقع في عقول وقلوب الغالبية الساحقة من أبناء الأمة الذين يمثلون أهل السنة والجماعة عبر أجيال طويلة. فكانت الغلبة للتصور الصحيح والهزيمة الساحقة لبقية التصورات، مع وجود بعض الانحرافات الآن في عقول بعض أفراد الأمة، غير أن ذلك يعود إلى الجهل بصورة رئيسة.

(١) حديث صحيح/انظر صحيح الجامع الصغير وزيادته: للشيخ المحدث محمد ناصر الدين الألباني برقم ١٠٨٢/.

المصادر والمراجع لأبحاث الكتاب

- الآيات العلمية: عبد الرزاق نوفل - ط مكتبة الأنجلو المصرية.
- آيات قرآنية في مشكلة العلم: الدكتور يحيى المحجري - ط المختار الإسلامي - القاهرة.
- ابن عربي وتفسير القرآن: حقيقة التفسير المنسوب إليه: الدكتور محمد حسين الذهبي - ط مجلة الأزهر - القاهرة.
- اتجاهات التفسير في العصر الحديث: عبد المجيد عبد المحتسب - ط دار الفكر - ط ١ سنة ١٩٧٣.
- اتجاه التفسير في العصر الحديث: مصطفى الطير الحديدي - ط مجمع البحوث الإسلامية - القاهرة.
- الاتجاهات المنحرفة في التفسير: الدكتور محمد حسين الذهبي - ط دار الاعتصام - القاهرة.
- الاتقان في علوم القرآن: للسيوطي - ط القاهرة.
- أثر التطور الفكري في التفسير في العصر العباسي: الدكتور مساعد مسلم عبد الله آل جعفر - ط مؤسسة الرسالة - بيروت.
- أثر القرآن الكريم في اللغة العربية:
- محمد عبد الواحد حجازي - ط القاهرة - سلسلة البحوث الإسلامية - الأزهر.
- أحكام القرآن: لابن العربي - ط عيسى البابي الحلبي - القاهرة.
- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: لأبي السعود - ط مكتبة الرياض الحديثة.
- أساس البلاغة: للزمخشري: ط دار المعرفة بيروت.
- الإسرائيليات والموضوعات: الدكتور محمد أبو شهبه - ط مجمع البحوث الإسلامية - القاهرة.

- الإسلام في عصر العلم: محمد أحمد الغمراوي - ط مصر عام ١٩٧٣ م.
- الإسلام في عصر العلم: محمد فريد وجدي ط القاهرة - ١٩٧٣ .
- الإسلام في القرن العشرين: عباس محمود العقاد - ط القاهرة/ ١٩٥٤ م.
- الإسلام والحضارة العربية: محمد كرد علي - ط لجنة التأليف والنشر - ١٩٥٩ . القاهرة .
- الإسلام والحضارة العربية: الدكتور محمد محمد حسين الجواب الإسلامي المعاصر ط الشمال طرابلس لبنان .
- الإسلام والحقائق العلمية - محمدو القاسم - ط دار الهجرة - بيروت .
- الإسلام والطب الحديث: عبد العزيز إسماعيل - ط القاهرة ١٩٥٧
- الإسلام والعصر الحديث: وحيد الدين خان ط دار المختار الإسلامي - القاهرة .
- الإسلام وقوانين الوجود: الدكتور محمد جمال الفندي - ط الهيئة المصرية للكتاب .
- الإسلام والكون: سلسلة الإسلام وتحديات العصر: الدكتور عبد الغني عبود - ط دار الفكر العربي - القاهرة .
- الإسلام يتحدّى: وحيد الدين خان ط مؤسسة الرسالة بيروت .
- الإشارات العلمية في الآيات الكونية في القرآن الكريم: محمد إسماعيل ط دار الدعوة - الاسكندرية .
- إصلاح الوجوه والنظائر: للدماغاني - ط دار العلم للملايين - بيروت .
- أصول التفسير وقواعده: الشيخ خالد عبد الرحمن العك - ط دار النفائس - بيروت .
- أصول الفقه: عبد الوهاب خلاف - ط دار القلم - الكويت .
- أصول الفقه: محمد الخضري - ط القاهرة .
- أضواء من القرآن على الإنسان ونشأة الكون والحياة: عبد الغني الخطيب - ط دار الفتح - دمشق .
- إعجاز القرآن: عبد الكريم الخطيب - ط دار الفكر العربي - القاهرة .
- إعجاز القرآن: للباقلاني - ط دار المعارف - القاهرة .
- إعجاز القرآن في حواس الإنسان: الدكتور محمد كمال عبد العزيز - ط دار ابن

سينا القاهرة.

إعجاز القرآن والبلاغة النبوية: للرافعي - ط الاستقامة.

إعجاز النبات في القرآن الكريم: الدكتور نظمي خليل أبو العطا - ط مكتبة النور - القاهرة.

الإعجاز البياني - الدكتورة عائشة عبد الرحمن - بنت الشاطيء - ط دار المعارف بمصر.

الإعجاز الطبي في القرآن: الدكتور السيد الجميلي - ط دار الهلال - بيروت.

الإعجاز العددي في القرآن الكريم: عبد الرزاق نوفل - ط دار الكتاب العربي - بيروت.

الإعجاز العلمي في الإسلام: الستة النبوية : محمد كامل عبد الصمد ط الدار المصرية اللبنانية.

الإعجاز العلمي في القرآن: الدكتور السيد الجميلي - ط دار الفكر العربي - بيروت.

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم: محمد السيد الأرنؤوط - ط مكتبة مدبولي - القاهرة.

الإعجاز الفكري في القرآن: الدكتور السيد الجميلي - ط دتر ابن زيدون - بيروت.

الأكسير في علوم التفسير: للطوفي - ط مكتبة الآداب - القاهرة.

الله يتجلى في عصر العلم: جون كلوفر مونسما - ترجمة الدكتور الدمرداش عبد المجيد سرحان.

الألوان في القرآن: عبد المنعم الهاشمي - ط دار ابن حزم - بيروت.

الإمام محمد عبده ومنهجه في التفسير: الدكتور عبد الغفار عبد الرحيم - ط المركز العربي للثقافة والعلوم - القاهرة.

الأمراض الجنسية: الدكتور محمد علي البار ط دار المنارة - جدة.

الإنسان بين العلم والدين: الدكتور شوقي أبو خليل - ط دار الفكر - دمشق.

الإنسان: وجوده وخلافته في ضوء القرآن الكريم: الدكتور عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودي - ط مكتبة وهبة - القاهرة.

الإيدز: يسرى عبد الغنى البشرى ط مكتبة ابن سينا - القاهرة .
الإيمان في القرآن: للدكتور مصطفى عبد الواحد ط دار الرائد العربي - بيروت .
بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: للفيروز أبادي - ط مجمع البحوث الإسلامية .

بين الدين والعلم: عبد الرزاق نوفل - ط دار الكاتب العربي .
بين الطب والإسلام: الدكتور حامد الغوايي - ط وزارة الثقافة - مصر .
البحر المحيط: أبو حيان ط سنة ١٣٢٨ هـ .
البرهان في علوم القرآن: للزركشي - ط دار المعرفة - بيروت .
تاريخ توثيق نص القرآن الكريم: الشيخ خالد عبد الرحمن العك - ط دار الفكر - دمشق .

تأويل جزء عم: يحيى عبد القادر - ط دار ابن هانئ - دمشق .
تأويل مشكل القرآن: لابن قتيبة - ط القاهرة سنة ١٩٧٣ .
التحرير والتنوير: الطاهر بن عاشور - ط الدار التونسية للنشر .
التداوي بالقرآن: محمد إبراهيم سليم ط مكتبة القرآن - القاهرة .
تسعة عشر ملكاً: فرية بهائية: حسين ناجي محمد محيي الدين - ط الزهراء للإعلام العربي - القاهرة .

التصوير الفني في القرآن: لسيد قطب - ط دار المعارف - القاهرة .
التعليم والتعلم في القرآن: الدكتور حامد عبده الهوال - ط مكتبة الفلاح - الكويت .

تفسير الآيات الكونية في القرآن الكريم: عبد المنعم السيد عسرى - ط الهيئة المصرية للكتاب .

تفسير ابن باديس: عبد الحميد بن باديس - ط الكيلاني الصغير .
تفسير جزء عم: محمد عبد - ط بولاق .
تفسير القرآن العظيم: لابن كثير - ط دار المعرفة - بيروت .
تفسير القرآن الكريم «الأجزاء ١-١٠ الأولى» الشيخ محمود شلتوت - ط دار الشروق - جدة .

تفسير المنار: محمد رشيد رضا - ط المنار - القاهرة .

التفسير الحديث: محمد دروزة - ط إحياء الكتب العربية .
التفسير العلمي في الميزان: أحمد عمر أبو حجر . ط دار قتيبة - دمشق .
التفسير ورجاله: محمد الفاضل بن عاشور - ط مجمع البحوث الإسلامية -
القاهرة .

التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن: حنفي أحمد - ط دار المعارف بمصر .
التفسير: معالم حياته منهجه اليوم: أمين الخولي - ط جماعة الكتاب .
التفسير الموضوعي لآيات التوحيد في القرآن: الدكتور عبد العزيز بن الدردير - ط
مكتبة القرآن - القاهرة .

التفسير والمفسرون: الدكتور محمد حسين الذهبي - ط القاهرة .
التنوير في أصول التفسير: المجدوي البركتي - ط مطبعة المجيدي .
توحيد الخالق: عبد المجيد الزنداني ط مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت .
جامع البيان في تفسير القرآن: للطبري - ط دار المعرفة - بيروت .
جواهر القرآن: أبو حامد الغزالي - ط مكتبة الجندبي - القاهرة .
الجانب العلمي في القرآن: الخطاب - ط الناشر العربي .
الجواهر في تفسير القرآن الكريم: طنطاوي جوهري ط مصطفى الحلبي - القاهرة .
حبر الأمة عبد الله بن عباس ومدرسته في التفسير: الدكتور عبد الله محمد سلقيني
- ط دار السلام ، بيروت .

حركة الأرض ودورانها حقيقة علمية أثبتها القرآن: محمد علي الصابوني - دار
القلم - دمشق .

حكم المثاني تفسير القرآن الكريم: السيد أحمد خليل - ط ١ سنة ١٩٦٨ .
حول خصائص القرآن: محمد بن علوي المالكي ط سنة ١٤٠١ - جدة - مكابع
سحر .

خصائص القرآن الكريم: الدكتور فهد بن عبد الرحمن بن سليمان الرومي - ط
الرياض .

خلق الإنسان بين الطب والقرآن: الدكتور محمد علي البار - ط الدار السعودية -
الرياض .

الخمير بين الطب والفقهاء: الدكتور محمد علي البار - ط دار الشروق - جدة .

دراسات في التفسير الموضوعي لقصص القرآني: الدكتور أحمد جمال العمري - ط مكتبة الخانجي - القاهرة.

دراسات في القرآن: السيد أحمد خليل - ط دار المعارف - القاهرة.

دعوة التوحيد: الدكتور محمد خليل الهراوي. ط دار الكتب العلمية - بيروت.

دلائل الإعجاز: للبرجاني: ط مكتبة القاهرة.

دلائل التوحيد: جمال الدين القاسمي/ ضبط وتعليق وتخريج الشيخ خالد عبد الرحمن العك - ط دار النفائس - بيروت.

دليل الأنفس بين القرآن الكريم والعلم الحديث: توفيق محمد عز الدين ط دار السلام - القاهرة.

الدين في مواجهة العلم: وحيد الدين خان ط دار النفائس - بيروت

رحلة الإيمان في جسم الإنسان: الدكتور حامد أحمد حامد - ط دار القلم دمشق.

رحمة من الرحمن في تفسير إشارات القرآن: «محمود غراب» وعزاه لابن عربي - ط دمشق.

رد على محاولة لفهم عصري للقرآن: مصطفى إسماعيل الرج - ط مطبعة الأصيل بحلب.

روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: الألوسي - ط دار إحياء التراث العربي. بيروت.

الرياضيات في القرآن الكريم: دكتور خليفة عبد السميع خليفة - ط مكتبة النهضة المصرية.

سنن ابن ماجه: ط دار إحياء التراث العربي - بيروت.

سنن أبي داود: ط حمص.

سنن الترمذي: ط أحمد شاكر، القاهرة.

سنن النسائي: ط مصر.

السمع والبصر في القرآن الكريم: الدكتور علي محمد سلامة - ط جمعية الدعوة - ليبيا.

السيرة النبوية مع شرحها «الروض الأنف لابن هشام: ط دار المعرفة - بيروت.

شطحات مصطفى محمود في تفسيراته المصرية: للقرآن الكريم: عبد المتعال

- محمد الجبري - ط دار الاعتصام - القاهرة .
- صحيح البخاري - مع شرحه : فتح الباري ط المكتبة السلفية - القاهرة .
- صحيح مسلم : ط دار إحياء التراث العربي - بيروت .
- الطب الإسلامي بين العقيدة والإبداع : مختار سالم - ط مؤسسة المعارف - بيروت .
- الطب في القرآن : الدكتور عبد الله عباده - ط مكتبة الخانجي - القاهرة - دار الرفاعي - الرياض .
- الطب محراب للإيمان : الدكتور خالص كنجو - ط مؤسسة الرسالة .
- الظاهرة القرآنية - ملك بن نبي - ترجمة عبد الصبور شاهين - ط دار الفكر - دمشق .
- عجائب العنكبوت في القرآن دراسة في القرآن والتراث والعلم الحديث : الدكتور كارم السيد عني - ط دار الصحوة للنشر - القاهرة .
- عظمة القرآن : عبد القادر عطا - ط دار الكتب العلمية - بيروت .
- العقيدة في القرآن : للدكتور عبد السلام التونجي ط جمعية الدعوة الإسلامية العالمية - ليبيا
- العلم يدعو إلى الإيمان : كريسي موريسون - ترجمة محمود صالح الفلكي - ط مكتبة النهضة المصرية .
- العلمانية وثمارها الخبيثة : محمد شاكِر : ط مكتبة الإيمان - الاسكندرية .
- العلمانية : نشأتها وتطورها وآثارها في الحياة الإسلامية - الدكتور سفر بن عبد الرحمن الحولي - ط دار مكة للطباعة والنشر - مكة المكرمة .
- غاية حياة الإنسان كما يصورها الدين والعلم : الشيخ خالد عبد الرحمن العك ط دار الألباب - دمشق .
- الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية : محمد المبارك - ط دار الفكر - دمشق . سنة ١٩٧٠ .
- الفن القصصي في القرآن : محمد أحمد خلف الله - ط الأنجلو المصرية .
- ط ٣/ ١٩٦٥ . [وقد أنكر العلماء على هذا الكتاب] .
- الفهرس الموضوعي لآيات القرآن : محمد مصطفى محمد - ط دار عمار - عمان -

دار الجيل - بيروت .

في ظلال القرآن: سيد قطب - ط دار الشروق - جدة .

القراءات في نظر المستشرقين والملحدین: الشيخ عبد الفتاح عبد الغني القاضي - ط مكتبة الدار - المدينة المنورة .

القرآن والتفسير العصري: الدكتورة عائشة عبد الرحمن - بنت الشاطيء - ط دار المعارف بمصر .

القرآن وحقائق العلم الحديث: محمد جعفر محمد - ط المشاة العامة للنشر بليبيا .

القرآن دواء وعلاج وشفاء: حبشي فتح الله الحفناوي - ط المكتب الجامعي الحديث - الإسكندرية .

القرآن والطب: أحمد محمد سليمان - ط دار العودة - بيروت .

القرآن وعلم الفلك: أحمد جبالية - ط الدار العربية للكتاب - ليبيا .

القرآن والعلم: أحمد محمد سليمان - ط دار العودة - بيروت .

القرآن العظيم: هدايته وإعجازه في كل أقوال المفسرين: محمد الصادق عرجون - ط دار القلم دمشق - الدرا الشامية - بيروت .

القرآن معجزة العصور: د. محمد عبد المنعم خفاجي وزملاؤه د. علي صبح وعبد العزيز شرف وعبد العظيم الشبلي . ط الهيئة المصرية للكتاب القاهرة .

قصة التفسير: أحمد الشرباصي - ط المكتبة الثقافية بمصر .

قصص الأنبياء: عبد الوهاب النجار - ط مؤسسة الحلبي - القاهرة .

القصص القرآني في منطقته ومفهومه: عبد الكريم الخطيب - ط دار المعرفة - بيروت .

قوانين الله وليست قوانين الطبيعة: الدكتور محمود سراج الدين عفيفي - ط دار الفكر العربي - القاهرة .

القول المبين في تفسير المؤمنين - محمد علي موزة - ط الشركة العامة للكتاب - بيروت .

كتاب التوحيد: عبد المجيد الزنداني ط مؤسسة الكتب الثقافية - بيروت .

كتاب السبعة في القراءات: لابن مجاهد - ط - دار المعارف .

الكتاب والقرآن: قراءة معاصرة: الدكتور محمد شحرور - ط الأهالي - دمشق.
[الذي حشد فيه أكثر من ٢٥٠٠ أغلوطة جدلية].

كشاف الإعجاز العلمي في القرآن والسنة: الدكتور نبيل عبد السلام هارون - ط
مكتبة ابن سينا - القاهرة.

الكون والإنسان بين العلم والقرآن: بسام دفضع - دار الألباب - دمشق.

الكون بين الدين والعلم: الدكتور محمد جمال الدين الفندي - ط المجلس العلمي
للشؤون الإسلامية - القاهرة.

لباب النقول في أسباب النزول: للسيوطي - ط الملاح - دمشق.

لماذا حرّم الله هذه الأشياء؟ الدكتور محمد كمال عبد العزيز - ط مكتبة القرآن -
القاهرة.

مباحث في إعجاز القرآن: الدكتور مصطفى مسلم - ط دار المنارة - جدة.

مباحث في التفسير الموضوعي: الدكتور مصطفى مسلم - ط دار القلم - دمشق.

مباحث في علوم القرآن: الدكتور صبحي الصالح - ط دار العلم للملايين -
بيروت.

مباحث في علوم القرآن: مناع القطان - ط دار المريح - الرياض.

محاسن التأويل: محمد جمال الدين القاسمي - ط عيسى الحلبي - القاهرة.

المخدرات الخطر الداهم: الدكتور محمد علي البار - ط دار القلم - دمشق ودارة
العلوم - بيروت.

مدخل إلى موقف القرآن من العلم: الدكتور عماد الدين خليل - ط مؤسسة
الرسالة - بيروت.

المدخل إلى التفسير الموضوعي: عبد الستار سعيد - ط دار الطباعة والنشر
الإسلامية.

المدخل إلى القرآن الكريم: الدكتور محمد عبد الله دراز - ط دار القلم - دمشق.

مذهب النشوء والارتقاء في مواجهة الدين: منيرة علي الغاياتي ط مكتبة وهبة -
القاهرة.

مع الطب في القرآن الكريم: الدكتور ناظم نسيمي: دكتور عبد الحميد دياب -
دكتور أحمد قرقوز. ط مؤسسة علوم القرآن - دمشق.

مع القرآن في عالمه الرحيب: الدكتور عماد الدين خليل - ط دار العلم للملايين .
مع القرآن في الكون: الدكتور محمد جمال الدين الفندي - ط الهيئة المصرية
للكتاب .

معالم التنزيل - البغوي - ط دار المعرفة - بيروت .
معالم القرآن في عوالم الأكوان: الشيخ أحمد محيي الدين المعجوز - ط دار الندوة
الجديدة - بيروت .

معاني القرآن: للقراء - ط عالم الكتب - بيروت .
معتك الأقران في إعجاز القرآن: للسيوطي - ط دار الفكر العربي - القاهرة .
معجزات في الطب للنبي ﷺ: للطبيب محمد سعيد السيوطي ط مؤسسة الرسالة .
المعجزة القرآنية - الإعجاز العلمي الغيبي: الدكتور محمد حسن هيتو - ط مؤسسة
الرسالة - بيروت .

المعجم الموضوعي لآيات القرآن الكريم: صبحي عبد الرؤوف عصر - ط دار
الفضيلة القاهرة .

مفاتيح الغيب: التفسير الكبير: للرازي ط دار الكتب العلمية - بيروت .
مقدمة في أصول التفسير: لشيخ الإسلام ابن تيمية - ط دار القرآن - القاهرة .
من إعجاز القرآن: وليس الذكر كالأنثى: محمد عثمان الخشة - ط مكتبة القرآن -
القاهرة .

من روائع الإعجاز في القرآن الكريم: الدكتور محمد جمال الدين الفندي - ط
المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية - القاهرة .
من علم الطب القرآني الثوابت العلمية في القرآن الكريم: الدكتور عدنان الشريف .
ط دار العلم للملايين .

من علم الفلك القرآني الثوابت العلمية في القرآن الكريم: الدكتور عدنان الشريف
- دار العلم للملايين - بيروت .

من علم النفس القرآني: الدكتور عدنان الشريف - ط دار العلم للملايين -
بيروت .

مناهل العرفان في علوم القرآن: للزرقاني - ط مصطفى الحلبي - القاهرة .
مناهج أهل السنة في تفسير القرآن: الدكتور صبري المتولي - ط دار الثقافة -

القاهرة.

منهج القرآن في الدعوة إلى الإيمان: الدكتور علي بن محمد ناصر الفقيهي - ط . .
منهج القرآن في الدعوة إلى التوحيد: أحمد محمد رحومة ط جمعية الدعوة
الإسلامية - ليبيا.

منهج المدرسة العقلية الحديثة في التفسير: الدكتور فهد عبد الله بن سليمان
الرومي - ط مؤسسة الرسالة - بيروت.

موسوعة أخلاق القرآن: للشرباهي - ط دار الرائد العربي - بيروت.

النبا العظيم: الدكتور محمد عبد الله دراز ط دار القلم - الكويت.

النبوات: لشيخ الإسلام ابن تيمية - ط دار الفكر - بيروت.

النظم الفني في القرآن: عبد المتعال الصعيدي - ط مكتبة الآداب - القاهرة.

نقض مطاعن في القرآن الكريم: محمد أحمد عرفة - ط مكتبة الزهراء - القاهرة.

هكذا عرفت ربّي: الدكتور عبد الكريم دهنية - ط المكتب الثقافي - القاهرة.

واقعنا المعاصر: محمد قطب - ط مؤسسة المدينة - المملكة العربية السعودية.

الوحدة الموضوعية في القرآن الكريم: الدكتور محمد محمود حجازي - ط دار

الكتب الحديثة - القاهرة.

وهناك بعض المراجع يُشار إليها في تعليقات الكتاب.

الفهرس العام للكتاب

- ٥- المقدمة: هذه أبحاث من هدى الفرقان لتمييز الحق عن الباطل.
- ٨- أبحاث هذا الكتاب . . . بفصوله السبعة وأبحاثه الواحد والثمانين.
- ٩- القراءة في القرآن والفرقان . .
- ١٩- القرآن العظيم ذلك الكتاب لارِبِّ فيه . . .
- ٢٢- الإسلام خاتم الأديان الباقي على الدوام . .
- ٢٢- التوحيد . . توحيد الألوهية . . وتوحيد الربوبية . .
- ٢٣- توحيد الأنبياء هو توحيد القرآن . . الإسلام يقوم على التوحيد . .
- ٢٤- الإسلام دين البشر جميعاً يجمع بين العقيدة والشرعية . .
- ٢٤- أبرز دلائل عالمية الإسلام واستحقاقه للبقاء والانتشار . .
- ٢٥- الإسلام والعلم الحديث . . دعوة القرآن إلى النظر في الكون . .
- ٢٥- نظام الاقتصاد في الإسلام . .
- ٢٥- معالم علاقة الرجل بالمرأة . .
- ٢٦- الرقابة على أفراد المجتمع لأحكام الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر . .
- ٢٦- أجر العمل عند الله تعالى . .
- ٢٦- الإسلام يُولي الفطرة رعايةً فائقةً . .
- ٢٧- الإسلام أعطى المرأة حقَّ المساواة وحقَّ التعامل . .
- ٢٧- الإسلام يصنع من المرأة حصناً للإنسان من المهد إلى اللحد . .
- ٢٧- حقوق الجوار في الإسلام . . .
- ٢٧- الإنسان في الإسلام سيّد لا يذلّ لغير الله تعالى . .
- ٢٨- إقرار الإسلام لعواطف الإنسان . .
- ٢٨- حمى الإسلام الثروات من الهدر والتفريط . .
- ٢٨- دورة المال في الإسلام بين الناس . .
- ٢٨- الحرب في الإسلام آخر الاعتبارات في الدعوة إلى توحيد الله . .
- ٢٨- منهج الحياة في الإسلام متكامل . . ذو نظام . .
- ٢٩- الأخلاق في الإسلام على أساس التقوى . .
- ٢٩- الإسلام يُحمّل رعاياه مسؤولية رعاية أحكامه ونشر دعوته . .

- ٢٩- العلم في الإسلام .. في القرآن ٨٧٠ آية عن العلم ..
- ٣٠- دعوة الإسلام إلى السيطرة على الحياة وإلى تملك مواردها ..
- ٣٠- نبوغ العلماء في الإسلام: في الطب والفلك والكيمياء والصيدلة والملاحة والرياضيات والجبر والهندسة، وفي الصناعات ..
- ٣٠- أثر العلماء المسلمين في علم الطب والتشريح ووظائف الأعضاء ..
- ٣١- تحقيق علماء الإسلام التقدم في الاكتشافات والمخترعات ..
- ٣٢- العلماء الذين برزوا في التقدم العلمي في الإسلام ..
- ٣٢- أثر علماء الإسلام في التقدم العلمي الحديث ..
- ٣٣- تكريم الإسلام للعلم والعلماء ..
- ٣٣- شهادة علماء أوربيين بفضل علماء الإسلام ..
- ٣٤- الإسلام ودعوى التطور .. نشأة فكرة التطور ..
- ٣٥- أثر فلسفة التطور على الإنسانية والأخلاق والتاريخ ..
- ٣٥- مذهب الدكتور محمد شحرور في «الكتاب والقرآن والقراءة قراءة معاصرة» ..
- ٣٥- قانون التطور والثبات في الموجودات لايعارضه الإسلام ..
- ٣٦- ثوابت الإسلام لا تتغير ولا تبدل .. فالعقيدة ثوابت .. والشرعية ثوابت ..
- ٣٦- أحكام الضرورة ثابتة لمعالجة القضايا الطارئة ..
- ٣٦- خطر المفهوم الفلسفي على الفكر البشري ..
- ٣٧- الترويج لمذهب التطور الفلسفي تشغيب على الإسلام ..
- ٣٧- بطلان نظرية التطور والإرتقاء التي دعا إليها دارون ..
- ٣٧- نظرية التطور والإرتقاء قامت بدون براهين ..
- ٣٨- نظرية التطور والإرتقاء نظرية إغريقية ..
- ٣٨- النظرية الخرافية التي دعا إليها الدكتور محمد شحرور في تطور الإنسان ..
- ٣٩- نظرية «الشحرور» مزيج من الفلسفة الإغريقية والهندية والداروينية ..
- ٤٠- فشل أصحاب نظرية التطور في العثور على دلائل لها ..
- ٤١- الحلقة المفقودة في نظرية التطور الداروينية يجدها الدكتور شحرور في عالم الوهم والخيال ..
- ٤١- فشل النشويون في إثبات انحياز الإنسان عن القرد ..
- ٤٢- نظرية تطور الإنسان عن قرد محض خرافة ..
- ٤٢- نظرية التطور والإرتقاء تنقضها شهادة الصخور ..
- ٤٣- الجيولوجيا تنقض نظرية التطور .. والصفات الوراثية تنقضها أيضاً ..

- ٤٣- نظرية الاختيار الطبيعي لداروين عديمة الفائدة ..
- ٤٥- آدم وحواء هما الأنوان للبشر جميعاً، ونظرية التطور تُكذَّب بهذه الحقيقة ..
- ٤٥- نظرية تطوّر اللّغة لا تقدم دليلاً واحداً يؤيّدُها ..
- ٤٦- بطلان نظرية الدكتور شحورر في كون البشر حيوانات ثم استأنست ..
- ٤٦- القرآن يثبت أن البشر ليسوا حيوانات وإنما أصلهم من آدم الأب الأوّل للبشر ..
- ٤٧- تميّز الإنسان عن سائر المخلوقات بالصفات الوراثية والمكتسبة ..
- ٤٨- الأصالة والمعاصرة ..
- ٤٨- تعرّض المسلم المعاصر لخطر مواجهة فقدان الأصالة في الفكر والمنهج ..
- ٤٨- المعاصرة المحرّفة يمثلها الدكتور شحورر في أوهامه وتخيّلاته الجدلية ..
- ٤٩- التحريفات التي جاء بها «شحورر» .. ونظرته للسنة النبوية نظرة استشراقي جامدة ..
- ٥٠- الأصالة هي المنطلق للمعاصرة، وبدون الأصالة تُفقد المعاصرة إلى الإنحلال ..
- ٥٠- مفهوم الأصالة عند المسلمين مغاير لمفهوم الأصالة عند الغربيين ..
- ٥١- علماء الإسلام قدّموا الإسلام حياً لامتياً ..
- ٥١- التراث الإسلامي فكراً حيّ ..
- ٥٢- العلوم الإسلامية ذات أصالة وثوابت ..
- ٥٢- ضلال المنحرفين في تفسير إشارات القرآن تفسيراً محرّفاً ..
- ٥٢- في كتاب الدكتور شحورر أكثر من ثلاثة آلاف أغلوطة شرعية ولغوية وعلمية ..
- ٥٣- الإسلام أمانة في أعناق الأجيال الصاعدة ..
- ٥٤- الثوابت والمتغيّرات في دائرة العلوم الإسلامية ..
- ٥٤- الثوابت في الإسلام القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة ..
- ٥٥- الأحكام الشرعية وحدودها ثوابت لا تتغيّر ولا تبدّل ..
- ٥٥- المتغيّرات من الأحكام الشرعية هي أحكام للمضطرين تدور مع مصلحتهم ..
- ٥٦- الثبات أساس هام في الإسلام .. وقاعدة راسخة في عقيدته وشرعيته ..
- ٥٦- نظرة الغرب إلى ديانته نظرة مقت .. وهي تتمثل في نظريات فلاسفتهم ..
- ٥٧- إن معايير الحقّ لن تكون باطلاً .. ومعايير الخير لن تكون شراً ..
- ٥٧- منهج الجدل يُسبغ تحول المعايير تحولاً نظرياً ..
- ٥٧- الثوابت القرآنية هي التي فتحت العقل البشري إلى اكتناه آفاق الكون ..
- ٥٨- لا يوجد في الإسلام صراع بين الدّين والعلم ..
- ٥٨- الفلسفة لا تواكب العلم الحديث ..

٥٩- بعض حملة الشهادات العلمية العالية في الهندسة غارق في أوهام نظريات خرافية بالية..

٥٩- نظرية التطور قامت على عدد ضخم من الفروض والتخمينات ..

٥٩- محاولة فاشلة في إبطال السّنة النبوية في نظرية شحورر ..

٦٠- حجية السّنة النبوية في القرآن الكريم .. لها الديمومية معه أبداً ..

٦١- السّنة النبوية المصدر الثاني في التشريع الإسلامي، وليست التفاعل الأول للإسلام في شبه جزيرة العرب في القرن السابع ..

٦٢- الكتاب والسّنة هما الأصل لشرع الله تعالى ..

٦٢- ليس لمسلم أن يخالف الكتاب والسّنة ..

٦٣- التحذير من خطورة القراءة المعاصرة على منهج الصراع الجدلي الفلسفي ..

٦٣- لو أتيح للمتغيرات أن تطغى على الثوابت لأمكن تغيير الحقائق ..

٦٤- القراءة المعاصرة في «الكتاب والقرآن» حوت على آلاف الأغاليط ..

٦٤- الجدل والمراء في القرآن حرام .. وكفر .. وضلال ..

٦٤- كتاب الدكتور شحورر أحدث قلقاً عميقاً لدى عامة المثقفين ..

٦٤- مجلة نهج الإسلام التي تصدرها وزارة الأوقاف تكشف النقاب عن الخلفية اليهودية لشعار «القراءة المعاصرة» ..

٦٥- المنهج الذي قامت عليه القراءة المعاصرة منهج جدلي ممقوت ..

٦٥- صاحب القراءة المعاصرة يمنح «داروين وهيجل وكانث وفرويد» لقب الراسخين علم؟! ..

٦٦- مزاعن يجب تفنيدها ..

٦٧- المنطق الجدلي لا يُطبق على الشريعة الإسلامية ..

٦٧- لزوم الرّد على المبطلين لقمع باطلهم ..

٦٧- السكوت عن أهل الباطل ذلٌّ ومهانة ..

٦٨- لا يُجاب المبطل بعد قيام الدليل إلى دليل غيره ..

٦٨- علم أصول الفقة أغنى العقل البشري بضوابط الاستدال ..

٦٨- أصول الفقة أم العلوم الشرعية ..

٦٩- أبحاث كتاب القراءة المعاصرة قامت على غير منهج إسلامي ..

٦٩- حقائق القرآن لا تدرك بأوهام الفلسفية ..

٧٠- ملاحظة هامة: يجب التنبيه إلى الحذر من كتاب «شحورر» ..

٧١- قراءة أصولية للمنهج الجدلي الفلسفي، لكشف عواره ..

- ٧٢- من عارض القرآن وجادل فيه ضلّ ضللاً كبيراً .
 ٧٤- الجدلي المُغالط في تفسير القرآن كالجدلي من الجهمية الضالين . .
 ٧٥- المنهج العلمي في تفسير آيات الكون والحياة . .
 ٧٦- تأكيد القرآن على أسلوب البرهان والحجة والجدال الحسن للوصول إلى الحق . .
 ٧٩- كل آية كونية تدعو إلى ربط المخلوقات بفاعلية الله تعالى . .
 ٨٠- واجب المفسّر المعاصر . .

المدخل العام

إلى خصائص القرآن العظيم

٨٧- خصائص القرآن العظيم: إعجازه العظيم!! . .

٨٩- وقوع التحدي بالقرآن العظيم . .

٩١- لغة القرآن البليغة . .

٩٢- نظم القرآن المحكم وأسلوبه العذب أعجز العرب . .

٩٦- تأثير القرآن العظيم في نفوس المؤمنين . .

١٠٠- مظاهر تأثير القرآن في المسلمين . .

١٠٥- معارف القرآن العظيم الشاملة . .

١٠٧- وفاء القرآن العظيم بحاجات البشر . .

١١٠- تأييد القرآن العظيم للحقائق العلمية . .

١١١- سهولة فهم القرآن العظيم مع علوّ مطالبه . .

الفصل الأول

مكانة القرآن العظيم في فصاحته وبلاغته وإعجازه وعظمته

١١٥- التمهيد: وجوب إدراك وجوه إعجاز القرآن العظيم . .

١١٧- وجوب الاهتمام بوجوه الإعجاز . .

١٢٣- البحث الأول فصاحة القرآن العظيم وبلاغته . .

١٢٣- تعريف الفصاحة والبلاغة . .

١٢٤- أمثلة على بعض الفنون البلاغية . .

١٣١- الإعجاز القرآني العظيم: القرآن بيان ومعجزة . .

١٣٧- بداية القول بعدم الإعجاز . .

١٤١- محاولة التشكيك في إعجاز القرآن . .

١٤١- عبث صاحب القراءة المعاصرة في دعواه إمكان وجود قرآن أعجمي . .

١٤٢- البحث الثاني: وجوه إعجاز القرآن العظيم . .

- ١٤٢- جهود العلماء الأقدمين في بيان وجوه الإعجاز ..
- ١٤٤- تفرّد القرآن بطريقة بيانية غير طريقة العرب ..
- ١٤٥- جمع القرآن لمراتب البيان في أسلوب واحد ..
- ١٤٥- روعته في القلوب ..
- ١٤٦- ما وراء التكرار في القرآن ..
- ١٥٠- القرآن وتيرة واحدة ..
- ١٥١- العنصر العالمي في إعجاز القرآن ..
- ١٥٧- البحث الثالث: إعجاز النظم القرآني جزأته وتناسقه ..
- ١٥٨- التناسق بين العبارة والموضوع الذي يُراد تقريره في القرآن ..
- ١٦٠- تناسق الحروف مع تناسق الكلمات والآيات ..
- ١٦٤- البحث الرابع: إعجاز الأسلوب القرآني الفريد ..
- ١٦٤- من ميزات الأسلوب القرآني: المرونة والمطاوعة في التأويل ..
- ١٦٥- اعتماد الأسلوب القرآني الطريقة التصويرية في التعبير ..
- ١٦٩- طريقة الأسلوب القرآني المتميّز في المحاجة والاستدلال ..
- ١٧٤- البحث الخامس: عظمة القرآن ووحدته الموضوعية ..
- ١٧٥- عظمة القرآن نابعة منه فهو لا يستجدي الشعوب أن يتبعوه .. بل يقرعهم بالحجة بالبرهان ..
- ١٧٦- القرآن دستور حضاري للأمة كلّها ..
- ١٧٧- لا تُساق الشعوب إلى القرآن بالعصا وإنما بالإيمان ..
- ١٧٩- عظمة القرآن في شهادة أعدائه له بأنه ليعلو ولا يُعلَى عليه ..
- ١٨٠- عظمة القرآن أنه المعجزة الباقية على مدى الدهر ..
- ١٨١- البحث السادس: إعجاز القرآن في إيقاظ العقل البشري وتحريره من الضلال ..
- ١٨٢- حوار القرآن مع العقل ..
- ١٨٥- ملامح إيقاظ العقل في قصة إبراهيم مع قومه ..
- ١٨٩- صور بارعة من الحوار العقلي في قصة إبراهيم عليه السلام ..
- ١٩٢- الإنكار على صورة التحريف في القراءة المعاصرة في رسم المنهج العقلي في القرآن على أساس فلسفي جدلي ..
- ١٩٣- البحث السابع: أسلوب التحدي في القرآن العظيم لإثبات الوحدانية لله تعالى صدق النبوة ..
- ١٩٧- وجوه إعجاز القرآن ..
- ١٩٩- النبي الأمي ﷺ لا يقرأ ولا يكتب فمن أين أتى بهذه العلوم؟ ..

- ٢٠٠- تحرير العرب فيما سمعت من كلام يتلوه عليهم رجل منهم! ..
- ٢٠١- الوليد .. وصاعقة عاد وثمود! ..
- ٢٠٢- تابع وجوه الإعجاز ..
- ٢٠٦- المعجزات السابقة والقرآن .. معجزات موسى وعيسى ..
- ٢٠٨- المعجزات والأخذ بالأسباب ..
- ٢١٢- البحث الثامن: الإعجاز التشريعي للقرآن العظيم ..
- ٢١٤- العقيدة في القرآن ..
- ٢١٧- وصف منكري البعث يوم القيامة ..
- ٢١٨- أسس التشريعات في القرآن الكريم ..
- ٢٢١- الأسرة ومكانتها في القرآن باعتبارها اللبنة الأولى في بناء الأمة ..
- ٢٢٢- الدولة والحكومة في القرآن .. الشورى .. العدل بين الرعية ..
- ٢٢٣- التكافل الاجتماعي ..
- ٢٢٥- الأسس التي بُنيت عليها علاقات الدولة الإسلامية بغيرها ..
- ٢٢٧- الأخلاق في القرآن ..
- ٢٣٣- وجه دلالة الإعجاز التشريعي على مصدر القرآن الكريم ..
- ٢٣٥- البحث التاسع: الإعجاز الغيبي في القرآن العظيم ..
- ٢٣٥- غيب الماضي إعجازاً ..
- ٢٣٨- غيب الحاضر [في عهد النبوة] ..
- ٢٣٩- مجاء في شأن اليهود ..
- ٢٤٠- ماورد في شأن المنافقين ..
- ٢٤٣- غيب المستقبل إلى قيام الساعة ..
- ٢٤٦- وجه دلالة الغيب على مصدر القرآن الكريم ..
- ٢٤٧- خاتمة البحث: القرآن معجزة الرسالة الخالدة! ..

الفصل الثاني

المنهج القرآني الفريد في عرض العقيدة وإثبات التوحيد

- ٢٥١- البحث الأول: منهج القرآن الكريم في منهج العقيدة: منهج للتفكير ودعوة للتدبر ..
- ٢٥٥- البحث الثاني: أهمية عقيدة التوحيد في الدين والحياة ..
- ٢٥٥- صحة الاعتقاد شرط في قبول الأعمال ..
- ٢٥٥- العقيدة وتكوين الشخصية الإسلامية ..
- ٢٥٦- العقيدة صانعة الرجال في كل زمان ومكان ..

- ٢٦١- البحث الثالث: أثر عقيدة التوحيد في حياة الإنسان ..
- ٢٦٢- الفرق بين عقيدة التوحيد والعقائد الباطلة ..
- ٢٦٤- الأسلوب الميسر في عرض العقيدة الإسلامية ..
- ٢٦٢- الإنسان مخلوق متدين، ومنهج توجيه فطرته ..
- ٢٦٦- تجارب الحياة تأخذ بيد الإنسان إلى الإيمان ..
- ٢٦٨- دعاء المضطر دليل الإيمان في الفطرة ..
- ٢٧٠- الدعاء هو العبادة ..
- ٢٧٣- التوسل والوسيلة ..
- ٢٧٤- معنى الوسيلة في الشرع والعرف ..
- ٢٧٧- البحث الخامس: فهم الإسلام عقيدة وشرعة ..
- ٢٧٨- منهج الرسل في عرض العقيدة ..
- ٢٨٣- قضية الإنسان هي قضية العقيدة ..
- ٢٨٣- الحقائق الأساسية هي: الإيمان بالغيب ..
- ٢٨٤- خطر ضلالات القراءة المعاصرة في كتاب «شعور» ..
- ٢٨٦- البحث السادس: أمثال القرآن ..
- ٢٨٧- تعريف الأمثال ..
- ٢٩٢- أنواع الأمثال في القرآن ..
- ٢٩٢- فوائد الأمثال ..
- ٢٩٤- ضرب الأمثال بالقرآن ..
- ٢٩٥- خروج صاحب القراءة المعاصرة عن القواعد الجليّة ..
- ٢٩٦- البحث السابع: أقسام القرآن ..
- ٢٩٧- فائدة القسم في القرآن ..
- ٢٩٩- أنواع المقسم .. وأحوال المقسم عليه ..
- ٣٠١- القسم والشرط ..
- ٣٠٤- البحث الثامن: جدل القرآن .. تعريف الجدل ..
- ٣٠٥- طريقة القرآن في المناظرة ..
- ٣٠٧- أنواع من مناظرات القرآن وأدلتها ..
- ٣٠٩- الجدل الذي قامت عليه القراءة المعاصرة جدل مادي ..
- ٣١١- البحث التاسع: قصص القرآن .. معنى القصص ..
- ٣١٢- أنواع القصص في القرآن .. فوائد القصص ..

- ٣١٣- تكرار القصص وحكمته ..
 ٣١٣- القصة في القرآن حقيقة لاخيال ..
 ٣١٥- أثر القصص القرآني في التربية والتهديب ..
 ٣١٦- تحريف معنى القصص القرآني في القراءة المعاصرة لشحورر ..

الفصل الثالث

تاريخ تفسير القرآن العظيم في مراحلہ الأولى ومنهج الصحابة فيه

- ٣١٩- المدخل إلى أبحاث هذا الفصل: بيان القرآن الكريم في صدر الإسلام ..
 ٣٢٣- أهمية التفسير وحاجة المسلمين إليه ..
 ٣٢٨- حاجة الأمة اليوم إلى التفسير والمفسرين ..
 ٣٣٠- البحث الأول: تاريخ مراحل تفسير السلف ..
 ٣٣٠- هل فسّر الرسول ﷺ القرآن كله؟
 ٣٣١- كيفية التفسير في عهد النبي ﷺ ..
 ٣٣٢- ميّزة التفسير في عهد النبي ﷺ ..
 ٣٣٣- التفسير في عهد الصحابة رضي الله عنهم ..
 ٣٣٥- مصادر التفسير في عصر الصحابة رضي الله عنهم ..
 ٣٣٦- تفسير القرآن بالسنة ..
 ٣٣٧- السّنة العملية هي حياة الرسول ﷺ ..
 ٣٣٨- الرأي: «والاجتهاد في التفسير» ..
 ٣٣٩- حكم تفسير الصحابي ..
 ٣٤٠- ميّزات التفسير في عهد الصحابة ..
 ٣٤٠- التفسير في عهد التابعين ..
 ٣٤١- مدرسة مكة المكرمة .. وأشهر تلاميذ ابن عباس ..
 ٣٤٥- مدرسة التفسير بالعراق .. وأشهر من فيها ..
 ٣٤٦- حكم تفسير التابعي ..
 ٣٤٧- مصادر التفسير في عهد التابعين .. ومزايا تفسير التابعين ..
 ٣٤٩- تنكّر صاحب القراءة المعاصرة لعلماء هذه الأمة قاطبة ..
 ٣٥٠- البحث الثاني: القرآن الكريم وتهيّب الصحابة في تفسيره ..
 ٣٥٣- البحث الثاني: مصادر تفسير الصحابة للقرآن ..
 ٣٥٧- تنكّر صاحب القراءة المعاصرة لمنهج السلف ..
 ٣٥٨- البحث الرابع: التفسير والصحابة والمفسرون ..

٣٦١- زعم صاحب القراءة المعاصرة في إبطال السنة النبوية ..
٣٦٣- البحث الخامس: منهج ابن عباس في التفسير أنموذج من منهج السلف في التفسير ..

٣٦٧- منهج الصحابة والتابعين في تفسير القرآن منهج علمي رصين ..
الفصل الرابع:

مراحل التفسير العلمي والموضوعي للقرآن العظيم

- ٣٧١- البحث الأول: أثر القرآن العظيم في العلوم الكونية ..
٣٧٨- فساد الطريقة الجدلية التي قامت عليها القراءة المعاصرة ..
٣٨٠- البحث الثاني: دعوة القرآن الكريم إلى التفكير في الأنفس والآفاق ..
٣٨٢- تساؤل عن السموات والأرض ..
٣٨٥- صفحات من آيات الكون ..
٣٨٦- المنهج الإيماني لا يتقص شيئاً من ثمار المنهج العلمي ..
٣٨٨- آيات الأنفس والآفاق صنوان ..
٣٩٢- من غرائب هذا الكون ..
٣٩٣- حقيقة لامفرّ منها في دلائل قدرة الله ووحدانيته ..
٣٩٨- البحث الثالث: التفسير العلمي للقرآن بين المنهج القديم والمنهج الحديث ..
٣٩٨- الرازي والتفسير العلمي ..
٤٠٣- موقف ابن أبي الفضل المرسي من التفسير العلمي ..
٤٠٨- السيوطي والتفسير العلمي ..
٤١٠- القائلون بالتفسير العلمي في العصر الحديث ..
٤١٠- الشيخ محمد عبده والتفسير العلمي ..
٤١٢- انتقاد العلماء لبعض تفسير الشيخ محمد عبده ..
٤١٥- الشيخ طنطاوي جوهرى وتصديقه بدعوى تحضير الأرواح ..
٤١٩- التفسير العلمي للآيات الكونية لحنفي أحمد ..
٤٢٧- الأستاذ عبد الرزاق نوفل والتفسير العلمي ..
٤٣٠- التفسير العلمي للقرآن بثواب العلوم ..
٤٣١- نماذج من التفسير العلمي للآيات الكونية ..
٤٤١- الميتة والدم ولحم الخنزير وحكم تحريمها ..
٤٤٤- الخمر وحكمة تحريمها علمياً ..
٤٤٦- المحيض وحكمة النهي عن القرب فيه ..

- ٤٤٩- الظواهر الطبيعية في آثار الله تعالى .. آيات الرياح ..
- ٤٥٠- آيات السحاب والأمطار ..
- ٤٥٣- البحث الرابع: التفسير العلمي في رحاب إعجاز القرآن العلمي «الإعجاز العلمي في القرآن العظيم» ..
- ٤٥٣- تمهيد بين يدي البحث في الآيات الكونية ..
- ٤٥٥- ضوابط التفسير العلمي للقرآن العظيم ..
- ٤٥٦- الحقائق العلمية مناهج الاستلال ..
- ٤٥٧- استحالة التصادم بين الحقائق القرآنية والحقائق الكونية ..
- ٤٥٧- اتباع المنهج القرآني في طلب المعرفة ..
- ٤٥٨- تفسير آيات بدء الكون ..
- ٤٦٣- تفسير آيات خلق السموات والفضاء والأرض ..
- ٤٦٥- تفسير آيات خلق الأرض ومآلها من خصائص ..
- ٤٦٦- خصائص الكرة الأرضية ..
- ٤٦٩- تفسير آيات خلق الشمس والقمر ..
- ٤٧١- تفسير آيات النجوم والكواكب ..
- ٤٧٤- تفسير آيات الجبال ..
- ٤٧٥- تفسير آيات البحار ..
- ٤٧٨- تفسير آيات الظواهر الجوية: الرياح والسحب والمطر والرعد والبرق ..
- ٤٨١- تفسير آيات خلق الحيوان ..
- ٤٨٧- الإنسان سيد المخلوقات في الأرض ..
- ٤٨٨- تفسير آيات خلق الإنسان ..
- ٤٨٩- النشأة الجنينية في الرحم ..
- ٤٨٣- مرحلة النطفة: مرحلة العلقة ..
- ٤٩٤- مرحلة المضغة «الأسبوع الرابع» ..
- ٤٩٤- مرحلة العظام واللحم ..
- ٤٩٥- ثم أنشأناه خلقاً آخر ..
- ٤٩٦- تفسير آية تسوية البكأن «البصمات» ..
- ٤٩٨- تفسير آية الضغط الجوي ..
- ٥٠٠- الجلود وشبكة الإحساس العصبي ..
- ٥٠١- الإشارات القرآنية عن بديع صنع الخالق ..
- ٥٠١- وجه الإعجاز العلمي في القرآن العظيم ..

- ٥٠٢- البحث الخامس: الآيات الكونية في القرآن العظيم ..
- ٥٠٢- الله خالق السموات والأرض ..
- ٥٠٧- الله خالق الكواكب والشهب ..
- ٥٠٨- الله خالق الليل والنهار ..
- ٥١٠- الله مصرف ومرسل الريح ..
- ٥١١- تسخير الرياح لتسيير السفن ..
- ٥١١- تسخير الرياح لتلقيح الأشجار ..
- ٥١١- تسخير السحاب بقدرة الله تعالى ..
- ٥٠٥- الله مسخر البحار والأنهار ..
- ٥٠٧- الله منشيء السحاب ومسخره ..
- ٥٠٧- الله خالق الحب والنوى .. ومخرج الثمرات والنبات ..
- ٥١٨- الله خالق الطير أمما .. وخالق كل دابة ..
- ٥١٨- الأنعام ..
- ٥١٩- الخيل والبغال والحمير ..
- ٥٢٠- النحل ..
- ٥٢٠- الله خالق الإنسان ..
- ٥٢٣- العلم والعلماء ..
- ٥٢٣- استجباب الرحلة في طلب العلم ..
- ٥٢٤- درجات العلماء .. وجوب الاسترشاد بالعلماء ..
- ٥٢٤- مشروعية الاستنباط .. الوعظ والإرشاد ..
- ٥٢٥- من كتم علماً الحث على العلم - المناظرة في العلم - النهي عن المجادلة بغير علم - المجادلة بالباطل ذم الجدل والمراء - عدد السنين والحساب ..
- ٥٢٨- البحث السادس: التعريف بالتفسير الموضوعي ..
- ٥٣٢- البحث السابع: نشأة التفسير الموضوعي للقرآن ..
- ٥٣٩- البحث الثامن: التفسير الموضوعي بين الماضي والحاضر ..
- ٥٤٠- مناسبة نزول الآية الكريمة ..
- ٥٤٢- الكتب المؤلفة في النسخ والمنسوخ ..
- ٥٤٢- كتب معاني القرآن - مشكل القرآن - إعجاز القرآن ..
- ٥٤٣- تناسب الآيات ..
- ٥٤٣- خير طرق التفسير ..
- ٥٤٥- التفسير الموضوعي في العصر الحديث ..

- ٥٤٦- في ظلال القرآن..
- ٥٤٩- البحث التاسع: ألوان التفسير الموضوعي للقرآن الكريم..
- ٥٥١- مفردات غريب القرآن..
- ٥٥٢- العرض والتحليل والمناقشة في التفسير الموضوعي..
- ٥٥٤- التفسير الموضوعي في لونه الثالث..

الفصل الخامس

تاريخ تفسير القرآن العظيم

- ٥٥٧- نبذة تاريخية عن نشوء علم التفسير وتطوره..
- ٥٦١- أول من جمع ودوّن السنّة النبوية..
- ٥٦٣- البحث الأول: أثر نشأة الفرق على مسيرة التفسير..
- ٥٦٥- تفسير الكشاف وابتعاده عن مقاصد القرآن..
- ٥٦٥- أصول المعتزلة..
- ٥٦٧- البحث الثاني: أثر العلوم الفلسفية على مسيرة التفسير..
- ٥٦٩- البحث الثالث: أثر الفلسفة الصوفية على مسيرة التفسير.. ورفض المناهج المنحرفة في تفسير الصوفية..
- ٥٧٢- البحث الثالث: أثر العلوم العقلية على مسيرة التفسير..
- ٥٧٣- مكانة تفسير الطبري بين التفاسير..
- ٥٧٨- البحث الخامس: أثر منهج الإمام الرازي في التفسير..
- ٥٨١- البحث السادس: أثر منهج الإمام الألوسي في التفسير..
- ٥٨٤- البحث السابع: تفسير المنار وبيان منهجه وما يؤخذ عليه..
- ٥٨٦- البحث الثامن: تفسير المراغي وبيان منهجه مع مناقشة بعض تفسيراته..
- ٥٩١- البحث التاسع: مناقشة علمية لتفسير الشيخ محمد عبده..
- ٥٩٦- البحث العاشر: الإعجاز العلمي ودلالته في تفسير القرآن الكريم..
- ٦٠٢- معنى الإعجاز العلمي في الإشارات القرآنية للحقائق الكونية..
- ٦٠٣- البحث الحادي عشر: الآيات الكونية في القرآن وسلطان العقل..
- ٦٠٥- أسلوب الآيات الكونية في القرآن..
- ٦٠٧- موقف العلماء من الآيات الكونية في القرآن..
- ٦٠٩- طريقة تفسير الآيات الكونية في القرآن..
- ٦١١- العقول الصحيحة لاتصادم آيات القرآن الكريم..

الفصل السادس

أثر شيخ الإسلام ابن تيمية في علم التفسير وأصوله
وفي الكشف عن الفلسفة

- ٦١٧- قواعد التفسير وأصوله .. الأصل الأول: تفسير النبي للقرآن ..
- ٦١٨- الأصل الثاني: بيان أن اختلاف السلف في التفسير اختلاف تنوع ..
- ٦٢٠- من أسباب الاختلاف تعدد أسباب النزول ..
- ٦٢١- معرفة سبب النزول يُعين على فهم الآية ..
- ٦٢٢- الاختلاف لاحتمال وجوه اللغة ..
- ٦٢٣- نوعي الاختلاف في التفسير .. من جهة النقل ..
- ٦٢٤- حكم الاخبار الإسرائيلية ..
- ٦٢٤- حكم أقوال الصحابة في التفسير ..
- ٦٢٥- التحذير من الأحاديث الموضوعة ..
- ٦٢٦- الخلاف الواقع في التفسير من جهة الاستدلال ..
- ٦٢٧- توحيد المعتزلة هو توحيد الجهمية ..
- ٦٢٨- ضلالات الفرق المنحرفة في التفسير ..
- ٦٣٠- حكم من عدل عن طريقة السلف ..
- ٦٣١- الأصل الثالث: أحسن طرق التفسير ..
- ٦٣٣- التفسير بأقوال التابعين ..
- ٦٣٤- البحث الثاني: التأويل والتفسير .. التأويل عند السلف ..
- ٦٣٦- تأويل الأسماء والصفات «ممنوع» ..
- ٦٣٨- البحث الثالث: حكم تفسير القرآن بالرأي ..
- ٦٣٩- حكم تفسير الباطنية ..
- ٦٤٠- تفسيرات الباطنية .. الباطنية الصوفية ..
- ٦٤١- باطنية الفلاسفة ..
- ٦٤٢- ابن سينا وإخوان الصفا .. الملاحدة شرٌّ من المنافقين ..
- ٦٤٤- البحث الرابع: حكم ترجمة معاني القرآن لغير العرب ..
- ٦٤٤- يشترط في المترجم أن يكون مسلماً ثقة ..
- ٦٤٥- الترجمة التفسيرية ثلاث طبقات ..
- ٦٤٧- البحث الخامس: أثر علم الكلام على بعض علماء الإسلام ..

- ٦٥٢- خطأ منهج المتكلمين ..
- ٦٥٨- البحث السادس: لمحات من تاريخ نقض مذاهب الفلاسفة والمنطقيين والمتكلمين بعد عهد الرازي ..
- ٦٥٩- ابن تيمية والفلسفة ..
- ٦٦٠- قضايا الفلاسفة الإلهية .. علم الفلاسفة في الدين ..
- ٦٦١- إثبات جهل الفلاسفة بالدين والشرع ..
- ٦٦٢- الفلاسفة الأقدمون عبّاد كواكب وأوثان ..
- ٦٦٣- فكرة الألوهية في الفلسفة اليونانية ..
- ٦٦٤- الفلاسفة المتسبون إلى الإسلام مقلّدة لليونان .. جهل ابن سينا بالنبوة ..
- ٦٦٥- أثر الفلاسفة على المتكلمين ..
- ٦٦٧- لا اعتماد على دلائل المتكلمين ..
- ٦٦٧- الاستدلال بحجج القرآن أقوى وأحق ..
- ٦٦٨- أثر نفي الصفات الإلهية على الحياة البشرية ..
- ٦٦٩- نقاة الصفات لم يكن دينهم اتباع الكتاب والسنة ..
- ٦٦٩- القرآن مصدر أصول الدين ..
- ٦٧٠- نظر أهل الكلام إلى منهج السلف ..
- ٦٧٢- أهل الكلام يُعظمون أئمة الاتحاد والحلول ..
- ٦٧٢- نقض المنطق اليوناني وهدم هيئته ..
- ٦٧٤- خطر تأثير المنطق على العقل وقوة البيان ..
- ٦٧٥- انحطاط العلوم العقلية من جراء علم المنطق ..

الفصل السابع:

أخطار المناهج المنحرفة في تفسير القرآن الكريم

- ٦٧٩- رعاية الله تعالى لكتابه سنّة ثابتة إلى الأبد ..
- ٦٨١- البحث الأول: الكشف عن الاتجاهات المنحرفة في التفسير ..
- ٦٨٥- نماذج من التأويل الباطني ..
- ٦٨٨- البحث الثاني: تطرّف المنهج الفلسفي في تفسير الآيات المتشابهات .. نشأة الانحراف ..
- ٦٩٣- البحث الثالث: انحراف المنهج الفلسفي الصوفي الباطني في التفسير ..

- ٦٩٤- أبرز تفسير للصوفية الباطنية ..
- ٦٩٥- رسائل إخوان الصفا ..
- ٦٩٦- انحرافات خطيرة في تفسير الصوفية المعاصرة .. وكتاب «رحمة من الرحمن» لمحمود غراب ..
- ٧٠١- تأويل جزء عمّ: نماذج من انحرافات ..
- ٧٠٧- البحث الرابع: انحراف أصحاب المدرسة العقلية الحديثة في تفسير القرآن الكريم ..
- ٧٠٨- جمال الدين الأفغاني .. بعض تفسيراته ..
- ٧٠٩- الشيخ محمد عبده .. وبعض تفسيراته ..
- ٧١٩- البحث الخامس: انحراف المتطرفين في التفسير العلمي للقرآن الكريم ..
- ٧٢٣- البحث السادس: انحراف مدّعي التجديد في التفسير ..
- ٧٢٨- البحث السابع: انحراف أصحاب القراءة المعاصرة للقرآن كما وردت فيما أسماه بـ «الكتاب والقرآن قراءة معاصرة».
- ٧٣٩- البحث الثامن: معالم الانحراف في فهم القرآن والإسلام .. أسباب الانحراف ..
- ٧٤٤- البحث التاسع: ماذا يعني التجديد في الإسلام؟
- ٧٤٦- مرونة الإسلام ذاتية لإضافية ..
- ٧٤٨- البحث العاشر: التجديد في الإسلام ضمن الثوابت العلمية والضوابط المنهجية ..
- ٧٤٨- العنصر الأساسي في التجديد .. الرجوع للكتاب والسنة.
- ٧٥١- البحث الحادي عشر: ثوابت العقيدة الإسلامية عصمة من كلّ ضلال ..
- ٧٥١- خطر الانحراف في فهم العقيدة ..
- ٧٥٣- المنهج الصحيح في فهم العقيدة ..
- ٧٥٧- المصادر والمراجع لأبحاث الكتاب ..
- ٩٦٧- الفهرس العام لأبحاث الكتاب ..